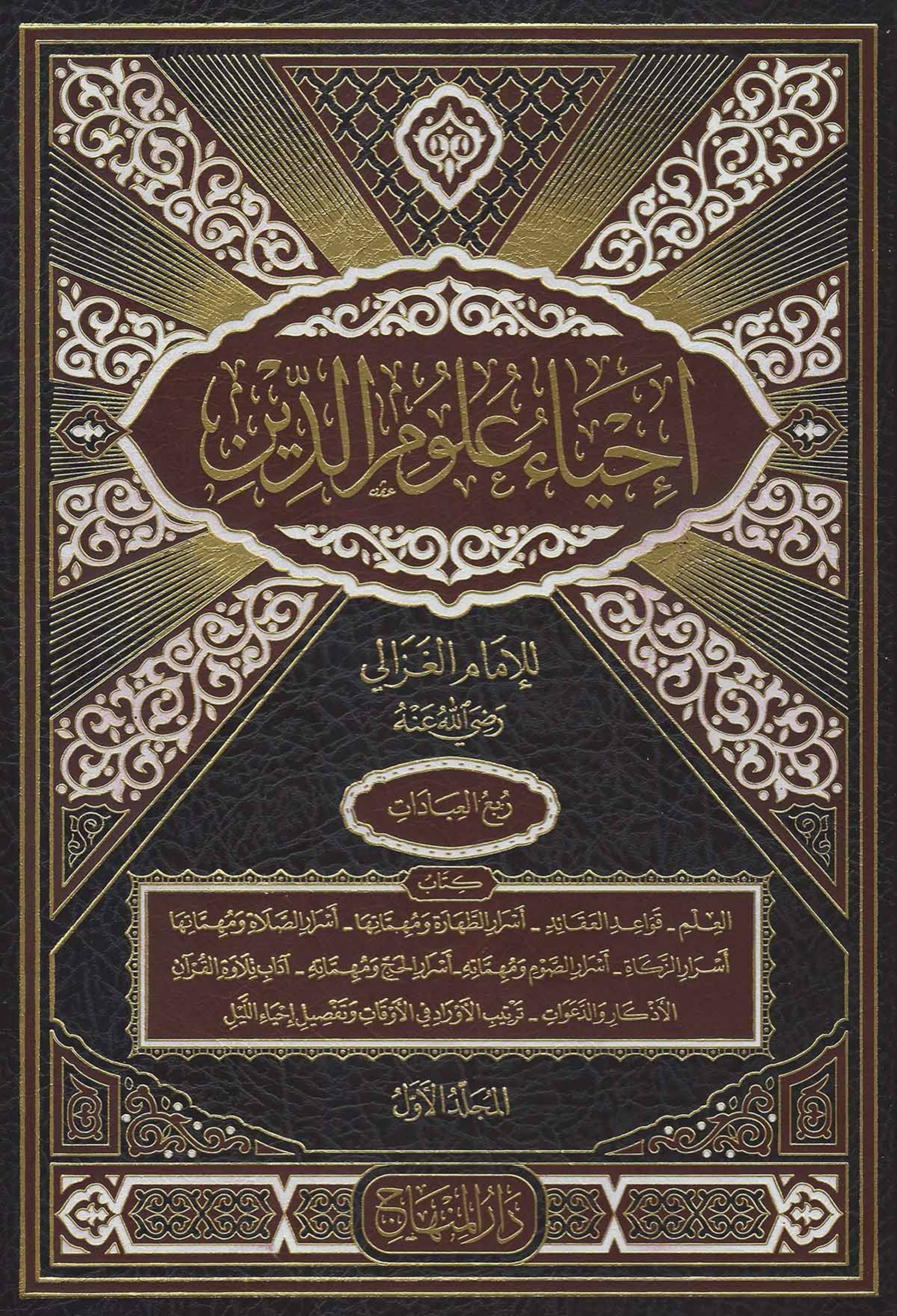
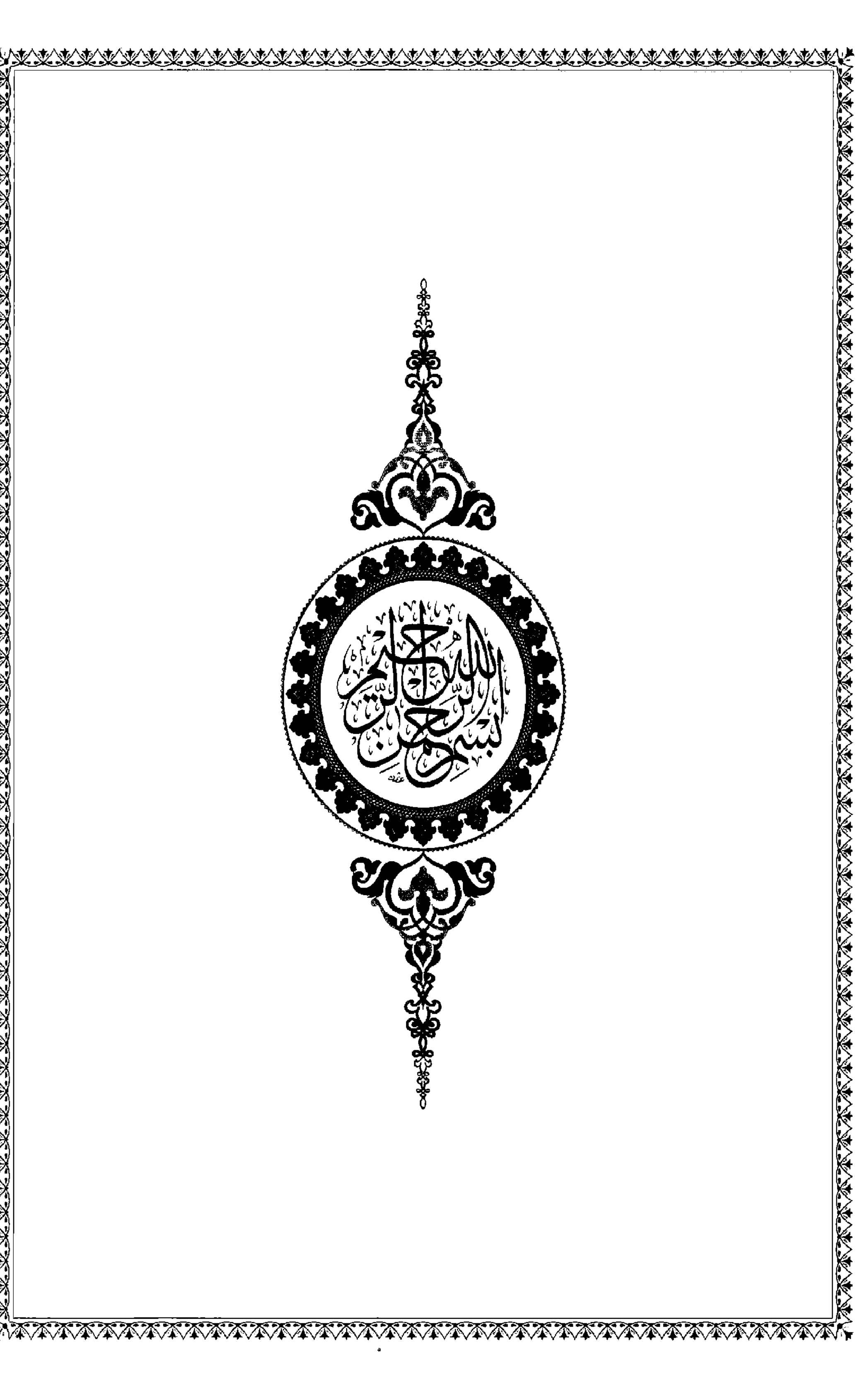


إحياء علوم الدين
للإمام الغزالي
رضي الله عنه
ربع العبادات
كتاب
العلم - قواعد العقائد - أسرار الطهارة ومهماتها - أسرار الصلاة ومهماتها
أسرار الزكاة - أسرار الصوم ومهماته - أسرار الحج ومهماته - آداب تلاوة القرآن
الأذكار والدعوات - ترتيب الأوراد في الأوقات وتفصيل إحياء الليل
المجلد الأول
دار المنهاج


بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

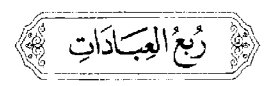
زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١م)



كتاب

العلم ـ قواعد العقائد ـ أسرار الطهارة ومهماتها ـ أسرار الصلاة ومهماتها

أسرار الزكاة ـ أسرار الصوم ومهماته ـ أسرار الحج ومهماته ـ آداب تلاوة القرآن

الأذكار والدعوات ـ ترتيب الأوراد في الأوقات وتفصيل إحياء الليل

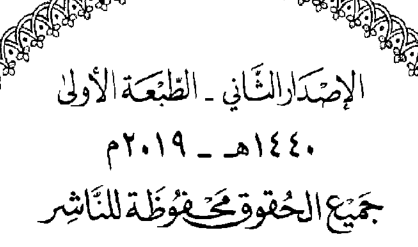
تشرف بخدمته والعناية به

تحقيقاً وضبطاً وتوثيقاً ومراجعة

اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي



دار المنهاج



الإصدار الثاني ـ الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م

اسم الكتاب : إحياء علوم الدين

المؤلف : الإمام محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)

موضوع الكتاب : أصول الدين

مقاس الكتاب : (٢٨ سم)

تصنيف ديوي الموضوعي : (٢١٤)

عدد المجلدات : (٤)

عدد الصفحات : (٣١٢٠ صفحة)

نوع الورق : شاموا فاخر

نوع التجليد : مجلَّد فني

عدد ألوان الطباعة : لونان

التصميم والإخراج : مركز المنهاج للصف والإخراج الفني



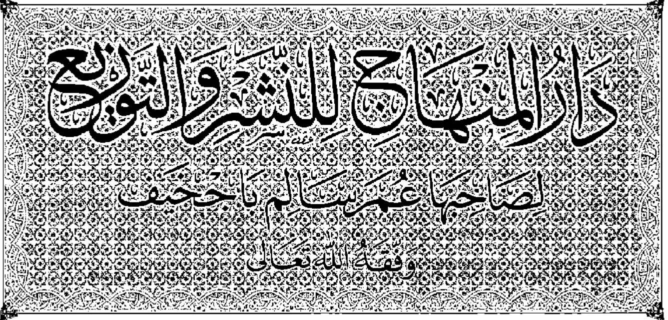
الرقم المعياري الدولي

ISBN: 978 - 9953 - 62 - 018 - 3



لبنان ـ بيروت

هاتف : 806906 05 ـ فاكس : 813906 05





عضو في الاتحاد العام للناشرين العرب

عضو في إدارة جمعية الناشرين السعوديين

عضو في نقابة الناشرين في لبنان

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

جدة

مكتبة دار كنوز المعرفة
هاتف 6510421.6570628

مكة المكرمة

مكتبة الأسدي
هاتف 5273037.5570506

مكة المكرمة

مكتبة نزار الباز
هاتف 5473838. فاكس 5473939

المدينة المنورة

دار البدوي
هاتف 0503000240

المدينة المنورة

مكتبة الزمان
هاتف 8366666. فاكس 8383226

الرياض

مكتبة جرير
وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها
هاتف 4626000. فاكس 4656363

الرياض

مكتبة العبيكان
وجميع فروعها داخل المملكة
هاتف 4654424. فاكس 2011913

الرياض

دار التدمرية
هاتف 4924706. فاكس 4937130

الدمام

مكتبة المتنبي
هاتف 8344946. فاكس 8432794

الطائف

مكتبة أم هاني
هاتف 7320809

عرعر

مكتبة المتنبي العلمية
هاتف 6628586

الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

الجمهورية اليمنية

مكتبة تريم الحديثة - حضرموت

هاتف 417130 - فاكس 418130

دولة قطر

مكتبة الثقافة - الدوحة

هاتف 44421132 - فاكس 44421131

جمهورية مصر العربية

دار السلام - القاهرة

هاتف 22741578 - فاكس 22741750

مكتبة نزار الباز - القاهرة

هاتف 25060822 - جوال 0122107253

الإمارات العربية المتحدة

حروف للنشر والتوزيع - أبو ظبي

هاتف 5593007 - فاكس 5593027

مكتبة الإمام البخاري - دبي

هاتف 2977766 - فاكس 2975556

دولة الكويت

مكتبة دار البيان - حَوَلّي

تلفاكس 22616490 - جوال 99521001

دار الضياء للنشر والتوزيع - حَوَلّي

هاتف 22658180 - فاكس 22658180

المملكة المغربية

دار الأمان - الرباط

هاتف 0537723276 - فاكس 0537200055

الدار العالمية - الدار البيضاء

هاتف 052282882 - فاكس 052283354

مملكة البحرين

مكتبة الفاروق - المنامة

هاتف 17272204 - فاكس 17256936

مكتبة الريان - المنامة

هاتف 0097339247759

الجمهورية اللبنانية

الدار العربية للعلوم - بيروت

هاتف 785107 - فاكس 786230

مكتبة التمام - بيروت

هاتف 01707039 - جوال 03662783

المملكة الأردنية الهاشمية

دار محمد دنديس - عمّان

هاتف 4653390 - فاكس 4653380

الجمهورية العربية السورية

دار السنابل - دمشق

هاتف 0988156620 - فاكس 2237960

جمهورية العراق

مكتبة دار الميثاق - الموصل

هاتف 7704116177 - فاكس 7481732016

جمهورية الجزائر

دار المشرق والمغرب - الجزائر

هاتف 0780380501 - 0559380141



جمهورية الصومال

مكتبة دار الزاهر ـ مقديشو

هاتف 002525911310

جمهورية تشاد

مكتبة الشيخ التيجاني ـ أنجامينا

هاتف 0023599978036

جمهورية أندونيسيا

دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا

هاتف 0062313522971

جوال 00623160222020

ماليزيا

مكتبة توء كنالي ـ كوالا لمبور

هاتف 00601115726830

جمهورية داغستان

مكتبة دار الرسالة ـ محج قلعة

هاتف 0079285708188

مكتبة نور الإسلام ـ محج قلعة

هاتف 0079882124001

هاتف 0079887730306

الهند

مكتبة الشباب العلمية ـ لكنهو

هاتف 00919198621671

بنغلادش

مكتبة الحسن ـ دكا

هاتف 008801675399119

جمهورية جنوب أفريقيا

دار الإمام البخاري

هاتف 0027114210824

الجمهورية التركية

مكتبة الإرشاد ـ إستانبول

هاتف 02126381633 ـ فاكس 02126381700

جمهورية فرنسا

مكتبة سنا ـ باريس

هاتف 0148052928 ـ فاكس 0148052997

إنكلترا

دار مكة العالمية ـ برمنجهام

هاتف 01217739309 ـ جوال 07533177345

فاكس 01217723600

الولايات المتحدة الأمريكية

مكتبة الإمام الشافعي ـ جورجيا

هاتف 0017036723653

أستراليا

المكتبة الإسلامية

هاتف 0061297584040



فيرجن وفروعها في العالم العربي

جميع إصداراتنا متوافرة على



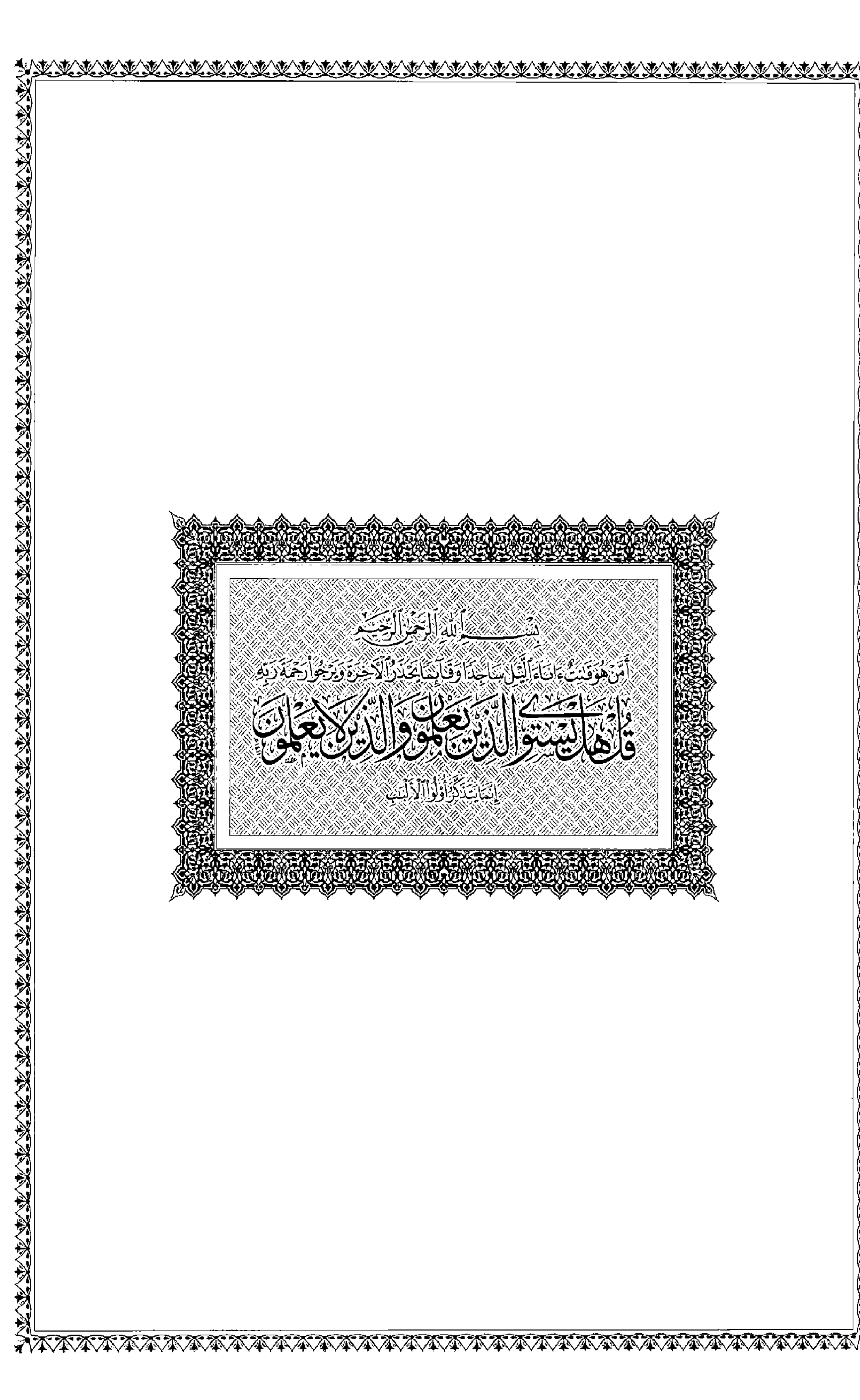
موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب

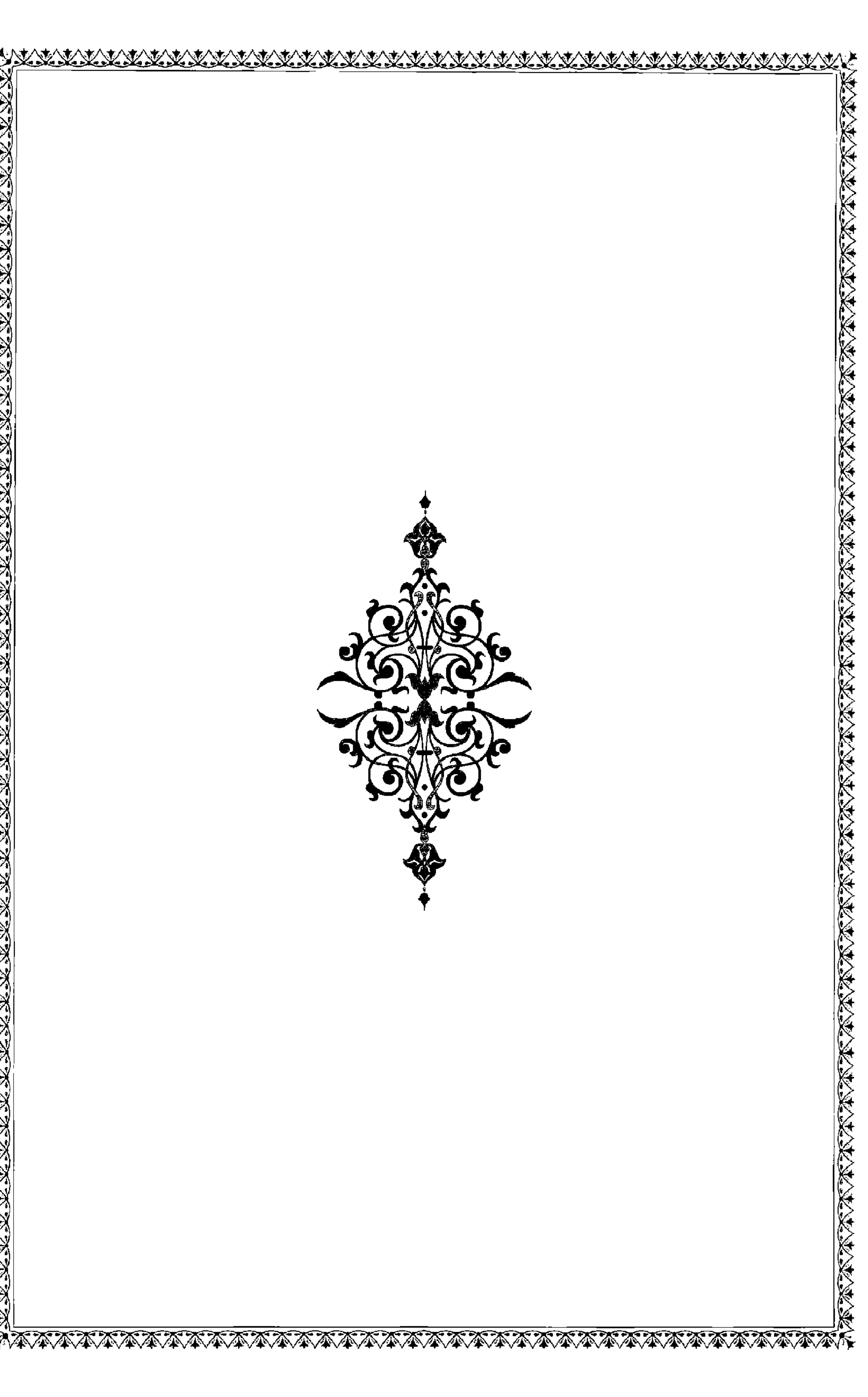
www.nwf.com

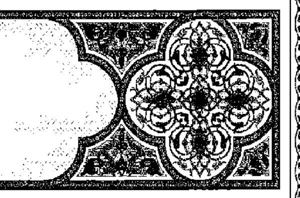


موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية

www.furat.com


بسم الله الرحمن الرحيم
أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه
قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون
إنما يتذكر أولوا الألباب



الإهداء

إلى من يريد تصحيح التوبة، والانخراط في سلك الصالحين.

إلى من يريد الاتصاف بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود.

إلى من يريد الرقي إلى مراتب المعالي، والاغتراف من معين السلف الصالح.

إلى من يريد التغيير والإصلاح (١)، والتأثير في نفسه وفي بيته وفي محيطه.

إلى كل باحث منصف يلتمس النور في القرن الواحد والعشرين.

نهدي لهم جميعاً:

إحياء علوم الدين

الكتاب الجامع لعلوم الدنيا وعلوم الآخرة

من كلام الله سبحانه وتعالى، وسنة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وأقوال العلماء العاملين الدعاة إلى سبيل الحق

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

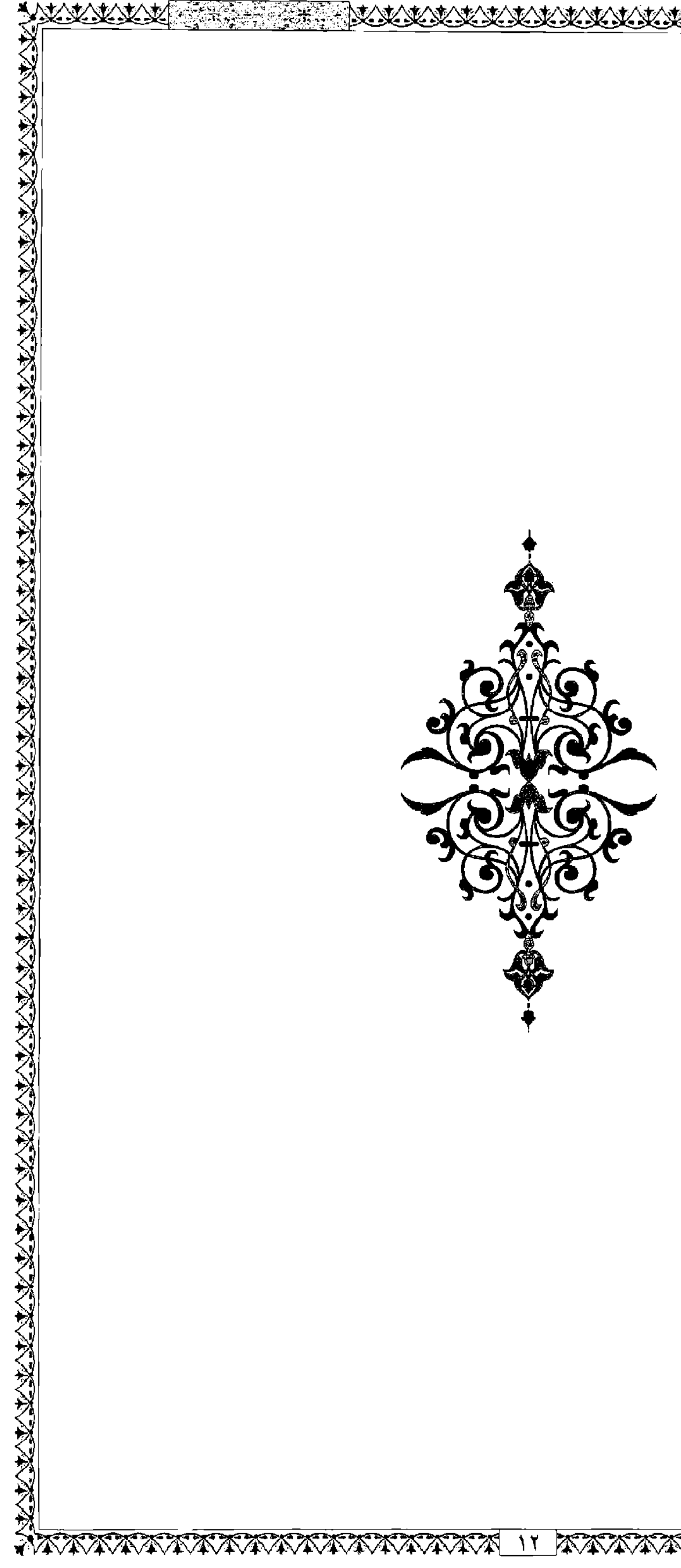
الناشر

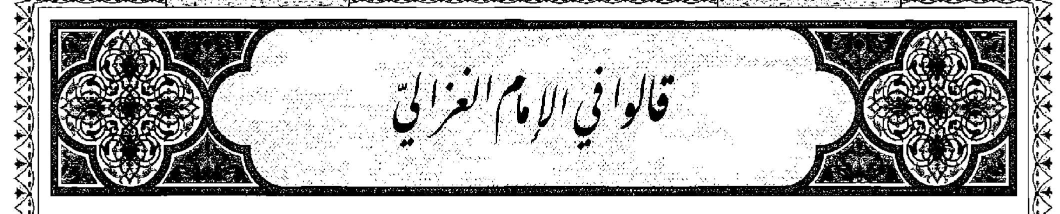
جدة في ٢ جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ

٥ أيار ـ مايو ٢٠١١ م

---

(١) اقتباساً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.





قالوا في الإمام الغزاليّ

* أبو حامد الغزاليّ رضي الله عنه مجدِّد أمر الدين في المئة الخامسة . — الإمام الحافظ ابن عساكر

* صنف الكتب الحسان في الأصول والفروع ، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها . — الإمام ابن الجوزي

* من نظر في كتب الإمام الغزاليّ رحمه الله ، وكثرة مصنفاته ، وتحقيق مقالاته .. عرف مقداره ، واستحسن آثاره واستصغر ما عَظُم من سواه ، وعَظَّم قدره فيما أمده الله تعالى به من قوله ، ولا مبالاة بحاسدٍ قد تعاطى ذمه أو معاندٍ أبعد الله تعالى عن إدراك معاني كلامه فهمه . — الإمام القسطلاني

* لا يصل إلى معرفة علم الغزاليّ وفضله إلا من بلغ ـ أو كاد يبلغ ـ الكمال في عقله . — الإمام السبكي

* الغزاليّ هو الشافعيّ الثاني . — محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي

* محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء ، ومحمد بن إدريس رضي الله عنه سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد ابن محمد الغزاليّ رحمه الله سيد المصنفين . — الإمام إسماعيل بن محمد الحضرمي

* هو سيد المصنِّفين عند المنصفين ، وحجة الإسلام عند أهل الاستسلام لقبول الحق من المحقِّقين في جميع الأقطار والجهات . — الإمام اليافعي

* أبو حامد ، إمام الفقهاء على الإطلاق ، وربانيّ الأمة بالاتفاق ، ومجتهد زمانه ، وعين أوانه ، كان شديد الذكاء ، قويّ الإدراك ، ذا فطنةٍ ثاقبةٍ ، وغوصٍ على المعاني . — الإمام الذهبي

* أبو حامد الإمام الفقيه ، والمتكلم النظار ، المصنف الصوفيّ . — الإمام النووي

* أبو حامد الغزاليّ ، حجّة الإسلام ، ومحجّة الدّين التي يُتوصّل بها إلى دار السّلام ، جامع أشتات العلوم ، والمبرّز في المنقول منها والمفهوم . — الإمام السبكي

* الشّيخ الإمام البحر ، حجّة الإسلام ، أعجوبة الزّمان ، صاحب التّصانيف والذكاء المفرط . — الإمام اليافعي

* كان أفقه أقرانه ، وإمام أهل زمانه ، وفارس ميدانه ، كلمته شهد بها الموافق والمخالف ، وأقرّ بحقّيّتها المعادي والمخالف . — الإمام السبكي

* أبو حامد الغزاليّ ، حجّة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمّة الدّين ، لم تر العيون مثله لسانًا وبيانًا ونطقًا ، وخاطرًا وذكاءً وطبعًا . — الإمام الحافظ عبد الغافر الفارسي

* ترك الدّنيا وراء ظهره ، وأقبل على الله يعامله في سرّه وجهره . — الإمام السبكي

* الغزاليّ إمام باسمه تنشرح الصدور ، وتحيا النّفوس ، وبرسمه تفتخر المحابر ، وتهتزّ الطّروس ، وبسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرّؤوس . — الإمام ابن العماد

* الغزاليّ بحرٌ مغدِق — إمام الحرمين الجويني

* كان رضي الله عنه ضرغامًا ، إلّا أنّ الأسود تتضاءل بين يديه وتتوارى ، وبدرًا تمامًا ، إلّا أنّ هداه يشرق نهارًا وبشرًا من الخلق ، ولكنه الطّود العظيم ، وبعض الخلق ، لكن مثلما بعض الحجر الدّرّ النّظيم . — الإمام السبكي

* كان رضي الله تعالى عنه رفيع المقام ، شهد له بالصّدّيقيّة الأولياء الكرام ، انتشر فضله في الآفاق ، تميّز بكثرة التّصانيف وحسنها على العلماء ، وبرع في الذّكاء وحسن العبارة وسهولتها وأُيّد حتّى صار إفحام الفِرَق عنده أسهل من شرب الماء . — الإمام اليافعي

* أحد أئمة الشافعيّة في التصنيف والترتيب، والتقريب والتعبير، والتحقيق والتحرير.

الإمام ابن كثير

* حجة الإسلام زين الدين الطوسيّ، الفقيه، لم يكن للطائفة الشافعيّة في آخر عصره مثله.

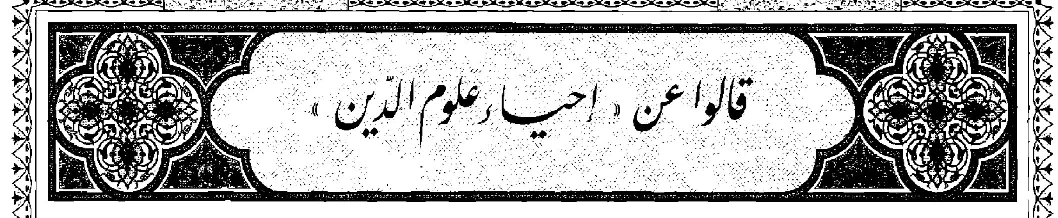
مضى وأعظم مفقود فجعت به مَن لا نظير له في الناس يخلفه

الإمام ابن خلكان

* شاع ذكره في البلاد، واشتهر فضله بين العباد، واتّفقت الطوائف على تبجيله وتعظيمه وتوقيره وتكريمه وخافه المخالفون، وانقهر بحججه وأدلته المناظرون وظهرت بتنقيحاته فضائح المبتدعة والمخالفين وقام بنصر السّنّة وإظهار الدّين، وسارت مصنّفاته في الدّنيا مسير الشّمس في البهجة والجمال، وشهد له المخالف والموافق بالتقدّم والكمال.

الإمام ابن النجار

* * *



قالوا عن « إحياء علوم الدّين »

* كاد « الإحياء » أن يكون قرآناً يُتلى . — الإمام النووي

* وأمّا مصنّفاته .. فمنها كتاب « إحياء علوم الدين » ، وهو من أجلّ الكتب وأعظمها ، حتّى قيل فيه : إنّه لو ذهبت كتب الإسلام وبقي « الإحياء » ، لأغنى عمّا ذهب . — الإمام الصفدي

* « الإحياء » ديوان الإسلام . — الإمام السهروردي

* « الإحياء » مبنيّ على : إذا صلحت صلح الجسد كلّه . — الإمام ابن خلكان

* هو من الكتب الّتي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ، ليهتدي بها كثير من الخلق ، وقلّما ينظر إليه ناظر إلّا وتيقّظ به في الحال . — الإمام السبكي

* ومنها « إحياء علوم الدّين » ، وهو من أنفس الكتب وأجملها . — الإمام ابن خلكان

* وكتاب « الإحياء » وهو الأعجوبة العظيم الشّان . — الإمام ابن قاضي شهبة

* « إحياء علوم الدّين » لا يستغني عنه طالب الآخرة . — الإمام السبكي

* وعليك إن أردت أن يظهر لك الحقّ وأن تعمل بالصّدق بمطالعة « الإحياء » . — الإمام ابن حجر الهيتمي

* والله لو بعث الله الأموات لما أوصوا الأحياء إلّا بما في « الإحياء » — العلامة بكري محمد شطا المكي

* كتاب « الإحياء » يورّثك العلم . — الإمام أبو الحسن الشاذلي

* «الإحياء» من أشرف مصنّفاته، وأشهرها ذكرًا، وأعظمها قدرًا.

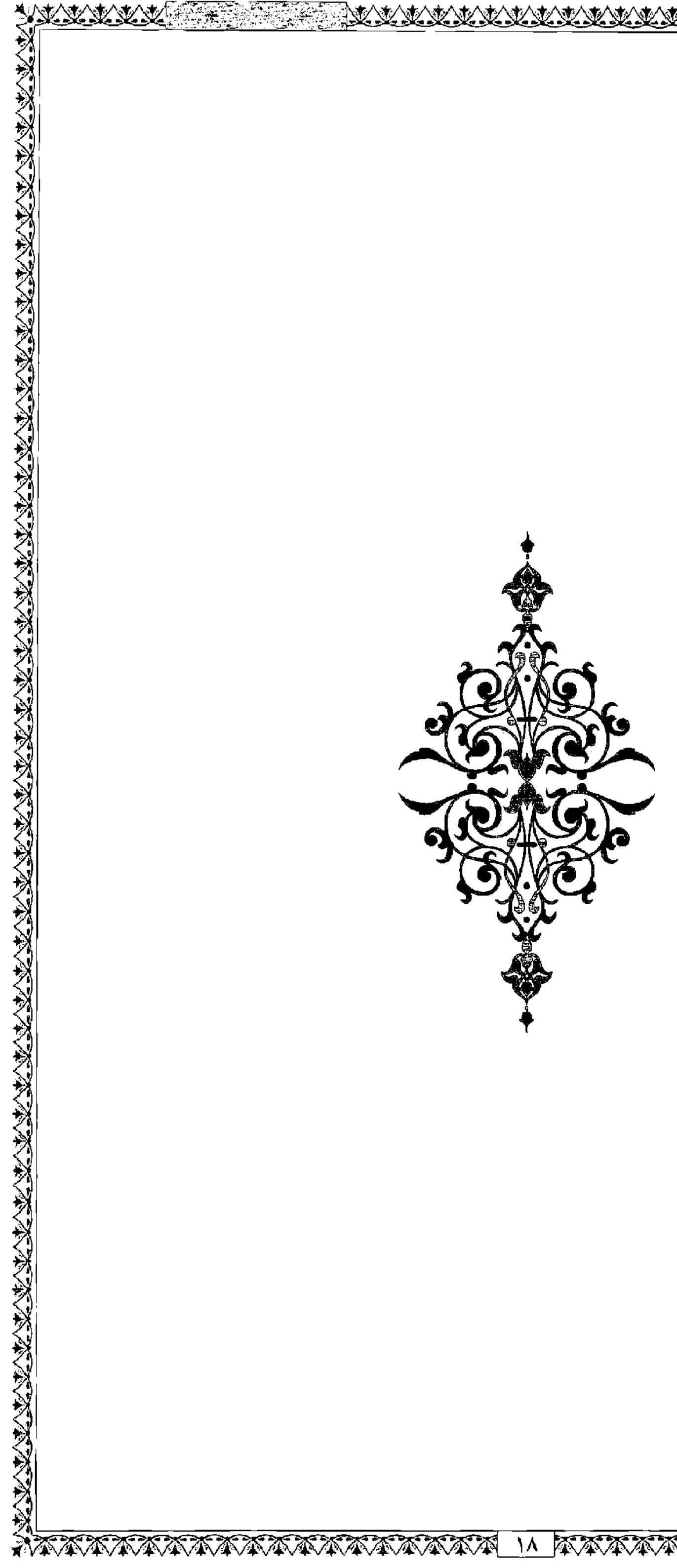
الحافظ محمد مرتضى الزبيدي

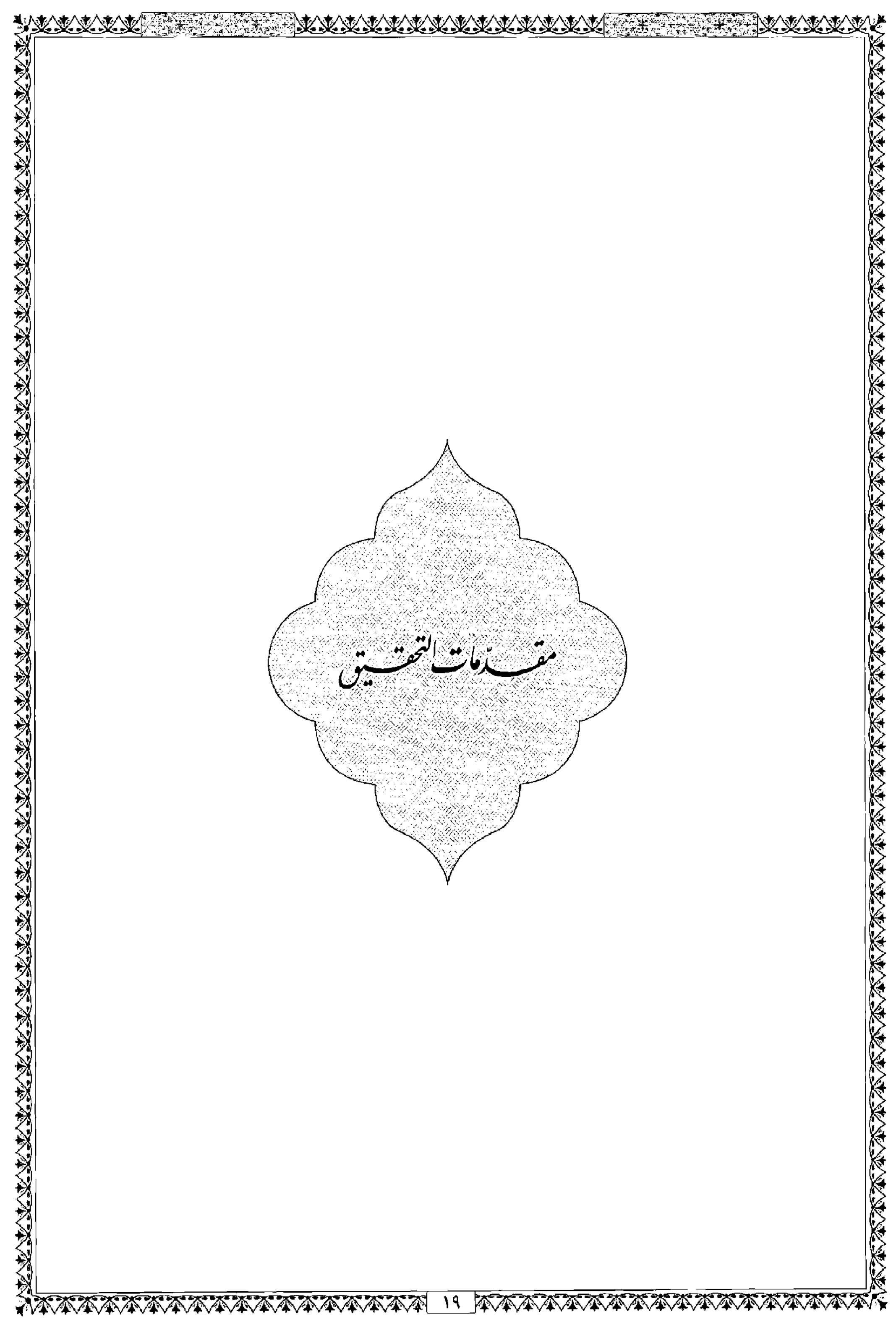
* لو لم يكن للنّاس في الكتب الّتي صنّفها أهل العلم إلّا «الإحياء» لكفاهم، وأنا لا أعرف له نظيرًا في الكتب الّتي صنّفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النّقل والنّظر والفكر والأثر غيره.

الإمام السبكي

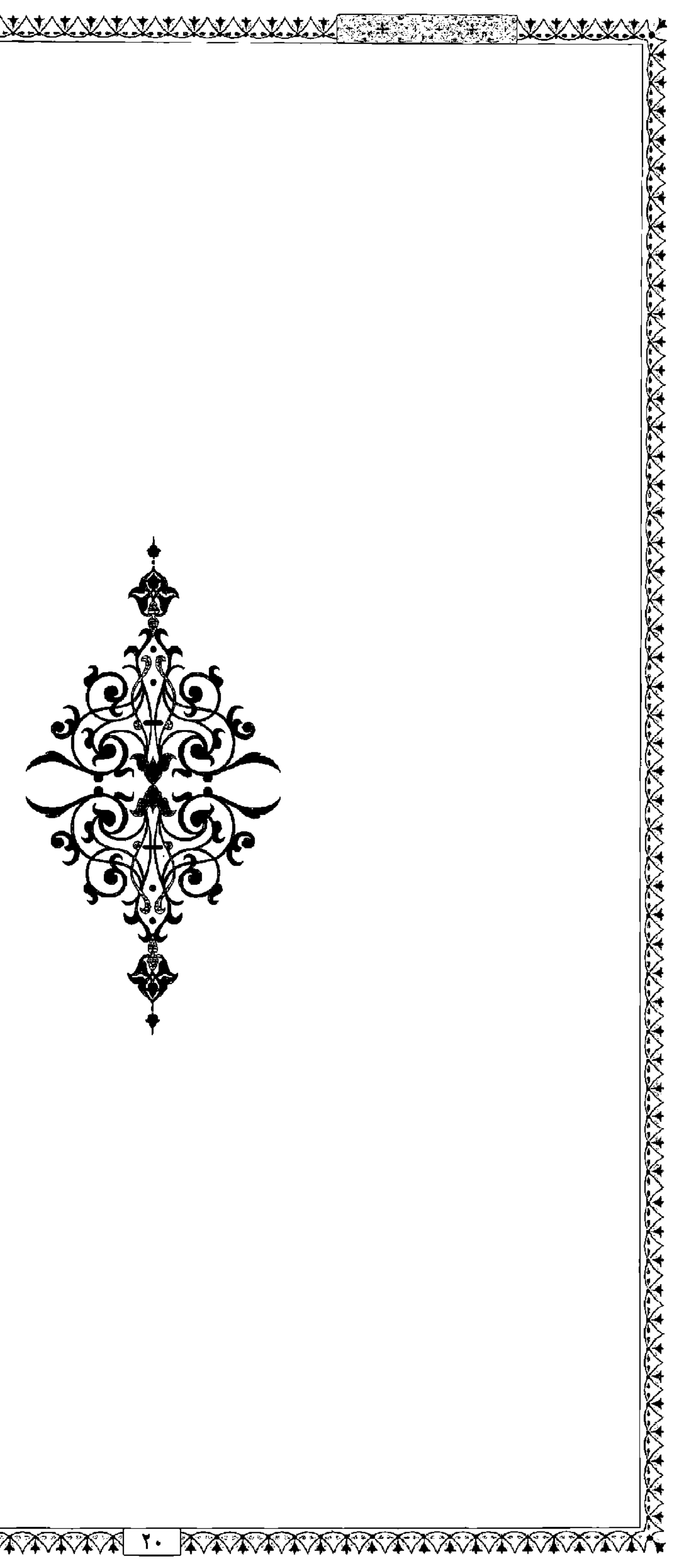
* لو عدمت كتب مذهب الشّافعيّ.. لاستخرج المذهب من «الإحياء».

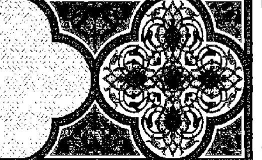
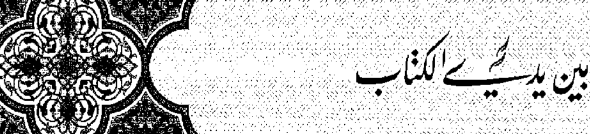
* * *





مقدّمات التحقيق



بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الذي فضَّل أولي العلم على من سواهم تفضيلاً ، ورفعهم إلى العلياء ، وسلك بهم المحجة البيضاء .

والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين ، سيدنا أبي القاسم الأمين ، الذي قال : « العلماء ورثة الأنبياء »[1] ، وعلى آله الأكرمين ، وصحابته الغرِّ الميامين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين .

أما بعد :

فإنَّ شخصيَّة الإمام الغزالي المجدِّد كانت ولا تزال معترك الأقلام ، وميداناً فسيحاً لجري الألسن في هذا المضمار ، شأنه شأن العباقرة العظام .

فمنذ دوَّى اسمُه في الآفاق ، وسارت مؤلفاتُه مسيرَ الشمس ، وأبهرت مصنفاتُه الخاصَّ والعامَّ . . نُسجت حول شخصيته هالات ، لا سيما وقد ولد في عصر متلاطمٍ بأمواجِ التياراتِ الفكرية .

تفتَّحت عقليَّة هذا الإمام في هذا المحيط الذي يعجُّ بالأعاصير ؛ فوهبه الله تعالى تسديداً في الأقوال ، ونوراً يبصرُ به المنهاج الإلهيَّ ، وفقهاً في الدين .

فلذلك صار حجَّة الإسلام ، ولسانَ الملَّة ، والذائدَ عن حوزتها ، والمجدِّد لمعالمها ، مستمدّاً من نصوص التشريع الإسلاميِّ ما يقارع به حجج المشكِّكين والمضلِّين تارةً ، والرد عليهم بطريقتهم تارةً أخرى .

وهو في الحقيقة شخصيَّةٌ فذَّة صدق من قال فيه : (الغزالي لا يعرف فضلَه إلَّا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله)[2]

(ب)

والخلاصة : أن هذه الشخصيَّة التي كان التوفيقُ شعارَها ، والإخلاصُ دثارَها . . هي من الطراز المحمَّديِّ .

فقد جاء في سنَّة الحبيب صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إشاراتٌ بيِّناتٌ إلى علم هؤلاء الأصفياء ، وجملٌ واضحاتٌ تنعت هؤلاء القوم .

فقد سُئل صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ قال : « هو نور

(١) أخرجه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .
(٢) انظر « طبقات الشافعية الكبرى » (٦/٢٠٢) .

يقذفه الله تعالىٰ في القلب » ، فقيل : وما علامته يا رسول الله ؟ فقال : « التجافي عن دار الغرور ، والإنابةُ إلىٰ دار الخلود »[1]

وبنظرةٍ فاحصةٍ إلىٰ سيرة هـٰذا الإمام المجدِّد . . ندرك أن هـٰذا الإمام رحمه الله تعالىٰ **منخرطٌ في هـٰذا السِّلْك ، يشملُه هـٰذا التفسيرُ النبويُّ بطريقٍ واضحٍ لا لَبْسَ فيها ولا غموض** ، حتىٰ قال فيه شيخه إمام الحرمين : (**إنه بحرٌ مغدقٌ**)[2]

بل كان يفخر بتلْمذَته علىٰ يديه ، ويعدُّ ذٰلك من مناقبه ، هـٰذا وهو طالب علم ينادم حلقات الأئمة الأعلام ، ويلازم أولي المعرفة ، حتىٰ بلغ الشأو القصيَّ في العلم والمعرفة ، وتوَّج ذٰلك بالتنسك الصوفيِّ المستقيم علىٰ هدىً ومعرفةٍ ؛ حتَّىٰ أشرقت روحه في صفاء ، وبلغ مراتب قال هو عنها : (**لا يصح البوح بها لمن لم يكن من أهلها**) .

ولذٰلك طرح الدنيا وملذاتها ، وقد جمعت له زخارفها تحت قدميه ، فما بهرته مظاهرها ، ولا فتنته شهواتها ؛ **لأن روحه تسامت فوق مظاهر المادة** .

ويرحم الله تعالى الحافظ العراقي حين قال : (إنه ـ أي : « الإحياء » ـ **من أجَلِّ كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام** ، جمعَ فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلىٰ سرائر دقَّت عن الأفهام ، ولم يقتصر فيه علىٰ مجرد الفروع والمسائل ، ولم يبحر في اللُّجَّة بحيث يتعذَّر الرجوع إلى السَّاحل ، **بل مزج فيه عِلْمَي الظاهر والباطن**) .

بل ذكر التاج السبكي رحمه الله تعالىٰ في « الطبقات » عن قول بعض المحققين : (لو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره . . **لكفىٰ**)[3]

ولا نريد الاسترسال في وصف « الإحياء » ؛ فإن هـٰذا سيجعل المقال بطيناً ، **ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد** .

(ج)

ولئن كان بعض المتقدِّمين والمتأخِّرين أسرفوا في الطَّعن علىٰ هـٰذا الإمام رحمه الله تعالىٰ ، ونسبوه إلى الجهل بالسُّنَّة النبويَّة ، وبأنه حاطب ليل ، وجروا في هـٰذا الميدان مليّاً . . **إلا أن هـٰذا الطَّعن في الحقيقة لبسَ عباءة الإسراف ، وعمامةَ التحامل** .

ذٰلك لأنه وإن قال هو عن نفسه في كتابه « قانون التأويل » : (بضاعتي في علم الحديث مزجاة)[4] ، إلا أن هـٰذا **منه رحمه الله تعالىٰ تواضعٌ وتبيانٌ أنه ليس متبحراً فيه كسائر العلوم الأخرىٰ** ، وهـٰذا مجردُ تقليل لشأنه فيه ، واعترافٌ بالفضل لأهل الاختصاص ، وإلا . . **فإن الواقعَ العمليَّ الذي شهد به الحافظ العراقيُّ الذي خرج أحاديثه ـ وهو أعرف بها من غيره ـ أن في « الإحياء » آلاف الأحاديث الصحيحة والحسنة التي استشهد بها الغزاليُّ ، وتسرَّبت بعضُ الأحاديث الضعيفة وقليلٌ جدّاً دونها في فضائل الأعمال** .

---

(1) أخرجه الحاكم (٣١١/٤) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(2) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (١٩٦/٦) .

(3) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٢٥٢/٦) .

(4) قانون التأويل (ص ٣٠) .

وقد قال إمام المحدثين أحمد ابن حنبل رضي الله عنه : (**إذا روينا في الحلال والحرام . . تشدَّدنا ، وإذا روينا في فضائل الأعمال . . تساهلنا**)[١]

وهل الذي يروي في كتبه آلاف الأحاديث تكون بضاعته مزجاة ؟! كلا والله ، ولـٰكن هـٰذا هو عينُ تواضع هـٰذا الإمام المجدِّد وعبقريته .

ومن الأدلَّة اليقينيَّةِ علىٰ بصر الإمام بالسُّنَّة النبويَّة أن كتابه « الوجيز » ـ وهو مختصرٌ فقهي ـ معظم عباراته تشير إلىٰ أحاديث نبويَّة ، بل في كثيرٍ من المواطن يذكر الحكم الفقهيَّ بعبارة الحديث نفسِه ، وهـٰذا ما دفع الإمام أبا القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي المتوفىٰ سنة (٦٢٣ هـ) ، إلىٰ أن يُعنىٰ ببيان الأحاديث التي أشار إليها الغزاليُّ أو اعتمد عليها في « وجيزه » ، وهو كتابه الشهير المفيد : « العزيز شرح الوجيز »[٢]

(د)

وقد انعقدت كلمة الأكابر أن الإمام الغزاليَّ رحمه الله تعالىٰ **هو مجدِّدُ القرن الخامس بلا منازع** ؛ لأنه الإمام الذائع الصِّيت بلا مدافع ، وقد صحَّ عنه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **إن الله تعالىٰ يبعث لهـٰذه الأمة علىٰ رأس كلِّ مئةِ سنةٍ من يجدِّدُ لها دينها** »[٣]

قال أهل العلم : إن معنى التَّجديد : **هو أن يبيِّن المجدِّدُ السُّنَّة من البدعة ، ويؤيِّد أهل العلم والاتباع ، ويذل أهل الضلال والابتداع** .

وهـٰذه هي سمات الإمام الغزالي التي تحقق بها ، وقد أشار إلىٰ تجديده واتفاق الكلمة علىٰ ذٰلك الإمامُ السيوطيُّ في أرجوزته المسماة « تحفة المهتدين بأخبار المجدِّدين » فقال : [من الرجز]

وَالْخَامِسُ الْحَبْرُ هُوَ الْغَزَالِي ... وَعَدُّهُ مَا فِيهِ مِنْ جِدَالِ

وقد كان الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ يرىٰ أنه أحد المجدِّدين كما نلمح ذٰلك في قوله وهو يستعرض الأسباب التي دعته إلى العودة للتدريس بعد انقطاعه عنه فيقول : (وانضاف إلىٰ ذٰلك منامات من الصَّالحين كثيرةٌ متواترةٌ ، بأن هـٰذه الحركة مبدأ خير ورشد ، **قدَّرها الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ رأس هـٰذه المئةِ** ، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه علىٰ رأس كلِّ مئة سنة ، فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظَّنِّ بسبب هـٰذه الشهادات ، ويسَّر الله تعالى الحركة إلىٰ نيسابور للقيام بهـٰذا المهمِّ)[٤]

وبنظرةٍ عجلىٰ إلىٰ منهج الإمام بصورة عامة في مؤلفاته التي يقارع فيها فكر أهل الأهواء بالعقل والنقل . . نجده في هـٰذا الميدان يدرأ التعارض بين العقل والنقل ، ويظهر بفقهه العميق التلاحم بينهما ؛ وهـٰذا من المطالب السامية

---

(١) انظر « جامع الأصول » (١/١٠٩) .

(٢) قال ابن السبكي في « طبقات الشافعية » (٨/٢٨١) : (تحرز بعض أصحابنا عن تسميته بـ « العزيز » أي : لأن العزيز اسم من أسماء الله الحسنىٰ ، واختار تسميته بـ « فتح العزيز ») .

(٣) أخرجه أبو داوود (٤٢٩١) ، والحاكم (٤/٥٢٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) المنقذ من الضلال (ص ٢٩) .

لمن يحمل هٰذا العلم الشرعي ؛ ورداً علىٰ أهل البدع القائلين بوجود التباين بين النقول وما تقتضيه الأفهام والعقول .

وهٰذا أحد العوامل التي جعلته أهلاً للتلقب بحجة الإسلام .

ولذٰلك فإن التوافق بين العقل والنقل في سفرنا هٰذا نجده ماثلاً في كثيرٍ من نصوصه .

وهٰذه الميزة التي انفرد بها الإمام الغزالي عن كثير من أضرابه واحدةٌ من كثير من مآثره الجليلة ومناقبه النبيلة التي رفعته علىٰ بساط العبقرية ، ومنحته هٰذه المكانة السامية .

وهٰذا نص للإمام من عشرات النصوص المنتشرة في ثنايا مؤلفاته ، قال رحمه الله تعالىٰ : (لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين العقل والدين ، أو بين العقل والشرع ؛ فالعقل كالأُسّ ، والشرع كالبناء ، **ولا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر ، فلا نفع في أساس بدون بناء ، ولا ثبات لبناءٍ بدون أساس**)[1]

(هـ)

عاش الإمام الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ في عصرٍ من عصور الإسلام الذَّهبيَّة ؛ خصوصاً في المجالات العلمية ؛ حيث كانت المدارس المتنوِّعة والمتخصِّصة ، ومنها **المدارس النظامية نسبةً إلىٰ نظام الملك .**

وكان الإمام الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ أيام إقامته بالمعسكر يحضر مجلس نظام الملك للمناظرة والدِّفاع عن عقيدة أهل السُّنَّة التي كان النظام القيِّمَ السياسيَّ عليها في عصره .

وكان نظام الملك سنِّيّاً ، صوفيّاً ، شديد التعلُّق بالصُّوفيَّةِ ، شديدَ التَّعصُّب لهم ولمبادئهم ، مسرفاً أشدَّ الإسراف في البذل عليهم ، وإعداد التكايا لهم وخدمتهم ، وتوفير الفراغ لهم لتعبدهم وصفاء أوقاتهم ، حتىٰ واجه الخليفة بتلك المقولة المأثورة عنه وهو يعاتبه لإسرافه في النَّفقة عليهم وشغله بهم ، فقال له : (**لقد أقمنا لك عباداً بالليل ، لو صاحوا . . لزُلزلت الدُّنيا بخصومك ، ومادت بهم الأرض**) .

والذي يهمنا في هٰذه المقدمة : أن الصُّوفيَّة الحقَّة التي تعشَّقها الإمام الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ ، وخالطت شغاف فؤاده . . **هي التي بسط طرائقها بعلمه وحكمته ، وأبان للناس أحوالها ، بعيداً عن الغلو والتهالك ، وأحكم لها أصولها ؛ حتىٰ غدت قواعدُها راسيةً ، واستقامت علىٰ يده كعِلْمٍ مؤصَّلٍ يعجُّ بآدابه وسلوكه .**

وما أحوجنا في هٰذا العصر الذي أتخم أهله بالمادِّيّات ، وأشغل أوقاتهم بالملهيات ، وظهر من القلوب الجفاء والقسوة ، وتلاشى الصفاءُ الروحيُّ عند الجمهرة ، ما أحوجنا إلىٰ هٰذا السِّفْر العظيم : « **إحياء علوم الدين** » **فإنه البلسم لأدواءِ القلوب ، المقرِّب إلىٰ رضا علَّام الغيوب .**

ثم إن النفس لتنفر من مهاجمة الأحياء للأموات ، **ولا سيما إن كان المنتقِدون أقل شأناً في العلم من أولئك** ؛ علىٰ حد قول المثل : (من قل علمه . . كثر انتقاده) .

وهٰذا ليس من فعل أهل المروءات ، ولا هو منهج أهل التقوى الذين امتدحهم التنزيل في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ

(١) معارج القدس في مدارج معرفة النفس (ص ٥٧) .

بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

علىٰ أن بعضهم يغرق في عبارات الإمام ويتحير ويقف حمار الشيخ في العقبة ، ومع ذٰلك يصول بقلمه على الإمام ويجول كأنما هٰذا من أوجب الواجبات ، **وربما كان الغرض الأوحد طلب الشهرة علىٰ حساب المشهورين** .

(و)

ودار المنهاج التي اضطلعت بإخراج الأسفار النَّفيسة في حُللٍ قشيبةٍ . . لا تزال مشمّرةً عن ساعد الإنجاز ؛ فهي تخرج لنا جواهر الكتب بين الفينة والأخرىٰ ، حتىٰ لقد أصبح يُشار إليها بالبنان ، وينوّه بها طلبةُ العلم في كلِّ مكان ، وعلىٰ وجه الخصوص كتب السادة الشافعية .

فقد أخرجت لنا بفضل الله ، ثم بفضل عزمات صاحبها كتباً كانت في الدَّهاليز مطمورةً ، وما نسمع عنها إلا بواسطة المشايخ أو النقل ، فأشرقت بضياء الطباعة ، وازدانت بحُلل التَّحقيق ، وطارت يمنةً ويسرةً ، وتلقَّفها طلبةُ العلمِ في شَغَفٍ ونَهَم ، وأصبح الحلم حقيقةً ، ولا سيَّما وقد أخرجت لنا « **نهاية المطلب** » الحاوي لأصول المذهب وفروعه ، وغيره من الأسفار العظام لأئمة أعلام ؛ كـ « **البيان** » للإمام العمراني ، و« **النجم الوهاج في شرح المنهاج** » للإمام الدميري ، و« **حاشية التَّرْمَسي على المنهج القويم** » في سبع مجلدات ، وغيرها من النفائس .

ولأنَّ « **إحياء علوم الدين** » جامعٌ للفقه والسلوك ، وأسلوبه تبرٌ مسبوك ، والناس في هٰذه الأيام النَّكدة بحاجة إليه وإلىٰ أمثاله ؛ ليحُدَّ من انجذابهم إلى المادِّيّات والملذات ، والإعناق مليّاً لميدان الشَّهواتِ . . **فإن الدار قامت بخدمة هٰذه الموسوعة الدِّينيَّة خدمةً متميّزةً تليق بمستواها العلميّ** ، وتسهّل على الناظر العثورَ علىٰ ما يريد ، وهي بذٰلك تسهمُ إسهاماً حقيقياً في نشر الثقافة الإسلاميَّةِ والوعي الدينيِّ .

(ز)

وختاماً : فإن الدار وهي تهدي إلى الأمة الإسلامية هٰذا السفر النفيس في عشر مجلدات محققاً علىٰ نحو عشرين مخطوطة جلبت من أصقاع الأرض . . لترجو وتتفاءل أن يكون بروز هٰذا الكتاب بداية للفرج الإلٰهي على الأمة الإسلامية التي تئن تحت وطأة الاختلاف والفرقة ، وتكالب الأعداء عليهم .

سائلين المولىٰ جل وعلا أن يرفع عنا مقته وغضبه ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشداً ، ويدفع عنا السوء ، ويجنبنا الفتن والمحن ، ما ظهر منها وما بطن ؛ إنه سميع مجيب .

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

أبو عبد الباري

محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل

سند « إحياء علوم الدين »

أروي كتاب « إحياء علوم الدين » وسائر مؤلفات الإمام الغزالي بالإجازة المعتبرة : عن شيخي المعمر بقية السلف الفقيه الزاهد السيد **أبي عبد الله حمود بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن حسين بن شميلة الأهدل** حفظه الله تعالىٰ ونفع به[1] ، عن الشيخ العلامة قاضي المراوعة **السيد عبد الرحمٰن بن محمد الأهدل** ، عن والده العلامة **السيد محمد بن عبد الرحمٰن الأهدل** ، والعلامة **السيد محمد طاهر بن عبد الرحمٰن الأهدل** ، كلاهما عن العلامة الحجة شيخ الإسلام **السيد محمد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل** ، عن عمّه العلامة **السيد الحسن بن عبد الباري الأهدل** ، عن الإمام العلامة محدث اليمن **السيد عبد الرحمٰن بن سليمان الأهدل الزبيدي** صاحب « النفس اليماني » ، عن إمام المسندين وخاتمة الحفاظ المحدثين **السيد أبي الفيض محمد مرتضى بن محمد الزبيدي الحسيني** نزيل مصر ، عن العلامة المسند الثقة **أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد عقيلة المكي** ، عن محدث الحجاز المسند **أبي الأسرار حسن بن علي بن يحيى العجيمي** ، عن الإمام المسند الوارث صفي الدين **أحمد بن محمد بن يونس القُشَاشي** ، عن الإمام المجتهد الشمس **محمد ابن شهاب الدين أحمد ابن حمزة الرملي** ، عن شيخ الإسلام القاضي **أبي يحيىٰ زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري** ، عن إمام الحفاظ والمحدثين **أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني** ، عن شيخ الإقراء ومسنِد القاهرة **أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد التنوخي** ، عن قاضي القضاة مسنِد الشام الإمام **أبي الفضل التقي سليمان بن حمزة بن أحمد المقدسي الحنبلي** ، عن المسند الأمين **أبي حفص عمر بن كرم الدينوري** ، عن الإمام الحافظ المفيد **أبي الفرج عبد الخالق بن أحمد اليوسفي البغدادي** ، **عن المؤلف حجة الإسلام والمسلمين أبي حامد محمد بن محمد الغزالي** .

(ح) كما يرويها شيخنا العلامة المعمر السيد حمود بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن حسين بن شميلة الأهدل حفظه الله تعالىٰ بالإجازة العامة : عن أخيه العلامة السيد أحمد ميقري بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن حسين بن شميلة الأهدل ، عن العلامة قاضي المراوعة السيد عبد الرحمٰن بن محمد الأهدل ، بالإسناد المتقدم إلى الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .

وكتبه

عمر سالم سعيد باجخيف

(1) لشيخنا العلامة المعمر والفقيه المنور السيد أبي عبد الله حمود أحمد حسين شميلة الأهدل ترجمة ضافية في مقدمة كتاب « إفادة السادة العمد » (ص ٣٥) طبعة دار المنهاج .

ترجمة

الإمام المجدِّد ، أعجوبة الزمان ، المتكلِّم النظّار

زين الدين ، أبي حامد

محمّد بن محمّد بن أحمد الطّوسيّ الطّابرانيّ الشّافعيّ

حجّة الإسلام الغزاليّ

رضي الله عنه

(٤٥٠ـ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ـ١١١١م)

قال الفقير إلى الله تعالى الشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي عفا الله عنهما في كتابه « المطالب العلية في مناقب الشافعية »[(١)]

منهم[(٢)] الإمامُ حجّةُ الإسلامِ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ ، القائمُ على رأسِ الخمسِ مئةٍ ، المبشَّرُ به في الحديثِ[(٣)] : محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمدِ بنِ أحمدَ الطوسيُّ الطابرانيُّ الشافعيُّ ، الإمامُ أبو حامدٍ الغزّاليُّ[(٤)]

حجّةُ الإسلامِ والمسلمينَ ، إمامُ أئمّةِ الدينِ ؛ مَنْ لمْ تَرَ العيونُ مثلَهُ لساناً وبياناً ونطقاً ، وخاطراً وذكاءً وطبعاً ، أحدُ الأئمّةِ في التصنيفِ والترتيبِ والتقريبِ والتعبيرِ والتحقيقِ والتحريرِ .

ولدَ بطوسَ ، سنةَ خمسينَ وأربعِ مئةٍ (٤٥٠ هـ) ، وهيَ السنةُ التي ماتَ فيها الماورديُّ وأبو الطيبِ الطبريُّ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ .

وكانَ والدُهُ يغزلُ الصوفَ ويبيعُهُ في دكّانِهِ بطوسَ ، فلمّا احتضَرَ . . أوصىٰ بولديهِ (محمدٍ وأحمدَ) إلىٰ صديقٍ لهُ صوفيٍّ صالحٍ .

فعلَّمَهما الخطَّ ، وفَنِيَ ما خلَّفَ لهما أبوهما ، وتعذَّرَ عليهِما القوتُ ، فقالَ لهما : أرىٰ لكما أنْ تلجأا إلى المدرسةِ كأنّكما طالبا علمٍ !!

فصارا إلىٰ مدرسةٍ لطلبِ الفقهِ ، حيثُ قالَ الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ : (فصِرْنا إلى المدرسةِ ، نطلبُ الفقهَ ،

---

(١) وهو مخطوط مصور عن نسخة مكتبة فيض الله ، من مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، برقم (١٥٢٥) . وقد زيد في هاذه الترجمة من « تاريخ دمشق » (٢٠٠/٥٥) و« طبقات فقهاء الشافعية » لابن الصلاح (٢٤٩/١) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣٢٢/١٩) ، و« الوافي بالوفيات » (٢٧٤/١) ، و« طبقات الشافعية » للسبكي (١٩١/٦) ، و« البداية والنهاية » (١٤/١٤) ، و« إتحاف السادة المتقين » (٦/١) . وجديرٌ بالذكر : أن الإمام عبد الغافر الفارسي (ت ٥٢٩ هـ) هو أول من ترجم للإمام الغزالي في كتابه « السياق » وهو ذيل على « تاريخ نيسابور » للحاكم ، وهو مضمن بالكامل في ترجمة الإمام الغزالي عند السبكي في « طبقاته » .

(٢) أي : من أئمة الشافعية .

(٣) الذي أخرجه أبو داوود (٤٢٩١) ، والبيهقي في « معرفة السنن والآثار » (٢٠٨/١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن اللهَ يبعثُ لهاذه الأمةِ على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يُجدِّدُ لها دينَها » .

(٤) **الغزالي** : رُويَ بتشديدِ الزاي ، نسبةً إلى والدِهِ الذي عملَ غزّالاً ، وهاذا هو القولُ المشهورُ ، ورويَ بتخفيفِ الزاي ؛ نسبةً إلىٰ غزالةَ كسحابةٍ ، قريةٍ من قرىٰ طوسَ .

ليسَ المرادُ سوىٰ تحصيلِ القوتِ ، فكانَ تعلُّمُنا لذلكَ لا للهِ ، فأبىٰ أن يكونَ إلّا للهِ) .

فاشتغلَ الغزاليُّ ببلدِهِ طوسَ ، وقطعَ قطعةً كبيرةً في الفقهِ على الإمامِ أحمدَ الراذَكانيِّ .

ثمَّ ارتحلَ إلىٰ جرجانَ بعدما اشتدَّ عودُهُ إلى الإمامِ أبي نصرٍ الإسماعيليِّ فأقامَ عندَهُ حتىٰ كتبَ عنهُ « التعليقةَ » .

ثمَّ قدمَ نيسابورَ مختلفاً إلىٰ درسِ إمامِ الحرمينِ أبي المعالي الجوينيِّ في طائفةٍ مِنَ الشبَّانِ مِنْ طوسَ ، وجدَّ واجتهدَ حتَّىٰ تخرَّجَ عنْ مدَّةٍ قريبةٍ ، وبزَّ الأقرانَ ، وحملَ القرآنَ ؛ وصارَ أنظرَ أهلِ زمانِهِ ، وأوحدَ أقرانِهِ في أيامِ إمامِ الحرمينِ .

وكانَ الطلبةُ يستفيدونَ منهُ ، ويُدرِّسُ لهُمْ ويرشدُهُمْ ، ويجتهدُ في نفسِهِ ، وبلغَ الأمرُ بِهِ إلىٰ أنْ أخذَ في التَّصنيفِ في حياةِ الإمامِ الجوينيِّ ، فصنَّفَ « المنخولَ » في أصولِ الفقهِ ، فحينَ نظرَ فيهِ شيخُهُ الجوينيُّ قالَ : (**دفنْتَني وأنا حيٌّ ، هلَّا صبرْتَ حتىٰ أموتَ**)[1] .

ثمَّ بقيَ كذٰلكَ إلى انقضاءِ أيامِ الإمامِ الجوينيِّ ، فخرجَ مِنْ نيسابورَ ، وصارَ إلى المعسكرِ ، واحتلَّ مِنْ مجلسِ الوزيرِ نظامِ المُلكِ محلَّ القَبولِ ، وأقبلَ عليهِ الصَّاحبُ لعلوِّ درجتِهِ ، وظهورِ اسمِهِ ، وحسنِ مناظرتِهِ ، وجري عبارتِهِ .

وكانَتْ تلكَ الحضرةُ محطَّ رحالِ العلماءِ ، ومقصدَ الأئمَّةِ الفصحاءِ ، **فوقعَتْ للغزاليِّ اتفاقاتٌ حسنةٌ مِنَ الاختلاطِ بالأئمَّةِ ، وملاقاةِ الخصومِ اللُّدِّ ، ومناظرةِ الفحولِ ، ومنافرةِ الكبارِ ، فظهرَ اسمُهُ في الآفاقِ ، وارتفقَ بذٰلكَ أكملَ الارتفاقِ** ، حتىٰ أدَّتْ بِهِ الحالُ إلىٰ أنْ رُسمَ للمسيرِ إلىٰ بغدادَ للقيامِ بتدريسِ المدرسةِ الميمونةِ النِّظاميَّةِ بها .

فصارَ إليها سنةَ (٤٨٤ هـ) ، وأُعجبَ الكلُّ بتدريسِهِ ومناظرتِهِ ، وما لقيَ مثلَ نفسِهِ ، وتلقَّاهُ الناسُ ، **وأُعجبُوا بمناظرتِهِ وفضائلِهِ ، وصارَ بعدَ إمامةِ خراسانَ إمامَ العراقِ** .

ثمَّ نظرَ في علمِ الأصولِ وكانَ قدْ أحكمَها ، فصنَّفَ فيهِ تصانيفَ ، أعظمُها « المستصفىٰ » .

وجدَّدَ المذهبَ في الفقهِ ، فصنَّفَ فيهِ تصانيفَ ، مِنْها : « البسيطُ » و« الوسيطُ » و« الوجيزُ » و« الخلاصةُ » .

وسبكَ الخلافَ ، فحرَّرَ أيضاً فيهِ تصانيفَ .

وعلَتْ حشمتُهُ ودرجتُهُ في بغدادَ ، حتىٰ كانَتْ تغلبُ حشمةَ الأكابرِ والأمراءِ ودارِ الخلافةِ .

ثمَّ جاءَتْهُ السعادةُ الحقيقيَّةُ ؛ وهيَ **العزوفُ عنِ الدنيا والزَّهادةُ فيها** . . فانقلبَ الأمرُ مِنْ وجهٍ آخرَ ، وظهرَ عليهِ بعدَ مطالعةِ العلومِ الدقيقةِ وممارسةِ الكتبِ المصنَّفةِ فيها **أنَّهُ سلكَ طريقَ التزهُّدِ والتألُّهِ ، وطرحَ الحشمةَ ، وتركَ ما نالَ مِنَ الدرجةِ** ، وأخذَ في الاشتغالِ بأسبابِ التقوىٰ وزادِ الآخرةِ ؛ **فخرجَ عنْ جميعِ ما كانَ فيهِ** .

وقصدَ الحجَّ سنةَ (٤٨٨ هـ) ، ثمَّ رجعَ إلىٰ دمشقَ سنةَ (٤٨٩ هـ) ، وأقامَ بها قريباً مِنْ عشرِ سنينَ بجامعِها بالمنارةِ الغربيَّةِ منها ، واجتمعَ بالفقيهِ نصرٍ المقدسيِّ في زاويتِهِ التي تعرفُ اليومَ بالغزاليةِ .

وأخذَ في التَّصانيفِ المشهورةِ التي لمْ يُسبقْ إليها ؛ مثلِ : « إحياءِ علومِ الدينِ » ، والكتبِ المختصرةِ منها ؛

---

(١) ليست هٰذه العبارة التي قالها الإمام الجويني صادرة عن غيرةٍ علميةٍ **كما يتوهم بعض الناس** ، وإنما المقصود بيان مدىٰ رسوخ ونبوغ الإمام الغزالي في هٰذا العلم وتفوقه علىٰ أقرانه ، **وهٰذا تنبيه علىٰ أنه يجب أن يحمل كلام العلماء علىٰ أحسن المحامل تحسيناً للظن فيهم** ، وهٰذا ما صرَّح به السلف الصالح . **وإن من سوء الأدب تسارع بعض أقلام المعاصرين إلى التحدث عن هٰؤلاء العلماء بكلمات متعرية عن لباس الأدب وإجلال أهل العلم** .

مثلِ « الأربعينَ » ، وغيرِها مِنَ الرسائلِ **التي مَنْ تأمَّلَها . . علمَ محلَّ الرجلِ مِنْ فنونِ العلمِ** .

وما أحسنَ ما قيلَ : (أُحصيَتْ كتبُ الغزّاليِّ التي صنَّفَها ، ووُزِّعَتْ على عمرِهِ ، فخصَّتْ كلَّ يومٍ أربعُ كراريسَ ، **وذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ**)[1]

وأخذَ في مجاهدةِ النفسِ ، وتغييرِ الأخلاقِ ، وتحسينِ الشمائلِ ، وتهذيبِ المعاشِ ، فانقلبَ شيطانُ الرعونةِ ، وطَلَبُ الرئاسةِ والجاهِ ، والتخلُّقُ بالأخلاقِ الذميمةِ . . **إلى سكونِ النَّفسِ ، وكرمِ الأخلاقِ ، والفراغِ عنِ الرسومِ والتَّزيِيناتِ ، والتزيّي بزيِّ الصالحينَ ، وقصرِ الأملِ** .

ووقَفَ أوقاتَهُ على هدايةِ الخلقِ ودعائِهِم إلى الزهدِ في الدنيا والعزوفِ عنها ، والاستعدادِ للدارِ الآخرةِ الباقيةِ والاشتغالِ بعلومِ المعرفةِ ، والانقيادِ لكلِّ مَنْ يتوسَّمُ فيهِ أو يشمُّ مِنْهُ رائحةَ المعرفةِ ، حتى فُتحَ لهُ مِنْ ذلكَ أوفرُ نصيبٍ .

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

ثمَّ بعدَ ذلكَ عادَ إلى وطنِهِ طوسَ ، لازماً بيتَهُ ، مشتغلاً بالتفكُّرِ ، محافظاً على أوقاتِهِ ، إلى أنْ أتى على ذلكَ مدةٌ ، وظهرَتْ تلكَ التَّصانيفُ واشتهرَتْ .

ولمْ يزلْ على ذلكَ حتى انتهَتْ نوبةُ الوزارةِ إلى الأجلِّ فخرِ الملكِ ، جمالِ الشهداءِ تغمَّدَهُ اللهُ برحمتِهِ ، وتزيَّنَتْ خراسانُ بحشمتِهِ ودولتِهِ ، وقدْ سمعَ فخرُ الملكِ وتحقَّقَ بمكانِ الغزاليِّ ودرجتِهِ فحضرَ إليه متبرّكاً بهِ ، فلمَّا سمعَ كلامَهُ . . استدعى مِنْهُ **ألَّا يُبْقِيَ أنفاسَهُ وفوائدَهُ عقيمةً لا استفادةَ مِنْ أنوارِها ولا اقتباسَ** ، وألحَّ عليهِ كلَّ الإلحاحِ ، وتشدَّدَ في الاقتراحِ ، إلى أنْ أجابَ إلى الخروجِ وحملَ إلى نيسابورَ ، فأُشيرَ عليهِ بالتدريسِ في المدرسةِ النِّظاميَّةِ بها ، فلمْ يجدْ بدّاً مِنَ القبولِ ، ونوى بإظهارِ ما اشتغلَ بهِ هدايةَ الطالبينَ ، وإرشادَ القاصدينَ معَ جدِّهِ واجتهادِهِ على ما هوَ عليهِ **ممَّا خصَّهُ اللهُ تعالى بهِ مِنْ أنوارِ المعرفةِ** .

وكانَ قدِ ابتدأَ أوّلاً بصحبةِ الشيخِ العارفِ الفضلِ بنِ محمدٍ الفارمَذيِّ (مِنْ أعيانِ تلاميذِ القشيريِّ صاحبِ « الرسالةِ ») وأخذَ مِنْهُ الطريقةَ .

ولمْ يزلْ على ذلكَ إلى آخرِ عمرِهِ ، فتركَ قبلَ أنْ يُتركَ ، وعادَ إلى بيتِهِ ، واتخذَ في جوارِهِ مدرسةً لطلبِ العلمِ وخانقاه (رباطاً) للصوفيةِ ، وكانَ قدْ وزَّعَ أوقاتَهُ على وظائفِ الحاضرينَ مِنْ ختمِ القرآنِ ، ومجالسةِ أهلِ القلوبِ ، والقعودِ للتدريسِ ؛ بحيثُ لا تخلو لحظةٌ مِنْ لحظاتِهِ ولحظاتِ مَنْ معَهُ عنْ فائدةٍ ، إلى أنْ أصابَهُ عينُ الزمانِ ، وضنَّتْ بهِ الأيامُ على أهلِ عصرِهِ ، فنقلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى كريمِ جوارِهِ .

وكانَ خاتمةُ أمرِهِ إقبالَهُ على الأحاديثِ النبويَّةِ كـ « البخاريِّ » و« مسلمٍ » وغيرِهما .

❁ ❁ ❁

وما أحسنَ ما قالَ الإمامُ فخرُ الدينِ الرازيُّ قدَّسَ اللهُ روحَهُ : (**كأنَّ اللهَ جمعَ العلومَ في قبةٍ ، وأطلعَ الغزَّاليَّ عليها**)[2]

---

(١) بستان العارفين (ص ٢٢١)

(٢) الوافي بالوفيات (١/١٢٠ ، ٢١٢) .

وقالَ بعضُ تلامذتِهِ : رأيْتُ حُجَّةَ الإسلامِ الغزاليَّ في البريةِ ، وعليهِ مرقعةٌ ، وبيدِهِ ركوةٌ وعكازةٌ ، فقلْتُ لهُ : أليسَ تدريسُ العلمِ ببغدادَ خيراً مِنْ ذا ؟!

قالَ : فنظرَ إليَّ شزراً ، وقالَ : **لما بزغَ بدرُ السعادةِ في سماءِ الإرادةِ ، وجنحَتْ شمسُ الأصولِ إلىٰ معارفِ الوصولِ** : (من الطويل)

تَرَكْتُ هَوَىٰ لَيْلَىٰ وَسُعْدَىٰ بِمَعْزِلِ ... وَعُدْتُ إِلَىٰ تَصْحِيحِ أَوَّلِ مَنْزِلِ

وَنَادَتْ بِيَ الأَشْوَاقُ مَهْلاً فَهَـٰذِهِ ... مَنَازِلُ مَنْ تَهْوَىٰ رُوَيْدَكَ فَانْزِلِ

غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلاً دَقِيقاً فَلَمْ أَجِدْ ... لِغَزْلِيَ نَسَّاجاً فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي

❁ ❁ ❁

وروى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله بسنده في كتابه « تبيين كذب المفتري » عن الشيخ الإمام الأوحد زين القراء ، جمال الحرم ، أبي الفتح عامر بن نحام بن عامر العربي الساوي بمكّة حرسها الله قال :

دخلتُ المسجد الحرام يوم الأحد فيما بين الظهر والعصر ، الرابع عشر من شوال سنة خمس وأربعين وخمس مئة . . . وذكر قصته إلىٰ أن قال :

كنتُ أطلب موضعاً أستريح فيه ساعةً علىٰ جنبي ، فدخلتُ الرباط الرامُشتي ، ووقعتُ علىٰ جنبي الأيمن حذاء الكعبة المشرّفة ، مفترشاً يدي تحت خدّي ؛ لكيلا يأخذني النوم ، فتنتقض طهارتي .

ثم قال : فبينا أنا كذٰلك ؛ إذ طرأ عليّ النعاس فغلبني ، فرأيتُ في المنام عرصة واسعة فيها ناس كثيرون واقفين ، وفي يد كل واحد كتاب مجلّد قد تحلقوا كلهم علىٰ شخص ، فسألت الناس عن حالهم ، وعمّن في الحلقة ، قالوا : هو رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهـٰؤلاء أصحاب المذاهب يريدون أن يقرؤوا مذاهبهم واعتقادهم من كتبهم علىٰ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويصحّحوها عليه .

قال : فبينا أنا كذٰلك أنظر إلى القوم ؛ إذ جاء واحد من أهل الحلقة وبيده كتاب ، قيل : **إنّ هـٰذا الشافعي رضي الله عنه** ، فدخل في وسط الحلقة ، وسلّم علىٰ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

قال : فرأيتُ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جماله وكماله متلبساً بالثياب البيض المغسولة النظيفة ؛ من العمامة والقميص وسائر الثياب ، علىٰ زي أهل التصوف ، فردّ عليه الجواب ورحب به ، وقعد الشافعي بين يديه ، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده عليه ، وبعد ذٰلك جاء شخص آخر قيل : **هو أبو حنيفة رضي الله عنه وبيده كتاب** ، فسلّم وقعد بجنب الشافعي ، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده .

ثم أتىٰ بعده كل صاحب مذهب إلىٰ أن لم يبق إلّا القليل ، وكل من يقرأ يقعد بجنب الآخر .

فلما فرغوا . . إذا واحد من المبتدعة الملقبة بالرافضة قد جاء وفي يده كراريس غير مجلدة ، فيها ذكر عقائدهم الباطلة ، وهمَّ أن يدخل الحلقة ويقرأها علىٰ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فخرج واحد ممن كان مع رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إليه وزجره وأخذ الكراريس ورماها إلىٰ خارج الحلقة ، وطرده وأهانه

قال : فلما رأيت القوم قد فرغوا وما بقي أحد يقرأ عليه شيئاً . . تقدمت قليلاً وقلت : يا رسول الله ؛ هـٰذا الكتاب

معتقدي ، ومعتقد أهل السنة ، لو أذنت لي حتىٰ أقرأه عليك ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : وأيش ذاك ؟ قلتُ : يا رسول الله ؛ هو « قواعد العقائد » الذي صنّفه الغزالي ، فأذن لي في القراءة ، فقعدتُ وابتدأت .

قال : ثم قرأت من أوله إلىٰ أن وصلت إلىٰ نعته صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهو قوله : (وأنّه بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برسالته إلىٰ كافة العرب والعجم والجنّ والإنس) .

قال : فلما بلغتُ إلىٰ هـٰذا . . رأيت البشاشة والتبسّم في وجهه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذ انتهيت إلىٰ نعته وصفته ، فالتفتَ إلي وقال : أين الغزالي ؟ فإذا بالغزالي كأنه كان واقفاً على الحلقة بين يديه فقال : هـٰأنذا يا رسول الله ، وتقدّم وسلّم علىٰ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فردّ عليه الجواب ، وناوله يده العزيزة المباركة والغزالي يقبّل يده ويضع خدَّيه عليها ؛ تبركاً به وبيده العزيزة المباركة ، ثم قعد .

قال : **فما رأيتُ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكثر استبشاراً بقراءة أحد مثلما كان بقراءتي عليه « قواعد العقائد »** .

ثم انتبهت من النوم وعلىٰ عيني أثر الدموع ممّا رأيت من تلك الأحوال والمشاهدات والكرامات . انتهىٰ[1]

واعلمْ : أنَّ استيفاءَ مناقبِهِ ومآثرِهِ **يضيقُ عنهُ هـٰذا الكتابُ ؛ إذْ مِنْ حقِّهِ أنْ يكونَ مصنَّفاً** مستقلاً

وقدْ رأيتُ أنْ أختمَ ترجمتَهُ بكتابٍ كتبَهُ إلىٰ بعضِ إخوانِهِ ، مِنْهُ أنَّهُ قالَ :

لقدْ بلغَني علىٰ لسانِ مَنْ أثقُ بهِ مِنْ حسنِ سيرةِ الشيخِ فلانٍ حرسَ اللهُ توفيقَهُ وتشمُّرَهُ في فهمِ دينِهِ ما قوَّىٰ رغبتي في مؤاخاتِهِ في اللهِ تعالىٰ ؛ رجاءً لما وعدَ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ المتحابّينَ فيهِ ، وهـٰذِهِ الأخوَّةُ لا تستدعي مشاهدةَ الأشخاصِ وقربَ الأبدانِ ، وإنَّما تستدعي قربَ القلوبِ وتعارفَ الأرواحِ ، وهيَ جنودٌ مجنَّدةٌ ، فإذا تعارفَتِ . . ائتلفَتْ .

وهـٰأنا عاقدٌ معَهُ الأخوَّةَ في اللهِ تعالىٰ ، ومقترحٌ عليهِ ألّا يخليَني عنْ دعواتِهِ في أوقاتِ خلواتِهِ ، وأنْ يسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يريَني الحقَّ حقاً ويرزقَني اتّباعَهُ ، ويريَني الباطلَ باطلاً ويرزقَني اجتنابَهُ .

ثمَّ قرعَ سمعي أنَّهُ التمسَ منِّي كلاماً في معرضِ النُّصحِ والوعظِ ، وقولاً وجيزاً فيما يجبُ على المكلَّفِ اعتقادُهُ مِنْ قواعدِ العقائدِ .

أمَّا الوعظُ : فلسْتُ أرىٰ نفسي أهلاً لهُ ؛ لأنَّ الوعظَ زكاةٌ نصابُهُ الاتِّعاظُ ، فمَنْ لا نصابَ لهُ . . كيفَ يخرجُ الزكاةَ ، وفاقدُ النورِ كيفَ يستنيرُ بهِ غيرُهُ ، ومتىٰ يستقيمُ الظلُّ والعودُ أعوجُ ؟

وقدْ أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا بنَ مريمَ : عظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظَتْ . . فعظِ الناسَ ، وإلَّا . . فاستحي منِّي » .

والواعظُ واعظانِ : ناطقٌ وصامتٌ ، فالناطقُ القرآنُ ، والصامتُ الموتُ ، وفيهما كفايةٌ لكلِّ متَّعظٍ ، فمَنْ لمْ يتَّعظْ بهما . . كيفَ يعظُ غيرَهُ ؟

---

(١) تبيين كذب المفتري (ص ٢٢٦ ـ ٢٣١) ، ونقل القصة أيضاً الإمام السبكي في « الطبقات » (٢٢٨/٦ ـ ٢٣٧) ، واليافعي في « مرآة الجنان » (١٨٧/٣ ـ ١٨٩) .

ولقدْ وعظْتُ بهما نفسي ، فصدقَتْ وقبلَتْ قولاً وعقداً ، وأبَتْ وتمرَّدَتْ تحقيقاً وفعلاً .

فقلْتُ لنفسي : أمَا أنتِ مصدقةٌ بأنَّ القرآنَ هوَ الواعظُ الناطقُ ، وأنَّهُ الناصحُ الصادقُ ، وأنهُ كلامُ اللهِ المنزَّلُ ، الذي لا يأتيه الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا مِنْ خلفِهِ ؟

قالَتْ : نعمْ .

فقلْتُ : قدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فقدْ وعدَكِ اللهُ عزَّ وجلَّ بالنارِ علىٰ إرادةِ الدنيا ، وكلُّ ما لا يصحبُكِ بعدَ الموتِ فهوَ مِنَ الدنيا ، فهلْ تنزَّهْتِ عنْ إرادةِ الدنيا وحبِّها ؟

فصدقَتْ بذٰلكَ .

ثمَّ ما ارعوَتْ ، بلْ أصرَّتْ على الميلِ إلى العاجلةِ واستمرَّتْ .

ثمَّ أقبلْتُ عليها فوعظْتُها بالواعظِ الصامتِ ، فقلْتُ : قدْ أخبرَ الناطقُ عنْ وصفِ الصامتِ ؛ إذْ قالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقلْتُ لها : هَبِي أنَّكِ ملْتِ إلى العاجلةِ ، أفَلسْتِ مصدقةً بأنَّ الموتَ لا محالةَ آتيكِ ، وقاطعٌ عليكِ كلَّ ما أنتِ متمسكةٌ بهِ ، وسالبٌ منكِ كلَّ ما أنتِ راغبةٌ فيهِ ، وأنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، وأنَّ البعيدَ ما ليس بآتٍ ؟

قالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

فأنتِ مخرَجةٌ بهٰذا عنْ جميعِ ما أنتِ فيهِ ، والحرُّ الكريمُ يَخرجُ مِنَ الدنيا قبلَ أنْ يُخرَجَ مِنْها ، واللئيمُ يتمسكُ بأذيالِها إلىٰ أنْ يخرجَ منها خائباً خاسراً متحسِّراً .

فقالَتْ : صدَقْتَ .

فكانَ ذٰلكَ مِنْها قولاً لا يحصلُ وراءَهُ عملٌ ؛ إذْ لمْ تجتهدْ قطُّ في التزوُّدِ للآخرةِ كاجتهادِها في تدبيرِ العاجلةِ ، ولمْ تجتهدْ قطُّ في طلبِ رضا اللهِ تعالىٰ كاجتهادِها في طلبِ رضا الخلقِ .

إلىٰ أنْ قالَ : فوجدْتُني كما قالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّ في الناسِ مَنْ يموتُ نصفُهُ ولا ينزجرُ النِّصفُ الآخرُ) ، وما أُراني إلَّا مِنْهم .

ولمَّا رأيتُها متماديةً في الطُّغيانِ غيرَ مشفقةٍ بوعظِ الموتِ والقرآنِ . . رأيْتُ أهمَّ الأمورِ الفحصَ عنْ سببِ تماديها معَ اعترافِها وتصديقِها ، فإنَّ ذٰلكَ مِنَ العجائبِ العظيمةِ ، فطالَ عنْهُ فحصي حتىٰ وقفْتُ علىٰ سببِهِ ، وهوَ طولُ الأملِ ، **وهـأنا موصٍ نفسي وإيَّاهُ بالحذرِ مِنْه فإنَّهُ الداءُ العضالُ** ، وهوَ السببُ الداعي إلى الغرورِ والإهمالِ ، **وهوَ اعتقادُ تراخي الموتِ ، واستبعادُ هجومِهِ على القربِ** ، فإنَّهُ لوْ أخبرَهُ صادقٌ في بياضِ نهارِهِ أنَّهُ يموتُ مِنْ ليلتِهِ أوْ يموتُ إلىٰ أسبوعٍ أوْ شهرٍ . . لاستقامَ واستوىٰ على الصِّراطِ المستقيمِ ، ولتركَ جميعَ ما هوَ فيهِ .

فانكشفَ تحقيقاً أنَّ مَنْ أصبحَ وهوَ يأملُ أنْ يمسيَ أوْ أمسىٰ وهوَ يأملُ أنْ يصبحَ . . لمْ يخلُ مِنَ الفتورِ والتسويفِ ، ولا يقدرُ إلَّا علىٰ سيرٍ ضعيفٍ .

فأوصيهِ ونفسي بما أوصىٰ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « صلِّ صلاةَ مودِّعٍ »[1]

ولقدْ أُوتيَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جوامعَ الكلمِ والحكمَ وفصلَ الخطابِ ، ولا يُنتفعُ بموعظةٍ كهـٰذهِ الموعظةِ .

فمَنْ علَتْ علىٰ قلبِهِ في كلِّ صلاةٍ أنَّها آخرُ صلاتِهِ . . حضرَ معَهُ قلبُهُ في الصلاةِ ، وتيسَّرَ لهُ الاستعدادُ للموتِ ، فيجدُّ في أنواعِ الطاعاتِ .

ومَنْ عجزَ عنْ ذٰلكَ . . فلا يزالُ في غفلةٍ دائمةٍ ، وفتورٍ مستمرٍّ ، وتسويفٍ متتابعٍ إلىٰ أنْ يدركَهُ الموتُ ، وتهلكَهُ حسرةُ الفوتِ .

وأنا مقترحٌ عليهِ أنْ يسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يرزقَني هـٰذهِ الرتبةَ ، فإنِّي طالبٌ لها ، قاصرٌ عنها .

وأوصيه ألَّا يرضىٰ مِنْ نفسِهِ إلَّا بها ، وأنْ يحذرَ مواقعَ الغرورِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ .

❁ ❁ ❁

تُوفِّي رضيَ اللهُ عنهُ في يومِ الاثنينِ الرابعَ عشرَ مِنْ جمادى الآخرةِ ، سنةَ خمسٍ وخمسِ مئةٍ (٥٠٥ هـ)[2] ، ودُفنَ بظاهرِ قصبةِ طابرانَ .

والله تعالىٰ يخصّه بأنواع الكرامة في آخرته
كما خصّه سبحانه وتعالىٰ بفنون العلم في دنياه بمنّه

---

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٤٤٢٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

(٢) وبالتاريخ الميلادي يوافق عام (١١١١م) ، فيكون تاريخ طباعة هـٰذا الكتاب المبارك عام (٢٠١١م) موافقاً لمرور (٩٠٠) سنة ميلادية علىٰ وفاة الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .

وصف النسخ الخطية

النسخة الأولى :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة ولي الدين جار الله** ، ضمن مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (٩٨١) ، **وهي نسخة كاملة ، مضبوطة ، متقنة .**

عدد أوراقها (٤٧٤) ورقة ، وعدد سطورها متفاوت بين (٢٩) و(٣٣) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٨) كلمة علىٰ وجه التقريب .

كتبت بخط نسخي دقيق ، وكتبت العناوين وبعض العبارات المهمة بخط أسود عريض جداً ، ووضع فوق العناوين خط أحمر ، وكتبت بعض الكلمات المهمة بخط أسود عريض ، لـٰكنه أصغر من خط العناوين ، ووضع فوقها خطوط حمراء ، وضبطت النسخة بالشكل بصورة شبه كاملة ، **مع أن الإعجام فيها لم يحظ بالعناية ، فكثير من الحروف التي حقها الإعجام جاءت مهملة ، أضف إلىٰ ذٰلك أن هوامشها لم تخل من التصويبات والاستدراكات لبعض النقص ، غير أن اللّافت هو كثرة الحواشي في أولها ، في حوالي أربعين ورقة ، ثم لم يعد هناك حواشٍ إلا في كل عدة ورقات .**

ولم نستطع معرفة اسم الناسخ أو تاريخ النسخ ؛ لعدم ذكرهما على النسخة ، ولـٰكن خطها من خطوط القرن السادس ، والله أعلم ، **بَيْد أننا وجدنا إجازة علىٰ صفحة الغلاف** ، وعسر قراءة بعض الكلمات فيها ، والإجازة هي : (أخبرني هـٰذا الكتاب ، وهو « إحياء علوم الدين » الشيخ الإمام الأجل العالم ، بقية السلف ، زين العلماء و . . . ، عماد الدين ، محمود بن أحمد بن أبي الحسن الفاريابي ، قال : أخبرني . . . الإمام الأجل الأستاذ منتخب الدين ، محمد . . . الأصفهاني ، عن أبيه ، عن المصنف الشيخ الإمام . . . الكبير ، حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي ، رحمة الله عليه رحمة واسعة . كتبه محمد بن أبي المعالي . . .) ، **وقد رمزنا لها بـ (أ) .**

النسخة الثانية :

نسخة مصورة من محفوظات **المكتبة الحميدية** ، ضمن مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، وتحمل الرقم (٦٢٢) ، **وهي نسخة كاملة ، مقابلة ، ومصححة .**

عدد أوراقها (٥٦٠) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٣٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٧) كلمة .

كتبت بخط نسخي دقيق ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول ونحوها بخط أكبر من خط النص العام وباللون الأحمر .

وهي **نسخة مصححة مقروءة بعناية ؛ نظراً لكثرة التصحيحات علىٰ هامشها** ، من قبيل استدراك كلمة ناقصة أو

أكثر ، أو تصويب خطأ ونحو ذٰلك ، حيث قام مصححها بالتصحيح على الهامش ، وكتب في نهاية كل تصحيح : (صح) ، وقلَّما خلت صفحة من هٰذا الصنيع .

ويضاف لذٰلك أنها معجمة بالكامل ، ومضبوطة أواخر الكلمات في الأعم الأغلب ، وكثيراً ما زاد الأمر إلىٰ حد ضبط أول الكلمة ووسطها وإن لم تمس الحاجة إلىٰ ذٰلك ، وكان الفراغ من نسخها يوم الأربعاء ، من شهر ذي الحجة الحرام ، سنة اثنتين وأربعين وثمان مئة .

وفي آخرها تملك نصه : (قد تشرف بتملكه العبد حسين بن يوسف الشافعي من كاتبه عبد الكريم المشار إليه ، بالقاهرة المحروسة ، مصر ، في رمضان المبارك ، من شهور سنة ثلاث وأربعين وثمان مئة ، متعه الله به وبأمثاله بالعلم والعمل بمحمد وآله ، وغفر له ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، إنه هو أرحم الراحمين) .

وكتب بعده : (ثم وُفِّق العبد حسين المذكور لمطالعته من أوله إلىٰ آخره ، وتصحيحه وتحشيته ، **ومقابلته علىٰ ثلاث نسخ في شهور متعددة** ، آخرها الشهر المبارك صفر ، من شهور سنة **سبع وخمسين وثمان مئة** ، في دمشق المحروسة في المدرسة الأسدية الأكزية التي جدَّد عمارتها كاتب هٰذه الأحرف حسين المذكور ، الشافعي مذهباً ، الوسطاني محتداً ، الجزري نسبة ، الدمشقي مسكناً ، غفر الله له وللمسلمين . . .) .

ولعل من المفيد الإشارة إلىٰ أن غلاف هٰذه النسخة في غاية الجودة والجمال ، فهو مرصع بزخارف هندسية ونباتية ، وألوانه زاهية جميلة ، وكذٰلك اعتنى الناسخ بتجميل رأس الصفحة الأولىٰ بزركشة نباتية أخَّاذة .

وعلى الغلاف وقف نصه : (وقفه صاحب الأصل . . . محيي السنة النبوية ، ومفتي الشريعة المصطفوية المرضية السلطان بن السلطان ، السلطان عبد الحميد خان بن السلطان أحمد خان ، لا زال وجوده سبباً لإحياء العلوم ، وسيفاً لله قاطعاً ألسنة الخصوم ، وأنا الداعي لدولته السيد علي بك المفتش بأوقاف الحرمين الشريفين غفر الله له) ، **وقد رمزنا لها بـ (ب)** .

النسخة الثالثة

نسخة مصورة من محفوظات **المكتبة الأزهرية** بالقاهرة ، تحمل الرقم (٤٢٧٠ خاص ، ١٣٤١٣٩عام) آداب وفضائل ، **وهي نسخة كاملة ، متقنة** .

مؤلفة من أربعة أجزاء ، **عدد أوراق** جزئها الأول (٢٩٥) ورقة ، والثاني (٢٩٠) ورقة ، والثالث (٢٦٧) ورقة ، والرابع (٢٧٨) ورقة ، **وبالجملة** : فإن مجموع أوراقها (١١٣٠) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢٥) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٢) علىٰ وجه التقريب .

كتبت بخط نسخي جيد ، وكتبت الكتب والأبواب والفصول ونحوها بخط أكبر من خط متن الكتاب ، وجعلت في وسط الصفحة في كثير من الأحيان ، وقد سَلِمت من عوادي الدهر ، مما أسهم في بقائها واضحة المعالم ، لائحة القسمات ، سهلة القراءة .

عني ناسخها بإعجامها وضبطها بالشكل إلىٰ حد كبير ، فقد كان **يضبط معظم الكلمة** ، غير أنه كان يهمل الضبط الإعرابي في بعض المواضع ، رغم أنه كان يضبط أول الكلمة ووسطها .

ومما يلاحظ عليها أن أول عشرين ورقة منها قد حظي بعناية كبيرة ، فالظاهر أنها قرئت من قبل عالم ، أو قرئت علىٰ عالم ؛ نظراً لكثرة الحواشي والتصحيحات في هـٰذه الأوراق ، وقد كانت الحواشي متنوعة بين شرح أحياناً ، وتخريج للأحاديث أحياناً أخرىٰ ، وذٰلك بذكر راوي الحديث ومخرجه ، ودرجته في بعض الأحيان ، وجاءت بعض الحواشي علىٰ شكل ترجمة مقتضبة لبعض الأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب ؛ كذكر اسم العلَم وسنة وفاته ونحو ذٰلك ، وثمة حواشٍ تشير إلىٰ فروق النسخ ، ولم نجد ما يشير إلىٰ هوية من قام بهـٰذا الجهد الكبير .

لـٰكن كل ما تقدم توقف فجأة بعد الورقة الثانية والعشرين ، إلا ما كان من التصحيحات المتباعدة المتناثرة بين ثنايا الكتاب .

ولم نقف على اسم الناسخ أو تاريخ النسخ ؛ إذ لم يذكر من ذٰلك شيء في هـٰذه النسخة ، لـٰكن وجدنا على الورقة الثانية من الجزء الثالث تملكاً أخفىٰ سوء التصوير معظمه ، وتكرر هـٰذا على الورقة الثانية من الجزء الرابع ، إلا أنه ظهر هـٰذه المرة كاملاً إلا أول كلمة أو كلمتين ، ونصه : (. . . الفقير الراجي عفو ربه الولي عبده تيمور علي الحنفي ، عامله الله بلطفه الخفي ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم) ، وقد وضع ختمه فوق هـٰذا التملك ، وما كتب في الختم هو : (تيمور علي) ، **ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ (ج)** .

النسخة الرابعة :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة تشستربيتي** بدبلن ، تحمل الرقم (٤٠٥١) ، **وهي نسخة كاملة ، متقنة ، تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات** .

تقع ضمن مجموع استغرقت منه (٣٣٦) ورقة ، **وعدد سطور الورقة الواحدة** (٤٠) سطراً ، **وعدد كلمات السطر** (٢٠) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي دقيق ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول والتعدادات بخط كبير مميز ، وقد فَصَل الناسخ بين الكتب فيها بزخرفة نباتية أحياناً ، وببعض العبارات في أحيان أخرىٰ ؛ كذكر اسم المؤلف الإمام الغزالي رحمه الله .

ونظراً لدقة الخط فإن قراءة هـٰذه النسخة مجهدة للعين ، خصوصاً في المواضع التي أصابتها الرطوبة ، حيث تمَّ تصويرها بشكل غير متقَن ، وتكاد تكون خالية من الضبط ، إلا ما ندر من ضبط أواخر بعض الكلمات ، وكذٰلك أهمل التنقيط في بعض الحروف المنقطة تارة ، وتارة أخرىٰ لم تظهر النقط جيداً في التصوير ؛ لما قدمناه من دقة الخط .

هـٰذا ، وقد تميزت بغلاف مزخرف بزخارف نباتية حسنة ، وكذٰلك حال رأس صفحتها الأولىٰ ، **والناسخ** : هو أبو الحسن حيدر بن محمد بن علي الحسني ، وقد فرغ من النسخ **يوم السبت (٢٣) رجب سنة (٧٨٣ هـ)** ، وصدَّرها بفهرس كامل للكتاب ، ذكر فيه أسماء الكتب والأبواب والمطالب والفوائد ونحوها ، **وقد رمزنا لها بـ (د)** .

النسخة الخامسة

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة تشستربيتي** بدبلن ، تحمل الرقم (٤٥٣٥) ، **وهي نسخة جيدة ، تحوي نصف الكتاب الأول (ربع العبادات والعادات) ، تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات** .

بدأت من أول الكتاب ، وانتهت بنهاية (كتاب أخلاق النبوة وآداب المعيشة) ، وهو آخر كتاب من ربع العادات .

عدد أوراقها (٥٠٩) ورقات ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢١) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٢) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي واضح ، وجاءت الكتب والأبواب والفصول ونحوها مكتوبة بخط أكبر من خط الكتاب ، ويلاحظ وجود بعض الحواشي والتعليقات باللغة الفارسية ، وفي هامشها أيضاً بعض التصويبات .

وقد جاء في نهاية ربع العبادات إشارة لمقابلة جزء منها ونصها : (قابلتُ من « كتاب أسرار الطهارة » إلىٰ هنا ، وصححت هـٰذا القدر بحسب الإمكان ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، كتبه العبد الداعي لصاحبه فهد بن المظفر ، لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة ، سنة ست وخمسين وست مئة) ، **ناسخها** : هو محمود بن المظفر بن المكرم بن المؤيد بن المحمد ، ويبدو أنه أخو فهد بن المظفر صاحب المقابلة المشار إليها آنفاً ، **وقد قام بالنسخ علىٰ مراحل امتدت من سنة ثلاث وخمسين وست مئة إلىٰ سنة ثمان وخمسين وست مئة** ، حيث كان يؤرخ لفراغه من بعض الكتب أو الأبواب ، وآخر ما ذكره في نهاية النسخة : (ووقع الفراغ من تحريره وقت انتصاف النهار من يوم الأربعاء ، السابع عشر من ربيع الأول ، سنة ثمان وخمسين وست مئة ، غفر الله لكاتبه محمود بن المظفر بن المكرم ، ولقارئه ولصاحبه ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات بفضله وكرمه ، وهو أرحم الراحمين مباركاً وميموناً) .

وعلى الغلاف تملك نصه : (فزت بتملكه بالشراء الشرعي . حرره العبد الضعيف محمد بن نور الله الشريف ، الملقب بتقي ، حسن حاله فيما بقي) ، ووضع ختمه عليه ، **وقد رمزنا لها بـ (هـ)** .

النسخة السادسة :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة إزمير** ، ضمن مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (٢٩٤) ، **وهي نسخة غير كاملة ، تضم ثلث الكتاب الأول** .

تبدأ من أول « إحياء علوم الدين » ، وتنتهي في أثناء (كتاب الحلال والحرام) وهو الكتاب الرابع من ربع العادات ، عند كلامه عن (أصناف الحلال ومداخله) ، وآخر ما ذكر فيها قوله : (فإن الذي لا يُسكِر منها أيضاً حرام مع قلته ؛ لعينه ولصفته ، وهي الشِّدة) .

عدد أوراقها (١٧٦) ورقة ، وعدد أسطر الورقة (٢٧) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٥) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي ، وكتبت فيها العناوين والكتب والأبواب بخط كبير مميز باللون الأحمر ، وكتبت بعض العناوين والكلمات المفصلية في كثير من الأحيان بخط أسود عريض ، والنسخة معجمة بشكل عام .

أما الضبط بالشكل . . فهو قليل جداً ، وهو عشوائي إن وجد ، فمرة يكون علىٰ أول الكلمة ، وأخرىٰ علىٰ وسطها أو آخرها ، دون منهج مسلوك لذٰلك ، وثمة بعض التصويبات الطفيفة على الهامش ، وكذٰلك القليل من الحواشي ، ونظراً للنقص في آخر هـٰذه النسخة لم نتمكن من معرفة اسم الناسخ ، ولا معرفة تاريخ النسخ .

ويلاحظ علىٰ أولها عدة كتابات تشير إلىٰ بعض من تملكها أو وقفها ، والذي استطعنا قراءته منها هو : (الآن في نوبة العبد الفقير المحتاج إلىٰ رحمة ربه المتعال ، الشيخ محمد المؤذن بن علي النعَّال ، عفا الله عنهما الذنوب ،

يا ذا الجلال والجمال والكمال) ، **وكذلك** : (حين في يومه [؟] العبد الفقير المحتاج إلىٰ رحمة ربه المتعال ، ملا حسين . . . بن الحاجي أحمد البقال ، عفا الله عنهما الذنوب ، يا ذا الجلال والجمال والكمال) ، **ومنه أيضاً** : (وقفت وقفاً صحيحاً وأنا الفقير الشيخي محمد آغا . . . أحمد سعيد أفندي) ، ووضع ختمه عليها في عدة مواضع ، **وقد رمزنا لها** بـ (و) .

النسخة السابعة :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة برلين** ، تحمل الرقم (١٥٣/٩٥) ، **وهي نسخة جيدة** ، متقنة ، **تحوي الربع الأول (ربع العبادات)** .

تبدأ من أول (كتاب فضل العلم والتعلم) وهو الكتاب الأول من ربع العبادات ، وتنتهي بنهاية (كتاب ترتيب الأوراد) **وهو الكتاب العاشر من ربع العبادات** .

عدد أوراقها (٢٩٩) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٥) كلمة .

كتبت بخط نسخي مستعجل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب ونحوها بخط مغاير أسود عريض ، وهي بالجملة نسخة واضحة مقروءة بشكل جيد ، ولم تتعرض لما يشوِّه الكتابة فيها أو يتلفها ؛ كالرطوبة والأرضة .

وهي أيضاً معجمة بالجملة ، وقد قام ناسخها بنثر بعض الحركات ؛ بغية ضبطها بالشكل ، ولـٰكنه لم يتخذ لذلك منهجاً ، ومع ذلك فهـٰذا قليل جداً . وتجدر الإشارة إلىٰ أن فيها بعض التصويبات ، وهي قليلة أيضاً ، ولم يذكر اسم ناسخها .

وجاء في آخرها : (تم الجزء الأول من « إحياء علوم الدين » آخر ربيع الأول ، يوم الجمعة ، **سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة** ، يتلوه ربع العادات) ، **وعلىٰ أولها عدة تملكات ، نذكر منها ما استطعنا قراءته** : (اشترىٰ صاحبها بمدينة إربل . . . عيسى بن علي بن عبد الخالق بن علي بن منصور في غرة ذي الحجة ، سنة ثلاث وعشرين وست مئة) . وعليها تملك باسم : (حسين بن علي بن محمد بن عبد العالي ، بمدينة إربل) ، **وأيضاً** : (انتقل إلىٰ خزانة أفقر خلقه . . . عبد الله وابن عبده ، عام أربع . . . وست مئة هجرية) .

وعليها مناولة ، نصها الذي استطعنا قراءته هو : (ناول الإمام العالم ، الفاضل الكامل ، الصدر الكبير ، حجة الإسلام ، أوحد الأيام . . . ، فريد الدهر ، وحيد العصر . . . سيد الحفاظ ، جمال الدين ، أبو الخطاب بن حسن بن علي ، ذي النسبين ، بين دحية والحسين رضي الله عنهما ، سبط الإمام أبي البسام الفاطمي الحسيني ، حسَّن الله أيامه ، جميعَ هـٰذه النسخة ، وهي خمس مجلدات ، كلها بخط واحد ، تشتمل علىٰ جميع كتب « إحياء علوم الدين » من يده إلىٰ يد الجماعة الفقهاء الفضلاء الأجلاء السادة . . . كل واحد منهم . . . تناول من يده : نجم الدين عمر ، وبهاء الدين محمد ، وزكي الدين حسين بني إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ، وابن . . . عيسى بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ، وضياء الدين عيسى بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان . . . محمد بن محمد بجميع تصانيفه ومسموعاته ومناولاته ؛ ليحصل له في ذلك الأجر الجزيل ، والثواب الجميل ، صحت المناولة ، وحدثتهم به عن الشيخ الفقير ، المقرئ

الفاضل . . . علي بن أحمد الكناني ، يعرف بـ (ابن حُنين) قال : حدثني به مؤلفه بمكة في المسجد الحرام . . . . وقد أجزت لهم جميع ما سألوا . وكتب أصغر عبيد الله ذو . . .) ، **ورمزنا لهٰذه النسخة** بـ (ز) .

النسخة الثامنة :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة تشستربيتي** بدبلن ، تحمل الرقم (٣٣٥٣) ، **وهي نسخة جيدة ، مصححة ، تحوي الربع الثاني (ربع العادات) ، تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات .**

تبدأ من (كتاب آداب الأكل) وهو الكتاب الأول من ربع العادات ، وتنتهي بنهاية (كتاب أخلاق النبوة) وهو آخر كتاب من ربع العادات .

عدد أوراقها (٢٦٦) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٥) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها الأبواب والفصول والأقسام ونحوها بخط كبير ممدود ، وهي نسخة واضحة مقروءة بشكل جيد ، باستثناء بعض المواضع التي أصابتها الرطوبة فأكسبتها شيئاً من الغموض والصعوبة ، وهي كذٰلك معجمة منقوطة بشكل عام ، ولم يُعن ناسخها بضبطها بالشكل ، فجاءت خالية من ذٰلك .

ناسخها : هو محمد بن أحمد بن عمر الفنجكردي ، وقد فرغ من نسخها ضحوة يوم الثلاثاء ، العاشر من شهر الله الحرام ذي القعدة ، **سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة ، وقد جاء في آخرها ما نصه** : (طالع فيه داعياً لمالكه بطول بقائه العبد الفقير ، الذليل الحقير ، تراب الأقدام ، وأقل الخدام ، الراجي رحمة ربه العامة للأنام ، إسماعيل بن محمد بن عبد الوهاب البسطامي طريقة ومسلكاً ، الشافعي مذهباً ، النابلسي مولداً ومنشأً ، تاب الله عليه توبة نصوحاً ، وغفر له ولوالديه ، ولمن قرأه ودعا له بالمغفرة ، ولوالديه ولجميع المسلمين أجمعين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل) ، **وقد رمزنا لها** بـ (ط) .

النسخة التاسعة

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة تشستربيتي** بدبلن ، تحمل الرقم (٤٩٥٧) ، **وهي نسخة جيدة ، تحوي نصف الربع الثاني (ربع العادات) ، تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات .**

تبدأ من أول (كتاب آداب الصحبة) وهو الكتاب الخامس من ربع العادات ، وتنتهي بنهاية (كتاب أخلاق النبوة وآداب المعيشة) وهو آخر كتاب من ربع العادات .

عدد أوراقها (٢٤٤) ورقة ، وعدد سطور الورقة (١٧) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١١) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي جميل ، وكتبت الكتب والأبواب وبعض الكلمات المميزة بخط أسود عريض جداً .

وهي نسخة معجمة بشكل كامل ، وقد اعتنىٰ ناسخها بضبطها بالشكل ضبطاً زائداً على الضبط الإعرابي ، بل ضبط بعض الكلمات بشكل كامل وإن لم تدع إلىٰ ذٰلك حاجة ، وكأن غايته تزيين الخط فقط ، وهي بصورة عامة واضحة

في القراءة ، غير أن الرطوبة اجتاحت أطراف بعض الأوراق ـ وهي ليست بالكثيرة ـ مما أدىٰ إلىٰ طمس معالم بعض الكلمات بالكلية ، فلم تعد قراءتها ممكنة ، إضافة إلىٰ رداءة تصوير بعض الورقات ، الأمر الذي أدىٰ إلى النتيجة نفسها .

ناسخها : هو سليمان بن أبي المظفر الجيلي ، حيث كتب في آخرها : (وقع الفراغ علىٰ يدي كاتبه ، وهو سليمان بن أبي المظفر الجيلي ، وذٰلك بمدينة السلام بغداد ، في المدرسة النظامية حرسها الله ، من شهور سنة سبع وثمانين وخمس مئة) ، **وعلىٰ صفحة العنوان عدة تملكات ، وما قرأناه منها هو** : (في نوبة فقير ألطاف الملك القوي السيد حسن ابن السيد عبد الرحمٰن . . . في محرم الحرام « ١١٧٦ هـ ») ، **وأيضاً** : (صاحبه العبد المفتقر إلى الله الغني محمد بن علي بن طاهر الحسني . . . وكتب غرة ذي الحجة ، سنة ثمان وسبع مئة) ، **وثمة تملك في آخر النسخة نصه** : (قد تشرف في تملكه الفقير إلىٰ مولاه السيد محمود ابن المرحوم السيد أحمد العزيزية) ، **وتملك آخر** : (ثم انتقل بالشراء إلىٰ نوبة العبد الفقير الزبير . . . الحموي ، سنة « ١١٢٠ هـ ») ، **وقد رمزنا لها بـ (ي)** .

النسخة العاشرة :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة غازي خسرو بك** بسراييفو ، رقمها (١٤١٩)[1] ، **وهي نسخة متقنة ، مضبوطة ، تحوي الربع الثالث (ربع المهلكات)** .

تبدأ من (كتاب عجائب القلب) وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات ، وتنتهي بنهاية (كتاب ذم الغرور) وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات ، وبه يتم هٰذا الربع .

عدد أوراقها (٢٩٢) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢١) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٢) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول والتعدادات بخط أكبر قليلاً من خط متن الكتاب ، ومُيِّز بالحمرة أيضاً ، وتعد نسخة واضحة مقروءة ، وتكاد تكون خالية من الضبط بالشكل ، وهي معجمة في الغالب ، وقد أصابت الرطوبة جملة لا بأس بها من الأوراق ، لٰكنها لم تترك أثراً كبيراً .

ناسخها : هو أبو المظفر سعد بن محمد بن أبي الفوارس ، وقد فرغ من نسخها يوم السبت ، الثامن من صفر ، **سنة اثنتين وست مئة ، وجاء علىٰ غلافها** : (من نعم الله تعالىٰ علىٰ عبده العاجز ، مصطفى بن إسماعيل الشهير بخلدي عاملهما بلطفه الوفير ، وكرمه الكثير) ، وقد صنع الناسخ فهرساً لمحتويات هٰذا القسم من الكتاب ، على الوجه الداخلي للغلاف ، **وجاء على الورقة الأولىٰ عدة تملكات ، والذي اتضح منها** : (انتقل بالبيع الشرعي إلىٰ ملك أضعف خلق الله ، وأحوجهم إلىٰ رحمته ، محجوب بن سيد علي بن حاجي البرسوي . . .) ، **ومنها أيضاً** : (انتقل هٰذا الكتاب بحكم المبايعة الصحيحة إلىٰ ملك الفقير إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، علي بن محمد بن موسى الهكاري ، في رابع ذي الحجة ، **سنة خمسين وست مئة**) ، **ومنها كذٰلك** : (انتقل بالبيع الشرعي إلىٰ ملك أضعف عباد الله ، وأحوجهم إلىٰ رحمته ، الحاج محمد بن الحاج مصطفىٰ . . . مولداً ، والبروساوي مسكناً ، عفا الله عنهما . . .) ، ويظهر على الورقة الثالثة في زاويتيها العلويتين ختم مكتبة الغازي خسرو بك ، **ورمزنا لها بـ (ك)** .

---

(١) وقد تكرم فضيلة الداعية السيد علي الجفري بتصوير هٰذه المخطوطة ، فجزاه الله تعالىٰ عنا كل خير .

النسخة الحادية عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة **غازي خسرو بك** بسراييفو ، ورقمها (٣٨٦٧) ، **وهي نسخة مضبوطة ، متقنة ، تحوي النصف الأول من الربع الثالث (ربع المهلكات)** .

تبدأ من أول (كتاب عجائب القلب) وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات ، وتنتهي بنهاية (كتاب آفة الغضب والحقد والحسد) وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات .

عدد أوراقها (٢١٦) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر (٩) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي جميل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول بخط أسود عريض ، وقد جعله الناسخ في وسط الصفحة ، وقد اهتم بضبطها بالشكل في غالب الأحيان ، وكذلك أعجم سوادها الأعظم .

وقد سلمت من عوادي الدهر ، إلا ما اعتراها من الرطوبة ابتداء من الورقة (١٧٥) إلىٰ آخر النسخة ، لكنها لم تؤثر إطلاقاً على الكتابة ، فبقيت واضحة مقروءة ، ويمكن أن نلاحظ بعض الحواشي المتناثرة علىٰ عدد لا بأس به من الأوراق ، وقد كتبت بأكثر من قلم ، وهناك بعض التصحيحات على الهوامش ، منها ما هو بخط الناسخ ، ومنها ما هو بخط المحشِّي ، ولم يذكر فيها اسم الناسخ ، ولا تاريخ النسخ ، ولم يذكر عليها تملك أو وقف أو غير ذلك ، وقد ظهر في أولها ختم مكتبة الغازي خسرو بك ، **ورمزنا لها بـ (ل)** .

النسخة الثانية عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة **تشستربيتي** بدبلن ، تحمل الرقم (٥١٣٤) ، **وهي بعض نسخة مصححة مضبوطة ، تحوي جزءاً من الربع الثالث (ربع المهلكات)** ، تبدأ من قوله : (أن يحتمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله . . .) في أثناء (كتاب ذم الكبر والعجب ـ بيان فضيلة التواضع) ، وتنتهي بنهاية (كتاب ذم الغرور) وهو آخر كتاب من ربع المهلكات .

عدد أوراقها (٨٤) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢٣) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر (١٣) كلمة .

كتبت بخط نسخي معتاد ، والأبواب والفصول ونحوها مكتوبة فيها بخط أكبر حجماً من خط سواد النسخة .

وقد أثرت الرطوبة في بعض المواضع منها ، غير أنه تأثير طفيف لم يعمل علىٰ تشويش الخط أو تصعيب القراءة ، كما أن فيها آثار تمزيق في بعض المواضع .

عُني ناسخها بضبطها من حيث الإعراب ، وإعجامها بشكل عام ، وفي بعض الكلمات تجاوز الضبط الإعرابي إلىٰ ضبط أول الكلمة ووسطها أحياناً ، وينبغي الإشارة إلىٰ أن الصفحتين الأخيرتين قد طمستا طمساً بالغاً ، الأمر الذي أعاق قراءة آخر هـٰذه النسخة بشكل شبه كامل ، اللهم إلا ما استطعنا تبيُّنَه من اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، فالناسخ هو الحسين بن نصر بن محمد بن خميس ، وقد فرغ منها **في (٦) رمضان سنة (٥٤٧ هـ) ، وقد رمزنا لها بـ (م)** .

النسخة الثالثة عشرة

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة تشستربيتي** بدبلن ، **تحمل الرقم (٣٤٢٩)** ، **وهي نسخة جيدة** ، **تحوي الربع الرابع (ربع المنجيات)** ، **تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات** .

تبدأ من (كتاب التوبة) وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات ، وتنتهي بنهاية (باب سعة رحمة الله تعالىٰ) وهو آخر كتاب : « إحياء علوم الدين » .

عدد أوراقها (٣٠٧) ورقات ، وعدد سطورها متفاوت جداً ، ففي بعض المواضع (٢٦) سطراً ، بينما وصل في مواضع أخرىٰ إلىٰ (٣٥) سطراً ، وكذٰلك تفاوت عدد كلمات السطر بين (١٢) إلىٰ (١٩) كلمة .

كتبت بخط نسخي جميل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب وبعض الكلمات المهمة بخط كبير مميز ، غير أن الخط تفاوت فيها تفاوتاً ظاهراً ، وأغلب الظن أنها نسخت من قبل ناسخين أو أكثر ، وهـٰذا ما أدىٰ أيضاً إلى التفاوت في عدد السطور ، وعدد الكلمات في السطر بشكل ملحوظ ، وكذٰلك يدلنا علىٰ أنها نسخت بأكثر من يد هو أن الضبط بالشكل تراوح فيها بين ضبط شبه تام حيناً ، وضبط إعرابي حيناً آخر ، بينما جاءت مواضع كثيرة من غير ضبط على الإطلاق ، وأيضاً اختلف إعجامها بين الإعجام الكامل وبين إهمال بعض الحروف في كثير من الأحيان ، غير أنه أقل تفاوتاً من الضبط ، ولا يفوتنا أن نذكر أن الرطوبة قد عَدَتْ علىٰ بعض المواضع عَدْواً ظاهراً ، فأورث ذٰلك صعوبةً في القراءة ، وتشويشاً في الرؤية في تلك المواضع ، ولم نستطع الوقوف على اسم ناسخها ، إلا أن في آخرها تملكاً باسم زكريا بن محمد السيد الحسني ، وقد تملكها بالشراء الشرعي ، علماً أنه قد ضُرب علىٰ هـٰذا الاسم ، وقد تمكنَّا من قراءته بصعوبة جرَّاء ذٰلك ، وبعده تملك آخر باسم عبد الفتاح وجاء بعده كلام ممحوٌّ لم نتمكن من قراءته ، بقي أن نقول : إن تاريخ نسخها هو سنة (٨٤١ هـ) ، **وقد رمزنا لها بـ (ن)** .

النسخة الرابعة عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة غازي خسرو بك** بسراييفو ، تحمل الرقم (١٣٠٨) ، **وهي نسخة مصححة متقنة** ، **تحوي نصف الربع الرابع (ربع المنجيات)** .

تبدأ من أول (كتاب التوبة) وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات ، وتنتهي بنهاية (كتاب الفقر والزهد) وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات .

عدد أوراقها (٢١٩) ورقة ، وعدد أسطر الورقة الواحدة (٢٠) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٠) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي ، وكتبت الكتب فيها بخط عريض أسود ، وقد أفرد الناسخ بعضها في صفحة كاملة مستقلة ، وكتبت الأبواب وبعض العبارات المهمة بخط أسود عريض ضمن سياق النص العام ، لم يُعن ناسخها بضبطها بالشكل ، سوىٰ أنه أعجم من حروفها ما يستحق ذٰلك .

ولم نستطع الوقوف على اسم الناسخ ، أو تاريخ النسخ ، **غير أنه جاء علىٰ أولها بعض التملكات منها** : (في

نوبة الفقير إلى الله محمد البدليسي) ، **ومنها أيضاً** : (من كتب العبد الفقير المحتاج إلىٰ رحمة ربه الحنان محمد بن سليمان ، عفا الله عنهما) ، **وجاء على الورقة الأخيرة منها** : (وقعت المعارضة بالأصل ، والحمد لله تعالىٰ) ، وقد ظهر جليّاً علىٰ أولها ختم مكتبة الغازي خسرو بك ، وكذٰلك علىٰ آخرها ، **وقد رمزنا لها بـ (س)** .

النّسخة الخامسة عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة **غازي خسرو بك** بسراييفو ، تحمل الرقم (٧٠٨٣) ، **وهي بعض نسخةٍ مصححة ، متقنة ، تحوي جزءاً من الربع الرابع (ربع المنجيات)** .

تبدأ من أول (كتاب الفقر والزهد) وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات ، وتنتهي بنهاية (كتاب المحبة والشوق) وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات .

عدد أوراقها (١٤٩) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١١) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي جميل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب وبعض العبارات بخط أسود عريض ، وهي نسخة واضحة ، مرتبة بشكل جيد ، وعلىٰ هوامشها بعض التصحيحات ، والقليل من الحواشي ، مما يدل علىٰ أنها قد قرئت أكثر من مرة كما سيظهر من خلال ما سنطلعك عليه من كتابات جاءت في آخرها ، وقد تعرضت في معظمها للرطوبة ، إلا أن أثر هـٰذه الرطوبة لم يكن كبيراً وإن كان قد أكسب بعض المواضع شحوبة في الكتابة ، ومع ذٰلك ظلت مقروءة علىٰ وجه العموم ، وحرص ناسخها علىٰ ضبطها بالشكل بصورة شبه تامة ، وكذٰلك فعل فيما يتعلق بالإعجام في الحروف التي حقها ذٰلك .

ولم نقف على اسم ناسخها ، فثمة أكثر من اسمٍ علىٰ آخرها ، ولم يصرح أيٌّ منها بأنه الناسخ ، وكل ما تبين هو تاريخ النسخ حيث جاء ما نصه : (آخر كتاب المحبة من جملة كتب « إحياء علوم الدين » ، والفراغ من تمامه وافق يوم الخميس ، العشرين من ذي القعدة ، **من شهور سنة اثنتين وستين وخمس مئة هجرية**) ، **ومما جاء علىٰ آخرها أيضاً** : (قوبلت هـٰذه المجلدة بنسختين الأصلين اللذين كتبها (كذا) منهما علىٰ قدر الوسع والطاقة . . .) ثم لم تعد تظهر الكتابة ، مما أدىٰ إلىٰ جهالة اسم الناسخ ، **ومما ذكر على الآخر أيضاً** : (طالع في هـٰذا الكتاب الشريف الراجي عفو ربه ، أحمد بن . . . غفر الله لجميع المسلمين) ، **ومنه أيضاً** : (طالع في هـٰذا الكتاب الشريف الراجي عفو ربه ورحمته وغفرانه ، علي بن أحمد بن سعيد ، غفر الله له ولوالديه ، ولمن دعا له وترحم عليه ، ولجميع المسلمين ، آمين يا رب العالمين ، في خامس شوال ، سنة إحدىٰ وثمان مئة ، أحسن الله تمامها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد خير خلقه ، وآله وصحبه وسلم إلىٰ يوم الدين) ، بقي القول : إنه جاء علىٰ أولها : (« إحياء العلوم » صاحبه خطيب خواجه) ، وقد مهر فوقه بختم مكتبة الغازي خسرو بك ، **ورمزنا لها بـ (ع)** .

النّسخة السادسة عشرة

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة غازي خسرو بك** بسراييفو تحمل الرقم (٣٨٧) ، **وهي نسخة مقابلة ، مصححة ، تحوي النصف الثاني من الربع الرابع (ربع المنجيات)** .

تبدأ من (كتاب التوحيد والتوكل) وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات ، وتنتهي بنهاية (كتاب ذكر الموت وما بعده) وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، وهو آخر كتاب في « إحياء علوم الدين » .

عدد أوراقها (٢٠٣) ورقات ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢٢) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٢) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي مستعجل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب وبعض الكلمات المهمة بخط أسود عريض ، وهي نسخة واضحة عموماً ، وتفاوتت عناية ناسخها بضبطها بالشكل ، فبينما جاءت بعض الصفحات فيها خالية من الضبط ، تجد صفحات أخرىٰ قد ضبطت بالحد الأدنىٰ من الشكل ، وهي معجمة في الأغلب .

ووجد في هوامشها بعض التصويبات ، وكذٰلك كتبت كلمة (بلغ) في مواضع عدة ، وفي بعض الصفحات كتبت هٰذه الكلمة مرتين في الموضع نفسه ، وبقلمين مختلفين ، مما يدل أنها قوبلت غير مرة ، ومن أكثر من ناسخ ، إلا أننا لم نقف على اسم الناسخ ، ولا علىٰ تاريخ النسخ ، علماً أنه جاء في آخرها : (وقع الفراغ من مقابلتها . . . الإمكان مع نسخ ظاهرها الصحة . . . في عشية يوم الثلاثاء ، آخر جمادى الأولىٰ ، سنة ثمان وسبعين وست مئة . . . حامداً لله ، ومصلياً علىٰ نبيه محمد وآله . . . سطَّره العبد الضعيف المحتاج إلىٰ رحمة . . . محمد بن عبد اللطيف بن . . . القونوي ، حامداً . . . ، ومصلياً علىٰ . . .) ، وجاء علىٰ غلافها : (تملكه الفقير درويش محمد بن الحزمي من علي قاضي الخاني) ، وعلىٰ وجه الغلاف الداخلي : (صاحبه الراجي عفو الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طاهر ، أُعطي مناه) ، وثمة تملكات أخرىٰ لم نتمكن من قراءتها ، وقد رمزنا لها بـ (ف) .

النسخة السابعة عشرة :

نسخة من محفوظات مكتبة برلين ، تحمل الرقم (٥٥) ، وهي نسخة جيدة ومتقنة ، تحوي النصف الثاني من الربع الرابع (ربع المنجيات) .

تبدأ من أول (كتاب المحبة والشوق) وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات ، وتنتهي بنهاية الكتاب ؛ أعني : « إحياء علوم الدين » .

عدد أوراقها (٢٦٧) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة يتراوح بين (١٦) و(١٧) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٩) كلمات .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول ونحوها بخط أسود عريض ، وهي نسخة واضحة الخط ، سهلة القراءة ، وقد خلت من الحواشي أو التعليقات ونحوها ، ولم يهتم ناسخها بإعجامها كثيراً ، فجاء كثير من حروفها المستحقة للإعجام مهملاً ، وكذٰلك لم يضبطها بالشكل أيضاً ، ناسخها : أبو القاسم ، يحيى بن محمد الأنباري ، وقد فرغ من نسخها يوم السبت ، عاشر شهر الله الأصم رجب ، سنة خمس وخمسين وخمس مئة ، وجاء علىٰ غلافها بعض التملكات ، وما تبين لنا منها : (هٰذا المجلد السابع من كتاب « إحياء علوم الدين » تصنيف الإمام ، حجة الإسلام ، أبي حامد ، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه انتقل بحكم العقد الشرعي مع بقية المجلدات ـ وجملتها سبعة ـ إلى العبد الضعيف ، الراجي مولاه . . . الغفور سرحان بن

خضر الأرموي ، في حادي عشر محرم ، سنة . . . . . . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيد المرسلين وآله أجمعين) ، **وجاء أيضاً** : (انتقل هـٰذه المجلدة مع سائر المجلدات بأسرها من مالكه المتقدم ذكره متع الله به الإسلام ببقائه إلى العبد الضعيف الراجي عفو الله تعالىٰ ، علي بن أحمد بتملك شرعي وناقل سمعي حتىٰ . . . الرواح والرجوع للمحروسة حلب ، في الثامن والعشرين من ربيع الآخر ، **سنة سبع وست مئة**) ، **وجاء أيضاً** : (انتقل هـٰذه المجلدة مع سائر المجلدات بأسرها من الكتاب إلى العبد الضعيف المحتاج إلىٰ مغفرة ربه الكريم ، نصر الله . . . في أواخر شعبان . . . **ست مئة**) ، **وجاء أيضاً** : (انتقل هـٰذه المجلدة السابعة مع سائر المجلدات من مالكه . . . بن عثمان إلىٰ أعجز العباد ، وأحوجهم إلىٰ مغفرة ربه الكريم بناقل شرعي . . . محمد بن صالح ، **سنة ثلاث وسبعين وسبع مئة**) ، ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ (ص) .

النسخة الثامنة عشرة :

مطبوعة قديمة من مطبوعات **المطبعة الميمنية** بالقاهرة ، وتم طبعها في (١٣٠٦ هـ) .

وهي من مكتبة السيد عبد القادر بن أحمد بن محمد السقّاف رحمه الله تعالىٰ نزيل جاوة ، **حيث تكرم حفيده الحبيب الوجيه حسين بن عبد الله السقاف رحمه الله تعالىٰ (ت ١٤٤٠ هـ) بإهدائها للناشر فجزاه الله خيراً** .

وتقع في أربعة أجزاء مقسمة كالتالي :

ـ **الجزء الأول** : يحتوي الربع الأول من « إحياء علوم الدين » ، وهو ربع العبادات ، ويقع هـٰذا الجزء في (٢٤٨) صفحة ، **الجزء الثاني** : يحتوي الربع الثاني من « إحياء علوم الدين » ، وهو ربع العادات ، ويقع هـٰذا الجزء في (٢٦٠) صفحة ، **الجزء الثالث** : يحتوي الربع الثالث من « إحياء علوم الدين » ، وهو ربع المهلكات ، ويقع هـٰذا الجزء في (٢٩٢) صفحة ، **الجزء الرابع** : يحتوي الربع الرابع من « إحياء علوم الدين » ، وهو ربع المنجيات ، ويقع هـٰذا الجزء في (٣٩٢) صفحة ، علماً أن في كل جزء فهرساً عاماً لمحتوياته وموضوعاته .

ومما تحسن الإشارة إليه أن هـٰذه النسخة قد قرئت بعناية ؛ نظراً لبعض التصويبات التي لاحظناها فيها ، وهي تصويبات إملائية عموماً ، وسببها الطباعة ؛ ونظراً لقدم هـٰذه النسخة فقد أثرت فيها الأرضة وأتت علىٰ طائفة من الصفحات فانخرمت ، غير أنها لم تؤثر علىٰ سلامة الكتاب وجودته ، ويضاف لذٰلك أن طول الزمن وقدم العهد قد أجهد الأوراق وأضعف بنيتها ، وأكسبها هشاشة تحيج المتعامل معها إلى اللطف في المعاملة والتقليب حتىٰ لا تتلف .

ولا يفوتنا أن هـٰذه النسخة احتوت علىٰ ترجمة موجزة للمؤلف رحمه الله تعالىٰ ، وترجمة أكثر إيجازاً للإمام السهروردي ؛ لأن كتابه « عوارف المعارف » قد طبع بهامشها

ونختم بأنه قد تم الاستئناس بما في هـٰذه النسخة عند دراستنا لفروق النسخ الخطية ، وقد كان لها دور جيد في حل غموض بعض المشكلات ، ولا سيما في حال ورود خرم أو سقط أو غيرهما من الصعوبات ، وما أفدناه منها بيّنّاه في الحاشية مشيرين إلىٰ ذٰلك بالرمز الذي اعتمدناه لها ، **وقد رمزنا لها بـ** (ق) .

« الإملاء على مشكل الإحياء »

النسخة الأولى :

نسخة مصورة من محفوظات دار **الكتب المصرية** بالقاهرة ، تحمل الرقم (١٧٠٤ خاص) ، (٢٧ تصوف) ، **وهي نسخة كاملة** .

تقع ضمن مجموع يحتوي أربع مخطوطات .

عدد أوراقها (٣٥) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢١) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر (١٠) كلمات .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وجاءت خالية من الضبط بالشكل ، وفيها الكثير من التصحيف وبعض الكلمات التي سقطت ، إضافة إلى التشويش في ترتيب الكلام فيها ، حيث قدَّم الناسخ فيها وأخَّر بشكل واضح ؛ نظراً لانقطاع ترابط العبارات في بعض المواضع ، وجرَّاء معارضتها مع بقية النسخ تبين أن ذلك ناشئ عن التقديم والتأخير ، وقد كتبت بعض عناوينها بلون مغاير للون المتن ، ونجم عن ذلك عدم ظهور هذه العناوين أو الفصول في التصوير ، فبقي موضعها أبيض ، **ناسخها** : أحمد بن علي بامزروع اليمني التريمي الشافعي ، وقد فرغ من نسخها في الثالث عشر من شهر مولد ثاني ، سنة ألف ومئة وواحد وثمانين للهجرة النبوية الشريفة ، **وقد رمزنا لها بـ** (ر) .

النسخة الثانية :

نسخة مصورة من محفوظات دار **الكتب المصرية** بالقاهرة ، تحمل الرقم (٥٤٨ تصوف) ، **وهي نسخة كاملة** .

عدد أوراقها (٥٢) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر (٧) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي حسن ، ولم يُعْنَ ناسخها بضبطها على الإطلاق ، غير أنه ارتكب فيها أمراً مستغرباً ، وذلك أنه إذا أراد الإشارة إلى فروق النسخ . . لم يكن يكتب هذا الفرق على الهامش كما هو معروف لدى النسَّاخ ، بل كان يثبت الفرق ضمن النص إلى جانب الكلمة التي في أصله ، وتكرر كثيراً وجود بياض في هذه النسخة بمقدار كلمة أو كلمتين ، الأمر الذي أثر على جودتها ، ويبدو أنها نسخت من النسخة (خ) ، أو أنهما نُسختا من أصل واحد ؛ نظراً للتوافق الملحوظ بينهما ، خصوصاً في مواضع السقط أو التصحيف في حال وجوده ، **ناسخها** : السيد عثمان ، الملقب بعوفي ، وهو من تلاميذ الحافظ أحمد الحِلْمي ، كما جاء في آخرها ، غير أنه لم يذكر تاريخ النسخ أو مكانه ، **وقد رمزنا لها بـ** (ش) .

النسخة الثالثة

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة الملك عبد العزيز العامة** بالرياض ، تحمل الرقم (٩٣٣) ، **وهي نسخة كاملة ، رائقة ، جيدة** .

عدد أوراقها (٤٩) ورقة ، وعدد السطور في الورقة (١٩) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر (٨) كلمات .

كتبت بخط نسخي واضح مقروء ، وكتبت العناوين فيها باللون الأحمر المميز ، وكذلك بعض الكلمات المهمة ، وقد خلت من الضبط بشكل عام ، كما أنها لم تخلُ من بعض التصحيفات أو السقط الذي ربما امتد لأكثر من سطر ، وقد لوحظ في أثناء المقابلة تشابه كبير بينها وبين النسخة (ض) ، وربما نشأ هٰذا من نسخهما من أصل واحد ، والله تعالىٰ أعلم .

ومن كحل عينيه بالنظر إليها . . يلاحظ أيضاً أن غلافها مزين بورق (الإيبرو) الأنيق ، **ناسخها** : أبو العباس ، أحمد بن إسماعيل بن محمد بن الدعيم ، وقد فرغ من نسخها نهار الجمعة في الثالث عشر من ربيع الأول ، سنة ست وتسعين وثمان مئة من الهجرة النبوية الشريفة ، **وقد رمزنا لها بـ (ت)** .

النسخة الرابعة :

نسخة مصورة من محفوظات دار **الكتب المصرية** بالقاهرة ، **تحمل** الرقم (٧ مجاميع حليم) ، **وهي نسخة كاملة** ، **جيدة** ، تقع ضمن مجموع يحتوي إحدىٰ عشرة مخطوطة .

عدد أوراقها (٤٤) ورقة ، وعدد سطور الورقة (٢٣) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٦) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي جميل وبلون واحد ، وتناثرت بعض الحركات علىٰ شيء من حروفها دون منهج واضح متَّبع في ذٰلك ، وقد جعل الناسخ سطورها محصورة ضمن إطار مزدوج مستطيل ، وقد بدا اهتمام الناسخ بها من حيث تعليقاته علىٰ هوامشها ، وكذٰلك وضع بعض العناوين الجانبية ، ولم تَفُتْهُ الإشارة إلىٰ بعض فروق النسخ الأخرىٰ أيضاً ، والأمر الذي تجدر الإشارة إليه أنه في أثناء المقابلة تبين مدى التشابه إن لم نقل : التوافق التام بين هٰذه النسخة وبين النسخة (ذ) ، ولعل الثانية هي أصل لهٰذه النسخة ؛ نظراً لأنه في بعض المواضع القليلة جداً وجدنا فيها تصحيفاً واضحاً خلت عنه (ذ) .

هٰذا ؛ ولم نتمكن من معرفة ناسخها ، وقد وجد في آخرها ما نصه : (وكان الفراغ من هٰذا الكتاب ضحوة يوم الجمعة ، الموافق (٢) جمادىٰ أول ، سنة (١٣٠١) من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام) ، لٰكن جاء علىٰ صفحة الفهرسة في دار الكتب المصرية ما يفيد أنها بخط علي بن سالم بن محمد الشافعي ، **وقد رمزنا لها بـ (ث)** .

النسخة الخامسة :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة تشستربيتي** بدبلن ، **تحمل** الرقم (٤٢٥٩) ، **وهي نسخة كاملة** .

تقع ضمن مجموع يحتوي أربع مخطوطات ، أولها هٰذه النسخة ، **وقد استغرقت من المجموع** (٥٦) ورقة ، ومن الملاحظ أن المجموع كله كتبه ناسخ واحد ؛ نظراً لعدم اختلاف القلم .

عدد أوراقها (٥٦) ورقة كما سبق ، **وعدد سطور الورقة الواحدة** (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٩) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي واضح ، وقد اعتنى الناسخ بإعجامها في الغالب ، وكذٰلك عمل علىٰ ضبط كثير من حروفها ، غير أنه لم يلتزم في ذٰلك منهجاً ، فكان ضبطه عشوائياً بشكل عام ، مع أنه يبدو أنها قوبلت علىٰ نسخة أخرىٰ ، وأثبتت بهامشها الفروق ، ولم يذكر في آخرها اسم الناسخ ، ولا تاريخ النسخ ، إلا أنها تقع في مجموع كتب بيد واحدة كما سبقت الإشارة إليه ، وقد صرح الناسخ باسمه في خاتمة كل مخطوطة مما يلي هٰذه النسخة ، بل إنه كان يصرح بأنه مؤلف تلك المخطوطة ؛ لذٰلك نرجح أنه ناسخ هٰذه النسخة أيضاً وإن لم يكن مؤلفَها ، أما اسمه . . فهو : علي بن محمد بن أبي قصيبة الغزالي ، ومن المرجح أن تاريخ النسخ هو عينه تاريخ نسخ المخطوطات الثلاث بعدها وهو سنة إحدىٰ وثمانين وثمان مئة ، وقد تمكنا من قراءة تملك واحد علىٰ أولها ونصه : (تملكه من فضل الله ذي اللطف الخفي محمد بن إبراهيم الغزي الحنفي بالابتياع الشرعي في سنة ست وثمانين . . .) ، وكذٰلك كتب علىٰ أولها فهرس لمحتويات المجموع الذي وردت ضمنه وهو : (فهرست هٰذا الكتاب وما فيه من الكتب : كتاب الإملاء علىٰ مشكل الإحياء ، كتاب تنويه العاقل وتنبيه الغافل ، كتاب عرف روح الفلاح ، كتاب نشر عرف الهدي المحمدي) ، وقد رمزنا لها بـ (خ) .

النسخة السادسة :

نسخة مصورة من محفوظات دار الكتب المصرية بالقاهرة ، تحمل الرقم (١٥٠٠ تصوف طلعت) ، وهي نسخة كاملة ، جيدة جداً ، تقع ضمن مجموع يحتوي خمس مخطوطات .

عدد أوراقها (٣٦) ورقة ، وعدد سطورها مختلف ، فبينما هو في بعض الأوراق (١٩) سطراً نجده في أوراق أخرىٰ بلغ (٢٣) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر (٩) كلمات .

كتبت بخط نسخي جيد واضح ، وهي بلون واحد ، وتمتاز بضبط معظم كلماتها بالحركات الإعرابية وغير الإعرابية ، كما أنها مرصعة بحواشٍ جانبية ، وببعض الفوائد والعناوين والمطالب ، مما يدل علىٰ أنها مقروءة أو مقابلة ؛ وذٰلك لوجود بعض فروق النسخ في الهامش .

ونذكِّر هنا بمدى التوافق الكبير بين هٰذه النسخة وبين النسخة (ث) الذي أشرنا إليه في أثناء وصفنا لها ، ناسخها : أحمد بن شيخ بن أبي بكر ، وقد فرغ من نسخها نهار الخميس في الخامس والعشرين من صفر ، سنة إحدىٰ وتسع مئة ، وجاء في آخرها : (طالع هٰذا الكتاب ورأىٰ ما فيه من اللباب الفقير إلىٰ ربه الرحمٰن محمد بن أحمد بن زهران الأجهوري الشافعي الأزهري غفر الله له ولوالديه . . . . . .) ، وقد رمزنا لها بـ (ذ) .

النسخة السابعة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة فيض الله أفندي ، ضمن مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (٢١٢٣) ، وهي نسخة كاملة ، لا بأس بها .

تقع ضمن مجموع يحتوي ست مخطوطات للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .

عدد أوراقها (٢٢) ورقة ، وعدد سطور الورقة (٢٣) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٥) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها العناوين والفصول وبعض الكلمات المهمة بخط كبير ممدود نسبياً ، ويضاف إلىٰ ذٰلك أن الناسخ وضع خطوطاً أفقية حمراء فوق بعض العبارات والكلمات المهمة ، وثمة نوع من الضبط بالحركات ملحوظ في النص متنوع بين إعرابي وغيره ، وتكاد هٰذه النسخة تخلو من التعليقات أو التصحيحات إلا ما قلَّ وتباعد ، ولم يشكِّل أهمية ملحوظة .

ولا ننسى التذكير بما أشرنا إليه في وصف النسخة (ت) من التشابه الكبير بينها وبين هٰذه النسخة ، وربما يعود السبب في ذٰلك إلىٰ كونهما منسوختين من أصل واحد ، **ناسخها** : علي بن إبراهيم بن عبد المجيد دباس الشافعي ، وقد وجدنا في أولها وآخرها **عبارة نصها** : (من كتب يحيى بن حجي الشافعي) وتاريخ الفراغ من نسخها هو : عشية الثلاثاء ، السابع عشر من صفر ، سنة ست وخمسين وست مئة من الهجرة ؛ علماً أننا لا نجزم بصحة هٰذا التاريخ ؛ وذٰلك بسبب صعوبة قراءته من المخطوط .

وقد ورد علىٰ غلاف المجموع المحتوي علىٰ هٰذه النسخة إضافة إلىٰ كتب أخرىٰ للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ بعض التملكات والعبارات التي تفيد قراءة محتواه ، وقد استطعنا أن نقرأ **منها التالي** : (اللهَ أحمدُ ، طالعه واستفاد منه أفقر الخلق لعفو الحق إبراهيم بن الشيخ موسى الحلبي ، داعياً لمالكه بعليِّ المراتب ، وبلوغ المآرب ، وحسن العواقب) ، **ومنها أيضاً** : (فاز بالوصول إلىٰ هٰذا الكتاب بمنِّ مَنْ له الفضل وهو التواب الوهاب عبده المعترف بذنوبه عبد الرحمٰن ، عفا الله عنه وعن أسلافه وعن المسلمين أجمعين) ، **ومنها** : (تملك العبد الفقير إلى الله الغني جلال الدين بن حسين الأتابكي) ، وكذٰلك : (نوبة محمد عبد الرحمٰن العثماني) ، **ومنها أيضاً** : (انتظم في سلك ملك أضعف عباد الله ، وأحوجهم إليه عبد الرحيم بن علي بن مؤيد ، عفا الله عنهم ، في أوائل ذي الحجة لسنة ثلاث وأربعين وتسع مئة . (من الطويل)

ويكفيكَ قولُ المرءِ فيما ملكْتَهُ ... لقدْ كانَ هٰذا مرَّةً لفلانِ)

ومما ورد أيضاً : (نظر في هٰذا الكتاب المبارك العبد الفقير الراجي عفو ربِّه وغفرانه محمد بن عثمان بن علي بن حامد بن خليفة الشافعي ، عفا الله عنه وعن جميع المسلمين) ، **وأيضاً** : (من نعم الله علىٰ عبده أحمد النجار الحنبلي) ، **وأيضاً** : (تشرف بهٰذا الكتاب الشريف ، إسماعيل بن عبد اللطيف ، عفا ذنوبه الكريم بحرمة نبيه البشير النذير ، وآله وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين سنة « ٩٤٨ ») ، **ومنه** : (ولقد من الله بفضله مطالعة هٰذه المجموعة الأنيقة ، والرسائل البديعة ، علىٰ عبده الفقير الشاكر إلى الغني الشاكر الكشهري سنة « ١٣٠٣ هـ ») ، **ووردت العبارة** المشار إليها آنفاً وهي : (من كتب يحيى بن حجي الشافعي) ، وبعدها : (ثم ملكه بالابتياع محمد بن محمد بن محمد الطنبدي ، الشهير بابن عرب) .

ثم نذكر أخيراً عبارة الناسخ وهي : (علَّقه لنفسه أفقر خلق الله إلىٰ رحمته علي بن إبراهيم بن عبد المجيد دباس الشافعي ، لطف الله به ، وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين) .

ونلاحظ مع هٰذا كله ختماً كبيراً واضحاً كتب فيه : (وقف شيخ الإسلام السيد فيض الله أفندي ، غفر الله له ولوالديه ، بشرط ألَّا يخرج من المدرسة التي أنشأها بقسطنطينية سنة « ١١١٣ هـ ») ، **وقد رمزنا لها بـ** (ض) .

« تعريف الأحياء بفضائل الإحياء »

النسخة الأولى

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة الأحقاف** بتريم في حضرموت ، تحمل الرقم (٣١٧٨) ، **وهي نسخة غير كاملة** .

عدد أوراقها (١٣) ورقة ، وعدد سطور الورقة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٩) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي مقروء ، وكتبت فيها بعض الكلمات المهمة ورؤوس الفقرات باللون الأحمر ، وقد حصل فيها سقط في ثلاثة مواضع ، **الأول** : في الورقة (٣) بعد قوله : (والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه ، اعلم) ، وانتهىٰ عند قوله : (الجليل كبير الشأن) ، **والثاني** : في الورقة (٦) عند قوله : (نور يضعه الله في القلب) ، وانتهىٰ عند قوله : (فصل وأما ما أنكر فيه) ، **والثالث** : في الورقة (٩) عند قوله : (أعني : عمر بن عبد العزيز والشافعي) ، وانتهىٰ عند قوله : (وأما سبب رجوعه إلىٰ هـٰذه الطريقة) .

وهـٰذا النقص المشار إليه حدث بعينه في النسخة (غ) الآتية ، فلعل النسختين نسختا من أصل واحد ، والله أعلم ، **ناسخها** : جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن علوي الحداد ، وقد فرغ من نسخها ضحوة يوم الأربعاء في العشرين من شهر رمضان المعظم ، سنة (١٢٥٥) خمس وخمسين بعد المئتين والألف من الهجرة النبوية الشريفة ، وجاء في آخرها : (بلغ مقابلة من النسخة المنقول عنها) ، **وقد رمزنا لها بـ (ظ)** .

النسخة الثانية :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة الأحقاف** بتريم ، مجموعة (ع) الكاف برقم (٢٢٣) ، (٢٩٨٠) ، **وهي نسخة غير كاملة أيضاً** ، تقع ضمن مجموع يحتوي سبع مخطوطات .

عدد أوراقها (٢٥) ورقة ، وعدد سطور الورقة (١٥) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٥) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها العناوين وبعض الكلمات المهمة ورؤوس الفقرات باللون الأحمر ، وقد سلف في وصف النسخة (ظ) الإشارة إلى النقص الحاصل فيها ؛ لأنه حصل في المواضع نفسها ، إلا أن أرقام الورقات هنا هي : الورقة (٦) ، والورقة (١٣) ، والورقة (١٩) ، إضافة لسقوط بعض الكلمات المفردة في مواضع متعددة ، **ناسخها** : سالم بن عبد الله بن حمد بن عمر بن عبد الباسط ، وقد فرغ من نسخها ضحوة يوم الخميس ، في التاسع عشر من شهر صفر الخير ، سنة (١٢٦٧) للهجرة النبوية الشريفة ، **وقد رمزنا لها بـ (غ)** .

النسخة الثالثة :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة الأحقاف** بتريم ، مجموعة آل ابن يحيىٰ (٤٨) مجاميع ، تريم ، تحمل الرقم (٢٦٤٧) ، **وهي نسخة كاملة ، جيدة** ، تقع ضمن مجموع يحتوي عدة مخطوطات ، وترتيبها فيه الخامس .

عدد أوراقها (١٨) ورقة ، وعدد سطورها مختلف ، ففي بعض الأوراق (١٦) سطراً ، وفي بعضها الآخر (١٨) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (٨) كلمات .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها بعض الكلمات باللون الأحمر ، وقد وجد في هوامشها بعض التصويبات والكلمات الملحقة ، وكذلك بعض الإشارات إلىٰ فروق بعض النسخ علىٰ قلَّة في ذلك ، وهي خالية من الضبط تماماً ، ومعجمة في الأعم الأغلب .

ليس فيها ما يشير إلى اسم ناسخها ، ولا إلىٰ تاريخ النسخ ، غير أن الناسخ ذكر أربعة أبياتٍ من نظمه فقال : (من الرجز)

ماذا يقولُ الناسُ في طريقِ ... مبداهُ طهرُ القلبِ بالتحقيقِ

عمّا سوى اللهِ العظيمِ ربِّنا ... يا ربِّ طهِّرْ قَلْبَنا يا حَسْبَنا

وعقدُهُ استغراقُ كلِّ القلبِ ... بذكرِ مولانا الكريمِ ربِّي

وختْمُهُ الغَناءُ بالكليّهْ ... في اللهِ ربِّي خالقِ البريّهْ

وقد رمزنا لها بـ (ح) .

* * *



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آله وصحبه صلاة وسلاماً دائمين إلىٰ يوم الدين .

أما بعد :

فإن دار المنهاج لم تكن فكرة مرتجلة ، أو رغبة من صاحبها فضيلة الشيخ أبي سعيد عمر سالم **باجخيف** بالسير مع كوكبة الناشرين فحسب ، **بل كانت ثمرة خطة واعية ، ودراسة جادَّة لما تحتاجه أمة الإسلام من نشر المفيد النافع** ؛ عملاً بأمره صلى الله عليه وسلم لنا بالتبليغ ؛ إذ روى الإمام البخاري رحمه الله في « صحيحه » (٣٤٦١) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **بلِّغوا عني ولو آية** » ، ولكلٍّ طريقته في التبليغ .

وقد ارتكزت هـٰذه الخطة والدراسة علىٰ رؤية **مستقبلية عميقة ، وانتقاء الأسفار التي يلح عليها واقعنا الحاضر ؛ بغية النهوض والتقدم** .

والذي يبدو للناظر أن ميادين المعرفة ومكتبات العالم ملأىٰ بالمؤلفات ، زاخرة بالمصنفات التي تركها الأول للآخر ، وهي متباينة المراتب .

وهـٰذا يفرض على المتصدِّي للبحث والمهتمِّ بالنشر **أن يُحسن الاختيار ، ويُجيد الانتقاء ، ويتقي الله في نفسه خاصةً ، وفي المسلمين بل والناس عامةً ؛ لأن عمل الناشر هو دعوةٌ وحثٌّ على الالتزام بمضمون ما يَنْشُر** .

فالذي ينشر هدىً وخيراً ينال أجره ، ويشارك في الثواب غيرَه ؛ لما لذٰلك من أثر حسن في المجتمع الإسلامي .

والدار بتوفيق الله تعالىٰ أخرجت كتباً عزيزة من دهاليز المخطوطات ، وأولتها العناية من حيث التحقيق وجودة الطبع ؛ مثل : « **نهاية المطلب** » و« **البيان شرح المهذب** » ، وغيرهما من المراجع العلمية **التي لم تكتحل العيون برؤيتها إلا عبر هـٰذه الدار** .

وكذٰلك عقدت العزم علىٰ إعادة نشر بعض المراجع العلمية **التي هي بحاجة ملحةٍ إلى العناية العلمية تحقيقاً وتعليقاً وجودة طبع وإخراج** .

ومن ذٰلك هـٰذا الكتاب المبارك « **إحياء علوم الدين** » الذي بذلت فيه الدار همة قعساء تليق بمكانته وأهميته ، **فلله الحمد والمنة** .

❀ ❀ ❀

ولقد كانت مسيرة هـٰذا السفر الجليل ، والكتاب المبارك تسير وفق الخطة الآتية :

جمع النسخ الخطية

عزيز جداً أن تظفر بنسخة ذات قيمة لكتاب مثل « **إحياء علوم الدين** » .

فعلى الرغم من تطور وسائل البحث والاتصال ، وتيسُّر الوصول إلىٰ فهارس المخطوطات والتراث في مختلف بلدان العالم . . **فقد كانت مهمة الحصول علىٰ نسخ نفيسة لهـٰذا الكتاب المبارك شاقةً ومضنية** ؛ إذ تطلَّب ذٰلك السَّفَرَ مراتٍ عديدةً إلىٰ أكثر من مدينةٍ في العالم .

والذي نهض بهـٰذا العبء ، وقام بهـٰذا الجهد : فضيلة الشيخ عمر سالم باجخيف نفسه .

إذِ ارتحل إلىٰ عدة عواصم إسلامية وأوروبية حتىٰ حصل علىٰ أكثر من **ثماني عشرة نسخة خطية** لـ « الإحياء » ، تقدم الكلام عنها في وصف النسخ الخطية .

علىٰ أنه لم يكد يلقي عصا ترحاله ، حتىٰ بدأ يستحثُّ فريقاً مدرَّباً من الباحثين في مركز الدراسات في داره المباركة على الإسراع في إنجاز بقية مراحل التحقيق .

فبدأت بذٰلك المرحلة الثانية ، مرحلة معارضة النسخ ودراستها .

معارضة النسخ الخطية

لم يتوانَ الباحثون في المركز العلمي للدار عن إنجاز هـٰذه المهمة علىٰ وجهها الأمثل ، وترجح بالأدلة والقرائن من خلال الدراسة الفاحصة : النسخةُ التي اعتمدت لتكون الإطار العام لتحقيق كتاب « الإحياء » .

ومن ثَمَّ انبرت ثلَّة من طلبة العلم المتمرسين لمقابلة الأصل ببقية النسخ المعتمدة ؛ اتِّباعاً للمنهج العلمي المعروف لدى الباحثين ، واقتداء بعلمائنا الأفذاذ الأوائل ، **الذين عدُّوا هـٰذه المرحلة من أهم مراحل توثيق النص وضبطه** .

فقد أورد الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/١٥٦) أن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (كنت إذا سمعت من أبي حديثاً . . كتبته ، فقال : أي بني ؛ كيف تصنع ؟ قلت : إني أكتب ما أسمع منك ، قال : فأتني به ، فقرأته عليه فقال : نعم ، هـٰكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، **ولـٰكني أخاف أن يزيد أو ينقص**) .

وانطلاقاً من هـٰذا قام الفريق العلمي بالمقابلة بدقة تامة ، وتأنٍّ شديد ، وحرص بالغ علىٰ ألَّا تفوتهم كلمة أو حرف أو فائدة يمكن أن تسهم في خدمة هـٰذا النص المبارك .

وقد استغرق هـٰذا العمل أكثر من أربعة أعوام ، تمت فيها مقابلة الكتاب مرتين ، وتناوب فيها علىٰ هـٰذا الجهد الكبير ما يزيد علىٰ ثلاثين طالب علم .

وبتمام هـٰذه المرحلة **الأساس يكون الكتاب قد أصبح مهيئاً بشكل علمي دقيق لتحقيق نصه** ، وإخراجه بصورته الأقرب إلىٰ مراد مؤلفه رحمه الله تعالىٰ .

مرحلة التحقيق

إن صعوبة هٰذه المرحلة غير خافية على الباحث أو المحقِّق ، إذ لا بد من اختيار كلمة أو عبارة ، واستبعاد أخرىٰ ، من خلال نص قد يكون اعترىٰ بعض كلماته شيءٌ من التحريف والتصحيف .

فكان عمل اللجنة عند اختلاف النسخ إثبات الصواب في حين وضوحه وتبينه ، ولم يثبت من المغايرات إلا ما كان يؤدي أو يمكن أن يؤدي معنىً جديداً صحيحاً ، مع محاولة تلمُّس أسلوب الإمام الغزالي في أثناء الحكم على المغايرات .

والذي نستطيع قوله هنا أنه تمت مراعاة المنهج العام في التحقيق حسب الوسع والطاقة ، مع الاستعانة عند غموض العبارة وإشكالها بشرح « الإحياء » المسمىٰ « إتحاف السادة المتقين » مخطوطاً ومطبوعاً .

وتمَّ تخريج الأحاديث النبوية الشريفة والآثار من مظانها في دواوين السنة باعتماد تخريج الحافظ العراقي رحمه الله في « المغني » ، وبالاعتماد أيضاً على استدراكات الإمام ابن السبكي رحمة الله عليه ، واستدراكات الحافظ الزبيدي رحمه الله كذٰلك ، مع الاستعانة والاستفادة مما صدر في العالم الإسلامي من الكتب والأجزاء الحديثية .

كما تم أيضاً عزو الأقوال والنصوص المنقولة إلىٰ مظانها في المصادر المتوافرة لدينا ، مع الالتزام ما أمكن بما يمكن أن يسمىٰ ضوابط أو قواعد لهٰذا العمل .

وقد شرحنا بعض الكلمات والعبارات الغامضة ، ولم نعمد إلىٰ حشد الحواشي والتعليقات عشوائياً ، بل علَّقنا عندما مسَّت الحاجة للتعليق ، وعملنا ما في وسعنا لجعل التعليق موجزاً ومؤدياً للغرض في الوقت نفسه .

ولما كانت عبارة « الإحياء » تحتاج إلى الدقّة والأناة والتروّي . . **آثرنا أن نضبط الكتاب كاملاً بالحركات الإعرابية** ؛ ليسهل تناوله وفهمه على الوجه الأمثل .

ونحن هنا نشير إلىٰ ما قاله القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ في « الإلماع » (ص ١٣٦) حين ذكر مقولة : (**إنما يُشكَل ما يُشكِل**) فقال : (وقال آخرون : **يجب شكل ما أشكل وما لا يشكل ، وهٰذا هو الصواب** ، لا سيما للمبتدئ وغير المتبحر في العلم ؛ فإنه لا يميز ما أشكل مما لا يشكل ، ولا صوابَ وجه الإعراب للكلمة من خطئه) .

ثم عقَّب القاضي رحمه الله ذٰلك بجملة من الأمثلة تبين وجه هٰذا الصواب الذي اعتمده .

ونحن نضيف في هٰذا المقام : أن القاضي عياضاً رحمه الله قال ما قاله **يوم أن كان العلم فاشياً والمعرفةُ حاجةً من الحاجات** ، هٰذا إن لم تكن ضرورة من ضرورات الحياة .

وأما اليوم !! فإنه يتأكد قول القاضي علىٰ وجه لا يدع مجالاً للنقاش أو النزاع ، في زمن لا يبعد أن يوصف العلم فيه بالضياع ، وهٰذا الكتاب ستطاله يد العالم وطالب العلم والعامي علىٰ درجة سواء إن لم نقل : **لعل العامة من أهل الإسلام هم أشد تعلُّقاً وأكثر ولعاً بهٰذا السفر الجليل من غيرهم** .

هٰذا وقد رُصِّعَ الكتاب بعلامات الترقيم المناسبة حسب منهج الدار المتبع في ذٰلك ، وهٰذا أمر ضروري ، وليس مستحدثاً كما يظنه بعضهم ، وهو وإن لم يكن بهٰذا الشكل المتبع اليوم ، لٰكنه بالمعنىٰ ذاته ، أما الشكل . . فهو مبتدَع مستحدَث لا شك فيه كما هو معلوم لدى الباحثين .

ولعل ما دفعنا إلىٰ هـٰذا الكلام عن الترقيم ـ مع أنه لا يكاد يعترض اليوم عليه أحد ـ هو أننا استحدثنا علامةَ ترقيم جديدة ، وهي النقطتان الأفقيَّتان (. .) ، وأثبتناها قبل جواب الشرط أو الخبر البعيد ، وذٰلك أن الفاصل إذا طال بين الشرط والجواب ، أو المبتدأ والخَبر . . فإنه يورث بعض اللَّبس أو التشتيت للذهن .

إدخال الكتاب إلى الحاسب الآلي

ثم أُسندت مهمة إدخال نص الكتاب بعد تحقيقه كاملاً إلى الحاسب الآلي **لمجموعة من المبدعين المهَرَة في هـٰذا الميدان .**

وقد قاموا بعملهم علىٰ مستوىً عالٍ من المهنية والحرفية .

وتمَّت مراجعة بعضهم للعمل بدقة متناهية ، تكاد نقول بعدها : **إن نسبة الخطأ تدنَّت إلى الحدِّ الأدنى الذي يمكن لبشر أن ينجزه إذا استفرغ جهده في ذٰلك** ؛ إذ تمَّت مقابلة النسخة الإلكترونية على الأصل المحقق ثلاث مرات ، فاستوفى الكتاب بذٰلك حقه من الضبط .

إلا أننا ورغبة منّا في تحري الدقة والإتقان عمدنا إلىٰ مرحلة **قلَّ من يوليها اليوم اهتماماً** ، وهي دفع الكتاب لأهل العلم ؛ ليراجعوه ويروا رأيهم في صنعته ، فكانت المرحلةُ التالية .

مراجعة الكتاب

إن مما منَّ الله به علينا ـ بعد توفيقه إيانا لخدمة « الإحياء » ـ أن أتاح لنا نخبة من أهل العلم المتخصصين ، وأهل الفضل الممحِّصين ، **فنظروا في الكتاب ، وقرؤوه كلمةً كلمةً** ، وخلصوا بنتائج طيِّبة ، وملاحظات قيِّمة ، وتصويبات دقيقة .

وقد أخذتها اللجنة العلمية بعين الاعتبار ، **وأولتها بالغ الاهتمام** ، وعملت على الاستفادة منها على الوجه الأمثل ، **فجاء العمل بحمد الله مكتملاً على النحو الذي تراه بين يديك .**

إخراج الكتاب فنياً

ثم بعد الانتهاء من العمل العلمي المتقن ، والفراغ من كل مراحل التحقيق . . كان لا بد من **اللمسة الفنية الماهرة ، والصنعة الحرفية البارعة** ، وذٰلك من خلال دراسة كاملة للكتاب وأرباعه وأبوابه وفصوله وتفريعاته .

وقد تم ذٰلك من قِبَلِ أهل الاختصاص في هـٰذا الشأن ، فوضعت خطة لإخراج « الإحياء » إخراجاً فنّياً راقياً ، يليق بمكانته ومكانة مؤلفه رحمه الله تعالىٰ ؛ ليسهل بذٰلك تناوله ، وتتيسر مطالعته والإفادة منه .

واستغرق ذٰلك من الوقت والجهد ما نسأل الله أن يجزل معه الثواب لمن بذلوا وعملوا .

❁ ❁ ❁

وفي نهاية المطاف لم يبق لنا إلا أن نقول : **هـٰذا هو « إحياء علوم الدين » مخرجاً بأدقِّ تحقيق** ، وأبهىٰ صورة ،

وأرقىٰ صنعة ، مقدَّماً إلىٰ طلبة العلم خاصة وإلى العالم الإسلامي عامة بأحسن ما تأتَّىٰ لنا من العناية ، وهو بعد ذٰلك كله جهد مَنْ صفتُه النقص والخطأ .

فإن رأيت فيه ما تحبّ . . فاحرص عليه لنفسك ، ولا تبخل به علىٰ غيرك ، **وإن كانت الأخرىٰ** . . فلك الشكر والأجر إن أهديت إلينا عيوبنا ، ناصحاً مصلحاً .

ونسأل الله تعالىٰ أن يزيد النفع به ، وأن يكتب الأجر لمن ساهم في إخراجه علىٰ هٰذا النحو .

والله وليّ التّوفيق

والحمد لله الّذي بنعمته تتمّ الصّالحات

وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم

اللّجنة العلميّة

بمركز دار المنهاج للدّراسات والتّحقيق العلميّ



نسأل الله حسنها مع دوام العافية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد سيد السادات ، وعلىٰ آله وصحبه القادات ، وعلىٰ من تبعهم من أهل السعادات .

أما بعد :

فلا بد في الختام من أمرين اثنين :

أولهما : أنه وبعد مضي سبع سنوات متواصلات من العمل الدؤوب ؛ بحثاً ومقابلة ، وقراءة وتحقيقاً ، وتعليقاً ومراجعة في هٰذا الكتاب المبارك . . نكون قد انتهينا من أهدافنا في التحقيق ، **وسبع سنوات ليست بالكثيرة في إخراج مثل هٰذا السفر الجليل لهٰذا الإمام العبقري الذي ذاع صيته في كل قطر ومصر** ؛ لأننا نسمع من البعض بين الفينة والأخرىٰ : لماذا يبذل هٰذا الوقت الطويل وهٰذا الجهد والتعب الكبير في إخراج هٰذه الأعمال النافعة ؟!! **ناسين أو متناسين أن الإحسان والإتقان اللذين أمرنا بهما يجب أن يتحققا في تراثنا الثمين** ، ولا سيما الكنوز الشرعية ؛ لمكانتها السامية واتصالها بالوحيين اللذين لا يضل من اهتدىٰ بنورهما ، بل يسعد في الدنيا وينعم في الأخرىٰ ، **وهما مطلب الألباء** ؛ حتىٰ نبني أسساً متينة لنهضة علمية تتسم بالإحسان والإتقان ، تنهض بها الأمة وترتفع بها حصيلتها الثقافية ، **حتىٰ تصل إلى الشأو القصي ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً** .

الأمر الثاني : انطلاقاً من قول النبي الكريم سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **لا يشكر الله من لا يشكر الناس** » . . **فإني أتوجه بالشكر الكبير والثناء العاطر** :

ـ إلىٰ أخي في الله وصديقي وتوءم روحي **فضيلة الحبيب أبي سعيد عمر سالم سعيد باجخيف** علىٰ تعاونه طيلة السنوات السبع المنصرمة في سبيل إخراج هٰذا العمل المبارك .

ـ وإلىٰ إخوتي طلبة العلم الذين يعملون معي في مركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، هٰؤلاء الذين لم يتوانوا عن واجبهم في سبيل إخراج هٰذا الكتاب بأبهىٰ حلة وأجمل صورة ، وأخص منهم الإخوة الأساتذة : **أحمد علوش ، وأنس الشرفاوي ، وذكوان غبيس ، ورابح قادري ، وصلاح الدين الحمصي ، وعامر الحلبي ، وعبد الرحمٰن خوجه ، وعبد المجيد بن عدة ، وفراس مدلل ، وقصي الحلاق ، ومحمد المحمد ، ومحمد ثابت حبوش ، ومحمد حسام صالح ، ومحمد زاهر الحافظ ، ومحمد شادي عربش ، ومحمود البري** .

ـ وإلىٰ جناب سيدي الشريف العلامة **عدنان بن علي الحداد** ـ حفيد سيدي الإمام الحبيب أحمد مشهور الحداد رحمه الله تعالىٰ ـ الذي تفضل مشكوراً بقراءة الكتاب كاملاً ؛ قراءة تحقيق وتمحيص وتدقيق ، فجزاه الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء .

ـ وإلىٰ إخوتي الذين ساهموا في تصحيح الكتاب ومراجعته وتدقيقه في بلاد الشام والحرمين الشريفين واليمن السعيد ، فقد كان لمشاركتهم وتصحيحاتهم الفوائد الجمة ، وأخص منهم الإخوة السادة : **أحمد علي أحمد الكاف** ،

وعبد الله عمر زين ابن سميط ، وعبد الله محمد باعوضان ، وعلي محمد عبد الله العيدروس ؛ بإشراف وتنسيق **محمد سقاف أحمد بلفقيه** .

ـ وإلىٰ أخي وحبيبي الأستاذ الشريف **علوي الشاطري** ـ نجل سيدي العلامة الحبيب حسن بن عبد الله الشاطري رحمه الله تعالىٰ ـ الذي قدم خدمات جليلة في تسهيل الكثير من الأمور .

ـ وإلىٰ أخي المحبوب الأستاذ **عمار الترك** الذي ساهم في تصوير المخطوطات .

ـ وإلىٰ إخوتي في قسم التصميم والإخراج بمركز دار المنهاج ، وأخص منهم الإخوة الأساتذة : **أحمد حموي ، وبشار الحوراني ، وسعيد حجازي ، ومحمد علي القطان ، ومحمد ياسر علوان** .

ـ وإلى الخطاط المبدع المفن **عدنان الشيخ عثمان** الذي تشرَّف بكتابة العناوين الداخلية للكتاب بخط النستعليق .

ـ وإلىٰ إخوتي الإداريين في قسم الإشراف والمتابعة والدعم الفني وأخص منهم الأستاذين : **إسماعيل حسين ، وعمر ديب** .

ـ وإلىٰ سادتي العلماء والمشايخ وطلاب العلم الذين زودوني بتصحيحاتهم وملاحظاتهم على الإصدار الأول .

ـ وأكرر شكري لجميع الأحبة الأعزاء : **ممن عمل في الكتاب ، أو أسدىٰ نصيحة أو ملاحظة أو رأياً** .

سائلاً الله تعالىٰ أن يتقبل هـٰذا العمل بقبول حسن ، وأن يجعله في ميزان الآباء والأبناء إلىٰ يوم الدين ، وأن يعم بنفعه العباد والبلاد .

وأخيراً :

إليك أيها القارئ نقدم هـٰذه الموسوعة الشرعية ؛ التي تعالج أمراض القلوب ، وتحلق بك في الأجواء الروحانية ؛ فعسىٰ أن نكون جميعاً من أولـٰئك الذين استحقوا المراتب العليا في الدار الأُخرىٰ .

والله الموفق والهادي

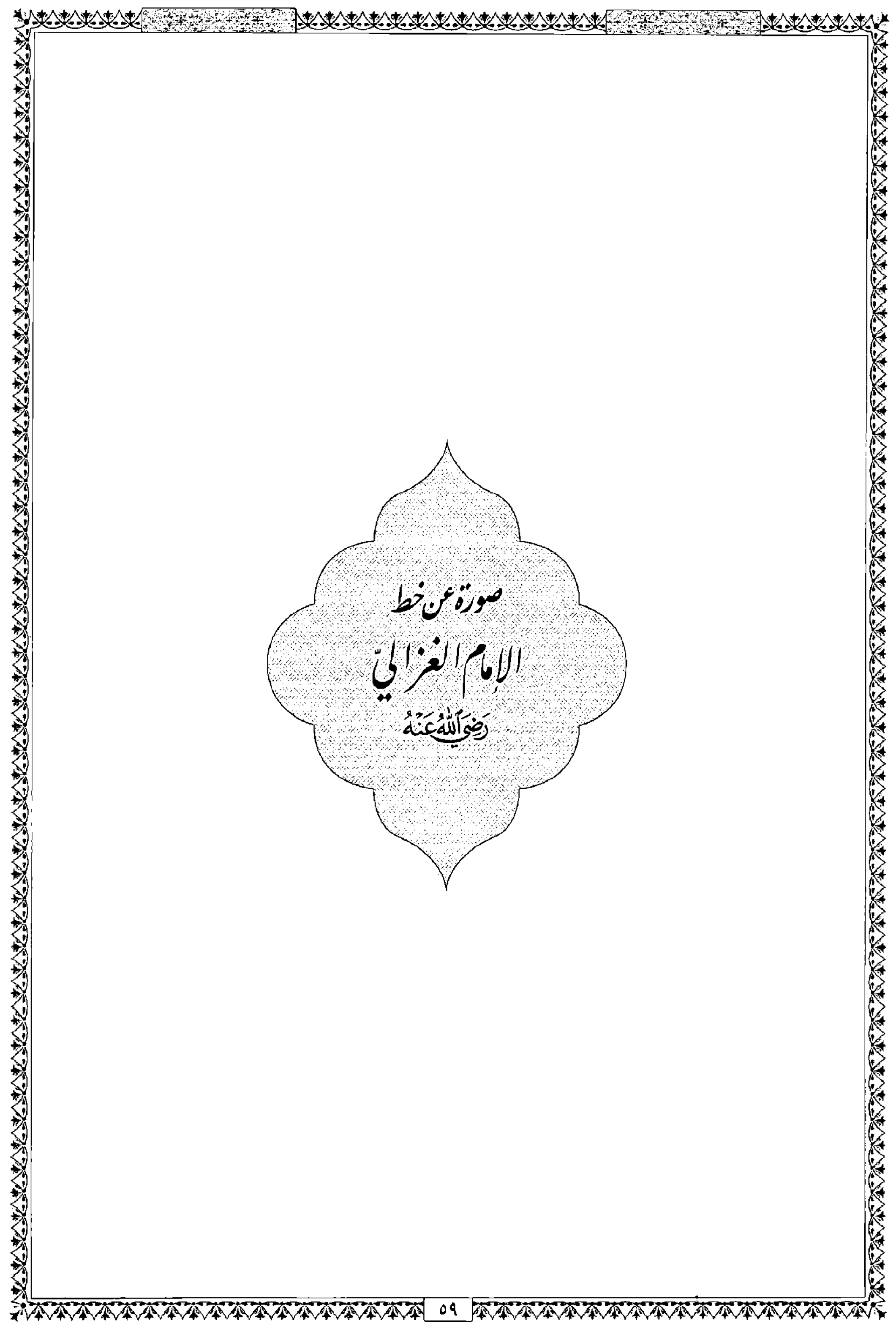
وكتبه

محمد غسان نصوح عزقول الحسيني

المشرف على أعمال البحوث والنشر

بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

في شعبان المكرم ١٤٤٠ هـ



صورة عن خط

الإمام الغزالي

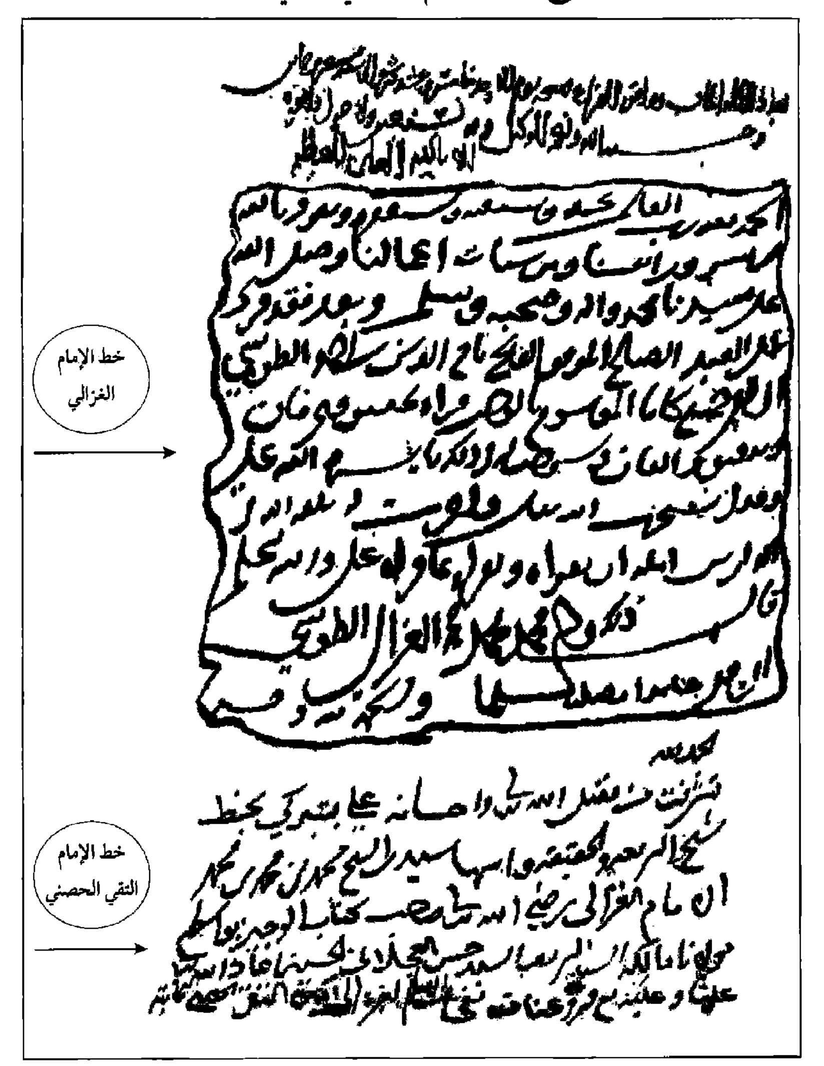
رضي الله عنه

بيان لما هو مكتوب بالصحيفة المقابلة سطراً سطراً وكلمة كلمة

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله
من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وصلى الله
علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وبعد فقد قرأ
عليَّ العبد الصالح الموفق الفالح تاج الدين بن أحمد الطوسي
الشافعي جميع كتابنا الموسوم بالوجيز قراءة تحقيق وعرفان
وتدقيق وإتقان وشرحت له في ذلك ما يسره الله علي
وقد استخرت الله تعالىٰ وأجزت له بلغه الله في
الدارين أمله أن يَقْرَأَهُ ويُقْرِأَهُ بما قرأه عليَّ والله أعلم
قال ذلك وكتبه محمد محمد محمد الغزالي الطوسي
الشافعي حامداً مصلياً مسلماً والحمد لله وحده

الحمد لله
تشرفت من فضل الله تعالىٰ وإحسانه عليَّ بتبركي بخط
شيخ الشريعة والحقيقة وأسها سيدي الشيخ محمد بن محمد بن محمد
الإمام الغزالي رضي الله تعالىٰ عنه صاحب كتاب الوجيز بواسطة
مولانا مالكه السيد الشريف السيد حسن العجلاني الحسيني أعاد الله تعالىٰ
علينا وعليه مع فروعنا من نفحات الإمام الغزالي آمين التقي **الحصني** كاتبه

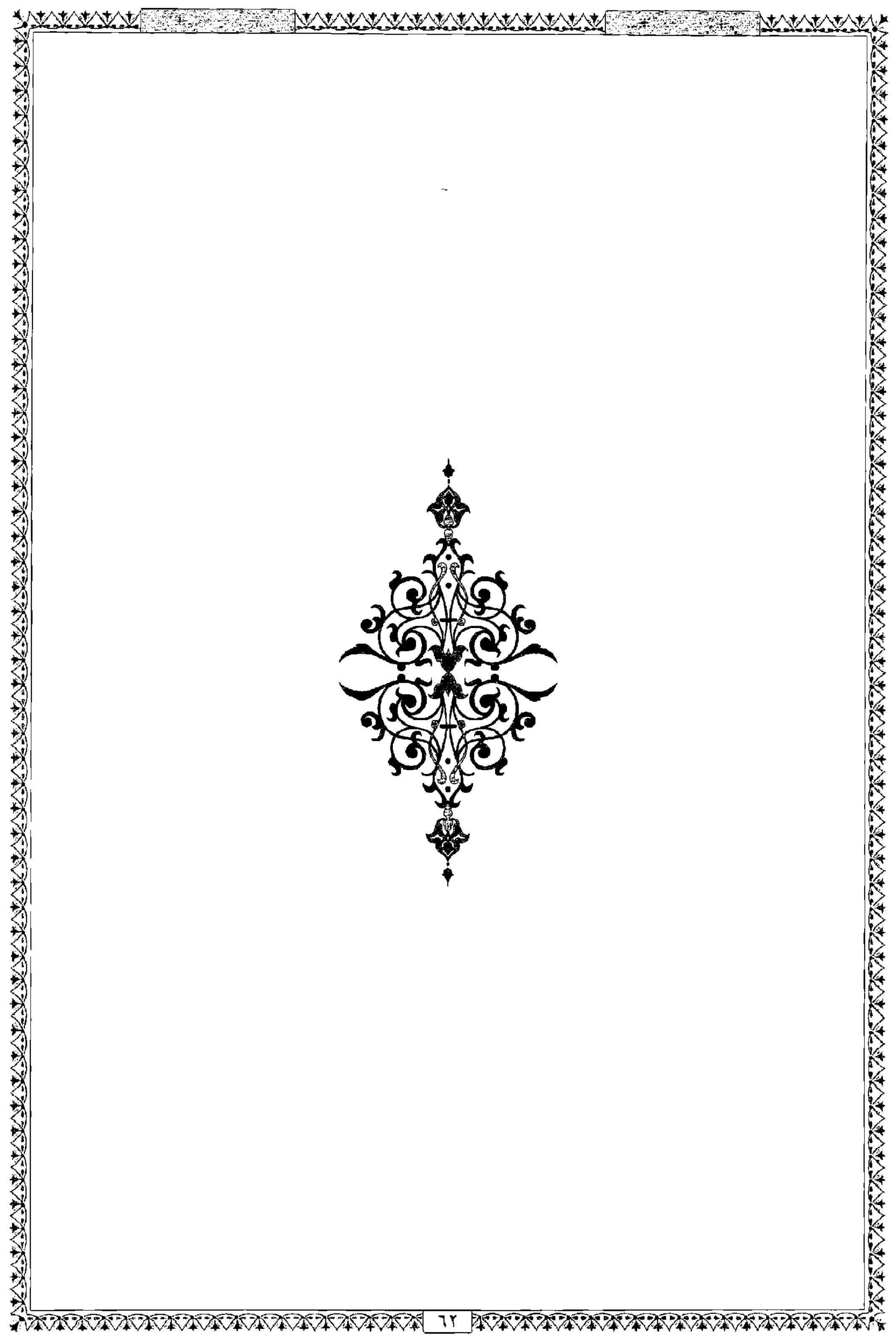
أنموذج لخط الإمام الغزالي رضي الله عنه

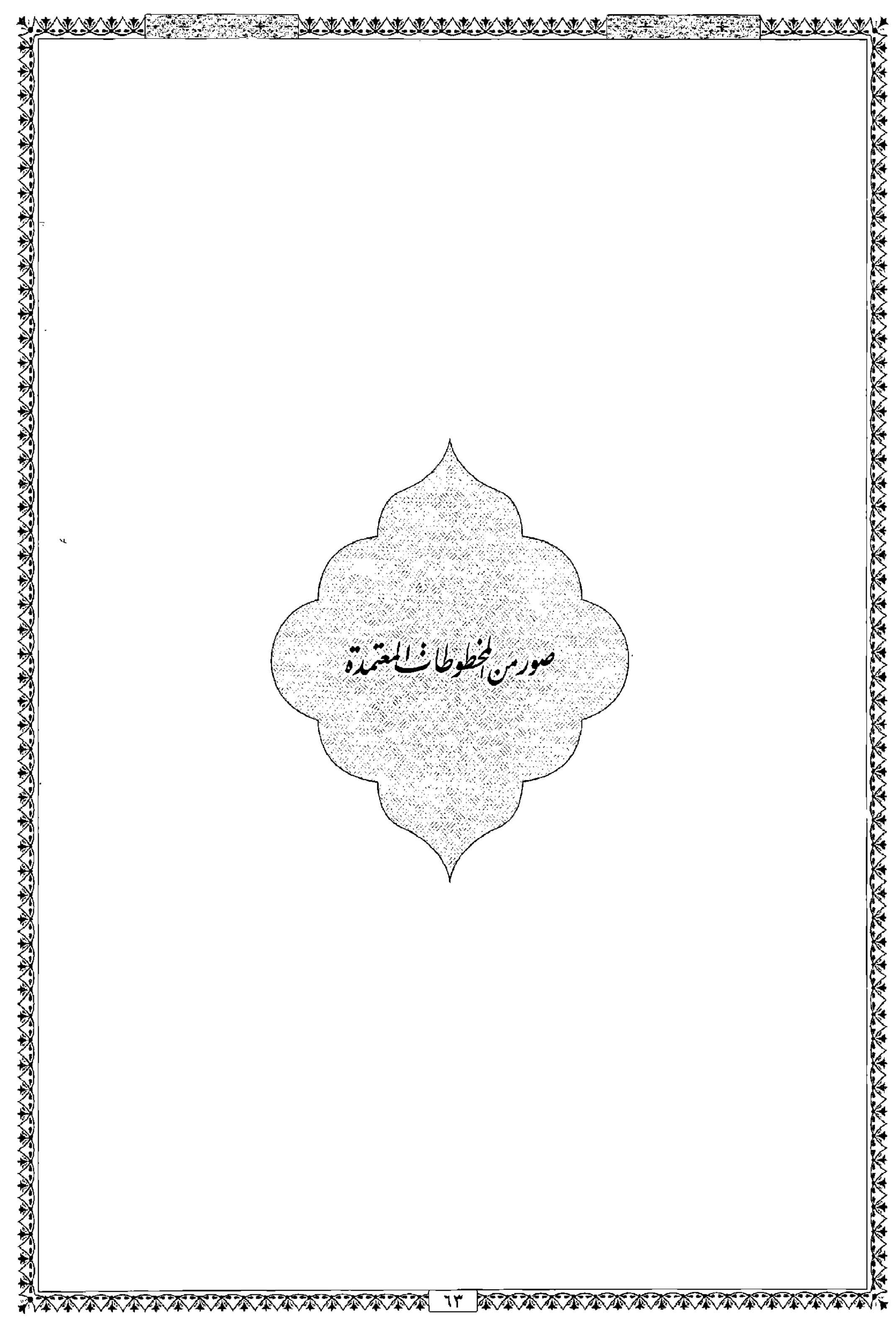


راموز الورقة الأخيرة من كتاب « الوجيز في الفقه » للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ

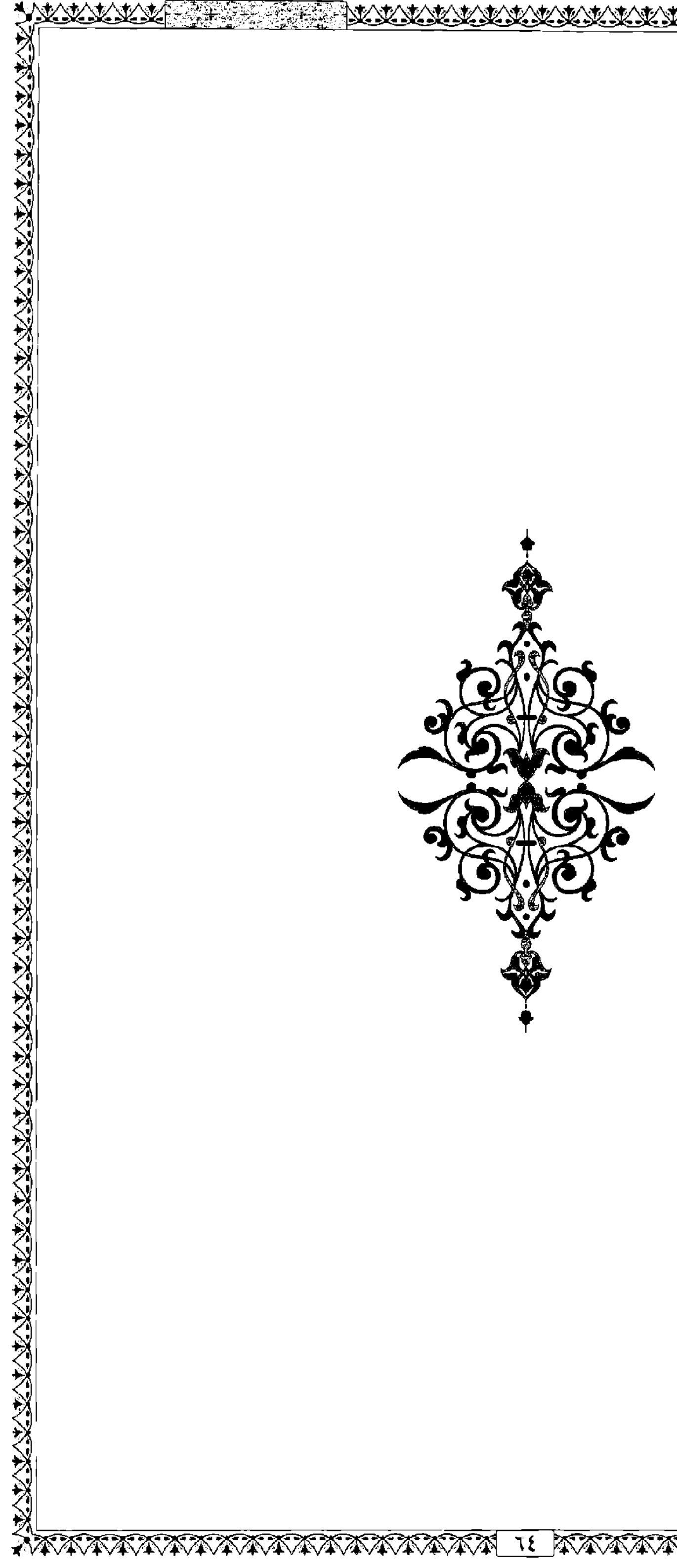
المحفوظة بمكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية رقم (L-318 999)

ويظهر فيها خط الإمام الغزالي وخط الإمام التقي الحصني رحمهما الله تعالىٰ





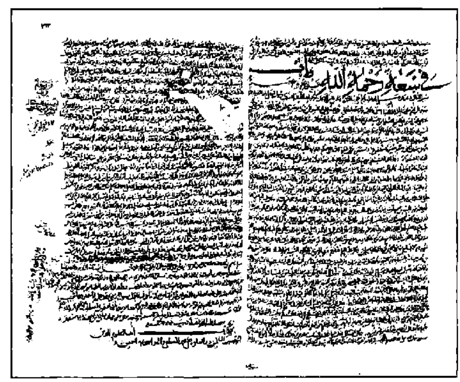
صور من المخطوطات المعتمدة



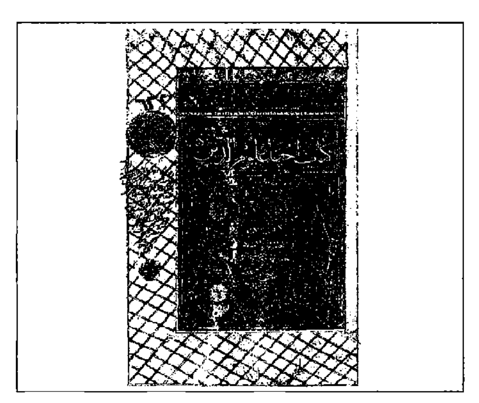
راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)



راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)

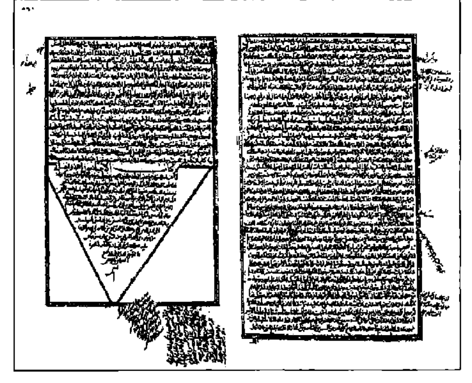


راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)

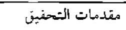


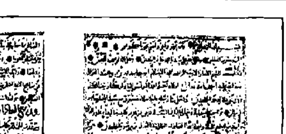
راموز ورقة العنوان للنسخة (ب)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)



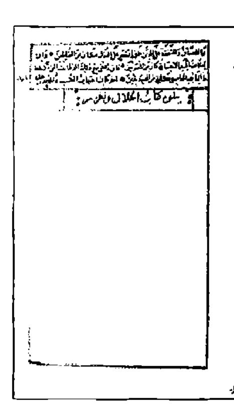
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)

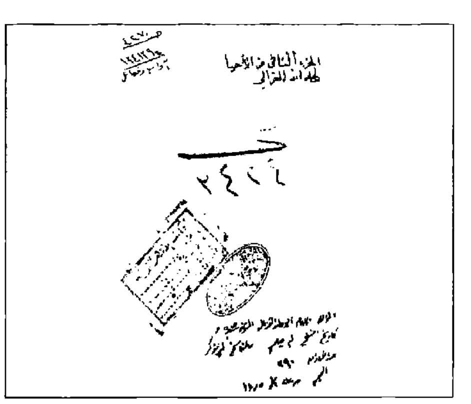




راموز ورقة العنوان من الجزء الأول للنسخة (ج)

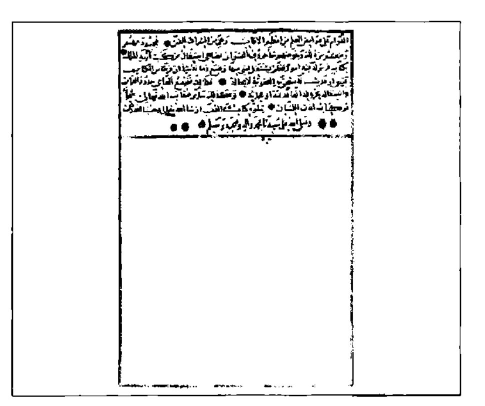
راموز الورقة الأولى من الجزء الأول للنسخة (ج)





راموز الورقة الأخيرة من الجزء الأول للنسخة (ج)

راموز ورقة العنوان من الجزء الثاني للنسخة (ج)



راموز الورقة الأولى من الجزء الثاني للنسخة (ج)

راموز الورقة الأخيرة من الجزء الثاني للنسخة (ج)



راموز ورقة العنوان من الجزء الثالث للنسخة (ج)

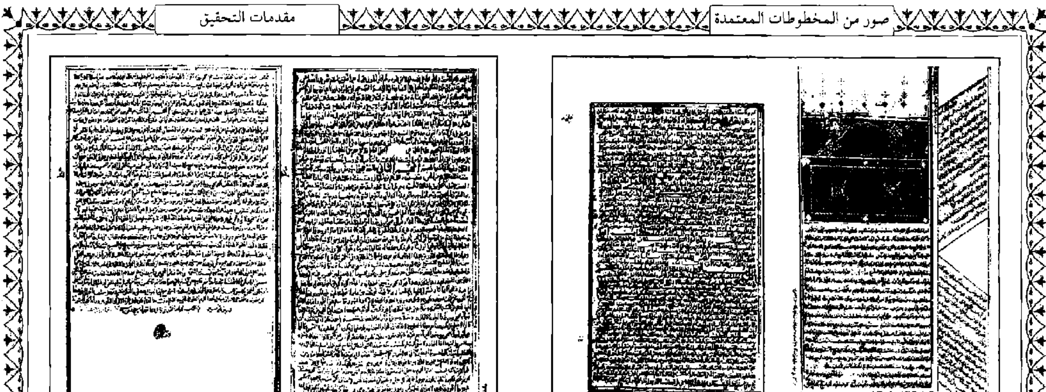
راموز الورقة الأولى من الجزء الثالث للنسخة (ج)

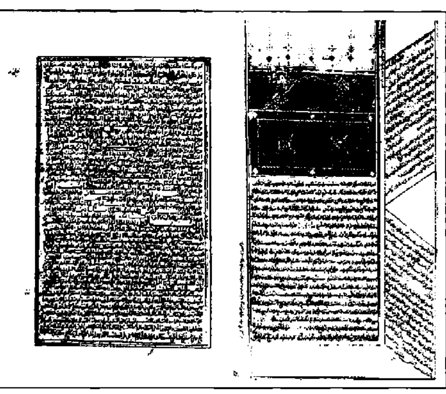
راموز الورقة الأخيرة من الجزء الثالث للنسخة (ج)

راموز ورقة العنوان من الجزء الرابع للنسخة (ج)

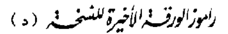
راموز الورقة الأولى من الجزء الرابع للنسخة (ج)

راموز الورقة الأخيرة من الجزء الرابع للنسخة (ج)

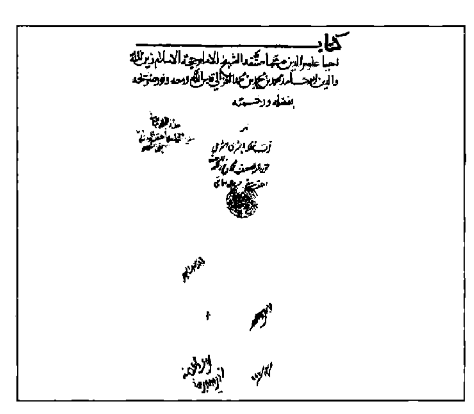




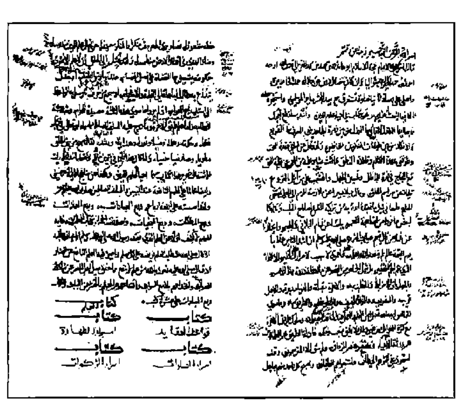
راموز الورقة الأولى للنسخة (د)



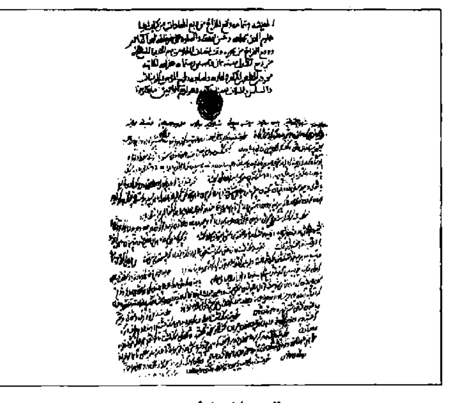
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (د)



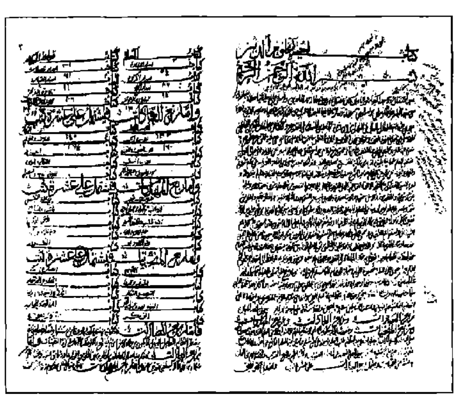
راموز ورقة العنوان للنسخة (هـ)

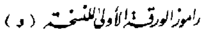


راموز الورقة الأولى للنسخة (هـ)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (هـ)





راموز الورقة الأولى للنسخة (و)

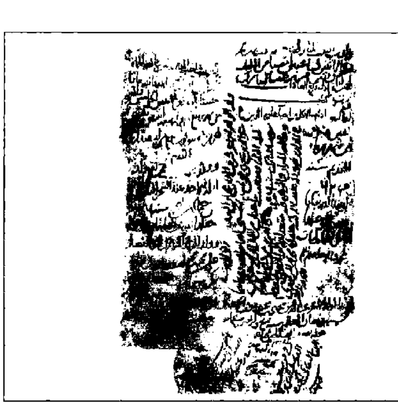
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (و)



راموز ورقة العنوان للنسخة (ز)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ز)

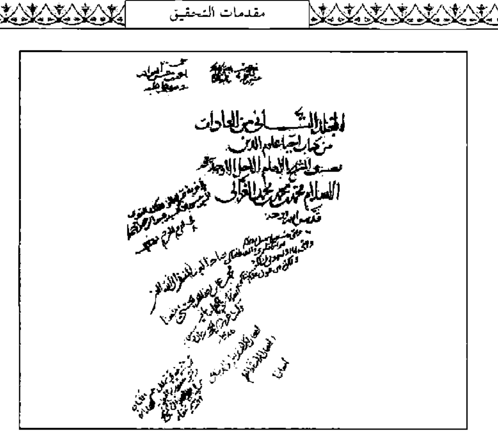
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ز)



راموز ورقة العنوان للنسخة (ط)

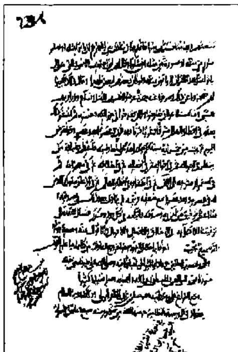
راموز الورقة الأولى للنسخة (ط)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ط)



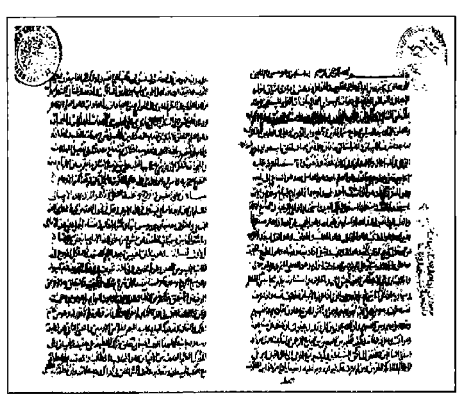
راموز ورقة العنوان للنسخة (ي)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ي)

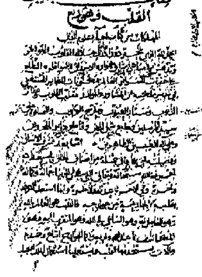


راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ي)

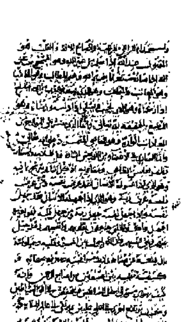
راموز ورقة العنوان للنسخة (ك)



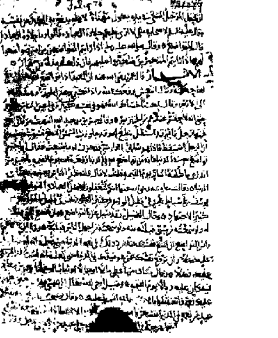
راموز الورقة الأولى للنسخة (ك)



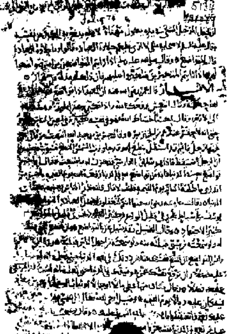
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ك)



راموز الورقة الأولى للنسخة (ل)



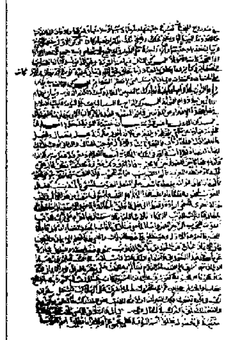
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ل)



راموز الورقة الأولى للنسخة (م)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (م)

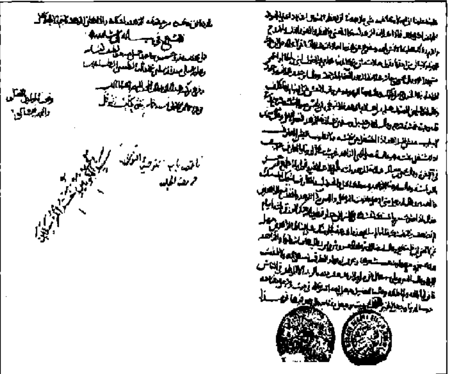


راموز الورقة الأولى للنسخة (ن)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ن)

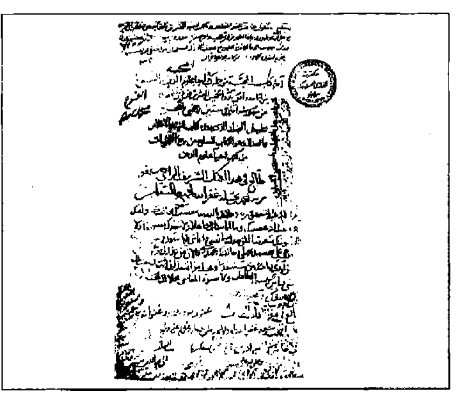
راموز ورقة العنوان للنسخة (س)

راموز الورقة الأولى للنسخة (س)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (س)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ع)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ع)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ف)

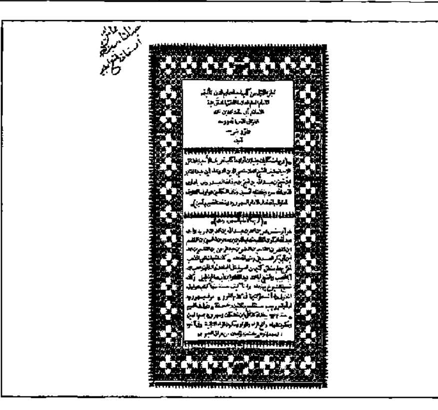
راموز الورقة الأولى للنسخة (ف)

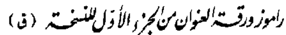
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ف)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ص)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ص)

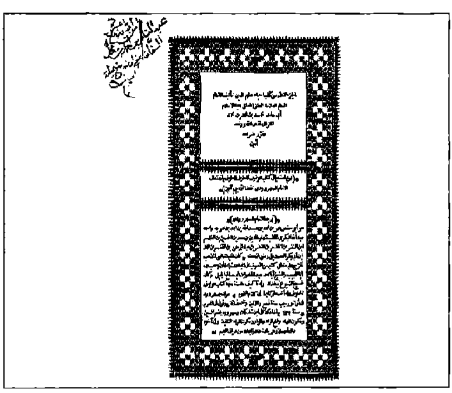
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ص)




راموز ورقة العنوان من الجزء الأول للنسخة (ق)



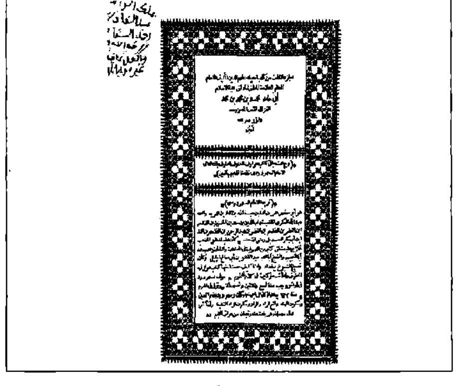

راموز الورقة الأولى من الجزء الأول للنسخة (ق)



راموز ورقة العنوان من الجزء الثاني للنسخة (ق)



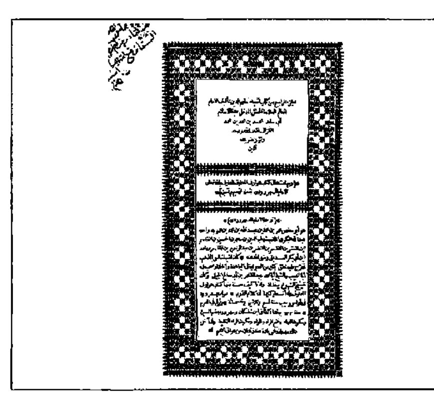

راموز الورقة الأولى من الجزء الثاني للنسخة (ق)



راموز ورقة العنوان من الجزء الثالث للنسخة (ق)



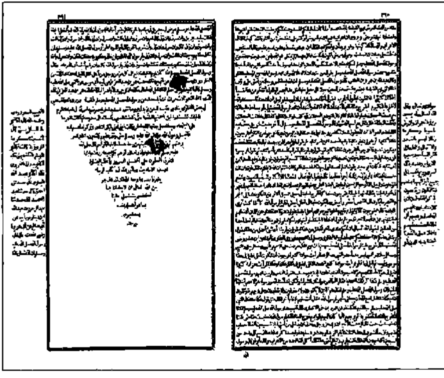

راموز الورقة الأولى من الجزء الثالث للنسخة (ق)



راموز ورقة العنوان من الجزء الرابع للنسخة (ق)

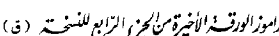



راموز الورقة الأولى من الجزء الرابع للنسخة (ق)

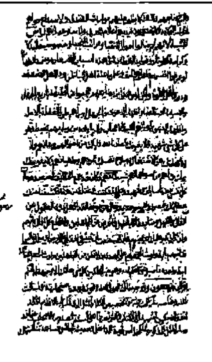


راموز الورقة قبل الأخيرة من الجزء الرابع للنسخة (ق)




راموز الورقة الأخيرة من الجزء الرابع للنسخة (ق)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ر)

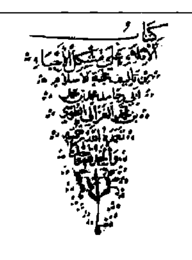


راموز الورقة الأولى للنسخة (ر)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ر)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ش)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ش)

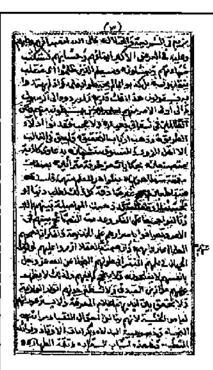

كتاب
الإملاء على مشكل الإحياء

راموز ورقة العنوان للنسخة (ت)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ت)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ت)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ث)



راموز الورقة الأولى للنسخة (ث)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ث)



راموز ورقة العنوان للنسخة (خ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (خ)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (خ)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ذ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ذ)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ذ)



راموز ورقة العنوان للنسخة (ض)

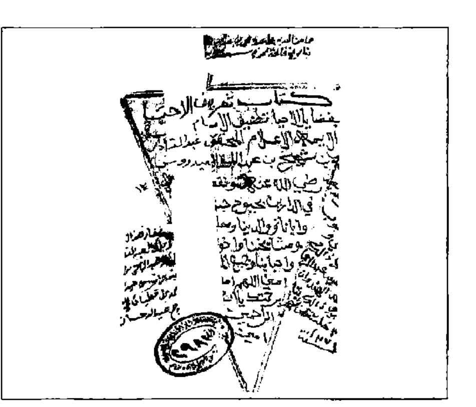
راموز الورقة الأولى للنسخة (ض)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ض)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ظ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ظ)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ظ)



كتاب تعريف الأحيا
بفضائل الإحيا

راموز ورقة العنوان للنسخة (غ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (غ)

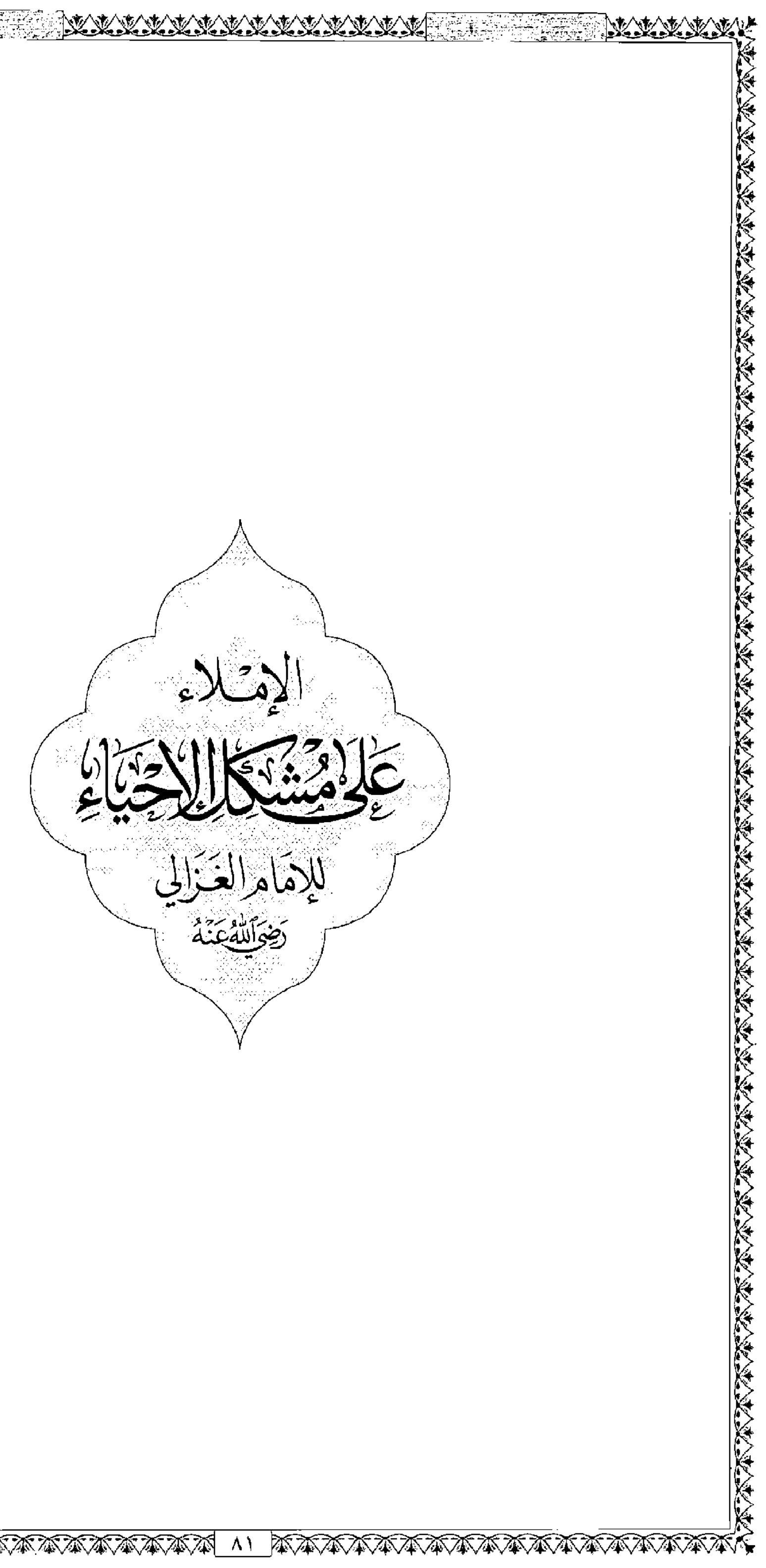
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (غ)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ح)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ح)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ح)

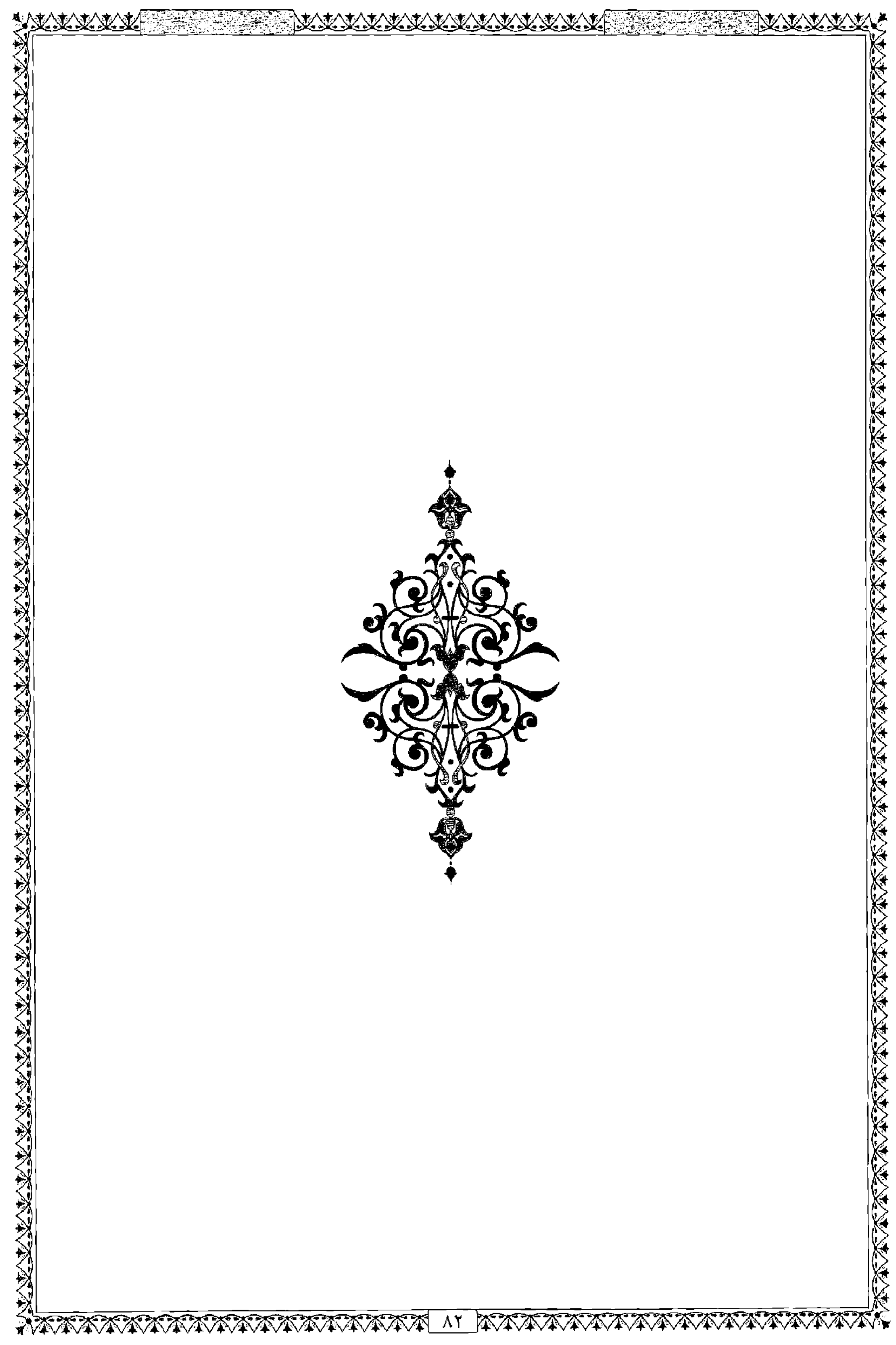




الإملاء على مشكل الإحياء

للإمام الغزالي

رضي الله عنه



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر

[خُطْبَةُ المؤَلِّف]

الحمدُ للهِ علىٰ ما خصصَ وعمَّمَ ، وأصلِّي علىٰ محمدٍ سيدِ جميعِ الأممِ ، ونبيِّهِ المبعوثِ إلى العربِ والعجمِ ، وعلىٰ آلهِ وعترتِهِ ، وسلَّمَ كثيراً وكرَّمَ .

سألتَ ـ يسَّركَ اللهُ لمراتبِ العلمِ تصعدُ مراقيَها ، وقرَّبَ لكَ مقاماتِ الولايةِ تحلُّ معاليَها ـ **عنْ بعضِ ما وقعَ في الإملاءِ الملقبِ بـ « الإحياءِ » ممَّا أشكلَ علىٰ مَنْ حُجِبَ فهمُهُ وقصرَ علمُهُ ، ولمْ يفزْ بشيءٍ مِنَ الحظوظِ الملكيَّةِ قدحُهُ وسهمُهُ .**

وأظهرْتَ التحزُّنَ لِمَا شاشَ بهِ شركاءُ الطَّغامِ[1] ، وأمثالُ الأنعامِ ، وأتباعُ العوامِّ ، وسفهاءُ الأحلامِ ، وعارُ أهلِ الإسلامِ .

حتىٰ طعنُوا عليهِ ، ونهَوْا عَنْ قراءتِهِ ومطالعتِهِ ، وأفتَوْا بمجرَّدِ الهوىٰ علىٰ غيرِ بصيرةٍ باطِّراحِهِ ومنابذَتِهِ ، ونسبُوا مُمليَهُ إلىٰ ضلالٍ وإضلالٍ ، ونبزُوا قرَّاءَهُ ومنتحليهِ بزيغٍ في الشريعةِ واختلالٍ .

فإلى اللهِ انصرافُهُمْ ومآبُهُمْ ، وعليهِ في يومِ العرضِ الأكبرِ إيقافُهُمْ وحسابُهُمْ .

فستكتبُ شهادتُهُمْ ويُسألونَ ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، ولـٰكنَّ الظالمينَ في شقاقٍ بعيدٍ .

ولا عجبَ ؛ فقدْ تَوِيَ أدلَّاءُ الطريقِ[2] ، وذهبَ أربابُ التحقيقِ ، ولمْ يبقَ في الغالبِ إلَّا أهلُ الزورِ والفسوقِ ، متشبهينَ بدعاوىٰ كاذبةٍ منمقَةٍ ، متصنعينَ بحكاياتٍ مزخرفةٍ ، مترائينَ بصفاتٍ متَّهمةٍ ، متظاهرينَ بظواهرَ للعلمِ فاسدةٍ ، متقاطعينَ بحججٍ غيرِ صادقةٍ ، **كلُّ ذٰلكَ لطلبِ دنيا أَوْ محبةِ ثناءٍ ، أَوْ مغالبةِ نظراءَ .**

قدْ ذهبتِ المواصلةُ بينَهُمْ بالبرِّ ، وتألَّفُوا جميعاً على النُّكْرِ ، وعُدمتِ النصائحُ بينَهُمْ في الأمرِ ، وتصافَوْا بأسرِهِمْ على الخديعةِ والمكْرِ ، إنْ نصحَهُمُ العلماءُ . . أغرَوْا بهِمْ ، وإنْ صمتَ عنهُمُ العقلاءُ . . أزرَوْا عليهِمْ .

أولـٰئكَ الجهّالُ في علمهِمُ ، الفقراءُ في طَولِهِمُ ، البخلاءُ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بأنفسهِمْ ، لا يفلحونَ ولا ينجحُ تابعُهُمْ ، وكذٰلكَ لا يظهرُ عليهِمْ مواريثُ الصدقِ ، ولا تسطعُ حولَهُمْ أنوارُ الولايةِ ، ولا تخفقُ بينَ أيديهِمْ أعلامُ المعرفةِ ، ولا يستُرُ عوراتِهِمْ لباسُ الخشيةِ ؛ لأنهُمْ لمْ ينالُوا أحوالَ النقباءِ ، ومراتبَ النجباءِ ، وخصوصيةَ البُدَلاءِ ، وكراماتِ الأوتادِ ، وفوائدَ الأقطابِ ، **وفي هـٰذهِ أسبابُ السعادةِ ، وتتمةُ الطهارةِ .**

---

(١) **الطغام** : أراذل الناس وأوغادهم .

(٢) **تويَ** : هلكَ .

أجلْ ؛ لَوْ عرفُوا أنفسَهُمْ . . ظهرَ لهُمُ الحقُّ ، وعلمُوا علةَ أهلِ الباطلِ ، وداءَ أهلِ الضعفِ ، ودواءَ أهلِ القوّةِ ، **ولـٰكنْ ليسَ هـٰذا مِنْ بضائِعِهِمْ** ، حُجِبُوا عنِ الحقيقةِ بأربعةٍ : **بالجهلِ ، والإصرارِ** ، ومحبةِ الدنيا ، **وإظهارِ الدعوىٰ** .

فالجهلُ . . أورثهُمُ السخفَ .

والإصرارُ . . أورثهُمُ التهاونَ .

ومحبةُ الدنيا . . أورثتهُمْ طولَ الغفلةِ بالأملِ .

وإظهارُ الدعوىٰ . . أورثهُمُ الكبرَ والإعجابَ والرياءَ ، ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴾ .

فلا يغرَّنَّكَ ـ أعاذَنا اللهُ وإياكَ مِنْ أحوالِهِمْ ـ **شأنُهُمْ** ، ولا يُذهلنَّكَ عَنِ الاشتغالِ بصلاحِ نفسِكَ تمردُهُمْ وطغيانُهُمْ ، ولا يُغوينَّكَ بما زينَ لهُمْ مِنْ سوءِ أعمالِهِمْ شيطانُهُمْ ، فكأَنْ قدْ جُمعَ الخلائقُ في صعيدٍ ، ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ ، وتُلِيَ : ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ .

فيا لَهُ موقفاً !! لقدْ أذهلَ ذوي العقولِ عنِ القالِ والقيلِ ، ومتابعةِ الأباطيلِ ، فأعرضْ عنِ الجاهلينَ ، ولا تطعْ كلَّ أفّاكٍ أثيمٍ ، ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ ، ﴿ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ ، ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ .

ولقدْ أجبناكَ ـ بحولِ اللهِ وقوتِهِ ، وبعدَ استخارتِهِ ـ **عمّا سألتَ عنهُ** ، وخاصّةً ما رغبتَ فيهِ مِنْ تخصيصِ الكلامِ بالمثَلِ الذي تزلُّ فيهِ الأقدامُ ؛ إذْ قدِ اتفقَ أنْ يكونَ أشهرَ ما في الكتابِ وأكثرَ تصرفاً علىٰ ألسنةِ الصدورِ والأصحابِ ، حتَّىٰ لقدْ صارَ المثَلُ المذكورَ في المجالسِ ، تحيةَ الداخلِ وحديثَ المُجَالسِ ، فساعدْنا أمنيتَكَ .

ولولا العجلةُ والاشتغالُ . . لأضَفْنا إلىٰ إملائِنَا هـٰذا بياناً غيرَهُ ممّا عَدُّوهُ مشكلاً ، وصارَ لعقولِهِمْ الضعيفةِ مخيِّلاً مضلِّلاً .

ونحنُ نستعيذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ ، ونستعصمُ بِهِ مِنْ جراءَةِ فقهاءِ الزمانِ ، ونضرعُ إليهِ في المزيدِ مِنَ الإحسانِ ؛ إنَّهُ الجوادُ المنّانُ .

* * *

ذكر مراسم الأسئلة في المشكل

* **ذكرتَ** ـ رزقكَ اللهُ ذكرَهُ ، وجعلكَ تعقلُ نهيَهُ وأمرَهُ ـ **كيفَ جازَ انقسامُ التوحيدِ علىٰ أربعِ مراتبَ** ، ولفظةُ (التوحيدِ) تنافي التقسيمَ المشهودَ كما يُنافَى التكريرُ بالتعديدِ .

وإنْ صحَّ انقسامُهُ علىٰ وجهٍ لا يندفعُ . . فهلْ تصحُّ تلكَ القسمةُ فيما يوجدُ ، أو فيما يقدرُ ؟

ورغبتَ في مزيدِ البيانِ في تحقيقِ كلِّ مرتبةٍ ، وانقسامِ طبقاتِ أهلِهَا فيهَا إنْ كانَ يقعُ بينهُمُ التفاوُتُ ، وما وجهُ تمثيلِهَا بالجوزِ والقشورِ واللبوبِ ، ولِمَ كانَ الأوَّلُ لا ينفعُ ، والآخِرُ الذي هوَ الرابعُ لا يحلُّ إفشاؤُهُ ؟

❁ ❁ ❁

* **وما معنىٰ قولِ مَنْ تقدَّمَ مِنْ أهلِ هـٰذا الشأنِ : إفشاءُ سرِّ الربوبيَّةِ كفرٌ ؟**

وأينَ أصلُ ما قالوهُ في الشرعِ ؟

إذِ الإيمانُ والكفرُ ، والهدايةُ والضلالُ ، والتقريبُ والتبعيدُ ، والصديقيَّةُ وسائرُ مقاماتِ الولايةِ ، ودركاتِ المخالفةِ . . إنما هيَ مآخذُ شرعيَّةٌ ، وأحكامٌ نبويَّةٌ .

* **وكيفَ يُتصورُ مخاطبةُ العقلاءِ للجماداتِ ، ومخاطبةُ الجماداتِ للعقلاءِ ؟**

وبماذا تُسمعُ تلكَ المخاطبةُ ، أبحاسَّةِ الأذُنِ ، أمْ بسمعِ القلبِ ؟

* **وما الفرقُ بينَ القلمِ المحسوسِ والقلمِ الإلـٰهيِّ ؟**

* **وما حدُّ عالَمِ المُلْكِ ، وحدُّ عالَمِ الجبروتِ ، وحدُّ عالَمِ الملكوتِ ؟**

* **وما معنىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورَتِهِ ؟**

وما الفرقُ بينَ الصورةِ الظاهرةِ التي يكونُ معتقدُها مشبِهاً صرفاً ، والصورةِ الباطنةِ التي يكونُ معتقدُها منزِّهاً مجلّاً ؟

* **وما معنىٰ فاطْوِ الطريقَ فإنكَ بالوادي المقدَّسِ طوىً** ، ولعلَّهُ ببغدادَ أوْ أصبهانَ أوْ نيسابورَ أوْ طبرستانَ في غيرِ الوادِي الذي سمعَ فيهِ موسىٰ عليهِ السلامُ كلامَ اللهِ تعالىٰ ؟

* **وما معنىٰ فاستمِعْ بسرِّ قلبكَ لِمَا يُوحىٰ ؟**

وهلْ يكونُ سماعُ القلبِ بغيرِ سرِّهِ ؟

وكيفَ يسمعُ ما يُوحىٰ مَنْ ليسَ بنبيٍّ ؟

أذلكَ علىٰ طريقِ التعميمِ ، أمْ علىٰ سبيلِ التخصيصِ ؟

ومَنْ لهُ بالتسلُّقِ إلىٰ مثلِ ذٰلكَ المقامِ حتَّىٰ يسمعَ أسرارَ الإلـٰهِ ؟

وإنْ كانَ علىٰ سبيلِ التخصيصِ . . فالنبوَّةُ ليستْ محجورةً علىٰ أحدٍ إلَّا علىٰ مَنْ قعدَ عنْ سلوكِ تلكَ الطريقِ .

وماذا يسمعُ في النداءِ إذا سمعَ ، هلِ اسمَ موسىٰ أوِ اسمَ نفسِهِ ؟

* **وما معنى الأمرِ للسالكِ بالرجوعِ مِنْ عالَمِ القدرةِ ، ونهيِهِ عنْ أنْ يتخطَّىٰ رقابَ الصدِّيقينَ ؟**

وما الذِي أوصلَهُ إلىٰ مقامِهِمْ ، وهوَ في المرتبةِ الثالثةِ ، وهيَ توحيدُ المقربينَ ؟

* **وما معنى انصرافِ السالكِ بعدَ وصولِهِ إلىٰ ذٰلكَ الرفيقِ الأعلىٰ ؟**

وإلىٰ أينَ وجهتُهُ في الانصرافِ ؟

وكيفَ صفةُ انصرافِهِ ؟

وما الذِي يمنعُهُ مِنَ البقاءِ في الموضِعِ الذِي وصلَ إليهِ ، وهوَ أرفعُ مِنَ الذِي خلفَهُ ؟

وما معنىٰ ذٰلكَ ؟

وأينَ هٰذا مِنْ قولِ أبي سليمانَ الدارانِيِّ المذكورِ في غيرِ « الإحياءِ » : (لَوْ وصلُوا . . ما رجعُوا ، ما وصلَ مَنْ رجعَ) ؟[1]

* **وما معنىٰ بأنَّ ليسَ في الإمكانِ أبدعُ مِنْ صورةِ هٰذا العالَمِ ، ولا أحسنُ ترتيباً ، ولا أكملُ صنعاً ؟** ولوْ كانَ وادخرَهُ معَ القدرةِ علىٰ خلقِهِ . . لكانَ ذٰلكَ بخلاً يناقضُ الجودَ ، أو عجزاً يناقضُ القدرةَ الإلـٰهيَّةَ .

* **وما حكمُ هٰذِهِ العلومِ المكنونَةِ ؟**

هلْ طلبُها فرضٌ ، أوْ مندوبٌ إليهِ ، أوْ غيرُ ذٰلكَ ؟

ولِمَ كُسيتِ المشكِلَ مِنَ الألفاظِ ، واللُّغْزَ مِنَ العباراتِ ؟

وإنْ جازَ ذٰلكَ للشارعِ فيما لَهُ أنْ يختبرَ بهِ ويمتحنَ . . فما بالُ مَنْ ليسَ شارعاً ؟!

انتهى جملة مراسم الأسئلة في المشكل

فأسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يملِيَ علينا ما هوَ الحقُّ عندَهُ في ذٰلكَ ، وأنْ يُجرِيَ علىٰ ألسنتِنا ما يُستضاءُ بهِ في ظلماتِ المسالكِ ، وأنْ يعمَّ بنفعِهِ أهلَ المبادِي والمدارِكِ .

ثمَّ لا بدَّ أنْ أمهِّدَ مقدِّمةً ، وأوطِّدَ قاعدَةً ، وأؤكِّدَ وصيَّةً .

أمَّا المقدِّمةُ :

فالغرضُ منها تبيينُ عباراتٍ انفردَ بها أربابُ الطريقةِ بأَخَرَةٍ ، تغمضُ معانِيهَا علىٰ أهلِ القُصورِ ، فنذكُرُ ما يغمضُ منهَا ، ونذكُرُ شرحَها والقصدَ بها عندَهُمْ .

فرُبَّ واقفٍ علىٰ ما يكونُ مِنْ كلامِنا مختصاً بهٰذا الفنِّ في هٰذا الإملاءِ وغيرِهِ . . فيتوقَّفُ عليهِ فهْمُ معناهُ مِنْ جهةِ اللَّفظِ .

(1) أورده الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٢/١٠) ، وفيه : (ما رجع من وصل ، لو وصلوا . . ما رجعوا) .

وأمَّا القاعدةُ :

فنذكُرُ فيها الأَمَمَ الذِي يكونُ سلوكُنا في هٰذِهِ العلومِ عليهِ ، والسمتَ الذِي نومِئُ بمقصدِنا إليهِ ؛ ليكونَ ذٰلكَ أقربَ على المتأمِّلِ ، وأسهلَ على الناظرِ المتفهِّمِ .

وأمَّا الوصيَّةُ :

فنقصدُ فيها تعريفَ ما علىٰ مَنْ نظرَ في كلامِ الناسِ ، وأخذَ نفسَهُ بالاطِّلاعِ علىٰ أغراضِهِمْ فيما ألفوهُ من تصانيفِهِمْ ، وكيفَ يكونُ نظرُهُ فيها ، واطِّلاعُهُ عليها ، واقتباسُه منها .

فذٰلكَ أَوكدُ عليهِ أَنْ يتعلمَهُ إنْ لَمْ يعلمْهُ ، وأَوْلىٰ ما يلزمُهُ العملُ بهِ إذا علمَهُ .

فما أُتيَ علىٰ أكثرِهِمْ إلَّا أنهُمْ أَتَوُا البيوتَ مِنْ ظهورِها فشردُوا عنها ، وأُغلقتْ في وجوهِهِمُ الأبوابُ ، وأُسدلَ دونَهُمْ كثيفُ الحجابِ ، ولوْ أَتَوْها مِنْ حيثُ أبوابُها . . لَلُقُوا بالترحيبِ ، وولجُوا على الرِّضا بالحبيبِ ، وكُشفَ لهُمْ كثيرٌ مِنْ حُجُبِ الغيبِ ، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

* * *

المقدّمة

اعلمْ : أنَّ الألفاظَ المستعملةَ في كلِّ صناعةٍ :

منها : ما يستعملُهُ الجماهيرُ والعمومُ .

ومنها : ما يستعملُهُ أربابُ الصنائعِ خاصّةً .

❋ ❋ ❋

والصنائعُ على ضربينِ : عمليَّةٍ ، وعلميَّةٍ .

فالعمليَّةُ : كالمهنِ والحرفِ ، ولأهلِ كلِّ صناعةٍ منهُمْ ألفاظٌ يتفاهمونَ بها آلاتِهِمْ ، ويتعاطونَ بها فصولَ صناعاتِهِمْ .

والعلميَّةُ : هيَ العلومُ المحفوظةُ بالقوانينِ ، والمعدَّلةُ بما يحرزُها مِنَ الموازينِ ، ولأهلِ كلِّ علمٍ أيضاً ألفاظٌ اختصُّوا بها لا يشاركهُمْ فيها غيرُهُمْ ، إلَّا أنْ يكونَ ذٰلكَ بالاتفاقِ مِنْ غيرِ قصدٍ .

وتكونُ المشاركَةُ ـ إذا اتفقَتْ ـ إمَّا في صورةِ اللفظِ دونَ المعنى ، أوْ في المعنى وصورةِ اللفظِ جميعاً .

وهٰذا لا يعرفُهُ إلَّا مَنْ بحثَ عنْ مجاري الألفاظِ عندَ الجمهورِ وأربابِ الصنائعِ .

وإنما سمَّينا مِنَ العلومِ صنائعَ ما قُصِدَ فيها التصنيعُ بالترتيبِ والتقسيمِ ، واختيارِ لفظٍ دونَ غيرِهِ .

وحدُّهُ بطرفينِ : مبدأً ، وغايةٍ .

وما لمْ يكنْ كذٰلكَ . . فلا نسمّيهِ صناعةً ؛ كعلومِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ ، والصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ فإنهُمْ لمْ يكونُوا فيما عندَهُمْ مِنَ العلومِ على طريقِ مَنْ بعدَهُمْ ، ولا كانتْ العلومُ عندَهُمْ بالرسمِ الذي هوَ عندَ مَنْ خلفَهُمْ .

ومثلُ ذٰلكَ علومُ العربِ وأنسابُها ، لا نسمّيها عندَهُمْ صناعةً ، ونسمّيها بذٰلكَ عندَ مَنْ ضبطَها بما اشتُهِرَ مِنَ القوانينِ ، وتقرَّرَ مِنَ الحصرِ والترتيبِ .

❋ ❋ ❋

ولأربابِ العلومِ الروحانيَّةِ ، وأهلِ الإشاراتِ إلى الحقائقِ ، والمسمَّيْنَ بالسادةِ ، والملقَّبينَ بالصوفيَّةِ ، والمتشبِّهينَ بالفقراءِ ، والمعروفينَ بالرِّقَّةِ ، والمعزُوِّ إليهِمُ العلمُ والعملُ . **ألفاظٌ جرى رسمهُمْ بالتخاطبِ بها فيما يتذاكرونَهُ أوْ يذكرونَهُ** .

ونحنُ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ نذكرُ ما يغمضُ منها ؛ إذْ قدْ يقعُ منَّا عندَما نذكرُ شيئاً مِنْ علومِهِمْ ، ونشيرُ إلى غرضٍ مِنْ أغراضِهِمْ ، فلمْ نرَ أنْ يكونَ ذٰلكَ بغيرِ ما عُرفَ مِنْ ألفاظِهِمْ وعباراتِهِمْ ، ولا حرجَ في ذٰلكَ عقلاً وشرعاً ، ونحنُ بحكْمِ مُصرِّفِ التقديرِ ، وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ .

❋ ❋ ❋

فمِنْ ذٰلكَ قولُهُمْ :

السفرُ ، والطريقُ ، والسالكُ ، والمسافرُ ، والحالُ ، والمقامُ ، والمكانُ ، والشطحُ ، والطوالعُ ، والذهابُ ، والنَّفَسُ ، والسِّرُّ ، والوصلُ والفصلُ ، والأدبُ ، والرياضةُ ، والتحلِّي والتخلِّي ، والتجلِّي ، والعلةُ والانزعاجُ ، والمشاهدةُ ، والمكاشفةُ ، واللوائحُ ، والتلوينُ ، والغيرةُ ، والحريَّةُ ، واللطيفةُ ، والفتوحُ ، والوسمُ والرسمُ ، والبسطُ والقبضُ ، والفناءُ والبقاءُ ، والجمعُ والتفرقةُ ، وعينُ التحكُّمِ ، والزوائدُ ، والإرادةُ ، والمريدُ ، والمرادُ ، والهمَّةُ ، والغربةُ ، والمكرُ ، والاصطلامُ ، والرغبةُ ، والرهبةُ ، والوجدُ ، والوجودُ ، والتواجدُ .

فلنذكُرْ شرحَ هٰذِهِ الألفاظِ علىٰ أوجزِ ما يمكنُ بمشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإنْ كانتْ ألفاظُهُمُ المصرَّفَةُ بينهُمْ في علومِهِمْ أكثرَ ممَّا ذكَرْنا ، فإنَّما قصدُنا أنْ نريكَ منها أنموذجاً ودستوراً تعلمُ بهِ إذا طرأَ عليكَ ما لمْ نذكرْهُ لكَ ها هنا أنَّ لها مبحثاً ، وإليها سبيلاً ، فتطلُبُهُ بعدَ ذٰلكَ علىٰ وجهِهِ .

❀ ❀ ❀

فأمَّا السفرُ والطريقُ والمسافرُ والسالكُ :

فالمرادُ بالسفرِ والطريقِ : سفرُ القلبِ بآلةِ الفكرِ في طريقِ المعقولاتِ ، وعلىٰ ذٰلكَ انبنىٰ لفظُ **السالكِ والمسافرِ** في لغتهِمْ .

ولمْ يريدوا بذٰلكَ سلوكَ الأقدامِ التي بها تُقطعُ مسافاتُ الأجسامِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ممّا يشاركُ فيهِ البهائمُ والأنعامُ !!

وأولُ مسالكِ السفرِ إلىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ معرفةُ قواعدِ الشرعِ ، وخرقُ حجبِ الأمرِ والنهيِ ، حتَّىٰ يعقلُوا الغرضَ فيها ، والمرادَ بها ومنها ، فإذا خلَّفُوا نواحِيَها ، وقطعُوا معاطِبَها . . **أشرفُوا علىٰ مفاوزَ أوسعَ ، وبدَتْ لهُمْ مهامِهُ أعرضُ وأطولُ**[1]

مِنْ ذٰلكَ : معرفةُ أركانِ المعارفِ النبويَّةِ ، النفسُ والعدوُّ والدنيا ، فإذا تخلَّصُوا مِنْ أوعارِها . . أشرفُوا علىٰ غيرِها أعظمَ منها في الانتسابِ ، وأعرضَ بغيرِ حسابٍ .

ومِنْ ذٰلكَ : سرُّ القدرِ ، وكيفَ تحكَّمَ في الخلائقِ ، وقادَهُمْ بلطفٍ في عنفٍ ، وبشدَّةٍ في لينٍ ، وبقوَّةٍ في ضعفٍ ، وباختيارٍ في جبرٍ إلىٰ ما هوَ في مجاريهِ ، لا يخرجُ المخلوقُونَ عنهُ طرفةَ عينٍ ، ولا يتقدمونَ عليهِ ، ولا يتأخرونَ عنهُ طرفةَ عينٍ .

والإشرافُ على الملكوتِ الأعظمِ ، ورؤيةُ عجائبِهِ ومشاهدَةُ غرائبِهِ ، مثلُ القلَمِ الإلٰهيّ واللوحِ المحفوظِ ، واليمينِ الكاتبةِ ، وملائكةِ اللهِ الذينَ يطوفونَ حولَ العرشِ وبالبيتِ المعمورِ ، وهُمْ يسبحونَهُ ويقدِّسونَهُ ، وفهْمُ كلامِ المخلوقاتِ مِنَ الحيواناتِ والجماداتِ .

ثمَّ التخطِّي منها إلىٰ معرفةِ الخالقِ للكلِّ ، والمالكِ للجميعِ ، والقادرِ علىٰ كلِّ شيءٍ ، فتغشاهُمُ الأنوارُ المحرقَةُ ، وتتجلَّىٰ لمرآةِ قلوبِهِمُ الحقائقُ المحتجبةُ ، فيعلمونَ الصفاتِ ويشاهدونَ الموصوفَ ، ويحضرونَ حيثُ غابَ أهلُ الدعوىٰ ، ويبصرونَ ما عميَ عنهُ أولُو الأبصارِ الضعيفةِ بحجبِ الهوىٰ .

❀ ❀ ❀

---

(١) **المهامه** ؛ مفردها : مَهْمَه ؛ وهي المفازة والبرية القَفْر .

* **والحالُ** : منزلةُ العبدِ في الحينِ ، فيصفُو لهُ في الوقتِ حالُهُ ووقتُهُ .

وقِيلَ : هوَ ما يتحوَّلُ فيهِ العبدُ ، ويتغيرُ بما يرِدُ علىٰ قلبِهِ ، فإذا صفا تارةً وتغيَّرَ أخرىٰ . . قِيلَ لهُ : حالٌ .

وقالَ **بعضهُمْ** : الحالُ لا يزولُ ، فإذا زالَ . . لمْ يكُنْ حالاً[1]

* **والمقامُ** : هوَ الذي يقومُ بِهِ العبدُ في الأوقاتِ مِنْ أنواعِ المعاملاتِ وصنوفِ المجاهداتِ ، فمتىٰ أُقيمَ العبدُ بشيءٍ منها على التمامِ والكمالِ . . فهوَ مقامُهُ حتَّىٰ يُنقلَ منهُ إلىٰ غيرِهِ .

* **والمكانُ** : هوَ لأهلِ الكمالِ والتمكينِ والنهايةِ .

فإذا كملَ العبدُ في معانيهِ . . فقدْ تمكَّنَ مِنَ المكانِ ، وعبرَ المقاماتِ والأحوالَ ، فيكونُ صاحبَ مكانٍ كما قالَ بعضهُمْ[2] : [من الطويل]

مكانُكَ مِنْ قلبِي هوَ القلبُ كلُّهُ ... فليسَ لشيءٍ فيهِ غيرُكَ موضعُ

* **والشطحُ** : كلامٌ يترجمُهُ اللسانُ عنْ وجدٍ يعرضُ ، يفيضُ عنْ معدنِهِ ، مقرونٌ بالدعوىٰ ، إلَّا أنْ يكونَ صاحبهُ محفوظاً .

* **والطوالعُ** : أنوارُ التوحيدِ تطلعُ علىٰ قلوبِ أهلِ المعرفةِ بشعاعِها ، فيطمسُ سلطانُ نورِها سائرَ الأنوارِ ، كما أنَّ سلطانَ نورِ الشمسِ يمحُو أنوارَ الكواكبِ .

* **والذهابُ** : هوَ أنْ تغيبَ القلوبُ عنْ حسِّ كلِّ محسوسٍ بمشاهدةِ محبوبِهَا .

* **والنَّفَسُ** : روحٌ يسلِّطُهُ اللهُ علىٰ نارِ القلبِ ليطفِئَ شررَها .

* **والسِّرُّ** : ما خفيَ عنِ الخلقِ ، فلا يعلمُ بِهِ إلَّا الحقُّ ، **وسرُّ السِّرِّ** : ما لا يحسُّ بِهِ السِّرُّ .

والسِّرُّ ثلاثةٌ : سرُّ العلمِ ، وسرُّ الحالِ ، وسرُّ الحقيقةِ .

فسرُّ العلمِ : حقيقةُ العالِمِينَ باللهِ عزَّ وجلَّ .

وسرُّ الحالِ : معرفةُ مرادِ اللهِ تعالىٰ في الحالِ مِنَ اللهِ .

وسرُّ الحقيقةِ : ما وقعَتْ بِهِ الإشارةُ .

* **والوصلُ** : إدراكُ الفائتِ .

* **والفصلُ** : فوتُ ما ترجُوه مِنْ محبوبِكَ .

* **والأدبُ ثلاثةٌ** :

أدبُ الشرعِ ، وهوَ التعلُّقُ بأحكامِ الشريعةِ ، والعلمُ بصحَّةِ عزمِ الخدمةِ .

والثاني : أدبُ الخدمةِ ، وهوَ التشمُّرُ عنِ العلاقاتِ ، والتجرُّدُ عنِ الملاحظاتِ .

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ١٣٤) .

(٢) البيت للحسين بن منصور الحلاج في « ديوانه » (ص ٥٤) .

والثالثُ : أدبُ الحقِّ ، وهوَ موافقةُ الحقِّ بالمعرفةِ .

* **والرياضةُ اثنانِ** :

رياضةُ الأدبِ ، وهوَ الخروجُ عنْ طبعِ النفسِ .

ورياضةُ الطلبِ ، وهوَ صحَّةُ المرادِ بهِ .

* **والتحلِّي** : التشبُّهُ بأحوالِ الصادقينَ بالأحوالِ ، وإظهارُ الأعمالِ ، وأنشدُوا[1] : [من الخفيف]

مَــنْ تــحــلَّــىٰ بــغــيــرِ مــا هــوَ فــيــهِ ... فــضــحــتْــهُ شــواهــدُ الأعــمــالِ

* **والتخلِّي** : اختيارُ الخلوةِ ، والإعراضُ عنْ كلِّ ما يشغلُ عنِ الحقِّ .

* **والتجلِّي** : هو ما ينكشفُ للقلوبِ مِنْ أنوارِ الغيوبِ .

* **والعلَّةُ** : تنبيهٌ مِنَ الحقِّ .

* **والانزعاجُ** : انتباهُ القلبِ مِنْ سِنَةِ الغفلةِ ، والتحركُ للأنسِ والوجدِ .

* **والمشاهدةُ ثلاثٌ** :

مشاهدةٌ بالحقِّ ، وهيَ رؤيةُ الأشياءِ بدلائلِ التوحيدِ .

ومشاهدةٌ للحقِّ ، وهيَ رؤيةُ الحقِّ في الأشياءِ .

ومشاهدةُ الحقِّ : وهيَ حقيقةُ اليقينِ بلا ارتيابٍ .

* **والمكاشفةُ** أتمُّ مِنَ المشاهدةِ ، **وهيَ ثلاثٌ** :

مكاشفةٌ بالعلمِ ، وهيَ تحقيقُ الإصابةِ بالفهمِ .

ومكاشفةٌ بالحالِ ، وهيَ تحقيقُ رؤيةِ زيادةِ الحالِ .

ومكاشفةٌ بالوجدِ ، وهيَ تحقيقُ صحَّةِ الإشارةِ .

* **واللوائحُ** : ما يلوحُ للأسرارِ الطاهرةِ الصافيةِ مِنَ السموِّ مِنْ حالةٍ إلىٰ حالةٍ أتمَّ منها ، والارتقاءِ مِنْ درجةٍ إلىٰ ما هوَ أعلىٰ منها .

* **والتلوينُ** : تلوينُ العبدِ في أحوالِهِ ، وقالَتْ طائفةٌ : علامةُ الحقيقةِ رفعُ التلوينِ بظهورِ الاستقامةِ .

وقالَ آخرونَ : علامةُ الحقيقةِ التلوينُ ؛ لأنهُ تظهرُ فيهِ قدرةُ القادرِ ، فيكتسبُ منهُ العبدُ التغيُّرَ .

* **والغيرةُ** : غيرةٌ في الحقِّ ، وغيرةٌ على الحقِّ ، وغيرةٌ مِنَ الحقِّ .

فغيرةٌ في الحقِّ برؤيةِ الفواحشِ والمناهِي ، وغيرةٌ على الحقِّ وهيَ كتمانُ السرائرِ ، وغيرةٌ مِنَ الحقِّ ضِنَّتهُ علىٰ أوليائِهِ .

* **والحريَّةُ** : إقامةُ حقوقِ العبوديةِ ، فيكونُ للهِ عبداً وعنْ غيرِهِ حرّاً

---

(١) البيت ينسب لأبي عمرو بن العلاء ، انظر « العقد الفريد » (٢/٢١٨) ، و« الحماسة المغربية » (٢/١٢٨٧) ، وفيهما : (شواهد الامتحان) بدل (شواهد الأعمال) .

* **واللطيفةُ** : إشارةٌ دقيقةُ المعنىٰ تلوحُ في الفهمِ ، ولا تسعُها العبارةُ .

* **والفتوحُ ثلاثةٌ** :

فتوحُ العبادةِ في الظاهرِ ، وذٰلكَ بسببِ إخلاصِ القصدِ .

وفتوحُ الحلاوةِ في الباطنِ ، وهوَ سببُ جذبِ الحقّ بإعطافِهِ .

وفتوحُ المكاشفةِ ، وهوَ سببُ المعرفةِ بالحقِّ .

* **والوسمُ والرسمُ** : نعتانِ يجريانِ في الأبدِ بما جريَا في الأزلِ .

* **والبسطُ** : عبارةٌ عنْ حالِ الرجاءِ .

* **والقبضُ** : عبارةٌ عنْ حالِ الخوفِ .

* **والفناءُ** : فناءُ المعاصِي ، ويكونُ فناءَ رؤيةِ العبدِ لفعلِهِ بقيامِ اللهِ تعالىٰ علىٰ ذٰلكَ .

* **والبقاءُ** : بقاءُ الطاعاتِ ، ويكونُ بقاءَ رؤيةِ العبدِ لفعلِهِ بقيامِ اللهِ سبحانَهُ علىٰ كلِّ شيءٍ .

* **والجمعُ** : هوَ التسويةُ في أصلِ الخلقِ ، وعندَ آخرينَ معناهُ : إشارةُ مَنْ أشارَ إلى الحقِّ بلا خلقٍ .

* **والتفرقةُ** : إشارةٌ إلى الكونِ والخلقِ ، فمَنْ أشارَ إلىٰ تفرقةٍ بلا جمعٍ . . فقدْ جحدَ الباريَ سبحانَهُ ، ومَنْ أشارَ إلىٰ جمعٍ بلا تفرقةٍ . . فقدْ أنكرَ قدرةَ القادرِ ، **وإذا جمعَ بينهُما . . فقدْ وحَّدَهُ** .

* **وعينُ التحكُّمِ** : هوَ إظهارُ غايةِ الخصوصيَّةِ بلسانِ الانبساطِ في الدعاءِ .

* **والزوائدُ** : زياداتُ الإيمانِ بالغيبِ واليقينِ .

* **والإرادةُ ثلاثةٌ** :

إرادةُ الطلبِ مِنَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وذٰلكَ موضعُ التمنِّي .

وإرادةُ الحظِّ منهُ ، وذٰلكَ موضعُ الطمعِ .

وإرادةُ اللهِ سبحانَهُ ، وذٰلكَ موضعُ الإخلاصِ .

* **والمريدُ** : هوَ الذي صحَّ لهُ الابتداءُ ، ودخلَ في جملةِ المنقطعينَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بالاسمِ .

* **والمرادُ** : هوَ العارفُ الذي لمْ تبقَ لهُ إرادةٌ ، وقدْ وصلَ إلى النهاياتِ ، وعبرَ الأحوالَ والمقاماتِ .

* **والهمَّةُ ثلاثةٌ** :

همَّةُ أمنيَّةٍ ، وهيَ : تحرُّكُ القلبِ للمنىٰ .

وهمَّةُ إرادةٍ ، وهيَ : أولُ صدقِ المريدِ .

وهمَّةُ حقيقةٍ ، وهيَ : جمعُ الهمِّ بصفاءِ الإلهامِ .

* **والغربةُ ثلاثةٌ** :

غربةٌ عَنِ الأوطانِ مِنْ أجلِ حقيقةِ القصدِ .

وغربةٌ عَنِ الأحوالِ مِنْ حقيقةِ التفرُّدِ بالأحوالِ .

وغربةٌ عَنِ الحقّ مِنْ حقيقةِ الدهَشِ عَنِ المعرفةِ .

* **والاصطلامُ** : نعتُ وَلَهٍ يَرِدُ على القلوبِ ، فيسكُنُها بقوَّةِ سلطانِهِ .

* **والمكرُ ثلاثةٌ** :

مكرٌ معمومٌ مفهومٌ ، وهوَ الظاهرُ في بعضِ الأحوالِ .

ومكرٌ مخصوصٌ ، وهوَ في سائرِ الأحوالِ .

ومكرٌ خفيٌّ في إظهارِ الآياتِ والكراماتِ .

* **والرغبةُ ثلاثةٌ** :

رغبةُ النفسِ في الثوابِ .

ورغبةُ القلبِ في الحقيقةِ .

ورغبةُ السِّرِّ في الحقِّ .

* والرهبةُ ثلاثةٌ : **رهبةُ الظاهرِ** ؛ وذٰلكَ لتحقيقِ وعيدِ العلمِ .

ورهبةُ الباطنِ ؛ لتحقيقِ تقلُّبِ القلبِ .

ورهبةُ الغيبِ ؛ لتحقيقِ أمرِ السبقِ .

* **والوجدُ** : مصادفةُ القلوبِ لصفاءِ ذكرٍ كانَ قدْ فقدَهُ .

* **والوجودُ** : تمامُ وجدِ الواجدينَ ، وهوَ أتمُّ مِنَ الوجدِ عندَهُمْ .

وسُئِلَ بعضُهُمْ عَنِ الوجدِ والوجودِ فقالَ :

الوجدُ : ما تطلبهُ فتجدُهُ بكسبِكَ واجتهادِكَ ، والوجودُ : ما تجدُهُ مِنَ اللهِ الكريمِ ، والوجدُ مِنْ غيرِ تمكينٍ ، والوجودُ معَ التمكينِ .

* **والتواجدُ** : استدعاءُ الوجدِ ، والتشبُّهُ في تكلُّفِهِ بالصادقينَ مِنْ أهلِ الوجدِ .

القاعدة

وأمَّا القاعدةُ التي ينبني عليها هـٰذا الفنُّ بأسرِهِ . . فذٰلكَ اجتذابُ أرواحِ المعاني ، والإشارةُ إلى البعدِ في القربِ ، وقصدُ الاستدلالِ بالأقوالِ والأعمالِ والأحوالِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، قصداً ذاتياً لا على ما سلكَهُ أربابُ علومِ الظاهرِ ، ثـمَّ التصديقُ بالقوّةِ ، والنظرُ إلى الملكوتِ مِنْ كوّةٍ ، ومعرفةُ العلومِ في الانصرافِ ، ومصاحبةُ القدَرِ بالمساعدةِ والمعروفِ ، ومعاطاةُ كلِّ صنفٍ مِنَ الناسِ على قدْرِ عقلِهِ بلا مزيدٍ ، والتصرُّفُ في التعليمِ بينَ مراتبِ الوجودِ الخمسِ : **الذاتيِّ** ، **والحسيِّ** ، **والخياليِّ** ، **والعقليِّ** ، **والشَّبَهِيِّ** ، حسبَما فُهِمَ مِنَ الشرعِ ، وثبتَ معناهُ في المحفوظِ مِنَ الوحيِ .

وقلَّما أُدرِكَ شيءٌ معَ العجزِ ، والعلمُ لا يُنالُ براحةِ الجسدِ ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۞ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ .

والوصيّة

أيُّها الطالبُ للعلومِ ، والناظرُ في التصانيفِ ، والمستشرِفُ علىٰ كلامِ الناسِ وكتبِ الحكمَةِ : **ليكُنْ نظرُكَ فيما تنظرُ فيهِ باللهِ ، ولله ، وفي اللهِ .**

لأنهُ إنْ لمْ يكُنْ نظرُكَ بهِ . . وَكَلكَ إلىٰ نفسِكَ ، أوْ إلىٰ مَنْ جعلْتَ نظرَكَ بهِ إذا كانَ غيرَهُ ؛ مِنْ فهْمٍ ، أوْ علْمٍ ، أوْ حفْظٍ ، أوْ إمامٍ مُتَّبعٍ ، أوْ صحَّةِ تميُّزٍ ، أوْ ما شاكَلَ ذٰلكَ .

وكذٰلكَ إنْ لمْ يكُنْ نظرُكَ لهُ . . فقدْ صارَ عملُكَ لغيرهِ ، ونكصْتَ علىٰ عقبيكَ ، وخسرْتَ في الداريْنِ صفقتَكَ ، وعادَ كلُّ ما هوَ لكَ عليكَ ، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

وكذٰلكَ إنْ لمْ يكُنْ نظرُكَ فيهِ . . فقدْ أثبتَّ معهُ غيرَهُ ، ولاحظتَ بالحقيقةِ سواهُ ، ورؤيةُ غيرِهِ تُعمِي القلبَ ، وتهتِكُ الجِلْبَ [1] ، وتحجبُ اللبَّ .

وإذا نظرتَ في كلامِ أحدٍ مِنَ الناسِ ممَّنْ قدْ شُهِرَ بعلمٍ . . **فلا تنظرْهُ بازدراءٍ كمَنْ يُستغنَىٰ عنهُ في الظاهرِ ، ولهُ إليهِ كبيرُ حاجةٍ في الباطنِ ، ولا تقفْ بهِ مِنْ حيثُ وقفَ بهِ كلامُهُ .**

فالمعاني أوسعُ مِنَ العباراتِ ، والصدورُ أفسحُ مِنَ الكتبِ المؤلفاتِ ، وكثيرٌ عَلِمَ ما لمْ يُعبرْ عنهُ .

واطمحْ بنظرِ قلبِكَ في كلامِهِ إلىٰ غايةِ ما يحتملُ ، فذٰلكَ يعرّفُكَ وجهَ قدرِهِ ، ويفتحُ لكَ بابَ قصدِهِ ، ولا تقطعْ لَهُ بصحَّةٍ ، ولا تحكُمْ عليهِ بفسادٍ ، **وليكنْ تحسينُ الظنِّ أغلبَ عليكَ فيهِ** ؛ حتَّىٰ يزولَ الإشكالُ عنكَ بما تتيقنُ مِنْ معانيهِ .

وإذا رأيتَ لهُ حسنةً وسيئةً . . فانشرِ الحسنةَ ، واطلبِ المعاذيرَ للسيئةِ ، **ولا تكنْ كالذبابةِ تنزلُ علىٰ أقذرِ ما تجدُهُ .**

ولا تعجلْ علىٰ أحدٍ بالتخطئةِ ، ولا تبادِرْ بالتجهيلِ ، فربَّما عادَ عليكَ ذٰلكَ وأنتَ لا تشعُرُ ، فلكلِّ عالمٍ غورٌ ، ولهُ في بعضِ ما يأتي بهِ احتجاجٌ .

وناهيكَ بما جرىٰ بينَ وليِّ اللهِ تعالى الخضرِ وكليمِهِ موسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهما السلامُ .

وإذا عرضَ لكَ مِنْ كلامِ عالِمٍ إشكالٌ يؤذِنُ في الظاهرِ بمُحالٍ أو اختلالٍ . . **فخذْ ما ظهرَ لكَ علمُهُ ، ودعْ ما اعتاصَ عليكَ فهمُهُ ، وكِلِ العلمَ فيهِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . فهٰذِهِ وصيَّتِي إليكَ فاحفَظْها ، وتذكيري إياكَ فلا تذهلْ عنهُ .**

اسمعْ وصاتِي فإنْ تقبلْ حظيتَ بها	وإنْ تخالِفْ فقدْ يُزري بكَ الخُلْفُ
ولا يغرَّنْكَ جهّالٌ أتوك بما	يجني مُحالاً ومَيناً باطلاً هُزُفُ [2]

وأزيدكَ زيادةً تقتضِي التعريفَ بأصنافِ العلماءِ ؛ لكَيْ تعرفَ أهلَ الحقيقةِ مِنْ غيرِهِمْ ، فلكَ في ذٰلكَ أكبرُ منفعةٍ ، ولي في وصفِهِمْ أبلغُ عرضٍ .

---

(١) **الجِلْب** : غطاء الرحل .

(٢) البيتان من البسيط ، لم نقف علىٰ قائلهما .

قالَ بعضُ علمائِنا : **العلماءُ ثلاثةٌ : حجَّةٌ ، وحجَّاجٌ ، ومحجُوجٌ .**

فالحجَّةُ والحجَّاجُ : عالِمانِ باللهِ وبأمرِهِ ونهيِهِ وبآياتِهِ وبأيامِهِ ، علامتُهما الخشيةُ للهِ سبحانَهُ ، والورعُ في الدينِ ، والزهدُ في الدنيا ، والإيثارُ للهِ عزَّ وجلَّ .

لٰكنَّ الحجَّةَ محفوظٌ مِنَ المراءِ والجدالِ والخصوماتِ ، فهوَ حبْرٌ عليمٌ ، علىٰ صراطِ اللهِ المستقيمِ .

والحجَّاجُ مدفوعٌ إلىٰ إقامةِ الحجَّةِ ، وإطفاءِ نارِ البدعةِ ، قدْ أخرسَ المتكلمينَ ، وأفحمَ المتخرِّصينَ ، برهانُهُ ساطعٌ ، وبيانُهُ قاطعٌ ، وحقُّهُ ما ينازعُ ، شواهدُهُ بيِّنةٌ ، ونجومُهُ نيِّرةٌ ، قدْ حمَى اللهُ بهِ الدينَ ، وعُرِفَ بواضحِ برهانِهِ وحقائقِهِ ودلائلِهِ وَضَحُ الحقِّ المبينِ ، فهوَ ربانيٌّ عليمٌ علىٰ صراطِ اللهِ المستقيمِ .

والمحجوجُ : عالِمٌ باللهِ وبأمرِهِ وبأيامِهِ وبآياتِهِ ، ولٰكنَّهُ فقَدَ الخشيةَ للهِ برؤيتِهِ لنفسِهِ ، وحجبَهُ عَنِ الورعِ والزهدِ في الدنيا الرغبةُ والحرصُ ، وبعَّدَهُ مِنْ بركاتِ علمِهِ محبةُ العلوِّ والشرفِ ، وخوفُ السقوطِ والفقرِ .

فهوَ عبدٌ لعبيدِ الدنيا ، خادمٌ لخدَمِها ، مفتونٌ بعدَ علمِهِ ، مغترٌّ بعدَ معرفتِهِ ، مخذولٌ بعدَ نصرتِهِ ، شأنُهُ الاحتقارُ لنعمِ اللهِ تعالىٰ ، والإزراءُ بأوليائِهِ ، والاستخفافُ بالجهَّالِ مِنْ عبادِهِ ، وفخرُه بلقاءِ أميرِهِ ، وصلةِ سلطانِهِ ، وطاعَةِ القاضي والوزيرِ والحاجبِ لهُ .

قدْ أهلكَ نفسَهُ حينَ لمْ ينتفِعْ بعلمِهِ ، وأهلكَ الجهَّالَ والأتباعَ لَهُ ومَنْ يكونُ بعدَهُ قدوةً بهِ ، ومرادُهُ مِنَ الدنيا مثلُهُ .

وفي مثلِ هٰذا ضربَ اللهُ تعالى المثلَ حينَ قالَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

فويلٌ لمَنْ صحبَ مثلَ هٰذا في دنياهُ ، وويلٌ لمَنِ اتَّبعَهُ في دينِهِ ، وهٰذا هوَ الذي أكلَ بدينِهِ ، غيرَ منصفٍ للهِ سبحانَهُ في نفسِهِ ، ولا ناصحٍ لهُ في عبادِهِ ، تراهُ إنْ أُعطِيَ مِنَ الدنيا . . رضيَ بالمِدحةِ لِمَنْ أعطاهُ ، وإنْ مُنِعَ . . رضيَ بالذمِّ لمَنْ منعَهُ ، وقدْ نسيَ مَنْ قسَّمَ الأرزاقَ ، وقدَّرَ الأقدارَ ، وأجرى الأسبابَ ، وفرغَ مِنَ الخلقِ كلِّهِ ، **فنعوذُ باللهِ مِنَ الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ ، ومِنَ الضلالةِ بعدَ الهدىٰ .**

❀ ❀ ❀

وإنَّما زدتُكَ هٰذهِ الزيادَةَ وإنْ ظهرَ لكثيرٍ أنها ليستْ مِنَ الغرضِ الذي نحنُ فيهِ ، **فقصدِي أنْ تعلمَ مَنْ ذهبَ مِنَ الناسِ ومَنْ بقيَ ، ومَنْ أبصرَ الحقائقَ ومَنْ عميَ ، ومَنِ اهتدىٰ إلى الصراطِ المستقيمِ ومَنْ غويَ .**

فلتعلمْ أنَّ الصنفينِ الأوَّلَيْنِ مِنَ العلماءِ قدْ ذهبُوا ، وإنْ كانَ قدْ بقيَ منهُمْ أحدٌ . . فهوَ غيرُ محسوسٍ للناسِ ، ولا مُدْرَكٍ بالمخالطةِ .

غـابَ الـذيـنَ إذا مـا حـدَّثُـوا صـدَقُـوا ... وظـنُّـهُـمْ كـيـقـيـنٍ إنْ هُـمُ حـدَسُـوا[1]

وذٰلكَ لِمَا سبقَ في القضاءِ مِنْ ظهورِ الفسادِ ، وعدمِ أهلِ الصلاحِ والرشادِ .

نعمْ ؛ وعُدِمَ الصنفُ الثالثُ علىٰ عزَّتِهِ ، وأعزُّ شيءٍ علىٰ وجهِ الأرضِ في الغالبِ . . ما يقعُ عليهِ بالحقيقةِ اسمُ علمٍ عندَ شخصٍ مشهورٍ بهِ .

---

(١) البيت من البسيط ، ولم يعلم قائله .

وإنَّما الموجودُ اليومَ أهلُ سخافةٍ ودعوىٰ ، وحماقةٍ واجتراءٍ ، وعُجْبٍ بغيرِ فضيلةٍ ورياءٍ .

يحبونَ أنْ يُحمدُوا بما لمْ يفعلُوا ، وهُمْ أكثرُ مَنْ عَمَرَ الأرضَ وصيَّرُوا أنفسَهُمْ أوتادَ البلادِ ، وأرْسانَ العوامِّ .

وهُمْ حلفاءُ إبليسَ ، وأعداءُ الحقائقِ والخالقِ والخلائقِ ، وأخدانُ العوائدِ السوءِ ، وعنهُمْ يَرِدُ عيبُ الحِكَمِ الشائعةِ ، والبغضُ مِنَ العلماءِ العارفينَ ، وانتقاصُ أهلِ الإرادةِ والدينِ .

مـثْـلُ الـبـهـائـمِ جـهـلاً عـزَّ خـالـقُـهُـمْ ... لـهُـمْ تـصـاويـرُ لـمْ يُـقـرنْ بـهـنَّ حِـجَـا[1]

غيرُهُ[2] :

كـلٌّ يـرومُ عـلـىٰ مـقـدارِ حـيـلـتِـهِ ... زوائِـرُ الأُسْـدِ والـنـبَّـاحَـةُ الـلُّـهَـثَـا

﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ ، ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ .

أُولُـو الـنِّـفـاقِ إذا قـلـتَ اصـدُقُـوا كـذَبـوا ... مِـنَ الـسـفـاهِ وإنْ قـلـتَ اكـذِبُـوا صـدَقُـوا[3]

فلنأخُذْ في جوابِ ما سألتَ عنْهُ علىٰ نحوِ ما رغبتَ فيهِ ، وأستوهِبُ اللهَ نفوذَ البصيرَةِ ، وحُسْنَ السريرَةِ ، وغفرانَ الجريرَةِ ؛ فهوَ ربِّي وربُّ كلِّ شيءٍ وإليهِ المصيرُ ، وهوَ حسبِي ونعمَ الوكيلُ .

* * *

---

(١) البيت من البسيط ، لم نقف علىٰ قائله .

(٢) البيت من البسيط : لم نقف علىٰ قائله

(٣) البيت من البسيط ، لم نقف علىٰ قائله .

ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة

جرى الرسمُ في « الإحياءِ » بتقسيمِ التوحيدِ على أربعِ مراتبَ تشبيهاً بالجوزِ ؛ لموافقتِهِ للغرضِ في التمثيلِ بهِ ، وذكرتُ بأنَّ المعترِضَ وسوسَ ، أوْ بالخواطرِ هجسَ ، بأنَّ لفظَ التوحيدِ ينافي التقسيمَ ، إذْ لا يخلُو :

إمَّا أنْ يتعلقَ بوصفِ الواحدِ الذي ليسَ بزائدٍ عليهِ ، فذلكَ لا ينقسمُ لا بالجنسِ ولا بالفصلِ ولا بغيرِ ذلكَ .

وإمَّا أنْ يتعلقَ بوصفِ المكلفينَ الذينَ يُوجَبُ لهُمْ حكْمُهُ إذا وُجِدَ فيهِمْ ، فذلكَ أيضاً لا ينقسمُ مِنْ حيثُ انتسابُهُمْ إليهِ بالعقلِ ، وذلكَ لضيقِ المجالِ فيهِ .

ولهٰذا لا يُتصوَّرُ فيهِ مذاهبُ ، وإنَّما التوحيدُ مسلكٌ حقٌّ بينَ مسلكينِ باطلينِ :

أحدُهُما : شركٌ . والآخرُ : تَلَاشٍ . وكلا الطرفينِ كفرٌ .

والوسطُ إيمانٌ محضٌ ، وهوَ أحدُّ مِنَ السيفِ ، وأضيقُ مِنْ خطِّ الظلِّ .

ولهٰذا قالَ أكثرُ المتكلمِينَ بتماثُلِ إيمانِ جميعِ المؤمنينَ مِنَ الملائكةِ والنبيّينَ والمرسلينَ وسائرِ عمومِ المسلمينَ ، وإنَّما يختلفُ طرقُ إيمانِهِمُ التي هيَ علومُهُمْ ، ومذهبُهُمْ في ذلكَ معروفٌ .

ونحنُ لا نُلِمُّ في هٰذهِ الأجوبةِ كلِّها بشيءٍ مِنْ أنحاءِ الجدالِ ، ومقابلةِ الأقوالِ بالأقوالِ ، **بلْ نقصدُ إزالةَ عينِ الإشكالِ ، وردَّ ما طعنَ بهِ أهلُ الضلالِ والإضلالِ .**

❁ ❁ ❁

واعلمْ : أنَّ التقسيمَ على الإطلاقِ يستعملُ على أنحاءٍ لا يتوجَّهُ ها هنا شيءٌ ممّا قدحَ بهِ المعترِضُ ، أو هجسَ بهِ الخاطرُ .

وإنَّما المستعمَلُ هٰهُنا مِنْ أنحائِهِ ما يتميزُ بهِ بعضُ الأشخاصِ بما اختُصَّ بهِ مِنَ الأحوالِ ، **وكلُّ حالةٍ منها تسمَّى توحيداً على جهةٍ تنفردُ بها ، لا يشاركُها فيها غيرُها .**

فمَنْ وُجِدَ منهُ التوحيدُ بلسانِهِ . . **سُمِّيَ لأجلِهِ موحِّداً** ، ما دامَ الظنُّ بهِ أنَّ قلبَهُ موافِقٌ للسانِهِ ، وإنْ عُلِمَ منهُ خلافُ ذلكَ . . سُلِبَ عنهُ الاسمُ ، وأُقيمَ عليهِ ما شُرِعَ مِنَ الحكمِ .

ومَنْ وحَّدَ بقلبِهِ على طريقِ الركونِ إليهِ ، والميلِ إلى اعتقادِهِ ، والسكونِ نحوَهُ بلا علمٍ يصحبُهُ فيهِ ، ولا برهانٍ يربطُهُ بهِ . . **سُمِّيَ أيضاً موحِّداً** ، على معنى أنَّهُ يعتقدُ التوحيدَ ، كما يُسمَّى مَنْ يعتقدُ مذهبَ الشافعيِّ شافعياً ، والحنبليِّ حنبلياً .

ومَنْ رُزِقَ علمَ التوحيدِ ، وخُصَّ بما يتحقَّقُ بهِ عندَهُ ، وتنتفي مِنْ أجلِهِ شكوكُهُ العارضةُ لهُ . . **يُسمَّى موحِّداً** ، مِنْ جهةِ أنَّهُ عارفٌ بهِ ، كما يقالُ : جدليّاً ونحويّاً وفقيهاً ، ومعناهُ : أنهُ يعرفُ الجدلَ والفقهَ والنحوَ .

وأمَّا مَنِ استغرقَ علمُ التوحيدِ قلبَهُ ، واستولى على جملتِهِ حتَّى لا يوجدَ فيهِ فضلٌ لغيرِهِ إلَّا على طريقِ التبعيَّةِ لهُ ،

ويكونُ شهودُ التوحيدِ لكلِّ ما عداهُ سابقاً لهُ معَ الذكرِ والفكرِ ، مصاحباً مِنْ غيرِ أنْ يعتريَهُ ذهولٌ عنهُ ولا نسيانٌ لهُ ، لأجلِ اشتغالِهِ بغيرِهِ كالعادةِ في سائرِ العلومِ . . **فهٰذا يُسمَّىٰ موحِّداً** ، ويكونُ القصدُ بما يُسمَّىٰ بِهِ مِنْ ذٰلكَ المبالغةَ فيهِ .

فهٰذِهِ أربعُ مراتبَ يصحُّ إطلاقُ اسمِ التوحيدِ عليها .

* **فأمَّا الصنفُ الأولُ** ـ وهُمْ أربابُ النطقِ المجرَّدِ ـ : **فلا يضربونَ في التوحيدِ بسهمٍ** ، ولا يفوزونَ منهُ بنصيبٍ ، ولا يكونُ لهُمْ شيءٌ مِنْ أحكامِ أهلِهِ إلَّا في الحياةِ الأولىٰ ، ما دامَ الظنُّ بهِمْ أنَّ قلبَ أحدِهِمْ موافقٌ للسانِهِ ، كما نعيدُ القولَ عليهِ بعدَ هٰذا إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

* **وأمَّا الصنفُ الثاني** ـ وهُمْ أربابُ الاعتقادِ الذينَ سمعُوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوِ الوارثَ أوِ المبلِّغَ يخبرُ عَنْ توحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، أوْ يأمرُ بهِ ، ويُلزِمُ البشرَ قولَ : (لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ) المنبئَ عنهُ ، فقبلُوا ذٰلكَ ، واعتقدُوه على الجملةِ ، مِنْ غيرِ تفصيلٍ ولا دليلٍ ـ : **فنُسِبُوا إلى التوحيدِ** ، وكانُوا مِنْ أهلِهِ بمنزلةِ مولَى القومِ الذي هوَ منهُمْ ، وبمنزلةِ : (مَنْ كثَّرَ سوادَ قومٍ . . فهوَ منهُمْ) .

* **وأمَّا الصنفُ الثالثُ والرابعُ** : **فهُمْ أربابُ البصائرِ السليمةِ** ، الذينَ نظرُوا بها إلىٰ أنفسِهِمْ ، ثمَّ إلىٰ سائرِ أنواعِ المخلوقاتِ فتأمَّلُوها ، فرأَوْا علىٰ كلِّ نوعٍ منها خطّاً منطبعاً فيها ، ليسَ بعربيٍّ ، ولا سريانيٍّ ، ولا عبرانيٍّ ، ولا غيرَ ذٰلكَ مِنْ أجناسِ الخطوطِ .

فبادَرَ إلىٰ قراءتِهِ مَنْ لمْ يستعجِمْ عليهِ ، وتعلَّمَهُ منهُمْ مَنِ استعجَمَ عليهِ ؛ فإذا هوَ الخطُّ الإلٰهيُّ المكتوبُ علىٰ صفحةِ كلِّ مخلوقٍ ، المنطبعُ فيهِ مِنْ مركَّبٍ ومفردٍ ، وصفةٍ وموصوفٍ ، وحيٍّ وجمادٍ ، وناطقٍ وصامتٍ ، ومتحرِّكٍ وساكنٍ ، ومظلمٍ ونيِّرٍ .

وهوَ الذي يُسمَّىٰ تارةً بعلامةٍ ، وتارةً بسِمَةٍ ، وتارةً بأثرِ القدرةِ ، وتارةً بآيةٍ ، كما قالَ شاعِرُهُمْ ـ ولا أدري عَنْ سماعٍ أوْ رؤيةِ قلبٍ ـ[1] : [من المتقارب]

فَوَا عجباً كيفَ يُعصَى الإلـ ... ـهُ أمْ كيفَ يجحدُهُ جاحِدُ

وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ ... تدلُّ علىٰ أنَّهُ واحِدُ

فلمَّا قرؤُوا ذٰلكَ الخطَّ . . وجدُوا تفسيرَهُ حدوثَ المكتوبِ عليهِ ، وشرحَهُ أبديَّةَ مالكِهِ والتصريفَ لهُ بالقدرةِ علىٰ حكمِ الإرادةِ بما ثبتَ في سابقِ العلمِ مِنْ غيرِ مزيدٍ ولا نقصٍ ، فتركُوا الكتابةَ والمكتوبَ ، وترقَّوْا منها إلىٰ معرفةِ الكاتبِ ، الذي أحدثَ الأشياءَ وكوَّنَها ، ولمْ يخرجْ عَنْ ملكِهِ شيءٌ منها ، ولا استغنَتْ بأنفسِها عَنْ حولِهِ وقوَّتِهِ طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ مِنْ ذٰلكَ ، ولا انتهضَتْ إلى الحريَّةِ عَنْ رقِّ استعبادِهِ ، فوجدُوه كما وصفَ نفسَهُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

فحصلَتْ لهُمُ التفرقةُ والجمعُ ، وعقلَتْ نفسُ كلِّ واحدٍ منهُمْ توحيدَ خالقِها وإيجادَ غيرِهِ بإذنِهِ ، وعقلَتْ أنَّها عقلَتْ توحيدَهُ ، فسبحانَ مَنْ يسَّرَها لذٰلكَ ، **وفتحَ عليها ما ليسَ في وسعِها أنْ تدركَهُ إلَّا بِهِ وهوَ اللطيفُ الخبيرُ** .

❁ ❁ ❁

(1) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٠٤) .

لكنَّ الصنفَ الثالثَ لمْ يبعدْ كلٌّ منهُمْ أنْ عرفَ نفسَهُ موجِّداً لربِّهِ فيما لا يزالُ ، **وهُمُ المقرَّبونَ** .

والصنفُ الرابعُ لمْ يقصرْ كلُّ واحدٍ منهُمْ أنْ عرفَ ربَّهُ موجِّداً لنفسِهِ فيما لمْ يزلْ ، **وهُمُ الصدِّيقونَ ، وبينَهُما تفاوتٌ كثيرٌ** .

❁ ❁ ❁

وأمَّا طريقُ معرفةِ صحَّةِ هٰذا التقسيمِ . . فلأنَّ العقلاءَ بأسرِهِمْ لا يخلُو كلُّ واحدٍ منهُمْ أنْ يوجدَ فيهِ أثرُ التوحيدِ بأحدِ الأنحاءِ المذكورةِ عندَهُ أوْ لا يوجدُ .

فأمَّا مَنْ عُدِمَتْ عندَهُ . . فهوَ كافرٌ إنْ كانَ في زمنِ الدعوةِ ، أوْ على قربٍ يمكِنُ وصولُ علمِها إليهِ ، أوْ في فترةٍ يتوجَّهُ عليهِ فيها التكليفُ ، وهٰذا صنفٌ مبعَدٌ عَنْ مقامِ هٰذا الكلامِ .

وأمَّا مَنْ يوجدُ عندَهُ . . فلا يخلُو أنْ يكونَ مقلِّداً في عقدِهِ ، أوْ عالِماً بهِ ، فالمقلِّدُون هُمُ العوامُّ ، وهُمْ أهلُ المرتبةِ الثانيةِ في الكتابِ .

وأمَّا العلماءُ بحقيقةِ عقدِهِمْ . . فلا يخلُو كلُّ واحدٍ منهُمْ أنْ يكونَ بلغَ الغايةَ التي أُعِدَّتْ لصنفِهِ دونَ النبوَّةِ ، أوْ لمْ يبلغْ ولٰكنَّهُ قريبٌ مِنَ البلوغِ .

فالذي لمْ يبلغْ وكانَ على قربٍ . . هُمُ المقربونَ ، وهُمْ أهلُ المرتبةِ الثالثةِ .

والذينَ بلغُوا الغايةَ التي أُعِدَّتْ لهُمْ . . هُمُ الصدِّيقونَ ، وهُمْ أهلُ المرتبةِ الرابعةِ .

وهٰذا تقسيمٌ ظاهرُ الصحَّةِ ؛ إذْ هوَ دائرٌ بينَ النفيِ والإثباتِ ، ومحصورٌ بينَ المبادئِ والغاياتِ .

ولمْ يدخلْ أهلُ المرتبةِ الأولىٰ في شيءٍ مِنْ تصحيحِ هٰذا التقسيمِ ؛ إذْ ليسَ هُمْ مِنْ أهلِهِ إلَّا بانتسابٍ كاذبٍ ، ودعوىً غيرِ صادقةٍ .

❁ ❁ ❁

ثمَّ لا بدَّ مِنَ الوفاءِ بما وعدناكَ بهِ ؛ مِنْ إبداءِ بحثٍ ، ومزيدِ شرحٍ ، وبسطِ بيانٍ ، تعرفُ منهُ بإذنِ اللهِ تعالىٰ حقيقةَ كلِّ مرتبةٍ ومقامٍ ، وانقسامَ أهلِهِ فيهِ بحسْبِ الطاقةِ والإمكانِ ، بما يُجريهِ الواحدُ الحقُّ على القلبِ واللسانِ .

❁ ❁ ❁

المرتبة الأولى[1]
بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

اعلمْ : أنَّ أربابَ النطقِ المجرَّدِ أربعةُ أصنافٍ :

* **أحدُهُمْ** : صنفٌ نطقُوا بكلمةِ التوحيدِ معَ شهادةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ لمْ يعتقدُوا معنىٰ ما نطقُوا بهِ لَمَّا لم يعلَمُوهُ ولا تصوَّرُوا صحتَهُ ولا فسادَهُ ، ولا صدقَهُ ولا كذبَهُ ، ولا خطأَهُ ولا صوابَهُ ؛ إذْ لمْ يبحثُوا عنهُ ولا أرادُوا فَهمَهُ ؛ إمَّا لبعدِ همَّتِهِمْ وقلَّةِ اكتراثِهِمْ ، وإمَّا لنفورِهِمْ عَنِ التعبِ وخوفِهِمْ إنْ هُمْ تكلَّفُوا البحثَ عمَّا نطقُوا بهِ أنْ يبدوَ لهُمْ ما يُلزِمُهُمُ الاعتقادَ والعملَ وما بعدَ ذٰلكَ .

فإنِ التزمُوه . . فارقُوا راحةَ أبدانِهِمُ العاجلةَ ، وفراغَ أنفسِهِمْ ، وإنْ لمْ يلتزمُوا شيئاً مِنْ ذٰلكَ وقدْ حصلَ لهُمُ العلمُ . . فيكونُ عيشُهُمْ منغَّصاً ، وملاذُّهُمْ مكدَّرةً ؛ مِنْ خوفِ عقابِ تركِ ما علمُوا لزومَهُ .

ومَثَلُ هٰؤلاءِ مثَلُ مَنْ يريدُ قراءةَ الطبِّ ، أو يُعرضُ عليهِ ، ولٰكنْ يمنعُهُ منهُ مخافةُ أنْ يطَّلعَ منهُ علىٰ ما يغيِّبُ عنهُ بعضَ ملاذِّهِ مِنَ الأطعمةِ والأشربةِ والأنكحةِ ، أوْ كثيراً منها فيحتاجُ إلىٰ أنْ يتركَها ، أوْ يرتكِبَها علىٰ رُقْبَةٍ أوْ خوفِ أنْ يصيبَهُ ضررُ ما يعلمُ ضرَرَهُ منها ، فيدعُ قراءةَ الطبِّ رأساً .

فإذا سُئلَ هٰذا الصنفُ عَنْ معنىٰ ما نطقُوا بهِ ، وهلِ اعتقدُوهُ ؟ فيقولونَ : لا نعلمُ فيهِ ما يُعتقدُ ، وما دعانا إلى النطقِ بهِ شيءٌ إلَّا مساعدةُ الجماهيرِ ، وانخراطُنا بإظهارِ القولِ في الجمِّ الغفيرِ ، ولا نعرفُ هلْ ما قلناهُ بالحقيقةِ مِنْ قبيلِ العُرْفِ أوِ النكيرِ .

ولا شكَّ أنَّ هٰذا الصنفَ الذي أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ حالهِ بمساءَلَةِ الملَكَيْنِ أحدَهُمْ في القبرِ ؛ إذْ يقولانِ لهُ : مَنْ ربُّكَ ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟ وما دينُكَ ؟ فيقولُ : لا أدري ، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئاً فقلتُهُ . فيقولانِ لهُ : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ .

وسمَّاهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الشاكَّ » أوِ « المرتابَ »[2]

* **الصنفُ الثانِي** : نطقُوا كما نطقَ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ ، ولٰكنَّهُمْ أضافُوا إلىٰ قولِهِمْ ما لا يحصلُ معهُ الإيمانُ ولا ينتظمُ بهِ معنى التوحيدِ ، وذٰلكَ مثلُ ما قالتِ السبائيَّةُ ـ طائفةٌ مِنَ الشيعةِ القدماءِ ـ : إنَّ علياً هوَ الإلٰهُ ، وبلغَ أمرُهُمْ علياً رضيَ اللهُ عنهُ ، وكانُوا في زمنِهِ ، فحرقَ منهُمْ جماعةً[3]

---

(١) لفظ (المرتبة الأولىٰ) : زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) رواه البخاري (٨٦) ، ومسلم (٩٠٥) وفيه : « فأما المؤمن أو الموقن . . فيقول : هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدىٰ ، فأجبنا واتبعنا ، هو محمد (ثلاثاً) ، فيقال : نم صالحاً قد علمنا : إن كنت لموقناً به ، وأما المنافق أو المرتاب . . فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » .

(٣) أورده الآجري في « الشريعة » (٢٠١٢) ، **والسبائية** : أتباع عبد الله بن سبأ ، انظر « التبصير في الدين » للسمعاني (ص ١٠٣) و« فتح الباري » (٢٧٠/١٢) .

وأمثالُ مَنْ نطقَ بالشهادتينِ كثيرٌ ، ثمَّ أصحبَ نطقَهُ مثلَ هٰذا النكيرِ ، **ويُسمَّوْنَ الزنادقةَ** .

وقدْ روينَا حديثاً عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في ذٰلكَ نصُّهُ : « **ستفترقُ أمَّتي علىٰ ثلاثٍ وسبعينَ فرقَةً** ، كلُّها في الجنةِ إلَّا الزنادقةَ »(١)

* **الصنفُ الثالثُ** : نطقُوا كما نطقَ الصنفانِ المذكورانِ قبلَهُمْ ، ولٰكنَّهُمْ أسرُّوا التكذيبَ ، واعتقدُوا الردَّ ، واستبطَنُوا خلافَ ما ظهرَ منهُمْ مِنَ الإقرارِ ، وإذا رجعُوا إلىٰ أهلِ الإلحادِ . . **أعلنُوا عندَهُمْ بكلمةِ الكفرِ** ، **فهٰؤلاءِ هُمُ المنافقُونَ الذينَ** ذكرهُمُ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ العزيزِ بقولِهِ : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

* **الصنفُ الرابعُ** : قومٌ لمْ يعرفُوا التوحيدَ ، ولا نشؤُوا عليهِ ، ولا عرفُوا أهلَهُ ، ولا سكنُوا بينَ أظهرِهِمْ ، ولٰكنهُمْ حينَ وصلُوا إلينا أوْ وصلَ إليهِمْ أحدٌ منّا . . خُوطِبُوا بالأمرِ المقتضِي للنطقِ بالشهادتينِ ، والإقرارِ بهما ، فقالُوا : لا نعلمُ مقتضَىٰ هٰذا اللفظِ ، ولا نعقلُ معنى المأمورِ بهِ مِنَ النطقِ .

فأُمِرُوا أنْ يظهِرُوا الرضا بالقولِ ، ثمَّ يتفهَّمُوا بمهلةٍ ، فسكنُوا إلىٰ ما قيلَ لهُمْ ، ونطقُوا بالشهادتينِ ظاهراً ، وهُمْ على الجهلِ بما يعتقدُون فيها ، واختُرِمَ أحدٌ منهُمْ مِنْ حينِهِ ، مِنْ قبلِ أنْ يتأتَّىٰ منهُ استفهامٌ أوْ تصورٌ يمكنُ أنْ يكونَ لهُ معتقَداً ، **فهٰذا يُرجَىٰ ألَّا تضيقَ عنهُ سعةُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ** ، والحكمُ عليهِ بالنارِ والخلودِ فيها معَ الكفارِ . . تحكُّمٌ علىٰ غيبِ اللهِ سبحانَهُ .

وربَّما كانَ مِنْ هٰذا الصنفِ في الحكمِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ قومٌ رُزقُوا مِنْ بُعْدِ الفهمِ وغَيْبِ الذهنِ وفرطِ البلادةِ أنْ يُدعَوْا إلى النطقِ فيجيبُوا مساعدةً ومحاكاةً ، ثمَّ يُدعَوْا إلىٰ تفهُّمِ المعنىٰ بكلِّ وجهٍ فلا يتأتَّىٰ منهُمْ قبولٌ لِمَا يُعرَضُ عليهِمْ تفهيمُهُ ، كأنَّما تُخَاطبُ بهيمةٌ ، ومثلُ هٰذا أيضاً في الوجودِ كثيرٌ ، **ولَا حُكْمَ علىٰ مثلِهِ بخلودٍ في النارِ** .

ولا يبعدُ أنْ يكونَ هٰذا الصنفُ بأسرِهِ ـ أعني المخترمَ قبلَ تحصيلِ العقدِ معَ هٰذا البليدِ البعيدِ ـ بعضَ مَنْ ذكرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثِ الشفاعةِ ، الذينَ أخرجَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَ النارِ بشفاعتِهِ ، حينَ يقولُ تعالىٰ : « فرغَتْ شفاعةُ الملائكةِ والنبيِّينَ ، **وبقيَتْ شفاعتِي** » وهوَ أرحمُ **الراحمينَ** ، **فيُخرِجُ** مِنَ النارِ **أقواماً** لمْ يعملُوا حسنةً قطُّ ، ويدخلونَ الجنةَ ، ويكونُ في أعناقِهِمْ سِمَاتٌ ، **ويُسمَّونَ عتقاءَ اللهِ عزَّ وجلَّ** ، والحديثُ فيهِ طولٌ ، وهوَ صحيحٌ ، **وإنَّما اختصرتُ منهُ قدرَ الحاجةِ على المعنىٰ**(٢)

وحكمُ الصنفِ الأولِ والثاني والثالثِ أجمعينَ ، أعني : أهلَ النطقِ المذكورينَ قبلُ في التوحيدِ :

ألّا تجبَ لهُمْ حرمةٌ ، ولا تكونَ لهُمْ عصمةٌ ، ولا ينسبُوا إلىٰ إيمانٍ ولا إلىٰ إسلامٍ

بلْ هُمْ أجمعونَ مِنْ زمرةِ الكافرينَ وجملةِ الهالكينَ ، فإنْ عُثِرَ عليهِمْ في الدنيا . . قُتِلُوا فيها بسيوفِ الموحِّدينَ ، وإنْ لم يُعثَرْ عليهِمْ . . فهُمْ صائرونَ إلىٰ جهنَّمَ خالدونَ فيها ، ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ .

---

(١) رواه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٢٣٥٩) .

(٢) رواه مسلم (١٨٣) .

فَصْلٌ

[لفظُ التوحيدِ لا ينفعُ صاحبَهُ إلَّا إنْ صحبَهُ الاعتقادُ]

ولمَّا كانَ اللفظُ المنبئُ عنِ التوحيدِ إذا انفردَ عَنِ العقدِ وتجرَّدَ عنهُ لمْ يقعْ بهِ في حكمِ الشرعِ منفعةٌ ، ولا لصاحبِهِ بسببِهِ نجاةٌ ، إلَّا مدةَ حياتِهِ عَنِ السيفِ أنْ يراقَ دمُهُ ، واليدِ أنْ تُسلَّطَ علىٰ مالِهِ إذْ لمْ يُعلَمْ خفيُّ حالِهِ . . **حَسُنَ فيهِ أنْ يشبَّهَ بقشرِ الجوزِ الأعلىٰ** .

فهوَ لا يُحملُ في الأكمامِ ولا يُرفعُ في البيوتِ ، ولا يُحضَرُ في مجالسِ الطعامِ ، ولا تشتهيهِ النفوسُ إلّا ما دامَ منطوياً علىٰ مطعَمِهِ ، صُواناً على لبِّهِ ، فإذا أُزيلَ عنهُ بكسرٍ أوْ عُلِمَ منهُ أنَّهُ منطوٍ علىٰ فراغٍ ، أوْ سوسٍ ، أوْ طعمٍ فاسدٍ . . **لمْ يصلُحْ لشيءٍ سوى النارِ ، ولمْ يبقَ فيهِ غرضٌ لأحدٍ ، وهٰذا لا خفاءَ لصحَّتِهِ** .

والغرضُ بالتمثيلِ تقريبُ ما غمضَ إلىٰ فهمِ الطالبِ ، وتسهيلُ ما اعتاصَ على المتعلِّمِ والسامعِ فهمُهُ .

وليسَ مِنْ شرطِ المثالِ أنْ يطابقَ الممثَّلَ بهِ مِنْ كلِّ وجهٍ ، فكانَ يكونُ هوَ هوَ ، ولٰكنَّهُ مِنْ شرطِهِ أنْ يكونَ مطابقاً للوجهِ المرادِ منهُ .

فَصْلٌ

[في الصارفِ للناطقينَ بالتوحيدِ عَنِ النظرِ والاعتقادِ]

فإنْ قلتَ : فما الذي صدَّ هٰؤلاءِ الأصنافَ الثلاثةَ مِنْ أهلِ النطقِ المجرَّدِ عَنِ النظرِ والبحثِ حتَّىٰ يعلَمُوا ، أوِ المجرَّدِ عَنِ الاعتقادِ حتَّىٰ يخلصُوا بهِ مِنْ عذابِ اللهِ ، وهُمْ في الظاهرِ قادرونَ علىٰ ذٰلكَ ؟ وما المانعُ الخفيُّ الذي منعَهُمْ وأبعدَهُمْ عنهُ وهُمْ يعلمونَ أنَّ ما عليهِمْ في ذٰلكَ كبيرَ مؤنةٍ ، ولا عظيمَ مشقَّةٍ ؟ **فاعلمْ** : أنَّ هٰذا السؤالَ يفتحُ باباً عظيماً ، ويهزُّ قاعدةً كبيرةً ، نخافُ مِنَ التوغُّلِ فيها أنْ نخرجَ مِنَ المقصدِ .

ولٰكنْ لا بدَّ إذْ وقعَ في الأسماعِ ، ووعتْهُ قلوبُ الطالبينَ ، واشرأبَّتْ إلىٰ سماعِ الجوابِ عنهُ . . أنَّ نوردَ في ذٰلكَ قدرَ ما تقعُ بهِ الكفايةُ ، وتقنعُ بهِ النفوسُ بحولِ الله عزَّ وجلَّ وقوَّتِهِ .

نعمْ ؛ ما سبقَ في العلمِ القديمِ لا تجري بخلافِهِ المقاديرُ في الحديثِ ، منعهُمْ مِنْ ذٰلكَ ما أرادَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنِ اختصاصِ قلوبهِمْ بالأخلاقِ الكلابيَّةِ ، والشيمِ الذئابيَّةِ ، والطباعِ السبعيَّةِ ، وغلبتِها عليهِمْ ، **والملائكةُ لا تدخلُ بيتاً فيهِ كلبٌ ، كذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ** (١)

والقلوبُ بيوتٌ تولَّى اللهُ بناءَها بيدِهِ ، وأعدَّها لأنْ تكونَ خزائنَ علمِهِ ، ومساربَ مكنوناتِهِ ، ومهبطَ ملائكتِهِ ، ومغاشيَ أنوارِهِ ، ومهابَّ نفحاتِهِ ، ومحالَّ مكاشفاتِهِ ، ومجاريَ رحمتِهِ ، وهيأَها لتحصيلِ المعرفةِ بهِ .

فمتىٰ كانَ فيها شيءٌ مِنْ تلكَ **الأخلاقِ المذمومةِ . . لمْ تدخلْها الملائكةُ** ، ولمْ تنزلْ عليها بشيءٍ مِنَ الخيرِ مِنْ قِبَلِهِ ؛ إذْ هيَ الوسائطُ بينَ اللهِ تعالىٰ وبينَ خلقِهِ ، وهُمُ الوفودُ منهُ بالخيراتِ والموصلونَ إليهِ وعنهُ بالباقياتِ الصالحاتِ .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

ولولَا تلكَ الأخلاقِ المذمومةِ التي حلَّتْ فيهِمْ ؛ وهيَ التي ذُمَّ الكلبُ لأجلِها . . لَمَا أُحرِمَتِ الملائكةُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ عنْ حلولِها فيها وهيَ لا تخلُو مِنْ خيرٍ تنزلُ بهِ ، ويكونُ معها ، فحيثُما حلَّتْ . . حلَّ الخيرُ في ذٰلكَ القلبِ بحلولِها فيهِ .

وإنَّما هيَ مترصدةٌ لها ، فحيثُما وجدَتْ قلباً خالياً ولوْ حيناً مِنَ الدهْرِ وزمناً . . نزلَتْ عليهِ ودخلَتْهُ ، وبثَّتْ ما عندَها مِنَ الخيرِ حولَهُ ، فإنْ لمْ يطرأْ على الملائكةِ ما يزعجُها عنهُ مِنْ تلكَ الأخلاقِ المذمومةِ ، بواسطةِ الشياطينِ الذينَ هُمْ في مقابلةِ الملائكةِ . . ثبتَتْ عندَهُ ، وسكنَتْ فيهِ ، ولمْ تبرحْ منهُ ، وعَمَرَتْهُ بقدْرِ سعةِ البيتِ وانشراحِهِ مِنَ الخيرِ .

فإنْ كانَ البيتُ كبيرَ الاتساعِ . . أكثرَتْ فيهِ مِنْ متاعِها ، واستعانَتْ بغيرِها ، حتَّىٰ يمتلئَ القلبُ مِنْ متاعِها وجهازِها ، وهوَ الإيمانُ باللهِ والصلاحُ ، وضروبُ المعارفِ النافعةِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فإذا طرقَ ذٰلكَ البيتَ طارقُ شيطانٍ ؛ ليسرقَ مِنْ ذٰلكَ الخيرِ الذي هوَ متاعٌ للملَكِ ، ويبثَّ فيهِ خلقاً مذموماً لا يوجدُ إلَّا في الكلبِ ، وهوَ متاعُ الشيطانِ . . قاتلَهُ الملَكُ وطردَهُ عَنْ ذٰلكَ المحلِّ .

فإنْ جاءَ للشيطانِ مددٌ مِنَ الهوىٰ مِنْ قِبَلِ النفسِ ولمْ يجدِ الملَكُ نُصرةً مِنْ عزمِ اليقينِ مِنْ قِبَلِ الروحِ . . انهزمَ الملَكُ وأُخليَ البيتُ ، ونُهِبَ المتاعُ ، وخربَ بعدَ عمارتِهِ ، وأظلمَ بعدَ إنارتِهِ ، وضاقَ بعدَ انشراحِهِ ، وهٰكذا حالُ مَنْ آمنَ وكفَرَ ، وأطاعَ وعصَىٰ ، واهتدَىٰ وضلَّ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فميّزْ لِي أعيانَ هٰذِهِ الأخلاقِ المذمومةِ ، التي صدَّتْ هٰؤلاءِ الأصنافِ المذكورينَ عَنِ اعتقادِ الإيمانِ ، ونفَّرَتِ الملائكةَ عَنِ النزولِ علىٰ قلوبِهِمْ بكشفِ معاني التوحيدِ ، ومنعَتْهُمْ مِنَ الحلولِ فيها ، حتَّىٰ لمْ ينالُوا شيئاً مِنَ الخيرِ الكائنِ معَها . **فاعلمْ** : أنَّ الأخلاقَ التي لا تجتمعُ معها الملائكةُ في قلبٍ واحدٍ كثيرةٌ ، والتي في قلوبِ هٰؤلاءِ منها معظمُها ، ومنها الطمعُ في غيرِ خطيرٍ ، والحرصُ علىٰ فانٍ حقيرٍ .

❁ ❁ ❁

فأمَّا الصنفُ الأولُ . . فإنهُمْ جزعُوا وخافُوا أنْ تبدوَ لهُمْ صحَّةُ ما يشغلُهُمْ عَنْ لذاتِهِمْ ، وينغصُ عليهِمْ ما رغبُوا فيهِ مِنْ راحاتِهِمْ ، ويكدرُ لديهِمْ منالَ شهواتِهِمْ ، فأبقَوْا أمرَهُمْ علىٰ ما هُمْ عليهِ .

وأمَّا الصنفُ الثاني والثالثُ . . فصدَّهُمْ أيضاً خوفٌ وجزعٌ ، وحرصٌ علىٰ ما أَلِفُوهُ مِنْ تبجيلِ أخدانِهِمْ أنْ يزولَ ، ومؤانسةِ أشياعِهِمْ أنْ تتغيَّرَ وتذهَبَ ، ومواساةِ أُلَّافِهِمْ أنْ تنقطعَ ، واستثقالاً لِمَا يشاهدونَهُ مِنْ أهلِ الإيمانِ أنْ يلتزمُوهُ ، وفراراً مِنْ شرائطِهِ وما يصحبُهُ مِنَ الأعمالِ والوظائفِ أنْ يمتثلُوهُ .

والكلبُ ما ذُمَّ لصورتِهِ ، وإنَّما ذُمَّ لمثلِ هٰذِهِ الأخلاقِ التي هيَ الطمعُ في الخسائسِ ، والجزعُ مِنَ الصبرِ علىٰ ما يُعدُّ مِنَ الفضائلِ ، حتَّىٰ أُحرِمَتِ الملائكةُ أنْ تدخلَ بيتاً فيهِ كلبٌ .

[كيفَ يحصلُ الإيمانُ والطاعةُ والهدايةُ ؟]

فإنْ قلتَ : فكيفَ آمنَ مَنْ كفَرَ ، وأطاعَ مَنْ عصَىٰ ، واهتدَىٰ مَنْ ضلَّ إذا كانتِ الشياطينُ لا تفارقُ قلبَ الكافرِ

والعاصِي والضالِّ بمَا يبثُّونُ فيهِ مِنَ الأخلاقِ المذمومةِ التي هيَ كلابٌ نابحةٌ ، وذئابٌ عاويةٌ ، وسباعٌ ضاريةٌ ، وأصنافُ الخيرِ إنَّما تَرِدُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بواسطةِ الملائكةِ ، وهيَ لا تدخُلُ موضعاً يحلُّ فيهِ شيءٌ ممّا ذكَرْنا ، وإذا لمْ تدخلْ . . لمْ تصلْ إلى الخيرِ الذي يكونُ معها ولمْ تصلْ إليهِ ؟ فعلىٰ هـٰذا يجبُ أنْ يبقَىٰ كلُّ كافرٍ علىٰ حالِهِ ، ومَنْ لمْ يُخلَقْ مؤمناً معصوماً . . فلا سبيلَ لهُ إلى الإيمانِ علىٰ هـٰذا المفهوم !!

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا يستدعِي علمَ أصنافِ القلوبِ ، ولا سبيلَ إلىٰ ذٰلكَ في هـٰذا المقامِ ، والقولُ المُغنِي في جوابِ ما سألتَ عنهُ : أنَّ للشياطينِ غفلاتٍ ، وللأخلاقِ المذمومةِ عزماتٍ ، كمَّا أنَّ الملائكةَ لها عَنِ القلوبِ غيباتٌ ، ولتواترِ الخيرِ عليها فتراتٌ ، فإذا وجدَ المَلَكُ كما أعلمتُكَ قلباً خالياً ولوْ زمناً فرداً . . حلَّ فيهِ ، وأراهُ ما عندَهُ مِنَ الخيرِ .

فإنْ صادفَ منهُ قبولاً ، ولِمَا عرضَ عليهِ مِنَ الخيرِ تشوُّفاً ونزوعاً . . أوردَ عليهِ ما يملؤُهُ ويستغرقُ لبَّهُ .

وإنْ صادفَ منهُ ضجراً ، وسمعَ منهُ بجنودِ الشيطانِ استغاثةً ، وبالأخلاقِ الكلابيَّةِ استعانةً . . رحلَ عنهُ وتركَهُ .

ولهـٰذا قلَّما خلا قلبٌ عَنْ لمَّةِ ملَكٍ أوْ نزغةِ شيطانٍ .

[معنىٰ عدمِ دخولِ الملائكةِ بيتاً فيهِ كلبٌ]

فإنْ قلتَ : فأيُّ بيتٍ فُهِمَ عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الخطابِ ؟ وأيَّ كلبٍ أرادَ ؟ هلْ بيتُ القلبِ وكلبُ الخُلُقِ ، أمْ بيتُ اللَّبِنِ وكلبُ الحيوانِ ؟ **فاعلمْ** : أنَّ الحديثَ خارجٌ علىٰ سببٍ ، ومعناهُ وجملتُهُ : أنَّ المقصودَ بالإخبارِ عنهُ هوَ بيتُ اللَّبِنِ ، وكلبُ الحيوانِ المعلومِ ، ولا شكَّ في ذٰلكَ ، ولـٰكنْ يُستقرَأُ منهُ ما قلناهُ لكَ ، ويُستنبَطُ مِنْ مفهومِهِ ما نبهناكَ عليهِ ، وتتخطَّىٰ منهُ إلىٰ ما أشَرْنا لكَ نحوَهُ ، ولا نكيرَ في ذٰلكَ ؛ إذا دلَّ عليهِ العلمُ ، وحملَهُ الاستنباطُ ، ولمْ تمجَّهُ القلوبُ المستفتاةُ ، ولمْ تصادمْ بهِ شيئاً مِنْ أركانِ الشريعةِ .

فلا تكنْ جامداً ، ولا تجزعْ مِنْ تشنيعِ جاهلٍ ، ولا مِنْ نفورِ مقلِّدٍ ؛ فكثيراً ما وردَ شرعٌ مقرونٌ بسببٍ فرأىٰ أهلُ الاعتبارِ وجهَ تعدِّيهِ عَنْ سببِهِ إلىٰ ما هوَ في معناهُ ، ومشابهٌ لهُ مِنَ الجهةِ التي تصلحُ أنْ يُعدَّىٰ بهَا إليهِ .

ولولَا ذٰلكَ . . لمَا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »[1] .

سُؤَال

[ما معنىٰ عدمِ دخولِ الملائكةِ بيتاً فيهِ صورةٌ ؟]

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةٌ »[2] وعُلِمَ السببُ الذي جاءَ هـٰذا الحديثُ عليهِ وفيهِ ، فهلْ يعدَّىٰ عَنْ سببِهِ ويُترقَّىٰ منهُ إلىٰ مثلِ ما تُرقِّيَ مِنَ الحديثِ الآخرِ ؟ **فهـٰذا كما قيلَ** : الحديثُ شجونٌ ، وإنْ تتبعْنا هـٰذا البابَ . . لَمْ ننفكَّ منهُ ، وبعُدَ علينا التخلصُ عنهُ .

نعمْ ، نترقَّىٰ منهُ إلىٰ قريبٍ مِنْ ذٰلكَ وشبهِهِ ، ويكونُ هـٰذا الحديثُ منبِّهاً عليهِ .

---

(١) روى الشطر الأول البخاري (١٧٤١) ، والشطر الثاني أبو داوود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٢٣٠) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

وهوَ أنَّ الصورةَ المنحوتَةَ قدِ اتُّخِذَتْ آلِهَةً ، وعُبِدَتْ مِنْ دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ نبَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ قلوبَ المؤمنينَ علىٰ عيبِ فعلِ مَنْ رضيَ بذٰلكَ ، ونَقْصِ إدراكِ مَنْ دانَ بِهِ حينَ قالَ تعالىٰ مخبراً عَنْ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

فكانَ امتناعُ الملائكةِ مِنْ دخولِ بيتٍ فيهِ صورةٌ لأجلِ أنَّ فيهِ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ سبحانَهُ ، أوْ ما حُكِيَ بِهِ ما هوَ علىٰ مثالِهِ .

ونترقَّىٰ مِنْ ذٰلكَ المعتبَرِ إلىٰ أنَّ القلبَ الذي هوَ بيتٌ بناهُ اللهُ سبحانَهُ ليكونَ مهبطاً لملائكَتِهِ ، ومحلّاً لذكرِهِ ومعرفتِهِ وعبادتِهِ وحدَهُ دونَ غيرِهِ ، فإذا حلَّ فيهِ معبودٌ غيرُ اللهِ سبحانَهُ وهُوَ الهوىٰ . . لمْ تقربْهُ الملائكةُ أيضاً .

❋ ❋ ❋

فإنْ قيلَ : فظاهرُ الحديثِ يقتضي منافرةَ الملائكةِ لكلِّ صورةٍ عموماً ، وما ذكرتَهُ الآنَ تعليلاً ينبغي ألَّا يقتضيَ إلَّا منافرةَ ما عُبِدَ ، أوْ ما نُحِتَ علىٰ مثالِهِ . **قلنا** : تشابهَتِ الصورُ المنحوتةُ كلُّها في المعنَى الذي قُصِدَ بها التصويرُ لأجلِهِ ، وهوَ مضارعةُ ذواتِ الأرواحِ ، وما نُحِتَ للعبادةِ إنَّما قُصِدَ بهِ تشبيهُ ذي روحٍ ، فلمّا كانَ هٰذا المعنَى الجامعَ لها . . وجبَ تحريمُ كلِّ صورةٍ ، ومنافرةُ الملائكةِ لهَا .

❋ ❋ ❋

فإنْ قيلَ : فما وجهُ الترخيصِ فيما هوَ رقمٌ في ثوبٍ ؟ قلنا : ذٰلكَ لأنَّها ليستْ مقصودةً في نفسِها ، وإنَّما المقصودُ الثوبُ الذي رُقِمَتْ فيهِ .

فإنْ قيلَ : فما بالُ النباتِ رُخِّصَ في محاكاتِها بالتصويرِ ، وذاتُ أنواطٍ في العربِ مشهورةٌ معلومةٌ ؟ **فاعلمْ** : أنَّ ذاتَ أنواطٍ إنَّما كانَتْ شجرةً في أيامِ العربِ الجاهليَّةِ تعلّقُ عليها يوماً في السنةِ فاخِرَ ثيابِها ، وحُلِيَّ نسائِها ؛ لأجلِ اجتماعِها عندَها وراحتِها في ذٰلكَ اليومِ ، ولمْ يكونُوا يقصدونَها بالعبادَةِ كما كانَتْ تُقصَدُ التماثيلُ المنحوتةُ والأصنامُ .

ولوْ كانَ ذٰلكَ . . ما سألَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يجعلَ لهُمْ ذاتَ أنواطٍ ، حتَّىٰ أنكرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِمْ ذٰلكَ[1] ، ولوْ عُبِدَتْ . . فقدْ عُبِدَ كثيرٌ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ؛ كالملائكةِ والشمسِ والقمرِ وبعضِ النجومِ والمسيحِ عليهِ السلامُ وعليّ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ ولمْ يُعبدْ ما نُحِتَ علىٰ شكلِ النباتِ ، فلا تغبْ[2] عَنْ هٰذِهِ الأرواحِ ، فما أبعدَ عَنْ درْكِهَا مَنْ حرمَهُ اللهُ تعالىٰ إياهَا ، فلهُ الحمدُ كما هوَ أهلُهُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠) .

(٢) في (ت ، ض) : (فلا يُعبر) .

المرتبة الثانية[1]
بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأمَّا أهلُ الاعتقادِ المجرَّدِ عَنْ تحصينِهِ بالعلمِ ، وتوثيقِهِ بالأدلَّةِ ، وشدِّهِ بالبراهينِ . . **فقدْ انقسَمُوا في الوجودِ إلىٰ ثلاثةِ أصنافٍ :**

* **أحدُهُمْ** : صنفٌ اعتقدُوا مضمونَ ما أقرُّوا بِهِ ، وحشَوْا بِهِ قلوبَهُمْ مِنْ غيرِ تردُّدٍ ولا تكذيبٍ أسرُّوهُ في أنفسِهِمْ .

ولـٰكنَّهُمْ غيرُ عارفينَ بالاستدلالِ علىٰ ما اعتقدُوهُ ، وذٰلكَ لفرطِ بعدهِمْ وغلظِ طبائِعِهِمْ ، واعتياصِ طرقِ ذٰلكَ عليهِمْ ، ويقعُ عليهِمْ اسمُ الموحِّدينَ .

وتحقَّقْنا وجودَ أمثالِهِمْ كثيراً علىٰ عهدِ سيِّدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والسلفِ الصالحينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

ثمَّ لمْ يبلغْنَا أنَّهُ اعترضَ أحدٌ إسلامَهُمْ ، ولا أوجبَ عليهِمُ الخروجَ منهُ ، والمروقَ عنهُ ، ولا كُلِّفُوا معَ قصورِ فهمِهِمْ وبعدِهِمْ عَنْ فهمِ ذٰلكَ بعلمِ الأدلَّةِ ، وقراءَةِ طرقِ البراهينِ ، وترتيبِ الحِجاجِ ، بلْ تُرِكُوا علىٰ ما هُمْ عليهِ .

وهـٰؤلاءِ عندِي معذورونَ ببعدِهِمْ ، ومقبولونَ بما توافقُوا عليهِ مِنْ إقرارِهِمْ وعقدِهِمْ ، واللهُ سبحانَهُ قدْ عذرَهُمْ معَ غيرِهِمْ بقولِهِ سبحانَهُ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، ولا يخرجونَ عَنْ مقتضَىٰ هـٰذِهِ الآيةِ بحالٍ .

وسنبدي لكَ طريقاً مِنَ الاعتبارِ تعرفُ بِهِ صحَّةَ إسلامِهِمْ ، وسلامةَ توحيدِهِمْ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* **والصنفُ الثاني** : اعتقدُوا الحقَّ معَ ما ظهرَ منهُمْ مِنَ النطقِ ، واعتقدُوا إلىٰ ذٰلكَ أنواعاً مِنَ المخاييلِ ، قامَ في نفوسِهِمْ أنَّها أدلَّةٌ ، وظنُّوها براهينَ ، وليستْ كذٰلكَ .

وقدْ وقعَ في هـٰذا كثيرٌ ممَّنْ يشارُ إليهِ ، فضلاً عمَّنْ دونَهُمْ ، فإنْ وقعَ إلىٰ هـٰذا الصنفِ مَنْ يزعزعُ عليهِمْ تلكَ المخاييلَ بالقدحِ ، ويبطلُها عليهِمْ بالمعارضَةِ أوِ الاعتراضِ . . لَمْ يلتفتُوا إليهِ ، ولا أصغَوْا لِمَا يأتي بِهِ ، ويترفَّعُوا أنْ يجاوبُوهُ لِمَا يحملونَ عليهِ مِنْ سوءِ الفهْمِ ، أوْ رداءَةِ الاعتقادِ .

وعندهُمْ أنَّ جميعَ تلكَ المخاييلِ في بابِ الاستدلالِ أرسخُ مِنْ شوامخِ الجبالِ .

فمنهُمْ مَنْ يعتقدُ دليلَهُ مذهبَ شيخِهِ الرفيعِ القدرِ ، المطَّلعِ على العلومِ .

ومنهُمْ مَنْ يكونُ دليلُهُ خبرَ آحادٍ .

ومنهُمْ مَنْ يكونُ دليلُهُ بعضَ محتمَلاتِ آيةٍ أوْ حديثٍ صحيحٍ .

ولعَمْري ؛ إنهُمْ ينبغِي إذا صادفُوا السنَّةَ باعتقادِهِمْ ، ولمْ يقعُوا في شيءٍ مِنَ الضلالِ . . أنْ يُتركُوا علىٰ ما هُمْ عليهِ ، ولا يحرَّكُوا بأمرٍ آخرَ ، بلْ يُغبَطُوا بذٰلكَ ويُسلَّمَ لهُمْ ؛ لئلا يكونَ إذا تُتُبِّعَ الحالُ معهُمْ ربَّما تلقَّفُوا شبهةً ، أوْ ترسَّخَ في نفوسهِمْ بدعةٌ يعسرُ انحلالُها ، أوْ يقعُوا في تكفيرِ مسلمٍ أوْ تضليلِهِ ، بلا سببٍ كبيرٍ .

---

(١) لفظ (المرتبة الثانية) : زيادة من اللجنة العلمية .

واعلمْ : أنَّ اعتقادَ الحقائقِ وعلْمَها مِنْ أغذيةِ النفوسِ ، فمَنْ رغبَ في أكملِها ، ولمْ يقنَعْ بدونِها ، وحصلَ لهُ ذٰلكَ . . قويَ بهِ ، ومَنْ قنعَ بأيسرِها ، ولمْ تطمحْ همَّتُهُ إلىٰ ما هوَ أعلىٰ مِنْ ذٰلكَ . . ضعفَ ، ولٰكنَّهُ يعيشُ عَيْشَ الضعيفِ ، وإنَّما يهلكُ مَنْ لا بُلْغَةَ لهُ ولا يجدُها ، أوْ يجدُها ولٰكنَّها تكونُ مشوبةً بمضرَّةِ بدعةٍ ، وسمومِ كفرٍ . فلا تذهلْ عمَّا يشارُ لكَ إليهِ ، فإنَّما المرغوبُ تنبيهُكَ ، واللهُ المستعانُ .

وقلَّ ما بينَ الصنفِ الأوَّلِ والثاني مِنَ التفاوتِ مِنْ حيثُ إنَّ أولٰئكَ مقلِّدونَ في مذهبِهِمْ ، وهٰؤلاءِ مثلُهُمْ وهمْ مقلِّدونَ فيما يعتقدونَهُ دليلاً ، غيرَ أنَّهُمْ أوثقُ رباطاً مِنَ الأولينَ ؛ لأنَّ أولٰئكَ إنْ وقعَ إليهِمْ مَنْ يشكِّكُهُمْ . . ربَّما شكُّوا وانحلَّ رباطُ عقدِهِمْ ، وهٰؤلاءِ في الأغلبِ لا سبيلَ إلى انحلالِ عقودِهِمْ ؛ إذْ لا يرونَ أنفسَهُمْ أنهُمْ مقلِّدونَ ، وإنَّما يظنُّونَ أنهُمْ مستدلِّونَ عارفونَ ، فلهٰذا كانُوا أحسنَ حالاً ، وأثبتَ إيماناً .

* **والصنفُ الثالثُ** : أقرُّوا واعتقدُوا كما فعلَ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ ، وقدْ عدمُوا النظرَ أيضاً .

ولٰكنَّهم لعدمِ سلوكهِمْ سبيلَهُ معَ القدرَةِ عليهِ ، ومعهُمْ مِنَ الذكاءِ والفطنةِ والتيقُّظِ ما لوْ نظرُوا . . لعلمُوا ، ولوِ استدلُّوا . . لتحقَّقُوا ، ولوْ طَلبُوا . . لأدركُوا سبيلَ المعارفِ ووصلُوا ، ولٰكنهُمْ آثروا الراحةَ ، ومالُوا إلى الدَّعَةِ ، واستبعدوا طريقَ العلمِ ، واستثقلُوا الأعمالَ الموصلةَ إليهِ ، وقنعُوا بالقعودِ في حضيضِ الجهلِ .

فهٰؤلاءِ فيهِمْ إشكالٌ عندَ كثيرٍ مِنَ الناسِ في البديهَةِ ، ويتردَّدُ في حالِهِمْ نظرٌ . وهلْ يُسمَّونَ عصاةً أوْ غيرَ ذٰلكَ ؟ يحتاجُ إلىٰ تمهيدٍ آخرَ ليسَ هٰذا مقامَهُ .

والالتفاتُ إلىٰ هٰذا الصنفِ أوجبَ خلافَ المتكلِّمينَ في العوامِّ على الإطلاقِ ، مِنْ غيرِ تفريقٍ بينَ بليدٍ بعيدٍ ومتيقِّظٍ فَطِنٍ ، فمنهُمْ مَنْ لمْ يرَ أنَّهُمْ مؤمنونَ ، ولٰكنْ لمْ يُحفَظْ عنهُمْ أنهُمْ أطلقُوا اسمَ الكفرِ عليهِمْ .

❋ ❋ ❋

ولعلَّكَ تقولُ : إنَّ مذهبَهُمُ المشهورَ أنَّ المحلَّ لا يخلُو عَنِ الصفةِ إلَّا إلىٰ ضدِّها ، فمَنْ لمْ يُحكَمْ لهُ بالإيمانِ . . حكمَ عليهِ بالكفرِ ، كما أنَّ مَنْ لمْ يُحكَمْ لهُ بالحركَةِ . . حُكِمَ عليهِ بالسكونِ ؛ وكذٰلكَ الحياةُ والموتُ ، والعلمُ والجهلُ ، وسائرُ ما لهُ ضدٌّ مِنَ الصفاتِ . **قلنا** : فَلَئِنْ صحَّ ذٰلكَ في الصفاتِ التي هيَ أعراضٌ . . فقدْ لا يصحُّ في الأوصافِ التي هيَ أحكامٌ ، والإيمانُ والكفرُ ، والهدايةُ والضلالُ ، والبدعةُ والسنةُ ربَّما كانَتْ مِنْ قبيلِ الأحكامِ لا مِنْ قبيلِ الأعراضِ ، وإنَّما ذكرْتُ لكَ هٰذا في معرضِ التشكيكِ ؛ لتنظرَ في شعوبِ ما نوردُ علىٰ ذٰلكَ

ومنهُمْ مَنْ أوجبَ لهُمُ الإيمانَ ، ولٰكنْ أوجبَ لهُمُ المعرفةَ وقدَّرَها لهُمْ ، وعجَّزَهُمْ عَنِ العبارةِ ، ووجوبُ العبارةِ في الشرعِ ساقطةٌ علىٰ هٰذا النحوِ .

وهٰؤلاءِ لمْ يخالفُوا المذكورينَ قبلهُمْ ؛ لأنَّ أولٰئكَ سلبُوا الإيمانَ عمَّنْ لمْ يصدرِ اعتقادُهُ عَنْ دليلٍ ، وهٰؤلاءِ أوجبُوا الإيمانَ لمَنْ أضافُوا إليه المعرفةَ المشروطةَ في صحةِ الإيمانِ .

وإنَّما فرُّوا عَنِ الشناعةِ الظاهرةِ ، فتستَّرُوا عَنِ الجمهورِ بهٰذا الاحتمالِ ، وزادُوا علىٰ أنفسهِمْ أنهُمْ ألمُّوا بقولِ مَنْ جعلَ المعارفَ كلَّها ضروريةً ، ولمْ يشعُرُوا بذٰلكَ حينَ قالُوا : إنَّما عجزَتِ العامَّةُ عَنْ سردِ الدليلِ ، ونظمِ العبارةِ عنهُ ، والعبارةُ لا تجبُ عليهِمْ ؛ لأنَّهُمْ إذا نُبِّهُوا أوْ عُرِضَ عليهِمْ ما قَرُبَ مِنَ الألفاظِ ، واعتادُوا مِنَ المخاطباتِ دلائلَ الحدثِ ،

ووجْهَ الافتقارِ إلى المُحْدِثِ بعدَ تقريرِ الحدوثِ ، وعددُوا مِنْ هٰذهِ المعارفِ كثيراً . . وجدُوا أنفسَهُمْ عارفينَ بذٰلكَ .

واعلمْ : أنَّ مَنْ يقولُ : إنَّ المعارفَ كلَّها ضروريةٌ هٰكذا يقولُ : إنَّما افتقرَ الناسُ إلى التنبيهِ ، ولمْ يتمرَّنُوا على العبارةِ علىٰ غوامضِ العلومِ ، وإلَّا . . فهُمْ إذا نُبِّهُوا عليها وتُلُطِّفَ بهِمْ في تفهيمِها بالنزولِ إلىٰ ما أَلِفُوهُ مِنَ العباراتِ . . وجدُوا أنفسَهُمْ غيرَ منكرةٍ لِمَا نُبِّهُوا عليهِ ، وسارعُوا إلىٰ أُلْفَتِهِ .

ومثالُ هٰذا كمَنْ غابَ عنهُ شيءٌ كانَ معَهُ ، أوْ إنسانٌ يصحبُهُ أوْ رآهُ فنسيَهُ وغَفَلَ عنهُ لأجلِ غيبتِهِ ، ثمَّ رآهُ بعدَ ذٰلكَ فتذكَّرَ ؛ فإنهُ لا يَظنُّ إلَّا أنهُ كانَ عارفاً بهِ ، لٰكنَّهُ ناسٍ لهُ أوْ غافلٌ عنهُ ، ولولا عرفانُهُ بهِ . . ما وجدَ عدمَ الإنكارِ وسرعةَ الأُلْفةِ لهُ عندَ رؤيتِهِ .

ومِنَ المتكلمينَ أيضاً مَنْ أوجبَ لهُمُ الإيمانَ معَ عدمِ المعرفةِ المشروطةِ عندَ أولٰئكَ .

وأيُّ الآراءِ أحقُّ بالحقِّ وأَوْلَىٰ بالصوابِ ؟ ليسَ ذٰلكَ مِنْ غرضِنا في هٰذا الموضعِ ، وإنَّما غرضُنا تبعيدُ ما أشاعَهُ في « الإحياءِ » أهلُ الغلوِّ والإغلاءِ ، فلا نفتحُ مثلَ هٰذا البابِ وقدْ أبدينا مِنْ وجهِ ذٰلكَ في « مراقي الزُّلَفِ » ما يغنِي فيها بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فَصْلٌ

[في تصنيفٍ آخرَ لأهلِ الاعتقادِ]

بقيَ في بيانِ أصنافِ أهلِ الاعتقادِ المجرَّدِ تفصيلٌ آخرُ مِنْ جهةٍ أخرىٰ ، هوَ مِنْ تتمَّةِ ما مضىٰ .

فليُعلَمْ : أنَّ ما منهُمْ صنفٌ **إلّا ولهُ على التقريبِ ثلاثةُ أحوالٍ** ، لا يستبدُّ أحدُهُمْ مِنْ أحدِها بحكمِ الاعتيادِ الضروريِّ .

* **فإحدىٰ الحالاتِ لهُمْ** : أنْ يعتقدَ أحدُهُمْ جميعَ أركانِ الإيمانِ علىٰ ما يكملُ عليهِ في الغالبِ ، لٰكنَّهُ علىٰ طريقِ التقليدِ كما سبقَ .

* **الحالةُ الثانيةُ** : ألَّا يعتقدَ إلَّا بعضَ الأركانِ ممَّا فيهِ خلافٌ إذا انفردَ ولمْ ينضفْ إليهِ في اعتقادِهِ سواهُ . . هلْ يكونُ بهِ مؤمناً أوْ مسلماً ؟

وذٰلكَ مثلُ أنْ يعتقدَ وجودَ الواحدِ فقطْ ، أوْ يعتقدَ أنَّهُ موجودٌ حيٌّ لا غيرُ ، وأمثالُ هٰذهِ التقديراتِ ، ويخلُو عَنِ اعتقادِ باقي الصفاتِ خلوّاً كاملاً لا يخطرُ ببالِهِ ، ولا يعتقدُ فيها حقّاً ولا باطلاً ولا صواباً ولا خطأً ، ولٰكنَّ القدرَ الذي يعتقدُهُ مِنَ الأركانِ موافقٌ للحقِّ غيرُ مشوبٍ بغيرِهِ .

* **الحالةُ الثالثةُ** : أنْ يعتقدَ الوجودَ كما قلناهُ ، أوِ الوجودَ والوحدانيَّةَ والحياةَ ، ويكونُ فيما يعتقدُهُ في باقي الصفاتِ علىٰ ما لا يوافقُ الحقَّ علىٰ ما هوَ عليهِ ممّا هوَ بدعةٌ أوْ ضلالةٌ وليسَ بكفرٍ صُرَاحٍ .

فالذي يدلُّ عليهِ العلمُ ، ويُستنبطُ مِنْ ظواهرِ الشرعِ :

أنَّ أربابَ الحالةِ الأولىٰ ـ واللهُ أعلمُ ـ علىٰ سبيلِ نجاةٍ ، ومسلكِ خلاصٍ ، ووصفِ إيمانٍ ، أوْ إسلامٍ .

وسواءٌ في ذٰلكَ الصنفُ الأولُ والثاني مِنْ أهلِ الاعتقادِ .

ويبقَى الصنفُ الثالثُ علىٰ مُحتمَلاتِ النظرِ كما نبَّهناكَ عليهِ .

وأمَّا أهلُ الحالةِ الثانيةِ ـ وهيَ الاقتصارُ على الوجودِ المفردِ ، أوِ الوجودِ ووصفٍ آخرَ معهُ ، معَ الخلوِّ عَنِ اعتقادِ سائرِ صفاتِ الكمالِ والجلالِ وأحكامِها ـ : فالمتقدمونَ مِنَ السلفِ لَمْ يُشتهرْ عنهُمْ في صورةِ هـٰذِهِ المسألةِ ما يُخرجُ صاحبَ هـٰذا العقدِ عَنْ حكمِ الإيمانِ أوِ الإسلامِ .

والمتأخرونَ مختلفونَ ؛ فكثيرٌ خافَ أنْ يُخرجَ مَنِ اعتقدَ وجودَ اللهِ سبحانَهُ وإظهارَ الإقرارِ بهِ وبنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الإسلامِ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ كثيرٌ ممَّنْ أسلمَ مِنَ الأجلافِ والرُّعْيانِ ، وضعفاءِ النساءِ والأتباعِ هـٰذا عقدُه بلا مزيدٍ عليهِ ، ولو سُئِلُوا واستُكشِفُوا عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ : هلْ لهُ إرادةٌ أوْ بقاءٌ أو كلامٌ أوْ ما شاكلَ ذٰلكَ ، وهلْ لهُ صفاتٌ معنويَّةٌ ليستْ هيَ هوَ ، ولا هيَ غيرُهُ . . ربَّما وُجِدُوا يجهلونَ هـٰذا ولا يعقلونَ وجهَ ما يخاطبونَ بهِ .

وكيفَ يُخرجُ مَنِ اعتقدَ وجودَ اللهِ تعالىٰ ووحدانيَّتَهُ معَ الإقرارِ بالنبوَّةِ مِنْ حكمِ الإسلامِ ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدْ رفعَ القتالَ والقتلَ عنهُمْ ، وأوجبَ حكمَ الإيمانِ أوِ الإسلامِ لمَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، وعقدَ عليها ؟![1]

وهـٰذِهِ الكلمةُ لا تقتضي أكثرَ مِنِ اعتقادِ الوجودِ معَ الوحدةِ في الظاهرِ ، وعلى البديهةِ مِنْ غيرِ نظرٍ .

ثمَّ سمِعْنا عمَّنْ قالَها في صدرِ الإسلامِ أنَّهُ لمْ يُعلَّمْ بعدَها إلَّا فرائضَ الوضوءِ والصلاةِ ، وهيئاتِ الأعمالِ البدنيَّةِ ، والكفَّ عَنْ أذى المسلمِ .

ولمْ يبلغْنا أنهُمْ تدارسُوا علمَ الصفاتِ وأحوالَها .

ولا هلِ اللهُ تعالىٰ عالمٌ بعلمٍ ، أوْ عالمٌ بنفسِهِ ؟ أوْ هوَ باقٍ ببقاءٍ ، أوْ هوَ باقٍ بنفسِهِ ؟ وأشباهُ هـٰذِهِ المعارفِ ، ولا يدفعُ ظهورَ هـٰذا إلَّا معاندٌ ، أوْ جاهلٌ بسيرةِ السلفِ وما جرىٰ بينهُمْ .

ويدلُّ علىٰ قوَّةِ هـٰذا الجانبِ في الشرعِ : أنَّ مَنِ استُكْشِفَ منهُ علىٰ هـٰذِهِ الحالةِ وتُحقِّقَتْ منهُ ، وأبىٰ أنْ يُذعنَ لتعلُّمِ ما زادَ علىٰ ما عندَهُ . . لمْ يُفْتِ أحدٌ بقتلِهِ ولا استرقاقِهِ ، والحكمُ عليهِ بالخلودِ في النارِ عَسِرٌ جدّاً ، وخَطَرٌ عظيمٌ ، معَ ثبوتِ الشرعِ بأنَّ « مَنْ قالَ : لَا إلـٰهَ إلَّا اللهُ . . دخلَ الجنةَ »[2]

❁ ❁ ❁

ولعلَّكَ تقولُ : قدْ قالَ في مواطنَ أُخَرَ : « إلَّا بحقِّها »[3] ، ثمَّ تقولُ : اعتقادُ باقي الصفاتِ التي بها يكونُ اعتقادُ جلالِ اللهِ عزَّ وجلَّ وكمالِهِ . . مِنْ حقِّها .

نعمْ ؛ هيَ مِنْ حقِّها عندَ مَنْ بلغَهُ أمرُها وسمعَ بها أنْ يعتقدَها ، وأمَّا مَنْ خلا مِنِ اعتقادِها ، ولمْ يتفقْ لهُ أنْ يتلقَّنَها ولمْ يسمعْ بها . . ففيهِ نرىٰ هـٰذا النظرَ ، وعليهِ يقعُ مثلُ هـٰذا الاحتفاظِ ، وفي مثلِهِ يخافُ أنْ يطلقَ عليهِ اسمُ الكفرِ .

هـٰذا ؛ وأنتَ تسمعُ عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ يقولُ في الآخرةِ : « أخرجُوا مِنَ النارِ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ » ، وذَكَرَ

---

(1) يشير إلىٰ ما رواه البخاري (٢٩٤٦) ، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه ، وحسابه على الله » .

(2) رواه الترمذي (٢٦٣٨) .

(3) رواه البخاري (٣٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه ، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

مِنَ المثقالِ إلى الذرَّةِ والخردلةِ مِنَ الإيمانِ ، إلىٰ أنْ يُخرجَ منها مَنْ لمْ يعملْ حسنةً قطُّ [١] ، فما يدريكَ أنْ يكونَ هـٰؤلاءِ وأمثالُهُمُ المرادينَ ؛ لأنَّ التقديرَ وقعَ في الإيمانِ لا في الأعمالِ ؟!

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فإنَّ مِنَ الناسِ وأئمَّةِ العلماءِ مَنْ لمْ يُوجِبِ الإيمانَ لمَنِ اعتقدَ جميعَ الأركانِ إذا لمْ يصحبْها معرفةٌ ، ولمْ يعضُدْها دليلٌ ، فكيفَ لمَنْ فاتَهُ اعتقادُ بعضِها أوْ جلِّها ؟! **قلنا** : قدْ أريناكَ وجهَ الاعتراضِ علىٰ هـٰذا المذهبِ ، ونبَّهناكَ علىٰ بُعدِ أهلِهِ عَنْ وجهِ الحقِّ فيهِ ، وأنهُمْ أربابُ تعسُّفٍ ، ولوِ استُقصِيَ معَ كثيرٍ منهُمُ القولُ في ذٰلكَ . . لبدا لهُ أنَّهُ نُسِبَ لِمَا يظهرُ له مِنْ قصورِهِ عَنْ معرفةِ شرطِها في صحَّةِ إيمانِ غيرِهِ ، ولآثرَ مِنْ حينِهِ الركونَ إلىٰ ما رأيناهُ أَوْلَىٰ بهِ مِنْ رأيِهِ ، وأحقَّ بالصوابِ والعدلِ مِنْ مذهبِهِ .

ثمَّ بعدَ ذٰلكَ تراهُمْ حينَ اجترؤُوا علىٰ سلبِ الإيمانِ عنهُمْ . . لمْ يثبتُوا اسمَ الكفرِ عليهِمْ ، ثمَّ يُعرَضُوا على الاستتابةِ إنْ كانَتْ مِنْ مذهبِهِمْ ، ثمَّ يُحكمْ فيهِمْ بالقتلِ والاسترقاقِ .

فإذا تأملْتَ هـٰذا . . لمْ يخفَ عليكَ عيبُ ما قالُوهُ ، ونقصُ ما مالُوا إليهِ .

فلنرجعْ إلىٰ ما نحنُ بسبيلِهِ ، ونستعينُ باللهِ عزَّ وجلَّ فنقولُ :

وأمَّا أربابُ الحالةِ الثالثةِ ـ وهيَ اعتقادُ البدعةِ في الصفاتِ أوْ في بعضِها ـ : فإنْ حكَمْنا بصحةِ إيمانِ أهلِ الحالةِ المذكورةِ قبلَ هـٰذا أوْ إسلامِهِمْ . . حقَّقْنا أمرَ هـٰؤلاءِ فيما اعتقدُوهُ ؛ إذْ لمْ يقفُوا فيهِ بوجهِ قصدٍ يقطعُهُمْ عَنِ اتصالِ العذرِ ؛ لأنَّ هـٰؤلاءِ قدْ حصلَ لهُمْ في العقدِ ما هوَ شرطُ الخلاصِ والنجاةِ مِنَ الهلاكِ الدائمِ ، وأُصيبُوا فيما وراءَ ذٰلكَ .

فإنْ أمكنَ ردُّهُمْ في دارِ الدنيا ، وزجرُهُمْ عنهُ إنْ أظهرُوا التمنُّعَ عَنِ الإقلاعِ والرجوعِ بالعقوبةِ المؤلمةِ دونَ قتلٍ . . كانَ ذٰلكَ .

وإنْ فاتُوا بالموتِ . . لمْ يُقصرْ بهِمْ في اعتقادِهِمْ عَنْ أربابِ الحالةِ الثانيةِ المذكورةِ قبلهُمْ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بالناجِي والهالكِ مِنْ خلقِهِ ، والمطيعِ والعاصِي مِنْ عبادِهِ .

غيرَ أنَّ هـٰذا ينبغي أنْ يكونَ مذهبَ مَنْ نظرَ في خلقِ اللهِ تعالىٰ بعينِ الرأفةِ والرحمةِ ، ولمْ يدخلْ بينَ اللهِ عزَّ وجلَّ وبينَ عبادِهِ فيما غابَ عنهُ علمُهُ ، وعَدِمَ فيهِ سبيلَ اليقينِ ، وفهمَ معنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : وأينَ أنتَ مِنْ تكفيرِ كثيرٍ مِنَ الناسِ في القديمِ والحديثِ لجميعِ أهلِ البدعِ عامّةً وخاصّةً ؟ وقولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في القدريَّةِ : « إِنَّهُمْ مَجُوسُ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ » ؟ [٢] . وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » ؟ [٣] . وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ قومٍ يخرجونَ علىٰ خيرٍ [٤] فرقةٍ

(١) كما رواه البخاري (٢٢) ، ومسلم (١٨٣) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٦٩١) ، وتتمة الحديث : « إن مرضوا . . فلا تعودوهم ، وإن ماتوا . . فلا تشهدوهم » .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٩٢) .

(٤) قوله : (خير) سقط من (ش ، خ) ، وللفائدة انظر « فتح الباري » (١٢/٢٩٥) .

مِنَ الناسِ : « يَقُولُونَ بِقَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ أَوْ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » ؟[١] .

والأحاديثُ الواردةُ فيمَنِ اعتقدَ شيئاً مِنَ الأهواءِ والبدعِ كثيرةٌ غيرُ هٰذِهِ ، ممَّا يُوجبُ في الظاهرِ تكفيرَهُمْ بالإطلاقِ .

فاعلمْ : أنهُ إنْ كانَ كفَّرَهُمْ كثيرٌ مِنَ العلماءِ . . فلقدْ أبقَىٰ عليهِمْ دينَهُمْ وتردَّدَ فيهِمْ كثيراً كثيرٌ منهُمْ ، وكلُّ فريقٍ منهُمْ في مقابلةِ مَنْ خالفَهُ ، فليقعِ التحاكمُ عندَ العالمِ الأكبرِ ، المؤيدِ بالعصمةِ سيدِ البشرِ ، إمامِ المتقينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ قالَ : « الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَٰذِهِ الأُمَّةِ » . . فما فِقْهُ أنْ أضافَهُمْ إلى الأُمَّةِ ؟ وما حكمةُ أنْ لمْ يقلْ : (مجوسٌ) على الإطلاقِ ؟

وحينَ أخبرَ عَنْ هٰذِهِ الفرقِ أنهُمْ في النارِ فهلْ أخبرَ أنهُمْ خالدونَ فيها ؟

وحينَ قالَ : « يَمْرقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » . . فقدْ قالَ متصلاً بآخرِ هٰذا القولِ : « وَتَتَمارَىٰ فِي الْفُوقِ »[٢] ، وما موضعُ هٰذا التماري مِنَ المثلِ الذي ضربَهُ فيهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟

فما لي أراكَ تلاحظُ جهةً وتتركُ أخرىٰ ، وتذكرُ شيئاً وتذهلُ عَنْ غيرِهِ ؟!

عليكَ بالعدلِ . . تكنْ مِنْ أهلِهِ ، واستعملِ التفطُّنَ . . تشاهدِ العجائبَ المعجبةَ ، وتفهمْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

فَصْلٌ

[في الاعتقادِ المجرَّدِ عَنِ العلمِ والمعرفةِ]

ولمَّا كانَ الاعتقادُ المجردُ عَنِ العلمِ بصحتهِ ضعيفاً ، وتفرُّدُهُ عَنِ المعرفةِ قريباً مِنْ واهٍ . . أُلقيَ عليهِ شبهُ القشرِ الثاني مِنَ الجوزِ ؛ لأنَّ ذٰلكَ القشرَ يُؤكلُ معَ ما هوَ عليهِ صُوانٌ ، وإذا انفردَ . . أمكَنَ أنْ يكونَ طعاماً للمحتاجِ ، وبلاغاً للجائعِ

وبالجملةِ : فهوَ لمَنْ لا شيءَ معهُ خيرٌ مِنْ فقدِهِ ، وكذٰلكَ اعتقادُ التوحيدِ ، وإنْ كانَ مجرَّداً عَنْ سبيلِ المعرفةِ وغيرَ منوطٍ بشيءٍ مِنَ الأدلَّةِ ضعيفاً . . فهوَ في الدنيا والآخرةِ وعندَ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ خيرٌ مِنَ التعطيلِ والكفرِ ، ومتىٰ ركبَ أحدٌ غيرَ هٰذا . . **فقدْ وقعَ في أعظمِ الحرجِ والنُّكْرِ** ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٦٧) ، والترمذي (٢١٨٨) ، وأصله عند البخاري (٣٦١١) ، ومسلم (١٠٦٦) إلا أن فيه : (من خير قول البرية) بدل (من قول خير البرية) ، وهي كذٰلك في (ت ، ض) .

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٨) ، وفي (ش ، خ) : (في القول) بدل (في الفوق) ، وفي بقية النسخ : (في الفرق) ، والمثبت من « صحيح البخاري » ، **ويتمارىٰ** : يشك ، **والفوق** : موضع الوتر من السهم ، والمعنىٰ : يشك الرامي هل في الفوق شيء من أثر الصيد أم لا ؟ فكذٰلك قراءتهم لا تحصل لهم منها فائدة . « عمدة القاري » (٦٢/٢٠) .

بيان أرباب المرتبة الثالثة
وهي توحيد المقربين

اعلمْ : أنَّ الكلامَ في هـٰذا النوعِ مِنَ التوحيدِ لهُ ثلاثةُ حدودٍ :

* **أحدُها** : أنْ يتكلمَ في الأسبابِ التي توصلُ إليهِ ، والمسالكِ التي يعبرُ عليها نحوَهُ ، والأحوالِ التي يتخذُها لحصولِهِ كما قدَّرهُ العزيزُ العليمُ ، واختارَ ذٰلكَ ورضيَهُ وسمّاهُ : الصراطَ المستقيمَ .

* **والحدُّ الثاني** : أنْ يكونَ الكلامُ في عينِ ذٰلكَ التوحيدِ ونفسِهِ وحقيقتِهِ ، وكيفَ يُتصورُ وصولُ السالكِ إليهِ والطالبِ لهَ قبلَ وصولِهِ إليهِ ، وانكشافِهِ لهُ بالمشاهدَةِ .

* **والحدُّ الثالثُ** : في ثمراتِ ذٰلكَ التوحيدِ وما يلقىٰ أهلُهُ بهِ ، ويطَّلعونَ عليهِ بسببهِ ، ويُكرمونَ بهِ مِنْ أجلهِ ، ويُتحفونَ مِنْ فوائدِ المزيدِ مِنْ جهتِهِ .

ـ **فأمَّا الحدُّ الأولُ** : فالكلامُ عليهِ ، والبيانُ لهُ ، والكشفُ لدقائقِهِ ، وبذلُهُ للصغيرِ والكبيرِ . . مأمورٌ بهِ ، مشدَّدٌ في أمرِهِ ، متوعَّدٌ بالنارِ علىٰ كتمِهِ ، فيهِ بُعِثَ الأنبياءُ ، ومِنْ أجلِهِ أُرسِلَ الرسلُ ، وببيانِهِ للناسِ كافَّةً نزلَتْ مِنْ عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ أمناءِ وحيِهِ الصحفُ والكتبُ ، ولتقعَ الثقةُ في القلوبِ بتحقيقِهِ وتصديقِهِ أُيِّدَتِ الرسلُ بالمعجزاتِ ، والأولياءُ بالكراماتِ ؛ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

وعليهِ أخذَ اللهُ الميثاقَ على الذينَ أُوتُوا الكتابَ ليبينُنَّهُ للناسِ ولا يكتمونَهُ ، وفيهِ أنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ .

وإياهُ عنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ . . أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ »[1]

وجميعُ ذٰلكَ محصورٌ في اثنتينِ : **العلمِ بالعبرةِ ، والعملِ بالسنةِ** .

وهما مبنيانِ على اثنتينِ : **الحرصِ الشديدِ ، والنيةِ الخالصةِ** .

والشرطُ في تحصيلِهما اثنانِ : **نظافةُ الباطنِ ، وسلامةُ الجوارحِ** .

ويُسمَّىٰ جميعُ ذٰلكَ بعلمِ المعاملَةِ .

ـ **وأمَّا الحدُّ الثاني** : فالكلامُ فيهِ أكثرُ ما يكونُ علىٰ طريقةِ ضربِ الأمثالِ ؛ تشبيهاً بالرمزِ تارةً ، وتارةً بالتصريحِ ، ولـٰكنْ على الجملةِ بما يناسبُ علومَ الظواهرِ .

ولـٰكنْ يُشْرِفُ بذٰلكَ اللبيبُ الحاذقُ علىٰ بعضِ المرادِ ، ويفهمُ منهُ كثيراً مِنَ المقصودِ ، وينكشفُ لهُ جُلُّ ما يُشارُ إليهِ إذا كانَ سالماً مِنْ شركِ التعصُّبِ ، بعيداً مِنْ هوَّةِ الهوىٰ ، نظيفاً مِنْ دنسِ التقليدِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٦٦) .

ـ **وأمَّا الحدُّ الثالثُ** : فلا سبيلَ إلىٰ ذكرِ شيءٍ منهُ إلَّا معَ أهلِهِ بعدَ علمِهِمْ بهِ **علىٰ سبيلِ التذكارِ ، لَا علىٰ سبيلِ التعليمِ** .

فَصْلٌ

[في بيانِ علَّةِ أحكامِ حدودِ توحيدِ المقربينَ]

إنَّما كانتْ أحكامُ هـٰذِهِ الحدودِ الثلاثةِ علىٰ ما وصَفْنا ؛ لأنَّ الحدَّ الأوَّلَ فيهِ محضُ النصحِ للخلقِ ، والاستنقاذُ لهُمْ مِنْ غمراتِ الجهلِ ، والتنكيبُ بهِمْ عَنْ مهاوِي العطبِ ، وقودُهُمْ إلىٰ معرفةِ هـٰذا المقامِ وما وراءَهُ ممَّا هوَ أعلىٰ منهُ ممَّا لهُمْ فيهِ الملكُ الأكبرُ وفوزُ الأبدِ ، وقدْ بُيِّنَ لهُمْ غايةَ البيانِ ، وأُقيمَ عليهِ واضحُ البرهانِ ، وهوَ مبدأُ الطريقِ ، وأولُ سبيلِ السعادةِ .

فمنْ عجزَ عَنْ ذٰلكَ . . كانَ عَنْ غيرِهِ أعجزَ ، ومَنْ سلكَهُ على استقامةٍ . . فالغالبُ عليهِ الوصولُ ، فإنَّ اللهَ لا يضيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً ، ومَنْ وصلَ . . شاهدَ ، ومَنْ شاهدَ . . علمَ ، **وذٰلكَ غايةُ المطلوبِ ، ونهايةُ المرغوبِ والمحبوبِ** .

ومَنْ قعدَ . . حُرِمَ الوصولَ وما بعدَهُ ، ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ومَنْ غابَ . . لمْ تنفعْهُ الأخبارُ ، ولمْ يفدْهُ كثيرٌ مِنَ الأحاديثِ .

وأيضاً : فإنَّ الإخبارَ بما وراءَ الحدِّ الأولِ والثاني علىٰ جهةِ كشفِهِ للخلقِ كافَّةً لوْ أمكنَ بما عُهِدَ مِنَ الكلامِ ، وجرىٰ بينَ الناسِ مِنْ عرفِ التخاطبِ . . كانَ فيهِ زيادةُ محنةٍ ، وسببُ فتنةٍ علىٰ أكثرِهِمْ ممَّنْ ليسَ مِنْ أهلِ ذٰلكَ المقامِ ؛ وذٰلكَ لغرابةِ المعلومِ ، وكثرةِ غموضِهِ ، ودقَّةِ معناهُ ، وعلوِّهِ في منازلِ الرفعةِ ، وبعدِهِ بالجملةِ والتفصيلِ عَنْ جميعِ ما عُهِدَ في عالَمِ الملكِ والشهادةِ ، وخروجِهِ عَنْ تلكَ الحدودِ المألوفةِ ، ومباينتِهِ لكلِّ ما نشؤُوا عليهِ ولمْ يشاهدُوا غيرَهُ مِنْ محسوساتٍ ومعقولاتٍ وضرورياتٍ ونظرياتٍ .

فلمَّا كانَ لا يُدركُ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ بقياسٍ ، ولا يُتصوَّرُ بواسطةِ لفظٍ ، ولا يُحملُ عليهِ حقيقةُ مثلٍ ؛ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وحُكيَ عَنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ : (ليسَ عندَ الناسِ مِنْ علمِ الآخرةِ إلَّا الأسماءُ) ، وأرادَ مَنْ لمْ ينكشِفْ شيءٌ لهُ مِنْ علمِها وحقائقِها في الدنيا ، وأيضاً فلوْ جازَ الإخبارُ بها لغيرِ أهلِها . . لمْ يكنْ لهُمْ سبيلٌ إلىٰ تصوُّرِها إلَّا علىٰ خلافِ ما هيَ عليهِ بمجرَّدِ تقليدٍ ، ويتطرقُ إليهِ مِنْ أهلِ الغفلةِ ومِنْ ذوي التصوُّرِ جحودٌ وتفنيدٌ ، **فلهـٰذا أُمِرُوا بالكتمِ ؛ إشفاقاً علىٰ مَنْ حُجِبَ عَنِ العلومِ** .

ولهـٰذا قالَ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟! »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا حَدَّثَ أَحَدُكُم قَوْماً بِحَدِيثٍ لا تبلُغُهُ عُقُولُهُمْ . . إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً »[2]

وعلىٰ هـٰذا يُخرَّجُ قولُ المشايخِ : إفشاءُ سرِّ الربوبيةِ كفرٌ

---

(١) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً علىٰ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٨١٩٢) مرفوعاً ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٣١) بنحوه .

(٢) روىٰ مسلم نحوه موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه كما في « شرح النووي علىٰ صحيح مسلم » (٧٦/١) ، وهو مرفوعاً من رواية العقيلي في « الضعفاء » (٩٣٧/٣) بنحوه أيضاً .

ولا تُردْ مزيدَ بحثٍ عَنْ علمِ سرِّ موجِبٍ للكتمِ بعدَ فهمِكَ لهـٰذا القولِ .

رزقَنا اللهُ وإياكَ قلوباً واعيةً للخيرِ ؛ إنَّهُ وليُّ كلِّ صالحٍ وبَرٍّ .

فَصْلٌ

[في أصنافِ المقربينَ]

وإذا علمْتَ أنَّ الحدَّ الأوَّلَ قد تقرَّرَ علمُهُ في كتبِ الروايةِ والدرايةِ ؛ ومُلِئَتْ منهُ الطروسُ ، وكثرَتْ بهِ في المحافلِ الدروسُ ، وهوَ غيرُ محجوبٍ عَنْ طالبٍ ، ولا ممنوعٌ عنْ راغبٍ ، قدْ أُمِرَ الجهَّالُ بهِ أنْ يتعلمُوهُ ، والعلماءُ بهِ أنْ يبذلُوهُ ويعلِّمُوهُ . . **فلا نعيدُ فيهِ ها هنا قولاً**

ولمَّا كانَ حكمُ الحدِّ الثالثِ الكتمَ مرةً ، وتنكيبَ الكلامِ عنهُ معَ غيرِ أهلِهِ علىٰ كلِّ حالٍ . . لمْ يكنْ لنا سبيلٌ إلىٰ تعدِّي محدوداتِ الشرعِ ، **فلنثْنِ العِنانَ إلى الكلامِ الذي يليقُ بهـٰذا الحالِ والمقامِ ، فنقولُ :**

أربابُ المقامِ الثالثِ في التوحيدِ ـ وهُمُ المقربونَ ـ علىٰ ثلاثةِ أصنافٍ على الجملةِ : وكلُّهُمْ نظرُوا إلى المخلوقاتِ ، فرأَوْا علاماتِ الحدوثِ فيها لائحةً ، وعاينُوا حالاتِ الافتقارِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ عليها واضحةً ، وسمعُوا جميعَها تدلُّ علىٰ توحيدِهِ وتفريدِهِ راشدةً ناصحةً .

ثمَّ رأَوُا اللهَ عزَّ وجلَّ بإيمانِ قلوبِهِمْ ، وشاهدُوهُ بغيبِ أرواحِهِمْ ، ولاحظُوا جلالَهُ وجمالَهُ بخفيِّ أسرارِهِمْ ، وهُمْ معَ ذٰلكَ في درجاتِ القربِ علىٰ قدرِ حظِّ كلِّ واحدٍ منهُمْ في اليقينِ وصفاءِ القلبِ .

وهـٰؤلاءِ الأصنافُ الثلاثةُ إنَّما عرفُوا اللهَ سبحانَهُ بمخلوقاتِهِ ، وانقسامُهُمْ في تلكَ المعرفةِ كانقسامِ حفَّاظِ تلاوةِ القرآنِ مثلاً :

فمِنْ حافظٍ لبعضِهِ ، ويكونُ ذٰلكَ البعضُ أكثرَهُ ، أوْ كثيراً منهُ دونَ كمالِهِ .

ومِنْ حافظٍ لجميعِهِ ، لـٰكنَّهُ متلعثمٌ فيهِ ، متوقِّفٌ عَنِ الانهمارِ في قراءتِهِ .

ومِنْ حافظٍ لهُ ، ماهرٍ في تلاوتِهِ ، غيرِ متوقِّفٍ في شيءٍ منهُ .

وكلُّهُمْ يُنسبُ إليهِ ويُعدُّ في المشهدِ والمغيبِ مِنْ أهلِهِ .

وكذٰلكَ أهلُ هـٰذهِ المرتبةِ أيضاً :

مِنْ متوصِّلٍ إلى المعرفةِ مِنْ قراءةِ صفحاتِ أكثرِ المخلوقاتِ ، أوْ كثيرٍ منها ، وربَّما كانَ فيما يقرأُ مِنَ الصفحاتِ ما ينعجمُ عليهِ .

ومِنْ قارئٍ لجميعِها ، متفهِّمٍ لها ، لـٰكنْ بنوعِ تعبٍ ، ولزومِ فكرةٍ ، ومداومةِ عبرةٍ .

ومِنْ قارئٍ ماهرٍ في قراءَتِها ، مستخرجٍ لرموزِها ، نافذِ البصيرةِ في رؤيةِ حقائقِها ، مفتوحِ السمعِ ، تناطقُهُ الأشياءُ في فراغِهِ وشغلِهِ .

وبحسبِ ذٰلكَ اختلفَتْ أحوالُهُمْ ؛ في الخوفِ والرجاءِ ، والقبضِ والبسطِ ، والفناءِ والبقاءِ ، **ولا مزيدَ علىٰ هـٰذا المثالِ ؛ فهوَ أوضحُ لذوي الأفهامِ مِنْ شمسِ النهارِ وقتَ الزوالِ .**

فَصْلٌ

[في سببِ تسميةِ المقربينَ بهٰذا الاسمِ]

وعلمْتَ لِمَ سُمّيَ أهلُ هٰذِهِ المرتبةِ المقربينَ ، فذٰلكَ لبعدهِمْ عَنْ ظلماتِ الجهلِ ، وقربِهِمْ مِنْ نيّراتِ المعرفةِ والعلمِ .

فلا أبعدَ مِنَ الجاهلِ ، ولا أقربَ مِنَ العارفِ العالِمِ .

والقربُ والبعدُ ها هنا عبارتانِ عَنْ حالتينِ علىٰ سبيلِ التجوُّزِ في لسانِ الجمهورِ ، وعلى الحقيقةِ عندَ المستعملينَ لهما في هٰذا الفنّ .

* **إحدى الحالتينِ** : عمَى البصيرةِ ، وانطماسُ القلبِ ، وخلوُّه عَنْ معرفةِ الربِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فسُمّيَ هٰذا بعداً ، مأخوذاً مِنَ البعدِ عَنْ محلِّ الراحةِ والمنزلِ الرحبِ ، وموضعِ العمارةِ والأنسِ ، والانقطاعِ في مهامِهِ القفرِ وأمكنةِ الخوفِ ، ومظانّ الانفرادِ والوحشةِ .

* **والحالةُ الثانيةُ** : عبارةٌ عَنِ اتّقادِ الباطنِ ، واشتعالِ القلبِ ، وانفساحِ الصدرِ بنورِ اليقينِ والمعرفةِ والعقلِ ، وعمارةِ السرِّ بمشاهدةِ ما غابَ عنهُ أهلُ الغفلةِ واللهوِ ، ولٰكنَّهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لمْ يصلْ .

فَصْلٌ

[في قصورِ أئمّةِ الكلامِ عَنْ مقامِ المقربينَ]

لعلَّكَ تقولُ : أينَ أئمَّةُ الكلامِ عَنْ لحوقِ هٰذا المقامِ كأنْ لَمْ يضربُوا فيهِ بسهمٍ ، ولمْ يفزْ قِدْحُهُمْ منهُ بحظٍّ ولا قَسْمٍ ؟

وأُراهُمْ عندَ الجمهورِ في الظاهرِ ، وعندَ أنفسِهِمْ أنهُمْ أهلُ الدلالةِ على اللهِ تعالىٰ ، وقادةُ الخلقِ إلىٰ مَراشِدِهِمْ ، ومجاهدُو أهلِ النِحَلِ المُرْدِيةِ والمللِ الضالَّةِ المهلِكَةِ . وقدْ سبقَ في « الإحياءِ » أنهُمْ في الاعتقادِ معَ العوامِّ سواءٌ ، وإنَّما فارقوهُمْ بإحسانِهِمْ حراسةَ عقودِهِمْ .

فاعلمْ : أنَّ ما رأيتَ في « الإحياءِ » صحيحٌ ، ولٰكنْ بقيَ في كشفِهِ أمرٌ لا يخفىٰ على المستبصرينَ ، ولا يغيبُ عَنِ الشَّادِينَ إذا كانُوا منصفينَ ، وهوَ أنَّ المتكلمينَ مِنْ حيثُ صناعةُ الكلامِ فقطْ لمْ يفارقُوا عقائدَ العوامِّ ، وإنَّما حرسُوها بالجدلِ عَنِ الانخرامِ ؛ إذِ الكلامُ والجدلُ علمٌ لفظيٌّ ، وأكثرُهُ احتيالٌ وهميٌّ ، وهوَ عملُ النفسِ ، وتخليقُ الفهمِ ، وليسَ بثمرةِ المشاهدةِ والكشفِ ، ولأجلِ هٰذا كانَ فيهِ السمينُ والغثُّ ، وشاعَ في حالِ النضالِ لهُ إيرادُ القطعيّ وما هوَ في حكمِهِ مِنْ غلبةِ الظنِّ ، وإبداءِ الصحيحِ ، وإلزامِ مذهبِ الخصمِ .

والمقامُ المشارُ إليهِ بالذكرِ وشبهُهُ إنَّما هوَ علمُ الوجودِ ، وفهمُ الأحوالِ ، ومعرفتُهُ باليقينِ التامِّ ، والعلمِ المضارِعِ للضروريّ بأنْ لَا إلٰهَ إلَّا اللهُ ؛ إذْ لَا فاعلَ غيرُهُ ، ولَا حاكِمَ في الدارينِ سواهُ ، ومشاهدةُ القلوبِ لِمَا حُجِبَ عَنِ العيونِ .

ومِنْ أينَ للنازلِ طيُّ المنازلِ ؟! ولعلمِ الكلامِ مثلُ هٰذا المقامِ ، بلْ هوَ مِنْ خُدَّامِ الشرعِ ، وحراسِ نواحيهِ مِنْ أهلِ الاختلاسِ والقطعِ ، ولهُ بركةٌ علىٰ قدرِهِ ونفعٌ .

ولكنْ شتانَ بينَ مطالِعِ الأنوارِ ، ومدارِكِ الاستبصارِ ، والمرادِ في أوقاتِ الضروراتِ ووقتِ الاختيارِ ، وبينَ ما يرادُ لوقتِ حاجةٍ إنْ عنَّتْ ، وخصامِ صاحبِ بدعةٍ ، ومناضلةِ سخيفٍ ذي ضلالةٍ ممَّا ينغِّصُ على ذي اليقينِ العيشَ ، ويشغلُ الذهنَ ويكدِّرُ النفسَ .

وأمَّا أهلُهُ الذينَ حُفِظَ عنهُمْ ، ورُفِعَ علمُهُ فيما مضىٰ مِنَ الزمانِ إليهِمْ . . لا نقولُ في أكثرِهِمْ : **إنَّهُمْ لا يحسنُونَ غيرَهُ ، ولا يختصُّونَ في التوحيدِ بمقامٍ سواهُ ممَّا هوَ أعلىٰ منهُ .**

بلِ الظنُّ بهِمْ أنهُمْ علماءُ مثلُ ما ذكَرْنا ، فُهَمَاءُ وبُصَرَاءُ ، ولـٰكنَّهُمْ لَمْ يُبدُوا مِنَ العلمِ في الظاهرِ إلَّا ما كانتِ الحاجةُ إليهِ أمسَّ ، والمصلحةُ بهِ لتوجُّهِ الضرورةِ أعمَّ وأوكدَ ؛ لِمَا كانَ نَجَمَ في وقتهِمْ مِنَ البدعِ ، وظهرَ مِنَ الأهواءِ ، وشاعَ مِنْ تشتيتِ كلمةِ أهلِ الحقِّ ، وتحزُّبِ العوامِّ معَ كلِّ ناعقٍ .

فرأَوْا أنَّ الردَّ عليهِمْ ، والمنازعةَ لهُمْ ، والسعيَ في اجتماعِ الكلمةِ على السنَّةِ بعدَ افتراقِها ، وإخزاءَ ذوي الكيدِ للدِّينِ في احتيالِهِمْ ، وإخمادَ نارِ الأهواءِ والفتنِ . . أولىٰ بهِمْ مِنَ الكلامِ بعلومِ الإشاراتِ ، وكشفِ أحوالِ أربابِ المقاماتِ ، ووصفِ فقهِ الأرواحِ والنفوسِ ، وتفهمِ كلِّ ناطقٍ وجامدٍ .

فإنَّ هـٰذِهِ كلَّها وإنْ كانتْ أسنىٰ وأعلىٰ **فذٰلكَ مِنْ علمِ الخواصِّ** ، وهُمْ مكفيُّونَ المؤنةَ ، والعامَّةُ أحقُّ بالحفظِ ، وعقائدُهُمْ أولىٰ بالحراسةِ ، واستنقاذُ مَنْ يُخافُ عليهِ الهلاكُ أولىٰ مِنْ مؤانسةِ وحيدٍ ، والتصدُّقُ على ذي بُلْغَةٍ مِنَ العيشِ ، فكيفَ إذا كانَ غنياً ؟!

وأيضاً : فإنَّ علمَ الكلامِ إنَّما يُرادُ ـ كما قلنا ـ للجدالِ ، وهوَ يقعُ مِنَ العلماءِ العارفينَ معَ أهلِ الإلحادِ والزيغِ ؛ لقصورِهِمْ عَنْ ملاحظَةِ الحقِّ موقعَ السيوفِ مِنَ الأنبياءِ والمرسلينَ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ بعدَ التبليغِ معَ أهلِ العنادِ ، والتمادي على الغيِّ وسبلِ الفسادِ .

فكَمَا لا يقالُ : السيفُ أبلغُ حجَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . كذٰلكَ لا يقالُ : علمُ الكلامِ والجدلُ أبلغُ مقامِ مَنْ ظهرَ منهُ مِنَ العلماءِ .

وكَمَا يقالُ في الصدرِ الأولِ : فقهاءُ الأمصارِ ومَنْ قبلهُمْ حينَ لَمْ **يُحفظْ عنهُمْ في الغالبِ إلَّا علومٌ أخرُ** ؛ كالفقهِ والحديثِ والتفسيرِ ؛ لأنَّ الخلقَ أحوجُ إلىٰ علمِ ما حُفِظَ عنهُمْ ، وذٰلكَ لغلبةِ الجهلِ علىٰ أكثرِهِمْ ، فلولَا أنْ حفظَ اللهُ تعالىٰ تلكَ العلومَ بمَنْ ذكَرْنا . . لجُهِلَتِ العباداتُ ، وانقطعَ علمُ الشرعِ ، ونحنُ معَ هـٰذِهِ الحالةِ نعلمُ أنَّهُمْ عارفونَ بالتوحيدِ علىٰ جهةِ اليقينِ ، بغيرِ طريقِ علمِ الكلامِ والجدلِ ، متحلونَ بالمقاماتِ المشهورةِ المذكورةِ وإنْ لَمْ يُشتَهَرْ عنهُمْ ذٰلكَ اشتهارَ ما أخذَهُ عنهُمُ الخاصُّ والعامُّ .

ومثلُ ذٰلكَ حالُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ بعدَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لمَّا خافُوا أنْ يندرسَ الإسلامُ ، ويضعفَ ويقلَّ أهلُهُ ، وترجعَ البلادُ والعامَّةُ إلى الكفرِ كما كانُوا أولَ مرَّةٍ ؛ وقدْ ماتَ صاحبُ المعجزةِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والمبعوثُ بدعوةِ الخلقِ إلى الحقِّ . . رأَوْا أنَّ الجهادَ والرباطَ في ثغرِ العدوِّ والغزوَ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وضربَ وجوهِ الكفرةِ بالسيفِ ، وإدخالَ الناسِ في دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . أَوْلَىٰ بهِمْ مِنْ سائرِ الأعمالِ ، وأحقُّ مِنْ تدريسِ العلومِ كلِّها ظاهراً وباطناً .

وإنَّما كانتْ تُؤخذُ عنهُمْ علومُ الشرعِ على الأقلِّ ، وهُمْ في حالِ ذٰلكَ الشغلِ .

والنظرُ إلىٰ حالِ العمومِ أوكدُ مِنَ النظرِ إلى الخصوصِ ؛ لأنَّ الخصوصَ يوجدُ فيهِمْ لأنفسِهِمْ غَناءٌ ، ولهُمْ بحالِهِمْ قيامٌ ، والعمومُ إنْ لمْ يكنْ مشتغلاً بهِمْ ، وذائداً لهُمْ عَنْ هلكاتِهِمْ ، وسائقاً بهِمْ إلىٰ مراشدِهِمْ ونجاتِهِمْ . . كانَ الهلاكُ إليهِمْ أسرعَ ، **ثمَّ لا يكونُ بعدَ ذٰلكَ إنْ فسدَ حالُ العمومِ للخصوصِ قدرٌ ، ولا يظهرُ لهُمْ نورٌ ، ولا يقدرونَ علىٰ شيءٍ كاملٍ مِنَ البرِّ ، فلا خاصَّةَ إلا بعامَّةٍ .**

ولقدْ كانَتْ رعايةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحالِ الجماهيرِ أكثرَ ، والخوفُ عليهِمْ مِنَ الزيغِ والضلالِ والهلاكِ أشدَّ ، واللطفُ بهِمْ في تخفيفِ الوظائفِ والأخذِ بالرفقِ أبلغَ ، وكانَ يَكِلُ أهلَ القوَّةِ وذوي البصائرِ في الحقائقِ إلىٰ ما كانُوا يأخذونَ بهِ أنفسَهُمْ .

وكانَ هوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحبُّ أنْ يعملَ بالعملِ مِنَ الطاعةِ فما يمنعُهُ منهُ أوْ مِنَ المداومةِ عليهِ إلَّا خوفُ أنْ يفترضَ علىٰ أمَّتِهِ حينَ علمَ مِنْ أكثرِهِمُ الضعفَ .

ولمْ يكرَهْ لهُمْ ذٰلكَ وفيهِ زيادةُ الأجرِ ، وكثرةُ الثوابِ والقربِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولٰكنْ خافَ عليهِمْ أنْ يحصُلوا في تضييعِ الفرضِ ، فيكونَ عليهِمْ كفلٌ مِنَ الوزرِ .

أَلَا ترىٰ كيفَ نهى الحولاءَ بنتَ تُوَيْتٍ عَنْ قيامِ الليلِ كلِّهِ[1] ، وكانَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ يقومُهُ فلَمْ ينهَهُ ؟![2]

ومنعَ السيفَ مِنَ كلِّ مَنْ أرادَ أخذَهُ بما شرطَ عليهِ فيهِ ، حتَّىٰ جاءَ مَنْ علمَ منهُ القدرةَ على الوفاءِ بما شرطَ عليهِ فأعطاهُ إيَّاهُ[3] .

وقالَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ . . لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ »[4]

وقالَ للأنصارِ : « أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَىٰ رِحَالِكُمْ ؟! »[5]

ومعَ ذٰلكَ فالذي حُفِظَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعَنْ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مِنْ بَعدِهِ ، وفقهاءِ الأمصارِ وأعيانِ المتكلمينَ رحمَهُمُ اللهُ مِنَ الإشاراتِ بتلكَ العلومِ المذكورةِ كثيرٌ لا يُحصىٰ ، وإنَّما القليلُ مَنْ حملَهُ اليومَ عنهُمْ ، وتفقَّهَ فيهِ مثلَهُمْ .

فابحثْ . . تجدْ ، وتَصَدَّ لاقتباسِ المعارفِ . . تعلمْ ، وطالعْ كتبَ الحديثِ والتواريخِ ومصنفاتِ العلومِ . . توقِنْ .

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

* * *

(١) رواه البخاري (٤٣) ، ومسلم (٧٨٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٦٥٦) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٣٠) ، والبزار في « مسنده » (٩٧٩) ، وفيه : « من يأخذ هـٰذا السيف بحقه ؟ » .

(٤) رواه البخاري (١٥٨٣) ، ومسلم (١٣٣٣) .

(٥) رواه البخاري (٣٧٧٨) ، ومسلم (١٠٥٩) وفيه : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا ، وترجعون برسول الله إلىٰ بيوتكم . . . » .

بيان المرتبة الرابعة
وهي توحيد الصدِّيقين

وأمّا أهلُ المرتبةِ الرابعةِ . . فهُمْ قومٌ رأَوُا اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ وحدَهُ ، ثمَّ رأَوُا الأشياءَ بعدَ ذٰلكَ بهِ ، فلَمْ يرَوْا في الدارينِ غيرَهُ ، ولا اطلعُوا في الوجودِ علىٰ سواهُ .

وقدَ كانَ بيانُ إشاراتِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ فيما خُصُّوا بهِ مِنَ المعرفةِ يوجدُ في هجِّيراهُمْ[1]

فكانَ هجِّيرىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ : (**لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ**) ، وكانَ هجِّيرىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (**اللهُ أكبرُ**) ، وكانَ هجّيرىٰ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ : (**سبحانَ اللهِ**) ، وكانَ هجّيرىٰ عليّ رضيَ اللهُ عنهُ : (**الحمدُ للهِ**) .

فاستقرأَ السابقونَ مِنْ ذٰلكَ :

أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمْ يشهدْ في الدارينِ غيرَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وكانَ الصدِّيقَ ، وسُمِّيَ بهِ كما قدْ علمْتَ ، وكانَ يقولُ : (لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ) .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يرىٰ ما دونَ اللهِ صغيراً معَ اللهِ تعالىٰ وفي جنبِ عظمَتِهِ ، فيقولُ : (اللهُ أكبرُ) .

وكانَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ لا يرى التنزيهَ إلَّا للهِ سبحانَهُ ؛ إذِ الكلُّ قائمٌ بهِ ، غيرُ معرّىً مِنَ النقصانِ ، والقائمُ بغيرِهِ معلولٌ ، فكانَ يقولُ : (سبحانَ اللهِ) .

وعليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لا يرىٰ نعمةً في الدفعِ والرفعِ ، والعطاءِ والمنعِ ، في المكروهِ والمحبوبِ ، إلَّا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكانَ يقولُ : (الحمدُ للهِ) .

وأهلُ هٰذهِ المرتبةِ على الجملةِ في حالِ حصولِهِمْ فيها صنفانِ : **مريدونَ** ، **ومرادونَ** .

فالمريدونَ في الغالبِ لا بدَّ لهُمْ أنْ يحلُّوا في المرتبةِ الثالثةِ ، وهيَ توحيدُ المقربينَ ، ومنها ينتقلونَ ، وعليها يعبرونَ إلى المرتبةِ الرابعةِ ، واللهُ أعلمُ .

وأمّا المرادونَ . . فهُمْ في الغالبِ مبتدئُونَ بمقامِهِمُ الأخيرِ ، وهيَ المرتبةُ الرابعةُ ، ومتمكنونَ فيها .

ومِنْ أهلِ هٰذا المقامِ يكونُ القطبُ والأوتادُ والبُدَلَاءُ ، ومِنْ أهلِ المرتبةِ الثالثةِ يكونُ النقباءُ والنجباءُ والشهداءُ والصالحونَ ، واللهُ أعلمُ .

سُؤَالٌ

[كيفَ يرىٰ صاحبُ هٰذهِ المرتبةِ الأشياءَ شيئاً واحداً]

فإنْ قلتَ : أليسَ الوجودُ مشتركاً بينَ الحادثِ والقديمِ ، والمألوهِ والإلٰهِ ؟ ثمَّ معلومٌ أنَّ الإلٰهَ واحدٌ ، والحوادثَ كثيرةٌ ، فكيفَ يرىٰ صاحبُ هٰذهِ المرتبةِ الأشياءَ شيئاً واحداً ؟ أذلكَ علىٰ طريقِ قلبِ الأعيانِ ، فتعودُ الحوادثُ قديمةً ،

---

(١) **الهجّيرى** : الدأب والعادة والشأن .

ثمَّ تتحدُ بالواحدِ فترجعُ هيَ هوَ ، وفي هـٰذا مِنَ الاستحالةِ والمروقِ عَنْ مصدرِ العقلِ ما يغني عَنْ إطالةِ القولِ فيهِ ؟ وإنْ كانَ علىٰ طريقِ التخييلِ للوليّ لِمَا لَا حقيقةَ لهُ . . فكيفَ يُحتجُّ بهِ أوْ كيفَ يُعدُّ حالاً لوليّ أوْ فضيلةً لبشرٍ ؟

والجوابُ عَنْ ذٰلكَ : أنَّ الحوادثَ لمْ تنقلبْ إلى القِدَمِ ، ولمْ تتَّحدْ بالفاعلِ ، ولا اعترى الوليَّ تخييلٌ فتخيّلَ ما لَا حقيقةَ لهُ ، وإنَّما هوَ وليٌّ مجتبىً ، وصدّيقٌ مرتضىً ، خصَّهُ اللهُ تعالىٰ بمعرفتِهِ علىٰ سبيلِ اليقينِ والكشفِ التامّ ، وكشفَ لقلبِهِ ما لوْ رآهُ ببصرِهِ عياناً . . ما ازدادَ يقيناً .

وإنْ أنكرْتَ أنْ يكونَ وهبَ اللهُ المعرفةَ بهِ علىٰ هـٰذا السبيلِ لأحدٍ مِنْ خلقِهِ . . فما أطمَّ مصيبتَكَ !! وما أعظمَ العزاءَ فيكَ حينَ قِسْتَ الخلقَ بمقدارِكَ ، وكِلْتَهُمْ بمعيارِكَ ، وفضَّلتَ نفسَكَ على الجميعِ !!

إذْ لا سببَ لإنكارِكَ ـ إنْ صحَّ ـ إلَّا أنكَ تُحيلُ أنْ يُرزقَ أحدٌ ما لمْ تُرزقْ ، أوْ يُخصَّ مِنَ المعرفةِ بما لمْ تُخصَّ .

فإذا تقررَتْ هـٰذِهِ القاعدةُ . . فصارَ ما كُشِفَ لقلبِهِ لا يخرجُ منهُ ، وما اطلَّعَ عليهِ لا يغيبُ عنهُ ، وما ذكرَهُ مِنْ ذٰلكَ لا ينساهُ ولا في حالِ نومِهِ وشغلِهِ ، وهـٰذا موجودٌ فيمَنْ كثرَ اهتمامُهُ بشيءٍ ، وثبتَ في قلبِهِ حالةٌ أنَّهُ إذا نامَ أوِ اشتغلَ . . لمْ يفقدْهُ في شغلِهِ ونومِهِ كَمَا لا يفقدُهُ في يقظتِهِ وفراغِهِ .

ولهـٰذا ـ واللهُ أعلمُ ـ إذا رأى الوليُّ المتمكنُ في رتبةِ الصدّيقيَّةِ مخلوقاً ؛ حيّاً كانَ أوْ جماداً ، صغيراً أوْ كبيراً . . لمْ يرهُ مِنْ حيثُ هوَ هوَ ، وإنَّما يراهُ مِنْ حيثُ أوجدَهُ اللهُ تعالىٰ بالقدرةِ ، وميَّزَهُ بالإرادةِ علىٰ سابقِ العلمِ القديمِ ، ثمَّ أدامَ القهرَ عليهِ في الوجودِ .

ثمَّ لمَّا كانتِ الصفاتُ المشهودةُ آثارُها في المخلوقاتِ ليستْ لغيرِ الموصوفِ الذي هوَ اللهُ عزَّ وجلَّ . . فنيَ الوليُّ عنْ غيرِهِ ، وصارَ لمْ يرَ سواهُ .

ومعنَى الفناءِ : أنَّهُ لا يتميزُ بالذكرِ في سرّ القلبِ وحيّزِ المعرفةِ ، ولا بالإدراكِ في ظاهرِ الحسّ دونَ ما كانَ موجوداً بهِ وصادراً عنهُ ، فأنَّىٰ يبعدُ هـٰذا علىٰ مَنْ أصحبَهُ اللهُ توفيقَهُ ، وفتحَ لهُ منهاجَهُ وطريقَهُ ؟!

وعلىٰ هـٰذا جاءَ المثلُ في « الإحياءِ » برؤيةِ مَنْ يرىٰ إنساناً والإنسانُ المرئيُّ لا شكَّ ذو أجزاءٍ كثيرةٍ ، ثمَّ لا يراهُ الرائي معَ ذٰلكَ إلَّا واحداً ، ولا يخطرُ ببالِهِ شيءٌ مِنْ أجزائِهِ مِنْ حيثُ إنَّ أجزاءَ الإنسانِ الظاهرةَ لا حراكَ لهَا ولا سكونَ ، ولا قبضَ ولا بسطَ ، ولا تصرُّفَ فيما يظهرُ إلَّا بمعاني ما كانَ إنساناً مِنْ أجلِهِ وهوَ الراكبُ للجسدِ ، المستولي علىٰ سائرِ الأجزاءِ ، المصرّفُ بقدرَةِ اللهِ تعالىٰ للأعضاءِ ، الملقَّبُ بالروحِ تارةً ، والقلبِ أخرىٰ ، وقدْ يعبرُ عنهُ بالنفسِ .

فإذا رأى اليدَ مِنَ الإنسانِ مثلاً . . لمْ يرَها مِنْ حيثُ إنَّها لحمٌ وعصبٌ وعضلٌ وغيرُ ذٰلكَ مِنْ مجموعِ أشخاصِ الجواهرِ ، وإنَّما يراها مِنْ حيثُ ما ظهرَ عليها مِنْ آثارِ صفاتِهِ التي هيَ القدرةُ والعلمُ والإرادةُ والحياةُ .

والصفاتُ لا تقومُ بنفسِها دونَ الموصوفِ ؛ فلهـٰذا لمْ يشاهدْ غيرَ المعنَى الحاملِ للصفاتِ المشهودِ أثرُها في الأعضاءِ والجوارحِ ، فظهرَ صحَّةُ رؤيةِ الرائي الإنسانَ واحداً وهوَ ذو أجزاءٍ كثيرةٍ .

ومثلُ هـٰذا قدْ يعتري الداخلينَ على الملوكِ ، والمحبينَ معَ منْ قدْ شُغِفُوا بهِ مِنَ المخلوقينَ .

والأمثالُ غيرُ هـٰذا كثيرةٌ مِنْ هـٰذا المعنىٰ ، وأرجُو ألَّا يُحتاجَ إليها معَ هـٰذا الوضوحِ ، ولَا فهمَ إلَّا باللهِ تعالىٰ ، ولا شرحَ إلَّا منهُ ، ولا نورَ إلَّا مِنْ عندِهِ ، ولهُ الحولُ والقوَّةُ ، وهوُ العليُّ العظيمُ .

فَصْل

[في معنىٰ : إفشاء سرّ الرّبوبيّة كفر]

وأمَّا معنىٰ إفشاءُ سرِّ الربوبيَّةِ كفرٌ . . فيُخرَّجُ علىٰ وجهينِ :

* **أحدُهُما** : أنْ يكونَ المرادُ بِهِ كفراً دونَ كفرٍ ، ويُسمَّىٰ بذٰلكَ تغليظاً لِمَا أتىٰ بِهِ المُفْشِي ، وتعظيماً لِمَا ارتكَبَهُ .

ويُعترضُ هٰذا بأنْ يقالَ : لا يصحُّ أنْ يُسمَّىٰ هٰذا كفراً ؛ لأنَّهُ ضدُّ الكفرِ ؛ إذِ الكافرُ الذي سُمِّيَ هٰذا علىٰ معناهُ ساترٌ ، وهٰذا المُفشِي للسرِّ ناشرٌ ، وأينَ النشرُ مِنَ السترِ ، والإظهارُ مِنَ التغطيةِ ، والإعلانُ مِنَ الكتمِ ؟

واندفاعُ هٰذا هيِّنٌ بأنْ يقالَ : ليسَ الكفرُ الشرعيُّ تابعاً للاشتقاقِ ، وإنَّما هوَ حكمٌ لمخالفةِ الأمرِ ، وارتكابِ النهيِ ، فمَنْ ردَّ إحسانَ محسنٍ ، أوْ جحدَ نعمةَ متفضِّلٍ . . فيقالُ لهُ : كافرٌ ؛ لجهتينِ : **إحداهُما** مِنْ جهةِ الاشتقاقِ ، ويكونُ إذْ ذاكَ اسماً ينبئُ عنْ وصفٍ ، **والثانيةُ** : مِنْ جهةِ الشرعِ ، ويكونُ إذْ ذاكَ حكماً يوجبُ عقوبةً ، والشرعُ قدْ وردَ بشكرِ المنعمِ .

فافهَمْ ، لا تذهبْ معَ الألفاظِ ، ولا تستزلَّكَ العباراتُ ، ولا تحجبْكَ التسمياتُ ، وتفطَّنْ لخداعِها ، واحترسْ مِنِ استدراجِها .

فإذاً ؛ مَنْ أظهرَ ما أُمرَ بكتمِهِ . . كانَ كمَنْ كتمَ ما أُمرَ بنشرِهِ ، وفي مخالفةِ الأمرِ فيهما حكمٌ واحدٌ علىٰ هٰذا الاعتبارِ .

ويدلُّ علىٰ ذٰلكَ مِنْ جهةِ الشرعِ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ »[1] ، وفي ارتكابِ النهيِ عصيانٌ ، ويُسَمَّىٰ في بابِ القياسِ على المذكورِ : كفراناً .

* **والوجهُ الثاني** : أنْ يكونَ معناهُ كفراً للسامعِ لا للمخبرِ ، بخلافِ الوجهِ الأولِ ، ويكونُ هٰذا مطابقاً لحديثِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟! » .

فمَنْ حدّثَ أحداً بما لمْ يصِلْهُ عقلُهُ . . ربَّما سارعَ إلى التكذيبِ ، **وهوَ الأكثرُ** ، ومَنْ كذَّبَ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ أوْ بما أوجدَ بها . . فقدْ كفَرَ ولوْ لمْ يقصدِ الكفرَ :

فإنَّ أكثرَ اليهودِ والنصارىٰ وسائرِ النِحَلِ ما قصدَتِ الكفرَ ، ولا تظنُّهُ بأنفسِها ، وهُمْ كفارٌ بلا ريبٍ ، وهٰذا وجهٌ واضحٌ قريبٌ .

ولا تلتفتْ إلىٰ ما مالَ إليهِ بعضُ مَنْ لا يعرفُ وجوهَ التأويلِ ، ولا يعقلُ كلامَ أُولِي الحِكَمِ والراسخينَ في العلمِ ، حينَ ظنَّ أنَّ قائلَ ذٰلكَ أرادَ الكفرَ الذي هوَ نقيضُ الإيمانِ والإسلامِ ، يتعلقُ بمخبرِهِ ويلحقُ قائلَهُ ، **وهٰذا لا يُخرَّجُ إلَّا علىٰ مذاهبِ أهلِ الأهواءِ ، الذينَ يكفِّرونَ بالمعاصِي ، وأهلُ السنَّةِ لا يرضَوْنَ بذٰلكَ .**

وكيفَ يقالُ لمَنْ آمنَ باللهِ ورسولِهِ واليومِ الآخرِ ، وعبَدَ اللهَ بالقولِ الذي ينزِّهُهُ بِهِ ، والعملِ الذي يقصِدُ بِهِ التعبُّدَ

---

(١) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٨١٩٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٣١) مرفوعاً بنحوه .

لوجهِهِ ، والفكرِ الذي يستزيدُ بهِ إيماناً ، والمعرفةِ لهُ سبحانَهُ ، ثمَّ يكرمُهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ ذٰلكَ بفوائدِ المزيدِ ، ويُنيلُهُ ما شَرُفَ مِنَ المِنَحِ ، ويُريهِ أعلامَ الرضا ، ثمَّ يكفِّرُهُ أحدٌ بغيرِ شرعٍ ولا قياسٍ عليهِ ، والإيمانُ لا يخرجُ عنهُ إلَّا بنبذِهِ واطِّراحِهِ وتركِهِ ، واعتقادِ ما لا يتمُّ الإيمانُ معَهُ ، ولا يحصلُ بمقارنتِهِ ؟!

❁ ❁ ❁

وليسَ في إفشاءِ الوليِّ شيءٌ ممَّا يناقضُ الإيمانَ ، اللهُمَّ ؛ إلَّا أنْ يُريدَ بإفشائِهِ وقوعَ الكفرِ مِنَ السامعِ لهُ ، فهٰذا عاتٍ ، متمرِّدٌ ، وليسَ بوليٍّ ، ومَنْ أرادَ مِنْ خلقِ اللهِ أنْ يكفرُوا باللهِ تعالىٰ . . فهوَ لا محالةَ كافرٌ ، وعلىٰ هٰذا يُخرَّجُ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

ثمَّ إنَّهُ مَنْ سبَّ أحداً منهُمْ علىٰ معنىً ما يجدُ لهُ مِنَ العداوةِ والبغضاءِ . . قيلَ لهُ : أخطأْتَ وأثِمْتَ مِنْ غيرِ تكفيرٍ ، وإنْ كانَ إنَّما فعلَ ذٰلكَ ليسمعَ سبَّ اللهِ تعالىٰ أوْ سبَّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فهوَ كافرٌ بالإجماعِ .

سُؤَالٌ

[ما معنىٰ : للإلٰهيَّةِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلتِ النبوَّةُ ؟]

فإنْ قيلَ : فما معنىٰ قولِ سهلٍ رحمَهُ اللهُ تعالى الذي نُسِبَ إليهِ : (للإلٰهيةِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلتِ النبوَّةُ ، وللنبوَّةِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلَ العلمُ ، وللعلمِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلتِ الأحكامُ)[1] . وجاءَ في « الإحياءِ » علىٰ أثرِ هٰذا القولِ : وقائلُ هٰذا إنْ لمْ يُرِدْ بهِ بطلانَ النبوَّةِ في حقِّ الضعفاءِ . . فما قالَهُ ليسَ بحقٍّ ؛ فإنَّ الصحيحَ لا يتناقضُ ، والكاملُ مَنْ لا يطفئُ نورُ معرفتِهِ نورَ ورعِهِ . وهٰذا وإنْ لمْ يكنْ مِنَ الأسئلةِ المرسومةِ . . فهوَ متعلقٌ منها بما فُرِغَ مِنَ الكلامِ فيهِ آنفاً وناظرٌ إليهِ ؛ إذْ ما أدىٰ إفشاؤُهُ إلىٰ بطلانِ النبوَّةِ والأحكامِ والعلمِ . . فهوَ كفرٌ .

والجوابُ : أنَّ الذي قالَهُ رحمَهُ اللهُ وإنْ كانَ مستعجماً في الظاهرِ . . **فهوَ قريبُ المسلَكِ ، بادِي الصحَّةِ للمتأمِّلِ الذي يعرفُ مصادرَ أغراضِهِمْ ، ومسالِكَ أقوالِهِمْ** .

وسرُّ الإلٰهيةِ الذي بمعرفتِهِ يستحقُّ النبوَّةَ مَنْ وصلَ إليهِ . . **اليقينُ الذي لولاهُ لمْ يكنْ نبيّاً** . . لا يخلُو :

إمَّا أنْ يكونَ انكشافُهُ مِنَ اللهِ بما يطلعُ على القلوبِ مِنَ الأنوارِ التي كانتْ غائبةً عنها ؛ بأنْ كانتِ القلوبُ ضعيفةً طرأَ عليها مِنَ الدهشِ والاصطلامِ والحيرةِ والتِّيهِ ما يبهرُ العقولَ ، ويُفْقِدُ الحسَّ ، ويقطعُ عَنِ الدنيا وما فيها ، وذٰلكَ لضعفِهِ .

ومَنِ انتهىٰ إلىٰ هٰذهِ الحالةِ . . فتبطلُ النبوَّةُ في حقِّهِ أنْ يعرفَها ، أوْ يعقلَ ما جاءَ مِنْ قِبَلِها ؛ إذْ قدْ شغلَهُ عنها ما هوَ أعظمُ لديهِ منها ، وربَّما كانَ ذٰلكَ سببَ موتِهِ لعجزِهِ عَنْ حملِ ما يطرأُ عليهِ .

كما حُكيَ أنَّ شابّاً مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ عرضَ عليهِ أبو يزيدَ ولمْ يرهُ مِنْ قبلُ ، فلمَّا نظرَ إليهِ الشابُّ . . ماتَ مِنْ ساعتِهِ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : إنَّهُ كانَ في صدرِهِ أمرٌ لمْ تنكشفْ لهُ حقيقتُهُ ، فلمَّا رآني . . انكشفَ لهُ ، وكانَ في مقامِ الضعفاءِ مِنَ المريدينَ ، فلمْ يطقْ حملَهُ فماتَ بهِ .

---

(١) انظر « قوت القلوب » (٢/٩٠) .

وإمَّا أنْ يكونَ انكشافُهُ مِنْ عالِمٍ بهِ على جهةِ الخبرِ عنهُ . . فتبطلُ النبوَّةُ في حقِّ المخبرِ ، حيثُ نُهِيَ عَنِ الإفشاءِ فأفشىٰ ، وأُمِرَ ألَّا يتحدثَ فلمْ يفعلْ ، فخرجَ بهٰذِهِ المعصيةِ عَنْ طاعةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيها ؛ **فلهٰذا قيلَ في ذٰلكَ : بطلتِ النبوَّةُ في حقِّهِ بإخبارِهِ** .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلِمَ لا تكفرُوهُ علىٰ هٰذا الوجهِ إذ بطلتِ النبوةُ في حقِّهِ بإخبارِهِ ؟ **قلنا** : لمْ يبطلْ في حقِّهِ جميعُها ، وإنَّما بطلَ في حقِّهِ منها ما خالفَ الأمرَ الثابتَ مِنْ قِبلها ، ويعدُّ هٰذا مِنَ الكلامِ إغلاءً وتغليظاً لحقِّ الإفشاءِ ، وقدْ سبقَ الكلامُ عليهِ في معنىٰ (إفشاءُ سرِّ الربوبيّةِ كفرٌ) .

وأمَّا سرُّ النبوَّةِ الذي أوجبَ بطلانَ العلمِ لمَنْ رُزِقَها ، أوْ رُزِقَ معرفتَها على الجملةِ ؛ إذِ النبوةُ لا يعرفُها بالحقيقةِ إلا نبيٌّ :

فإنِ انكشفَ ذٰلكَ لقلبِ أحدٍ . . بطلَ العلمُ في حقِّهِ باعتبارِ المحبَّةِ لهُ بالأمرِ المتوجِّهِ عليهِ بطلبِهِ ، والبحثِ عنهُ والتفكُّرِ فيهِ ، فيكونُ كالنبيِّ إذا سُئِلَ عَنْ شيءٍ أوْ وقعَتْ لهُ واقعةٌ . . لمْ يَحْتَجْ إلى النظرِ فيها ، ولا إلى البحثِ عنها ، بلْ ينتظرُ ما عُوِّدَ مِنْ كشفِ الحقائقِ بإخبارِ ملَكٍ ، أوْ ضربِ مثلٍ يفهمُ عنهُ ، أوِ اطلاعٍ على اللوحِ المحفوظِ ، أوْ إلقاءٍ في رُوعٍ ، فيعودُ ذٰلكَ أصلاً في العلمِ ، ونسخاً لهُ ، ومعنىً يقيسُ عليهِ غيرَهُ .

وأمَّا إنْ كانَ انكشافُهُ بخبرٍ ممَّنْ رُزِقَ علمَ ذٰلكَ . . كانَ بطلانُ العلمِ في حقِّ المخبِرِ ؛ إذْ أفشاهُ لغيرِ أهلِهِ ، وأهداهُ لمَنْ لا يستحقُّهُ .

كما رُوِيَ أنَّ عيسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ قالَ : (لا تعلِّقُوا الدرَّ في أعناقِ الخنازيرِ)[1] ، وإنَّما أرادَ ألَّا يباحَ العلمُ لغيرِ أهلِهِ .

وقدْ جاءَ : (لا تمنعُوا الحكمةَ أهلَها فتظلمُوهُمْ ، ولا تضعُوها عندَ غيرِ أهلِها فتظلمُوها)[2]

وأمَّا سرُّ العلمِ الذي يُوجبُ كشفُهُ بطلانَ الأحكامِ :

فإنْ كانَ كشفُهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ لقلوبٍ ضعيفةٍ . . بطلتِ الأحكامُ في حقِّها ؛ لِمَا تطَّلعُ عليهِ في ذٰلكَ السرِّ مِنْ معرفةِ مآلِ الأشياءِ ، وعواقبِ الخلقِ ، وكشفِ أسرارِ العبادِ ، وما بطنَ مِنَ المقدورِ .

فمنْ عرفَ نفسَهُ مثلاً أنَّهُ مِنْ أهلِ الجنَّةِ . . لمْ يصلِّ ، ولمْ يصمْ ، ولمْ يتعبْ نفسَهُ في خيرٍ .

وكذٰلكَ لوِ انكشفَ لهُ أنَّهُ مِنْ أهلِ النارِ . . كَمُلَ انهماكُهُ ، فلا يحتاجُ إلىٰ تعبٍ زائدٍ ، ولا نصبٍ يكابدُهُ .

فلوْ عرفَ كلُّ أحدٍ عاقبتَهُ ومآلَهُ . . بطلتِ الأحكامُ الجاريةُ عليهِ .

وإنْ كانَ كشفُها مِنْ مخبرٍ . . استروحَ الضعيفُ إلىٰ ما يسمعُ مِنْ ذٰلكَ ، فيتعطلُ وينخرمُ حالُهُ ، وينحلُّ قيدُهُ .

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/٣٥٥ ـ ٣٥٦) مرفوعاً ، وروى ابن ماجه (٢٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب » .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/٦٣) من كلام سيدنا عيسىٰ عليه السلام .

وبعدَ هـٰذا فلا يُحملُ كلامُ سهلٍ رحمهُ اللهُ إلَّا علىٰ ما يُقدَّرُ ، لا علىٰ ما يوجدُ ، ولذٰلكَ جعلَهُ مقروناً بحرفِ (لوْ) الدالِّ على امتناعِ الشيءِ لامتناعِ غيرِهِ ، كما يقالُ :

لوْ كانَ للإنسانِ جناحانِ . . لطارَ ، ولوْ كانَ للسماءِ درجٌ . . لصُعِدَ إليها ، ولوْ كانَ البشرُ ملَكاً . . لفقدَ الشهوةَ .

فعلىٰ هـٰذا يخرَّجُ كلامُ سهلٍ رحمَهُ اللهُ في ظاهرِ العلمِ .

فَصْلٌ

[في عدم استنكار خطاب الجمادات]

وأمَّا خطابُ العقلاءِ للجماداتِ . . فغيرُ مستنكَرٍ ، فقديماً ندبَ الناسُ الديارَ ، وسألُوا الأطلالَ ، واستخبَرُوا الآثارَ ، وقدْ جاءَ في أشعارِ العربِ وكلامِها مِنْ ذٰلكَ كثيرٌ .

وفي حديثِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اسْكُنْ حِراءُ ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شهِيدَانِ »[1]

وقالَ بعضُهُمْ : سلِ الأرضَ تخبرْك عمَّنْ شقَّ أنهارَها ، وفجَّرَ بحارَها ، وفتقَ أهواءَها ، ورتقَ أجواءَها ، وأرسىٰ جبالَها ، إنْ لمْ تجبْكَ حِواراً . . أجابتْكَ اعتباراً .

وإنَّما الذي يتوقفُ على الأذهانِ ، ويتحيرُ في قبولِهِ السامعونَ ، وتتعجبُ منهُ أُولو العقولِ ، هوَ كيفيَّةُ كلامِ الجماداتِ والحيواناتِ الصامتاتِ ، ففي هـٰذا وقعَ الإنكارُ ؛ واضطربَ النظَّارُ ، وكذَّبَ تصحيحَ وجودِهِ ذوو السمعِ مِنْ أهلِ الاعتبارِ .

❀ ❀ ❀

ولـٰكنْ لتعلمْ أنَّ تلقي الكلامِ للعقلاءِ ممَّنْ لمْ يُعهَدْ فيهِ في المشهورِ يكونُ علىٰ جهاتٍ :

* **مِنْ ذٰلكَ** : **سماعُ الكلامِ الذاتيِّ** ، كما يُتلقَّىٰ مِنْ أهلِ النطقِ إذا قصدُوا إلىٰ نظمِ اللفظِ ، وذٰلكَ أكثرُ ما يكونُ للأنبياءِ والرسلِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ أجمعينَ في بعضِ الأوقاتِ ؛ كحنينِ الجذعِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] ، وكانَ بمكَّةَ حَجَرٌ يسلِّمُ عليهِ في طريقِهِ قبلَ مبعثِهِ[3]

* **ومنها : تلقِّي الكلامِ في حسِّ السامعِ** ، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لهُ وجودٌ في خارجِ الحسِّ ، ويعتري هـٰذا في سائرِ الحواسِّ ؛ كمثْلِ ما يسمعُ النائمُ في منامِهِ ؛ مِنْ مثالِ شخصٍ ومِنْ غيرِ مثالٍ .

والمثالُ المرئيُّ للنائمِ ليسَ لهُ وجودٌ في غيرِ حاسَّةِ بصرِهِ ؛ كالصوتِ الذي يسمعُهُ منهُ ليسَ لهُ وجودٌ في غيرِ حاسَّةِ سمعِهِ .

وأمَّا ما يجدُهُ غيرُ النائمِ في اليقظةِ : **فمنها خاصَّةٌ ، وعامَّةٌ .**

فالعامَّةُ تشهدُ بصحَّةِ الخاصَّةِ ؛ كما جاءَ في الحديثِ عَنْ قتلِ اليهودِ في آخرِ الزمانِ : « أَنَّ الْحَجَرَ يُنَادِي الْمُسْلِمَ :

---

(١) رواه مسلم (٢٤١٧) ، وفيه (أو شهيد) بدل (أو شهيدان) .

(٢) كما رواه البخاري (٣٥٨٣) .

(٣) كما رواه مسلم (٢٢٧٧) .

يَا مُسْلِمُ ؛ خَلْفِي يَهُودِيٌّ فَاقْتُلْهُ »[1] ، فإمَّا أنْ يخلُقَ[2] اللهُ تعالىٰ للحجرِ حياةً ونطقاً ، ويُذهبَ عنهُ معنى الحجريَّةِ ، أوْ يوكِّلَ بالحجرِ مَنْ يتكلَّمُ عنهُ ممَّنْ يُستَرُ عَنِ الأبصارِ في العادةِ مِنَ الملائكةِ أوِ الجنِّ ، أوْ يكونَ كلاماً يخلقُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في أذنِ السامعِ ؛ ليفيدَهُ العلمَ باختفاءِ اليهوديِّ حتَّىٰ يقتلَهُ .

وكما يقالُ في العرضِ الأكبرِ إذا نُودِيَ فيهِ باسمِ كلِّ واحدٍ على الخصوصِ ، وفي الخلائقِ مثلُ اسمِ المنادَىٰ كثيرٌ ، وقدْ قالتِ العلماءُ رحمَهُمُ اللهُ : (إنهُ لا يسمعُ النداءَ في ذٰلكَ الجمعِ إلَّا مَنْ نُودِيَ) فيُحتملُ أنْ يكونَ ذٰلكَ النداءُ يُخلقُ للمنادَىٰ في حاسَّةِ أذنِهِ ؛ ليتحرَّكَ إلى الحسابِ وحدَهُ دونَ مَنْ يشاركهُ في اسمِهِ ، ولا يكونُ نداءً مِنْ خارجٍ ، **والأمثلةُ كثيرةٌ في الشرعِ ، وفيما سمعتَ غُنْيَةٌ ومَقْنَعٌ** .

* **ومنها : تلقِّي الكلامِ في العقلِ** ، وهوَ المستفادُ بالمعرفةِ ، المسموعُ بالقلبِ ، المفهومُ بالتقديرِ عَنِ اللفظِ المسمَّىٰ بلسانِ الحالِ ، كما قالَ قيسٌ[3] : [من الطويل]

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبادِ حِينَ رأيتُهُ ... وكَبَّرَ للرَّحْمَٰنِ حِينَ رآنِي

فَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ الَّذِينَ عَهِدْتُّهُمْ ... حَوَالَيْكَ فِي عَيْشٍ وخَفْضِ زَمانِ

فَقَالَ مَضَوْا واسْتَوْدَعُونِي بِلادَهُمْ ... وَمَنْ ذا الَّذِي يبقَىٰ عَلَى الحَدَثانِ

وفي أمثالِ العوامِّ : (قالَ الحائطُ للوتدِ : لِمَ تشقُّنِي ؟ فقالَ الوتدُ للحائطِ : سلْ مَنْ يدقُّنِي) .

فلوْ كانتِ العبارةُ تتأتَّىٰ منهُما . . ما عبَّرَتْ إلَّا بما قدِ استُعِيرَ لهُما .

وعلىٰ هٰذا المعنىٰ حملَ كثيرٌ مِنَ العلماءِ رحمَهُمُ اللهُ قولَهُ تعالىٰ إخباراً عَنِ السماءِ والأرضِ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

* **ومنها : تلقِّي الكلامِ في الخيالِ** ؛ مثلُ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطَوَانِيَّتَانِ يُلَبِّي وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ لَهُ : لَبَّيْكَ يَا يُونُسُ »[4]

فقولُهُ : « كأنِّي أنظرُ » يدلُّ علىٰ أنَّهُ تخيلَ حالةً سبقَتْ لمْ يكنْ لها في الخيالِ وجودٌ ذاتيٌّ ؛ لأنَّ يونسَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ قدْ ماتَ ، وتلكَ الحالةُ منهُ قدْ سلفَتْ ، وفي هٰذا الحديثِ إخبارٌ عَنِ الوجودِ الخياليِّ في البصرِ ، والوجودِ الخياليِّ في السمعِ .

* **ومنها : تلقِّي الكلامِ بالشَّبَهِ** ، وهوَ أنْ يسمعَ السامعُ كلاماً أوْ صوتاً مِنْ شخصٍ حاضرٍ ، فيُلقَىٰ عليهِ شبهُ غيرِهِ ممَّا غابَ عنهُ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في صوتِ أبي موسَى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُ إذْ سمعَهُ يترنَّمُ بالقرآنِ : « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ »[5]

---

(١) رواه البخاري (٢٩٢٦) ، ومسلم (٢٩٢٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) في النسخ : (فإن لم يخلق) ، والمثبت من هامش (ذ) .

(٣) هو قيس بن الملوح ، والأبيات في « ديوانه » (ص ٢٨٣) ، و(**التوباد**) : جبل من جبال نجد يقع في مكان يسمى الغيل .

(٤) رواه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٤٨٤٨) .

(٥) رواه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) .

ومزاميرُ آلِ داوودَ قدْ عُدِمَتْ وذهبَتْ ، وإنَّما شبَّهَ صوتَهُ بها .

وكما إذا سمعَ المريدُ صوتَ مزمارٍ ، أوْ عودٍ فجأةً علىٰ غيرِ قصدٍ . . يتخيلُ صريرَ أبوابِ الجنَّةِ ويشبّهُها بما فجَأَ صوتُهُ مِنْ ذٰلكَ .

فهٰذهِ مراتبُ الوجودِ ، فأنتَ إذا أحسنْتَ التصرفَ بينَ إثباتِها ، ولمْ يعترِكَ غلطٌ في بعضِها ببعضٍ . . **لمْ تلتبسْ عليكَ ، ولا اشتبهَتْ عليكَ** ، وسمعْتَ عمَّنْ نظرَ بمشكاةِ نورِ اللهِ تعالىٰ إلى الكاغَدِ وقدْ رآهُ اسْوَدَّ وجهُهُ بالحبرِ ؛ فقالَ لهُ : ما بالُ وجهِكَ وكانَ أبيضَ مشرقاً مونقاً ، والآنَ قدْ ظهرَ عليهِ السوادُ ، فلِمَ سوَّدْتَ وجهَكَ ؟

فقالَ الكاغَدُ : ما أنصفْتَنِي في هٰذهِ المطالبةِ ؛ فإنّي ما سوَّدْتُ وجهِي بنفسِي ، ولٰكنْ سَلِ الحبرَ ؛ فإنَّهُ كان مجموعاً في المحبرَةِ التي هيَ مستقرُّهُ ووطنُهُ ، فسافرَ عَنِ الوطنِ ، ونزلَ بساحةِ وجهِي ظلماً وعدواناً ، فقالَ : صدقْتَ .

ثمَّ أنتَ إذا سمعْتَ أمثالَ هٰذهِ المراجعاتِ . . **أَعْمِلِ الفكرَ ، وجدِّدِ النظرَ ، وحُلَّ الكلامَ إلىٰ جملةِ أجزائِهِ التي انتظمَ منها جملةُ ما بلغكَ .**

فسَلْ عَنْ معنَى الناظرِ ، ومعنَى المشكاةِ ، ومعنَىٰ نورِ اللهِ سبحانَهُ ، وما سببُ أنْ لمْ يعرفِ الناظرُ الكتابةَ والمكتوبَ ، وبأيِّ لسانٍ خاطبَ الكاغَدَ ، وكيفَ خاطبَهُ الكاغَدُ وهوَ ليسَ مِنْ أهلِ النطقِ ، وفيماذا صدَّقَ الناظرُ الكاغَدَ ، ولمَ صدَّقَهُ بمجرّدِ قولِهِ دونَ دليلٍ ولا شاهدٍ ؟

فسيبدُو لكَ ها هنا أنَّ الناظرَ هوَ ناظرُ القلبِ ، فيما أوردَهُ عليهِ الحسُّ ، والمشكاةُ استعارةٌ نُقِلَتْ مِنْ مشكاةِ الزجاجةِ التي أُعدَّتْ لسراجِ النارِ إلىٰ حيّزِ المعرفةِ الملقَّبِ بسرِّ القلبِ ، تشبيهاً بها ؛ لأنها مسرجةُ الربِّ سبحانَهُ وتعالىٰ يشعلُها بنورِهِ .

ونورُهُ المذكورُ ها هنا عبارةٌ عَنْ صفاءِ الباطنِ ، واشتعالِ السرِّ بطلوعِ نيّراتِ كواكبِ المعارفِ المُذْهِبَةِ ـ بإذنِ اللهِ تعالىٰ ـ ظُلَمَ جهالاتِ القلوبِ ، ووجهُ إضافتِهِ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ سبيلِ الإشارةِ بالذكرِ لأجلِ التخصيصِ بالشرفِ .

والكاغَدُ والحبرُ كنايةٌ عنْ أنفسِهما لا عَنْ غيرِهما ، وجعلَهُما اللهُ عزَّ وجلَّ مبدأَ طريقِهِ ، وأولَ سلوكِهِ ؛ إذْ هما في عالَمِ الملكِ والشهادةِ الذي هوَ محلُّ جملةِ الناظرِ في حالِ نظرِهِ .

وأمَّا سببُ أنْ لَمْ يعرفِ الكتابةَ والمكتوبَ . . فلأجلِ أنَّهُ كانَ أميّاً لا يقرأُ الكتابَ الصناعيَّ ، وإنَّما يرومُ معرفةَ قراءةِ الخطِّ الإلٰهيِّ ، الذي هوَ أبينُ وأدلُّ علىٰ ما يُفهَمُ منهُ .

وأمَّا مخاطبةُ الناظرِ للكاغَدِ وهوَ جمادٌ . . فقدْ سبقَ الكلامُ علىٰ مثلِهِ .

و[أما][1] مراجعةُ الكاغَدِ لهُ . . فعلىٰ قدرِ حالِ الناظرِ لهُ :

إنْ كانَ مراداً . . فيتلقَّى الكلامَ في الحسِّ بما ينبئُهُ عَنِ المطلوبِ مِنَ الحقِّ ، وهوَ مِنْ بابِ الإلقاءِ في الرُّوعِ ، فيودِعُهُ الحسَّ المشترَكَ المحفوظَ فيهِ على الإنسانِ صورُ الأشياءِ المحسوسةِ .

وإنْ كانَ مريداً . . فيتلقَّاه بلسانِ الحالِ المسموعِ بسمعِ القلبِ بواسطةِ المعرفةِ والعقلِ .

---

(١) ما بين معقوفين زيادة يقتضيها السياق ، والله أعلم .

وتصديقُ الناظرِ للكاغَدِ في عذرِهِ وإحالتُهُ على الحبرِ لمْ يكنْ بمجرَّدِ قولِهِ ، بلْ بشهادَةِ أُولي الرضا والعدلِ ، وهوَ البحثُ والتجربةُ ، وشهادةُ النفسِ ، وهاذا سبيلُكَ إلى اليدِ ، **وهوَ آخرُ ما سألَ عنهُ مِنْ أجزاءِ عالَمِ الملكِ** .

وأمَّا ما يسمعُهُ في حدِّ عالَمِ الجبروتِ ، وذلكَ مِنَ القدرةِ المحدثةِ إلى العقلِ والعلمِ الموجودينِ في الإنسانِ . . فمستقرُّهُ في القوَّةِ الوهميَّةِ المدركَةِ جميعَ ما لا يستدعِي وجودُهُ جسماً ، ولكنْ قدْ يعرضُ لهُ أنْ يكونَ في جسمٍ ، كما تُدركُ السخلةُ عداوةَ الذئبِ وعطفَ أمِّها ، فتتبعُ العطفَ ، وتنفرُ مِنَ العداوةِ .

وأمَّا ما يسمعُهُ في حدِّ عالمِ الملكوتِ ، وذلكَ مِنَ القلمِ الإلـٰهيِّ إلىٰ ما وراءَ ذلكَ ممَّا هوَ داخلٌ فيهِ ومعدودٌ منهُ . . فبسرِّ القلبِ الذي يأخذُ بهِ عَنِ الملائكةِ ، ويسمعُ بهِ ما بَعُدَ مكانُهُ ودقَّ معناهُ ، وعزبَ عَنِ القلوبِ مِنْ جهةِ الفكرِ تصوُّرُهُ .

فأمَّا أيُّ شيءٍ حقائقُ هـٰذهِ المذكوراتِ ؟ وما كُنْهُ كلِّ واحدٍ منها علىٰ نحوِ معرفتِكَ لأجزاءِ عالمِ الملكِ والشهادةِ ؟

فذلكَ مِنْ علمٍ لا يُنتفَعُ بسماعِهِ معَ عدمِ المشاهدَةِ .

واللهُ قدْ عرفكَ بأسمائِها ، فإنْ كنتَ مؤمناً . . فصدِّقْ بوجودِها على الجملةِ ؛ لِعِلْمِكَ أنكَ لا تُخْبَرُ بتسمياتٍ ليسَ لها مسمَّياتٌ ، إلىٰ أنْ يُلحقَكَ اللهُ بأُولي المشاهداتِ ، ويخصَّكَ بخالصِ الكراماتِ ، ومَنْ كفرَ . . فإنَّ اللهَ غنيٌّ حميدٌ .

فصل

[في بيان الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلـٰهيّ]

والفرقُ بينَ القلمِ المحسوسِ في عالمِ الملكِ وبينَ القلمِ الإلـٰهيِّ في عالمِ الملكوتِ :

أنَّ القلمَ المحسوسَ كما عقلتَهُ[1] مجسماً ، بطيءَ الحركةِ بالفعلِ ، سريعَ الانتقالِ بالهلاكِ ، مخلَّفاً عَنْ مثلِهِ في الظاهرِ ، مجعولاً تحتَ قهرِ سلطانِ الآدميِّ الضعيفِ الجاهلِ في أكثرِ أوقاتِهِ ، مصرَّفاً بينَ أحوالٍ متنافيةٍ ؛ كالعلمِ والجهلِ ، والعدلِ والظلمِ ، والظنِّ والشكِّ ، والصدقِ والإفكِ .

والقلمُ الإلـٰهيُّ عبارةٌ عنْ خلقٍ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ في عالمِ الملكوتِ ، مختصٌّ بخلافِ خصائصِ الجواهرِ الحسيَّةِ الكائنةِ في عالمِ الملكِ ، بريءٍ مِنْ أوصافِ ما سُمِّيَ بهِ القلمُ المحسوسُ كلِّها ، مصرفٍ بيمينِ الخالقِ بحكمِ إرادتِهِ علىٰ ما سبقَ بهِ علمُهُ في أزلِ الأزلِ ، وإنَّما سُمِّيَ بهـٰذا الاسمِ لأجلِ شبهِهِ بعملِ ما سُمِّيَ بهِ ، غيرَ أنَّهُ لا يكتبُ إلَّا حقّاً بحقٍّ .

والفرقُ بينَ يمينِ الآدميِّ ويمينِ اللهِ عزَّ وجلَّ :

أنَّ يمينَ الآدميِّ كما علمْتَ مركبةٌ مِنْ عصبٍ استعصَىٰ بقاؤُها ، وعضلٍ تعضُلُ أدواؤُها ، وعظامٍ يعظُمُ بلاؤُها ، ولحمٍ ممتدٍّ ، وجلدٍ غيرِ ذي جَلَدٍ ، موصولةٌ بمثلِها في الضعفِ والانفصالِ ، ملقَّبةٌ باليدِ ، وهيَ عاجزةٌ علىٰ كلِّ حالٍ .

---

(١) **قوله : (كما عقلته)** خبر (أنَّ) أي : كائن بالحال المعقولةِ لك سابقاً من نعته وعادته . انتهى هامش (ت ، ذ) .

ويمينُ اللهِ تعالىٰ هيَ عندَ بعضِ أهلِ التأويلِ : عبارةٌ عَنْ قدرتِهِ .

وعندَ بعضِهِمْ : عبارةٌ عَنْ صفةٍ للهِ تعالىٰ غيرِ القدرةِ ، وليسَتْ بجارحةٍ ولا جسمٍ .

وعندَ آخرينَ : عبارةٌ عَنْ خلقٍ للهِ تعالىٰ هيَ واسطةٌ بينَ القلمِ الإلـٰهيِّ الناقشِ للعلومِ المحدَثَةِ وغيرِها ، وبينَ قدرتِهِ التي هيَ صفةٌ لهُ ، صرفَ بها اليمينَ الكاتبةَ بالقلمِ المذكورِ بالخطِّ الإلـٰهيِّ المبثوثِ علىٰ صفحاتِ المخلوقاتِ الذي ليسَ بعربيٍّ ولا عجميٍّ ، يقرؤُهُ الأميونَ إذا شُرِحَتْ لهُ صدورُهُمْ ، ويستعجِمُ على القارئينَ إذا كانُوا عبيدَ شهواتِهِمْ ، ولمْ تشارِكْ يمينُ اللهِ يمينَ الآدميِّ إلَّا في بعضِ الاسمِ ؛ لأجلِ الشبهِ اللطيفِ الذي بينهُما في الفعلِ ، وتقريباً إلىٰ كلِّ ناقصِ الفهمِ ، عساهُ يعقلُ ما أُنزِلَ علىٰ رسلِ اللهِ تعالىٰ مِنَ الذكرِ .

فَصْلٌ

[في بيان حدّ عالَم الملك والملكوت والجبروت]

وحدُّ عالمِ الملكِ : ما ظهرَ للحواسِّ ، ويكونُ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ بعضُهُ مِنْ بعضٍ ، وصحبَهُ التغييرُ .

وحدُّ عالمِ الملكوتِ : ما أوجدَهُ اللهُ سبحانَهُ بالأمرِ الأزليِّ بلا تدريجٍ ، وبقيَ علىٰ حالةٍ واحدةٍ مِنْ غيرِ زيادةٍ فيهِ ولا نقصانٍ منهُ .

وحدُّ عالمِ الجبروتِ : هوَ ما بينَ العالمينِ ممَّا أشبهَ أنْ يكونَ في الظاهرِ مِنْ عالمِ الملكِ ، فجُبِرَ بالقدرةِ الأزليةِ بما هوَ مِنْ عالمِ الملكوتِ .

فَصْلٌ

[في بيان معنىٰ : إن الله خلق آدم علىٰ صورته]

ومعنىٰ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ) فذٰلكَ علىٰ ما جاءَ في الحديثِ عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، **وللعلماءِ فيهِ وجهانِ** :

* فمنهُمْ مَنْ يرىٰ للحديثِ سبباً ، وهوَ أنَّ رجلاً ضربَ وجهَ غلامِهِ ، فرآهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فنهاهُ وقالَ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[2] وتأوَّلُوا عودَ الضميرِ على المضروبِ .

وعلىٰ هـٰذا : لا يكونُ للحديثِ مدخلٌ في هـٰذا الموضعِ إنْ لمْ يَرِدْ موردٌ آخرُ في غيرِ هـٰذا الموطنِ ، ويكونُ الإيماءُ بهِ إلىٰ غيرِ هـٰذا المعنَى المذكورِ في السببِ الحادثِ ، وإثباتُهُ في غيرِ موطنِ ذٰلكَ السببِ المنقولِ ممَّا يعزُّ ويعسرُ ، فلنُبقِ السببَ علىٰ حالِهِ ، ولننظرْ في وجهٍ آخرَ للحديثِ غيرِ هـٰذا ممَّا يحتملُهُ ، ويحسنُ الاحتجاجُ بهِ في هـٰذا الموطنِ .

* **والوجهُ الآخرُ** : أنْ يكونَ الضميرُ الذي في (صورتِهِ) عائداً على اللهِ سبحانَهُ .

---

(١) كما رواه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

(٢) روى ابن حبان في « صحيحه » (٥٦٠٥) : « إذا ضرب أحدكم . . فليجتنب الوجه ؛ فإن الله خلق آدم على صورته » .

ويكونُ معنى الحديثِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورةٍ هيَ مضافةٌ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وهـٰذا العبدُ المضروبُ علىٰ صورةِ آدمَ ، فإذاً هـٰذا العبدُ المضروبُ على الصورةِ المضافةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ ينحصرُ بيانُ معنَى الحديثِ ويتوقفُ علىٰ بيانِ معنَىٰ هـٰذِهِ الإضافةِ ، وعلىٰ أيِّ جهةٍ تُحتمَلُ في الاعتقادِ العلميِّ على اللهِ سبحانَهُ ، **ففيها وجهانِ :**

أحدُهما : أنْ تكونَ إضافةَ ملكٍ للهِ تعالىٰ كما يضافُ إليهِ العبدُ والبيتُ والناقةُ ، واليمينُ علىٰ أحدِ الأوجُهِ .

والوجهُ الآخرُ : أنْ تكونَ إضافةَ **تخصيصٍ** بهِ عزَّ وجلَّ .

فمنْ حملها علىٰ إضافةِ الملكِ لهُ . . رأىٰ أنَّ المرادَ بـ (صورتِهِ) : هوَ العالمُ الأكبرُ بجملتِهِ ، وآدمُ مخلوقٌ علىٰ مضاهاةِ صورةِ العالمِ الأكبرِ ، لـٰكنَّهُ مختصرٌ صغيرٌ ؛ فإنَّ العالمَ إذا فُصِّلَتْ أجزاؤُه بالعلمِ ، وفُصِّلَتْ أجزاءُ آدمَ عليهِ السلامُ بمثلِهِ . . وجدْتَ أجزاءَ آدمَ عليهِ السلامُ مشابهةً للعالمِ الأكبرِ ، وإذا شابهَتْ أجزاءُ جملةٍ أجزاءَ جملةٍ أخرىٰ . . فالجملتانِ بلا شكٍّ متشابهتانِ .

فالذي نظرَ في تحليلِ صورةِ العالمِ الأكبرِ فقسَّمَهُ علىٰ أنحاءٍ مِنَ القسمةِ ، وقسَّمَ آدمَ عليهِ السلامُ كذٰلكَ . . فوجدَ كلَّ نحوينِ منهما يشتبهانِ .

فمِنْ ذٰلكَ أنَّ العالمَ انقسمَ قسمينِ : **أحدُ القسمينِ** : ظاهرٌ محسوسٌ ؛ كعالمِ الملكِ . **والثاني** : باطنٌ معقولٌ ؛ كعالمِ الملكوتِ .

والإنسانُ كذٰلكَ انقسمَ إلىٰ : **ظاهرٍ محسوسٍ** ؛ كالعظمِ واللحمِ والدمِ وسائرِ أنواعِ الجواهرِ المحسوسَةِ ، **وإلىٰ باطنٍ** معقولٍ ؛ كالروحِ والعقلِ ، والعلمِ والإرادةِ ، والقدرةِ وأشباهِ ذٰلكَ .

وقسمةٌ أخرىٰ : وذٰلكَ أنَّ العالمَ قدِ انقسمَ بالعوالمِ إلىٰ : **عالمِ الملكِ** ؛ وهوَ الظاهرُ للحواسِّ ، **وإلىٰ عالمِ الملكوتِ** ؛ وهوَ الباطنُ في العقولِ ، **وإلىٰ عالمِ الجبروتِ** ؛ وهوَ المتوسِّطُ الذي أخذَ بطرفٍ مِنْ كلِّ عالَمٍ منها ، والإنسانُ كذٰلكَ انقسمَ إلىٰ ما يشابهُ هـٰذِهِ القسمةَ .

فالمشابهُ لعالمِ الملكِ : الأجزاءُ المحسوسَةُ وقدْ علمْتَها .

والمشابهُ لعالمِ الملكوتِ : فمثلُ الروحِ والعقلِ والقدرةِ والإرادةِ وأشباهِ ذٰلكَ .

والمشابهُ لعالمِ الجبروتِ : كالإدراكاتِ الموجودةِ بالحواسِّ ، والقُوَى الموجودةِ بأجزاءِ البدنِ .

وقسمةٌ أخرىٰ : وذٰلكَ أنَّ العالمَ إنْ حُلِّلَ إلىٰ ما عُلِمَ مِنْ أجزائِهِ بالاستقراءِ . . **فرأسُ الإنسانِ يشابهُ سماءَ العالمِ** ؛ مِنْ حيثُ إنَّ كلَّ ما علا فهوَ سماءٌ ، وحواسُّهُ تشابهُ الكواكبَ والنجومَ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ الكواكبَ أجسامٌ مشِفَّةٌ تستمدُّ مِنْ نورِ الشمسِ فتضيءُ بها .

والحواسُّ أجسامٌ لطيفةٌ مُشِفَّةٌ تستمدُّ مِنَ الروحِ ، فتضيءُ بذٰلكَ المدركاتِ .

وروحُ الإنسانِ مشابهةٌ للشمسِ ؛ فضياءُ العالمِ ، ونموُّ نباتِهِ ، وحركةُ حيوانِهِ وحياتُهُ فيما يظهرُ . . بتلكَ الشمسِ .

وكذٰلكَ روحُ الإنسانِ بهِ حصلَ في الظاهرِ نموُّ أجزاءِ بدنِهِ ، ونباتُ شعرِهِ ، وخلقُ حيوانِهِ ؛ وجُعلتِ الشمسُ وسطَ

العالمِ ، وهيَ تطلعُ بالنهارِ ، وتغربُ بالليلِ ، وجُعلتِ الروحُ وسطَ جسمِ الإنسانِ ، وهيَ تغربُ بالنومِ ، وتطلعُ باليقظةِ .

ونفسُ الإنسانِ تشابهُ القمرَ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ القمرَ يستمدُّ مِنَ الشمسِ ، ونفسُهُ تستمدُّ مِنَ الروحِ ، والقمرُ خالفَ الشمسَ ، والنفسُ خالفتِ الروحَ ، والقمرُ آيةٌ ممحوَّةٌ ، والنفسُ مثلُها ، ومَحْوُ القمرِ في ألَّا يكونَ ضياؤُه منهُ ، ومَحْوُ النفسِ في أنَّهُ ليسَ عقلُها منها .

ويعتري الشمسَ والقمرَ وسائرَ الكواكبِ كسوفٌ ، ويعتري النفسَ والروحَ وسائرَ الحواسِّ غيبٌ وذهولٌ .

وفي العالمِ نباتٌ ومياهٌ ورياحٌ وجبالٌ وحيوانٌ ، وفي الإنسانِ نباتٌ ؛ وهوَ الشعرُ ، ومياهٌ ؛ وهوَ العرقُ والدموعُ والريقُ والدمُ ، وفيهِ جبالٌ ؛ وهيَ العظامُ ، وحيوانٌ ؛ وهيَ هوامُّ الجسمِ ، فحصلتِ المشابهةُ علىٰ كلِّ حالٍ .

ولمَّا كانتْ أجزاءُ العالمِ كثيرةً ، ومنها ما هيَ لنا غيرُ معروفةٍ ولا معلومةٍ . . كانَ في استقصاءِ مقابلةِ جميعِها تطويلٌ ، وفيما ذكرناهُ ما يحصلُ بهِ لذوي العقولِ تشبيهٌ وتمثيلٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : أراكَ فرقْتَ بينَ النفسِ والروحِ ، وجعلتَ كلَّ واحدٍ منهما غيرَ الآخرِ ، وهـٰذا قلَّما تُساعَدُ عليهِ ؛ إذْ قدْ كثرَ الخلافُ في ذٰلكَ .

فاعلمْ : أنَّهُ إنَّما على الإنسانِ أنْ يبنيَ كلامَهُ علىٰ ما يعلمُ ، لا علىٰ ما يجهلُ سواهُ ، وأنتَ لوْ علمْتَ النفسَ والروحَ . . علمْتَ أنَّهما اثنانِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ سبقَ في « الإحياءِ » أنَّهما شيءٌ واحدٌ ، وقلتَ في هـٰذهِ الإجابةِ : إنَّ النفسَ ليسَ مِنْ أسماءِ الروحِ ، فالذي سبقَ في « الإحياءِ » ورأيتَ في هـٰذهِ الإجابةِ هوَ شيءٌ واحدٌ . **قلنا** : ولا يتناقضُ ما قلناهُ الآنَ ، وذٰلكَ لأنَّ لها معنىً يُسمَّىٰ بالروحِ تارةً ، وبالنفسِ أخرىٰ ، وبغيرِ ذٰلكَ .

ثمَّ لا يبعدُ أنْ يكونَ لها معنىً آخرُ ينفردُ باسمِ النفسِ فقطْ ، ولا يُسمَّىٰ بروحٍ ولا بغيرِ ذٰلكَ ، فهـٰذا آخرُ الكلامِ في أحدِ وجهي الإضافةِ الذي هوَ في ضميرِ (صورتِهِ) .

والوجهُ الآخرُ : وهوَ أنَّ مَنْ حملَ إضافةَ الصورةِ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ معنَى التخصيصِ بهِ . . فذٰلكَ لأنَّ اللهَ سبحانَهُ أنبأَ بأنَّهُ : حيٌّ قادرٌ ، سميعٌ بصيرٌ ، عالمٌ مريدٌ ، متكلِّمٌ فاعلٌ ، وخلقَ آدمَ عليهِ السلامُ حيّاً قادراً ، سميعاً بصيراً ، عالماً مريداً ، متكلِّماً فاعلاً ، فكانَتْ لآدمَ عليهِ السلامُ صورةٌ محسوسَةٌ ، مكوَّنَةٌ مخلوقةٌ ، مقدرةٌ بالفعلِ ، وهيَ للهِ تعالىٰ مضافةٌ باللفظِ .

وذٰلكَ أنَّ هـٰذهِ الأشياءَ لمْ تجتمعْ معَ صفاتِ آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إلَّا في الأسماءِ التي هيَ عبارةٌ تُلفظُ فقطْ ، ولا يُفْهَمُ مِنْ ذٰلكَ نفيُ الصفاتِ ؛ فليسَ هوَ مرادَنا .

وإنَّما مرادُنا تباينُ ما بينَ الصورتينِ بأبعدِ وجوهِ الإمكانِ ، حتَّىٰ لمْ تجتمعْ معَ صفاتِ اللهِ تعالىٰ إلَّا في الأسماءِ الملفوظِ بها لا غيرُ ، وفراراً أنْ يُثبَتَ اسمُ صورةٍ للهِ تعالىٰ ، ويُطلقَ عليها حالةُ الوجودِ ، تعالى اللهُ عَنْ ذٰلكَ وتقدَّسَ .

فافهمْ هـٰذا ؛ فإنَّهُ مِنْ أدقِّ ما يقرعُ سمعَكَ ، ويلجُ قلبَكَ ، ويظهرُ لعقلِكَ .

ولهذا قيلَ لكَ : فإنْ كنتَ تعتقدُ الصورةَ الظاهرةَ المدرَكَةَ بالحواسِّ ، ومعناهُ : إنْ حملتَ إحدى الصورتينِ على الأخرىٰ في الوجودِ . . **تكنْ مشبّهاً مطلقاً** .

ومعناهُ : لتتيقَّنْ أنكَ مِنَ المشبّهينَ لا مِنَ المنزّهينَ ، فأقِرَّ علىٰ نفسكَ بالتشبيهِ معتقداً ، ولا تنكرْهُ كما قيلَ : كنْ يهودياً صِرْفاً ، وإلّا . . فلا تلعبْ بالتوراةِ ؛ أيْ : تتلبسُ بدينهِمْ وتريدُ ألَّا تُنسَبَ إليهِمْ ؛ وتعتكفُ علىٰ قراءةِ التوراةِ ولا تعملُ بها .

وإنْ كنتَ تعتقدُ الصورةَ الباطنةَ . . فكنْ منزّهاً مجلّاً ومقدِّساً مخلصاً ؛ أيْ : ليسَ تعتقدُ مِنَ الصورةِ المضافةِ في الضميرِ إلى اللهِ تعالىٰ إلّا الأسماءَ دونَ المعانِي ، وتلكَ المعانِي المسماةُ لا يقعُ عليها اسمُ صورةٍ علىٰ حالٍ .

وقدْ حُفِظَ عَنِ الشبليّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في معنَىٰ ما ذكرناهُ مِنْ هٰذا الوجهِ قولٌ بليغٌ مختصرٌ ، حينَ سُئلَ عَنْ معنَى الحديثِ فقالَ : **خلقَهُ اللهُ على الأسماءِ والصفاتِ ، لا على الذاتِ** .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : وكذا قالَ ابنُ قتيبةَ في كتابِهِ المعروفِ بـ « تناقضِ الحديثِ »[1] ، حينَ قالَ : (هوَ صورةٌ لا كالصورِ) فلِمَ أُخِذَ عليهِ في ذٰلكَ ، وأُقيمَتْ عليهِ الشناعَةُ بهِ ، واطُّرِحَ قولُهُ ، ولمْ يرضَهُ أكثرُ العلماءِ وأهلُ التحقيقِ ؟![2] . **فاعلمْ** : أنَّ الذي ارتكبَهُ ابنُ قتيبةَ عفا اللهُ عنهُ نحنُ أشدُّ إعراضاً عنهُ ، وأبلغُ في الإنكارِ عليهِ ، وأبعدُ الناسِ عَنْ تسويغِ قولِهِ ، وليسَ هوَ الذي ألْمَمْنا نحنُ بهِ ، وأفدناكَ بحولِ اللهِ وقوَّتِهِ إياهُ .

بلْ بدا لي منكَ أنكَ لمْ تفهَمْ غرضَنا ، وذهلْتَ عَنْ عقلِ مرادِنا ، حينَ لمْ تفرقْ بينَ قولِنا وبينَ ما قالَهُ ابنُ قتيبةَ .

أَلَمْ نخبرْكَ أنَّنا أَثْبَتْنا الصورةَ في التسمياتِ ، وهوَ أثبتَها في حالةٍ للذاتِ ، **فأينَ مِنَ الجوزاءِ ورقاءُ تنزعُ ؟!**

والذي يغلبُ على الظنِّ في ابنِ قتيبةَ رحمهُ اللهُ أنَّه لمْ تقرَعْ سمعَهُ هٰذهِ الدقائقُ التي أشَرْنا إليها ، وأخرجْناها إلىٰ حيِّزِ الوجودِ بتأييدِ اللهِ تعالىٰ بالعبارةِ عنها .

وإنَّما ظهرَ لهُ شيءٌ لمْ يكنْ لهُ بهِ إلْفٌ ، فتحيَّرَ وعلاهُ الدهشُ ، **فتوقَّفَ بينَ ظاهرِ الحديثِ الذي يُوجِبُ عندَ ذوي القصورِ تشبيهاً ، وبينَ التأويلِ الذي ينفيهِ** .

فأثبتَ المعنى المرغوبَ عنهُ ، وأزالَ نفيَ ما خافَ مِنَ الوقوعِ فيهِ ، فلَمْ يتأتَّ لهُ اجتماعُ ما رامَ ، ولا نظامُ ما افترقَ ، فقالَ : (هوَ صورةٌ لا كالصورِ) ، ولكلِّ ساقطةٍ لاقطةٌ ، فتبادَرَ الناسُ إلى الأخذِ عليهِ .

فَصْلٌ

[في بيان معنىٰ : فاطوِ الطريق ، فإنّك بالوادي المقدّس طُوىً]

ومعنىٰ (فاطوِ الطريقَ فإنَّكَ بالوادِي المقدَّسِ طوىً) أيْ : دُمْ علىٰ ما أنتَ عليهِ مِنَ البحثِ والطلبِ ؛ فإنَّكَ علىٰ هدايةٍ ورشدٍ .

---

(١) اختلف في اسم هٰذا الكتاب ، وهو مطبوع بعنوان « تأويل مختلف الحديث » ، انظر مقدمة كتاب « المعارف » لابن قتيبة (ص ٤٥)

(٢) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٦٦/١٦) ، و« فتح الباري » (١٨٣/٥) .

والوادِي المقدَّسُ : عبارةٌ عَنْ مقامِ الكليمِ موسىٰ عليهِ السلامُ معَ اللهِ تعالىٰ في الوادِي ، وإنَّما تقدَّسَ الوادِي بما أنزلَ اللهُ فيهِ مِنَ الذكرِ ، وسُمِعَ مِنْ كلامِ اللهِ تعالىٰ .

وأُقيمَ ذكرُ الوادِي مُقامَ ما حصلَ فيهِ ، فحذفَ المضافَ وأقامَ المضافَ إليهِ مُقامَهُ ، وإلَّا . . فالمقصودُ ما حُذِفَ لا ما ظَهَرَ بالقولِ ؛ إذِ المواضعُ لا تأثيرَ لها ، وإنَّما هيَ ظروفٌ .

فَصْلٌ

[في بيان معنىٰ : فاستمع بسرّ قلبك لما يوحىٰ]

ومعنَىٰ قولِهِ : (فاستمعْ بسرِّ قلبِكَ لِمَا يُوحَىٰ ، فلعلكَ تجدُ على النارِ هدىً ، ولعلكَ مِنْ سرادقاتِ المجدِ تُنادىٰ بما نُودِيَ بهِ موسىٰ : إنِّي أنا ربُّكَ) أيْ : فرِّغْ قلبكَ مِنَ السوىٰ لِمَا يَرِدُ عليكَ مِنْ فوائدِ المزيدِ ، ومواريثِ الصدقِ ، وثمارِ المعارفِ ، وأرباحِ سلوكِ الطريقِ ، وبشاراتِ قربِ الوصولِ .

و(**سرُّ القلبِ**) كما تقولُ : أذنُ الرأسِ ، وسمعُ الأذنِ .

و(**ما يُوحَىٰ**) أيْ : ما يَرِدُ مِنْ قبلِ اللهِ تعالىٰ بواسطةِ ملَكٍ ، أوْ إلقاءٍ في رُوعٍ ، أوْ مكاشفةٍ بحقيقةٍ ، أوْ ضربِ مثلٍ معَ العلمِ بتأويلِهِ .

ومعنَىٰ (**لعلَّكَ**) : حرفُ ترجٍّ ، ومعناهُ : إنْ لَمْ تدركْكَ آفةٌ تقطعُكَ عَنْ سماعِ الوحيِ ؛ مِنْ إعجابٍ بحالٍ ، أوْ إضافةِ دعوىً إلى النفسِ ، أوْ قنوعٍ بما وصلْتَ إليهِ ، واستبدادٍ بهِ عَنْ غيرِهِ .

و(**سرادقاتُ المجدِ**) : هيَ حجبُ الملكوتِ .

و(**ما نُودِيَ بهِ موسىٰ عليهِ السلامُ**) : هوَ علمُ التوحيدِ الذي وقعَتِ العبارةُ اللطيفةُ عنهُ بقولِهِ حينَ قالَ لهُ : (يا موسَىٰ ؛ إنِّي أنا اللهُ لَا إلـٰهَ إلَّا أنا فاعبدْنِي) .

والمنادىٰ باسمِهِ أزلاً وأبداً هوَ اسمُ موسىٰ ، لا اسمُ السالكِ ؛ لأنَّهُ الموجودُ في كلامِ اللهِ تعالىٰ في أزلِ الأزلِ قبلَ أنْ يُخلَقَ موسَىٰ لا إلىٰ أوَّلٍ ، وكلامُ اللهِ تعالىٰ صفةٌ لهُ ، فلا تتغيَّرُ إذاً كما لا يتغيَّرُ هوَ ؛ إذْ ليسَتْ صفاتُهُ المعنويةُ لغيرِهِ ، وهوَ الذي لا يحولُ ولا يزولُ .

وقدْ زلَّ قومٌ عظُمَ افتراؤُهُمْ حينَ حملُوا صدورَ هـٰذا القولِ على اعتقادِ اكتسابِ النبوَّةِ ، وعياذاً باللهِ تعالىٰ منْ أنْ يَحتمِلَ هـٰذا القولُ ما حكَوْهُ مِنَ المذهبِ السوءِ .

وهمْ يعرفونَ أنَّ كثيراً ممَّنْ يكونُ بحضرةِ ملِكٍ مِنْ ملوكِ الدنيا وهوَ يخاطِبُ إنساناً آخرَ قدْ ولَّاهُ ولايةً كبيرةً ، وفوَّضَ إليهِ عملاً عظيماً ، وحباهُ حِباءً خطيراً ، وهوَ يناديهِ باسمِهِ ويأمرُهُ بما يمتثلُ مِنْ أمرِهِ ، ثمَّ إنَّ السامعَ للملِكِ الحاضرَ معَهُ غيرَ المولَّىٰ لمْ يشاركِ المولَّىٰ والمخلوعَ عليهِ والمفوَّضَ إليهِ في شيءٍ ممَّا وُلِّيَ وأُعطِيَ ، ولمْ يجبْ لهُ بسماعِهِ ومشاهدتِهِ أكثرُ مِنْ حُظوةِ القربةِ ، وشرفِ الحضورِ ، ومنزلةِ المكاشفةِ مِنْ غيرِ وصولٍ إلىٰ درجةِ المخاطَبِ بالولايةِ ، والمفوَّضِ إليهِ الأمرُ .

وكذٰلكَ هـٰذا السالكُ المذكورُ إذا وصلَ في طريقِهِ ذٰلكَ ؛ بحيثُ يصلُ بالمكاشفةِ والمشاهدةِ واليقينِ التامِّ الذي

يُوجِبُ المعرفةَ والعلمَ بتفاصيلِ المعلومِ . . فلا يمتنعُ أنْ يسمعَ ما يُوحَىٰ لغيرِهِ مِنْ غيرِ أنْ يُقصدَ هوَ بذٰلكَ ؛ إذْ هوَ محلُّ سماعِ الوحيِ على الدوامِ ، وموضعُ الملائكةِ ، وكفىٰ بها أنَّها حضرةُ الربوبيَّةِ .

وموسىٰ عليهِ السلامُ لمْ يستحقَّ الرسالةَ والنبوَّةَ ، ولا استوجَبَ التكليمَ وسماعَ الوحيِ مقصوداً بذٰلكَ بحلولِهِ في هٰذا المقامِ الذي هوَ المرتبةُ الثالثةُ فقطْ .

بلْ قدِ استحقَّ ذٰلكَ بفضلِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِهِ حينَ خصَّهُ بمعنىً آخرَ يزيدُ علىٰ ذٰلكَ المقامِ أضعافاً ، يجاوزُ المرتبةَ الرابعةَ ؛ **لأنَّ آخرَ مقاماتِ الأولياءِ أولُ مقاماتِ الأنبياءِ** .

وموسىٰ عليهِ السلامُ نبيٌّ مرسلٌ ، فمقامُهُ أعلىٰ بكثيرٍ ممَّا نحنُ آخذونَ في أطرافِهِ ؛ لأنَّ هٰذا المقامَ الذي هوَ المرتبةُ الثالثةُ ليسَ مِنْ غاياتِ مقاماتِ الولايةِ ، بلْ هوَ إلىٰ مبادِيها أقربُ منهُ إلىٰ غاياتِها .

فمَنْ لمْ يفهمْ درجاتِ المقاماتِ ، وخصائصَ النبواتِ ، وأحوالَ الولاياتِ . . كيفَ يتعرَّضُ للكلامِ فيها والطعنِ علىٰ أهلِها ؟!

هٰذا لا يُعلَمُ إلَّا لمَنْ لا يعرفُ أنَّهُ مؤاخَذٌ بكلامِهِ ، محاسبٌ بظنِّهِ ويقينِهِ ، مكتوبةٌ عليهِ خطراتُهُ ، محفوظةٌ عليهِ لحظاتُهُ ، مُحْصَاةٌ عليهِ يقظاتُهُ وغفلاتُهُ ، فما يلفظُ مِنْ قولٍ إلَّا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : أراكَ قدْ أوجبتَ لهُ سماعَ نداءِ اللهِ تعالىٰ ، ونداءُ اللهِ : كلامُهُ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ فقدْ نبَّهَ أنَّ تكليمَ اللهِ تعالىٰ لمَنْ كلَّمَهُ مِنَ الرسلِ إنَّما هوَ علىٰ سبيلِ المبالغةِ في التفضيلِ ، وهٰذا لا يصلحُ أنْ يكونَ لغيرِهِ ممَّنْ ليسَ بنبيٍّ ولا رسولٍ . **فنقولُ** : إذا نبَذْنا التشعيبَ ، وقصَدْنا درءَ الشكِّ العارضِ في مسالكِ الحقائقِ . . فنقولُ : ليسَ في الآيةِ ما يَرُدُّ ما قلنا ولا يكسِرُهُ ؛ لأنَّا ما أوجَبْنا أنْ يكلِّمَهُ قصداً ، ولا يتحرَّاهُ بالخطابِ عمداً .

وإنَّما قلنا : إنَّهُ يجوزُ أنْ يسمعَ ما يخاطِبُ بِهِ اللهُ تعالىٰ غيرَهُ ممَّنْ هوَ أعلىٰ منهُ ، فليسَ مَنْ سمعَ كلامَ إنسانٍ مثلاً ممَّا يُكلَّمُ بِهِ غيرُ السامعِ يقالُ فيهِ : إنَّهُ كلَّمَهُ .

وقدْ حُكيَ : أنَّ طائفةً مِنْ بني إسرائيلَ سمعُوا كلامَ اللهِ تعالى الذي خاطبَ بِهِ موسَىٰ عليهِ السلامُ حينَ كلَّمَهُ [1]

ثمَّ إذا ثبتَ ذٰلكَ . . لمْ تجبْ لهُمْ بِهِ درجةُ موسَىٰ عليهِ السلامُ ، ولا المشاركةُ في نبوَّتِهِ ورسالتِهِ .

علىٰ أنَّا نقولُ : نفسُ ورودِ الخطابِ إلى السامعينَ مِنَ اللهِ تعالىٰ يمكنُ الاختلافُ فيهِ ، فيكونُ النبيُّ المرسلُ يسمعُ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ الذاتيَّ القديمَ بلا حجابٍ في السمعِ ، ولا واسطةٍ بينَهُ وبينَ القلبِ ، ومَنْ دونَهُ يسمعُهُ علىٰ غيرِ تلكَ الصورةِ بما يُلقَىٰ في رُوعِهِ ، وبما يُنادَىٰ بِهِ في سمعِهِ أوْ سرِّهِ وأشباهِ ذٰلكَ ؛ كما ذُكِرَ أنَّ قومَ موسَىٰ عليهِ السلامُ حينَ سمعُوا كلامَ اللهِ سبحانَهُ معَ موسَىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُمْ سمعُوا صوتاً كالشَّبُّور ، وهوَ القَرنُ [2]

فإذا صحَّ ذٰلكَ . . فبتباينِ المقاماتِ اختلفَ ورودُ الخطابِ ، فموسَىٰ عليهِ السلامُ سمعَ كلامَ اللهِ تعالىٰ بالحقيقةِ

---

(١) أورده الرازي في « مفاتيح الغيب » (٣/١٣٥) .

(٢) انظر « تفسير القرطبي » (٢/٢) ، **والشبور والقرن بمعنى** : البوق .

التي هيَ صفةٌ لهُ بلا كيفٍ ولا صورةِ نظمٍ بحروفٍ ولا أصواتٍ ، والذينَ كانُوا معهُ أيضاً سمعُوا صوتاً مخلوقاً جُعِلَ لهُمْ علامةً ودلالةً على صحَّةِ التكليمِ ، وخلقَ اللهُ سبحانَهُ لهُمْ بذلكَ العلمَ الضروريَّ ، وسُمِّيَ ذلكَ الذي سمعُوه كلامَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ كانَ دلالةً عليهِ ، كما تُسمَّى التلاوةُ وهـٰذِهِ الحروفُ المكتوبُ بها القرآنُ كلامَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ هيَ دلالةٌ عليهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما يبقَىٰ على السامعِ إذا سمعَ كلامَ اللهِ تعالى الذي يستفيدُ بهِ معرفةَ وحدانيتِهِ وفِقْهَ أمرِهِ ونهيِهِ ، وفهْمَ مرادِهِ وحكمِهِ بما يلحقُهُ العلمُ الضروريُّ ؟

فما أرىٰ فائدةَ النبيِّ المرسلِ إلَّا بأنْ يشتغلَ بإصلاحِ الخلقِ دونَهُ ، ولوْ كانَ هوَ عوضاً منهُ . . أجزأَ عنهُ وقامَ مقامهُ .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الذي أوجبَ عثورَكَ ودوامَ زللِكَ ، واعتراضَكَ على العلومِ بالجهلِ ، وعلى الحقائقِ بالمخايلِ . . أنت بعيدٌ عَنْ غورِ المطالبِ ، قعيدٌ في شَرَكِ المعاطبِ ، فقيدٌ صوبَ الصوابِ ، عنيدٌ عندَ صحبِ السحابِ .

إنَّ الذي استحقَّ بِهِ الناظرُ السالكُ الواصلُ إلى المرتبةِ الثالثةِ سماعَ نداءِ اللهِ تعالىٰ معنىً ومقامٌ وحالٌ وخاصِّيةٌ ، والذي استحقَّ بِهِ الرسولُ النبوَّةَ والرسالةَ والتكليمَ معنىً آخرُ ، ومقامٌ وحالٌ وخاصِّيةٌ أعلىٰ مِنْ تلكَ الأولىٰ وأجلُّ وأكبرُ ، وبينَهُما ما بينَ السماءِ والأرضِ ، وما بينَ مَنِ استحقَّ المواجهةَ بالخطابِ والقصدَ بِهِ وبينَ مَنْ لا يستحقُّ أكثرَ مِنْ سماعِهِ حينَ يخاطَبُ بِهِ غيرُهُ ، فهـٰذا معَ الإشارةِ باختلافِ ورودِ الخطابِ إليهِما ممَّا يُوجِبُ ويقرِّرُ تباينَ ما بينَهُما ، فإنْ فهمْتَ الآنَ ، وإلَّا . . فدعْنِي لا تَذُرْ بخيالِي .

❁ ❁ ❁

فإنْ قيلَ : ألمْ يقلِ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾ وسماعُ كلامِ اللهِ تعالىٰ بحجابٍ أوْ بغيرِ حجابٍ ، وعلمُ ما في الملكوتِ ومشاهدةُ الملائكةِ ، وما غابَ عنِ المشاهدةِ والحسِّ . . مِنْ أجلِّ الغيوبِ ، فكيفَ يطلعُ عليها مَنْ ليسَ برسولٍ ؟ **قلنا** : في الكلامِ حذفٌ يُدَلُّ علىٰ صحَّةِ تقديرِهِ بالشرعِ الصادقِ ، والمشاهدةِ الضروريةِ ، وهوَ أنْ يكونَ معناهُ :

إلَّا مَنِ ارتضَىٰ مِنْ رسولٍ ، ومَنِ اتَّبعَ الرسولَ بإخلاصٍ واستقامةٍ ، أوْ عَمِلَ بما جاءَ بِهِ ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ »(١) ، وهلْ يُتَّقَى إلَّا في علمِ ما غابَ عنهُ أنْ ينكشِفَ لهُ ؟!

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مُحَدَّثُونَ . . فَعُمَرُ »(٢) ، أوْ كما قالَ .

وقالَ : « الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ »(٣)

وفي القرآنِ العزيزِ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ ﴾ فعلِمَ ما غابَ عَنْ غيرِهِ مِنْ إمكانِ إتيانِ ما وعدَ بِهِ ، وزادَ أنَّهُ قدرَ عليهِ ، ولمْ يكنْ نبياً ولا رسولاً

وقدْ أنبأَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ عَنْ ذي القرنينِ مِنْ إخبارِهِ عَنِ الغيبِ ، وصدقِهِ فيهِ حينَ قالَ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٦٩) .

(٣) رواه الديلمي في « الفردوس » (٦٥٥٤) .

دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ وإنْ كانَ وقَع الاختلافُ في نبوَّةِ ذي القرنينِ عليهِ السلامُ . . فالإجماعُ علىٰ أنَّهُ ليسَ برسولٍ ، وهوَ خلافُ المشروطِ في الآيةِ .

وإنْ رامَ أحدٌ المدافعةَ بالاحتيالِ لِمَا أخبرَ بهِ ذو القرنينِ ، وما ظهرَ علىٰ يدِ الذي كانَ عندَهُ علمٌ مِنَ الكتابِ ، وأرادَ أنْ يجوِّزَهُ علىٰ عمرَ . . لا يفرِّقُ بينَ الشبهِ والحقائقِ ، فما يصنعُ فيما جرىٰ للخضرِ ، وما أنبأَ اللهُ سبحانَهُ عنهُ وأظهرَهُ عليهِ مِنَ العلومِ الغيبيَّةِ ؟!

وهوَ بعدَ أنْ يكونَ نبيّاً فليسَ برسولٍ على الوفاقِ مِنَ الجميعِ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فدلَّ علىٰ أنَّ في الآيةِ حذفاً ينضافُ معناهُ إلىٰ ما ظهرَ مِنَ الكلامِ .

فكانَ سعدٌ رضيَ اللهُ عنهُ يرى الملائكةَ عليهِمُ السلامُ وهُمْ غيبُ اللهِ تعالىٰ[1]

وأعلمَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بما في البطنِ وهوَ مِنْ غيبِ اللهِ عزَّ وجلَّ[2]

وشواهدُ هـٰذا في الشرعِ كثيرةٌ تُعجِزُ المتأوِّلَ وتبهرُ المعانِدَ .

هـٰذا ؛ والقولُ بتخصيصِ العمومِ أظهرُ مِنَ المجرة[3] ، وأشهرُ ممَّا نقلَ الكافَّةُ ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ المرادُ في الآيةِ بالرسولِ المذكورِ فيها : ملَكَ الوحيِ الذي بواسطتِهِ تنجلي العلومُ ، وتنكشفُ الغيوبُ .

فمتَىٰ لمْ يرسلِ اللهُ عزَّ وجلَّ ملَكاً بإعلامِ غيبٍ ؛ إمَّا بخطابِ مشافهةٍ ، أوْ إلقاءِ معنىً في رُوعٍ ، أوْ ضربِ مثلٍ في يقظةٍ أوْ منامٍ . . لمْ يكنْ إلىٰ علمِ ذٰلكَ الغيبِ سبيلٌ ، ويكونُ تقديرُ الآيةِ : فلا يُظهِرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلَّا مَنِ ارتضَىٰ مِنْ رسولٍ أنْ يرسلَهُ إلىٰ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ في يقظةٍ أوْ منامٍ ؛ فإنَّهُ يطلعُ علىٰ ذٰلكَ الغيبِ أيضاً .

وتكونُ فائدةُ الإخبارِ بهـٰذا في الآيةِ : الامتنانَ علىٰ مَنْ رزقَهُ اللهُ تعالىٰ علمَ شيءٍ مِنْ مكنوناتِهِ ، وإعلامَهُ أنَّهُ لمْ يصلْ إليها بنفسِهِ ولا بمخلوقٍ سواهُ ، إلَّا باللهِ تعالىٰ حينَ أرسلَ إليهِ الملَكَ بذٰلكَ ، وبعثَهُ إليهِ حتّىٰ يبرأَ المؤمنُ مِنْ حولِهِ وقوَّتِهِ ، ومِنْ حولِ كلِّ مخلوقٍ وقوَّتِهِ ، ويرجعَ إلى اللهِ تعالىٰ وحدَهُ ، ويتحققَ أنَّهُ لا يردُ عليهِ شيءٌ مِنْ علمٍ أوْ معرفةٍ أوْ غيرِ ذٰلكَ إلَّا بإرادتِهِ ومشيئتِهِ .

ويحتملُ وجهاً آخرَ : وهوَ أنْ يكونَ معناهُ ـ واللهُ أعلمُ ـ : فلا يُظهرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلَّا مَنِ ارتضَىٰ من رسولٍ ، ويريدُ مِنْ سائرِ خلقِهِ ، وأصنافِ عبادِهِ ، ويكونُ معنَىٰ (مِنْ رسولٍ) أيْ : علىٰ يدِ رسولٍ مِنَ الملائكةِ ، واللهُ أعلمُ .

فَصْلٌ

[في بيان معنىٰ : ولا تتَخَطَّ رقاب الصِّدِّيقين]

ومعنَىٰ (ولا تتخطَّ رقابَ الصديقينَ) **وقلتَ** : وما الذي أوصلَهُ إلىٰ مقامِهِمْ ، أوْ جاوزَ بهِ ذٰلكَ وهوَ في المرتبةِ الثالثةِ حالَ المقربينَ ؟ **فاعلمْ** : أنَّهُ ما وصلَ حيثُ ظننتَ ، فكيفَ يجاوزُهُ ؟

وإنَّما خاصِّيةُ مَنْ هوَ في رتبةِ الصديقيَّةِ عدمُ السؤالِ ؛ لكثرةِ التحقيقِ بالأحوالِ .

---

(١) كما رواه مسلم (٢٣٠٦) .

(٢) كما رواه مالك في « الموطأ » (٧٥٢/٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٦٩/٦)

(٣) في غير (ش ، خ) : (الحواة) .

وخاصّيةُ مَنْ هوَ في رتبةِ القربِ كثرةُ السؤالِ ؛ طمعاً في بلوغِ الآمالِ .

ومثالُهما فيما أُشِيرَ إليهِ مثالُ إنسانينِ دخلا في بستانٍ ، وأحدُهُما يعرفُ جميعَ أنواعِ نباتِ البستانِ ، ويتحقَّقُ أنواعَ تلكَ الثمارِ ، ويعلمُ أسماءَها ومنافعَها ، فهوَ لا يسألُ عنْ شيءٍ ممَّا يراهُ ، ولا يحتاجُ إلىٰ أنْ يُخبَرَ بهِ ، والثاني لا يعرفُ ممَّا رأىٰ شيئاً ، أوْ يعرفُ بعضاً ويجهلُ أكثرَ ممَّا يعرفُ ، فهوَ يسألُ ليصلَ إلىٰ علمِ الباقِي .

وكذٰلكَ مَنْ تكلَّمْنا عليهِ حينَ أكثرَ السؤالَ عساهُ يتجاوزُ بسؤالِهِ حالَهُ ، ويتخلفُ عَنْ مقامِهِ إلىٰ ما هوَ أعلىٰ منهُ ، وكانَ غيرَ مرادٍ لذٰلكَ ؛ إمَّا في ذٰلكَ الوقتِ ، أوْ أبدَ الأبدِ .

وتلكَ العلومُ لا تنالُ بالكسبِ ، وإنَّما تنالُ بالمنحِ الربانيةِ ، فقيلَ لهُ : لا تتخطَّ رقابَ الصديقينَ بالسؤالِ ؛ فذٰلكَ ممَّا لا يُتَخَطَّىٰ بهِ ، وليسَ هوَ مِنَ الطرقِ الموصلَةِ إلىٰ مقامِهِمْ ، **فارجعْ إلى الصدِّيقِ الأكبرِ ، فاقتدِ بهِ في أحوالِهِ وسيرتِهِ ، فعساكَ ترزقُ مقامَهُ** ، **فإنْ** لمْ يكُنْ . . فتبقَىٰ **علىٰ حالِ القربِ ، وهوَ تلوُ الصدِّيقيةِ ، فهٰذا معناهُ ، واللهُ أعلمُ** .

فَصْلٌ

[في بيان معنىٰ : انصراف السّالك النّاظر بعد وصوله إلىٰ ذٰلك الرّفيق الأعلىٰ]

ومعنَى (انصرافِ السالكِ الناظرِ بعدَ وصولِهِ إلىٰ ذٰلكَ الرفيقِ الأعلىٰ) : أنَّهُ لمَّا وصلَ إليهِ بالسؤالِ . . صُرِفَ إلىٰ ما لاقَ بهِ مِنَ الأحوالِ ؛ ليُحكِمَ ما بقيَ عليهِ مِنَ الأعمالِ كما قالَ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي سألَهُ أنْ يعلمَهُ مِنْ غرائبِ العلمِ : « اذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هُنَالِكَ ، وَكَذَٰلِكَ أُعَلِّمُكَ مِنْ غَرَائِبِ الْعِلْمِ »(١)

وأمَّا صفةُ انصرافِهِ . . فإنَّهُ نهضَ بالبحثِ ورجعَ بالتذكُّرِ وفوائدِ المزيدِ .

ووجهٌ آخرُ : إنْ لمْ يستطعِ المقامَ في ذٰلكَ الموضعِ بعدَ وصولِهِ إليهِ . . فذٰلكَ لتعلُّقِ جزءِ المعرفةِ بالبدنِ ، ومسكنُهُ عالَمُ الملكِ ، ولمْ يفارقْهُ بعدُ بالموتِ ، وطولُ الغيبِ عنهُ لا يمكنُ في العادةِ ، ولوْ أمكنَ ذٰلكَ . . لهلكَ الجسمُ وتفرقَتِ الأوصالُ ، واللهُ تعالىٰ أرادَ عمارةَ الدنيا قدرَ ما سبقَ في علمِهِ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

ومعنىٰ قولِ أبي سليمانَ الدارانيِّ رحمَهُ اللهُ : (لوْ وصلُوا . . ما رجعُوا) : ما رجعَ إلىٰ حالةِ الانتقاصِ مَنْ وصلَ إلىٰ حالةِ الإخلاصِ ، والذي طمعَ الناظرُ في الحصولِ فيهِ بسؤالِهِ وتماديهِ إلىٰ حالِ القربِ منهُ ؛ إذْ لمْ يصلحْ لذٰلكَ ، ولمْ **يصفُ لهُ ، ولمْ يخلصْ في أعمالِهِ** .

فَصْلٌ

[في بيان معنىٰ : ليس في الإمكان أبدع من صورة هٰذا العالم]

ومعنَىٰ (أنَّ ليسَ في الإمكانِ أبدعُ مِنْ صورةِ هٰذا العالَمِ ، ولا أحسنُ ترتيباً ، ولا أكملُ صنعاً ، ولوْ كانَ وادَّخرَهُ معَ القدرةِ . . كانَ ذٰلكَ بخلاً يناقضُ الجودَ الإلٰهيَّ ، وإنْ لمْ يكنْ قادراً عليهِ . . كانَ ذٰلكَ عجزاً يناقضُ الإلٰهيَّةَ) وكيفَ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤) .

يُقضَىٰ عليهِ بالعجزِ فيما لمْ يخلقْهُ اختياراً ؟ ولِمَ لَمْ يُنسبْ إليهِ ذٰلكَ قبلَ خلقِ العالمِ ، ويقالُ : ادّخارُ إخراجِ هٰذا العالمِ مِنَ العدمِ إلى الوجودِ عجزٌ مثلَ ما قيلَ فيما ذكرناهُ ؟ وما الفرقُ بينَهُما ؟

وذٰلكَ لأنَّ تأخيرَهُ بالعالمِ قبلَ خلقِهِ عَنْ أنْ يخرجَهُ مِنَ العدمِ إلى الوجودِ يقعُ تحتَ الاختيارِ الممكنِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ للفاعلِ المختارِ أنْ يفعلَ وألَّا يفعلَ ، فإذا فعلَ . . فليسَ في الإمكانِ أنْ يفعلَ إلَّا نهايةَ ما تقتضيهِ الحكمةُ التي عرفْنا أنَّها حكمةٌ ، ولمْ يعرّفْنا بذٰلكَ إلَّا لنعلمَ مجاريَ أفعالِهِ ، ومصادرَ أمورِهِ ، ولنتحقَّقَ أنَّ كلَّ ما قضاهُ ويقضيهِ مِنْ خلقِهِ بعلمِهِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ ، وأنَّ ذٰلكَ علىٰ غايةِ الحكمةِ ، ونهايةِ الإتقانِ ، ومبلغِ جودةِ الصنعِ ؛ ليجعلَ كمالَ ما خلقَ دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً علىٰ كمالِهِ في صفاتِ جلالِهِ الموجبةِ لإجلالِهِ .

فلوْ كانَ كلُّ ما خُلِقَ ناقصاً بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ممَّا يقدرُ علىٰ خلقِهِ ولمْ يخلقْهُ . . لكانَ يظهرُ النقصانُ المدَّعىٰ علىٰ هٰذا الوجودِ مِنْ خلقِهِ ، كما يظهرُ علىٰ ما خلقَهُ ناقصاً في أشخاصٍ معيّنةٍ ؛ ليدلَّ بها علىٰ كمالِ ما خلقَهُ مِنْ غيرِ ذٰلكَ ، ويكونَ الجميعُ مِنْ بابِ الاستدلالِ علىٰ ما صنعَ مِنَ النقصانِ قطعاً ، وما يُحملُ عليهِ مِنَ القدرةِ علىٰ أكملَ منهُ ظنّاً ؛ إذْ خلقَ للخلقِ عقولاً ، وجعلَ لهُمْ فهوماً ، وعرَّفَهُمْ ما أُكِنَّ ، وكشفَ لهُمْ ما حُجِبَ وأُجِنَّ ، فيكونُ مِنْ حيثُ عرَّفَهُمْ بكمالِهِ دلَّهُمْ علىٰ نقصِهِ ، ومِنْ حيثُ أعلمَهُمْ بقدرتِهِ بصَّرهُمْ بعجزِهِ ، فتعالى اللهُ ربُّ العالمينَ ، الملكُ الحقُّ المبينُ .

وأيضاً : فلا يعترضُ هٰذا ويَستَزْرِيهِ إلَّا مَنْ لا يعرفُ مخلوقاتِهِ ، ولمْ يصرفِ الفكرَ الصحيحَ في منشآتِهِ ومخترعاتِهِ ، ولمْ يعلمْ مقدارَ الدنيا وترتيبَ الآخرةِ عليها ، ولا عرفَ خواصَّها ، ولا تنزَّهَ في عجائبِها ، ولا لاحظَ الملكوتَ ببصرِ قلبِهِ ، ولا جاوزَ التخومَ إلىٰ أسفلَ مِنْ ذٰلكَ بسِرّهِ ولُبّهِ ، ولا فهمَ أنَّ الجنَّةَ أعلَى النعيمِ ، وأنَّ النارَ أقصَى العذابِ الأليمِ ، وأنَّ النظرَ إليهِ جلَّ جلالُهُ منتهَى الكراماتِ ، وأنَّ رضاهُ غايةُ الدرجاتِ ، وسخطَهُ غايةُ الدركاتِ ، وأنَّ منحَ المعارفِ والعلومِ أسنَى الهباتِ .

ويرىٰ أنَّ العالمَ بأسرِهِ أخرجَهُ مِنَ العدمِ الذي هوَ نفيٌ محضٌ إلى الوجودِ الذي هوَ إثباتٌ صحيحٌ ، وقدَّرَهُ منازلَ وجعلَهُ طبقاتٍ ، فمِنْ حيّ وميتٍ ، ومتحركٍ وساكنٍ ، وعالمٍ وجاهلٍ ، وشقيّ وسعيدٍ ، وقريبٍ وبعيدٍ ، وصغيرٍ وكبيرٍ ، وجليلٍ وحقيرٍ ، وغنيّ وفقيرٍ ، ومأمورٍ وأميرٍ ، ومؤمنٍ وكافرٍ ، وجاحدٍ وشاكرٍ ، ومِنْ ذكرٍ وأنثىٰ ، وأرضٍ وسماءٍ ، ودنيا وأخرىٰ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا لا يُحصَىٰ .

والكلُّ قائمٌ بهِ ، وموجودٌ بقدرتِهِ ، وباقٍ بعلمِهِ ، ومُنْتهٍ إلىٰ أجلِهِ ، ومصرَّفٌ بمشيئتِهِ ، ودالٌّ علىٰ بالغِ حكمتِهِ ، فما أكملُ مِنْ حدثِهِ إلَّا قدمُهُ ، ولا مِنْ تصرُّفِهِ إلَّا استبدادُهُ ، ولا مِنْ ملكِهِ إلَّا مَنْ ملَكَهُ ، فيعودُ المحدَثُ قديماً ، والمربوبُ ربّاً ، والمملوكُ مالكاً ، ويعودُ الخالِقُ مخلوقاً ، تعالى اللهُ عَنْ جهلِ الجاهلينَ ، وتخييلِ المعتوهينَ ، وزيغِ الزائغينَ علوّاً كبيراً .

فَصْلٌ

[في حكم طلب العلوم المكنونة]

وأمَّا حكمُ هٰذِهِ العلومِ المكنونةِ في الطلبِ وسلوكِ هٰذِهِ المقاماتِ ، ورُقِيّ [1] هٰذِهِ الدرجاتِ ، واستفهامِ أمثالِ هٰذِهِ

---

(١) في النسخ : (ورقو) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

المخاطباتِ ، أهيَ مِنْ قبيلِ الواجباتِ أوِ المندوباتِ أوِ المباحاتِ ؟ **فاعلمْ** : أنَّ المسؤولَ عنهُ علىٰ ضربينِ :

أحدُهُما : ما هوَ في حكمِ المبادئ ، **والثاني** : ما هوَ في حكمِ الغاياتِ .

فأمَّا الذي هوَ في حكمِ المبادئ . . فطلبُهُ فرضٌ علىٰ كلِّ أحدٍ ، بقدرِ بذلِ المجهودِ ، وإفراغِ الوُسعِ ، وجميعِ ما يقدرُ عليهِ مِنَ العنايةِ ، وذٰلكَ ما تضمنتْهُ أصولُ علمِ المعاملةِ ، مثلُ الإخلاصِ في التوحيدِ ، والصدقِ في العملِ ، والالتحافِ بالخوفِ والرجاءِ ، والتزيُّنِ بالصبرِ والشكرِ ؛ لأنَّ هٰذهِ كلَّها وما يلحقُ بها مِنْ علمِ الأمرِ والنهيِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ وقدْ سبقَ التنبيهُ عليهِ .

وأمَّا الذي هوَ في حكمِ الغاياتِ ؛ مثلُ انقلابِ الهيئاتِ ، والنظرِ بالتوفيقِ على الموافقةِ والرضا والإيثارِ ، والتوكلِ بالتجريدِ ، وحقيقةِ علمِ معاني التوحيدِ ، ومَيْزِ معاني التفريدِ ، وأوصافِ أهلِ إثباتِ اليقينِ . . فهوَ درجاتٌ ومقاماتٌ ، ومنازلُ ومراتبُ ، ومنحٌ يخصُّ اللهُ تعالىٰ بها مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ ، مِنْ غيرِ أنْ تُنالَ بطلبٍ ولا بحثٍ ولا تعليمٍ .

ولوْ كانَ ذٰلكَ كذٰلكَ . . لَمَا قيلَ للناظرِ السالكِ حينَ أرادَ الارتقاءَ إلىٰ درجةٍ أعلىٰ مِنْ درجتِهِ بلسانِ السؤالِ : ارجعْ ، ولا تتخطَّ رقابَ الصديقينَ ، لٰكنَّها مواهبُ أكرمَ اللهُ تعالىٰ بها أهلَ صفوةِ ولايتِهِ ، وهيَ مواريثُ الصدقِ في العلمِ ، وبركاتُ الإخلاصِ في العملِ .

فمَنْ لمْ يرِثْ مِنْ علمِهِ وعملِهِ المفروضِ عليهِ طلبُهُ والعملُ بهِ شيئاً مِنْ هٰذهِ المعاني . . فليسَ في شيءٍ مِنَ الحقيقةِ وإنْ كانَ حقّاً ، غيرَ أنَّ حالَهُ معلولٌ ؛ إمَّا مفتونٌ بدنياهُ ، أوْ محجوبٌ بهواهُ ، وربُّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

فَصْلٌ

[في بيانِ ذِكْرِ هٰذهِ العلومِ بالإشارةِ دونَ العبارةِ]

وأمَّا لِمَ ذُكِرَتْ هٰذهِ العلومُ بالإشاراتِ دونَ العباراتِ ، وبالرموزِ دونَ التصريحاتِ ، وبالمتشابهِ مِنَ الألفاظِ دونَ المحكماتِ وإنْ كانَ قدْ سبقَ هٰذا مِنَ الشارعِ فيما لهُ أنْ يمتحنَ بهِ مَنْ كلَّفَ ، ويبلوَ مَنْ تعبَّدَ ، وليكونَ للعلمِ رجالٌ مخصوصونَ ، فما بالُ مَنْ لمْ يُجعَلْ شارعاً ، ولمْ يُبعَثْ لغيرِهِ مكلِّفاً ؟ **فالجوابُ عنْ ذٰلكَ** :

أنَّ العالمَ هوَ وارثُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإنَّما ورثَ العلمَ ليعملَ بهِ كعملِهِ ، ويحلَّ فيهِ كمحلِّهِ ، والنبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ما ينطقُ عَنِ الهوىٰ ، إنْ هوَ إلَّا وحيٌ يُوحَىٰ ، علَّمَهُ شديدُ القوىٰ ، ذو مِرَّةٍ فاستوىٰ ، **وحكمُ الوارثِ فيما ورثَ حكمُ الموروثِ فيما وُرِثَ عنهُ** ، فما عرفَ فيهِ الحكمَ مِنْ فعلِ الموروثِ عنهُ أوْ قولِهِ . . امتثلَهُ ، وما لمْ يصلْ إليهِ منهُ شيءٌ . . كانَ لهُ اجتهادُهُ ، فإنْ أخطأَ . . كانَ لهُ أجرٌ ، وإنْ أصابَ . . كانَ لهُ أجرانِ .

ثمَّ إنَّ الوارثَ رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صرحَ بعلومِ المعاملاتِ ، وأشارَ بما وراءَها بما لا يفهمُهُ إلَّا أربابُ التخصيصاتِ ، كما قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ **فلمْ يكنْ للعالمِ الوارثِ تعدٍّ عنْ حكمِ الموروثِ عنهُ** ، كما حُكيَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (وعيتُ عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعاءَيْنِ : **فأحدُهُما** : الذي بثثْتُهُ فيكُمْ ، **وأمَّا الثاني** . . فلوْ بثثْتُهُ . . جزرْتُمُ السكِّينَ علىٰ هٰذا البلعومِ)[1] ، وأشارَ إلىٰ حلْقِهِ .

---

(١) رواه البخاري (١٢٠) ، وفيه : (فلو بثثته . . قطع هٰذا البلعوم) .

وبعدَ هٰذا ، ففي القدوةِ بصاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ النجاةُ ، وفي اتِّباعِهِ الفوزُ بحبِّ اللهِ ، ويدُ اللهِ معَ الجماعَةِ ، وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ .

وقدْ أفدناكَ بحولِ اللهِ وقوَّتِهِ مِنْ طرائفِ ما عندَنا ، وأهدَيْنا إليكَ مِنْ غرائبِ ما لدَيْنا ، وإلى اللهِ يُردُّ العلمُ فيما دقَّ وجلَّ ، وكثُرَ وقلَّ ، وعظمَ وصغرَ ، وظهرَ واستترَ .

وإنَّما ينطقُ الإنسانُ بما أنطقَهُ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وهوَ مستعمَلٌ بما استعملَهُ فيهِ ؛ إذْ كلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ .

فاستنزلْ ما عندَ ربِّكَ وخالقِكَ مِنْ خيرٍ ، واستجلِبْ ما تؤمِّلُهُ منهُ مِنْ هدايةٍ وبرٍّ بقراءةِ السبعِ المثاني والقرآنِ العظيمِ ، التي أمرتَ بقراءَتِها في كلِّ صلاةٍ ، ووكَّدَ عليكَ أنْ تعيدَها في كلِّ ركعةٍ ، وأخبركَ الصادقُ المصدوقُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنْ ليسَ في التوراةِ ، ولا في الإنجيلِ ، ولا في الفرقانِ مثلُها[١] .

وفي هٰذا تنبيهٌ ـ بلْ تصريحٌ ـ بأنْ تكثرَ منها لِمَا تضمنتْهُ مِنَ الفوائدِ ، وخُصَّتْ بهِ مِنَ الذخائرِ والفرائدِ ، ممَّا لوْ سُطِرَ . . لكانَ فيهِ أوقارُ الجِمالِ[٢] .

فافهَمْ وانتبِهْ واعقِلْ ما خُلِقْتَ لهُ ، واعرفْ قدرَ ما أُعدَّ لكَ .

واللهُ تعالىٰ حسبُ مَنْ أرادهُ ، وهادي مَنْ جاهدَ في سبيلِهِ ، وكافي مَنْ توكَّلَ عليهِ ، وهوَ الغنيُّ الكريمُ .

وحينئذٍ قدِ انتهَى الجوابُ عمَّا سألتَ عنْهُ ، وفرغْنا منهُ بحسبِ الوُسعِ والطاقةِ مِنَ الكلامِ .

فنسألُ اللهَ تعالى المباعدَ بينَ جِبِلَّاتِ قلوبِ البشرِ : أنْ يصرفَ عنَّا حجبَ الكدوراتِ والأهواءِ ، ومواريثَ الغيِّ والزيغِ والضررِ ، فبيَدِهِ مجاري المقدوراتِ والقدرِ ، وهوَ إلٰهُ مَنْ ظهَرَ وغبَرَ ، وإليهِ مرجعُ مَنْ آمنَ وكفرَ ، ومُجازي الخلائقِ بنعيمٍ أوْ سقَرَ .

والصلاةُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ أفضلِ الخلقِ سيِّدِ البشرِ ، وعلىٰ آلِهِ الساداتِ الغُررِ ، وسلَّمَ تسليماً .

آخر « الإملاء على مشكل الإحياء »[٣]

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل » .

(٢) **أوقار** : جمع وقر ، وهو : الحمل الثقيل .

(٣) **خاتمة النسخة (ر)** :

نجز كتاب « الإملاء في مشكلات الإحياء » ثالث عشر من شهر مولد ثاني ، سنة ألف ومئة وواحد وثمانين ، على يد الفقير إلى رحمة ربه القدير ، أحمد بن علي بامزروع اليمني التريمي وطناً ، الشافعي مذهباً ، عفا الله عنه ، وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين ، ولمن قال : آمين ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة النسخة (ش) :

آخر « الإملاء على مشكل الإحياء » ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه العبد المذنب السيد عثمان ، الملقب بعوفي ، من تلاميذ الحافظ أحمد الحلمي ، غفر الله ذنوبه ولوالديهما الأمين المعين .

خاتمة النسخة (ت) :

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل الخلق وسيد البشر ، وعلى آله وصحبه أولي العزم والظفر ، وعلى عترته الطاهرين خير العتر ، وسلَّم تسليماً كثيراً ، دائماً أبداً مؤبداً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة لنا إلّا به ، ونسأله الصفح الجميل ، والحمد لله وحده ، وصلّى الله

. . . .

* * *

على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً ، وكان الفراغ منه نهار الجمعة المباركة ، ثالث عشر من ربيع الأول ، من شهور سنة ست وتسعين وثمان مئة باسم الفقير إلى الله تعالى سبحانه ، الآمل فضله وإحسانه ، أبي العباس أحمد بن إسماعيل بن محمد بن الدعيم ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ، والحمد لله وحده .

خاتمة النسخة (ث) :

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل الخلق ، سيد البشر ، وسلم تسليماً ، وعلى آله وصحبه أولي العزم والظفر ، وعترته الطاهرين ، وسلم تسليماً كثيراً ، آمين .

وكان الفراغ من هاذا الكتاب ضحى يوم الجمعة ، الموافق (٢) جمادى أول ، سنة (١٣٠١) من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

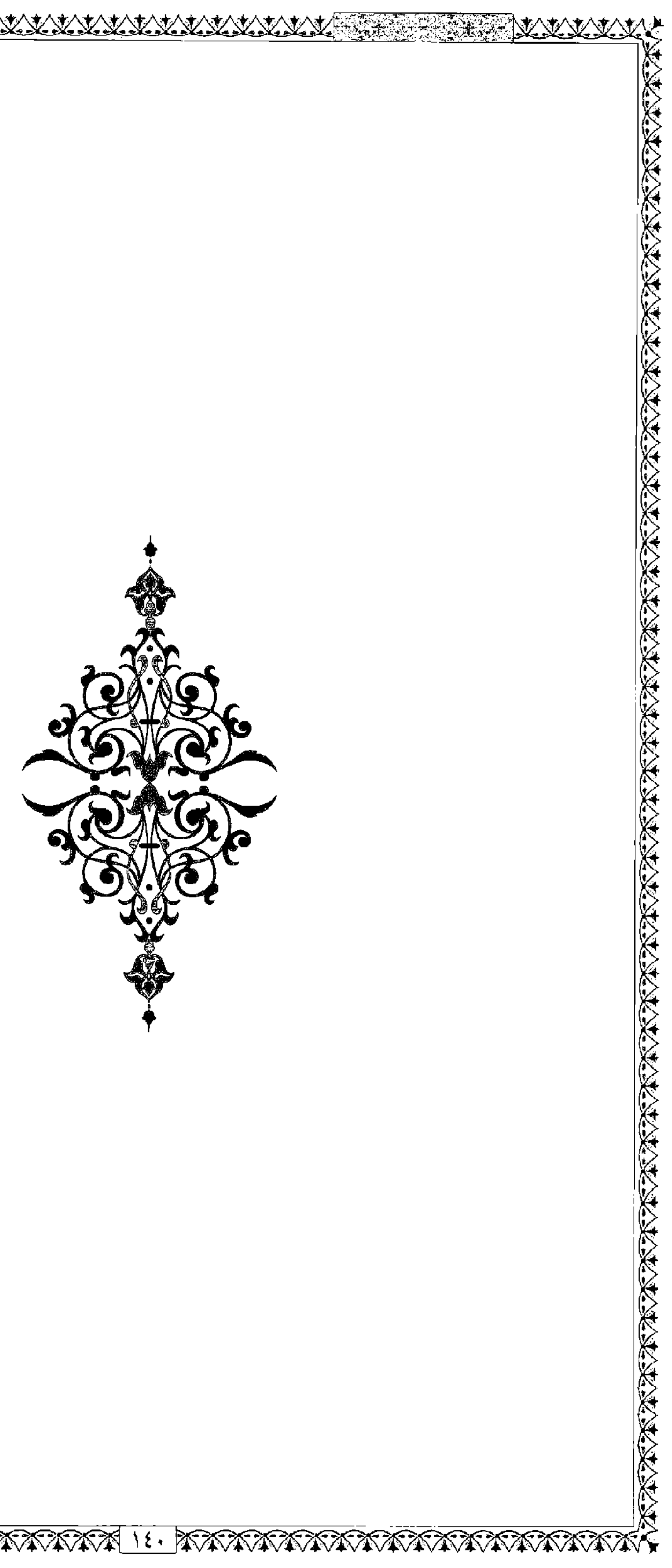
خاتمة النسخة (ذ) :

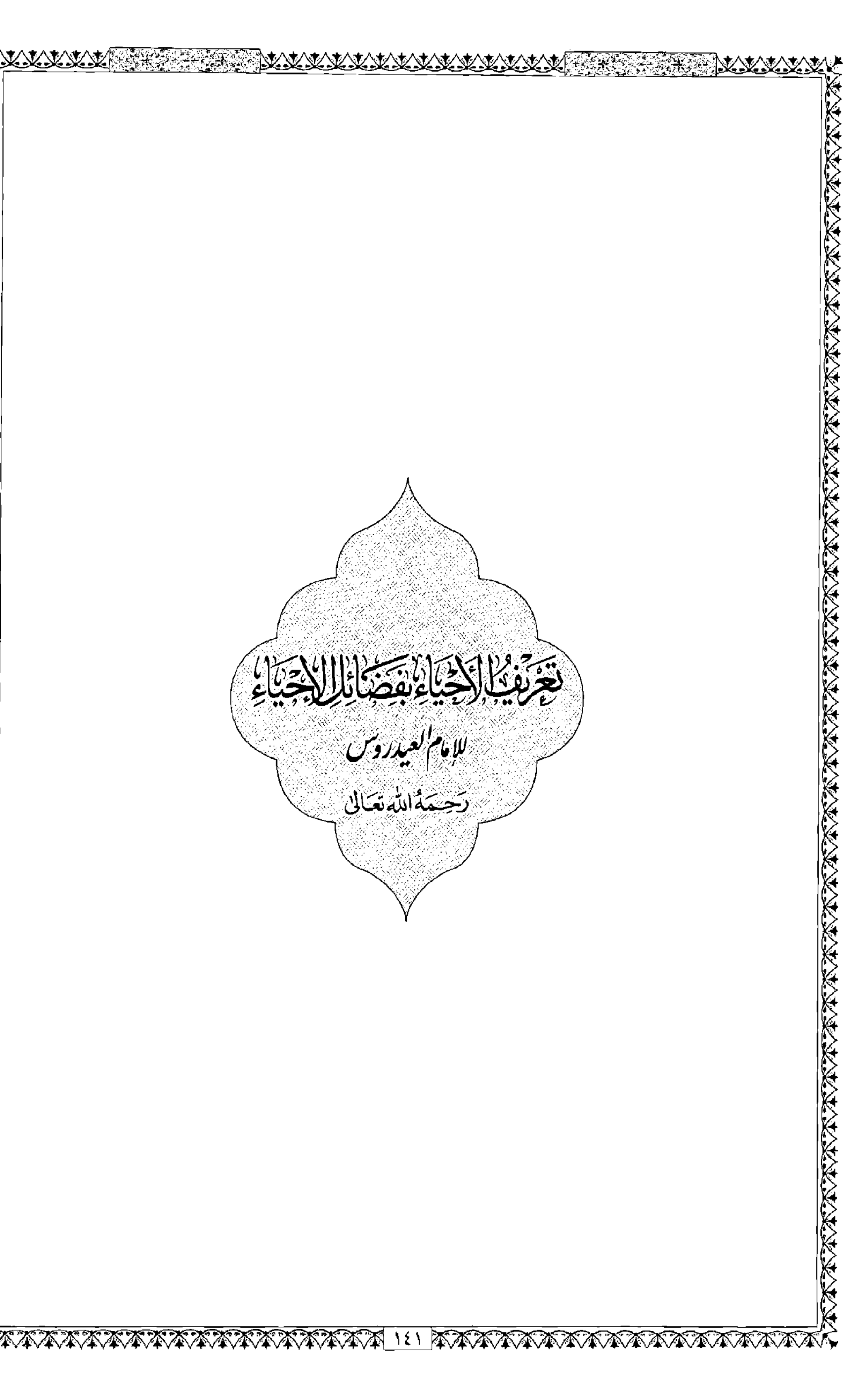
تم الكتاب بعون الملك الوهاب وحسن توفيقه ، ونسأله الهداية إلى طريقه ، في نهار الخميس ، الخامس وعشرين من شهر صفر الخير ، من شهور سنة إحدى وتسع مئة ، على يد العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن شيخ بن أبي بكر ، سامحهم الله وعفا عنهم بمنه وكرمه ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

طالع هاذا الكتاب ، ورأى ما فيه من اللباب الفقير إلى ربه الرحمان محمد بن أحمد زهران الأجهوري الشافعي الأزهري غفر الله . . . .

خاتمة النسخة (ض) :

نجز « الإملاء على الإحياء » بحمد الله وحسن توفيقه ، عشية الثلاثاء ، سابع عشر من صفر ، سنة ست وأربعين وست مئة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيراً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

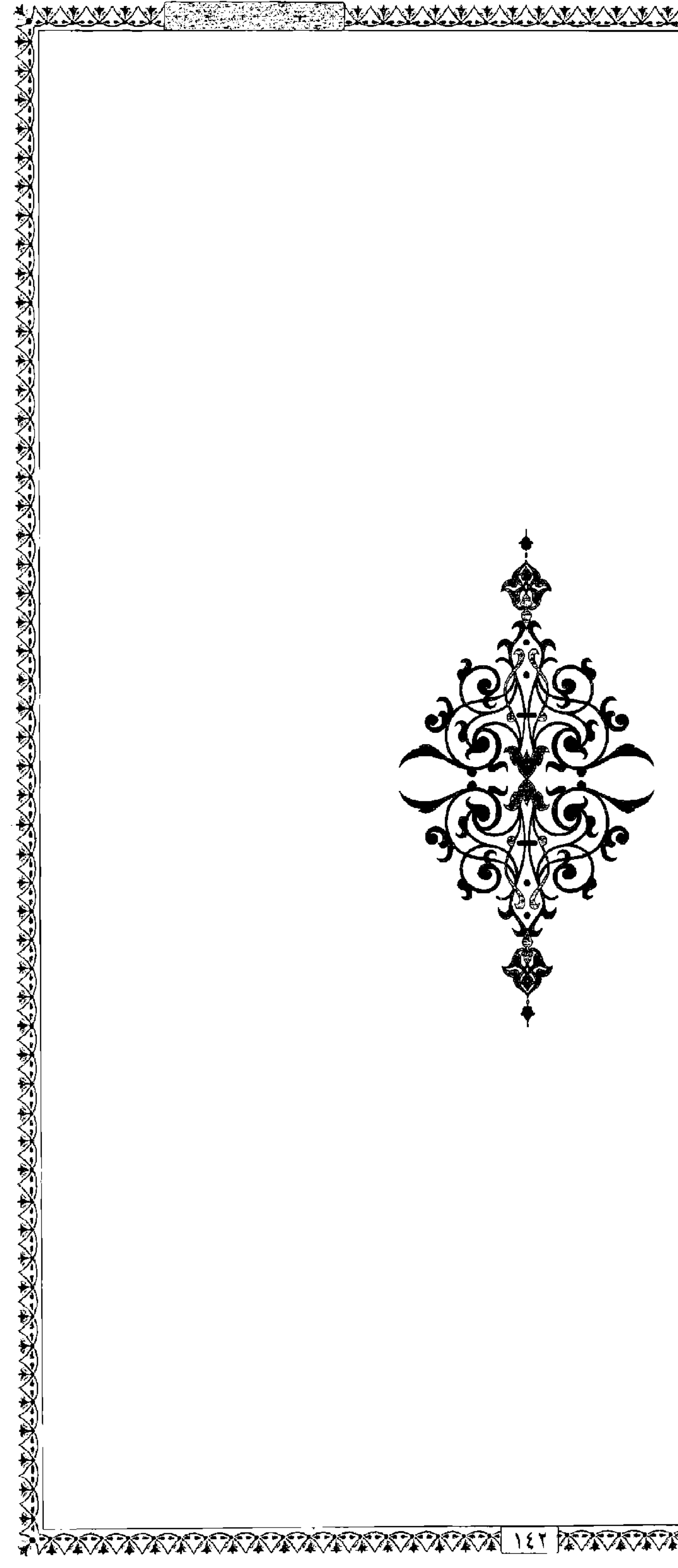




تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

للإمام العيدروس

رحمه الله تعالى



ترجمة
الإمام العلامة الكبير ، العلم الشهير ، شمس الشموس
محيي الدين ، أبي بكر
عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس
رحمه الله تعالىٰ
(٩٧٨ ـ ١٠٣٨ هـ)[1]

اسمه ونسبه

هو الإمام العلامة ، أحد العلماء الأكابر ، والأعيان أولي البصائر ، محيي الدين ، أبو بكر ، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي ، الحسيني ، الشافعي ، الحضرمي الأصل ، الهندي المولد .

مولده ونشأته

ولد الإمام عبد القادر العيدروس في العشرين من شهر ربيع الأول ، سنة ثمان وسبعين وتسع مئة للهجرة النبوية ، في مدينة أحمد أباد في الهند .

وقد حدثنا المترجَم له عن نفسه في « نوره السافر » (ص ٤٤٥) حيث قال : (كان والدي رحمه الله رأىٰ في المنام قبل ولادتي بنحو نصف شهر جماعةً من أولياء الله تعالىٰ ، منهم : الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ، والشيخ أبو بكر العيدروس رضي الله عنه وغيرهما ، وكان الشيخ عبد القادر يريد حاجةً من الوالد ، فذٰلك هو الذي حمله علىٰ تسميتي بهٰذا الاسم ، وكنَّاني أيضاً أبا بكر ، ولقَّبني محيي الدين ، وتقرر عنده أنه سيكون لي شأن) .

ثم يتابع الإمام حديثه عن نفسه قائلاً : (وكانت أمِّي أمَّ ولدٍ هنديّةً . . . وكانت من الصالحات ، علىٰ جانب عظيم من التواضع ، وسلامة الصدر ، وحسن الأخلاق ، وكثرة الإنفاق ، توفيت ضحىٰ يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رمضان ، سنة عشر بعد الألف ، وكان آخر كلامها لا إلـٰه إلا الله) .

ويمضي الإمام في حديثه عن نشأته فيقول : (قرأت القرآن العظيم حتىٰ ختمته علىٰ يد بعض أولياء الله تعالىٰ ، وذٰلك في حياة الوالد تغشَّاه الله بالرحمة ، واشتغلت بعد قراءة القرآن بتحصيل طرف من العلم ، وقرأت عدةً من المتون علىٰ جماعة من العلماء الأعلام ، وتصدَّيت لنشر العلم ، ومزاحمة أهله ، وذٰلك بكرم الله وفضله ، والأخذ عن العلماء والاستفادة منهم ، ومعرفة فضلهم وتعظيمهم) .

---

(١) **مصادر ترجمته** : « خلاصة الأثر » (٢/٤٤٠) ، و« ملحق البدر الطالع » (٢/١٢٣) ، و« النور السافر » (ص ٤٤٤) ، و« المشرع الروي » (٢/١٤٧) ، و« هدية العارفين » (١/٦٠٠) ، و« الأعلام » (٤/٣٩) ، و« تاريخ الأدب العربي » (٩/٢٥٩) ، و« معجم المؤلفين » (٢/١٨٨) ، و« إتحاف القاري » (ص ١٦٥) ، و« جهود فقهاء حضرموت في خدمة المذهب الشافعي » (١/٦٠٨ ـ ٦١٠) .

طلبه للعلم

لا يمكن أن يميز المطالع لترجمة الإمام عبد القادر العيدروس رحمه الله مرحلةً واضحةً لطلب العلم في حياته ؛ لأنه نشأ في بيت علم وفضل ، وتقوىً وصلاح ، فقد نشأ إذاً طالبَ علم كما عرفنا ذلك من خلال حديثه عن نفسه فيما تقدم .

والذي يمكننا إضافته هنا هو قوله في « النور السافر » (ص ٤٤٦) : (. . . وشاركت في كثير من الفنون ، وتفرغت لتحصيل العلوم النافعة لوجه الله تعالىٰ ، وعملت الهمة في اقتناء الكتب المفيدة ، وبالغت في طلبها من أقطار البلاد البعيدة ، مع ما صار إليَّ من كتب الوالد رحمه الله ، فاجتمع عندي منها جملة عديدة) .

شيوخه

أفادنا الإمام عبد القادر العيدروس رحمه الله أنه تلقى العلم علىٰ جماعة من العلماء الأعلام ، وقد نقل العلامة الشلي رحمه الله في « المشرع الروي » (٢/١٥٢) عن « الزهر الباسم » للإمام عبد القادر نفسه طائفةً من حديثه عن مشايخه الذين تتلمذ عليهم ، وكرع من معينهم ، وهم :

شيخ الإسلام ، وغوث الأولياء الكرام ، الرباني المربي ، شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس (ت ٩٩٢ هـ) ، وهو والد الإمام عبد القادر رحمهما الله تعالىٰ ، **وأخوه السيد العلامة عبد الله بن شيخ** (ت ١٠١٩ هـ) ، **والسيد العالم ، والفاضل المتصوف ، والنسيب الشريف ، حاتم بن أحمد بن موسى الأهدل الحسيني اليمني** (ت ١٠١٣ هـ) ، **والشيخ الإمام ، درويش حسين الكشميري . والشيخ الإمام ، موسى بن جعفر الكشميري ، والشيخ الإمام ، محمد بن الشيخ حسن الجشتي .**

تلاميذه

لم نستطع الوقوف إلا علىٰ أسماء بعض الذين أخذوا عن الإمام عبد القادر العيدروس رحمه الله تعالىٰ ، وذلك عندما أخبرنا هو عن ذلك ، فقال في « النور السافر » (ص ٤٤٧) : (وأخذ عني غير واحد من الأعلام ، وانتفع بي عدة من الأنام) .

غير أنه لم يذكر ما قرؤوه عليه ، ولا ما أخذوه عنه ، في حين صرح بأنه ألبس جماعةً من الأعيان خرقة التصوف ، وعدَّد منهم :

السيد الجليل العلامة ، جمال الدين ، محمد بن يحيى الشامي المكي ، والشيخ الكبير ، العلامة الشهير ، بدر الدين ، حسن بن داوود الكوكني الهندي ، والشيخ الصالح ، العلامة الفقيه ، أحمد بن محمد بن عبد الرحيم باجابر الحضرمي ، والشيخ الفاضل ، شهاب الدين ، أحمد بن ربيع . والعلامة الشهير ، أحمد بن عبد الحق السنباطي المكي المصري .

وأضاف الإمام رحمه الله قائلاً : (وأما الذي لبسها من الملوك والتجار ، وطوائف الناس . . فجماعة كثيرون ، وخلائق لا يحصون) .

مؤلفاته

لقد برع الإمام عبد القادر العيدروس رحمه الله تعالىٰ في علوم عدة ، وفنون شتَّىٰ ، مما دفعه للتأليف والتصنيف ، فأبرز لنا كتباً عديدة ، ومصنفات مفيدة ، وقد قال في « النور السافر » (ص ٤٤٧) : (وألفتُ جملة من الكتب المقبولة التي لم أُسبق إلىٰ مثلها ، ووقع الإجماع علىٰ فضلها ، فلا يكاد يمتري في ذٰلك إلا عدوٌّ أو حاسد) ، **ثم عدّد منها جملة نذكر منها :**

« الفتوحات القدوسية في الخرقة العيدروسية » ، و« الحدائق الخضرة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة » ، وهو أول مؤلفاته ، ألَّفه وهو دون العشرين من عمره المبارك ، و« إتحاف الحضرة العزيزة بعيون السير الوجيزة » ، و« المنتخب المصطفىٰ من أخبار مولد المصطفىٰ » ، و« المنهاج إلىٰ معرفة المعراج » ، و« الأنموذج اللطيف في أهل بدر الشريف » ، و« أسباب النجاة والنجاح في أذكار المساء والصباح » ، و« الدر الثمين في بيان المهم من علم الدين » ، و« الحواشي الرشيقة على العروة الوثيقة » ، و« منح الباري بختم صحيح البخاري » ، و« **تعريف الأحياء بفضائل الإحياء** » ، **وهو كتابنا هٰذا** ، و« عقد اللآل بفضائل الآل » ، و« خدمة السادة آل باعلوي باختصار العقد النبوي » ، و« بغية المستفيد في شرح تحفة المريد » ، و« النفحة العنبرية في شرح البيتين العدنية » ، و« غاية القُرَب في شرح نهاية الطلب » ، و« صدق الوفاء بحق الإخاء » ، « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » ، و« الروض الأريض والفيض المستفيض » ، وهو ديوان شعر جمعه بعض أصحابه .

وغيرها من الكتب المفيدة ، والتصانيف النافعة بإذن الله تعالىٰ .

ثناء العلماء عليه

ذكر المترجم له رحمه الله تعالىٰ في أثناء ترجمته لفسه في « النور السافر » (ص ٤٥١) : أن الفقيه المحقق العلامة ، جمال الدين ، محمد بن عبد المولى القرطبي المغربي قدم اليمن ، واجتمع بالفقيه عبد الملك بن عبد السلام دعسين ، واطلع عنده علىٰ جملة من مؤلفات الإمام عبد القادر ، فأعجب بها جداً وقال : (إنه ما بقي لمؤلفها في هٰذا الزمان نظير ، وإني لأدعو له بطول العمر ، حتىٰ يبدوَ منه مثل هٰذه الفوائد المستجادة ؛ لينتفع بها من أراد الله هدايته من أهل السعادة) .

وأضاف الإمام رحمه الله أن الفقيه عبد الملك بن عبد السلام دعسين مدحه بقصيدة منها قوله : (من الوافر)

إذا مـثَّـلْـتُ شَـخْـصَـكُـمُ بِـفِـكْـرِي	أُوَالِـــي زَعْـقَـةً فـي إِثْـرِ زَعْـقَـهْ
ويَـجْـرِي دمـعُ مُـقْـلَـتِـيَ استباقاً	بِـخَـدِّي دَفْـقَـةً مِـنْ بَـعْـدِ دَفْـقَـهْ
تَـغَـذَّىٰ بِـالـمَـعَـارِفِ وَهْـوَ طِـفْـلٌ	وَفِـي سِـنِّ الْـكُـهُـولَـةِ مَـا أَحَـقَّـهْ
سَـلِـيـلُ الأَكْـرَمِـيـنَ وَمُـنْـتَـقَـاهُـمْ	وَأَحْـظَـاهُـمْ بِـفَـخْـرٍ حَـازَ سَـبْـقَـهْ
لَـقَـدْ وَرِثَ الْـوِلَايَـةَ عَـنْ أَبِـيـهِ	بِـتَـعْـصِـيـبٍ وَفَــرْضٍ إِسْـتَـحَـقَّـهْ

وقال عنه الحبيب محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي في ترجمته في « المشرع الروي » (١٤٧/٢) : (عبد القادر بن

شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس رضي الله عنهم ، أحد العلماء الأكابر ، والأعيان أولي البصائر ، الذين أخذوا المجد كابراً عن كابر ، حامل راية المفاخر ، البحر الذي ليس للبحر ما عنده من الجواهر ، والروض الذي تعجز الرياض أن تحاكي ما لديه من الأزاهر ، المرتقي من منازل المجد ذروتها وأعلاها ، والمستقي من بحار الولاية أمرأها وأهنأها وأغلاها) .

ولا يفوتنا أن نذكر مدح الإمام القطب عبد الله الحداد رحمه الله تعالىٰ له في قصيدته العينية المشهورة :

يـا سائِلِي عَـنْ عَبْرَتِـي وَمَـدامِـعِـي ... وَتَـنَـهُّـدِ تَـرْتَـجُّ مِـنْـهُ أَضـالِـعِـي

فقد جاء في « ديوانه » (ص ١٨٦) في معرض مدحه للأئمة الكبار وأهل العلم الأخيار قوله مادحاً للحبيب عبد القادر وأبيه رحمهما الله تعالىٰ :

وَالـشَّـيْـخِ شَـيْـخِ ذِي الْـمَـحَـلِّ الأَرْفَـعِ

وَسَـلِـيـلِـهِ ذَاكَ الـعَـفِـيـفِ وَصِـنْـوِهِ ... الْـحَـبْـرِ عَـبْـدِ الـقَـادِرِ الْـمُـتَـضَـلِّـعِ

وفاته

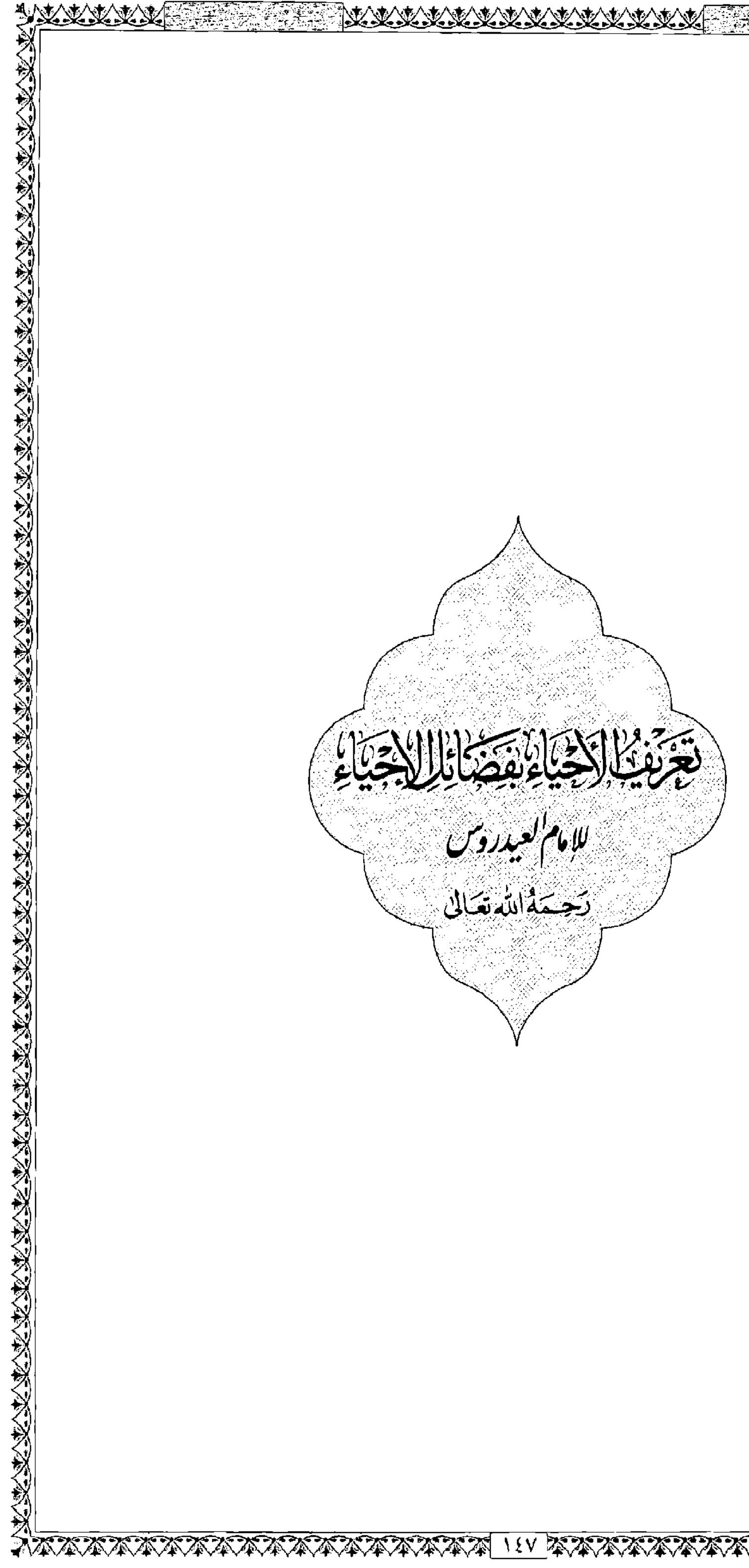
بعد حياة حافلة بالعلم والعمل ، والنفع لخلق الله جل في علاه ، لبَّى الإمام رحمه الله نداء خالقه ومولاه ، وانتقل إلىٰ جواره الكريم في مسقط رأسه (أحمد أباد) .

وقد اختلف المترجمون له في سنة وفاته ، وقد ذكر أكثرهم أنه توفي في (١٠٣٨ هـ) ، في حين ذهب بعضهم إلىٰ أنه توفي سنة (١٠٤٨ هـ) ، وهـٰذا قول الشلي في « المشرع الروي » (١٥٢/٢) .

وجاء في « النور السافر » (ص ٤٤٤) حاشية تقول : (في حاشية « ط » : « وقد وُجد بهامش الأصل ما نصه : توفي سيدنا وشيخنا القطب محيي الدين ، عبد القادر العيدروس ، مصنف هـٰذا الكتاب عاشر محرم سنة سبع وثلاثين بعد الألف بأحمد أباد من أرض الهند ، ودفن بجنب والده في القبة المنورة ، نفع الله بهما ») .

رحم الله الإمام العلامة عبد القادر رحمةً واسعة ، وأسكنه فسيح جناته وجمعنا وإياه في مستقر رحمته ؛ إنه خالقنا ومولانا ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

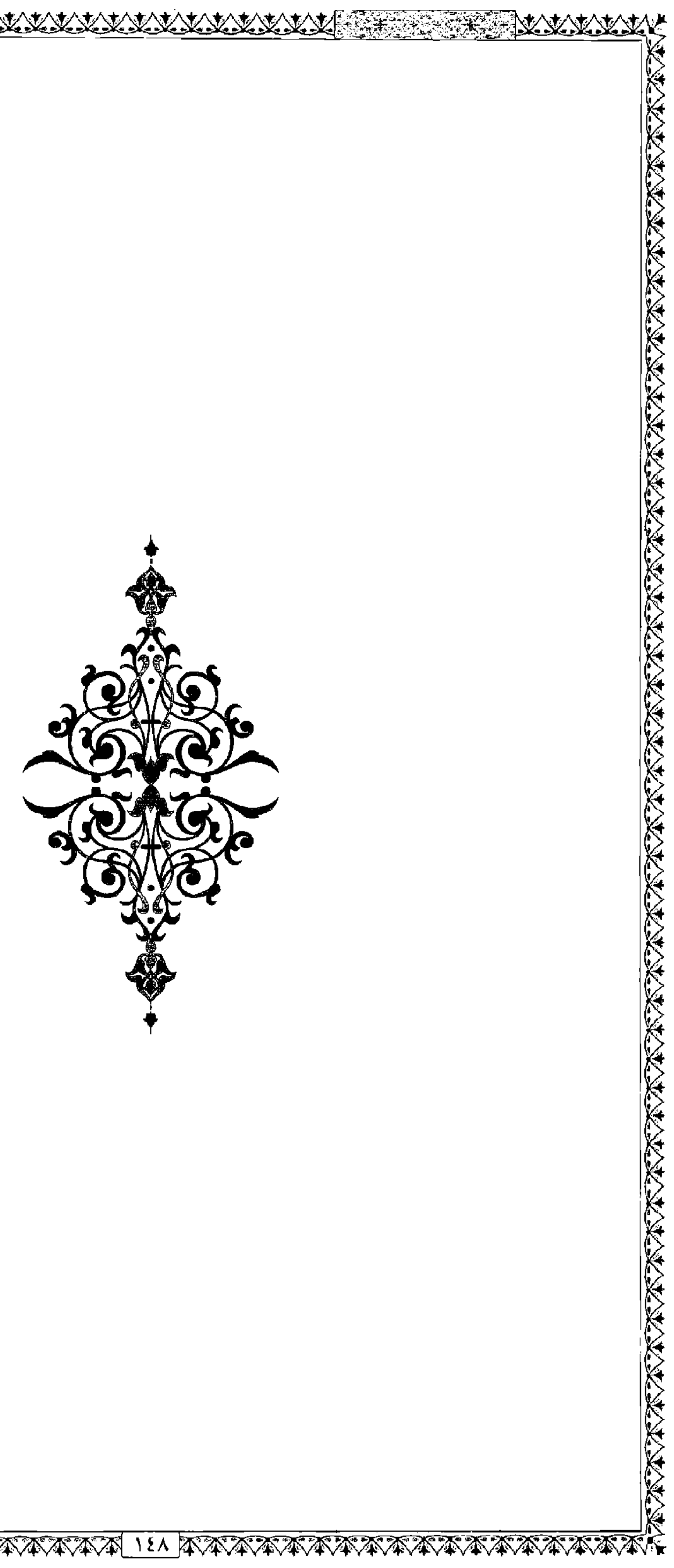
والحمد لله رب العالمين



تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

للإمام العيدروس

رحمه الله تعالى



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[خُطْبَةُ المؤلِّف]

الحمد لله الذي وفق لنشر المحاسن وطيها في كتاب ، وجعل ذلك قرة لأعين الأحباب ، وذخيرة ليوم المآب .

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذي أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوي الألباب ، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ما أشرقت شمس « الإحياء » للقلوب ، وتوجهت همة روحانية مصنفه الولي الموهوب ، إلىٰ إسعاف ملازمي مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعـد :

فإن الكتاب العظيم الشأن ، المسمىٰ بـ « إحياء علوم الدين » ، المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، والمشايخ العارفين ، المنسوب إلى الإمام أبي حامد محمد الغزالي رضي الله عنه ، عالم العلماء ، ووارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، مقتدى الأئمة ، مبيِّن الحل والحرمة ، زين الملة والدين ، الذي باهىٰ به سيد المرسلين صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ جميع الأنبياء[1] ، ورضي الله عن الغزالي وعن سائر العلماء المجتهدين . . **لما كان عظيم الوقع** ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير في بابه ، ولم ينسج علىٰ منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملاً على الشريعة والطريقة والحقيقة ، كاشفاً عن الغوامض الخفية ، مبيناً للأسرار الدقيقة . . **رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة علىٰ صُبابةٍ صبابةٍ من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ، ورتَّبتها علىٰ مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة .**

❁ ❁ ❁

فالمقدمة : في عنوان الكتاب .

والمقصد : في فضائله ، وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه .

والخاتمة : في ترجمة المصنف رضي الله عنه ، وسبب رجوعه إلىٰ هـٰذه الطريقة .

❁ ❁ ❁

---

(١) مرآة الجنان (٣/٣٢٩) ، وطبقات الشافعية الكبرىٰ (٦/٢٥٧) .

المقدّمة
في عنوان الكتاب

اعلم : أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالىٰ تنقسم إلىٰ : ظاهرة ، وباطنة .

* **والظاهرة قسمان** : معاملة بين العبد وبين الله تعالىٰ ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق .

* **والباطنة أيضاً قسمان** : ما يجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة .

❁ ❁ ❁

وقد بنى الإمام الغزالي رحمه الله كتابه « إحياء علوم الدين » علىٰ هـٰذه الأربعة الأقسام ، فقال في خطبته :

ولقد أسسته علىٰ أربعة أرباع : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات : فيشتمل علىٰ عشرة كتب : كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع العادات : فيشتمل علىٰ عشرة كتب : كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب آداب الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب آداب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب أخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات : فيشتمل علىٰ عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفة الشهوتين : البطن والفرج ، وكتاب آفة اللسان ، وكتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربع المنجيات : فيشتمل علىٰ عشرة كتب : كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت .

ثم قال رحمه الله تعالىٰ :

فأما ربع العبادات . . فأذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليها ، بل لا يكونُ من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذٰلك مما أهمل في الفقهيات .

وأما ربع العادات . . فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغني المتدين عنها .

وأما ربع المهلكات . . فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته ، وتزكية النفس عنه ، وتطهير القلب منه ،

وأذكر في كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يترتب ، ثم العلامات التي بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقروناً بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات . . فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين ، التي يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التي منها تستفاد ، وعلامتها التي بها تعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

* * *

المقصد
في فضل الكتاب المشار إليه ، وبعض المدائح والثنا من الأكابر عليه والجواب عمّا استشكل منه وطُعِن بسببه فيه

اعلمْ : أن فضائل « الإحياء » لا تحصىٰ ، بل كل فضيلة له باعتبار تحقيقاتها لا تستقصىٰ ، جمع الناس مناقبه فقصَّروا وما قصَّروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعزَّ من أفردها فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف .

غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق ، واستخراج جواهر المعاني ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساتين العلوم ، فاجتنىٰ ثمارها ، بعد أن اقتطف من أزهارها .

وسما إلىٰ سماء المعاني فلم يصطفِ من كواكبها إلا السيارة ، وجليت عليه عرائس المعاني ، فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة .

جمع رضي الله عنه فأوعىٰ ، وسعىٰ في إحياء علوم الدين ، فشكر الله له ذلك المسعىٰ ، فلله دره من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل محرر فريد .

لقد أبدع فيما أودع كتابه من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه وأملىٰ .

بيد أنه في العلوم صاحب القدح المعلَّىٰ ؛ إذ كان رضي الله عنه من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفصله فصله ؟! [من الكامل]

هيهاتَ لا يأتي الزَّمانُ بمثلِهِ ... إنَّ الزَّمانَ بمثلِهِ لشحيحُ [1]

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولىٰ علىٰ غايات المناقب ؟!

فشجرته في فوارة العلم والعمل ، والعلا والفهم والذكاء . . أصلها ثابت وفرعها في السماء .

مع كونه رضي الله عنه ذا الصدر الرحيب ، والقريحة الثاقبة ، والدراية الصائبة ، والنفس السامية ، والهمة العالية .

ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمة الله عليه : أن الفقيه العلامة قطب اليمن إسماعيل بن محمد الحضرمي ثم اليمني سُئل عن تصانيف الغزالي ؟ فقال من جملة جوابه :

محمد بن عبد الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ **سيد الأنبياء** ، ومحمد بن إدريس الشافعي **سيد الأئمة** ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي **سيد المصنفين** [2]

وذكر اليافعي أيضاً : أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حرزهم الفقيه المشهور المغربي كان قد بالغ في

---

(١) البيت لأبي تمام في « ديوانه » (١٠٢/٤) ، وفيه : (لبخيلُ) .

(٢) مرآة الجنان (١٩٠/٣) .

الإنكار علىٰ كتاب « إحياء علوم الدين » ، وكان مطاعاً ، مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ « الإحياء » وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة ، فرأىٰ ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ؛ فإذا هو بالنبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيه ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فلما أقبل ابن حرزهم . . قال الغزالي : هٰذا خصمي يا رسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم . . تبت إلى الله ، وإن كان شيئاً حصل لي من بركتك واتباع سنتك . . فخذ لي حقي من خصمي .

ثم ناول النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كتاب « الإحياء » ، فتصفحه النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ورقة ورقة ، من أوله إلىٰ آخره ، ثم قال : « والله ؛ إن هٰذا لشيء حسن » .

ثم ناوله الصدِّيق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال : (نعم ، والذي بعثك بالحق ؛ إنه لشيء حسن) .

ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر فيه وأثنىٰ عليه كما قال الصدِّيق .

فأمر النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بتجريد الفقيه عليِّ بن حرزهم عن القميص ، وأن يضرب ويُحدَّ حدَّ المفتري ، فجُرِّد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط . . تشفع فيه الصدِّيق رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله ؛ لعله ظن أنه خلاف سنتك فأخطأ في ظنه .

فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعة الصدِّيق .

ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط في ظهره ، وأعلم أصحابه ، وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر .

ولٰكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط ، وهو يتضرع إلى الله تعالىٰ ، ويتشفع برسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إلىٰ أن رأى النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دخل عليه ومسح بيده الكريمة علىٰ ظهره ، فعوفي وشفي بإذن الله .

ثم لازم مطالعة « إحياء علوم الدين » ، ففتح الله عليه فيه ، ونال المعرفة بالله ، وصار من أكابر المشايخ ، أهل العلم الباطن والظاهر ، رحمه الله [١]

قال اليافعي : **روينا ذٰلك بالأسانيد الصحيحة** ، فأخبرني بذٰلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الكبير القطب شهاب الدين أحمد بن الميلق الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله ياقوت الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبي العباس المرسي ، عن شيخه الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبي الحسن الشاذلي ، قدس الله أرواحهم ، وكان معاصراً لابن حرزهم [٢]

قال : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : ولقد مات أبو الحسن بن حرزهم رحمه الله يوم مات وأثر السياط ظاهر علىٰ ظهره [٣]

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله ـ وكان أدرك الإمام الغزالي واجتمع به ـ قال :

---

(١) مرآة الجنان (٣/٣٣٢ ـ ٣٣٣) .

(٢) مرآة الجنان (٣/٣٢٩ ـ ٣٣٠) .

(٣) مرآة الجنان (٣/٣٣١) .

سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الإسفرايني يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الساوي بمكة المشرفة يقول :

دخلت المسجد الحرام يوماً ، فطرأ علي حال وأخذني عن نفسي ، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي ، فوقعت علىٰ جنبي الأيمن ، تجاه الكعبة المعظمة وأنا علىٰ طهارة ، وكنت أطرد عن نفسي النوم ، فأخذتني سِنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أكمل صورة ، وأحسن زي من القميص والعمامة ، ورأيت الأئمة ـ الشافعي ، ومالكاً ، وأبا حنيفة ، وأحمد ، رحمهم الله ـ يعرضون عليه مذاهبهم واحداً بعد واحد ، وهو صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقررهم عليها .

ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بطرده وإهانته ، فتقدمت أنا وقلت : يا رسول الله ؛ هـٰذا الكتاب ـ أعني « إحياء علوم الدين » ـ معتقدي ومعتقد أهل السنة والجماعة ، فلو أذنت لي حتىٰ أقرأه عليك ، [فأذن لي ، فقرأت عليه] من (كتاب قواعد العقائد) : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، كتاب قواعد العقائد ، وفيه أربعة فصول : الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة . . . حتى انتهيت إلىٰ قول الغزالي : (وأنه تعالىٰ بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ كافة العرب والعجم ، والجن والإنس) فرأيت البشاشة في وجهه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ثم التفت وقال : « أين الغزالي ؟ » وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : هـٰأنذا يا رسول الله ، وتقدم وسلم ، فردَّ عليه السلامَ عليه الصلاة والسلام ، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها .

وما رأيت النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أشد سروراً بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتي عليه « الإحياء » ، ثم انتبهت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات (١)

وكان تقريره صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمذاهب أئمة السنة ، واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقريرها . . نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالىٰ أن يحيينا علىٰ سنته ، ويتوفانا علىٰ ملته ، آمين .

فَصْلٌ

[في ثناء العلماء على « الإحياء »]

أثنىٰ على « الإحياء » عالَمٌ من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارفي الأنام ، بل جمع أفراد وأقطاب .

فقال فيه الحافظ الإمام الفقيه أبو الفضل العراقي في تخريجه : إنه من أجلِّ كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام ؛ جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلىٰ سرائر دقت عن الأفهام .

لم يقتصر فيه علىٰ مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيهما في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه : (خير هـٰذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم

---

(١) مرآة الجنان (١٨٧/٣ ـ ١٨٩) .

العالي . . .)[1] إلىٰ آخر ما ذكره مما الأولىٰ بنا في هـٰذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلىٰ نشر محاسن « الإحياء » ليظهر للمحب والمبغض رشده وغيه .

وقال عبد الغافر الفارسي في مثال « الإحياء » : إنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها[2]

وقال فيه النووي : كاد « الإحياء » أن يكون قرآناً .

وقال الشيخ أبو محمد الكازروني : لو محيت جميع العلوم . . لاستُخْرجت من « الإحياء » .

وقال بعض علماء المالكية : الناس في فضلة علوم الغزالي ؛ أي : و« الإحياء » جماعها ، كما سيأتي أنه البحر المحيط[3]

وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلاً ، وروي عنه أنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب « الإحياء » كل فصل وحرف منه ، وأعاوده وأتدبره ، فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة ، ومفهومات عزيزة غير التي قبلها .

ولم يسبقه رضي الله عنه أحد ، ولم يلحقه أحد أثنىٰ علىٰ كتاب « الإحياء » بما أثنىٰ عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه ، وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه .

ومن كلامه رضي الله عنه فيه : عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة ؛ أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية ، خصوصاً (**كتاب ذكر الموت**) ، و(**كتاب الفقر والزهد**) ، و(**كتاب التوبة**) ، و(**كتاب رياضة النفس**) .

ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً ، وفكراً واعتباراً واعتقاداً ، وشرح الكتاب والسنة مستوفىً في كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ونفعنا به .

ومن كلامه : وبعد : فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذٰلك كله سيد المصنفين وبقية المجتهدين حجة الإسلام الغزالي في كتابه العظيم الشان ، الملقب أعجوبة الزمان ، « إحياء علوم الدين » الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة .

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب « **إحياء علوم الدين** » ، فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه . . فقد استوجب محبة الله ومحبة رسول الله ، ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الدنيا والآخرة ، وصار عالماً في الملك والملكوت .

ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتىٰ . . لما أوصوا الأحياء إلا بما في « الإحياء » .

ومن كلامه : اعلموا : أن مطالعة « الإحياء » تحضر القلب الغافل في لحظة ؛ كحضور سواد الحبر بوقوع الزاج في العفص والماء .

وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٣٩) .
(٢) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٢٠٦/٦)
(٣) انظر « مرآة الجنان » (١٩١/٣) .

ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب ، وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ، ومحبة كتبه ؛ فإن كتب الغزالي لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ما أقول .

ومن كلامه : أنا أشهد سراً وعلانية أن من طالع كتاب « إحياء علوم الدين » . . فهو من المهتدين .

ومن كلامه : من أراد طريق الله ، وطريق رسول الله ، وطريق العارفين بالله ، وطريق العلماء بالله ؛ أهل الظاهر والباطن . . **فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، خصوصاً « إحياء علوم الدين » فهو البحر المحيط** .

ومن كلامه : اشهدوا عليَّ أن من وقع على كتب الغزالي . . **فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة** .

ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما . . فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، وخصوصاً البحر المحيط « إحياءَه » أعجوبة الزمان .

ومن كلامه : نطق معاني معنويِّ القرآن ، ولسان حال قلب رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله ، وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية ؛ مثل العارفين والملامتية ، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات ، وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هٰؤلاء المذكورون أن لا شيء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب إلى رضا الرب **كمتابعة الغزالي ومحبة كتبه** .

وكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم ينفخ إسرافيل في الصور ، وفي يوم نقر الناقور ، والله وكيل على ما أقول ، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .

ومن كلامه : كتاب « إحياء علوم الدين » : فيه جميع الأسرار ، وكتاب « بداية الهداية » : فيه التقوى ، وكتاب « **الأربعين الأصل** » : فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب « منهاج العابدين » : فيه الطريق إلى الله ، وكتاب « الخلاصة في الفقه » : فيه النور .

ومن كلامه : السر كله في اتباع الكتاب والسنة ، وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة في كتاب « إحياء علوم الدين » ، المسمى : أعجوبة الزمان .

ومن كلامه : بخ بخ بخ لمن طالع « إحياء علوم الدين » أو كتبه أو سمعه .

وكلامه رضي الله عنه في تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالي وكتبه ، والحث على العمل بها ، خصوصاً « إحياء علوم الدين » .

وقد كان سيدي ووالدي الشيخ العارف بالله تعالى شيخ بن عبد الله العيدروس رضي الله عنه يقول : (إن أمهل الزمان . . جمعت كلام الشيخ عبد الله في الغزالي وسميته « الجوهر المتلالي خصوصاً من كلام الشيخ عبد الله في الغزالي ») .

فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقني الله لذٰلك ؛ تحقيقاً لرجائه ، ورجاء أن يتناولني دعاء الشيخ عبد الله رضي الله عنه ، فإنه قال : غفر الله لمن يكتب كلامي في الغزالي ، وناهيك ببشارة في هٰذه العبارة التي برزت من ولي عارف ، وقطب مكاشف ، لا يجازف في مقال ، ولا ينطق إلا عن حال ، وفي هٰذا من الشرف للغزالي وكتبه ما لا يحتاج معه إلى مزيد ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

فإن العظيم لا يعظم في عينه إلا عظيم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وإذا تصدى العيدروس لتعريفه . . فقد أغنىٰ تعريفه عن كل تعريف ووصف ، والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف .

وحصل من « الإحياء » في زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتىٰ إن بعض العوام حصلها ؛ لما رأىٰ من ترغيبه فيه ، وألزم أخاه الشيخ عليّاً قراءته ، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف .

ثم إن الشيخ علياً ألزم ولده الشيخ عبد الرحمـٰن قراءته عليه مدة حياته ، فختمه عليه أيضاً خمساً وعشرين مرة ، وكان ولده سيدي الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن التزم بطريقة النذر علىٰ نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لا أترك تحصيل « الإحياء » أبداً ما عشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ .

قلت : وكذٰلك كان سيدي الشيخ الوالد شيخ بن عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه مدمناً علىٰ مطالعته ، وحصل منه نسخاً عديدة نحو السبع ، وأمر بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة .

فملازمته ميراث عيدروسي ، وتوفيق قدوسي ، فمن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله . . بلغ الرتبة العليا ، وحاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير علي بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمـٰن السقاف : لو قَلَّب أوراق « الإحياء » كافر . . لأسلم ؛ ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس .

قلت : وهو صحيح ؛ فإني مع خسيس قصدي ، وقساوة قلبي . . أجد عند مطالعتي له من انبعاث الهمة ، وعزوف النفس عن الدنيا ما لا مزيد عليه .

ثم يفتر برجوعي إلىٰ ما أنا فيه ، ومخالطة أهل الكثافات ، ولا أجد ذٰلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق ، **وما ذاك إلا لشيء أودعه الله فيه ، وسر نفس مصنفه ، وحسن قصده .**

والمراد بـ (الكافر) هنا فيما يظهر : الجاهل بعيوب النفس ، المحجوب عن إدراك الحق ؛ أي : فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور . . يشرح الله صدره ، وينور قلبه ؛ وذٰلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ . . كان حريٌّ أن يتعظ به سامعه .

وكما أن الله تعالىٰ جعل لعباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رتبة فوق غيرهم . . كذٰلك جعل لما يبرز منهم ويؤخذ عنهم بركة زائدة علىٰ غيره ؛ لأن ألسنتهم كريمة ، وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهممهم علية ، وإشاراتهم سنية ، حتىٰ يكون للقرآن أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير في القلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر .

حتىٰ تجدُ الرجل له العلم القليل ، وبعد ذٰلك ينتفع به كثير ؛ لحسن نيته ، ووجود بركته ، وغيره له أكثر من ذٰلك العلم ، ولم ينتفع به مثله ؛ لأنه دونه في منزلته ، ومن تأمل ذٰلك . . **وجده أمراً ظاهراً معهوداً ، وشيئاً مجرباً موجوداً .**

فانظر إلىٰ نفع الناس بكتاب « الخلاف » في مذهب مالك رحمه الله تعالىٰ ، و« التنبيه » في مذهب الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، و« الجمل » في العربية ، و« الإرشاد » في علم الكلام ، وانتشارها مع أن ما حوت من العلم في فنونها قليل ، وقد جمع غير هـٰؤلاء في هـٰذه الفنون في مثل أجرام هـٰذه الكتب أضعاف ما فيها ، مع تحقيق تحرير العبارة وتشقيق المعاني ، وتخليص الحدود .

وبعد هـٰذا فالنفع بهـٰذه أكثر ، وهي أظهر وأشهر ؛ **لأن العلم بمزيد التقوىٰ وقوّة سر الإيمان ، لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان** ، كما بيَّن ذٰلك **مالك** رحمه الله تعالىٰ بقوله : **ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم نور يضعه الله في القلب**[1] .

قلت : ومما أنشده الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه لنفسه فيه قوله : [من الطويل]

أُخـيَّ انتبهْ والـزمْ سلوكَ الطَّرائقِ ... وسـارعْ إلـى المولىٰ بجدٍّ وسابقِ

أيـا طالبـاً شـرحَ الكتابِ وسنّةٍ ... وقانونِ قلبِ القلبِ بحرِ الرقائقِ

وإيضـاحَ نهجٍ للحقيقةِ مشرقٍ ... وشربَ حميًّا صفوِ راحِ الحقائقِ

وإجلاءَ أذكارِ المعاني ضواحكاً ... بباهجِ حسنٍ جاذبٍ للخلائقِ

عليكَ بـ « إحياءِ العلومِ » ولبِّها ... وأسرارِها كمْ قد حوىٰ من دقائقِ

وكم من لطيفاتٍ لذي اللبِّ منهلٌ ... وكم من مليحاتٍ سبَتْ لبَّ حاذقِ

كتابٌ جليلٌ لم يصنَّفْ قبله ... ولا بعده مثلٌ له في الطرائقِ

معانيهِ أضحتْ كالبدورِ سواطعاً ... علىٰ درِّ لفظٍ للمعاني مطابقِ

فكمْ في بديعِ اللفظِ يجلي عرائساً ... وكم من شموسٍ في حماهُ شوارقِ

وكم من عزيزاتٍ زهَتْ في قبابِها ... محجبةٍ من غير كفءٍ مسابقِ

وكم من لطيفٍ معْ بديعٍ وتحفَةٍ ... حلاوتُها كالشَّهدِ تحلو لذائقِ

بساتينُ عرفانٍ وروضُ لطائفٍ ... وجنَّةُ أنواعِ العلومِ الفوائقِ

رعى اللهُ صبّاً راتعاً في جنانها ... يروحُ ويغدو بينَ تلكَ الحدائقِ

ويقطفُ من زاكي جناها فواكهاً ... بساحلِ بحرٍ بالجواهرِ دافقِ

خضمّ طمىٰ حتىٰ علا فوقَ مَن علا ... بشامخِ مجدٍ مشرقٍ بالحقائقِ

فإنْ لم بهـٰذا القولِ تؤمنْ فجرِّبنْ ... وأقبلْ علىٰ تلك المعاني وعانقِ

وأرجِعْ طَرْفاً في بديعِ جمالِها ... **وطفْ في حماها منشداً كل سابقِ**

ترىٰ في بدور الحيِّ أقمارَ قدَ بدَتْ ... بعالي جمالٍ مدهشٍ لبَّ عاشقِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٩٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٩٨) .

فكم أنهلت صباً وكم قشَّعت عميً — وكم قد سعَتْ في غربِها والمشارقِ

فيضحي براحِ الحبِّ سكرانَ مغرماً — أصمَّ عنِ العذالِ غيرَ موافقِ

ويمسي يناديها طريحاً ببابِها — منعَّمَ عيشٍ في الربوعِ الغوادقِ

صلاةٌ علىٰ سرِّ الوجودِ شفيعِنا — محمدٍ المختارِ خيرِ الخلائقِ

وأصحابِهِ أهلِ المكارمِ والعلا — وعترتِهِ ورَّاثِ علمِ الحقائقِ

فَصْلٌ

[في الجواب عمّا استشكل من « الإحياء » وطُعِن بسببه فيه]

وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر وفي التحقيق لا إشكال ، أو أخبار وآثار تُكُلِّمَ في سندها :

فأما من جهة تلك المواضع . . فممن أَجاب عنها المصنف نفسه في كتابه المسمىٰ بـ « الأجوبة »[١] ، وأسوق لك نبذة من ذٰلك هنا :

قال رحمه الله : (سألت ـ يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها ـ عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بـ « الإحياء » مما أشكل علىٰ من حجب وقصر فهمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه .

وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وأتباع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وعار أهل الإسلام .

حتىٰ طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بالهوىٰ مجرداً علىٰ غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه إلىٰ ضلال وإضلال ، ورموا قراءه ومنتحليه بزيغ عن الشريعة واختلال . . . إلىٰ أن قال : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾) .

ثم ذكر آيات أخرىٰ في المعنىٰ ، ثم وصف الدهر وأهله ، وذهاب العلم وفضله ، ثم ذكر عذر المعترضين بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين .

بل أفصح بذٰلك في الآخر حيث قال : (حجبوا عن الحقيقة بأربعة : الجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار الدعوىٰ) .

ثم بيَّن ما ورثوه عن الأربعة المذكورة ، قال : (فالجهل أورثهم السخف . . .) إلىٰ آخر ما ذكره .

❀ ❀ ❀

وأما ما اعترض به من تضمينه أخباراً وآثاراً موضوعة أو ضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار ، والإكثار يتحاشىٰ منه المتورع ؛ لئلا يقع في الموضوع .

---

(١) أي : الأجوبة المسكتة على الأسئلة المشكلة المبكتة ، واشتهر باسم : الإملاء علىٰ مشكل الإحياء .

وحاصل ما أجيب به عن الغزالي ـ ومن المجيبين الحافظ العراقي ـ : **أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع** كما برهن عليه في التخريج ، وغير الأكثر ـ وهو في غاية القلة ـ رواه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرئاً منه بنحو صيغة (روي) .

وأما الاعتراض عليه بأنَّ فيما ذكره الضعيف بكثرة . . **فهو اعتراض ساقط** ؛ لما تقرر أنه يعمل به في الفضائل ، وكتابه في الرقائق ، فهو من قبيلها .

ولأن له أسوة بأئمة الحفاظ في اشتمال كتبهم على الضعيف بكثرة ، المنبَّه علىٰ ضعفه تارة ، والمسكوت عنه أخرىٰ .

وهـٰذه كتب الفقه للمتقدمين ، وهي كتب الأحكام لا الفضائل يوردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها ، حتىٰ جاء النووي رحمه الله في المتأخرين ونبه علىٰ ضعف الحديث وخلافه كما أشار إلىٰ ذٰلك كله العراقي .

قال عبد الغافر الفارسي سبط القشيري : (ظهرت تصانيف الغزالي وفشت ، ولم يبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لمآثره . . .) إلىٰ آخر ما ذكره[1]

ومما يدلك علىٰ جلالة كتب الغزالي : ما نقل ابن السمعاني من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم كأن الشمس طلعت من مغربها ، مع تعبير ثقات المعبِّرين ببدعة تحدث ، فحدثت في جهة المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه[2]

ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب . . أمر سلطانه علي بن يوسف بإحراقها ؛ لتوهمه اشتمالها على الفلسفة ، وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذٰلك ، فظهر بسبب أمره في مملكته مناكير ، ووثب عليه الجند ، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد في عكس ونكد ، بعد أن كان عادلاً[3]

* * *

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/٢٠٧) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/٢١٧) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٩/٣٣٦) .

(٣) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/٢١٩) .

خاتمة
في الإشارة إلى ترجمة المصنف رضي الله عنه وعنا به ، ونفعنا بعلومه وأسراره وسبب رجوعه إلى طريق الصوفية رضي الله عنهم

أما ترجمته رضي الله عنه : فهو الإمام زين الدين ، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي النيسابوري ، الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري .

الذي انتشر فضله في الآفاق وفاق ، ورزق الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودتها ، والنصيب الأكبر في جزالة العبارة وسهولتها ، وحسن الإشارة وكشف المعضلات ، والتبحر في أصناف العلوم فروعها وأصولها ، ورسوخ القدم في منقولها ومعقولها ، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها ، مع ما خصه الله به من الكرامة ، وحسن السيرة والاستقامة ، والزهد والعزوف عن زهرة الدنيا ، والإعراض عن الجهات[1] الفانية ، واطراح الحشمة والتكلف .

قال الحافظ العلامة ابن عساكر ، والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي ، والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي رحمهم الله تعالىٰ :

ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمسين وأربع مئة ، وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه .

ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين ، وجدَّ واجتهد ، حتىٰ تخرج في مدة قريبة ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه .

ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه ، وحل منه محلاً عظيماً ؛ لعلو درجته ، وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطَّ رحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء .

ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة ؛ من مناظرة الفحول ؛ فظهر اسمه ، وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلىٰ بغداد ؛ للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، **فسار إليها** ، وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق ، بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة .

ثم انقلب الأمر من جهة أخرىٰ ، فترك بغداد ، وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتغلاً بأسباب التقوىٰ ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إلىٰ مثلها ، مثل « إحياء علوم الدين » وغيره ، **التي من تأملها . . عرف محل مصنفها من العلم** .

قيل : إن تصانيفه وزعت علىٰ أيام عمره فأصاب كل يوم كراس .

ثم سار إلى القدس ، مقبلاً علىٰ مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، حتىٰ مرن علىٰ ذلك .

---

(١) في (ح) : (عن الجاهات) .

ثم عاد إلىٰ وطنه طوس ، لازماً بيته ، مقبلاً على العبادة ، ونصح العباد وإرشادهم ، ودعائهم إلى الله تعالىٰ ، والاستعداد للدار الآخرة ، يرشد الضالين ، ويفيد الطالبين ، دون أن يرجع إلىٰ ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة .

وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولىٰ سنة خمس وخمس مئة ، خصه الله تعالىٰ بأنواع الكرامة في أخراه كما خصه بها في دنياه[1]

قيل : وكانت مدة القطبية للغزالي ثلاثة أيام علىٰ ما حكي في كرامات الشيخ سعيد العمودي نفع الله به .

وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالىٰ بإسناده الثابت إلى الشيخ الكبير القطب الرباني شهاب الدين أحمد الصياد اليمني الزبيدي ـ وكان معاصراً للغزالي نفع الله بهما ـ قال : بينما أنا ذات يوم قاعد ؛ إذ نظرت إلىٰ أبواب السماء مفتحة ؛ وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ، ومركوب نفيس ، فوقفوا علىٰ قبر من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع ، وأركبوه وصعدوا به من سماء إلىٰ سماء إلىٰ أن جاوز السماوات السبع ، وخرق بعدها ستين حجاباً ، ولا أعلم إلىٰ أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لي : هـٰذا الإمام الغزالي ، وكان ذٰلك عقيب موته رحمه الله تعالىٰ[2]

ورأىٰ في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقد باهىٰ موسىٰ وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : « أفي أمتكما حبر كهـٰذا ؟ » قالا : لا[3]

وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة . . فليتوسل بالغزالي .

وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم ؛ منهم الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، في أن الله تعالىٰ يحدث لهـٰذه الأمة من يجدد لها دينها علىٰ رأس كل مئة سنة[4] :

إنه كان علىٰ رأس المئة الأولىٰ : عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

وعلىٰ رأس المئة الثانية : الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وعلىٰ رأس المئة الثالثة : الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه[5]

وعلىٰ رأس المئة الرابعة : أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه .

وعلىٰ رأس المئة الخامسة : أبو حامد الغزالي رضي الله عنه[6]

وروي ذٰلك عن الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين ؛ أعني : عمر بن عبد العزيز والشافعي[7] .

---

(١) تاريخ دمشق (٥٥/٢٠٠) ، مرآة الجنان (٣/١٧٧ ـ ١٧٨) ، المهمات (١/٢٧٦) .

(٢) مرآة الجنان (٣/٣٢٨ ـ ٣٢٩) .

(٣) ذكرها اليافعي في « مرآة الجنان » (٣/٣٢٩) ، والسبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/٢٥٧) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) في هامش (ظ ، غ) : (قال الإمام النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » [٢/٣٩] : والمشهور : أن المجدد علىٰ رأس المئة الثالثة الإمام ابن سريج المكنى الباز الأشهب ، والله أعلم) .

(٦) تبيين كذب المفتري (ص ٥٣) ، وانظر « مرآة الجنان » (٢/٣٠٣) ، و« تاريخ الإسلام » (٢٣/١٧٩) .

(٧) رواه البيهقي في « معرفة السنن والآثار » (١/٢٠٨) .

ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ .

* * *

ومن مشهورات مصنفاته :

« البسيط » ، و« الوسيط » ، و« الوجيز » ، و« الخلاصة » في الفقه .

و« إحياء علوم الدين » ، وهو من أنفس الكتب وأجملها .

وله في أصول الفقه : « المستصفىٰ » ، و« المنخول » .

و« المنتحل » في علم الجدل ، و« تهافت الفلاسفة » ، و« محك النظر » .

و« معيار العلم » ، و« المقاصد » و« المضنون به علىٰ غير أهله » .

و« مشكاة الأنوار » ، و« المنقذ من الضلال » ، و« حقيقة القولين » .

وكتاب « ياقوت التأويل في تفسير التنزيل » أربعين مجلداً .

وكتاب « أسرار علم الدين » .

وكتاب « منهاج العابدين » ، و« الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة » ، وكتاب « الأنيس في الوحدة » .

وكتاب « القربة إلى الله عز وجل » ، وكتاب « أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار » .

وكتاب « بداية الهداية » ، وكتاب « جواهر القرآن » ، و« الأربعين في أصول الدين » .

وكتاب « المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ » ، وكتاب « ميزان العمل » .

وكتاب « القسطاس المستقيم » ، وكتاب « التفرقة بين الإسلام والزندقة » .

وكتاب « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » ، وكتاب « المبادئ والغايات » .

وكتاب « كيمياء السعادة » ، وكتاب « تلبيس إبليس » ، وكتاب « نصيحة الملوك » .

وكتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » ، وكتاب « شفاء العليل في القياس والتعليل » ، وكتاب « المقاصد » .

وكتاب « إلجام العوام عن علم الكلام » ، وكتاب « الانتصار » ، وكتاب « الرسالة اللدنية » .

وكتاب « الرسالة القدسية » ، وكتاب « إثبات النظر » ، وكتاب « المأخذ » .

وكتاب « القول الجميل في الرد علىٰ من غيّر الإنجيل » ، وكتاب « المستظهري » .

وكتاب « الأمالي » ، وكتاب في علم أعداد الوفق وحدوده ، وكتاب « مقصد الخلاف » .

وجزء في الرد على المنكرين في بعض ألفاظ « إحياء علوم الدين » .

وكتبه كثيرة ، وكلها نافعة .

* * *

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشي المحدث الصوفي صاحب كتاب « النجم والكواكب »[1] : [من الطويل]

أبا حامدٍ أنتَ المخصَّصُ بالمجدِ ... وأنت الذي علَّمتَنا سننَ الرُّشدِ

وضعتَ لنا « الإحياءَ » تُحيي نفوسَنا ... وتُنقذُنا من طاعةِ النازغِ المردي

فربعُ عباداتٍ وعاداتُهُ التي ... تعاقِبُها كالدرِّ نُظِّمَ في العقدِ

وثالثُها في المهلكاتِ وإنَّهُ ... لمنجٍ من الهلكِ المبرِّحِ والبعدِ

ورابُعها في المنجياتِ وإنَّهُ ... ليسرحُ بالأرواحِ في جنَّةِ الخلدِ

ومنها ابتهاجٌ للجوارحِ ظاهرٌ ... ومنها صلاحٌ للقلوبِ من الحقدِ

❀ ❀ ❀

وأما سبب رجوعه إلىٰ هٰذه الطريقة واستحسانه لها : فذكر رحمه الله في كتابه « المنقذ من الضلال » ما صورته : (**أما بعد** : فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلىٰ يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما اجتويته ثانياً من طرق أهل التعليم[2] ، القاصرين لدرك الحق علىٰ تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق أهل التفلسف ، وما ارتضيته آخراً من طرق أهل التصوف ، وما تنخَّلَ لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل أهل الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلىٰ معاودته بنيسابور بعد طول المدة ؟

فابتدرت لإجابتك إلىٰ طلبتك ، بعد الوقوف علىٰ صدق رغبتك ، فقلت مستعيناً بالله تعالىٰ ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه وملتجئاً إليه :

اعلموا ـ أحسن الله إرشادكم ، وألان إلىٰ قبول الحق انقيادكم ـ : أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب علىٰ كثرة الفرق وتباين الطرق . . بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

ولم أزل في عنفوان شبابي مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين ، إلىٰ أن أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجَسور ؛ لا خوض الجبان الحَذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأهجم علىٰ كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذاهب كل طائفة ؛ لأميز بين محق ومبطل ، ومستنٍّ ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع علىٰ باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف علىٰ فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع علىٰ غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص

---

(١) نقلها عنه اليافعي في « مرآة الجنان » (٣/١٨٠) .

(٢) اجتويته : كرهته .

على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلىٰ درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري . . غريزة من الله وفطرة وضعها الله في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عني العقائد الموروثة علىٰ قرب عهد مني بالصبا ؛ إذ رأيت صبيان النصارىٰ لا يكون لهم نشوءٌ إلا على التنصُّر ، وصبيان اليهود لا يكون لهم نشوءٌ إلا على التهود ، وصبيان الإسلام لا يكون لهم نشوءٌ إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروي عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ »[(١)] ، فتحرك باطني إلىٰ طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالِدِينَ ، والأُستاذِينَ ، والتمييز بين هـٰذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات .

فقلت في نفسي أولاً : إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هي ؟

فظهر لي أن العلم اليقيني : هو الذي ينكشف به المعلوم انكشافاً لا يبقىٰ معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذٰلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنةً لو تحدىٰ بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً . . لم يؤثر ذٰلك شكاً وإمكاناً .

فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد ، لو قال لي قائل : الواحد أكثر من العشرة ، بدليل أني أقلب هـٰذه العصا ثعباناً وقلبها وشاهدت ذٰلك منه . . لم أشك في معرفتي لكذبه ، ولم يحصل معي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته . . فلا .

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه علىٰ هـٰذا الوجه ، ولا أتيقنه من هـٰذا النوع من اليقين . . فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه . . ليس بعلم يقيني .

ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي عاطلاً عن علم موصوف بهـٰذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات ، فقلت : الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المستيقنات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولاً ؛ لأتبين أن يقيني بالمحسوسات وأماني من الغلط في الضروريات . . من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات ، أو من جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا تجوُّز فيه ولا غائلة له ؟

فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، أنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟

فانتهىٰ بعد طول التشكك بي إلىٰ أنه لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته وعُقِّلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أردت أن أصنفه ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي .

ولم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد علىٰ مقام الاختيار ؛ أصمم عزمي على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٦٥٨) .

يوماً وأحل العزمَ يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر فيه أخرىٰ ، ولا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة [بكرة] . . إلا حمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية .

فصارت شهوات الدنيا تجاذبني ، بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي : الرحيلَ الرحيلَ ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخييل ، وإن لم تستعد الآن للآخرة . . فمتىٰ تستعد ؟! وإن لم تقطع الآن هـٰذه العلائق . . فمتىٰ تقطعها ؟!

فعند ذٰلك تنبعث الرغبة ، وينجزم الأمر على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هـٰذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها ؛ فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها ، وتركت هـٰذا الجاه الطويل العريض ، والشأن العظيم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر السالم الخالي عن منازعة الخصوم . . ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربع مئة .

وفي هـٰذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ؛ إذ أقفل الله علىٰ لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إليّ ، فكان لا ينطق لساني بكلمة ، ولا أستطيعها ألبتة .

حتىٰ أورثت هـٰذه العُقْلَة في اللسان حزناً في القلب [1] ، بطلت معه قوّة الهضم ومراءة [2] الطعام والشراب ، وكان لا تنساغ لي شربة ، ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدىٰ ذٰلك إلىٰ ضعف القوىٰ ، حتىٰ قطع الأطباء طمعهم في العلاج ، وقالوا : هـٰذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرىٰ إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم .

ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري . . التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ؛ فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهَّل علىٰ قلبي الإعراضَ عن المال والجاه ، والأهل والأولاد .

وأظهرتُ غرض الخروج إلىٰ مكة ، وأنا أدبر في نفسي سفر الشام ؛ حذراً من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب علىٰ غرضي في المقام بالشام .

فتلطفتُ بلطائف الحيل في الخروج من بغداد علىٰ عزم ألَّا أعاودها أبداً ، واستهزأ بي أئمة العراق كافة ؛ إذ لم يكن فيهم من يجوِّز أن يكون للإعراض عما كنت فيه سبب دينيٌّ ؛ إذ ظنوا أن ذٰلك هو المنصب الأعلىٰ في الدين ، فكان ذٰلك هو مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، فظنَّ مَنْ بَعُدَ عن العراق أن ذٰلك لاستشعار من جهة الولاة .

وأما من قرب منهم . . فكان يشاهد لجاجهم في التعلق بي والإنكار عليّ ، وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلىٰ قولهم ؛ فيقولون : هـٰذا أمر سماوي ، ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم .

---

(١) العقلة : التواء في اللسان عند إرادة الكلام ، والمراد هنا : الحُبْسَةُ ، وهي امتناع وتعذر الكلام

(٢) في النسخ : (ومري) ، والمثبت من « المنقذ من الضلال » .

ففارقت بغداد ، وفارقت ما كان معي من مال ، ولم أدخر من ذلك إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ؛ ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ؛ لكونه وقفاً على المسلمين ، ولم أر في العالم ما يأخذ العالم لعياله أصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت فيه قريباً من سنتين ، لا شغل لي إلا العزلة والخلوة ، والرياضة والمجاهدة ؛ اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالىٰ ؛ كما كنت حصلته من علم الصوفية .

وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها علىٰ نفسي .

[ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها علىٰ نفسي] .

ثم تحرك بي داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، فسرت إلى الحجاز .

ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، وعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه ، وآثرت العزلة حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة .

لٰكنِّي مع ذلك لا أقطع طمعي عنها ، فيدفعني عنها العوائق وأعود إليها ، ودمت علىٰ ذلك مقدار عشر سنين .

وانكشف لي في أثناء هٰذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها .

والقدر الذي ينبغي أن نذكره ليُنتفعَ به : أني علمت يقيناً : أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين علىٰ أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه . . لم يجدوا إليه سبيلاً !! فإنَّ جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة علىٰ وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : ماذا يقول القائل في طريقة أول شروطها : تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالىٰ ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحرم في الصلاة : استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالىٰ ، وهو أقواها بالإضافة إلىٰ ما تحت الاختيار) انتهىٰ [١] .

❀ ❀ ❀

قال العراقي : فلما نفذت كلمته ، وبعد صيته ، وعلت منزلته ، وشدت إليه الرحال ، وأذعنت له الرجال . . شرفت نفسه عن الدنيا ، واشتاقت إلى الأخرىٰ ، فاطَّرحها ، وسعىٰ في طلب الباقية ، وكذٰلك النفوس الزكية ؛ كما قال عمر بن عبد العزيز : (إنَّ لي نفساً توّاقة ذوّاقة ، لما نالت الدنيا . . تاقت إلى الآخرة) [٢] .

قال بعض العلماء : رأيت الغزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة وبيده عكازة وركوة ، فقلت له :

---

(١) المنقذ من الضلال (ص ٢٩ ـ ٧١) مختصراً .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٣٢) .

يا إمام ؛ أليس التدريس ببغداد أفضل من هٰذا ؟

فنظر إليَّ شزراً وقال : لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة ، وظهرت شموس الوصل . .

تـركْـتُ هـوىٰ لـيـلـىٰ وسـعـدىٰ بـمـعـزِلِ وعــدتُ إلــىٰ مـصـحـوبِ أولِ مـنـزلِ

ونــادتــنــيَ الأشـــواقُ مــهــلاً فــهـٰذهِ مــنــازلُ مَــنْ تــهــوىٰ رويــدَكَ فــانــزلِ [1]

تمّ تعريف الأحياء بفضائل الإحياء ، بمنّه وكرمه

والحمد لله ربّ العالمين

وهو حسبي ونعم الوكيل ، نعم المولىٰ ونعم النصير [2]

---

(١) البيتان من الطويل ، وأوردهما ابن العماد في « شذرات الذهب » (٦/٢٢) وفيه زيادة بيت :

غـزلْـتُ لـهـم غـزلاً دقـيـقـاً فـلـم أجـدْ لـغـزلـيَ نـسَّـاجـاً فـكـسَّـرتُ مـغـزلـي

(٢) خاتمة النسخة (ظ) :

وكان الفراغ من كتابته ضحوة يوم الأربعاء وعشرين خلت من شهر رمضان المعظم سنة (١٢٥٥ هـ) خمس وخمسين بعد المئتين والألف .

وذٰلك بقلم مقتنيه لنفسه جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن علوي الحداد علوي .

وبهامشها : (بلغ مقابلة من نسخة المنقول منه)

خاتمة النسخة (غ) :

وكان الفراغ من كتابته ضحوة يوم الخميس وتاسع وعشر من شهر صفر الخير سنة (١٢٦٧ هـ) ، وذٰلك بقلم أفقر عباد الله في الأرض المسكين سالم بن عبد الله بن حمد بن عمر بن عبد الباسط ، اغفر اللهم له ووالديه ومعلميه وجميع المسلمين .

خاتمة النسخة (ح) :

تم كتاب « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » بعون الله وحسن توفيقه ، وصلى الله علىٰ خير خلقه ، محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

الحمد لله وقد نظمت معاني قول الشيخ الغزالي : (**وبالجملة ماذا يقول القائل . . . إلىٰ آخر المقالة**) ، **فقلت** :

مــاذا يــقــول الــنــاس فــي طــريــقِ مــبــداه طــهــر الــقــلــب بــالــتــحــقــيــقِ

عــمَّــا ســوى الله الــعــظــيــم ربــنَــا يــا رب طــهِّــر قــلــبــنــا يــا حــسْــبُــنَــا

وعــقــده اســتــغــراق كــل الــقــلــبِ بــذكــر مــولانــا الــكــريــم ربِّــي

وخــتــمــه الــفــنــاء بــالــكــلــيَّــهْ فــي الله ربــي خــالــق الــبــريــهْ

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

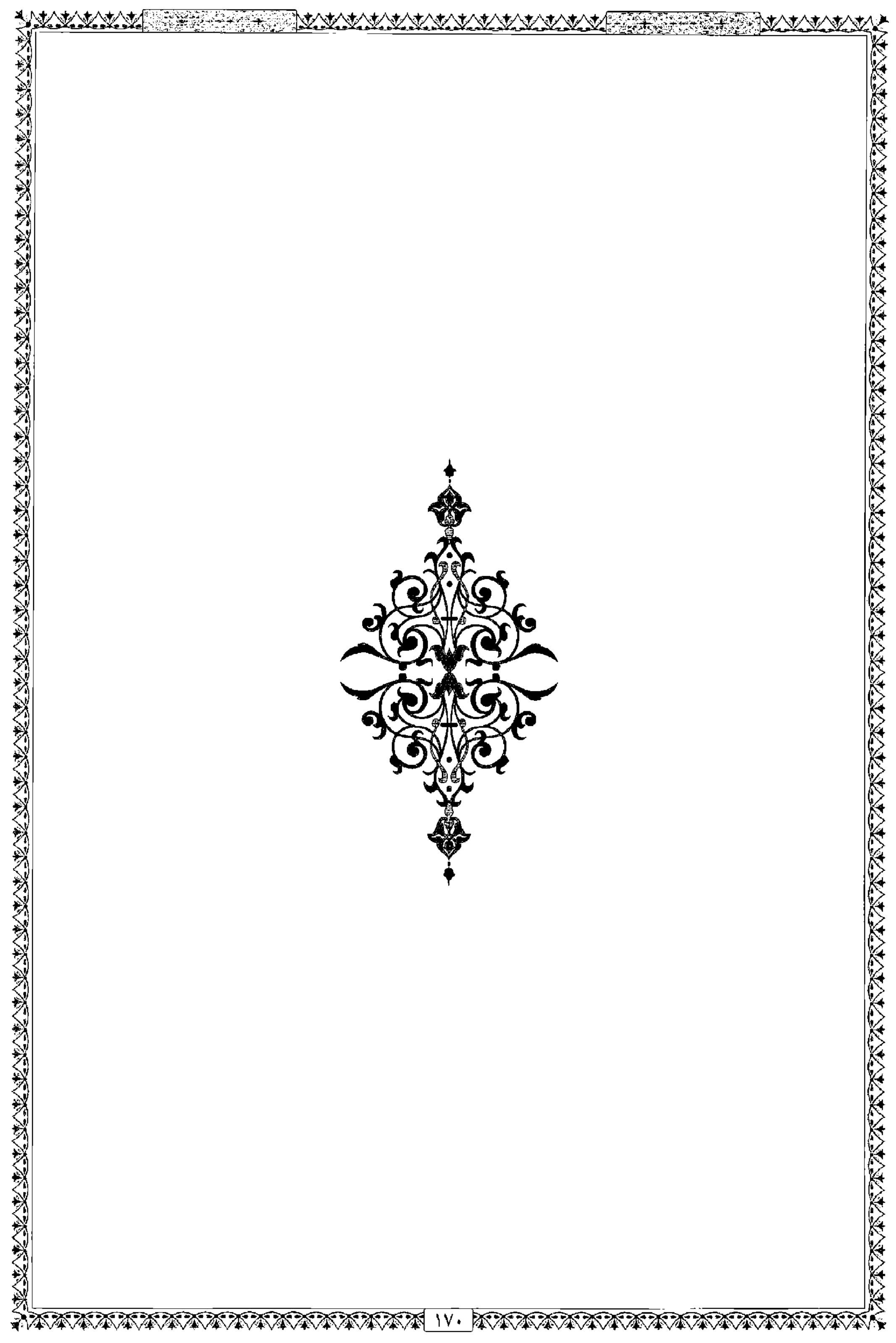
الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١م)

ربع العبادات

كتاب



خطبة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

رب يسر وأعن وتمم بخير يا كريم

قال الشيخ الإمام الأوحد زين الدين شرف الأئمة حجة الإسلام
أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمة الله عليه :

أحمدُ اللهَ تعالىٰ أوّلاً ، حمداً كثيراً متوالياً وإنْ كانَ يتضاءلُ دونَ حقّ جلالِهِ حمدُ الحامدينَ .

وأصلّي وأسلّمُ علىٰ رسولِهِ ثانياً ، صلاةً تستغرقُ مع سيّدِ البشرِ سائرَ المرسلينَ .

وأستخيرُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ ثالثاً ، فيما انبعثَ لهُ عزمي مِنْ تحريرِ كتابٍ في إحياءِ علومِ الدينِ .

وأنتدبُ لقطْعِ تعجُّبِكَ رابعاً ، أيُّها العاذلُ الغالي في العذلِ مِنْ بينِ زمرةِ الجاحدينَ [١] ، المسرفُ في التقريعِ والإنكارِ مِنْ طبقاتِ المنكرينَ الغافلينَ .

فلقدْ حلَّ عَنْ لساني عقدةَ الصمتِ ، وطوّقني عهدةَ الكلامِ وقلادةَ النطقِ ما أنتَ مثابرٌ عليهِ من العمىٰ عَنْ جليّةِ الحقِّ ، مع اللَّجاجِ في نصرةِ الباطلِ وتحسينِ الجهلِ ، والتشغيبِ علىٰ مَنْ آثرَ النزوعَ قليلاً عَنْ مراسمِ الخلقِ ، ومالَ ميلاً يسيراً عن ملازمةِ الرسمِ إلى العملِ بمقتضى العلمِ ؛ طمعاً في نيلِ ما تعبَّدَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ من تزكيةِ النفسِ وإصلاحِ القلبِ ، وتداركاً لبعضِ ما فَرَطَ منْ إضاعةِ العمرِ يأساً عَنْ تمامِ التلافي والجبْرِ ، وانحيازاً عَنْ غِمارِ مَنْ قالَ فيهم صاحبُ الشرعِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ سبحانَهُ بعلمِهِ » [٢] .

ولعمري ؛ لا سببَ لإصرارِكَ على النكيرِ إلا الداءُ الذي عمَّ الجمَّ الغفيرَ ، بلْ شمِلَ الجماهيرَ ؛ من القصورِ عنْ ملاحظةِ ذُروةِ هـٰذا الأمرِ ، والجهلِ بأنَّ الأمرَ إِدٌّ والخطبَ جِدٌّ [٣] ، والآخرةَ مقبلةٌ والدنيا مدبرةٌ ، والأجلَ قريبٌ والسفرَ بعيدٌ ، والزادَ طفيفٌ والخطرَ عظيمٌ ، والطريقَ سَدٌّ ، وما سوى الخالصِ لوجهِ اللهِ تعالىٰ من العلمِ والعملِ عندَ الناقدِ البصيرِ ردٌّ ، وسلوكَ طريقِ الآخرةِ مع كثرةِ الغوائلِ مِنْ غيرِ دليلٍ ولا رفيقٍ متعبٌ مكدٌّ .

---

(١) أنتدب : أسارع ، والغالي : المجاوز الحد في كل أمر .

(٢) رواه الطبراني في « الصغير » (١٨٢/١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٣) الإدُّ : الداهية والأمر الفظيع .

فأدلَّةُ الطريقِ هم العلماءُ الذينَ همْ ورثةُ الأنبياءِ ، وقد شَغَرَ عنهمُ الزمانُ ، ولمْ يبقَ إلا المترسّمونَ ، وقد استحوذَ علىٰ أكثرِهمُ الشيطانُ ، واستغواهمُ الطغيانُ ؛ فأصبحَ كلُّ واحدٍ بعاجلِ حظِّهِ مشغوفاً ، فصارَ يرى المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً ، حتىٰ ظلَّ علَمُ الدينِ مندرساً ، ومنارُ الهدىٰ في أقطارِ الأرضِ منطمساً .

ولقد خيَّلُوا إلى الخلقِ أنْ لا علمَ إلا فتوىٰ حكومةٍ تستعينُ بها القضاةُ علىٰ فصلِ الخصامِ عندَ تهارشِ الطَّغامِ[1] ، أو جدلٌ يتدرَّعُ بِهِ طالبُ المباهاةِ إلى الغلبةِ والإفحامِ ، أو سجعٌ مزخرفٌ يتوسَّلُ بِهِ الواعظُ إلى استدراجِ العوامِّ ؛ إذْ لمْ يرَوا ما سوىٰ هـٰذهِ الثلاثةِ مصيدةً للحرامِ وشبكةً للحُطامِ .

فأمَّا علمُ طريقِ الآخرةِ وما درجَ عليهِ السلفُ الصالحُ ؛ ممَّا سمَّاهُ اللهُ سبحانَهُ في كتابِهِ فقهاً وحكمةً وعلماً ، وضياءً ونوراً ، وهدايةً ورشداً . . فقدْ أصبحَ مِنْ بينِ الخلقِ مطوياً ، وصارَ نسياً منسياً .

ولمَّا كانَ هـٰذا ثَلْماً في الدينِ ملِمّاً ، وخطباً مدلهمّاً . . رأيتُ الاشتغالَ بتحريرِ هـٰذا الكتابِ مهمّاً ؛ إحياءً لعلومِ الدينِ ، وكشفاً عَنْ مناهجِ الأئمَّةِ المتقدمينَ ، وإيضاحاً لما هي العلومُ النافعةُ عندَ النبيِّين والسلفِ الصالحينَ ، سلامُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ .

ولقدْ أسَّسْتُهُ علىٰ أربعةِ أرباعٍ : ربعِ العباداتِ ، وربعِ العاداتِ ، وربعِ المهلكاتِ ، وربعِ المنجياتِ .

وصدَّرتُ الجملةَ بكتابِ العلمِ ؛ لأنَّه غايةُ المهمِّ ، لأكشفَ أولاً عَنِ العلمِ الذي تعبَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الأعيانَ بطلبِهِ علىٰ لسانِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[2] ، وأميزَ فيهِ العلمَ النافعَ مِنَ الضارِّ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعوذُ باللهِ مِنْ علمٍ لا ينفعُ »[3] ، وأحقِّقَ ميلَ أهلِ العصرِ عَنْ شاكلةِ الصوابِ ، وانخداعَهُمْ بلامعِ السرابِ ، واقتناعَهُمْ مِنَ العلومِ بالقِشْرِ عَنِ اللبابِ .

❁ ❁ ❁

ويشتملُ ربعُ العباداتِ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ العلمِ ، وكتابِ قواعدِ العقائدِ ، وكتابِ أسرارِ الطهارةِ ، وكتابِ أسرارِ الصلاةِ ، وكتابِ أسرارِ الزكاةِ ، وكتابِ أسرارِ الصيامِ ، وكتابِ أسرارِ الحجِّ ، وكتابِ آدابِ تلاوةِ القرآنِ ، وكتابِ الأذكارِ والدعواتِ ، وكتابِ ترتيبِ الأورادِ في الأوقاتِ .

وأمَّا ربعُ العاداتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ آدابِ الأكلِ ، وكتابِ آدابِ النكاحِ ، وكتابِ أحكامِ الكسْبِ ، وكتابِ الحلالِ والحرامِ ، وكتابِ آدابِ الصحبةِ والمعاشرةِ مع أصنافِ الخلقِ ، وكتابِ العزلةِ ، وكتابِ آدابِ السفرِ ، وكتابِ السماعِ والوجْدِ ، وكتابِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عَنِ المنكرِ ، وكتابِ آدابِ المعيشةِ وأخلاقِ النبوَّةِ .

---

(1) قوله : (**إلا فتوىٰ حكومة**) : هو ما يكتب في أجوبة المسائل في الواقعات والنوازل من الحلال والحرام والإباحة والمنع ، **والطغام** : أراذل الناس وأوغادهم . « إتحاف » (١/٥٨) .

(2) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

(3) رواه مسلم (٢٧٢٢) .

وأمَّا ربعُ المهلكاتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ شرحِ عجائبِ القلبِ ، وكتابِ رياضةِ النفْسِ ، وكتابِ آفاتِ الشهوتينِ : شهوةِ البطنِ وشهوةِ الفرجِ ، وكتابِ آفاتِ اللسانِ ، وكتابِ آفاتِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ ، وكتابِ ذمِّ الدنيا ، وكتابِ ذمِّ المالِ والبخلِ ، وكتابِ ذمِّ الجاهِ والرياءِ ، وكتابِ ذمِّ الكبْرِ والعُجبِ ، وكتابِ ذمِّ الغرورِ .

وأمَّا ربعُ المنجياتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ التوبةِ ، وكتابِ الصبرِ والشكرِ ، وكتابِ الخوفِ والرجاءِ ، وكتابِ الفقرِ والزهدِ ، وكتابِ التوحيدِ والتوكلِ ، وكتابِ المحبَّةِ والشوقِ والأنسِ والرضا ، وكتابِ النيَّةِ والصدْقِ والإخلاصِ ، وكتابِ المراقبةِ والمحاسبةِ ، وكتابِ التفكُّرِ ، وكتابِ ذكرِ الموْتِ [1]

❁ ❁ ❁

فأمَّا ربعُ العباداتِ : فأذكرُ فيهِ مِنْ خفايا آدابِها ، ودقائقِ سُنَنِها ، وأسرارِ معانيها ، ما يضطرُّ العالمُ العاملُ إليهِ ، بلْ لا يكونُ مِنْ علماءِ الآخرةِ مَنْ لمْ يطلعْ عليهِ ، وأكثرُ ذلكَ ممَّا أُهملَ في فنِّ الفقهياتِ .

وأمَّا ربعُ العاداتِ : فأذكرُ فيهِ أسرارَ المعاملاتِ الجاريةِ بينَ الخلقِ ، وأغوارَها ، ودقائقَ سنَنِها ، وخفايا الورعِ في مجاريها ، وهيَ ممَّا لا يستغني متديِّنٌ عنها .

وأمَّا ربعُ المهلكاتِ : فأذكرُ فيهِ كلَّ خُلُقٍ مذمومٍ وردَ القرآنُ بإماطتِهِ وتزكيةِ النفسِ عنهُ ، وتطهيرِ القلبِ منهُ ، وأذكرُ مِنْ كلِّ واحدٍ مِنْ تلكَ الأخلاقِ حدَّهُ وحقيقتَهُ ، ثمَّ سببَهُ الذي منهُ يتولَّدُ ، ثمَّ الآفاتِ التي عليها تترتَّبُ ، ثمَّ العلاماتِ التي بها تتعرَّفُ ، ثم طرقَ المعالجةِ التي بها منها يُتخلَّصُ ، كلَّ ذلكَ مقروناً بشواهدِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ .

وأمَّا ربعُ المنجياتِ : فأذكرُ فيهِ كلَّ خُلُقٍ محمودٍ ، وخَصْلةٍ مرغوبٍ فيها مِنْ خصالِ المقرَّبينَ والصدِّيقينَ ، التي بها يتقرَّبُ العبدُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، وأذكرُ في كلِّ خَصلةٍ حدَّها وحقيقتَها ، وسببَها الذي بهِ تُجتَلَبُ ، وثمرتَها التي منها تُستفادُ ، وعلامتَها التي بها تتعرَّفُ ، وفضيلتَها التي لأجلِها فيها يُرغبُ ، مع ما وردَ فيها مِنْ شواهدِ الشرعِ والعقلِ .

ولقدْ صُنِّفَ في بعضِ هـٰذهِ المعاني كتبٌ [2] ، ولـٰكنْ يتميَّزُ هـٰذا الكتابُ عنها بخمسةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : حلُّ ما عقدُوهُ ، وكشفُ ما أجملُوهُ .

الثاني : ترتيبُ ما بدَّدُوهُ ، ونظمُ ما فرَّقُوهُ .

الثالثُ : إيجازُ ما طوَّلوهُ ، وضبطُ ما قرَّروهُ .

الرابعُ : حذفُ ما كرَّروهُ ، وإثباتُ ما حرَّروهُ .

---

(١) وقد التمس الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/٦٠) ترابطاً منطقياً لهـٰذه الكتب الأربعين

(٢) كـ « قوت القلوب » و« الرعاية » و« منازل السائرين » و« الرسالة » و« التعرُّف » وغيرها . « إتحاف » (١/٦٢) .

الخامسُ : تحقيقُ أمورٍ غامضةٍ اعتاصتْ على الأفهامِ لمْ يُتعرَّضْ لها في الكتبِ أصلاً ؛ إذِ الكلُّ وإنْ تواردوا علىٰ منهجٍ واحدٍ فلا مستنْكَرَ أنْ ينفردَ كلُّ واحدٍ مِنَ السالكينَ بالتنبُّهِ لأمرٍ يخصُّهُ ويغفُلُ عنهُ رفقاؤُهُ ، أوْ لا يغفُلُ عنِ التنبُّهِ لهُ ولٰكنْ يسهو عَنْ إيرادِهِ في الكتبِ ، أوْ لا يسهو ولٰكنْ يصرفُهُ عَنْ كشفِ الغطاءِ عنهُ صارفٌ .

فهٰذهِ خواصُّ هٰذا الكتابِ ، مع كونِهِ حاوياً لمجامعِ هٰذهِ العلومِ .

❊ ❊ ❊

وإنَّما حملَني علىٰ تأسيسِ الكتابِ علىٰ أربعةِ أرباعٍ أمرانِ :

ـ **أحدُهما وهو الباعثُ الأصليُّ** : أنَّ هٰذا الترتيبَ في التحقيقِ والتفهيمِ كالضروريِّ ؛ لأنَّ العلمَ الذي يُتوجَّهُ بهِ إلى الآخرةِ ينقسمُ إلىٰ علمِ المعاملةِ وعلمِ المكاشفةِ .

وأعني بعلمِ المكاشفةِ : ما يُطلبُ منهُ كشفُ المعلومِ فقطْ .

وأعني بعلمِ المعاملةِ : ما يُطلبُ منهُ معَ الكشْفِ العملُ بهِ .

والمقصودُ من هٰذا الكتابِ : علمُ المعاملةِ فقطْ دونَ علمِ المكاشفةِ التي لا رخصةَ في إيداعِها الكتبَ ، وإنْ كانتْ هيَ غايةَ مقصدِ الطالبينَ ، ومطمحَ نظرِ الصدِّيقينَ(١) ، وعلمُ المعاملةِ طريقٌ إليهِ ، ولٰكنْ لمْ يتكلَّمِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ معَ الخلقِ إلا في علمِ الطريقِ والإرشادِ إليهِ ، وأمَّا علمُ المكاشفةِ . . فلمْ يتكلَّموا فيهِ إلا بالرمزِ والإيماءِ علىٰ سبيلِ التمثيلِ والإجمالِ(٢) ؛ علماً منهمْ بقصورِ أفهامِ الخلْقِ عنِ الاحتمالِ ، والعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ ، فما لهُمْ سبيلٌ إلى العدولِ عن نهجِ التأسِّي والاقتداءِ .

ثمَّ إنَّ علمَ المعاملةِ ينقسمُ إلىٰ **علمٍ ظاهرٍ** ؛ أعني العلمَ بأعمالِ الجوارحِ ، وإلىٰ **علمٍ باطنٍ** ؛ أعني العلمَ بأعمالِ القلوبِ .

والجاري على الجوارحِ : إمَّا **عبادةٌ** أوْ **عادةٌ** .

والواردُ على القلوبِ التي هيَ بحكمِ الاحتجابِ عنِ الحواسِّ مِنْ عالمِ الملكوتِ : إمَّا **محمودٌ** ، وإمَّا **مذمومٌ** .

فبالواجبِ انقسمَ هٰذا العلمُ إلىٰ شطرينِ : ظاهرٍ وباطنٍ ، والشطرُ الظاهرُ المتعلِّقُ بالجوارحِ انقسمَ إلىٰ عبادةٍ وعادةٍ ، والشطرُ الباطنُ المتعلِّقُ بأحوالِ القلبِ وأخلاقِ النفسِ انقسمَ إلىٰ مذمومٍ ومحمودٍ ؛ فكانَ المجموعُ **أربعةَ أقسامٍ** ، ولا يشِذُّ نظرٌ في علمِ المعاملةِ عنْ هٰذهِ الأقسامِ .

ـ **الباعثُ الثاني** : أنِّي رأيتُ الرغبةَ مِنْ طلبةِ العلمِ صادقةً في الفقهِ الذي صلَحَ عندَ مَنْ لا يخافُ اللهَ تعالىٰ للتدرُّعِ بهِ إلى المباهاةِ والاستظهارِ بجاهِهِ ومنزلتِهِ في المنافساتِ ، وهو مرتَّبٌ علىٰ أربعةِ أرباعٍ ، والمتزيي بزيِّ المحبوبِ محبوبٌ ، فلمْ أُبعدْ أنْ يكونَ تصويرُ الكتابِ بصورةِ الفقهِ ؛ تلطُّفاً في استدراجِ القلوبِ ، ولهٰذا تلطَّفَ بعضُ مَنْ رامَ استمالةَ قلوبِ الرؤساءِ إلى الطبِّ ، فوضَعَهُ علىٰ هيئةِ تقويمِ النجومِ ، موضوعاً في الجداولِ والرقومِ ، وسمّاهُ « تقويمَ

---

(١) كما قرر المؤلف رحمه الله تعالىٰ ذٰلك في « المنقذ من الضلال » ؛ إذ ألَّفه لتحقيق ذٰلك .

(٢) لأنه من الأمور الوجدانية ، فإن العاقل يكفيه الإشارة ، والغافل لا يفيده صريح العبارة . « إتحاف » (٦٣/١) .

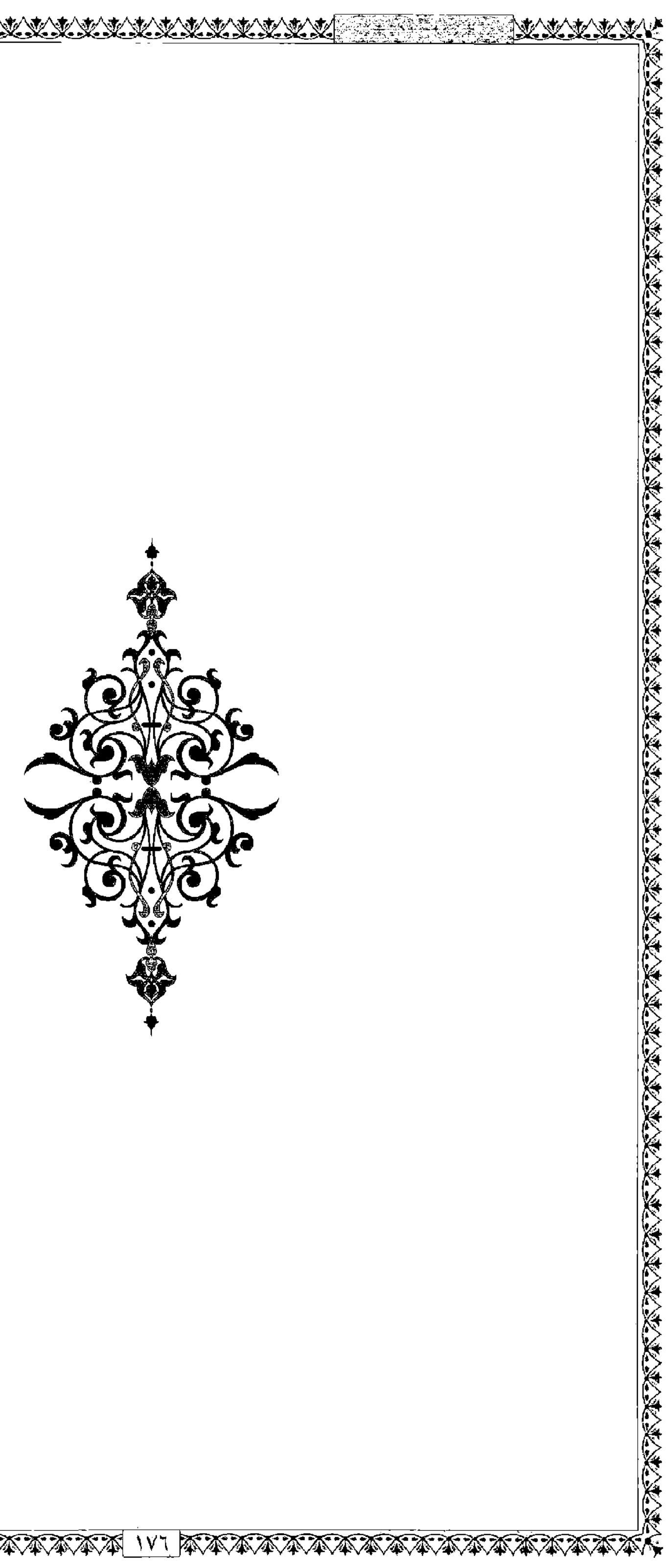
الصحَّةِ »[1] ؛ ليكونَ أُنسُهُمْ بذٰلكَ الجنسِ جاذباً لهمْ إلى المطالعةِ ، والتلطُّفُ في اجتذابِ القلوبِ إلى العلمِ الذي يفيدُ حياةَ الأبدِ أهمُّ مِنَ التلطُّفِ في اجتذابِها إلى الطبِّ الذي لا يفيدُ إلا صحَّةَ الجسدِ .

فثمرةُ هٰذا العلمِ طبُّ القلوبِ والأرواحِ ، للتوصُّلِ بهِ إلىٰ حياةٍ تدومُ أبدَ الآبادِ ، فأينَ منهُ الطبُّ الذي تعالجُ بهِ الأجسادُ وهي معرَّضَةٌ بالضرورةِ للفسادِ في أقربِ الآمادِ ؟!

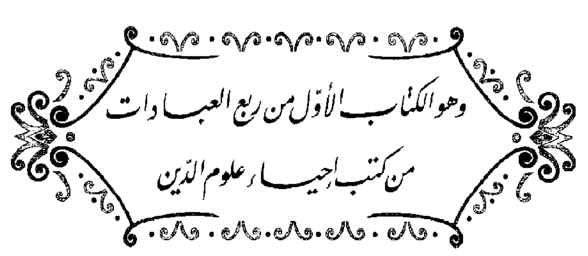
فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد
إنه هو الكريم الجواد

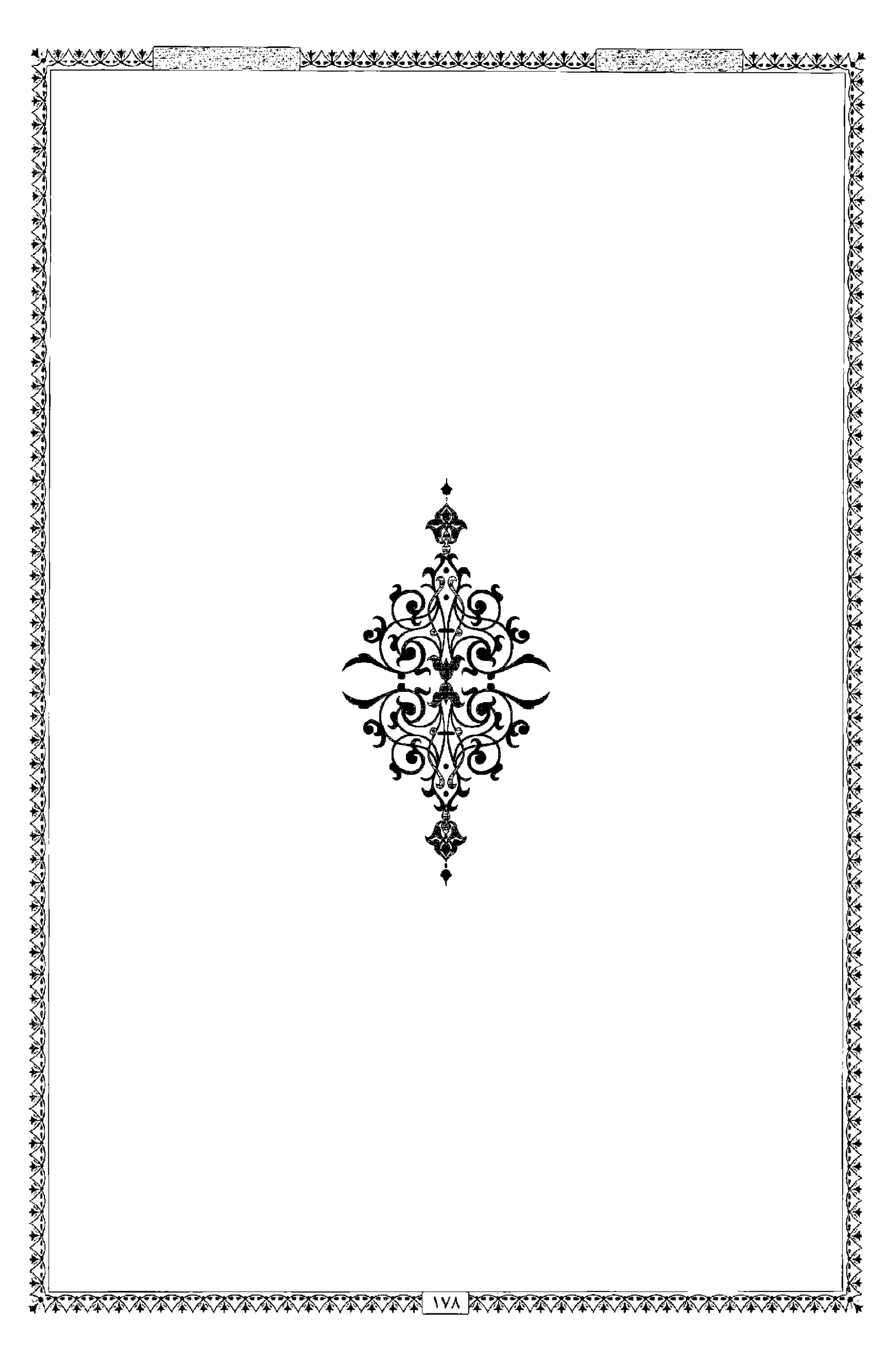
---

(١) وكأنه عنىٰ به كتاب المختار بن الحسن بن عبدون المتطبب ؛ فإنه سمَّاه كذٰلك ، وعلىٰ نهجه بنى ابن جزلة وابن البيطار كتابيهما . « إتحاف » (٦٤/١) .



كِتَابُ العِلْمِ





كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

البابُ الأوَّلُ : في فضْلِ العلْمِ والتعليمِ والتعلُّمِ .

البابُ الثاني : في بيانِ فرْضِ العيْنِ وفرضِ الكفايةِ مِنَ العلومِ ، وبيانِ حدِّ الفقْهِ والكلامِ منْ علْمِ الدينِ ، وبيانِ علْمِ الآخرةِ وعلْمِ الدنيا .

البابُ الثالثُ : فيما تعدُّهُ العامَّةُ منْ علومِ الدينِ وليسَ منها ، وفيهِ بيانُ جنْسِ العلْمِ المذمومِ وقدرِهِ .

البابُ الرابعُ : في آفاتِ المناظرةِ وسببِ اشتغالِ الناسِ بالخلافِ والجدلِ .

البابُ الخامسُ : في آدابِ المعلِّمِ والمتعلِّمِ .

البابُ السادسُ : في آفاتِ العلمِ والعلماءِ ، والعلاماتِ الفارقةِ بينَ علماءِ الدنيا والآخرةِ .

البابُ السابعُ : في العقلِ وفضيلتِهِ وأقسامِهِ وما جاءَ فيهِ مِنَ الأخبارِ .

* * *

الباب الأول
في فضل العلم والتعليم والتعلّم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدُها من القرآن :

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ ، فانظرْ كيفَ بدأَ سبحانهُ وتعالىٰ بنفسِهِ ، وثنّىٰ بملائكتِهِ ، وثلَّثَ بأهْلِ العلمِ ، وناهيكَ بهٰذا شرفاً وفضْلاً ، وجلالاً ونبلاً .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (للعلماءِ درجاتٌ فوقَ المؤمنينَ بسبعِ مئةِ درجةٍ ، ما بينَ الدرجتينِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ)[١]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ ﴾ ؛ تنبيهاً علىٰ أنَّهُ اقتدرَ عليهِ بقوّةِ العلمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ، بيَّنَ أنَّ عِظَمَ قدْرِ الآخرةِ يُعلمُ بالعلمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ ، ردَّ حكمَهُ في الوقائعِ إلى استنباطِهِمْ ، وألحقَ رتبتَهُمْ برتبةِ الأنبياءِ في كشْفِ حُكْمِ اللهِ .

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ يعني العلمَ ، ﴿ وَرِيشًا ﴾ يعني اليقينَ ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ يعني الحياءَ[٢]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، وإنَّما ذكرَ ذٰلكَ في معرضِ الامتنانِ .

وأمَّا الأخبارُ :

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيراً . . يُفَقِّهْهُ في الدينِ ، ويُلْهِمْهُ رُشْدَهُ »[٣]

---

(١) قوت القلوب (١/١٣٩) .

(٢) قوت القلوب (١/١٣٨) .

(٣) رواه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) ، وزيادة : « ويلهمه رشده » عند الطبراني في « الكبير » (١٩/٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١٠٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ »[1] ، ومعلومٌ أنَّهُ لا رتبةَ فوقَ النبوَّةِ ، ولا شرفَ فوقَ شرفِ الوراثةِ لتلكَ الرتبةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يستغفرُ للعالِمِ ما في السماواتِ والأرضِ »[2] وأيُّ منصبٍ يزيدُ علىٰ منصبِ مَنْ تشتغلُ ملائكةُ السماواتِ والأرضِ بالاستغفارِ لهُ ؟! فهوَ مشغولٌ بنفسِهِ ، وهمْ مشغولونَ بالاستغفارِ لهُ[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحكمةَ تَزيدُ الشريفَ شرفاً ، وترفعُ المَمْلُوكَ حتَّىٰ يجلسَ مجالسَ الملوكِ »[4]

وقدْ نبَّهَ بهٰذا علىٰ ثمرتِهِ في الدنيا ، ومعلومٌ أنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَصلتانِ لا تكونانِ في منافقٍ : حُسنُ سمْتٍ ، ولا فقهٌ في الدينِ »[5]

ولا تَشُكَّنَّ في الحديثِ لنفاقِ بعضِ فقهاءِ الزمانِ ؛ فإنَّهُ ما أرادَ بهِ الفقهَ الذي ظننتَهُ ، وسيأتي بيانُ معنى الفقهِ ، وأدنىٰ درجاتِ الفقيهِ أنْ يعلمَ أنَّ الآخرةَ خيرٌ من الدنيا ، وهٰذهِ المعرفةُ إذا صدقَتْ وغلبَتْ . . برَّأَتْهُ مِنَ النفاقِ والرياءِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ الناسِ المؤمنُ العالمُ الذي إنِ احتيجَ إليهِ . . نفعَ ، وإنِ استغنيَ عنهُ . . أغنَىٰ نفسَهُ »[6]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الإيمانُ عُريانٌ ، ولباسُهُ التقوىٰ ، وزينتُهُ الحياءُ ، وثمرتُهُ العلمُ »[7]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أقربُ الناسِ منْ درجةِ النبوَّةِ أهلُ العلمِ والجهادِ ؛ أمَّا أهلُ العلمِ . . فدَلُّوا الناسَ علىٰ ما جاءَتْ بهِ الرسلُ ، وأمَّا أهلُ الجهادِ . . فجاهدُوا بأسيافِهِمْ علىٰ ما جاءتْ بهِ الرسلُ »[8]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لَمَوتُ قبيلَةٍ أيسَرُ منْ موتِ عالمٍ »[9]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الناسُ معادنُ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ ، فخِيارُهُمْ في الجاهليَّةِ خِيارُهُمْ في الإسلامِ إذا فَقُهُوا »[10]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يُوزنُ يومَ القيامةِ مِدَادُ العلماءِ ودمُ الشهداءِ »[11]

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٣) إن العالم لما كان سبباً في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، وكان سعيه مقصوراً علىٰ هٰذا ، وكانت نجاة العباد علىٰ يديه . . جوزي من جنس عمله ، وجعل من في السماوات والأرض ساعياً في نجاته من أسباب الهلاك باستغفارهم . « إتحاف » (١/٧١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/١٧٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٧٩) .

(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٤) .

(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (١٥٩١) عن أبي الدرداء موقوفاً عليه .

(٧) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٣٨٣) من كلام وهب بن منبه ، وكذا ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٣/٣٨٩) ، وقال أبو طالب في « القوت » (١/١٣٨) : (وقد أسنده حمزة الخراساني عن الثوري ، فرفعه إلىٰ عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم) ، وكذا هو عند الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٢٩ ، ١٣٠) مرفوعاً وموقوفاً .

(٨) قال في « القوت » (١/١٣٩) : (وقد روينا عن عبد الرحمٰن بن غنم ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، وهو في « الفقيه والمتفقه » (١٣٢) من كلام إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة .

(٩) رواه البيهقي في « الشعب » (١٥٧٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/٣١٨) .

(١٠) رواه البخاري (٣٣٥٣) ، ومسلم (٢٦٣٨) .

(١١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/١٧٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي الدرداء رضي الله عنهما ، وانظر « الإتحاف » (١/٧٤) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ حَفِظَ علىٰ أُمَّتي أربعينَ حديثاً مِنَ السنَّةِ حتَّىٰ يُؤَدِّيَها إليهِمْ . . كنتُ لهُ شفيعاً وشهيداً يومَ القيامةِ »[1]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ حملَ مِنْ أمتي أربعينَ حديثاً . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ فَقِيهاً عالِماً »[2]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ تَفَقَّهَ في دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . كفاهُ اللهُ تعالىٰ همَّهُ ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أوحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : يا إبراهيمُ ؛ إنِّي عليمٌ ، أُحِبُّ كُلَّ عليمٍ »[4]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « العالِمُ أمينُ اللهِ سبحانَهُ في الأرضِ »[5]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « صنفانِ مِنْ أمَّتي إذا صَلَحُوا . . صَلَحَ الناسُ ، وإذا فسدوا . . فسدَ الناسُ : الأمراءُ والفقهاءُ »[6]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا أتَىٰ عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيهِ علماً يُقرِّبُني إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذٰلكَ اليومِ »[7]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في تفضيلِ العلمِ على العبادةِ والشهادةِ : « فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفضْلِي علىٰ أدنىٰ رجلٍ من أصحابي »[8] ، فانظرْ كيفَ جعلَ العلمَ مقارناً لدرجةِ النبوَّةِ ، وكيفَ حطَّ رتبةَ العملِ المجرَّدِ عن العلمِ وإنْ كانَ العابدُ لا يخلو عن علمٍ بالعبادةِ التي يواظبُ عليها ، ولولاهُ . . لمْ تكنْ عبادةٌ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليْلةَ البدرِ علىٰ سائرِ الكواكبِ »[9]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يشفعُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ : الأنبياءُ ، ثمَّ العلماءُ ، ثمَّ الشهداءُ »[10] ، فأعظمْ برتبةٍ هيَ تِلْوُ النبوَّةِ وفوقَ الشهادةِ ، مع ما وردَ في فضلِ الشهادةِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما عُبِدَ اللهُ تعالىٰ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدينِ ، ولَفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ مِنْ ألفِ عابدٍ ، ولكلِّ شيءٍ عمادٌ ، وعمادُ هٰذا الدينِ الفقهُ »[11]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « خيرُ دينِكُمْ أيسرُهُ ، وخيرُ العبادةِ الفقهُ »[12]

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٨٩/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٩٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠٥) .

(٢) رواه تمام في « فوائده » (١٠١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠٤) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٤٢/٣) .

(٤) ذكره ابن عبد البر تعليقاً في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٦) .

(٥) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٥١) ، ومن شواهده ما رواه القضاعي في « مسنده » (١١٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦٧/١٤) : « العلماء أمناء الله علىٰ خلقه » .

(٦) رواه تمام في « فوائده » (٩٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٦/٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٠٨) واللفظ له .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٨٨/٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١٨) .

(٨) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

(٩) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(١٠) رواه ابن ماجه (٤٣١٣) .

(١١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦١٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٩٢/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨٣) .

(١٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩١) بلفظه ، والشطر الأول منه في « مسند أحمد » (٤٧٩/٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فضلُ العالِمِ المؤمنِ على المؤمنِ العابدِ سبعونَ درجةً »[1]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّكُمْ أصبحتُمْ في زمانٍ كثيرٍ فقهاؤُهُ ، قليلٍ خطباؤُهُ ، قليلٍ سائلُوهُ ، كثيرٍ معطُوهُ ، العملُ فيهِ خيرٌ مِنَ العلمِ ، وسيأتي على الناسِ زمانٌ قليلٌ فقهاؤُهُ ، كثيرٌ خطباؤُهُ ، قليلٌ معطوهُ ، كثيرٌ سائلوهُ ، العلمُ فيهِ خيرٌ مِنَ العملِ »[2]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « بينَ العالِمِ والعابدِ مئةُ درجةٍ ، بينَ كلِّ درجتينِ حُضْرُ الجوادِ المضمَّرِ سبعينَ سنةً »[3] .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ : « العلمُ باللهِ عزَّ وجلَّ » ، فقيلَ : الأعمالَ نريدُ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلمُ باللهِ سبحانَهُ » ، فقيلَ : نسألُ عَنِ العملِ وتجيبُ عَنِ العلمِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ قليلَ العملِ ينفعُ معَ العلمِ ، وإنَّ كثيرَ العملِ لا ينفعُ معَ الجهلِ »[4]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يبعثُ اللهُ عزَّ وجلَّ العبادَ يومَ القيامةِ ، ثمَّ يبعثُ العلماءَ ، ثمَّ يقولُ : يا معشرَ العلماءِ ؛ إنِّي لمْ أضعْ علمي فيكمْ إلا لعلمي بكُمْ ، ولمْ أضعْ علمي فيكُمْ لأُعذِّبَكُمْ ، اذهبُوا فقدْ غفرْتُ لكُمْ »[5]

نسألُ اللهَ حُسْنَ الخاتمةِ .

وأمّا الآثارُ :

فقد قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ لكُمَيلٍ : (يا كُميلُ ؛ العلمُ خيرٌ مِنَ المالِ ، العلمُ يحرُسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ ، والعلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليهِ ، والمالُ تَنقُصُهُ النفقةُ والعلمُ يزكو على الإنفاقِ)[6]

وقالَ أيضاً : (العالمُ أفضلُ مِنَ الصائمِ القائمِ المجاهدِ ، وإذا ماتَ العالمُ . . ثُلِمَ في الإسلامِ ثُلْمَةٌ لا يسدُّها إلا خَلَفٌ منهُ)[7]

وقالَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ نظماً[8] : [من البسيط]

مـا الْـفَـخْـرُ إِلَّا لأَهْـلِ الْـعِـلْـمِ إِنَّـهُـمُ ... عَـلَـى الْـهُـدَىٰ لِـمَـنِ اسْـتَـهْـدَىٰ أَدِلَّاءُ

وَقَـــدْرُ كُـلِّ امْـرِئٍ مـا كـانَ يُـحْـسِـنُـهُ ... وَالْـجـاهِـلُـونَ لأَهْـلِ الْـعِـلْـمِ أَعْـدَاءُ

فَـفُـزْ بِـعِـلْـمٍ تَـعِـشْ حَـيّـاً بِـهِ أَبَـداً ... اَلـنَّـاسُ مَـوْتَـىٰ وَأَهْـلُ الْـعِـلْـمِ أَحْـيـاءُ

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩٥) ، وهو عند أبي يعلىٰ في « مسنده » (٨٥٦) بزيادة .

(٢) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١٢٢٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠٣/١٢) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٩) ، **وحُضْرُ الجواد المضمّر** : مقدار عدْوِ الجواد المهيَّأ للركض ، **والحضْرُ** : ارتفاع الفرس في عدوه .

(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٤) .

(٥) رواه البيهقي في « المدخل » (٥٦٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٢) .

(٦) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٧٦/٦) ، وبنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٧٩/١) ، وهو في « قوت القلوب » (١٣٤/١) . وقوله : (والمال تنقصه النفقة) لا ينافي قوله صلى الله عليه وسلم : « ما نقصت صدقة من مال » ؛ فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت . . ذهب ذلك القدر وخلفه غيره ، وأما العلم . . فكالمقتبس من النار ، لو اقتبس منها العالم . . لم يذهب منها شيء ، بل يزيد . « إتحاف » (٨٦/١) .

(٧) قوت القلوب (١٤٣/١) ، ورواه الخطيب البغدادي في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٣٥٠) .

(٨) ديوان سيدنا علي ، الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول صلى الله عليه وسلم » (ص ٣٠) .

وقالَ أبو الأسودِ : (ليسَ شيءٌ أعزَّ مِنَ العلمِ ؛ الملوكُ حكَّامٌ على الناسِ ، والعلماءُ حكامٌ على الملوكِ)[1]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (خُيِّرَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ بينَ العلْمِ والمالِ والمُلْكِ ، فاختارَ العلْمَ ، فأُعْطِيَ المالَ والملكَ معهُ)[2]

وسئِلَ ابنُ المباركِ : مَنِ الناسُ ؟ فقالَ : العلماءُ ، قيلَ : فمَنِ الملوكُ ؟ قالَ : الزهَّادُ ، قيلَ : فمَنِ السَّفِلَةُ ؟ قالَ : الذي يأكلُ بدينِهِ[3]

ولمْ يجعلْ غيرَ العالمِ مِنَ الناسِ ؛ لأنَّ الخاصيةَ التي بها يتميَّزُ الناسُ عنْ سائرِ البهائمِ هيَ العلمُ ، والإنسانُ إنسانٌ بما هوَ شريفٌ لأجلِهِ ، وليسَ ذلكَ بقوَّةِ شخصِهِ ؛ فإنَّ الجملَ أقوىٰ منهُ ، ولا بعظَمِهِ ؛ فإنَّ الفيلَ أعظمُ منهُ ، ولا بشجاعتِهِ ؛ فإنَّ السَّبُعَ أشجعُ منهُ ، ولا ليأكلَ ؛ فإنَّ الثورَ أوسعُ بطناً منهُ ، ولا ليجامعَ ؛ فإنَّ أخسَّ العصافيرِ أقوىٰ على السِّفادِ منهُ ، بلْ لمْ يُخلقْ إلا للعلمِ[4]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (ليتَ شعري ؛ أيَّ شيءٍ أدركَ مَنْ فاتَهُ العلمُ ، وأيَّ شيءٍ فاتَهُ مَنْ أدركَ العلمَ ؟!)[5]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أُوتيَ القرآنَ فرأىٰ أنَّ أحداً أُوتيَ خيراً منهُ . . فقدْ حقَّرَ ما عظَّمَ اللهُ تعالىٰ »[6]

وقالَ فتْحٌ المَوْصِليُّ رحمهُ اللهُ : (أليسَ المريضُ إذا مُنِعَ الطعامَ والشرابَ والدواءَ يموتُ ؟ قالوا : بلىٰ ، قالَ : كذٰلكَ القلبُ إذا مُنِعَ عنهُ الحكمةُ والعلمُ ثلاثةَ أيامٍ . . يموتُ)[7]

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ غذاءَ القلبِ العلمُ والحكمةُ ، وبهما حياتُهُ ، كما أنَّ غذاءَ الجسدِ الطعامُ ، ومَنْ فقدَ العلمَ . . فقلبُهُ مريضٌ ، وموتُهُ لازمٌ ، ولٰكنَّهُ لا يشعرُ بهِ ؛ إذْ حبُّ الدنيا وشغلُهُ بها أبطلَ إحساسَهُ ، كما أنَّ غلبةَ الخوفِ قدْ تُبطِلُ إحساسَ ألمِ الجراحِ في الحالِ وإنْ كانَ واقعاً ، فإذا حطَّ الموتُ عنهُ أعباءَ الدنيا . . أحسَّ بهلاكِهِ ، وتحسَّرَ تحسراً عظيماً ثمَّ لا ينفعُهُ ، وذٰلكَ كإحساسِ الآمنِ مِنْ خوفِهِ والمفيقِ عنْ سكرِهِ بما أصابَهُ مِنَ الجراحاتِ في حالةِ السكْرِ أوِ الخوفِ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ يومِ كشفِ الغطاءِ ؛ فإنَّ الناسَ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا .

وقالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (يوزنُ مدادُ العلماءِ بدمِ الشهداءِ ، فيرجحُ مدادُ العلماءِ بدمِ الشهداءِ)[8]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (عليكُمْ بالعلمِ قبلَ أنْ يُرفعَ ، ورفعُهُ أنْ تهلِكَ رواتُهُ ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لَيودَّنَّ

---

(١) ذكره ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١٢١/٢) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١١) تعليقاً .

(٢) تاريخ دمشق (٢٧٥/٢٢) ، وهو عن عبد الله بن المبارك في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٦٧/٨) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٠١/٧) ، وهو عند صاحب « قوت القلوب » (١٥٣/١) .

(٤) قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، فهٰؤلاء هم الجهال الذين لم تحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان . « إتحاف » (٨٩/١) .

(٥) انظر « مفتاح دار السعادة » (١٧٥/١) .

(٦) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٢٣٥٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٩٦/٩) .

(٧) انظر « مفتاح دار السعادة » (١٧٥/١) ، وأورد بعضها الشعراني في « طبقاته » (٨٠/١) .

(٨) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٧٨/٢) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي الدرداء رضي الله عنهما مرفوعاً ، وأخرجه الشيرازي في « الألقاب » من حديث أنس مرفوعاً ، فلعل الحسن سمعه من أنس . « إتحاف » (٩٠/١) .

رجالٌ قُتلوا في سبيلِ اللهِ شهداءَ أنْ يبعَثَهُمُ اللهُ علماءَ لما يرونَ مِنْ كرامتِهِمْ ، وإنَّ أحداً لم يُولدْ عالماً ، وإنما العلمُ بالتعلُّمِ)[١]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (تذاكُرُ العلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إليَّ مِنْ إحيائِها)[٢] ، وكذا رُوِيَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ[٣] ، وأحمدَ ابنِ حنبلٍ رحمهُ اللهُ[٤]

وقالَ الحسنُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ : (إنَّ الحسنةَ في الدنيا هي العلمُ والعبادةُ ، وفي الآخرةِ هي الجنَّةُ)[٥]

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : أيُّ الأشياءِ تُقتنَىٰ ؟ قالَ : الأشياءُ التي إذا غرقتْ سفينتُكَ . . سَبَحَتْ معك ؛ يعني العلمَ ، وقيلَ : أرادَ بغرقِ السفينةِ هلاكَ بدنِهِ بالموتِ[٦]

وقالَ بعضُهُمْ : (مَنِ اتخذَ الحكمةَ لجاماً . . اتخذَهُ الناسُ إماماً ، ومن عُرفَ بالحكمةِ . . لاحظتْهُ العيونُ بالوقارِ)[٧]

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مِنْ شرفِ العلمِ أنَّ كلَّ مَنْ نُسِبَ إليهِ ولوْ في شيءٍ حقيرٍ . . فرحَ ، ومن دُفِعَ عنهُ . . حَزِنَ)[٨]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أيُّها الناسُ ؛ عليكُمْ بالعلمِ ، فإنَّ للهِ سبحانَهُ رداءَ محبَّةٍ ؛ فمَنْ طلبَ باباً مِنَ العلمِ . . ردَّاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بردائِهِ ، فإنْ أذنبَ ذنباً . . استعتَبَهُ ، فإنْ أذنبَ ذنباً . . استعتبَهُ ، فإنْ أذنبَ ذنباً . . استعتبَهُ ؛ لئلا يسلُبَهُ رداءَهُ ذٰلكَ وإنْ تطاولَ بهِ ذٰلكَ الذنبُ حتَّىٰ يموتَ)[٩]

وقال الأحنفُ رحمهُ اللهُ : (كادَ العلماءُ أنْ يكونوا أرباباً ، وكلُّ عزٍّ لمْ يؤكَّدْ بعلمٍ فإلىٰ ذلٍّ مصيرُهُ)[١٠]

وقالَ سالمُ بنُ أبي الجعدِ : (اشتراني مولايَ بثلاثِ مئةِ درهمٍ وأعتقني ، فقلتُ : بأيِّ حرفةٍ أحترفُ ؟ فاحترفتُ بالعلمِ ، فما تمَّتْ لي سنةٌ حتَّىٰ أتاني أميرُ المدينةِ زائراً ، فلمْ آذنْ لهُ) .

وقالَ الزبيرُ بنُ أبي بكرٍ : (كتبَ إليَّ أبي بالعراقِ : عليكَ بالعلمِ ؛ فإنَّكَ إنِ افتقرتَ . . كانَ لكَ مالاً ، وإنِ استغنيتَ . . كانَ لكَ جمالاً)[١١]

---

(١) روي مفرقاً إلا قوله : (فوالذي نفسي بيده . . . كرامتهم) في « الزهد » لأحمد (٨٩٩) ، « سنن الدارمي » (١٤٤) ، « جامع بيان العلم وفضله » (١٠١٧) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٤٦٩) .

(٣) حلية الأولياء (١٩٢/٢) .

(٤) انظر « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٨) ، و« مفتاح دار السعادة » (١٧٤/١) .

(٥) رواه الترمذي (٣٤٨٨) .

(٦) جامع بيان العلم وفضله (٢٨٠) .

(٧) جامع بيان العلم وفضله (٢٨١) .

(٨) ذكر الحافظ الزبيدي أنه روي عنه بإسناد حسن . « إتحاف » (٩٢/١) ، وهو في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٩٥) بغير نسبة .

(٩) جامع بيان العلم وفضله (٣٠٠) ، ومعنى (استعتبه) : طلب رجوعه إليه واستقالته . « إتحاف » (٩٢/١) .

(١٠) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٢٤) .

(١١) المدخل إلى السنن الكبرىٰ (٣٩٩) .

وحُكِيَ ذٰلكَ في وصايا لقمانَ لابنِهِ ، وقالَ : (يا بُنيَّ ؛ جالسِ العلماءَ وزاحمْهُمْ بركبتيكَ ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ يحيي القلوبَ بنورِ الحكمةِ كما يحيي الأرضَ بوابلِ السماءِ)[1]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا ماتَ العالمُ . . بكاهُ الحوتُ في الماءِ ، والطيرُ في الهواءِ ، ويُفقدُ وجهُهُ ولا يُنسىٰ ذكرُهُ)[2]

وقالَ الزهريُّ رحمهُ اللهُ : (العلمُ ذَكَرٌ ، ولا يحبُّهُ إلا ذُكورُ الرجالِ)[3]

* * *

(١) الموطأ (١٠٠٢/٢) بلاغاً ، وعند البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٤٤٥) عن عبيد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) انظر « الإتحاف » (٩٣/١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٥/٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٩٦) .

فضيلة التعلم

أمَّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الأخبارُ :

فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سلكَ طَريقاً يطلبُ فيهِ علماً . . سلكَ اللهُ بهِ طريقاً إلى الجنَّةِ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجْنحتَها لطالبِ العلمِ رِضاً بما يصنَعُ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ تغدوَ فتتعلَّمَ باباً من العلمِ . . خيرٌ مِنْ أنْ تصلِّيَ مئةَ ركعةٍ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بابٌ مِنَ العلمِ يتعلَّمُهُ الرجلُ . . خيرٌ لهُ مِنَ الدنيا وما فيها »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلبُوا العلمَ ولوْ بالصِّينِ »[6]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « العلمُ خزائنُ مفاتِحُها السُّؤالُ ؛ فاسْألوا ، فإنَّهُ يُؤجَرُ فيهِ أربعةٌ : السائلُ ، والعالمُ ، والمستمِعُ ، والمحبُّ لهم »[7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي للجاهلِ أنْ يسكتَ علىٰ جهلِهِ ، ولا للعالمِ أنْ يسكتَ علىٰ علمِهِ »[8]

وفي حديثِ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « حضورُ مجلسِ عِلْمٍ أفضلُ منْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ ، وعيادةِ ألفِ مريضٍ ، وشهودِ ألفِ جنازةٍ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ومِنْ قراءةِ القرآنِ ؟ فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وهلْ ينفعُ القرآنُ إلا بالعلمِ ؟! »[9]

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٢٣٩/٤) ، وهو بتمامه عند الترمذي (٢٦٨٢) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٤) ، وبنحوه عند ابن ماجه (٢١٩) .

(٤) هو من قول الحسن البصري كما في « روضة العقلاء » (ص ٤٠) ، و« جامع بيان العلم وفضله » (٢٥٥) .

(٥) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

(٦) رواه البيهقي في « المدخل » (٣٢٤) ، و« الشعب » (١٥٤٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٢/٣) .

(٨) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٣٦١) .

(٩) تقييد المصنف روايته عن أبي ذر فيه إشارة إلى الحديث المتقدم : « يا أبا ذر ؛ لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم . . » ، ولفظه عند صاحب « القوت » (٦٧/١) حيث قال : (وروينا من حديث أبي ذر . . .) وذكره ، وانظر « الإتحاف » (٩٩/١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جَاءَهُ الموتُ وهوَ يطلبُ العلمَ ليحييَ بهِ الإسْلامَ . . فبينَهُ وبينَ الأنبياءِ في الجنَّةِ درجةٌ واحدةٌ »[1]

❀ ❀ ❀

وأمَّا الآثارُ :

فقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ذَلَلْتُ طالباً ؛ فعززتُ مطلوباً)[2]

وكذٰلكَ قالَ ابنُ أبي مُليكةَ رحمهُ اللهُ : (ما رأيتُ مثلَ ابنِ عباسٍ ؛ إذا رأيتَهُ . . رأيتَ أحسنَ الناسِ وجهاً ، وإذا تكلَّمَ . . فأعربُ الناسِ لساناً ، وإذا أفتىٰ . . فأكثرُ الناسِ علماً)[3]

وقالَ ابنُ المباركِ رحمهُ اللهُ : (عجبتُ لمنْ لمْ يطلبِ العلمَ كيفَ تدعوهُ نفسُهُ إلىٰ مكرمةٍ !!)[4]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنِّي لا أرحمُ رجالاً كرحمتي لأحدِ رجلينِ : رجلٍ يطلبُ العلمَ ولا يفهمُ ، ورجلٍ يفهمُ ولا يطلبُهُ)[5]

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأَنْ أتعلَّمَ مسألةً أحبُّ إليَّ مِنْ قيامِ ليلةٍ)[6]

وقالَ أيضاً : (العالمُ والمتعلِّمُ شريكانِ في الخيرِ ، وسائرُ الناسِ هَمَجٌ لا خيرَ فيهِمْ)[7]

وقالَ أيضاً : (كنْ عالماً ، أو متعلِّماً ، أو مستمعاً ، ولا تكنِ الرابعَ فتهلَكَ)[8] .

وقالَ عطاءٌ : (مجلسُ ذكرٍ يكفِّرُ سبعينَ مجلساً مِنْ مجالسِ اللهوِ)[9]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (موتُ ألفِ عابدٍ قائمِ الليلِ صائمِ النهارِ أهونُ مِنْ موتِ عاقلٍ بصيرٍ بحلالِ اللهِ وحرامِهِ)[10] .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (طلبُ العلمِ أفضلُ مِنَ النافلةِ)[11]

وقالَ ابنُ عبدِ الحكمِ رحمهُ اللهُ : (كنتُ عندَ مالكٍ أقرأُ عليهِ العلمَ ، فدخلَ الظهرُ ، فجمعتُ الكتبَ لأصلِّيَ ؛ فقالَ : يا هٰذا ؛ ما الذي قمتَ إليهِ بأفضلَ ممَّا كنتَ فيهِ إذا صحَّتِ النيَّةُ)[12]

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ رأىٰ أنَّ الغُدوَّ إلى العلمِ ليسَ بجهادٍ . . فقدْ نقصَ في رأيِهِ وعقلِهِ)[13]

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » (٣٦٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٩) عن الحسن مرسلاً .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٨٤)
(٣) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٨/٤) .
(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢٨٦) وسير أعلام النبلاء (٣٩٨/٨) .
(٥) جامع بيان العلم وفضله (٦٤٢) ونسبه للقرّاء .
(٦) الفقيه والمتفقه (٥٥) .
(٧) جامع بيان العلم وفضله (١٣٤) ، وروي مرفوعاً كما هو عند ابن ماجه (٢٢٨) .
(٨) جامع بيان العلم وفضله (١٤٢ ـ ١٤٤) .
(٩) قوت القلوب (١٤٩/١) .
(١٠) زوائد مسند الحارث (٨١٣/٢) .
(١١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١١٩/٩) ، والبيهقي في « مناقب الشافعي » (١٣٨/٢) .
(١٢) شرف أصحاب الحديث (ص ١٢٧) بنحوه . وانظر « الإتحاف » (١٠٣/١) .
(١٣) جامع بيان العلم وفضله (١٥٩) .

فضيلة التعليم

أمّا الآياتُ :

فقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ ، والمرادُ هوَ التعليمُ والإرشادُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ ، وهو إيجابٌ للتعليمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وهوَ تحريمٌ للكتمانِ ؛ كما قالَ تعالىٰ في الشهادةِ : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما آتى اللهُ عالماً علماً إلا أخذَ عليهِ مِنَ الميثاقِ ما أخذَ على النَّبيِّينَ أنْ يبيِّنُوهُ للنَّاسِ ولا يكتموهُ »[1]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ .

❀ ❀ ❀

وأمّا الأخبارُ :

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا بعثَ معاذاً رضيَ اللهُ عنهُ إلى اليمنِ : « لأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مِنَ الدنيا وما فيها »[2]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تعلَّمَ باباً من العلمِ ليُعَلِّمَ النَّاسَ . . أعطِيَ ثَوابَ سبعينَ صِدِّيقاً »[3] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ علِمَ وعمِلَ وعَلَّمَ . . فذٰلكَ يُدْعَىٰ عظيماً في ملكُوتِ السماواتِ)[4]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . يقولُ اللهُ تعالىٰ للعابدينَ والمجاهدينَ : ادخلُوا الجنَّةَ ، فيقولُ العلماءُ : بفضلِ علمِنا تَعَبَّدُوا وجاهدُوا ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أنتمْ عندي كبعضِ ملائكتي ، اشفَعُوا . . تُشَفَّعُوا ، فيشفعونَ ، ثمَّ يدخلونَ الجنَّةَ »[5] ، وهٰذا إنَّما يكونُ بالعلمِ المتعدِّي بالتعليمِ ، لا العلمِ اللازمِ الذي لا يتعدَّىٰ .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢٨٧/٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦٦/٥٥) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧٥) بلفظه ، وأصله في « البخاري » (٣٧٠١) ، و« مسلم » (٢٤٠٦) ، قاله لعلي رضي الله عنه .

(٣) نسبه الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١٢٦/١) للديلمي في « مسند الفردوس » ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (١٠٦/١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩٣/٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٧٩١ ، ١٢١٦) .

(٥) قال العراقي : (رواه المرهبي في « العلم » عن رواية محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس) ، وبحث فيه الزبيدي . انظر « الإتحاف » (١٠٧/١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ لا يَنْتَزِعُ العلمَ انتِزاعاً مِنَ النَّاسِ بعدَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إيَّاهُ ، ولَـٰكنْ يذهبُ بذهابِ العلماءِ ، فكلَّما ذَهَبَ عالمٌ . . ذهبَ بما معهُ من العِلْمِ ، حتَّىٰ إذا لمْ يَبْقَ عالمٌ . . اتخذَ الناسُ رؤوساً جُهَّالاً ، إنْ سُئِلُوا . . أفتَوا بغيرِ علمٍ ؛ فَيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ »[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عَلِمَ علماً فكتمَهُ . . أُلجِمَ يومَ القيامةِ بلجامٍ مِنْ نارٍ »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نِعْمَ العطيَّةُ ونِعْمَ الهديَّةُ كلمةُ حكمةٍ تسمَعُهَا ، فتَطْوِي عليها ، ثم تحملُها إلىٰ أخٍ لكَ مسلمٍ تُعَلِّمُهُ إيَّاها ، تَعْدِلُ عبادةَ سنةٍ »[٣]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدنيا ملعونةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلا ذكرَ اللهِ سبحانَهُ وما والاهُ ، أو مُعَلِّماً ، أو مُتَعلِّماً »[٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ وملائكَتَهُ وأهلَ السماواتِ والأرضِ ، حتَّى النَّملةَ في جُحْرِها ، وحتَّى الحوتَ في البحرِ . . لَيُصَلُّونَ علىٰ مُعَلِّمِ الناسِ الخيرَ »[٥]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أفادَ المسلمُ أخاهُ فائدةً أفضلَ من حديثٍ حسنٍ بَلَغَهُ فَبَلَّغَهُ »[٦]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلمةٌ مِنَ الخيرِ يسمعُها المؤمنُ فيعملُ بها ، ويعلِّمُها . . خيرٌ لهُ مِنْ عبادةِ سنةٍ »[٧]

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ ، فرأىٰ مجلسينِ ؛ أحدُهُما : يدعُون اللهَ عزَّ وجلَّ ويرغبونَ إليهِ ، والثاني : يعلِّمونَ الناسَ ، فقالَ : « أمَّا هـٰؤلاءِ : فيسأَلُونَ اللهَ ؛ فإنْ شاءَ . . أعطاهُمْ ، وإنْ شاءَ . . منعهُمْ ، وأمَّا هـٰؤلاءِ : فيُعَلِّمُونَ الناسَ ، وإنَّما بُعِثْتُ مُعَلِّماً » ، ثمَّ عَدَلَ إليهِمْ وجلسَ معهُمْ[٨]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ ما بَعَثَنِي اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ مِنَ الهدىٰ والعلمِ كمثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً ، فكانتْ منها نَقِيَّةٌ[٩] قبلَتِ الماءَ ، فأَنْبَتَتِ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ ، وكانتْ منها أجادبُ أمسكَتِ الماءَ ، فنفعَ اللهُ بهَا النَّاسَ ، فشَرِبُوا وسَقَوا وَزَرَعُوا ، وكَانَتْ منها طائفَةٌ قيعانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كلأً »[١٠]

فالأَوَّلُ ذكرَهُ مثلاً للمنتفعِ بعلمِهِ ، والثاني ذكرَهُ مثلاً للنافعِ ، والثالثُ للمحرومِ منهما[١١]

---

(١) رواه البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٢٦٧٣) .
(٢) رواه أبو داوود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٦١) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٤٣/١٢) .
(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) .
(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .
(٦) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠٢) .
(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨٦) ، وتقدم بنحوه عند الطبراني .
(٨) رواه ابن ماجه (٢٢٩) .
(٩) أي : طيبة طاهرة .
(١٠) رواه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) .
(١١) أي : حين قال في تتمة الحديث : « فذلك مَثَلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلَّم ، ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلك رأساً ، ولم يقبل هُدَى الله الذي أرسلت به » . « البخاري » (٧٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ ابنُ آدمَ . . انقطعَ عملُهُ إلا مِنْ ثلاثٍ : عِلْمٍ يُنتَفَعُ بهِ . . . » الحديثَ [١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدَّالُّ على الخيرِ كفاعلِهِ » [٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حَسَدَ إلا في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ حكمةً ، فهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُها النَّاسَ ، ورَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مالاً ، فهوَ ينفقُ منهُ سرّاً وجهراً » [٣]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علىٰ خلفائي رحمةُ اللهِ » قيلَ : ومَنْ خلفاؤُكَ ؟ قالَ : « الذينَ يُحيُونَ سُنتي ويعلِّمونَها عبادَ اللهِ » [٤] .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ حدَّثَ بحديثٍ ، فعُمِلَ به . . فلهُ مثلُ أجرِ مَنْ عملَ ذٰلكَ العملَ) [٥]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (مُعلِّمُ الناسِ الخيرَ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ حتَّى الحوتُ في البحرِ) [٦]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (العالمُ يدخلُ فيما بينَ اللهِ وبينَ خلقِهِ ، فلينظرْ كيفَ يدخلُ) [٧]

ورُوِي أنَّ سفيانَ الثوريَّ رحمهُ اللهُ قدِمَ عَسْقَلانَ ، فمكثَ ولا يسألُهُ إنسانٌ ، فقالَ : (اكتروا لي لأخرجَ مِنْ هٰذا البلدِ ، هٰذا بلدٌ يموتُ فيهِ العلمُ) [٨] ، وإنما قالَ ذٰلكَ حرصاً علىٰ فضيلةِ التعليمِ ، واستبقاءِ العلمِ بهِ .

وقالَ عطاءٌ رضيَ اللهُ عنهُ : (دخلتُ علىٰ سعيدِ بنِ المسيَّبِ وهو يبكي ، فقلتُ : ما يبكيكَ ؟ فقال : ليسَ أحدٌ يسألني عَنْ شيءٍ !!) [٩]

وقالَ بعضُهُمْ : (العلماءُ سُرجُ الأزمنةِ ، كلُّ واحدٍ مصباحُ زمانِهِ ، يستضيءُ بهِ أهلُ عصرِهِ) [١٠]

وقالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (لولا العلماءُ . . لصارَ الناسُ مثلَ البهائمِ) أيْ : أنَّهمْ بالتعليمِ يُخرجونَ الناسَ مِنْ حدِّ البهيميَّةِ إلىٰ حدِّ الإنسانيَّةِ .

وقالَ عِكْرِمَةُ : (إنَّ لهٰذا العلمِ ثَمناً ، قيلَ : وما هو ؟ قالَ : أنْ تضعَهُ فيمَنْ يُحسنُ حملَهُ ولا يضيِّعُهُ) [١١]

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١)

(٢) رواه الترمذي (٢٦٧٠) بلفظه ، وأصله عند مسلم (١٨٩٣) .

(٣) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) ، ولفظه : « . . . مالاً ، فسلَّطه علىٰ هلكته في الحقّ » .

(٤) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١١١/١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٢٠) واللفظ له .

(٥) رواه الحاكم في « المدخل إلى الصحيح » (ص ٨٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٥٦) عنه مرفوعاً .

(٦) رواه الدارمي في « سننه » (٣٥٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٨٠) .

(٧) سنن الدارمي (١٣٩) ، وحلية الأولياء (١٥٣/٣) عن محمد بن المنكدر .

(٨) جامع بيان العلم وفضله (١٠٤٦) .

(٩) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٩٤٣) عن عطاء عن سعيد بن جبير .

(١٠) رواه ابن بطة في « الإبانة » (٤١) .

(١١) المحدث الفاصل (ص ٥٧٥)

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (العلماءُ أرحمُ بأمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ ، قيلَ : وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : لأنَّ آباءَهُمْ وأمهاتِهِمْ يحفظونَهُمْ مِنْ نارِ الدنيا ، وهمْ يحفظونَهُمْ من نارِ الآخرةِ)[1]

وقيلَ : (أوَّلُ العلْمِ الصمتُ ، ثمَّ الاستماعُ ، ثمَّ الحفظُ ، ثمَّ العمَلُ ، ثمَّ نشرُهُ)[2]

وقيلَ : (علِّمْ علمَكَ مَنْ يجهلُ ، وتعلَّم ممَّنْ يعلَمُ ؛ فإنَّكَ إذا فعلتَ ذٰلكَ . . علمتَ ما جهلتَ ، وحفظتَ ما علمتَ)[3]

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ في التعليمِ والتعلُّمِ ورأيتُهُ أيضاً مرفوعاً : (تعلَّموا العلمَ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للهِ خشيةٌ ، وطلبَهُ عبادةٌ ، ومدارستَهُ تسبيحٌ ، والبحثَ عنهُ جهادٌ ، وتعليمَهُ لمنْ لا يعلمُهُ صدقةٌ ، وبذلَهُ لأهلِهِ قربةٌ ، وهوَ الأنيسُ في الوحدةِ ، والصاحبُ في الخلوةِ ، والدليلُ على الدِّين ، والمصبِّرُ على السّراءِ والضرّاءِ ، والوزيرُ عندَ الأخلّاءِ ، والقريبُ عندَ الغرباءِ ، ومنارُ سبيلِ الجنَّةِ ، يرفعُ اللهُ بهِ أقواماً ، فيجعلُهُمْ في الخيرِ قادةً سادةً هُداةً يُقتدَىٰ بهِمْ ، أدلةً في الخيرِ ، تُقتَصُّ آثارُهُمْ وتُرمقُ أفعالُهم ، وتَرْغَبُ الملائكةُ في خُلَّتِهِمْ وبأجنحتِها تمسحُهُمْ ، وكلُّ رطْبٍ ويابسٍ يستغفرُ لهُمْ ، حتَّىٰ حيتانُ البحْرِ وهوامُّهُ ، وسباعُ البرِّ وأنعامُهُ ، والسماءُ ونجومُها ؛ لأنَّ العلمَ حياةُ القلوبِ مِنَ العمىٰ ، ونورُ الأبصارِ مِنَ الظُّلَمِ ، وقوةُ الأبدانِ مِنَ الضعفِ ، يبلغُ بهِ العبدُ منازلَ الأبرارِ والدرجاتِ العُلىٰ ، التفكُّرُ فيهِ يعدلُ بالصيامِ ، ومدارستُهُ بالقيامِ ، بهِ يُطاعُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وبهِ يُعبدُ ، وبهِ يُوحَّدُ ، وبهِ يُمجَّدُ ، وبهِ يُتورَّعُ ، وبهِ تُوصَلُ الأرحامُ ، وبهِ يعرفُ الحلالُ والحرامُ ، وهوَ إمامٌ والعملُ تابعُهُ ، يُلْهَمُهُ السعداءُ ، ويُحْرَمُهُ الأشقياءُ)[4] . نسألُ اللهَ تعالىٰ حسْنَ التوفيقِ .

❀ ❀ ❀

في الشواهدِ العقليَّةِ :

اعلمْ : أنَّ المطلوبَ مِنْ هٰذا البابِ معرفةُ فضيلةِ العلمِ ونفاستِهِ ، وما لمْ تُفهَمِ الفضيلةُ في نفسِها ولمْ يُتَحقَّقِ المرادُ منها . . لمْ يمكنْ أنْ يُعلمَ وجودُها صفةً للعلمِ أوْ لغيرِهِ مِنَ الخصالِ ؛ فلقدْ ضلَّ عَنِ الطريقِ مَنْ طمعَ أنْ يعرفَ أنَّ زيداً حكيمٌ أم لا وهو بعدُ لمْ يفهمْ معنى الحكمةِ وحقيقتَها .

والفضيلةُ مأخوذةٌ مِنَ الفضْلِ ، وهوَ الزيادةُ ، فإذا تشاركَ شيئانِ في أمرٍ واختصَّ أحدُهُما بمزيدٍ . . يقالُ : فَضَلَهُ ، ولهُ الفضْلُ عليه ، مهما كانتْ زيادتُهُ فيما هوَ كمالُ ذٰلكَ الشيءِ ، كما يقالُ : الفرسُ أفضلُ مِنَ الحمارِ ؛ بمعنىٰ أنَّهُ يشاركُهُ في قوَّةِ الحملِ ويزيدُ عليهِ بقوَّةِ الكرِّ والفرِّ وشدَّةِ العدْوِ وحسْنِ الصورةِ ، فلوْ فُرِضَ حمارٌ اختُصَّ بسلعةٍ زائدةٍ . . لمْ يُقَلْ : إنَّهُ أفضلُ ؛ لأنَّ تلكَ زيادةٌ في الجسمِ ونقصانٌ في المعنىٰ ، وليستْ مِنَ الكمالِ في شيءٍ ، والحيوانُ مطلوبٌ لمعناهُ وصفاتِهِ لا لجسمِهِ .

فإذا فهمتَ هٰذا . . لمْ يخْفَ عليكَ أنَّ العلمَ فضيلةٌ إنْ أخذتَهُ بالإضافةِ إلىٰ سائرِ الأوصافِ ؛ كما أنَّ للفرسِ فضيلةً إنْ أخذتَهُ بالإضافةِ إلىٰ سائرِ الحيواناتِ ، بل شدَّةُ العَدْوِ فضيلةٌ في الفرسِ وليسَ فضيلةً على الإطلاقِ ، والعلمُ فضيلةٌ

---

(١) ذكره السخاوي في « المنهل العذب الروي » (ص ٨٥) ، والشعراني في « طبقاته » (٨٠/١) .

(٢) حلية الأولياء (٣٦٢/٦) ، وبنحوه من قول محمد الحارثي (٢١٨/٨) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٦٤٧) ، ورواه عن الأحنف ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤٤/٢٤) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٨/١) موقوفاً ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٨) مرفوعاً .

في ذاتِهِ وعلى الإطلاقِ مِنْ غيرِ إضافةٍ ؛ فإنَّهُ وصفُ كمالِ اللهِ سبحانَهُ ، وبِهِ شرَّفَ الملائكةَ والأنبياءَ ، بلِ الكيِّسُ مِنَ الخيلِ خيرٌ من البليدِ ، فهيَ فضيلةٌ على الإطلاقِ مِنْ غيرِ إضافةٍ .

واعلمْ : أنَّ الشيءَ النفيسَ المرغوبَ فيهِ ينقسمُ إلىٰ ما يُطلبُ لغيرِهِ ، وإلىٰ ما يُطلبُ لذاتِهِ ، وإلىٰ ما يُطلبُ لغيرِهِ ولذاتِهِ جميعاً ، فما يُطلبُ لذاتِهِ أشرفُ وأفضلُ ممَّا يُطلبُ لغيرِهِ .

والمطلوبُ لغيرِهِ الدراهمُ والدنانيرُ ؛ فإنَّهما حجرانِ لا منفعةَ فيهما ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ يسَّرَ قضاءَ الحاجاتِ بهما . . لكانا والحصباءُ بمثابةٍ واحدةٍ .

وأمَّا الذي يُطلبُ لذاتِهِ . . فالسعادةُ في الآخرةِ ، ولذَّةُ النظرِ إلىٰ وجْهِ اللهِ تعالىٰ[1] .

وأمَّا الذي يُطلبُ لذاتِهِ ولغيرِهِ . . فكسلامةِ البدنِ ؛ فإنَّ سلامةَ الرِّجْلِ مثلاً مطلوبةٌ مِنْ حيثُ إنَّها سلامةٌ للبدنِ عَنِ الألمِ ، ومطلوبةٌ للمشيِ بها والتوصُّلِ إلى المآربِ والحاجاتِ .

وبهٰذا الاعتبارِ إذا نظرتَ إلى العلمِ . . رأيتَهُ لذيذاً في نفسِهِ ، فيكونُ مطلوباً لذاتِهِ ، ووجدتَهُ وسيلةً إلىٰ دارِ الآخرةِ وسعادتِها ، وذريعةً إلى القربِ من اللهِ تعالىٰ ، ولا يُتوصَّلُ إليهِ إلا بهِ .

وأعظمُ الأشياءِ رتبةً في حقِّ الآدميِّ السعادةُ الأبديَّةُ ، وأفضلُ الأشياءِ ما هوَ وسيلةٌ إليها ، ولنْ يُتوصَّلَ إليها إلا بالعلمِ والعملِ ، ولا يُتوصَّلُ إلى العملِ أيضاً إلا بالعلْمِ بكيفيَّةِ العملِ ، فأصلُ السعادةِ في الدنيا والآخرةِ هوَ العلمُ ، فهوَ إذاً أفضلُ الأعمالِ .

وكيفَ لا وقدْ تُعرفُ فضيلةُ الشيءِ أيضاً بشرفِ ثمرتِهِ ، وقدْ عرفتَ أنَّ ثمرةَ العلمِ القربُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، والالتحاقُ بأُفُقِ الملائكةِ ، ومقارنةُ الملأ الأعلىٰ . هٰذا في الآخرةِ .

وأمَّا في الدنيا . . فالعزُّ والوقارُ ، ونفوذُ الحكْمِ على الملوكِ ، ولزومُ الاحترامِ في الطباعِ ، حتَّىٰ إنَّ أغبياءَ التُّرْكِ وأجلافَ العربِ يصادفونَ طباعَهَمْ مجبولةً على التوقيرِ لشيوخِهِمْ ؛ لاختصاصِهِمْ بمزيدِ عِلْمٍ مستفادٍ مِنَ التجربَةِ ، بلِ البهيمةُ بطبعِها توقِّرُ الإنسانَ ؛ لشعورِها بتميُّزِ الإنسانِ بكمالٍ مجاوزٍ لدرجتِها .

هٰذهِ فضيلةُ العلمِ مطلقاً ، ثم تختلفُ العلومُ كما سيأتي بيانُهُ وتتفاوتُ ـ لا محالةَ ـ فضائِلُها بتفاوتِها .

وأمَّا فضيلةُ التعليمِ والتعلُّمِ . . فظاهرةٌ ممَّا ذكرناهُ ؛ فإنَّ العلمَ إذا كانَ أفضلَ الأمورِ . . كانَ تعلُّمُهُ طلباً للأفضلِ ، وكانَ تعليمُهُ إفادةً للأفضلِ .

وبيانه : أنَّ مقاصدَ الخلقِ مجموعةٌ في الدينِ والدنيا ، ولا نظامَ للدينِ إلا بنظامِ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، وهي الآلةُ الموصلَةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ لمنِ اتخذَها آلةً ومنزلاً ، ولم يتخذْها مستقرّاً ووطناً ، وليسَ ينتظمُ أمرُ الدنيا إلا بأعمالِ الآدميِّينَ ، وأعمالُهم وحرفُهُمْ وصناعاتُهُمْ تنحصرُ في ثلاثةِ أقسامٍ :

أحدُها : أصولٌ لا قِوامَ للعالَمِ دونَها ، وهيَ أربعةٌ : **الزراعةُ** وهيَ لِلمَطْعَمِ ، **والحياكةُ** وهيَ للملبَسِ ، **والبناءُ** وهوَ للمسكنِ ، **والسياسةُ** وهيَ للتأليفِ والاجتماعِ ، والتعاونِ علىٰ أسبابِ المعيشةِ وضبطِها .

---

(١) وهو أعلىٰ أنواع نعم الله الموهوبة والمكتسبة وأشرفُها ، وإياها قصد بقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ . . . ﴾ الآية ، وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصرف ، وهو أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغناء بلا فقر « إتحاف » (١٢٥/١)

الثاني : ما هيَ مهيِّئَةٌ لكلِّ واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الصناعاتِ وخادمةٌ لها ؛ كالحدادَةِ ، فإنَّها تخدُم الزراعةَ ، وجملةً مِنَ الصناعاتِ بإعدادِ آلاتِها ، وكالحلاجةِ والغزلِ ، فإنَّها تخدُم الحياكةَ بإعدادِ محلِّها .

الثالثُ : ما هيَ متمِّمَةٌ للأصولِ ومزينةٌ ؛ كالطَّحْنِ والخَبْزِ للزراعةِ ، وكالقصارةِ والخياطةِ للحياكةِ .

وذٰلكَ بالإضافةِ إلىٰ قِوامِ أمرِ العالَمِ الأرضيِّ مثلُ أجزاءِ الشخصِ بالإضافةِ إلىٰ جملتِهِ ؛ فإنَّها ثلاثةُ أضربٍ أيضاً :

إمَّا أصولٌ ؛ كالقلبِ والكبدِ والدماغِ ، وإمَّا **خادمةٌ لها** ؛ كالمعدةِ والعروقِ والشرايينِ والأعصابِ والأوردَةِ ، وإمَّا **مكمِّلَةٌ لها ومزيِّنَةٌ** ؛ كالأظفارِ والأصابعِ والحاجبينِ .

وأشرفُ هـٰذهِ الصناعاتِ أصولُها ، وأشرفُ أصولِها السياسةُ بالتأليفِ والاستصلاحِ ، ولذٰلكَ تستدعي هـٰذهِ الصناعةُ مِنَ الكمالِ ممَّنْ تكفَّلَ بها ما لا يستدعيهِ سائرُ الصناعاتِ ، ولذٰلكَ يستخدمُ ـ لا محالةَ ـ صاحبُ هـٰذهِ الصناعةِ سائرَ الصُّنَّاعِ .

والسياسةُ في استصلاحِ الخلْقِ وإرشادِهِمْ إلى الطريقِ المستقيمِ المنجي في الدنيا والآخرةِ . . علىٰ أربعِ مراتبَ :

الأولىٰ وهي العليا : سياسةُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، وحكمُهُمْ على الخاصَّةِ والعامَّةِ جميعاً في ظاهرِهِمْ وباطنِهِمْ .

والثانيةُ : الخلفاءُ والملوكُ والسلاطينُ ، وحكمُهُمْ على الخاصَّةِ والعامَّةِ جميعاً ، ولـٰكنْ علىٰ ظاهرِهِمْ لا علىٰ باطنِهِمْ .

والثالثةُ : العلماءُ باللهِ عزَّ وجلَّ وبدينِهِ ، الذين همْ ورثةُ الأنبياءِ ، وحكمُهُمْ علىٰ باطنِ الخاصَّةِ فقطْ ، ولا يرتفعُ فهْمُ العامَّةِ إلى الاستفادةِ منهُمْ ، ولا تنتهي قوتُهُمْ إلى التصرُّفِ في ظواهرِهِمْ بالإلزامِ والمنعِ .

والرابعةُ : الوعاظُ ، وحكمُهُمْ علىٰ بواطنِ العوامِّ فقطْ .

وأشرفُ هـٰذهِ السياساتِ الأربعِ بعدَ النبوَّةِ إفادةُ العلمِ ، وتهذيبُ نفوسِ الناسِ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ المهلِكةِ ، وإرشادُهُمْ إلى الأخلاقِ المحمودةِ المسعِدَةِ ، وهو المرادُ بالتعليمِ [1] .

وإنما قلنا : إنَّ هـٰذا أفضلُ من سائرِ الحرَفِ والصناعاتِ ؛ لأنَّ شرفَ الصناعةِ يعرفُ بثلاثةِ أمورٍ :

إمَّا بالالتفاتِ إلى الغريزةِ التي بها يُتوصَّلُ إلىٰ معرفتِها ؛ كفضْلِ العلومِ العقليةِ على اللغويَّةِ ؛ إذْ تُدرَكُ الحكمةُ بالعقلِ ، واللغةُ بالسمعِ ، والعقلُ أشرفُ من السمعِ .

وإمَّا بالنظرِ إلىٰ عمومِ النفْعِ ؛ كفضْلِ الزراعةِ على الصياغةِ .

وإمَّا بملاحظةِ المحلِّ الذي فيهِ التصرُّفُ ؛ كفضْلِ الصياغةِ على الدباغةِ ؛ إذْ محلُّ أحدِهما الذهبُ ، ومحلُّ الآخرِ جِلْدُ الميتةِ .

وليسَ يخفىٰ أنَّ العلومَ الدينيةَ ـ وهي فقهُ طريقِ الآخرةِ ـ إنما تدركُ بكمالِ العقلِ وصفاءِ الذكاءِ ، والعقلُ أشرفُ صفاتِ الإنسانِ كما سيأتي بيانُهُ ؛ إذْ بهِ قَبِلَ أمانةَ اللهِ تعالىٰ ، وبهِ يصلُ إلىٰ جوارِ اللهِ سبحانَهُ .

---

(١) وهو مقام شريف ، لا يعلوه إلا النبوة والرسالة والصديقية ، وأصحاب هـٰذا المقام هم الجامعون بين علمي الشريعة والحقيقة ؛ فإن إفادة العلم ترجع إلى العلوم الظاهرة ، وتهذيب النفوس والإرشاد بعلماء الحقيقة المتصرفين في بواطن مريدهم . « إتحاف » (١/١٢٧) .

وأمَّا عمومُ النفْعِ . . فلا يستريبُ فيهِ أحدٌ ؛ فإنَّ نفعَهُ وثمرتَهُ سعادةُ الآخرةِ .

وأمَّا شرفُ المحلِّ . . فكيفَ يخفىٰ والمعلِّمُ متصرِّفٌ في قلوبِ البشرِ ونفوسِهِمْ ، وأشرفُ موجودٍ على الأرضِ جنسُ الإنسِ ، وأشرفُ جزْءٍ من جواهرِ الإنسانِ قلبُهُ ، والمعلِّمُ مشتغِلٌ بتكميلِهِ وتحليتِهِ[1] وتطهيرِهِ وسياقتِهِ إلى القرْبِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟!

فتعليمُ العلْمِ مِنْ وجهٍ عبادةٌ للهِ تعالىٰ ، ومِنْ وجهٍ خلافةٌ للهِ تعالىٰ ، وهو أجلُّ خلافةٍ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ فتحَ علىٰ قلْبِ العالمِ العلمَ الذي هوَ أخصُّ صفاتِهِ ، فهوَ كالخازنِ لأنْفَسِ خزائنِهِ ، ثمَّ هوَ مأذونٌ لهُ في الإنفاقِ منهُ علىٰ كلِّ محتاجٍ إليهِ .

فأيَّةُ رتبةٍ أجلُّ مِنْ كونِ العبدِ واسطةً بينَ ربِّهِ سبحانَهُ وبينَ خلقِهِ في تقريبِهِمْ إلى اللهِ زلفىٰ ، وسياقتِهِمْ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ ؟!

جعلَنا اللهُ منهُمْ بكرمِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

---

(١) وفي (أ) : (وتجليته) ، وهي التصفية ، وفي نسخة عند الزبيدي : (وتخليته) ، وهو مناسب للتطهير . « إتحاف » (١٢٨/١) .

الباب الثّاني

في العلم المحمود ، والمذموم ، وأقسامها وأحكامها وفيه بيان ما هو فرض عين ، وما هو فرض كفاية وبيان أنّ موقع الكلام والفقه من علم الدّين إلى أيّ حدّ هو ، وتفضيل علم الآخرة

بيان العلم الّذي هو فرض عين

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طَلَبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ »[1]

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطْلُبُوا العلمَ ولوْ بالصِّينِ »[2]

❁ ❁ ❁

واختلفَ الناسُ في العلمِ الذي هو فرْضٌ على كلِّ مسلمٍ ، وتحزَّبوا فيهِ أكثرَ مِنْ عشرينَ فِرقةً ، ولا نطوِّلُ بنقْلِ التفصيلِ ، ولكنْ حاصلُهُ : أنَّ كلَّ فريقٍ نزَّلَ الوجوبَ على العلمِ الذي هوَ بصددِهِ :

فقالَ المتكلمونَ : هوَ علمُ الكلامِ ؛ إذْ بِهِ يُدركُ التوحيدُ ، وتُعلمُ ذاتُ اللهِ سبحانَهُ وصفاتُهُ .

وقالَ الفُقهاءُ : هوَ علمُ الفقْهِ ؛ إذْ بِهِ تُعرفُ العباداتُ ، والحلالُ والحرامُ ، وما يحرُمُ مِنَ المعاملاتِ وما يحلُّ ، وعَنَوا بِهِ ما يحتاجُ إليهِ الآحادُ دونَ الوقائعِ النادرةِ .

وقالَ المفسرونَ والمحدِّثونَ : هوَ علْمُ الكتابِ والسنَّةِ ؛ إذْ بهما يُتوصَّلُ إلى العلومِ كلِّها[3]

وقالَ المتصوفةُ : المرادُ بِهِ هـٰذا العلمُ[4] ؛ فقالَ بعضُهُمْ[5] : (هوَ علمُ العبدِ بحالِهِ ومقامِهِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ) .

وقالَ بعضُهُمْ : (هوَ العلمُ بالإخلاصِ وآفاتِ النفوسِ ، وتمييزِ لَمَّةِ الملَكِ من لَمَّةِ الشيطانِ)[6]

وقالَ بعضُهُمْ : (هوَ علمُ الباطنِ ، وذٰلكَ يجبُ على أقوامٍ مخصوصينَ همْ أهلُ ذٰلكَ)[7] ، وصرفوا اللفظَ عنْ عمومِهِ .

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : (هوَ العلمُ بما يتضمَّنُهُ الحديثُ الذي فيهِ مباني الإسلامِ) ؛ وهوَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٢/٣) .

(٣) هما قولان ؛ فالمفسرون قالوا : هو علم كتاب الله ، وقال المحدثون : هو علم السنة . « إتحاف » (١٣٠/١) .

(٤) أي : علم التصوف ، ثم فصَّل أقوالهم .

(٥) نسبه صاحبُ « القوت » (١٢٩/١) إلىٰ سهل التستري رحمه الله تعالىٰ ، وذكر كلَّ الأقوال التي أوردها الإمام هنا ، ونسب بعضها لقائل معين .

(٦) وبين خاطر الروح ووسوسة النفس ، وبين علم اليقين وقوادح العقل ؛ ليميز بذٰلك الأحكام ، وهـٰذا عند هـٰؤلاء فريضة ، وهو مذهب مالك بن دينار وفرقد السبخي وعبد الواحد بن زيد وأتباعهم من النساك ، وقد كان أستاذهم الحسن البصري يتكلم في ذٰلك ، وعنه حملوا علوم القلوب . « قوت القلوب » (١٢٩/١) .

(٧) أي : أهل ذٰلك العلم ، ولأنه جاء في لفظ الحديث : « تعلموا اليقين » [« حلية الأولياء » (٩٥/٦)] ، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين . « إتحاف » (١٣٠/١) .

« بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ . . . » الحديثَ[1] ؛ لأنَّ الواجبَ هٰذهِ الخمسُ ، فيجبُ العلمُ بكيفيَّةِ العملِ فيها ، وبكيفيَّةِ الوجوبِ .

والذي ينبغي أنْ يَقطعَ بهِ المحصِّلُ ولا يستريبَ فيهِ ما نذكرُهُ ؛ وهو أنَّ العلمَ ـ كما قدَّمناهُ في خطبةِ الكتابِ ـ ينقسمُ إلى علمِ معاملةٍ وعلمِ مكاشفةٍ ، وليسَ المرادُ بهٰذا العلمِ إلا علمَ المعاملةِ[2]

والمعاملةُ التي كُلِّفَ العبدُ العاقلُ البالغُ بها ثلاثةُ أقسامٍ : **اعتقادٌ ، وفعلٌ ، وتركٌ .**

فإذا بلغَ الرجلُ العاقلُ بالاحتلامِ أو السنِّ ضحوةَ نهارٍ مثلاً ، فأوَّلُ واجبٍ عليهِ تعلُّمُ كلمتي الشهادةِ وفهْمُ معناهما ، وهو قولُ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ) ، وليس يجبُ عليه أنْ يحصِّلَ كشْفَ ذٰلكَ لنفسِهِ بالنَّظَرِ والبحثِ وتحريرِ الأدلَّةِ ، بل يكفيهِ أنْ يصدِّقَ بهِ ويعتقدَهُ جزماً من غيرِ اختلاجِ ريبٍ واضطرابِ نفْسٍ ، وذٰلكَ قدْ يحصُلُ بمجرَّدِ التقليدِ والسماعِ مِنْ غيرِ بحثٍ ولا برهانٍ ؛ إذِ اكتفى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من أجلافِ العربِ بالتصديقِ والإقرارِ من غيرِ تعلُّمِ دليلٍ[3]

فإذا فعلَ ذٰلكَ . . فقدْ أدَّىٰ واجبَ الوقتِ ، وكانَ العلمُ الذي هوَ فرضٌ عليهِ في الوقتِ تعلُّمَ الكلمتينِ وفهمَهما ، وليسَ يلزمُهُ أمرٌ وراءَ هٰذا في الوقتِ ؛ بدليلِ أنَّه لو ماتَ عَقيبَ ذٰلكَ . . ماتَ مطيعاً للهِ عزَّ وجلَّ غيرَ عاصٍ .

وإنما يجبُ غيرُ ذٰلكَ بعوارضَ تعرِضُ ، وليسَ ذٰلكَ ضرورياً في حقِّ كلِّ شخصٍ ، بلْ يتصوَّرُ الانفكاكُ عنها .

وتلكَ العوارضُ إمَّا أنْ تكونَ في الفعلِ ، وإمَّا في التركِ ، وإمَّا في الاعتقادِ :

أمَّا الفعلُ : فبأنْ يعيشَ مِنْ ضحوةِ النهارِ إلى وقتِ الظهرِ ، فيتجدَّدُ عليهِ بدخولِ وقتِ الظهرِ تعلُّمُ الطهارةِ والصلاةِ ، فإنْ كانَ صحيحاً ، وكان بحيثُ لو صبرَ إلى زوالِ الشمسِ لمْ يتمكَّنْ منْ تمامِ التعلُّمِ والعملِ في الوقتِ ، بلْ يخرجُ الوقتُ لو اشتغلَ بالتعلُّمِ . . فلا يبعُدُ أنْ نقولَ : الظاهرُ بقاؤُهُ ، فيجبُ عليهِ تقديمُ التعلُّمِ على الوقتِ ، ويحتملُ أنْ يقالَ : وجوبُ العلمِ الذي هوَ شرطُ العملِ بعدَ وجوبِ العملِ ، فلا يجبُ قبلَ الزوالِ ، وهٰكذا في بقيَّةِ الصلواتِ .

فإنْ عاشَ إلى رمضانَ . . تجدَّدَ بسببِهِ وجوبُ تعلُّمِ الصومِ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ وقتَهُ مِنَ الصبْحِ إلى غروبِ الشمْسِ ، وأنَّ الواجبَ فيهِ النيَّةُ والإمساكُ عَنِ الأكلِ والشربِ والوقاعِ ، وأنَّ ذٰلكَ يتمادىٰ إلى رؤيةِ الهلالِ .

فإنْ تجدَّدَ لهُ مالٌ أو كانَ لهُ مالٌ عندَ بلوغِهِ . . لزمَهُ تعلُّمُ ما يجبُ عليهِ من الزكاةِ ، ولٰكنْ لا يلزمُهُ في الحالِ ، إنما يلزمُهُ عندَ تمامِ الحولِ مِنْ وقْتِ الإسلامِ ، فإنْ لمْ يملكْ إلا الإبلَ . . لمْ يلزمْهُ تعلُّمُ زكاةِ الغنمِ ، وكذٰلكَ في سائرِ الأصنافِ .

فإذا دخلَتْ أشهرُ الحجِّ . . فلا يلزمُهُ المبادرةُ إلى علْمِ الحجِّ مع أنَّ فعلَهُ على التراخي ، فلا يكونُ علمُهُ على الفورِ ، ولٰكنْ ينبغي لعلماءِ الإسلامِ أنْ ينبِّهوهُ على أنَّ الحجَّ فرضٌ على التراخي على كلِّ مَنْ ملكَ الزادَ والراحلةَ إذا كانَ هوَ

(١) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .

(٢) أي : علم المعاملة القلبية والقالبية ، **فالقلبية** : إصلاح الباطن ، **والقالبية** : العبادات البدنية ونحوها . « إتحاف » (١٣٥/١) .

(٣) كحديث إيمان ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه في « البخاري » (٦٣) ، وغيره كثير ، وانظر « الاقتصاد » (ص ٢٨٣) .

مالكاً[1] ، حتَّىٰ ربَّما يرى الحزمَ لنفسِهِ في المبادرةِ ، فعندَ ذٰلكَ إذا عزمَ عليهِ . . لزمَهُ تعلُّمُ كيفيَّةِ الحجِّ ، ولمْ يلزمْهُ إلا تعلُّمُ أركانِهِ وواجباتِهِ دونَ نوافلِهِ ؛ فإنَّ فعلَ ذٰلكَ نفلٌ ، فعلمُهُ أيضاً نفلٌ ، فلا يكونُ فرضَ عينٍ .

وفي تحريمِ السكوتِ عَنِ التنبيهِ علىٰ وجوبِ أصْلِ الحجِّ في الحالِ نظرٌ يليقُ بالفقهِ .

وهـٰكذا التدريجُ في علمِ سائرِ الأفعالِ التي هيَ فرضُ عينٍ .

وأمَّا التُّروكُ : فيجبُ علْمُ ذٰلكَ بحسَبِ ما يتجدَّدُ مِنَ الحالِ ، وذٰلكَ يختلفُ بحالِ الشخصِ ؛ إذْ لا يجبُ على الأبكَمِ تعلُّمُ ما يحرمُ من الكلامِ ، ولا على الأعمىٰ تعلُّمُ ما يحرمُ مِنَ النظرِ ، ولا على البدويّ تعلُّمُ ما يحرمُ[2] الجلوسُ فيهِ مِنَ المساكنِ ، فذٰلكَ أيضاً واجبٌ بحسَبِ ما يقتضيهِ الحالُ ، فما يعلمُ أنَّهُ ينفكُّ عنهُ لا يجبُ تعلُّمُهُ .

وما هوَ ملابسٌ له يجبُ تنبيهُهُ عليهِ ؛ كما لوْ كانَ عندَ الإسلامِ لابساً للحريرِ ، أو جالساً في الغصْبِ ، أو ناظراً إلىٰ غيرِ مَحْرَمٍ ، فيجبُ تعريفُهُ ذٰلكَ ، وما ليسَ ملابساً لهُ ولٰكنَّهُ بصدَدِ التعرُّضِ لهُ على القرْبِ ؛ كالأكْلِ والشربِ . . فيجبُ تعليمُهُ ، حتَّىٰ إذا كانَ في بلدٍ يُتعاطَىٰ فيه شربُ الخمرِ وأكلُ لحمِ الخنزيرِ . . فيجبُ تعليمُهُ ذٰلكَ وتنبيهُهُ عليهِ ، وما وجبَ تعليمُهُ . . وجبَ عليهِ تعلُّمُهُ .

وأمَّا الاعتقاداتُ وأعمالُ القلوبِ : فيجبُ علمُها بحسَبِ الخواطرِ ؛ فإنْ خطرَ لهُ شكٌّ في المعاني التي تدلُّ عليها كلمتا الشهادةِ . . فيجبُ عليهِ تعلُّمُ ما يتوصَّلُ بهِ إلىٰ إزالةِ الشكِّ ، فإنْ لمْ يخطرْ لهُ ذٰلكَ وماتَ قبلَ أنْ يعتقدَ أنَّ كلامَ اللهِ سبحانَهُ قديمٌ ، وأنَّهُ مرئيٌّ ، وأنَّهُ تعالىٰ ليسَ محلاًّ للحوادثِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مما يُذْكَرُ في المعتقداتِ . . فقدْ ماتَ على الإسلامِ إجماعاً .

ولٰكنْ هـٰذهِ الخواطرُ الموجبةُ للاعتقاداتِ بعضُها يخطرُ بالطبعِ ، وبعضُها يخطرُ بالسماعِ مِنْ أهلِ البلدِ .

فإنْ كانَ في بلدٍ شاعَ فيهِ الكلامُ وتناطقَ الناسُ بالبدعِ . . فينبغي أنْ يصانَ في أوَّلِ بلوغِهِ عنها بتلقينِ الحقّ ؛ فإنَّهُ لو أُلقيَ إليه الباطلُ . . لوجبَ إزالتُهُ مِنْ قلبِهِ ، وربَّما عَسُرَ ذٰلكَ ، كما أنَّهُ لوْ كانَ هـٰذا المسلمُ تاجراً وقدْ شاعَ في البلدِ معاملةُ الربا . . وجبَ عليه تعلُّمُ الحذرِ مِنَ الربا .

فهـٰذا هوَ الحقُّ في العلمِ الذي هوَ فرضُ عينٍ ، **ومعناهُ** : العلمُ بكيفيةِ العملِ الواجبِ ، فمن عَلِمَ العملَ الواجبَ ووقتَ وجوبِهِ . . علمَ العلمَ الذي هو فرضُ عينٍ .

وما ذكرَهُ الصوفيَّةُ من فهْمِ خاطرِ العدوّ ولَمَّةِ الملَكِ حقٌّ أيضاً ، ولٰكنْ في حقّ مَنْ يتصدَّىٰ لهُ .

وإذا كانَ الغالبُ أنَّ الإنسانَ لا ينفكُّ عن دواعي الشرّ والرياءِ والحسدِ . . فيلزمُهُ أنْ يتعلَّمَ من علْمِ ربعِ المهلكاتِ ما يرىٰ نفسَهُ محتاجاً إليهِ ؛ وكيفَ لا يجبُ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مُهلِكاتٌ : شُحٌّ مُطاعٌ ، وهوىً مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ . . . » الحديثَ ؟![3]

ولا ينفكُّ عنها بشَرٌ ، وبقيَّةُ ما سنذكرُهُ مِنْ مذموماتِ أحوالِ القلْبِ كالكبْرِ والعجْبِ وأخواتِهما تتْبَعُ هـٰذهِ الثلاثَ المهلكاتِ ، وإزالتُها فرضُ عينٍ ، ولا يمكنُ إلا بمعرفةِ حدودِها ، ومعرفةِ أسبابِها ، ومعرفةِ علاماتِها ، ومعرفةِ

---

(١) وذلك مما فَضَلَ عن مسكنه وعما لا بدَّ له منه ، وعلىٰ نفقة مدة ذهابه وإيابه ونفقة عياله . « إتحاف » (١/ ١٤٠) .

(٢) في غير (ج) : (ما يحلُّ) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١)

علاجها ؛ فإنَّ منْ لا يعرفُ الشرَّ يقعُ فيه ، والعلاجُ هو مقابلةُ السببِ بضدِّهِ ، فكيفَ يمكنُ دونَ معرفةِ السببِ والمسبَّبِ ؟!

وأكثرُ ما ذكرناهُ في ربعِ المهلكاتِ من فروضِ الأعيانِ ، وقد تركَهُ الناسُ كافةً ؛ اشتغالاً بما لا يغني .

وممَّا ينبغي أنْ يُبادرَ في إلقائِهِ إليهِ إذا لم يكنْ قدِ انتقلَ عَنْ ملَّةٍ أخرى : الإيمانُ بالجنَّةِ والنارِ ، والحشْرِ والنشْرِ ؛ حتَّىٰ يؤمنَ بهِ ويصدِّقَ ، وهوَ من تتمَّةِ كلمتي الشهادةِ ؛ فإنَّهُ بعدَ التصديقِ بكونِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولاً ينبغي أنْ يفهمَ الرسالةَ التي هوَ مبلِّغُها ، وهوَ أنَّ منْ أطاعَ اللهَ ورسولَهُ . . فلهُ الجنَّةُ ، ومَنْ عصاهُ . . فلهُ النارُ .

فإذا تنبَّهْتَ لهٰذا التدريجِ . . علمتَ أنَّ المذهبَ الحقَّ هوَ هٰذا ، وتحققتَ أنَّ كلَّ عبدٍ فهوَ في مجاري أحوالِهِ في يومِهِ وليلتِهِ لا يخلو عنْ وقائعَ في عباداتِهِ ومعاملاتِهِ تجدِّدُ عليه لوازمَ ، فيلزمُهُ السؤالُ عنْ كلِّ ما يقعُ لهُ من النوادرِ ، وتلزمُهُ المبادرةُ إلىٰ تعلُّمِ ما يتوقَّعُ وقوعَهُ على القربِ غالباً .

فإذاً ؛ تبيَّنَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إنَّما أرادَ بالعلمِ المعرَّفِ بالألفِ واللامِ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلِمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[1] علْمَ العملِ الذي هو مشهورُ الوجوبِ على المسلمينَ لا غيرَ ، وقدِ اتضحَ وجهُ التدريجِ في وقتِ وجوبِهِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

بيان العلم الذي هو فرض كفاية

اعلمْ : أنَّ الفرضَ لا يتميَّزُ عنْ غيرِهِ إلا بذكْرِ أقسامِ العلومِ ، والعلومُ بالإضافةِ إلى الفرضِ الذي نحنُ بصددِهِ تنقسمُ إلىٰ **شرعيَّةٍ وغيرِ شرعيَّةٍ** .

وأعني بالشرعيَّةِ : ما يستفادُ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، ولا يرشدُ **العقلُ** إليهِ مثلُ الحسابِ ، ولا **التجربةُ** مثلُ الطبِّ ، ولا **السماعُ** مثلُ اللغةِ .

فالعلومُ التي ليستْ شرعيةً : تنقسمُ إلىٰ ما هوَ **محمودٌ** ، وإلىٰ ما هوَ **مذمومٌ** ، وإلىٰ ما هوَ **مباحٌ** .

فالمحمودُ : ما ترتبطُ بهِ مصالحُ الدنيا ؛ كالطِّبِّ والحسابِ ، وذلكَ ينقسمُ إلىٰ ما هوَ فرضُ كفايةٍ ، وإلىٰ ما هوَ فضيلةٌ وليسَ بفريضةٍ .

أمَّا فرضُ الكفايةِ : فهوَ كلُّ علْمٍ لا يُستغنىٰ عنهُ في قِوامِ أمورِ الدنيا ؛ كالطِّبِّ ، إذْ هوَ ضروريٌّ في حاجةِ بقاءِ الأبدانِ ، وكالحسابِ ؛ فإنَّهُ ضروريٌّ في المعاملاتِ وقسمةِ الوصايا والمواريثِ وغيرِها ، وهاذهِ هيَ العلومُ التي لو خلا البلدُ عمَّنْ يقومُ بها . . حَرِجَ أهلُ البلدِ ، وإذا قامَ بها واحدٌ . . كفىٰ وسقطَ الفرضُ عنِ الآخرينَ .

فلا يُتعجَّبْ مِنْ قولِنا : إنَّ الطبَّ والحسابَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ فإنَّ أصولَ الصناعاتِ أيضاً مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ كالفلاحةِ والحياكةِ والسياسةِ بلِ الحجامةِ ؛ فإنَّهُ لو خلا البلدُ عنِ الحجَّامِ . . تسارعَ الهلاكُ إليهِمْ ، وحَرِجوا بتعريضِهِمْ أنفسَهُمْ للهلاكِ ؛ فإنَّ الذي أنزلَ الداءَ أنزلَ الدواءَ وأرشدَ إلى استعمالِهِ ، وأعدَّ الأسبابَ لتعاطيهِ ، فلا يجوزُ التعرُّضُ للهلاكِ بإهمالِهِ .

وأمَّا ما يعدُّ فضيلةً لا فريضةً : فالتعمُّقُ في دقائقِ الحسابِ وحقائقِ الطبِّ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يُستغنىٰ عنهُ ، ولاكنَّهُ يفيدُ زيادةَ قوَّةٍ في القَدْرِ المحتاجِ إليهِ .

وأمَّا المذمومُ منهُ : فعلْمُ السحْرِ والطِّلَسْماتِ [1] ، وعلمُ الشعبذةِ والتلبيساتِ .

وأمَّا المباحُ منهُ : فالعلمُ بالأشعارِ التي لا سخْفَ فيها ، وتواريخِ الأخبارِ وما يجري مَجراهُ .

وأمَّا العلومُ الشرعيةُ ـ وهيَ المقصودةُ بالبيانِ ـ : فهيَ محمودةٌ كلُّها ، ولاكنْ قدْ يلتبسُ بها ما يُظنُّ أنَّها شرعيَّةٌ وتكونُ مذمومةً ؛ فلتقسمْ إلى المحمودةِ والمذمومةِ :

أمَّا المحمودةُ : **فلها أصولٌ ، وفروعٌ ، ومقدماتٌ ، ومتمِّماتٌ ، فهيَ أربعةُ أضْربٍ** :

الضربُ الأول : الأصولُ : وهيَ أربعةٌ : كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وسنَّةُ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإجماعُ الأمَّةِ ، وآثارُ الصحابةِ .

والإجماعُ أصلٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ يدلُّ على السنَّةِ ، فهوَ أصلٌ في الدرجةِ الثانيةِ ، وكذلكَ الأثرُ ؛ فإنَّهُ يدلُّ أيضاً

---

(١) **الطلسمات** : مفردها الطِّلَسْم بتخفيف اللام وتشديدها ، وهو اسم للسرّ المكتوم ، وعلم تأليف القوى السماوية بقوىٰ بعض الأجرام الأرضية ليتألف من ذلك قوة ، ومنه ما يوافق الشرع ومنه ما يخالفه ، ويطلب ذلك في مواطنه .

على السنَّةِ ؛ **لأنَّ الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهِمْ قدْ شاهدوا الوحيَ والتنزيلَ ، وأدركوا بقرائنِ الأحوالِ ما غابَ عنْ غيرِهِمْ عيانُهُ ، وربَّما لا تحيطُ العباراتُ بما أُدرِكَ بالقرائنِ** ، فمِنْ هـٰذا الوجهِ رأى العلماءُ الاقتداءَ بهِمْ والتمسُّكَ بآثارِهِمْ ، وذٰلكَ بشرْطٍ مخصوصٍ وعلىٰ وجْهٍ مخصوصٍ عندَ مَنْ رآهُ ، ولا يليقُ بيانُهُ بهـٰذا الفنِّ .

الضربُ الثاني : الفروعُ : وهوَ ما فُهِمَ مِنْ هـٰذهِ الأصولِ لا بموجَبِ ألفاظِها ، بلْ بمعانٍ تنبَّهتْ لها العقولُ ، فاتَّسعَ بسببِها الفهمُ ، حتىٰ فُهِمَ مِنَ اللفظِ الملفوظِ بهِ غيرُهُ ، كما فُهِمَ مِنْ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يَقضِي القاضي وهوَ غضبانُ »[1] أنَّهُ لا يقضي إذا كانَ حاقناً أو جائعاً أو متألِّماً بمرضٍ .

وهـٰذا علىٰ ضربينِ :

أحدُهما : يتعلَّقُ بمصالحِ الدنيا ، ويحويهِ فنُّ الفقهِ ، والمتكفِّلُ بهِ الفقهاءُ ، وهمْ مِنْ علماءِ الدنيا[2]

والثاني : ما يتعلَّقُ بمصالحِ الآخرةِ ، وهوَ علْمُ أحوالِ القلبِ وأخلاقِهِ المحمودةِ والمذمومةِ ، وما هوَ مرضيٌّ عندَ اللهِ تعالىٰ وما هوَ مكروهٌ ، وهوَ الذي يحويهِ الشطْرُ الأخيرُ مِنْ هـٰذا الكتابِ ؛ أعني : جملةَ كتابِ « إحياء علوم الدين » ، ومنهُ العلمُ بما يترشَّحُ مِنَ القلبِ على الجوارحِ في عباداتِها وعاداتِها ، وهوَ الذي يحويهِ الشطرُ الأوَّلُ مِنْ هـٰذا الكتابِ .

والضربُ الثالثُ : المقدماتُ : وهوَ الذي يجري منها مَجرى الآلاتِ ؛ كعلمِ اللغةِ والنحوِ ، فإنَّهما آلةٌ لعلمِ كتابِ اللهِ سبحانَهُ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وليسَ اللغةُ والنحوُ مِنَ العلومِ الشرعيَّةِ في أنفسِهما ، ولٰكنْ لزومُ الخوضِ فيهما بسببِ الشرعِ ؛ إذْ جاءتْ هـٰذهِ الشريعةُ بلغةِ العربِ ، وكلُّ شريعةٍ لا تظهرُ إلا بلغةٍ ، فيصيرُ تعلُّمُ تلكَ اللغةِ آلةً .

ومِنَ الآلاتِ علمُ كتابةِ الخطِّ ، إلا أنَّ ذٰلكَ ليسَ ضرورياً ؛ إذْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمّيّاً ، ولو تُصوِّرَ استقلالُ الحفظِ بجميعِ ما يسمعُ . . لاستُغنِيَ عَنِ الكتابةِ ، ولـٰكنَّهُ صارَ بحكمِ العجْزِ في الغالبِ ضرورياً .

الضربُ الرابعُ : المتمِّماتُ : وذٰلكَ في علمِ القرآنِ ، فإنَّه ينقسمُ إلىٰ ما يتعلَّقُ **باللفظِ** ؛ كعلمِ القراءاتِ ومخارجِ الحروفِ ، وإلىٰ ما يتعلَّقُ **بالمعنىٰ** ؛ كالتفسيرِ ، فإنَّ اعتمادَهُ أيضاً على النقلِ ؛ إذِ اللغةُ بمجرَّدِها لا تستقلُّ بهِ ، وإلىٰ ما يتعلَّقُ **بأحكامِهِ** ؛ كمعرفةِ الناسخِ والمنسوخِ ، والعامِّ والخاصِّ ، والنصِّ والظاهرِ ، وكيفيةِ استعمالِ البعضِ منهُ معَ البعضِ ، وهو العلمُ الذي يسمَّىٰ : أصولَ الفقهِ ، ويتناولُ السنَّةَ أيضاً .

وأمَّا المتمِّماتُ في الآثارِ والأخبارِ . . فالعلمُ بالرجالِ وأساميهِمْ وبأسامي الصحابةِ وصفاتِهِمْ ، والعلمُ بالعدالةِ في الرواةِ ، والعلمُ بأحوالِهِمْ ليتميَّزَ الضعيفُ عَنِ القويِّ ، والعلمُ بأعمارِهِمْ ليتميَّزَ المرسَلُ عنِ المسنَدِ ، وكذٰلكَ ما يتعلَّقُ بهِ .

فهـٰذهِ هيَ العلومُ الشرعيَّةُ ، وكلُّها محمودةٌ ، بلْ كلُّها مِنْ فروضِ الكفاياتِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلمَ ألحقتَ الفقهَ بعلمِ الدنيا ، وألحقتَ الفقهاءَ بعلماءِ الدنيا ؟

فاعلمْ : أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخرجَ آدمَ عليهِ السلامُ مِنَ الترابِ ، وأخرجَ ذريَّتَهُ مِنْ سلالةٍ مِنْ طينٍ ومِنْ ماءٍ دافقٍ ،

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٨) ، ومسلم (١٧١٧) .

(٢) مع بيانه رضي الله عنه كما سيأتي أنه ـ أي : الفقه ـ لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق الآخرة ألبتة ، فتنبه .

فأخرجَهُمْ مِنَ الأصلابِ إلى الأرحامِ ، ومنها إلى الدنيا ، ثمَّ إلى القَبْرِ ، ثمَّ إلى العَرْضِ ، ثمَّ إلى الجنَّةِ أو إلى النارِ ، فهـٰذا مبدؤُهُمْ ، وهـٰذهِ غايتُهُمْ ، وهـٰذهِ منازِلُهُمْ .

وخلقَ الدنيا زاداً للمعادِ ؛ ليتناولَ منها ما يصلُحُ للتزوُّدِ ، فلوْ تناولوها بالعدلِ . . انقطعَتِ الخصوماتُ وتعطَّلَ الفقهاءُ ، ولـٰكنَّهُمْ تناولوها بالشهواتِ ؛ فتولَّدَتْ منها الخصوماتُ ، فمسَّتِ الحاجةُ إلىٰ سلطانٍ يسوسُهُمْ ، واحتاجَ السلطانُ إلىٰ قانونٍ يسوسُهُمْ بهِ .

فالفقيهُ : هوَ العالمُ بقانونِ السياسةِ وطريقِ التوسُّطِ بينَ الخلقِ إذا تنازعوا بحكْمِ الشهواتِ ، فكانَ الفقيهُ معلِّمَ السلطانِ ومرشدَهُ إلىٰ طريقِ سياسةِ الخلقِ وضبطِهِمْ ؛ لينتظمَ باستقامتِهِمْ أمورُهُمْ في الدنيا .

ولعمري ؛ إنَّهُ متعلِّقٌ أيضاً بالدينِ ، ولـٰكنْ لا بنفسِهِ ، بلْ بواسطةِ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، ولا يتمُّ الدينُ إلا بالدنيا ، والمُلكُ والدينُ توءمانِ ، والدينُ أصلٌ والسلطانُ حارسٌ ، وما لا أصلَ لهُ . فمهدومٌ ، وما لا حارسَ لهُ . . فضائعٌ ، ولا يتمُّ المُلكُ والضبطُ إلا بالسلطانِ[1] ، وطريقُ الضبْطِ في فصْلِ الخصوماتِ بالفقهِ .

وكما أنَّ سياسةَ الخلْقِ بالسلطنةِ ليسَ مِنْ علمِ الدينِ في الدرجةِ الأولىٰ ، بلْ هوَ معينٌ علىٰ ما لا يتمُّ الدينُ إلا بهِ . . فكذٰلكَ معرفةُ طريقِ السياسةِ ؛ فمعلومٌ أنَّ الحجَّ لا يتمُّ إلا ببَذْرَقَةٍ[2] تحرسُ من العربِ في الطريقِ ، ولـٰكنَّ الحجَّ شيءٌ وسلوكَ الطريقِ إلى الحجِّ شيءٌ ثانٍ ، والقيامَ بالحراسةِ التي لا يتمُّ الحجُّ إلا بها شيءٌ ثالثٌ ، ومعرفةَ طُرُقِ الحراسةِ وحيلِها وقوانينِها شيءٌ رابعٌ .

وحاصلُ فنِّ الفقهِ : معرفةُ طرقِ السياسةِ والحراسةِ .

ويدلُّ علىٰ ذٰلكَ ما رُوِيَ مسنداً : « لا يُفتي الناسَ إلا ثلاثةٌ : أميرٌ أو مأمورٌ أو مُتَكَلِّفٌ »[3]

فالأميرُ هوَ الإمامُ وقدْ كانوا همُ المفتينَ ، والمأمورُ نائبُهُ ، والمتكلِّفُ غيرُهُما ، وهوَ الذي يتقلَّدُ تلكَ العهدةَ مِنْ غيرِ حاجةٍ .

وقدْ كانَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ يحترزونَ عَنِ الفتوىٰ ، حتَّىٰ كانَ يحيلُ كلُّ واحدٍ منهُمْ علىٰ صاحبِهِ ، وكانوا لا يحترزونَ إذا سُئِلوا عنْ علْمِ القرآنِ وطريقِ الآخرةِ .

وفي بعضِ الرواياتِ بدلَ (المتكلِّفِ) : المرائي[4] ؛ فإنَّ مَنْ تقلَّدَ خطرَ الفتوىٰ وهوَ غيرُ متعيِّنٍ للحاجةِ . . فلا يقصدُ بهِ إلا طلبَ الجاهِ والمالِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) ويرحم الله الإمام عبد الله بن المبارك إذ يقول في « ديوانه » (ص ٦٦) :

الله يرفع بالسلطان معضلة ... عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبلٌ ... وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

(٢) البذرقة : الخفارة والحرس ، وهي كلمة فارسية معربة .

(٣) كذا في « القوت » (١/١٣١) حيث قال : (وقد روينا مسنداً) وذكره ، وقد رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٦/٢٢) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/٧٦) ، وأوله : « لا يقصُّ إلا أمير . . » ، وله روايات أخرىٰ .

(٤) رواه ابن ماجه (٣٧٥٣) بهـٰذا اللفظ ، ولـٰكن أوله كما تقدَّم عند أحمد والطبراني ، ونحوه عند أبي داوود (٣٦٦٥) .

فإنْ قلتَ : هـٰذا إنِ استقامَ لكَ في أحكامِ الحدودِ والجراحاتِ والغراماتِ وفصلِ الخصوماتِ . . فلا يستقيمُ فيما يشتملُ عليهِ ربعُ العباداتِ من الصيامِ والصلاةِ ، ولا فيما يشتملُ عليهِ ربعُ العاداتِ مِنَ المعاملاتِ مِنْ بيانِ الحلالِ والحرامِ .

فاعلمْ : أنَّ أقربَ ما يتكلَّمُ الفقيهُ فيهِ من الأعمالِ التي هي أعمالُ الآخرةِ ثلاثةٌ : **الإسلامُ ، والصلاةُ ، والحلالُ والحرامُ** .

وإذا تأمَّلْتَ منتهىٰ نظرِ الفقيهِ . . علمتَ أنَّهُ لا يجاوزُ حدودَ الدنيا إلى الآخرةِ ، وإذا عرفتَ هـٰذا في هـٰذهِ الثلاثةِ . . فهوَ في غيرِها أظهرُ :

أمَّا الإسلامُ : فيتكلَّمُ الفقيهُ فيما يصحُّ منهُ وما يفسدُ ، وفي شروطِهِ ، وليسَ يلتفتُ فيهِ إلا إلى اللسانِ ، وأمَّا القلبُ . . فخارجٌ عَنْ ولايةِ الفقيهِ بعزلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أربابَ السيوفِ والسلطنةِ عنهُ ؛ حيثُ قالَ : « هلَّا شَقَقْتَ عنْ قلبِهِ »[1] في الذي قَتَلَ مَنْ تكلَّمَ بكلمةِ الإسلامِ معتذراً بأنَّهُ قالَ ذٰلكَ مِنْ خوفِ السيفِ ، بلْ يحكُمُ الفقيهُ بصحَّةِ الإسلامِ تحتَ ظلالِ السيوفِ ، مع أنَّهُ يعلمُ أنَّ السيفَ لمْ يكشِفْ لهُ عنْ شبهةٍ ، ولم يرفعْ عن قلبِهِ غشاوةَ الجهلِ والحيرةِ ، ولـٰكنَّهُ مشيرٌ علىٰ صاحبِ السيفِ ؛ فإنَّ السيفَ ممتدٌّ إلىٰ رقبتِهِ ، واليدَ ممتدَّةٌ إلىٰ مالِهِ ، وهـٰذهِ الكلمةُ باللسانِ تعصمُ رقبتَهُ ومالَهُ ما دامتْ لهُ رقبةٌ ومالٌ ، وذٰلكَ في الدنيا ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُمرتُ أنْ أقاتلَ الناسَ حتَّىٰ يقولوا : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، فإذا قالوها . . فقد عصمُوا منِّي دماءَهُمْ وأموالَهُمْ »[2] ، جعلَ أثرَ ذٰلكَ في الدمِ والمالِ .

وأمَّا الآخرةُ . . فلا تنفعُ فيها الأقوالُ ، بلْ أنوارُ القلوبِ وأسرارُها وإخلاصُها ، وليسَ ذٰلكَ مِنْ فنِّ الفقهِ ، وإنْ خاضَ الفقيهُ فيهِ . . كانَ كما لو خاضَ في الكلامِ أو الطبِّ ، وكانَ خارجاً عَنْ فنِّهِ .

وأمَّا الصلاةُ : فالفقيهُ يفتي بالصحَّةِ إذا أتىٰ بصورةِ الأعمالِ مع ظاهرِ الشروطِ ، وإنْ كانَ غافلاً في جميعِ صلاتِهِ مِنْ أوَّلِها إلىٰ آخرِها ، مشغولاً بالتفكُّرِ في حسابِ معاملاتِهِ في السوقِ إلا عندَ التكبيرِ ، وهـٰذهِ الصلاةُ لا تنفعُ في الآخرةِ ؛ كما أنَّ القولَ باللسانِ في الإسلامِ لا ينفعُ ، ولـٰكنَّ الفقيهَ يفتي بالصحَّةِ ؛ أي : إنَّ ما فعلَهُ حصلَ بهِ امتثالُ صيغةِ الأمرِ ، وانقطعَ بهِ عنهُ القتلُ أوِ التعزيرُ ، فأمَّا الخشوعُ وإحضارُ القلبِ الذي هوَ عملُ الآخرةِ ، وبهِ ينفعُ العملُ الظاهرُ . . لا يتعرَّضُ لهُ الفقيهُ ، ولو تعرَّضَ لهُ . . لكانَ خارجاً عنْ فنِّهِ .

وأمَّا الزكاةُ[3] : فالفقيهُ ينظرُ إلىٰ ما يقطعُ مطالبةَ السلطانِ ، حتَّىٰ إنَّهُ إذا امتنعَ عن أدائِها ، فأخذَها السلطانُ قهراً . . حَكَمَ بأنَّهُ برئتْ ذمَّتُهُ[4] .

وحُكِيَ أنَّ أبا يوسفَ القاضيَ كان يهبُ مالَهُ لزوجتِهِ في آخرِ الحوْلِ ، ويستوهبُ مالَها لإسقاطِ الزكاةِ ، فحُكِيَ ذٰلكَ لأبي حنيفةَ رحمهُ اللهُ فقالَ : (ذٰلكَ مِنْ فقهِهِ) ، وصدقَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ فِقْهِ الدنيا ، ولـٰكنَّ مضرَّتَهُ في الآخرةِ أعظمُ مِنْ كلِّ جنايةٍ ، ومثلُ هـٰذا العلمِ هوَ الضارُّ .

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩) ، ومسلم (٩٦) ، قاله لأسامة بن زيد رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢١) واللفظ له

(٣) وهي قرينة الصلاة ، فهي من القسم الثاني الذي أشار إليه المصنف رحمه الله تعالىٰ .

(٤) بأخذه لها منه ، وهـٰذا إذا أخذ السلطان منه مما يجب عليه من الزكاة . « إتحاف » (١/١٥٧) .

وأمَّا الحلالُ والحرامُ : فالورعُ عنِ الحرامِ مِنَ الدينِ ، ولكنَّ الورعَ لهُ أربعُ مراتبَ :

الأولى : الورعُ الذي يُشترَطُ في عدالةِ الشهادةِ ؛ وهوَ الذي يخرجُ بعدمِهِ الإنسانُ عنْ أهليَّةِ الشهادةِ والقضاءِ والولايةِ ، وهوَ الاحترازُ عن الحرامِ الظاهرِ .

الثانيةُ : ورعُ الصالحينَ ؛ وهوَ التوقّي مِنَ الشبهاتِ التي تتقابلُ فيها الاحتمالاتُ [١] ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دَعْ ما يَرِيبُكَ إلىٰ ما لا يَرِيبُكَ » [٢] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإثمُ حَوازُّ القلوبِ » [٣]

الثالثةُ : ورعُ المتقينَ ؛ وهو تركُ الحلالِ المحضِ الذي يخافُ منهُ أنْ يؤديَ إلى الحرامِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يكونُ الرجلُ مِنَ المتقينَ حتَّىٰ يَدَعَ ما لا بأسَ بهِ مخافةَ ممَّا بِهِ بأسٌ » [٤] ، وذٰلكَ مثلُ التورُّعِ عَنِ التحدُّثِ بأحوالِ الناسِ ؛ خيفةً مِنَ الانجرارِ إلى الغيبةِ ، والتورُّعِ عنْ أكلِ الشهواتِ ؛ خيفةً من هيجانِ النشاطِ والبطرِ المؤدِّي إلىٰ مقارفةِ المحظوراتِ [٥]

الرابعةُ : ورعُ الصدِّيقينَ ؛ وهوَ الإعراضُ عمَّا سوى اللهِ سبحانَهُ ؛ خوفاً مِنْ صرْفِ ساعةٍ من العمرِ إلىٰ ما لا يفيدُ زيادةَ قربٍ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ وإنْ كانَ يعلمُ ويتحقَّقُ أنَّه لا يفضي إلىٰ حرامٍ .

❀ ❀ ❀

فهٰذهِ الدرجاتُ كلُّها خارجةٌ عَنْ نظرِ الفقيهِ ، إلا الدرجةَ الأولىٰ ، وهوَ ورعُ الشهودِ والقضاةِ وما يقدحُ في العدالةِ ، والقيامُ بذٰلكَ لا ينفي الإثمَ في الآخرةِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوابِصَةَ : « استفْتِ قلبَكَ وإنْ أَفْتَوكَ وَأَفْتَوكَ وَأَفْتَوكَ » [٦]

والفقيهُ لا يتكلَّمُ في حزازاتِ القلوبِ وكيفيةِ العملِ بها ، بلْ فيما يقدحُ في العدالةِ فقطْ .

فإذاً ؛ جميعُ نظرِ الفقيهِ مرتبطٌ بالدنيا التي بها صلاحُ طريقِ الآخرةِ ، فإنْ تكلَّمَ في الإثمِ وصفاتِ القلبِ وأحكامِ الآخرةِ . . فذٰلكَ يدخلُ في كلامِهِ علىٰ سبيلِ التطفُّلِ ، كما قدْ يدخلُ في كلامِهِ شيءٌ من الطبِّ والحسابِ والنجومِ وعلمِ الكلامِ ، وكما تدخلُ الحكمةُ في النحوِ والشعرِ .

وقدْ كانَ سفيانُ الثوريُّ وهوَ إمامٌ في علْمِ الظاهرِ يقولُ : (إنَّ طلبَ هٰذا ليسَ مِنْ زادِ الآخرةِ) [٧] ، كيفَ وقدِ اتفقوا علىٰ أنَّ الشرفَ في العلمِ ليُعملَ بهِ ، فكيفَ يُظنُّ أنَّهُ علْمُ اللعانِ والظهارِ ، والسلَمِ والإجارةِ والصرْفِ ؟!

---

(١) أي : هل هو حرام أم حلال . « إتحاف » (١/١٥٧) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٢٠١) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/١٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٩٢) ، وهو موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وحوازُّ القلوب ـ بتشديد الزاي ـ : جمع حازَّة ، وهي الأمور التي تحزُّ فيها ؛ أي : تؤثر كما يؤثر الحزُّ في الشيء ، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي ؛ لفقد الطمأنينة إليها . ورواه شمر : « الإثم حوَّاز القلوب » بتشديد الواو ؛ أي : يحوزها ويتملكها ويغلب عليها ، ويروى : « الإثم حزَّاز القلوب » بزايين ، الأولىٰ مشددة وهي فعَّال من الحزّ ، وفي (أ) : (حزَّاز) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٢١٥) .

(٥) **النشاط** ؛ أي : الخفة والإسراع ، **والبطر** أخف من النشاط ؛ لأنه دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وعدم القيام بحقّها وصرفها عن وجهها . « إتحاف » (١/١٥٩) .

(٦) رواه أحمد في « مسنده » (٤/٢٢٨) .

(٧) ذكره في « قوت القلوب » (١/١٣٥) ، وروى ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٩٥٦) عن سفيان الثوري نحوه .

ومنْ تعلَّمَ هـٰذهِ الأمورَ ليتقرَّبَ بتعاطيها إلى اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مجنونٌ ، وإنما العملُ بالقلبِ والجوارحِ في الطاعاتِ ، والشرفُ هو علْمُ تلكَ الأعمالِ [١]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : لِمَ سوَّيتَ بينَ الفقهِ والطبِّ ؛ إذِ الطبُّ أيضاً يتعلَّقُ بالدنيا وهوَ صحَّةُ الجسدِ ، وذٰلكَ يتعلَّقُ بهِ أيضاً صلاحُ الدينِ ، وهـٰذهِ التسويةُ تخالفُ إجماعَ المسلمينَ ؟

فاعلمْ : أنَّ التسويةَ غيرُ لازمةٍ ، بلْ بينَهما فرقٌ ؛ فإنَّ الفقهَ أشرفُ منهُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها أنَّهُ علْمٌ شرعيٌّ ؛ إذْ هوَ مستفادٌ مِنَ النبوَّةِ ، بخلافِ الطبِّ ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْ علمِ الشرعِ .

والثاني : أنَّهُ لا يستغني عنهُ أحدٌ مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ ألبتةَ ، لا الصحيحُ ولا المريضُ [٢] ؛ وأمَّا الطبُّ . . فلا يحتاجُ إليهِ إلا المرضىٰ وهمُ الأقلُّونَ .

والثالثُ : أنَّ علْمَ الفقهِ مجاورٌ لعلمِ طريقِ الآخرةِ ؛ لأنَّهُ نظرٌ في أعمالِ الجوارحِ ، ومصدرُ الأعمالِ ومنشؤُها صفاتُ القلوبِ ، فالمحمودُ مِنَ الأعمالِ يصدرُ عَنِ الأخلاقِ المحمودةِ المنجيةِ في الآخرةِ ، والمذمومُ يصدُرُ مِنَ المذمومِ ، وليسَ يخفى اتصالُ الجوارحِ بالقلبِ [٣]

وأمَّا الصحَّةُ والمرضُ . . فمنشؤُهُما صفاتٌ في المزاجِ والأخلاطِ ، وذٰلكَ مِنْ أوصافِ البدنِ ، لا مِنْ أوصافِ القلبِ ، فمهما أُضيفَ الفقهُ إلى الطبِّ . . ظهرَ شرفُهُ ، وإذا أُضيفَ علمُ طريقِ الآخرةِ إلى الفقهِ . . ظهرَ أيضاً شرفُ علمِ طريقِ الآخرةِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فَصِّلْ لي علمَ طريقِ الآخرةِ تفصيلاً يشيرُ إلىٰ تراجمِهِ وإنْ لمْ يمكنِ استقصاءُ تفاصيلِهِ . . **فاعلمْ** أنَّهُ قسمانِ : علمُ مكاشفةٍ وعلمُ معاملةٍ .

فالقسمُ الأوَّلُ : **علمُ المكاشفةِ** وهوَ علمُ الباطنِ ، وذٰلكَ غايةُ العلومِ [٤] ؛ فقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (مَنْ لم يكنْ

---

(١) هـٰذا موطن من المواطن التي أنكر المغاربةُ فيها على المصنف رحمه الله كتابَهُ « الإحياء » حين وصل إليهم ، فقاموا بإحراقه ، وكان ذٰلك في حياته وبعد مماته ؛ إذ قالوا : كيف يسمي العالمَ بالأحكام الشرعية مجنوناً ؟! « إتحاف » (١٦١/١) .

ويجب ألا ننسى أن الذي يقرر ذٰلك هو واحد من العلماء الفقهاء ، صاحب « البسيط » و« الوسيط » و« الوجيز » و« الخلاصة » وغيرها ، فلا بدَّ من فهم مرادات المؤلف في مثل هـٰذه المواطن ، وذٰلك لا يخفىٰ عند أدنىٰ تأمل .

وكذٰلك يجب عند التأمُّل والتبصُّر في كلام الإمام الغزالي . . استكمال الفكرة أو الموضوع الذي يتكلم فيه ، فالاجتزاء والانتقاء وعدم الاستيعاب . . سبب لعدم الفهم المؤدي للإنكار ؛ كما قال المتنبي في « ديوانه » (١٢٠/٤) :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفتُه من الفهمِ السقيمِ

فالإمام الغزالي ترابطت أفكاره ومعانيه ومفاهيمه في ثنايا هـٰذا الكتاب ، من أوله إلىٰ آخره ، **والحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره** .

فالاطلاع الكامل على الكتاب بميزان العلم والمنطق الصحيح . . يدرِكُ معهُ الموفَّقُ أنَّ الاسمَ وافقَ المسمىٰ ، وأنه : (**إحياء علوم الدين**) .

(٢) انظر « الاقتصاد » (ص ٧٩) .

(٣) وعليه المعول في كل صلاح أو فساد ؛ قال صلى الله عليه وسلم كما في « البخاري » (٥٢) : « ألا وإن في الجسد مضغةً : إذا صَلَحَتْ . . صَلَحَ الجسدُ كلُّه ، وإذا فسدت . . فَسَدَ الجسد كلُّهُ ، ألا وهي القلب » .

(٤) وإليه تنتهي همم العارفين ، لا يوجد وراءه مرمىً للأنظار . « إتحاف » (١٦٢/١) ، وإليه وإلىٰ ترجيحه على كل الطرق والعلوم انتهى المصنف رحمه الله تعالىٰ في كتابه « المنقذ » .

لهُ نصيبٌ مِنْ هـٰذا العلمِ . . أخافُ عليهِ سوءَ الخاتمةِ ، وأدنىٰ نصيبٍ منهُ التصديقُ بهِ وتسليمُهُ لأهلِهِ)(١)

وقالَ آخرُ : (منَ كانَ فيهِ خصلتانِ . . لمْ يُفتحْ لهُ بشيءٍ مِنْ هـٰذا العلمِ : بدعةٌ أو كِبْرٌ)(٢)

وقيلَ : (مَنْ كانَ محبّاً للدنيا أو مصرّاً علىٰ هوىً . . لم يتحقَّقْ بهِ ، وقدْ يتحقَّقُ بسائرِ العلومِ ، وأقلُّ عقوبةِ مَنْ ينكرُهُ ألَّا يُرزَقَ منهُ شيئاً)(٣)

ويُنشدُ علىٰ قولِهِ(٤) [من المنسرح]

وَارْضَ لِـمَـنْ غَـابَ عَـنْـكَ غَـيْـبَـتَـهُ ... فَـــذَاكَ ذَنْـــبٌ عِـقَـابُـهُ فِـيـهِ

وهوَ علْمُ الصدِّيقينَ والمقرَّبينَ ؛ أعني : علمَ المكاشفةِ ، فهوَ عبارةٌ عنْ نورٍ يظهرُ في القلبِ عندَ تطهيرِهِ وتزكيتِهِ مِنْ صفاتِهِ المذمومةِ ، وينكشفُ في ذٰلكَ النورِ أمورٌ كانَ يسمعُ مِنْ قبلُ أسماءَها ، فيتوهَّمُ لها معانيَ مجملةً غيرَ متضحةٍ ؛ فتتضحُ إذْ ذاكَ حتَّىٰ تحصُلَ المعرفةُ الحقيقيةُ بذاتِ اللهِ سبحانَهُ ، وبصفاتِهِ الباقياتِ التامَّاتِ ، وبأفعالِهِ وبحكمتِهِ في خلْقِ الدنيا والآخرةِ ، ووجهِ ترتيبِهِ للآخرةِ على الدنيا ، والمعرفةُ بمعنى النبوَّةِ والنبيِّ ، ومعنى الوحيِ ومعنىٰ لفظِ الملائكةِ والشياطينِ ، وكيفيةُ معاداةِ الشيطانِ للإنسانِ ، وكيفيةُ ظهورِ المَلَكِ للأنبياءِ ، وكيفيةُ وصولِ الوحيِ إليهم ، والمعرفةُ بملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، ومعرفةُ القلبِ ، وكيفيةُ تصادمِ جنودِ الملائكةِ والشياطينِ فيهِ ، ومعرفةُ الفرقِ بين لَمَّةِ الملَكِ ولمَّةِ الشيطانِ ، ومعرفةُ الآخرةِ ، والجنَّةِ والنارِ ، وعذابِ القبرِ ، والصراطِ ، والميزانِ ، والحسابِ ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ ، ومعنىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، ومعنى القربِ منهُ ، والنزولِ في جوارِهِ ، ومعنىٰ حصولِ السعادةِ بمرافقةِ الملأ الأعلىٰ ، ومقارنةِ الملائكةِ والنبيِّينَ ، ومعنىٰ تفاوتِ درجاتِ أهلِ الجنانِ حتَّىٰ يرىٰ بعضُهُمْ بعضاً كما يُرَى الكوكبُ الدريُّ في جوِّ السماءِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا يطولُ تفصيلُهُ .

إذْ للناسِ في معاني هـٰذهِ الأمورِ بعدَ التصديقِ بأصولِها مقاماتٌ :

فبعضُهُمْ يَرىٰ أنَّ جميعَ ذٰلكَ أمثلةٌ ، وأنَّ الذي أعدَّهُ اللهُ لعبادِهِ الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بشرٍ ، وأنَّهُ ليسَ مع الخلْقِ مِنَ الجنَّةِ إلا الصفاتُ والأسماءُ .

وبعضُهُمْ يرىٰ أنَّ بعضَها أمثلةٌ وبعضَها يوافقُ حقائقَها المفهومةَ مِنْ ألفاظِها .

وكذا يَرىٰ بعضُهُمْ أنَّ منتهىٰ معرفةِ اللهِ تعالى الاعترافُ بالعجزِ عن معرفتِهِ .

وبعضُهُمْ يدَّعي أموراً عظيمةً في المعرفةِ باللهِ عزَّ وجلَّ .

وبعضُهُمْ يقولُ : حدُّ معرفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ما انتهىٰ إليهِ اعتقادُ جميعِ العوامِّ ؛ وهوَ أنَّهُ موجودٌ عالمٌ قادرٌ سميعٌ بصيرٌ متكلِّمٌ .

فنعني بعلمِ المكاشفةِ : أنْ يرتفعَ الغطاءُ حتَّىٰ يتضحَ لهُ جليَّةُ الحقِّ في هـٰذهِ الأمورِ اتضاحاً يجري مَجرى العيانِ

---

(١) قوت القلوب (١/١٧٣) .

(٢) قوت القلوب (١/١٧٣) .

(٣) قوت القلوب (١/١٧٣) ، ولذٰلك قال شيخ الطائفة الإمام الجنيد رحمه الله تعالى : (الإيمان بعلمنا هـٰذا ولاية صغرىٰ)

(٤) البيت لابن نباتة المصري في « ديوانه » (ص ٥٧٤) .

الذي لا يُشكُّ فيهِ ، وهـٰذا ممكنٌ في جوهرِ الإنسانِ لولا أنَّ مرآةَ القلبِ قدْ تراكمَ صدؤُها وخبثُها بقاذوراتِ الدنيا .

وإنَّما نعني بعلمِ طريقِ الآخرةِ العلمَ بكيفيةِ تصقيلِ هـٰذهِ المرآةِ عنْ هـٰذهِ الخبائثِ التي هيَ الحجابُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وعنْ معرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وإنَّما تصفيتُها وتطهيرُها بالكفِّ عنِ الشهواتِ ، والاقتداءِ بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ، فبقدْرِ ما ينجلي مِنَ القلبِ ويحاذي بهِ شطرَ الحقِّ . . تتلألأُ فيهِ حقائقُهُ ، ولا سبيلَ إليهِ إلا بالرياضةِ التي يأتي تفصيلُها في موضعِهِ ، وبالعلمِ وبالتعلُّمِ (١)

وهـٰذهِ هيَ العلومُ التي لا تُسطَرُ في الكتبِ (٢) ، ولا يتحدَّثُ بها مَنْ أنعمَ اللهُ عليهِ بشيءٍ منها إلا مع أهلِهِ ، وهوَ المشارِكُ فيهِ ، علىٰ سبيلِ المذاكرةِ وبطريقِ الإسرارِ .

وهـٰذا العلمُ الخفيُّ هو الذي أرادَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « إنَّ مِنَ العلمِ كَهَيْئَةِ المكنُونِ لا يَعلمُهُ إلَّا أهلُ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، فإذا نطقُوا بهِ . . لم يَجهلْهُ إلَّا أهلُ الاغترارِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، فلا تَحقِرُوا عالِماً آتاهُ اللهُ تعالىٰ علماً ؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ لَمْ يَحْقِرْهُ إذْ آتاهُ إيَّاهُ » (٣)

وأمَّا القسمُ الثاني : وهوَ علمُ المعاملةِ : فهو علمُ أحوالِ القلبِ :

أمَّا ما يُحمدُ منها . . فكالصبرِ ، والشكرِ ، والخوفِ والرجاءِ ، والرضا ، والزهدِ ، والتقوىٰ ، والقناعةِ ، والسخاوةِ ، ومعرفةِ المنَّةِ للهِ تعالىٰ في جميعِ الأحوالِ ، والإحسانِ ، وحسْنِ الظنِّ ، وحسنِ الخلقِ ، وحسنِ المعاشرةِ ، والصدقِ ، والإخلاصِ .

فمعرفةُ حقائقِ هـٰذهِ الأحوالِ وحدودِها وأسبابِها التي بها تُكتسبُ ، وثمراتِها وعلاماتِها ، ومعالجةِ ما ضعفَ منها حتَّىٰ يقوَىٰ ، وما زالَ حتَّىٰ يعودَ . . مِنْ علْمِ الآخرةِ .

وأمَّا ما يُذمُّ منها . . فخوفُ الفقرِ ، وسخطُ المقدورِ ، والغلُّ والحقدُ ، والحسدُ ، والغشُّ ، وطلبُ العلوِّ ، وحبُّ الثناءِ ، وحبُّ طولِ البقاءِ في الدنيا للتمتُّعِ ، والكبرُ ، والرياءُ ، والغضبُ ، والأنفةُ ، والعداوةُ والبغضاءُ ، والطمعُ والبخلُ ، والرغبةُ والبذَخُ (٤) ، والأَشَرُ والبطَرُ ، وتعظيمُ الأغنياءِ والاستهانةُ بالفقراءِ ، والفخرُ والخيلاءُ ، والتنافسُ والمباهاةُ ، والاستكبارُ عنِ الحقِّ ، والخوضُ فيما لا يعني ، وحبُّ كثرةِ الكلامِ ، والصَّلَفُ (٥) ، والتزيُّنُ للخلْقِ ، والمداهنةُ ، والعجْبُ ، والاشتغالُ عنْ عيوبِ النفْسِ بعيوبِ الناسِ ، وزوالُ الحزنِ مِنَ القلبِ ، وخروجُ الخشيةِ منهُ ، وشدَّةُ الانتصارِ للنفسِ إذا نالَها الذلُّ ، وضعفُ الانتصارِ للحقِّ ، واتخاذُ إخوانِ العلانيةِ علىٰ عداوةِ السرِّ ، والأمنُ مِنْ مكْرِ اللهِ سبحانَهُ في سلْبِ ما أعطَىٰ ، والاتكالُ على الطاعةِ ، والمكْرُ والخيانةُ والمخادعةُ ، وطولُ الأملِ ، والقسوةُ والفظاظةُ ، والفرحُ

---

(١) من مرشدٍ حقٍّ علىٰ حد قوله : ولا بدَّ من شيخ يريك شخوصها . « إتحاف » (١/١٦٥) .

(٢) لأنها علوم ذوقية كشفية تدرك عن مشاهدة ، لا عن دليل وبرهان ، ولأن المسطور في كتاب يقع في يد المتأهل وغير المتأهل ، فإن لم يكن أهلاً لمعرفته . . يقع في حيرة عظيمة تترتب عليها مفاسد . « إتحاف » (١/١٦٦) .

(٣) بلفظه في « قوت القلوب » (١/١٧٥) معلقاً ، وقال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/١٣٥) : (رواه أبو منصور الديلمي في « المسند » « ٨٠٢ » ، وأبو عبد الرحمـٰن السلمي في « الأربعين » التي له في التصوف) .

(٤) **البَذَخ** : تطاول وتكبُّر الرجل بكلامه وافتخاره وتعاليه .

(٥) **الصَّلَف** : التمدح بما ليس عند الرجل ، وادعاء ما هو دونه تكبراً .

بالدنيا والأسفُ على فواتِها ، والأنسُ بالمخلوقينَ والوحشةُ لفراقِهِمْ ، والجفاءُ ، والطيشُ والعجلةُ ، وقلَّةُ الحياءِ ، وقلَّةُ الرحمةِ .

فهٰذهِ وأمثالُها مِنْ صفاتِ القلبِ مغارسُ الفواحِشِ ، ومنابتُ الأعمالِ المحظورةِ ، وأضدادُها ـ وهيَ الأخلاقُ المحمودةُ ـ منبعُ الطاعاتِ والقرباتِ .

فالعلمُ بحدودِ هٰذهِ الأمورِ وحقائِقِها وأسبابِها وثمراتِها وعلاجِها هوَ علمُ الآخرةِ ، وهوَ فرضُ عينٍ في فتوىٰ علماءِ الآخرةِ ، والمعرِضُ عنها هالكٌ بسطوةِ مَلِكِ الملوكِ في الآخرةِ ؛ كما أنَّ المعرضَ عَنِ الأعمالِ الظاهرةِ هالكٌ بسيفِ سلاطينِ الدنيا بحكْمِ فتوىٰ فقهاءِ الدنيا .

فنظرُ الفقهاءِ في فروضِ العينِ بالإضافةِ إلىٰ صلاحِ الدنيا ؛ وهٰذا بالإضافةِ إلىٰ صلاحِ الآخرةِ .

ولو سئِلَ فقيهٌ عنْ معنىً مِنْ هٰذهِ المعاني حتَّىٰ عنِ الإخلاصِ مثلاً ، أوْ عنِ التوكلِ ، أوْ عنْ وجهِ الاحترازِ عنِ الرياءِ . . لتوقَّفَ فيهِ مع أنَّهُ فرضُ عينِهِ الذي في إهمالِهِ هلاكُهُ في الآخرةِ ، ولوْ سألتَهُ عنِ اللعانِ والظهارِ ، والسبقِ والرمي . . لسردَ عليكَ مجلداتٍ مِنَ التفريعاتِ الدقيقةِ التي تنقضي الدهورُ ولا يُحتاجُ إلىٰ شيءٍ منها ، وإنِ احتيجَ . . لمْ يخلُ البلدُ عمَّنْ يقومُ بها ، ويكفيهِ مؤنةَ التعبِ فيها ، فلا يزالُ يتعبُ فيها ليلاً ونهاراً ، في حفظِهِ ودرسِهِ ويغفُلُ عمَّا هوَ مهمٌّ نفسِهِ في الدينِ ، وإذا روجعَ فيهِ . . قالَ : اشتغلتُ بهِ لأنَّهُ علمُ الدينِ وفرضُ الكفايةِ ، ويلبِّسُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ غيرِهِ في تعلُّلِهِ .

والفَطِنُ يعلمُ أنَّهُ لوْ كانَ غرضُهُ أداءَ حقِّ الأمرِ في فرْضِ الكفايةِ . . لقدَّمَ عليهِ فرضَ العينِ ، بلْ قدَّمَ عليهِ كثيراً مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ فكَمْ مِنْ بلدةٍ ليسَ فيها طبيبٌ إلا مِنْ أهلِ الذمَّةِ ، ولا يجوزُ قبولُ شهادتِهِمْ فيما يتعلَّقُ بالأطباءِ مِنْ أحكامِ الفقهِ ، ثمَّ لا نرىٰ أحداً يشتغلُ بهِ ، ويتهاترونَ علىٰ علمِ الفقهِ لا سيَّما الخلافياتِ والجدلياتِ والبلدُ مشحونٌ مِنَ الفقهاءِ ممَّنْ يشتغلُ بالفتوىٰ والجوابِ عَنِ الوقائعِ !!

فليتَ شعري ؛ كيفَ يرخِّصُ فقهاءُ الدينِ في الاشتغالِ بفرضِ كفايةٍ قدْ قامَ بهِ جماعةٌ ، وإهمالِ ما لا قائمَ بهِ ؟!

هل لهٰذا سببٌ إلا أنَّ الطبَّ ليسَ يتيسَّرُ التوصُّلُ بهِ إلىٰ تولِّي الأوقافِ والوصايا ، وحيازةِ مالِ الأيتامِ ، وتقلُّدِ القضاءِ والحكومةِ ، والتقدُّمِ بهِ على الأقرانِ ، والتسلُّطِ بهِ على الأعداءِ ؟!

هيهاتَ هيهاتَ !! قدِ اندرسَ علْمُ الدينِ بتلبيسِ علماءِ السوءِ ، فاللهُ المستعانُ ، وإليهِ اللِّياذُ في أنْ يعيذَنا مِنْ هٰذا الغرورِ الذي يُسخِطُ الرحمٰنَ ، ويُضحِكُ الشيطانَ .

وقدْ كانَ أهلُ الورعِ مِنْ علماءِ الظاهرِ مقرِّينَ بفضْلِ علماءِ الباطنِ وأربابِ القلوبِ :

كانَ الإمامُ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ يجلسُ بينَ يدي شيبانَ الراعي كما يقعُدُ الصبيُّ في المكتبِ ، ويسألُهُ كيفَ يفعلُ في كذا وكذا ؛ فيقالُ لهُ : مثلُكَ يسألُ هٰذا البدويَّ ؟! فيقولُ : (إنَّ هٰذا وُفِّقَ لما علمناهُ)[1] .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ويحيى بنُ معينٍ يختلفانِ إلىٰ معروفٍ الكرخيِّ ولمْ يكنْ في علمِ الظاهرِ بمنزلتِهِما ، وكانا يسألانِهِ[2]

---

(١) قوت القلوب (١٥٨/١) ، وفي (ب) : (أغفلناهُ) بدل : (علمناهُ) .
(٢) قوت القلوب (١٥٨/١)

وكيفَ وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لما قيلَ لهُ : كيفَ نفعلُ إذا جاءَنا أمرٌ لمْ نجدْهُ في كتابٍ ولا سنَّةٍ ؟ فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَلُوا الصَّالحينَ واجعلُوهُ شُورَىٰ بينَهُمْ ؟! »[(١)]

ولذٰلكَ قيلَ : (علماءُ الظاهرِ زينةُ الأرضِ والمُلْكِ ؛ وعلماءُ الباطنِ زينةُ السماءِ والملكوتِ)[(٢)]

وقالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (قالَ ليَ السريُّ شيخي : إذا قمتَ مِنْ عندي فمَنْ تجالسُ ؟ قلت : المحاسبيَّ ، فقالَ : نعم ، خُذْ من علمِهِ وأدبِهِ ، ودعْ عنكَ تشقيقَهُ للكلامِ وردَّهُ على المتكلمينَ ، ثمَّ لمَّا ولَّيتُ . . سمعتُهُ يقولُ : جعلَكَ اللهُ صاحبَ حديثٍ صوفياً ، ولا جعلَكَ صوفياً صاحبَ حديثٍ)[(٣)]

أشارَ إلىٰ أنَّ مَنْ حصَّلَ الحديثَ والعلمَ ثم تصوَّفَ . . أفلحَ ، ومَنْ تصوَّفَ قبلَ العلمِ . . خاطرَ بنفسِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلمَ لمْ تُورِدْ في أقسامِ العلومِ الكلامَ والفلسفةَ وتبيِّنْ أنَّهما مذمومانِ أو محمودانِ ؟

فاعلمْ : أنَّ حاصلَ ما يشتملُ عليهِ علمُ الكلامِ مِنَ الأدلَّةِ التي يُنتفعُ بها . . فالقرآنُ والأخبارُ مشتملانِ عليهِ ، وما خرجَ عنهما . . فهوَ إمَّا مجادلةٌ مذمومةٌ ، وهيَ مِنَ البدعِ كما سيأتي بيانُهُ ، وإمَّا مشاغبةٌ بالتعلُّقِ بمناقضاتِ الفِرَقِ لها ، وتطويلٌ بنقلِ المقالاتِ التي أكثرُها تُرَّهاتٌ وهذياناتٌ تزدريها الطباعُ ، وتمجُّها الأسماعُ .

وبعضُها خوضٌ فيما لا يتعلَّقُ بالدينِ ولم يكنْ شيءٌ منهُ مألوفاً في العصرِ الأوَّلِ ، وكانَ الخوضُ فيهِ بالكليَّةِ مِنَ البدعِ ، **ولـٰكنْ تغيَّرَ الآنَ حكمُهُ** ؛ إذْ حدثتِ البدعُ الصارفةُ عنْ مقتضى القرآنِ والسنَّةِ ، ونبغتْ جماعةٌ لفَّقوا لها شبهاً ، ورتَّبوا فيها كلاماً مؤلفاً ، فصارَ ذٰلكَ المحذورُ بحكمِ الضرورةِ مأذوناً فيهِ ، بلْ صارَ من فروضِ الكفاياتِ ، وهوَ القدْرُ الذي يقابَلُ بهِ المبتدِعُ إذا قصدَ الدعوةَ إلى البدعةِ ، وذٰلكَ إلىٰ حدٍّ محدودٍ سنذكرُهُ في البابِ الذي يلي هـٰذا .

وأمَّا الفلسفةُ : فليستْ علماً برأسها ، بلْ هيَ أربعةُ أجزاءٍ :

أحدُها : **الهندسةُ والحسابُ** ، وهما مباحانِ كما سبقَ ، ولا يُمنعُ عنهما إلا مَنْ يُخافُ عليهِ أنْ يتجاوزَهما إلىٰ علومٍ مذمومةٍ ؛ فإنَّ أكثرَ الممارسينَ لهما قدْ خرجوا منهما إلى البدعِ ، فيُصانُ الضعيفُ عنهُ لا لعينِهِ ، كما يصانُ الصبيُّ عن شاطئِ النهرِ خيفةً مِنَ الوقوعِ في النهرِ ، وكما يصانُ حديثُ العهدِ بالإسلامِ عَنْ مخالطةِ الكفارِ خوفاً عليهِ ، مع أنَّ القويَّ لا يُندبُ إلىٰ مخالطتِهِمْ .

والثاني : **المنطقُ** ، وهوَ بحثٌ عَنْ وجهِ الدليلِ وشروطِهِ ، ووجهِ الحدِّ وشروطِهِ ، وهما داخلانِ في علْمِ الكلامِ .

والثالثُ : **الإلـٰهياتُ** ، وهو بحثٌ عَنْ ذاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ ، وهوَ أيضاً داخلٌ في الكلامِ .

والفلاسفةُ لم ينفردوا فيها بنمطٍ آخرَ مِنَ العلمِ ، بلِ انفردوا بمذاهبَ بعضُها كفرٌ وبعضُها بدعةٌ ، وكما أنَّ

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٦١٢) بلفظ : « اجمعوا له العابدين من المؤمنين ، واجعلوه شورىٰ بينكم ، ولا تقضوا فيه برأي واحد » ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١٥٨/١) ، وروى الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١١٥٤) نحوه كذٰلك .

(٢) قوت القلوب (١٥٧/١) .

(٣) قوت القلوب (١٥٨/١) .

الاعتزالَ ليسَ علماً برأسِهِ ، بلْ أصحابُهُ طائفةٌ مِنَ المتكلِّمينَ وأهلِ البحثِ والنظرِ وانفردوا بمذاهبَ باطلةٍ . . فكذٰلكَ الفلسفةُ .

والرابعُ : الطبيعياتُ ، وبعضُها مخالفٌ للشرعِ والدينِ الحقِّ ، فهوَ جهلٌ وليسَ بعلمٍ حتَّىٰ يورَدَ في أقسامِ العلومِ ، وبعضُها بحثٌ عن صفاتِ الأجسامِ وخواصِّها وكيفيةِ استحالتِها وتغيُّرِها ، وهو شبيهٌ بنظرِ الأطبَّاءِ ، إلا أنَّ الطبيبَ ينظرُ في بدنِ الإنسانِ على الخصوصِ مِنْ حيثُ يمرضُ ويصحُّ ، وهمْ ينظرونَ في جميعِ الأجسامِ مِنْ حيثُ تتغيَّرُ وتتحرَّكُ ، ولٰكنْ للطِّبِّ فضْلٌ عليهِ ؛ وهو أنَّهُ محتاجٌ إليه ، وأمَّا علومُهُمْ في الطبيعياتِ . . فلا حاجةَ إليها .

فإذاً ؛ **الكلامُ** صارَ مِنْ جملةِ الصناعاتِ الواجبةِ على الكفايةِ حراسةً لقلوبِ العوامِّ عنْ تخييلاتِ المبتدعةِ ، وإنَّما حدثَ ذٰلكَ بحدوثِ البدعِ ، كما حدثتْ حاجةُ الإنسانِ إلى استئجارِ البذْرَقَةِ[1] في طريقِ الحجِّ بحدوثِ ظلْمِ العربِ وقطعِهِمُ الطريقَ ، ولو تركَ العربُ عُدْوانَهُمْ . . لم يكنِ استئجارُ الحرَّاسِ من شروطِ طريقِ الحجِّ ؛ فكذٰلكَ لو تركَ المبتدعُ هذيانَهُ . . لما افتقرَ إلى الزيادةِ علىٰ ما عُهِدَ في عصرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

❁ ❁ ❁

فليعلمِ المتكلِّمُ حدَّهُ مِنَ الدينِ ، وأنَّ موقعَهُ منهُ موقعُ الحارسِ في طريقِ الحجِّ ، فإذا تجرَّدَ الحارسُ للحراسةِ . . لم يكنْ مِنْ جملةِ الحاجِّ ، والمتكلِّمُ إنْ تجرَّدَ للمناظرةِ والمدافعةِ ولمْ يسلكْ طريقَ الآخرةِ ، ولمْ يشتغلْ بتعهُّدِ القلبِ وصلاحِهِ . . لم يكنْ مِنْ جملةِ علماءِ الدينِ أصلاً ؛ إذْ ليسَ عندَ المتكلِّمِ مِنَ الدينِ إلا العقيدةُ التي يشاركُهُ سائرُ العوامِّ فيها ، وهيَ من جملةِ أعمالِ ظاهرِ القلبِ واللسانِ ، وإنَّما تميَّزَ عنِ العامِّيِّ بصنعةِ المجادلةِ والحراسةِ ، فأمَّا معرفةُ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وجميعِ ما أشرنا إليهِ في علْمِ المكاشفةِ . . فلا يحصُلُ من علْمِ الكلامِ ، بلْ يكادُ يكونُ الكلامُ حجاباً ومانعاً منهُ ، وإنَّما الوصولُ إليهِ بالمجاهدةِ التي جعلَها اللهُ سبحانَهُ مقدِّمَةً للهدايةِ ؛ حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ رددتَ حدَّ المتكلِّمِ إلىٰ حراسةِ عقيدةِ العوامِّ عَنْ تشويشِ المبتدعةِ ، كما أنَّ حدَّ البذْرَقَةِ حراسةُ أقمشةِ الحجيجِ عنْ نهْبِ العربِ[2] ، ورددتَ حدَّ الفقيهِ إلىٰ حفْظِ القانونِ الذي بهِ يكفُّ السلطانُ شرَّ بعضِ أهلِ العدوانِ عنْ بعضٍ ، وهاتانِ رتبتانِ نازلتانِ بالإضافةِ إلىٰ علْمِ الدينِ ، وعلماءُ الأمَّةِ المشهورونَ بالفضْلِ هُمُ الفقهاءُ والمتكلمونَ ، وهُمْ أفضلُ الخلقِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ تنزلُ درجاتِهِمْ إلىٰ هٰذهِ المنزلةِ السافلةِ بالإضافةِ إلىٰ علْمِ الدينِ ؟!

فاعلمْ : أنَّ مَنْ عَرَفَ الحقَّ بالرجالِ . . حارَ في متاهاتِ الضلالِ ، فاعرفِ الحقَّ . . تعرفْ أهلَهُ إنْ كنتَ سالكاً طريقَ الحقِّ .

وإنْ قَنِعْتَ بالتقليدِ والنظرِ إلىٰ ما اشتهرَ مِنْ درجاتِ الفضْلِ بينَ الناسِ . . فلا تغفُلْ عنِ الصحابةِ وعلوِّ منصبِهِمْ ، فقدْ أجمعَ الذينَ عرَّضتَ بذكرِهِمْ علىٰ تقدُّمِهِمْ ، وأنَّهمْ لا يُدركُ في الدينِ شأوُهمْ ولا يُشقُّ غبارُهمْ ، ولمْ يكنْ تقدُّمُهُمْ بالكلامِ والفقهِ ، بلْ بعلْمِ الآخرةِ وسلوكِ طريقِها

---

(١) **البذرقة** : الخفراء وهم الحراس .

(٢) **القماش هنا** : المتاع ونحوه الذي يكون في حيازة الحاجّ .

وما فَضَلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الناسَ بكثرةِ صلاةٍ ، ولا بكثرةِ صيامٍ ، ولا بكثرةِ روايةٍ وفتوىٰ وكلامٍ ، ولٰكنْ بشيءٍ وَقَرَ في صدرِهِ ، كما شهدَ لهُ سيِّدُ البشرِ صلواتُ اللهِ عليهِ[1]

فليكنْ حرصُكَ في طلبِ ذٰلكَ السرِّ ، فهوَ الجوهرُ النفيسُ والدُّرُّ المكنونُ ، ودعْ عنكَ ما تطابقَ أكثرُ الناسِ علىٰ تفخيمِهِ وتعظيمِهِ لأسبابٍ ودواعٍ يطولُ تفصيلُها ؛ فلقدْ قُبِضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ آلافٍ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ كلُّهُمْ علماءُ باللهِ ، أثنىٰ عليهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولمْ يكنْ فيهِمْ أحدٌ يحسنُ صنعةَ الكلامِ ، ولمْ ينصِّبْ نفسَهُ للفتوىٰ مِنهمْ أحدٌ ، إلا بضعةَ عشرَ رجلاً .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما منهُمْ ، وكانَ إذا سُئِلَ عنِ الفتوىٰ . . يقولُ للسائلِ : (اذهبْ إلىٰ هٰذا الأميرِ الذي تقلَّدَ أمورَ الناسِ وضعْها في عنقِهِ)[2] ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ الفتوىٰ في القضايا والأحكامِ مِنْ توابعِ الولايةِ والسلطنةِ .

ولمَّا ماتَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ ابنُ مسعودٍ : (ماتَ تسعةُ أعشارِ العلمِ ، فقيلَ لهُ : أتقولُ ذٰلكَ وفينا جِلَّةُ الصحابةِ ؟! فقالَ : لستُ أريدُ علمَ الفتوىٰ والأحكامِ ، إنَّما أريدُ العلمَ باللهِ سبحانَهُ)[3]

❁ ❁ ❁

أفترىٰ أنَّهُ أرادَ صنعةَ الكلامِ والجدلِ ؟! فما لكَ لا تحرصُ علىٰ معرفةِ ذٰلكَ العلمِ الذي ماتَ بموتِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ تسعةُ أعشارِهِ ؟! وهوَ الذي سدَّ بابَ الكلامِ والجدلِ ، وضربَ صَبيغاً بالدِّرَّةِ لمَّا أوردَ عليهِ سؤالاً في تعارضِ آيتينِ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهجرَهُ وأمرَ الناسَ بهجرِهِ[4] .

وأمَّا قولُكَ : (إنَّ المشهورينَ مِنَ العلماءِ هُمُ الفقهاءُ والمتكلمونَ) . . فاعلمْ أنَّ ما يُنالُ بهِ الفضلُ عندَ اللهِ تعالىٰ شيءٌ ، وما يُنالُ بهِ الشهرةُ عندَ الناسِ شيءٌ آخرُ ، فلقدْ كانَ شهرةُ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ بالخلافةِ ، وكانَ فضلُهُ بالسرِّ الذي وقرَ في صدرِهِ ، وكانَ شهرةُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ بالسياسةِ ، وكانَ فضلُهُ بالعلْمِ باللهِ الذي ماتَ تسعةُ أعشارِهِ بموتِهِ ، وبقصدِهِ[5] التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ في ولايتِهِ ، وعدلِهِ وشفقتِهِ علىٰ خلقِهِ ، وهو أمرٌ باطنٌ في سرِّهِ .

وأمَّا سائرُ أفعالِهِ الظاهرةِ . . فيُتصوَّرُ صدورُها مِنْ طالبِ الجاهِ والاسمِ والسمعةِ والراغبِ في الشهرةِ ، فتكونُ الشهرةُ فيما هوَ المهلكُ ، والفضلُ فيما هوَ سرٌّ لا يطَّلعُ عليه أحدٌ .

فالفقهاءُ والمتكلمونَ مثلُ الخلفاءِ والقضاةِ والعلماءِ ، وقدِ انقسموا : فمنهُمْ مَنْ أرادَ اللهَ بعلمِهِ وفتواهُ وذبِّهِ عن سنَّتِهِ[6] ، ولمْ يطلبْ فيهِ رياءً ولا سمعةً ؛ فأولٰئكَ أهلُ رضوانِ اللهِ تعالىٰ ، وفضلُهُمْ عندَ اللهِ لعملِهِمْ بعلمِهِمْ ، ولإرادتِهِمْ وجهَ اللهِ تعالىٰ بفتواهُمْ ونظرِهِمْ ، فإنَّ كلَّ علْمٍ عملٌ ؛ لأنَّهُ فعلٌ مكتسَبٌ ، وليسَ كلُّ عملٍ علماً[7] ،

(١) انظر « نوادر الأصول » (ص ٣١) .
(٢) قوت القلوب (١٣١/١) .
(٣) قوت القلوب (١٣٩/١) ، وبنحوه رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٦٣/٩) .
(٤) صبيغ : كان يعنِّتُ الناسَ بالغوامض والسؤالات في متشابه القرآن ، وروىٰ هٰذا الخبر الدارمي في « سننه » (١٤٦) .
(٥) معطوف علىٰ قوله : (بالعلم) .
(٦) أي : طريقة الله عز وجل . « إتحاف » (١٩٠/١) .
(٧) لصدور بعض الأعمال خالية عن الإخلاص والنية ، فلا يسمىٰ علماً حقيقة . « إتحاف » (١٩٠/١) .

والطبيبُ يقدِرُ على التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ بعلمِهِ ، فيكونُ مثاباً على علمِهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ عاملٌ للهِ بهِ ، والسلطانُ يتوسَّطُ بينَ الخلقِ للهِ فيكونُ مرضياً عندَ اللهِ سبحانَهُ ومثاباً ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ متكفِّلٌ بعلْمِ الدينِ ، بلْ مِنْ حيثُ هوَ متقلِّدٌ لعملٍ يقصدُ بهِ التقرُّبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بعلمِهِ .

وأقسامُ ما يُتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالىٰ ثلاثةٌ :

عِلْمٌ مجرَّدٌ ، وهوَ علْمُ المكاشفةِ .

وعملٌ مجرَّدٌ ، وهوَ كعدْلِ السلطانِ مثلاً وضبطِهِ للناسِ .

ومركَّبٌ من علمٍ وعملٍ ، وهو علمُ طريقِ الآخرةِ ؛ فإنَّ صاحبَهُ مِنَ العلماءِ والعمَّالِ جميعاً .

فانظرْ إلىٰ نفسِك : أتكونُ يومَ القيامةِ في حزْبِ عمَّالِ اللهِ تعالىٰ ، أو علماءِ اللهِ سبحانَهُ ، أو في حزبيهِمَا فتضربُ بسهمِكَ مع كلِّ فريقٍ منهما ؟

فهٰذا أهمُّ لكَ مِنَ التقليدِ لمجرَّدِ الاشتهارِ : [من البسيط]

خُـذْ مـا تَـراهُ وَدَعْ شَيْئـاً سَـمِعْـتَ بِـهِ ... فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ (١)

علىٰ أنَّا سننقُلُ مِنْ سيرةِ فقهاءِ السلفِ ما تعلَمُ بهِ أنَّ الذينَ انتحلُوا مذاهبَهُمْ ظلمُوهُمْ ، وأنَّهمْ مِنْ أشدِّ خصمائِهِمْ يومَ القيامةِ ؛ فإنَّهمْ ما قصدوا بالعلمِ إلا وجهَ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ شُوهدَ مِنْ أحوالِهِمْ ما هوَ مِنْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ كما سيأتي بيانُهُ في بابِ علاماتِ علماءِ الآخرةِ ، وأنَّهمْ ما كانوا متجرِّدينَ لعلْمِ الفقهِ ، بل كانوا مشتغلينَ بعلْمِ القلوبِ ومراقبينَ لها ، ولٰكنْ صرفَهُمْ عنِ التدريسِ والتصنيفِ فيهِ ما صرفَ الصحابةَ عنِ التصنيفِ والتدريسِ في الفقهِ معَ أنَّهمْ كانوا فقهاءَ مستقلينَ بعلمِ الفتاوىٰ ، والصوارفُ والدواعي متيقَّنةٌ ، ولا حاجةَ إلىٰ ذكرِها .

ونحنُ الآنَ نوردُ من أحوالِ فقهاءِ الإسلامِ ما تعلمُ بهِ أنَّ ما ذكرناهُ ليسَ طعناً فيهِمْ ، بلْ هوَ طعْنٌ فيمنْ أظهرَ الاقتداءَ بهِمْ منتحلاً مذهبَهُمْ وهوَ مخالفٌ لهُمْ في علمِهِمْ وسيرتِهِمْ .

فالفقهاءُ الذينَ هُمْ زعماءُ الفقهِ وقادةُ الخلقِ ـ أعني الذين كَثُرَ أتباعُهُمْ في المذاهبِ ـ خمسةٌ : الشافعيُّ ، ومالكٌ ، وأبو حنيفةَ ، وأحمدُ ابنُ حنبلٍ ، وسفيانُ الثوريُّ رحمَهُمُ الله أجمعينَ (٢) ، وكلُّ واحدٍ منهُمْ كانَ عابداً ، وزاهداً ، وعالماً بعلومِ الآخرةِ ، وفقيهاً في مصالحِ الخلْقِ في الدنيا ، ومريداً بفقهِهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ .

فهٰذهِ خمسُ خصالٍ ، اتبعَهُمْ فقهاءُ العصرِ مِنْ جملتِها علىٰ خصلةٍ واحدةٍ ، وهيَ التشميرُ والمبالغةُ في تفاريعِ الفقهِ ؛ لأنَّ الخصالَ الأربعَ لا تصلحُ إلا للآخرةِ ، وهٰذهِ الخصلةُ الواحدةُ تصلُحُ للدنيا والآخرةِ إنْ أُريدَ بها الآخرةُ ، فلصلاحِها للدنيا تشمَّروا لها ، وادَّعَوا بها مشابهةَ أولئكَ الأئمةِ ، وهيهاتَ ؛ فلا تقاسُ الملائكةُ بالحدَّادينَ .

فلنوردِ الآنَ مِنْ أحوالِهِمْ ما يدلُّ علىٰ هٰذهِ الخصالِ الأربعِ ؛ فإنَّ معرفتَهُمْ بالفقهِ ظاهرةٌ :

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٨١/٣) .

(٢) وكان مذهب سفيان باقياً إلى القرن الخامس ، وكان من ينتحله موجوداً في زمان المصنف . . . ، وأما الآن . . فلم يبق من تقيَّد مذهبه أو يعتزي إليه . « إتحاف » (١٩١/١) .

أمَّا الإمامُ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ

فيدلُّ علىٰ أنَّه كانَ عابداً : ما رُوِيَ أنَّهُ كانَ يقسمُ الليلَ ثلاثةَ أجزاءٍ : ثُلثاً للعلمِ ، وثلثاً للصلاةِ ، وثلثاً للنومِ[1]

قالَ الربيعُ : (كانَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ يختمُ القرآنَ في رمضانَ ستينَ مرَّةً ، كلُّ ذٰلكَ في الصلاةِ)[2]

وكانَ البويطيُّ أحدُ أصحابِهِ يختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ مرةً[3]

وقالَ الحسينُ الكرابيسيُّ : (بتُّ مع الشافعيِّ رحمهُ اللهُ غيرَ ليلةٍ ، فكانَ يصلِّي نحواً مِنْ ثلثِ الليلِ ، فما رأيتُهُ يزيدُ علىٰ خمسينَ آيةً ، فإذا أكثرَ . . فمئةً ، وكانَ لا يمرُّ بآيةِ رحمةٍ إلا سألَ اللهَ تعالىٰ لنفسِهِ ولجميعِ المؤمنينَ ، ولا يمرُّ بآيةِ عذابٍ إلا تعوَّذَ منها وسألَ النجاةَ لنفسِهِ وللمؤمنينَ ؛ وكأنَّما جُمِعَ لهُ الرجاءُ والرهبةُ معاً)[4]

فانظرْ كيفَ يدلُّ اقتصارُهُ علىٰ خمسينَ آيةً علىٰ تبحُّرِهِ في أسرارِ القرآنِ وتدبُّرِهِ فيها .

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (ما شبعتُ منذُ ستَّ عشرةَ سنةً ؛ لأنَّ الشبعَ يثقلُ البدنَ ، ويقسِّي القلبَ ، ويزيلُ الفطنةَ ، ويجلبُ النومَ ، ويضعفُ صاحبَهُ عنِ العبادةِ)[5]

فانظرْ إلىٰ حكمتِهِ في ذكرِ آفاتِ الشبعِ ، ثمَّ في جِدِّهِ في العبادةِ ؛ إذْ طرحَ الشبعَ لأجلِهِ ، ورأسُ التعبُّدِ تقليلُ الطعامِ .

وقالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : (ما حلفتُ باللهِ تعالىٰ لا صادقاً ولا كاذباً)[6]

فانظرْ إلىٰ حرمتِهِ وتوقيرِهِ للهِ تعالىٰ ، ودلالةِ ذٰلكَ علىٰ علمِهِ بجلالِ اللهِ سبحانَهُ .

وسئلَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ عن مسألةٍ ، فسكتَ ، فقيلَ لهُ : ألا تجيبُ رحمَكَ اللهُ ؟! فقالَ : حتَّىٰ أدري : الفضلُ في سكوتي أوْ في الجوابِ[7] .

فانظرْ في مراقبتِهِ لسانَهُ ، معَ أنَّهُ أشدُّ الأعضاءِ تسلُّطاً على الفقهاءِ ، وأعصاها على الضبطِ والقهرِ ، وبهِ يستبينُ أنَّهُ كانَ لا يتكلَّمُ ولا يسكتُ إلا لنيلِ الفضْلِ وطلبِ الثوابِ .

وقالَ أحمدُ بنُ يحيى بنِ الوزيرِ : (خرجَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ يوماً مِنْ سوقِ القناديلِ ، فتبعناهُ ، فإذا رجلٌ يسفِّهُ علىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ العلمِ ، فالتفتَ الشافعيُّ إلينا وقالَ : نزِّهوا أسماعَكُمْ عَنِ استماعِ الخنا كما تنزِّهونَ ألسنتَكُمْ عَنِ النطْقِ بهِ ، فإنَّ المستمعَ شريكُ القائلِ ، وإنَّ السفيهَ لينظرُ إلىٰ أخبثِ شيءٍ في وعائِهِ فيحرصُ أنْ يفرغَهُ في أوعيتِكُمْ ، ولوْ رُدَّتْ كلمةُ السفيهِ . . لسعدَ رادُّها كما شقيَ بها قائلُها)[8]

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (١٥٧/٢) .

(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (١٥٨/٢) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩٣/٥١) .

(٤) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (١٥٨/٢) .

(٥) رواه ابن أبي حاتم في « آداب الشافعي ومناقبه » (ص ١٠٥) .

(٦) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (١٦٤/٢) .

(٧) ذكره ابن الصلاح في « فتاواه » (١٣/١) .

(٨) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٢٣/٩) .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (كتبَ حكيمٌ إلىٰ حكيمٍ : قدْ أوتيتَ علماً ، فلا تدنِّسْ علمَكَ بظلمةِ الذنوبِ ، فتبقَىٰ في الظلمةِ يومَ يسعىٰ أهلُ العلمِ بنورِ علمِهِمْ)[1]

وأمَّا زهدُهُ رضيَ اللهُ عنهُ : فقدْ قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنِ ادَّعىٰ أنَّهُ جمعَ بينَ حبِّ الدنيا وحبِّ خالقِها في قلبِهِ . . فقدْ كذبَ)[2]

وقالَ الحميديُّ : (خرجَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ إلى اليمنِ معَ بعضِ الولاةِ ، فانصرفَ إلىٰ مكةَ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، فضُرِبَ خباؤُهُ في موضعٍ خارجٍ مِنْ مكةَ ، فكانَ الناسُ يأتونَهُ ، فما برحَ مِنْ موضعِهِ ذٰلكَ حتَّىٰ فرَّقَها كلَّها)[3]

وخرجَ مِنَ الحمَّامِ مرةً فأعطى الحماميَّ مالاً كثيراً .

وسقطَ سَوطُهُ مرةً منْ يدِهِ ، فرفعَهُ إليهِ إنسانٌ ، فأعطاهُ جزاءً عليهِ خمسينَ ديناراً[4]

وسخاوةُ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ أشهرُ مِنْ أنْ تحكَىٰ ، ورأسُ الزهدِ السخاءُ ؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً أمسكَهُ ولمْ يفارقْهُ ، فلا يفارقُ المالَ إلا مَنْ صغرَتِ الدنيا في عينِهِ ، وهوَ معنى الزهدِ .

ويدلُّ علىٰ قوَّةِ زهدِهِ وشدَّةِ خوفِهِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ واشتغالِ همِّهِ بالآخرةِ ما رُوِيَ أنَّهُ رَوىٰ سفيانُ بنُ عيينةَ حديثاً مِنَ الرقائقِ ، فغُشِيَ على الشافعيِّ ، فقيلَ لهُ : قدْ ماتَ ، فقالَ : إنْ ماتَ . . فقدْ ماتَ أفضلُ أهلِ زمانِهِ[5]

وما رَوىٰ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ البَلَوِيُّ قالَ : كنتُ أنا وعمرُ بنُ نباتةَ جلوساً نتذاكرُ العبَّادَ والزهَّادَ ، فقالَ لي عمرُ : ما رأيتُ أورعَ ولا أفصحَ مِنْ محمدِ بنِ إدريسَ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ؛ خرجتُ أنا وهوَ والحارثُ بنُ لبيدٍ إلى الصفا ، وكانَ الحارثُ تلميذاً لصالحٍ المرّيِّ ، فافتتحَ يقرأُ وكانَ حسنَ الصوتِ ، فقرأَ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ، فرأيتُ الشافعيَّ رحمهُ اللهُ وقدْ تغيَّرَ لونُهُ ، واقشعرَّ جلدُهُ ، واضطربَ اضطراباً شديداً ، وخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . جعلَ يقولُ : أعوذُ بكَ مِنْ مقامِ الكاذبينَ ، وإعراضِ الغافلينَ ، اللهمَّ ؛ لكَ خضعتْ قلوبُ العارفينَ ، وذلَّتْ هيبةُ المشتاقينَ ، إلٰهي ؛ هبْ لي جودَكَ ، وجَلِّلْني بسترِك ، واعفُ عنْ تقصيري بكرمِ وجهِكَ .

قالَ : ثمَّ قمنا فانصرفْنا ، فلمَّا دخلتُ بغدادَ وكانَ هوَ بالعراقِ ، فقعدتُ على الشطِّ أتوضأُ للصلاةِ . . إذْ مرَّ بي رجلٌ فقالَ لي : يا غلامُ ؛ أحسنْ وضوءَكَ أحسنَ اللهُ إليكَ في الدنيا والآخرةِ ، فالتفتُّ فإذا أنا برجلٍ يتبعُهُ جماعةٌ ، فأسرعتُ في وضوئي ، وجعلتُ أقفو أثرَهُ ، فالتفتَ إليَّ فقالَ : هلْ لكَ مِنْ حاجةٍ ؟ فقلتُ : نعمْ ، تعلِّمني ممَّا علَّمَكَ اللهُ شيئاً ، فقالَ لي : اعلمْ أنَّ مَنْ صَدَقَ اللهَ . . نجا ، ومَنْ أشفقَ علىٰ دينِهِ . . سَلِمَ من الردىٰ ، ومن زهدَ في الدنيا . . قرَّتْ عيناهُ بما يرىٰ من ثوابِ اللهِ تعالىٰ غداً ، أفلا أزيدُكَ ؟ قلتُ : بلىٰ ، قالَ : مَنْ كانَ فيه ثلاثُ خصالٍ . . فقدِ استكملَ الإيمانَ : مَنْ أمرَ بالمعروفِ وَأْتَمَرَ ، ونهىٰ عَنِ المنكرِ وانتهىٰ ، وحافظَ علىٰ حدودِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ قالَ : ألا أزيدُكَ ؟ قلتُ : بلىٰ . قالَ :

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٤٦/٩) .

(٢) انظر « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ١٦٠) .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٣٠/٩) ، والبيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٢٠/٢) ، وفيهما : (خارجاً من مكة) .

(٤) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٢١/٢) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩٥/٩) ، والبيهقي في « مناقب الشافعي » (١٧٥/٢) .

كنْ في الدنيا زاهداً ، وفي الآخرةِ راغباً ، واصدقِ اللهَ تعالىٰ في جميعِ أمورِكَ . . تنجُ معَ الناجينَ ، ثمَّ مضىٰ ، فسألتُ : مَنْ هـٰذا ؟ فقالوا : هوَ الشافعيُّ [١]

فانظرْ إلىٰ سقوطِهِ مغشياً عليهِ ، ثمَّ إلىٰ وعظِهِ ، كيفَ يدلُّ ذٰلكَ علىٰ زهدِهِ وغايةِ خوفِهِ ؛ ولا يحصلُ هـٰذا الخوفُ والزهدُ إلا مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّهُ إنَّما يخشى اللهَ مِنْ عبادِهِ العلماءُ .

ولـمْ يستفدِ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ هـٰذا الخوفَ والزهدَ مِنْ علمِ كتابِ السَّلَمِ والإجارةِ وسائرِ كتبِ الفقهِ ، بلْ مِنْ علومِ الآخرةِ المستخرجةِ مِنَ القرآنِ والأخبارِ ؛ إذْ حِكَمُ الأوَّلينَ والآخرينَ مودعةٌ فيهما .

وأمَّا كونُهُ عالماً بأسرارِ القلبِ وعلومِ الآخرةِ : فتعرفُهُ مِنَ الحِكَمِ المأثورةِ عنه :

رُوِيَ أنَّهُ سُئلَ عنِ الرياءِ ، فقالَ على البديهة : (الرياءُ فتنةٌ عقدَها الهوىٰ حِيالَ أبصارِ قلوبِ العلماءِ ، فنظروا إليها بسوءِ اختيارِ النفوسِ ، فأحبطتْ أعمالَهُمْ) [٢]

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (إذا أنتَ خفْتَ علىٰ عملِكَ العجبَ . . فاذكرْ رضا مَنْ تطلُبُ ، وفي أيِّ نعيمٍ ترغبُ ، ومِنْ أيِّ عقابٍ ترهبُ ، وأيَّ عافيةٍ تشكرُ ، وأيَّ بلاءٍ تذكرُ ؛ فإنَّكَ إذا فكَّرْتَ في واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الخصالِ . . صَغُرَ في عينِكَ عملُكَ) [٣]

فانظرْ كيفَ ذكرَ حقيقةَ الرياءِ وعلاجَ العجْبِ ، وهما منْ كبائرِ آفاتِ القلبِ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ لـمْ يصنْ نفسَهُ . . لمْ ينفعْهُ علمُهُ) [٤]

وقالَ رحمهُ اللهُ : (مَنْ أطاعَ اللهَ تعالىٰ بالعلمِ . . نفعَهُ سرّه) .

وقالَ : (ما مِنْ أحدٍ إلا لهُ محبٌّ ومبغضٌ ، فإذا كانَ كذٰلكَ . . فكُنْ معَ أهلِ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ) [٥]

ورُوِيَ أنَّ عبدَ القاهرِ بنَ عبدِ العزيزِ كانَ رجلاً صالحاً ورعاً ، وكانَ يسألُ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ مسائلَ في الورعِ ، والشافعيُّ رحمهُ اللهُ يُقبِلُ عليهِ لورعِهِ ؛ فقالَ للشافعيِّ يوماً : أيُّما أفضلُ : الصبرُ ، أوِ المحنةُ ، أوِ التمكينُ ؟ فقالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : التمكينُ درجةُ الأنبياءِ ، ولا يكونُ التمكينُ إلا بعدَ المحنةِ ، فإذا امتحنَ . . صبرَ ، وإذا صبرَ . . مُكِّنَ ، ألا ترىٰ أنَّ اللهَ تعالى امتحنَ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ ، وامتحنَ موسىٰ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ ، وامتحنَ أيُّوبَ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ ، وامتحنَ سليمانَ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ وآتاهُ مُلْكاً ؟ والتمكينُ أفضلُ الدرجاتِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وأيوبُ عليهِ السلامُ بعدَ المحنةِ العظيمةِ مُكِّنَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

فهـٰذا الكلامُ مِنَ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ يدلُّ علىٰ تبحُّرِهِ في أسرارِ القرآنِ ، واطلاعِهِ علىٰ مقاماتِ السائرينَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الأنبياءِ والأولياءِ ، وكلُّ ذٰلكَ منْ علومِ الآخرةِ .

(١) مناقب الشافعي (٢/١٧٦ ـ ١٧٧) . وانظر ما قاله الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/١٩٧) .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/٣٣٤) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/٤١٣) .
(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/٢٨٦) .
(٥) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/١١٧) .

وقيلَ للشافعيّ رحمَهُ اللهُ : (متىٰ يكونُ الرجلُ عالماً ؟ قال : إذا تحقَّقَ في علمٍ يعلمُهُ ، وتعرَّضَ لسائرِ العلومِ ، فنظرَ فيما فاتَهُ ، فعندَ ذٰلكَ يكونُ عالماً ؛ فإنَّهُ قيلَ لجالينوسَ : إنَّكَ تأمرُ للدَّاءِ الواحدِ بالأدويةِ الكثيرةِ المجتمعةِ ، قالَ : إنَّما المقصودُ منها واحدٌ ، وإنَّما يُجعلُ معهُ غيرُهُ ليسكِّنَ حدَّتَهُ ؛ لأنَّ الإفرادَ قاتلٌ) .

فهٰذا وأمثالُهُ ممَّا لا يُحصىٰ يدلُّ علىٰ عظمِ رتبتِهِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ وعلومِ الآخرةِ .

وأمَّا إرادتُهُ بالفقهِ خاصةً والمناظرةِ فيهِ وجْهَ اللهِ تعالىٰ : فيدلُّ عليهِ ما رُوِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ : (وددتُ أنَّ الناسَ انتفعوا بهٰذا العلمِ وما نُسِبَ إليَّ منهُ شيءٌ)[١]

فانظرْ كيفَ اطلعَ علىٰ آفةِ العلمِ وطلبِ الاسمِ بهِ ، وكيفَ كانَ منزَّهَ القَلبِ عنِ الالتفاتِ إليهِ ، متجرّدَ النيَّةِ فيهِ لوجهِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما ناظرتُ أحداً قطُّ فأحببتُ أنْ يخطئَ)[٢]

وقالَ : (ما كلَّمْتُ أحداً قطُّ إلا أحببتُ أن يوفَّقَ ويسدَّدَ ويعانَ ويكونَ عليهِ رعايةٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ وحفْظٌ ، وما كلَّمْتُ أحداً قطُّ وأنا أبالي أنْ يبيّنَ اللهُ الحقَّ علىٰ لساني أو علىٰ لسانِهِ)[٣]

وقالَ : (ما أوردتُ الحقَّ والحجَّةَ علىٰ أحدٍ فقبلَها منّي إلا هبتُهُ واعتقدتُ مودَّتَهُ ، ولا كابرني على الحقِّ أحدٌ ودافعَ الحجَّةَ إلا سقَطَ مِنْ عيني ورفضتُهُ)[٤]

فهٰذهِ العلاماتُ هيَ التي تدلُّ علىٰ إرادةِ اللهِ وحدَهُ بالفقهِ والمناظرةِ .

فانظرْ كيفَ تابعَهُ الناسُ مِنْ جملةِ هٰذهِ الخصالِ الخمسِ علىٰ خصلةٍ واحدةٍ فقط[٥] ، ثمَّ كيفَ خالفوهُ فيها أيضاً .

ولهٰذا قالَ أبو ثورٍ رحمهُ اللهُ : (ما رأيتُ ولا رأى الراؤون مثلَ الشافعيّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ)[٦]

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما صليتُ صلاةً منذُ أربعينَ سنةً إلا وأنا أدعو للشافعيّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ)[٧] .

فانظرْ إلىٰ إنصافِ الداعي ، وإلىٰ درجةِ المدعوّ لهُ ، وقسْ بهِ الأقرانَ والأمثالَ مِنَ العلماءِ في هٰذهِ الأعصارِ وما بينَهُمْ من المشاحنةِ والبغضاءِ ؛ لتعلمَ تقصيرَهُمْ في دعوى الاقتداءِ بهٰؤلاءِ .

ولكثرةِ دعائِهِ لهُ قالَ لهُ ابنُهُ : أيَّ رجلٍ كانَ الشافعيُّ حتَّىٰ تدعوَ لهُ كلَّ هٰذا الدعاءِ ؟! فقالَ أحمدُ : يا بُنيَّ ؛ كانَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ كالشمسِ للدنيا ، وكالعافيةِ للناسِ ، فانظرْ هلْ لهٰذينِ مِنْ خَلَفٍ ؟![٨]

وقالَ أحمدُ : (ما أحدٌ يمسُّ بيدِهِ مِحْبَرَةً إلا وللشافعيّ رحمهُ اللهُ في عنقِهِ منَّةٌ)[٩]

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١١٨/٩) .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢١٢٥) ، والبيهقي في « المدخل » (١٧٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١١٨/٩) .

(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١١٧/٩) .

(٥) وهي المبالغة في تفاريع الفقه مع عدم الاهتمام بأمور الآخرة .

(٦) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٦٤/٢) .

(٧) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٥٤/٢) .

(٨) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٥٤/٢) .

(٩) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢٥٥/٢) .

وقالَ يحيى بنُ سعيدٍ القطانُ : (ما صليتُ صلاةً منذُ أربعينَ سنةً إلا وأنا أدعو فيها للشافعيِّ ؛ لما فتحَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ مِنَ العلمِ ، ووفَّقَهُ للسَّدادِ فيهِ)[1]

ولنقتصرْ على هـٰذهِ النبذةِ مِنْ أحوالِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ خارجٌ عَنِ الحصرِ ، وأكثرُ هـٰذهِ المناقبِ نقلناهُ من الكتابِ الذي صنَّفَهُ الشيخُ نصرُ بنُ إبراهيمَ المقدسيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في مناقبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ .

وأمَّا الإمامُ مالكٌ رضيَ اللهُ عنهُ

فإنَّهُ كانَ أيضاً متحلِّياً بهـٰذهِ الخصالِ الخمسِ ؛ فإنَّهُ سئلَ : ما تقولُ يا مالكُ في طلبِ العلمِ ؟ فقالَ : حسنٌ جميلٌ ، ولـٰكنِ انظرِ الذي يلزمُكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي فالزمْهُ[2]

وكانَ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في تعظيمِ علمِ الدينِ مبالغاً ، حتَّىٰ كانَ إذا أرادَ أن يحدِّثَ . . توضَّأَ ، وجلسَ علىٰ صدرِ فراشِهِ ، وسرَّحَ لحيتَهُ ، واستعملَ الطيبَ ، وتمكَّنَ في الجلوسِ علىٰ وقارٍ وهيبةٍ ، ثمَّ حدَّثَ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : أحبُّ أنْ أعظِّمَ حديثَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3]

وقالَ مالكٌ : (العلمُ نورٌ يجعلُهُ اللهُ حيثُ يشاءُ ، وليسَ بكثرةِ الروايةِ)[4]

وهـٰذا الاحترامُ والتوقيرُ يدلُّ علىٰ قوَّةِ معرفتِهِ بجلالِ اللهِ تعالىٰ .

وأمَّا إرادتُهُ وجْهَ اللهِ تعالىٰ بالعلمِ : فيدلُّ عليهِ قولُهُ : (الجدالُ في الدينِ ليسَ بشيءٍ)[5]

ويدلُّ عليهِ قولُ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ : (إنِّي شهدْتُ مالكاً وقدْ سُئِلَ عنْ ثمانٍ وأربعينَ مسألةً ، فقالَ في اثنتينِ وثلاثينَ منها : لا أدري)[6]

ومَنْ يُردْ غيرَ وجهِ اللهِ تعالىٰ بعلمِهِ . . فلا تسمحْ نفسُهُ بأنْ يُقِرَّ علىٰ نفسِهِ بأنَّهُ لا يدري ، ولذٰلكَ قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا ذُكِرَ العلماءُ . . فمالكٌ النجمُ الثاقبُ ، وما أحدٌ أمنَّ عليَّ مِنْ مالكٍ)[7]

ورُوِيَ أنَّ أبا جعفرٍ المنصورَ منعَهُ مِنْ روايةِ الحديثِ في طلاقِ المكرَهِ ، ثمَّ دسَّ عليهِ مَنْ يسألُهُ ، فرَوىٰ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ : « ليسَ علىٰ مستكرَهٍ طلاقٌ » ، فضربَهُ بالسياطِ ، ولمْ يتركْ روايةَ الحديثِ[8]

وقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ : (ما كانَ رجلٌ صادقاً في حديثِهِ لا يكذبُ . . إلا مُتِّعَ بعقلِهِ ، ولمْ يصبْهُ مع الهرمِ آفةٌ ولا خَرَفٌ)[9]

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (١/٢٣٣ ـ ٢٣٤) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/٣١٩) .
(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/٣١٨)
(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/٣١٩) .
(٥) رواه البيهقي في « المدخل » (٢٣٨) .
(٦) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (١/٧٣) .
(٧) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (١/٧٤) ، وابن فرحون في « الديباج المذهب » (١/٦٣) .
(٨) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/٣١٦) ، وضاربه هو والي المدينة جعفرُ بن سليمان ، وكان ذٰلك بخلافة أبي جعفر المنصور .
(٩) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (١/٧٠) .

وأمَّا زهدُهُ في الدنيا : فيدلُّ عليهِ ما رُوِيَ أنَّ المهديَّ أميرَ المؤمنينَ سألَهُ وقالَ لهُ : هلْ لكَ دارٌ ؟ فقالَ : لا ، ولٰكنْ أحدِّثُكَ : سمعتُ ربيعةَ بنَ أبي عبدِ الرحمٰنِ يقولُ : نسبُ المرءِ دارُهُ(١)

وسألَهُ الرشيدُ : هلْ لكَ دارٌ ؟ فقالَ : لا ، فأعطاهُ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ وقالَ : اشترِ بها داراً ، فأخذَها ولم ينفقْها ، فلمَّا أرادَ الرشيدُ الشخوصَ . . قالَ لمالكٍ رحمهُ اللهُ : ينبغي أنْ تخرُجَ معنا ؛ فإنِّي عزمْتُ أنْ أحملَ الناسَ على « الموطأ » كما حملَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ الناسَ على القرآنِ ، فقالَ لهُ : أمَّا حملُ الناسِ على « الموطأ » . . فليسَ إلىٰ ذٰلكَ سبيلٌ ؛ لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ افترقوا بعدَهُ في الأمصارِ فحدَّثوا ، فعندَ أهلِ كلِّ مصرٍ علْمٌ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اختلافُ أُمَّتِي رحمةٌ »(٢) ، وأمَّا الخروجُ معكَ . . فلا سبيلَ إليهِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المدينةُ خيرٌ لهُمْ لوْ كانُوا يعلمونَ »(٣) ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « المدينةُ تَنْفِي خَبَثَها كما يَنْفِي الكيرُ خبثَ الحديدِ »(٤) ، وهٰذهِ دنانيرُكم كما هيَ ، إنْ شئْتُم . . فخذُوها ، وإنْ شئتُمْ . . فدعُوها(٥)

يعني : أنَّكَ إنما تكلِّفُني مفارقةَ المدينةِ لما اصطنعتَهُ إليَّ ، فلا أُوثِرُ الدنيا علىٰ مدينةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فهٰكذا كانَ زهدُ مالكٍ في الدنيا .

ولمَّا حُمِلَتْ إليه الأموالُ الكثيرةُ مِنْ أطرافِ الدنيا لانتشارِ علمِهِ وأصحابِهِ . . كانَ يفرِّقُها في وجوهِ الخيرِ ، ودلَّ سخاؤُهُ علىٰ زهدِهِ وقلَّةِ حبِّهِ للدنيا ، وليسَ الزهدُ فقْدَ المالِ ، وإنَّما الزهدُ فراغُ القلبِ عنهُ ؛ فلقدْ كانَ سليمانُ عليهِ السلامُ في مُلكِهِ مِنَ الزهَّادِ .

ويدلُّ على احتقارِهِ للدنيا : ما رُوِيَ عنِ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ أنَّه قالَ : رأيتُ علىٰ بابِ مالكٍ كُراعاً مِنْ أفراسِ خراسانَ وبغالِ مصرَ ما رأيتُ أحسنَ منهُ ، فقلتُ لمالكٍ رحمهُ اللهُ : ما أحسنَهُ !! فقالَ : هوَ هديةٌ منّي إليكَ يا أبا عبدِ اللهِ ، فقلتُ : دعْ لنفسِكَ منها دابَّةً تركبُها ، فقالَ : أنا أستحيي مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ أطأَ تربةً فيها نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بحافرِ دابَّةٍ(٦)

فانظرْ إلىٰ سخاوتِهِ إذْ وهبَ جميعَ ذٰلكَ دفعةً واحدةً ، وإلىٰ توقيرِهِ لتربةِ المدينةِ .

ويدلُّ علىٰ إرادتِهِ بالعلمِ وجْهَ اللهِ تعالىٰ واستحقارِهِ للدنيا : ما رُوِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ : دخلتُ علىٰ هارونَ الرشيدِ ، فقالَ لي : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ينبغي أنْ تختلفَ إلينا حتَّىٰ يسمعَ صبيانُنا منكَ « الموطأ » ، قالَ : قلتُ : أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ هٰذا العلمَ منكُمْ خرجَ ، فإنْ أنتمْ أعززْتُمُوهُ . . عزَّ ، وإنْ أنتُمْ أذللتمُوهُ . . ذلَّ ، والعلمُ يؤتَىٰ ولا يأتي ، فقالَ : صدقتَ ، اخرجوا إلى المسجدِ حتَّىٰ تسمعوا معَ الناسِ(٧)

---

(١) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٧٩) .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (١٥٢) بلفظ : « واختلاف أصحابي لكم رحمة » ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (٩١/١١) : (قال الخطابي : وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اختلاف أمتي رحمة » ،.فاستصوب عمر ما قاله . . . ـ كلام راجع لأصل الحديث المشروح ـ قال : وقد اعترض علىٰ حديث : « اختلاف أمتي رحمة » ، رجلان ؛ أحدهما مغموص عليه في دينه ، وهو عمرو بن بحر الجاحظ ، والآخر معروف بالسخف والخلاعة ، وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلي . . .) .

(٣) رواه البخاري (١٨٧٥) ، ومسلم (١٣٦٣) .

(٤) رواه البخاري (١٨٧١ ، ١٨٨٣) ، ومسلم (١٣٨٢ ، ١٣٨٣) .

(٥) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣٣١/٦) ، ووقع فيها : (المأمون) بدل (الرشيد) ، والمثبت هو الصواب ، والله أعلم .

(٦) ترتيب المدارك (٩٣/١) . **والكراع** : اسم لجميع الخيل والسلاح .

(٧) رواه البيهقي في « المدخل » (٦٨٦) .

وأمَّا الإمامُ أبو حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ

فلقدْ كانَ أيضاً عابداً ، زاهداً ، عارفاً باللهِ تعالىٰ ، خائفاً منهُ ، مريداً وجْهَ اللهِ تعالىٰ بعلمِهِ .

فأمَّا كونُهُ عابداً : فيُعرفُ بما رُوِيَ عنِ ابنِ المباركِ أنَّهُ قالَ : (كانَ أبو حنيفةَ رحمهُ اللهُ لهُ مروءةٌ وكثرةُ صلاةٍ)[(١)] .

ورَوىٰ حمَّادُ بنُ أبي سليمانَ أنَّهُ كانَ يحيي الليلَ كلَّهُ[(٢)] .

ورُوِيَ أنَّهُ كانَ يحيي نصفَ الليلِ ، فمرَّ يوماً في طريقٍ ، فأشارَ إليهِ إنسانٌ وهوَ يمشي وقالَ لآخرَ : هـٰذا هوَ الذي يحيي الليلَ كلَّهُ ، فلمْ يزلْ بعدَ ذٰلكَ يحيي الليلَ كلَّهُ ؛ وقالَ : أنا أستحيي مِنَ اللهِ سبحانَهُ أنْ أوصفَ بما ليسَ فيَّ مِنْ عبادتِهِ[(٣)] .

وأمَّا زهدُهُ : فقدْ رُوِيَ عَنِ الربيعِ بنِ عاصمٍ قالَ : (أرسلني يزيدُ بنُ عمرَ بنِ هبيرةَ ، فقدمتُ بأبي حنيفةَ عليهِ ، فأرادَهُ علىٰ بيتِ المالِ ، فأبَىٰ ، فضربَهُ عشرينَ سَوطاً)[(٤)] .

فانظرْ كيفَ هربَ عَنِ الولايةِ واحتملَ العذابَ .

قالَ الحكمُ بنُ هشامٍ الثقفيُّ : (حدثتُ بالشامِ عنْ أبي حنيفةَ أنَّهُ كانَ مِنْ أعظمِ الناسِ أمانةً ، وأرادَهُ السلطانُ علىٰ أنْ يتولَّىٰ مفاتيحَ خزائنِهِ أو يضربَ ظهرَهُ ، فاختارَ عذابَهُمْ علىٰ عذابِ اللهِ تعالىٰ)[(٥)] .

ورُوِيَ أنَّهُ ذُكِرَ أبو حنيفةَ عندَ ابنِ المباركِ فقالَ : (أتذكرونَ رجلاً عُرِضَتْ عليهِ الدنيا بحذافيرِها ففرَّ منها ؟)[(٦)] .

ورُوِيَ عنْ محمدِ بنِ شجاعٍ ، عنْ بعضِ أصحابِهِ[(٧)] : (أنَّهُ قيلَ لأبي حنيفةَ : قدْ أمرَ لكَ أبو جعفرٍ أميرُ المؤمنينَ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، قالَ : فما رضيَ أبو حنيفةَ ، فلمَّا كانَ اليومُ الذي توقَّعَ أنْ يُؤتىٰ بالمالِ فيهِ صلَّى الصبْحَ ثم تغشَّىٰ بثوبِهِ فلمْ يتكلَّمْ ، فجاءَ رسولُ الحسنِ بنِ قَحْطَبَةَ بالمالِ ، فدخلَ عليهِ فلمْ يكلمْهُ ، فقالَ مَنْ حضرَ : ما يكلِّمُنا إلا بالكلمةِ بعدَ الكلمةِ ـ أي : هـٰذهِ عادتُهُ ـ فقالَ : ضعوا المالَ في هـٰذا الجِرابِ في زاويةِ البيتِ ، ثم أوصىٰ أبو حنيفةَ بعدَ ذٰلكَ بمتاعِ بيتِهِ ؛ فقالَ لابنِهِ : إذا أنا متُّ ودفنتموني . . فخذْ هـٰذهِ البَدْرَةَ[(٨)] واذهبْ بها إلى الحسنِ بنِ قحطبةَ فقلْ لهُ : هـٰذهِ وديعتُكَ التي أودعتَها أبا حنيفةَ . قالَ ابنُهُ : ففعلتُ ذٰلكَ ، فقالَ الحسنُ : رحمةُ اللهِ علىٰ أبيكَ ، لقدْ كان شحيحاً علىٰ دينِهِ)[(٩)] .

ورُوِيَ أنَّهُ دُعِيَ إلىٰ ولايةِ القضاءِ فقالَ : أنا لا أصلحُ لهُ ، فقيلَ لهُ : لِمَ ؟ فقالَ : إنْ كنتُ صادقاً . . فلا أصلحُ لهُ ، وإنْ كنتُ كاذباً . . فالكاذبُ لا يصلحُ للقضاءِ[(١٠)] .

---

(١) تاريخ بغداد (٣٥٢/١٣) من قول سفيان بن عيينة ، وروىٰ معه أنه كان يسمى الوَتِد لكثرة صلاته .
(٢) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ١٩٤) .
(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٥٣/١٣) .
(٤) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٢٥٥) .
(٥) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٢٥٥) .
(٦) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٣٢١) .
(٧) والمراد ببعض أصحابه هنا : هو الحسن بن عمارة أبو محمد الكوفي . « إتحاف » (٢١١/١) .
(٨) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار .
(٩) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٣٢١) ، **وشحيحاً علىٰ دينه** : متمسكاً به غير مفرط .
(١٠) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٢٩/١٣) .

وأمَّا علمُهُ بأمورِ الآخرةِ وطريقِ الدينِ ومعرفتُهُ باللهِ عزَّ وجلَّ : فيدلُّ عليهِ شدَّةُ خوفِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ وزهدِهِ في الدنيا ، وقدْ قالَ ابنُ جريجٍ : (قدْ بلغَني عَنْ كوفيِّكُمْ هٰذا النعمانِ بنِ ثابتٍ أنَّهُ شديدُ الخوفِ للهِ تعالىٰ)[1]

وقالَ شريكٌ النخعيُّ : (كانَ أبو حنيفةَ طويلَ الصمْتِ ، دائمَ الفكرِ ، قليلَ المجادلةِ للناسِ)[2]

فهٰذا مِنْ أوضحِ الأماراتِ على العلمِ الباطنِ ، والاشتغالِ بمهمَّاتِ الدينِ ، فمَنْ أوتيَ الصمتَ والزهدَ . . فقدْ أوتيَ العلمَ كلَّهُ .

فهٰذهِ نبذةٌ مِنْ أحوالِ الأئمةِ الثلاثةِ .

وأمَّا الإمامُ أحمدُ ابنُ حنبلٍ وسفيانُ رحمهُمَا اللهُ تعالىٰ

فأتباعُهُما أقلُّ مِنْ أتباعِ هٰؤلاءِ ، وسفيانُ أقلُّ أتباعاً مِنْ أحمدَ ، ولٰكنِ اشتهارُهُما بالورعِ والزهدِ أظهرُ ، وجميعُ هٰذا الكتابِ مشحونٌ بحكاياتِ أفعالِهِما وأقوالِهِما ، فلا حاجةَ إلى التفصيلِ الآنَ .

فانظرِ الآنَ في سيَرِ هٰؤلاءِ الأئمةِ ، وتأمَّلْ أنَّ هٰذهِ الأحوالَ والأقوالَ والأعمالَ في الإعراضِ عَنِ الدنيا ، والتجرُّدِ للهِ عزَّ وجلَّ : هلْ يُثمرُها مجرَّدُ العلمِ بفروعِ الفقهِ ؛ مِنْ معرفةِ السَّلَمِ والإجارةِ والظِّهارِ والإيلاءِ واللِّعانِ ، أو يثمرُها علمٌ آخرُ أعلىٰ وأشرفُ منهُ ؟

وانظرْ إلى الذينَ ادَّعَوا الاقتداءَ بهٰؤلاءِ : أصدقوا في دعواهُمْ أمْ لا ؟ واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٢٠٩) .

(٢) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٢٠١) .

الباب الثالث

فيما يعدّه العامّة من العلوم المحمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الذي به يكون بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم ، وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعيّة والقدر المذموم منها

بيان علّة ذمّ العلم المذموم

لعلَّكَ تقولُ : العلمُ هوَ معرفةُ الشيءِ علىٰ ما هوَ بهِ ، وهوَ مِنْ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ ، فكيفَ يكونُ الشيءُ علماً ويكونُ ـ مع كونِهِ علماً ـ مذموماً ؟

فاعلمْ : أنَّ العلمَ لا يُذمُّ لعينِهِ ، وإنَّما يُذمُّ في حقِّ العبادِ لأحدِ أسبابٍ ثلاثةٍ :

الأولُ : أنْ يكونَ مؤدِّياً إلىٰ ضررٍ ما ؛ إمَّا بصاحبِهِ ، وإمَّا بغيرِهِ ، كما يُذَمُّ علمُ السحْرِ والطِّلَّسْماتِ ، وهوَ حقٌّ[1] ؛ إذْ شهِدَ القرآنُ لهُ ، وأنَّهُ سببٌ يتوصَّلُ بِهِ إلى التفرقةِ بينَ الزوجينِ .

وقدْ سُحِرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومرضَ بسببِهِ ، حتَّىٰ أخبرَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ بذٰلكَ ، وأُخرجَ السحرُ مِنْ تحتِ حَجَرٍ في قعْرِ بئرٍ[2] .

وهوَ نوعٌ يستفادُ مِنَ العلْمِ بخواصِّ الجواهِرِ ، وبأمورٍ حسابيَّةٍ في مطالِعِ النجومِ ، فَيُتَّخَذُ مِنْ تلكَ الجواهِرِ هيْكَلٌ علىٰ صورةِ الشخصِ المسحورِ ، ويُترصَّدُ لهُ في وقْتٍ مخصوصٍ في المطالعِ ، ويُقْرَنُ بِهِ كلماتٌ يُتلفَّظُ بها مِنَ الكفرِ والفحْشِ المخالفِ للشرعِ ، ويُتوصَّلُ بسببِها إلى الاستعانةِ بالشياطينِ ، ويحصُلُ مِنْ مجموعِ ذٰلكَ ـ بحكمِ إجراءِ اللهِ تعالى العادةَ ـ أحوالٌ غريبةٌ في الشخصِ المسحورِ .

ومعرفةُ هٰذهِ الأسبابِ مِنْ حيثُ إنَّها معرفةٌ ليستْ مذمومةً ، ولٰكنَّها ليستْ تصلُحُ إلا للإضرارِ بالخلْقِ ، والوسيلةُ إلى الشرِّ شرٌّ ؛ فكانَ ذٰلكَ هوَ السببَ في كونِهِ مذموماً ، بلْ مَنِ اتبعَ ولياً من أولياءِ اللهِ ليقتلَهُ وقدِ اختفىٰ منهُ في موضعٍ حريزٍ[3] إذا سألَ الظالمُ عَنْ محلِّهِ .. لم يجزْ تنبيهُهُ عليهِ ، بلْ وجبَ الكذبُ فيهِ ، وذكرُ موضعِهِ إرشادٌ وإفادةُ علمٍ بالشيءِ علىٰ ما هوَ عليهِ ، ولٰكنَّهُ مذمومٌ ؛ لأدائِهِ إلى الضررِ .

❁ ❁ ❁

السببُ الثاني : أنْ يكونَ مضرّاً بصاحبِهِ في غالبِ الأمرِ ؛ كعلمِ النجومِ ؛ فإنَّهُ في نفسِهِ غيرُ مذمومٍ لذاتِهِ ، إذْ هوَ قسمانِ :

قسمٌ حسابيٌّ : وقدْ نطقَ القرآنُ بأنَّ مسيرَ الشمسِ والقمرِ محسوبٌ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ، وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ .

---

(١) أي : ثابت وجوده ولا يمكن إنكاره ، وإن اختلفوا في ماهيته ، وليس المراد الحقَّ الذي هو ضد الباطل .

(٢) رواه البخاري (٣١٧٥) ، ومسلم (٢١٨٩) .

(٣) حريز : منيع

والثاني الأحكامُ : وحاصلُهُ يرجعُ إلى الاستدلالِ على الحوادثِ بالأسبابِ ، وهوَ يضاهي استدلالَ الطبيبِ بالنبْضِ علىٰ ما سيحدثُ مِنَ المرضِ ، وهو معرفةٌ بمجاري سنَّةِ اللهِ تعالىٰ وعادتِهِ في خلقِهِ ، ولٰكنْ ذمَّهُ الشرعُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ذُكِرَ القَدَرُ . . فأمسكُوا ، وإذا ذُكِرَتِ النجُومُ . . فأمسكُوا ، وإذا ذُكِرَ أصحابي . . فأمسكُوا »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخافُ علىٰ أُمَّتي بعدي ثلاثاً : حَيْفُ الأئِمَّةِ ، وإيمانٌ بالنجُومِ ، وتكذيبٌ بالقَدَرِ »[٢] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا مِنَ النجومِ ما تهتدونَ بهِ في البرِّ والبحرِ ثمَّ أمسكُوا)[٣]

وإنَّما زُجِرَ عنهُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنَّهُ مضرٌّ بأكثرِ الخلقِ ؛ فإنَّهُ إذا ألقيَ إليهِمْ أنَّ هٰذهِ الآثارَ تحدثُ عقيبَ سيرِ الكواكبِ . . وقعَ في نفوسِهِمْ أنَّ الكواكبَ هيَ المؤثرةُ ، وأنَّها الآلهةُ المدبِّرةُ ؛ لأنَّها جواهرُ شريفةٌ سماويةٌ ، يعظُمُ وقعُها في القلوبِ ، فيبقَى القلبُ ملتفتاً إليها ، ويرى الخيرَ والشرَّ مرجوّاً ومحذوراً مِنْ جهتِها ، وينمحي ذكرُ اللهِ تعالىٰ عَنِ القلبِ ، فإنَّ الضعيفَ يقصُرُ نظرُهُ على الوسائطِ ، والعالِمُ الراسخُ هو الذي يطَّلِعُ علىٰ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٌ بأمرِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ .

ومثالُ نظرِ الضعيفِ إلىٰ حصولِ ضوءِ الشمسِ عَقيبَ طلوعِ الشمسِ مثالُ النملةِ لو خُلِقَ لها عقْلٌ وكانتْ علىٰ سطْحِ قرطاسٍ وهيَ تنظرُ إلىٰ سوادِ الخطِّ يتجدَّدُ ، فتعتقدُ أنَّهُ فعلُ القلمِ ، ولا يترقَّىٰ نظرُها إلىٰ مشاهدةِ الإصبعِ ، ثمَّ منها إلى اليدِ ، ثمَّ منها إلى الإرادةِ المحرِّكَةِ لليدِ ، ثمَّ منها إلى الكاتبِ القادرِ المريدِ ، ثمَّ منه إلىٰ خالِقِ اليدِ والقدرةِ والإرادةِ ، فأكثرُ نظرِ الخلْقِ مقصورٌ على الأسبابِ القريبةِ السافلةِ ، مقطوعٌ عنِ الترقي إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ . هٰذا أحدُ أسبابِ النهيِ عنِ النجومِ .

وثانيها : أنَّ أحكامَ النجومِ تخمينٌ محْضٌ ، ليسَ يُدرَكُ في حقِّ آحادِ الأشخاصِ لا يقيناً ولا ظنّاً ، فالحكمُ بهِ حكمٌ بجهلٍ ، فيكونُ ذمُّهُ علىٰ هٰذا مِنْ حيثُ إنَّهُ جهْلٌ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ علْمٌ .

ولقدْ كانَ ذٰلكَ معجزةً لإدريسَ عليهِ السلامُ فيما يُحكىٰ[٤] ، وقدِ اندرسَ ذٰلكَ العلمُ وانمحقَ ، وما يتفقُ مِنْ إصابةِ المنجِّمِ علىٰ ندورٍ . . فهوَ اتفاقٌ ؛ لأنَّهُ قدْ يطَّلِعُ علىٰ بعضِ الأسبابِ ولا يحصلُ المسبَّبُ عقيبَها إلا بعدَ شروطٍ كثيرةٍ ليسَ في قدرةِ البشرِ الاطلاعُ علىٰ حقائقِها ، فإنِ اتفقَ أنْ قدَّرَ اللهُ تعالىٰ بقيَّةَ الأسبابِ . . وقعتِ الإصابةُ ، وإنْ لم يقدِّرْ . . أخطأَ .

ويكونُ ذٰلكَ كتخمينِ الإنسانِ في أنَّ السماءَ تمطِرُ اليومَ مهما رأى الغيمَ يجتمعُ وينبعثُ مِنَ الجبالِ ، فيتحرَّكُ ظنُّهُ بذٰلكَ ، وربَّما يَحمى النهارُ بالشمسِ ويتبدَّدُ الغيمُ ، وربَّما يكونُ بخلافِهِ ، ومجرَّدُ الغيمِ ليسَ كافياً في مجيءِ المطرِ ، وبقيَّةُ الأسبابِ لا تُدْرَىٰ ، وكذٰلكَ تخمينُ الملّاحِ أنَّ السفينةَ تسلَمُ اعتماداً علىٰ ما ألفَهُ مِنَ العادةِ في الرياحِ ، ولتلكَ الرياحِ أسبابٌ خفيَّةٌ هوَ لا يطلعُ عليها ، فتارةً يصيبُ في تخمينِهِ ، وتارةً يخطئُ ، ولهٰذهِ العلَّةِ يُمنعُ القويُّ[٥] عنِ النجومِ أيضاً .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١٠٨) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٨٢) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦١٦٢) .
(٤) وحملوا عليه الحديث الذي رواه مسلم في « صحيحه » (٥٣٧) : « كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطَّه . . فذاك » ، قيل : هو إدريس عليه السلام ، **والمراد بالخط** : قيل : علم النجوم أو علم الرمل . انظر « فيض القدير » (٤/٥٤٥) .
(٥) أي : في إيمانه واعتقاده .

وثالثُها : أنَّهُ لا فائدةَ فيهِ ، فأقلُّ أحوالِهِ أنَّهُ خوْضٌ في فضولٍ لا يغني ، وتضييعُ العمرِ الذي هوَ أنفسُ بضاعةِ الإنسانِ بغيرِ فائدةٍ . . غايةُ الخسرانِ ؛ فقدْ مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلٍ والناسُ مجتمعونَ عليهِ ، فقالَ : « ما هٰذا ؟ » فقالوا : رجلٌ علّامةٌ ، فقالَ : « بماذا ؟ » قالوا : بالشعرِ وأنسابِ العربِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عِلمٌ لا ينفعُ ، وجهلٌ لا يضُرُّ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما العلمُ آيةٌ محكمةٌ ، أو سنَّةٌ قائمةٌ ، أو فريضةٌ عادلةٌ »[2]

فإذاً ؛ الخوضُ في النجومِ وما يشبهُهُ اقتحامُ خطَرٍ ، وخوضٌ في جهالةٍ مِنْ غيرِ فائدةٍ ، فإنَّ ما قُدِّرَ كائنٌ ، والاحترازُ منهُ غيرُ ممكنٍ ، بخلافِ الطبِّ ؛ فإنَّ الحاجةَ ماسَّةٌ إليهِ ، وأكثرُ أدلتِهِ ممَّا يُطَّلَعُ عليهِ ، وبخلافِ التعبيرِ وإنْ كانَ تخميناً ؛ لأنَّهُ جزْءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوةِ ، ولا خطرَ فيهِ[3] .

❁ ❁ ❁

السببُ الثالثُ : الخوضُ في علمٍ لا يستقلُّ الخائضُ فيهِ بهِ ، فإنَّهُ مذمومٌ في حقِّهِ ؛ كتعلُّمِ دقيقِ العلومِ قبلَ جليلِهَا ، وخفيِّها قبل جليِّها ، وكالبحثِ عنِ الأسرارِ الإلـٰهيَّةِ ؛ إذْ تطلَّعَ الفلاسفةُ والمتكلمونَ إليها ولمْ يستقلُّوا بها ، ولا يستقلُّ بها وبالوقوفِ علىٰ طُرُقِ بعضِها إلا الأنبياءُ والأولياءُ ، فيجبُ كفُّ الناسِ عنِ البحثِ عنها ، وردُّهم إلىٰ ما نطَقَ الشرعُ بهِ ، ففي ذٰلكَ مَقْنَعٌ للموفَّقِ ، وكمْ مِنْ شخصٍ خاضَ في العلومِ واستضرَّ بذٰلكَ !! ولوْ لمْ يخضْ فيها . . لكانَ حالُهُ أحسنَ في الدينِ ممَّا صارَ إليهِ .

ولا يُنكرُ كونُ العلمِ ضارّاً لبعضِ الناسِ ؛ كما يضرُّ لحمُ الطيرِ وأنواعُ الحلاواتِ اللطيفةِ بالصبيِّ الرضيعِ ، بلْ ربَّ شخصٍ ينفعُهُ الجهلُ ببعضِ الأمورِ .

فلقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الناسِ شكا إلىٰ طبيبٍ عُقْمَ امرأتِهِ ، وأنَّها لا تلدُ ، فجسَّ الطبيبُ نبضَها وقالَ لها : لا حاجةَ لكِ إلىٰ دواءِ الولادةِ ؛ فإنَّكِ ستموتينَ إلىٰ أربعينَ يوماً ، وقدْ دلَّ النبضُ عليهِ ، فاستشعرتِ المرأةُ خوفاً عظيماً ، وتنغَّصَ عليها عيشُها ؛ وأخرجتْ أموالَها وفرقتْها ، وأوصَتْ ، وبقيَتْ لا تأكلُ ولا تشربُ حتى انقضتِ المدَّةُ ، فلمْ تمتْ ، فجاءَ زوجُها إلى الطبيبِ وقالَ لهُ : لمْ تمتْ ، فقالَ الطبيبُ : علمتُ ذٰلكَ ، فجامعْها الآنَ ، فإنَّها تلدُ ، فقالَ : كيفَ ذٰلكَ ؟ قال : رأيتُها سمينةً وقدِ انعقدَ الشحْمُ علىٰ فَمِ رَحِمِها ، فعلمتُ أنَّها لا تهزلُ إلا بخوفِ الموتِ ، فخوَّفْتُها بذٰلكَ حتَّىٰ هُزِلَتْ ، وزالَ المانعُ مِنَ الولادةِ .

فهٰذا ينبِّهُكَ على استشعارِ خطرِ بعضِ العلومِ ، ويُفهمُكَ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعوذُ باللهِ مِنْ علمٍ لا ينفعُ »[4]

فاعتبرْ بهٰذهِ الحكايةِ ، ولا تكنْ بحّاثاً عن علومٍ ذمَّها الشرعُ وزجرَ عنها ، ولازمِ الاقتداءَ بالصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، واقتصرْ على اتباعِ السنَّةِ ، فالسلامةُ في الاتباعِ ، والخطرُ في البحثِ والاستقلالِ ، ولا تكثرِ التبجُّحَ برأيِكَ ومعقولِكَ ،

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٥) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٤ ، ١٣٨٦) ، وأصله عند أبي داوود (٢٨٨٥) ، وابن ماجه (٥٤) .
(٣) لما رواه البخاري (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .
(٤) رواه مسلم (٢٧٢٢) .

ودليلِكَ وبرهانِكَ ، وزعمِكَ : أنّي أبحثُ عَنِ الأشياءِ لأعرفَها علىٰ ما هيَ عليهِ ، فأيُّ ضررٍ عليَّ في التفكُّرِ في العلمِ ؟ فإنَّ ما يعودُ عليكَ مِنْ ضررِهِ أكثرُ ، وكمْ مِنْ شيءٍ تطَّلِعُ عليهِ فيضرَّكَ اطلاعُكَ ضرراً يكادُ يهلكُكَ في الآخرةِ إنْ لمْ يتداركْكَ اللهُ برحمتِهِ .

واعلمْ : أنَّهُ كما يطلعُ الطبيبُ الحاذقُ علىٰ أسرارٍ في المعالجاتِ يستبعدُها مَنْ لا يعرفُها . . فكذٰلكَ الأنبياءُ أطباءُ القلوبِ والعلماءُ بأسبابِ الحياةِ الأُخرويةِ ، فلا تتحكَّمْ علىٰ سنَّتِهِمْ بمعقولِكَ فتهلِكَ ، فكمْ مِنْ شخصٍ يصيبُهُ عارضٌ في إصبعِهِ فيقتضي عقلُهُ أنْ يطليَهُ ، حتَّىٰ ينبهَهُ الطبيبُ الحاذقُ أنَّ علاجَهُ أنْ يُطلَى الكتفُ مِنَ الجانبِ الآخرِ مِنَ البدنِ ، فيستبعدُ ذٰلكَ غايةَ الاستبعادِ مِنْ حيثُ لا يعلمُ كيفيةَ انشعابِ الأعصابِ ومنابتَها ووجهَ التفافِها على البدنِ ، فهٰكذا الأمرُ في طريقِ الآخرةِ .

وفي دقائقِ سننِ الشرعِ وآدابِهِ ، وفي عقائدِهِ التي تعبَّدَ الناسَ بها . . أسرارٌ ولطائفُ ليسَ في سَعةِ العقلِ وقوَّتِهِ الإحاطةُ بها ؛ كما أنَّ في خواصِّ الأحجارِ أموراً عجائبَ غابَ عنْ أهلِ الصنعَةِ علمُها ، حتَّىٰ لمْ يقدرْ أحدٌ علىٰ أنْ يعرفَ السببَ الذي بِهِ يجذِبُ المغناطيسُ الحديدَ .

والعجائبُ والغرائبُ في العقائدِ والأعمالِ ، وإفادتِها لصفاءِ القلوبِ ونقائِها وطهارتِها ، وتزكيتِها وإصلاحِها للترقِّي إلىٰ جوارِ اللهِ تعالىٰ ، وتعريضِها لنفحاتِ فضلِهِ . . أكثرُ وأعظمُ ممَّا في الأدويةِ والعقاقيرِ ، وكما أنَّ العقولَ تقصُرُ عنْ إدراكِ منافعِ الأدويةِ مع أنَّ التجربةَ سبيلٌ إليها . . فالعقولُ تقصرُ عنْ إدراكِ ما ينفعُ في حياةِ الآخرةِ مع أنَّ التجربةَ غيرُ متطرِّقَةٍ إليها ، وإنَّما كانتِ التجربةُ تتطرَّقُ إليها لوْ رجعَ إلينا بعضُ الأمواتِ فأخبرَنا عنِ الأعمالِ المقبولَةِ النافعةِ المقرِّبَةِ إلى اللهِ تعالىٰ زُلْفَىٰ ، وعنِ الأعمالِ المبعِّدَةِ عنهُ ، وكذا عنِ العقائدِ ، وذٰلكَ لا مطمعَ فيهِ ، فيكفيكَ مِنْ منفعةِ العقلِ أنْ يهديَكَ إلىٰ صدْقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويفهمَكَ مواردَ إشاراتِهِ .

فاعزلِ العقلَ بعدَ ذٰلكَ عنِ التصرُّفِ ، ولازمِ الاتباعَ فلا تسلَمُ إلا بهِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنَ العلمِ جهلاً ، وإنَّ مِنَ القولِ عَيالاً »[1] ، ومعلومٌ أنَّ العلمَ لا يكونُ جهلاً ، ولٰكنَّهُ يؤثِّرُ تأثيرَ الجهْلِ في الإضرارِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « قليلٌ مِنَ التوفيقِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العلمِ »[2]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (ما أكثرَ الشجرَ وليسَ كلُّها بمثمرٍ ، وما أكثرَ الثمرَ وليسَ كلُّها بطيِّبٍ ، وما أكثرَ العلومَ وليسَ كلُّها بنافعٍ !!)[3]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠١٢) ، **والعيال في الحديث** : عرضك للكلام علىٰ من ليس من شأنه ولا يريده ، وقال الحافظ المناوي في « التيسير » (٣٤٥/١) : (أي : ملالاً ، فالسامع إما عالم فيملُّ ، أو جاهل فلا يفهم فيسأم ، وهو من عال العالة يعيل عيلاً وعيالاً بالفتح ، إذا لم يدرِ أيَّ جهة يبغيها) . وجاء في بعض النسخ : (عِيّاً) بدل (عيالاً) ، وهو نصُّ « القوت » (١٣١/١) .

(٢) كذا أورده صاحب « القوت » (١٣١/١) بقوله : (وفي الخبر الآخر) وذكره ، والمصنف تبعه علىٰ ذٰلك ، وبنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤٨/٦٠) بلفظ : « قليل التوفيق خير من كثير العقل . . . » .

(٣) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (ص ٦٨) بلفظ : (ويلكم يا عبيد الدنيا ؛ ماذا يغني عن الأعمىٰ سعة نور الشمس وهو لا يبصرها ؟! كذٰلك لا يغني عن العالم كثرة علمه إذا لم يعمل به ، ما أكثر أثمار الشجر وليس كلها ينفع ، ولا يؤكل !! وما أكثر العلماء وليس كلكم ينتفع بما علم . . .) . وأورده بلفظه الزمخشري في « ربيع الأبرار » (١٢٣/٤) .

بيان ما بُدّل من ألفاظ العلوم

اعلمْ : أنَّ منشأَ التباسِ العلومِ المذمومةِ بالعلومِ الشرعيَّةِ تحريفُ الأسامي المحمودةِ وتبديلُها ، ونقلُها بالأغراضِ الفاسدةِ إلىٰ معانٍ غيرِ ما أرادَهُ السلفُ الصالحُ والقرْنُ الأوَّلُ ، وهيَ خمسةُ ألفاظٍ : **الفقهُ ، والعلمُ ، والتوحيدُ ، والتذكيرُ ، والحكمةُ** .

فهٰذهِ أسامٍ محمودةٌ ، والمتصفونَ بها أربابُ المناصبِ في الدينِ ، ولٰكنَّها نقلتِ الآنَ إلىٰ معانٍ مذمومةٍ ، فصارتِ القلوبُ تنفِرُ عنْ مذمَّةِ مَنْ يتَّصِفُ بمعانيها ؛ لشيوعِ إطلاقِ هٰذهِ الأسامي عليهِمْ .

❁ ❁ ❁

اللفظُ الأوَّلُ : الفقهُ :

فقدْ تصرَّفوا فيهِ بالتخصيصِ لا بالنقلِ والتحويلِ ؛ إذْ خصَّصُوهُ بمعرفةِ الفروعِ الغريبةِ في الفتاوىٰ ، والوقوفِ علىٰ دقائقِ عللِها ، واستكثارِ الكلامِ فيها ، وحِفْظِ المقالاتِ المتعلِّقةِ بها ، فمَنْ كانَ أشدَّ تعمُّقاً فيها وأكثرَ اشتغالاً بها . . يقالُ : هوَ الأفقهُ .

ولقدْ كانَ اسمُ الفقهِ في العصْرِ الأوَّلِ مطلقاً علىٰ علمِ طريقِ الآخرةِ ، ومعرفةِ دقائقِ آفاتِ النفوسِ ومفسداتِ الأعمالِ ، وقوَّةِ الإحاطةِ بحقارةِ الدنيا ، وشدَّةِ التطلُّعِ إلىٰ نعيمِ الآخرةِ ، واستيلاءِ الخوفِ على القلبِ .

ويدلُّكَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ .

وما يحصلُ بهِ الإنذارُ والتخويفُ هوَ هٰذا الفقهُ ، دونَ تفريعاتِ الطلاقِ والعتاقِ واللعانِ والسلَّمِ والإجارةِ ؛ فذٰلكَ لا يحصلُ بهِ إنذارٌ ولا تخويفٌ ، بلِ التجرُّدُ لهُ على الدوامِ يقسِّي القلبَ ، وينزعُ الخشيةَ منهُ كما يُشاهدُ الآنَ مِنَ المتجرّدينَ لهُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ، وأرادَ بهِ معانيَ الإيمانِ دونَ الفتاوىٰ .

ولعمري ؛ الفقهُ والفهمُ في اللغةِ اسمانِ بمعنىً واحدٍ ، وإنَّما نتكلَّمُ في عادةِ الاستعمالِ قديماً وحديثاً ، قالَ تعالىٰ : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ ، فأحالَ قلَّةَ خوفِهِم مِنَ اللهِ واستعظامَهُمْ سطوةَ الخلقِ علىٰ قلَّةِ الفقهِ .

فانظرْ إنْ كانَ ذٰلكَ نتيجةَ عدمِ الحفظِ لتفريعاتِ الفتاوىٰ ، أوْ هوَ نتيجةُ عدمِ ما ذكرناهُ مِنَ العلومِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علماءُ حكماءُ فقهاءُ »[1] للذينَ وفدوا عليهِ .

وسُئِلَ سعدُ بنُ إبراهيمَ الزهريُّ : أيُّ أهلِ المدينةِ أفقهُ ؟ فقالَ : أتقاهمْ للهِ تعالىٰ[2] ، فكأنَّهُ أشارَ إلىٰ ثمرةِ الفقهِ ، والتقوىٰ ثمرةُ العلمِ الباطنِ دونَ الفتاوىٰ والأقضيةِ .

وقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أنبئُكُمْ بالفقيهِ كُلِّ الفقيهِ ؟ » قالوا : بلىٰ ، قالَ : « مَنْ لمْ يُقَنِّطِ الناسَ مِنْ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/٢٠٠) بلفظ : « علماء حكماء ، كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء » .

(٢) قوت القلوب (١/١٣٨) .

رحمةِ اللهِ ، ولمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللهِ ، ولمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، ولمْ يَدَعِ القرآنَ رَغْبَةً عنهُ إلىٰ ما سواهُ »[١]

ولمَّا رَوَىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ أَقْعُدَ معَ قومٍ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ مِنْ غُدْوَةٍ إلىٰ طلوعِ الشمسِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتقَ أربعَ رقابٍ »[٢] . . قالَ : فالتفتَ إلىٰ يزيدَ الرَّقاشيِّ وزيادٍ النميريِّ وقالَ : لمْ تكنْ مجالسُ الذكرِ مثلَ مجالسِكُمْ هٰذهِ ، يَقُصُّ أحدُكُمْ ويخطبُ علىٰ أصحابِهِ ويسردُ الحديثَ سرداً ، إنَّما كنَّا نقعدُ فنذْكُرُ الإيمانَ ، ونتدبَّرُ القرآنَ ، ونتفقَّهُ في الدينِ ، ونعدُّ نعمَ اللهِ علينا[٣] ، فسمَّى تدبُّرَ القرآنِ وعَدَّ النعمِ تفقُّهاً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يَفْقَهُ العبدُ كُلَّ الفقْهِ حتَّىٰ يَمْقُتَ الناسَ في ذاتِ اللهِ ، وحتَّىٰ يرىٰ للقرآنِ وجُوهاً كثيرةً » ، ورُوِيَ أيضاً موقوفاً علىٰ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ معَ قولِهِ : « ثُمَّ يُقْبِلُ علىٰ نفسِهِ فيكونُ لها أشَدَّ مقتاً »[٤]

وسألَ فَرْقَدٌ السَّبَخِيُّ الحسنَ عنْ شيءٍ ، فأجابَهُ ، فقالَ : إنَّ الفقهاءَ يخالفونَكَ ، فقالَ الحسنُ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ فُرَيْقِدُ ؛ وهلْ رأيتَ فقيهاً بعينِكَ ؟! إنَّما الفقيهُ الزاهدُ في الدنيا ، الراغبُ في الآخرةِ ، البصيرُ بدينِهِ ، المداومُ علىٰ عبادةِ ربِّهِ ، الورِعُ الكافُّ عن أعراضِ المسلمينَ ، العفيفُ عنْ أموالِهِمْ ، الناصحُ لجماعتِهِمْ[٥] ، ولمْ يقلْ في جميعِ ذٰلكَ : الحافظُ لفروعِ الفتاوىٰ .

ولستُ أقولُ : إنَّ اسمَ الفقهِ لمْ يكنْ متناولاً للفتاوىٰ في الأحكامِ الظاهرةِ ، ولٰكنْ كانَ بطريقِ العمومِ والشمولِ ، أوْ بطريقِ الاستتباعِ[٦] ، وكانَ إطلاقُهُمْ لهُ علىٰ علْمِ الآخرةِ أكثرَ ، فثارَ[٧] مِنْ هٰذا التخصيصِ تلبيسٌ بعثَ الناسَ على التجرُّدِ لهُ ، والإعراضِ عنْ علمِ الآخرةِ وأحكامِ القلبِ ، ووجدوا علىٰ ذٰلكَ معيناً مِنَ الطبعِ ؛ فإنَّ علمَ الباطنِ غامضٌ ، والعملَ بهِ عسيرٌ ، والتوصُّلَ بهِ إلىٰ طلبِ الولايةِ والقضاءِ والجاهِ والمالِ متعذِّرٌ ، فوجدَ الشيطانُ مجالاً لتحسينِ ذٰلكَ في القلوبِ بواسطةِ تخصيصِ اسمِ الفقهِ الذي هوَ اسمٌ محمودٌ في الشرعِ .



اللفظُ الثاني : العلمُ :

وقدْ كانَ يُطلقُ ذٰلكَ على العلمِ باللهِ تعالىٰ وبآياتِهِ وأفعالِهِ في عبادِهِ وخلقِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لمَّا ماتَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ماتَ تسعةُ أعشارِ العلمِ) ، فعرَّفَهُ بالألفِ واللامِ ، ثمَّ فسَّرَهُ بالعلمِ باللهِ سبحانَهُ كما سبقَ .

وقدْ تصرَّفوا فيهِ أيضاً بالتخصيصِ ، حتَّىٰ شهرُوهُ في الأكثرِ بمنْ يشتغلُ بالمناظرةِ معَ الخصومِ في المسائلِ الفقهيةِ

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٠) مرفوعاً ، وهو في « سنن الدارمي » (٣٠٥) ، وغيره موقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٢) رواه أبو داوود (٣٦٦٧) .
(٣) قوت القلوب (١/١٥٠)
(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٥ ، ١٥١٦) مرفوعاً وموقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ، وصحَّح الوقف .
(٥) قوت القلوب (١/١٥٣) .
(٦) أي : بجعل علم الفتاوىٰ تابعاً لبقية علوم الآخرة . « إتحاف » (١/٢٣٥) .
(٧) ثار : قام منه وانبعث .

وغيرها ، فيقالُ : هوَ العالمُ على الحقيقةِ ، وهوَ الفحلُ في العلمِ ، ومَنْ لا يمارسُ ذٰلكَ ، ولا يشتغلُ بهِ . . يُعدُّ مِنْ جملةِ الضعفاءِ ، ولا يعدُّونَهُ في زمرةِ أهلِ العلمِ ، وهـٰذا أيضاً تصرُّفٌ بالتخصيصِ ، ولـٰكنْ ما وردَ مِنْ فضائلِ العلمِ والعلماءِ أكثرُهُ في العلماءِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وبأحكامِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ .

وقدْ صارَ الآنَ يُطلقُ علىٰ مَنْ لا يحيطُ من علومِ الشرعِ بشيءٍ سوىٰ رسومٍ جدليَّةٍ في مسائلَ خلافيَّةٍ ، فيُعدُّ بذٰلكَ من فحولِ العلماءِ ، معَ جهلِهِ بالتفسيرِ والأخبارِ وعلْمِ المذهبِ وغيرِهِ ، وصارَ ذٰلكَ سبباً مهلِكاً لخلْقٍ كثيرٍ مِنَ الطلبةِ .

❁ ❁ ❁

اللفظُ الثالثُ : التوحيدُ :

وقدْ جُعِلَ الآنَ عبارةً عَنْ صناعةِ الكلامِ ، ومعرفةِ طريقِ المجادلةِ ، والإحاطةِ بطرقِ مناقضاتِ الخصومِ ، والقدرةِ على التشدُّقِ فيها بتكثيرِ الأسئلةِ وإثارةِ الشبهاتِ ، وتأليفِ الإلزاماتِ ، حتَّىٰ لَقَّبَ طوائفُ منهمْ أنفسَهمْ بأهلِ العدْلِ والتوحيدِ (١) ، وسُمِّيَ المتكلمونَ العلماءَ بالتوحيدِ ، معَ أنَّ جميعَ ما هوَ خاصيَّةُ هـٰذهِ الصناعةِ لمْ يكنْ يُعرفُ منها شيءٌ في العصرِ الأوَّلِ ، بلْ كانَ يشتدُّ النكيرُ منهُمْ علىٰ مَنْ يفتحُ باباً مِنَ الجدلِ والمماراةِ ، فأمَّا ما يشتملُ عليهِ القرآنُ مِنَ الأدلَّةِ الظاهرةِ التي تسبقُ الأذهانُ إلىٰ قبولِها في أوَّلِ السماعِ . . فلقدْ كانَ ذٰلكَ معلوماً للكُلِّ .

وكانَ العلْمُ بالقرآنِ هوَ العلمَ كلَّهُ ، وكانَ التوحيدُ عندَهُمْ عبارةً عنْ أمرٍ آخرَ لا يفهمُهُ أكثرُ المتكلِّمينَ ، وإنْ فهموهُ . . لمْ يتَّصِفُوا بهِ ؛ وهوَ أنْ يرى الأمورَ كلَّها مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ رؤيةً تقطَعُ التفاتَهُ عَنِ الأسبابِ والوسائطِ ، فلا يرى الخيرَ والشرَّ إلا منهُ جلَّ جلالُهُ ، وهـٰذا مقامٌ شريفٌ إحدىٰ ثمراتِهِ التوكُّلُ ، كما سيأتي بيانُهُ في كتابِ التوكُّلِ .

ومِنْ ثمراتِهِ : تركُ شكايةِ الخلْقِ ، وتركُ الغضَبِ عليهِمْ ، والرضا والتسليمُ لحكْمِ اللهِ تعالىٰ .

وكانَ إحدىٰ ثمراتِهِ قولُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا قيلَ لهُ في مرضِهِ : أنطلُبُ لكَ طبيباً ؟ فقالَ : الطبيبُ أمرضني (٢) .

وقولٌ آخرُ لأبي بكرٍ لما مرضَ فقيلَ لهُ : ماذا قالَ لكَ الطبيبُ في مرضِكَ ؟ فقالَ : قالَ لي : إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ (٣) .

وسيأتي شواهدُهُ في كتابِ التوكُّلِ .

وكانَ التوحيدُ جوهراً نفيساً ، ولهُ قِشْرانِ ، أحدُهما أبعدُ عنِ اللُّبِّ منَ الآخرِ ، فخصَّصَ الناسُ الاسمَ بالقشرِ وبصنْعَةِ الحراسةِ للقشْرِ ، وأهملُوا اللُّبَّ بالكليةِ :

فالقشرُ الأوَّلُ : أنْ تقولَ بلسانِكَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، وهـٰذا يسمَّىٰ توحيداً مناقضاً للتثليثِ الذي يصرِّحُ بهِ النصارىٰ ، ولـٰكنَّهُ قدْ يصدُرُ مِنَ المنافقِ الذي يخالفُ سرُّهُ جهرَه .

والقشرُ الثاني : ألا يكونَ في القلبِ مخالفةٌ وإنكارٌ لمفهومِ هـٰذا القولِ ، بلْ يشتملُ ظاهرُ القلبِ على اعتقادِ ذٰلكَ والتصديقِ بهِ ، وهوَ توحيدُ عوامِّ الخلقِ ، والمتكلمونَ ـ كما سبقَ ـ حرَّاسُ هـٰذا القشْرِ عنْ تشويشِ المبتدعةِ .

---

(١) وهم المعتزلة .

(٢) نُسب هـٰذا القول لغير واحد من الصحابة ، وأكثر الروايات عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، كما رواه البيهقي في « الشعب » (٢٢٦٧) ، وانظر « الإتحاف » (٢٣٧/١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣٤/١) .

والثالثُ وهوَ اللبابُ : أنْ يرى الأمورَ كلَّها مِنَ اللهِ تعالىٰ رؤيةً تقطَعُ التفاتَهُ عَنِ الوسائطِ ، وأنْ يعبدَهُ عبادةً يفردُهُ بها فلا يعبدُ غيرَهُ ، ويخرجُ عنْ هٰذا التوحيدِ أتباعُ الهوىٰ ، فكُلُّ مَنِ اتَّبعَ هواهُ فقدْ اتَّخذَ هواهُ معبودَهُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبغضُ إلَـٰهٍ عُبِدَ في الأرضِ عندَ اللهِ تعالىٰ هوَ الهَوَىٰ »[1]

وعلى التحقيقِ : مَنْ تأمَّلَ . . عَرَفَ أنَّ عابدَ الصنمِ ليسَ يعبدُ الصنمَ ، إنَّما يعبدُ هواهُ ؛ إذْ نفسُهُ مائلةٌ إلىٰ دينِ آبائِهِ ، فيتَّبِعُ ذٰلكَ الميلَ ، وميلُ النفسِ إلى المألوفاتِ أحدُ المعاني التي يعبَّرُ عنها بالهوىٰ .

ويخرجُ مِنْ هٰذا التوحيدِ السخْطُ على الخلقِ والالتفاتُ إليهِمْ ؛ فإنَّ مَنْ يرى الكلَّ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كيفَ يتسخَّطُ علىٰ غيرِهِ ؟! فلقدْ كانَ التوحيدُ عبارةً عَنْ هٰذا المقامِ ، وهوَ مِنْ مقاماتِ الصدِّيقينَ .

فانظرْ إلىٰ ماذا حُوِّلَ ، وبأيِّ قشْرٍ قُنِّعَ ، وكيفَ اتُّخِذَ هٰذا معتصماً في التمدُّحِ والتفاخرِ بما اسمُهُ محمودٌ معَ الإفلاسِ عَنِ المعنى الذي يستحقُّ الحمدَ الحقيقيَّ ؟!

وذٰلكَ كإفلاسِ مَنْ يصبحُ بكرةً ويتوجَّهُ إلى القبلةِ ويقولُ : (وجهتُ وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ حنيفاً) ، وهوَ أوَّلُ كذبٍ يفاتحُ اللهَ بهِ كلَّ يومٍ إنْ لمْ يكنْ وَجْهُ قلبِهِ متوجِّهاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ على الخصوصِ ؛ فإنَّهُ إنْ أرادَ بالوجْهِ وجهَ الظاهرِ . . فما وجَّهَهُ إلا إلى الكعبةِ ، وما صرفَهُ إلا عنْ سائرِ الجهاتِ ، والكعبةُ ليستْ جهةً للذي فَطَرَ السماواتِ والأرضَ حتَّىٰ يكونَ المتوجِّهُ إليها متوجهاً إليهِ ، تعالىٰ عنْ أنْ تحدَّهُ الجهاتُ والأقطارُ .

وإنْ أرادَ بهِ وجْهَ القلْبِ ـ وهوَ المطلوبُ المتعبَّدُ بهِ ـ فكيفَ يصدقُ قولُهُ وقلبُهُ متردِّدٌ في أوطارِهِ وحاجاتِهِ الدنيويةِ ، ومتصرِّفٌ في طلبِ الحيلِ في جمْعِ المالِ والجاهِ واستكثارِ الأسبابِ ، ومتوجِّهٌ بالكليةِ إليها ، فمتىٰ وجَّهَ وجهَهُ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ ؟!

وهٰذهِ الكلمةُ خبرٌ عَنْ حقيقةِ التوحيدِ ، فالموحِّدُ هوَ الذي لا يرىٰ إلا الواحدَ الحقَّ ، ولا يتوجَّهُ وجهُهُ إلا إليهِ ، وهوَ امتثالُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ ، وليسَ المرادُ بهِ القولَ باللسانِ ، إنَّما اللسانُ تَرْجُمانٌ يصدقُ مرَّةً ويكذبُ أخرىٰ ، وإنَّما موقعُ نظرِ اللهِ تعالىٰ هوَ المترجَمُ عنهُ ، وهوَ القلبُ ؛ فهوَ معدِنُ التوحيدِ ومنبعُهُ .



اللفظُ الرابعُ : الذكرُ والتذكيرُ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقدْ وردَ في الثناءِ علىٰ مجالسِ الذكرِ أخبارٌ كثيرةٌ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مررتُمْ برياضِ الجنةِ . . فارتَعُوا » ، قيلَ : وما رياضُ الجنَّةِ ؟ قالَ : « مجالسُ الذِّكْرِ »[2]

وفي الحديثِ : « إنَّ للهِ ملائكةً سيَّاحينَ في الهواءِ سِوَىٰ ملائكةِ الخلقِ ، إذا رَأَوْا مجالِسَ الذِّكْرِ . . يُنادِي بعضُهُمْ بعضاً : ألا هَلُمُّوا إلى بُغْيَتِكُمْ ، فيأْتُونَهُمْ ويحُفُّونَ بهِمْ ويستمعُونَ ، ألا فاذْكُرُوا اللهَ وذَكِّرُوا أنفسَكُمْ »[3]

فنُقِلَ ذٰلكَ إلىٰ ما ترىٰ أكثرَ الوعَّاظِ في هٰذا الزمانِ يواظبونَ عليهِ ؛ وهوَ **القصصُ** ، **والأشعارُ** ، **والشطْحُ** ، **والطَّامَّاتُ** .

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٣/٨) بنحوه .

(٢) رواه الترمذي (٣٥١٠) .

(٣) رواه البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) بنحوه .

أمّا القصصُ : فهيَ بدعةٌ ؛ وقدْ وردَ نهيُ السلفِ عَنِ الجلوسِ إلى القُصَّاصِ ، وقالوا : لمْ يكنْ ذٰلكَ في زمانِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا في زمانِ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، حتَّىٰ ظهرتِ الفتنةُ وظهرَ القصَّاصُ [١] .

ورُوِيَ أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما خرجَ من المسجدِ وقالَ : (ما أخرجني إلا القاصُّ ، ولولاهُ . . لما خرجتُ) [٢]

وقالَ ضمْرَةُ : (قلتُ لسفيانَ الثوريِّ : نستقبلُ القاصَّ بوجوهِنا ؟ فقالَ : وَلُّوا البدعَ ظُهورَكُمْ) [٣]

وقالَ ابنُ عوْنٍ : (دخلتُ على ابنِ سيرينَ فقالَ : ما كانَ اليومَ مِنْ خبرٍ ؟ فقلتُ : نهى الأميرُ القصَّاصَ أنْ يقصُّوا) [٤] .

ودخلَ الأعمشُ جامعَ البصرةِ ، فرأىٰ قاصّاً يقصُّ وهوَ يقولُ : (حدَّثنا الأعمشُ ، فتوسَّطَ الحلْقةَ وجعلَ ينتفُ شعرَ إبْطِهِ ، فقالَ القاصُّ : يا شيخُ ؛ ألا تستحيي ؟! فقالَ : لِمَ ؟ أنا في سُنَّةٍ وأنتَ في كذبٍ ، أنا الأعمشُ وما حدثتُكَ !!) [٥] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (أكثرُ الناسِ كذباً القُصَّاصُ والسُّؤَّالُ) [٦]

وأخرجَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ القصَّاصَ مِنْ مسجدِ جامعِ البصرةِ ، ولمَّا سمعَ كلامَ الحسنِ البصريِّ . . لمْ يخرجْهُ [٧] ؛ إذْ كانَ يتكلَّمُ في علْمِ الآخرةِ ، والتذكيرِ بالموتِ ، والتنبيهِ علىٰ عيوبِ النفسِ وآفاتِ الأعمالِ وخواطرِ الشيطانِ ووجهِ الحذرِ منها ، ويذكِّرُ بآلاءِ اللهِ ونعمائِهِ ، وتقصيرِ العبدِ في شكرِهِ ، ويعرِّفُ حقارةَ الدنيا وعيوبَها وتصرُّمَها وقلَّةَ عهدِها ، وخطرَ الآخرةِ وأهوالَها .

فهٰذا هوَ التذكيرُ المحمودُ شرعاً ، الذي رُوِيَ الحثُّ عليهِ في حديثِ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : « حضورُ مجلِسِ ذِكْرٍ أفضلُ مِنْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ ، وحضورُ مجلسِ علمٍ أفضلُ مِنْ عيادَةِ ألفِ مريضٍ ، وحضورُ مجلسِ علمٍ أفضلُ مِنْ شهودِ ألفِ جنازَةٍ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ومِنْ قراءَةِ القرآنِ ؟ قالَ : « وهلْ تنفعُ قراءَةُ القرآنِ إلا بالعلْمِ ؟ » [٨] .

وقالَ عطاءٌ رحمهُ اللهُ : (مجلسُ ذكرٍ يكفِّرُ سبعينَ مجلساً من مجالسِ اللهوِ) [٩]

فقدِ اتخذَ المزخرفونَ هٰذهِ الأحاديثَ حجَّةً علىٰ تزكيةِ أنفسِهِمْ ، ونقلوا اسمَ التذكيرِ إلىٰ خرافاتِهِمْ ، وذَهِلُوا عنْ طريقِ الذكرِ المحمودِ ، واشتغلوا بالقصصِ التي يتطرَّقُ إليها الاختلاف والزيادةُ والنقصُ ، وتخرجُ عَنِ القصصِ الواردةِ في القرآنِ وتزيدُ عليهِ ؛ فإنَّ مِنَ القصصِ ما ينفعُ سماعُهُ ، ومنها ما يضرُّ وإنْ كانَ صدقاً ، ومَنْ فتحَ ذٰلكَ البابَ علىٰ نفسِهِ . . اختلطَ عليهِ الصدقُ بالكذبِ ، والنافعُ بالضارِّ ؛ فلهٰذا نُهِيَ عنهُ ، ولذٰلكَ قالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (ما أحوجَ الناسَ إلىٰ قاصٍّ صادقٍ !!) [١٠]

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٥٤) ، وفي « مسند أحمد » (٤٤٩/٣) : أن أول من قصَّ تميم الداري رضي الله عنه ، وقد استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أن يقص قائماً فأذن له ، والقص المذموم إنما حدث بعد الفتنة عقب مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (١٥١/١) .

(٣) قوت القلوب (١٥١/١) .

(٤) قوت القلوب (١٥١/١) .

(٥) قوت القلوب (١٥١/١) .

(٦) قوت القلوب (١٥١/١) .

(٧) قوت القلوب (١٤٨/١) .

(٨) كذا أورده صاحب « القوت » (١٤٩/١) ، وانظر « لسان الميزان » (٤٩٥/١) ، وانظر « الإتحاف » (٩٩/١) .

(٩) قوت القلوب (١٤٩/١) .

(١٠) قوت القلوب (١٥١/١) .

فإنْ كانتِ القصَّةُ مِنْ قصصِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ فيما يتعلَّقُ بأمورِ دينِهِمْ ، وكانَ القاصُّ حاذقاً صحيحَ الروايةِ . . فلستُ أرىٰ بهِ بأساً .

فليحذرِ الكذبَ وحكايةَ أحوالٍ تُومئُ إلىٰ هفواتٍ أوْ مساهلاتٍ يقصُرُ فهمُ العوامِّ عَنْ دَرْكِ معانيها ، أوْ عنْ كونِها هفوةً نادرةً مردفةً بتكفيراتٍ ومتدارَكةً بحسناتٍ تُغطِّي عليها ؛ فإنَّ العاميَّ يعتصمُ بذٰلكَ في مساهلاتِهِ وهفواتِهِ ، ويُمهِّدُ لنفسِهِ عذراً فيهِ ، ويحتجُّ بأنَّهُ حُكِيَ كيتَ وكيتَ عنْ بعضِ المشايخِ وبعضِ الأكابرِ ، وكلُّنا بصددِ المعاصي ، فلا غروَ إنْ عصيتُ اللهَ تعالىٰ ؛ فقدْ عصاهُ مَنْ هوَ أكبرُ منِّي !! ويفيدُهُ ذٰلكَ جرأةً على اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ لا يدري .

فبعدَ الاحترازِ عنْ هٰذينِ المحذورينِ فلا بأسَ بهِ ، وعندَ ذٰلكَ ترجعُ القصصُ المحمودةُ إلىٰ ما يشتملُ عليهِ القرآنُ ، وصحَّ في الكتبِ الصحيحةِ مِنَ الأخبارِ .

ومِنَ الناسِ منْ يستجيزُ وضْعَ الحكاياتِ المرغِّبةِ في الطاعاتِ ، ويزعُمُ أنَّ قصدَهُ فيهِ دعوةُ الخلْقِ إلى الحقِّ ، وهٰذا منْ نزغاتِ الشيطانِ ؛ فإنَّ في الصدْقِ مندوحةً عنِ الكذبِ ، وفيما ذكرَهُ اللهُ سبحانَهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غنيةٌ عنِ الاختراعِ في الوعظِ ، كيفَ وقدْ كُرِهَ تكلُّفُ السجْعِ وعُدَّ ذٰلكَ من التصنُّعِ ؟!

قالَ سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ لابنِهِ عمرَ وقدْ سمعَهُ يسجَعُ : (هٰذا الذي يُبغِّضُكَ إليَّ ، لا قضيتُ حاجتَكَ أبداً حتَّىٰ تتوبَ) ، وقدْ كانَ جاءَهُ في حاجةٍ [1]

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ رواحَةَ في سجْعٍ بينَ ثلاثِ كلماتٍ : « إيَّاكَ والسَّجْعَ يا بْنَ رواحةَ »[2] ، فكانَ السجعُ المحذورُ المتكلَّفُ ما زادَ علىٰ كلمتينِ ، ولذٰلكَ لمَّا قالَ الرجلُ في ديةِ الجنينِ : كيفَ نَدِي مَنْ لا شربَ ولا أكَلَ ، ولا صاحَ ولا استهلَّ ، ومثلُ ذٰلكَ يُطَلُّ ؟ فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الأعرابِ ؟! »[3]

وأمَّا الأشعارُ : فتكثيرُها في المواعظِ مذمومٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ .

وأكثرُ ما اعتادَهُ الوعَّاظُ مِنَ الأشعارِ ما يتعلَّقُ بالتواصُفِ في العشقِ وجمالِ المعشوقِ ، ورَوْحِ الوصالِ وألمِ الفِراقِ ، والمجلسُ لا يحوي إلا أجلافَ العوامِّ ، وبواطنُهُمْ مشحونَةٌ بالشهواتِ ، وقلوبُهُمْ غيرُ منفكَّةٍ عنِ الالتفاتِ إلى الصورِ المليحةِ ، فلا تحرِّكُ الأشعارُ مِنْ قلوبِهِمْ إلا ما هوَ مستكِنٌّ فيها ، فتشتعلُ فيها نيرانُ الشهوةِ ، فيزعقونَ ويتواجدونَ ، وأكثرُ ذٰلكَ أوْ كلُّهُ يرجعُ إلىٰ نوعِ فسادٍ ، فلا ينبغي أنْ يستعملَ مِنَ الشعرِ إلا ما فيهِ موعظةٌ وحكمةٌ علىٰ سبيلِ الاستشهادِ والاستئناسِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ منَ الشعرِ لَحِكْمَةً »[4]

ولوْ حوى المجلسُ الخواصَّ الذينَ وقَعَ الاطلاعُ علىٰ استغراقِ قلوبِهِمْ بحبِّ اللهِ تعالىٰ ولمْ يكنْ معهُمْ غيرُهُمْ . .

---

(١) قوت القلوب (١٦٨/١) .

(٢) كذا أورده صاحب « القوت » (١٦٩/١) ، وهو عند أبي يعلىٰ (٤٤٧٥) من قول عائشة بنحوه .

(٣) رواه مسلم (١٦٨٢) .

(٤) رواه البخاري (٦١٤٥) .

فأولـئكَ لا يضرُّ معهُمُ الشعرُ الذي يشيرُ ظاهرُهُ إلى الخلْقِ ؛ فإنَّ المستمعَ ينزِّلُ كلَّ ما يسمعُهُ علىٰ ما يستولي علىٰ قلبِهِ كما سيأتي تحقيقُ ذٰلكَ في كتابِ السماعِ .

ولذٰلكَ كانَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ يتكلَّمُ علىٰ بضعةَ عشرَ ، فإنْ كثروا . . لمْ يتكلَّمْ ، وما تمَّ أهلُ مجلسِهِ عشرينَ[1]

وحضرَ جماعةٌ بابَ دارِ ابنِ سالمٍ ، فقيلَ لهُ : تكلَّمْ ، فقدْ حضرَ أصحابُكَ ، فقالَ : ما هـٰؤلاءِ أصحابي ، إنَّما هُمْ أصحابُ المجلسِ ؛ أي : أصحابي هُمُ الخواصُّ[2]

وأما الشطحُ[3] : فنعني بهِ صنفينِ منَ الكلامِ أحدثَهُ بعضُ المتصوفةِ :

أحدهما : الدعاوى الطويلةُ العريضةُ في العشْقِ معَ اللهِ تعالىٰ ، والوصالِ المغني عنِ الأعمالِ الظاهرةِ ، حتَّىٰ ينتهي قومٌ إلىٰ دعوى الاتحادِ وارتفاعِ الحجابِ ، والمشاهدةِ بالرؤيةِ والمشافهةِ بالخطابِ ، فيقولونَ : قيل لنا : كذا ، وقلنا : كذا ، ويتشبَّهونَ فيهِ بالحسينِ بنِ منصورٍ الحلّاجِ الذي صُلِبَ لأجلِ إطلاقِهِ كلماتٍ مِنْ هـٰذا الجنسِ ، ويستشهدونَ بقولِهِ : (أنا الحقُّ) ، وبما يُحْكَىٰ عنْ أبي يزيدَ البسطاميِّ أنَّهُ قالَ : (سبحاني سبحاني) .

وهـٰذا فَنٌّ منَ الكلامِ عظيمٌ ضررُهُ في العوامِّ ؛ حتَّىٰ تركَ جماعةٌ منْ أهلِ الفلاحةِ فلاحتَهم ، وأظهروا مثلَ هـٰذهِ الدعاوىٰ ؛ فإنَّ هـٰذا الكلامَ يستلذُّهُ الطبعُ ؛ إذْ فيهِ البطالةُ مِنَ الأعمالِ معَ تزكيةِ النفسِ بدرْكِ المقاماتِ والأحوالِ ، فلا تعجَزُ الأغبياءُ عنْ دعوىٰ ذٰلكَ لأنفسِهِمْ ، ولا عنْ تلقُّفِ كلماتٍ مخبطةٍ مزخرفةٍ ، ومهما أُنكرَ عليهِمْ ذٰلكَ . . لمْ يعجَزوا عنْ أنْ يقولوا : إنَّ هـٰذا إنكارٌ مصدرُهُ العلْمُ والجدلُ ، والعلْمُ حجابٌ ، والجدلُ عملُ النفسِ ، وهـٰذا الحديثُ لا يلوحُ إلا مِنَ الباطنِ بمكاشفةِ نورِ الحقِّ !![4]

فهـٰذا وفنُّهُ ممَّا قدِ استطارَ في البلادِ شررُهُ ، وعَظُمَ في العوامِّ ضررُهُ ، ومَنْ نطقَ بشيءٍ منهُ . . فقتلُهُ أفضلُ في دينِ اللهِ منْ إحياءِ عشرةٍ .

وأمَّا أبو يزيدَ البسطاميُّ رحمهُ اللهُ . . فلا يصحُّ عنهُ ما حُكِيَ ، وإنْ سُمعَ ذٰلكَ منهُ . . فلعلَّهُ كانَ يحكيهِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلامٍ يُرَدِّدُهُ في نفسِهِ ، كما لوْ سُمعَ وهوَ يقولُ : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾ ؛ فإنَّهُ ما كانَ ينبغي أنْ يفهمَ منهُ ذٰلكَ إلا علىٰ سبيلِ الحكايةِ[5]

الصنفُ الثاني مِنَ الشطحِ : كلماتٌ غيرُ مفهومةٍ ، لها ظواهرُ رائقةٌ ، وفيها عباراتٌ هائلةٌ ، وليسَ وراءَها طائلٌ .

وذٰلكَ إمَّا أنْ تكونَ غيرَ مفهومةٍ عندَ قائلِها ، بلْ يصدرُها عنْ خبْطٍ في عقلِهِ ، وتشويشٍ في خيالِهِ ؛ لقلَّةِ إحاطتِهِ بمعنىٰ كلامٍ قَرَعَ سمعَهُ ، وهـٰذا هوَ الأكثرُ .

---

(١) قوت القلوب (١/١٥٥) .

(٢) قوت القلوب (١/١٥٥) ، وابن سالم هـٰذا هو أحد مشايخ أبي طالب المكي .

(٣) وهو عند أهل الحقيقة كلام يعبر عنه اللسان مقرون بالدعوىٰ ، ولا يرتضيه أهل الطريقة من قائله وإن كان محقاً . « إتحاف » (١/٢٥٠) .

(٤) قال القطب القسطلاني في كتابه « اقتداء الفاضل باقتداء العاقل » : (أما قولهم : العلم حجاب الله ، وإن طلبه من أعظم الحجاب . . فهي كلمة حق أريد بها باطل ، وصفة نقص تحلّى بها من هو عن الكمال عاطل ، وإنما ذكر أهل الطريق ذٰلك في قوم من صفتهم أنهم حصّلوا ما تميَّزوا به عند أهل هـٰذا الشأن من علمي الشريعة والحقيقة ، ففوتحوا من الغيب بما يشهد لهم بنجاتهم ، فهم بالله مع الله معرضون عن ملاحظة صفاتهم ، فمن كان كذٰلك . . فإنه مشغول بما هو فيه عن النظر في العلم ، وأما من عريَ عن علم الظاهر والباطن . . فحقُّه أن يعلم ما يحتاج إليه في الطريق التي يسلكها ، فإن أبىٰ واستكبر . . فإنه بعيد عن الوصول إلىٰ منهج السعادة) . « إتحاف » (١/٢٥١) .

(٥) انظر « مشكاة الأنوار » (ص ٤١) ، و« المقصد الأسنىٰ » (ص ١٢٨) ، وقد التمس المؤلف أعذاراً غير ما ذكره هنا .

وإمَّا أنْ تكونَ مفهومةً لهُ ، ولـٰكنَّهُ لا يقدِرُ علىٰ تفهيمِها وإيرادِها بعبارةٍ تدلُّ علىٰ ضميرِهِ ؛ لقلَّةِ ممارستِهِ العلمَ ، وعدمِ تعلُّمِهِ طريقَ التعبيرِ عنِ المعاني بالألفاظِ الرشيقةِ .

ولا فائدةَ لهـٰذا الجنسِ مِنَ الكلامِ إلا أنَّهُ يشوِّشُ القلوبَ ويدهشُ العقولَ ، ويحيِّرُ الأذهانَ ، أوْ يحملُ علىٰ أنْ يُفْهَمَ منها معانٍ ما أُريدَتْ بها ، ويكونُ فَهْمُ كلِّ واحدٍ علىٰ مقتضىٰ هواهُ وطبعِهِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حَدَّثَ أحدُكُمْ قوماً بحديثٍ لا يفهمونَهُ إلا كانَ فتنةً عليهِمْ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَلِّمُوا الناسَ بما يعرفونَ ، ودَعُوا ما ينكرونَ ، أتُرِيدونَ أنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُهُ ؟! »[2] .

وهـٰذا فيما يفهمُهُ صاحبُهُ ولا يبلغُهُ عقلُ المستمعِ ، فكيفَ فيما لا يفهمُهُ قائلُهُ ؟! فإنْ كانَ يفهمُهُ القائلُ دونَ المستمِعِ . . فلا يحلُّ ذكرُهُ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تضعوا الحكمةَ عندَ غيرِ أهلِها فتظلمُوها ، ولا تمنعوها أهلَها فتظلموهُمْ ، كونوا كالطبيبِ الرفيقِ ، يضعُ الدواءَ في موضعِ الداءِ)[3]

وفي لفظٍ آخرَ : (مَنْ وضعَ الحكمةَ في غيرِ أهلِها . . جَهِلَ ، ومَنْ منعَها أهلَها . . ظَلَمَ ، إنَّ للحكمةِ حقّاً ، وإنَّ لها أهلاً ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ)[4]

وأمَّا الطاماتُ : فيدخلُها ما ذكرناهُ في الشطْحِ ، وأمرٌ آخرُ يخصُّها ، وهوَ صرْفُ ألفاظِ الشرْعِ عنْ ظواهرِها المفهومةِ إلىٰ أمورٍ باطنةٍ لا يسبِقُ منها إلى الأفهامِ فائدةٌ ؛ كدأْبِ الباطنيَّةِ في التأويلاتِ .

وهـٰذا أيضاً حرامٌ ، وضررُهُ عظيمٌ ؛ فإنَّ الألفاظَ إذا صُرِفَتْ عنْ مقتضىٰ ظواهرِها بغيرِ اعتصامٍ فيهِ يُنْقَلُ عن صاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ ، ومِنْ غيرِ ضرورةٍ تدعو إليهِ مِنْ دليلِ العقلِ . . اقتضىٰ ذٰلكَ بطلانَ الثقةِ بالألفاظِ ، وتسقطُ بهِ منفعةُ كلامِ اللهِ سبحانَهُ وكلامِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ ما يسبقُ منهُ إلى الفهمِ لا يوثَقُ بهِ ، والباطنُ لا ضبطَ لهُ ، بلْ تتعارضُ فيهِ الخواطرُ ، ويمكنُ تنزيلُهُ علىٰ وجوهٍ شتىٰ .

وهـٰذا أيضاً منَ البدعِ الشائعةِ العظيمِ ضررُها ، وإنَّما قصدَ أصحابُها الإغرابَ ؛ فإنَّ النفوسَ مائلةٌ إلى الغريبِ ومستلِذَّةٌ لهُ .

وبهـٰذا الطريقِ توصَّلَ الباطنيةُ إلىٰ هدْمِ جميعِ الشريعةِ بتأويلِ ظواهرِها ، وتنزيلِها علىٰ رأيِهِم ؛ كما حكيناهُ مِنْ مذهبِهِم في كتابِ « المُسْتَظْهِرِيِّ » المصنَّفِ في الردِّ على الباطنيَّةِ[5]

ومثالُ تأويلِ أهلِ الطامَّاتِ قولُ بعضِهِمْ في تأويلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ : إنَّهُ أشارَ إلىٰ قلبِهِ وقالَ : هوَ المرادُ بفرعونَ ، وهوَ الطاغي علىٰ كلِّ إنسانٍ .

---

(١) رواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١١/١) بنحوه موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » (٩٣٧/٣) مرفوعاً بنحوه أيضاً .

(٢) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الطبراني مرفوعاً في « الأوسط » (٨١٩٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٣١) بنحوه .

(٣) تاريخ دمشق (٦٣/٦٨) ضمن حديث طويل

(٤) قوت القلوب (١٥٦/١) ، وبنحوه في « جامع بيان العلم وفضله » (٧٠٣ ، ٧٠٤) .

(٥) وسماه « المستظهري » نسبةً للخليفة الذي أهداه إياه ، وهو المستظهر بالله العباسي .

وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أيْ : كلَّ ما تَتَوكَّأُ عليهِ وتعتمدُهُ ممَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فينبغي أنْ تلقيَهُ .

وفي قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تَسَحَّرُوا ؛ فإنَّ في السحُورِ بَرَكَةً »[1] أرادَ بِهِ الاستغفارَ في الأسحارِ .

وأمثالُ ذٰلكَ ، حتَّىٰ يحرِّفونَ القرآنَ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ عنْ ظاهرِهِ ، وعنْ تفسيرِهِ المنقولِ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ وسائرِ العلماءِ .

وبعضُ هٰذهِ التأويلاتِ يعلمُ بطلانُها قطعاً ؛ كتنزيلِ فرعونَ على القلبِ ، فإنَّ فرعونَ شخصٌ محسوسٌ تواترَ إلينا وجودُهُ ودعوةُ موسىٰ لهُ ؛ كأبي جهْلٍ وأبي لهبٍ وغيرِهِما مِنَ الكفارِ ، وليسَ مِنْ جنسِ الشياطينِ والملائكةِ ممَّا لمْ يدركْ بالحسِّ حتَّىٰ يتطرَّقَ التأويلُ إلىٰ ألفاظِهِ .

وكذا حمْلُ السحورِ على الاستغفارِ ؛ فإنَّهُ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتناوَلُ الطعامَ ، ويقولُ : « تَسَحَّرُوا[2] ، وهَلُمُّوا إلى الغِذاءِ المباركِ »[3]

فهٰذهِ أمورٌ يُدرَكُ بالتواترِ والحسِّ بطلانُها ، وبعضُها يعلمُ بغالبِ الظنِّ ، وذٰلكَ في أمورٍ لا يتعلَّقُ بها الإحساسُ ، فكلُّ ذٰلكَ حرامٌ وضلالةٌ ، وإفسادٌ للدينِ على الخلْقِ ، ولمْ يُنقلْ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ عنِ الصحابةِ ولا عنِ التابعينَ ، ولا عنِ الحسنِ البصريِّ معَ إكبابِهِ علىٰ دعوةِ الخلْقِ ووعظِهِمْ .

ولا يظهرُ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فَسَّرَ القرآنَ برأيِهِ . . فليتبوَّأْ مَقعدَهُ مِنَ النارِ »[4] معنىً إلا هٰذا النمطُ ، وهوَ أنْ يكونَ غرضُهُ ورأيُهُ تقريرَ أمرٍ وتحقيقَهُ ، فيستجرُّ شهادةَ القرآنِ إليهِ ، ويحملُهُ عليهِ مِنْ غيرِ أنْ يشهدَ لتنزيلِهِ عليهِ دلالةٌ لفظيةٌ ؛ لغويةٌ أوْ نقليةٌ .

ولا ينبغي أنْ يفهمَ منهُ أنَّهُ يجبُ ألَّا يفسرَ القرآنُ بالاستنباطِ والفكرِ ؛ فإنَّ مِنَ الآياتِ ما نُقِلَ فيها عنِ الصحابةِ والمفسرينَ خمسةُ معانٍ وستةٌ وسبعةٌ ، ويُعلَمُ أنَّ جميعَها غيرُ مسموعٍ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّها قدْ تكونُ متنافيةً لا تقبلُ الجمعَ ، فيكونُ ذٰلكَ مستنبَطاً بحسْنِ الفهمِ وطولِ الفكرِ ؛ ولهٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « اللَّهُمَّ ؛ فَقِّهْهُ في الدينِ ، وعَلِّمْهُ التأويلَ »[5]

ومَنْ يستجيزُ منْ أهلِ الطامَّاتِ مثلَ هٰذهِ التأويلاتِ معَ علمِهِ بأنَّها غيرُ مرادةٍ بالألفاظِ[6] ، ويزعمُ أنَّهُ يقصدُ بهِ دعوةَ الخلْقِ إلى الحقِّ . . يضاهي مَنْ يستجيزُ الاختراعَ والوضْعَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لما هوَ في نفسِهِ حقٌّ ولٰكنَّهُ لمْ ينطقْ بهِ الشرعُ ؛ كَمَنْ يضَعُ في كلِّ مسألةٍ يراها حقّاً حديثاً عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وذٰلكَ ظلمٌ وضلالٌ ، ودخولٌ في الوعيدِ المفهومِ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كذبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً . . فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »[7] ، بلِ الشرُّ في تأويلِ هٰذهِ الألفاظِ أطمُّ وأعظمُ ؛ لأنَّها مبطِلَةٌ للثِّقةِ بالألفاظِ ، وقاطعةٌ طريقَ الاستفادةِ والفهْمِ مِنَ القرآنِ بالكليَّةِ .

---

(١) رواه البخاري (١٩٢٣) ، ومسلم (١٠٩٥) .

(٢) إذ إنه صلى الله عليه وسلم تسحَّرَ مع زيد بن ثابت رضي الله عنه كما في « البخاري » (٥٧٦) .

(٣) رواه أبو داوود (٢١٦٣) ، والنسائي (١٤٥/٤) ، وهو عند أحمد في « المسند » (١٢٦/٤) بلفظ : (الغذاء) بدل (الغداء) عندهما .

(٤) رواه الترمذي (٢٩٥١) .

(٥) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (٢٦٦/١) .

(٦) وإنما حمله عليه ميله إلىٰ هواه . « إتحاف » (٢٥٨/١)

(٧) رواه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) .

فقدْ عرفتَ كيفَ صرفَ الشيطانُ دواعيَ الخلقِ عنِ العلومِ المحمودةِ إلى المذمومةِ ، وكلُّ ذٰلكَ بتلبيسِ علماءِ السوءِ بتبديلِ الأسامي ، فإنِ اتبعتَ هٰؤلاءِ اعتماداً على الاسمِ المشهورِ مِنْ غيرِ التفاتٍ إلىٰ ما عُرِفَ في العصرِ الأوَّلِ . . كنتَ كمَنْ طلبَ الشرفَ بالحكمةِ باتباعِ مَنْ يسمَّىٰ حكيماً ، فإنَّ اسمَ الحكيمِ صارَ يُطلَقُ على الطبيبِ والشاعرِ والمنجِّمِ في هٰذا العصرِ ، وذٰلكَ بالغفلةِ عنْ تبديلِ الألفاظِ .

❁ ❁ ❁

اللفظُ الخامسُ : الحكمةُ :

فإنَّ اسمَ الحكيمِ صارَ يطلقُ على الطبيبِ والشاعرِ والمنجِّمِ ، حتَّىٰ على الذي يدحرِجُ القرعةَ علىٰ أكفِّ السواديَّةِ في شوارعِ الطرقِ [1]

والحكمةُ هيَ التي أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ عليها فقالَ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلمةٌ مِنَ الحكمةِ يتعلَّمُها الرجلُ خيرٌ لهُ مِنَ الدنيا وما فيها » [2]

فانظرْ ما الذي كانتِ الحكمةُ عبارةً عنهُ ، وإلىٰ ماذا نُقِلَ !! وقِسْ بهِ بقيَّةَ الألفاظِ ، واحترزْ عنِ الاغترارِ بتلبيساتِ علماءِ السوءِ ؛ فإنَّ شرَّهمْ أعظمُ على الدينِ مِنْ شرِّ الشياطينِ ؛ إذِ الشيطانُ بواسطتِهِمْ يتذرَّعُ إلى انتزاعِ الدينِ مِنْ قلوبِ الخلقِ ، ولهٰذا لمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ شرِّ الخلقِ . . أبَىٰ وقالَ : « اللَّهُمَّ ؛ غَفْراً » ، حتَّىٰ كُرِّرَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : « هُمْ عُلماءُ السُّوءِ » [3]

فقدْ عرفتَ العلمَ المحمودَ والمذمومَ ومثارَ الالتباسِ ، وإليكَ الخِيرةُ في أنْ تنظرَ لنفسِكَ ، فتقتديَ بالسلفِ ، أوْ تتدلَّى بحبْلِ الغرورِ وتتشبَّهَ بالخلفِ ، فكلُّ ما ارتضاهُ السلفُ مِنَ العلومِ قدِ اندرسَ ، وما أكبَّ الناسُ عليهِ فأكثرُهُ مبتدَعٌ محدَثٌ ، وقدْ صحَّ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بَدَأَ الإسلامُ غريباً ، وسيعُودُ غريباً كما بَدَأَ ، فطُوبَىٰ للْغُرَباءِ » فقيلَ : ومَنِ الغرباءُ ؟ قالَ : « الذينَ يُصْلِحُونَ ما أفسدَهُ الناسُ مِنْ سُنَّتِي ، والذينَ يُحيُونَ ما أماتُوهُ مِنْ سُنَّتِي » [4]

وفي خبرٍ آخرَ : « همُ المُتَمَسِّكُونَ بما أنتمْ عليهِ اليومَ » [5]

وفي حديثٍ آخرَ : « الغُرباءُ ناسٌ قليلٌ صالحونَ بينَ ناسٍ كثيرٍ ، مَنْ يُبْغِضُهُمْ أكثرُ ممَّنْ يحبُّهُمْ » [6]

وقدْ صارتْ تلكَ العلومُ غريبةً بحيثُ يُمقَتُ ذاكرُها ، ولذٰلكَ قالَ الثوريُّ رحمهُ اللهُ : (إذا رأيتَ العالمَ كثيرَ الأصدقاءِ . . فاعلمْ أنَّهُ مخلِّطٌ) [7] ؛ لأنَّهُ إنْ نطقَ بالحقِّ . . أبغضوهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) السوادية : الأكَّارون ـ المزارعون ـ نسبوا إلىٰ سواد الأرض وريفها لملازمتهم له . « إتحاف » (١/٢٦٣) .

(٢) انظر « الإتحاف » (١/٢٦٤) .

(٣) روىٰ نحوه الدارمي في « سننه » (٣٨٢) .

(٤) رواه مسلم (١٤٦) ، وبتمامه الترمذي (٢٦٣٠) .

(٥) كذا أورده صاحب « القوت » (١/١٤٣) ، وقد روىٰ نحوه ابن وضاح في « البدع » (٧٢) .

(٦) رواه أحمد (٢/١٧٧) بنحوه .

(٧) قوت القلوب (١/١٤٣) .

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلمْ : أنَّ العلمَ بهٰذا الاعتبارِ ثلاثةُ أقسامٍ :

قسمٌ هوَ مذمومٌ قليلُهُ وكثيرُهُ .

وقسمٌ هوَ محمودٌ قليلُهُ وكثيرُهُ ، وكلَّما كانَ أكثرَ . . كانَ أحسنَ وأفضلَ .

وقسمٌ يحمدُ منهُ مقدارُ الكفايةِ ، ولا يحمدُ الفاضلُ عليهِ والاستقصاءُ فيهِ .

وهوَ مثلُ أحوالِ البدنِ ؛ فإنَّ منها ما يحمدُ قليلُهُ وكثيرُهُ ؛ كالصحَّةِ والجمالِ ، ومنها ما يذمُّ قليلُهُ وكثيرُهُ ؛ كالقبحِ وسوءِ الخُلُقِ ، ومنها ما يحمدُ الاقتصادُ فيهِ ؛ كبذْلِ المالِ ؛ فإنَّ التبذيرَ لا يحمدُ فيهِ وهوَ بذلٌ ، وكالشجاعةِ ؛ فإنَّ التهوُّرَ لا يحمدُ فيها وإنْ كانَ مِنْ جنسِ الشجاعةِ ، فكذٰلكَ العلمُ .

* * *

فالقسمُ المذمومُ قليلُهُ وكثيرُهُ : ما لا فائدةَ فيهِ في دينٍ ولا دنيا ، أوْ فيهِ ضررٌ يغلبُ نفعَهُ ؛ كعلمِ السحْرِ والطِّلَّسْماتِ والنجومِ ، فبعضُهُ لا فائدةَ فيهِ أصلاً ، وصرفُ العمرِ الذي هوَ أنفسُ ما يملكُهُ الإنسانُ إليهِ إضاعةٌ ، وإضاعةُ النفائسِ مذمومةٌ .

ومنهُ ما فيهِ ضررٌ يَرْبَىٰ علىٰ ما يظنُّ أنَّهُ يحصلُ بهِ مِنْ قضاءِ وطرٍ في الدنيا ؛ فإنَّ ذٰلكَ لا يعتدُّ بهِ بالإضافةِ إلى الضررِ الحاصلِ منهُ .

* * *

وأمَّا القسمُ المحمودُ إلىٰ أقصىٰ غاياتِ الاستقصاءِ : فهوَ العلمُ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وسنَّتِهِ في خلقِهِ ، وحكمتِهِ في ترتيبِ الآخرةِ على الدنيا ؛ فإنَّ هٰذا علْمٌ مطلوبٌ لذاتِهِ ، وللتوصُّلِ بهِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ، وبذلُ المقدورِ فيهِ إلىٰ أقصى الجهدِ قصورٌ عنْ حدِّ الواجبِ ؛ فإنَّهُ البحرُ الذي لا يدركُ غورُهُ ، وإنَّما يحومُ الحائمونَ علىٰ سواحلِهِ وأطرافِهِ بقدْرِ ما يُسِّرَ لهمْ ، وما خاضَ أطرافَهُ إلا الأنبياءُ والأولياءُ والراسخونَ في العلمِ على اختلافِ درجاتِهِمْ ، بحسَبِ اختلافِ قوَّتِهِمْ وتفاوتِ تقديرِ اللهِ تعالىٰ في حقِّهِمْ .

وهٰذا هوَ العلمُ المكنونُ الذي لا يسطَّرُ في الكتبِ ، ويعينُ على التنبُّهِ لهُ التعلُّمُ ومشاهدةُ أحوالِ علماءِ الآخرةِ كما سيأتي علامتُهُمْ ، هٰذا في أوَّلِ الأمرِ .

ويعينُ عليهِ في الآخرِ المجاهدةُ والرياضةُ ، وتصفيةُ القلْبِ وتفريغُهُ عنْ علائقِ الدنيا ، والتشبُّهُ فيها بأنبياءِ اللهِ وأوليائِهِ ؛ ليتضحَ منهُ لكلِّ ساعٍ إلىٰ طلبِهِ بقدْرِ الرزْقِ لا بقدْرِ الجُهْدِ ، ولٰكنْ لا غِنَىٰ فيهِ عن الاجتهادِ ، فالمجاهدةُ مفتاحُ الهدايةِ ، لا مفتاحَ لها سواها

وأمَّا العلومُ التي لا يحمدُ منها إلا مقدارٌ مخصوصٌ : فهيَ العلومُ التي أوردْناها في فروضِ الكفاياتِ ؛ فإنَّ في كلِّ علْمٍ منها اقتصاراً هوَ الأقلُّ ، واقتصاداً هوَ الوسطُ ، واستقصاءً وراءَ الاقتصادِ لا مردَّ لهُ إلىٰ آخرِ العمرِ .

فكنْ أحدَ رجلينِ : إمَّا مشغولاً بنفسِكَ ، وإمَّا متفرِّغاً إلىٰ غيرِكَ بعدَ الفراغِ مِنْ نفسِكَ ، وإيّاكَ أنْ تشتغلَ بما يصلِحُ غيرَك قبلَ إصلاحِ نفسِكَ ، فإنْ كنتَ المشغولَ بنفسِكَ . . فلا تشتغلْ إلا بالعلمِ الذي هوَ فرضُ عينِكَ بحسَبِ ما يقتضيهِ حالُكَ ، وما يتعلَّقُ منهُ بالأعمالِ الظاهرةِ ؛ مِنْ تعلُّمِ الصلاةِ ، والطهارةِ ، والصومِ .

وإنَّما الأهمُّ الذي أهملَهُ الكلُّ علمُ صفاتِ القلبِ ، وما يحمدُ منها وما يذمُّ ؛ إذْ لا ينفكُّ بَشَرٌ عنِ الصفاتِ المذمومةِ ؛ مِنَ الحرْصِ ، والحسدِ ، والرياءِ ، والكِبْرِ ، والعُجْبِ ، وأخواتِها ، وجميعُ ذٰلكَ مهلكاتٌ ، وإهمالُها معَ الاشتغالِ بالأعمالِ الظاهرةِ يضاهي الاشتغالَ بطلاءِ ظاهرِ البدنِ عندَ التأذِّي بالجرَبِ والدماميلِ ، والتهاونَ بإخراجِ المادَّةِ بالفصْدِ والإسهالِ .

وحَشْويةُ العلماءِ[1] يشيرونَ بالأعمالِ الظاهرةِ كما يشيرُ الطُّرُقيَّةُ مِنَ الأطباءِ[2] بطلاءِ ظاهرِ البدنِ ، وعلماءُ الآخرةِ لا يشيرونَ إلا بتطهيرِ الباطنِ وقطْعِ موادِّ الشرِّ ؛ بإفسادِ منابتِها ، وقلْعِ مغارسِها ، وهيَ في القلبِ ، وإنَّما فَزِعَ الأكثرونَ إلى الأعمالِ الظاهرةِ عنْ تطهيرِ القلوبِ لسهولةِ أعمالِ الجوارحِ ، واستصعابِ أعمالِ القلوبِ ؛ كما يفزعُ إلىٰ طلاءِ الظاهرِ مَنْ يستصعبُ شُرْبَ الأدويةِ المرَّةِ المَقِرَةِ[3] ، فلا يزالُ يتعبُ في الطلاءِ ويزيدُ في الموادِّ ، وتتضاعفُ بهِ الأمراضُ .

فإنْ كنتَ مريداً للآخرةِ ، وطالباً للنجاةِ ، وهارباً مِنْ هلاكِ الأبدِ . . فاشتغلْ بعلْمِ العلَلِ الباطنةِ وعلاجِها ، علىٰ ما فصَّلْناهُ في ربْعِ المهلكاتِ .

ثمَّ ينجرُّ بكَ ذٰلكَ إلى المقاماتِ المحمودةِ المذكورةِ في ربعِ المنجياتِ لا محالةَ ؛ فإنَّ القلبَ إذا فُرِّغَ مِنَ المذمومِ . . امتلأَ بالمحمودِ ، والأرضَ إذا نُقِّيَتْ منَ الحشيشِ . . نبتَتْ فيها أصنافُ الزروعِ والرياحينِ ، وإنْ لمْ يفرَّغْ مِنْ ذٰلكَ . . فلا تشتغلْ بفروضِ الكفاياتِ[4] ، لا سيَّما وفي زمرةِ الخلْقِ مَنْ قدْ قامَ بهِ ، فإنَّ مُهلِكَ نفسِهِ في طلبِ صلاحِ غيرِهِ سفيهٌ ، فما أشدَّ حماقةَ مَنْ دخلتِ الأفاعي والعقاربُ داخلَ ثيابِهِ وهمَّتْ بقتلِهِ وهوَ يطلبُ مِذبَّةً[5] يدفعُ بها الذبابَ عَنْ غيرِهِ ممَّنْ لا يغنيهِ ، ولا ينجيهِ ممَّا يلاقيهِ مِنْ تلكَ الحيَّاتِ والعقاربِ إذا هممنَ بهِ !!

وإنْ تفرَّغْتَ مِنْ نفسِكَ وتطهيرِها ، وقَدَرْتَ علىٰ ترْكِ ظاهرِ الإثْمِ وباطنِهِ ، وصارَ ذٰلكَ ديدناً لكَ وعادةً متيسرةً فيكَ ـ وما أبعدَ ذٰلكَ منكَ ـ فاشتغلْ بفروضِ الكفاياتِ ، وراعِ التدريجَ فيها :

فابتدِئْ بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ بعلْمِ التفسيرِ وسائرِ علومِ القرآنِ ؛ مِنْ علْمِ الناسخِ والمنسوخِ ، والمفصولِ والموصولِ ، والمحكَمِ والمتشابهِ .

وكذٰلكَ في السنةِ .

ثمَّ اشتغلْ بالفروعِ ، وهوَ علْمُ المذهبِ منْ علْمِ الفقهِ دونَ الخلافِ ، ثمَّ بأصولِ الفقهِ ، وهٰكذا إلىٰ بقيَّةِ العلومِ علىٰ ما يتسعُ لهُ العمُرُ ، ويساعدُ فيهِ الوقتُ .

---

(١) وهم الذين يقتنعون بالقشر عن اللباب ، وينظرون إلىٰ ظاهر الأمور دون الاطلاع على الأسرار الباطنة . « إتحاف » (١/٢٦٩) .

(٢) وهم الذين يجلسون على الطرق ويداوون الناس علىٰ جهلٍ منهم . « إتحاف » (١/٢٦٩) .

(٣) المقرة : المرَّة ، والمَقِر : هو الصَّبِرُ نفسه ، أو هو السم .

(٤) أي : إن لم يخلُ القلب من ذٰلك . . فلا تشتغل بفروض الكفايات اشتغالاً كلّياً . « إتحاف » (١/٢٦٩) .

(٥) المذبَّة : ما يتَّخذ من شعر ذنب الفرس أو نحوه لدفع الذباب .

ولا تستغرقْ عمرَكَ في فنٍّ واحدٍ منها طالباً للاستقصاءِ ؛ فإنَّ العلمَ كثيرٌ والعمرَ قصيرٌ ، وهـٰذهِ العلومُ آلاتٌ ومقدماتٌ ، وليستْ مطلوبةً لعينِها بلْ لغيرِها ، وكلُّ ما يطلبُ لغيرِهِ . . فلا ينبغي أنْ يُنسىٰ فيهِ المطلوبُ ويُستكثرَ منهُ .

فاقتصرْ مِنْ شائعِ **علْمِ اللغةِ** علىٰ ما تفهمُ بهِ كلامَ العربِ وتنطقُ بهِ ، ومنْ **غريبِهِ** علىٰ غريبِ القرآنِ وغريبِ الحديثِ ، ودعِ التعمُّقَ فيهِ .

واقتصرْ مِنَ **النحوِ** علىٰ ما يتعلَّقُ بالكتابِ والسنَّةِ ، فما مِنْ علْمٍ إلا ولهُ اقتصارٌ واقتصادٌ واستقصاءٌ ، ونحنُ نشيرُ إليها في الحديثِ والتفسيرِ والفقْهِ والكلامِ لتقيسَ بها غيرَها :

فالاقتصارُ في **التفسيرِ** : ما يبلُغُ ضعفَ القرآنِ في المقدارِ ، كما صنَّفَهُ عليٌّ الواحديُّ النيسابوريُّ وهوَ « **الوجيزُ** » ، والاقتصادُ ما يبلغُ ثلاثةَ أضعافِ القرآنِ كما صنَّفَهُ مِنَ « الوسيطِ » فيهِ ، وما وراءَ ذٰلكَ استقصاءٌ مستغنىً عنهُ ، ولا مردَّ لهُ إلى انتهاءِ العمرِ .

وأمَّا **الحديثُ** : فالاقتصارُ فيهِ تحصيلُ ما في « الصحيحينِ » بتصحيحِ نسخةٍ علىٰ رجلٍ خبيرٍ بعلْمِ متْنِ الحديثِ .

وأمَّا حفظُ أسامي الرجالِ . . فقدْ كفيتَ فيهِ بما تحمَّلَهُ عنكَ مَنْ قبلَكَ ، ولكَ أنْ تعوّلَ علىٰ كتبِهِمْ ، وليسَ يلزمُكَ حفظُ متونِ « الصحيحين » ، ولـٰكنْ تحصِّلُهُ تحصيلاً تقدرُ منهُ علىٰ طلبِ ما تحتاجُ إليهِ عندَ الحاجةِ .

وأمَّا الاقتصادُ فيهِ . . فأنْ تضيفَ إليهما ما خرجَ عنهما ممَّا أُوردَ في المسنداتِ الصحيحةِ .

وأمَّا الاستقصاءُ . . فما وراءَ ذٰلكَ إلى استيعابِ كلِّ ما نُقِلَ مِنَ الضعيفِ والقويِّ ، والصحيحِ والسقيمِ ، معَ معرفةِ الطرقِ الكثيرةِ في النقلِ ، ومعرفةِ أحوالِ الرجالِ وأساميهِمْ وأوصافِهِمْ .

وأمَّا **الفقهُ** : فالاقتصارُ فيه علىٰ ما يحويهِ مختصرُ المزنيِّ رحمَهُ اللهُ ، وهوَ الذي رتبناهُ في « خلاصةُ المختصرِ »[1] ، والاقتصادُ فيهِ ما يبلغُ ثلاثةَ أمثالِهِ ، وهوَ القدْرُ الذي أوردناهُ في « الوسيطُ مِنَ المذهبِ » ، والاستقصاءُ ما أوردناهُ في « البسيطُ » ، إلىٰ ما وراءَ ذٰلكَ مِنَ المطولاتِ .

وأما **الكلامُ** : فمقصودُهُ حمايةُ المعتقداتِ التي نقلَها أهلُ السنَّةِ مِنَ السلفِ الصالحِ لا غيرَ ، وما وراءَ ذٰلكَ طلبٌ لكشْفِ حقائقِ الأمورِ مِنْ غيرِ طريقِهِ .

ومقصودُ حفْظِ السنَّةِ تحصُلُ رتبةُ الاقتصارِ منهُ بمعتقدٍ مختصرٍ ، وهوَ القدْرُ الذي أوردْناهُ في كتابِ قواعد العقائد من جملةِ هـٰذهِ الكتبِ[2] ، والاقتصادُ فيهِ ما يبلغُ قدْرَ مئةِ ورقةٍ ، وهوَ الذي أوردناهُ في كتابِ « **الاقتصادُ في الاعتقادِ** » ، ويُحتاجُ إليهِ لمناظرةِ مبتدعٍ ومعارضةِ بدعتِهِ بما يفسدُها وينزعُها عنْ قلْبِ العاميِّ ، وذٰلكَ لا ينفعُ إلا معَ العوامِّ قبلَ اشتدادِ تعصُّبِهِمْ .

أما المبتدعُ بعدَ أنْ يعلمَ مِنَ الجدلِ ولوْ شيئاً يسيراً . . فقلَّما ينفعُ معهُ الكلامُ ؛ فإنَّكَ إنْ أفحمتَهُ . . لمْ يتركْ مذهبَهُ ، وأحالَ بالقصورِ علىٰ نفسِهِ ، وقدَّرَ أنَّ فيهِ عندَهُ جواباً هوَ عاجزٌ عنهُ ، وإنَّما أنتَ ملبِّسٌ بقوَّةِ المجادلةِ عليهِ .

---

(١) ويسمَّىٰ « خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر » وقد صدر عن دار المنهاج بحمد الله تعالىٰ .

(٢) أي : من الكتب الأربعين من « الإحياء » ، وكتاب (قواعد العقائد) هو الكتاب الثاني منها

وأمَّا العاميُّ إذا صُرِفَ عنِ الحقِّ بنوعِ جدلٍ . . فيمكنُ أنْ يُرَدَّ إليهِ بمثلِهِ قبلَ أنْ يشتدَّ التعصُّبُ للأهواءِ ، فإذا اشتدَّ تعصُّبُهمْ . . وقعَ اليأسُ عنهُمْ ؛ إذِ التعصُّبُ سببٌ يرسِّخُ العقائدَ في النفوسِ ، وهٰذا أيضاً من آفاتِ العلماءِ السوءِ ؛ فإنَّهُمْ يبالغونَ في التعصُّبِ للحقِّ ، وينظرونَ إلى المخالفينَ بعينِ الازدراءِ والاستحقارِ ، فينبعثُ منهُمُ الدواعي بالمكافأةِ والمقابلةِ ، وتتوفَّرُ بواعثُهُمْ علىٰ طلبِ نصرةِ الباطلِ ، ويقوىٰ غرضُهُمْ في التمسُّكِ بما نُسبوا إليهِ ، ولوْ جاؤوا مِنْ جانبِ اللطْفِ والرحمةِ والنصْحِ في الخلوةِ لا في معرضِ التعصُّبِ والتحقيرِ . . لأنجحوا فيهِ .

ولٰكنْ لمَّا كانَ الجاهُ لا يقومُ إلا بالاستتباعِ ، ولا يستميلُ الأتباعَ مثلُ التعصُّبِ واللعْنِ والشتمِ للخصومِ . . اتخذوا التعصُّبَ عادتَهُمْ وآلتَهُمْ ، وسمَّوهُ ذبّاً عنِ الدينِ ونضالاً عنِ المسلمينَ ، وفيهِ على التحقيقِ هلاكُ الخلْقِ ورسوخُ البدعةِ في النفوسِ .

وأما الخلافياتُ[1] التي أُحدثتْ في هٰذهِ الأعصارِ المتأخرةِ ، وأُبدعَ فيها مِنَ التحريراتِ والتصنيفاتِ والمجادلاتِ ما لمْ يعهدْ مثلُها في السلفِ . . فإيَّاكَ وأنْ تحومَ حولَها ، واجتنبْها اجتنابَ السمِّ القاتلِ ؛ فإنَّها الداءُ العضالُ ، وهوَ الذي ردَّ الفقهاءَ كلَّهُمْ إلىٰ طلبِ المنافسةِ والمباهاةِ ، علىٰ ما سيأتيكَ تفصيلُ غوائلِها وآفاتِها .

وهٰذا الكلامُ ربَّما يسمعُ مِنْ قائلِهِ فيقالُ : (الناسُ أعداءُ ما جهلوا) ، فلا تظنَّنَّ ذٰلكَ ، فعلى الخبيرِ سقطتَ ، فاقبلْ هٰذهِ النصيحةَ ممَّنْ ضيَّعَ العمرَ فيهِ زماناً ، وزادَ فيهِ على الأوَّلينَ تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً ، ثمَّ ألهمَهُ اللهُ رشدَهُ وأطلعَهُ علىٰ عيبِهِ ، فهجرَهُ واشتغلَ بنفسِهِ .

ولا يغرنَّكَ قولُ مَنْ يقولُ : (الفتوىٰ عمادُ الشرْعِ ، ولا تُعرفُ عللُهُ إلا بعلمِ الخلافِ) ؛ فإنَّ عللَ المذهبِ مذكورةٌ في المذهبِ ، والزيادةُ عليها مجادلاتٌ لمْ يعرفْها الأوَّلونَ ولا الصحابةُ ، وكانوا أعلمَ بعللِ الفتاوىٰ مِنْ غيرِهمْ ، بلْ هيَ معَ أنَّها غيرُ مفيدةٍ في علمِ المذهبِ . . ضارَّةٌ مفسدةٌ لذوقِ الفقهِ ؛ فإنَّ الذي يشهدُ لهُ حدسُ المفتي إذا صحَّ ذوقُهُ في الفقهِ . . لا يمكنُ تمشيتُهُ علىٰ شروطِ الجدلِ في أكثرِ الأمرِ ، فمَنْ ألفَ طبعُهُ رسومَ الجدلِ . . أذعنَ ذهنُهُ لمقتضياتِ الجدلِ ، وجبنَ عنِ الإذعانِ لذوقِ الفقهِ ، وإنَّما يشتغلُ بهِ مَنْ يشتغلُ لطلبِ الصيتِ والجاهِ ، ويتعلَّلُ بأنَّهُ يطلبُ عللَ المذهبِ ، وقدْ ينقضي عليهِ العمرُ ولا يصرفُ همَّتَهُ إلىٰ علمِ المذهبِ .

فكُنْ مِنْ شياطينِ الجنِّ في أمانٍ ، واحترزْ مِنْ شياطينِ الإنسِ ؛ فإنَّهمْ أراحوا شياطينَ الجنِّ مِنَ التعبِ في الإغواءِ والإضلالِ .

وبالجملةِ : فالمرضِيُّ عندَ العقلاءِ أنْ تقدِّرَ نفسَكَ في العالَمِ وحدَكَ معَ اللهِ ، وبينَ يديكَ الموتُ والعرْضُ والحسابُ والجنَّةُ والنارُ ، وتأمَّلْ فيما يعنيكَ ممَّا بينَ يديكَ ، ودعْ عنكَ ما سواهُ ، والسلامُ .

وقدْ رأىٰ بعضُ الشيوخِ بعضَ العلماءِ في المنامِ ، فقالَ لهُ : ما خبرُ تلكَ العلومِ التي كنتَ تجادلُ فيها وتناظرُ عليها ؟ فبسطَ يدَهُ ونفخَ فيها وقالَ : طاحتْ كلُّها هباءً منثوراً ، وما انتفعتُ إلا بركعتينِ خلصتا لي في جوفِ الليلِ !![2]

---

(١) وهي المسائل التي فيها خلاف المذاهب . « إتحاف » (١/٢٧٥) .

(٢) قوت القلوب (١/١٣٢) ، حلية الأولياء (١٠/٢٥٧) .

وفي الحديثِ : « ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدىً كانُوا عليهِ إلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ »[1] ، ثمَّ قرأَ : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ .

وفي الحديثِ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ . . . ﴾ الآية : هُمْ أهلُ الجدلِ الذينَ عناهُمُ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾[2]

وقالَ بعضُ السلفِ : (يكونُ في آخرِ الزمانِ قومٌ يغلقُ عنهُمْ بابُ العملِ ، ويفتحُ عليهِمْ بابُ الجدلِ)[3]

وفي بعضِ الأخبارِ : (إنَّكم في زمانٍ أُلهمتُمْ فيهِ العملَ ، وسيأتي قومٌ يُلْهَمُونَ الجدلَ)[4]

وفي الخبرِ المشهورِ : « أبغضُ الخلقِ إلى اللهِ تعالى الأَلَدُّ الْخَصِمُ »[5]

وفي الخبرِ : « ما أُوتِيَ قومٌ المنطقَ إلَّا مُنِعُوا العملَ »[6] ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (٤٨) .

(٢) روى البخاري (٤٥٤٧) ، ومسلم (٢٦٦٥) مرفوعاً : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه . . فأولئك الذين سَمَّى الله ، فاحذروهم » .

(٣) قوت القلوب (١٣٨/١) .

(٤) قوت القلوب (١٣٨/١) ، وقول الحافظ العراقي : (لم أجده) في « تخريجه » فعلى احتمال رفعه ، ولكن الأمر ليس كذلك ، وهو قريب من قول الأوزاعي كما في « اقتضاء العلم العمل » (١٢٢) : (إذا أراد الله بقوم شراً . . فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل) .

(٥) رواه البخاري (٢٤٥٧) ، ومسلم (٢٦٦٨) .

(٦) قال صاحب « القوت » (١٣٨/١) : (روى الحكم بن عيينة ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أوتي . . . ») وشواهده ما سبق .

البَابُ الرَّابِعُ
في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلمْ : أنَّ الخلافةَ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تولَّاها الخلفاءُ الراشدونَ المهديُّونَ ، وكانوا أئمَّةً علماءَ باللهِ تعالىٰ ، وفقهاءَ في أحكامِهِ ، ومستقلينَ بالفتاوىٰ في الأقضيةِ ، فكانوا لا يستعينونَ بالفقهاءِ إلا نادراً ، في وقائعَ لا يُستغنىٰ فيها عنِ المشاورةِ ، فتفرَّغَ العلماءُ لعلْمِ الآخرةِ وتجرَّدوا لها ، وكانوا يتدافعونَ الفتاوىٰ وما يتعلَّقُ بأحكامِ الخلْقِ مِنَ الدنيا ، وأقبلوا على اللهِ تعالىٰ بكُنْهِ اجتهادِهِمْ ، كما نُقِلَ منْ سيرِهِمْ[1]

فلمَّا أفضتِ الخلافةُ بعدَهُمْ إلىٰ أقوامٍ تولَّوها بغيرِ استحقاقٍ ، ولا استقلالَ لهُمْ بعلمِ الفتاوىٰ والأحكام . . اضطُرُّوا إلى الاستعانةِ بالفقهاءِ ، وإلى استصحابِهِمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ؛ لاستفتائِهِمْ في مجاري أحكامِهِمْ .

وكانَ قدْ بقيَ مِنْ علماءِ التابعينَ مَنْ هوَ مستمرٌّ على الطرازِ الأوَّلِ ، وملازمٌ صفوَ الدينِ ، ومواظبٌ علىٰ سمتِ علماءِ السلفِ ، فكانوا إذا طُلبوا . . هربوا وأعرضوا ، فاضطرَّ الخلفاءُ إلى الإلحاحِ في طلبِهِمْ لتوليةِ القضاءِ والحكوماتِ .

فرأىٰ أهلُ تلكَ الأعصارِ عِزَّ العلماءِ وإقبالَ الأئمَّةِ والولاةِ عليهِمْ معَ إعراضِهِمْ عنهُمْ ، فاشرأبُّوا لطلبِ العلمِ ، توصُّلاً إلىٰ نيلِ العزِّ ودرْكِ الجاهِ مِنْ قِبَلِ الولاةِ ، فأكبُّوا علىٰ علْمِ الفتاوىٰ ، وعَرَضوا أنفسَهُمْ على الولاةِ ، وتعرَّفوا إليهِمْ ، وطلبوا الولاياتِ والصلاتِ منهُمْ ، فمنهُمْ مَنْ حُرِمَ ومنهُمْ مَنْ أَنْجَحَ ، والمنجِحُ لمْ يخلُ عَنْ ذلِّ الطلبِ ومهانةِ الابتذالِ ، فأصبحَ الفقهاءُ بعدَ أنْ كانوا مطلوبينَ طالبينَ ، وبعدَ أنْ كانوا أعزَّةً بالإعراضِ عنِ السلاطينِ أذلَّةً بالإقبالِ عليهِمْ ، إلا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تعالىٰ في كلِّ عصرٍ مِنْ علماءِ دينِهِ .

وقدْ كانَ أكثرُ الإقبالِ في تلكَ الأعصارِ علىٰ علْمِ الفتاوىٰ والأقضيةِ ؛ لشدَّةِ الحاجةِ إليها في الولاياتِ والحكوماتِ .

ثمَّ ظهرَ بعدَهُمْ منَ الصدورِ والأمراءِ مَنْ سَمِعَ مقالاتِ الناسِ في قواعدِ العقائدِ ، ومالتْ نفسُهُ إلىٰ سماعِ الحُجَجِ فيها ، فغلبَتْ رغبتُهُ إلى المناظرةِ والمجادلةِ في الكلامِ ، فأكبَّ الناسُ علىٰ علمِ الكلامِ ، وأكثروا فيهِ التصانيفَ ، ورتَّبوا فيه طرقَ المجادلاتِ ، واستخرجوا فنونَ المناقضاتِ في المقالاتِ ، وزعموا : أنَّ غرضَهُمْ الذبُّ عنْ دينِ اللهِ ، والنضالُ عنِ السنَّةِ ، وقمعُ المبتدعةِ ؛ كما زعمَ مَنْ قبلَهُمْ أنَّ غرضَهُمُ بالاشتغالِ بالفتاوى الدينُ ، وتقلُّدُ أحكامِ المسلمينَ ؛ إشفاقاً علىٰ خلْقِ اللهِ ونصيحةً لهُمْ .

ثمَّ ظهرَ بعدَ ذٰلكَ منَ الصدورِ مَنْ لمْ يستصوبِ الخوضَ في الكلامِ وفتْحَ بابِ المناظرةِ فيهِ ؛ لما كانَ قدْ تولَّدَ مِنْ فتحِ بابِهِ منَ التعصُّباتِ الفاحشةِ والخصوماتِ الفاشيةِ المفضيةِ إلىٰ إهراقِ الدماءِ وتخريبِ البلادِ ، ومالتْ نفسُهُ إلى المناظرةِ في الفقْهِ ، وبيانِ الأَوْلىٰ مِنْ مذهبِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُما على الخصوصِ ، فتركَ الناسُ الكلامَ وفنونَ العلمِ ، وانثالوا على المسائلِ الخلافيةِ بينَ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُما على الخصوصِ ، وتساهلُوا في الخلافِ

(١) كما في « سنن الدارمي » (١٣٧) : قال عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ : (لقد أدركت في هٰذا المسجد عشرين ومئة من الأنصار ، وما منهم أحد يحدِّث بحديث إلا ودَّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولا يسأل عن فتيا إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفتيا) .

معَ مالكٍ وسفيانَ الثوريِّ وأحمدَ وغيرِهِمْ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ ، وزعموا أنَّ غرضَهُمُ استنباطُ دقائقِ الشرعِ وتقريرُ عللِ المذهبِ ، وتمهيدُ أصولِ الفتاوىٰ ، وأكثروا فيها التصانيفَ والاستنباطاتِ ، ورتَّبوا فيها أنواعَ المجادلاتِ والتصنيفاتِ ، وهُمْ مستمرُّونَ عليهِ إلى الآنَ[1] ، ولسنا ندري ما الذي يحدثُ اللهُ فيما بعدَنا مِنَ الأعصارِ .

فهـٰذا هوَ الباعثُ على الإكبابِ على الخلافياتِ والمناظراتِ لا غيرَ ، ولوْ مالتْ نفوسُ أربابِ الدنيا إلى الخلافِ معَ إمامٍ آخرَ مِنَ الأئمَّةِ ، أو إلىٰ علْمٍ آخرَ مِنَ العلومِ . . لمالوا أيضاً معهُمْ ، ولمْ يسكتُوا عنِ التعلُّلِ بأنَّ ما اشتغلوا بهِ هوَ علمُ الدينِ ، وأنْ لا مطلبَ لهُمْ سوى التقرُّبِ إلىٰ ربِّ العالمينَ .

* * *

(١) أي : إلىٰ زمن تأليف الكتاب ، وهو سنة ثمان وتسعين وأربع مئة . « إتحاف » (١/٢٨٢) .

بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

اعلمْ : أنَّ هـٰؤلاءِ قدْ يستدرجونَ الناسَ إلىٰ ذٰلكَ بأنَّ غرضَنا مِنَ المناظراتِ المباحثةُ عنِ الحقِّ ليتضحَ ؛ فإنَّ الحقَّ مطلوبٌ ، والتعاونَ على النظرِ في العلمِ وتواردَ الخواطرِ مفيدٌ ومؤثرٌ ، وهـٰكذا كانَ عادةُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ في مشاوراتِهِمْ ؛ كتشاورِهِمْ في مسألةِ الجدِّ والإخوةِ ، وحدِّ شرْبِ الخمْرِ ، ووجوبِ الغرْمِ على الإمامِ إذا أخطأَ ؛ كما نُقِلَ مِنْ إجهاضِ المرأةِ جنينَها خوفاً مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وكما نُقِلَ مِنْ مسائلِ الفرائضِ وغيرِها ، وما نُقِلَ عنِ الشافعيِّ وأحمدَ ومحمدِ بنِ الحسنِ ، ومالكٍ وأبي يوسفَ ، وغيرِهم مِنَ العلماءِ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ .

ويطلعُكَ علىٰ هـٰذا التلبيسِ ما أذكرُهُ ، وهوَ أنَّ التعاونَ علىٰ طلبِ الحقِّ مِنَ الدينِ ، ولـٰكنْ لهُ **شروطٌ وعلاماتٌ ثمانٍ** :

الأوَّلُ : **ألَّا يشتغلَ بهِ وهوَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ مَنْ لمْ يتفرَّغْ مِنْ فروضِ الأعيانِ** :

ومَنْ عليهِ فرضُ عينٍ فاشتغلَ بفرضِ الكفايةِ ، وزعمَ أنَّ مقصودَهُ الحقُّ . . فهوَ كذَّابٌ ، ومثالُهُ مثالُ مَنْ يتركُ الصلاةَ في نفسِهِ ويتَّجِرُ في تحصيلِ الثيابِ ونسْجِها ويقولُ : غَرضي بهِ سترُ عورةِ مَنْ يصلِّي عُرياناً ولا يجدُ ثوباً !!

فإنَّ ذٰلكَ ربَّما يتفقُ ، ووقوعُهُ ممكنٌ ، كما يزعمُ الفقيهُ أنَّ وقوعَ النوادرِ التي عنها البحثُ في الخلافِ ممكنٌ ، والمشتغلونَ بالمناظرةِ مهملونَ لأمورٍ هيَ فرضُ عينٍ بالاتفاقِ .

ومَنْ توجَّهَ عليهِ ردُّ وديعةٍ في الحالِ ، فقامَ وتحرَّمَ بالصلاةِ التي هيَ أقربُ القرباتِ إلى اللهِ تعالىٰ . . عصىٰ ربَّهُ بذٰلكَ ، فلا يكفي في كونِ الشخصِ مطيعاً كونُ فعلِهِ مِنْ جنْسِ الطاعاتِ ما لمْ يراعِ فيهِ الوقتَ والشرطَ والترتيبَ .

❁ ❁ ❁

الثاني : **ألَّا يرىٰ فرضَ كفايةٍ أهمَّ مِنَ المناظرةِ** :

فإنْ رأىٰ ما هوَ أهمُّ وفعلَ غيرَه . . عصىٰ بفعلِهِ ، وكانَ مثالُهُ مثالَ مَنْ يرىٰ جماعةً مِنَ العطاشِ أشرفوا على الهلاكِ وقدْ أهملَهُمُ الناسُ وهوَ قادرٌ علىٰ إحيائِهم بأنْ يسقيَهم الماءَ ، فاشتغلَ بتعلُّمِ الحجامةِ وزعمَ أنَّهُ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ، ولوْ خلا البلدُ عنها . . لهلكَ الناسُ ، وإذا قيلَ : في البلدِ جماعةٌ مِنَ الحجَّامينَ وفيهِمْ غنيةٌ . . فيقولُ : وهـٰذا لا يُخرِجُ هـٰذا الفعلَ عنْ كونِهِ فرضَ كفايةٍ .

فحالُ مَنْ يفعلُ هـٰذا ويهملُ الاشتغالَ بالواقعةِ الملمَّةِ بجماعةِ العطاشِ مِنَ المسلمينَ . . كحالِ المشتغلِ بالمناظرةِ وفي البلدِ فروضُ كفاياتٍ مهملَةٌ لا قائمَ بها .

وأما الفتوىٰ . . فقدْ قامَ بها جماعةٌ ، ولا يخلو بلدٌ عنْ جملةٍ مِنَ الفروضِ المهملةِ ولا يلتفتُ الفقهاءُ إليها ، وأقربُها الطبُّ ؛ إذْ لا يوجدُ في أكثرِ البلادِ طبيبٌ مسلمٌ يجوزُ اعتمادُ شهادتِهِ فيما يعوَّلُ علىٰ قولِ الطبيبِ فيهِ شرعاً ، ولا يرغبُ أحدٌ مِنَ الفقهاءِ في الاشتغالِ بهِ .

وكذا الأمرُ بالمعروفِ والنهْيُ عنِ المنكرِ وهوَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ، وربَّما يكونُ المناظرُ في مجلسِ مناظرتِهِ مشاهداً للحريرِ ملبوساً ومفروشاً وهوَ ساكتٌ ، ويناظرُ في مسألةٍ لا يتفقُ وقوعُها قطُّ ، وإنْ وقعتْ . . قامَ بها جماعةٌ مِنَ الفقهاءِ ، ثمَّ يزعمُ أنَّهُ يريدُ أنْ يتقرَّبَ إلى اللهِ تعالىٰ بفرضِ الكفايةِ .

وقدْ روىٰ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّه قِيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ متىٰ يُتركُ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عنِ المنكَرِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا ظهرَ الإدْهانُ في خيارِكُمْ ، والفاحِشَةُ في شِرَارِكُمْ ، وتحَوَّلَ المُلْكُ في صغارِكُمْ ، والفِقهُ في أرذالِكمْ »[1]

❁ ❁ ❁

الثالثُ : أنْ يكونَ المناظرُ مجتهداً بذاتِهِ :

يفتي برأيِهِ لا بمذهبِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ وغيرِهما ، حتَّىٰ إذا ظهرَ لهُ الحقُّ في مذهبِ أبي حنيفةَ . . تركَ ما يوافقُ مذهبَ الشافعيِّ وأفتىٰ بما ظهرَ لهُ ، كما كانَ يفعلُهُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ والأئمةُ .

فأمَّا مَنْ ليسَ لهُ رتبةُ الاجتهادِ ـ وهوَ حكْمُ جميعِ أهلِ العصرِ ـ وإنَّما يفتي فيما يُسألُ عنهُ ناقلاً عَنْ مذهبِ صاحبِهِ ، فلوْ ظهرَ لهُ ضعفُ مذهبِهِ لمْ يجزْ لهُ أنْ يتركَهُ . . فأيُّ فائدةٍ لهُ في المناظرةِ ومذهبُهُ معلومٌ وليسَ لهُ الفتوىٰ بغيرِهِ ؟!

وما يشكلُ عليهِ يلزمُهُ أنْ يقولَ : لعلَّ عندَ صاحبِ مذهبي جواباً عنْ هٰذا ، فإنِّي لسْتُ مستقلّاً بالاجتهادِ في أصلِ الشرعِ .

ولوْ كانتْ مباحثتُهُ عنِ المسائلِ التي فيها وجهانِ أوْ قولانِ لصاحبِهِ . . لكانَ أشبَهَ ؛ فإنَّهُ ربَّما يفتي بأحدِهما فيستفيدُ منَ البحثِ ميلاً إلىٰ أحدِ الجانبين ولا يرى المناظراتِ جاريةً فيها قطُّ ، بلْ ربَّما تُركتِ المسألةُ التي فيها وجهانِ أوْ قولانِ وطُلِبَت مسألةٌ يكونُ الخلافُ فيها مبتوتاً .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : ألا يناظرَ إلا في مسألةٍ واقعةٍ أوْ قريبةِ الوقوعِ غالباً :

فإنَّ الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ ما تشاوروا إلا فيما تجدَّدَ مِنَ الوقائعِ ، أوْ ما يغلبُ وقوعُهُ كالفرائضِ ، ولا ترى المناظرينَ يهتمونَ بانتقادِ المسائلِ التي تعمُّ البلوىٰ بالفتوىٰ فيها ، بلْ يطلبونَ الطبوليَّاتِ[2] التي يتَّسِعُ مجالُ الجدلِ فيها كيفما كانَ الأمرُ ، وربَّما يتركونَ ما يكثرُ وقوعُهُ ويقولونَ : هٰذهِ مسألةٌ خبريَّةٌ[3] ، أوْ هيَ منَ الزوايا وليستْ مِنَ الطبوليَّاتِ .

فمِنَ العجائبِ أنْ يكونَ المطلَبُ هوَ الحقَّ ثمَّ يتركونَ المسألةَ لأنَّها خبريَّةٌ ومدركُ الحقِّ فيها هوَ الأخبارُ ، أوْ لأنَّها ليستْ مِنَ الطبولِ !! فلا نطوِّلُ فيها الكلامَ .

والمقصودُ في الحقِّ أنْ يقصرَ الكلامُ ويبلغَ الغايةَ على القربِ ، لا أنْ يَطُولَ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : أنْ تكونَ المناظرةُ في الخلوةِ أحبَّ إليهِ وأهمَّ مِنَ المحافلِ وبينَ أظْهُرِ الأكابرِ والسلاطينِ :

فإنَّ الخلوةَ أجمعُ للهمِّ ، وأحرىٰ بصفاءِ الذهنِ والفكرِ ودرْكِ الحقِّ ، وفي حضورِ الجمْعِ ما يحرِّكُ دواعيَ الرياءِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٥) ، والمراد بالإدهان هنا : الملاينة في الكلام ، من المداهنة التي ترفع المناصحة ، ولفظ الإدهان عند أبي نعيم في « الحلية » (١٨٥/٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٤٨) .

(٢) التي يُدَقُّ لها بالطبل ، وهي كناية عن الاشتهار والاجتماع لها . « إتحاف » (٢٨٨/١) .

(٣) قد أخبر بها فلان من الشيوخ ، ونصَّ عليها فلان في الكتاب الفلاني . « إتحاف » (٢٨٨/١) .

ويوجبُ الحِرْصَ علىٰ نصرَةِ كلِّ واحدٍ مِنَ المتناظِرَيْنِ نفسَهُ محقّاً كانَ أوْ مبطلاً ، وأنتَ تعلمُ أنَّ حرصَهُمْ على المحافلِ والمجامعِ ليسَ للهِ ، وأنَّ الواحدَ منهُمْ يخلو بصاحبِهِ مدَّةً طويلةً فلا يكلمُهُ ، وربَّما يقترحُ عليهِ فلا يجيبُ ، فإذا ظهرَ مقدَمٌ[1] أوِ انتظمَ مجمَعٌ . . لمْ يغادرْ في قوسِ الاحتيالِ منزعاً حتَّىٰ يكونَ هوَ المتخصِّصَ بالكلامِ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : أنْ يكونَ في طلبِ الحقِّ كناشدِ ضالَّةٍ :

لا يفرِّقُ بينَ أنْ تظهرَ الضالَّةُ علىٰ يدِهِ أوْ علىٰ يدِ مَنْ يعاونُهُ ، ويرىٰ رفيقَهُ معيناً لا خصْماً ، ويشكرُهُ إذا عرَّفَهُ الخطأَ وأظهرَ لهُ الحقَّ ؛ كما لوْ أخذَ طريقاً في طلبِ ضالَّتِهِ ، فنبَّهَهُ صاحبُهُ علىٰ ضالَّتِهِ في طريقٍ آخرَ ، فإنَّهُ كانَ يشكرُهُ ولا يذمُّهُ ، ويفرحُ بِهِ ويكرمُهُ .

فهٰكذا كانتْ مشاوراتُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، حتَّىٰ ردَّتِ امرأةٌ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ونبَّهتْهُ على الحقِّ وهوَ في خطبتِهِ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، فقالَ : (أصابتِ امرأةٌ وأخطَأَ رجلٌ)[2]

وسألَ رجلٌ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ ، فأجابَهُ ، فقالَ : ليسَ كذٰلكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، ولٰكنْ كذا وكذا ، فقالَ : أصبتَ وأخطأْتُ ، وفوقَ كلِّ ذي علْمٍ عليمٌ[3]

واستدركَ ابنُ مسعودٍ علىٰ أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُما ، فقالَ أبو موسىٰ : لا تسألوني عنْ شيءٍ وهٰذا الحبرُ بينَ أظهرِكُمْ[4] ؛ وذٰلكَ لمَّا سُئِلَ أبو موسىٰ عنْ رجلٍ قاتلَ في سبيلِ اللهِ فقُتِلَ ، فقالَ : هوَ في الجنَّةِ ، وكانَ أميرَ الكوفةِ[5] ، فقالَ ابنُ مسعودٍ : أعدْهُ على الأميرِ ، فلعلَّهُ لمْ يفهمْ ، فأعادَ وأعادَ الجوابَ ، فقالَ ابنُ مسعودٍ : أنا أقولُ : إنْ قُتِلَ فأصابَ الحقَّ . . فهوَ في الجنَّةِ ، فقال أبو موسىٰ : هوَ ما قالَ[6]

وهٰكذا يكونُ إنصافُ طالبِ الحقِّ ، ولوْ ذكرَ الآنَ مثلُ هٰذا لأقلِّ فقيهٍ . . لأنكرَهُ واستبعدَهُ ، وقالَ : لا يحتاجُ إلىٰ أنْ يقالَ : أصابَ الحقَّ ؛ فإنَّ ذٰلك معلومٌ لكلِّ أحدٍ[7]

فانظرْ إلىٰ مناظري زمانِكَ الآنَ كيفَ يسوَدُّ وجْهُ أحدِهِمْ إذا اتضحَ الحقُّ علىٰ لسانِ خصمِهِ ، وكيفَ يخجلُ بِهِ ، وكيفَ يجتهدُ في مجاحدتِهِ بأقصىٰ قدرتِهِ ، وكيفَ يذمُّ مَنْ أفحمَهُ طولَ عمرِهِ ، ثمَّ لا يستحيي مِنْ تشبيهِ نفسِهِ بالصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ في تعاونِهِمْ على النظرِ في الحقِّ !!

❁ ❁ ❁

السابعُ : ألا يمنعَ معينَهُ في النظرِ مِنَ الانتقالِ من دليلٍ إلىٰ دليلٍ ، ومِنْ إشكالٍ إلىٰ إشكالٍ :

---

(١) مصدر ميمي ؛ أي : قدوم أحد من الرؤساء فاجتمعوا لملاقاة القادم . « إتحاف » (٢٨٩/١) .

(٢) المقاصد الحسنة (ص ٣٢٠) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٦٥) .

(٤) رواه مالك في « الموطأ » (٦٠٧/٢) .

(٥) أي : إن أبا موسى الأشعري كان أميراً على الكوفة .

(٦) قوت القلوب (١٤٨/١) .

(٧) هٰذا القيد الذي أتىٰ به ابن مسعود رضي الله عنه هو المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم علىٰ ما أخرجه البخاري : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في الجنة » . « إتحاف » (٢٩٠/١) .

فهٰكذا كانتْ مناظراتُ السلفِ ، ويُخرجُ مِنْ كلامِهِ جميعَ دقائقِ الجدلِ المبتدعةِ ، فما لهُ ولقولِهِ : هٰذا لا يلزمُني ذكرُهُ ، وهٰذا يناقضُ كلامَكَ الأوَّلَ فلا يقبلُ منكَ ؛ فإنَّ الرجوعَ إلى الحقِّ أبداً يكونُ مناقضاً للباطلِ ، ويجبُ قبولُهُ .

وأنتَ ترىٰ أنَّ جميعَ المجالسِ تنقضي في المدافعاتِ والمجادلاتِ ، حتَّىٰ يقيسُ المستدلُّ علىٰ أصلٍ بعلَّةٍ يظنُّها ، فيقالُ لهُ : وما الدليلُ علىٰ أنَّ الحكمَ في الأصلِ معلَّلٌ بهٰذهِ العلةِ ؟ فيقولُ : هٰذا ما ظهرَ لي ، فإنْ ظهرَ لكَ ما هوَ أوضحُ وأولىٰ منهُ . . فاذكرْهُ حتَّىٰ أنظرَ فيهِ ، فيُصِرُّ المعترضُ ويقولُ : فيهِ معانٍ سوىٰ ما ذكرتَهُ ، وقدْ عرفتُها ولا أذكرُها ؛ إذْ لا يلزمُني ذكرُها ، ويقولُ المستدلُّ : عليكَ إيرادُ ما تدعيهِ وراءَ هٰذا ، ويصرُّ المعترضُ علىٰ أنَّهُ لا يلزمُهُ ، ويتوخَّىٰ مجالسَ المناظرةِ بهٰذا الجنسِ مِنَ السؤالِ وأمثالِهِ .

ولا يعرفُ هٰذا المسكينُ أنَّ قولَهُ : (إنِّي أعرفُ ولا أذكرُهُ إذْ لا يلزمُني) . . كذبٌ على الشرعِ ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ لا يعرفُ معنىً وإنَّما يدعيهِ ليعجزَ خصمَهُ . . فهوَ فاسقٌ كذَّابٌ عصى اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ وتعرَّضَ لسخطِهِ بدعواهُ معرفةً هوَ خالٍ عنها ، وإنْ كانَ صادقاً . . فقدْ فسقَ بإخفائِهِ ما عرفَهُ مِنْ أمرِ الشرْعِ وقدْ سألَهُ أخوهُ المسلمُ ليفهمَهُ وينظرَ فيهِ ، فإنْ كانَ قوياً . . رجعَ إليهِ ، وإنْ كانَ ضعيفاً . . أظهرَ لهُ ضعفَهُ ، وأخرجَهُ عنْ ظلمَةِ الجهلِ إلىٰ نورِ العلمِ .

ولا خلافَ أنَّ إظهارَ ما عُلِمَ منْ علْمِ الدينِ بعدَ السؤالِ عنهُ واجبٌ لازمٌ ، فمعنىٰ قولِهِ : (لا يلزمني) أي : في شرْعِ الجدلِ الذي أبدعناهُ بحكْمِ التشهِّي والرغبةِ في طريقِ الاحتيالِ والمصارعةِ بالكلامِ لا يلزمني ، وإلَّا . . فهوَ لازمٌ بالشرعِ ؛ فإنَّهُ بامتناعِهِ عنِ الذكرِ إمَّا كاذبٌ وإمَّا فاسقٌ .

فتفحَّصْ عنْ مشاوراتِ الصحابةِ ومفاوضاتِ السلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : هلْ سمعتَ فيها ما يضاهي هٰذا الجنسَ ؟ وهلْ منعَ أحدٌ منَ الانتقالِ منْ دليلٍ إلىٰ دليلٍ ، ومنْ قياسٍ إلىٰ أثرٍ ، ومنْ خبرٍ إلىٰ آيةٍ ؟!

بلْ جميعُ مناظراتِهِمْ مِنْ هٰذا الجنسِ ، إذْ كانوا يذكرونَ كلَّ ما يخطرُ لهُمْ كما يخطرُ ، وكانوا ينظرونَ فيهِ .

❀ ❀ ❀

الثامنُ : أنْ يناظرَ مَنْ يتوقَّعُ الاستفادةَ منهُ ممَّنْ هوَ مشتغلٌ بالعلمِ :

والغالبُ أنَّهُمْ يحترزونَ مِنْ مناظرةِ الفحولِ والأكابرِ ؛ خوفاً من ظهورِ الحقِّ علىٰ ألسنتِهِمْ ، فيرغبونَ فيمَنْ دونَهُمْ ؛ طمعاً في ترويجِ الباطلِ عليهِمْ .

ووراءَ هٰذهِ شروطٌ دقيقةٌ كثيرةٌ ، ولٰكنْ في هٰذهِ الشروطِ الثمانيةِ ما يهديكَ إلىٰ مَنْ يناظرُ للهِ ومَنْ يناظرُ لعلَّةٍ .

واعلمْ بالجملةِ : أنَّ مَنْ لا يناظرُ الشيطانَ وهوَ مستولٍ علىٰ قلبِهِ ، وهوَ أعدىٰ عدوٍّ لهُ ، ولا يزالُ يدعوهُ إلىٰ هلاكِهِ ، ثمَّ يشتغلُ بمناظرةِ غيرِهِ في مسائلَ المجتهدُ فيها مصيبٌ أو مساهمٌ للمصيبِ في الأجرِ . . فهوَ ضُحْكَةٌ للشيطانِ ، وعبرةٌ للمخلصينَ ، ولذٰلكَ شَمِتَ الشيطانُ بهِ لِما غمسَهُ فيهِ مِنْ ظلماتِ الآفاتِ التي نعدِّدُها ونذكرُ تفاصيلَها ، فنسألُ اللهَ حسنَ العونِ والتوفيقِ .

❋ ❋ ❋

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

اعلمْ وتحقَّقْ : أنَّ المناظرةَ الموضوعةَ لقصدِ الغلبةِ والإفحامِ ، وإظهارِ الفضلِ والشرفِ عندَ الناسِ ، وقصدِ المباهاةِ والمماراةِ واستمالةِ وجوهِ الناسِ . . هيَ منبعُ جميعِ الأخلاقِ المذمومةِ عندَ اللهِ ، المحمودةِ عندَ عدوِّ اللهِ إبليسَ ، ونسبتُها إلى الفواحشِ الباطنةِ ؛ مِنَ الكبرِ ، والعجْبِ ، والحسدِ ، والمنافسةِ ، وتزكيةِ النفسِ ، وحبِّ الجاهِ ، وغيرِها . . نسبةُ شربِ الخمرِ إلى الفواحشِ الظاهرةِ ؛ مِنَ الزنا ، والقذفِ ، والقتلِ ، والسرقةِ .

وكما أنَّ الذي خُيِّرَ بينَ الشربِ وسائرِ الفواحشِ استصغرَ الشربَ فأقدمَ عليهِ ، فدعاهُ ذلكَ إلى ارتكابِ بقيةِ الفواحشِ في سكرِهِ[1] . . فكذلكَ مَنْ غلبَ عليهِ حبُّ الإفحامِ والغلبةِ في المناظرةِ وطلبُ الجاهِ والمباهاةُ بهِ . . دعاهُ ذلكَ إلى إضمارِ الخبائثِ كلِّها في النفسِ ، وهيَّجَ فيهِ جميعَ الأخلاقِ المذمومةِ ، وهذهِ الأخلاقُ ستأتي أدلَّةُ مذمَّتِها مِنَ الأخبارِ والآياتِ في ربعِ المهلكاتِ ، ولكنَّا نشيرُ الآنَ إلى مجامعِ ما تهيِّجُهُ المناظرةُ :

فمنها : الحسدُ ؛ وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحسدُ يأكُلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ »[2]

ولا ينفكُّ المناظرُ عنِ الحسدِ ؛ فإنَّهُ تارةً يغلِبُ وتارةً يُغْلَبُ ، وتارةً يُحمَدُ كلامُهُ وأخرى يُحمَدُ كلامُ غيرِهِ ؛ فما دامَ يبقى في الدنيا واحدٌ يُذْكَرُ بقوَّةِ العلمِ والنظرِ ، أوْ يُظَنُّ أنَّهُ أحسنُ منهُ كلاماً وأقوى نظراً . . فلا بدَّ أنْ يحسُدَهُ ، ويحبَّ زوالَ النعمِ عنهُ ، وانصرافَ الوجوهِ والقلوبِ عنهُ إليهِ .

والحسدُ نارٌ محرقةٌ ، فمَنْ بُلِيَ بهِ . . فهوَ في العذابِ الأليمِ الدائمِ في الدنيا ، ولَعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأعظمُ ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (خذوا العلمَ حيثُ وجدتموهُ ، ولا تقبلوا قولَ الفقهاءِ بعضِهِمْ في بعضٍ ؛ فإنَّهُمْ يتغايرونَ كما تتغايرُ التيوسُ في الزريبةِ)[3]

❁ ❁ ❁

ومنها : التكبُّرُ والترفُّعُ على الناسِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تكبَّرَ . . وضعَهُ اللهُ ، ومَنْ تواضعَ . . رفعَهُ اللهُ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حكايةً عنِ اللهِ تعالى : « العظمةُ إزاري والكبرياءُ ردائي ، فَمَنْ نازعني فيهما قصمتُهُ »[5]

ولا ينفكُّ المناظرُ عنِ التكبُّرِ على الأقرانِ والأمثالِ ، والترفُّعِ إلى فوقِ قدرِهِ ، حتَّى إنَّهم ليتقاتلونَ على مجلسٍ منَ المجالسِ يتنافسونَ فيهِ في الارتفاعِ والانخفاضِ ، والقربِ مِنْ وسادةِ الصدْرِ والبعدِ منها ، والتقدُّمِ في الدخولِ عندَ مضايقِ الطرقِ .

وربَّما يتعلَّلُ الغبيُّ والمكَّارُ الخدَّاعُ منهُمْ بأنَّهُ يبغي صيانةَ عزِّ العلمِ ، وأنَّ المؤمنَ منهيٌّ عنْ إذلالِ نفسِهِ ، فيعبِّرُ عنِ

---

(١) من زناً وقتل وغير ذلك ، حتى سميت أمّ الخبائث كما في « النسائي » (٣١٥/٨) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٢٥) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٧٦) بنحوه .

(٥) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) واللفظ له .

التواضع الذي أثنى اللهُ سبحانَهُ عليهِ وسائرُ أنبيائِهِ بالذلِّ ، وعنِ التكبُّرِ الممقوتِ عندَ اللهِ بعزِّ الدينِ ؛ تحريفاً للاسمِ ، وإضلالاً للخلقِ بهِ ، كما فُعِلَ في اسمِ الحكمةِ والعلمِ وغيرِهما !!

❁ ❁ ❁

ومنها : **الحقدُ** ؛ فلا يكادُ المناظرُ يخلو عنهُ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ ليسَ بحقُودٍ »[1]

ووردَ في ذمِّ الحقدِ ما لا يخفىٰ ، ولا ترىٰ مُناظراً يقدرُ علىٰ ألا يضمرَ حقداً علىٰ مَنْ يحرِّكُ رأسَهُ علىٰ كلامِ خصمِهِ ، ويتوقَّفُ في كلامِهِ فلا يقابلُهُ بحسْنِ الإصغاءِ ، بل يضطرُّ إذا شاهدَ ذٰلكَ إلىٰ إضمارِ الحقْدِ وتزيينِهِ في النفسِ ، وغايةُ تماسكِهِ الإخفاءُ بالنفاقِ ، ويترشَّحُ منهُ إلى الظاهرِ ـ لا محالةَ ـ في غالبِ الأمرِ .

وكيفَ ينفكُّ عنْ هٰذا ولا يتصوَّرُ اتفاقُ جميعِ المستمعينَ علىٰ ترجيحِ كلامِهِ ، واستحسانِ جميعِ أحوالِهِ في إيرادِهِ وإصدارِهِ ؟!

بلْ لوْ صدرَ مِنْ خصمِهِ أدنىٰ سببٍ فيهِ قلَّةُ مبالاةٍ بكلامِهِ . . انغرسَ في صدرِهِ حقدٌ لا تقلعُهُ يدُ الدهرِ إلىٰ آخرِ العمرِ .

❁ ❁ ❁

ومنها : **الغيبةُ** ، وقدْ شبهَهَا اللهُ تعالىٰ بأكلِ الميتةِ ، ولا يزالُ المناظرُ مثابراً علىٰ أكلِ الميتةِ ؛ فإنَّهُ لا ينفكُّ عنْ حكايةِ كلامِ خصمِهِ ومذمَّتِهِ ، وغايةُ تحفُّظِهِ أنْ يصدُقَ فيما يحكيهِ عليهِ ولا يكذبَ في الحكايةِ ، فيحكي عنهُ ـ لا محالةَ ـ ما يدلُّ علىٰ قصورِ كلامِهِ وعجزِهِ ونقصانِ فضلِهِ ، وهوَ الغيبةُ ، فأمَّا الكذبُ . . فبهتانٌ .

وكذٰلكَ لا يقدرُ علىٰ أنْ يحفظَ لسانَهُ عنِ التعرُّضِ لعِرْضِ مَنْ يُعْرِضُ عنْ كلامِهِ ويُصغي إلىٰ خصمِهِ ويقبلُ عليهِ ، حتىٰ ينسبُهُ إلى الجهلِ والحماقةِ وقلَّةِ الفهمِ والبلادةِ .

❁ ❁ ❁

ومنها : **تزكيةُ النفسِ** ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

وقيلَ لحكيمٍ : ما الصدقُ القبيحُ ؟ فقالَ : ثناءُ المرءِ علىٰ نفسِهِ .

ولا يخلو المناظرُ عنِ الثناءِ علىٰ نفسِهِ بالقوَّةِ والغلبةِ ، والتقدُّمِ بالفضلِ على الأقرانِ ، ولا ينفكُّ في أثناءِ المناظرةِ عنْ قولِهِ : لستُ ممَّنْ يخفىٰ عليهِ أمثالُ هٰذهِ الأمورِ ، وأنا المتفنِّنُ في العلومِ ، والمستقلُّ بالأصولِ وحفظِ الأحاديثِ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا يتمدَّحُ بهِ تارةً علىٰ سبيلِ الصلَفِ ، وتارةً للحاجةِ إلىٰ ترويجِ كلامِهِ ، ومعلومٌ أنَّ الصلَفَ والتمدُّحَ مذمومانِ شرعاً وعقلاً .

❁ ❁ ❁

ومنها : **التجسُّسُ وتتبُّعُ عوراتِ الناسِ** ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾

والمناظرُ لا ينفكُّ عنْ طلبِ عثراتِ أقرانِهِ وتتبُّعِ عوراتِ خصومِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليُخبَرُ بورودِ مناظرٍ إلىٰ بلدِهِ ، فيطلبُ مَنْ يَخْبُرُ بواطنَ أحوالِهِ ، ويستخرجُ بالسؤالِ مقابحَهُ ؛ حتَّىٰ يعدَّها ذخيرةً لنفسِهِ في إفضاحِهِ وتخجيلِهِ إذا مسَّتْ إليهِ

---

(١) وقد روى النسائي (١١/٦) : « ولا يجتمعان في قلب عبدٍ الإيمانُ والحسد » ، وقوله : « يجتمعان » علىٰ لغةٍ أو حذفٍ ، وأما الحديث بلفظ المؤلف « المؤمن ليس بحقود » . . فانظر « كشف الخفاء » (٢/٢٩٣) .

حاجتُهُ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليستكشفُ عنْ أحوالِ صباهُ وعنْ عيوبِ بدنِهِ ، فعساهُ يعثرُ علىٰ هفوةٍ أوْ علىٰ عيبٍ بهِ مِنْ قَرَعٍ أوْ غيرِهِ ، ثمَّ إذا أحسَّ بأدنىٰ غلبةٍ مِنْ جهتِهِ . . عرَّضَ بهِ إنْ كانَ متماسكاً ، ويُستحسنُ ذٰلكَ منهُ ، ويُعدُّ من لطائفِ التشبيبِ ، ولا يمتنعُ عنِ الإفصاحِ بهِ إنْ كانَ متبجّحاً بالسفاهةِ والاستهزاءِ ؛ كما حُكِيَ عنْ قومٍ منْ أكابرِ المناظرينَ المعدودينَ مِنْ فحولِهِمْ .

❁ ❁ ❁

ومنها : **الفرحُ بمساءةِ الناسِ والغمُّ لمسارِّهِمْ** ، ومَنْ لا يحبُّ لأخيهِ المسلمِ ما يحبُّ لنفسِهِ . . فهوَ بعيدٌ مِنْ أخلاقِ المؤمنينَ ، وكلُّ مَنْ طلبَ المباهاةَ بإظهارِ الفضلِ . . يسرُّهُ ـ لا محالَةَ ـ ما يسوءُ أقرانَهُ وأشكالَهُ الذينَ يسامونَهُ في الفضلِ ، ويكونُ التباغضُ بينهُمْ كما بينَ الضرائرِ ، فكما أنَّ إحدى الضرائرِ إذا رأتْ صاحبتَها مِنْ بعيدٍ . . ارتعدتْ فرائصُها واصفرَّ لونُها ؛ فهٰكذا ترى المناظرَ إذا رأىٰ مُناظراً . . يَرْبَدُّ لونُهُ ويضطربُ عليهِ فكرُهُ ، وكأنَّهُ شاهدَ شيطاناً مارداً أو سَبُعاً ضارياً !!

فأينَ الاستئناسُ والاسترواحُ الذي كانَ يجري بينَ علماءِ الدينِ عندَ اللقاءِ ، وما نُقِلَ عنهُمْ مِنَ المؤاخاةِ والتناصرِ والتساهمِ في السرَّاءِ والضرَّاءِ ؟! حتَّىٰ قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (العلمُ بينَ أهلِ العقلِ والفضلِ رَحِمٌ متَّصِلٌ) .

فلا أدري كيفَ يدعي الاقتداءَ بمذهبِهِ جماعةٌ صارَ العلمُ بينهُمْ عداوةً قاطعةً ؟! فهلْ يتصوَّرُ أنْ يستتبَّ الأُنْسُ معَ طلبِ الغلبةِ والمباهاةِ ؟!

هيهاتَ هيهاتَ !! فناهيكَ بالشيءِ شراً أَنْ يُلزِمَكَ أخلاقَ المنافقينَ ، ويبرِئَكَ عنْ أخلاقِ المؤمنينَ والمتقينَ .

❁ ❁ ❁

ومنها : **النفاقُ** ، فلا يحتاجُ إلىٰ ذكرِ الشواهدِ في ذمِّهِ ، وهُمْ مضطرونَ إليهِ ؛ فإنَّهُمْ يلقونَ الخصومَ ومحبِّيهِمْ وأشياعَهُمْ ولا يجدونَ بُدّاً مِنَ التودُّدِ باللسانِ وإظهارِ الشوقِ والاعتدادِ بمكانِهِمْ وأحوالِهِمْ ، ويعلمُ ذٰلكَ المخاطَبُ والمخاطِبُ وكلُّ مَنْ يسمعُ ذٰلكَ منهُمْ أنَّ ذٰلكَ كذبٌ وزورٌ ونفاقٌ وفجورٌ ، وأنَّهمْ متوادُّونَ بالألسنةِ متباغضونَ بالقلوبِ ، نعوذُ باللهِ العظيمِ منهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا تعلَّمَ الناسُ العلمَ وتركوا العملَ ، وتحابُّوا بالألسُنِ وتباغضوا بالقلوبِ ، وتقاطعُوا في الأرحامِ . . لعنهُمُ اللهُ عندَ ذٰلكَ ، فأصمَّهُمْ وأعمىٰ أبصارَهُمْ » رواهُ الحسنُ [1] ، وقدْ صحَّ ذٰلكَ بمشاهدةِ الحالِ .

❁ ❁ ❁

ومنها : **الاستكبارُ عنِ الحقِّ وكراهتُهُ والحرصُ على المماراةِ فيهِ** ؛ حتَّىٰ إنَّ أبغضَ شيءٍ إلى المناظرِ أنْ يظهرَ علىٰ لسانِ خصمِهِ الحقُّ ، ومهما ظهرَ . . تشمَّرَ لجحدِهِ وإنكارِهِ بأقصىٰ جهدِهِ ، وبذَلَ غايةَ إمكانِهِ في المخادعةِ والمكْرِ والحيلةِ لدفعِهِ ، ثمَّ تصيرُ المماراةُ فيهِ عادةً طبيعيةً ، فلا يسمعُ كلاماً إلا وينبعثُ مِنْ طبعِهِ داعيةُ الاعتراضِ عليهِ ، حتَّىٰ يغلبَ ذٰلكَ علىٰ قلبِهِ في أدلةِ القرآنِ وألفاظِ الشرعِ ، فيضربَ البعضَ منها بالبعضِ .

والمراءُ في مقابلةِ الباطلِ محذورٌ ؛ إذْ ندبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ تركِ المراءِ بالحقِّ على الباطلِ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٦٣/٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٩/٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠٠/١٣) من حديث سلمان رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه ، والمراد بالحسن ـ والله أعلم ـ هو الحسن بن سفيان الشيباني صاحب « المسند » وغيره .

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ المِراءَ وهوَ مُبْطِلٌ . . بَنَى اللهُ لهُ بيتاً في رَبَضِ الجنةِ ، ومَنْ تركَ المراءَ وهوَ مُحِقٌّ . . بَنَى اللهُ لهُ بيتاً في أعلى الجنةِ »[1]

وقدْ سوَّى اللهُ تعالىٰ بينَ مَنِ افترَىٰ على اللهِ كذباً وبينَ مَنْ كذَّبَ بالحقِّ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥ ﴾ .

❀ ❀ ❀

ومنها : **الرياءُ وملاحظةُ الخلقِ ، والجهدُ في استمالةِ قلوبِهِمْ وصرْفِ وجوهِهِم** ، والرياءُ هوَ الداءُ العضالُ الذي يدعو إلىٰ أكبرِ الكبائرِ ، كما سيأتي في كتابِ الرياءِ ، والمناظرُ لا يقصدُ إلا الظهورَ عندَ الخلقِ ، وإطلاقَ ألسنتِهِمْ بالثناءِ عليهِ .

فهٰذهِ عشرُ خلالٍ مِنْ أمَّهاتِ الفواحشِ الباطنةِ ، سوىٰ ما يتفقُ لغيرِ المتماسكينَ منهمْ ؛ مِنَ الخصامِ المؤدِّي إلى الضربِ واللكْمِ ، وتمزيقِ الثيابِ ، والأخذِ باللِّحَىٰ ، وسبِّ الوالدَينِ ، وشتمِ الأستاذِينَ ، والقذْفِ الصريحِ ، فإنَّ أولئكَ ليسوا معدودينَ في زمرةِ الناسِ المعتبرينَ ، وإنَّما الأكابرُ والعقلاءُ منهُمْ همُ الذينَ لا ينفكونَ عنْ هٰذهِ الخصالِ العشرِ .

نعمْ ؛ قدْ يسلَمُ بعضُهُمْ عنْ بعضِها معَ مَنْ هوَ ظاهرُ الانحطاطِ عنهُ ، أوْ ظاهرُ الارتفاعِ عليهِ ، أوْ هوَ بعيدٌ عنْ بلدِهِ وأسبابِ معيشتِهِ ، ولا ينفكُّ أحدٌ منهُمْ عنهُ معَ أشكالِهِ المقارنينَ لهُ في الدرجةِ .

ثمَّ يتشعَّبُ مِنْ كلِّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الخصالِ العشرِ عشرُ أخرىٰ مِنَ الرذائلِ ، لمْ نطوِّلْ بذكرِها وتفصيلِ آحادِها ؛ مثلُ الأنفةِ ، والغضبِ ، والبغضاءِ ، والطمعِ ، وحبِّ طلبِ المالِ والجاهِ للتمكُّنِ مِنَ الغلبةِ ، والمباهاةِ ، والأَشَرِ ، والبَطَرِ ، وتعظيمِ الأغنياءِ والسلاطينِ ، والتردُّدِ إليهِمْ ، والأخذِ مِنْ حرامِهِمْ ، والتجمُّلِ بالخيولِ والمراكبِ والثيابِ المحظورةِ ، واستحقارِ الناسِ بالفخرِ والخيلاءِ ، والخوضِ فيما لا يعني ، وكثرةِ الكلامِ ، وخروجِ الخشيةِ والحرمةِ مِنَ القلبِ ، واستيلاءِ الغفلةِ عليهِ ، حتَّىٰ لا يدري المصلِّي منهُمْ في صلاتِهِ ما صلَّىٰ وما الذي يقرأُ ومَنْ الذي يناجيهِ ، ولا يحسُّ بالخشوعِ مِنْ قلبِهِ ، واستغراقِ العمرِ في العلومِ التي تعينُ في المناظرةِ معَ أنَّها لا تنفعُ في الآخرةِ ؛ مِنْ تحسينِ العبارةِ ، وتسجيعِ اللفظِ ، وحفظِ النوادرِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ أمورٍ لا تحصىٰ .

والمناظرونَ يتفاوتونَ فيها علىٰ حسَبِ درجاتِهِمْ ، ولهُمْ درجاتٌ شتَّىٰ ، ولا ينفكُّ أعظمُهُمْ ديناً وأكثرُهُمْ عقلاً عنْ جُمَلٍ مِنْ موادِّ هٰذهِ الأخلاقِ ، وإنَّما غايتُهُ إخفاؤُها ومجاهدةُ النفسِ بها .

واعلمْ : أنَّ هٰذهِ الرذائلَ لازمةٌ للمشتغلِ بالتذكيرِ والوعْظِ أيضاً إذا كانَ قصدُهُ طلبَ القبولِ وإقامةَ الجاهِ ونيلَ الثروةِ والعزَّةِ ، وهيَ لازمةٌ أيضاً للمشتغلِ بعلمِ المذهبِ والفتاوىٰ إذا كانَ قصدُهُ طلبَ القضاءِ وولايةَ الأوقافِ والتقدُّمَ على الأقرانِ .

وبالجملةِ : هيَ لازمةٌ لكلِّ مَنْ يطلبُ بالعلمِ غيرَ ثوابِ الآخرةِ ، فالعلمُ لا يهمِلُ العالِمَ ، بلْ يهلكُهُ هلاكَ الأبدِ ،

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٣) ، وابن ماجه (٥١) .

أوْ يحييهِ حياةَ الأبدِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لا ينفعُهُ اللهُ بعلمِهِ »[١]

فلقدْ ضرَّهُ معَ أنَّهُ لمْ ينفعْهُ ، وليتَهُ نجا منهُ رأساً برأسٍ ؛ وهيهاتَ هيهاتَ !! فخطرُ العلْمِ عظيمٌ ، وطالبُهُ طالبُ آلةِ الملْكِ المؤبَّدِ والنعيمِ السرمَدِ ، فلا ينفكُّ عنِ المُلْكِ أوِ الهُلْكِ ، وهوَ كطالبِ الملْكِ في الدنيا ، فإنْ لمْ تتفقْ لهُ الإصابةُ في الأموالِ . . لمْ يطمعْ في السلامةِ منَ الأرذالِ[٢] ، بلْ لا بدَّ مِنْ لزومِ أفضحِ الأحوالِ .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : في الرخصةِ في المناظرةِ فائدةٌ ، وهيَ ترغيبُ الناسِ في طلبِ العلمِ ؛ إذْ لولا حبُّ الرئاسةِ . . لاندرستِ العلومُ .

فقدْ صدقتَ فيما ذكرتَهُ مِنْ وجهٍ ، ولكنَّهُ غيرُ مفيدٍ ؛ إذْ لولا الوعدُ بالكرةِ والصولجانِ واللعبِ بالعصافيرِ . . ما رغبَ الصبيانُ في المكتبِ[٣] ، وذلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّ الرغبةَ فيهِ محمودةٌ ، ولولا حبُّ الرئاسةِ . . لاندرسَ العلمُ ، ولا يدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّ طالبَ الرئاسةِ ناجٍ ، بلْ هوَ مِنَ الذينَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِمْ : « إنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هـٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خَلَاقَ لهُمْ »[٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هـٰذا الدِّينَ بالرجلِ الفاجرِ »[٥]

فطالبُ الرئاسةِ في نفسِهِ هالكٌ ، وقدْ يصلحُ بسببِهِ غيرُهُ إنْ كانَ يدعو إلىٰ تركِ الدنيا ، وذلكَ فيمَنْ كانَ حالُهُ في ظاهرِ الأمرِ حالَ علماءِ السلفِ ، ولكنَّهُ يضمرُ قصدَ الجاهِ ؛ فمثالُهُ مثالُ الشمْعِ الذي يحترقُ في نفسِهِ ويستضيءُ بهِ غيرُهُ ؛ فصلاحُ غيرِهِ في هلاكِهِ[٦]

فأمَّا إذا كانَ يدعو إلىٰ طلبِ الدنيا . . فمثالُهُ مثالُ النارِ المحرقةِ التي تأكُلُ نفسَها وغيرَها .

فالعلماءُ ثلاثةٌ :

إمَّا مهلِكٌ نفسَهُ وغيرَهُ ، وهمُ المصرِّحونَ بطلبِ الدنيا والمقبلونَ عليها .

وإمَّا مسعِدٌ نفسَهُ وغيرَهُ ، وهمُ الداعونَ إلى اللهِ تعالى المتخلونَ عنِ الدنيا ظاهراً وباطناً .

وإمَّا مهلِكٌ نفسَهُ مسعِدٌ غيرَهُ ، وهوَ الذي يدعو إلى الآخرةِ وقدْ رفضَ الدنيا في ظاهرِهِ ، وقصدُهُ في الباطنِ قبولُ الخلقِ وإقامةُ الجاهِ .

فانظرْ مِنْ أيِّ الأقسامِ أنتَ ، ومَنِ الذي اشتغلتَ بالاعتدادِ لهُ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقبلُ غيرَ الخالصِ لوجهِهِ تعالىٰ مِنَ العلمِ والعملِ ، وسيأتيكَ في كتابِ الرياءِ بلْ في جميعِ ربعِ المهلكاتِ ما ينفي عنكَ الريبةَ فيهِ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١٨٢/١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٢) الأرذال : الذين يعيشون سالمين من الأكدار ، لعدم توجه الأعين إليهم . « إتحاف » (٣٠٣/١) .

(٣) **الصولجان** : عصاً يعطف طرفها ، يضرب بها الكرة على الدواب ، وهي لفظة فارسية معربة .

(٤) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٣٣) .

(٥) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) .

(٦) وقد روى الطبراني في « المعجم الكبير » (١٦٦/٢) مرفوعاً : « مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه » .

البَابُ الخَامِسُ
في آداب المتعلم والمعلم

أمَّا المتعلِّمُ : فآدابُهُ ووظائفُهُ الظاهرةُ كثيرةٌ ، ولـٰكنْ تَنْظِمُ تفاريعَها عشرُ جملٍ :

الوظيفةُ الأولىٰ : تقديمُ طهارةِ النفْسِ عنْ رذائلِ الأخلاقِ ومذمومِ الأوصافِ :

إذِ العلمُ عبادةُ القلبِ ، وصلاةُ السرِّ ، وقربةُ الباطنِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وكما لا تصحُّ الصلاةُ التي هيَ وظيفةُ الجوارحِ الظاهرةِ إلا بتطهيرِ الظاهرِ عنِ الأحداثِ والأخباثِ . . فكذٰلكَ لا تصحُّ عبادةُ الباطنِ وعمارةُ القلبِ بالعلمِ إلا بعدَ طهارتِهِ عنْ خبائثِ الأخلاقِ وأنجاسِ الأوصافِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الدِّينُ على النظافةِ »[1] ، وهوَ كذٰلكَ باطناً وظاهراً .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ تنبيهاً للعقولِ علىٰ أنَّ الطهارةَ والنجاسةَ غيرُ مقصورةٍ على الظواهرِ المدركةِ بالحسِّ ، فالمشركُ قدْ يكونُ نظيفَ الثوبِ مغسولَ البدنِ ، ولـٰكنَّهُ نجسُ الجوهرِ ؛ أي : باطنُهُ ملطَّخٌ بالخبائثِ .

والنجاسةُ عبارةٌ عمَّا يُجتنبُ ويُطلبُ البعدُ منهُ ، وخبائثُ صفاتِ الباطنِ أهمُّ بالاجتنابِ ؛ فإنَّها معَ خبثِها في الحالِ مهلكاتٌ في المآلِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تدخلُ الملائكةُ بيتاً فيهِ كلبٌ »[2] ، والقلبُ بيتٌ هوَ منزلُ الملائكةِ ومهبطُ أثرِهِمْ ومحلُّ استقرارِهِمْ ؛ والصفاتُ الرديئةُ مثلُ الغضبِ والشهوةِ ، والحقدِ والحسدِ ، والكبرِ والعجبِ ، وأخواتِها . . كلابٌ نابحةٌ ؛ فأنَّىٰ تدخلُهُ الملائكةُ وهوَ مشحونٌ بالكلابِ ، ونورُ العلمِ لا يقذفُهُ اللهُ في القلبِ إلا بواسطةِ الملائكةِ ؟! ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ، وهـٰكذا ما يرسلُ مِنْ رحمةِ العلومِ إلى القلوبِ إنَّما تتولاها الملائكةُ الموكَّلونَ بها ، وهمُ المقدَّسونَ المطهَّرونَ المبرَّؤونَ عنِ المذموماتِ ، فلا يلاحظونَ إلا طيِّباً ، ولا يَعْمُرُونَ بما عندَهُمْ مِنْ خزائنِ رحمةِ اللهِ إلا طيباً طاهراً[3]

ولستُ أقولُ : المرادُ بلفظِ البيتِ هوَ القلبُ ، وبالكلبِ هوَ الغضبُ والصفاتُ المذمومةُ ، ولـٰكنِّي أقولُ : هوَ تنبيهٌ عليهِ ، وفرقٌ بينَ تغييرِ الظواهرِ إلى البواطنِ وبينَ التنبُّهِ للبواطنِ مِنْ ذكرِ الظواهرِ معَ تقريرِ الظواهرِ ، ففارقَ الباطنيةَ بهـٰذهِ الدقيقةِ ، فإنَّ هـٰذا طريقُ الاعتبارِ ، وهوَ مسلكُ العلماءِ والأبرارِ ؛ إذْ معنى الاعتبارِ أنْ تعبرَ ممَّا ذكرَ إلىٰ غيرِهِ ، فلا

---

(١) رواه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١/١٧٦) بلفظ : « فإن الله بنى الإسلام على النظافة » ، وعند الترمذي (٢٧٩٩) : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة . . . » .

(٢) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

(٣) قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ : (**فإن قلت** : كيف آمن من كفر ، وأطاع من عصىٰ ، واهتدىٰ من ضل ، إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضال بما يبثون فيه من الأخلاق المذمومة : . . وأصنافُ الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة ، وهي لا تدخل موضعاً يحل فيه شيء مما ذكرنا ، وإذا لم تدخل . . لم تصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه ، فعلىٰ هـٰذا يجب أن يبقىٰ كل كافر علىٰ حاله ، ومن لم يخلق مؤمناً معصوماً . . فلا سبيل له إلى الإيمان علىٰ هـٰذا المفهوم . **فالجواب** : إن للشياطين غفلات ، وللأخلاق المذمومة عزمات ، كما أن للملائكة غيبات ولتواتر الخير عليها فترات ، فإذا وجد الملك قلباً خالياً ولو زمناً فرداً . . حلَّ فيه ، وأراه ما عنده من الخير ، فإن صادف منه قبولاً ، ولما عَرَضَ عليه من الخير تشوُّفاً ونزوعاً . . أورد عليه ما يملؤه ويستغرق لبَّه ، وإن صادف منه ضجراً ، وسمع منه بجنود الشياطين استغاثةً ، وبالأخلاق الكلابية استعانةً . . رحل عنه وتركه) . « الإملاء » (ص ٨٥) أول الكتاب .

تقتصرُ عليهِ ؛ كما يرى العاقلُ مصيبةً لغيرِهِ فيكونُ لهُ فيها عبرةٌ بأنْ يعبرَ منها إلى التنبُّهِ لكونِهِ أيضاً عرضةً للمصائبِ ، وكونِ الدنيا بصددِ الانقلابِ ؛ فعبورُهُ مِنْ غيرِهِ إلىٰ نفسِهِ ، ومِنْ نفسِهِ إلىٰ أصلِ الدنيا . . عبرةٌ محمودةٌ .

فاعبرْ أنتَ أيضاً مِنَ البيتِ الذي هوَ بناءُ الخلقِ إلى القلبِ الذي هوَ بيتٌ مِنْ بناءِ اللهِ تعالىٰ ، ومِنَ الكلبِ الذي ذُمَّ لصفتِهِ لا لصورتِهِ وهوَ ما فيهِ مِنْ سَبُعيَّةٍ ونجاسةٍ إلىٰ روحِ الكلبيةِ وهيَ السبُعيَّةُ .

واعلمْ : أنَّ القلبَ المشحونَ بالغضبِ ، والشَّرَهِ إلى الدنيا ، والتكالبِ عليها ، والحرصِ على التمزيقِ لأعراضِ الناسِ . . كلبٌ في المعنىٰ ، وقلبٌ في الصورةِ ، فنورُ البصيرةِ يلاحظُ المعانيَ دونَ الصورِ ؛ والصورُ في هـٰذا العالمِ غالبةٌ على المعاني ، والمعاني باطنةٌ فيها ، وفي الآخرةِ تتبعُ الصورُ المعانيَ ، وتغلبُ المعاني ، فلذٰلكَ يُحشرُ كلُّ شخصٍ علىٰ صورتِهِ المعنويةِ ، فيُحشرُ الممزِّقُ لأعراضِ الناسِ كلباً ضارياً ، والشرِهُ إلىٰ أموالِهِمْ ذئباً عادياً ، والمتكبِّرُ عليهِمْ في صورةِ نمرٍ ، وطالبُ الرئاسةِ في صورةِ أسدٍ .

وقدْ وردتْ بذٰلكَ الأخبارُ ، وشهدَ بهِ الاعتبارُ عندَ ذوي البصائرِ والأبصارِ [١] ، وشهدَ به شواهدُ الرؤيا ؛ فإنَّ النائمَ لما بَعُدَ عنْ عالمِ المحسوساتِ . . قربَ مِنْ ذٰلك العالمِ ؛ إذِ النومُ أخو الموتِ ، فيرىٰ في النومِ الموصوفينَ بهـٰذهِ الصفاتِ علىٰ هـٰذهِ الصُّورِ التي ذكرناها [٢]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : كمْ مِنْ طالبٍ رديءِ الأخلاقِ حصَّلَ العلومَ !!

فهيهاتَ ما أبعدَكَ عَنِ العلْمِ الحقيقيِّ النافعِ في الآخرةِ الجالبِ للسعادةِ !! فإنَّ مِنْ أوائلِ ذٰلكَ العلمِ أنْ يظهرَ لهُ أنَّ المعاصيَ سمومٌ قاتلةٌ مهلكةٌ ، وهلْ رأيتَ مَنْ يتناولُ سمّاً معَ علمِهِ بكونِهِ سمّاً قاتلاً ؟!

إنَّما الذي تسمعُهُ مِنَ المترسِّمينَ حديثٌ تلقَّفُوهُ ، يوردونَهُ بألسنتِهِمْ مرَّةً ، ويرددونَهُ بقلوبِهِمْ أخرىٰ ، وليسَ ذٰلكَ مِنَ العلمِ في شيءٍ ؛ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ، إنَّما العلمُ نورٌ يُقذفُ في القلبِ) [٣] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنما العلمُ الخشيةُ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾) [٤]

وكأنَّهُ إشارةٌ إلىٰ أخصِّ ثمراتِ العلمِ ، ولذٰلكَ قالَ بعضُ المحققينَ : معنىٰ قولِهِمْ : (تعلَّمْنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العلمُ أنْ يكونَ إلا للهِ) [٥] : أنَّ العلمَ أبىٰ وامتنعَ علينا ، فلمْ تنكشفْ لنا حقيقتُهُ ، وإنَّما حصلَ لنا حديثُهُ وألفاظُهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) فما جادت به قريحة المؤلف من لطائف إشارات النصوص دليلُ فهم واستبصار ، قال رحمه الله تعالىٰ : (ولا نكير في ذٰلك إذا دلَّ عليه العلم وحملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستفتاة ، ولم تصادم به شيئاً من أركان الشريعة ، فلا تكن جامداً ، ولا تجزع من تشنيع جاهل ، ولا من نفور مقلد ؛ فكثيراً ما ورد شرع مقرون بسبب ، فرأىٰ أهل الاعتبار وجه تعدِّيه عن سببه إلىٰ ما هو في معناه ، ومشابهٍ له من الجهة التي تصلح أن يعدَّىٰ بها إليه ، ولولا ذٰلك . . لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ربَّ مبلغ أوعىٰ من سامع ، وربَّ حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه ») . « الإملاء » (ص ١٠٤) .

(٢) من قوله : (وشهد به شواهد) إلىٰ قوله : (التي ذكرناها) زيادة من (أ) ، ويؤكد نسبتها له ما في « كيمياء السعادة » (ص ١٢٠) ، والله أعلم .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٨٦٧) وفيه : (ولـٰكن العلم الخشية) كما هو في الخبر اللاحق .

(٤) وهو ـ كما سبق ـ لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو في « الحلية » (١٣١/١) ، وانظر « الدر المنثور » (٢٠/٧) .

(٥) هو قول سفيان الثوري كما صرح به الإمام الغزالي في كتاب (العزلة) .

فإنْ قلتَ : إنّي أرىٰ جماعةً مِنَ الفقهاءِ المحقّقينَ برّزوا في الفروعِ والأصولِ ، وعُدُّوا مِنْ جملةِ الفحولِ ، وأخلاقُهُمْ ذميمةٌ لمْ يتطهَّروا منها .

فيقالُ : إذا عرفتَ مراتبَ العلومِ ، وعرفتَ علمَ الآخرةِ . . استبانَ لكَ أنَّ ما اشتغلوا بهِ قليلُ الغَناءِ مِنْ حيثُ كونُهُ علماً ، وإنَّما غناؤُهُ مِنْ حيثُ كونُهُ عملاً للهِ تعالىٰ ، إذا قُصِدَ بهِ التقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ .

وقدْ سبقَ إلىٰ هٰذا إشارةٌ ، وسيأتيكَ فيهِ مزيدُ بيانٍ وإيضاحٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ[1]

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثانيةُ : أنْ يقلِّلَ علائقَهُ مِنْ أشغالِ الدنيا ويبعدَ عَنِ الأهلِ والوطنِ :

فإنَّ العلائقَ شاغلةٌ وصارفةٌ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ ، ومهما توزعتِ الفكرةُ . . قَصُرَتْ عنْ دَرْكِ الحقائقِ ، ولذٰلكَ قيلَ : (العلمُ لا يعطيكَ بعضَهُ حتَّىٰ تعطيَهُ كُلَّكَ ، فإذا أعطيتَهُ كُلَّكَ . . فأنتَ مِنْ إعطائِهِ إيَّاكَ بعضَهُ علىٰ خطرٍ)[2]

والفكرةُ المتوزِّعَةُ علىٰ أمورٍ متفرِّقةٍ كجدولٍ تفرَّقَ ماؤُهُ ، فنَشِفَتِ الأرضُ بعضَهُ ، واختطفَ الهواءُ بعضَهُ ، فلا يبقىٰ منهُ ما يجتمعُ ويبلغُ المُزْدَرَعَ[3]

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثالثةُ : ألا يتكبَّرَ على العلمِ ولا يتأمَّرَ على المعلِّمِ :

بلْ يلقي إليهِ زمامَ أمرِهِ بالكلِّيَّةِ في كلِّ تفصيلٍ ، ويذعنُ لنصحِهِ إذعانَ المريضِ الجاهلِ للطبيبِ المشفقِ الحاذقِ .

وينبغي أنْ يتواضعَ لمعلِّمِهِ ويطلبَ الثوابَ والشرفَ بخدمتِهِ ، قالَ الشعبيُّ : صلَّىٰ زيدُ بنُ ثابتٍ علىٰ جِنازةٍ ، فقُرِّبَتْ إليهِ بغلتُهُ ليركبَها ، فجاءَ ابنُ عباسٍ فأخذَ بركابِهِ ، فقالَ زيدٌ : خلِّ عنهُ يا بنَ عمِّ رسولِ اللهِ ، فقالَ ابنُ عباسٍ : هٰكذا أُمِرْنا أنْ نفعلَ بالعلماءِ والكبراءِ[4] ، فقبَّلَ زيدُ بنُ ثابتٍ يدَهُ وقالَ : هٰكذا أمِرْنا أنْ نفعلَ بأهلِ بيتِ نبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ مِنْ أخلاقِ المؤمنِ التملُّقُ إلا في طلبِ العلمِ »[6]

فلا ينبغي للطالبِ أنْ يتكبَّرَ على المعلِّمِ ، ومِنْ تكبُّرِهِ على المعلِّمِ أنْ يستنكفَ مِنَ الاستفادةِ إلا مِنَ المرموقينَ المشهورينَ ، وهوَ عينُ الحماقةِ ؛ فإنَّ العلمَ سببُ النجاةِ والسعادةِ ، ومَنْ يطلبُ مهرباً مِنْ سبُعٍ ضارٍ يفترسُهُ . . لمْ يفرِّقْ بينَ أنْ يرشدَهُ إلى الهربِ مشهورٌ أوْ خاملٌ ، وضراوةُ سباعِ النارِ بالجهَّالِ باللهِ تعالىٰ أشدُّ مِنْ ضراوةِ كلِّ سبعٍ .

---

(١) في ذكر العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة .

(٢) الفقيه والمتفقه (٨٦٤) ، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٥٧٠) .

(٣) **المزدرع** : موضع الزراعة .

(٤) **الكبراء هنا** : ذوو الأسنان والشيوخ .

(٥) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٣٢) بتمامه ، وأصله عند الطبراني في « الكبير » (٥/١٠٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/٤٢٣) .

(٦) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٥٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٤٧٣) .

فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ ، يغتنمُها حيثُ يظفرُ بها ، ويتقلَّدُ المنَّةَ لمَنْ ساقَها إليهِ كائناً مَنْ كانَ ، ولذٰلكَ قيلَ : [من الكامل]

اَلْعِلْمُ حَرْبٌ لِلْفَتَى الْمُتَعَالِي ... كَالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي (١)

فلا يُنالُ العلْمُ إلا بالتواضعِ وإلقاءِ السمعِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ، ومعنىٰ كونِهِ ذا قلبٍ : أنْ يكونَ قابلاً للعلمِ فَهِماً ، ثمَّ لا تغنيهِ القدرةُ على الفهْمِ حتَّىٰ يُلْقِيَ السمعَ وهوَ شهيدٌ حاضرُ القلبِ ، يستقبلُ كلَّ ما يُلقىٰ إليهِ بحسْنِ الإصغاءِ والضراعةِ والشكرِ والفرحِ وقبولِ المنَّةِ .

فليكنِ المتعلِّمُ لمعلِّمِهِ كأرضٍ دَمْثَةٍ (٢) نالتْ مطراً غزيراً ، فشربتْ بجميعِ أجزائِها ، وأذعنتْ بالكلِّيَّةِ لقبولِهِ ، ومهما أشارَ عليهِ المعلِّمُ بطريقٍ في التعلُّمِ . . فليقلِّدْهُ وليدعْ رأيَهُ ؛ فإنَّ خطأَ مرشدِهِ أنفعُ لهُ مِنْ صوابِهِ في نفسِهِ ؛ إذِ التجربةُ تُطلِعُ علىٰ دقائقَ يُستغربُ سماعُها معَ أنَّهُ يعظُمُ نفعُها ، فكمْ مِنْ مريضٍ محرورٍ يعالجُهُ الطبيبُ في بعضِ أوقاتِهِ بالحرارةِ ؛ ليزيدَ في قوَّتِهِ إلىٰ حدٍّ يحتملُ صدمةَ العلاجِ ، فيتعجَّبُ منهُ مَنْ لا خبرةَ لهُ .

وقدْ نبَّهَ اللهُ تعالىٰ بقصَّةِ الخضرِ وموسىٰ عليهما السلامُ حيثُ قالَ الخضرُ : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ ، ثمَّ شرطَ عليهِ السكوتَ والتسليمَ فقالَ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ، ثمَّ لمْ يصبرْ ولمْ يزلْ في مرادَّتِهِ إلىٰ أنْ كانَ ذٰلكَ سببَ فراقِ ما بينَهما .

وبالجملةِ : كلُّ متعلِّمٍ استبقىٰ لنفسِهِ رأياً واختياراً وراءَ اختيارِ المعلِّمِ . . فاحكمْ عليهِ بالإخفاقِ والخسرانِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فالسؤالُ مأمورٌ بهِ .

فاعلمْ : أنَّهُ كذٰلكَ ، ولٰكنْ فيما يأذنُ المعلِّمُ في السؤالِ عنهُ ؛ فإنَّ السؤالَ عمَّا لمْ تبلغْ رتبتُكَ إلىٰ فهمِهِ مذمومٌ ، ولذٰلكَ منعَ الخضرُ موسىٰ عليهما السلامُ عنِ السؤالِ ؛ أي : دَعِ السؤالَ قبلَ أوانِهِ ، فالمعلِّمُ أعلمُ بما أنتَ أهلٌ لهُ ، وبأوانِ الكشْفِ ، وما لمْ يدخلْ أوانُ الكشفِ في كلِّ درجةٍ مِنْ مراقي الدرجاتِ . . لا يدخلُ أوانُ السؤالِ عنهُ .

وقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ مِنْ حقِّ العالمِ : ألا تكثرَ عليهِ بالسؤالِ ، ولا تعنِّتَهُ في الجوابِ ، ولا تلحَّ عليهِ إذا كسلَ ، ولا تأخذَ بثوبِهِ إذا نهضَ ، ولا تفشيَ لهُ سرّاً ، ولا تغتابَنَّ عندَهُ أحداً ، ولا تطلبَنَّ عَثْرَتَهُ ، وإنْ زلَّ . . قبلتَ معذرتَهُ ، وعليكَ أنْ توقِّرَهُ وتعظِّمَهُ للهِ تعالىٰ ما دامَ يحفظُ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، ولا تجلسْ أمامَهُ ، وإنْ كانتْ لهُ حاجةٌ . . سبقْتَ القومَ إلىٰ خدمتِهِ) (٣)

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الرابعةُ : أنْ يحترزَ الخائضُ في العلمِ في مبدأ الأمرِ عنِ الإصغاءِ إلى اختلافِ الناسِ ، سواءٌ كانَ ما خاضَ فيهِ مِنْ علومِ الدنيا أوْ مِنْ علومِ الآخرةِ :

---

(١) انظر « التبيان » (ص ٦٣) ، و« المجموع » (٦٢/١) ، و« نشر طي التعريف » (ص ٢٤٥) .

(٢) الدمثة : الأرض السهلة المنخفضة .

(٣) الفقيه والمتفقه (٨٥٦) بنحوه .

فإنَّ ذٰلكَ يدهشُ عقلَهُ ويحيّرُ ذهنَهُ ، ويفتّرُ رأيَهُ ويؤيسُهُ عنِ الإدراكِ والاطلاعِ ، بلْ ينبغي أنْ يتقنَ أولاً الطريقةَ الحميدةَ الواحدةَ المرضيةَ عندَ أستاذِهِ ، ثمَّ بعدَ ذٰلكَ يصغي إلى المذاهبِ والشُّبَهِ .

وإنْ لمْ يكنْ أستاذُهُ مستقلاً باختيارِ رأيٍ واحدٍ وإنَّما عادتُهُ نقلُ المذاهبِ وما قيلَ فيها . . فليحذرْ منهُ ؛ فإنَّ إضلالَهُ أكثرُ مِنْ إرشادِهِ ، ولا يصلحُ الأعمىٰ لقودِ العميانِ وإرشادِهِمْ ، ومَنْ هٰذا حالُهُ فهوَ بعدُ في عمى الحَيْرةِ وتيهِ الجهلِ .

ومنعُ المبتدئ عَنِ الشبهِ يضاهي منعَ الحديثِ العهدِ بالإسلامِ عنْ مخالطةِ الكفارِ ، وندبُ القويّ إلى النظرِ في الاختلافاتِ يضاهي حثَّ القويّ علىٰ مخالطةِ الكفارِ ، ولذٰلكَ يُمنعُ العاجزُ عنِ التهجُّمِ علىٰ صفِّ الكفارِ ، ويندبُ الشجاعُ لهُ .

ومِنَ الغفلةِ عنْ هٰذهِ الدقيقةِ ظنَّ بعضُ الضعفاءِ أنَّ الاقتداءَ بالأقوياءِ فيما يُنقلُ عنهُمْ مِنَ المساهلاتِ جائزٌ ، ولمْ يدركْ أنَّ وظائفَ الأقوياءِ تخالفُ وظائفَ الضعفاءِ ، ولذٰلكَ قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ رآني في البدايةِ . . صارَ صدّيقاً ، ومَنْ رآني في النهايةِ . . صارَ زنديقاً)[1] ؛ إذِ النهايةُ تردُّ الأعمالَ إلى الباطنِ ، وتسكّنُ الجوارحَ إلا عنْ رواتبِ الفرائضِ ، فيتراءىٰ إلى الناظرِ أنَّهُ بطالةٌ وكسلٌ وإهمالٌ ، وهيهاتَ هيهاتَ !! فذٰلكَ مرابطةٌ للقلبِ في عينِ الشهودِ والحضورِ ، وملازمةٌ للذكرِ الذي هوَ أفضلُ الأعمالِ على الدوامِ .

وتشبُّهُ الضعيفِ بالقويّ فيما يَرَىٰ مِنْ ظاهرِهِ أنَّهُ هفوةٌ يضاهي اعتذارَ مَنْ يُلقي نجاسةً يسيرةً في كوزِ ماءٍ ويتعلَّلُ بأنَّ أضعافَ هٰذهِ النجاسةِ قدْ يُلقىٰ في البحرِ والبحرُ أعظمُ مِنَ الكوزِ ، فما جازَ للبحرِ . . فهوَ للكوزِ أجوزُ ، ولا يدري المسكينُ أنَّ البحرَ بقوَّتِهِ يحيلُ النجاسةَ ماءً ، فتنقلبُ عينُ النجاسةِ باستيلائِهِ إلىٰ صفتِهِ ، والقليلُ مِنَ النجاسةِ يغلبُ الكوزَ ويحيلُهُ إلىٰ صفتِهِ .

وبمثلِ هٰذا جُوِّزَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما لمْ يُجوَّزْ لغيرِهِ ؛ حتَّىٰ أُبيحَ لهُ تِسْعُ نِسوةٍ[2] ؛ إذْ كانَ لهُ مِنَ القوَّةِ ما يتعدَّىٰ منهُ صفةُ العدلِ إلىٰ نسائِهِ وإنْ كثرْنَ ، وأمَّا غيرُهُ . . فلا يقدرُ علىٰ بعضِ العدْلِ ، بلْ يتعدَّىٰ ما بينَهُنَّ مِنَ الضرارِ إليهِ ، حتَّىٰ ينجرَّ إلىٰ معصيةِ اللهِ تعالىٰ في طلبِ رضاهنَّ ، فما أفلحَ مَنْ قاسَ الملائكةَ بالحدَّادينَ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الخامسةُ : ألا يدعَ طالبُ العلومِ فنّاً مِنَ العلومِ المحمودةِ ولا نوعاً مِنْ أنواعِها إلا وينظرُ فيهِ نظراً يطلعُ بهِ علىٰ مقصدِهِ وغايتِهِ :

ثمَّ إنْ ساعدَهُ العُمُرُ . . طلبَ التبحُّرَ فيهِ ، وإلا . . اشتغلَ بالأهمِّ منهُ واستوفاهُ ، وتطرَّفَ مِنَ البقيةِ[3] ؛ فإنَّ العلومَ متعاونةٌ ، وبعضَها مرتبطٌ بالبعضِ .

ويستفيدُ منهُ في الحالِ الانفكاكَ عنْ عداوةِ ذٰلكَ العلمِ بسببِ جهلِهِ ؛ فإنَّ الناسَ أعداءُ ما جهلوا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ .

---

(١) ميزان العمل (ص ٣٤٧) .

(٢) كما روى البخاري (٢٦٨) ، ولفظ (تسع نسوة) من رواية سعيد عن قتادة عن أنس عنده ، وفيه كذٰلك رواية (إحدىٰ عشرة) .

(٣) أي : أخذ منها الطرف والنوادر المحتاج إليها في حال طلبه . « إتحاف » (٣٢١/١) .

وقالَ الشاعرُ[1] :	[من الوافر]

وَمَــنْ يَــكُ ذا فَــمٍ مُــرٍّ مَـرِيـضٍ	يَـجِـدْ مُــرّاً بِــهِ الْـمـاءَ الـزُّلالا

فالعلومُ علىٰ درجاتِها : إمَّا سالكةٌ بالعبدِ إلى اللهِ تعالىٰ ، أوْ معينةٌ على السلوكِ نوعاً مِنَ الإعانةِ ، ولها منازلُ مرتَّبةٌ في القربِ والبعدِ مِنَ المقصودِ ، والقُوَّامُ بها حفظةٌ كحفّاظِ الرباطاتِ والثغورِ ، ولكلٍّ واحدٍ رتبةٌ ، ولهُ بحسَبِ درجتِهِ أجرٌ في الآخرةِ إذا قصدَ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ السادسةُ : إنَّ العمرَ إذا كانَ لا يتسعُ لجميعِ العلومِ غالباً . . فالحزمُ أنْ يأخذَ مِنْ كلِّ شيءٍ أحسنَهُ :

ويكتفيَ منهُ بشمَّةٍ ، ويصرفَ جِمامَ قوَّتِهِ في الميسورِ مِنْ علمِهِ إلى استكمالِ العلمِ الذي هوَ أشرفُ العلومِ وهوَ علمُ الآخرةِ ؛ أعني : قسمي المعاملةِ والمكاشفةِ ، فغايةُ المعاملةِ المكاشفةُ ، وغايةُ المكاشفةِ معرفةُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

ولستُ أعني بهِ الاعتقادَ الذي تلقَّنَهُ العاميُّ وراثةً أوْ تلقُّفاً ، ولا طريقَ تحريرِ الكلامِ والمجادلةِ في تحصينِ ذٰلكَ عنْ مراوغاتِ الخصومِ كما هوَ غايةُ المتكلِّمِ ، بلِ الذي أعنيهِ نوعُ يقينٍ هوَ ثمرةُ نورٍ يقذفُهُ اللهُ تعالىٰ في قلبِ عبدٍ طهَّرَ بالمجاهدةِ باطنَهُ عنِ الخبائثِ حتىٰ ينتهيَ إلىٰ رتبةِ إيمانِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الذي لوْ وُزِنَ بإيمانِ العالمينَ . . لرجحَ ، كما شهدَ لهُ بهِ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] ، فما عندي[3] أنَّ ما يعتقدُهُ العاميُّ ويرتِّبُهُ المتكلِّمُ الذي لا يزيدُ على العاميِّ إلا في صنعةِ الكلامِ ولأجلِهِ سمِّيتْ صناعتُهُ كلاماً . . كانَ يعجَزُ عنهُ عمرُ وعثمانُ وعليٌّ وسائرُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، حتَّىٰ كانَ يفضُلُهُمْ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بالسرِّ الذي وَقَرَ في صدرِهِ .

والعجَبُ ممَّنْ يسمعُ مثلَ هٰذهِ الأقوالِ مِنْ صاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ ثمَّ يزدري ما يسمعُهُ علىٰ وَفْقِهِ ، ويزعمُ أنَّهُ مِنْ ترَّهاتِ الصوفيةِ ، وأنَّ ذٰلكَ غيرُ معقولٍ .

فينبغي أنْ تتئِدَ في هٰذا ، فعندَهُ ضيَّعْتَ رأسَ المالِ ، وكنْ حريصاً علىٰ معرفةِ ذٰلكَ السرِّ الخارجِ عنْ بضاعةِ الفقهاءِ والمتكلمينَ ، فلا يرشدُكَ إليهِ إلا حرصُكَ في الطلبِ .

وعلى الجملةِ : فأشرفُ العلومِ وغايتُها معرفةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهيَ بحرٌ لا يُدركُ منتهىٰ غورِهِ ، وأقصىٰ درجاتِ البشرِ فيهِ رتبةُ الأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الذين يلونَهُمْ .

وقد رُوِيَ أنَّهُ رُئِيَ صورةُ حَكِيمينِ مِنَ الحكماءِ المتقدمينَ في مسجدٍ وفي يدِ أحدِهما رقعةٌ فيها : (إنْ أحسنْتَ كلَّ شيءٍ . . فلا تظنَّنَّ أنَّكَ أحسنْتَ شيئاً حتَّىٰ تعرفَ اللهَ تعالىٰ وتعلمَ أنَّه مسببُ الأسبابِ وموجدُ الأشياءِ) ، وفي يدِ الآخرِ : (كنتُ قبلَ أنْ أعرفَ اللهَ سبحانَهُ أشربُ وأظمأُ ، حتَّىٰ إذا عرفتُهُ . . رَوِيتُ بلا شرْبٍ) .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ السابعةُ : ألا يخوضَ في فنونِ العلمِ دفعةً ، بلْ يراعي الترتيبَ ، فيبدأُ بالأهمِّ فالأهمِّ ، ولا يخوضُ في فنٍّ حتَّىٰ يستوفيَ الفنَّ الذي قبلَهُ :

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/٢٢٨) .

(٢) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٤/٢٠١) ، والبيهقي موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه في « الشعب » (٣٥) .

(٣) (ما) هنا نافية ؛ أي : ليس عندي .

فإنَّ العلومَ مرتبةٌ ترتيباً ضرورياً ، وبعضُها طريقٌ إلىٰ بعضٍ ، والموفَّقُ مراعي ذٰلكَ الترتيبِ والتدريجِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أيْ : لا يجاوزونَ فنّاً حتّىٰ يحكموهُ علماً وعملاً .

وليكنْ قصدُهُ مِنْ كلِّ علمٍ يتحرَّاهُ الترقيَ إلىٰ ما فوقَهُ ، وينبغي ألا تحكمَ علىٰ علمٍ بالفسادِ لوقوعِ الاختلافِ بينَ أصحابِهِ فيهِ ، ولا بخطأٍ واحدٍ أو آحادٍ فيهِ ، ولا بمخالفتِهِمْ موجَبَ العلمِ بالعملِ ، فترىٰ جماعةً تركوا النظرَ في العقليَّاتِ والفقهيَّاتِ متعلِّلينَ فيها بأنَّها لوْ كانَ لها أصلٌ . . لأدركَها أربابُها ، وقدْ مضىٰ كشفُ هٰذهِ الشبهِ في كتابِنا « مِعيارُ العلمِ » ، وترىٰ طائفةً يعتقدونَ بطلانَ الطبِّ لخطأٍ شاهدوه من طبيبٍ .

وطائفةً اعتقدوا صحَّةَ النجومِ لصوابٍ اتفقَ لواحدٍ ، وطائفةً اعتقدوا بطلانَهُ لخطأٍ اتفقَ لواحدٍ ، والكلُّ خطأٌ ، بلْ ينبغي أنْ يُعرَفَ الشيءُ في نفسِهِ ، فلا كلُّ علمٍ يستقلُّ بهِ كلُّ شخصٍ ، ولذٰلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (لا تعرفِ الحقَّ بالرجالِ ، اعرفِ الحقَّ . . تعرفْ أهلَهُ) .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يعرفَ السببَ الذي بِهِ يُدركُ شرفُ العلومِ ، وأنَّ ذٰلكَ يُرادُ بهِ شيئانِ :

أحدُهما : شرفُ الثمرةِ .

والثاني : وثاقةُ الدليلِ وقوَّتُهُ .

وذٰلكَ كعلْمِ الدينِ وعلْمِ الطبِّ ؛ فإنَّ ثمرةَ أحدِهما الحياةُ الأبديةُ ، وثمرةَ الآخرِ الحياةُ الفانيةُ ، فيكونُ علمُ الدينِ أشرفَ .

ومثلُ علمِ الحسابِ وعلمِ النجومِ ؛ فإنَّ علمَ الحسابِ أشرفُ ؛ لوثاقةِ أدلتِهِ وقوَّتِها .

وإذا نُسبَ الحسابُ إلى الطبِّ . . كانَ الطبُّ أشرفَ باعتبارِ ثمرتِهِ ، والحسابُ أشرفَ باعتبارِ أدلَّتِهِ ، وملاحظةُ الثمرةِ أولىٰ ، ولذٰلكَ كانَ الطبُّ أشرفَ وإنْ كانَ أكثرُهُ بالتخمينِ .

وبهٰذا يتبينُ أنَّ أشرفَ العلومِ العلمُ باللهِ عزَّ وجلَّ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، والعلمُ بالطريقِ الموصلِ إلىٰ هٰذهِ العلومِ ، فإيَّاكَ وأنْ ترغبَ إلا فيهِ ، وأنْ تحرصَ إلا عليهِ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ التاسعةُ : أنْ يكونَ قصدُ المتعلِّمِ في الحالِ تحليةَ باطنِهِ وتجميلَهُ بالفضيلةِ ، وفي المآلِ القربَ مِنَ اللهِ سبحانَهُ والترقِّيَ إلىٰ جوارِ الملأ الأعلىٰ مِنَ الملائكةِ والمقرَّبينَ :

ولا يقصدُ بهِ الرئاسةَ والمالَ والجاهَ ومماراةَ السفهاءِ ومباهاةَ الأقرانِ ، وإذا كانَ هٰذا[1] مقصدَهُ . . طلبَ ـ لا محالةَ ـ الأقربَ إلىٰ مقصودِهِ ، وهوَ علمُ الآخرةِ ، ومعَ هٰذا فلا ينبغي له أنْ ينظرَ بعينِ الحقارةِ إلىٰ سائرِ العلومِ ؛ أعني : علمَ الفتاوىٰ ، وعلمَ النحوِ واللغةِ المتعلِّقَينِ بالكتابِ والسنةِ ، وغيرَ ذٰلكَ ممَّا أوردناهُ في المقدِّماتِ والمتمِّماتِ مِنْ ضروبِ العلومِ التي هيَ فرضُ كفايةٍ .

ولا تفهمَنَّ مِنْ غلوِّنا في الثناءِ علىٰ علمِ الآخرةِ تهجينَ هٰذهِ العلومِ ؛ فالمتكفِّلونَ بالعلومِ كالمتكفِّلينَ بالثغورِ

(١) يعني : الوصول إلى الله تعالىٰ . « إتحاف » (١/٣٢٦) .

والمرابطينَ بها ، والغزاةِ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ ؛ فمنهُمُ المقاتلُ ، ومنهُمُ الرِّدْءُ ، ومنهُمُ الذي يسقيهِمُ الماءَ ، ومنهُمُ الذي يحفظُ دوابَّهُمْ ويتعهَّدُها ، ولا ينفكُّ واحدٌ منهُمْ عنْ أجرٍ إذا كانَ قصدُهُ إعلاءَ كلمةِ اللهِ تعالىٰ دونَ حيازةِ الغنائمِ ، فكذٰلكَ العلماءُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

والفضيلةُ نسبيَّةٌ ، واستحقارُنا للصيارفةِ عندَ قياسِهِمْ بالملوكِ لا يدلُّ علىٰ حقارتِهِمْ إذا قيسوا بالكنَّاسينَ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ما نزلَ عنِ الرتبةِ القصوىٰ ساقطُ القدْرِ ، بلِ الرتبةُ العليا للأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ العلماءِ الراسخينَ في العلمِ ، ثم للصالحينَ علىٰ تفاوتِ درجاتِهِمْ .

وبالجملةِ : مَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً . . يَرهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً . . يَرهُ ، ومَنْ قصدَ اللهَ تعالىٰ بالعلمِ أيَّ علمٍ كانَ . . نفعَهُ ورفعَهُ لا محالةَ .

❋ ❋ ❋

الوظيفةُ العاشرةُ : أنْ يعلمَ نسبةَ العلومِ إلى المقصدِ :

كيما يؤثِرَ الرفيعَ القريبَ على البعيدِ ، والمهمَّ علىٰ غيرِهِ ، ومعنى المهمّ : ما يهمُّكَ ، ولا يهمُّكَ إلا شأنُكَ في الدنيا والآخرةِ ، وإذا لم يمكنِ الجمعُ بينَ ملاذِّ الدنيا ونعيمِ الآخرةِ كما نطقَ بهِ القرآنُ وشهدَ لهُ مِنْ نورِ البصائرِ ما يجري مَجرى العيانِ . . فالأهمُّ ما يبقىٰ أبدَ الآبادِ ؛ وعندَ ذٰلكَ تصيرُ الدنيا منزلاً ، والبدنُ مركباً ، والأعمالُ سعياً إلى المقصدِ ، ولا مقصدَ إلا لقاءُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ففيهِ النعيمُ كلُّهُ ، وإنْ كانَ لا يَعرفُ في هـٰذا العالَمِ قدرَهُ إلا الأقلُّونَ .

والعلومُ بالإضافةِ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ـ أعني النظرَ الذي طلبَهُ الأنبياءُ وفهموهُ ، دونَ ما يسبقُ إلىٰ فهْمِ العوامِّ والمتكلمينَ ـ علىٰ ثلاثِ مراتبَ ، تفهَمُها بالموازنةِ بمثالٍ :

وهوَ أنَّ العبدَ الذي عُلِّقَ عتقُهُ وتمكينُهُ منَ المُلْكِ بالحجِّ ، وقيلَ لهُ : إنْ حججْتَ وأتممتَ . . وصلتَ إلى العتْقِ والمُلْكِ جميعاً ، وإنِ ابتدأتَ بطريقِ الحجِّ والاستعدادِ لهُ وعاقَكَ في الطريقِ مانعٌ ضروريٌّ . . فلكَ العتْقُ والخلاصُ منْ شقاءِ الرقِّ فقطْ دونَ سعادةِ المُلْكِ . . فلهُ ثلاثةُ أصنافٍ مِنَ الشغلِ :

الأوَّلُ : تهيئةُ الأسبابِ بشراءِ الناقةِ وخرْزِ الراويةِ وإعدادِ الزادِ والراحلةِ .

والثاني : السلوكُ ومفارقةُ الوطنِ بالتوجُّهِ إلى الكعبةِ منزلاً بعدَ منزلٍ .

والثالثُ : الاشتغالُ بأعمالِ الحجِّ ركناً بعدَ ركنٍ .

ثمَّ بعدَ الفراغِ والنزوعِ عنْ هيئةِ الإحرامِ وطوافِ الوداعِ . . استحَقَّ التعرُّضَ للمُلْكِ والسلطنةِ ، ولهُ في كلِّ مقامٍ منازلُ ، مِنْ أوَّلِ إعدادِ الأسبابِ إلىٰ آخرِهِ ، ومِنْ أوَّلِ سلوكِ البوادي إلىٰ آخرِهِ ، ومِنْ أوَّلِ أركانِ الحجِّ إلىٰ آخرِهِ ، وليسَ قرْبُ مَنِ ابتدأَ بأركانِ الحجِّ مِنَ السعادةِ كقرْبِ مَنْ هوَ بعدُ في إعدادِ الزادِ والراحلةِ ، ولا كقربِ مَنِ ابتدأَ بالسلوكِ ، بلْ هوَ أقربُ منهُ .

فالعلومُ أيضاً ثلاثةُ أقسامٍ :

قسمٌ يجري مَجرىٰ إعدادِ الزادِ والراحلةِ وشراءِ الناقةِ : وهوَ علْمُ الطبِّ والفقهِ وما يتعلَّقُ بمصالحِ البدنِ في الدنيا .

وقسمٌ يجري مَجرىٰ سلوكِ البوادي وقطعِ العقباتِ : وهوَ تطهيرُ الباطنِ عنْ كدوراتِ الصفاتِ ، وطلوعُ تلكَ العقباتِ الشامخةِ التي عجزَ عنها الأوَّلونَ والآخرونَ إلا الموفقينَ ، فهٰذا سلوكُ الطريقِ ، وتحصيلُ علمِهِ كتحصيلِ علْمِ جهاتِ الطريقِ ومنازلِهِ ، وكما لا يغني علْمُ المنازلِ وطرقِ البوادي دونَ سلوكِها كذٰلكَ لا يغني علمُ تهذيبِ الأخلاقِ دونَ مباشرةِ التهذيبِ ، ولٰكنَّ المباشرةَ دونَ العلمِ غيرُ ممكنٍ .

وقسمٌ ثالثٌ يجري مَجرىٰ نفْسِ الحجِّ وأركانِهِ : وهوَ العلمُ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ وأفعالِهِ وجميعِ ما ذكرناهُ في تراجمِ علمِ المكاشفةِ .

وها هنا نجاةٌ وفوزٌ بالسعادةِ ، والنجاةُ حاصلةٌ لكلِّ سالكٍ للطريقِ إذا كانَ غرضُهُ المقصدَ الحقَّ وهوَ السلامةُ .

وأمَّا الفوزُ بالسعادةِ . . فلا ينالُهُ إلا العارفونَ باللهِ تعالىٰ ، فهمُ المقربونَ المنعَّمونَ في جوارِ اللهِ بالرَّوْحِ والريحانِ وجنَّةِ النعيمِ .

وأمَّا الممنوعونَ دونَ ذُروةِ الكمالِ . . فلهُمُ النجاةُ والسلامةُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۞ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۞ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ .

وكلُّ مَنْ لمْ يتوجَّهْ إلى المقصدِ ، ولمْ ينتهضْ لهُ ، أوِ انتهضَ إلىٰ جهتِهِ لا علىٰ قصدِ الامتثالِ والعبوديةِ ، بلْ لغرضٍ عاجلٍ . . فهوَ منْ أصحابِ الشمالِ ومنَ الضالينَ ، فلهُ نُزُلٌ منْ حَميمٍ وتصليةُ جحيمٍ .

واعلمْ : أنَّ هٰذا هوَ حقُّ اليقينِ عندَ العلماءِ الراسخينَ ؛ أعني أنهمْ أدركوهُ بمشاهدةٍ منَ الباطنِ هيَ أقوىٰ وأجلىٰ منْ مشاهدةِ الأبصارِ ، وترقَّوا فيهِ عنْ حدِّ التقليدِ بمجرَّدِ السماعِ ، وحالُهُمْ حالُ منْ أُخبرَ فصدَّقَ ، ثمَّ شاهدَ فتحقَّقَ ، وحالُ غيرِهِمْ حالُ مَنْ قَبِلَ بحسْنِ التصديقِ والإيمانِ ، ولمْ يحظَ بالمشاهدةِ والعِيانِ .

فالسعادةُ وراءَ علْمِ المكاشفةِ ، وعلْمُ المكاشفةِ وراءَ علمِ المعاملةِ التي هيَ سلوكُ طريقِ الآخرةِ ، وقطعُ عقباتِ الصفاتِ ، وسلوكُ طريقِ محوِ الصفاتِ المذمومةِ وراءَ علْمِ الصفاتِ وعلْمِ طريقِ المعالجةِ وكيفيةِ السلوكِ ، وذٰلكَ وراءَ علْمِ سلامةِ البدنِ ومساعدةِ أسبابِ الصحةِ ، وسلامةُ البدنِ بالاجتماعِ والتظاهرِ والتعاونِ الذي يُتوصَّلُ بهِ إلى الملبسِ والمطعمِ والمسكنِ ، وهوَ منوطٌ بالسلطانِ وقانونِهِ في ضبْطِ الناسِ علىٰ نهْجِ العدلِ والسياسةِ في ناصيةِ الفقيهِ .

وأمَّا أسبابُ الصحةِ . . ففي ناصيةِ الطبيبِ ، ومَنْ قالَ : (العلمُ علمانِ : علمُ الأبدانِ ، وعلمُ الأديانِ) وأشارَ بهِ إلى الفقهِ . . أرادَ بهِ العلومَ الظاهرةَ الشائعةَ ، لا العلومَ العزيزةَ الباطنةَ [1]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : لِمَ شبهتَ علمَ الفقهِ والطبِّ بإعدادِ الزادِ والراحلةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الساعيَ إلى اللهِ تعالىٰ لينالَ قربَهُ هوَ القلبُ دونَ البدنِ ، ولستُ أعني بالقلبِ اللحْمَ المحسوسَ ، بلْ هوَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يدركُهُ الحسُّ ، ولطيفةٌ منْ لطائفِهِ تارةً يُعبَّرُ عنهُ بالروحِ ، وتارةً بالنفسِ المطمئنةِ ، والشرعُ يعبِّرُ عنهُ بالقلبِ ؛ لأنَّهُ المطيةُ الأولىٰ لذٰلكَ السرِّ ، وبواسطتِهِ صارَ جميعُ البدنِ مطيةً وآلةً لتلكَ اللطيفةِ .

وكشفُ الغطاءِ عَنْ ذٰلكَ السرِّ مِنْ علْمِ المكاشفةِ ، وهوَ مضنونٌ بهِ ، بلْ لا رخصةَ في ذكرِهِ ، وغايةُ المأذونِ فيهِ أنْ

---

(١) والقول للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، كما في « حلية الأولياء » (٩/١٤٢) .

يقالَ : هوَ جوهرٌ نفيسٌ ودرٌّ عزيزٌ أشرفُ مِنْ هـٰذهِ الأجرامِ المرئيةِ ، وإنَّما هوَ أمْرٌ إلـٰهيٌّ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾

وكلُّ المخلوقاتِ منسوبةٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولـٰكنَّ نسبتَهُ أشرفُ مِنْ نسبةِ سائرِ أعضاءِ البدنِ ، فللهِ الخلْقُ والأمْرُ جميعاً ، والأمرُ أعلىٰ مِنَ الخلْقِ ، وهـٰذهِ الجوهرةُ النفيسةُ الحاملةُ لأمانةِ اللهِ تعالى المتقدمةُ بهـٰذهِ الرتبةِ على السماواتِ والأرضينَ والجبالِ إذْ أبَيْنَ أنْ يحملْنَها وأشفقْنَ منها . . هيَ مِنْ عالَمِ الأمرِ .

ولا تفهمْ مِنْ هـٰذا تعريضاً بقِدَمِهِ ، فالقائلُ بقِدَمِ الأرواحِ مغرورٌ جاهلٌ لا يدري ما يقولُ[1]

فلنقبضْ عِنانَ البيانِ عنْ هـٰذا الفنِّ ، فهوَ وراءَ ما نحنُ بصددِهِ .

❁ ❁ ❁

والمقصودُ : أنَّ هـٰذهِ اللطيفةَ هيَ الساعيةُ إلىٰ قرْبِ الربِّ ؛ لأنَّها مِنْ أمْرِ الربِّ ، فمنهُ مصدرُها ، وإليهِ مرجعُها ، وأمَّا البدنُ . . فمطيَّتُها التي تركبُها وتسعىٰ بواسطتِها ، فالبدنُ لها في طريقِ اللهِ تعالىٰ كالناقةِ للبدنِ في طريقِ الحجِّ ، وكالراويةِ الحاويةِ للماءِ الذي يفتقرُ إليهِ البدنُ .

فكلُّ علْمٍ مقصدُهُ مصلحةُ البدنِ . . فهوَ مِنْ جملةِ مصالحِ المطيَّةِ ، ولا يخفَىٰ أنَّ الطبَّ كذٰلكَ ؛ فإنَّه قدْ يُحتاجُ إليهِ في حفْظِ الصحةِ على البدنِ ، ولوْ كانَ الإنسانُ وحدَهُ . . لاحتاجَ إليهِ ، والفقهُ يفارقُهُ في أنَّهُ لوْ كانَ الإنسانُ وحدَهُ . . ربَّما كانَ يستغني عنهُ ، ولـٰكنَّهُ خُلِقَ علىٰ وجهٍ لا يمكنُهُ أنْ يعيشَ وحدَهُ ، إذْ لا يستقلُّ بالسعيِ في تحصيلِ طعامِهِ بالحراثةِ والزرْعِ والخبزِ والطبخِ ، وفي تحصيلِ الملبسِ والمسكنِ ، وفي إعدادِ آلاتِ ذٰلكَ كلِّهِ ، فاضطرَّ إلى المخالطةِ والاستعانةِ .

ومهما اختلطَ الناسُ وثارَتْ شهواتُهُمْ . . تجاذبوا أسبابَ الشهواتِ ، وتنازعوا وتقاتلوا ، وحصلَ مِنْ قتالِهِمْ هلاكُهُمْ بسببِ التنافسِ مِنْ خارجٍ ، كما يحصلُ هلاكُهُمْ بسببِ تضادِّ الأخلاطِ مِنْ داخلٍ ، وبالطبِّ يُحفظُ الاعتدالُ في الأخلاطِ المتنازعةِ مِنْ داخلٍ ، وبالسياسةِ والعدْلِ يُحفظُ الاعتدالُ في التنافسِ مِنْ خارجٍ ، وعلمُ طريقِ اعتدالِ الأخلاطِ طبٌّ ، وعلْمُ طريقِ اعتدالِ أحوالِ الناسِ في المعاملاتِ والأفعالِ فقْهٌ ، وكلُّ ذٰلكَ يحفظُ البدنَ الذي هوَ مطيةٌ .

فالمتجرِّدُ لعلْمِ الفقهِ أوِ الطبِّ إذا لمْ يجاهدْ نفسَهُ ولمْ يصلحْ قلبَهُ . . كالمتجرِّدِ لشراءِ الناقةِ وعلفِها وشراءِ الراويةِ وخرْزِها إذا لمْ يسلكْ باديةَ الحجِّ ، والمستغرقُ عمرَهُ في دقائقِ الكلماتِ التي تُحرَّرُ في مجادلاتِ الفقهِ . . كالمستغرقِ عمرَهُ في دقائقِ الأسبابِ التي بها تستحكمُ الخيوطُ التي تُخرزُ بها راويةُ الحجِّ .

ونسبةُ هـٰؤلاءِ مِنَ السالكِ لطريقِ إصلاحِ القلبِ أوِ الواصلِ إلىٰ علْمِ المكاشفةِ . . كنسبةِ أولـٰئكَ إلىٰ سالكي طريقِ الحجِّ أوْ مُلابسي أركانِهِ .

فتأملْ هـٰذا أولاً ، واقبلِ النصيحةَ مجَّاناً ممَّنْ قامَ عليهِ ذٰلكَ غالياً ولمْ يصلْ إليهِ إلا بعدَ جهْدٍ جهيدٍ ، وجَراءةٍ تامَّةٍ علىٰ مباينةِ الخلْقِ ؛ العامَّةِ والخاصَّةِ في النزوعِ مِنْ تقليدِهِمْ بمجرَّدِ الشهوةِ .

فهـٰذا القدْرُ كافٍ في وظائفِ المتعلِّمِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) كالفلاسفة ومن على قدمهم « إتحاف » (١/٣٣٢) .

بيان وظائف المرشد المعلم

اعلمْ : أنَّ للإنسانِ في علمِهِ أربعةَ أحوالٍ ، كما لهُ في اقتناءِ الأموالِ ؛ إذْ لصاحبِ المالِ حالُ استفادةٍ فيكونُ مكتسباً ، وحالُ ادخارٍ لما اكتسبَهُ فيكونُ بهِ غنياً عنِ السؤالِ ، وحالُ إنفاقٍ على نفسِهِ فيكونُ بهِ منتفعاً ، وحالُ بذلٍ لغيرِهِ فيكونُ بهِ سخيّاً متفضّلاً ، وهوَ أشرفُ أحوالِهِ .

فكذلكَ العلْمُ يقتنىٰ كالمالِ ، فلهُ حالُ طلبٍ واكتسابٍ ، وحالُ تحصيلٍ يغني عنِ السؤالِ ، وحالُ استبصارٍ وهو التفكُّرُ في المحصَّلِ والتمتُّعُ بهِ ، وحالُ تبصيرٍ وهوَ أشرفُ الأحوالِ .

فمَنْ علِمَ وعملَ وعلَّمَ فهوَ الذي يُدعَىٰ عظيماً في ملكوتِ السماءِ ؛ فإنَّهُ كالشمسِ تضيءُ لغيرِها وهيَ مضيئةٌ في نفسِها ، وكالمسكِ الذي يطيِّبُ غيرَهُ وهوَ طيِّبٌ .

والذي يعلِّمُ ولا يعملُ بهِ كالدفترِ الذي يفيدُ غيرَهُ وهوَ خالٍ عن العلْمِ ، وكالمِسَنِّ الذي يشحَذُ غيرَهُ ولا يقطعُ ، والإبرةِ التي تكسو غيرَها وهيَ عاريةٌ ، وذُبالةِ المصباحِ تضيءُ لغيرِها وهيَ تحترقُ ، كما قيلَ[1] : [من المنسرح]

صِــرْتُ كَــأَنِّــي ذُبَــالَــةٌ وُقِــدَتْ ... تُــضِــيءُ لِــلــنَّــاسِ وَهْــيَ تَــحْــتَــرِقُ

ومهما اشتغلَ بالتعليمِ . . فقدْ تقلَّدَ أمراً عظيماً وخطراً جسيماً ، فليحفظْ آدابَهُ ووظائِفَهُ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الأولى : الشفقةُ على المتعلِّمينَ ، وأنْ يُجريَهُمْ مُجرىٰ بَنيهِ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا لكُمْ مثلُ الوالدِ لولدِهِ »[2] ، فإنَّ قصدَهُ إنقاذُهُمْ مِنْ نارِ الآخرةِ ، وهوَ أهمُّ مِنْ إنقاذِ الوالدينِ ولدَهما مِنْ نارِ الدنيا .

ولذلكَ صارَ حقُّ المعلِّمِ أعظمَ مِنْ حقِّ الوالدينِ ؛ فإنَّ الوالدَ سببُ الوجودِ الحاضرِ والحياةِ الفانيةِ ، والمعلِّمَ سببُ الحياةِ الباقيةِ ، ولولا المعلِّمُ . . لساقَ ما حصلَ منْ جهةِ الأبِ إلى الهلاكِ الدائمِ ، وإنَّما المعلِّمُ هوَ المفيدُ للحياةِ الأخرويةِ الدائمةِ ؛ أعني معلِّمَ علومِ الآخرةِ ، أوْ علومِ الدنيا علىٰ قصْدِ الآخرةِ لا علىٰ قصْدِ الدنيا ، فأمَّا التعليمُ علىٰ قصْدِ الدنيا . . فهوَ هلاكٌ وإهلاكٌ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

وكما أنَّ حقَّ أبناءِ الرجلِ الواحدِ أنْ يتحابُّوا ويتعاونوا على المقاصدِ كلِّها . . فكذلكَ حقُّ تلامذةِ الرجلِ الواحدِ التحابُّ والتوادُّ ، ولا يكونُ إلا كذلكَ إنْ كانَ مقصدُهُمُ الآخرةَ ، ولا يكونُ إلا التحاسدُ والتباغضُ إنْ كانَ مقصدُهُمُ الدنيا .

فإنَّ العلماءَ وأبناءَ الآخرةِ مسافرونَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وسالكونَ إليهِ الطريقَ مِنَ الدنيا ، وسِنُوها وشهورُها منازلُ الطريقِ ، والترافقُ في الطريقِ بينَ المسافرينَ إلى الأمصارِ سببُ التوادِّ والتحابِّ ، فكيفَ السفرُ إلى الفردوسِ الأعلىٰ والترافقُ في طريقِهِ ؟!

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف (ص ٢٢١) .

(٢) رواه أبو داوود (٨) ، والنسائي (٣٨/١) ، وابن ماجه (٣١٣) .

ولا ضيقَ في سعاداتِ الآخرةِ ، فلذلكَ لا يكونُ بينَ أبناءِ الآخرةِ تنازعٌ ، ولا سَعةَ في سعاداتِ الدنيا ، فلذلكَ لا ينفكُّ عنْ ضيقِ التزاحمِ .

والعادلونَ إلى طلبِ الرئاسةِ بالعلومِ خارجونَ عنْ موجَبِ قولِهِ تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، وداخلونَ في مقتضى قولِهِ تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثانيةُ : أنْ يقتديَ بصاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ :

فلا يطلبُ على إفاضةِ العلْمِ أجراً ، ولا يقصدُ بهِ جزاءً ولا شكراً ، بلْ يعلِّمُ لوجْهِ اللهِ تعالى ، وطلباً للتقرُّبِ إليهِ ، ولا يرى لنفسِهِ منَّةً عليهِمْ وإنْ كانتِ المنَّةُ لازمةً عليهِمْ ، بلْ يرى الفضلَ لهُمْ ؛ إذ هَدَفوا قلوبَهُمْ لأنْ تتقرَّبَ إلى اللهِ بزراعةِ العلومِ فيها[1] ، كالذي يعيرُكَ الأرضَ لتزرعَ فيها لنفسِكَ زراعةً ، فمنفعتُكَ بها تزيدُ على منفعةِ صاحبِ الأرضِ ، فكيفَ تقلِّدُهُ منَّةً وثوابُكَ في التعليمِ أكثرُ مِنْ ثوابِ المتعلِّمِ عندَ اللهِ تعالى ، ولولا المتعلِّمُ . . ما نلتَ هٰذا الثوابَ ؟!

فلا تطلبِ الأجرَ إلا مِنَ اللهِ تعالى ؛ كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ فإنَّ المالَ وما في الدنيا خادمُ البدنِ ، والبدنُ مركبُ النفسِ ومطيَّتُها ، والمخدومُ هوَ العلْمُ ؛ إذْ بهِ شرفُ النفسِ ، فمَنْ طلبَ بالعلمِ المالَ . . كانَ كمنْ مسحَ أسفلَ مداسِهِ ونعلِهِ بمحاسِنِهِ لينظفَهُ[2] ، فجعلَ المخدومَ خادماً والخادمَ مخدوماً ، وذٰلكَ هوَ الانتكاسُ على أمِّ الراسِ ، ومثلُهُ هوَ الذي يقومُ في العرْضِ الأكبرِ معَ المجرمينَ ناكسي رؤوسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ .

وعلى الجملةِ : فالفضلُ والمنَّةُ للمعلِّمِ .

فانظرْ كيفَ انتهى أمرُ الدينِ إلى قومٍ يزعمونَ أنَّ مقصودَهُمُ التقرُّبُ إلى اللهِ تعالى بما هُمْ فيهِ مِنْ علْمِ الفقهِ والكلامِ والتدريسِ فيهما وفي غيرِهِما ؛ فإنَّهُمْ يبذلونَ المالَ والجاهَ ، ويتحمَّلونَ أصنافَ الذلِّ في خدمةِ السلاطينِ لاستطلاقِ الجِراياتِ[3] ، ولوْ تَركوا ذٰلكَ . . لتُركوا ولمْ يُختَلَفْ إليهِمْ .

ثمَّ يتوقَّعُ المعلِّمُ مِنَ المتعلِّمِ أنْ يقومَ لهُ في كلِّ نائبةٍ ، وينصرَ وليَّهُ ، ويعاديَ عدوَّهُ ، وينتهضَ حماراً لهُ في حاجاتِهِ ، ومسخَّراً بينَ يديهِ في أوطارِهِ ، فإنْ قصَّرَ في حقِّهِ . . ثارَ عليهِ ، وصارَ مِنْ أعدى أعدائِهِ ، فأخْسِسْ بعالمٍ يرضى لنفسِهِ بهٰذهِ المنزلةِ ثمَّ يفرحُ بها ، ثمَّ لا يستحيي مِنْ أنْ يقولَ : غرضي مِنَ التدريسِ نشرُ العلمِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالى ونصرةً لدينِهِ !!

فانظرْ إلى الأماراتِ حتَّى ترى صنوفَ الاغتراراتِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) **هدفوا هنا** : رموا ، كأنهم ألقوها ابتغاء القرب منه سبحانه ، أو عرَّضوها لذٰلك .

(٢) في (ج) : (كان كمن مسح أسفل نعله برِجْله من نجاسته لينظفه) ، وفي بعض نسخ الحافظ الزبيدي : (بوجهه) بدل (بمحاسنه) ، قال : (وإليه يعود معنى المحاسن) . « إتحاف » (١/٣٣٨) .

(٣) **الجراية** : ما يجري من الرواتب المعلومة على الإنسان من نقد وغلَّة وغير ذٰلك .

الوظيفةُ الثالثةُ : ألا يدَّخرَ مِنْ نصْحِ المتعلِّمِ شيئاً :

وذٰلكَ بأنْ يمنعَهُ مِنَ التصدِّي لرتبةٍ قبلَ استحقاقِها ، والتشاغلِ بعلْمٍ خفيٍّ قبلَ الفراغِ مِنَ الجليِّ ، ثمَّ ينبهَهُ علىٰ أنَّ الغرضَ بطلبِ العلومِ القربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ دونَ الرئاسةِ والمباهاةِ والمنافسةِ ، ويقدِّمَ تقبيحَ ذٰلكَ في نفسِهِ بأقصىٰ ما يمكنُ ، فليسَ ما يصلحُهُ العالمُ الفاجرُ بأكثرَ ممَّا يفسدُهُ .

فإنْ علِمَ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لا يطلبُ العلْمَ إلا للدنيا . . نظرَ إلى العلْمِ الذي يطلبُهُ ، فإنْ كانَ هوَ علمَ الخلافِ في الفقهِ ، والجدلِ في الكلامِ ، والفتاوىٰ في الخصوماتِ والأحكامِ . . فيمنعُهُ مِنْ ذٰلكَ ؛ فإنَّ هٰذهِ العلومَ ليستْ مِنْ علومِ الآخرةِ ولا مِنَ العلومِ التي قيلَ فيها : (تعلَّمْنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العلمُ أنْ يكونَ إلا للهِ) ، وإنَّما ذٰلكَ علْمُ التفسيرِ وعلمُ الحديثِ ، وما كانَ الأولونَ يشتغلونَ بهِ مِنْ علْمِ الآخرةِ ، ومعرفةِ أخلاقِ النفسِ وكيفيةِ تهذيبِها ، فإذا تعلَّمَهُ الطالبُ وقصدُهُ الدنيا . . فلا بأسَ أنْ يتركَهُ ؛ فإنَّهُ يتشمَّرُ لهُ طمعاً في الوعْظِ والاستتباعِ ، ولٰكنْ قد يتنبَّهُ في أثناءِ الأمرِ أوْ آخرِهِ ؛ إذْ فيهِ العلومُ المخوِّفَةُ مِنَ اللهِ تعالى المحقِّرَةُ للدنيا المعظِّمَةُ للآخرةِ ، وذٰلكَ يوشِكُ أنْ يردَّ إلى الصوابِ في الآخرةِ حتَّىٰ يتعظَ بما يعظُ بهِ غيرَهُ ، ويجري حُبُّ القبولِ والجاهِ مَجرى الحَبِّ الذي يُنثرُ حوالَي الفخِّ ليُقتنصَ بهِ الطيرُ ، وقدْ فعلَ اللهُ ذٰلكَ بعبادِهِ ، إذْ خلقَ الشهوةَ ليصلَ الخلقُ بها إلىٰ بقاءِ النسلِ ، وخلقَ أيضاً حُبَّ الجاهِ ليكونَ سبباً لإحياءِ العلومِ ، وهٰذا متوقَّعٌ في هٰذهِ العلومِ .

فأمَّا الخلافُ المحضُ ومجادلةُ الكلامِ ومعرفةُ التفريعاتِ الغريبةِ . . فلا يزيدُ التجرُّدُ لها معَ الإعراضِ عنْ غيرِها إلا قسوةً في القلبِ ، وغفلةً عنِ اللهِ تعالىٰ ، وتمادياً في الضلالِ ، وطلباً للجاهِ ، إلا مَنْ تداركَهُ اللهُ تعالىٰ برحمتِهِ ، أوْ مزجَ بهِ غيرَهُ مِنَ العلومِ الدينيةِ ، ولا برهانَ علىٰ هٰذا كالتجربةِ والمشاهدةِ .

فانظرْ واعتبرْ ، واستبصرْ لتشاهدَ تحقيقَ ذٰلكَ في العبادِ والبلادِ ، واللهُ المستعانُ .

وقدْ رُئِيَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ حزيناً ، فقيلَ لهُ : ما لكَ ؟ فقالَ : صِرْنا مَتْجراً لأبناءِ الدنيا ، يلزَمُنا أحدُهُمْ ، حتَّىٰ إذا تعلَّمَ . . جُعِلَ عاملاً أوْ قاضياً أوْ قَهْرَماناً[(١)]

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الرابعةُ وهيَ مِنْ دقائقِ صناعةِ التعليمِ : أنْ يزجرَ المتعلِّمَ عنْ سوءِ الأخلاقِ بطريقِ التعريضِ ما أمكنَ :

ولا يصرِّحَ ، وبطريقِ الرحمةِ لا بطريقِ التوبيخِ ؛ فإنَّ التصريحَ يهتكُ حجابَ الهيبةِ ، ويورثُ الجرأةَ على الهجومِ بالخلافِ ، ويهيِّجُ الحرصَ على الإصرارِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ مرشدُ كلِّ معلِّمٍ : « لوْ مُنِعَ الناسُ عنْ فَتِّ البَعْرِ . . لَفَتُّوهُ وقالوا : ما نُهينا عنهُ إلا وفيهِ شيءٌ !! »[(٢)]

وينبهُكَ علىٰ هٰذا قصةُ آدمَ وحواءَ عليهما السلامُ وما نهيا عنهُ ، فما ذكرتِ القصَّةُ معكَ لتكونَ سمراً ، بلْ لتتنبَّهَ بها علىٰ سبيلِ العبرةِ .

---

(١) قوت القلوب (١٣٣/١) ، والقهرمان : المسيطر الحفيظ علىٰ من تحت يديه ، لفظة فارسية معربة .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٤١/١) : (قال العراقي : « لم أجده إلا من حديث الحسن مرسلاً وهو ضعيف ، رواه ابن شاهين » انتهىٰ ، قلت : ووجدت بخط الداوودي ما نصه : ولفظ ابن شاهين : « لو منع الناس فتَّ الشوك . . لقالوا : فيه النَّدُّ » ، وفي المعنىٰ حديث أبي جحيفة : « لو نهيتم أن تأتوا الحجون . . لأتيتموها ») .

ولأنَّ التعريضَ أيضاً يُميلُ النفوسَ الفاضلةَ والأذهانَ الذكيةَ إلى استنباطِ معانيهِ ، فيفيدُ فرحُ التفطُّنِ لمعناهُ رغبةً في العلمِ بهِ ؛ ليعلمَ أنَّ ذٰلكَ ممَّا لا يعزبُ عنْ فطنتِهِ .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ الخامسةُ : أنَّ المتكفِّلَ ببعضِ العلومِ لا ينبغي أنْ يقبِّحَ في نفسِ المتعلِّمِ العلومَ التي وراءَهُ :

كمعلِّمِ اللغةِ ؛ إذْ عادتُهُ تقبيحُ الفقهِ ، ومعلِّمُ الفقهِ عادتُهُ تقبيحُ علْمِ الحديثِ والتفسيرِ ، وأنَّ ذٰلكَ نقلٌ محضٌ وسماعٌ صرْفٌ وهوَ شأنُ العجائزِ ، ولا نظرَ للعقلِ فيهِ ، ومعلِّمُ الكلامِ ينفِّرُ عنِ الفقهِ ويقولُ : ذٰلكَ فرعٌ ، وهوَ كلامٌ في حيضِ النِّسوانِ ، فأينَ ذٰلكَ مِنَ الكلامِ في صفةِ الرحمٰنِ ؟!

فهٰذهِ أخلاقٌ مذمومةٌ للمعلمينَ ينبغي أنْ تُجتنبَ ، بلِ المتكفِّلُ بعلْمٍ واحدٍ ينبغي أنْ يوسعَ على المتعلِّمِ طريقَ التعلُّمِ في غيرِهِ ، وإنْ كانَ متكفِّلاً بعلومٍ . . فينبغي أنْ يراعيَ التدريجَ في ترقيةِ المتعلِّمِ مِنْ رتبةٍ إلىٰ رتبةٍ .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ السادسةُ : أنْ يقتصرَ بالمتعلِّمِ علىٰ قدْرِ فهمِهِ :

فلا يُلقي إليهِ ما لا يبلغُهُ عقلُهُ فينفرَهُ أوْ يخبطَ عليهِ عقلَهُ ؛ اقتداءً في ذٰلكَ بسيِّدِ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « نحنُ ـ معاشرَ الأنبياءِ ـ أُمرنا أنْ نُنْزِلَ الناسَ منازلَهُمْ ، ونُكَلِّمَهُمْ علىٰ قَدْرِ عقولِهِمْ »[١]

فليبثَّ إليهِ الحقيقةَ إذا علمَ أنَّهُ يستقلُّ بفهمِها .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحدٌ يُحَدِّثُ قوماً بحديثٍ لا تبلغُهُ عقولُهُمْ إلا كانَ فتنةً علىٰ بعضِهِمْ »[٢]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وأشارَ إلىٰ صدرِهِ : (إنَّ ها هنا علوماً جمَّةً لوْ وجدتُ لها حَمَلَةً)[٣]

وصدقَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقلوبُ الأبرارِ قبورُ الأسرارِ ، فلا ينبغي أنْ يفشيَ العالمُ كلَّ ما يعلمُهُ إلىٰ كلِّ أحدٍ ، هٰذا إذا كانَ يفهمُهُ المتعلِّمُ ولمْ يكنْ أهلاً للانتفاعِ بهِ ، فكيفَ فيما لا يفهمُهُ ؟!

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تعلِّقوا الجوهرَ في أعناقِ الخنازيرِ ، فإنَّ الحكمةَ خيرٌ مِنَ الجوهرِ ، ومَنْ كرهَها . . فهوَ شرٌّ منَ الخنازيرِ)[٤]

ولذٰلكَ قيلَ : (كِلْ لكلِّ عبْدٍ بمعيارِ عقلِهِ ، وزِنْ لهُ بميزانِ فهمِهِ ؛ حتَّىٰ تسلَمَ منهُ وينتفعَ بكَ ، وإلا . . وقعَ الإنكارُ لتفاوتِ المعيارِ)[٥]

---

(١) هما حديثان ، فروىٰ أبو داوود (٤٨٤٢) مرفوعاً : « أنزلوا الناس منازلهم » ، وروى العقيلي في « الضعفاء » (١٥٣٤/٤) : « إنا معشر الأنبياء كذٰلك أمرنا أن نكلم الناس علىٰ قدر عقولهم » ، ومعناه سبق في حديث البخاري (١٢٧) الموقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون . . .) .

(٢) رواه العقيلي في « الضعفاء » (٩٣٧/٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ورواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١١/١) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٧٦/٦) ضمن حديث كُميل المشهور والذي سبق ذكره ، وانظر « قوت القلوب » (١٣٤/١) .

(٤) قوت القلوب (١٥٦/١) ، وانظر « تاريخ دمشق » (٦٣/٦٨) ضمن حديث طويل .

(٥) هو من قول صاحب « القوت » (١٥٦/١) ، وأصله من قول يحيى بن معاذ عنده : (اغرف لكل واحد من نهره ، واسقه بكأسه) .

وسُئِلَ بعضُ العلماءِ عنْ شيءٍ فلمْ يجبْ ، فقالَ السائلُ : أما سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ كتمَ علماً نافعاً . . جاءَ يومَ القيامةِ مُلْجماً بلجامٍ مِنْ نارٍ » ؟[1] فقالَ : اتركِ اللجامَ واذهبْ ؛ فإنْ جاءَ مَنْ نفعَهُ وكتمْتُهُ . . فليلجمْني[2]

وقولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ تنبيهٌ علىٰ أنَّ حفظَ العلْمِ ممَّنْ يُفْسِدُهُ ويضرُّهُ أولىٰ ، وليسَ الظلْمُ في إعطاءِ غيرِ المستحقِّ بأقلَّ مِنَ الظلمِ في منْعِ المستحقِّ ، كما قيلَ[3] : [من الطويل]

أَأَنْثُرُ دُرِّي بَيْنَ سَارِحَةِ النَّعَمْ ... وَأُصْبِحُ مَخْزُوناً بِرَاعِيَةِ الْغَنَمْ

لأَنَّهُمُ أَمْسَوْا بِجَهْلٍ لِقَدْرِهِ ... فَلَا أَنَا أُضْحِي أَنْ أُطَوِّقَهُ الْبَهَمْ

فَإِنْ لَطَفَ اللهُ اللَّطِيفُ بِلُطْفِهِ ... وَصَادَفْتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ

نَشَرْتُ مُفِيداً وَاسْتَفَدْتُ مَوَدَّةً ... وَإِلَّا فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ

فَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْماً أَضَاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ السابعةُ : أنَّ المتعلِّمَ القاصرَ ينبغي أنْ يُلْقِيَ إليهِ الجلِيَّ اللائقَ بهِ ، ولا يذكُرُ لهُ أنَّ وراءَ هـٰذا تدقيقاً وهوَ يدَّخِرُهُ عنهُ :

فإنَّ ذٰلكَ يفتِّرُ رغبتَهُ في الجليِّ ، ويشوِّشُ عليهِ قلبَهُ ، ويوهِمُ إليهِ البخلَ بهِ عنهُ ؛ إذْ يظنُّ كلُّ أحدٍ أنَّهُ أهلٌ لكلِّ علْمٍ دقيقٍ ، فما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ راضٍ عنِ اللهِ سبحانَهُ في كمالِ عقلِهِ ، وأشدُّهُمْ حماقةً وأضعفُهُمْ عقلاً هوَ أفرحُهُمْ بكمالِ عقلِهِ .

وبهـٰذا يُعلَمُ : أنَّ مَنْ تقيَّدَ مِنَ العوامِّ بقيدِ الشرعِ ، ورسخَتْ في نفسِهِ العقائدُ المأثورةُ عنِ السلفِ مِنْ غيرِ تشبيهٍ ومِنْ غيرِ تأويلٍ ، وحَسُنَ معَ ذٰلكَ سيرتُهُ ، ولمْ يحتملْ عقلُهُ أكثرَ مِنْ ذٰلكَ . . فلا ينبغي أنْ يُشوَّشَ عليهِ اعتقادُهُ ، بلْ ينبغي أنْ يُخلَّىٰ وحرفتَهُ ؛ فإنَّهُ لوْ ذُكِرَ لهُ تأويلاتُ الظواهرِ . . انحلَّ عنهُ قيدُ العوامِّ ولمْ يتيسَّرْ قيدُهُ بقيدِ الخواصِّ ، فيرتفعُ السدُّ الذي بينَهُ وبينَ المعاصي ، وينقلبُ شيطاناً مريداً يهلكُ نفسَهُ وغيرَهُ .

بلْ لا ينبغي أنْ يُخاضَ بالعوامِّ في حقائقِ العلومِ الدقيقةِ ، بلْ يقتصرُ معهمْ علىٰ تعليمِ العباداتِ ، وتعليمِ الأمانةِ في الصناعةِ التي هوَ بصددِها ، ويملأُ قلوبَهُمْ مِنَ الرغبةِ والرهبةِ بالجنَّةِ والنارِ كما نطقَ بهِ القرآنُ ، ولا يحرِّكُ عليهِمْ شبهةً ؛ فإنَّهُ ربَّما تعلقَتِ الشبهةُ بقلبِهِ ويعسرُ عليهِ حلُّها ، فيشقَىٰ ويهلِكُ .

وبالجملةِ : لا ينبغي أنْ يفتحَ للعوامِّ بابَ البحثِ ؛ فإنَّهُ يعطِّلُ عليهِمْ صناعاتِهِمُ التي بها قوامُ الخلْقِ ، ودوامُ عيشِ الخواصِّ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٦٥) .

(٢) الذريعة (ص ١٨١) .

(٣) الأبيات للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ١٢٨ ـ ١٢٩) ، والأبيات الأربع الأولى من (ب) و(ق) .

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يكونَ المعلِّمُ عاملاً بعلمِهِ :

فلا يكذِّبُ قولَهُ فعلُهُ ؛ لأنَّ العلْمَ يُدركُ بالبصائرِ والعملَ يُدركُ بالأبصارِ ، وأربابُ الأبصارِ أكثرُ ، فإذا خالفَ العملُ العلمَ .. منعَ الرشدَ ، وكلُّ مَنْ تناولَ شيئاً وقالَ للناسِ : لا تتناولوهُ ؛ فإنَّهُ سمٌّ مهلكٌ .. سخرَ الناسُ بهِ واتهموهُ ، وزادَ حرصُهُمْ عليهِ ، فيقولونَ : لولا أنَّه أطيبُ الأشياءِ وألذُّها .. لما كانَ يستأثرُ بهِ !!

ومَثَلُ المعلِّمِ المرشدِ مِنَ المسترشدِ مثلُ النقْشِ مِنَ الطينِ والعودِ مِنَ الظلِّ ، فكيفَ ينتقشُ الطينُ بما لا نقشَ فيهِ ، ومتى استوى الظلُّ والعودُ أعوجُ ؟! ولذلكَ قيلَ[1] : [من الكامل]

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

ولذلكَ كانَ وِزْرُ العالِمِ في معاصيهِ أكبرَ مِنْ وِزْرِ الجاهلِ ؛ إذْ يزِلُّ بزَلَّتِهِ عالَمٌ كثيرٌ ، فيقتدونَ بهِ ، و« مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيِّئَةً .. فعليهِ وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عمِلَ بها »[2]

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (قَصَمَ ظهري رجلانِ : عالمٌ متهتِّكٌ ، وجاهلٌ متنسِّكٌ ، فالجاهلُ يغرُّ الناسَ بتنسُّكِهِ ، والعالِمُ ينفِّرُهُمْ بتهتُّكِهِ)[3] ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص ٤٠٤) ، وانظر « خزانة الأدب » (٥٦٤/٨) .
(٢) رواه مسلم (١٠١٧) .
(٣) قوت القلوب (١٤٠/١) بنحوه .

البَابُ السَّادِسُ

في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قدْ ذكرْنا ما وردَ مِنْ فضائلِ العلْمِ والعلماءِ ، وقدْ وردَ في العلماءِ السوءِ تشديداتٌ عظيمةٌ دلَّتْ على أنَّهُمْ أشدُّ الخلْقِ عذاباً يومَ القيامةِ ، فمِنَ المهمَّاتِ العظيمةِ معرفةُ العلاماتِ الفارقةِ بينَ علماءِ الدنيا وعلماءِ الآخرةِ ، ونعني بعلماءِ الدنيا العلماءَ السوءَ الذينَ قصْدُهمْ مِنَ العلمِ التنعُّمُ بالدنيا ، والتوصُّلُ إلى الجاهِ والمنزلةِ عندَ أهلِها .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أشدَّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ بعلمِهِ »(1)

ويروىٰ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قالَ : « لا يكونُ المرْءُ عالماً حتَّىٰ يكونَ بعلْمِهِ عاملاً »(2)

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلمُ علمانِ : علمٌ على اللسانِ فذٰلكَ حُجَّةُ اللهِ تعالىٰ على ابنِ آدمَ ، وعلمٌ في القلبِ فذٰلكَ العلمُ النافعُ »(3)

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يكونُ في آخرِ الزمانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ وعلماءُ فُسَّاقٌ »(4)

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتعلَّمُوا العلمَ لتُباهوا بِهِ العلماءَ ، ولتماروا بِهِ السفهاءَ ، ولتصرِفوا وجوهَ الناسِ إليكُمْ ، فَمَنْ فعلَ ذٰلكَ . . فهوَ في النارِ »(5)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كتمَ علماً عندَهُ . . أَلْجمَهُ اللهُ بلجامٍ مِنْ نارٍ »(6)

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنا مِنْ غيرِ الدَّجَّالِ أخوفُ عليكُمْ مِنَ الدجَّالِ » فقيلَ : وما ذاكَ ؟ فقالَ : « مِنَ الأئمَّةِ المضلِّينَ »(7)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ازدادَ علماً ولمْ يَزْدَدْ هدىً . . لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلا بُعْداً »(8)

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إلىٰ متىٰ تَصِفُونَ الطريقَ للمُدْلِجينَ وأنتمْ مقيمونَ معَ المتحيّرينَ ؟!)(9)

فهٰذا وغيرُهُ مِنَ الأخبارِ يدلُّ علىٰ عظيمِ خطرِ العلمِ ، وأنَّ العالِمَ إمَّا متعرِّضٌ لهلاكِ الأبدِ ، أوْ لسعادةِ الأبدِ ، وأنَّهُ بالخوضِ في العلْمِ قدْ حُرِمَ السلامةَ إنْ لمْ يدركِ السعادةَ .

❁ ❁ ❁

---

(1) رواه الطبراني في « الصغير » (١٨٢/١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(2) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٧) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه وبلفظ : (ولا تكون بالعلم عالماً حتىٰ تكون به عاملاً) ، قال الحافظ الزبيدي : (قال العراقي في « التخريج الكبير » : لم أجده مرفوعاً) ، وانظر « الإتحاف » (٣٤٨/١) .

(3) رواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٠٧/٥ ـ ١٠٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٥١) .

(4) رواه الآجري في « أخلاق العلماء » (٦٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٣١٥/٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٣١/٢) .

(5) رواه ابن ماجه (٢٥٩) .

(6) رواه ابن ماجه (٢٦٥) .

(7) رواه أحمد في « مسنده » (١٤٥/٥) .

(8) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٨٧) ، قال الحافظ الزبيدي نقلاً عن الحافظ العراقي : (والمشهور أن هٰذا الحديث من قول الحسن البصري) ، وانظر « الإتحاف » (٣٥١/١) .

(9) اقتضاء العلم العمل (٦٠) ، والمدلجون : السائرون بالليل ، والمراد بهم : الزهاد والسالكون إلى الله تعالىٰ ، والمتحيرون : الواقفون .

وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّ أخوفَ ما أخافُ علىٰ هٰذهِ الأُمَّةِ المنافقُ العليمُ ، قالوا : وكيفَ يكونُ منافقاً عليماً ؟ قالَ : عليمَ اللسانِ جاهلَ القلبِ والعملِ [١]

وقالَ الحسنُ : (لا تكنْ ممَّنْ يجمعُ علْمَ العلماءِ وطرائفَ الحكماءِ ويجري في العملِ مَجرى السفهاء)[٢] .

وقالَ رجلٌ لأبي هريرةَ : أريدُ أنْ أتعلَّمَ العلْمَ وأخافُ أنْ أضيّعَهُ ، فقالَ : كفىٰ بتركِكَ العلْمَ إضاعةً لهُ[٣]

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ عيينةَ : أيُّ الناسِ أطولُ ندامةً ؟ قالَ : أمَّا في عاجلِ الدنيا . . فصانعُ المعروفِ إلىٰ مَنْ لا يشكرُهُ ، وأمَّا عندَ الموتِ . . فعالِمٌ مفرِّطٌ .

وقالَ الخليلُ بنُ أحمدَ : (الرجالُ أربعةٌ : رجلٌ يدري ويدري أنَّهُ يدري ؛ فذٰلكَ عالمٌ فاتبعوهُ ، ورجلٌ يدري ولا يدري أنَّهُ يدري ؛ فذٰلكَ نائمٌ فأيقظوهُ ، ورجلٌ لا يدري ويدري أنَّهُ لا يدري ؛ فذٰلكَ مسترشدٌ فعلِّموهُ ، ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنَّهُ لا يدري ؛ فذٰلكَ جاهلٌ فارفضوهُ)[٤]

وقالَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ : (يهتفُ العلمُ بالعملِ ، فإنْ أجابَهُ ، وإلا . . ارتحلَ)[٥]

وقال ابنُ المباركِ : (لا يزالُ المرءُ عالماً ما طلبَ العلمَ ، فإذا ظنَّ أنَّهُ قدْ علِمَ . . فقدْ جهلَ)[٦]

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ اللهُ : (إنِّي لأرحمُ ثلاثةً : عزيزَ قومٍ ذلَّ ، وغنياً افتقرَ ، وعالماً تلعبُ بهِ الدنيا)[٧]

وقالَ الحسنُ : (عقوبةُ العلماءِ موتُ القلبِ ، وموتُ القلبِ طلبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ)[٨]

وأنشدوا[٩] : [من الطويل]

عَجِبْتُ لِمُبْتَاعِ الضَّلالَةِ بِالْهُدَىٰ ... وَمَنْ يَشْتَرِي دُنْيَاهُ بِالدِّينِ أَعْجَبُ

وَأَعْجَبُ مِنْ هَٰذَيْنِ مَنْ بَاعَ دِينَهُ ... بِدُنْيَا سِوَاهُ فَهْوَ مِنْ ذَيْنِ أَعْجَبُ

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العالمَ لَيُعَذَّبُ عذاباً يَطِيفُ بهِ أهلُ النَّارِ استِعْظاماً لشدَّةِ عذابِهِ »[١٠] ، أرادَ بهِ العالمَ الفاجرَ .

وقالَ أسامةُ بنُ زيدٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يُؤتَىٰ بالعالِمِ يومَ القيامةِ ، فيُلقَىٰ في النارِ ،

---

(١) أخرجه الضياء في « الأحاديث المختارة » (٢٣٦) ، وأصله عند « أحمد » (٢٢/١) .

(٢) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٦٢) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦٨/٦٧) ، وفي « البيان والتبيُّن » (٢٥٧/١) : (وقال أبو هريرة النحوي) .

(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣٨) بنحوه .

(٥) اقتضاء العلم العمل (٤١) .

(٦) أورده ابن قتيبة غير منسوب في « عيون الأخبار » (١١٨/٢) .

(٧) المدخل إلى السنن الكبرىٰ (٥٧٦) وله روايات في المرفوع .

(٨) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٩٦) ، وابن المبارك في « الزهد » (١٥١٤) .

(٩) البيتان لمالك بن دينار ، انظر « ربيع الأبرار » (١٨٥/٤) ، و« وفيات الأعيان » (١٧٠/٦) ، و« حياة الحيوان » (٤٢٢/١) ، و« زهر الأكم » (٢٨٨/١) .

(١٠) قال الحافظ الزبيدي : (قال العراقي : لم أجده بهٰذا اللفظ ، وهو بمعنىٰ حديث أسامة بن زيد الآتي بعده) .

فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ ، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرَّحَىٰ ، فيطيفُ بِهِ أهلُ النارِ فيقولونَ : ما لكَ ؟ فيقولُ : كنتُ آمرُ بالخيرِ ولا آتيهِ ، وأنهَىٰ عنِ الشرِّ وآتيهِ »[١]

وإنَّما يُضاعفُ عذابُ العالمِ في معصيتِهِ لأنَّهُ عصَىٰ عنْ علمٍ ، ولذلكَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ لأنَّهمْ جحدُوا بعدَ العلمِ .

وجعلَ اليهودَ شرّاً مِنَ النصارىٰ معَ أنَّهُمْ ما جعلوا للهِ سبحانَهُ ولداً ولا قالوا : إنَّهُ ثالثُ ثلاثةٍ ، ولكنْ أنكروا بعدَ المعرفةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[٢] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ بَلْعَامَ بنِ باعوراءَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ حتَّىٰ قالَ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ، وكذلكَ العالمُ الفاجرُ ، فإنَّ بَلْعَامَ أوتيَ كتابَ اللهِ تعالىٰ ، فأخلدَ إلى الشهواتِ ، فشُبِّهَ بالكلبِ ؛ أي : سواءٌ أُوتيَ الحكمةَ أوْ لمْ يُؤتَ . . فهوَ يلهثُ إلى الشهواتِ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثلُ علماءِ السوءِ كمثلِ صخرةٍ وقعتْ على فمِ النهرِ ، لا هيَ تشربُ الماءَ ، ولا هيَ تتركُ الماءَ يخلصُ إلى الزرعِ ، ومثلُ علماءِ السوءِ مثلُ قناةِ الحُشِّ ، ظاهرُها جِصٌّ وباطنُها نتنٌ ، ومثلُ القبورِ ، ظاهرُها عامرٌ وباطنُها عظامُ الموتىٰ)[٣]

❁ ❁ ❁

فهٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تبيِّنُ أنَّ العالمَ الذي هوَ مِنْ أبناءِ الدنيا أخسُّ حالاً وأشدُّ عذاباً مِنَ الجاهلِ ، وأنَّ الفائزينَ المقرَّبينَ همْ علماءُ الآخرةِ ، ولهمْ علاماتٌ :

فمنها : **ألا يطلبَ الدنيا بعلمِهِ** : فإنَّ أقلَّ درجاتِ العالِمِ أنْ يدركَ حقارةَ الدنيا وخسَّتَها وكدورتَها وانصرامَها ، وعِظَمَ الآخرةِ ودوامَها وصفاءَ نعيمِها وجلالةَ ملكِها ، ويعلمَ أنَّهما متضادتانِ ، وأنَّهما كالضرَّتينِ ؛ مهما أرضيتَ إحداهما . . أسخطتَ الأخرىٰ ، وأنَّهما ككفَّتي الميزانِ ؛ مهما رجحتْ إحداهما . . خفَّتِ الأخرىٰ ، وأنَّهما كالمشرقِ والمغربِ ؛ مهما قربتَ مِنْ أحدِهما . . بعدتَ عنِ الآخرِ ، وأنَّهما كقدحينِ أحدُهما مملوءٌ ، والآخرُ فارغٌ ؛ فبقدْرِ ما تصبُّ منهُ في الآخرِ حتَّىٰ يمتلئَ . . يفرُغُ الآخرُ .

فإنَّ مَنْ لا يعلمُ حقارةَ الدنيا وكدورتَها وامتزاجَ لذَّتِها بألمِها ثمَّ انصرامَ ما يصفو منها . . فهوَ فاسدُ العقلِ ؛ فإنَّ المشاهدةَ والتجربةَ ترشدُ إلىٰ ذٰلكَ ، فكيفَ يكونُ مِنَ العلماءِ مَنْ لا عقلَ لهُ ؟!

ومَنْ لا يعلمُ عِظَمَ أمرِ الآخرةِ ودوامَها . . فهوَ كافرٌ مسلوبُ الإيمانِ ، فكيفَ يكونُ مِنَ العلماءِ مَنْ لا إيمانَ لهُ ؟!

ومَنْ لا يعلمُ مضادَّةَ الدنيا للآخرةِ ، وأنَّ الجمعَ بينَهما طمعٌ في غيرِ مطمعٍ . . فهوَ جاهلٌ بشرائعِ الأنبياءِ كلِّهِمْ ، بلْ هوَ كافرٌ بالقرآنِ كلِّهِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ، فكيفَ يُعدُّ مِنْ زمرةِ العلماءِ ؟!

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقتاب : الأمعاء .
(٢) أي : يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله دون أدنىٰ ريبة .
(٣) قوت القلوب (١٤١/١) .

ومَنْ علمَ هـٰذا كلَّهُ ، ثمَّ لمْ يؤثرِ الآخرةَ على الدنيا . . فهوَ أسيرُ الشيطانِ ، قدْ أهلكتْهُ شهوتُهُ ، وغلبتْ عليهِ شِقوتُهُ ، فكيفَ يُعدُّ مِنْ حزبِ العلماءِ مَنْ هـٰذهِ درجتُهُ ؟!

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ حكايةً عنِ اللهِ تعالىٰ : (إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعالِمِ إذا آثرَ شهوتَهُ علىٰ محبَّتي أنْ أحرمَهُ لذيذَ مناجاتي ، يا داوودُ ؛ لا تسألْنْ عنّي عالماً قدْ أسكرَتْهُ الدنيا فيصدَّكَ عنْ طريقِ محبَّتي ، أولـٰئكَ قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي ، يا داوودُ ؛ إذا رأيتَ لي طالباً . . فكنْ لهُ خادماً ، يا داوودُ ؛ مَنْ رَدَّ إليَّ هارباً . . كتبتُهُ جِهْبذاً ، ومَنْ كتبتُهُ جِهْبذاً . . لمْ أعذبْهُ أبداً)[1]

ولـذٰلكَ قـالَ الـحسنُ رحـمـهُ اللهُ : (عـقـوبـةُ الـعـلـمـاءِ مـوتُ الـقـلـبِ ، ومـوتُ الـقـلْـبِ طـلـبُ الـدنـيـا بـعـمـلِ الآخرةِ)[2]

ولذٰلكَ قالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ : (إنَّما يذهبُ بهاءُ العلمِ والحكمةِ إذا طُلِبَ بهما الدنيا)[3]

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ رحمَهُ اللهُ : (إذا رأيتمُ العالمَ يغشَى الأمراءَ . . فهوَ لصٌّ)[4]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا رأيتمُ العالمَ محبّاً للدنيا . . فاتهموهُ علىٰ دينِكُمْ ؛ فإنَّ كلَّ محبٍّ يخوضُ فيما أحبَّ)[5] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمهُ اللهُ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ السالفةِ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : إنَّ أهونَ ما أصنعُ بالعالمِ إذا أحبَّ الدنيا أنْ أخرجَ حلاوةَ مناجاتي مِنْ قلبِهِ)[6]

وكتبَ رجلٌ إلىٰ أخٍ لهُ : إنَّكَ قدْ أوتيتَ علماً ، فلا تطفِئَنَّ نورَ علمِكَ بظلمةِ الذنوبِ فتبقىٰ في الظلمةِ يومَ يسعىٰ أهلُ العلمِ في نورِ علمِهِمْ[7]

وكانَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ يقولُ لعلماءِ الدنيا : (يا أصحابَ العلمِ ؛ قصورُكُمْ قَيْصَرِيَّةٌ ، وبيوتُكُمْ كِسْرَوِيَّةٌ ، وأثوابُكُمْ طاهِرِيَّةٌ[8] ، وأخفافُكُمْ جالُوتِيَّةٌ ، ومراكبُكُمْ قارونيَّةٌ ، وأوانيكُمْ فِرعَونيَّةٌ ، ومآتمُكُمْ جاهليَّةٌ ، ومذاهبُكُمْ شيطانيَّةٌ ، فأينَ الشريعةُ المحمديةُ ؟!)[9]

قالَ الشاعرُ[10] : [من الوافر]

وَراعِـي الـشَّـاةِ يَحْـمِي الـذِّئْـبَ عَنْهَا ... فَـكَـيْـفَ إذا الـرُّعَـاةُ لَـهـا ذِئَـابُ

(١) قوت القلوب (١/١٤١) ، والقطعة الأخيرة روىٰ بنحوها أحمد في « الزهد » (٩٧٧) .
(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٩٦) ، وابن المبارك في « الزهد » (١٥١٤) وتقدم قريباً .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٦) منسوباً لأحد الحكماء .
(٤) رواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (٦٩٠) من طريق سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٥) جامع بيان العلم وفضله (١١٧٤) من قول جعفر بن محمد بنحوه .
(٦) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/٣٦٠) بنحوه .
(٧) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/١٤٦) .
(٨) طاهرية : منسوبة إلىٰ عبد الله بن طاهر بن الحسين الوزير ، وكان يتغالىٰ في الثياب . « إتحاف » (١/٣٥٨) .
(٩) رواه الحافظ السلفي في « معجم السفر » (٨٠٤) .
(١٠) سراج الملوك (١/٢١١) .

وقالَ آخرُ[1] :		[من الرجز]

يـا مَـعْـشَـرَ الْـقُـرَّاءِ يـا مِـلْـحَ الْـبَـلَـدْ		مـا يُـصْـلِـحُ الْـمِـلْـحَ إذا الْـمِـلْـحُ فَـسَـدْ

وقيلَ لبعضِ العارفينَ : أترىٰ أنَّ مَنْ تكونُ المعاصي قرَّةَ عينِهِ لا يعرفُ اللهَ ؟ قالَ : ما أشكُّ أنَّ مَنْ تكونُ الدنيا عندَهُ آثرَ مِنَ الآخرةِ أنَّهُ لا يعرفُ اللهَ تعالىٰ ، وهـٰذا دونَ ذٰلكَ بكثيرٍ[2]

ولا تظنَّنَّ أنَّ تركَ المالِ يكفي في اللحوقِ بعلماءِ الآخرةِ ؛ فإنَّ الجاهَ أضرُّ مِنَ المالِ ، ولذٰلكَ قالَ بشرٌ : (« حدَّثَنا » بابٌ مِنْ أبوابِ الدنيا ، فإذا سمعتَ الرجلَ يقولُ : « حدَّثَنا » . . فإنَّما يقولُ : أَوْسِعوا لي)[3] .

ودفنَ بشْرُ بنُ الحارثِ بضعةَ عشرَ ما بينَ قمطرٍ وقوصرةٍ مِنَ الكتبِ ، وكانَ يقولُ : (أنا أشتهي أنْ أحدِّثَ ، ولوْ ذهبتْ عني شهوةُ الحديثِ . . لحدَّثْتُ)[4]

وقالَ هوَ وغيرُهُ : (إذا اشتهيتَ أنْ تحدِّثَ . . فلا تحدِّثْ ، وإذا لمْ تشتهِ . . فحدِّثْ)[5]

وهـٰذا لأنَّ التلذُّذَ بجاهِ الإفادةِ ومنصبِ الإرشادِ أعظمُ لذَّةٍ مِنْ كلِّ تنعُّمٍ في الدنيا ، فمنْ أجابَ شهوتَهُ فيهِ . . فهوَ مِنْ أبناءِ الدنيا ، ولذٰلكَ قالَ الثوريُّ : (فتنةُ الحديثِ أشدُّ مِنْ فتنةِ الأهلِ والمالِ والولدِ ، وكيفَ لا تُخافُ فتنتُهُ وقدْ قيلَ لسيِّدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ ؟!)[6]

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (العلْمُ كلُّهُ دنيا ، والآخرةُ منهُ العملُ بهِ ، والعملُ كلُّهُ هباءٌ إلا الإخلاصَ)[7]

وقالَ : (الناسُ كلُّهمْ موتىٰ إلا العلماءَ ، والعلماءُ سُكارىٰ إلا العاملينَ ، والعاملونَ مغرورونَ إلا المخلصينَ ، والمخلِصُ علىٰ وجلٍ حتَّىٰ يختمَ لهُ بهِ)[8]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إذا طلبَ الرجلُ الحديثَ أوْ تزوَّجَ أوْ سافرَ في طلبِ المعاشِ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)[9] .

وإنَّما أرادَ بهِ طلبَ الأسانيدِ العاليةِ ، أو طلبَ الحديثِ الذي لا يحتاجُ إليهِ في طريقِ الآخرةِ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (كيفَ يكونُ مِنْ أهلِ العلمِ مَنْ مصيرُهُ إلىٰ آخرتِهِ وهوَ مقبلٌ علىٰ دنياهُ ؟! وكيفَ يكونُ مِنْ أهلِ العلمِ مَنْ يطلبُ الكلامَ ليخبرَ بهِ لا ليعملَ بهِ ؟!)[10]

وقالَ صالحُ بنُ حسانَ البصريُّ : (أدركتُ الشيوخَ وهمْ يتعوَّذونَ باللهِ مِنَ الفاجرِ العالمِ بالسنةِ)[11]

---

(١) عجائب المقدور (٤٨٥) .
(٢) حلية الأولياء (٢٧٩/٦) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١٣٥/١) .
(٤) قوت القلوب (١٥٦/١) .
(٥) قوت القلوب (١٥٦/١) ، وشرف أصحاب الحديث (٢٣٠) بنحوه .
(٦) قوت القلوب (١٥٦/١) .
(٧) اقتضاء العلم العمل (٢٠) .
(٨) قوت القلوب (١٥٨/١) ، واقتضاء العلم العمل (٢٢) بنحوه .
(٩) قوت القلوب (١٣٥/١) .
(١٠) سنن الدارمي (٣٨٠) ضمن حديث طويل عنه عليه السلام .
(١١) قوت القلوب (١٤١/١) .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ طلبَ عِلماً ممَّا يُبْتَغَىٰ بهِ وجهُ اللهِ تعالىٰ لِيُصِيبَ بهِ عرضاً مِنَ الدنيا . . لمْ يَجِدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامَةِ »(١)

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ علماءَ السوءِ بأكْلِ الدنيا بالعلمِ ، ووصفَ علماءَ الآخرةِ بالخشوعِ والزهدِ ؛ فقالَ عزَّ وجلَّ في علماءِ الدنيا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ في علماءِ الآخرةِ : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾(٢)

وقالَ بعضُ السلفِ : (العلماءُ يُحشرونَ في زمرةِ الأنبياءِ ، والقضاةُ يُحشرونَ في زمرةِ السلاطينِ)(٣)

وفي معنى القضاةِ : كلُّ فقيهٍ قصْدُهُ طلبُ الدنيا بعلمِهِ .

وروىٰ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أوحَى اللهُ عزَّ وجَلَّ إلىٰ بعضِ الأنبياءِ : قُلْ للذينَ يتفقَّهونَ لغيرِ الدِّينِ ، ويتعلَّمُونَ لغيرِ العملِ ، ويطلبونَ الدنيا بعملِ الآخرةِ ، يلبَسُونَ للناسِ مُسُوكَ الكِباشِ وقلوبُهُمْ كقلوبِ الذئابِ ، ألسِنتُهُمْ أحْلَىٰ مِنَ العسلِ ، وقلوبُهُمْ أمرُّ مِنَ الصَّبِرِ ، إيَّايَ يخادعونَ ، وبي يستهزئونَ ، لأفتحَنَّ لهُمْ فتنةً تَذَرُ الحليمَ حَيرانَ »(٤)

وروى الضحّاكُ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علماءُ هٰذهِ الأمَّةِ رجلانِ :

رجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ، فبَذَلَهُ للناسِ ، ولمْ يأخذْ عليهِ طَمَعاً ، ولمْ يشترِ بهِ ثمناً ؛ فذٰلكَ يُصلِّي عليهِ طيرُ السماءِ وحيتانُ الماءِ ودوابُّ الأرضِ والكرامُ الكاتبُونَ ، يقدَمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ سَيِّداً شريفاً حتَّىٰ يرافِقَ المرسلينَ .

ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً في الدنيا ، فضَنَّ بهِ علىٰ عبادِ اللهِ ، وأخذَ عليهِ طَمَعاً ، واشترىٰ بهِ ثمناً ؛ فذٰلكَ يأتي يومَ القيامَةِ مُلْجَماً بلجامٍ مِنْ نارٍ ، ينادي مُنادٍ علىٰ رُؤوسِ الخلائِقِ : هٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، آتاهُ اللهُ علماً في الدنيا فضَنَّ بِهِ علىٰ عبادِ اللهِ ، وأخذَ بهِ طمعاً ، واشترىٰ بهِ ثمناً ، فيُعذَّبُ حتَّىٰ يفرغَ مِنْ حسابِ الناسِ »(٥)

وأشدُّ مِنْ هٰذا ما رُوِيَ أنَّ رجلاً كانَ يخدمُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فجعلَ يقولُ : (حدَّثَني موسىٰ صفيُّ اللهِ ، حدَّثَني موسىٰ نجيُّ اللهِ ، حدَّثَني موسىٰ كليمُ اللهِ) حتىٰ أثْرَىٰ وكثُرَ مالُه ، ففقدَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فجعلَ يسألُ عنهُ فلا يحسُّ لهُ خبراً ، حتَّىٰ جاءَهُ رجلٌ ذاتَ يومٍ وفي يدِهِ خنزيرٌ وفي عنقِهِ حبلٌ أسودُ ، فقالَ لهُ موسىٰ عليهِ السلامُ : أتعرفُ فلاناً ؟ قالَ : نعمْ ، هوَ هٰذا الخنزيرُ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ أسألُكَ أنْ تردَّهُ إلىٰ حالِهِ حتَّىٰ أسألَهُ بِمَ أصابَهُ هٰذا ؟

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٤) ، وابن ماجه (٢٥٢) .

(٢) وتمام الأولىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ، والثانية : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

(٣) قوت القلوب (١٥٧/١) .

(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٣٩) ، والخطيب في « الفقيه والمنفقه » (١٠٦٨) ، وأصله عند الترمذي (٢٤٠٤) ، والمسوك : جمع مَسْك ، وهو الجلد ؛ إشارة إلىٰ لبس الصوف .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧١٨٣) .

فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : لوْ دعوتَني بالذي دعاني بهِ آدمُ فمَنْ دونَهُ . . ما أجبتُكَ فيهِ ، ولـٰكنْ أخبرُكَ لمَ صنعتُ هـٰذا بهِ : لأنَّهُ كانَ يطلبُ الدنيا بالدينِ [١] .

وأغلظُ مِنْ هـٰذا ما رويَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً في روايةٍ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مِنْ فتنةِ العالمِ أنْ يكونَ الكلامُ أحبَّ إليهِ مِنَ الاستماعِ ، وفي الكلامِ تنميقٌ وزيادةٌ ، ولا يُؤْمَنُ على صاحبِهِ الخطأُ ، وفي الصمتِ سلامةٌ وعلمٌ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يَخْزُنُ علمَهُ فلا يحبُّ أنْ يوجدَ عندَ غيرِهِ ؛ فذلكَ في الدَّرْكِ الأوَّلِ مِنَ النارِ ، ومنَ العلماءِ مَنْ يكونُ في علمِهِ بمنزلةِ السلطانِ ، فإنْ رُدَّ عليهِ شيءٌ مِنْ علمِهِ ، أو تُهُوونَ بشيءٍ مِنْ حقِّهِ . . غضبَ ؛ فذلكَ في الدركِ الثاني مِن النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يجعلُ عِلْمَهُ وغرائبَ حَديثِهِ لأهلِ الشرفِ واليسارِ ولا يرى أهلَ الحاجَةِ لهُ أهلاً ؛ فذلكَ في الدركِ الثالثِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ ينصبُ نفسَهُ للفتيا فيفتي بالخطأ ، واللهُ تعالى يبغضُ المتكلِّفينَ ؛ فذلكَ في الدركِ الرابعِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يتكلَّمُ بكلامِ اليهودِ والنصارى ليغْزُرَ بهِ علمُهُ ؛ فذلكَ في الدركِ الخامسِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يتخذُ علمَهُ مروءةً ونُبْلاً وذكراً في الناسِ ؛ فذلكَ في الدركِ السادسِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يستفِزُّهُ الزهْوُ والعُجْبُ ، فإنْ وعظَ . . عَنَّفَ ، وإنْ وُعِظَ . . أَنِفَ ؛ فذلكَ في الدركِ السابعِ مِنَ النارِ .

عليكَ بالصمتِ ؛ فبهِ تغلبُ الشيطانَ ، وإيَّاكَ أنْ تضحكَ مِنْ غيرِ عَجَبٍ ، أوْ تمشيَ في غيرِ أَرَبٍ » [٢] .

وفي خبرٍ آخرَ : « إنَّ العبدَ ليُنْشَرُ لهُ مِنَ الثناءِ ما بينَ المشرقِ والمغربِ ، وما يزنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ » [٣] .

ورُوِيَ أنَّ الحسنَ انصرفَ مِنْ مجلسِهِ ، فحملَ إليهِ رجلٌ مِنْ خراسانَ كيساً فيهِ خمسةُ آلافِ درهمٍ وعشرةُ أثوابٍ مِنْ رقيقِ البزِّ وقالَ : يا أبا سعيدٍ ؛ هـٰذهِ نفقةٌ وهـٰذهِ كِسوةٌ ، فقالَ الحسنُ : عافاكَ اللهُ تعالى ، ضُمَّ إليكَ نفقتَكَ وكُسْوتَكَ ، فلا حاجةَ لنا بذلكَ ؛ إنَّهُ مَنْ جلسَ مثلَ مجلسي هـٰذا وقَبِلَ مِنَ الناسِ مثلَ هـٰذا . . لقيَ اللهَ تعالى يومَ القيامةِ ولا خلاقَ لهُ [٤] .

ورويَ عنْ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لا تجلسوا عندَ كلِّ عالمٍ إلا عالمٍ يدعوكُمْ مِنْ خمسٍ إلى خمسٍ : مِنَ الشكِّ إلى اليقينِ ، ومِنَ الرياءِ إلى الإخلاصِ ، ومِنَ الرغبةِ إلى الزهدِ ، ومِنَ الكِبْرِ إلى التواضعِ ، ومِنَ العداوةِ إلى النصيحةِ » [٥] .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ . . . ﴾ الآيةَ ، فعرَّفَ أهلَ العلمِ بإيثارِ الآخرةِ على الدنيا .

❀ ❀ ❀

(١) تاريخ دمشق (١٥٢/٦١) ، وقوت القلوب (١٤٤/١) .

(٢) قال أبو طالب في « القوت » (١٤٤/١) : (وقد روينا في مقامات علماء السوء حديثاً شديداً نعوذ بالله من أهله ، ونسأله ألا يبلونا بمقام منه ، فرويناه مرة مسنداً من طريق ، ورويناه موقوفاً على معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وأنا أذكره موقوفاً أحب إلي ، حدثونا عن منذر بن علي ، عن أبي نعيم الشامي ، عن محمد بن زياد ، عن معاذ بن جبل يقول فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووافقته أنا على معاذ) وذكره بلفظه هنا ، وأصله عند ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) ، وانظر « جامع بيان العلم وفضله » (٩١٠ ، ٩١١) .

(٣) كذا أورده في « القوت » (١٤٤/١) ، وفي « البخاري » (٤٧٢٩) ، ومسلم (٢٧٨٥) مرفوعاً : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، قال : اقرؤوا : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ » .

(٤) قوت القلوب (١٤٤/١) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧٢/٨) ، وارتضى أبو طالب وقفه في « القوت » (١٤٤/١) على جابر رضي الله عنه ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٦٧/١) بعد أن جمع له طرقاً : (فبهـٰذه الطرق يتقوى جانب الرفع) .

ومنها : **ألا يخالفَ فعلُهُ قولَهُ** : بلْ لا يأمرُ بالشيءِ ما لمْ يكنْ هوَ أولَ عاملٍ بهِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ شعيبٍ : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ ﴾ ، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : « يا بنَ مريمَ ؛ عظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظتَ . . فعظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحيِ منِّي »(1)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بأقوامٍ تُقْرَضُ شفاهُهُمْ بمقاريضَ مِنْ نارٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتُمْ ؟ فقالوا : إنَّا كنَّا نأمرُ بالخيرِ ولا نأتيهِ ، وننهىٰ عنِ الشرِّ ونأتيهِ »(2)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلاكُ أمَّتِي عالمٌ فاجرٌ وعابدٌ جاهلٌ ، وشرُّ الشِّرارِ شرارُ العلماءِ ، وخيرُ الخِيارِ خيارُ العلماءِ »(3)

وقالَ الأوزاعيُّ رحمهُ اللهُ : (شكتِ النواويسُ(4) ما تجدُ مِنْ نَتنِ جيفِ الكفارِ ، فأوحى اللهُ إليها : بطونُ علماءِ السوءِ أنتنُ ممَّا أنتُمْ فيهِ)(5)

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ اللهُ : (بلغني أنَّ الفسقةَ مِنَ العلماءِ يُبدأُ بهِمْ يومَ القيامةِ قبلَ عبدةِ الأوثانِ)(6)

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ويلٌ لمنْ لا يعلمُ مرَّةً ، وويلٌ لمنْ يعلَمُ ولا يعملُ سبعَ مرَّاتٍ)(7)

وقالَ الشعبيُّ : (يطَّلِعُ قومٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ علىٰ قومٍ مِنْ أهلِ النارِ فيقولونَ لهُمْ : ما أدخلَكُمُ النارَ وإنَّما أدخلَنا اللهُ الجنَّةَ بفضْلِ تأديبِكُمْ وتعليمِكُمْ ؟ فقالوا : إنَّا كنَّا نأمرُ بالخيرِ ولا نفعلُهُ)(8)

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ رحمهُ اللهُ : (ليسَ في القيامةِ أشدَّ حسرةً مِنْ رجلٍ علَّمَ الناسَ علماً فعملوا بهِ ولمْ يعملْ هوَ بهِ ، ففازوا بسببِهِ وهلكَ هوَ)(9)

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (إنَّ العالمَ إذا لم يعملْ بعلمِهِ . . زلَّتْ موعظتُهُ عنِ القلوبِ كما يزلُّ القَطْرُ عنِ الصفا)(10) .

---

(1) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٨٢/٢) .

(2) رواه أحمد في « مسنده » (١٢٠/٣) بنحوه ، وفي (ج) : (نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهىٰ عن الشر ونفعله) .

(3) علقه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٢) من حديث ابن وهب مرفوعاً ، والشطر الثاني منه عند الدارمي في « سننه » (٣٨٢) ، قال الحافظ الزبيدي : (ومن الشواهد للجملة الأولىٰ ما أورده صاحب « القوت » (١٤٠/١) : « وروينا عن عمر وغيره : كم من عالم فاجر وعابد جاهل ، فاتقوا الفاجر من العلماء ، والجاهل من المتعبدين ») ، وانظر « الإتحاف » (٣٦٩/١) .

(4) النواويس : جمع ناووس ، وهي المقابر .

(5) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٣) .

(6) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٤) .

(7) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢١١/١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢١٢) .

(8) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤) .

(9) أخرج بنحوه ابن عساكر في « تاريخه » (١٣٧/٥١ ـ ١٣٨) .

(10) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٩٧) .

وأنشدوا[١] : [من البسيط]

يَا وَاعِظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهَماً ... إِذْ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُوراً أَنْتَ تَأْتِيهَا

أَصْبَحْتَ تَنْصَحُهُمْ بِالْوَعْظِ مُجْتَهِداً ... فَالْمُوبِقَاتُ لَعَمْرِي أَنْتَ جانِيها

تَعِيبُ دُنْيا وَناساً راغِبِينَ بِها ... وَأَنْتَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ رَغْبَةً فِيها

وقال آخرُ[٢] : [من الكامل]

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (مررتُ بحَجَرٍ مكتوبٍ عليهِ : اقلبني . . تعتبرْ ، فقلبتُهُ ، فإذا عليهِ مكتوبٌ : أنتَ بما تعلَمُ لا تعملُ ، فكيفَ تطلبُ علْمَ ما لمْ تعلَمْ ؟!)[٣]

وقالَ ابنُ السماكِ رحمهُ اللهُ : (كمْ مِنْ مذكِّرٍ بالله ناسٍ للهِ ، وكمْ منْ مخوِّفٍ باللهِ جريءٌ على اللهِ ، وكمْ منْ مقرِّبٍ إلى اللهِ بعيدٌ منَ اللهِ ، وكمْ منْ داعٍ إلى اللهِ فارٌّ منَ اللهِ ، وكمْ منْ تالٍ لكتابِ اللهِ منسلخٌ منْ آياتِ اللهِ !!)[٤]

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (لقدْ أعربْنا في كلامِنا فلمْ نلحَنْ ، ولحنَّا في أعمالِنا فلمْ نعربْ)[٥]

وقالَ الأوزاعيُّ : (إذا جاءَ الإعرابُ . . ذهبَ الخشوعُ)[٦]

وروىٰ مكحولٌ عَنْ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ غَنْمٍ أنَّهُ قالَ : حدَّثني عشرةٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالُوا : كنَّا ندرسُ العلمَ في مسجدِ قُباءَ ، إذْ خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « تَعَلَّمُوا ما شِئْتُمْ أَنْ تَعَلَّمُوا ، فلنْ يأْجُرَكُمُ اللهُ حتَّىٰ تعملُوا »[٧]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثلُ الذي يتعلَّمُ العلْمَ ولا يعملُ بِهِ كمثلِ امرأةٍ زنتْ في السرِّ فحمَلَتْ ، فظهرَ حملُها فافتضحتْ ، فكذٰلكَ مَنْ لا يعملُ بعلمِهِ يفضحُهُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ)[٨]

وقال معاذٌ رحمهُ اللهُ : (احذروا زَلَّةَ العالِمِ ؛ لأنَّ قدرَهُ عندَ الخلْقِ عظيمٌ فيتبعونَهُ علىٰ زلَّتِهِ) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا زلَّ العالِمُ . . زلَّ بزلَّتِهِ عالَمٌ مِنَ الخلقِ)[٩]

وقالَ : (ثلاثٌ بهنَّ ينهدمُ الزمانُ : إحداهنَّ زلَّةُ العالِمِ)[١٠]

---

(١) البيت الأول لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٤٢٥) ، ولم نقف على نسبة البيتين الأخيرين .

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص ٤٠٤) ، وانظر « خزانة الأدب » (٥٦٤/٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣٥٨/٣) بنحوه .

(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٤٥١/٣) .

(٥) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٥١) بنحوه .

(٦) قوت القلوب (١٦٦/١) بنحوه .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٦/١) ، والخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٨) ، وأوقفه الدارمي في « سننه » (٢٦٦) على معاذ رضي الله عنه .

(٨) نسبه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٧٤/١) لصاحب « القوت » نقلاً .

(٩) روى بنحوه على لسان سيدنا عيسى عليه السلام ابنُ المبارك في « الزهد » (١٤٧٤) .

(١٠) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٨٦٧) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (سيأتي على الناسِ زمانٌ تملُحُ فيهِ عذوبةُ القلوبِ ، فلا ينتفعُ يومئذٍ بالعلمِ عالمُهُ ولا متعلِّمُهُ ، فتكونُ قلوبُ علمائِهِمْ مثلَ السباخِ مِنْ ذواتِ المِلْحِ ، ينزلُ عليها قطْرُ السماءِ فلا يوجدُ لها عذوبةٌ ، وذٰلكَ إذا مالتْ قلوبُ العلماءِ إلىٰ حبِّ الدنيا وإيثارِها على الآخرةِ ، فعندَ ذٰلكَ يسلبُها اللهُ تعالىٰ ينابيعَ الحكمةِ ، ويطفئُ مصابيحَ الهدىٰ مِنْ قلوبِهِمْ ، فيخبرُكَ عالِمُهُمْ حينَ تلقاهُ أنَّهُ يخشى اللهَ بلسانِهِ والفجورُ بيّنٌ في عملِهِ ، فما أخصبَ الألسنَ يومئذٍ وما أجدبَ القلوبَ !! فواللهِ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ ؛ ما ذٰلكَ إلا لأنَّ المعلمينَ علَّموا لغيرِ اللهِ ، والمتعلِّمينَ تعلَّموا لغيرِ اللهِ تعالىٰ)[1]

وفي الإنجيلِ مكتوبٌ : (لا تطلبوا علمَ ما لمْ تعلموا حتَّىٰ تعملوا بما علِمتُمْ)[2]

وقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّكمْ في زمانٍ مَنْ تركَ فيهِ عُشرَ ما يعلمُ . . هلكَ ، وسيأتي زمانٌ مَنْ عملَ فيهِ بعُشْرِ ما يعلَمُ . . نجا ، وذٰلكَ لكثرةِ البطَّالينَ)[3]

واعلمْ : أنَّ مثلَ العالمِ مثلُ القاضي ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القضاةُ ثلاثةٌ : قاضٍ قَضَىٰ بالحقِّ وهوَ يعلمُ ، فذاكَ في الجنةِ ، وقاضٍ قَضَىٰ بالجورِ وهوَ يعلمُ أوْ لا يعلمُ ، فهوَ في النارِ ، وقاضٍ قضىٰ بغيرِ ما أمرَ اللهُ بهِ ، فهوَ في النارِ »[4]

وقالَ كعبٌ رحمهُ اللهُ : (يكونُ في آخرِ الزمانِ علماءُ يزهِّدونَ الناسَ في الدنيا ولا يزهدونَ ، ويخوِّفونَ الناسَ ولا يخافونَ ، وينهَوْنَ عنْ غشيانِ الولاةِ ويأتونَهُمْ ، ويؤثرونَ الدنيا على الآخرةِ ، يأكلونَ بألسنتِهِمْ ، يقرِّبونَ الأغنياءَ دونَ الفقراءِ ، يتغايرونَ على العلمِ كما تتغايرُ النساءُ على الرجالِ ، يغضبُ أحدُهُمْ علىٰ جليسِهِ إذا جالسَ غيرَهُ)[5] ، أولٰئكَ الجبّارونَ أعداءُ الرحمٰنِ .

وقدْ رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ الشيطانَ ربَّما يسبقُكُمْ بالعلمِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : « يقولُ : اطلبِ العلمَ ولا تعملْ حتَّىٰ تعلمَ ، فلا يزالُ للعلمِ قائلاً وللعملِ مسوِّفاً حتَّىٰ يموتَ وما عملَ »[6]

وقالَ سَريٌّ السقَطيُّ : (اعتزلَ للتعبُّدِ رجلٌ كانَ حريصاً علىٰ طلبِ علْمِ الظاهرِ ، فسألتُهُ فقالَ : رأيتُ في النومِ قائلاً يقولُ لي : إلىٰ كمْ تضيِّعُ العلمَ ضيَّعَكَ اللهُ !! فقلتُ : إنّي لأحفظُهُ ، فقالَ : إنَّ حفظَ العلمِ العملُ بهِ ، فتركتُ الطلبَ وأقبلتُ على العملِ)[7]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ، إنَّما العلمُ الخشيةُ)[8]

---

(١) انظر « الإتحاف » (١/٣٧٤) .
(٢) قوت القلوب (١/١٣٨) .
(٣) قوت القلوب (١/١٣٨) ، وروي مرفوعاً كذٰلك كما في « الترمذي » (٢٢٦٧) .
(٤) رواه الترمذي (١٣٢٢) ، وأبو داوود (٣٥٧٣) ، وابن ماجه (٢٣١٥) .
(٥) قوت القلوب (١/١٤٠) .
(٦) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/١٣٢) بنحوه ، وانظر « الإتحاف » (١/٣٧٦) .
(٧) قوت القلوب (١/١٣٣) .
(٨) رواه أحمد في « الزهد » (٨٦٧) .

وقالَ الحسنُ : (اعلموا ما شئتُمْ أنْ تعلموا ، فواللهِ ؛ لا يأجرُكُمُ اللهُ حتَّىٰ تعملوا ، فإنَّ السفهاءَ همتُهُمُ الروايةُ ، والعلماءَ همتُهُمُ الرعايةُ)[1]

وقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ : (إنَّ طلبَ العلمِ لحسنٌ ، وإنَّ نشرَهُ لحسنٌ إذا صحَّتْ فيهِ النيةُ ، ولٰكنِ انظرْ ما يلزمُكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي ، فلا تؤثرنَّ عليهِ شيئاً)[2]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أُنزلَ القرآنُ ليُعملَ بهِ ، فاتخذتُمْ دراستَهُ عملاً ، وسيأتي قومٌ يثقفونَهُ مثلَ القناةِ ، ليسوا بخيارِكُمْ ، والعالِمُ الذي لا يعملُ كالمريضِ الذي يصفُ الدواءَ ، والجائعِ الذي يصفُ لذائذَ الأطعمةِ ولا يجدُها ، وفي مثلِهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾)[3] .

وفي الخبرِ : « مِمَّا أخافُ علىٰ أُمتي زَلَّةُ عالمٍ وجدالُ منافقٍ في القرآنِ »[4]

❁ ❁ ❁

ومنها : **أنْ تكونَ عنايتُهُ بتحصيلِ العلمِ النافعِ في الآخرةِ** : المرغِّبِ في الطاعةِ ، مجتنباً للعلومِ التي يقلُّ نفعُها ، ويكثرُ فيها الجدالُ والقيلُ والقالُ .

فمثالُ مَنْ يعرضُ عَنْ علْمِ الأعمالِ ويشتغلُ بالجدالِ مثالُ رجلٍ مريضٍ بهِ عللٌ كثيرةٌ ، وقدْ صادفَ طبيباً حاذقاً في وقتٍ ضيِّقٍ يُخشىٰ فواتُهُ ، فاشتغلَ بالسؤالِ عنْ خاصيَّةِ العقاقيرِ والأدويةِ وغرائبِ الطبِّ ، وتركَ مهمَّهُ الذي هوَ مؤاخذٌ بهِ ، وذٰلكَ محضُ السفهِ .

وقدْ رُوِيَ : أنَّ رجلاً جاءَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : علِّمني مِنْ غرائبِ العلْمِ ، فقالَ لهُ : « ما صنعتَ في رأسِ العلمِ ؟ » فقالَ : وما رأسُ العلمِ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ عرفتَ الربَّ تعالىٰ ؟ » قالَ : نعمْ ، قالَ : « فما صنعتَ في حقِّهِ ؟ » قالَ : ما شاءَ اللهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هل عرفتَ الموتَ ؟ » قالَ : نعمْ ، قال : « فما أعْدَدْتَ لهُ ؟ » قالَ : ما شاءَ اللهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اذهبْ فأحْكِمْ ما هنالكَ ، ثمَّ تعالَ . . نُعَلِّمْكَ مِنْ غرائبِ العلمِ »[5]

بلْ ينبغي أنْ يكونَ التعلُّمُ مِنْ جنسِ ما رُوِيَ عن حاتِمٍ الأصمِّ تلميذِ شقيقٍ البلخيِّ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ لهُ شقيقٌ : منذُ كمْ صحبتني ؟ قالَ حاتِمٌ : منذُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً ، قالَ : فما تعلمتَ منِّي في هٰذهِ المدَّةِ ؟ قالَ : ثمانُ مسائلَ ، قالَ شقيقٌ لهُ : إنّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، ذهبَ عمري معكَ ولمْ تتعلَّمْ إلا ثمانيَ مسائلَ !! قالَ : يا أستاذُ ؛ لمْ أتعلَّمْ غيرَها ، وإني لا أحبُّ أنْ أكذبَ ، فقالَ : هاتِ هٰذهِ الثمانيَ مسائلَ حتَّىٰ أسمعَها ، قالَ حاتِمٌ :

أمَّا الأولىٰ : نظرتُ إلىٰ هٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ يحبُّ محبوباً فهوَ معَ محبوبِهِ إلى القبرِ ، فإذا وصلَ إلى القبرِ . . فارقَهُ ، فجعلتُ الحسناتِ محبوبي ، فإذا دخلتُ القبرَ . . دخلَ محبوبي معي .

---

(١) روي هٰذا الخبر مرفوعاً وموقوفاً ومقطوعاً ، وانظر « القوت » (١/١٣٣) ، و« الإتحاف » (١/٣٧٧) .
(٢) رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن » (٣٢٨) ، وانظر « قوت القلوب » (١/١٣٥) ، و« حلية الأولياء » (٦/٣١٩) .
(٣) قوت القلوب (١/١٤٥) ، ورواه بنحوه الآجريُّ في « أخلاق حملة القرآن » (٣١) عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ .
(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/١٣٨) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٢٢) ، وانظر « الإتحاف » (١/٣٧٩) .

فقالَ : أحسنتَ يا حاتِمُ ، **فما الثانيةُ** ؟ فقالَ : نظرتُ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ، فعلمتُ أنَّ قولَهُ سبحانَهُ هوَ الحقُّ ، فأجهدتُ نفسي في دفعِ الهوىٰ حتَّىٰ استقرَّتْ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ .

الثالثةُ : أنِّي نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ مَنْ معَهُ شيءٌ لهُ قيمةٌ ومقدارٌ عندَهُ رفعَهُ وحفِظَهُ ، ثمَّ نظرتُ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ ، فكلَّما وقعَ معي شيءٌ لهُ قيمةٌ ومقدارٌ . . وجهتُهُ إلى اللهِ ليبقىٰ لي عندَهُ محفوظاً .

الرابعةُ : أنِّي نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهُمْ يرجعُ إلى المالِ والحسبِ والشرفِ والنسبِ ، فنظرتُ فيها فإذا هيَ لا شيءَ ، ثمَّ نظرتُ إلىٰ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، فعملتُ في التقوىٰ حتَّىٰ أكونَ عندَ اللهِ كريماً .

الخامسةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ وهُمْ يطعنُ بعضُهُمْ في بعضٍ ويلعنُ بعضُهُمْ بعضاً ، وأصلُ هـٰذا كلِّهِ الحسدُ ، ثم نظرتُ إلىٰ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، فتركتُ الحسدَ واجتنبتُ الخلقَ ، وعلمتُ أنَّ القسْمَ مِنْ عندِ اللهِ سبحانَهُ ، فتركتُ عداوةَ الخلْقِ عنِّي .

السادسةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ يبغي بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ ، ويقاتلُ بعضُهُمْ بعضاً ، فرجعتُ إلىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ، فعاديتُهُ وحدَهُ ، واجتهدتُ في أخذِ حذري منهُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ شهدَ عليهِ أنَّهُ عدوٌّ لي ، فتركتُ عداوةَ الخلْقِ غيرَهُ .

السابعةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهُمْ يطلبُ هـٰذهِ الكسرةَ ، فيذلُّ نفسَهُ فيها ، ويدخلُ فيما لا يحلُّ لهُ ، ثمَّ نظرتُ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، فعلمتُ أنِّي واحدٌ مِنْ هـٰذهِ الدوابِّ التي على اللهِ رزقُها ، فاشتغلتُ بما للهِ تعالىٰ عليَّ ، وتركتُ ما لي عندَهُ .

الثامنةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُهُمْ كلَّهُمْ متوكِّلينَ علىٰ مخلوقٍ ؛ هـٰذا علىٰ ضيعَتِهِ ، وهـٰذا علىٰ تجارتِهِ ، وهـٰذا علىٰ صناعتِهِ ، وهـٰذا علىٰ صحَّةِ بدنِهِ ، وكلُّ مخلوقٍ متوكِّلٌ علىٰ مخلوقٍ مثلِهِ ، فرجعتُ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ ، فتوكلتُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، فهوَ حسبي .

قالَ شقيقٌ : يا حاتِمُ ؛ وفَّقَكَ اللهُ تعالىٰ ، فإنِّي نظرتُ في علومِ التوراةِ والإنجيلِ والزبورِ والقرآنِ العظيمِ ، فوجدْتُ جميعَ أنواعِ الخيرِ والديانةِ ، وهيَ تدورُ علىٰ هـٰذهِ الثمانِ مسائلَ ، فمَنِ استعملَها . . فقدِ استعملَ الكتبَ الأربعةَ[1] .

فهـٰذا الفنُّ مِنَ العلمِ لا يهتمُّ بإدراكِهِ والتفطُّنِ لهُ إلَّا علماءُ الآخرةِ ، أمَّا علماءُ الدنيا . فيشتغلونَ بما يتيسَّرُ بهِ اكتسابُ المالِ والجاهِ ، ويهملونَ أمثالَ هـٰذهِ العلومِ التي بها بعثَ اللهُ الأنبياءَ كلَّهُمْ عليهِمُ السلامُ .

وقالَ الضحَّاكُ بنُ مزاحمٍ : (أدركتُهُمْ وما يتعلَّمُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ إلا الورعَ ، وهمُ اليومَ ما يتعلَّمونَ إلَّا الكلامَ)[2] .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧٩/٨) بنحوها .

(٢) قوت القلوب (٩٦/١)

ومنها : أَنْ يكونَ غيرَ مائلٍ إلى الترفُّهِ في المطعمِ والمشربِ ، والتنعمِ في الملبسِ ، والتجمُّلِ في الأثاثِ والمسكنِ : بلْ يؤثرُ الاقتصادَ في جميعِ ذٰلكَ ، ويتشبَّهُ فيهِ بالسلفِ رحمهُم اللهُ تعالىٰ ، ويميلُ إلى الاكتفاءِ بالأقلِّ في جميعِ ذٰلكَ ، وكلَّما زادَ إلىٰ طرفِ القلَّةِ ميلُهُ . . ازدادَ مِنَ اللهِ قربُهُ ، وارتفعَ في علماءِ الآخرةِ حزبُهُ .

ويشهدُ لذٰلكَ ما حُكِيَ عنْ أبي عبدِ اللهِ الخوَّاصِ وكانَ مِنْ أصحابِ حاتِمٍ الأصمّ ، قالَ : دخلتُ معَ حاتِمٍ الرَّيَّ ومعنا ثلاثُ مئةٍ وعشرونَ رجلاً نريدُ الحجَّ وعليهِمُ الزُّرْنُبانِقاتُ[1] ، وليسَ معَهُمْ جِرابٌ ولا طعامٌ ، فدخلْنا علىٰ رجلٍ مِنَ التجَّارِ متقشِّفٍ يحبُّ المساكينَ ، فأضافَنا تلكَ الليلةَ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . قالَ لحاتمٍ : ألكَ حاجةٌ ؟ فإنِّي أريدُ أنْ أعودَ فقيهاً لنا هوَ عليلٌ ، قالَ حاتمٌ : عيادةُ المريضِ فيها فضلٌ ، والنظرُ إلى الفقيهِ عبادةٌ ، وأنا أيضاً أجيءُ معكَ ، وكانَ العليلُ محمدَ بنَ مقاتلٍ قاضيَ الرَّيِّ ، فلمَّا جئنا إلى البابِ . . فإذا هوَ يشرقُ حسناً ، فبقيَ حاتمٌ متفكراً يقولُ : بابُ عالمٍ علىٰ هٰذهِ الحالِ !!

ثمَّ أذنَ لهُمْ فدخلوا ، فإذا دارٌ حسناءُ قوراءُ ، واسعةٌ نزهَةٌ ، وإذا بزَّةٌ وأمتعةٌ وستورٌ ، فبقيَ حاتِمٌ متفكِّراً ، ثمَّ دخلوا إلى المجلسِ الذي هوَ فيهِ ، فإذا بفُرُشٍ وطيئَةٍ وهوَ راقدٌ عليها ، وعندَ رأسِهِ غلامٌ وبيدِهِ مِذبَّةٌ ، فقعدَ الزائرُ عندَ رأسِهِ وسألَ عنْ حالِهِ وحاتمٌ قائمٌ ، فأومأَ إليهِ ابنُ مقاتلٍ أنِ اجلسْ ، فقالَ : لا أجلسُ ، فقالَ : لعلَّ لكَ حاجةً ، قالَ : نعمْ ، فقالَ : وما هيَ ؟ قال : مسألةٌ أسألُكَ عنها ، قال : سلني ، قالَ : قمْ فاستوِ جالساً حتَّىٰ أسألَكَ ، فاستوىٰ جالساً .

قالَ حاتمٌ : علمُكَ هٰذا مِنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : مِنَ الثقاتِ حدَّثوني بهِ ، قالَ : عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : وأصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ جبريلَ عليهِ السلامُ عَنِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ .

قالَ حاتمٌ : ففيما أدّاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ عَنِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأدّاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أصحابِهِ ، وأصحابُهُ إلى الثقاتِ ، وأدّاهُ الثقاتُ إليكَ : هلْ سمعتَ فيهِ : مَنْ كانَ في دارِهِ أميراً وكانتْ سعتُهُ أكثرَ . . كانَ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ المنزلةُ أكبرَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فكيف سمعتَ ؟ قالَ : سمعتُ : أنَّهُ مَنْ زهدَ في الدنيا ورغبَ في الآخرةِ وأحبَّ المساكينَ وقدَّمَ لآخرتِهِ . . كانتْ لهُ عندَ اللهِ المنزلةُ .

قالَ لهُ حاتمٌ : فأنتَ بمنِ اقتديتَ ؟ أبالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ والصالحينَ ، أمْ بفرعونَ ونمروذَ أوَّلِ مَنْ بَنَىٰ بالجصِّ والآجرِّ ؟!

يا علماءَ السوءِ ؛ مثلُكُمْ يراهُ الجاهلُ المتكالبُ على الدنيا الراغبُ فيها فيقولُ : العالمُ علىٰ هٰذهِ الحالةِ ، لا أكونُ أنا شرّاً منهُ !! وخرجَ مِنْ عندِهِ .

فازدادَ ابنُ مقاتلٍ مرضاً .

وبلغَ أهلَ الرَّيِّ ما جرىٰ بينَهُ وبينَ ابنِ مقاتلٍ ، فقالوا لهُ : إنَّ الطَّنافِسيَّ بقزوينَ أكثرُ توسُّعاً منهُ ، فسارَ حاتمٌ إليهِ متعمداً ، فدخلَ عليهِ ، فقالَ : رحمَكَ اللهُ ؛ أنا رجلٌ أعجميٌّ أحبُّ أنْ تعلِّمَني مبتدأَ ديني ومفتاحَ صلاتي كيفَ أتوضأُ

---

(١) الزرنبانقات : جُبَب الصوف

للصلاةِ ، قال : نعمْ وكرامةً ، يا غلامُ ؛ هاتِ إناءً فيه ماءٌ ، فأُتيَ بهِ ، فقعدَ الطنافسيُّ فتوضَّأَ ثلاثاً ثلاثاً ثمَّ قالَ : هٰكذا فتوضَّأْ .

فقالَ حاتمٌ : مكانَكَ حتَّىٰ أتوضَّأَ بينَ يديكَ فيكونَ أوكدَ لما أريدُ ، فقامَ الطنافسيُّ وقعدَ حاتمٌ فتوضأَ ، ثمَّ غسلَ ذراعيهِ أربعاً أربعاً ، فقالَ لهُ الطنافسيُّ : يا هٰذا ؛ أسرفتَ ، قالَ لهُ حاتمٌ : في ماذا ؟ قالَ : غسلتَ ذراعيكَ أربعاً .

فقالَ حاتمٌ : يا سبحانَ اللهِ العظيمِ !! أنا في كفٍّ مِنْ ماءٍ أسرفْتُ ، وأنتَ في جميعِ هٰذا كلِّهِ لمْ تسرفْ ؟!

فعلمَ الطنافسيُّ أنَّهُ قصدَ ذٰلكَ دونَ التعلُّمِ ، فدخلَ إلى البيتِ فلمْ يخرجْ إلى الناسِ أربعينَ يوماً .

فلمَّا دخلَ حاتمٌ بغدادَ . . اجتمعَ إليهِ أهلُ بغدادَ ، فقالوا : يا أبا عبدِ الرحمٰنِ ؛ أنتَ رجلٌ ألْكنُ أعجميٌّ وليسَ يكلِّمُكَ أحدٌ إلا قطعتَهُ !!

قالَ : معي ثلاثُ خصالٍ بهنَّ أظهرُ علىٰ خصمي : أفرحُ إذا أصابَ خصمِي ، وأحزنُ إذا أخطأَ ، وأحفظُ نفسي ألَّا أجهلَ عليهِ .

فبلغَ ذٰلكَ أحمدَ ابنَ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : سبحانَ اللهِ ، ما أعقلَهُ !! قوموا بنا إليهِ .

فلما دخلوا عليهِ . . قالَ لهُ : يا أبا عبدِ الرحمٰنِ ؛ ما السلامةُ مِنَ الدنيا ؟ قال : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ لا تسلَمُ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يكونَ معكَ أربعُ خصالٍ : تغفرُ للقومِ جهلَهُمْ ، وتمنعُ جهلَكَ عنهُمْ ، وتبذلُ لهُمْ شيئَكَ ، وتكونُ مِنْ شيئِهِمْ آيساً ، فإذا كنتَ هٰكذا . . سلمتَ .

ثمَّ سارَ إلى المدينةِ ، فاستقبلَهُ أهلُ المدينةِ ، فقالَ : يا قومِ ؛ أيَّةُ مدينةٍ هٰذهِ ؟ قالوا : مدينةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فأينَ قصْرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أصلِّيَ فيهِ ؟ قالوا : ما كانَ لهُ قصرٌ ، إنَّما كانَ لهُ بيتٌ لاطِئٌ بالأرضِ ، قالَ : فأينَ قصورُ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؟ قالوا : ما كانَ لهمْ قصورٌ ، إنَّما كانَ لهُمْ بيوتٌ لاطئَةٌ بالأرضِ .

فقالَ حاتمٌ : يا قومُ ؛ فهٰذهِ مدينةُ فرعونَ !!

فأخذوهُ وذهبوا بهِ إلى السلطانِ ، وقالوا : هٰذا العجميُّ يقولُ : هٰذهِ مدينةُ فرعونَ ، قالَ الوالي : ولِمَ ذٰلكَ ؟ قالَ حاتمٌ : لا تعجَلْ عليَّ ، أنا رجلٌ أعجميٌّ غريبٌ ، دخلتُ البلدَ فقلتُ : مدينةُ مَنْ هٰذهِ ؟ فقالوا : مدينةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ : فأينَ قصرُهُ . . . وقصَّ القصَّةَ ، ثمَّ قالَ : وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، فأنتمْ بمَنْ تأسَّيتُمْ ؟ أبرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أمْ بفرعونَ أوَّلِ مَنْ بنىٰ بالجصِّ والآجرِّ ؟! فخلوا عنهُ وتركوه [1] .

فهٰذهِ حكايةُ حاتمٍ الأصمِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ، وسيأتي مِنْ سيرةِ السلفِ في البذاذةِ وتركِ التجمُّلِ ما يشهدُ لذٰلكَ في مواضعِهِ .

والتحقيقُ فيهِ : أنَّ التزيُّنَ بالمباحِ ليسَ بحرامٍ ، ولٰكنَّ الخوضَ فيهِ يوجبُ الأنْسَ بهِ حتَّىٰ يشقَّ تركُهُ ، واستدامةُ الزينةِ لا تمكنُ إلا بمباشرةِ أسبابٍ في الغالبِ يلزمُ مِنْ مراعاتِها ارتكابُ المعاصي ؛ مِنَ المداهنةِ ، ومراعاةِ الخلْقِ ومراءاتِهِمْ ، وأمورٍ أخرَ هيَ محظورةٌ ، والحزمُ اجتنابُ ذٰلكَ ؛ لأنَّ مَنْ خاضَ في الدنيا لا يسلمُ منها ألْبتةَ ، ولوْ كانتِ السلامةُ مبذولةً

---

(١) رواها أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/٨٠) .

مَعَ الخوضِ فيها . . لكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يبالغُ في تركِ الدنيا ، حتَّىٰ نزعَ القميصَ المُطَرَّزَ بالعَلَمِ [١] ، ونزعَ خاتمَ الذهبِ في أثناءِ الخطبةِ [٢] ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا سيأتي بيانُهُ .

وقد حُكِيَ أنَّ يحيى بنَ يزيدَ النوفليَّ كتبَ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا :

بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ

وصلَّى اللهُ علىٰ رسولهِ محمَّدٍ في الأولينَ والآخرينَ

مِنْ يحيى بنِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ بلغني أنَّكَ تلبسُ الدِّقاقَ ، وتأكُلُ الرُّقاقَ [٣] ، وتجلسُ على الوطاءِ ، وتجعلُ علىٰ بابِكَ حاجباً ، وقدْ جلستَ مجلسَ العلمِ ، وضُرِبَتْ إليكَ المطيُّ ، وارتحلَ إليكَ الناسُ ، واتخذوكَ إماماً ، ورضوا بقولِكَ ، فاتقِ اللهَ تعالىٰ يا مالكُ ، وعليكَ بالتواضعِ .

كتبتُ إليكَ بالنصيحةِ منِّي كتاباً ما اطلعَ عليهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، والسلامُ .

فكتبَ إليهِ مالكٌ :

بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ

وصلَّى اللهُ علىٰ محمَّدٍ وآلهِ وصحبِهِ وسلَّمَ

مِنْ مالكِ بنِ أنسٍ إلىٰ يحيى بنِ يزيدَ ، سلامُ اللهِ عليكَ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ وصلَ إليَّ كتابُكَ ، فوقعَ منِّي موقعَ النصيحةِ في الشفقةِ والأدبِ ، أمتعَكَ اللهُ بالتقوىٰ ، وجزاكَ بالنصيحةِ خيراً ، وأسألُ اللهَ تعالى التوفيقَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ .

فأمَّا ما ذكرتَ لي أنِّي آكلُ الرُّقاقَ وألبسُ الدِّقاقَ وأحتجبُ وأجلسُ على الوطاء . . فنحنُ نفعلُ ذٰلكَ ونستغفرُ اللهَ تعالىٰ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ، وإنِّي لأعلمُ أنَّ تركَ ذٰلكَ خيرٌ مِنَ الدخولِ فيهِ ، ولا تدعْنا منْ كتابِكَ ، فلسنا ندعُكَ مِنْ كتابِنا ، والسلامُ .

---

(١) فقد روى البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦) واللفظ له : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلىٰ في خميصة لها أعلام وقال : « شغلتني أعلام هٰذه ، فاذهبوا بها إلىٰ أبي جهم وأتوني بأنبجانية » .

(٢) ففي « البخاري » (٥٨٦٧) ، و« مسلم » (٢٠٩١) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس خاتماً من ذهب ، فنبذه فقال : « لا ألبسه أبداً » فنبذ الناس خواتيمهم .

(٣) **الدقاق** : الثياب الرفيعة ، وهي دق الثياب من كتان وقطن ، **والرقاق** : بضم الراء ، الخبز المرقق الذي عجن من دقيق منخول « إتحاف » (٣٨٥/١) .

فانظرْ إلىٰ إنصافِ مالكٍ إذِ اعترفَ أنَّ تركَ ذٰلكَ خيرٌ منَ الدخولِ فيهِ ، وأفتىٰ بأنَّهُ مباحٌ ، وقدْ صدقَ فيهما جميعاً .

ومثلُ مالكٍ في منصبِهِ إذا سمحتْ نفسُهُ بالإنصافِ والاعترافِ في مثلِ هٰذهِ النصيحةِ . . فتقوىٰ أيضاً نفسُهُ على الوقوفِ علىٰ حدودِ المباحِ ، حتَّىٰ لا يحملُهُ ذٰلكَ على المراءاةِ والمداهنةِ ، والتجاوزِ إلى المكروهاتِ ، وأمَّا غيرُهُ . . فلا يقدرُ عليهِ .

فالتعريجُ على التنعُّمِ في المباحِ خطرٌ عظيمٌ ، وهوَ بعيدٌ مِنَ الخوفِ والخشيةِ ، وخاصِّيَّةُ علماءِ اللهِ تعالى الخشيةُ ، وخاصِّيَّةُ الخشيةِ التباعدُ مِنْ مظانِّ الخطرِ .

❀ ❀ ❀

ومنها : **أنْ يكونَ منقبضاً عنِ السلاطينِ** : فلا يدخلُ عليهِمْ ألبتةَ ما دامَ يجدُ إلى الفرارِ عنهُمْ سبيلاً ، بلْ ينبغي أنْ يحترزَ مِنْ مخالطتِهِمْ وإنْ جاؤُوا إليهِ ؛ فإنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ ، وزمامُها بأيدي السلاطينِ ، والمخالطُ لهُمْ لا يخلو عَنْ تكلُّفٍ في طلبِ مرضاتِهِمْ واستمالةِ قلوبِهِمْ معَ أنَّهُمْ ظلَمَةٌ ، ويجبُ علىٰ كلِّ متديِّنٍ الإنكارُ عليهِمْ ، وتضييقُ صدورِهِمْ بإظهارِ ظلمِهِمْ وتقبيحِ فعلِهِمْ .

فالداخلُ عليهِمْ إمَّا أنْ يلتفتَ إلىٰ تجمُّلِهِمْ فيزدريَ نعمةَ اللهِ عليهِ ، أوْ يسكتَ عنِ الإنكارِ عليهِمْ فيكونَ مداهناً لهُمْ ، أوْ يتكلَّفَ في كلامِهِ كلاماً لمرضاتِهِمْ وتحسينِ حالِهِمْ وذٰلكَ هوَ البَهْتُ الصريحُ ، أوْ أنْ يطمعَ في أنْ ينالَ مِنْ دنياهُمْ ، وذٰلكَ هوَ السُّحْتُ .

وسيأتي في كتابِ الحلالِ والحرامِ ما يجوزُ أنْ يُؤخذَ مِنْ أموالِ السلاطينِ وما لا يجوزُ مِنَ الإدرارِ والجوائزِ وغيرِها

وعلى الجملةِ : فمخالطتُهُمْ مفتاحٌ للشُّرورِ ، وعلماءُ الآخرةِ طريقُهُمُ الاحتياطُ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بَدَا . . جَفا ـ يعني : مَنْ سكنَ الباديةَ . . جفا ـ ومَنِ اتبعَ الصيدَ . . غَفَلَ ، ومَنْ أتى السلطانَ . . افتُتِنَ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ عليكُمْ أمراءُ تعرفونَ منهمْ وتنكرونَ ، فمَنْ أنكرَ . . فقدْ بَرِئَ ، ومَنْ كرِهَ . . فقدْ سَلِمَ ، ولٰكنْ مَنْ رَضِيَ وتابعَ أبعدَهُ اللهُ تعالىٰ » ، قيلَ : أفلا نقاتِلُهُمْ ؟ قال : « لا ، ما صلَّوا »[2]

وقالَ سفيانُ : (في جهنَّمَ وادٍ لا يسكنُهُ إلا القُرَّاءُ الزوَّارونَ للملوكِ)[3]

وقالَ حذيفةُ : إيَّاكُمْ ومواقفَ الفتنِ ، قيلَ : وما هيَ ؟ قالَ : أبوابُ الأمراءِ ، يدخلُ أحدُكُمْ على الأميرِ فيصدِّقُهُ بالكذبِ ، ويقولُ فيهِ ما ليسَ فيهِ[4]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلماءُ أمناءُ الرسلِ علىٰ عبادِ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يُخالطوا السلطانَ ، فإذا فعلوا ذٰلكَ . . فقدْ خانوا الرسلَ ، فاحذروهُمْ واعتزلُوهُمْ » ، رواهُ أنسٌ[5]

---

(١) رواه أبو داوود (٢٨٥٩) .

(٢) رواه مسلم (١٨٥٤) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٩٧)

(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٦٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٧٧/١) .

(٥) رواه العقيلي كما في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٣) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٤٢١٠) ، وقال الحافظ المناوي في

وقيلَ للأعمشِ : لقدْ أحييتَ العلمَ لكثرةِ مَنْ يأخُذُهُ عنكَ ، فقالَ : لا تعجلوا ؛ ثلثٌ يموتونَ قبلَ الإدراكِ ، وثلثٌ يلزمونَ أبوابَ السلاطينِ فهُمْ شرُّ الخلقِ ، والثلثُ الباقي لا يفلحُ منهُمْ إلا القليلُ[1]

ولذلكَ قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا رأيتمُ العالمَ يغشى الأمراءَ فاحترزوا منهُ ؛ فإنَّه لصٌّ)[2]

وقالَ الأوزاعيُّ : (ما منْ شيءٍ أبغضَ إلى اللهِ تعالىٰ منْ عالمٍ يزورُ عاملاً)[3]

وقالَ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ العلماءِ الذينَ يأتونَ الأمراءَ ، وخيارُ الأمراءِ الذينَ يأتونَ العلماءَ »[4]

وقالَ مكحولٌ الدمشقيُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وتفقَّهَ في الدينِ ثمَّ صحبَ السلطانَ تملُّقاً إليهِ وطمعاً فيما لديهِ . . خاضَ في نارِ جهنَّمَ بعدَدِ خُطاهُ)[5]

وقالَ سُمنونٌ : (ما أسمجَ بالعالمِ أنْ يُؤتىٰ إلىٰ مجلسِهِ فلا يوجدُ ، فيُسألُ عنهُ ، فيُقالُ : إنَّهُ عندَ الأميرِ !!)[6] .

قالَ : وكنتُ أسمعُ أنَّهُ يُقالُ : (إذا رأيتمُ العالمَ يحبُّ الدنيا . . فاتهمُوهُ علىٰ دينِكُمْ) حتَّىٰ جرَّبْتُ ذلكَ ؛ إذْ ما دخلتُ قطُّ علىٰ هٰذا السلطانِ إلا وحاسبتُ نفسي بعدَ الخروجِ ، فأرىٰ عليها الدَّرَكَ[7] ، وأنتمْ ترَوْنَ ما ألقاهُ بهِ مِنَ الغلظةِ والفظاظةِ وكثرةِ المخالفةِ لهواهُ ، ولوددتُ أنْ أنجوَ مِنَ الدخولِ عليهِ كفافاً ، معَ أنِّي لا آخذُ منهُ شيئاً ، ولا أشربُ لهُ شربةَ ماءٍ ، ثمَّ قالَ : وعلماءُ زمانِنا شرٌّ مِنْ علماءِ بني إسرائيلَ ؛ يخبرونَ السلطانَ بالرُّخَصِ وبما يوافقُ هواهُ ، ولوْ أخبروهُ بالذي عليهِ وفيهِ نجاتُهُ . . لاستثقلَهُمْ ، وكَرِهَ دخولَهُمْ عليهِ ، وكانَ ذٰلكَ نجاةً لهُمْ عندَ ربِّهِمْ[8]

وقالَ الحسنُ : (كانَ فيمنْ كانَ قبلَكُمْ رجلٌ لهُ قَدَمٌ في الإسلامِ وصحبةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : عنىٰ بهِ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ ـ قالَ : وكانَ لا يغشى السلاطينَ ، وينفرُ عنهُمْ ، فقالَ لهُ بنوهُ : يأتي هٰؤلاءِ مَنْ ليسَ هوَ مثلَكَ في الصحبةِ والقدَمِ في الإسلامِ ، فلوْ أتيتَهُمْ !!

فقالَ : يا بَنِيَّ ؛ آتي جيفةً قدْ أحاطَ بها قومٌ ؟! واللهِ ؛ لئنِ استطعتُ لا شاركتهُمْ فيها .

قالوا : يا أبانا ؛ إذاً نهلِكَ هزالاً

« فيض القدير » (٣٨٣/٤) نقلاً عن السيوطي : (قوله ـ أي ابن الجوزي ـ : « موضوع » . . ممنوع ، وله شواهد فوق الأربعين ، فنحكم له على مقتضى صناعة الحديث بالحسن) .

(١) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٥) .

(٢) رواه الحافظ السلفي في « الطيوريات » (٦٩٠) من طريق سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) وشاهده من حديث أبي هريرة رفعه ، أخرجه ابن ماجه : « إن أبغض الخلق إلى الله العالم يزور العمال » . « إتحاف » (٣٨٩/١) ، وهٰذا الذي ذكره قد رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢٢) ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٤٥٠/٣) .

(٤) عند ابن ماجه (٢٥٦) : « وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء » ، وفي « الحلية » (٢٤٣/٣) من كلام سلمة بن دينار : (إن خير الأمراء من أحب العلماء ، وإن شر العلماء من أحب الأمراء) .

(٥) وهٰذا قد روي مرفوعاً من حديث معاذ ، أخرجه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » له ، وكذا الحاكم في « تاريخه » بلفظ : « إذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين ثم أتى باب السلطان تملقاً إليه ، وطمعاً لما في يديه . . خاض بقدر خطاه في نار جهنم » . « إتحاف » (٣٩٠/١) .

(٦) ذكره ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٧) عن (سحنون) بدل (سمنون) .

(٧) **الدرك** : التبعة وما يلحق منها

(٨) ترتيب المدارك (٣٥٧/١) ، وفيه (سحنون) بدل (سمنون) .

قالَ : يا بَنِيَّ ؛ لأنْ أموتَ مؤمناً مهزولاً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أموتَ منافقاً سميناً[1]

قالَ الحسنُ : (خصمَهُمْ واللهِ ؛ إذْ علِمَ أنَّ الترابَ يأكلُ اللحمَ والسِمَنَ ، دونَ الإيمانِ)[2]

وفي هٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الداخلَ على السلطانِ لا يسلَمُ مِنَ النفاقِ ألبتةَ ، وهوَ مضادٌّ للإيمانِ .

وقالَ أبو ذرٍّ لسلمةَ : (يا سلمةُ ؛ لا تغشَ أبوابَ السلاطينِ ؛ فإنَّكَ لا تصيبُ مِنْ دنياهُمْ شيئاً إلا أصابوا مِنْ دينِكَ أفضلَ منهُ)[3]

وهٰذهِ فتنةٌ عظيمةٌ للعلماءِ ، وذريعةٌ صعبةٌ للشيطانِ عليهِمْ ، لا سيما مَنْ لهُ لهجةٌ مقبولةٌ وكلامٌ حلْوٌ ، إذْ لا يزالُ الشيطانُ يُلقي إليهِ أنَّ في وعظِكَ لهُمْ ودخولِكَ عليهِمْ ما يزجرُهُمْ عنِ الظلْمِ ويقيمُ شعائرَ الشرعِ ، إلىٰ أنْ يخيّلَ إليهِ أنَّ الدخولَ عليهِمْ مِنَ الدينِ ، ثمَّ إذا دخلَ . . لمْ يلبثْ أنْ يتلطَّفَ في الكلامِ ويداهنَ ، ويخوضَ في الثناءِ والإطراءِ ، وفيهِ هلاكُ الدينِ .

وكانَ يُقالُ : (العلماءُ إذا علموا . . عملوا ، فإذا عملوا . . شُغلوا ، فإذا شُغلوا . . فُقدوا ، فإذا فُقدوا . . طُلبوا ، فإذا طُلبوا . . هَربوا)[4]

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الحسنِ رحمَهُما اللهُ : أما بعدُ : فأشرْ عليَّ بقومٍ أستعينُ بهِمْ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ .

فكتبَ إليهِ : أمَّا أهلُ الدينِ . . فلنْ يريدوكَ ، وأمَّا أهلُ الدنيا . . فلنْ تريدَهُمْ ، ولٰكنْ عليكَ بالأشرافِ ؛ فإنَّهُمْ يصونونَ شرفَهُمْ أنْ يدنِّسوهُ بالخيانةِ[5]

هٰذا في عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ ، وكانَ أزهدَ أهلِ زمانِهِ ، فإذا كانَ شرطُ أهلِ الدينِ الهربَ منهُ . . فكيفَ يستتبُّ طلبُ غيرِهِ ومخالطتُهُ ؟!

ولمْ يزلِ السلفُ العلماءُ مثلُ الحسنِ والثوريِّ وابنِ المباركِ والفضيلِ وإبراهيمَ بنِ أدهمَ ويوسفَ بنِ أسباطٍ يتكلَّمونَ في علماءِ الدنيا مِنْ أهلِ مكَّةَ والشامِ وغيرِهِمْ ؛ إمَّا لميلِهِمْ إلى الدنيا ، وإما لمخالطتِهِمُ السلاطينَ .

❀ ❀ ❀

ومنها : **ألا يكونَ مسارعاً إلى الفتوىٰ** : بلْ يكونُ متوقِّفاً ومحترزاً ما وجدَ إلى الخلاصِ سبيلاً ، فإنْ سُئِلَ عمَّا يعلمُهُ تحقيقاً بنصِّ كتابِ اللهِ أو بنصِّ حديثٍ أوْ إجماعٍ أوْ قياسٍ جليٍّ . . أفتىٰ ، وإنْ سُئِلَ عمَّا يشكُّ فيهِ . . قال : (لا أدري) ، وإنْ سُئِلَ عمَّا يظنُّهُ باجتهادٍ وتخمينٍ . . احتاطَ ودفعَ عنْ نفسِهِ وأحالَ علىٰ غيرِهِ إنْ كانَ في غيرِهِ غُنيةٌ .

---

(١) فلم يزل رضي الله عنه في حال التقشف والصبر حتى لحق بربه معتزلاً في قصره بالعقيق في سنة خمس وخمسين على المشهور ، وحمل على الأعناق ودفن بالبقيع ، وهو آخر العشرة موتاً ، فهو قدوةٌ من ابتلي في حاله بالتلوين ، وحجةٌ من تحصن بالوحدة والعزلة من الفتنتين . « إتحاف » (٣٩١/١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة » (٢٠٢) ، وحكى البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣٨٩/١٢) هٰذا عن إياس بن قتادة ، وهو تابعي .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٨٨٧) .

(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢٣٤/٥) عن يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالىٰ ، ومعنىٰ (شغلوا) أي : بالله تعالىٰ ، وهو نتيجة العمل الصادق ، و(هربوا) أي : من الخلق ؛ سلامة لدينهم وجمعاً لخواطر قلوبهم . « إتحاف » (٣٩١/١) .

(٥) قوت القلوب (١٣٤/١) .

هٰذا هوَ الحزمُ ؛ لأنَّ تقلُّدَ خطرِ الاجتهادِ عظيمٌ .

وفي الخبرِ : (العلمُ ثلاثةٌ : كتابٌ ناطقٌ ، وسنةٌ قائمةٌ ، ولا أدري)[(١)]

وقالَ الشعبيُّ : (لا أدري نصفُ العلمِ)[(٢)]

ومَنْ سكتَ حيثُ لا يدري للهِ تعالىٰ . . فليسَ بأقلَّ أجراً ممَّنْ نطقَ ؛ لأنَّ الاعترافَ بالجهْلِ أشدُّ على النفسِ ، وهٰكذا كانتْ عادةُ الصحابةِ والسلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

كانَ ابنُ عمرَ إذا سُئِلَ عنِ الفتوىٰ . . قالَ : اذهبْ إلىٰ هٰذا الأميرِ الذي تقلَّدَ أمورَ الناسِ فضَعْها في عنقِهِ[(٣)]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الذي يفتي الناسَ في كلِّ ما يستفتونَهُ لَمجنونٌ)[(٤)]

وقالَ : (جُنَّةُ العالِمِ لا أدري ، فإذا أخطأها . . أصيبتْ مقاتلُهُ)[(٥)]

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (ليسَ شيءٌ أشدَّ على الشيطانِ مِنْ عالمٍ يتكلَّمُ بعلْمٍ ويسكتُ بعلْمٍ ، يقولُ : انظروا إلىٰ هٰذا ، سكوتُهُ أشدُّ عليَّ مِنْ كلامِهِ)[(٦)]

ووصفَ بعضُهُمُ الأبدالَ فقالَ : (أكْلُهُمْ فاقةٌ ، وكلامُهُمْ ضرورةٌ)[(٧)] أي : ما يتكلمونَ حتَّىٰ يُسألوا ، فإذا سُئِلوا ووجدوا مَنْ يكفيهِمْ . . سكتوا ، فإنِ اضطروا . . أجابوا ، وكانوا يعدُّون الابتداءَ قبلَ السؤالِ مِنَ الشهوةِ الخفيَّةِ للكلامِ .

ومرَّ عليٌّ وعبدُ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما برجلٍ يتكلَّمُ على الناسِ ، فقالا : (هٰذا يقولُ : اعرفوني)[(٨)]

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّما العالمُ الذي إذا سُئِلَ عنِ المسألةِ فكأنَّما يُقلَعُ ضرسُهُ)[(٩)]

وكانَ ابنُ عمرَ يقولُ : (تريدونَ أنْ تجعلونا جسراً تعبرونَ علينا إلىٰ جهنَّمَ ؟!)[(١٠)]

وقالَ أبو حفصٍ النيسابوريُّ : (العالمُ هوَ الذي يخافُ عندَ السؤالِ أنْ يُقالَ لهُ يومَ القيامةِ : مِنْ أينَ أجبتَ ؟)[(١١)]

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ إذا سُئِلَ عنْ مسألةٍ . . يبكي ويقولُ : لمْ تجدوا غيري حتَّى احتجتُمْ إليَّ ؟[(١٢)]

وكانَ أبو العاليةِ الرياحيُّ وإبراهيمُ والثوريُّ وابنُ أدهمَ يتكلَّمونَ على الاثنينِ والثلاثةِ والنفرِ اليسيرِ ، فإذا كثروا . . انصرفوا[(١٣)]

---

(١) هو من كلام ابن عمر رضي الله عنهما ، رواه عنه الطبراني في « الأوسط » (١٠٠٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٧) .
(٢) رواه الدارمي في « سننه » (١٨٦) .
(٣) قوت القلوب (١٣١/١) .
(٤) رواه الدارمي في « سننه » (١٧٦) .
(٥) رواه الصنعاني في « الأمالي في آثار الصحابة » (١٦٢) ، وهو مروي عن غيره من السلف .
(٦) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢٦/٨) بنحوه .
(٧) قوت القلوب (١٥٤/١) ، والواصف هو فزارة الشامي كما جاء في غير هٰذا الموضع .
(٨) قوت القلوب (١٥٥/١) ، وعبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه .
(٩) قوت القلوب (١٥٥/١) ، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٥٩) بنحوه .
(١٠) قوت القلوب (١٥٥/١) .
(١١) قوت القلوب (١٥٥/١) بنحوه .
(١٢) قوت القلوب (١٥٥/١) .
(١٣) قوت القلوب (١٥٥/١) ، وإبراهيم هو النخعي .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أدري أعزيرٌ نبيٌّ أمْ لا ، وما أدري أتُبَّعٌ ملعونٌ أمْ لا ، وما أدري ذو القرنين نبيٌّ أمْ لا »[١] .

ولمَّا سُئِلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ خيرِ البقاعِ في الأرضِ وشرِّها ، قالَ : « لا أدري » ، حتَّىٰ نزلَ عليهِ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فسألَهُ عنْ ذٰلكَ ، فقالَ : لا أدري ، إلىٰ أنْ أعْلَمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ خيرَ البقاعِ المساجدُ ، وشرَّهَا الأَسْواقُ[٢] .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما يُسألُ عنْ عشرِ مسائلَ ، فيجيبُ عنْ واحدةٍ ويسكتُ عنْ تسعٍ[٣] .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يجيبُ عنْ تسعٍ ويسكتُ عنْ واحدةٍ[٤] .

وكانَ في الفقهاءِ مَنْ يقولُ : (لا أدري) أكثرَ مِنْ أنْ يقولَ : (أدري) ؛ منهمْ سفيانُ الثوريُّ ، ومالكُ بنُ أنسٍ ، وأحمدُ ابنُ حنبلٍ ، والفضيلُ بنُ عياضٍ ، وبشرُ بنُ الحارثِ[٥] .

وقالَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ أبي ليلىٰ : (أدركتُ في هٰذا المسجدِ مئةً وعشرينَ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما منهُمْ أحدٌ يُسألُ عنْ حديثٍ أوْ فتوىٰ إلا وَدَّ أنَّ أخاهُ كفاهُ ذٰلكَ)[٦] .

وفي لفظٍ آخرَ : (كانتِ المسألةُ تعرضُ علىٰ أحدِهِمْ فيردُّها إلى الآخرِ ، ويردُّها الآخرُ إلى الآخرِ ، حتَّىٰ تعودَ إلى الأولِ) .

ورُوِيَ أنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ أُهديَ إلىٰ واحدٍ منهمْ رأسٌ مشويٌّ وهوَ في غايةِ الضرِّ ، فأهداهُ إلىٰ آخرَ ، وأهداهُ الآخرُ إلىٰ آخرَ ، وهٰكذا دارَ بينهُمْ حتَّىٰ رجعَ إلى الأولِ[٧] .

فانظرِ الآنَ كيفَ انعكسَ أمرُ العلماءِ ، فصارَ المهروبُ عنهُ مطلوباً ، والمطلوبُ مهروباً عنهُ .

ويشهدُ لحسنِ الاحترازِ مِنْ تقلُّدِ الفتوىٰ ما رُوِيَ مسنداً أنَّهُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يفتي الناسَ إلا ثلاثةٌ : أميرٌ ، أوْ مأمورٌ ، أوْ متكلِّفٌ »[٨] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كانَ الصحابةُ يتدافعونَ أربعةَ أشياءَ : الإمامةَ ، والوصيةَ ، والوديعةَ ، والفتيا)[٩] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كانَ أسرعُهُمْ إلى الفتيا أقلَّهُمْ علماً ، وأشدُّهُمْ دفعاً لها أورعَهُمْ)[١٠] .

وكانَ شغلُ الصحابةِ والتابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ في خمسةِ أشياءَ : قراءةِ القرآنِ ، وعمارةِ المساجدِ ، وذكرِ اللهِ تعالىٰ ،

---

(١) رواه أبو داوود (٤٦٧٤) ، والجملة الأخيرة عند الحاكم في « المستدرك » (١٤/٢) .
(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٥٩٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٧١٣٦) .
(٣) قوت القلوب (١٣١/١) .
(٤) قوت القلوب (١٣١/١) .
(٥) قوت القلوب (١٣١/١) .
(٦) تاريخ دمشق (٨٧/٣٦) ، وكذا في « قوت القلوب » (١٣١/١) .
(٧) وإنما أورد المصنف هٰذه القصة هنا ليقاس عليه أمر الفتوىٰ حتىٰ يعيدها إلى الآخر . « إتحاف » (٣٩٨/١) .
(٨) كذا في « القوت » (١٣١/١) حيث قال : (وقد روينا مسنداً) وذكره ، وقد رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٢٢/٦) ، والطبراني في « الكبير » (٧٦/١٨) ، وأوله : « لا يقصُّ إلا أمير . . . » ، وله روايات أخرىٰ .
(٩) قوت القلوب (١٣٢/١) .
(١٠) جامع بيان العلم وفضله (١٥٢٥) ، وكذا في « قوت القلوب » (١٣٢/١) .

والأمرِ بالمعروفِ ، والنهيِ عنِ المنكرِ ؛ وذٰلكَ لما سمعوهُ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ كلامِ ابنِ آدمَ عليهِ لا لهُ إلا ثلاثةً : أمرٌ بمعروفٍ ، أوْ نهيٌ عنْ منكرٍ ، أوْ ذكرُ اللهِ تعالىٰ »[١]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ . . . ﴾ الآيةَ .

ورأىٰ بعضُ العلماءِ بعضَ أصحابِ الرأيِ مِنْ أهلِ الكوفةِ في المنامِ ، فقالَ : ما رأيتَ فيما كنتَ عليهِ مِنَ الفتيا والرأيِ ؟ فكرهَ وجهَهُ وأعرضَ عنهُ ، وقالَ : ما وجدناهُ شيئاً ، وما حمدْنا عاقبتَهُ[٢]

وقالَ أبو حَصِينٍ : (إنَّ أحدَهُمْ ليفتي في مسألةٍ لوْ وردتْ علىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ لجمعَ لها أهلَ بدرٍ !!)[٣]

فلمْ يزلِ السكوتُ دأبَ أهلِ العلمِ إلا عندَ الضرورةِ ، وفي الخبرِ : « إذا رأيتمُ الرجلَ قدْ أُوتيَ صمتاً وزهداً . . فاقتربُوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلَقَّى الحكمةَ »[٤]

وقيلَ : العالمُ : إمَّا عالمُ عامَّةٍ ، وهوَ المفتي ، وهُمْ أصحابُ الأساطينِ ، أوْ عالمُ خاصَّةٍ ، وهوَ العالمُ بالتوحيدِ وأعمالِ القلوبِ ، وهُمْ أصحابُ الزوايا المنفردونَ[٥]

وكانَ يُقالُ : (مثلُ أحمدَ ابنِ حنبلٍ مثلُ دِجلةَ ، كلُّ أحدٍ يغترفُ منها ، ومثلُ بشْرِ بنِ الحارثِ مثلُ بئرٍ عذبةٍ مغطَّاةٍ ، لا يقصدُها إلا واحدٌ بعدَ واحدٍ)[٦] .

وكانوا يقولونَ : فلانٌ عالمٌ ، وفلانٌ متكلِّمٌ ، وفلانٌ أكثرُ كلاماً ، وفلانٌ أكثرُ علماً[٧]

وقالَ أبو سليمانَ : (المعرفةُ إلى السكوتِ أقربُ منها إلى الكلامِ)[٨]

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا كثرَ العلمُ . . قلَّ الكلامُ)[٩]

وكتبَ سلمانُ إلىٰ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُما وكانَ قدْ آخىٰ بينَهُما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[١٠] : (يا أخي ؛ بلغني أنَّكَ أُقعدتَ طبيباً تداوي المرضىٰ ، فانظرْ فإنْ كنتَ طبيباً . . فتكلَّمْ ؛ فإنَّ كلامَكَ شفاءٌ ، وإنْ كنتَ مُتَطَبِّباً . . فاللهَ اللهَ ، لا تقتلْ مسلماً) ، فكانَ أبو الدرداءِ يتوقَّفُ بعدَ ذٰلكَ إذا سُئِلَ[١١]

وكان أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذا سُئِلَ يقولُ : (سَلُوا مولانا الحسنَ)[١٢]

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٢) ، وابن ماجه (٣٩٧٤) بنحوه .
(٢) قوت القلوب (١٣٢/١) بنحوه .
(٣) رواه البيهقي في « المدخل » (٨٠٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٠/٣٨) .
(٤) رواه ابن ماجه (٤١٠١) .
(٥) قوت القلوب (١٤٢/١) ، **والأساطين** : جمع أسطوانة ، وهي هنا السارية تكون في المسجد .
(٦) قوت القلوب (١٤٢/١) .
(٧) قوت القلوب (١٤٢/١) ، وإنما أراد التفرقة بين العلم والكلام .
(٨) قوت القلوب (١٤٢/١) .
(٩) قوت القلوب (١٤٢/١) ، وفي (هـ) زيادة : (إذا كثر الكلام . . قل العلم) .
(١٠) كما جاء ذٰلك في « البخاري » (١٩٦٨) .
(١١) قوت القلوب (١٤٧/١) .
(١٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٤٥) .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما إذا سئلَ يقولُ : (سَلُوا جابرَ بنَ زيدٍ)[١]

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (سَلُوا سعيدَ بنَ المسيَّبِ)[٢]

وحُكِيَ أنَّهُ روىٰ صحابيٌّ في حضرةِ الحسنِ عشرينَ حديثاً ، فسُئِلَ عنْ تفسيرِها فقالَ : ما عندي إلا ما رويتُ ، فأخذَ الحسنُ في تفسيرِها حديثاً حديثاً ، فتعجَّبوا مِنْ حسنِ حفظِهِ وحسنِ تفسيرِهِ ، فأخذَ الصحابيُّ كفّاً مِنْ حصىً ورماهُمْ بهِ وقالَ : تسألوني عنِ العلمِ وهٰذا الحبرُ بينَ أظهرِكُمْ ؟![٣]

❁ ❁ ❁

ومنها : **أنْ يكونَ أكثرُ اهتمامِهِ بعلمِ الباطنِ ومراقبةِ القلبِ ، ومعرفةِ طريقِ الآخرةِ وسلوكِهِ**[٤] ، **وصدقِ الرجاءِ في انكشافِ ذٰلكَ ؛ مِنَ المجاهدةِ والمراقبةِ** : فإنَّ المجاهدةَ تفضي إلى المشاهدةِ في دقائقِ علومِ القلوبِ وتتفجرُ بها ينابيعُ الحكمةِ مِنَ القلبِ ، وأمَّا الكتبُ والتعليمُ . . فلا تفي بذٰلكَ ، بلِ الحكمةُ الخارجةُ عنِ الحصْرِ والعدِّ إنَّما تنفتحُ بالمجاهدةِ والمراقبةِ ، ومباشرةِ الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والجلوسِ معَ اللهِ تعالىٰ في الخلوةِ معَ حضورِ القلبِ بصافي الفكرِ ، والانقطاعِ إلى اللهِ تعالىٰ عمَّا سواهُ ، فذٰلكَ مفتاحُ الإلهامِ ، ومنبعُ الكشْفِ .

فكمْ مِنْ متعلِّمٍ طالَ تعلُّمُهُ ولمْ يقدِرْ علىٰ مجاوزةِ مسموعِهِ بكلمةٍ ، وكمْ مِنْ مقتصرٍ على المهمِّ في التعلُّمِ ومتوفِّرٍ على العملِ ومراقبةِ القلْبِ فَتَحَ اللهُ لهُ مِنْ لطائفِ الحكمِ ما تحارُ فيهِ عقولُ ذوي الألبابِ !!

ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علمَ . . وَرَّثَهُ اللهُ علْمَ ما لمْ يعلمْ »[٥]

وفي بعضِ الكتبِ السالفةِ : (يا بني إسرائيلَ ؛ لا تقولوا : العلمُ في السماءِ مَنْ ينزلُ بهِ ، ولا في تُخُومِ الأرضِ مَنْ يصعدُ بهِ ، ولا مِنْ وراءِ البحارِ مَنْ يعبرُ يأتي بهِ ، العلْمُ مجعولٌ في قلوبِكُمْ ، تأدَّبوا بين يديَّ بآدابِ الروحانيينَ ، وتخلَّقُوا لي بأخلاقِ الصدِّيقينَ . . أُظهِرِ العلمَ في قلوبِكُمْ حتَّىٰ يغطيَكُمْ ويغمرَكُمْ)[٦]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رحمهُ اللهُ : (خرجَ العلماءُ والعبَّادُ والزهَّادُ مِنَ الدنيا وقلوبُهُمْ مقفلةٌ ، ولمْ تُفتحْ إلا قلوبُ الصدِّيقينَ والشهداءِ ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ . . . ﴾ الآيةَ)[٧]

ولولا أنَّ إدراكَ قلبِ مَنْ لهُ قلبٌ بالنورِ الباطنِ حاكمٌ علىٰ علْمِ الظاهرِ . . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اسْتَفْتِ قلبَكَ وإنْ أفتوكَ وأفتَوكَ وأفتَوكَ »[٨]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فيما يرويهِ عنْ ربِّهِ : « لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ . . . » الحديثَ[٩]

---

(١) قوت القلوب (١/١٤٧) .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٧/١٤٠) .

(٣) قوت القلوب (١/١٤٧) بنحوه .

(٤) بواسطة مرشد كامل أو عارف حاذق يستفيد ذٰلك بمجالسته . « إتحاف » (١/٤٠٢) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٤) .

(٦) قوت القلوب (١/١٣٧) .

(٧) قوت القلوب (١/١٥٢) .

(٨) رواه أحمد في « مسنده » (٤/٢٢٨) ، وهٰذا مخصوص لمن كان له قلب وألقىٰ سمعه ، وشهد قيام شاهده ، وعري عن شهواته ومعهوده ؛ لأن الفقه ليس من وصف اللسان . « إتحاف » (١/٤٠٣) .

(٩) رواه البخاري (٦٥٠٢) .

فكمْ مِنْ معانٍ دقيقةٍ مِنْ أسرارِ القرآنِ تخطرُ علىٰ قلْبِ المتجرِّدِينَ للذكرِ والفكرِ تخلو عنها كتبُ التفاسيرِ ولا يطلعُ عليها أفاضلُ المفسرينَ !! وإذا انكشفَ ذٰلكَ للمريدِ المراقبِ وعُرِضَ على المفسرينَ [١] . . استحسنوهُ ، وعلموا أنَّ ذٰلكَ مِنْ تنبيهاتِ القلوبِ الزكيةِ ، وألطافِ اللهِ تعالىٰ بالهممِ العاليةِ المتوجهةِ إليهِ ، وكذٰلكَ في علومِ المكاشفةِ وأسرارِ علومِ المعاملةِ ودقائقِ خواطرِ القلوبِ ؛ فإنَّ كلَّ علْمٍ مِنْ هـٰذهِ العلومِ بحرٌ لا يُدركُ عمقُهُ ، وإنَّما يخوضُهُ كلُّ طالبٍ بقدْرِ ما رُزِقَ منهُ ، وبحسَبِ ما وُفِّقَ لهُ مِنْ حُسْنِ العملِ .

وفي وصفِ هـٰؤلاءِ العلماءِ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في حديثٍ طويلٍ : (القلوبُ أوعيةٌ ، وخيرُها أوعاها للخيرِ ، والناسُ ثلاثةٌ : عالمٌ ربانيٌّ ، ومتعلِّمٌ علىٰ سبيلِ النجاةِ ، وهَمَجٌ رَعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ ، يميلونَ معَ كلِّ ريحٍ ، لَمْ يستضيئوا بنورِ العلمِ ، ولمْ يلجؤوا إلىٰ ركنٍ وثيقٍ ، العلمُ خيرٌ مِنَ المالِ ، العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ ، والعلمُ يزكو على الإنفاقِ والمالُ تنقصُهُ النفقةُ ، محبَّةُ العالمِ دينٌ يدانُ بهِ ، تُكتسبُ بهِ الطاعةُ في حياتِهِ ، وجميلُ الأحدوثةِ بعدَ موتِهِ ، العلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليهِ ، ومنفعةُ المالِ تزولُ بزوالِهِ ، ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهمْ أحياءٌ ، والعلماءُ باقونَ ما بقيَ الدهرُ) .

ثمَّ تنفَّسَ الصعداءَ وقالَ : (هاهِ !! **إنَّ ها هنا علْماً جمّاً لوْ وجدتُ لهُ حملةً** ، بلْ أجدُ طالباً غيرَ مأمونٍ يستعملُ آلةَ الدينِ في طلبِ الدنيا ، ويستطيلُ بنِعَمِ اللهِ علىٰ أوليائِهِ ، ويستظهرُ بحُجَجِهِ علىٰ خلقِهِ ، أوْ منقاداً لأهلِ الحقِّ ، لـٰكنْ ينزرعُ الشكُّ في قلبِهِ بأوَّلِ عارضٍ مِنْ شبهَةٍ ، لا بصيرةَ لهُ ، **لا ذا ولا ذاكَ** ، أوْ منهوماً باللذَّاتِ سلسَ القيادِ في طلبِ الشهواتِ ، أوْ مغرىً بجمْعِ الأموالِ والادخارِ ، منقاداً لهواهُ ، أقربُ شَبَهاً بهما الأنعامُ السائمةُ [٢]

اللهمَّ ؛ هـٰكذا يموتُ العلْمُ إذا ماتَ حاملوهُ ، بلْ لا تخلو الأرضُ مِنْ قائمٍ للهِ بحجَّةٍ ، إمَّا ظاهرٌ مكشوفٌ ، وإمَّا خائفٌ مقهورٌ ؛ لئلا تبطُلَ حججُ اللهِ تعالىٰ وبيّناتُهُ ، وكمْ وأينَ . . أولـٰئكَ همُ الأقلُّونَ عدداً ، الأعظمونَ قدْراً ؟! أعيانُهُمْ مفقودةٌ ، وأمثالُهُمْ في القلوبِ موجودةٌ ، يحفظُ اللهُ تعالىٰ بهِمْ حججَهُ حتَّىٰ يُودِعُوها نظراءَهُمْ ، ويزرعُوها في قلوبِ أشباهِهِمْ ، هجَمَ بهمُ العلْمُ علىٰ حقيقةِ الأمرِ ، فباشروا رُوحَ اليقينِ ، فاستلانوا ما استوعرَ منهُ المترفونَ ، وأَنِسُوا بما استوحشَ منهُ الغافلونَ ، صَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالمحلِّ الأعلىٰ ، أولـٰئكَ أولياءُ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ خلقِهِ ، وأمناؤُهُ وعمالُهُ في أرضِهِ ، والدعاةُ إلىٰ دينِهِ) .

ثمَّ بكىٰ وقالَ : (وا شوقاهُ إلىٰ رؤيتِهِمْ) [٣]

فهـٰذا الذي ذكَرَهُ آخراً هوَ وصْفُ علماءِ الآخرةِ ، وهوَ العلمُ الذي يُستفادُ أكثرُهُ مِنَ العملِ والمواظبةِ على المجاهدةِ .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يكونَ شديدَ العنايةِ بتقويةِ اليقينِ : فإنَّ اليقينَ هوَ رأسُ مالِ الدينِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اليقينُ الإيمانُ كلُّهُ » [٤]

---

(١) المنصفين المحفوظين من علائق الشهوة . « إتحاف » (٤٠٤/١) .

(٢) قوله : (بهما) المنهوم باللذة ، والمغرىٰ بجمع الأموال .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧٩/١ ـ ٨٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٧٦/٦) ، وانظر « قوت القلوب » (١٤٢/١ ـ ١٤٣) ، و« إتحاف السادة المتقين » (٤٠٦/١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤/٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٢٦٥) .

ولا بدَّ منْ تعلُّمِ علْمِ اليقينِ ، أعني أوائلَهُ ، ثـمَّ ينفتحُ للقلبِ طريقُهُ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعلَّمُوا اليقينَ »[١] ، ومعناهُ : جالسوا الموقنينَ ، واسمعوا منهُمْ علْمَ اليقينِ ، وواظبوا على الاقتداءِ بهِمْ ؛ ليقوىٰ يقينُكُمْ كما قويَ يقينُهُمْ ، وقليلٌ منَ اليقينِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العملِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قيلَ لهُ : رجلٌ حسنُ اليقينِ كثيرُ الذنوبِ ، ورجلٌ مجتهدٌ في العبادةِ قليلُ اليقينِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ آدميٍّ إلَّا ولهُ ذنوبٌ ، ولٰكنْ مَنْ كانَ غريزتُهُ العقلَ وسجيتُهُ اليقينَ . . لمْ تضرَّهُ الذنوبُ ؛ لأنَّه كلَّما أذنبَ . . تابَ واستغفرَ وندمَ ، فتُكفَّرُ ذنوبُهُ ، ويبقىٰ لهُ فضْلٌ يدخلُ بهِ الجنةَ »[٢]

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ ، ومَنْ أُعْطيَ حَظَّهُ منهما . . لمْ يُبَالِ ما فاتَهُ مِنْ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ »[٣] .

وفي وصيةِ لقمانَ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا يُستطاعُ العملُ إلا باليقينِ ، ولا يعمَلُ المرءُ إلا بقدْرِ يقينِهِ ، ولا يقصِّرُ عاملٌ حتَّىٰ ينقصَ يقينُهُ)[٤]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (إنَّ للتوحيدِ نوراً ، وللشرْكِ ناراً ، وإنَّ نورَ التوحيدِ أحرقُ لسيئاتِ الموحدينَ منْ نارِ الشرْكِ لحسناتِ المشركينَ)[٥] ، وأرادَ بهِ اليقينَ .

وقدْ أشارَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ إلىٰ ذكرِ الموقنينَ في مواضعَ دلَّ بها علىٰ أنَّ اليقينَ هوَ الرابطةُ للخيراتِ والسعاداتِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما معنى اليقينِ ، وما معنىٰ قوتِهِ وضعفِهِ ؟ فلا بدَّ مِنْ فهمِهِ أولاً ، ثـمَّ الاشتغالِ بطلبِهِ وتعلُّمِهِ ؛ فإنَّ ما لا تُفهَمُ صورتُهُ لا يمكنُ طلبُهُ .

فاعلمْ : أنَّ اليقينَ لفظٌ مشتركٌ يطلقُهُ فريقانِ لمعنيينِ مختلفينِ :

أمَّا النظَّارُ والمتكلمونَ : فيعبِّرونَ بهِ عن عدمَ الشكِّ[٦] ؛ إذْ ميلُ النفسِ إلى التصديقِ بالشيءِ لهُ أربعُ مقاماتٍ :

الأولُ : أنْ يعتدلَ التصديقُ والتكذيبُ ، ويُعبَّرُ عنهُ بالشكِّ ، كما إذا سُئِلتَ عنْ شخصٍ معيَّنٍ أنَّ اللهَ تعالىٰ يعاقبُهُ أمْ لا وهوَ مجهولُ الحالِ عندَكَ . . فإنَّ نفسَكَ لا تميلُ إلى الحكْمِ فيهِ بإثباتٍ ولا نفيٍ ، بلْ يستوي عندَك إمكانُ الأمرينِ ، فيسمَّىٰ هٰذا شكّاً .

الثاني : أنْ تميلَ نفسُكَ إلىٰ أحدِ الأمرينِ معَ الشعورِ بإمكانِ نقيضِهِ ، ولٰكنَّهُ إمكانٌ لا يمنعُ ترجيحَ الأوَّلِ ، كما إذا

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩٥/٦) ، وابن أبي الدنيا في « اليقين » (٧) .

(٢) الحديث عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) ، وهو في « القوت » (١٣٥/١) ، وانظر « المطالب العالية » (٢٦٦/٧ ، ٢٦٩) ، و« الإتحاف » (٤٠٩/١) .

(٣) قال صاحب « القوت » (١٩٤/١) : (وأخبر عليه الصلاةُ والسلام أن الصبر كمال العمل والأجر ، فقال في حديث يرويه شهر بن حوشب الأشعري ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، قال ملا علي في « الأسرار المرفوعة » : (قلت : وهو مستفاد من قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وأما عزيمة الصبر في العمل . . فكذا قليل كما قال الله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾) .

(٤) قوت القلوب (١٣٥/١) .

(٥) قوت القلوب (١٣٦/١) .

(٦) فالشكُّ نقيضه ، وهٰذا هو مذهب أهل اللغة . « إتحاف » (٤١٠/١) .

سُئِلتَ عنْ رجلٍ تعرفُهُ بالصلاحِ والتقوىٰ أنَّهُ بعينِهِ لوْ ماتَ علىٰ هٰذهِ الحالةِ هلْ يُعاقبُ ؟ فإنَّ نفسَكَ تميلُ إلىٰ أنَّهُ لا يُعاقبُ أكثرَ مِنْ ميلِها إلى العقابِ ، وذٰلكَ لظهورِ علاماتِ الصلاحِ ، ومعَ هٰذا فأنتَ تجوِّزُ اختفاءَ أمرٍ موجبٍ للعقابِ في باطنِهِ وسريرتِهِ ، فهٰذا التجويزُ مساوقٌ لذٰلكَ الميلِ ، ولٰكنَّه غيرُ دافعٍ رجحانَهُ ، فهٰذهِ الحالةُ تُسمَّىٰ ظنّاً .

الثالثُ : أنْ تميلَ النفسُ إلى التصديقِ بشيءٍ بحيثُ يغلبُ عليها ولا يخطرُ بالبالِ غيرُهُ ، ولوْ خطرَ بالبالِ . . لتَأبَّتِ النفسُ عنْ قبولِهِ ، ولٰكنْ ليسَ ذٰلكَ عنْ معرفةٍ محقَّقةٍ ؛ إذْ لوْ أحسنَ صاحبُ هٰذا المقامِ التأمُّلَ والإصغاءَ إلى التشكيكِ والتجويزِ . . لاتسعتْ نفسُهُ للتجويزِ ، وهٰذا يسمَّى **اعتقاداً مقارباً لليقينِ** ، وهوَ اعتقادُ العوامِّ في الشرعياتِ كلِّها ؛ إذْ رسخَ في نفوسِهِمْ بمجرَّدِ السماعِ ، حتَّىٰ إنَّ كلَّ فرقةٍ تثقُ بصحَّةِ مذهبِها وإصابةِ إمامِها ومتبوعِها ، ولوْ ذُكِرَ لأحدِهِمْ إمكانُ خطأِ إمامِهِ . . نفرَ عنْ قبولِهِ[1] .

الرابعُ : المعرفةُ الحقيقيةُ الحاصلةُ بطريقِ البرهانِ الذي لا يُشكُّ فيهِ ، ولا يُتصوَّرُ الشكُّ فيهِ ، فإذا امتنعَ وجودُ الشكِّ وإمكانُهُ . . يسمَّىٰ **يقيناً** عندَ هٰؤلاءِ .

ومثالُهُ : أنَّهُ إذا قيلَ للعاقلِ : هلْ في الوجودِ شيءٌ هوَ قديمٌ ؟ فلا يمكنُهُ التصديقُ بهِ بالبديهةِ ؛ لأنَّ القديمَ غيرُ محسوسٍ ، لا كالشمسِ والقمرِ ؛ فإنَّهُ يصدقُ بوجودِهِما بالحسِّ ، وليسَ العلمُ بوجودِ شيءٍ قديمٍ أزليٍّ ضرورياً مثلَ العلمِ بأنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ ، بلْ مثلَ العلمِ بأنَّ حدوثَ حادثٍ بلا سببٍ محالٌ ، فإنَّ هٰذا أيضاً ضروريٌّ ، فحقُّ غريزةِ العقلِ أنْ تتوقَّفَ عنِ التصديقِ بوجودِ القديمِ علىٰ طريقِ الارتجالِ والبديهةِ .

ثمَّ مِنَ الناسِ مَنْ يسمعُ ذٰلكَ ويصدِّقُ بالسماعِ تصديقاً جزماً ويستمرُّ عليهِ ، وذٰلكَ هوَ الاعتقادُ ، وهوَ حالُ جميعِ العوامِّ ، ومِنَ الناسِ مَنْ يصدِّقُ بهِ بالبرهانِ وهوَ أنْ يُقالَ لهُ : إنْ لمْ يكنْ في الوجودِ قديمٌ . . فالموجوداتُ كلُّها حادثةٌ ، فإنْ كانتْ كلُّها حادثةً . . فهيَ حادثةٌ بلا سببٍ ، أوْ فيها حادثٌ بلا سببٍ ، وذٰلكَ محالٌ ؛ فالمؤدِّي إلى المحالِ محالٌ ، فيلزمُ في العقلِ التصديقُ بوجودِ شيءٍ قديمٍ بالضرورةِ ؛ لأنَّ الأقسامَ ثلاثةٌ : وهيَ أنْ تكونَ الموجوداتُ كلُّها قديمةً ، أوْ كلُّها حادثةً ، أوْ بعضُها قديمةً وبعضُها حادثةً .

فإنْ كانتْ كلُّها قديمةً . . فقدْ حصلَ المطلوبُ ؛ إذْ ثبتَ على الجملةِ قديمٌ ، وإنْ كانَ الكلُّ حادثاً . . فهوَ محالٌ ؛ إذْ يؤدِّي إلىٰ حدوثٍ بغيرِ سببٍ ، فثبتَ القسمُ الثالثُ أوِ الأولُ .

وكلُّ عِلْمٍ حصلَ علىٰ هٰذا الوجهِ يسمَّىٰ يقيناً عندَ هٰؤلاءِ ، سواءً حصلَ بنظرٍ مثلِ ما ذكرناهُ ، أوْ حصلَ بحسٍّ أوْ بغريزةِ العقلِ ؛ كالعلْمِ باستحالةِ حادثٍ بلا سببٍ ، أوْ بتواترٍ ؛ كالعلْمِ بوجودِ مكَّةَ ، أوْ بتجربةٍ ؛ كالعلْمِ بأنَّ المطبوخَ مسهلٌ[2] ، أوْ بدليلٍ كما ذكرْنا .

فشرطُ إطلاقِ هٰذا الاسمِ عندَهُمْ عدمُ الشكِّ ، فكلُّ علْمٍ لا شكَّ فيهِ يُسمَّىٰ يقيناً عندَ هٰؤلاءِ ، وعلىٰ هٰذا : لا يُوصفُ اليقينُ بالضعْفِ ؛ إذْ لا تفاوتَ في نفيِ الشكِّ .

❁ ❁ ❁

الاصطلاحُ الثاني اصطلاحُ الفقهاءِ والمتصوِّفةِ وأكثرِ العلماءِ : وهوَ ألا يلتفتَ فيهِ إلى اعتبارِ التجويزِ والشكِّ ، بلْ

---

(١) انظر « الاقتصاد في الاعتقاد » (ص ٢٢٨) ، فقد فصَّل فيه المسألة تفصيلاً حسناً .

(٢) والمطبوخ هنا : كل دواء طبخ لقصد الإسهال . « إتحاف » (٤١٣/١) .

إلى استيلائِهِ وغلبتِهِ على القلْبِ ، حتَّىٰ يُقالُ : فلانٌ ضعيفُ اليقينِ بالموتِ معَ أنَّهُ لا يشكُّ فيهِ ، ويُقالُ : فلانٌ قويُّ اليقينِ في إتيانِ الرزْقِ معَ أنَّهُ قدْ يجوزُ أنَّهُ لا يأتيهِ .

فمهما مالتِ النفسُ إلى التصديقِ بشيءٍ ، وغلبَ ذٰلكَ على القلبِ ، واستولىٰ حتَّىٰ صارَ هوَ المتحكِّمَ والمتصرِّفَ في النفسِ بالتجويزِ والمنعِ . . سُمِّيَ ذٰلكَ **يقيناً** .

ولا شكَّ في أنَّ الناسَ مشتركونَ في القطعِ بالموتِ والانفكاكِ عنِ الشكِّ فيهِ ، ولٰكنْ فيهِمْ مَنْ لا يلتفتُ إليهِ ، ولا إلى الاستعدادِ لهُ ، وكأنَّهُ غيرُ موقنٍ بهِ ، ومنهُمْ مَنِ استولىٰ ذٰلكَ على قلبِهِ حتَّى استغرقَ جميعَ همِّهِ بالاستعدادِ لهُ ولمْ يغادرْ فيهِ متَّسعاً لغيرِهِ ، فيعبَّرُ عنْ مثلِ هٰذهِ الحالةِ بقوَّةِ اليقينِ ، ولذٰلكَ قالَ بعضُهُمْ : (ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيهِ أشبهَ بشكٍّ لا يقينَ فيهِ مِنَ الموتِ)[1]

وعلىٰ هٰذا الاصطلاحِ يُوصفُ اليقينُ بالضعْفِ والقوَّةِ .

ونحْنُ إنَّما أردْنا بقولِنا : (إنَّ مِنْ شأنِ علماءِ الآخرةِ صَرْفَ العنايةِ إلىٰ تقويةِ اليقينِ) المعنيينِ جميعاً ، وهوَ نفيُ الشكِّ ، ثمَّ تسليطُ اليقينِ على النفسِ حتَّىٰ يكونَ هوَ الغالبَ المتحكِّمَ وهوَ المتصرِّفَ .

فإذا فهمتَ هٰذا . . علمتَ أنَّ المرادَ مِنْ قولِنا : (إنَّ اليقينَ ينقسمُ ثلاثةَ أقسامٍ) بالقوَّةِ والضعفِ ، والقلَّةِ والكثرةِ ، والخفاءِ والجلاءِ .

فأمَّا بالقوَّةِ والضعفِ : فعلى الاصطلاحِ الثاني ؛ وذٰلكَ في الغلبةِ والاستيلاءِ على القلبِ ، ودرجاتُ اليقينِ في القوَّةِ والضعفِ لا تتناهىٰ ، وتفاوتُ الخلقِ في استعدادِهِمْ للموتِ بحسَبِ تفاوتِ اليقينِ بهٰذهِ المعاني .

وأمَّا التفاوتُ بالخفاءِ والجلاءِ : فلا يُنكرُ أيضاً ؛ أمَّا فيما يتطرَّقُ إليهِ التجويزُ . . فلا ينكرُ ؛ أعني الاصطلاحَ الثانيَ ، وفيما انتفى الشكُّ عنهُ أيضاً . . لا سبيلَ إلىٰ إنكارِهِ ؛ فإنَّكَ تدركُ تفرقةً بينَ تصديقِكَ بوجودِ مكَّةَ ووجودِ فَدَكَ مثلاً ، وبينَ تصديقِكَ بوجودِ موسىٰ ووجودِ يوشعَ عليهما السلامُ معَ أنَّكَ لا تشُكُّ في الأمرينِ جميعاً ؛ إذْ مستندُهُما التواترُ جميعاً ، ولٰكنْ ترىٰ أحدَهُما أجلَىٰ وأوضحَ في قلبِكَ مِنَ الثاني ؛ لأنَّ السببَ في أحدِهِما أقوىٰ ، وهوَ كثرةُ المخبرينَ ، وكذٰلكَ يدركُ الناظرُ هٰذا في النظرياتِ المعلومةِ بالأدلَّةِ ؛ فإنَّهُ ليسَ وضوحُ ما لاحَ لهُ بدليلٍ واحدٍ كوضوحِ ما لاحَ لهُ بأدلةٍ كثيرةٍ معَ تساويهِما في نفيِ الشكِّ ، وهٰذا قدْ ينكرُهُ المتكلِّمُ الذي يأخذُ العلْمَ مِنَ الكُتبِ والسماعِ ولا يراجعُ نفسَهُ فيما يدركُهُ مِنْ تفاوتِ الأحوالِ

وأمَّا القلَّةُ والكثرةُ : فذٰلكَ بكثرةِ متعلقاتِ اليقينِ ؛ كما يُقالُ : فلانٌ أكثرُ علماً ؛ أي : معلوماتُهُ أكثرُ ، ولذٰلكَ قدْ يكونُ العالِمُ قويَّ اليقينِ في جميعِ ما وردَ الشرعُ بهِ ، وقدْ يكونُ قويَّ اليقينِ في بعضِهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فقدْ فهمتُ اليقينَ وقوَّتَهُ وضعفَهُ ، وكثرتَهُ وقلَّتَهُ ، وجلاءَهُ وخفاءَهُ ، بمعنىٰ نفيِ الشكِّ ، أو بمعنى الاستيلاءِ على القلبِ ، فما متعلقاتُ اليقينِ ومجاريهِ ، وفي ماذا يُطلبُ اليقينُ ؟ فإنِّي ما لمْ أعرفْ ما يُطلبُ فيهِ اليقينُ . . لمْ أقدرْ علىٰ طلبِهِ .

---

(١) رواه أبو نعيم عن سلمة بن دينار في « الحلية » (٣/٢٣٢) .

فاعلمْ : أنَّ جميعَ ما وردَ بهِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ هوَ مِنْ مجاري اليقينِ ؛ فإنَّ اليقينَ عبارةٌ عنْ معرفةٍ مخصوصةٍ ، ومتعلقَةُ المعلوماتُ التي وردتْ بها الشرائعُ ، فلا مطمعَ في إحصائِها ، ولـٰكنِّي أشيرُ إلىٰ بعضِها وهيَ أمهاتُها :

فمنْ ذٰلكَ : **التوحيدُ** ؛ وهوَ أنْ يرى الأشياءَ كلَّها مِنْ مسبِّبِ الأسبابِ ، ولا يلتفتَ إلى الوسائطِ ، بلْ يرى الوسائطَ مسخرةً لا حكمَ لها ، فالمصدِّقُ بهـٰذا مؤمنٌ ، فإنِ انتفىٰ عنْ قلبِهِ معَ الإيمانِ إمكانُ الشكِّ . . فهوَ موقنٌ بأحدِ المعنيينِ ، فإنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ معَ الإيمانِ غلبةً أزالَ عنهُ الغضبَ على الوسائطِ ، والرضا عنهُمْ والشكرَ لهمْ ، ونزَّلَ الوسائطَ في قلبِهِ منزلةَ القلمِ واليدِ في حقِّ المنعمِ بالتوقيعِ ، فإنَّهُ لا يشكرُ القلمَ ولا اليدَ ولا يغضبُ عليهما ، بلْ يراهما آلتينِ مسخَّرتينِ وواسطتينِ . . فقدْ صارَ موقناً بالمعنى الثاني ، وهوَ الأشرفُ ، وهوَ ثمرةُ اليقينِ الأوَّلِ وروحُهُ وفائدتُهُ .

ومهما تحقَّقَ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ والجمادَ والنباتَ والحيوانَ وكلَّ مخلوقٍ فهيَ مسخراتٌ بأمرِهِ حسَبَ تسخُّرِ القلمِ في يدِ الكاتبِ ، وأنَّ القدرةَ الأزليَّةَ هيَ المصدرُ للكلِّ . . استولىٰ علىٰ قلبِهِ غلبةُ التوكُّلِ والرضا والتسليمِ[1] ، وصارَ موقناً بريئاً مِنَ الغضبِ والحقدِ والحسدِ وسوءِ الخلقِ ، فهـٰذا أحدُ أبوابِ اليقينِ .

ومِنْ ذٰلكَ : **الثقةُ بضمانِ اللهِ سبحانَهُ بالرزقِ في قولِهِ تعالىٰ** : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، واليقينُ بأنَّ ذٰلكَ يأتيهِ ، وأنَّ ما قُدِّرَ لهُ سينساقُ إليهِ ، ومهما غلبَ ذٰلكَ علىٰ قلبِهِ . . كانَ مجملاً في الطلبِ ، ولمْ يشتدَّ حرصُهُ وشرهُهُ وتأسُّفُهُ علىٰ ما يفوتُهُ ، وأثمرَ هـٰذا اليقينُ أيضاً جملةً مِنَ الطاعاتِ والأخلاقِ الحميدةِ .

ومِنْ ذٰلكَ : **أنْ يغلبَ علىٰ قلبِهِ أنَّ مَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً . . يرَهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً . . يرَهُ** : وهوَ اليقينُ بالثوابِ والعقابِ ، حتَّىٰ يرىٰ نسبةَ الطاعاتِ إلى الثوابِ كنسبةِ الخبزِ إلى الشبعِ ، ونسبةَ المعاصي إلى العقابِ كنسبةِ السمومِ والأفاعي إلى الهلاكِ ، فكما يحرِصُ على التحصيلِ للخبزِ طلباً للشبعِ فيحفظُ قليلَهُ وكثيرَهُ . . فكذٰلكَ يحرِصُ على الطاعاتِ كلِّها قليلِها وكثيرِها ، وكما يتجنَّبُ قليلَ السمومِ وكثيرَها . . فكذٰلكَ يجتنبُ المعاصيَ ؛ قليلَها وكثيرَها ، وصغيرَها وكبيرَها .

واليقينُ بالمعنى الأوَّلِ قدْ يوجدُ لعمومِ المؤمنينَ ، أمَّا بالمعنى الثاني . . فيختصُّ بهِ المقربونَ .

وثمرةُ **هـٰذا اليقينِ** : صدْقُ المراقبةِ في الحركاتِ والسكناتِ والخطراتِ ، والمبالغةُ في التقوىٰ ، والاحترازُ عنِ كلِّ السيئاتِ ، وكلَّما كانَ اليقينُ أغلبَ . . كانَ الاحترازُ أشدَّ والتشمُّرُ أبلغَ .

ومِنْ ذٰلكَ : **اليقينُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ مطلعٌ عليكَ في كلِّ حالٍ ، ومشاهدٌ لهواجسِ ضميرِكَ وخفايا خواطرِكَ وفكرِكَ** : وهـٰذا متيقَّنٌ عندَ كلِّ مؤمنٍ بالمعنى الأولِ ، وهوَ عدمُ الشكِّ ، وأمَّا بالمعنى الثاني ـ وهوَ المقصودُ ـ فهوَ عزيزٌ يختصُّ بهِ الصدِّيقونَ .

وثمرتُهُ : أنْ يكونَ الإنسانُ في خلوتِهِ متأدباً في جميعِ أحوالِهِ وأعمالِهِ ؛ كالجالسِ بمشهَدِ ملكٍ معظَّمٍ ينظرُ إليهِ ، فإنَّه لا يزالُ مطرقاً متأدِّباً في جميعِ أعمالِهِ ، متماسكاً محترزاً عنْ كلِّ حركةٍ تخالفُ هيئةَ الأدبِ ، ويكونُ في فكرتِهِ الباطنةِ كهوَ في أعمالِهِ الظاهرةِ[2] ؛ إذْ يتحقَّقُ أنَّ اللهَ تعالىٰ مطلعٌ علىٰ سريرتِهِ كما يطلعُ الخلقُ علىٰ ظاهرِهِ ، فتكونُ

---

(١) وهـٰذه الثلاثة من مقامات اليقين التسعة علىٰ ما يأتي بيانها في مواضعها .

(٢) أي : تكون أعماله الظاهرة مساوية لأعماله الباطنة في صدق الإخلاص والخضوع للمولىٰ بحيث لا يميز أحدهما عن الآخر . « إتحاف » (٤١٨/١) .

مبالغتُهُ في عمارةِ باطنِهِ وتطهيرِهِ وتزيينِهِ لعينِ اللهِ تعالى الكالِئَةِ أشدَّ مِنْ مبالغتِهِ في تزيينِ ظاهرِهِ لسائرِ الناسِ .

وهٰذا المقامُ في اليقينِ يورثُ الحياءَ والخوفَ والانكسارَ ، والذلَّ والاستكانةَ والخضوعَ ، وجملةً منَ الأخلاقِ المحمودةِ ، وهٰذهِ الأخلاقُ تورثُ أنواعاً مِنَ الطاعاتِ رفيعةً .

❁ ❁ ❁

فاليقينُ في كلِّ بابٍ مِنْ هٰذهِ الأبوابِ مثلُ الشجرةِ ، وهٰذهِ الأخلاقُ في القلبِ مثلُ الأغصانِ المتفرّعةِ منها ، وهٰذهِ الأعمالُ والطاعاتُ الصادرةُ مِنَ الأخلاقِ كالثمارِ والأنوارِ المتفرّعةِ مِنَ الأغصانِ ، فاليقينُ هوَ الأصلُ والأساسُ ، ولهُ مجارٍ وأبوابٌ أكثرُ ممَّا عدَّدْناهُ ، وسيأتي ذٰلكَ في ربعِ المنجياتِ ، وهٰذا القدرُ كافٍ في تفهيمِ معنى اللفظِ الآنَ .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يكونَ حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً ، يظهرُ أثرُ الخشيةِ علىٰ هيئتِهِ وكسوتِهِ [1] ، وسيرتِهِ ، وحركتِهِ وسكونِهِ ، ونطقِهِ وسكوتِهِ ، لا ينظرُ إليهِ ناظرٌ إلا وكانَ نظرُهُ مذكِّراً للهِ تعالىٰ ، وكانتْ صورتُهُ دليلاً علىٰ عملِهِ ، فالجوادُ عينُهُ فُرارُهُ [2] ، فعلماءُ الآخرةِ يُعرفونَ بسيماهُمْ في السكينةِ والذلَّةِ والتواضعِ .

وقدْ قيلَ : ما ألبسَ اللهُ تعالىٰ عبداً لِبْسةً أحسنَ مِنْ خُشوعٍ في سكينةٍ ، فهيَ لِبسةُ الأنبياءِ ، وسِيما الصالحينَ والصدِّيقينَ والعلماءِ .

فأمَّا التهافتُ في الكلامِ والتشدُّقُ ، والاستغراقُ في الضحكِ ، والحدَّةُ في الحركةِ والنطقِ [3] . . فكلُّ ذٰلكَ مِنْ آثارِ البطرِ ، والأمنِ والغفلةِ عَنْ عظيمِ عقابِ اللهِ تعالىٰ وشديدِ سخطِهِ ، وهوَ دأبُ أبناءِ الدنيا الغافلينَ عَنْ اللهِ دونَ العلماءِ بهِ .

وهٰذا لأنَّ العلماءَ ثلاثةٌ كما قالَ سهلٌ التُّسْتَريُّ رحمهُ اللهُ : (عالمٌ بأمرِ اللهِ لا بأيامِ اللهِ ؛ وهُمُ المُفْتُونَ في الحلالِ والحرامِ ، وهٰذا العلمُ لا يورثُ الخشيةَ ، وعالمٌ باللهِ لا بأمرِ اللهِ ولا بأيامِ اللهِ ؛ وهُمْ عمومُ المؤمنينَ ، وعالمٌ باللهِ وبأيامِ اللهِ وبأمرِ اللهِ ؛ وهُمُ الصدِّيقونَ) [4] ، والخشيةُ والخشوعُ إنَّما تغلبُ عليهِمْ .

وأرادَ بأيامِ اللهِ أنواعَ عقوباتِهِ الغامضةِ ونعمِهِ الباطنةِ التي أفاضَها على القرونِ السالفةِ واللاحقةِ .

فمَنْ أحاطَ علمُهُ بذٰلكَ . . عَظُمَ خوفُهُ وظَهَرَ خشوعُهُ .

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا العلمَ ، وتعلَّموا للعلمِ السكينةَ والوقارَ والحلمَ ، وتواضعُوا لمَنْ تتعلَّمونَ منهُ ، وليتواضعْ لكُمْ مَنْ يتعلَّمُ منكُمْ ، ولا تكونوا مِنْ جبابرةِ العلماءِ ، فلا يقومُ علمُكُمْ بجهلِكُمْ) [5]

ويقالُ : ما آتى اللهُ عبداً علماً إلا آتاهُ معَهُ حلماً وتواضعاً وحسنَ خلقٍ ورفقاً ، فذٰلكَ هوَ العلمُ النافعُ [6]

---

(١) بألا تكون من ثياب الشهرة ، ولا رفيعة الأثمان ، ولا من دقّ الثياب ؛ فإن كل ذلك ليست من ثياب علماء الآخرة . « **إتحاف** » (١/٤١٨) .

(٢) مثلٌ يضرب لمن يدل ظاهره علىٰ باطنه ، **والفرار** ـ بتثليث الفاء ـ : النظر في أسنان الدابة أو في أوصافها لتعرف .

(٣) **الحدَّة** : العجلة .

(٤) قوت القلوب (١/١٤٠) بنحوه .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/١٤٠) ، وانظر « الإتحاف » (١/٤٢٠) .

(٦) قوت القلوب (١/١٤١) وأتبعه بالأثر الآتي ليؤكد معناه .

وفي الأثرِ : (مَنْ آتاهُ اللهُ علماً وزهداً وتواضعاً وحسنَ خلقٍ . . فهوَ إمامُ المتقينَ)[١]

وفي الخبرِ : « إنَّ مِنْ خيارِ أمَّتي قوماً يضحكونَ جهراً مِن سَعَةِ رحمةِ اللهِ ، ويبكون سِرّاً مِنْ خوفِ عذابِهِ ، أبدانُهُمْ في الأرضِ وقلوبُهُمْ في السماءِ ، أرواحُهُمْ في الدنيا وعقولُهُمْ في الآخرةِ ، يتمشَّونَ بالسكينةِ ، ويتقرَّبُونَ بالوسيلةِ »[٢] .

وقالَ الحسنُ : (الحلْمُ وزيرُ العلمِ ، والرفْقُ أبوهُ ، والتواضعُ سِرْبالُهُ)[٣]

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ طلبَ الرئاسةَ بالعلمِ . . فتقرَّبْ إلى اللهِ تعالىٰ ببغضِهِ ؛ فإنَّهُ مقيتٌ في السماءِ والأرضِ)[٤]

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ : أنَّ حكيماً صنَّفَ ثلاثَ مئةٍ وستينَ مصحفاً في الحكمةِ حتَّىٰ وُصِفَ بالحكيمِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قلْ لفلانٍ : ملأتَ الأرضَ نفاقاً ولمْ تردني بشيءٍ مِنْ ذٰلكَ ، وإنِّي لا أقبلُ مِنْ نفاقِكَ شيئاً ، فندمَ الرجلُ وتركَ ذٰلكَ ، وخالطَ العامَّةَ ، ومشىٰ في الأسواقِ ، وواكلَ بني إسرائيل ، وتواضعَ في نفسِهِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قلْ لهُ : الآنَ وافقتَ رضائي[٥]

وحكَى الأوزاعيُّ رحمهُ اللهُ عنْ بلالِ بنِ سعدٍ أنَّهُ كانَ يقولُ : (ينظرُ أحدُكُمْ إلى الشرطيِّ فيستعيذُ باللهِ منهُ ، وينظرُ إلىٰ علماءِ الدنيا المتصنِّعينَ للخلقِ المتشوِّفينَ إلى الرئاسةِ فلا يمقتُهُمْ ، وهُمْ أحقُّ بالمقْتِ مِنْ ذٰلكَ الشرطيِّ)[٦]

ورُوِيَ أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « اجتنابُ المحارمِ ، ولا يزالُ فُوكَ رَطباً مِنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ » ، قيلَ : فأيُّ الأصحابِ خيرٌ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبٌ إنْ ذَكرتَ . . أعانَكَ ، وإنْ نسيتَ . . ذَكَّرَكَ » ، قيلَ : فأيُّ الأصحابِ شرٌّ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبٌ إنْ نسيتَ . . لمْ يذكرْكَ ، وإنْ ذكرتَ . . لمْ يُعِنْكَ » ، قيلَ : فأيُّ الناسِ أعلمُ ؟ قالَ : « أشدُّهُم للهِ خشيةً » ، قالوا : فأخبرنا بخيارِنا . . نجالسْهُمْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الذين إذا رُؤوا . . ذُكِرَ اللهُ تعالىٰ » ، قالوا : فأيُّ الناسِ شرٌّ ؟ قالَ : « اللهُمَّ ؛ غَفْراً » ، قالوا : أخبرْنا يا رسولَ الله ، قالَ : « العلماءُ إذا فسدوا »[٧]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ الناسِ أماناً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ فِكراً في الدنيا ، وأكثرَ الناسِ ضحكاً في الآخرةِ أكثرُهم بكاءً في الدنيا ، وأشدَّ الناسِ فرحاً في الآخرةِ أطولُهُمْ حزناً في الدنيا »[٨]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في خطبتِهِ : (ذمَّتي رهينةٌ وأنا بهِ زعيمٌ ، إنَّهُ لا يهيجُ على التقوىٰ زرعُ قومٍ ، ولا يظمَأُ على الهدىٰ سِنْخُ أصلٍ ، وإنَّ أجهلَ الناسِ مَنْ لا يعرفُ قدْرَهُ ، وإنَّ أبغضَ الخلْقِ إلى اللهِ تعالىٰ رجلٌ قَمَشَ علماً أغارَ

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/٤٢٠) : (هٰكذا أورده صاحب « القوت » ، وتبعه المصنف ، ولم يتعرض له العراقي ، ولا وجدته في غير كتاب « القوت »)

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٤٩) .

(٣) قوت القلوب (١/١٤١) .

(٤) قوت القلوب (١/١٤١) .

(٥) قوت القلوب (١/١٤١) ، وأصله في « الحلية » (٥/٢٣٧) .

(٦) قوت القلوب (١/١٤١) .

(٧) رواه صاحب « القوت » (١/١٤٢) قال : (وقد روينا حديثاً حسناً مقطوعاً ، عن سفيان ، عن مالك بن مغول قال . . .) وذكره . انظر « الإتحاف » (١/٤٢٢) .

(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٩٣) بنحوه ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/١٥٢) .

بهِ في أغباشِ الفتنةِ ، سمَّاه أشباهٌ لهُ مِنَ الناسِ وأرذالُهُمْ عالماً ، ولمْ يُغْنَ في العلْمِ يوماً سالماً ، بكَّرَ فاستكثرَ ، فما قلَّ منهُ خيرٌ ممَّا كَثُرَ ، حتَّىٰ إذا ارتوىٰ مِنْ ماءٍ آجنٍ ، وأكثرَ مِنْ غيرِ طائلٍ . . جلسَ للناسِ مفتياً لتخليصِ ما التبسَ علىٰ غيرهِ ، فإنْ نزلتْ بهِ إحدى المهمَّاتِ . . هيَّأَ حشْوَ الرأيِ مِنْ رأيِهِ ، فهوَ مِنْ قطْعِ الشبهاتِ في مثلِ غزْلِ العنكبوتِ ، لا يدري أخطأَ أمْ أصابَ ، ركَّابُ جهالاتٍ ، خبَّاطُ عشواتٍ ، لا يعتذرُ ممَّا لا يعلمُ فيسلَمُ ، ولا يعضُّ على العلْمِ بضرسٍ قاطعٍ فيغنمُ ، تبكي منهُ الدماءُ ، وتُستحلُّ بقضائِهِ الفروجُ الحرامُ ، لا مَلِيءٌ واللهِ بإصدارِ ما وردَ عليهِ ، ولا هوَ أهلٌ لما فُوِّضَ إليهِ ، أولـٰئكَ الذينَ حلَّتْ عليهمُ المَثُلاتُ ، وحقَّتْ عليهِمُ النياحةُ والبكاءُ أيامَ حياةِ الدنيا)[1]

وقالَ عليٌّ أيضاً رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا سمعتُمُ العلمَ . . فاكظِمُوا عليهِ ولا تخلِطُوهُ بهزْلٍ فتمجَّهُ القلوبُ)[2]

وقالَ بعضُ السلفِ : (العالمُ إذا ضَحِكَ ضَحْكَةً . . مَجَّ مِنَ العلمِ مَجَّةً)[3]

وقيلَ : (إذا جمعَ المعلِّمُ ثلاثاً . . تمَّتِ النعمةُ بهِ على المتعلِّمِ : الصبرَ ، والتواضعَ ، وحسنَ الخلقِ ، وإذا جمعَ المتعلِّمُ ثلاثاً . . تمتِ النعمةُ بهِ على المعلِّمِ : العقلَ ، والأدبَ ، وحسنَ الفهمِ)[4]

وعلى الجملةِ : فالأخلاقُ التي وردَ بها القرآنُ لا ينفكُّ عنها علماءُ الآخرةِ ؛ لأنَّهمْ يتعلمونَ القرآنَ للعملِ لا للرئاسةِ .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : (لقدْ عشْنا برهةً مِنَ الدهرِ وإنَّ أحدَنا يُؤتى الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، وتَنزلُ السُّورةُ فيتعلَّمُ حلالَها وحرامَها ، وآمرَها وزاجرَها ، وما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ منها ، ولقدْ رأيتُ رجالاً يُؤتىٰ أحدُهُمُ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، فيقرأُ ما بينَ فاتحتِهِ إلىٰ خاتمتِهِ لا يدري ما آمرُهُ وما زاجرُهُ ، وما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ ، يَنثرُهُ نثْرَ الدَّقَلِ)[5] .

وفي خبرٍ آخرَ بمثلِ معناهُ : (كنَّا ـ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ أوتينا الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، وسيأتي بعدَكُمْ قومٌ يُؤتَونَ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، يُقيمونَ حروفَهُ ويضيِّعُونَ حدودَهُ ، يقولونَ : قرأْنا فَمَنْ أقرأُ مِنَّا ؟ وعَلمْنا فَمَنْ أعلمُ منَّا ؟ فذلكَ حظُّهُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (أولـٰئكَ شرارُ هـٰذهِ الأمَّةِ)[6]

وقيلَ : خمسٌ مِنَ الأخلاقِ هيَ مِنْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ مفهومةٌ مِنْ خمْسِ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ : الخشيةُ ، والخشوعُ ، والتواضعُ ، وحسنُ الخلقِ ، وإيثارُ الآخرةِ على الدنيا وهوَ الزهدُ :

أمَّا الخشيةُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾

وأمَّا الخشوعُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

وأمَّا التواضعُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

---

(١) رواه وكيع في « أخبار القضاة » (٣٢/١) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٦٠/١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠٤/٤٢) كلهم بنحوه ، وهو في « القوت » (١٤٢/١) ، **ويهيج** : ييبس ويصفر ، **والسِّنْخ** : الأصل من كل شيء ، **وقمشَ** : جَمَعَ ، **وأغباش** : جمع غَبَش ، وهي الظلمة آخر الليل .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (٣٨٨) ، **وتمجُّه** : تلفظه وتأباه .

(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٦٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٣/٣) عن علي بن حسين رحمه الله ، ونسبه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩٤٠) لسيدنا علي من تتمة القول السابق .

(٤) قوت القلوب (١٤٥/١) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣٥/١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٢٠/٣) ، **والدَّقَل** : أردأ التمر .

(٦) قوت القلوب (١٤٥/١) ، وأصله عند ابن ماجه (٦١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٢٠/٣) .

وأمَّا حسنُ الخلقِ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ .

وأمَّا الزهدُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[1]

ولمَّا تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ فقيلَ لهُ : ما هـٰذا الشَّرْحُ ؟ فقالَ : « إنَّ النورَ إذا قُذِفَ في القلبِ . . انشرحَ لهُ الصدرُ وانفسحَ » ، قيلَ : فهلْ لذٰلكَ مِنْ علامةٍ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعم ؛ التجافي عَنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »[2]

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يكونَ أكثرُ بحثِهِ عَنْ علْمِ الأعمالِ ، وعمَّا يفسدُها ويشوِّشُ القلوبَ ، ويهيِّجُ الوسواسَ ويثيرُ الشرَّ : فإنَّ أصلَ الدينِ التوقِّي مِنَ الشرِّ ، ولذٰلكَ قيلَ[3] : [من الهزج]

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرْ ... رِ لٰكِنْ لِتَوَقِّيهِ

وَمَنْ لا يَعْرِفُ الشَّرَّ ... مِنَ النَّاسِ يَقَعْ فِيهِ

ولأنَّ الأعمالَ الفعليةَ قريبةٌ ، وأقصاها بلْ أعلاها المواظبةُ علىٰ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ بالقلبِ واللسانِ ، وإنَّما الشأنُ في معرفةِ ما يفسدُها ويشوِّشُها ، وهـٰذا ممَّا تكثرُ شعبُهُ ويطولُ تفريعُهُ ، وكلُّ ذٰلكَ ممَّا يغلبُ مسيسُ الحاجةِ إليهِ ، وتعمُّ بهِ البلوىٰ في سلوكِ طريقِ الآخرةِ .

وأمَّا علماءُ الدنيا : فإنَّهمْ يتبعونَ غرائبَ التفريعاتِ في الحكوماتِ والأقضيةِ ، ويَتْعبونَ في وضعِ صورٍ تنقضي الدهورُ ولا تقعُ أبداً ، وإنْ وقعتْ . . فإنَّما تقعُ لغيرِهِمْ لا لهُمْ ، وإذا وقعتْ . . كانَ في القائمينَ بها كثرةٌ ، ويتركونَ ما يلازمُهُمْ ويتكرَّرُ عليهِمْ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ في خواطرِهِمْ ووساوسِهِمْ وأعمالِهِمْ .

وما أبعدَ عنِ السعادةِ مَنْ باعَ مهمَّ نفسِهِ اللازمَ بمهمِّ غيرِهِ النادرِ ؛ إيثاراً للقبولِ والتقرُّبِ مِنَ الخلقِ على القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وشَرَهاً في أنْ يسمِّيَهُ البطَّالونَ مِنْ أبناءِ الدنيا فاضلاً محقِّقاً عالماً بالدقائقِ !!

وجزاؤُهُ مِنَ اللهِ ألّا ينتفعَ في الدنيا بقبولِ الخلْقِ ، بلْ يتكدَّرُ عليهِ صفوُهُ بنوائبِ الزمانِ ، ثمَّ يردُ القيامةَ مفْلساً متحسِّراً علىٰ ما يشاهدُهُ مِنْ ربْحِ العاملينَ وفوزِ المقرَّبينَ ، وذٰلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ .

ولقدْ كانَ الحسنُ البصريُّ رحمَهُ اللهُ أشبهَ الناسِ كلاماً بكلامِ الأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ ، وأقربَهُمْ هَدْياً مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ[4] ، اتفقتِ الكلمةُ في حقِّهِ علىٰ ذٰلكَ ، وكانَ أكثرُ كلامِهِ في خواطرِ القلوبِ ، وفسادِ الأعمالِ ، ووساوسِ النفوسِ ، والصفاتِ الخفيَّةِ الغامضةِ مِنْ شهواتِ النفسِ .

وقدْ قيلَ لهُ : يا أبا سعيدٍ ؛ إنَّكَ تتكلَّمُ بكلامٍ لا يُسمعُ مِنْ غيرِكَ ، فمِنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : مِنْ حذيفةَ بنِ اليمانِ[5] .

وقيلَ لحذيفةَ : نراكَ تتكلَّمُ بكلامٍ لا يُسمعُ مِنْ غيرِكَ مِنَ الصحابةِ ، فمِنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : خصَّني بهِ رسولُ اللهِ

---

(١) قوت القلوب (١٤٦/١) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١١/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

(٣) البيتان لأبي فراس الحمداني في « ديوانه » (ص ٣٥٢) .

(٤) هدْياً : سيرةً وطريقاً ؛ يقال : هدىٰ هدْيَ فلان ؛ أي : سار سيرته .

(٥) قوت القلوب (١٥٠/١) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كانَ الناسُ يسألونَهُ عنِ الخيرِ وكنتُ أسألُهُ عنِ الشرِّ مخافةَ أنْ أقعَ فيهِ ، وعَلِمتُ أنَّ الخيرَ لا يسبقني[1]

وقالَ مرَّةً : فعلمتُ أنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ لا يعرفُ الخيرَ ، وفي لفظٍ آخرَ : كانَ الناسُ يقولونَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما لِمَنْ عملَ كذا وكذا ؟ يسألونَهُ عنْ فضائلِ الأعمالِ ، وكنتُ أقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يفسدُ كذا وكذا ؟ فلما رآني أسألُهُ عنْ آفاتِ الأعمالِ . . خصَّني بهٰذا العلمِ .

وكانَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً قدْ خُصَّ بعلْمِ المنافقينَ ، وأُفرِدَ بمعرفةِ عِلْمِ النفاقِ وأسبابِهِ ودقائقِ الفتنِ ، فكانَ عمرُ وعثمانُ وأكابرُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ يسألونَهُ عنِ الفتنِ العامَّةِ والخاصَّةِ .

وكانَ يُسألُ عنِ المنافقينَ فيخبرُ بأعدادِ مَنْ بقيَ منهُمْ ، ولا يخبرُ بأساميهِمْ[2]

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يسألُهُ عنْ نفسِهِ : هلْ يعلمُ بهِ شيئاً مِنَ النفاقِ ؟ فبرَّأَهُ مِنْ ذٰلكَ[3]

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا دُعيَ إلىٰ جنازةٍ ليصلِّيَ عليها . . نظرَ : فإنْ حضرَ حذيفةُ . . صلَّىٰ عليها ، وإلا . . تركَ .

وكانَ يُسمَّىٰ : صاحبَ السِّرِّ[4]

فالعنايةُ بمقاماتِ القلبِ وأحوالِهِ هوَ دأبُ علماءِ الآخرةِ ؛ لأنَّ القلبَ هوَ الساعي إلىٰ قرْبِ اللهِ تعالىٰ .

وقدْ صارَ هٰذا الفنُّ غريباً مندرساً ، وإذا تعرَّضَ العالمُ لشيءٍ منهُ . . استُغربَ واستُبعدَ ، وقيلَ : هٰذا تزويقُ المذكِّرينَ ، فأينَ التحقيقُ ؟ ويرونَ التحقيقَ في دقائقِ المجادلاتِ .

ولقدْ صدقَ مَنْ قالَ[5] : [من البسيط]

اَلطُّرْقُ شَتَّىٰ وَطُرْقُ الْحَقِّ مُفْرَدَةٌ ... وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ أَفْرَادُ

لَا يُعْرَفُونَ وَلَا تُدْرَىٰ مَقَاصِدُهُمْ ... فَهُمْ عَلَىٰ مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ

وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ... فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ رُقَّادُ

وعلى الجملةِ : فلا يميلُ أكثرُ الخلْقِ إلا إلى الأسهلِ والأوفَقِ لطباعِهِمْ ؛ فإنَّ الحقَّ مرٌّ ، والوقوفَ عليهِ صعبٌ ، وإدراكَهُ شديدٌ ، وطريقَهُ مستوعرٌ ، ولا سيما معرفةُ صفاتِ القلبِ وتطهيرِهِ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ نزْعٌ للروحِ على الدوامِ ، وصاحبُهُ يُنزَّلُ منزلةَ شاربِ الدواءِ يصبرُ علىٰ مرارتِهِ رجاءَ الشفاءِ ، ويُنزَّلُ منزلةَ مَنْ جعلَ مدَّةَ العمرِ صومَهُ ، فهوَ يقاسي الشدائدَ ليكونَ فطرُهُ عندَ الموتِ ، ومتىٰ تكثرُ الرغبةُ في مثلِ هٰذا الطريقِ ؟!

ولذٰلكَ قيلَ : إنَّهُ كانَ في البصرةِ مئةٌ وعشرونَ متكلِّماً في الوعظِ والتذكيرِ ، ولمْ يكنْ مَنْ يتكلَّمُ في علمِ اليقينِ وأحوالِ القلوبِ وصفاتِ الباطنِ إلا ثلاثةٌ : سهلٌ التُّسْتَريُّ ، والصُّبيحيُّ ، وعبدُ الرحيمِ[6] ، وكانَ يجلسُ إلىٰ أولٰئكَ

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦) ، ومسلم (١٨٤٧) بأصله ، وألفاظه هنا وردت بسياقها في « القوت » (١/١٥٠) .

(٢) قوت القلوب (١/١٥٠) .

(٣) رواه وكيع في « الزهد » (٤٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/٢٧٦) بنحوه .

(٤) رواه البخاري (٣٧٤٣) .

(٥) هو عبد الواحد بن زيد ، كما في « القوت » (١/١٥٣) ، و« تاريخ بغداد » (٥/٢٣١) .

(٦) ابن يحيى الأسود ، والنص في « قوت القلوب » (١/١٥٦) .

الخلقُ الكثيرُ الذي لا يُحصىٰ ، وإلىٰ هـٰؤلاءِ عددٌ يسيرٌ قلَّما يجاوزُ العشرةَ ؛ لأنَّ النفيسَ العزيزَ لا يصلحُ إلا لأهلِ الخصوصِ ، وما يُبذلُ للعمومِ فأمرُهُ قريبٌ .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يكونَ اعتمادُهُ في علومِهِ علىٰ بصيرتِهِ وإدراكِهِ بصفاءِ قلبِهِ ، لا على الصحُفِ والكتبِ ، ولا علىٰ تقليدِ ما يسمعُهُ مِنْ غيرِهِ : وإنَّما المقلَّدُ صاحبُ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ فيما أمرَ بهِ وقالَهُ ، وإنَّما يُقلَّدُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ مِنْ حيثُ إنَّ فعلَهُمْ يدلُّ علىٰ سماعِهِمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ثمَّ إذا قلَّدَ صاحبَ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ في تلقي أقوالِهِ وأفعالِهِ بالقبولِ . . فينبغي أنْ يكونَ حريصاً علىٰ فهْمِ أسرارِهِ ؛ فإنَّ المقلِّدَ إنَّما يفعلُ الفعلَ لأنَّ صاحبَ الشرعِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فعلَهُ ، وفعلُهُ لا بدَّ وأنْ يكونَ لسرٍّ فيهِ ، فينبغي أنْ يكونَ شديدَ البحثِ عنْ أسرارِ الأعمالِ والأقوالِ ؛ فإنَّهُ إنِ اكتفىٰ بحفظِ ما يُقالُ . . كانَ وعاءً للعلمِ ولمْ يكنْ عالماً ، ولذلكَ كانَ يُقالُ : فلانٌ مِنْ أوعيةِ العلمِ ، وكانَ لا يُسمَّىٰ عالماً إذا كانَ شأنُهُ الحفظُ مِنْ غيرِ اطلاعٍ على الحِكَمِ والأسرارِ .

ومَنْ كُشِفَ عنْ قلبِهِ الغطاءُ واستنارَ بنورِ الهدايةِ . . صارَ في نفسِهِ متبوعاً مقلَّداً ، فلا ينبغي أنْ يقلِّدَ غيرَهُ[1] ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (ما مِنْ أحدٍ إلا يُؤخذُ مِنْ علمِهِ ويُتْرَكُ إلا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[2] وقدْ كانَ تعلَّمَ مِنْ زيدِ بنِ ثابتٍ الفقهَ ، وقرأَ علىٰ أُبَيِّ بنِ كعبٍ ، ثمَّ خالفَهُما في الفقهِ والقراءةِ جميعاً .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما جاءنا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قبلناهُ على الرأسِ والعينِ ، وما جاءنا عنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ . . فنأخذُ منهُ ونتركُ ، وما جاءنا عنِ التابعينَ . . فهُمْ رجالٌ ونحنُ رجالٌ)[3]

وإنَّما فضلَ الصحابةُ لمشاهدتِهِمْ قرائنَ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واعتلاقِ قلوبِهِمْ أموراً أُدركتْ بالقرائنِ ، فسدَّدَهُمْ ذلكَ إلى الصوابِ مِنْ حيثُ لا يدخلُ في الروايةِ والعبارةِ ؛ إذْ فاضَ عليهِمْ مِنْ نورِ النبوَّةِ ما يحرسُهُمْ في الأكثرِ عنِ الخطأ .

وإذا كانَ الاعتمادُ على المسموعِ مِنَ الغيرِ تقليداً غيرَ مرضيٍّ . . فالاعتمادُ على الكُتبِ والتصانيفِ أبعدُ ، بلِ الكتبُ والتصانيفُ محدَثَةٌ لمْ يكنْ شيءٌ منها في زمنِ الصحابةِ وصدْرِ التابعينَ ، وإنَّما حدثتْ بعدَ سنةِ مئةٍ وعشرينَ مِنَ الهجرةِ وبعدَ وفاةِ جميعِ الصحابةِ وجِلَّةِ التابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وبعدَ وفاةِ سعيدِ بنِ المسيَّبِ والحسنِ وخيارِ التابعينَ ، بلْ كانَ الأوَّلونَ يكرهونَ كَتْبَ الأحاديثِ وتصنيفَ الكتبِ ؛ لئلا يشتغلَ الناسُ بها عنِ الحفظِ وعنِ القرآنِ وعنِ التدبُّرِ والتفكُّرِ ، وقالوا : احفظوا كما كنَّا نحفظُ[4]

ولذلكَ كَرِهَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ وجماعةٌ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ تصحيفَ القرآنِ في مصحفٍ ، وقالوا : كيفَ نفعلُ

---

(١) لأن الفقيه في العلماء هو الفقيه بفقه علمه وقلبه ، لا بحديث سواه ، ومثل العالم بعلم غيره مثل الواصف لأحوال الصالحين العارف بمقامات الصديقين ولا حال له ولا مقام . . . ، فمثله كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ . « إتحاف » (١/٤٣٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/٢٦٩) من حديثه رفعه رضي الله عنه .

(٣) رواه البيهقي في « المدخل » (٢٢) عن أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ بنحوه .

(٤) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٦٣) عن الزهري قوله : (كنا نكره الكتب حتىٰ أكرهنا عليه السلطان ، فكرهنا أن نمنعه الناس) ، وروي أنه كان أول من دوّن العلم

شيئاً لَمْ يفعلْهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! وخافوا اتكالَ الناسِ على المصاحفِ ، وقالوا : نتركُ القرآنَ يتلقَّاهُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ بالتلقينِ والإقراءِ ؛ ليكونَ هوَ شغلَهُمْ وهَمَّهُمْ ، حتَّىٰ أشارَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وبقيةُ الصحابةِ بكَتْبِ القرآنِ ؛ خوفاً مِنْ تخاذلِ الناسِ وتكاسلِهِمْ ، وحذراً مِنْ أنْ يقعَ نزاعٌ فلا يوجدَ أصلٌ يُرجعُ إليهِ في كلمةٍ أوْ قراءةٍ مِنَ المتشابهاتِ ، فانشرحَ صدرُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لذٰلكَ ، فجمعَ القرآنَ في مصحفٍ واحدٍ[١] .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ينكرُ علىٰ مالكٍ تصنيفَهُ « الموطَّأ » ، ويقولُ : ابتدعَ ما لَمْ تفعلْهُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ[٢] .

وقيلَ : أوَّلُ كتابٍ صُنِّفَ في الإسلامِ كتابُ ابنِ جريجٍ في الآثارِ ، وحروفُ التفاسيرِ عنْ مجاهدٍ وعطاءٍ وأصحابِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ بمكَّةَ ، ثمَّ كتابُ مَعْمَرِ بنِ راشدٍ الصنعانيِّ باليمنِ ، جمعَ فيهِ سُنناً منثورةً مبوَّبةً ، ثمَّ كتابُ « الموطأ » بالمدينةِ لمالكِ بنِ أنسٍ ، ثمَّ جامعُ سفيانَ الثوريِّ[٣] .

ثمَّ في القرْنِ الرابعِ حدثتْ مصنَّفاتُ الكلامِ ، وكَثُرَ الخوضُ في الجدالِ ، والغوصُ في إبطالِ المقالاتِ ، ثمَّ مالَ الناسُ إليهِ وإلى القصصِ والوعظِ بها ، فأخذَ علمُ اليقينِ في الاندراسِ مِنْ ذٰلكَ الزمانِ ، فصارَ بعدَ ذٰلكَ يُستغربُ علمُ القلوبِ ، والتفتيشُ عَنْ صفاتِ النفْسِ ومكايدِ الشيطانِ ، وأعرضَ عَنْ ذٰلكَ إلا الأقلُّونَ ، فصارَ يُسمَّى المجادلُ المتكلِّمُ عالماً ، والقاصُّ المزخرفُ كلامَهُ بالعباراتِ المسجَّعةِ عالماً ، وهٰذا لأنَّ العوامَّ هُمُ المستمعونَ إليهِمْ ، فكانَ لا يتميَّزُ لهُمْ حقيقةُ العلْمِ عنْ غيرِهِ ، ولمْ تكنْ سيرةُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ وعلومُهُمْ ظاهرةً عندَهُمْ ، حتَّىٰ كانوا يعرفونَ بها مباينةَ هٰؤلاءِ لهُمْ ، فاستمرَّ عليهِمُ اسمُ العلماءِ ، وتوارثَ اللقبَ خلفٌ عنْ سلفٍ ، وأصبحَ علمُ الآخرةِ مطويّاً ، وغابَ عنهُمُ الفرقُ بينَ العلمِ والكلامِ إلا عنِ الخواصِّ منهُمْ ؛ كانَ إذا قيلَ لهُمْ : فلانٌ أعلمُ أمْ فلانٌ ؟ . . يُقالُ : فلانٌ أكثرُ علماً ، وفلانٌ أكثرُ كلاماً ، فكانَ الخواصُّ يدركونَ الفرْقَ بينَ العلمِ وبينَ القدرةِ على الكلامِ .

هٰكذا ضَعُفَ الدينُ في قرونٍ سالفةٍ ، فكيفَ الظنُّ بزمانِكَ هٰذا وقدِ انتهى الأمرُ إلىٰ أنَّ مُظهِرَ الإنكارِ يُسْتَهْدَفُ للنسبةِ إلى الجنونِ ؟!

فالأولىٰ أنْ يشتغلَ الإنسانُ بنفسِهِ ويسكتَ .

❀ ❀ ❀

ومنها : **أنْ يكونَ شديدَ التوقي مِنْ محدثاتِ الأمورِ وإنِ اتفقَ عليها الجمهورُ** : فلا يغرَّنَّهُ إطباقُ الخلْقِ علىٰ ما أُحدثَ بعدَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وليكنْ حريصاً على التفتيشِ عنْ أحوالِ الصحابةِ وسيرتِهِمْ وأعمالِهِمْ ، وما كانَ فيهِ أكثرُ همِّهِمْ : أكانَ في التدريسِ والتصنيفِ والمناظرةِ والقضاءِ والولايةِ وتولِّي الأوقافِ والوصايا ومالِ الأيتامِ ومخالطةِ السلاطينِ ومجاملتِهِمْ في العِشْرةِ ، أمْ كانَ في الخوفِ والحزنِ والتفكُّرِ والمجاهدةِ ومراقبةِ الباطنِ والظاهرِ واجتنابِ دقيقِ الإثمِ وجليلِهِ والحرصِ علىٰ إدراكِ خفايا شهواتِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ علومِ الباطنِ ؟

واعلمْ تحقيقاً : أنَّ أعلمَ أهلِ الزمانِ وأقربَهُمْ إلى الحقِّ أشبهُهُمْ بالصحابةِ وأعرفُهُمْ بطريقِ السلفِ ، فمنهُمْ أُخِذَ

---

(١) قوت القلوب (١/١٥٩) .

(٢) ولعل هٰذا الإنكار كان في مبادئ أمره ، وإلا . . فقد جمع حديثه بنفسه على المسانيد ، وذٰلك لما رأى احتياج الناس لذٰلك . « إتحاف » (١/٤٣٤) .

(٣) قوت القلوب (١/١٥٩) ، وانظر « هدي الساري » مقدمة « فتح الباري » (ص ٦) .

الدينُ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (خيرُنا أتبعُنا لهـٰذا الدينِ) لمَّا أنْ قيلَ لهُ : خالفتَ فلاناً [١]

فلا ينبغي أنْ تكترثَ بمخالفةِ أهلِ العصرِ في موافقةِ أهلِ عصرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ الناسَ رأوا رأياً فيما هُمْ فيهِ لميلِ طباعِهِمْ إليهِ ، ولمْ تسمحْ نفوسُهُمْ بالاعترافِ بأنَّ ذٰلكَ سببُ الحرمانِ مِنَ الجنةِ ، فادَّعَوا أنَّه لا سبيلَ إلى الجنَّةِ سواهُ .

ولذٰلكَ قالَ الحسنُ : (محدثانِ أُحدثا في الإسلامِ : رجلٌ ذو رأيٍ سوءٍ زعمَ أنَّ الجنَّةَ لمنْ رأىٰ مثلَ رأيِهِ ، ومُتْرَفٌ يعبدُ الدنيا ، لها يغضبُ ولها يرضىٰ وإيَّاها يطلبُ ، فارفضوهُما إلى النارِ ، إنَّ رجلاً أصبحَ في هـٰذهِ الدنيا بينَ مترفٍ يدعوهُ إلىٰ دنياهُ ، وصاحبِ هوىً يدعوهُ إلىٰ هواهُ ، قدْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ منهما ، يحنُّ إلى السلفِ الصالحِ ، يسألُ عنْ أفعالِهِمْ ويقتصُّ آثارَهمْ . . متعرِّضٌ لأجرٍ عظيمٍ ، فكذٰلكَ كونوا) [٢] .

وقدْ رُويَ عنِ ابنِ مسعودٍ موقوفاً ومسنداً أنَّهُ قالَ : « إنَّما هما اثنانِ : الكلامُ والهَدْيُ ، فأحسنُ الكلامِ كلامُ اللهِ تعالىٰ ، وأحسنُ الهدْيِ هديُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ألا وإيَّاكمْ ومحدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ شرَّ الأمورِ محدثاتُها ، إنَّ كلَّ محدثَةٍ بدعةٌ ، وإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ ، ألا لا يطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ فتقسوَ قُلوبُكُمْ ، ألا كلُّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، ألا إنَّ البعيدَ ما ليسَ بآتٍ » [٣]

وفي خطبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طُوبىٰ لمَنْ شغلَهُ عيبُهُ عنْ عيوبِ الناسِ ، وأنفقَ مِنْ مالٍ اكتسَبَهُ مِنْ غيرِ معصيةٍ ، وخالطَ أهلَ الفقهِ والحكمةِ ، وجانبَ أهلَ الزللِ والمعصيةِ ، طُوبَىٰ لمَنْ ذَلَّ في نفسِهِ وحسنتْ خليقتُهُ ، وصلحتْ سريرتُهُ ، وعَزَلَ عنِ الناسِ شرَّهُ ، طُوبىٰ لمَنْ عملَ بعلمِهِ وأنفقَ الفضْلَ مِنْ مالِهِ وأمْسَكَ الفضلَ مِنْ قولِهِ ، ووسعتْهُ السنَّةُ ولمْ يعدُها إلىٰ بدعةٍ » [٤]

وكانَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (حُسنُ الهدْيِ في آخرِ الزمانِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العملِ) [٥]

وقالَ : (أنتمْ في زمانٍ خيرُكُمْ فيهِ المسارعُ في الأمورِ ، وسيأتي بعدَكُمْ زمانٌ يكونُ خيرُهُمُ المتثبِّتَ المتوقِّفَ لكثرةِ الشبهاتِ) [٦]

وقدْ صدقَ ؛ فمَنْ لمْ يتثبَّتْ في هـٰذا الزمانِ ووافقَ الجماهيرَ فيما همْ عليهِ ، وخاضَ فيما خاضوا . . هلكَ كما هلكوا .

وقالَ حذيفةُ : (أعجبُ مِنْ هـٰذا أنَّ معروفَكُمُ اليومَ منكرُ زمانٍ قدْ مضىٰ ، وأنَّ منكرَكُمُ اليومَ معروفُ زمانٍ قدْ أتىٰ ، وإنَّكُمْ لا تزالون بخيرٍ ما عرفتمُ الحقَّ ، وكانَ العالمُ فيكُمْ غيرَ مُستخَفٍّ بهِ) [٧]

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ أكثرَ معروفاتِ هـٰذهِ الأعصارِ منكراتٌ في عصرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ إذْ مِنْ غررِ المعروفاتِ في زمانِنا تزيينُ المساجدِ وتنجيدُها ، وإنفاقُ الأموالِ العظيمةِ في دقائقِ عماراتِها ، وفرشُ البُسُطِ الرفيعةِ فيها .

---

(١) رواه البزار كما في « البحر الزخار » (٨٧٧) .
(٢) قوت القلوب (١٦١/١) .
(٣) رواه ابن ماجه (٤٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٩) .
(٥) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٨٩) بنحوه .
(٦) قوت القلوب (١٦١/١) .
(٧) قوت القلوب (١٦١/١) ، وقد رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩١/٤٠) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

ولقدْ كانَ يُعدُّ فرشُ البواري[١] في المسجدِ بدعةً ، وقيلَ : إنَّهُ مِنْ محدثاتِ الحَجّاجِ[٢] ، فقدْ كانَ الأوّلونَ قلَّما يجعلونَ بينَهُمْ وبينَ الترابِ حاجزاً[٣]

وكذٰلكَ الاشتغالُ بدقائقِ الجدَلِ والمناظرةِ مِنْ أجلِّ علومِ أهلِ الزمانِ ، ويزعمونَ أنَّهُ مِنْ أعظمِ القرباتِ ، وقدْ كانَ ذٰلكَ مِنَ المنكراتِ .

ومِنْ ذٰلكَ التلحينُ في القرآنِ والأذانِ[٤]

ومِنْ ذٰلكَ التعسُّفُ في النظافةِ والوسوسةُ في الطهارةِ ، وتقديرُ الأسبابِ البعيدةِ في نجاسةِ الثيابِ ، معَ التساهلِ في حلِّ الأطعمةِ وتحريمِها ، إلىٰ نظائرِ ذٰلكَ[٥]

ولقدْ صدقَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (أنتمُ اليومَ في زمانٍ الهوىٰ فيهِ تابعٌ للعلمِ ، وسيأتي عليكُمْ زمانٌ يكونُ العلمُ فيهِ تابعاً للهوىٰ)[٦]

وكانَ أحمدُ يقولُ : (تركوا العلمَ وأقبلوا على الغرائبِ ، ما أقلَّ الفقهَ فيهِمْ ، واللهُ المستعانُ)[٧]

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ : (لمْ يكنِ الناسُ فيما مضىٰ يسألونَ عنْ هٰذهِ الأمورِ كما يسألُ الناسُ اليومَ ، ولمْ يكنِ العلماءُ يقولونَ : حرامٌ ولا حلالٌ ، أدركتُهُمْ يقولونَ : مكروهٌ ومستحبٌّ)[٨]

ومعناه : أنَّهمْ كانوا ينظرونَ في دقائقِ الكراهيةِ والاستحبابِ ، فأمَّا الحرامُ . . فكانَ فحشُهُ ظاهراً .

وكانَ هشامُ بنُ عروةَ يقولُ : (لا تسألوهُمُ اليومَ عمَّا أحدثوا ؛ فإنَّهمْ قدْ أعدُّوا لهُ جواباً ، ولٰكنْ سلوهُمْ عنِ السنَّةِ ؛ فإنَّهمْ لا يعرفونَها)[٩]

وكانَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ يقولُ : (لا ينبغي لمَنْ أُلهمَ شيئاً مِنَ الخيرِ أنْ يعملَهُ حتَّىٰ يسمعَ بهِ في الأثرِ ، فيحمدُ اللهَ تعالىٰ إذْ وافقَ ما في نفسِهِ)[١٠]

وإنَّما قالَ هٰذا لأنَّ ما أُبدِعَ مِنَ الآراءِ قدْ قَرَعَ الأسماعَ وعلِقَ بالقلوبِ ، فربَّما يشوِّشُ صفاءَ القلبِ ، فيُتخيَّلُ بسببِهِ الباطلُ حقّاً ، فيُحتاطُ فيهِ بالاستظهارِ بشهادةِ الآثارِ .

ولهٰذا لما أحدثَ مروانُ المنبرَ في صلاةِ العيدِ عندَ المصلَّىٰ . قامَ إليهِ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ :

---

(١) **البواري** : جمع البُوريّ أو البارياء أو الباريَّة ؛ وهي الحصير المنسوج من قصب ، فارسية معرّبة .

(٢) كما روي أن قتادة سجد ، فدخل في عينه قصبة وكان ضريراً ، فقال : لعن الله الحجاج ، ابتدع هٰذه البواري يؤذي بها المصلين . قوت القلوب (١٧١/١) .

(٣) ويستحبون السجود عليه تواضعاً لله تعالىٰ وتخشُّعاً وذلاً . « إتحاف » (٤٣٩/١) .

(٤) حتىٰ لا يفهم التلاوة ، وحتىٰ تجاوز إعراب القرآن والكلمة ، بمدِّ المقصور وقصر الممدود ، وإدغام المظهر وإظهار المدغم . « إتحاف » (٤٤٠/١) .

(٥) انظر « قوت القلوب » (١٦٣/١) ، و« الإتحاف » (٤٤٠/١) .

(٦) قوت القلوب (١٦٧/١) .

(٧) رواه الخطيب في « الكفاية » (٣٨٨) .

(٨) قوت القلوب (١٦٧/١) .

(٩) قوت القلوب (١٦٧/١) .

(١٠) رواه عنه ابنُ أبي حاتم في « تفسيره » (١٧٤٥١) ، وهو في « القوت » (١٦٧/١) .

يا مروانُ ؛ ما هٰذهِ البدعةُ ؟ فقالَ : إنَّها ليستْ بدعةً ، إنَّها خيرٌ ممَّا تعلمُ ، إنَّ الناسَ قدْ كثروا ، فأردتُ أنْ يبلغَهُمُ الصوتُ ، فقالَ أبو سعيدٍ : واللهِ ؛ لا تأتونَ بخيرٍ ممَّا أعلمُ أبداً ، وواللهِ لا صليتُ وراءَكَ اليومَ[1]

وإنَّما أنكرَ ذٰلكَ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يتوكَّأُ في خطبةِ العيدِ والاستسقاءِ علىٰ قوسٍ أوْ عصاً ، لا على المنبرِ[2]

وفي الحديثِ المشهورِ : « مَنْ أحدثَ في دينِنا ما ليسَ منهُ . . فهوَ ردٌّ »[3]

وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ غَشَّ أمَّتِي . . فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما غشُّ أمَّتِكَ ؟ قالَ : « أنْ يَبتدعَ بدعةً يحمِلُ الناسَ عليها »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملكاً ينادي كلَّ يومٍ : مَنْ خالفَ سنَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لمْ تنلْهُ شفاعتُهُ »[5]

ومثالُ الجاني على الدينِ بإبداعِ ما يخالفُ السنَّةَ بالنسبةِ إلىٰ مَنْ يُذْنِبُ ذنباً . . مثالُ مَنْ عصى الملِكَ في قلْبِ دولتِهِ[6] بالنسبةِ إلىٰ مَنْ خالفَ أمرَهُ في خدمةٍ معيَّنةٍ ، وذٰلكَ قدْ يُغفَرُ ؛ فأمَّا قلْبُ الدولةِ . . فلا .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ما تكلَّمَ فيهِ السلفُ . . فالسكوتُ عنهُ جفاءٌ ، وما سكتَ عنهُ السلفُ . . فالكلامُ فيهِ تكلُّفٌ)[7] .

وقالَ آخرُ : (الحقُّ ثقيلٌ ، مَنْ جاوزَهُ . . ظَلَمَ ، ومَنْ قصرَ عنهُ . . عجزَ ، ومَنْ وقفَ معهُ . . اكتفىٰ)[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالنَّمَطِ الأوسطِ الذي يرجعُ إليهِ العالي ، ويرتفعُ إليهِ التالي »[9]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّ الضلالةَ لها حلاوةٌ في قلوبِ أهلِها) .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾[10]

فكلُّ ما أُحدثَ بعدَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ممَّا جاوزَ قدْرَ الضرورةِ والحاجةِ . . فهوَ مِنَ اللعبِ واللهوِ .

وحُكِيَ عنْ إبليسَ لعنَهُ اللهُ أنَّهُ بثَّ جنودَهُ في وقتِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، فرجعوا إليهِ محسورينَ ، فقالَ : ما شأنُكُمْ ؟ فقالوا : ما رأينا مثلَ هٰؤلاءِ ؛ ما نصيبُ منهُمْ شيئاً وقدْ أتعبونا ، فقالَ : إنَّكُمْ لا تقدرونَ عليهِمْ ؛ قدْ صحبوا نبيَّهُمْ ، وشهدوا تنزيلَ ربِّهِمْ ، ولٰكنْ سيأتي بعدَهُمْ قومٌ تنالونَ منهُمْ حاجتَكُمْ .

---

(١) قوت القلوب (١٦٨/١) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٤/٢) ، وأصل الاتكاء في الخطب عند أبي داوود (١٠٩٦) ، وابن ماجه (١١٠٧) .
(٣) رواه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .
(٤) قوت القلوب (١٧٤/١) ، وأصله عند ابن بطة في « الإبانة » (٥١٩) .
(٥) ذكره صاحب « القوت » (١٧٤/١) ، وانظر « الإتحاف » (٤٤٤/١) .
(٦) أي : في إزاحة مُلكه وهدم مملكته .
(٧) قوت القلوب (١٧٥/١) .
(٨) قوت القلوب (١٧٥/١) .
(٩) رواه ابن أبي شيبة موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه في « المصنف » (٣٥٦٣٩) ، وبلفظ : (خير الناس هٰذا النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم العالي) .
(١٠) قوت القلوب (١٧٥/١) .

فلما جاءَ التابعونَ . . بثَّ جنودَهُ ، فرجعوا إليهِ منكوسينَ منكسرينَ ، فقالوا : ما رأينا أعجبَ مِنْ هٰؤلاءِ ؛ نصيبُ منهُمُ الشيءَ بعدَ الشيءِ مِنَ الذنوبِ ، فإذا كانَ آخرُ النهارِ . . أخذوا في الاستغفارِ ، فيبدِّلُ اللهُ سيئاتِهِمْ حسناتٍ ، فقالَ : إنَّكُمْ لنْ تنالوا مِنْ هٰؤلاءِ شيئاً لصحَّةِ توحيدِهِمْ ، واتباعِهِمْ لسنَّةِ نبيِّهِمْ ، ولٰكنْ سيأتي بعدَ هٰؤلاءِ قومٌ تَقَرُّ أعينُكُمْ بهِمْ ، تلعبونَ بهِمْ لَعِباً ، وتقودونَهُمْ بأزمَّةِ أهوائِهِمْ كيفَ شئتُمْ ، إنِ استغفروا . . لمْ يغفرْ لهُمْ ، ولا يتوبونَ فيبدِّلُ اللهُ سيئاتِهِمْ حسناتٍ .

قالَ : فجاءَ قومٌ بعدَ القرنِ الأوَّلِ ، فبثَّ فيهِمُ الأهواءَ ، وزيَّنَ لهُمُ البدَعَ ، فاستحلُّوها[١] ، واتخذوها ديناً ، لا يستغفرونَ اللهَ منها ، ولا يتوبونَ عنها ، فسلَّطَ عليهِمُ الأعداءَ ، وقادُوهُمْ أينَ شاؤوا[٢]

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : مِنْ أينَ عَرَفَ قائلُ هٰذا ما قالَهُ إبليسُ ولمْ يشاهدْ إبليسَ ولا حدَّثَهُ بذٰلكَ ؟

فاعلمْ : أنَّ أربابَ القلوبِ يُكاشَفونَ بأسرارِ الملكوتِ ؛ تارةً علىٰ سبيلِ الإلهامِ بأنْ يخطرَ لهُمْ علىٰ سبيلِ الورودِ عليهِمْ مِنْ حيثُ لا يعلمونَ ، وتارةً علىٰ سبيلِ الرؤيا الصادقةِ ، وتارةً في اليقظةِ علىٰ سبيلِ كشْفِ المعاني بمشاهدةِ الأمثلةِ كما يكونُ في المنامِ ، وهٰذا أعلى الدرجاتِ ، وهيَ مِنْ درجاتِ النبوَّةِ العاليةِ ؛ كما أنَّ الرؤيا الصادقةَ جزءٌ مِنْ ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ .

❊ ❊ ❊

فإيَّاكَ أنْ يكونَ حظُّكَ مِنَ العلمِ إنكارَ كلِّ ما جاوزَ حدَّ قصورِكَ ؛ ففيهِ هلكَ المتحذلقونَ مِنَ العلماءِ[٣] ، الزاعمونَ أنَّهُمْ أحاطوا بعلومِ المعقولِ .

والجهلُ خيرٌ مِنْ عقلٍ يدعو إلىٰ إنكارِ مثلِ هٰذهِ الأمورِ لأولياءِ اللهِ تعالىٰ[٤] ، ومَنْ أنكرَ ذٰلكَ للأولياءِ . . لزمَهُ إنكارُهُ للأنبياءِ ، وكانَ خارجاً عَنِ الدينِ بالكليَّةِ[٥]

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّما انقطعَ الأبدالُ في أطرافِ الأرضِ واستتروا عنْ أعينِ الجمهورِ . . لأنَّهُمْ لا يطيقونَ النظرَ إلىٰ علماءِ الوقتِ ؛ لأنَّهُمْ عندَهمْ جهَّالٌ باللهِ تعالىٰ ، وهُمْ عندَ أنفسِهِمْ وعندَ الجاهلينَ علماءُ)[٦]

وقالَ سهلٌ التُّسْتَريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ مِنْ أعظمِ المعاصي الجهلَ بالجهلِ ، والنظرَ إلى العامَّةِ ، واستماعَ كلامِ أهلِ الغفلةِ)[٧]

---

(١) بتشديد اللام من الحلال ، أو تخفيفها من الحلاوة ، وعندها تفتح اللام .

(٢) قوت القلوب (١/١٧٥) .

(٣) **المتحذلقون** : المتكيِّسون الذين يتظرَّفون في الكلام طلباً لزيادة القدر عند الناس .

(٤) لأن أشرف أقوال الجاهلين التسليم والتفويض لما لا يعلمون ، وهو أقل أحوال العالمين ، فبالنظر إلىٰ ذٰلك كان بعضُ الجهل خيراً من العلم . « إتحاف » (١/٤٤٦) .

(٥) لأن طريق الفيض واحد ، وإنما يختلف تلقيه بحسب الاستعدادات ، فما كان للأنبياء . . فهو للأولياء مع مباينة الاستعداد ، ما عدا مرتبة النبوة التي لا يلحقها لاحق ، ولا يشق غبارها سابق ، فإنكار ما للأولياء يورثه الإنكار لما للأنبياء . « إتحاف » (١/٤٤٦) .

(٦) قوت القلوب (١/١٧٦) .

(٧) قوت القلوب (١/١٧٦) .

وكلُّ عالمٍ خاضَ في الدنيا فلا ينبغي أنْ يُصغَىٰ إلىٰ قولِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يُتَّهمَ في كلِّ ما يقولُ ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يخوضُ فيما أحبَّ ، ويدفعُ ما لا يوافقُ محبوبَهُ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ .

والعوامُّ العصاةُ أسعدُ حالاً مِنَ الجهَّالِ بطريقِ الدينِ ، المعتقدينَ أنَّهمْ مِنَ العلماءِ ؛ لأنَّ العاميَّ العاصيَ معترفٌ بتقصيرِهِ ، فيستغفرُ ويتوبُ ، وهٰذا الجاهلُ الظانُّ أنَّهُ عالمٌ ، وأنَّ ما هوَ مشتغلٌ بهِ مِنَ العلومِ التي هيَ وسائلُهُ إلى الدنيا مِنْ سلوكِ طريقِ الدينِ . . فلا يتوبُ ولا يستغفرُ ، بلْ لا يزالُ مستمرّاً عليهِ إلى الموتِ .

وإذْ غلبَ هٰذا علىٰ أكثرِ الناسِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وانقطعَ الطمعُ مِنْ إصلاحِهِمْ . . فالأسلمُ لدينِ المحتاطِ العزلةُ والانفرادُ عنهُمْ ، كما سيأتي في كتابِ العزلةِ بيانُهُ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولذلكَ كتبَ يوسفُ بنُ أسباطٍ إلىٰ حذيفةَ المَرْعشيِّ : (ما ظنُّكَ بمنْ بقيَ لا يجدُ أحداً يذكرُ اللهَ تعالىٰ معهُ إلا كانَ آثماً ، وكانتْ مذاكرتُهُ معصيةً ؟)[1] ، وذلكَ أنَّهُ لا يجدُ أهلَهُ .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ مخالِطَ الناسِ لا ينفكُّ عنْ غِيبةٍ أوْ عنْ سماعِ غيبةٍ ، أوْ عنْ سكوتٍ علىٰ منكرٍ ، وأحسنُ أحوالِهِ أنْ يفيدَ علماً أو يستفيدَهُ .

ولوْ تأمَّلَ هٰذا المسكينُ وعلمَ أنَّ إفادتَهُ لا تخلُو عنْ شوائبِ الرياءِ وطلبِ الجمعِ والرئاسةِ . . علمَ أنَّ المستفيدَ إنَّما يريدُ أنْ يجعلَ ذلكَ آلةً إلىٰ طلبِ الدنيا ، ووسيلةً إلى الشرِّ ، فيكونَ هوَ مُعيناً لهُ علىٰ ذلكَ ؛ وردْءاً وظهيراً ومهيِّئاً لأسبابِهِ ؛ كالذي يبيعُ السيفَ مِنْ قطَّاعِ الطريقِ ، فالعلمُ كالسيفِ ، وصلاحُهُ للخيرِ كصلاحِ السيفِ للغزوِ ، وذلكَ لا يرخِّصُ في البيعِ ممَّنْ يعلمُ بقرائنِ أحوالِهِ أنَّهُ يريدُ بهِ الاستعانةَ علىٰ قطْعِ الطريقِ .

فهٰذهِ اثنتا عشرةَ علامةً مِنْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ ، تجمعُ كلُّ واحدةٍ منها جُمَلاً مِنْ أخلاقِ علماءِ السلفِ .

فكنْ أحدَ رجلينِ : إمَّا مُتَّصفاً بهٰذهِ الصفاتِ ، أوْ معترفاً بالتقصيرِ معَ الإقرارِ بهِ ، وإيَّاكَ أنْ تكونَ الثالثَ فتلبِّسَ علىٰ نفسِكَ بأنْ تلقِّبَ آلةَ الدنيا بالدينِ ، وتشبِّهَ سيرةَ البطَّالينَ بسيرةِ العلماءِ الراسخينَ ، وتلتحقَ بجهلِكَ وإنكارِكَ بزمرةِ الهالكينَ الآيسينَ .

نعوذُ باللهِ مِنْ خدعِ الشيطانِ ، فبها هلكَ الجمهورُ ، ونسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا ممَّنْ لا تغرُّهُ الحياةُ الدنيا ، ولا يغرُّهُ باللهِ الغَرورُ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/١٧٦) .

الباب السّابع
في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلمْ : أنَّ هـٰذا ممَّا لا يُحتاجُ إلىٰ تكلُّفٍ في إظهارِهِ ، لا سيما وقدْ ظهرَ شرفُ العلمِ مِنْ قبلِ العقلِ ، والعقلُ منبعُ العلْمِ ومَطْلِعُهُ وأساسُهُ ، والعلْمُ يجري منهُ مَجرى الثمرةِ مِنَ الشجرةِ ، والنورِ مِنَ الشمسِ ، والرؤيةِ مِنَ العينِ ، وكيفَ لا يَشْرُفُ ما هوَ وسيلةُ السعادةِ في الدنيا والآخرةِ ؟! [١]

أوْ كيفَ يُسترابُ فيهِ والبهيمةُ معَ قصورِ تمييزِها تحتشمُ العقْلَ ، حتَّىٰ إنَّ أعظمَ البهائمِ بَدناً وأشدَّها ضراوةً وأقواها سطوةً إذا رأىٰ صورةَ الإنسانِ . . احتشمَهُ وهابَهُ ؛ لشعورِهِ باستيلائِهِ عليهِ ، بما خُصَّ بهِ مِنْ إدراكِ الحيلِ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الشيخُ في قومِهِ كالنبيِّ في أُمتِهِ » [٢]

وليسَ ذٰلكَ لكثرَةِ مالِهِ ، ولا لكبرِ شخصِهِ ، ولا لزيادةِ قوَّتِهِ ، بلْ لزيادةِ تجربتِهِ التي هيَ ثمرةُ عقلِهِ .

ولذٰلكَ ترى الأتراكَ والأكرادَ وأجلافَ العربِ وسائرَ الخلْقِ معَ قربِ رتبتِهِمْ مِنَ البهائمِ يوقِّرونَ المشايخَ بالطبْعِ .

ولذٰلكَ حينَ قَصَدَ كثيرٌ مِنَ المعاندينَ قَتْلَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلمَّا وقعتْ أعينُهُمْ عليهِ واكتحلُوا بغرَّتِهِ الكريمةِ . . هابوهُ ، وتراءىٰ لهُمْ ما كانَ يتلألأُ علىٰ ديباجةِ وجهِهِ مِنْ نورِ النبوَّةِ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ باطناً في نفسِهِ بطونَ العقلِ .

وشرفُ العقلِ مدرَكٌ بالضرورةِ ، وإنما القصْدُ أنْ نوردَ ما وردتْ بهِ الأخبارُ والآياتُ في ذكرِ شرفِهِ .

وقدْ سماهُ اللهُ تعالىٰ نوراً في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ . . . ﴾ الآيةَ .

وسمَّى العلمَ المستفادَ منهُ روحاً وحياةً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾

وحيثُ ذَكَرَ النورَ والظلمةَ أرادَ بهِ العلمَ والجهلَ ، كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أيُّها الناسُ ؛ اعقلوا عنْ ربِّكُمْ وتواصوا بالعقلِ . . تعرفوا بهِ ما أُمرتُمْ بهِ وما نُهيتُمْ عنهُ ، واعلموا أنَّهُ مجدُكُمْ عندَ ربِّكُمْ ، واعلموا أنَّ العاقِلَ مَنْ أطاعَ اللهَ وإنْ كانَ دميمَ المنظرِ حقيرَ الخطرِ دنيءَ المنزلةِ رثَّ الهيئةِ ، وإنَّ الجاهِلَ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ وإنْ كانَ جميلَ المنظرِ عظيمَ الخطرِ شريفَ المنزلةِ حسنَ الهيئةِ

---

(١) أما السعادة الدنيوية : فمن أعظمها أن الإنسان به يصير خليفة الله في أرضه ، وأما الأخروية : فإنه به يحصل حرث الآخرة المذكور في قوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ ، وثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغنىً بلا فقر ، وأمن بلا خوف ، وراحة بلا شغل ، وعزٌّ بلا ذلّ . « إتحاف » (١/٤٤٩) .

(٢) رواه الرافعي من طريق الخليل الحافظ في « مشيخته » بسنده مرفوعاً كما في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (١/٤٤٩) .

فصيحاً نطوقاً ، فالقردةُ والخنازيرُ أعقلُ عندَ اللهِ تعالىٰ ممَّنْ عصاهُ ، ولا تغتروا بتعظيمِ أهلِ الدنيا إيَّاكمْ ، فإنَّهُمْ مِنَ الخاسرينَ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ ما خلقَ اللهُ العقلُ ، فقالَ لهُ : أقبلْ ، فأقبلَ ، ثمَّ قالَ لهُ : أدبِرْ ، فأدبرَ ، ثمَّ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : وعزَّتِي وجلالي ؛ ما خلقتُ خَلقاً أكرمَ عَلَيَّ منكَ ، بكَ آخذُ ، وبكَ أعطي ، وبكَ أثيبُ ، وبكَ أعاقبُ »(٢)



فإنْ قلتَ : فهٰذا العقلُ إنْ كانَ عَرَضاً . . فكيفَ خُلِقَ قبلَ الأجسامِ ؟ وإنْ كانَ جوهراً . . فكيفَ يكونُ جوهراً قائماً بنفسِهِ لا يتحيَّزُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا مِنْ علْمِ المكاشفةِ ، ولا يليقُ ذكرُهُ بعلْمِ المعاملةِ ، وغرضُنا الآنَ ذكرُ علومِ المعاملةِ .

❁ ❁ ❁

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : أثنىٰ قومٌ علىٰ رجلٍ عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ بالغوا ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيف عَقْلُ الرجلِ ؟ » فقالوا : نخبرُكَ عنِ اجتهادِهِ في العبادةِ وأصنافِ الخيرِ وتسألُنا عنْ عقلِهِ ؟! فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الأحمقَ يصيبُ بحمقِهِ أعظمَ مِنْ فجورِ الفاجرِ ، وإنَّما يرتفعُ العبادُ غداً في الدرجاتِ الزُّلفىٰ مِنْ ربِّهِمْ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ »(٣)

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما اكتسبَ رجلٌ مثلَ فضلِ عقْلٍ يهدي صاحبَهُ إلىٰ هُدىً ويردُّهُ عنْ ردىً ، وما تَمَّ إيمانُ عبْدٍ ولا استقامَ دينُهُ حتَّىٰ يكملَ عقلُهُ »(٤)

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليدركُ بحسْنِ خلقِهِ درجةَ الصائمِ القائمِ ، ولا يتمُّ لرجلٍ حسنُ خلقِهِ حتَّىٰ يتمَّ عقلُهُ ، فعندَ ذٰلكَ تمَّ إيمانُهُ وأطاعَ ربَّهُ وعَصَىٰ عدوَّهُ إبليسَ »(٥)

ورُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لكلِّ شيءٍ دعامةٌ ، ودعامةُ المؤمنِ عقلُهُ ، فبقدْرِ عقلِهِ تكونُ عبادتُهُ ، أما سمعتُمْ قولَ الفُجَّارِ : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ »(٦)

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ لتميمٍ الداريِّ : ما السُّؤْدُدُ فيكمْ ؟ قالَ : العقلُ ، قالَ : صدقتَ ؛ سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كما سألتُكَ فقالَ كما قلْتَ ، ثمَّ قالَ : « سألتُ جبريلَ عليهِ السلامُ : ما السُّؤْدُدُ ؟ قالَ : العقلُ »(٧) .

وعنِ البراءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : كثرتِ المسائلُ يوماً علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أيُّها الناسُ ؛

---

(١) هو من أحاديث داوود بن المحبر في كتابه « العقل » . انظر « الإتحاف » (٤٥٢/١) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٨٣/٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٨/٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) ، وانظر المراد بلفظ (العقل) فيما نقله الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤٥٣/١) .
(٣) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .
(٤) روىٰ بنحوه الطبراني في « الصغير » (٢٤١/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣٣٨) .
(٥) الجملة الأولىٰ منه رواها أبو داوود (٤٧٩٨) ، وتمامه من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (٤٥٦/١) .
(٦) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (٤٥٦/١) .
(٧) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (٤٥٦/١) .

إنَّ لكلِّ شيءٍ مطيةً ، ومطيَّةُ المرءِ العقلُ ، وأحسنُكُمْ دلالةً ومعرفةً بالمحجَّةِ أفضلُكُمْ عقلاً »[1]

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : لمَّا رجعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ غزوةِ أُحُدٍ . . سَمِعَ الناسَ يقولونَ : كانَ فلانٌ أشجَعَ مِنْ فلانٍ ، وفلانٌ أبلىٰ ما لمْ يُبْلِ غيرُهُ ، ونحوَ هـٰذا ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمَّا هـٰذا . . فلا علْمَ لكمْ بهِ » ، قالوا : وكيفَ ذٰلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهمْ قاتلوا علىٰ قدْرِ ما قسمَ اللهُ لهُمْ مِنَ العقلِ ، وكانَ نُصرتُهُمْ ونيَّتُهُمْ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، فأُصيبَ مِنهُ مَنْ أُصيبَ علىٰ منازلَ شتَّىٰ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . اقتسموا المنازلَ علىٰ قدْرِ نيَّاتِهِمْ وقدْرِ عقولِهِمْ »[2]

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « جَدَّ الملائكةُ واجتهدوا في طاعةِ اللهِ سبحانَهُ بالعَقْلِ ، وجَدَّ المؤمنونَ مِنْ بني آدمَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، فأعملُهُمْ بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أوفرُهُمْ عقلاً »[3]

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ بِمَ يتفاضلُ الناسُ في الدنيا ؟ قال : « بالعقلِ » ، قلتُ : وفي الآخرةِ ؟ قال : « بالعقلِ » ، قلتُ : أليسَ إنَّما يُجزونَ بأعمالِهِمْ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشَةُ ؛ وهلْ عَملُوا إلا بقدْرِ ما أعطاهُمُ اللهُ مِنَ العقلِ ؟! فبقدْرِ ما أُعْطُوا مِنَ العقْلِ كانتْ أعمالُهُمْ ، وبقدْرِ ما عملُوا يُجزونَ »[4]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكُلِّ شيءٍ آلةٌ وعُدَّةٌ ، وإنَّ آلةَ المؤمنِ العقلُ ، ولكلِّ شيءٍ مطيَّةٌ ، ومطيَّةُ المرءِ العقلُ ، ولكلِّ شيءٍ دِعامةٌ ، ودِعامَةُ الدينِ العقلُ ، ولكُلِّ قوم غايةٌ ، وغايةُ العبادِ العقلُ ، ولكُلِّ قوم داعٍ ، وداعي العابدينَ العقلُ ، ولكلِّ تاجرٍ بضاعةٌ ، وبضاعةُ المجتهدينَ العقلُ ، ولكلِّ أهلِ بيتٍ قَيِّمٌ ، وقيِّمُ بيوتِ الصدِّيقينَ العقلُ ، ولكلِّ خرابٍ عمارةٌ ، وعمارةُ الآخرةِ العقلُ ، ولكُلِّ امرئٍ عَقِبٌ يُنسبُ إليهِ ويُذكرُ بهِ ، وعَقِبُ الصدِّيقينَ الذي يُنسبونَ إليهِ ويُذكرونَ بهِ العقلُ ، ولكلِّ سَفْرٍ فُسْطَاطٌ[5] ، وفُسطَاطُ المؤمنينَ العقلُ »[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّ المؤمنينَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مَنْ نصبَ في طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ونَصَحَ لِعبادِهِ ، وكمُلَ عقلُهُ ، ونصحَ نفسَهُ فأبصرَ ، وعملَ بِهِ أيامَ حياتِهِ فأفلحَ وأَنْجَحَ »[7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتمُّكُمْ عقلاً أشدُّكُمْ للهِ خوفاً ، وأحسنُكُمْ فيما أمَرَ بهِ ونَهَىٰ عنهُ نظراً ، وإنْ كانَ أقلَّكُمْ تطوُّعاً »[8]

* * *

---

(١) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٥٦) .

(٢) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٥٧)

(٣) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٥٧) .

(٤) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٥٧) .

(٥) **السَّفْر** : القوم المسافرون ، **والفسطاط** : الخيمة .

(٦) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٥٧) .

(٧) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٥٨) .

(٨) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » ، انظر « الإتحاف » (١/٤٥٨) . وقد روىٰ هـٰذه الأحاديث عنه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » ، وأوردها ابن حجر في « المطالب العالية » ، وأورد بعضها ابن الجوزي في « الموضوعات » ، والسيوطي في « اللآلئ المصنوعة » .

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلمْ : أنَّ الناسَ اختلفوا في حدِّ العقلِ وحقيقتِهِ ، وذَهَلَ الأكثرونَ عنْ كونِ هـٰذا الاسمِ مطلقاً علىٰ معانٍ مختلفةٍ ، فصارَ ذٰلكَ سببَ اختلافِهِمْ .

والحقُّ الكاشفُ للغطاءِ فيهِ : أنَّ العقلَ اسمٌ يُطلقُ بالاشتراكِ علىٰ أربعةِ معانٍ ، كما يُطلقُ اسمُ العينِ مثلاً علىٰ معانٍ عدَّةٍ ، وما يجري هـٰذا المَجرىٰ ، فلا ينبغي أنْ يُطلبَ لجميعِ أقسامِهِ حدٌّ واحدٌ ، بلْ يُفرَدُ كلُّ قسمٍ بالكشْفِ عنهُ .

❁ ❁ ❁

فالأوَّلُ : الوصفُ الذي يفارقُ الإنسانُ بهِ سائرَ البهائمِ : وهوَ الذي بهِ استعدَّ لقبولِ العلومِ النظريةِ ، وتدبيرِ الصناعاتِ الخفيَّةِ الفكريةِ ، وهوَ الذي أرادَهُ الحارثُ بنُ أسدٍ المحاسبيُّ حيثُ قالَ في حدِّ العقلِ : (إنَّهُ غريزةٌ يتهيَّأُ بها إدراكُ العلومِ النظريةِ ، وكأنَّهُ نورٌ يُقذفُ في القلبِ بهِ يستعدُّ لإدراكِ الأشياءِ) .

ولمْ ينصفْ مَنْ أنكرَ هـٰذا ، وردَّ العقلَ إلىٰ مجرَّدِ العلومِ الضروريةِ ؛ فإنَّ الغافلَ عنِ العلومِ والنائمَ يُسمَّيانِ عاقلينِ باعتبارِ وجودِ هـٰذهِ الغريزةِ فيهِما معَ فقْدِ العلومِ ، وكما أنَّ الحياةَ غريزةٌ بها يتهيَّأُ الجسمُ للحركاتِ الاختياريةِ والإدراكاتِ الحسيَّةِ . . فكذٰلكَ العقلُ غريزةٌ بها تتهيَّأُ بعضُ الحيواناتِ للعلومِ النظريةِ .

ولوْ جازَ أنْ يُسوَّىٰ بينَ الإنسانِ والحمارِ في الغريزةِ والإدراكاتِ الحسيَّةِ فيُقالَ : لا فرقَ بينهُمَا إلا أنَّ اللهَ تعالىٰ بحكْمِ إجراءِ العادةِ يخلُقُ في الإنسانِ علوماً وليسَ يخلقُها في الحمارِ والبهائمِ . . لجازَ أنْ يُسوَّىٰ بينَ الجمادِ والحمارِ في الحياةِ ويُقالَ : لا فرقَ إلا أنَّ اللهَ تعالىٰ يخلقُ في الحمارِ حركاتٍ مخصوصةً بحكمِ إجراءِ العادةِ ؛ فإنَّهُ لوْ قُدِّرَ الحمارُ جماداً ميِّتاً . . لوجبَ القولُ بأنَّ كلَّ حركةٍ تُشاهَدُ منهُ فاللهُ سبحانَهُ قادرٌ علىٰ خلقِها فيهِ على الترتيبِ المشاهدِ ، وكما وجبَ أنْ يُقالَ : لمْ يكنْ مفارقتُهُ للجمادِ في الحركةِ إلا بغريزةٍ اختصَّتْ بهِ عُبِّرَ عنها بالحياةِ . . فكذا مفارقةُ الإنسانِ للبهيمةِ في إدراكِ العلومِ النظريةِ بغريزةٍ يُعبَّرُ عنها بالعقلِ [1] .

وهوَ كالمرآةِ التي تفارقُ غيرَها مِنَ الأجسامِ في حكايةِ الصورِ والألوانِ بصفةٍ اختصَّتْ بها وهيَ الصقالةُ ، وكذٰلكَ العينُ تفارقُ الجبهةَ في هيئاتٍ وصفاتٍ بها استعدَّتْ للرؤيةِ ، فنسبةُ هـٰذهِ الغريزةِ إلى العلومِ كنسبةِ العينِ إلى الرؤيةِ ، ونسبةُ القرآنِ والشرعِ إلىٰ هـٰذه الغريزةِ في سياقِها إلى انكشافِ العلومِ لها كنسبةِ نورِ الشمسِ إلى البصرِ ، فهـٰكذا ينبغي أنْ تُفهمَ هـٰذهِ الغريزةُ .

❁ ❁ ❁

الثاني : هيَ العلومُ التي تخرجُ إلى الوجودِ في ذاتِ الطفلِ المميِّزِ بجوازِ الجائزاتِ واستحالةِ المستحيلاتِ : كالعلمِ بأنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ ، وأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يكونُ في مكانينِ في وقتٍ واحدٍ ، وهوَ الذي عناهُ بعضُ المتكلمينَ حيثُ قالَ في حدِّ العقلِ : (إنَّـهُ بعضُ العلومِ الضروريةِ ؛ كالعلمِ بجوازِ الجائزاتِ واستحالةِ المستحيلاتِ)

---

(١) فثبت بما ذكر تصحيح قول المحاسبي . « إتحاف » (١/٤٦٠) .

وهوَ أيضاً صحيحٌ في نفسِهِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ العلومَ موجودةٌ ، وتسميتُها عقلاً ظاهرٌ ، وإنَّما الفاسدُ أنْ تُنكرَ تلكَ الغريزةُ ويقالَ : لا موجودَ إلا هـٰذهِ العلومُ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : علومٌ تُستفادُ مِنَ التجاربِ بمجاري الأحوالِ : فإنَّ مَنْ حنَّكتْهُ التجاربُ وهذَّبتْهُ المذاهبُ يُقالُ : إنَّهُ عاقلٌ في العادةِ ، ومَنْ لا يتصفُ بهـٰذهِ الصفةِ . . فيُقالُ : إنَّهُ غبيٌّ غُمْرٌ جاهلٌ ، فهـٰذا نوعٌ آخرُ مِنَ العلومِ سُمِّيَ عقلاً .

❁ ❁ ❁

والرابعُ : أنْ تنتهيَ قوَّةُ تلكَ الغريزةِ إلىٰ أنْ يعرفَ عواقبَ الأمورِ ، ويقمعَ الشهوةَ الداعيةَ إلى اللذَّةِ العاجلةِ ويقهرَها : فإذا حصلتْ هـٰذهِ القوَّةُ سُمِّيَ صاحبُها عاقلاً ، مِنْ حيثُ إنَّ إقدامَهُ وإحجامَهُ بحسَبِ ما يقتضيهِ النظرُ في العواقبِ ، لا بحكمِ الشهوةِ العاجلةِ ، وهـٰذهِ أيضاً مِنْ خواصِّ الإنسانِ التي بها يتميَّزُ عنْ سائرِ الحيوانِ .

فالأولُ : هوَ الأسُّ والسِّنْخُ والمنبعُ .

والثاني : هوَ الفرْعُ الأقربُ إليهِ .

والثالثُ : فرعُ الأوَّلِ والثاني ؛ إذْ بقوَّةِ الغريزةِ والعلومِ الضروريةِ تستفادُ علومُ التجاربِ .

والرابعُ : هوَ الثمرةُ الأخيرةُ ، وهيَ الغايةُ القصوىٰ .

فالأوَّلانِ بالطبْعِ ، والأخيرانِ بالاكتسابِ ، ولذٰلكَ قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ[1] : [من الهزج]

رَأَيْــــتُ الْـعَـقْـلَ عَـقْـلَـيْـنِ ... فَـمَـطْـبُـوعٌ وَمَـسْـمُـوعٌ

وَلَا يَـنْـفَـعُ مَـسْـمُـوعٌ ... إِذَا لَـمْ يَـكُ مَـطْـبُـوعٌ

كَـمَـا لَا تَـنْـفَـعُ الـشَّـمْـسُ ... وَضَـوْءُ الْـعَـيْـنِ مَـمْـنُـوعٌ

والأوَّلُ هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما خلقَ اللهُ خلقاً أكرمَ عليهِ مِنَ العقلِ »[2] ، والأخيرُ هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا تقرَّبَ الناسُ بأبوابِ البرِّ والأعمالِ الصالحةِ . . فتقرَّبْ أنتَ بعقلِكَ »[3] ، وهوَ المرادُ بقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : « ازددْ عقلاً . . تزددْ مِنْ ربِّكَ قُرْباً » ، فقالَ : بأبي أنتَ وأمِّي ؛ وكيفَ لي بذٰلكَ ؟ فقالَ : « اجتنبْ محارمَ اللهِ تعالىٰ ، وأدِّ فرائضَ اللهِ سبحانَهُ . . تكنْ عاقِلاً ، واعملْ بالصالحاتِ مِنَ الأعمالِ . . تزددْ في عاجلِ الدنيا رفعةً وكرامةً ، وتنلْ في آجِلِ العُقْبَىٰ بها مِنْ ربِّكَ عزَّ وجلَّ القربَ والعِزَّ »[4]

وعنْ سعيدِ بنِ المسيَّبِ : أنَّ عمرَ وأُبَيَّ بنَ كعبٍ وأبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ دخلوا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا : يا رسُولَ اللهِ ؛ مَنْ أعلمُ الناسِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العاقلُ » ، قَالُوا : فَمَنْ أعبدُ الناسِ ؟ قالَ : « العاقلُ » ، قالوا : فَمَنْ أفضلُ الناسِ ؟ قالَ : « العاقلُ » ، قالوا : أليسَ العاقلُ مَنْ تَمَّتْ مروءَتُهُ ، وظهرتْ فصاحتُهُ ،

---

(١) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ : « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٦١)

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٨٣/٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٨/٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٨/١) .

(٤) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .

وجادتْ كفُهُ ، وعظُمتْ منزلتُهُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، إنَّ العاقلَ هوَ المتقي وإنْ كانَ في الدنيا خسيساً ذليلاً »[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ آخرَ : « إنَّما العاقلُ مَنْ آمنَ باللهِ وصدَّقَ رسلَهُ وعملَ بطاعتِهِ »[٢]

ويشبهُ أنْ يكونَ الاسمُ في أصلِ اللغةِ لتلكَ الغريزةِ ، وكذا في الاستعمالِ ، وإنَّما أُطلقَ على العلومِ مِنْ حيثُ إنَّها ثمرتُها كما يُعرفُ الشيءُ بثمرتِهِ ، فيُقالُ : (العلمُ هوَ الخشيةُ ، والعالمُ مَنْ يخشى اللهَ تعالىٰ) ؛ فإنَّ الخشيةَ ثمرةُ العلمِ ، فيكونُ كالمجازِ لغيرِ تلكَ الغريزةِ ، ولـٰكنْ ليسَ الغرضُ البحثَ عنِ اللغةِ[٣]

والمقصودُ أنَّ هـٰذهِ الأقسامَ الأربعةَ موجودةٌ ، والاسمُ يُطلقُ علىٰ جميعِها ، ولا خلافَ في وجودِ جميعِها إلا في القسمِ الأولِ ، والصحيحُ وجودُها ، بلْ هيَ الأصلُ ، وهـٰذهِ العلومُ كأنَّها مضمَّنَةٌ في تلكَ الغريزةِ بالفطرةِ ، ولـٰكنْ تظهرُ إلى الوجودِ إذا جَرىٰ سببٌ يُخرجُها إلى الوجودِ ، حتَّىٰ كأنَّ هـٰذهِ العلومَ ليستْ بشيءٍ واردٍ عليها مِنْ خارجٍ ، وكأنَّها كانتْ مستكنَّةً فيها فظهرتْ .

ومثالُهُ : الماءُ في الأرضِ ؛ فإنَّهُ يظهرُ بحَفرِ القُنِيِّ[٤] ، ويجتمعُ ويتميَّزُ بالحسِّ ، لا بأنْ يُساقَ إليها شيءٌ جديدٌ ، وكذٰلكَ الدُّهْنُ في اللوزِ ، وماءُ الوَرْدِ في الوَرْدِ .

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ ، فالمرادُ بهِ : إقرارُ نفوسِهِمْ لا إقرارُ الألسنةِ ؛ فإنَّهُمُ انقسموا في إقرارِ الألسنةِ حيثُ وجدتِ الألسنةُ والأشخاصُ إلىٰ مقِرٍّ وجاحدٍ[٥] .

ولـٰذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، معناهُ : إنِ اعتبرتَ أحوالَهُمْ . . شهدتْ بذٰلكَ نفوسُهُمْ وبواطنُهُمْ ، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ أيْ : كلُّ آدميٍّ فُطِرَ على الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، بلْ علىٰ معرفةِ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ[٦] ؛ أعني : أنَّها كالمضمَّنَةِ فيها لقربِ استعدادِها للإدراكِ .

ثمَّ لمَّا كانَ الإيمانُ مركوزاً في النفوسِ بالفطرةِ . . انقسمَ الناسُ إلىٰ قسمينِ : إلىٰ مَنْ أعرضَ فنسيَ وهُمُ الكفَّارُ ، وإلىٰ مَنْ أجالَ خاطرَهُ فتذكَّرَ ، فكانَ كمَنْ حملَ شهادةً فنسيَها بغفلةٍ ثمَّ تذكَّرَها ؛ ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وتسميةُ هـٰذا النمطِ تذكُّراً ليسَ ببعيدٍ ، وكأنَّ التذكُّرَ ضربانِ :

أحدُهما : أنْ يذكُرَ صورةً كانتْ حاضرةَ الوجودِ في قلبِهِ لـٰكنْ غابتْ بعدَ الوجودِ .

والآخرُ : أنْ يكونَ عنْ صورةٍ كانتْ مضمَّنَةً فيهِ بالفطرةِ .

---

(١) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٦٢) .

(٢) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٦٢) .

(٣) أشار بذٰلك إلىٰ أنه خالفهم ـ أهل اللغة ـ فيما أطبقوا عليه . « إتحاف » (١/٤٦٣) .

(٤) **القُنِيُّ** : جمع قناة ؛ وهي الجدول الصغير .

(٥) فمنهم من بقي علىٰ إقراره الأصلي من أول وهلة ، ومنهم من راجع إقراره فيما بعد بتوفيق من الله تعالىٰ ، ومنهم من لم يقرَّ مطلقاً ، فالإقرار ثابت بنص الآية ولـٰكن لا بالألسنة ، وهـٰذا الذي أورده المصنف أشار به إلىٰ ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية وغاية ما يبلغ إليه الإنسان من ذٰلك ؛ فأشرف ثمرة العقل معرفة الله سبحانه وتعالىٰ وحسن طاعته والكف عن معصيته . « إتحاف » (١/٤٦٣) .

(٦) ولم يقل : (بل علىٰ معرفة الله تعالىٰ) ، فإنه إنما عنىٰ بالإيمان معرفة الله الضرورية ؛ وهي معرفة كل أحد أنه مفعول ، وأن له فاعلاً فعله ونقله من الأحوال المختلفة ، لا المعرفة المكتسبة . « إتحاف » (١/٤٦٣) .

وهٰذهِ حقائقُ ظاهرةٌ للناظرِ بنورِ البصيرةِ ، ثقيلةٌ علىٰ مَنْ مستروَحُهُ السماعُ والتقليدُ دونَ الكشْفِ والعِيانِ ، ولذٰلكَ تراهُ يتخبَّطُ في مثلِ هٰذهِ الآياتِ ، ويتعسَّفُ في تأويلِ التذكُّرِ وإقرارِ النفوسِ أنواعاً مِنَ التعسفاتِ ، ويتخايلُ إليهِ في الأخبارِ والآياتِ ضروبٌ مِنَ المناقضاتِ ، وربَّما يغلبُ ذٰلكَ عليهِ حتَّىٰ ينظرَ إليها بعينِ الاستحقارِ ، ويعتقدَ فيها التهافتَ .

ومثالُهُ : مثالُ الأعمى الذي يدخلُ داراً فيعثُرُ فيها بالأواني المصفوفةِ في الدارِ فيقولُ : ما لهٰذهِ الأواني لا تُرفعُ مِنَ الطريقِ وتُردُّ إلىٰ مواضعِها ؟ فيُقالُ لهُ : إنَّها في مواضعِها ، وإنَّما الخلَلُ في بصرِكَ .

فكذٰلكَ خلَلُ البصيرةِ يجري مَجراهُ وأطمُّ منهُ وأعظمُ ؛ إذِ النفسُ كالفارسِ ، والبدنُ كالفرسِ ، وعَمَى الفارسِ أضرُّ مِنْ عَمَى الفرسِ .

ولمشابهةِ بصيرةِ الباطنِ لبصرِ الظاهرِ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ .

وسمَّىٰ ضدَّهُ عمىً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

وهٰذهِ الأمورُ التي كُشفتْ للأنبياءِ بعضُها كانَ بالبصرِ ، وبعضُها كانَ بالبصيرةِ ، وسمَّى الكلَّ رؤيةً .

وبالجملةِ : مَنْ لمْ تكنْ بصيرتُهُ الباطنةُ ثاقبةً . . لمْ يعلقْ بهِ مِنَ الدينِ إلا قُشُورُهُ وأمثلتُهُ دونَ لبابِهِ وحقائقِهِ .

فهٰذهِ أقسامُ ما ينطلقُ اسمُ العقلِ عليها .

❋ ❋ ❋

بيان تفاوت الناس في العقل

قدِ اختلفَ الناسُ في تفاوتِ العقلِ ، ولا معنىٰ للاشتغالِ بنقلِ كلامِ مَنْ قلَّ تحصيلُهُ ، بلِ الأولىٰ والأهمُّ المبادرةُ إلى التصريحِ بالحقّ .

والحقُّ الصريحُ فيهِ أنْ يقالَ : إنَّ التفاوتَ يتطرَّقُ إلى الأقسامِ الأربعةِ سوى القسمِ الثاني ؛ وهوَ العلمُ الضروريُّ بجوازِ الجائزاتِ واستحالةِ المستحيلاتِ ؛ فإنَّ مَنْ عرفَ أنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ . . عرفَ أيضاً استحالةَ كونِ الجسْمِ في مكانينِ ، وكونِ الشيءِ الواحدِ قديماً حادثاً ، وكذا سائرُ النظائرِ ، وكلُّ مَنْ يدركُهُ . . يدركُهُ إدراكاً محقَّقاً مِنْ غيرِ شكٍّ (1) ، فأمَّا الأقسامُ الثلاثةُ . . فالتفاوتُ يتطرقُ إليها .

أمَّا القسمُ الرابعُ ـ وهوَ استيلاءُ القوَّةِ علىٰ قمْعِ الشهواتِ ـ فلا يخفىٰ تفاوتُ الناسِ فيهِ ، بلْ لا يخفىٰ تفاوتُ أحوالِ الشخصِ الواحدِ فيهِ .

وهٰذا التفاوتُ يكونُ تارةً لتفاوتِ الشهوةِ ؛ إذْ قدْ يقدرُ العاقلُ علىٰ ترْكِ بعضِ الشهواتِ دونَ بعضٍ ، ولٰكنْ غيرُ مقصورٍ عليهِ ؛ فإنَّ الشابَّ قدْ يعجَزُ عنْ تركِ الزنا ، وإذا كَبِرَ وتمَّ عقلُهُ . . قدرَ عليهِ ، وشهوةُ الرياءِ والرياسةِ تزدادُ قوَّةً بالكِبَرِ لا ضعفاً .

وقدْ يكونُ سببُهُ التفاوتَ في العلْمِ المعرِّفِ لغائلةِ تلكَ الشهوةِ ، ولهٰذا يقدرُ الطبيبُ على الاحتماءِ عنْ بعضِ الأطعمةِ المضرَّةِ ، وقدْ لا يقدرُ مَنْ يساويهِ في العقلِ علىٰ ذٰلكَ إذا لمْ يكنْ طبيباً وإنْ كانَ يعتقدُ على الجملةِ فيهِ مضرَّةً ، ولٰكنْ إذا كانَ علْمُ الطبيبِ أتمَّ . . كانَ خوفُهُ أشدَّ ، فيكونُ الخوفُ جنداً للعقلِ ، وعُدَّةً في قمعِ الشهواتِ وكسرِها ، وكذٰلكَ يكونُ العالمُ أقدرَ علىٰ تركِ المعاصي مِنَ الجاهلِ ؛ لقوَّةِ علمِهِ بضررِ المعاصي ، وأعني بهِ : العالمَ الحقيقيَّ دونَ أربابِ الطيالسةِ وأصحابِ الهذيانِ .

فإنْ كانَ التفاوتُ مِنْ جهةِ الشهوةِ . . لمْ يرجعْ إلىٰ تفاوتِ العقلِ ، وإنْ كانَ مِنْ جهةِ العلمِ . . فقدْ سمَّينا هٰذا الضربَ مِنَ العلمِ عقلاً ، فإنَّهُ يقوّي غريزةَ العقلِ ، فيكونُ التفاوتُ فيما رجعتِ التسميةُ إليهِ .

وقدْ يكونُ بمجرَّدِ التفاوتِ في غريزةِ العقلِ ؛ فإنَّها إذا قويتْ . . كانَ قمعُها للشهوةِ ـ لا محالةَ ـ أشدَّ .

وأمَّا القسمُ الثالثُ ـ وهوَ علومُ التجاربِ ـ فتفاوتُ الناسِ فيها لا يُنكرُ ؛ فإنَّهمْ يتفاوتونَ بكثرةِ الإصابةِ وسرعةِ الإدراكِ ، ويكونُ سببُهُ إمَّا تفاوتاً في الغريزةِ ، وإمَّا تفاوتاً في الممارسةِ .

فأما الأوَّلُ ـ وهوَ الأصلُ ، أعني : الغريزةَ ـ فالتفاوتُ فيهِ لا سبيلَ إلىٰ جحدِهِ ؛ فإنَّهُ مثلُ نورٍ يشرقُ على النفسِ ويطلعُ صبحُهُ ، ومبادئُ إشراقِهِ عندَ سنِّ التمييزِ ، ثمَّ لا يزالُ ينمو ويزدادُ نموّاً خفيّاً على التدريجِ إلىٰ أنْ يتكاملَ بقرْبِ الأربعينَ سنةً .

ومثالُهُ : نورُ الصبْحِ ؛ فإنَّ أوائلَهُ تخفىٰ خفاءً يشقُّ إدراكُهُ ، ثمَّ يتدرَّجُ إلى الزيادةِ ، إلىٰ أنْ يكملَ بطلوعِ قرْصِ الشمسِ .

---

(1) في (ج) : (وكل ما يدركه العاقل إدراكاً . . .) ، وكذا في « الإتحاف » (١/٤٦٥) .

وتفاوتُ نورِ البصيرةِ كتفاوتِ نورِ البصرِ ، فالفرقُ مدركٌ بينَ الأعمشِ وبينَ حادِّ البصرِ ، بلْ سنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ جاريةٌ في جميعِ خلقِهِ بالتدريجِ في الإيجادِ ، حتَّىٰ إنَّ غريزةَ الشهوةِ لا تظهرُ في الصبيِّ عندَ البلوغِ دفعةً وبغتةً ، بلْ تظهرُ شيئاً شيئاً على التدريجِ ، وكذا جميعُ القوىٰ والصفاتِ .

ومَنْ أنكرَ تفاوتَ الناسِ في هٰذه الغريزةِ . . فكأنَّهُ منخلعٌ عنْ ربقةِ العقلِ .

ومَنْ ظنَّ أنَّ عقلَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مثلُ عقلِ آحادِ السَّوَاديةِ وأجلافِ البوادي . . فهوَ أخسُّ في نفسِهِ مِنْ آحادِ السواديةِ[1] ، وكيفَ يُنكرُ تفاوتُ الغريزةِ ولولاهُ . . لما اختلفَ تفاوتُ الناسِ في فهْمِ العلومِ ، ولما انقسموا إلىٰ بليدٍ لا يفهَمُ بالتفهيمِ إلا بعدَ تعبٍ طويلٍ مِنَ المعلِّمِ ، وإلىٰ ذكيٍّ يفهَمُ بأدنىٰ رمْزٍ وإشارةٍ ، وإلىٰ كاملٍ تنبعثُ مِنْ نفسِهِ حقائقُ الأمورِ بدونِ التعليمِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ؟!

وذٰلكَ مثلُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ؛ إذْ يتَّضحُ لهُمْ في بواطنِهِمْ أمورٌ غامضةٌ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ وسماعٍ ، ويُعبَّرُ عنْ ذٰلكَ بالإلهامِ ، وعنْ مثلِهِ عبَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « إنَّ روحَ القُدُسِ نفثَ في رُوعِي : أحببْ منْ أحببتَ فإنَّكَ مُفارقُهُ ، وعِشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميِّتٌ ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ »[2]

وهٰذا النمطُ مِنْ تعريفِ الملائكةِ للأنبياءِ يخالفُ الوحيَ الصريحَ الذي هوَ سماعُ الصوتِ بحاسَّةِ الأُذُنِ ، ومشاهدةُ المَلَكِ بحاسةِ البصرِ ، ولذٰلكَ أخبرَ عنْ هٰذا بالنفثِ في الرُّوعِ .

ودرجاتُ الوحيِ كثيرةٌ ، والخوضُ فيها لا يليقُ بعلْمِ المعاملةِ ، بلْ هوَ منْ علمِ المكاشفةِ .

ولا تظُنَّنَّ أنَّ معرفةَ درجاتِ الوحيِ تستدعي منصبَ الوحيِ ؛ إذْ لا يبعدُ أنْ يعرِّفَ الطبيبُ المريضَ درجاتِ الصحَّةِ ، ويَعلَمَ الفاسقُ درجاتِ العدالةِ وإنْ كانَ خالياً عنها ، فالعلمُ شيءٌ ووجودُ المعلومِ شيءٌ آخرُ ، فلا كلُّ مَنْ عرفَ النبوَّةَ والولايةَ كانَ نبياً ووليّاً ، ولا كلُّ مَنْ عرفَ التقوىٰ والورعَ ودقائقَهُ كانَ تقيّاً .

وانقسامُ الناسِ إلىٰ مَنْ يتنبَّهُ مِنْ نفسِهِ ويفهمُ ، وإلىٰ مَنْ لا يفهَمُ إلا بتنبيهٍ وتعليمٍ ، وإلىٰ مَنْ لا ينفعُهُ التعليمُ أيضاً ولا التنبيهُ . . كانقسامِ الأرضِ إلىٰ ما يجتمعُ فيهِ الماءُ ويقوىٰ فيتفجَّرُ بنفسِهِ عيوناً ، وإلىٰ ما يحتاجُ إلى الحَفْرِ ليخرجَ في القنواتِ ، وإلىٰ ما لا ينفعُ فيهِ الحفْرُ وهوَ اليابسُ ، وذٰلكَ لاختلافِ جواهرِ الأرضِ في صفاتِها ؛ فكذٰلكَ هٰذا الاختلافُ في النفوسِ وغريزةِ العقلِ .

ويدلُّ **علىٰ تفاوتِ العقْلِ مِنْ جهةِ النقْلِ** : ما رُوِيَ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ سلامٍ رضيَ اللهُ عنهُ سألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ طويلٍ في آخرِهِ وَصْفُ عِظَمِ العرْشِ ، وأنَّ الملائكةَ قالَتْ : يا ربَّنا ؛ هلْ خلقتَ شيئاً أعظمَ مِنَ العرشِ ؟ قالَ : نعمْ ، العقلُ ، قالوا : وما بلغَ مِنْ قدْرِهِ ؟ قالَ : هيهاتَ ؛ لا يحاطُ بعلمِهِ ، هلْ لكمْ علمٌ بعددِ الرملِ ؟ قالوا : لا ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : فإنِّي خلقتُ العقلَ أصنافاً شتَّى كعَدَدِ الرَّملِ ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ أُعطِيَ حبَّةً ، ومنهمْ مَنْ

---

(١) وأخرج أبو نعيم في « الحلية » (٢٦/٤) عن وهب بن منبه قال : (قرأت إحدىٰ وسبعين كتاباً ، فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل من جميع رمال الدنيا ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً) « إتحاف » (٤٦٧/١) . **والسوادية** : أهل الأرياف .

(٢) أما لفظ : « إن روح القدس نفث في روعي » والذي هو محل الشاهد . . فرواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠١٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦/١٠) ، وتتمة الحديث هو عند أبي نعيم في « الحلية » (٢٠٢/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

أُعطِيَ حبَّتينِ ، ومنهمُ منْ أُعطِيَ الثلاثَ والأربعَ ، ومنهمْ مَنْ أُعطِيَ فَرَقاً ، ومنهمْ منْ أُعطِيَ وَسْقاً ، ومنهمْ منْ أُعطِيَ أكثرَ مِنْ ذٰلكَ[١]

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما بالُ أقوامٍ مِنَ المتصوِّفَةِ يذمُّونَ العقلَ والمعقولَ ؟

فاعلمْ : أنَّ السببَ فيهِ أنَّ الناسَ نقلوا اسمَ العقْلِ والمعقولِ إلى المجادلةِ والمناظرةِ بالمناقضاتِ والإلزاماتِ ، وهوَ صنعةُ الكلامِ ، فلمْ يقدروا علىٰ أنْ يقرِّرُوا عندَهُمْ : أنَّكُمْ أخطأتُمْ في التسميةِ ؛ إذْ كانَ ذٰلكَ لا ينمحي عَنْ قلوبِهِمْ بعدَ تداولِ الألسنةِ بهِ ، ورسوخِهِ في القلوبِ فذمُّوا العقلَ والمعقولَ ، وهوَ المسمَّىٰ بهِ عندَهُمْ .

فأمَّا نورُ البصيرةِ الباطنةِ التي بها يُعرفُ اللهُ تعالىٰ ويُعرفُ صدْقُ رسلِهِ . . فكيفَ يُتصوَّرُ ذمُّهُ وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ ؟!

وإنْ ذُمَّ . . فما الذي بعدَهُ يُحمدُ ؟!

فإنْ كانَ المحمودُ هوَ الشرعَ . . فبِمَ عُلِمَ صِحَّةُ الشرعِ ؟!

فإنْ عُلِمَ بالعقلِ المذمومِ الذي لا يُوثَقُ بهِ فيكونُ الشرعُ أيضاً مذموماً !![٢]

ولا يُلتفتُ إلىٰ مَنْ يقولُ : إنَّهُ يُدرَكُ بعينِ اليقينِ ونورِ الإيمانِ لا بالعقلِ ، فإنَّا نريدُ بالعقلِ ما يريدُهُ بعينِ اليقينِ ونورِ الإيمانِ ، وهيَ الصفةُ الباطنةُ التي تميَّزَ بها الآدميُّ عنِ البهائمِ حتَّىٰ أدركَ بها حقائقَ الأمورِ[٣]

وأكثرُ هٰذهِ التخبيطاتِ إنَّما ثارتْ مِنْ جهْلِ أقوامٍ طلبوا الحقائقَ مِنَ الألفاظِ ، فتخبَّطوا لتخبُّطِ اصطلاحاتِ الناسِ في الألفاظِ .

وهٰذا القدْرُ كافٍ في بيانِ العقلِ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

❀ ❀ ❀

تمّ كتاب العلم

وهو الكتاب الأوّل من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة على خير خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله أجمعين والسّلام

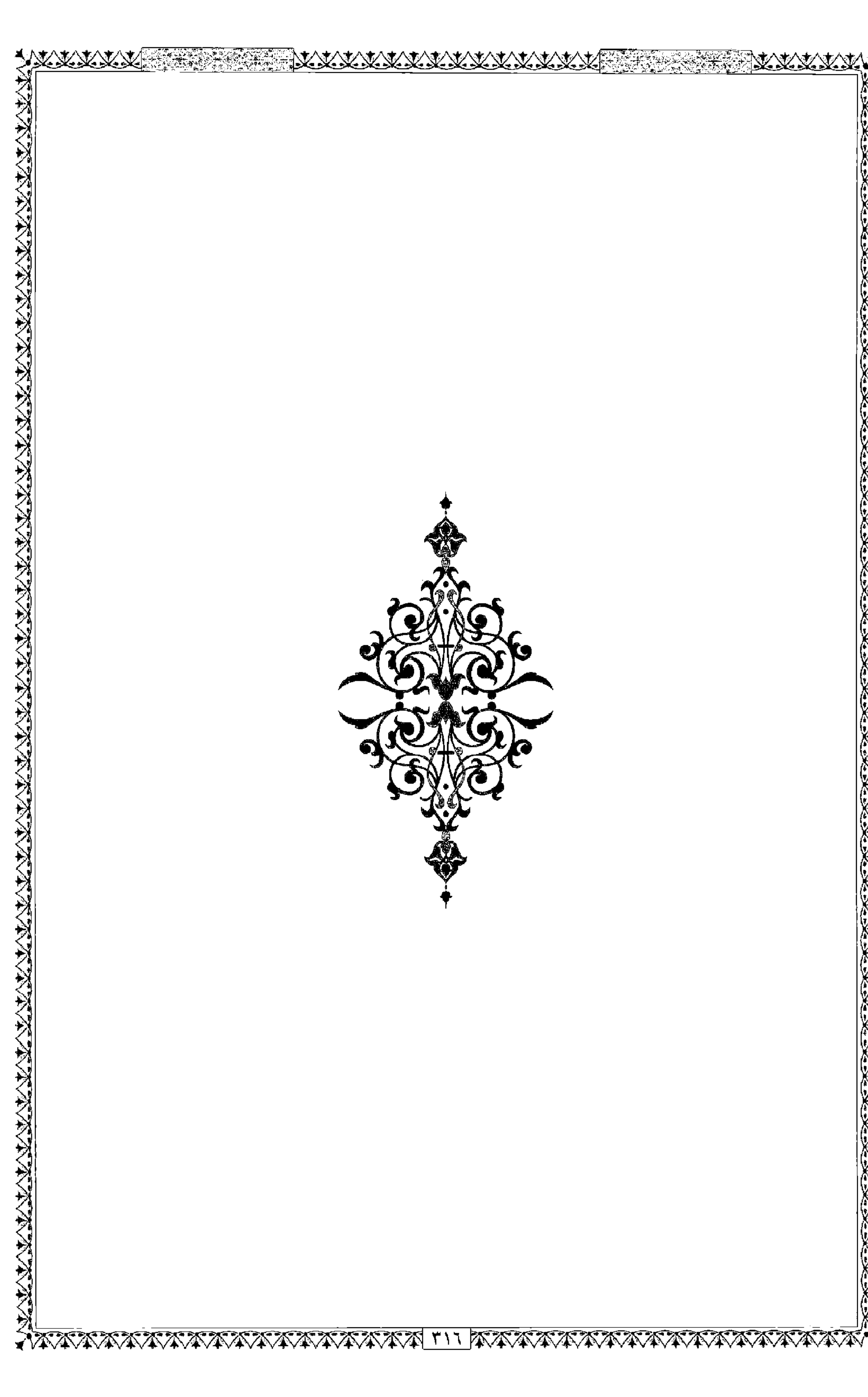
يتلوه كتاب قواعد العقائد

---

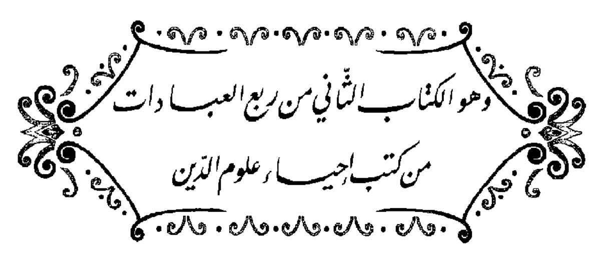
(١) مختصراً عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) ، وبتمامه من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (٤٦٩/١) .

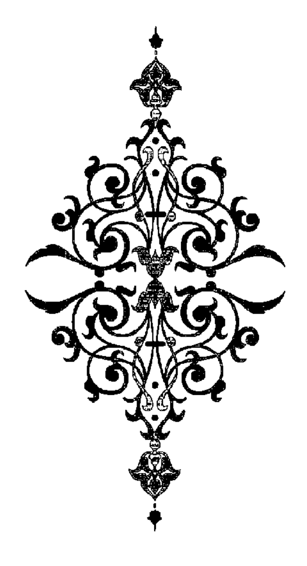
(٢) فإن ما يتوقف عليه صحة شيء إذا كان واهياً . . فالمتوقف عليه نفسه واهٍ . « إتحاف » (٤٦٩/١) .

(٣) فقولهم : (إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان) صحيح ، وقوله : (لا بالعقل) غير صحيح ، وهٰذا الذي أنكر عليهم الشيخ . « إتحاف » (٤٧٠/١) .



كتاب
قواعد العقائد





بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول

الفَصْلُ الأَوّلُ
في ترجمة عقيدة أهل السّنّة في كلمتي الشّهادة الّتي هي أحد مباني الإسلام

فنقولُ وباللهِ التوفيقُ :

الحمدُ للهِ المبدئِ المعيدِ ، الفعَّالِ لما يريدُ ، ذي العرشِ المجيدِ ، والبطشِ الشديدِ ، الهادي صفوةَ العبيدِ ، إلى المنهجِ الرشيدِ ، والمسلكِ السديدِ ، المنعمِ عليهِمْ بعدَ شهادةِ التوحيدِ بحراسةِ عقائدِهِمْ عنْ ظلماتِ التشكيكِ والترديدِ ، السائقِ لهُمْ إلى اتِّباعِ رسولِهِ المصطفىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واقتفاءِ آثارِ صحبِهِ الأكرمينَ المكرَّمينَ بالتأييدِ والتسديدِ ، المتجلِّي لهُمْ في ذاتِهِ وأفعالِهِ بمحاسنِ أوصافِهِ التي لا يدركُها إلا مَنْ ألقى السمعَ وهوَ شهيدٌ .



التوحيدُ :

المعرِّفِ إيَّاهُم أنَّهُ في ذاتِهِ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، فردٌ لا مثْلَ لهُ ، صمدٌ لا ضدَّ لهُ ، منفردٌ لا ندَّ لهُ ، وأنَّهُ قديمٌ لا أوَّلَ لهُ ، أزليٌّ لا بدايةَ لهُ ، مستمرُّ الوجودِ لا آخرَ لهُ ، أبديٌّ لا نهايةَ لهُ ، قيُّومٌ لا انقطاعَ لهُ ، دائمٌ لا انصرامَ لهُ ، لمْ يزلْ ولا يزالُ موصوفاً بنعوتِ الجلالِ ، لا يَقضي عليهِ بالانقضاءِ تصرُّمُ الآمادِ وانقراضُ الآجالِ ، بلْ هوَ الأوَّلُ والآخرُ ، والظاهرُ والباطنُ ، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ .



التنزيهُ :

وأنَّه ليسَ بجسمٍ مصوَّرٍ ، ولا جوهرٍ محدودٍ مقدَّرٍ ، وأنَّهُ لا يماثلُ الأجسامَ ، لا في التقديرِ ولا في قبولِ الانقسامِ ، وأنَّهُ ليسَ بجوهرٍ ولا تحُلُّهُ الجواهرُ ، ولا بعَرَضٍ ولا تحُلُّهُ الأعراضُ ، بلْ لا يماثلُ موجوداً ، ولا يماثلُهُ موجودٌ ، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ ، ولا هوَ مثْلُ شيءٍ ، وأنَّهُ لا يحدُّهُ المقدارُ ، ولا تحويهِ الأقطارُ[1] ، ولا تحيطُ بِهِ الجهاتُ ، ولا تكتنفُهُ الأرضونَ ولا السماواتُ .

وأنَّهُ مستوٍ على العرشِ على الوجْهِ الذي قالَهُ ، وبالمعنى الذي أرادَهُ ، استواءً منزَّهاً عنِ المماسَّةِ والاستقرارِ ، والتمكُّنِ والحلولِ والانتقالِ ، لا يحملُهُ العرْشُ ، بلِ العرْشُ وحملتُهُ محمولونَ بلطْفِ قدرتِهِ ، ومقهورونَ في قبضتِهِ ،

(١) الأقطار : النواحي والجوانب .

وهوَ فوْقَ العرْشِ والسماءِ ، وفوْقَ كلِّ شيءٍ إلىٰ تخومِ الثرىٰ ، فوقيةً لا تزيدُهُ قرباً إلى العرشِ والسماءِ ، كما لا تزيدُهُ بعداً عن الأرضِ والثرىٰ ، بلْ هوَ رفيعُ الدرجاتِ عنِ العرشِ والسماءِ ، كما أنَّهُ رفيعُ الدرجاتِ عنِ الأرضِ والثرىٰ ، وهوَ معَ ذٰلكَ قريبٌ مِنْ كلِّ موجودٍ ، وهوَ أقربُ إلى العبيدِ مِنْ حبْلِ الوريدِ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ شهيدٌ .

إذْ لا يماثلُ قربُهُ قرْبَ الأجسامِ ، كما لا تماثلُ ذاتُهُ ذاتَ الأجسامِ .

وأنَّهُ لا يحلُّ في شيءٍ ، ولا يحلُّ فيهِ شيءٌ ، تعالىٰ عنْ أنْ يحويَهُ مكانٌ ، كما تقدَّسَ عنْ أنْ يحدَّهُ زمانٌ ، بلْ كانَ قبْلَ أنْ خلَقَ الزمانَ والمكانَ ، وهوَ الآنَ علىٰ ما عليهِ كانَ .

وأنَّهُ بائنٌ منْ خلقِهِ بصفاتِهِ ، ليسَ في ذاتِهِ سواهُ ، ولا في سواهُ ذاتُهُ .

وأنَّهُ مقدَّسٌ عنِ التغيُّرِ والانتقالِ ، لا تحُلُّهُ الحوادثُ ، ولا تعتريهِ العوارضُ ، بلْ لا يزالُ في نعوتِ جلالِهِ منزَّهاً عن الزوالِ ، وفي صفاتِ كمالِهِ مستغنياً عنْ زيادةِ الاستكمالِ .

وأنَّهُ في ذاتِهِ معلومُ الوجودِ بالعقولِ ، مرئيُّ الذاتِ بالأبصارِ ؛ نعمةً منهُ ولطفاً بالأبرارِ في دارِ القرارِ ، وإتماماً منهُ للنعيمِ بالنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ .

❀ ❀ ❀

الحياةُ والقدرةُ :

وأنَّهُ تعالىٰ حيٌّ قادرٌ ، جبَّارٌ قاهرٌ ، لا يعتريهِ قصورٌ ولا عجْزٌ ، ولا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ ، ولا يعارضُهُ فناءٌ ولا موتٌ .

وأنَّهُ ذو المُلْكِ والملكوتِ ، والعزَّةِ والجبروتِ ، لهُ السلطانُ والقهرُ ، والخلْقُ والأمرُ ، والسماواتُ مطوياتٌ بيمينِهِ ، والخلائقُ مقهورونَ في قبضتِهِ [1] .

وأنَّهُ المتفرِّدُ بالخلْقِ والاختراعِ ، المتوحِّدُ بالإيجادِ والإبداعِ ، خلَقَ الخلْقَ وأعمالَهُمْ ، وقدَّرَ أرزاقَهُمْ وآجالَهُمْ ، لا يشِذُّ عنْ قبضتِهِ مقدورٌ ، ولا يعزُبُ عنْ قدرتِهِ تصاريفُ الأمورِ ، لا تُحصَىٰ مقدوراتُهُ ، ولا تتناهَىٰ معلوماتُهُ .

❀ ❀ ❀

العلْمُ :

وأنَّهُ عالمٌ بجميعِ المعلوماتِ ، محيطٌ بما يجري مِنْ تخومِ الأرضينَ إلىٰ أعلى السماواتِ ، وأنَّهُ عالمٌ لا يعزُبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ ، بلْ يعلمُ دبيبَ النملةِ السوداءِ ، على الصخرةِ الصمَّاءِ ، في الليلةِ الظلماءِ ، ويُدركُ حركةَ الذرِّ في جوِّ الهواءِ ، ويعلمُ السرَّ وأخفىٰ ، ويطَّلعُ علىٰ هواجسِ الضمائرِ ، وحركاتِ الخواطرِ ، وخفيَّاتِ السرائرِ ؛ بعلْمٍ قديمٍ أزليٍّ لمْ يزلْ موصوفاً بهِ في أزلِ الآزالِ ، لا بعلْمٍ متجدِّدٍ حاصلٍ في ذاتِهِ بالحلولِ والانتقالِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) **الملك** : هو عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية ، **والملكوت** : هو عالم الغيب المختصُّ بأرواح النفوس ، وقيل : هما مصدران ، والمعنىٰ أنه تعالىٰ هو المالك حقيقة ، وكلُّ مالك سواه إنما يصير مالكاً لمملوكه بتمليك الله عز وجل إياه من وجه مأذون فيه ، وقيل : معناهما العالم السفلي والعلوي . « إتحاف » (٢/٢٦ ـ ٢٨) .

الإرادةُ :

وأنَّهُ سبحانَهُ مريدٌ للكائناتِ ، مدبِّرٌ للحادثاتِ ، فلا يجري في الملْكِ والملكوتِ قليلٌ أوْ كثيرٌ ، صغيرٌ أوْ كبيرٌ ، خيرٌ أوْ شرٌّ ، نفْعٌ أوْ ضرٌّ ، إيمانٌ أوْ كفْرٌ ، عرفانٌ أوْ نكْرٌ ، فوْزٌ أوْ خسْرانٌ ، زيادةٌ أوْ نقصانٌ ، طاعةٌ أوْ عصيانٌ . . إلا بقضائِهِ وقدَرِهِ ، وحكمتِهِ ومشيئتِهِ ، فما شاءَ . . كانَ ، وما لمْ يشأْ . . لمْ يكنْ ، لا يخرجُ عنْ مشيئتِهِ لفتةُ ناظرٍ ، ولا فلتَةُ خاطرٍ ، بلْ هوَ المبدئُ المعيدُ ، الفعَّالُ لما يريدُ ، لا رادَّ لأمرِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، ولا مهربَ لعبدٍ عنْ معصيتِهِ إلا بتوفيقِهِ ورحمتِهِ ، ولا قوَّةَ لهُ على طاعتِهِ إلا بمشيئتِهِ وإرادتِهِ ، فلوِ اجتمعَ الإنْسُ والجنُّ والملائكةُ والشياطينُ على أنْ يحرِّكوا في العالمِ ذرَّةً أوْ يسكِّنوها دونَ إرادتِهِ ومشيئتِهِ . . لعجزوا عنهُ .

وأنَّ إرادتَهُ قائمةٌ بذاتِهِ في جملةِ صفاتِهِ ، لمْ يزلْ كذٰلكَ موصوفاً بها ، مريداً في أزلِهِ لوجودِ الأشياءِ في أوقاتِها التي قدَّرَها ، فوُجدتْ في أوقاتِها كما أرادَهُ في أزلِهِ مِنْ غيرِ تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ ، بلْ وقعتْ على وَفْقِ علمِهِ وإرادتِهِ مِنْ غيرِ تبدُّلٍ ولا تغيُّرٍ ، دبَّرَ الأمورَ لا بترتيبِ أفكارٍ وتربُّصِ زمانٍ ، فلذٰلكَ لمْ يشغلْهُ شأنٌ عنْ شأنٍ .

❀ ❀ ❀

السمعُ والبصرُ :

وأنَّهُ تعالى سميعٌ بصيرٌ ، يسمعُ ويرى ، لا يعزُبُ عنْ سمعِهِ مسموعٌ وإنْ خَفِيَ ، ولا يغيبُ عنْ رؤيتِهِ مرئيٌّ وإنْ دقَّ ، ولا يحجبُ سمعَهُ بُعْدٌ ، ولا يدفعُ رؤيتَهُ ظلامٌ ، يرى مِنْ غيرِ حدقةٍ وأجفانٍ ، ويسمعُ مِنْ غيرِ أصمخةٍ وآذانٍ ، كما يعلمُ بغيرِ قلبٍ ، ويبطشُ بغيرِ جارحةٍ ، ويخلُقُ بغيرِ آلةٍ ؛ إذْ لا تشبهُ صفاتُهُ صفاتِ الخلْقِ ، كما لا تشبهُ ذاتُهُ ذواتِ الخلْقِ .

❀ ❀ ❀

الكلامُ :

وأنَّهُ متكلِّمٌ آمرٌ ناهٍ ، واعدٌ متوعِّدٌ ، بكلامٍ أزليٍّ قديمٍ قائمٍ بذاتِهِ ، لا يشبهُ كلامَ الخلْقِ ؛ فليسَ بصوتٍ يحدثُ مِنِ انسلالِ هواءٍ واصطكاكِ أجرامٍ ، ولا بحرفٍ ينقطعُ بإطباقِ شَفَةٍ أوْ تحريكِ لسانٍ .

وأنَّ القرآنَ والتوراةَ والإنجيلَ والزبورَ كتبُهُ المنزَّلَةُ على رسلِهِ عليهمُ السلامُ ، وأنَّ القرآنَ مقروءٌ بالألسنةِ ، مكتوبٌ في المصاحفِ ، محفوظٌ في القلوبِ ، وأنَّهُ معَ ذٰلكَ قديمٌ قائمٌ بذاتِ اللهِ تعالى ، لا يقبلُ الانفصالَ والافتراقَ ، بالانتقالِ إلى القلوبِ والأوراقِ ، وأنَّ موسى عليهِ السلامُ سمعَ كلامَ اللهِ تعالى بغيرِ صوتٍ ولا حرفٍ ، كما يرى الأبرارُ ذاتَ اللهِ تعالى منْ غيرِ جوهرٍ ولا عرضٍ .

وإذْ كانتْ لهُ هٰذهِ الصفاتُ . . كانَ حيّاً ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلِّماً ؛ بالحياةِ ، والقدرةِ ، والعلمِ ، والإرادةِ ، والسمعِ ، والبصرِ ، والكلامِ ، لا بمجرَّدِ الذاتِ .

❀ ❀ ❀

الأفعالُ :

وأنَّهُ سبحانَهُ وتعالى لا موجودَ سواهُ إلا وهوَ حادثٌ بفعلِهِ ، وفائضٌ مِنْ عدلِهِ ، على أحسنِ الوجوهِ وأكملِها ، وأتمِّها

وأعدلِها ، وأنَّهُ حكيمٌ في أفعالِهِ ، عادلٌ في أقضيتِهِ ، ولا يُقاسُ عدلُهُ بعدْلِ العبادِ ؛ إذِ العبدُ يُتصوَّرُ منهُ الظلْمُ بتصرُّفِهِ في مِلْكِ غيرِهِ ، ولا يُتصوَّرُ الظلْمُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّهُ لا يصادفُ لغيرِهِ ملكاً حتَّىٰ يكونَ تصرُّفُهُ فيهِ ظلْماً ، فكلُّ ما سواهُ : مِنْ جنٍّ وإنسٍ ، وشيطانٍ ومَلَكٍ ، وسماءٍ وأرضٍ ، وحيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ ، وجوهرٍ وعرضٍ ، ومدرَكٍ ومحسوسٍ . . حادثٌ اخترعَهُ بقدرتِهِ بعدَ العدمِ اختراعاً ، وأنشأَهُ بعدَ أنْ لمْ يكنْ شيئاً ؛ إذْ كانَ في الأزلِ موجوداً وحدَهُ ولمْ يكنْ معَهُ غيرُهُ ، فأحدثَ الخلْقَ بعدَ ذٰلكَ إظهاراً لقدرتِهِ ، وتحقيقاً لما سبقَ مِنْ إرادتِهِ ، ولما حَقَّ في الأزلِ مِنْ كلمتِهِ ، لا لافتقارِهِ إليهِ وحاجتِهِ .

وأنَّهُ متفضِّلٌ بالخلْقِ والاختراعِ والتكليفِ لا عنْ وجوبٍ ، ومتطوِّلٌ بالإنعامِ والإصلاحِ لا عنْ لزومٍ ، فلهُ الفضْلُ والإحسانُ ، والنعمةُ والامتنانُ ؛ إذْ كانَ قادراً علىٰ أنْ يصبَّ علىٰ عبادِهِ أنواعَ العذابِ ، ويبتليَهُمْ بضروبِ الآلامِ والأوصابِ ، ولوْ فعلَ ذٰلكَ . . لكانَ منهُ عدلاً ، ولمْ يكنْ قبيحاً ولا ظلماً .

وأنَّهُ عزَّ وجلَّ يثيبُ عبادَهُ المؤمنينَ على الطاعاتِ بحكْمِ الكرمِ والوعْدِ ، لا بحكمِ الاستحقاقِ واللزومِ ؛ إذْ لا يجبُ عليهِ لأحدٍ فعْلٌ ، ولا يُتصوَّرُ منهُ ظلْمٌ ، ولا يجبُ لأحدٍ عليهِ حقٌّ .

وأنَّ حقَّهُ في الطاعاتِ وجبَ على الخلْقِ بإيجابِهِ علىٰ ألسنَةِ أنبيائِهِ عليهِمُ السلامُ ، لا بمجرَّدِ العقْلِ ، ولٰكنَّهُ بعثَ الرسلَ وأظهرَ صدقَهُمْ بالمعجزاتِ الظاهرةِ ، فبلَّغوا أمرَهُ ونهيَهُ ، ووعدَهُ ووعيدَهُ ، فوجبَ على الخلْقِ تصديقُهُمْ فيما جاؤوا بهِ .

❀ ❀ ❀

معنى الكلمةِ الثانيةِ ، وهيَ شهادةُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] :

وأنَّهُ بعثَ النبيَّ الأميَّ القرشيَّ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برسالتِهِ إلىٰ كافَّةِ العربِ والعجمِ ، والجنِّ والإنْسِ ، فنسخَ بشرعِهِ الشرائعَ إلا ما قرَّرَهُ منها ، وفضَّلَهُ علىٰ سائرِ الأنبياءِ ، وجعلَهُ سيِّدَ البشرِ ، ومنعَ كمالَ الإيمانِ بشهادةِ التوحيدِ ؛ وهوَ قوْلُ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ) ما لمْ تقترنْ بها شهادةُ الرسولِ ؛ وهوَ قولُكَ : (محمَّدٌ رسولُ اللهِ) .

وألزمَ الخلْقَ تصديقَهُ في جميعِ ما أخبرَ عنهُ منْ أمورِ الدنيا والآخرةِ ، وأنَّهُ لا يُتقبَّلُ إيمانُ عبدٍ حتَّىٰ يؤمنَ بما أخبرَ عنهُ بعدَ الموتِ ، وأوَّلُهُ سؤالُ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ ، وهما شخصانِ مهيبانِ هائلانِ ، يقعدانِ العبدَ في قبرِهِ سَوِيّاً ، ذا رُوحٍ وجسدٍ ، فيسألانِهِ عنِ التوحيدِ والرسالةِ ، ويقولانِ لهُ : مَنْ ربُّكَ ؟ وما دينُكَ ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟[2] وهما فتَّانا القبرِ ، وسؤالُهُما أوَّلُ فتنةٍ بعدَ الموتِ .

وأنْ يؤمنَ بعذابِ القبرِ ، وأنَّهُ حَقٌّ وحكمةٌ وعَدْلٌ[3] ، على الجسمِ والروحِ ، علىٰ ما يشاءُ .

وأنْ يُؤمنَ بالميزانِ ذي الكفَّتَينِ واللِّسانِ ، وصفَتُهُ في العظمِ أنَّهُ مثلُ طباقِ السماواتِ والأرضِ ، تُوزنُ فيهِ الأعمالُ

---

(١) أشار في « الإتحاف » (٣٤/٢) أن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان يمنع من هٰذا التعبير ، وإنما يقال : (رسول الله صلى الله عليه وسلم) لأنه أقرب للتعظيم وأكثر .

(٢) كما جاء ذٰلك عند الترمذي (٣١٢٠) .

(٣) وفي حَقِّيَّتِه روىٰ مسلم في « صحيحه » (٢٨٦٧) مرفوعاً : « إن هٰذه الأمة تبتلىٰ في قبورها ، فلولا ألا تدافنوا . . لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه » .

بقدرةِ اللهِ تعالىٰ ، والصَّنْجُ يومئذٍ مثاقيلُ الذرِّ والخردَلِ[1] ؛ تحقيقاً لتمامِ العدلِ ، فتُطرحُ صحائفُ الحسناتِ في صورةٍ حسنةٍ في كفَّةِ النورِ ، فيثقلُ بها الميزانُ علىٰ قدْرِ درجاتِها عندَ اللهِ بفضْلِ اللهِ ، وتُطرحُ صحائفُ السيئاتِ في صورةٍ قبيحةٍ في كفَّةِ الظلمةِ ، فيخفُّ بها الميزانُ بعدْلِ اللهِ .

وأنْ يُؤمنَ بأنَّ الصراطَ حقٌّ ، وهوَ جسْرٌ ممدودٌ علىٰ متنِ جهنَّمَ ، أَحَدُّ منَ السيفِ ، وأدقُّ مِنَ الشعْرةِ ، تَزِلُّ عليهِ أقدامُ الكافرينَ بحكمِ اللهِ سبحانَهُ ، فتهوي بِهِمْ إلى النارِ ، وتثبتُ عليهِ أقدامُ المؤمنينَ بفضلِ اللهِ ، فيُساقونَ إلىٰ دارِ القرارِ .

وأنْ يُؤمنَ بالحوضِ المورُودِ ؛ حوضِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، يشربُ منهُ المؤمنونَ قبلَ دخولِ الجنَّةِ وبعدَ جوازِ الصراطِ[2] ، مَنْ شربَ منهُ شَربةً . . لمْ يظمأْ بعدَها أبداً ، عرضُهُ مسيرةُ شَهْرٍ ، ماؤهُ أشدُّ بَيَاضاً مِنَ اللبنِ ، وأحلىٰ مِنَ العسلِ ، حولَهُ أباريقُ عددَ نجومِ السماءِ ، فيهِ ميزابانِ يصُبَّانِ مِنَ الكوثَرِ .

وأنْ يؤمنَ بالحسابِ ، وتفاوتِ النَّاسِ فيهِ إلىٰ مناقَشٍ في الحسابِ وإلىٰ مسامحٍ فيهِ ، وإلىٰ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ وهُمُ المقرَّبونَ ، فيسألُ اللهُ تعالىٰ مَنْ شاءَ مِنَ الأنبياءِ عنْ تبليغِ الرسالَةِ ، ومَنْ شاءَ منَ الكفَّارِ عنْ تكذيبِ المرسلينَ ، ويسألُ المبتدعةَ عَنِ السنَّةِ ، ويسْأَلُ المسلمينَ عنِ الأعمالِ .

وأنْ يؤمِنَ بإخراجِ الموحِّدينَ مِنَ النارِ بعدَ الانتقامِ ، حتَّىٰ لا يَبقىٰ في جهنَّمَ موحِّدٌ بفضْلِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يخلدُ في النارِ موحِّدٌ .

وأنْ يؤمِنَ بشفاعةِ الأنبياءِ[3] ، ثمَّ العلماءِ ، ثمَّ الشهداءِ ، ثمَّ سائرِ المؤمنينَ ، كلٌّ علىٰ حَسَبِ جَاهِهِ ومنزلتِهِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ومَنْ بقيَ مِنَ المؤمنينَ ولمْ يكنْ لهُ شفيعٌ . . أُخرجَ بفضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلا يخلدُ في النارِ مؤمنٌ ، بلْ يخرُجُ منها مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ .

وأنْ يعتقِدَ فضْلَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وترتيبَهُمْ ، وأنَّ أفضلَ الناسِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبو بكرٍ ، ثمَّ عمرُ ، ثمَّ عثمانُ ، ثمَّ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وأنْ يُحسنَ الظنَّ بجميعِ الصحابةِ ، ويُثنيَ عليهِمْ كما أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِمْ أجمعينَ .

فكلُّ ذٰلكَ ممَّا وردتْ بِهِ الأخبارُ ، وشهدتْ بِهِ الآثارُ ، فمنِ اعتقدَ جميعَ ذٰلكَ موقناً بهِ . . كانَ مِنْ أهلِ الحقِّ وعصابةِ السنَّةِ ، وفارقَ رَهْطَ الضلالِ وحزْبَ البدعةِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ كمالَ اليقينِ ، وحسنَ الثباتِ في الدينِ ، لنا ولكافَّةِ المسلمينَ برحمتِهِ ، إنَّهُ أرحمُ الراحمينَ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمدٍ وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

---

(١) الصَّنْجُ ـ ويقال : السَّنْجُ ـ : المثقال الذي يوزن به (وحدة الوزن) .

(٢) على الصحيح ، ولٰكن جهل تقدمه على الصراط أو تأخره عنه . . لا يضرُّ بالاعتقاد ، وإنما الواجب اعتقاد ثبوته . « إتحاف » (٢/٣٩) .

(٣) في (أ) : (الأنبياء ، ثم الأولياء . . .) .

الفَصْلُ الثَّاني
في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ في ترجمةِ العقيدةِ ينبغي أنْ يُقدَّمَ إلى الصبيِّ في أوَّلِ نشوئِهِ ليحفظَهُ حفظاً[1] ، ثمَّ لا يزالُ ينكشفُ لهُ معناهُ في كبرِهِ شيئاً فشيئاً ، فابتداؤُهُ الحفظُ ، ثمَّ الفهمُ ، ثمَّ الاعتقادُ والإيقانُ والتصديقُ بهِ ، وذٰلكَ ممَّا يحصلُ في الصبيِّ بغيرِ برهانٍ .

فمِنْ فضْلِ اللهِ سبحانَهُ علىٰ قلبِ الإنسانِ أنْ شرحَهُ في أوَّلِ نشوئِهِ للإيمانِ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ حجَّةٍ وبرهانٍ ، وكيفَ يُنكرُ ذٰلكَ وجميعُ عقائدِ العوامِّ مبادئُها التلقينُ المجرَّدُ والتقليدُ المحضُ ؟![2]

نعمْ ؛ يكونُ الاعتقادُ الحاصلُ بمجرَّدِ التقليدِ غيرَ خالٍ عنْ نوعٍ مِنَ الضعفِ في الابتداءِ ، علىٰ معنىٰ أنَّهُ يقبلُ الإزالةَ بنقيضِهِ لوْ أُلقيَ إليهِ ، ولا بدَّ مِنْ تقويتِهِ وإثباتِهِ في نفسِ الصبيِّ والعاميِّ حتَّىٰ يترسَّخَ ولا يتزلزلَ .

وليسَ الطريقُ في تقويتِهِ وإثباتِهِ أنْ يُعلَّمَ صنعةَ الجدلِ والكلامِ ، بلْ يشتغلُ بتلاوةِ القرآنِ وتفسيرِهِ ، وقراءةِ الحديثِ ومعانيهِ ، ويشتغلُ بوظائفِ العباداتِ ، فلا يزالُ اعتقادُهُ يزدادُ رسوخاً بما يقرعُ سمعَهُ منْ أدلَّةِ القرآنِ وحججِهِ ، وبما يردُ عليهِ مِنْ شواهدِ الأحاديثِ وفوائدِها ، وبما يسطعُ عليهِ مِنْ أنوارِ العباداتِ ووظائفِها ، وبما يسري إليهِ مِنْ مشاهدةِ الصالحينَ ومجالستِهِمْ ، وسيماهُمْ وسماعِهِمْ وهيئاتِهِمْ ؛ في الخضوعِ للهِ عزَّ وجلَّ ، والخوفِ منهُ ، والاستكانةِ لهُ ، فيكونُ أوَّلُ التلقينِ كإلقاءِ بذْرٍ في الصدْرِ ، وتكونُ هٰذه الأسبابُ كالسقْيِ والتربيةِ لهُ حتَّىٰ ينموَ ذٰلكَ البذرُ ويقوىٰ ويرتفعَ شجرةً طيِّبةً راسخةً ، أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ .

وينبغي أنْ يُحرَسَ سمعُهُ مِنَ الجدلِ والكلامِ غايةَ الحراسةِ ؛ فإنَّ ما يشوِّشُهُ الجدلُ أكثرُ ممَّا يمهِّدُهُ ، وما يفسدُهُ أكثرُ ممَّا يصلحُهُ ، بلْ تقويتُهُ بالجدَلِ تضاهي ضرْبَ الشجرةِ بالمِدقَّةِ مِنَ الحديدِ رجاءَ تقويتِها بأنْ تكتنزَ أجزاؤُها[3] ، وربَّما يفتِّتُها ذٰلكَ ويفسدُها ، وهوَ الأغلبُ ، والمشاهدةُ تكفيكَ في هٰذا بياناً ، وناهيكَ بالعِيانِ برهاناً .

فقسْ عقيدةَ أهلِ الصلاحِ والتقىٰ مِنْ عوامِّ الناسِ بعقيدةِ المتكلِّمينَ والمجادلينَ ؛ فترى اعتقادَ العاميِّ في الثباتِ كالطودِ الشامخِ ، لا تحرِّكُهُ الدواهي والصواعقُ ، وعقيدةَ المتكلِّمِ الحارسِ اعتقادَهُ بتقسيماتِ الجدلِ كخيطٍ مرسلٍ في الهواءِ تفيئُهُ الريحُ مرَّةً هٰكذا ومرَّةً هٰكذا ، إلَّا مَنْ سمعَ منهُمْ دليلَ الاعتقادِ فتلقَّفَهُ تقليداً كما تلقَّفَ نفسَ الاعتقادِ تقليداً ؛ إذْ لا فرقَ في التقليدِ بينَ تعلُّمِ الدليلِ أوْ تعلُّمِ المدلولِ ، فتلقينُ الدليلِ شيءٌ والاستدلالُ بالنظرِ شيءٌ آخرُ بعيدٌ عنهُ .

ثمَّ الصبيُّ إذا وقعَ نشوءُهُ علىٰ هٰذهِ العقيدةِ :

إنِ اشتغلَ بكسبِ الدنيا . . لمْ ينفتحْ لهُ غيرُها ، ولٰكنَّهُ يسلمُ في الآخرةِ باعتقادِ أهلِ الحقِّ ؛ إذْ لمْ يكلِّفِ الشرعُ

---

(١) يحفظه في صدره حفظاً يأمن به عن الإغفال عنه ، ويتمكن ذٰلك المحفوظ في باطنه حتىٰ يكون نقشاً على الحجر ولا يطرأ عليه ما يخالفه . « إتحاف » (٤٢/٢) .

(٢) في غير (ب) : (والتعليم المحض) .

(٣) في (ب) : (تكثرَ أجزاؤها) .

أجلافَ العربِ أكثرَ مِنَ التصديقِ الجازمِ بظاهرِ هٰذهِ العقائدِ ، فأمَّا البحثُ والتفتيشُ وتكلُّفُ نظْمِ الأدلَّةِ . . فلمْ يُكلِّفوهُ أصلاً .

وإنْ أرادَ أنْ يكونَ مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ ، وساعدَهُ التوفيقُ حتَّى اشتغلَ بالعملِ ، ولازمَ التقوىٰ ، ونهى النفسَ عنِ الهوىٰ ، واشتغلَ بالرياضةِ والمجاهدةِ . . انفتحَتْ لهُ أبوابٌ مِنَ الهدايةِ تكشفُ عنْ حقائقِ هٰذهِ العقيدةِ بنورٍ إلٰهيٍّ يُقذفُ في قلبِهِ بسببِ المجاهدةِ ؛ تحقيقاً لوعدِهِ عزَّ وجلَّ إذْ قالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾

وهوَ الجوهرُ النفيسُ الذي هوَ غايةُ إيمانِ الصدِّيقينَ والمقرَّبينَ ، وإليهِ الإشارةُ بالسرِّ الذي وقرَ في صدرِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ فضَلَ بهِ الخلقَ .

وانكشافُ ذٰلكَ السرِّ بلْ تلكَ الأسرارِ لهُ درجاتٌ بحسَبِ درجاتِ المجاهدةِ ودرجاتِ الباطنِ ؛ في النظافةِ والطهارةِ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ ، وفي الاستضاءةِ بنورِ اليقينِ ، وذٰلكَ كتفاوتِ الخلْقِ في أسرارِ الطبِّ والفقْهِ وسائرِ العلومِ ؛ إذْ يختلفُ ذٰلكَ باختلافِ الاجتهادِ واختلافِ الفطرةِ في الذكاءِ والفطنةِ ، وكما لا تنحصرُ تلكَ الدرجاتُ . . فكذٰلكَ هٰذهِ [1]

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ تعلمِ الجدلِ والكلامِ]

فإنْ قلتَ : تعلُّمُ الجدلِ والكلامِ مذمومٌ كتعلُّمِ النجومِ ، أوْ هوَ مباحٌ ، أوْ هوَ مندوبٌ إليهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ للناسِ في هٰذا غلواً وإسرافاً في أطرافٍ :

فمِنْ قائلٍ : إنَّهُ بدعةٌ وحرامٌ ، وإنَّ العبدَ إنْ لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ بكلِّ ذنبٍ سوى الشركِ . . خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يلقاهُ بالكلامِ .

ومِنْ قائلٍ : إنَّهُ واجبٌ وفرضٌ ؛ إمَّا على الكفايةِ ، أوْ على الأعيانِ ، وإنَّهُ أفضلُ الأعمالِ وأعلى القرباتِ ؛ فإنَّهُ تحقيقٌ لعلْمِ التوحيدِ ، ونضالٌ عنْ دينِ اللهِ تعالىٰ .

وإلى التحريمِ ذهبَ الشافعيُّ ومالكٌ وأحمدُ ابنُ حنبلٍ ، وسفيانُ ، وجميعُ أهلِ الحديثِ مِنَ السلفِ .

قالَ ابنُ عبدِ الأعلىٰ رحمهُ اللهُ : سمعتُ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ يومَ ناظرَ حَفْصاً الفرْدَ ـ وكانَ مِنْ متكلِّمي المعتزلةِ ـ يقولُ : (لأنْ يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ العبدُ بكلِّ ذنبٍ ما خلا الشرْكَ باللهِ . . خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يلقاهُ بشيءٍ مِنْ علمِ الكلامِ ، ولقدْ سمعتُ مِنْ حفصٍ كلاماً لا أقدرُ أنْ أحكيَهُ) [2]

وقالَ أيضاً : (قدِ اطلعتُ منْ أهلِ الكلامِ علىٰ شيءٍ ما ظننتُهُ قطُّ ، ولأنْ يُبتلى العبدُ بكلِّ ما نهى اللهُ عنهُ ما عدا الشركَ . . خيرٌ لهُ منْ أنْ ينظرَ في الكلامِ) [3]

وحَكَى الكرابيسيُّ أنَّ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ سُئِلَ عنْ شيءٍ منَ الكلامِ ، فغضبَ وقالَ : (سلْ عنْ هٰذا حَفْصاً الفردَ وأصحابَهُ أخزاهُمُ اللهُ) [4]

---

(١) والحاصل مما سبق من كلام المصنف : أن الصبيان والعوام لا ينبغي أن يلقنوا بأكثر مما ذكر في العقيدة المختصرة ؛ فإن فيها مقنعاً لهم ، وزجراً عن الوقوع فيما يضرُّهم . « إتحاف » (٢/٤٦) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٧٨٨) ، وما امتنع عن حكايته عنه هو قوله بخلْق القرآن .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١٧٨٩) .

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٠) .

ولمَّا مرضَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ . . دخلَ عليهِ حَفْصٌ الفردُ وقالَ : مَنْ أنا ؟ فقالَ : حفصٌ الفردُ ، لا حفظَكَ اللهُ ولا رعاكَ حتَّىٰ تتوبَ ممَّا أنتَ فيهِ[1]

وقالَ أيضاً : (لوْ علمَ الناسُ ما في الكلامِ مِنَ الأهواءِ . . لفرُّوا منهُ فرارَهُمْ مِنَ الأسدِ)[2]

وقالَ أيضاً : (إذا سمعتَ الرجلَ يقولُ : الاسمُ هوَ المسمَّىٰ ، أوْ غيرُ المسمَّىٰ . . فاشهدْ بأنَّهُ مِنْ أهلِ الكلامِ ولا دينَ لهُ)[3]

وقالَ الزعفرانيُّ : قالَ الشافعيُّ : (حكمي في أصحابِ الكلامِ أنْ يُضربوا بالجريدِ ، ويُطافَ بهِمْ في العشائرِ والقبائلِ ، ويقالَ : هـٰذا جزاءُ مَنْ تركَ الكتابَ والسنَّةَ وأخذَ في الكلامِ)[4]

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (لا يفلحُ صاحبُ الكلامِ أبداً ، ولا تكادُ ترىٰ أحداً نظرَ في الكلامِ إلَّا وفي قلبِهِ دَغَلٌ)[5] .

وبالغَ في ذمِّهِ حتَّىٰ هجرَ الحارثَ المحاسبيَّ معَ زهدِهِ وورعِهِ بسببِ تصنيفِهِ كتاباً في الردِّ على المبتدعةِ ، وقالَ لهُ : (ويحَكَ !! ألستَ تحكي بدعتَهُمْ أوَّلاً ثمَّ تردُّ عليهِمْ ؟! ألستَ تحملُ الناسَ بتصنيفِكَ علىٰ مطالعةِ البدعةِ والتفكُّرِ في تلكَ الشبهاتِ فيدعوهُمْ ذٰلكَ إلى الرأيِ والبحثِ ؟!)[6]

وقال أحمدُ رحمهُ اللهُ : (علماءُ الكلامِ زنادقةٌ)[7]

وقال مالكٌ رحمهُ اللهُ : (أرأيتَ إنْ جاءَهُ مَنْ هوَ أجدلُ منهُ . . أيدعُ دينَهُ كلَّ يومٍ لدينٍ جديدٍ ؟!) يعني : أنَّ أقوالَ المتجادلينَ تتقاومُ[8]

وقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ أيضاً : (لا تجوزُ شهادةُ أهلِ البدعِ والأهواءِ) ، فقالَ بعضُ أصحابِهِ في تأويلِهِ : إنَّهُ أرادَ بأهلِ الأهواءِ أهلَ الكلامِ علىٰ أيِّ مذهبٍ كانوا[9]

وقالَ أبو يوسفَ : (مَنْ طلبَ العلْمَ بالكلامِ . . تزندقَ)[10]

وقالَ الحسنُ : (لا تجالسوا أهلَ الأهواءِ ، ولا تجادلوهُمْ ، ولا تسمعوا منهُمْ)[11]

وقدِ اتفقَ أهلُ الحديثِ مِنَ السلفِ علىٰ هـٰذا ، ولا ينحصرُ ما نُقلَ عنهُمْ مِنَ التشديداتِ فيهِ ، وقالوا : ما سكتَ عنهُ الصحابةُ معَ أنَّهُمْ أعرفُ بالحقائقِ وأفصحُ بترتيبِ الألفاظِ مِنْ غيرِهِمْ . . إلَّا لعلمِهِمْ بما يتولَّدُ منهُ مِنَ الشرِّ ، ولذٰلكَ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩١) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٢) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٢) .

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٣) .

(٥) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٦) ، والدغل : الفساد .

(٦) وكلٌّ منهما من رؤساء الأئمة ، وهداة هـٰذه الأمة ، والظنُّ بالحارث أنه إنما تكلَّم حيث دعت الحاجة ، ولكل مقصد ، والله يرحمهما . « إتحاف » (٤٩/٢) .

(٧) قوت القلوب (١٣٨/١) .

(٨) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٢٩٤) ، والمعنىٰ : لا يعتمد علىٰ تلك الأقوال ؛ لكونها في معرض الإزالة بما هو أقوىٰ . « إتحاف » (٤٩/٢) .

(٩) جامع بيان العلم وفضله (١٨٠٠)

(١٠) قوت القلوب (١٣٩/١) .

(١١) رواه الدارمي في « سننه » (٤١٥) ، وكذا ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٨٠٣) .

قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلكَ المُتَنَطِّعُونَ ، هلكَ المتنطِّعونَ ، هلكَ المتنطِّعونَ »[1] ؛ أي : المتعمِّقونَ في البحثِ والاستقصاءِ .

واحتجُّوا أيضاً بأنَّ ذلكَ لوْ كانَ منَ الدينِ . . لكانَ ذلكَ أهمَّ ما يأمُرُ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويعلِّمُ طريقَهُ ، ويثني عليهِ وعلىٰ أربابِهِ ؛ فقدْ علَّمَهُمُ الاستنجاءَ[2] ، وندبَهُمْ إلىٰ حِفْظِ الفرائضِ وأثنىٰ عليهِمْ[3] ، ونهاهُمْ عنِ الكلامِ في القدَرِ وقالَ : « أمسكُوا »[4] .

وعلىٰ هـٰذا استمرَّ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهمْ ، فالزيادةُ على الأستاذِ طغيانٌ وظلمٌ ، وهمُ الأستاذونَ والقدوةُ ، ونحنُ الأتباعُ والتلامذةُ .

وأمَّا الفرقةُ الأخرىٰ : فاحتجُّوا بأنَّ المحذورَ مِنَ الكلامِ إنْ كانَ هوَ لفظَ الجوهرِ والعَرَضِ ، وهـٰذهِ الاصطلاحاتِ الغريبةَ التي لمْ تعهدْها الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ . . فالأمرُ فيهِ قريبٌ ؛ إذْ ما مِنْ علمٍ إلَّا وقدْ أُحدثَ فيهِ اصطلاحاتٌ لأجلِ التفهيمِ ؛ كالحديثِ والتفسيرِ والفقهِ ، ولوْ عُرِضَ عليهِمْ عبارةُ النقضِ والكسرِ والتركيبِ والتعديةِ وفسادِ الوضعِ إلىٰ جميعِ الأسئلةِ التي تُورَدُ على القياسِ . . لما كانوا يفهمونَهُ ، فإحداثُ عبارةٍ للدلالةِ بها علىٰ مقصودٍ صحيحٍ كإحداثِ آنيةٍ علىٰ هيئةٍ جديدةٍ لاستعمالِها في مباحٍ .

وإنْ كانَ المحذورُ هوَ المعنىٰ . . فنحنُ لا نعني بهِ إلَّا معرفةَ الدليلِ علىٰ حدوثِ العالمِ ووحدانيةِ الخالقِ وصفاتِهِ كما جاءَ بهِ الشرعُ ، فمنْ أينَ تحرمُ معرفةُ اللهِ تعالىٰ بالدليلِ ؟

وإنْ كانَ المحذورُ هوَ التشغُّبَ والتعصُّبَ والعداوةَ والبغضاءَ وما يفضي إليهِ الكلامُ . . فذلكَ محرَّمٌ ، ويجبُ الاحترازُ عنهُ ؛ كما أنَّ الكبْرَ والعجبَ والرياءَ وطلبَ الرئاسةِ ممَّا يفضي إليه علمُ الحديثِ والتفسيرِ والفقهِ ، وهوَ محرَّمٌ يجبُ الاحترازُ عنهُ ، ولـٰكنْ لا يمنعُ منَ العلمِ لأجلِ أدائِهِ إليهِ ، وكيفَ يكونُ ذكرُ الحجَّةِ والمطالبةُ بها والبحثُ عنها محظوراً وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ﴾ ، أيْ : حجةٍ وبرهانٍ ، وقالَ : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ ؛ إذْ ذكرَ سبحانَهُ احتجاجَ إبراهيمَ ومجادلتَهُ وإفحامَهُ خصمَهُ في معرضِ الثناءِ عليهِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ فِرعونَ : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟!

وعلى الجملةِ : فالقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ محاجَّةٌ معَ الكفارِ ، فعمدةُ أدلَّةِ المتكلمينَ في التوحيدِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ، وفي النبوةِ : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ ، وفي البعثِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . . . إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ والأدلَّةِ .

ولمْ تزلِ الرسلُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ يحاجُّونَ المنكرينَ ويجادلونَهُمْ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٠) .

(٢) كما في « مسلم » (٢٦٢) .

(٣) كما في « الترمذي » (٢٠٩١) ، وابن ماجه (٢٧١٩) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٩٦/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٨/٤) .

والصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ أيضاً كانوا يحاجُّونَ المنكرينَ ويجادلونَ ولكنْ عندَ الحاجةِ ، وكانتِ الحاجةُ إليهِ قليلةً في زمانِهِمْ .

وأوَّلُ مَنْ سنَّ دعوةَ المبتدعةِ بالمجادلةِ إلى الحقِّ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذْ بعثَ ابنَ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما إلى الخوارجِ يكلِّمُهُمْ ، فقالَ : ما تنقمونَ على إمامِكمْ ؟ قالوا : قاتلَ ولمْ يسبِ ولمْ يغنمْ ، قالَ : ذلكَ في قتالِ الكفَّارِ ، أرأيتُمْ لوْ سُبيَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها في يومِ الجملِ ، فوقعتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها في سهمِ أحدِكُمْ ، أكنتمْ تستحلُّونَ منْها ما تستحلُّونَ مِنْ ملكِكُمْ وهيَ أمُّكُمْ في نصِّ الكتابِ ؟ فقالوا : لا ، ورجعَ منهُمْ إلى الطاعةِ بمجادلتِهِ ألفانِ[1]

ورُوِيَ أنَّ الحسنَ ناظرَ قدرياً فرجعَ عنِ القدَرِ .

وناظرَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ رجلاً مِنَ القدريَّةِ .

وناظرَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ يزيدَ بنَ عَميرةَ في الإيمانِ ، قال عبدُ اللهِ : لوْ قلتُ : إنِّي مؤمنٌ . . لقلتُ : إنِّي في الجنَّةِ ، فقالَ لهُ يزيدُ بنُ عَميرةَ : يا صاحبَ رسولِ اللهِ ؛ هٰذهِ زلَّةٌ منكَ ، وهلِ الإيمانُ إلَّا أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ والبعثِ والميزانِ ، وتقيمَ الصلاةَ والصومَ والزكاةَ ، ولنا ذنوبٌ لوْ نعلمُ أنَّها تُغفرُ لنا . . لعلِمْنا أنَّا مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، فمنْ أجلِ ذٰلكَ نقولُ : إنَّا مؤمنونَ ، ولا نقولُ : إنَّا مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، فقالَ ابنُ مسعودٍ : صدقتَ واللهِ ؛ إنَّها منِّي زلَّةٌ[2]

يبقىٰ أنْ يقالَ : كانَ خوضُهُمْ فيهِ قليلاً لا كثيراً ، وقصيراً لا طويلاً ، وعندَ الحاجةِ لا بطريقِ التصنيفِ والتدريسِ واتخاذِهِ صناعةً ، فيقالُ :

أمَّا قلَّةُ خوضِهِمْ فيهِ . . فإنَّه كانَ لقلَّةِ الحاجةِ ؛ إذْ لمْ تكنِ البدعةُ تظهرُ في ذٰلكَ الزمانِ .

وأمَّا القصرُ . . فقدْ كانَ الغايةُ إفحامَ الخصمِ واعترافَهُ وانكشافَ الحقِّ وإزالةَ الشبهةِ ، فلوْ طالَ إشكالُ الخصمِ أوْ لجاجُهُ . . لطالَ ـ لا محالةَ ـ إلزامُهُمْ ، وما كانوا يقدرونَ قدْرَ الحاجةِ بميزانٍ ولا مكيالٍ بعدَ الشروعِ فيها

وأمَّا عدمُ تصدِّيهِمْ للتدريسِ والتصنيفِ فيهِ . . فهٰكذا كانَ في الفقهِ والتفسيرِ والحديثِ أيضاً ، فإنْ جازَ تصنيفُ الفقهِ ووضعُ الصورِ النادرةِ التي لا تتَّفقُ إلا على الندورِ ؛ إمَّا ادِّخاراً ليومِ وقوعِها وإنْ كانَ نادراً ، أوْ تشحيذاً للخواطرِ . . فنحنُ أيضاً نرتِّبُ طرقَ المحاجَّةِ لتوقُّعِ وقوعِ الحاجةِ بثورانِ شبهةٍ ، أوْ هيجانِ مبتدعٍ ، أوْ لتشحيذِ الخاطرِ ، أوْ لادِّخارِ الحجَّةِ حتَّىٰ لا يعجزَ عنها عندَ الحاجةِ على البديهةِ والارتجالِ ؛ كمَنْ يعدُّ السلاحَ قبلَ القتالِ ليومِ القتالِ .

فهٰذا ما يمكنُ أنْ يُذكرَ للفريقينِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما المختارُ فيهِ عندَكَ ؟

فاعلمْ : أنَّ الحقَّ فيهِ أنَّ إطلاقَ القولِ بذمِّهِ في كلِّ حالٍ أوْ بحمدِهِ في كلِّ حالٍ . . خطأٌ ، بلْ لا بدَّ فيهِ منْ تفصيلٍ .

فاعلمْ أوَّلاً : أنَّ الشيءَ قدْ يحرمُ لذاتِهِ ؛ كالخمرِ والميتةِ ، وأعني بقولي : (لذاتِهِ) أنَّ علَّةَ تحريمِهِ وصْفٌ في ذاتِهِ ،

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٨٣٤) مختصراً ، وهو عند أبي نعيم في « الحلية » (٣١٨/١) .
(٢) انظر « تاريخ دمشق » (٤٦١/١١) .

وهوَ الإسكارُ والموتُ ، وهـٰذا إذا سُئِلْنا عنهُ . . أطلقْنا القولَ بأنَّهُ حرامٌ ، ولا يلتفتُ إلىٰ إباحةِ الميتةِ عندَ الاضطرارِ ، وإباحةِ تجرُّعِ الخمْرِ إذا غصَّ الإنسانُ بلقمةٍ ولمْ يجدْ ما يسيغُها سوى الخمرِ [١] .

وإلىٰ ما يحرمُ لغيرِهِ ؛ كالبيعِ علىٰ بيعِ أخيكَ المسلمِ في وقتِ الخيارِ ، والبيعِ وقتَ النداءِ ، وكأكْلِ الطينِ ؛ فإنَّهُ يحرمُ لما فيهِ منَ الإضرارِ .

وهـٰذا ينقسمُ إلىٰ ما يضرُّ قليلُهُ وكثيرُهُ ، فيُطلقُ القولُ عليهِ بأنَّهُ حرامٌ ؛ كالسمِّ الذي يقتلُ قليلُهُ وكثيرُهُ ، وإلىٰ ما يضرُّ عندَ الكثرةِ ، فيُطلقُ القولُ عليهِ بالإباحةِ ؛ كالعسلِ ، فإنَّ كثيرَهُ يضرُّ بالمحرورِ ، وكأكْلِ الطينِ ، وكأنَّ إطلاقَ التحريمِ على الطينِ والخمرِ ، والتحليلِ على العسلِ . . التفاتٌ إلىٰ أغلبِ الأحوالِ .

فإنْ تصدَّىٰ شيءٌ تقابلَتْ فيهِ الأحوالُ . . فالأولىٰ والأبعدُ عنِ الالتباسِ أنْ يُفصَّلَ .

❀ ❀ ❀

فنعودُ إلىٰ علْمِ الكلامِ ونقولُ : إنَّ فيهِ منفعةً وفيهِ مضرَّةً ، فهوَ باعتبارِ منفعتِهِ في وقتِ الانتفاعِ حلالٌ أوْ مندوبٌ إليهِ أوْ واجبٌ كما يقتضيهِ الحالُ ، وهوَ باعتبارِ مضرَّتِهِ في وقتِ الاستضرارِ ومحلِّهِ حرامٌ .

أمَّا مضرَّتُهُ : فإثارةُ الشبهاتِ ، وتحريكُ العقائدِ ، وإزالتُها عنِ الجزمِ والتصميمِ ، فذٰلكَ ممَّا يحصلُ في الابتداءِ ، ورجوعُها بالدليلِ مشكوكٌ فيهِ ، ويختلفُ فيهِ الأشخاصُ ، فهـٰذا ضررُهُ في الاعتقادِ الحقِّ .

ولهُ ضررٌ آخرُ في تأكيدِ اعتقادِ المبتدعةِ للبدعةِ وتثبيتِهِ في صدورِهِمْ ، بحيثُ تنبعثُ دواعيهِمْ ويشتدُّ حرصُهُمْ على الإصرارِ عليهِ ، ولـٰكنَّ هـٰذا الضررَ بواسطةِ التعصُّبِ الذي يثورُ منَ الجدلِ ، ولذٰلكَ ترى المبتدعَ العاميَّ يمكنُ أنْ يزولَ اعتقادُهُ باللطْفِ في أسرعِ زمانٍ ، إلَّا إذا كانَ نشوءُهُ في بلدٍ يظهرُ فيهِ الجدلُ والتعصُّبُ ؛ فإنَّهُ لوِ اجتمعَ عليهِ الأوَّلونَ والآخِرونَ . . لمْ يقدروا علىٰ نزعِ البدعةِ مِنْ صدرِهِ ، بلِ الهوىٰ والتعصُّبُ وبغضُ خصومِهِ المجادلينَ وفرقةِ المخالفينَ يستولي علىٰ قلبِهِ ويمنعُهُ منْ إدراكِ الحقِّ ، حتَّىٰ لوْ قيلَ لهُ : هلْ تريدُ أنْ يكشفَ اللهُ تعالىٰ لكَ الغطاءَ فيعرِّفَكَ بالعِيانِ أنَّ الحقَّ معَ خصمِكَ . . لكرِهَ ذٰلكَ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يفرحَ بهِ خصمُهُ ، وهـٰذا هوَ الداءُ العضالُ الذي استطارَ في البلادِ والعبادِ ، وهوَ نوعُ فسادٍ أثارَهُ المجادلونَ بالتعصُّبِ [٢] .

فهـٰذا ضررُهُ .

وأمَّا منفعتُهُ : فقدْ يُظنُّ أنَّ فائدتَهُ كشفُ الحقائقِ ومعرفتُها علىٰ ما هيَ عليهِ ، وهيهاتَ !! فليسَ في الكلامِ وفاءٌ بهـٰذا المطلبِ الشريفِ ، ولعلَّ التخبيطَ والتضليلَ فيهِ أكثرُ مِنَ الكشْفِ والتعريفِ ، وهـٰذا إذا سمعتَهُ مِنْ محدِّثٍ أوْ حشْويٍّ . . ربَّما خطرَ ببالِكَ أنَّ الناسَ أعداءُ ما جهلوا ؛ فاسمعْ هـٰذا ممَّنْ خَبرَ الكلامَ ثمَّ قلاهُ بعدَ حقيقةِ الخبرةِ ، وبعدَ التغلغلِ فيهِ إلىٰ منتهىٰ درجةِ المتكلِّمينَ ، وجاوزَ ذٰلكَ إلى التعمُّقِ في علومٍ أُخَرَ تناسبُ نوعَ الكلامِ ، وتحقَّقَ أنَّ الطريقَ إلىٰ حقائقِ المعرفةِ منْ هـٰذا الوجهِ مسدودٌ .

ولعمري ؛ لا ينفكُّ الكلامُ عنْ كشفٍ وتعريفٍ وإيضاحٍ لبعضِ الأمورِ ـ ولـٰكنْ على الندورِ ـ في أمورٍ جليَّةٍ تكادُ

---

(١) وكأن هـٰذا جواب عن سؤال مقدر بقول القائل : كيف يجوز إطلاق القول فيهما بالحرمة مع أنهما يباحان في وقت ؟ فأجاب بأن ذٰلك نادر ، ولا حكم للنادر . « إتحاف » (٥٧/٢) .

(٢) انظر « الاقتصاد في الاعتقاد » للمصنف (ص ٧٧) .

تُفهمُ قبلَ التعمُّقِ في صنعةِ الكلامِ ، بلْ منفعتُهُ شيءٌ واحدٌ ؛ وهوَ حراسةُ العقيدةِ التي ترجمناها على العوامِّ ، وحفظُها عنْ تشويشاتِ المبتدعةِ بأنواعِ الجدلِ ؛ فإنَّ العاميَّ ضعيفٌ يستفزُّهُ جدلُ المبتدعِ وإنْ كانَ فاسداً ، ومعارضةُ الفاسدِ بالفاسدِ تدفعُهُ ، والناسُ متعبَّدونَ بهـٰذهِ العقيدةِ التي قدَّمْناها ؛ إذْ وردَ الشرعُ بها لما فيها مِنْ صلاحِ دينِهِمْ ودنياهُمْ ، وأجمعَ السلفُ الصالحُ عليها ، والعلماءُ متعبَّدونَ بحفظِها على العوامِّ مِنْ تلبيساتِ المبتدعةِ ، كما تُعبِّدَ السلاطينُ بحفظِ أموالِهِمْ عَنْ تهجُّماتِ الظلمةِ والغصَّابِ .

وإذا وقعتِ الإحاطةُ بضررِهِ ومنفعتِهِ . . فينبغي أنْ يكونَ كالطبيبِ الحاذقِ في استعمالِ الدواءِ الخطرِ ؛ إذْ لا يضعُهُ إلَّا في موضعِهِ ، وذٰلكَ في وقتِ الحاجةِ ، وعلىٰ قدْرِ الحاجةِ .

وتفصيلُهُ : أنَّ العوامَّ المشغولينَ بالحرَفِ والصناعاتِ يجبُ أنْ يُتركوا علىٰ سلامةِ عقائِدِهِمُ التي اعتقدوها مهما تلقَّنوا الاعتقادَ الحقَّ الذي ذكرناهُ ؛ فإنَّ تعليمَهُمُ الكلامَ ضررٌ محضٌ في حقِّهِمْ ؛ إذْ ربَّما يثيرُ لهُمْ شكّاً ، ويزلزلُ عليهِمُ الاعتقادَ ، ولا يمكنُ القيامُ بعدَ ذٰلكَ بالإصلاحِ .

وأمَّا العاميُّ المعتقدُ للبدعةِ . . فينبغي أنْ يُدعىٰ إلى الحقِّ بالتلطُّفِ لا بالتعصُّبِ ، وبالكلامِ اللطيفِ المقنعِ للنفسِ المؤثِّرِ في القلبِ ، القريبِ مِنْ سياقِ أدلَّةِ القرآنِ والحديثِ ، الممزوجِ بفنِّ الوعْظِ والتحذيرِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ أنفعُ مِنَ الجدلِ الموضوعِ علىٰ شرطِ المتكلِّمينَ ؛ إذِ العاميُّ إذا سمعَ ذٰلكَ . . اعتقدَ أنَّهُ نوعُ صنعةٍ مِنَ الجدلِ تعلَّمَها المتكلِّمُ ليستدرجَ الناسَ إلى اعتقادِهِ ، فإنْ عجزَ عنِ الجوابِ . . قدَّرَ أنَّ المجادلينَ مِنْ أهلِ مذهبِهِ أيضاً يقدرونَ علىٰ دفعِهِ .

فالجدلُ معَ هـٰذا ومعَ الأوَّلِ حرامٌ ، وكذا معَ مَنْ وقعَ لهُ شكٌّ ، إذْ يجبُ إزالتُهُ باللطفِ والوعظِ ، والأدلَّةِ القريبةِ المقبولةِ ، البعيدةِ عنْ تعمُّقِ الكلامِ .

واستقصاءُ الجدلِ إنَّما ينفعُ في موضعٍ واحدٍ ؛ وهوَ أنْ يُفرضَ عاميٌّ اعتقدَ البدعةَ بنوعِ جدلٍ سمعَهُ ، فيُقابلُ ذٰلكَ الجدلُ بمثلِهِ ، فيعودُ إلى اعتقادِ الحقِّ ، وذٰلكَ فيمنْ ظهرَ لهُ مِنَ الأنسِ بالمجادلةِ ما يمنعُهُ عنِ القناعةِ بالمواعظِ والتحذيراتِ العاميَّةِ ، فقدِ انتهىٰ هـٰذا إلىٰ حالةٍ لا يشفيهِ إلا دواءُ الجدلِ ، فجازَ أنْ يُلقىٰ إليهِ .

وهـٰذا في بلادٍ تقلُّ فيها البدعةُ ، ولا تختلفُ فيها المذاهبُ ، فيُقتصرُ فيها علىٰ ترجمةِ الاعتقادِ الذي ذكرناهُ ، ولا يُتعرَّضُ للأدلَّةِ ، ويُتربَّصُ وقوعُ شبهةٍ ، فإنْ وقعتْ . . ذُكرَ بقدْرِ الحاجةِ .

فإنْ كانتِ البدعةُ شائعةً ، وكانَ يخافُ على الصبيانِ أنْ يُخدعوا . . فلا بأسَ أنْ يُعلَّموا القدْرَ الذي أودعناه كتابَ « الرسالةُ القدسيةُ » ؛ ليكونَ ذٰلكَ سبباً لدفعِ تأثيرِ مجادلاتِ البدعةِ إنْ وقعتْ إليهِمْ ، وهـٰذا مقدارٌ مختصرٌ ، وقدْ أودعناهُ هـٰذا الكتابَ لاختصارِهِ[1]

فإنْ كانَ فيهِ ذكاءٌ وتنبَّهَ بذكائِهِ لموضعِ سؤالٍ ، أوْ ثارَ في نفسِهِ شبهةٌ . . فقدْ بدتِ العلَّةُ المحذورةُ ، وظهرَ الداءُ ، فلا بأسَ أنْ يرقىٰ منهُ إلى القدْرِ الذي ذكرناهُ في كتابِ « الاقتصادُ في الاعتقادِ » ، وهوَ قدْرُ خمسينَ ورقةً ، وليسَ فيهِ خروجٌ عنِ النظرِ في قواعدِ العقائدِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ مباحثِ المتكلِّمينَ[2]

---

(١) و« الرسالة القدسية » هي الفصل الثالث من هـٰذا الكتاب الذي نحن فيه ، وهي شرح للعقيدة المجملة المتقدمة في الفصل الأول .

(٢) و« الاقتصاد » يمكن عدُّه شرحاً لـ « الرسالة القدسية » وإن تقدم في التصنيف ، قال الحافظ الزبيدي فيه : (وهو كتاب جليل ، وشرحه غير واحد من الأئمة) . « إتحاف » (٦١/٢) .

فإنْ أقنعَهُ ذٰلكَ . . كفَّ عنهُ ، وإنْ لمْ يشفِهِ ذٰلكَ . . فقدْ صارتِ العلَّةُ مزمنةً ، والداءُ غالباً ، والمرضُ سارياً ، فليتلطفْ بهِ الطبيبُ بقدْرِ إمكانِهِ ، وينتظرْ قضاءَ اللهِ تعالىٰ فيهِ ، إلىٰ أنْ ينكشفَ لهُ الحقُّ بتنبيهٍ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، أوْ يستمرَّ على الشكِّ والشبهةِ إلىٰ ما قُدِّرَ لهُ .

فالقدْرُ الذي يحويهِ ذٰلكَ الكتابُ وجنسُهُ مِنَ المصنَّفاتِ هوَ الذي يُرجىٰ نفعُهُ .

فأمَّا الخارجُ عنهُ . . فقسمانِ :

أحدُهُما : بحثٌ عنْ غيرِ قواعدِ العقائدِ ؛ كالبحثِ عنِ الاعتماداتِ والأكوانِ [1] ، وعنِ الإدراكاتِ ، والخوضِ في أنَّ الرؤيةَ : هلْ لها ضدٌّ يُسمَّى المنعَ أوِ العمىٰ ، وإنْ كانَ . . فذٰلكَ واحدٌ هوَ منعٌ عنْ جميعِ ما لا يرىٰ ، أوْ يثبتُ لكلِّ مرئيٍّ يمكنُ رؤيتُهُ منعٌ بحسَبِ عددِهِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الترَّهاتِ المضلِّلةِ .

والقسمُ الثاني : زيادةُ تقريرٍ لتلكَ الأدلَّةِ في غيرِ تلكَ القواعدِ ، وزيادةُ أسئلةٍ وأجوبةٍ ، وذٰلكَ أيضاً استقصاءٌ لا يزيدُ إلا ضلالاً وجهلاً في حقِّ مَنْ لمْ يقنعْهُ ذٰلكَ القدْرُ ، فربَّ كلامٍ يزيدُهُ الإطنابُ والتقريرُ غموضاً .

ولوْ قالَ قائلٌ : البحثُ عنْ حكْمِ الإدراكاتِ والاعتماداتِ فيهِ فائدةُ تشحيذِ الخواطرِ ، والخاطرُ آلةُ الدينِ ؛ كالسيفِ آلةُ الجهادِ ، فلا بأسَ بتشحيذِهِ . . كانَ كقولِهِ : لعبُ الشطرنجِ يشحذُ الخاطرَ ؛ فهوَ مِنَ الدينِ ، وذٰلكَ هوسٌ ؛ فإنَّ الخاطرَ ينشحذُ بسائرِ علومِ الشرعِ ، ولا يُخافُ منها مضرةٌ .

فقدْ عرفتَ بهٰذا القدْرَ المذمومَ والقدرَ المحمودَ منَ الكلامِ ، والحالَ التي يُذمُّ فيها ، والحالَ التي يُحمدُ فيها ، والشخصَ الذي ينتفعُ بهِ ، والذي لا ينتفعُ بهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : مهما اعترفتَ بالحاجةِ إليهِ في دفْعِ المبتدعِ ، والآنَ قدْ ثارتِ البدعُ ، وعمَّتِ البلوىٰ ، وأرهقتِ الحاجةُ [2] . . فلا بدَّ وأنْ يصيرَ القيامُ بهٰذا العلمِ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ كالقيامِ بحراسةِ الأموالِ وسائرِ الحقوقِ بالقضاءِ والولايةِ وغيرِهِما ، وما لمْ يشتغلِ العلماءُ بنشرِ ذٰلكَ والتدريسِ فيهِ والبحثِ عنهُ . . لا يدومُ ، ولوْ تُركَ بالكلِّيَّةِ . . لاندرسَ ، وليسَ في مجرَّدِ الطباعِ كفايةٌ لحلِّ شبَهِ المبتدعةِ ما لمْ يتعلَّمْ ، فينبغي أنْ يكونَ التدريسُ فيهِ أيضاً مِنْ فروضِ الكفاياتِ ، بخلافِ زمانِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ فإنَّ الحاجةَ ما كانتْ مَاسَّةً إليهِ .

فاعلمْ : أنَّ الحقَّ أنَّهُ لا بدَّ في كلِّ بلدٍ مِنْ قائمٍ بهٰذا العلمِ ، مستقلٍّ بدفْعِ شبهِ المبتدعةِ التي ثارتْ في تلكَ البلدةِ ، وذٰلكَ يدومُ بالتعليمِ ، ولٰكنْ ليسَ مِنَ الصوابِ تدريسُهُ على العمومِ كتدريسِ الفقهِ والتفسيرِ ؛ فإنَّ هٰذا مثلُ الدواءِ ، والفقهَ مثلُ الغذاءِ ، وضررُ الغذاءِ لا يحذرُ ، وضررُ الدواء محذورٌ لما ذكرنا فيهِ مِنْ أنواعِ الضررِ .

❁ ❁ ❁

فالعالمُ بهِ ينبغي أنْ يخصِّصَ بتعليمِ هٰذا العلمِ مَنْ فيهِ ثلاثُ خصالٍ :

إحداها : التجرُّدُ للعلمِ والحرصُ عليهِ ؛ فإنَّ المحترفَ يمنعُهُ الشغلُ عنِ الاستتمامِ وإزالةِ الشكوكِ إذا عرضتْ .

---

(١) **والاعتمادات** كقول أبي هاشم : إن الموجب لهويّ الثقيل هو الاعتماد دون الحركة ، ذكره في مسألة التولد ، **والأكوان** ـ جمع كون ـ وهو استحالة جوهر ما إلىٰ ما هو أشرف منه ، ويقابله الفساد ، وهو استحالة جوهر ما إلىٰ ما هو دونه ، ولهم في الكون إطلاقات أخر . « إتحاف » (٢/٦١) .

(٢) أي : دنت وقرب وقوعها

والثانيةُ : الذكاءُ والفطنةُ والفصاحةُ ؛ فإنَّ البليدَ لا ينتفعُ بفهمِهِ ، والفَدْمَ لا ينتفعُ بحجاجِهِ[1] ، فيُخافُ عليهِ مِنْ ضررِ الكلامِ ، ولا يُرجىٰ فيهِ نفعُهُ .

والثالثةُ : أنْ يكونَ في طبعِهِ الصلاحُ والديانةُ والتقوىٰ ، ولا تكونَ الشهواتُ غالبةً عليهِ[2] ؛ فإنَّ الفاسقَ بأدنىٰ شبهةٍ ينخلعُ عنِ الدينِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يحُلُّ عنهُ الحجْرَ ويرفعُ السدَّ بينَهُ وبينَ الملاذِّ ، فلا يحرصُ علىٰ إزالةِ الشبهةِ ، بلْ يغتنمُها ليتخلَّصَ منْ أعباءِ التكليفِ ، فيكونُ ما يفسدُهُ مثلُ هٰذا المتعلِّمِ أكثرَ ممَّا يصلحُهُ .

وإذا عرفتَ هٰذهِ الانقساماتِ . . اتَّضحَ لكَ أنَّ الحجَّةَ المحمودةَ في الكلامِ إنَّما هيَ مِنْ جنسِ حججِ القرآنِ منَ الكلماتِ اللطيفةِ المؤثِّرةِ في القلوبِ ، المقنعةِ للنفوسِ ، دونَ التغلغلِ في التقسيماتِ والتدقيقاتِ التي لا يفهمُها أكثرُ الناسِ ، وإذا فهموها . . اعتقدوا أنَّها شعوذةٌ وصنعةٌ تعلَّمَها صاحبُها للتلبيسِ ، فإذا قابلَهُ مثلُهُ في الصنعةِ . . قاومَهُ .

وعرفتَ أنَّ الشافعيَّ وكافةَ السلفِ إنَّما منعوا عنِ الخوضِ فيهِ والتجرُّدِ لهُ لما فيهِ مِنَ الضررِ الذي نبهْنا عليهِ ، وأنَّ ما نُقلَ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما مِنْ مناظرةِ الخوارجِ ، وما نُقلَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ مِنَ المناظرةِ في القدَرِ وغيرِهِ . . كانَ مِنَ الكلامِ الجليِّ الظاهرِ وفي محلِّ الحاجةِ ، وذٰلكَ محمودٌ في كلِّ حالٍ .

نعمْ ؛ قدْ تختلفُ الأعصارُ في كثرةِ الحاجةِ وقلَّتِها ، فلا يبعدُ أنْ يختلفَ الحكمُ لذٰلكَ .

فهٰذا حكمُ هٰذهِ العقيدةِ التي تُعبِّدَ الخلقُ بها ، وحكمُ طريقِ النضالِ عنْها وحفظِها ، فأمَّا إزالةُ الشبهةِ ، وكشفُ الحقائقِ ، ومعرفةُ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ ، ودرْكُ الأسرارِ التي يترجمُها ظاهرُ ألفاظِ هٰذهِ العقيدةِ . . فلا مفتاحَ لهُ إلَّا المجاهدةُ ، وقمعُ الشهواتِ ، والإقبالُ بالكلِّيَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، وملازمةُ الفكْرِ الصافي عنْ شوائبِ المجادلاتِ ، وهيَ رحمةٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ تفيضُ علىٰ مَنْ يتعرَّضُ لنفحاتِها بقدْرِ الرزقِ وبحسَبِ التعرُّضِ ، وبقدْرِ قَبولِ المحلِّ وطهارةِ القلبِ ، وذٰلكَ البحرُ الذي لا يُدركُ غورُهُ ولا يُبلغُ ساحلُهُ .

مَسْأَلَةٌ

[هلْ هناكَ عقيدةٌ ظاهرةٌ وعقيدةٌ باطنةٌ ؟]

فإنْ قلتَ : هٰذا الكلامُ يشيرُ إلىٰ أنَّ هٰذهِ العلومَ لها ظواهرُ وأسرارٌ ، وبعضُها جليٌّ يبدو أوَّلاً ، وبعضُها خفيٌّ يتَّضحُ بالمجاهدةِ والرياضةِ والطلبِ الحثيثِ والفكْرِ الصافي والسرِّ الخالي عنْ كلِّ شيءٍ مِنْ أشغالِ الدنيا سوى المطلوبِ ، وهٰذا يكادُ يكونُ مخالفاً للشرعِ ؛ إذْ ليسَ للشرعِ ظاهرٌ وباطنٌ ، وسرٌّ وعلنٌ ، بلِ الظاهرُ والباطنُ والسرُّ والعلنُ واحدٌ ؟

فاعلمْ : أنَّ انقسامَ هٰذهِ العلومِ إلىٰ خفيَّةٍ وجليَّةٍ لا ينكرُها ذو بصيرةٍ ، وإنَّما ينكرُها القاصرونَ الذينَ تلقَّنوا في أوَّلِ الصبا شيئاً وجَمَدوا عليهِ ، فلمْ يكنْ لهمْ ترقٍّ إلىٰ شأوِ العلا ، ومقاماتِ العلماءِ والأولياءِ ، وذٰلكَ ظاهرٌ مِنْ أدلَّةِ الشرعِ :

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للقرآنِ ظاهراً وباطناً ، وحَدّاً ومَطلعاً »[3]

---

(١) الفدم : العييُّ عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم .

(٢) وفي معنى (الشهوات) : التعصبات للمذاهب والمباهاة بالمعارف . « إتحاف » (٦٣/٢) .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٥) بلفظ : « أنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف ، لكل آية منها ظهر وبطن » ، وهو عند عبد الرزاق في « المصنف » (٥٩٦٥) بلفظ : (والذي نفسي بيده ؛ ما منه آية إلا ولها ظهر وبطن ، وما فيه حرف إلا وله حد ، ولكل حد مطلع) من قول الحسن ، ولفظ المصنف هنا عند صاحب « القوت » (٥١/١) . وقال : (فنقول : فظهره لأهل العربية ، وباطنه لأهل اليقين ، وحده لأهل الظاهر ، ومطلعه

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وأشارَ إلىٰ صدرِهِ : (إنَّ ها هنا علوماً جمَّةً لوْ وجدتُ لها حملةً)[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نحنُ معاشرَ الأنبياءِ أُمرْنا أنْ نُكلِّمَ الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حدَّثَ أحدٌ قوماً بحديثٍ لمْ تبلغْهُ عقولُهُمْ إلَّا كانَ فتنةً عليهِمْ »[٣]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنَ العلمِ كهيئةِ المكنونِ ، لا يعلمُهُ إلَّا العالمونَ باللهِ تعالىٰ . . . » الحديثَ إلىٰ آخرِهِ[٤] ، كما أوردناهُ في (كتاب العلمِ) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً »[٥]

فليتَ شعري ؛ إنْ لمْ يكنْ ذٰلكَ سرّاً منعَ مِنْ إفشائِهِ لقصورِ الأفهامِ عنْ إدراكِهِ ، أوْ لمعنىً آخرَ . . فلمَ لمْ يذكرْهُ لهمْ ولا شكَّ أنَّهُمْ كانوا يصدِّقونَهُ لوْ ذكرَهُ لهمْ ؟!

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ : (لوْ ذكرتُ تفسيرَهُ . . لرجمتموني) ، وفي لفظٍ آخرَ : (لقلتمْ : إنَّهُ كافرٌ)[٦]

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (حفظتُ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعاءَيْنِ ، أمَّا أحدُهُما . . فبثَثْتُهُ ، وأمَّا الآخرُ لو بثَثْتُهُ . . لقُطِعَ هٰذا الحلقومُ)[٧]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما فضلَكُمْ أبو بكرٍ بكثرةِ صيامٍ ولا صلاةٍ ، ولٰكنْ بسرٍّ وقرَ في صدرِهِ »[٨] ، ولا شكَّ في أنَّ ذٰلكَ السرَّ كانَ متعلِّقاً بقواعدِ الدينِ غيرَ خارجٍ منها ، وما كانَ منْ قواعدِ الدينِ لمْ يكنْ خافياً بظواهِرِهِ علىٰ غيرِهِ[٩]

لأهل الإشراف ، وهم العارفون المحبون ، والخائفون اطلعوا علىٰ لطف المطلع بعد أن خافوا هول المطلع ، فأودعوا السر عند مقام أمين ، وأوقفوا على الخبر في حال مكين ، فكانوا لديه مقربين ، إذ كانوا به شاهدين ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يرى الشاهد ما لا يرى الغائب » ، فمن حضر . . شهد ، ومن شهد . . وجد ، ومن وجد . . وحَّد ، ومن وحَّد . . عزز ، ومن غاب . . عمي ، ومن عمي . . فقد ، ومن فقد . . نسي ، ومن نسي . . فقد نسي ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ أي : تركتها فلم تعبأ بها ، ولم تنظر إليها ، وهٰكذا اليوم تترك ، فلا ينظر إليك برحمة ، ولا تُكلم بلطف ، ولا تزلف بقرب) .

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/٧٩ ـ ٨٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/٣٧٦) ، وانظر « القوت » (١/١٤٢ ـ ١٤٣) ، و« إتحاف السادة المتقين » (١/٤٠٦) .

(٢) رواه العقيلي في « الضعفاء » (٤/١٥٣٤) بلفظ : « إنا معشر الأنبياء كذٰلك أمرنا أن نكلم الناس علىٰ قدر عقولهم » ، ومعناه سبق في حديث البخاري (١٢٧) الموقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون . . .) .

(٣) رواه العقيلي في « الضعفاء » (٣/٩٣٧) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١/١١) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٤) رواه صاحب « القوت » (١/١٧٥) معلقاً ، وقال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/١٣٥) : (رواه أبو منصور الديلمي في « المسند » [٨٠٢] ، وأبو عبد الرحمٰن السلمي في « الأربعين » [٣٢] التي له في التصوف) .

(٥) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .

(٦) رواه ابن الضريس في « فضائل القرآن » (٣) ، وابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٤/١٨٨) بنحوه ، وبلفظه في « قوت القلوب » (١/٢٥٣) .

(٧) صحيح البخاري (١٢٠) .

(٨) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١١٨) ، وأبو داوود في « الزهد » (٣٧) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣١) ، و« ختم الأولياء » (ص ٤٤٢) موقوفاً علىٰ بكر بن عبد الله المزني .

(٩) أي : من الصحابة رضوان الله عليهم . « إتحاف » (٢/٦٧) .

وقالَ سهلٌ التستريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (للعالمِ ثلاثةُ علومٍ : علمٌ ظاهرٌ يبذلُهُ لأهلِ الظاهرِ ، وعلمٌ باطنٌ لا يسعُهُ إظهارُهُ إلَّا لأهلِهِ ، وعلمٌ هوَ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ لا يظهرُهُ لأحدٍ)[1]

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إفشاءُ سرِّ الربوبيةِ كفرٌ)[2]

وقالَ بعضُهُمْ : (للربوبيَّةِ سرٌّ لوْ أُظهرَ . . لبطلتِ النبوَّةُ ، وللنبوَّةِ سرٌّ لوْ كُشفَ . . لبطلَ العلمُ ، وللعلماءِ باللهِ سرٌّ لوْ أظهروهُ . . لبطلتِ الأحكامُ)[3]

وهـٰذا القائلُ إنْ لمْ يردْ بذٰلكَ بطلانَ النبوَّةِ في حقِّ الضعفاءِ لقصورِ فهمِهِمْ . . فما ذكرَهُ ليسَ بحقٍّ ، بلِ الصحيحُ أنَّهُ لا تناقضَ فيهِ ، وأنَّ الكاملَ مَنْ لا يطفئُ نورُ معرفتِهِ نورَ ورعِهِ ، ومدْركُ الورعِ النبوَّةُ .

مَسْأَلَةٌ

[في وجهِ الاختلافِ بينَ الظاهرِ والباطنِ]

فإنْ قلتَ : فهـٰذهِ الآياتُ والأخبارُ يتطرَّقُ إليها تأويلاتٌ ، فبيِّنْ لنا كيفيةَ اختلافِ الظاهرِ والباطنِ ؛ فإنَّ الباطنَ إنْ كانَ مناقضاً للظاهرِ . . ففيهِ إبطالُ الشرْعِ ، وهوَ قولُ مَنْ قالَ : إنَّ الحقيقةَ خلافُ الشريعةِ ، وهوَ كفرٌ ؛ لأنَّ الشريعةَ عبارةٌ عنِ الظاهرِ ، والحقيقةَ عبارةٌ عنِ الباطنِ ، وإنْ كانَ لا يناقضُهُ ولا يخالفُهُ . . فهوَ هوَ ، فيزولُ بهِ الانقسامُ ، ولا يكونُ للشرعِ سرٌّ لا يُفشىٰ ، بلْ يكونُ الخفيُّ والجليُّ واحداً .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا السؤالَ يحرِّكُ خطباً عظيماً ، وينجرُّ إلىٰ علومِ المكاشفةِ ، ويخرجُ عنْ مقصودِ علمِ المعاملةِ ، وهوَ غرضُ هـٰذهِ الكتبِ ؛ فإنَّ العقائدَ التي ذكرْناها مِنْ أعمالِ القلوبِ ، وقدْ تُعُبِّدْنا بتلقِّيها بالقبولِ والتصديقِ بعقْدِ القلبِ عليها ، لا بأنْ يُتوصَّلَ إلىٰ أنْ ينكشفَ لنا حقائقُها ؛ فإنَّ ذٰلكَ لمْ يُكلَّفْ بهِ كافَّةُ الخلقِ ، ولولا أنَّهُ مِنَ الأعمالِ . . لما أوردْناهُ في هـٰذا الكتابِ ، ولولا أنَّهُ عملُ ظاهرِ القلبِ لا عملُ باطنِهِ . . لما أوردْناه في الشطْرِ الأوَّلِ مِنَ الكتابِ ، وإنَّما الكشفُ الحقيقيُّ هوَ صفةُ سرِّ القلبِ وباطنِهِ ، ولـٰكنْ إذا انجرَّ الكلامُ إلىٰ تحريكِ خيالٍ في مناقضةِ الظاهرِ للباطنِ . . فلا بدَّ منْ كلامٍ وجيزٍ في حَلِّهِ :

فمنْ قالَ : إنَّ الحقيقةَ تخالفُ الشريعةَ ، أوِ الباطنَ يناقضُ الظاهرَ . . فهوَ إلى الكفْرِ أقربُ منهُ إلى الإيمانِ[4] ، **بلِ الأسرارُ التي يختصُّ المقربونَ بدرْكِها ، ولا يشاركُهُمُ الأكثرونَ في علمِها ، ويمتنعونَ عنْ إفشائِها إليهِمْ . . ترجعُ إلىٰ خمسةِ أقسامٍ** :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ الشيءُ في نفسِهِ دقيقاً تكلُّ أكثرُ الأفهامِ عنْ دركِهِ ، فيختصُّ بدرْكِهِ الخواصُّ ، وعليهِمْ ألَّا يفشوهُ إلىٰ غيرِ أهلِهِ ؛ إذْ يصيرُ ذٰلكَ فتنةً عليهِمْ ، حيثُ تقصرُ أفهامُهُمْ عنِ الدرْكِ ، وإخفاءُ سرِّ الروحِ ، وكفُّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ بيانِهِ منْ هـٰذا القسمِ[5] ؛ فإنَّ حقيقتَهُ ممَّا تكلُّ الأفهامُ عنْ دركِهِ ، وتقصرُ الأوهامُ عنْ تصوُّرِ كنْهِهِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/٩٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/٩٠) ، وبيَّن الإمام الغزالي معناه في « الإملاء » (ص ٣١) .

(٣) قوت القلوب (٢/٩٠) ، ونسبه المؤلف في « الإملاء » (ص ٣٩) لسهل التستري ، وأجلىٰ معناه فيه .

(٤) انظر « مشكاة الأنوار » للمصنف (ص ٦١) .

(٥) كما في « البخاري » (١٢٥) ، ومسلم (٢٧٩٤) .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ذٰلكَ لمْ يكنْ مكشوفاً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ مَنْ لمْ يعرفِ الروحَ . . فكأنَّهُ لمْ يعرفْ نفسَهُ ، فكيفَ يعرفُ ربَّهُ سبحانَهُ ؟!

ولا يبعدُ أنْ يكونَ ذٰلكَ مكشوفاً لبعضِ الأولياءِ والعلماءِ وإنْ لمْ يكونوا أنبياءَ ، ولٰكنَّهُمْ يتأدَّبونَ بأدبِ الشرعِ ، فيسكتونَ عمَّا سكتَ عنهُ[1] ، بلْ في صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الخفايا ما تقصرُ أفهامُ الجماهيرِ عنْ دركِهِ ، ولمْ يذكرْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منها إلَّا الظواهرَ للأفهامِ ؛ مِنَ العلمِ ، والقدرةِ ، وغيرِهما ، حتَّىٰ فهمَها الخلقُ بنوعِ مناسبةٍ توهَّموها إلىٰ علمِهِمْ وقدرتِهِمْ ؛ إذْ كانَ لهُمْ مِنَ الأوصافِ ما يُسمَّىٰ علماً وقدرةً ، فيتوهَّمونَ ذٰلكَ بنوعِ مقايسةٍ ، ولوْ ذكرَ مِنْ صفاتِهِ ما ليسَ للخلقِ ممَّا يناسبُهُ بعضَ المناسبةِ شيءٌ . . لمْ يفهموهُ ، بلْ لذَّةُ الجماعِ إذا ذُكرتْ للصبيِّ أوِ العنينِ لمْ يفهَمْهَا إلَّا بمناسبةٍ إلىٰ لذَّةِ المطعومِ الذي يدركُهُ ، ولا يكونُ ذٰلكَ فهْماً على التحقيقِ ، والمخالفةُ بينَ علمِ اللهِ سبحانَهُ وقدرتِهِ وعلمِ الخلقِ وقدرتِهِمْ أكثرُ مِنَ المخالفةِ بينَ لذَّةِ الجماعِ والأكلِ .

وبالجملةِ : فلا يدركُ الإنسانُ إلَّا نفسَهُ وصفاتِ نفسِهِ ممَّا هوَ حاضرٌ لهُ في الحالِ ، أوْ ممَّا كانَ لهُ مِنْ قبلُ ، ثمَّ بالمقايسةِ إليهِ يفهمُ ذٰلكَ لغيرِهِ ، ثمَّ قدْ يصدقُ بأنَّ بينَهُما تفاوتاً في الشرفِ والكمالِ ، فليسَ في قوَّةِ البشرِ إلَّا أنْ يثبتَ للهِ تعالىٰ ما هوَ ثابتٌ لنفسِهِ ؛ مِنَ الفعلِ ، والعلمِ ، والقدرةِ ، وغيرِها مِنَ الصفاتِ ، معَ التصديقِ بأنَّ ذٰلكَ أكملُ وأشرفُ ، فيكونُ معظمُ تحويمِهِ علىٰ صفاتِ نفسِهِ ، لا علىٰ ما اختُصَّ الربُّ تعالىٰ بِهِ مِنَ الجلالِ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[2] ، وليسَ المعنيُّ بِهِ أنِّي أعجزُ عنِ التعبيرِ عمَّا أدركْتُهُ ، بلْ هوَ اعترافٌ بالقصورِ عنْ إدراكِ كنْهِ جلالِهِ .

ولذٰلكَ قالَ بعضُهُمْ : (ما عرفَ اللهَ بالحقيقةِ سوى اللهِ عزَّ وجلَّ) .

وقالَ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (الحمدُ للهِ الذي لمْ يجعلْ للخلْقِ سبيلاً إلىٰ معرفتِهِ إلا بالعجزِ عنْ معرفتِهِ)[3]

ولنقبضْ عِنانَ الكلامِ عنْ هٰذا النمطِ ، ولنرجعْ إلى الغرضِ ، وهوَ أنَّ أحدَ الأقسامِ ما تكلُّ الأفهامُ عنْ إدراكِهِ ، ومِنْ جملتِهِ الروحُ ، ومِنْ جملتِهِ بعضُ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، ولعلَّ الإشارةَ إلىٰ مثلِهِ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ سبحانَهُ سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ ، لوْ كشفَها . . لأحرقَتْ سبحاتُ وجهِهِ كلَّ مَنْ أدركَهُ بصرُهُ »[4]

❀ ❀ ❀

القسمُ الثاني : مِنَ الخفيَّاتِ التي تمتنعُ الأنبياءُ والصدِّيقونَ عنْ ذكرِها : ما هوَ مفهومٌ في نفسِهِ لا يكلُّ الفهمُ عنهُ ، ولٰكنْ ذكرُهُ يضرُّ بأكثرِ المستمعينَ ، ولا يضرُّ بالأنبياءِ والصدِّيقينَ ، وسرُّ القدرِ الذي منعَ أهلُ العلمِ بهِ عنْ إفشائِهِ مِنْ هٰذا القسمِ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ ذكرُ بعضِ الحقائقِ مضرّاً ببعضِ الخلْقِ ، كما يضرُّ نورُ الشمسِ بأبصارِ الخفافيشِ ، وكما تضرُّ رياحُ الوردِ بالجُعَلِ .

وكيفَ يبعدُ هٰذا وقولُنا : (إنَّ الكفرَ والزنا والمعاصيَ والشرورَ كلَّهُ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ وإرادتِهِ ومشيئتِهِ) حقٌّ في

---

(1) ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ، ولو لزمت النفوس حدَّها معترفة بعجزها . . كان ذٰلك أجدر بها وأولىٰ . « إتحاف » (٢/٧٠) .

(2) رواه مسلم (٤٨٦) .

(3) الرسالة القشيرية (ص ٤٩٥) .

(4) رواه مسلم (١٧٩) بلفظ : « حجابه النور » ، ولفظ : « سبعين حجاباً » عند الطبراني في « الأوسط » (٦٤٠٣) .

نفسِهِ ، وقدْ أضرَّ سماعُهُ بقومٍ ؛ إذْ أوهمَ ذٰلكَ عندَهُمْ دلالةً على السفهِ ، ونقيضِ الحكمةِ ، والرضا بالقبيحِ والظلمِ ؟!

وقدْ ألحدَ ابنُ الراونديِّ وطائفةٌ مِنَ المخذولينَ بمثلِ ذٰلكَ [1] .

فكذٰلكَ سرُّ القدَرِ لوْ أُفشيَ . . لأوهمَ عندَ أكثرِ الخلْقِ عجزاً ؛ إذْ تقصُرُ أفهامُهُمْ عنْ إدراكِ ما يزيلُ ذٰلكَ الوهمَ عنهمْ .

ولوْ قالَ قائلٌ : إنَّ القيامةَ لوْ ذُكرَ ميقاتُها وأنَّها بعدَ ألفِ سنةٍ أوْ أكثرَ أوْ أقلَّ . . لكانَ مفهوماً ، ولٰكنْ لمْ يُذكرْ لمصلحةِ العبادِ وخوفاً مِنَ الضررِ ، فلعلَّ المدَّةَ إليها بعيدةٌ فيطولُ الأمدُ ، وإذا استبطأَتِ النفوسُ وقتَ العقابِ . . قلَّ اكتراثُها ، ولعلَّها كانتْ قريبةً في علمِ اللهِ سبحانَهُ ، ولوْ ذُكرتْ . . لعظمَ الخوفُ وأعرضَ الناسُ عَنِ الأعمالِ ، وخربتِ الدنيا .

فهٰذا المعنىٰ لوِ اتجهَ وصحَّ . . فيكونُ مثالاً لهٰذا القسمِ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثالثُ : أنْ يكونَ الشيءُ بحيثُ لوْ ذُكرَ صريحاً . . لفُهِمَ ولمْ يكنْ فيهِ ضررٌ ، ولٰكنْ يُكنىٰ عنهُ علىٰ سبيلِ الاستعارةِ والرمْزِ ؛ ليكونَ وقعُهُ في قلبِ المستمعِ أغلبَ ، ولهُ مصلحةٌ في أنْ يعظمَ وقْعُ ذٰلكَ الأمرِ في قلبِهِ ؛ كما لوْ قالَ قائلٌ : (رأيتُ فلاناً يقلِّدُ الدرَّ في أعناقِ الخنازيرِ) ، فكنَّىٰ بهِ عنْ إفشاءِ العلمِ وبثِّ الحكمةِ إلىٰ غيرِ أهلِها ، فالمستمعُ قدْ يسبقُ إلىٰ فهمِهِ ظاهرُ اللفظِ ، والمحقِّقُ إذا نظرَ وعلمَ أنَّ ذٰلكَ الإنسانَ لمْ يكنْ معَهُ درٌّ ولا كانَ في موضعِهِ خنزيرٌ . . تفطَّنَ لدرْكِ السرِّ والباطنِ ، فيتفاوتُ الناسُ بذٰلكَ ، ومِنْ هٰذا قولُ الشاعرِ : [من الكامل]

رَجُلانِ خَيّاطٌ وَآخَرُ حائِكٌ ... مُتَقابِلانِ عَلَى السِّماكِ الأَعزَلِ [2]

لا زالَ يَنْسِجُ ذاكَ خِرْقَةَ مُدْبِرٍ ... وَيَخيطُ صاحِبُهُ ثِيابَ الْمُقْبِلِ

فإنَّهُ عبَّرَ عنْ سببٍ سماويٍّ في الإقبالِ والإدبارِ برجلينِ صانعينِ .

وهٰذا النوعُ يرجعُ إلى التعبيرِ عنِ المعنىٰ بالصورةِ التي تتضمَّنُ عينَ المعنىٰ أوْ مثلَهُ ، ومنهُ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المسجدَ لينزوي مِنَ النخامةِ كما تنزوي الجلدةُ في النَّارِ » [3] ، وأنتَ ترىٰ أنَّ ساحةَ المسجدِ لا تنقبضُ بالنخامةِ ، ومعناهُ أنَّ روحَ المسجدِ كونُهُ معظَّماً ، ورميُ النخامةِ فيهِ تحقيرٌ لهُ ، فيضادُّ معنى المسجديَّةِ مضادَّةَ النارِ لاتصالِ أجزاءِ الجلدةِ .

وكذٰلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما يخشى الذي يرفعُ رأسَهُ قبلَ الإمامِ أنْ يحوِّلَ اللهُ رأسَهُ رأسَ حمارٍ ؟! » [4] ، وذٰلكَ منْ حيثُ الصورةُ لمْ يكنْ قطُّ ولا يكونُ ، ولٰكنْ مِنْ حيثُ المعنىٰ هوَ كائنٌ ؛ إذْ رأسُ الحمارِ لمْ يكنْ بحقيقتِهِ للونِهِ وشكلِهِ ، بلْ لخاصِّيتِهِ ، وهيَ البلادةُ والحمقُ ، ومَنْ رفعَ رأسَهُ قبلَ الإمامِ . . فقدْ صارَ رأسُهُ رأسَ حمارٍ في معنى البلادةِ والحمقِ ، وهوَ المقصودُ ، دونَ الشكلِ الذي هوَ قالبُ المعنىٰ ؛ إذْ مِنْ غايةِ الحمقِ أنْ يجمعَ بينَ الاقتداءِ وبينَ التقدُّمِ ؛ فإنَّهما متناقضانِ .

---

(١) **وابن الراوندي** : زنديق مشهور صاحب كتب محشوة بكفرياته وهذيانه ، **والطائفة هنا** : عامة من أنكر خلق أفعال العباد لله عز وجل .

(٢) في غير (ب) : (السماء الأول) ، **والسِّماك** : نجم نير ، وينزله القمر ، وهما سماكان (أعزل ورامح) . وانظر « الإتحاف » (٢/٧٥) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٦٩١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٠) من قول أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) .

وإنَّما يُعرفُ أنَّ هٰذا السرَّ علىٰ خلافِ الظاهرِ ؛ إمَّا بدليلٍ عقليٍّ ، أوْ شرعيٍّ :

أمَّا العقليُّ : بأنْ يكونَ حملُهُ على الظاهرِ غيرَ ممكنٍ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ »[1] ؛ إذْ لوْ فتشْنا عنْ قلوبِ المؤمنينَ . . لمْ نجدْ فيها أصابعَ ، فعُلمَ أنَّها كنايةٌ عنِ القدرةِ التي هيَ سرُّ الأصابعِ وروحُها الخفيُّ ، وكنَّىٰ بالأصابعِ عنِ القدرةِ ؛ لأنَّ ذٰلكَ أعظمُ وقعاً في تفهيمِ تمامِ الاقتدارِ .

ومِنْ هٰذا القبيلِ كنايتُهُ عنِ الاقتدارِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فإنَّ ظاهرَهُ ممتنعٌ ؛ إذْ قولُهُ : (كنْ) إنْ كانَ خطاباً للشيءِ قبلَ وجودِهِ . . فهوَ محالٌ ؛ إذِ المعدومُ لا يفهمُ الخطابَ حتَّىٰ يمتثلَ ، وإنْ كانَ بعدَ الوجودِ . . فهوَ مستغنٍ عنِ التكوينِ ، ولٰكنْ لمَّا كانتْ هٰذهِ الكنايةُ أوقعَ في النفوسِ في تفهيمِ غايةِ الاقتدارِ . . عدلَ إليها .

وأمَّا المدركُ بالشرعِ : فهوَ أنْ يكونَ إجراؤُهُ على الظاهرِ ممكناً ، ولٰكنْ يُروىٰ أنَّهُ أُريدَ بهِ غيرُ الظاهرِ ؛ كما وردَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا . . . ﴾ الآيةَ ، وأنَّ معنى الماءِ ها هنا هوَ القرآنُ ، ومعنى الأوديةِ القلوبُ ، وأنَّ بعضَها احتملتْ شيئاً كثيراً ، وبعضَها قليلاً ، وبعضَها لمْ يحتملْ ، والزبدُ مثلُ الكفرِ والنفاقِ ؛ فإنَّهُ وإنْ ظهرَ وطفا علىٰ رأسِ الماءِ . . فإنَّهُ لا يثبتُ ، والهدايةُ التي تنفعُ الناسَ تمكثُ .

وفي هٰذا القسمِ تعمَّقَ جماعةٌ ، فأوَّلوا ما وردَ في الآخرةِ مِنَ الميزانِ والصراطِ وغيرِهما ، وهوَ بدعةٌ ؛ إذْ لمْ يُنقلْ ذٰلكَ بطريقِ الروايةِ ، وإجراؤُهُ على الظاهرِ غيرُ محالٍ ، فيجبُ إجراؤُهُ على الظاهرِ .

❀ ❀ ❀

القسمُ الرابعُ : أنْ يدركَ الإنسانُ الشيءَ جملةً ، ثمَّ يدركَهُ تفصيلاً بالتحقيقِ والذوقِ ؛ بأنْ يصيرَ حالاً ملابساً لهُ ، فيتفاوتُ العلمانِ ، ويكونُ الأوَّلُ كالقشرِ ، والثاني كاللُّبِّ ، والأوَّلُ كالظاهرِ ، والثاني كالباطنِ ، وذٰلكَ كما يتمثَّلُ للإنسانِ في عينِهِ شخصٌ في الظلمةِ أوْ على البعْدِ ، فيحصلُ لهُ نوعُ علمٍ ، فإذا رآهُ بالقرْبِ أوْ بعدَ زوالِ الظلامِ . . أدركَ تفرقةً بينَهُما ، ولا يكونُ الآخرُ ضدَّ الأوَّلِ ، بلْ هوَ استكمالٌ لهُ .

فكذٰلكَ في العلمِ والإيمانِ والتصديقِ ؛ إذْ قدْ يصدِّقُ الإنسانُ بوجودِ العشْقِ والمرضِ والموتِ قبلَ وقوعِهِ ، ولٰكنَّ تحقُّقَهُ بهِ عندَ الوقوعِ أكملُ مِنْ تحقُّقِهِ قبلَ الوقوعِ ، بلْ للإنسانِ في الشهوةِ والعشْقِ وسائرِ الأحوالِ ثلاثةُ أحوالٍ متفاوتةٍ وإدراكاتٍ متباينةٍ :

الأوَّلُ : تصديقُهُ بوجودِهِ قبلَ وقوعِهِ .

والثاني : عندَ وقوعِهِ .

والثالثُ : بعدَ تصرُّمِهِ ؛ فإنَّ تحقُّقَكَ بالجوعِ بعدَ زوالِهِ يخالفُ التحقُّقَ بهِ قبلَ الزوالِ .

فكذٰلكَ مِنْ علومِ الدينِ ما يصيرُ ذوقاً فيكملُ ، فيكونُ ذٰلكَ كالباطنِ بالإضافةِ إلىٰ ما قبلَ ذٰلكَ ، ففرْقٌ بينَ علمِ المريضِ بالصحَّةِ وبينَ علمِ الصحيحِ بها .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) بنحوه .

ففي هـٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ تتفاوتُ الخلقُ ، وليسَ في شيءٍ منها باطنٌ يناقضُ الظاهرَ ، بلْ يتمّمُهُ ويكمّلُهُ كما يتمّمُ اللبُّ القشرَ ، والسلامُ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الخامسُ : أنْ يُعبَّرَ بلسانِ المقالِ عنْ لسانِ الحالِ ، فالقاصرُ الفهمِ يقفُ على الظاهرِ ويعتقدُهُ نطقاً ، والبصيرُ بالحقائقِ يدركُ السرَّ فيهِ .

وهـٰذا كقولِ القائلِ : قالَ الجدارُ للوَتِدِ : لِمَ تشقُّني ؟ قالَ : سَلْ مَنْ يدقُّني ، فلمْ يتركْني ، وراءِ الحجرَ الذي ورائي[1] ، فهـٰذا تعبيرٌ عنْ لسانِ الحالِ بلسانِ المقالِ .

ومِنْ هـٰذا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ، فالبليدُ يفتقرُ في فهمِهِ إلىٰ أنْ يقدِّرَ لهما حياةً وعقلاً وفهماً للخطابِ ، وخطاباً هوَ صوتٌ وحرفٌ تسمعُهُ السماءُ والأرضُ ، فتجيبانِ بحرفٍ وصوتٍ وتقولانِ : أتينا طائعينَ ، والبصيرُ يعلمُ أنَّ ذٰلكَ لسانُ الحالِ ، وأنَّهُ نبأٌ عنْ كونِهِما مسخَّرتينِ بالضرورةِ ومضطرَّتينِ إلى التسخيرِ .

ومِنْ هـٰذا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ؛ فإنَّ البليدَ يفتقرُ فيهِ إلىٰ أنْ يقدِّرَ للجمادِ حياةً وعقلاً ونطقاً بصوتٍ وحرفٍ حتَّىٰ يقولَ : سبحانَ اللهِ ؛ ليتحقَّقَ تسبيحَهُ ، والبصيرُ يعلمُ أنَّهُ ما أُريدَ بِهِ نطقُ اللسانِ ، بلْ كونُهُ مسبِّحاً بوجودِهِ ، ومقدِّساً بذاتِهِ ، وشاهداً بوحدانيةِ اللهِ سبحانَهُ ، كما قيلَ[2] : [من المتقارب]

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

وكما يُقالُ : هـٰذهِ الصنعةُ المحكمةُ تشهدُ لصانِعِها بحسْنِ التدبيرِ وكمالِ العلمِ ، لا بمعنىٰ أنَّها تقولُ : أشهدُ بالقولِ ، ولـٰكنْ بالذاتِ والحالِ ؛ فكذٰلكَ : ما مِنْ شيءٍ إلَّا وهوَ محتاجٌ في نفسِهِ إلىٰ موجدٍ يوجدُهُ ، ويبقيهِ ويديمُ أوصافَهُ ويردِّدُهُ في أطوارِهِ ، فهوَ بحاجتِهِ يشهدُ لخالقِهِ بالتقديسِ ، يدركُ شهادتَهُ ذوو البصائرِ دونَ الجامدينَ على الظواهرِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

وأمَّا القاصرونَ . . فلا يفقهونَ أصلاً ، وأمَّا المقرَّبونَ والعلماءُ الراسخونَ . . فلا يفقهونَ كنهَهُ وكمالَهُ ؛ إذْ لكلِّ شيءٍ شهاداتٌ شتَّىٰ علىٰ تقديسِ اللهِ سبحانَهُ وتسبيحِهِ ، ويدركُ كلُّ واحدٍ بقدْرِ عقلِهِ وبصيرتِهِ ، وتعدادُ تلكَ الشهاداتِ لا يليقُ بعلْمِ المعاملةِ .

فهـٰذا الفنُّ أيضاً ممَّا يتفاوتُ أربابُ الظواهرِ وأربابُ البصائرِ في علمِهِ ، وتظهرُ بِهِ مفارقةُ الباطنِ للظاهرِ .

وفي هـٰذا المقامِ لأربابِ المقاماتِ إسرافٌ واقتصاد :

فمِنْ مسرفٍ في رفعِ الظواهرِ انتهىٰ إلىٰ تغييرِ جميعِ الظواهرِ والبراهينِ أوْ أكثرِها ، حتَّىٰ حملوا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، وكذٰلكَ المخاطباتُ التي تجري مِنْ منكرٍ ونكيرٍ ، وفي الميزانِ وفي الحسابِ ، ومناظراتِ أهلِ النارِ وأهلِ الجنَّةِ

---

(١) راءِ : فعل أمر من راءىٰ يرائي ؛ أي : انظر « إتحاف » (٢/٧٨) .
(٢) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٠٤) .

في قولِهِمْ : ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ . . زعموا أنَّ كلَّ ذٰلكَ لسانُ الحالِ [١]

وغلا آخرونَ في حسْمِ البابِ ، منهمْ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ، حتَّىٰ منعَ تأويلَ قولِهِ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، وزعموا أنَّ ذٰلكَ خطابٌ بحرفٍ وصوتٍ يوجدُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ لحظةٍ بعددِ كَوْنِ كلِّ مكوَّنٍ ، حتَّىٰ سمعتُ بعضَ أصحابِهِ يقولُ : إنَّهُ حسَمَ بابَ التأويلِ إلا لثلاثةِ ألفاظٍ : قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ في الأرضِ » [٢] ، وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ منْ أصابعِ الرحمٰنِ » [٣] ، وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأجدُ نفَسَ الرحمٰنِ مِنْ جانبِ اليمنِ » [٤] ، ومالَ إلىٰ حسْمِ البابِ أربابُ الظواهرِ .

والظنُّ بأحمدَ ابنِ حنبلٍ أنَّهُ علمَ أنَّ الاستواءَ ليسَ هوَ الاستقرارَ ، والنزولَ ليسَ هوَ الانتقالَ ، ولٰكنَّهُ منعَ مِنَ التأويلِ حسْماً للبابِ ، ورعايةً لصلاحِ الخلْقِ ؛ فإنَّهُ إذا فُتحَ البابُ . . اتَّسعَ الخرْقُ ، وخرجَ الأمرُ عنِ الضبطِ ، وجاوزَ الاقتصادَ ؛ إذْ حدُّ الاقتصادِ لا ينضبطُ [٥] ، ولا بأسَ بهٰذا الزجْرِ .

ويشهدُ لهُ سيرةُ السلفِ ؛ فإنَّهُمْ كانوا يقولونَ : أمِرُّوها كما جاءتْ [٦] ، حتَّىٰ قالَ مالكٌ رحمَهُ اللهُ لمَّا سُئِلَ عنِ الاستواءِ : (الاستواءُ معلومٌ ، والكيفيةُ مجهولةٌ ، والإيمانُ بِهِ واجبٌ ، والسؤالُ عنهُ بدعةٌ) [٧]

وذهبتْ طائفةٌ إلى الاقتصادِ ، ففتحوا بابَ التأويلِ في كلِّ ما يتعلَّقُ بصفاتِ اللهِ تعالىٰ ، وتركوا ما يتعلَّقُ بالآخرةِ علىٰ ظواهرِهِ ، ومنعوا التأويلَ فيهِ ، وهُمُ الأشعريَّةُ .

وزادَ المعتزلةُ عليهِمْ حتَّىٰ أوَّلوا مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ تعلُّقَ الرؤيةِ بهِ ، وأوَّلوا كونَهُ سميعاً بصيراً ، وأوَّلوا المعراجَ ، وزعموا أنَّهُ لمْ يكنْ بالجسدِ ، وأوَّلوا عذابَ القبرِ ، والميزانَ ، والصراطَ ، وجملةً منْ أحكامِ الآخرةِ ، ولٰكنْ أقرُّوا بحشرِ الأجسادِ ، وبالجنَّةِ واشتمالِها على المأكولاتِ والمشموماتِ والمنكوحاتِ والملاذِّ المحسوسةِ ، وبالنارِ واشتمالِها علىٰ جسمٍ محسوسٍ محرقٍ يفرِّقُ الجلودَ ويذيبُ الشحومَ .

ومِنْ ترقِّيهِمْ إلىٰ هٰذا الحدِّ زادَ الفلاسفةُ فأوَّلوا كلَّ ما وردَ في الآخرةِ ، وردُّوهُ إلىٰ آلامٍ عقليَّةٍ وروحانيَّةٍ ، ولذَّاتٍ عقليَّةٍ ، وأنكروا حشرَ الأجسادِ ، وقالوا ببقاءِ النفوسِ ، وأنَّها تكونُ إمَّا معذَّبةً وإمَّا منعَّمةً بعذابٍ ونعيمٍ لا يُدركُ بالحسِّ ، وهٰؤلاءِ هُمُ المسرفونَ .

وحدُّ الاقتصادِ بينَ هٰذا الانحلالِ كلِّهِ وبينَ جمودِ الحنابلةِ دقيقٌ غامضٌ ، لا يطَّلعُ عليهِ إلا الموفَّقونَ الذينَ يدركونَ الأمورَ بنورٍ إلٰهيٍّ لا بالسماعِ .

---

(١) وهم عامة من يحكِّم العقل ويقدمه على النص ، وعلىٰ رأس هٰؤلاء الفلاسفة الذي غالوا حتىٰ نفوا حشر الأجساد ، ومنهم ـ علىٰ تباين ـ المعتزلة كما سيبين هٰذا المصنف بعد سطور .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٥٧/١) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٦٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورواه موقوفاً علىٰ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق في « المصنف » (٨٩١٩) .

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٥٢/٧) ، وعند أحمد في « المسند » (٥٤٠/٢) : « نفَس ربكم » بدل « نفَس الرحمٰن » .

(٥) ولهٰذا نجد المصنف رحمه الله تعالىٰ ألَّف كتابه النفيس علىٰ لطف حجمه « قانون التأويل » .

(٦) روى الحسن بن إسماعيل الضراب في « مناقب مالك » من طريق الوليد بن مسلم قال : سألت مالكاً والأوزاعي وسفيان وليثاً عن هٰذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية والصورة والنزول فقالوا : أوردوها كما جاءت . « إتحاف » (٨٠/٢) .

(٧) رواه اللالكائي عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها في « اعتقاد أهل السنة » (٦٦٣) ، ثم ذكر قالة مالك رضي الله عنه (٦٦٤) ، وانظر مجمل رواياته في « الدر المنثور » (٤٧٣/٣) ، و« إتحاف السادة المتقين » (٨٠/٢) .

ثمَّ إذا انكشفَتْ لهمْ أسرارُ الأمورِ علىٰ ما هيَ عليهِ . . نظروا إلى السمْعِ والألفاظِ الواردةِ ؛ فما وافقَ ما شاهدوهُ بنورِ اليقينِ . . قرروهُ ، وما خالفَ . . أوَّلوهُ ، فأمَّا مَنْ يأخذُ معرفةَ هٰذهِ الأمورِ منَ السمعِ المجرَّدِ . . فلا يستقرُّ لهُ فيها قدمٌ ، ولا يتعيَّنُ لهُ موقفٌ ، والأليقُ بالمقتصرِ على السمعِ المجرَّدِ مقامُ أحمدَ ابنِ حنبلٍ رحمَهُ اللهُ .

والآنَ فكَشْفُ الغطاءِ عنْ حدِّ الاقتصادِ في هٰذهِ الأمورِ داخلٌ في علمِ المكاشفةِ ، والقولُ فيهِ يطولُ ، فلا نخوضُ فيهِ ، والغرضُ بيانُ موافقةِ الباطنِ للظاهرِ ومخالفتِهِ لهُ ، وقدِ انكشفَ بهٰذهِ الأقسامِ الخمسةِ .

❁ ❁ ❁

وإذْ رأينا أنْ نقتصرَ بكافةِ العوامِّ علىٰ ترجمةِ العقيدةِ التي حرَّرْناها ، وأنَّهمْ لا يُكلَّفونَ غيرَ ذٰلكَ في الدرجةِ الأولىٰ ، إلَّا إذا كانَ خوفُ تشويشٍ لشيوعِ البدعةِ ، فيرقىٰ في الدرجةِ الثانيةِ إلىٰ عقيدةٍ فيها لوامعُ منَ الأدلَّةِ مختصرةٌ منْ غيرِ تعمُّقٍ . . فلنوردْ في هٰذا الكتابِ تلكَ اللوامعَ ، ولنقتصرْ فيها علىٰ ما حرَّرْناهُ لأهلِ القدْسِ[1] ، وسميناهُ : « الرسالةُ القدسيةُ » في قواعدِ العقائدِ ، وهيَ مودعةٌ في هٰذا الفصلِ الثالثِ منْ هٰذا الكتابِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) أيامَ سياحةِ المصنف رحمه الله تعالى المشهورة ، وله رحمه الله عدة رسائل مختصرة أرسلها إلىٰ بلدان شتىٰ ، متضمنة علىٰ صريح الاعتقاد والمواعظ والنصائح ، فمنها رسالة أرسلها إلى الموصل مسماة بالقدسية أيضاً يخاطب فيها بعض المشايخ . انظر « إتحاف السادة المتقين » (٨٥/٢) .

وقد شرح المصنف رسالته هٰذه بكتابه الموسوم بـ « الاقتصاد في الاعتقاد » مع تقدمه في التصنيف ، وسايرها كذٰلك الإمام الكمال بن الهمام علىٰ طريقة الماتريدية ، وشرح « مسايرته » الكمالُ ابن أبي الشريف في « المسامرة » ، وشرحها الحافظ الزبيدي كذٰلك جامعاً بين الطريقتين .

الفَصلُ الثَّالِثُ مِنْ كِتَاب قَوَاعِـدِ العقَـائِدِ

في لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بـ « الرسالة القدسية »

فنقولُ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي ميَّزَ عصابةَ السنَّةِ بأنوارِ اليقينِ ، وآثرَ رهْطَ الحقِّ بالهدايةِ إلىٰ دعائمِ الدينِ ، وجنَّبَهُمْ زيغَ الزائغينَ وضلالَ الملحدينَ ، ووفَّقَهُمْ للاقتداءِ بسيِّدِ المرسلينَ ، وسدَّدَهُمْ للتأسِّي بصحبِهِ الأكرمينَ ، ويسَّرَ لهمُ اقتفاءَ آثارِ السلفِ الصالحينَ ، حتَّى اعتصموا مِنْ مقتضياتِ العقولِ بالحبْلِ المتينِ ، ومِنْ سيرِ الأوَّلينَ وعقائدِهِمْ بالمنهجِ المبينِ ، فجمعوا في القبولِ بينَ نتائجِ العقولِ وقضايا الشرعِ المنقولِ ، وتحقَّقوا أنَّ النطقَ بما تُعبِّدُوا بهِ مِنْ قولِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ) ليسَ لهُ طائلٌ ولا محصولٌ إنْ لمْ تتحقَّقِ الإحاطةُ بما تدورُ عليهِ هـٰذهِ الشهادةُ مِنَ الأقطابِ والأصولِ ، وعرفوا أنَّ كلمتي الشهادةِ علىٰ إيجازِها تتضمَّنُ إثباتَ ذاتِ الإلـٰهِ ، وإثباتَ صفاتِهِ ، وإثباتَ أفعالِهِ ، وإثباتَ صدْقِ الرسولِ ، فعلموا أنَّ بناءَ الإيمانِ علىٰ هـٰذهِ الأركانِ يدورُ ، وهيَ أربعةٌ ، ويدورُ كلُّ ركنٍ منها علىٰ عشرةِ أصولٍ :

الركنُ الأوَّلُ : في معرفةِ ذاتِ اللهِ تعالىٰ : ومدارُهُ علىٰ عشرةِ أصولٍ ؛ وهيَ : العلمُ بوجودِ اللهِ سبحانَهُ ، وقدمِهِ ، وبقائِهِ ، وأنَّهُ ليسَ بجوهرٍ ، ولا جسمٍ ، ولا عَرَضٍ ، وأنَّهُ سبحانَهُ ليسَ مختصّاً بجهةٍ ، ولا مستقرّاً علىٰ مكانٍ ، وأنَّه سبحانَهُ مرئيٌّ ، وأنَّهُ واحدٌ .

الركنُ الثاني : في صفاتِهِ سبحانَهُ : ويشتملُ علىٰ عشرةِ أصولٍ ؛ وهيَ : العلمُ بكونِهِ حيّاً ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلِّماً ، منزَّهاً عنْ حلولِ الحوادثِ ، وأنَّهُ قديمُ الكلامِ ، والعلمِ ، والإرادةِ [1]

الركنُ الثالثُ : في أفعالِهِ تعالىٰ : ومدارُهُ علىٰ عشرةِ أصولٍ ؛ وهيَ : أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ تعالىٰ ، وأنَّها مكتسبةٌ للعبادِ ، وأنَّها مرادةٌ للهِ تعالىٰ ، وأنَّهُ متفضِّلٌ بالخلْقِ والاختراعِ ، وأنَّ لهُ تعالىٰ تكليفَ ما لا يُطاقُ ، وأنَّ لهُ إيلامَ البريءِ ، ولا يجبُ عليهِ رعايةُ الأصلحِ ، وأنَّهُ لا واجبَ إلا بالشرعِ ، وأنَّ بعثَةَ الأنبياءِ جائزٌ ، وأنَّ نبوَّةَ نبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثابتةٌ مؤيَّدةٌ بالمعجزاتِ .

الركنُ الرابعُ : في السمعياتِ : ومدارُهُ علىٰ عشرةِ أصولٍ ؛ وهيَ : إثباتُ الحشرِ والنشرِ ، وعذابِ القبرِ ، وسؤالِ منكَرٍ ونكيرٍ ، والميزانِ ، والصراطِ ، وخلْقِ الجنَّةِ والنارِ ، وأحكامِ الإمامِ ، وأنَّ فضلَ الصحابةِ علىٰ حسبِ تقديمِهِمْ وترتيبِهِمْ ، وشروطِ الإمامةِ ، وأنَّهُ لو تعذَّرَ وجودُ الورعِ والعلمِ . . حكِمَ بانعقادِها .

* * *

(1) قوله : (منزهاً عن حلول الحوادث) قيد مستفاد من الركن الأول ، وهو غير معدود في هـٰذه الأصول ؛ إذ هو من صفات السُّلُوب .

الركن الأول من أركان الإيمان : في معرفة ذات الله سبحانه وتعالىٰ وأن الله تعالىٰ واحد ومداره على عشرة أصول

الأصلُ الأوَّلُ : معرفةُ وجودِهِ تعالىٰ :

وأولىٰ ما يُستضاءُ بِهِ مِنَ الأنوارِ ، ويُسلكُ مِنْ طريقِ الاعتبارِ . . ما أرشدَ إليهِ القرآنُ ، فليسَ بعدَ بيانِ اللهِ سبحانَهُ بيانٌ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾

فليسَ يخفىٰ علىٰ مَنْ معَهُ أدنىٰ مُسْكةٍ مِنْ عقلٍ إذا تأمَّلَ بأدنىٰ فكرةٍ مضمونَ هـٰذهِ الآياتِ ، وأدارَ نظرَهُ علىٰ عجائبِ خلْقِ اللهِ في الأرضِ والسماواتِ ، وبدائعِ فطرةِ الحيوانِ والنباتِ . . أنَّ هـٰذا الأمرَ العجيبَ والترتيبَ المحكَمَ لا يستغني عنْ صانعٍ يدبِّرُهُ ، وفاعلٍ يُحْكِمُهُ ويقدِّرُهُ ، بلْ تكادُ فطرةُ النفوسِ تشهدُ بكونِها مقهورةً تحتَ تسخيرِهِ ، ومصرَّفةً بمقتضىٰ تدبيرِهِ ؛ ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

ولهـٰذا بُعِثَ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ لدعوةِ الخلْقِ إلى التوحيدِ ليقولوا : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، وما أمروا أنْ يقولوا : لنا إلـٰهٌ وللعالمِ إلـٰهٌ ؛ فإنَّ ذٰلكَ كانَ مجبولاً في فطرةِ عقولِهِمْ مِنْ مبدأ نشوئِهِمْ وفي عنفوانِ شبابِهِمْ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾

فإذاً ؛ في فطرةِ الإنسانِ وشواهدِ القرآنِ ما يغني عنْ إقامةِ البرهانِ ، ولـٰكنَّا علىٰ سبيلِ الاستظهارِ والاقتداءِ بالعلماءِ النظَّارِ نقولُ :

مِنْ بدائِهِ العقولِ أنَّ الحادثَ لا يستغني في حدوثِهِ عنْ سببٍ يحدثُهُ ، والعالمُ حادثٌ ، فإذاً لا يستغني في حدوثِهِ عنْ سببٍ .

أمَّا قولُنا : (الحادثُ لا يستغني في حدوثِهِ عنْ سببٍ) . . فجليٌّ ؛ فإنَّ كلَّ حادثٍ فهوَ مختصٌّ بوقتٍ يجوزُ في العقلِ تقديرُ تقدُّمِهِ وتأخُّرِهِ ، فاختصاصُهُ بوقتِهِ دونَ ما قبلَهُ وما بعدَهُ يفتقرُ بالضرورةِ إلى المخصِّصِ .

وأمَّا قولُنا : (العالمُ حادثٌ) . . فبرهانُهُ : أنَّ أجسامَ العالمِ لا تخلو عنِ الحركةِ والسكونِ ، وهما حادثانِ ، وما لا يخلو عنِ الحوادثِ فهوَ حادثٌ ، ففي هـٰذا البرهانِ ثلاثُ دعاوىٰ :

الأولىٰ : (أنَّ الأجسامَ لا تخلو عنِ الحركةِ والسكونِ) ، وهـٰذهِ مدركةٌ بالبديهةِ والاضطرارِ ، فلا يُحتاجُ فيها إلىٰ تأمُّلٍ وافتكارٍ ؛ فإنَّ مَنْ عقلَ جسماً لا ساكناً ولا متحرِّكاً . . كانَ لمتنِ الجهلِ راكباً ، وعنْ نهجِ العقلِ ناكباً .

الثانيةُ : قولُنا : (إنَّهما حادثانِ) ، ويدلُّ علىٰ ذٰلكَ تعاقبُهُما ووجودُ البعضِ منهما بعدَ البعضِ ، وذٰلكَ مشاهدٌ في جميعِ الأجسامِ ما شُوهدَ منها وما لمْ يُشاهدْ ، فما مِنْ ساكنٍ إلا والعقلُ قاضٍ بجوازِ حركتِهِ ، وما مِنْ متحرِّكٍ إلا والعقلُ قاضٍ بجوازِ سكونِهِ ، فالطارئُ منهُما حادثٌ لطريانِهِ ، والسابقُ حادثٌ لعدمِهِ ؛ لأنَّهُ لوْ ثبتَ قدمُهُ . . لاستحالَ عدمُهُ ، علىٰ ما سيأتي بيانُهُ وبرهانُهُ في إثباتِ بقاءِ الصانعِ تعالىٰ وتقدَّسَ .

الثالثةُ : قولُنا : (ما لا يخلو عنِ الحوادثِ فهوَ حادثٌ) وبرهانُهُ : أنَّهُ لوْ لمْ يكنْ كذٰلكَ . . لكانَ قبلَ كلِّ حادثٍ حوادثُ لا أوَّلَ لها ، وما لمْ تنقضِ تلكَ الحوادثُ بجملتِها لا تنتهي النوبةُ إلىٰ وجودِ الحادثِ الحاضرِ في الحالِ ، وانقضاءُ ما لا نهايةَ لهُ محالٌ .

ولأنَّهُ لوْ كانَ للفلكِ دوراتٌ لا نهايةَ لها . . لكانَ لا يخلو عددُها مِنْ أنْ تكونَ : شفعاً ، أوْ وتراً ، أوْ شفعاً ووتراً جميعاً ، أوْ لا شفعاً ولا وتراً .

ومحالٌ أنْ تكونَ شفعاً ووتراً جميعاً ، أوْ لا شفعاً ولا وتراً ؛ فإنَّ ذٰلكَ جمعٌ بينَ النفيِ والإثباتِ ؛ إذْ في إثباتِ أحدِهما نفيُ الآخرِ ، وفي نفيِ أحدِهما إثباتُ الآخرِ .

ومحالٌ أنْ يكونَ شفعاً ؛ لأنَّ الشفْعَ يصيرُ وتراً بزيادةِ واحدٍ ، فكيفَ يعوزُ ما لا نهايةَ لهُ واحدٌ ؟!

ومحالٌ أنْ يكونَ وتراً ؛ إذْ الوترُ يصيرُ شفعاً بزيادةِ واحدٍ ، فكيفَ يعوزُها واحدٌ معَ أنَّهُ لا نهايةَ لأعدادِها ؟!

فحصلَ مِنْ هـٰذا أنَّ العالمَ لا يخلو عنِ الحوادثِ ؛ وما لا يخلُو عنِ الحوادثِ . . فهوَ إذاً حادثٌ ، وإذا ثبتَ حدوثُهُ . . كانَ افتقارُهُ إلى المحدِثِ مِنَ المدركاتِ بالضرورةِ[1]

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثاني : العلمُ بأنَّ الباريَ تعالىٰ قديمٌ لمْ يزلْ ، أزليٌّ ليسَ لوجودِهِ أوَّلٌ ، بلْ هوَ أوَّلُ كلِّ شيءٍ ، وقبلَ كلِّ ميْتٍ وحيّ :

وبرهانُهُ : أنَّهُ لوْ كانَ حادثاً ولمْ يكنْ قديماً . . لافتقرَ هوَ أيضاً إلىٰ محدِثٍ ، وافتقرَ محدثُهُ إلىٰ محدِثٍ ، وتسلسلَ ذٰلكَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وما تسلسلَ . . لمْ يتحصَّلْ ، أوْ ينتهي إلىٰ محدِثٍ قديمٍ هوَ الأوَّلُ ، وذٰلكَ هوَ المطلوبُ الذي سميناهُ صانعَ العالمِ وبارِئَهُ ومحدِثَهُ ومبدِئَهُ[2]

❁ ❁ ❁

---

(١) الاقتصاد (ص ٩٩) ، تهافت الفلاسفة (ص ٩٩) ، وفيه الرد علىٰ من ادَّعىٰ أن اللامتناهي لا يوصف بشفع ووتر .

(٢) قال المؤلف في « الاقتصاد » (ص ١٠٢) : (ولا نعني بقولنا : « قديم » إلا أن وجوده غير مسبوق بعدم ، فليس تحت لفظ « القديم » إلا إثبات موجود ، ونفي عدم سابق ، فلا تظننَّ أن القدم معنىً زائد علىٰ ذات القديم ، فيلزمك أن تقول : ذٰلك المعنىٰ أيضاً قديم بقدم زائد عليه ، ويتسلسل إلىٰ غير نهاية) .

الأصلُ الثالثُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ ـ معَ كونِهِ أزليّاً ـ أبديٌّ ليسَ لوجودِهِ آخِرٌ :

فهوَ الأوَّلُ والآخرُ ، والظاهرُ والباطنُ ؛ لأنَّ ما ثبتَ قدمُهُ . . استحالَ عدمُهُ .

وبرهانُهُ : أنَّهُ لوِ انعدمَ . . لكانَ لا يخلو : إمَّا أنْ ينعدمَ بنفسِهِ ، أوْ بمعدِمٍ يضادُّهُ .

ولوْ جازَ أنْ ينعدِمَ شيءٌ يُتصوَّرُ دوامُهُ بنفسِهِ . . لجازَ أنْ يوجدَ شيءٌ يُتصوَّرُ عدمُهُ بنفسِهِ ، فكما يحتاجُ طريانُ الوجودِ إلىٰ سببٍ . . فكذا يحتاجُ طريانُ العدمِ إلىٰ سببٍ .

وباطلٌ أنْ ينعدِمَ بمعدِمٍ يضادُّهُ ؛ لأنَّ ذٰلكَ المعدِمَ لوْ كانَ قديماً . . لما تُصُوِّرَ الوجودُ معَهُ[1] ، وقدْ ظهرَ بالأصلينِ السابقينِ وجودُهُ وقدمُهُ ، فكيفَ كانَ وجودُهُ في القدمِ ومعَهُ ضدُّهُ ؟!

وإنْ كانَ الضدُّ المعدِمُ حادثاً . . كانَ محالاً ؛ إذْ ليسَ الحادثُ في مضادَّتِهِ للقديمِ حتَّىٰ يقطعَ وجودَهُ بأولىٰ مِنَ القديمِ في مضادَّتِهِ للحادثِ حتَّىٰ يدفعَ وجودَهُ ، بلِ الدفعُ أهونُ مِنَ القطعِ ، والقديمُ أولىٰ مِنَ الحادثِ .

❋ ❋ ❋

الأصلُ الرابعُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ ليسَ بجوهرٍ يتحيَّزُ ، بلْ يتعالىٰ ويتقدَّسُ عنْ مناسبةِ الحيِّزِ :

وبرهانُهُ : أنَّ كلَّ جوهرٍ متحيِّزٍ . . فهوَ مختصٌّ بحيِّزِهِ ، ولا يخلو مِنْ أنْ يكونَ ساكناً فيهِ ، أوْ متحرِّكاً عنهُ ، فلا يخلو عنِ الحركةِ أوِ السكونِ ، وهما حادثانِ ، وما لا يخلو عنِ الحوادثِ فهوَ حادثٌ ، ولوْ تُصُوِّرَ جوهرٌ متحيِّزٌ قديمٌ . . لكانَ يعقلُ قدمُ جواهرِ العالمِ[2] ؛ فإنْ سمَّاهُ مُسَمٍّ جوهراً ولمْ يردْ بهِ المتحيِّزَ . . كانَ مخطئاً مِنْ حيثُ اللفظُ ، لا مِنْ حيثُ المعنىٰ[3] .

❋ ❋ ❋

الأصلُ الخامسُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ ليسَ بجسمٍ مؤلَّفٍ مِنْ جواهرَ :

إذِ الجسمُ عبارةٌ عنِ المؤتلفِ مِنَ الجواهرِ ، وإذا بطلَ كونُهُ جوهراً مخصوصاً بحيِّزٍ . . بطلَ كونُهُ جسماً ؛ لأنَّ كلَّ جسمٍ فمختصٌّ بحيِّزٍ ومركَّبٌ مِنْ جوهرٍ وجوهرٍ ، ويستحيلُ خلوُّهُ عنِ الافتراقِ والاجتماعِ ، والحركةِ والسكونِ ، والهيئةِ والمقدارِ ، وهٰذهِ سِماتُ الحدوثِ ، ولوْ جازَ أنْ يُعتقَدَ أنَّ صانعَ العالمِ جِسمٌ . . لجازَ أنْ تُعتقَدَ الإلٰهيَّةُ للشمسِ والقمرِ ، أوْ لشيءٍ آخرَ مِنْ أقسامِ الأجسامِ .

فإنْ تجاسرَ متجاسرٌ علىٰ تسميتِهِ تعالىٰ جسماً مِنْ غيرِ إرادةِ التأليفِ مِنَ الجواهرِ . . كانَ ذٰلكَ غلطاً في الاسمِ ، معَ الإصابةِ في نفيِ معنى الجسمِ .

❋ ❋ ❋

الأصلُ السادسُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ ليسَ بعرضٍ قائمٍ بجسمٍ أوْ حالٍّ في محلٍّ :

لأنَّ العرضَ ما يحلُّ في الجسمِ ، وكلُّ جسمٍ فهوَ حادثٌ لا محالةَ ، ويكونُ محدِثُهُ موجوداً قبلَهُ ، فكيفَ يكونُ حالّاً

---

(١) أي : لزم انتفاء وجود الباري تعالىٰ مع ذٰلك الضد من الابتداء أصلاً ؛ لأن التضاد يمنع الاجتماع بين الشيئين اللذين اتصفا به . « إتحاف » (٩٨/٢) .

(٢) وهٰذا باطل لا يتصوّر ؛ فالجوهر جائز الوجود ، والجائز لا يكون قديماً ؛ لافتقاره إلىٰ موجد يخصصه .

(٣) انظر « الاقتصاد » (ص ١٠٧) .

في الجسمِ وقدْ كانَ موجوداً في الأزلِ وحدَهُ وما معَهُ غيرُهُ ، ثمَّ أحدثَ الأجسامَ والأعراضَ بعدَهُ ؟!

ولأنَّهُ عالمٌ قادرٌ مريدٌ خالقٌ كما سيأتي بيانُهُ ، وهـٰذهِ الأوصافُ تستحيلُ على الأعراضِ ، بلْ لا تُعقلُ إلا لموجودٍ قائمٍ بنفسِهِ ، مستقلٍّ بذاتِهِ .

وقدْ تحصَّلَ مِنْ هـٰذهِ الأصولِ أنَّهُ موجودٌ قائمٌ بنفسِهِ ، ليسَ بجوهرٍ ولا جسمٍ ولا عرضٍ ، وأنَّ العالمَ كلَّهُ جواهرُ وأعراضٌ وأجسامٌ ، فإذاً ؛ لا يشبهُ شيئاً ولا يشبهُهُ شيءٌ ، بلْ هوَ القيُّومُ الحيُّ ، الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ[1]

وأنَّىٰ يشبهُ المخلوقُ خالقَهُ ، والمقدَّرُ المصوَّرُ مقدِّرَهُ ومصوِّرَهُ ، والأجسامُ والأعراضُ كلُّها مِنْ خلقِهِ وصنعِهِ ؟!

فاستحالَ القضاءُ عليها بمماثلتِهِ ومشابهتِهِ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ السابعُ : العلمُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ منزَّهُ الذاتِ عنِ الاختصاصِ بالجهاتِ :

فإنَّ الجهةَ : إمَّا فوقٌ وإمَّا أسفلُ ، وإمَّا يمينٌ وإمَّا شمالٌ ، أوْ قدَّامٌ أوْ خلفٌ ، وهـٰذهِ الجهاتُ هوَ الذي خلقَها وأحدثَها بواسطةِ خلْقِ الإنسانِ ؛ إذْ خلَقَ لهُ طرفينِ : أحدُهُما يعتمدُ على الأرضِ ويسمَّىٰ رِجْلاً ، والآخرُ يقابلُهُ ويسمَّىٰ رأساً ، فحدثَ اسمُ الفوقِ لما يلي جهةَ الرأسِ ، واسمُ السفْلِ لما يلي جهةَ الرِّجلِ ، حتَّىٰ إنَّ النملةَ التي تدبُّ منتكسَةً تحتَ السقفِ تنقلبُ جهةُ الفوقِ في حقِّها تحتاً وإنْ كانَ في حقِّنا فوقاً .

وخلَقَ للإنسانِ اليدينِ وإحداهُما أقوىٰ مِنَ الأخرىٰ في الغالبِ ، فحدثَ اسمُ اليمينِ للأقوىٰ ، والشمالِ لما يقابلُهُ ، وتُسمَّى الجهةُ التي تلي اليمينَ يميناً ، والأخرىٰ شمالاً ، وخلقَ لهُ جانبينِ يبصرُ مِنْ أحدِهما ويتحرَّكُ إليهِ ، فحدثَ اسمُ القدَّامِ للجهةِ التي يتقدَّمُ إليها بالحركةِ ، واسمُ الخلفِ لما يقابلُهُ .

فالجهاتُ حادثةٌ بحدوثِ الإنسانِ ، ولوْ لمْ يُخلَقِ الإنسانُ بهـٰذهِ الخلقةِ ، بلْ خُلِقَ مستديراً كالكرَةِ . . لمْ يكنْ لهـٰذهِ الجهاتِ وجودٌ ألبتةَ ، فكيفَ كانَ في الأزلِ مختصّاً بجهةٍ والجهةُ حادثةٌ ؟! أوْ كيفَ صارَ مختصّاً بجهةٍ بعدَ أنْ لمْ يكنْ ؟

أَبِأَنْ خلقَ العالمَ فوقَهُ ويتعالىٰ عنْ أنْ يكونَ لهُ فوقٌ ؛ إذْ تعالىٰ أنْ يكونَ له رأسٌ ، والفوقُ عبارةٌ عمّا يكونُ جهةَ الرأسِ ، أوْ خَلَقَ العالمَ تحتَهُ وتعالىٰ عَنْ أنْ يكونَ لهُ تحتٌ ؛ إذْ تعالىٰ عَنْ أنْ يكونَ لهُ رِجْلٌ ، والتحتُ عبارةٌ عمَّا يلي جهةَ الرِّجْلِ ، وكلُّ ذٰلكَ ممَّا يستحيلُ في العقْلِ .

ولأنَّ المعقولَ مِنْ كونِهِ مختصّاً بجهةٍ أنَّهُ مختصٌّ بالحيِّزِ اختصاصَ الجواهرِ ، أوْ مختصٌّ بالجوهرِ اختصاصَ العرضِ ، وقدْ ظهرَ استحالةُ كونِهِ جوهراً أوْ عرضاً ؛ فاستحالَ كونُهُ مختصّاً بالجهةِ .

وإنْ أُريدَ بالجهةِ غيرُ هـٰذينِ المعنيينِ . . كانَ غلطاً في الاسمِ معَ المساعدةِ على المعنىٰ[2]

ولأنَّهُ لوْ كانَ فوقَ العالمِ . . لكانَ محاذياً لهُ ، وكلُّ محاذٍ لجسمٍ فإمَّا أنْ يكونَ مثلَهُ أوْ أصغرَ منهُ أوْ أكبرَ ، وكلُّ ذٰلكَ تقديرٌ يُحوجُ إلىٰ مقدِّرٍ ، ويتعالىٰ عنهُ الخالقُ الواحدُ المدبِّرُ .

---

(١) قد علم من هـٰذه الأصول ـ وهي الرابع والخامس والسادس ـ مخالفته تعالىٰ للحوادث ، وقيامه بنفسه . « إتحاف » (١٠١/٢) .

(٢) ولـٰكن ينظر فيه : أيرجع ذٰلك المعنىٰ إلىٰ تنزيهه سبحانه عما لا يليق بجلاله ، فيُخَطَّأُ من أراده في مجرد التعبير عنه بالجهة ؛ لإيهامه ما لا يليق ، ولعدم وروده في اللغة ، أو يرجع إلىٰ غيره فيُردُّ قوله صوناً عن الضلالة ؟ « إتحاف » (١٠٤/٢) .

فأمَّا رفعُ الأيدي عندَ السؤالِ إلىٰ جهةِ السماءِ . . فهوَ لأنَّها قبلةُ الدعاءِ ، وفيهِ أيضاً إشارةُ إلىٰ ما هوَ وصْفٌ للمدعوّ مِنَ الجلالِ والكبرياءِ ، تنبيهاً بقصْدِ جهةِ العلوّ علىٰ صفةِ المجْدِ والعلاءِ ؛ فإنَّهُ تعالىٰ فوقَ كلِّ موجودٍ بالقهْرِ والاستيلاءِ [1] .

❀ ❀ ❀

الأصلُ الثامنُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ مستوٍ علىٰ عرشِهِ بالمعنى الذي أرادَهُ تعالىٰ بالاستواءِ :

وهوَ الذي لا ينافي وصْفَ الكبرياءِ ، ولا يتطرَّقُ إليهِ سِماتُ الحدوثِ والفناءِ ، وهوَ الذي أُريدَ بالاستواءِ إلى السماءِ حيثُ قالَ في القرآنِ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ ، وليسَ ذلكَ إلا بطريقِ القهرِ والاستيلاءِ [2] ، كما قالَ الشاعرُ [3] : [من الرجز]

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

واضْطَرَّ أهلَ الحقِّ إلىٰ هٰذا التأويلِ ما اضْطَرَّ أهلَ الباطلِ إلىٰ تأويلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ؛ إذْ حُمِلَ ذلكَ بالاتفاقِ على الإحاطةِ والعلمِ ، وحُمِلَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ » [4] على القدرةِ والقهْرِ ، وحُمِلَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ في أرضِهِ » [5] على التشريفِ والإكرامِ ؛ لأنَّهُ لوْ تُركَ علىٰ ظاهرِهِ . . للزمَ منهُ المحالُ ؛ فكذا الاستواءُ لوْ تُركَ على الاستقرارِ والتمكُّنِ . . لزمَ منهُ كونُ المتمكِّنِ جسماً مماسّاً للعرشِ ، إمَّا مثلَهُ أوْ أكبرَ منهُ أوْ أصغرَ ، وذلكَ محالٌ ، وما يؤدي إلى المحالِ فهوَ محالٌ .

❀ ❀ ❀

الأصلُ التاسعُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ معَ كونِهِ منزَّهاً عنِ الصورةِ والمقدارِ مقدَّساً عنِ الجهاتِ والأقطارِ . . مرئيٌّ بالأعينِ والأبصارِ في الدارِ الآخرةِ دارِ القرارِ :

لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [6] ، ولا يُرىٰ في الدنيا تصديقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ ، ولقولِهِ تعالىٰ في خطابِ موسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ .

وليتَ شعري ؛ كيفَ عرفَ المعتزليُّ مِنْ صفاتِ ربِّ الأربابِ ما جهلَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ ؟! [7] أوْ كيفَ سألَ موسىٰ

---

(١) وانظر للمؤلف رحمه الله لطيفة في سرّ التوجه بالدعاء إلى السماء في « الاقتصاد » (ص ١١٤) ، وسبب اختيار المصنف لصفة القهر والاستيلاء بالذات كون هٰذه الصفة محكية في كتاب الله بحقّه سبحانه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ .

(٢) كما قال المؤلف في « الاقتصاد » (ص ١٢٦) : (ولذلك قال بعض السلف ـ وهو سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ ـ : أفهم من قوله : ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ما فُهِمَ من قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾) .

(٣) البيت للبعيث المجاشعي ، انظر « الأزمنة والأمكنة » (٤٩/١) ، و« يتيمة الدهر » (٢٧٦/٥) ، و« مرآة الجنان » (١٤٨/١) .

(٤) رواه مسلم (٢٦٥٤) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٥٧/١) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٦٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٦) أي : مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفُلُ عمَّا سواه . « إتحاف » (١١٣/٢) .

(٧) إذْ سؤاله عليه السلام لها دليل علىٰ جوازها في حقّه سبحانه ، ويستحيل أن يجهل النبي ما يجوز في حقّه تعالىٰ وما يستحيل ويعلم ذلك عامة المعتزلة . انظر « الاقتصاد » (ص ١٣٨) وما بعدها .

عليهِ السلامُ الرؤيةَ معَ كونِها محالاً ؟! ولعلَّ الجهلَ بذوي البدعِ والأهواءِ مِنَ الجهلةِ الأغبياءِ أولىٰ مِنَ الجهْلِ بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ .

وأمَّا وجْهُ إجراءِ آيةِ الرؤيةِ على الظاهرِ . . فهوَ أنَّهُ غيرُ مؤدٍّ إلى المحالِ ؛ فإنَّ الرؤيةَ نوعُ كشْفٍ وعلْمٍ ، إلا أنَّهُ أتمُّ وأوضحُ مِنَ العلْمِ [1] ، فإذا جازَ تعلُّقُ العلْمِ بهِ وليسَ في جهةٍ . . جازَ تعلُّقُ الرؤيةِ بهِ وليسَ بجهةٍ ، وكما جازَ أنْ يرى اللهُ تعالى الخلْقَ وليسَ في مقابلتِهِمْ . . جازَ أنْ يراهُ الخلْقُ مِنْ غيرِ مقابلةٍ ، وكما جازَ أنْ يُعلمَ مِنْ غيرِ كيفيَّةٍ وصورةٍ . . جازَ أنْ يُرىٰ كذلكَ مِنْ غيرِ كيفيَّةٍ وصورةٍ .

❋ ❋ ❋

الأصلُ العاشرُ : العلمُ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، فردٌ لا ندَّ لهُ :

انفردَ بالخلْقِ والإبداعِ ، واستبدَّ بالإيجادِ والاختراعِ ، لا مثْلَ لهُ يساهمُهُ ويساويهِ ، ولا ضدَّ لهُ فينازعُهُ ويناويهِ .

وبرهانُهُ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

وبيانُهُ : أنَّهُ لوْ كانا اثنينِ وأرادَ أحدُهُما أمراً ؛ فالثاني إنْ كانَ مضطراً إلىٰ مساعدتِهِ . . كانَ هـٰذا الثاني مقهوراً عاجزاً ولمْ يكنْ إلـٰهاً قادراً ، وإنْ كانَ قادراً علىٰ مخالفتِهِ ومدافعتِهِ . . كانَ الثاني قويّاً قاهراً ، والأوَّلُ ضعيفاً قاصراً ، فلمْ يكنْ إلـٰهاً قادراً .

❋ ❋ ❋

(١) يقول ابن أبي الشريف في « المسامرة » (ص ١٠٣) : (إذا نظرنا إلى الشمس مثلاً ، فرأيناها ثم أغمضنا العين . . فإنَّا نعلم الشمس عند التغميض علماً جلياً ، لـٰكن في الحالة الأولىٰ أمرٌ زائد ، وكذا إذا علمنا شيئاً علماً تامّاً جلياً ثم رأيناه . . فإنا ندرك بالبديهة تفرقة بين الحالتين ، وهـٰذا الإدراك المشتمل على الزيادة نسميه الرؤية) .

الركن الثاني : العلم بصفات الله تعالىٰ
ومداره على عشرة أصول

الأصلُ الأوَّلُ : العلمُ بأنَّ صانعَ العالَمِ قادرٌ :

وأنَّـهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ صادقٌ ؛ لأنَّ العالمَ محكمٌ في صنعتِهِ ، مرتَّبٌ في خِلْقَتِهِ ، ومَنْ رأىٰ ثوباً مِنْ ديباجٍ حسنَ النسْجِ والتأليفِ ، متناسبَ التطريزِ والتطريفِ ، ثمَّ توهَّمَ صدورَ نسجِهِ مِنْ ميْتٍ لا استطاعةَ لهُ ، أوْ إنسانٍ لا قدرةَ لهُ . . كانَ منخلعاً عنْ غريزةِ العقْلِ ، ومنخرطاً في سلْكِ أهلِ الغباوةِ والجهلِ .

❀ ❀ ❀

الأصلُ الثاني : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ عالمٌ بجميعِ الموجوداتِ ، ومحيطٌ بكلِّ المخلوقاتِ :

لا يعزبُ عَنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماواتِ ، صادقٌ في قولِهِ : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، ومرشدٌ إلىٰ صدقِهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[(1)] ، أرشدَكَ إلى الاستدلالِ بالخلْقِ على العلمِ ؛ لأنَّكَ لا تستريبُ في دلالةِ الخلْقِ اللطيفِ ، والصنعِ المزيَّنِ بالترتيبِ ولوْ في الشيءِ الحقيرِ الضعيفِ علىٰ علمِ الصانعِ بكيفيةِ الترتيبِ والترصيفِ ، فما ذكرَهُ اللهُ سبحانَهُ هوَ المنتهىٰ في الهدايةِ والتعريفِ .

❀ ❀ ❀

الأصلُ الثالثُ : العلمُ بكونِهِ عزَّ وجلَّ حيّاً :

فإنَّ مَنْ ثبتَ علمُهُ وقدرتُهُ . . ثبتَ بالضرورةِ حياتُهُ ، ولوْ تُصُوِّرَ قادرٌ عالمٌ فاعلٌ مدبِّرٌ دونَ أنْ يكونَ حيّاً . . لجازَ أنْ يشكَّ في حياةِ الحيواناتِ عندَ تردُّدِها في الحركاتِ والسكناتِ ، بلْ في حياةِ أربابِ الحرفِ والصناعاتِ ، وذٰلكَ انغماسٌ في غمرةِ الجهالاتِ والضلالاتِ .

❀ ❀ ❀

الأصلُ الرابعُ : العلمُ بكونِهِ تعالىٰ مريداً لأفعالِهِ :

فلا موجودَ إلا وهوَ مستندٌ إلىٰ مشيئتِهِ ، وصادرٌ عَنْ إرادتِهِ ، فهوَ المبدئُ المعيدُ ، والفعَّالُ لما يريدُ ، وكيفَ لا يكونُ مريداً وكلُّ فعلٍ صدرَ منهُ أمكنَ أنْ يصدرَ منهُ ضدُّهُ ، وما لا ضدَّ لهُ أمكنَ أنْ يصدرَ منهُ ذٰلكَ بعينِهِ قبلَهُ أوْ بعدَهُ : والقدرةُ تناسبُ الضدَّينِ والوقتينِ مناسبةً واحدةً ؟!

فلا بدَّ مِنْ إرادةٍ صارفةٍ للقدرةِ إلىٰ أحدِ المقدورينِ ، ولوْ أغنى العلْمُ عنِ الإرادةِ في تخصيصِ المعلومِ حتَّىٰ يقالُ :

---

(١) ومناسبةُ اسم (اللطيف) للعلم كما قال المصنف رحمه الله في « المقصد الأسنىٰ » (ص ٨٢) : (إنما يستحق هـٰذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، وما دقَّ منها وما لطف ، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيلَ الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك . . تم معنى اللطف ، ولا يتصور كمال ذٰلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالىٰ ، فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذٰلك ، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق . . .) .

إنَّما وجدَ في الوقتِ الذي سبقَ العلمُ بوجودِهِ . . لجازَ أنْ يغنيَ عنِ القدرةِ حتَّىٰ يُقالُ : وجدَ بغيرِ قدرةٍ ؛ لأنَّهُ سبقَ العلمُ بوجودِهِ فيهِ [١]

❁ ❁ ❁

الأصلُ الخامسُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ سميعٌ بصيرٌ :

لا يعزبُ عَنْ رؤيتِهِ هواجسُ الضميرِ وخفايا الوهمِ والتفكيرِ ، ولا يشذُّ عنْ سمعِهِ صوتُ دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ على الصخرةِ الصمَّاءِ .

وكيفَ لا يكونُ سميعاً بصيراً والسمعُ والبصرُ كمالٌ ـ لا محالةَ ـ وليسا بنقصٍ ؟! فكيفَ يكونُ المخلوقُ أكملَ مِنَ الخالقِ ، والمصنوعُ أشرفَ وأتمَّ منَ الصانعِ ؟!

وكيفَ تعتدلُ القسمةُ مهما وقعَ النقصُ في جَنَبَتِهِ والكمالُ في خلقِهِ وصنعتِهِ ؟![٢]

أوْ كيفَ تستقيمُ حجَّةُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ على أبيهِ إذْ كانَ يعبدُ الأصنامَ جهلاً وغيّاً ، فقالَ لهُ : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ ، ولوِ انقلبَ ذٰلكَ عليهِ في معبودِهِ . . لأضحتْ حجتُهُ داحضةً ودلالتُهُ ساقطةً ، ولمْ يصدُقْ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ؟!

وكما عُقلَ كونُهُ فاعلاً بلا جارحةٍ ، وعالماً بلا قلبٍ ودماغٍ . . فليُعقلْ كونُهُ بصيراً بلا حدقةٍ ، وسميعاً بلا أُذُنٍ ؛ إذْ لا فرقَ بينَهُما .

❁ ❁ ❁

الأصلُ السادسُ : أنَّهُ تعالىٰ متكلِّمٌ بكلامٍ :

وهوَ وصفٌ قائمٌ بذاتِهِ ليسَ بصوتٍ ولا حرفٍ ، بلْ لا يشبهُ كلامُهُ كلامَ غيرِهِ ، كما لا يشبهُ وجودُهُ وجودَ غيرِهِ .

والكلامُ بالحقيقةِ كلامُ النفسِ ، وإنَّما الأصواتُ قُطِّعَتْ حروفاً للدلالاتِ عليهِ ؛ كما يُدَلُّ عليهِ تارةً بالحركاتِ والإشاراتِ ، وكيفَ التبسَ هٰذا علىٰ طائفةٍ مِنَ الأغبياءِ ولمْ يلتبسْ علىٰ جهلةِ الشعراءِ ، حتّىٰ قالَ قائلُهُمْ[٣] : [من الكامل]

إنَّ الْكَلامَ لَفِي الْفُؤادِ وَإنَّما ... جُعِلَ اللِّسانُ عَلَى الْفُؤادِ دَلِيلا

ومَنْ لمْ يعقلْهُ عقلُهُ ولا نهاهُ نُهاهُ[٤] عنْ أنْ يقولَ : لساني حادثٌ ولٰكنْ ما يحدثُ فيهِ بقدرتي الحادثةِ قديمٌ . . فاقطعْ عنْ عقلِهِ طمعَكَ ، وكُفَّ عنْ خطابِهِ لسانَكَ ، ومَنْ لمْ يفهمْ أنَّ القديمَ عبارةٌ عمَّا ليسَ قبلَهُ شيءٌ ، وأنَّ الباءَ قبلَ السينِ في قولِكَ : باسمِ اللهِ ، فلا يكونُ السينُ المتأخِّرُ عنِ الباءِ قديماً . . فنزِّهْ عنِ الالتفاتِ إليهِ قلبَكَ ، فللهِ سبحانَهُ سرٌّ في إبعادِ بعضِ العبادِ ، ومنْ يضللِ اللهُ فما لهُ منْ هادٍ .

---

(١) وضَّح المؤلف رحمه الله الرد علىٰ هٰذه الشبهة في « الاقتصاد » (ص ١٦٩) ، وكذا إمام الحرمين في « الإرشاد » (ص ٦٤) .

(٢) **الجنبة** : الجانب ، والمراد : في حقِّه تعالىٰ .

(٣) نسب البيت إلى الأخطل وليس في « ديوانه » ، ونسب إلى ابن صمصام الرقاش ، انظر « ذيل مرآة الزمان » (٣/١٨٩) ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٢/١٤٦) .

(٤) **نهاه** : عقله ، ويستعمل هٰذا اللفظ جمعاً ومفرداً .

ومنِ استبعدَ أنْ يسمعَ موسىٰ عليهِ السلامُ في الدنيا كلاماً ليسَ بصوتٍ ولا حرفٍ . . فليستنكرْ أنْ يرىٰ في الآخرةِ موجوداً ليسَ بجسمٍ ولا لونٍ .

وإنْ عقلَ أنْ يرىٰ ما ليسَ بلونٍ ولا جسمٍ ولا قدْرٍ ولا كمّيَّةٍ وهوَ إلى الآنَ لمْ يرَ غيرَهُ . . فليعقلْ في حاسَّةِ السمعِ ما عقلَهُ في حاسَّةِ البصرِ .

وإنْ عقلَ أنْ يكونَ لهُ علمٌ واحدٌ هوَ علمٌ بجميعِ الموجوداتِ . . فليعقلْ صفةً واحدةً للذاتِ هوَ كلامٌ بجميعِ ما دلَّ عليهِ بالعباراتِ [1]

وإنْ عقلَ كونَ السماواتِ السبعِ وكونَ الجنَّةِ والنارِ مكتوبةً في ورقةٍ صغيرةٍ ومحفوظةً في مقدارِ ذرَّةٍ مِنَ القلْبِ ، وأنَّ كلَّ ذٰلكَ مرئيٌّ في مقدارِ عدسةٍ مِنَ الحدقةِ مِنْ غيرِ أنْ تحلَّ ذاتُ السماواتِ والأرضِ والجنَّةِ والنارِ في الحدقةِ والقلبِ والورقةِ . . فليعقلْ كونَ الكلامِ مقروءاً بالألسنةِ ، محفوظاً في القلوبِ ، مكتوباً في المصاحفِ ، مِنْ غيرِ حلولِ ذاتِ الكلامِ فيها ؛ إذْ لوْ حلَّتْ بكتابِ ذاتُ الكلامِ . . لحلَّ ذاتُ اللهِ تعالىٰ بكتابةِ اسمِهِ في الورقِ ، وحلَّتْ ذاتُ النارِ بكتابةِ اسمِها في الورقِ ، ولاحترقَ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ السابعُ : أنَّ كلامَهُ القائمَ بنفسِهِ قديمٌ ، وكذا جميعُ صفاتِهِ :

إذْ يستحيلُ أنْ يكونَ محلّاً للحوادثِ داخلاً تحتَ التغيُّرِ ، بلْ يجبُ للصفاتِ مِنْ نعوتِ القدمِ ما يجبُ للذاتِ ، فلا تعتريهِ التغيُّراتُ ، ولا تحلُّهُ الحادثاتُ ، بلْ لمْ يزلْ في قدمِهِ موصوفاً بمحامدِ الصفاتِ ، ولا يزالُ في أبدِهِ كذٰلكَ منزَّهاً عنْ تغيُّرِ الحالاتِ ؛ لأنَّ ما كانَ محلَّ الحوادثِ لا يخلو عنها ، وما لا يخلو عنِ الحوادثِ فهوَ حادثٌ ، وإنَّما ثبتَ نعتُ الحدوثِ للأجسامِ مِنْ حيثُ تعرُّضُها للتغيُّرِ وتقلُّبِ الأوصافِ ، فكيفَ يكونُ خالقُها مشاركاً لها في قبولِ التغيُّرِ ؟!

وينبني علىٰ هٰذا : أنَّ كلامَهُ قديمٌ قائمٌ بذاتِهِ ، وإنَّما الحادثُ هيَ الأصواتُ الدالَّةُ عليهِ .

وكما عقلَ قيامُ طلبِ التعلُّمِ وإرادتُهُ بذاتِ الوالدِ للولدِ قبلَ أنْ يُخلقَ ولدُهُ ، حتَّىٰ إذا خُلِقَ ولدُهُ وعَقَلَ ، وخلقَ اللهُ لهُ علماً متعلِّقاً بما في قلبِ أبيهِ مِنَ الطلبِ . . صارَ مأموراً بذٰلكَ الطلبِ الذي قامَ بذاتِ أبيهِ ودامَ وجودُهُ إلىٰ وقتِ معرفةِ ولدِهِ . . فليُعقلْ قيامُ الطلبِ الذي دلَّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ بذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومصيرُ موسىٰ عليهِ السلامُ مخاطباً بهِ بعدَ وجودِهِ ؛ إذْ خُلقتْ لهُ معرفةٌ بذٰلكَ الطلبِ ، وسمعَ لذٰلكَ الكلامِ القديمِ [2]



الأصلُ الثامنُ : أنَّ علمَهُ قديمٌ :

فلمْ يزلْ عالماً بذاتِهِ وصفاتِهِ ، وما يحدثُهُ مِنْ مخلوقاتِهِ ، ومهما حدثتِ المخلوقاتُ . . لمْ يحدثْ لهُ علْمٌ بها ، بلْ حصلتْ مكشوفةً لهُ بالعلْمِ الأزليِّ ؛ إذْ لوْ خُلقَ لنا علمٌ بقدومِ زيدٍ عندَ طلوعِ الشمسِ ، ودامَ ذٰلكَ العلمُ تقديراً حتَّىٰ

---

(١) أي : من أمر ونهي وإخبار ونحو ذٰلك .

(٢) و(سمع) يتعدىٰ باللام تارة ـ كما هو هنا ـ ومثله : سمع الله لمن حمده . « إتحاف » (٢/١٥٢) ، أو السياق : (وسمعٌ لذٰلك . . .) معطوفاً علىٰ (معرفة) ، ومن جعل سمعه للقرآن سمعاً للكلام القديم النفسي . . فقد نفى المزيَّة التي هي خصيصة لسيدنا موسىٰ عليه السلام .

طلعتِ الشمسُ . . لكانَ قدومُ زيدٍ عندَ الطلوعِ معلوماً لنا بذٰلكَ العلمِ مِنْ غيرِ تجدُّدِ علمٍ آخرَ ؛ فهٰكذا ينبغي أنْ يُفهمَ قدمُ علمِ اللهِ تعالىٰ .

❋ ❋ ❋

الأصلُ التاسعُ : أنَّ إرادتَهُ قديمةٌ :

وهيَ في القدمِ تعلَّقتْ بإحداثِ الحوادثِ في أوقاتِها اللائقةِ بها علىٰ وَفْقِ سبقِ العلمِ الأزليِّ ؛ إذْ لوْ كانتْ حادثةً . . لصارَ محلاًّ للحوادثِ ، ولوْ حدثتْ في غيرِ ذاتِهِ . . لمْ يكنْ هوَ مريداً بها ؛ كما لا تكونُ أنتَ متحرِّكاً بحركةٍ ليستْ في ذاتِكَ ، وكيفَما قدَّرتَ . . فيفتقرُ حدوثُها إلىٰ إرادةٍ أُخرىٰ ، وكذٰلكَ الإرادةُ الأخرىٰ تفتقرُ إلىٰ أخرىٰ ، ويتسلسلُ الأمرُ إلىٰ غيرِ نهايةٍ .

ولوْ جازَ أنْ تَحْدُثَ إرادةٌ بغيرِ إرادةٍ . . لجازَ أنْ يَحْدُثَ العالمُ بغيرِ إرادةٍ .

❋ ❋ ❋

الأصلُ العاشرُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ عالمٌ بعلْمٍ ، حيٌّ بحياةٍ ، قادرٌ بقدرةٍ ، ومريدٌ بإرادةٍ ، ومتكلِّمٌ بكلامٍ ، وسميعٌ بسمْعٍ ، وبصيرٌ ببصرٍ (١) :

ولهُ هٰذهِ الأوصافُ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ القديمةِ ، وقولُ القائلِ : (عالمٌ بلا علمٍ) كقولِهِ : (غنيٌّ بلا مالٍ ، وعلمٌ بلا عالمٍ ، وعالمٌ بلا معلومٍ) ، فإنَّ العلمَ والمعلومَ والعالمَ متلازمةٌ ؛ كالقتلِ والمقتولِ والقاتلِ ، وكما لا يُتصوَّرُ قاتلٌ بلا قتلٍ ولا قتيلٍ ، ولا يُتصوَّرُ قتيلٌ بلا قاتلٍ ولا قتلٍ . . كذٰلكَ لا يُتصوَّرُ عالمٌ بلا علمٍ ، ولا علمٌ بلا معلومٍ ، ولا معلومٌ بلا عالمٍ ، بلْ هٰذهِ الثلاثةُ متلازمةٌ في العقلِ ، لا ينفكُّ بعضٌ منها عنِ البعضِ ، فمَن جوَّزَ انفكاكَ العالِمِ عنِ العلمِ . . فليجوِّزِ انفكاكَهُ عنِ المعلومِ ، وانفكاكَ العلمِ عنِ العالمِ ؛ إذْ لا فرقَ بينَ هٰذهِ الأوصافِ (٢) .

❋ ❋ ❋

---

(١) اعلم : أن المتكلمين علىٰ قسمين ؛ منهم من يثبت الأحوال ، ومنهم من ينفيها ، فمن يثبت الأحوال كالقاضي والإمام والمصنف . . فعبارته أن يقول : (عالم بعلم ، حي بحياة) ، ومن ينفي الأحوال . . فعبارته أن يقول : (عالم وله علم ، قادر وله قدرة) . « إتحاف » (١٥٣/٢) .

(٢) وإنما أثبتنا الصفات زائدة علىٰ مفهوم الذات ؛ لأنه تعالىٰ أطلق علىٰ نفسه هٰذه الأسماء في كتابه علىٰ لسان نبيه ، خطاباً لمن هو من أهل اللغة ، والمفهوم في اللغة من « عليم » : ذات لها علم ، ومن « قدير » : ذات لها قدرة ، . . .) . « إتحاف » (١٥٤/٢) .

الرّكن الثّالث : العلم بأفعال الله تعالىٰ

ومداره على عشرة أصول

الأصلُ الأوَّلُ : العلمُ بأنَّ كلَّ حادثٍ في العالمِ .. فهوَ فعلُهُ وخلقُهُ واختراعُهُ[1] :

لا خالقَ لهُ سواهُ ، ولا محدِثَ لهُ إلا إيَّاهُ ، خلقَ الخلْقَ وصنعَتَهُمْ ، وأوجدَ قدرتَهُمْ وحركتَهُمْ ، فجميعُ أفعالِ عبادِهِ مخلوقةٌ لهُ ، ومتعلِّقةٌ بقدرتِهِ ، تصديقاً لهُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

أمرَ العبادَ بالتحرُّزِ في أقوالِهِمْ وأفعالِهِمْ وإسرارِهِمْ وإضمارِهِمْ[2] ؛ لعلمِهِ بمواردِ أفعالِهِمْ .

واستدلَّ على العلمِ بالخلْقِ ، وكيفَ لا يكونُ خالقاً لفعلِ العبدِ وقدرتُهُ تامَّةٌ لا قصورَ فيها وهيَ متعلِّقةٌ بحركاتِ أبدانِ العبادِ ، والحركاتُ متماثلةٌ ، وتعلُّقُ القدرةِ بها لذاتِها ؟!

فما الذي يُقْصِرُ تعلُّقَها عنْ بعضِ الحركاتِ دونَ بعضٍ معَ تماثلِها ؟

أوْ كيفَ يكونُ الحيوانُ مستبدّاً بالاختراعِ ويصدرُ مِنَ العنكبوتِ والنحْلِ وسائرِ الحيواناتِ مِنْ لطائفِ الصناعاتِ ما يتحيَّرُ فيهِ عقولُ ذوي الألبابِ ؟! فكيفَ انفردتْ هيَ باختراعِها دونَ ربِّ الأربابِ وهيَ غيرُ عالمةٍ بتفصيلِ ما يصدرُ منها مِنَ الاكتسابِ ؟!

هيهاتَ هيهاتَ !! ذلَّتِ المخلوقاتُ ، وتفرَّدَ بالملكِ والملكوتِ جبَّارُ الأرضِ والسماواتِ .

❀ ❀ ❀

الأصلُ الثاني : أنَّ انفرادَ اللهِ سبحانَهُ باختراعِ حركاتِ العبادِ لا يخرجُها عنْ كونِها مقدورةً للعبادِ علىٰ سبيلِ الاكتسابِ :

بلِ اللهُ تعالىٰ خلقَ القدرةَ والمقدورَ جميعاً ، وخلقَ الاختيارَ والمختارَ .

فأمَّا القدرةُ : فوصفٌ للعبدِ ، وخلْقٌ للربِّ سبحانَهُ ، وليسَتْ بكسبٍ لهُ .

وأمَّا الحركةُ : فخلْقٌ للربِّ تعالىٰ ، ووصفٌ للعبدِ وكسبٌ لهُ ؛ فإنَّها خُلقتْ مقدورةً بقدرةٍ هيَ وصفُهُ ، فكانتْ للحركةِ نسبةٌ إلىٰ صفةٍ أخرىٰ تُسمَّىٰ قدرةً ، فسُمِّيَ باعتبارِ تلكَ النسبةِ كسباً .

وكيفَ يكونُ جبراً محضاً وهوَ بالضرورةِ يدركُ التفرقةَ بينَ الحركةِ المقدورةِ والرعدةِ الضروريَّةِ ؟! أوْ كيفَ يكونُ خلقاً للعبدِ وهوَ لا يحيطُ علماً بتفاصيلِ أجزاءِ الحركةِ المكتسبةِ وأعدادِها ؟![3]

وإذا بطلَ الطرفانِ .. لمْ يبقَ إلا الاقتصادُ في الاعتقادِ ، وهوَ أنَّها مقدورةٌ بقدرةِ اللهِ تعالى اختراعاً ، وبقدرةِ العبدِ

---

(١) **اعلم** : أن **الصفات** ضربان : صفات الذات ، وصفات الفعل ، والفرق بينهما : أن كل ما وصف الله به تعالىٰ ولا يجوز أن يوصف به وبضده .. فهو من صفات الذات ؛ كالقدرة والعلم والعزة والعظمة ، وكل ما يجوز أن يوصف به وبضده .. فهو من صفات الفعل ؛ كالرأفة والرحمة والسخط والغضب . « إتحاف » (٢/١٥٧) .

(٢) أو المراد : (أسرارهم وأضمارهم) جمع ضمير ؛ كشريف وأشراف ؛ لموافقة السجعة ، كذا اختار الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢/١٦٤) .

(٣) وفي هٰذين الاستفهامين الإنكاريين ردٌّ على الجبرية والمعتزلة ؛ تمهيداً لتفصيل قول أهل السنة .

علىٰ وجهٍ آخرَ مِنَ التعلُّقِ يُعبَّرُ عنهُ بالاكتسابِ[1] ، وليسَ مِنْ ضرورةِ تعلُّقِ القدرةِ بالمقدورِ أنْ يكونَ بالاختراعِ فقطْ ؛ إذْ قدرةُ اللهِ تعالىٰ في الأزلِ كانتْ متعلِّقةً بالعالمِ ولمْ يكنِ الاختراعُ حاصلاً بها ، وهيَ عندَ الاختراعِ متعلِّقةٌ بهِ نوعاً آخرَ مِنَ التعلُّقِ ، فبهِ يظهرُ أنَّ تعلُّقَ القدرةِ ليسَ مخصوصاً بحصولِ المقدورِ بها .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثالثُ : أنَّ فعلَ العبدِ وإنْ كانَ كسباً للعبدِ فلا يخرجُ عنْ كونِهِ مراداً للهِ تعالىٰ :

فلا يجري في الملكِ والملكوتِ طرفةُ عينٍ ، ولا فلتةُ خاطرٍ ولا لفتةُ ناظرٍ إلا بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ ، وبإرادتِهِ ومشيئتِهِ ، فمنهُ الخيرُ والشرُّ ، والنفعُ والضرُّ ، والإسلامُ والكفرُ ، والعرفانُ والنكْرُ ، والفوزُ والخسْرُ ، والغوايةُ والرشْدُ ، والطاعةُ والعصيانُ ، والشرْكُ والإيمانُ ، لا رادَّ لقضائِهِ ، ولا معقِّبَ لحكْمِهِ ، يضلُّ مَنْ يشاءُ ويهدي مَنْ يشاءُ ، لا يُسأَلُ عمَّا يفعلُ وهمْ يُسألونَ[2]

ويدلُّ عليهِ مِنَ النقلِ قولُ الأمَّةِ قاطبةً : (ما شاءَ اللهُ . . كانَ ، وما لمْ يشأْ . . لمْ يكنْ)[3] ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ .

ويدلُّ عليهِ مِنْ جهةِ العقلِ أنَّ المعاصيَ والجرائمَ إنْ كانَ اللهُ يكرهُها ولا يريدُها ، وإنَّما هيَ جاريةٌ علىٰ وَفْقِ إرادةِ إبليسَ لعنَهُ اللهُ معَ أنَّهُ عدوٌّ للهِ سبحانَهُ . . فالجاري علىٰ وَفْقِ إرادةِ العدوِّ أكثرُ مِنَ الجاري علىٰ وَفْقِ إرادتِهِ تعالىٰ .

فليتَ شعري ؛ كيفَ يستجيزُ المسلمُ أنْ يُرَدَّ ملْكُ الجبارِ ذي الجلالِ والإكرامِ إلىٰ رتبةٍ لوْ رُدَّتْ إليها رئاسةُ زعيمِ ضيعةٍ . . لاستنكفَ منها ؟! إذْ لوْ كانَ ما يستمرُّ لعدوِّ الزعيمِ في القريةِ أكثرَ ممَّا يستمرُّ لهُ . . لاستنكفَ مِنْ زعامتِهِ وتبرَّأَ عنْ ولايتِهِ ، والمعصيةُ هيَ الغالبةُ على الخلْقِ ، وكلُّ ذٰلكَ جارٍ عندَ المبتدعةِ علىٰ خلافِ إرادةِ الحقِّ تعالىٰ ، وهٰذا غايةُ الضعْفِ والعجزِ ، تعالىٰ ربُّ الأربابِ عنْ قولِ الظالمينَ علوّاً كبيراً .

ثمَّ مهما ظهرَ أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ تعالىٰ . . صحَّ أنَّها مرادةٌ لهُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قيلَ : فكيفَ ينهىٰ عمَّا يريدُ ويأمرُ بما لا يريدُ ؟

قلنا : الأمرُ غيرُ الإرادةِ ، ولذٰلكَ إذا ضربَ السيِّدُ عبدَهُ ، فعاتبَهُ السلطانُ عليهِ ، فاعتذرَ بتمرُّدِ عبدِهِ عليهِ ، فكذَّبَهُ السلطانُ ، فأرادَ إظهارَ حجَّتِهِ عليهِ بأنْ يأمرَ عبدَهُ بفعلٍ ويخالفَهُ بينَ يديهِ ؛ فقالَ لهُ : أسرجْ هٰذهِ الدابَّةَ بمشهدٍ مِنَ السلطانِ ، فهوَ يأمرُهُ بما لا يريدُ امتثالَهُ ، ولوْ لمْ يكنْ آمراً . . لما كانَ عذرُهُ عندَ السلطانِ متمهِّداً ، ولوْ كانَ مريداً لامتثالِهِ . . لكانَ مريداً لهلاكِ نفسِهِ ، وهوَ محالٌ .

❁ ❁ ❁

---

(١) عملاً بظاهر قوله سبحانه : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ، والماتريدية يسمونه بالاختيار لما فيه من إشعار قدرة العبد .

(٢) وتسمية بعض الكائنات شراً بالنسبة إلىٰ تعلقه وضرره لنا ، لا بالنسبة إلىٰ صدوره عنه ، فخلْقُ الشر ليس قبيحاً ؛ إذ لا قبيح منه تعالىٰ . « إتحاف » (١٧٢/٢) .

(٣) وهٰذا القول جزء من حديث رواه أبو داوود (٥٠٧٥) ضمن كلمات علمهنَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعض بناته ، ووجه الاحتجاج به على المعتزلة كونهم ادَّعَوا خلْقاً ـ كالكفر والمعصية ـ هو له كاره غير مريد

الأصلُ الرابعُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ متفضِّلٌ بالخلْقِ والاختراعِ ، ومتطوِّلٌ بتكليفِ العبادِ ، ولمْ يكنِ الخلْقُ والتكليفُ واجباً عليهِ :

وقالتِ المعتزلةُ : وجبَ عليهِ ذٰلكَ لما فيهِ مِنْ مصلحةِ العبادِ ، وهوَ محالٌ [1] ؛ إذْ هوَ الموجِبُ والآمرُ والناهي ، وكيفَ يتهدَّفُ لإيجابٍ [2] ، أوْ يتعرَّضُ للزومٍ وخطابٍ ؟!

والمرادُ بالواجبِ أحدُ أمرينِ :

إمَّا الفعلُ الذي في تركِهِ ضررٌ : إمَّا آجلٌ ؛ كما يُقالُ : يجبُ على العبدِ أنْ يطيعَ اللهَ حتىٰ لا يعذِّبَهُ اللهُ في الآخرةِ بالنارِ ، أوْ ضررٌ عاجلٌ ؛ كما يُقالُ : يجبُ على العطشانِ أنْ يشربَ الماءَ حتَّىٰ لا يموتَ .

وإمَّا أنْ يُرادَ بهِ الذي يؤدِّي عدمُهُ إلىٰ محالٍ ؛ كما يُقالُ : وجودُ المعلومِ واجبٌ ؛ إذْ عدمُهُ يؤدي إلىٰ محالٍ ، وهوَ أنْ يصيرَ العلْمُ جهلاً .

فإنْ أرادَ الخصمُ بأنَّ الخلْقَ واجبٌ على اللهِ على المعنى الأوَّلِ . . فقدْ عرَّضَهُ للضِّرارِ ، وإنْ أرادَ بهِ المعنى الثانيَ . . فهوَ مسلَّمٌ ؛ إذْ بعدَ سبْقِ العلْمِ لا بدَّ مِنْ وجودِ المعلومِ ، وإنْ أرادَ بهِ معنىً ثالثاً . . فهوَ غيرُ مفهومٍ .

وقولُهُ : (يجبُ لمصلحةِ عبادِهِ) كلامٌ فاسدٌ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يتضرَّرْ بتركِ مصلحةِ العبادِ . . لمْ يكنْ للوجوبِ في حقِّهِ معنىً ، ثمَّ مصلحةُ العبادِ في أنْ يخلقَهُمْ في الجنَّةِ ، فأمَّا أنْ يخلقَهُمْ في دارِ البلايا ، ويعرِّضَهُمْ للخطايا ، ثمَّ يهدفَهُمْ لخطرِ العقابِ ، وهولِ العرضِ والحسابِ . . فما في ذٰلكَ غبطةٌ عندَ ذوي الألبابِ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الخامسُ : أنَّهُ يجوزُ على اللهِ سبحانَهُ أنْ يكلِّفَ عبادَهُ ما لا يطيقونَهُ :

خلافاً للمعتزلةِ ، ولوْ لمْ يجزْ ذٰلكَ . . لاستحالَ سؤالُ دفْعِهِ ، وقدْ سألوا ذٰلكَ فقالوا : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ ، ولأنَّ اللهَ تعالىٰ أخبرَ نبيَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنَّ أبا جهْلٍ لا يصدِّقُهُ ، ثمَّ أمرَهُ بأنْ يأمرَهُ بأنْ يصدِّقَهُ في جميعِ أقوالِهِ ، وكانَ مِنْ جملةِ أقوالِهِ أنَّهُ لا يصدِّقُهُ ، فكيفَ يصدِّقُهُ في أنَّهُ لا يصدِّقُهُ ؟! وهلْ هٰذا إلَّا محالٌ وجودُهُ ؟!

❁ ❁ ❁

الأصلُ السادسُ : أنَّ للهِ عزَّ وجلَّ إيلامَ الخلْقِ وتعذيبَهُمْ مِنْ غيرِ جرْمٍ سابقٍ ، ومِنْ غيرِ ثوابٍ لاحقٍ :

خلافاً للمعتزلةِ ؛ لأنَّهُ متصرِّفٌ في مِلكِهِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يعدُوَ تصرُّفُهُ مِلكَهُ ، والظلمُ هوَ عبارةٌ عنِ التصرُّفِ في ملكِ الغيرِ بغيرِ إذنِهِ ، وهوَ محالٌ على اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ لا يصادفُ لغيرِهِ مِلكاً حتَّىٰ يكونَ تصرُّفُهُ فيهِ ظلْماً .

ويدلُّ علىٰ جوازِ ذٰلكَ وجودُهُ ؛ فإنَّ ذبْحَ البهائمِ إيلامٌ لها ، وما صُبَّ عليها مِنْ أنواعِ العذابِ مِنْ جهةِ الآدميِّينَ لمْ يتقدَّمْها جريمةٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قيلَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ يحشرُها ويجازيها علىٰ قدْرِ ما قاستْهُ مِنَ الآلامِ ، ويجبُ ذٰلكَ على اللهِ سبحانَهُ .

---

(١) ونسبه المصنف رحمه الله تعالىٰ في « الاقتصاد » (ص ٢٣٣) لطائفة من المعتزلة ؛ إذ بصريو المعتزلة لا يرون ذٰلك الوجوب .

(٢) يتهدف : ينصب نفسه هدفاً مقصوداً .

فنقولُ : مَنْ زعمَ أنَّهُ يجبُ على اللهِ إحياءُ كلِّ نملةٍ وُطِئَتْ ، وكلِّ بقَّةٍ عُركَتْ حتَّىٰ يثيبَها علىٰ آلامِها . . فقدْ خرجَ عنِ الشرعِ والعقلِ ؛ إذْ يُقالُ : وصفُ الثوابِ والحشرِ بكونِهِ واجباً عليهِ إنْ كانَ المرادُ بهِ أنَّهُ يتضرَّرُ بتركِهِ . . فهوَ محالٌ ، وإنْ أُريدَ بهِ غيرُهُ . . فقدْ سبقَ أنَّهُ غيرُ مفهومٍ إذا خرجَ عنِ المعاني المذكورةِ للواجبِ[1]

❁ ❁ ❁

الأصلُ السابعُ : أنَّهُ تعالىٰ يفعلُ بعبادِهِ ما يشاءُ :

فلا يجبُ عليهِ رعايةُ الأصلحِ لعبادِهِ لما ذكرناهُ مِنْ أنَّهُ لا يجبُ عليهِ شيءٌ ، بلْ لا يُعقلُ في حقِّهِ الوجوبُ ؛ فإنَّهُ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهمْ يُسألونَ .

وليتَ شعري ؛ بِمَ يجيبُ المعتزليُّ في قولِهِ : (إنَّ الأصلحَ واجبٌ عليهِ) عنْ مسألةٍ نعرضُها عليهِ ؟ وهوَ أنْ يُفْرَضَ مناظرةٌ في الآخرةِ بينَ صبيٍّ وبينَ بالغٍ ماتَا مسلمَيْنِ ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ يزيدُ في درجاتِ البالغِ ويفضِّلُهُ على الصبيِّ ؛ لأنَّهُ تعبَ بالإيمانِ والطاعاتِ بعدَ البلوغِ ، ويجبُ عليهِ ذٰلكَ عندَ المعتزليِّ ، فلوْ قالَ الصبيُّ : يا ربِّ ؛ لِمَ رفعتَ منزلتَهُ عليَّ ؟ فيقولُ : لأنَّهُ بَلغَ واجتهدَ في الطاعاتِ ، فيقولُ الصبيُّ : أنتَ أمتَّني في الصبا ، فكانَ يجبُ عليكَ أنْ تديمَ حياتي حتَّىٰ أبلُغَ فأجتهدَ ، فقدْ عدلتَ عَنِ العدلِ في التفضُّلِ عليهِ بتطويلِ العُمُرِ لهُ دوني ، فلِمَ فضَّلْتَهُ ؟ فيقولُ اللهُ تعالىٰ : لأنِّي علمتُ أنَّكَ لوْ بلغتَ . . لأشركتَ أوْ عصيتَ ، فكانَ الأصلحَ لكَ الموتُ في الصبا ـ هٰذا عذرُ المعتزليِّ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ـ وعندَ هٰذا ينادي الكفارُ مِن دركاتِ لَظىٰ ويقولونَ : يا ربِّ ؛ أما علمتَ أنَّنا إذا بلغْنا . . أشركنا ؟! فهلَّا أمتَّنا في الصبا ؛ فإنَّا رضينا بما دونَ منزلةِ الصبيِّ المسلمِ . . فبماذا يُجابُ عنْ ذٰلكَ ؟! وهلْ يجبُ عندَ هٰذا إلا[2] القطعُ بأنَّ الأمورَ الإلٰهيةَ تتعالىٰ بحكْمِ الجلالِ عَنْ أنْ تُوزنَ بميزانِ أهلِ الاعتزالِ ؟

❁ ❁ ❁

فإنْ قيلَ : مهما قدرَ علىٰ رعايةِ الأصلحِ للعبادِ ثمَّ سلَّطَ عليهِمْ أسبابَ العذابِ . . كانَ ذٰلكَ قبيحاً لا يليقُ بالحكمةِ .

قلنا : معنى القبيحِ : ما لا يوافقُ الغرضَ ، حتَّىٰ إنَّهُ قدْ يكونُ الشيءُ قبيحاً عندَ شخصٍ ، حسناً عندَ غيرِهِ إذا وافقَ غرضَ أحدِهِما دونَ الآخرِ ، حتَّىٰ يَستقبحُ قتلَ الشخصِ أولياؤُهُ ، ويستحسنُهُ أعداؤُهُ .

فإنْ أُريدَ بالقبيحِ ما لا يوافقُ غرضَ الباري سبحانَهُ . . فهوَ محالٌ ؛ إذْ لا غرضَ لهُ ، فلا يُتصوَّرُ منهُ قبيحٌ ؛ كما لا يُتصوَّرُ منهُ ظلمٌ ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ منهُ التصرُّفُ في مِلْكِ الغيرِ

وإنْ أُريدَ بالقبيحِ ما لا يوافقُ غرضَ الغيرِ . . فلِمَ قلتُمْ : إنَّ ذٰلكَ عليهِ محالٌ ؟ وهلْ هٰذا إلا مجرَّدُ تَشَهٍّ يشهدُ بخلافِهِ ما قدْ فرضناهُ مِنْ مخاصمةِ أهلِ النارِ ؟

ثمَّ إنَّ الحكيمَ معناهُ : العالمُ بحقائقِ الأشياءِ والقادرُ علىٰ إحكامِ فعلِها علىٰ وَفْقِ إرادتِهِ ، وهٰذا مِنْ أينَ يُوجِبُ رعايةَ

---

(١) وتفصيل ذٰلك في « الاقتصاد » (ص ٢٢٢ ، ٢٤١ ـ ٢٤٢) ، قال الحافظ الزبيدي رحمه الله تعالىٰ : (وأما ما رواه أحمد بإسناد صحيح : « يقتصُّ للخلق بعضهم من بعض حتىٰ للجماء من القرناء ، وحتىٰ للذرة من الذرة » ، وهو في « صحيح مسلم » « ٢٥٨٢ » بلفظ : « لتؤدن الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة ، حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » . . فالمراد بالاقتصاص المذكور أن يدخل الله تعالىٰ عليها من الآلام في الموقف بقدر ما يعلمه قصاصاً ، أو يقتص منها حقيقة ، وذٰلك لا يمنعه العقل عندنا ، لكن لا نوجبه ؛ أي : لا نقول بوجوب وقوعه منه تعالىٰ كما يقول المعتزلة ، وهٰذا أولىٰ من القول بأنه خبر آحاد غير مفيد للقطع ، والقطع هو المعتبر في العقائد) . « إتحاف » (١٨٥/٢) .

(٢) (إلا) : زيادة من (ج) ونسخة الحافظ الزبيدي .

الأصلحِ ؟ وإنَّما الحكيمُ منَّا يراعي الأصلحَ نظراً لنفسِهِ ؛ ليستفيدَ بهِ في الدنيا ثناءً وفي الآخرةِ ثواباً ، أوْ يدفعَ بهِ عنْ نفسِهِ آفةً ، وكلُّ ذٰلكَ على اللهِ سبحانَهُ محالٌ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثامنُ : أنَّ معرفةَ اللهِ سبحانَهُ وطاعتَهُ واجبةٌ بإيجابِ اللهِ تعالىٰ وشرعِهِ ، لا بالعقلِ :

خلافاً للمعتزلةِ ؛ لأنَّ العقلَ وإنْ أوجبَ الطاعةَ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يوجبَها لغيرِ فائدةٍ وهوَ محالٌ ؛ فإنَّ العقلَ لا يوجبُ العبثَ ، وإمَّا أنْ يوجبَها لفائدةٍ وغرضٍ ، وذٰلكَ لا يخلو :

إمَّا أنْ يرجعَ إلى المعبودِ وذٰلكَ محالٌ في حقِّهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ يتقدَّسُ عنِ الأغراضِ والفوائدِ ، بلِ الكفرُ والإيمانُ والطاعةُ والعصيانُ في حقِّهِ تعالىٰ سِيَّانِ .

وإمَّا أنْ يرجعَ إلىٰ غرضِ العبدِ وهوَ أيضاً محالٌ ؛ لأنَّهُ لا غرضَ لهُ في الحالِ ، بلْ يتعبُ بهِ ، وينصرفُ عَنِ الشهواتِ بسببِهِ ، وليسَ في المآلِ إلا الثوابُ والعقابُ .

ومِن أينَ يعلمُ أنَّ اللهَ تعالىٰ يثيبُ على المعرفةِ والطاعةِ ولا يعاقبُ علىٰ ذٰلكَ معَ أنَّ الطاعةَ والمعصيةَ في حقِّهِ يتساويانِ ؛ إذْ ليسَ لهُ إلىٰ أحدِهِما ميلٌ ولا لأحدِهِما بهِ اختصاصٌ ، وإنَّما عُرِفَ تمييزُ ذٰلكَ بالشرعِ ؟

ولقدْ زلَّ مَنْ أخذَ هـٰذا مِنَ المقايسةِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ ، حيثُ يفرِّقُ المخلوقُ بينَ الشكرِ والكفرانِ لما لهُ مِنَ الارتياحِ والاهتزازِ والتلذُّذِ بأحدِهِما دونَ الآخرِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قيلَ : فإذا لمْ يجبِ النظرُ والمعرفةُ إلا بالشرعِ ، والشرعُ لا يستقرُّ ما لمْ ينظُرِ المكلَّفُ فيهِ ، فإذا قالَ المكلَّفُ للنبيِّ : إنَّ العقلَ ليسَ يُوجِبُ عليَّ النظرَ ، والشرعُ لا يثبتُ عندِي إلَّا بالنظرِ ، ولستُ أقدمُ على النظرِ . . أدَّىٰ ذٰلكَ إلىٰ إفحامِ الرسولِ .

قلنا : هـٰذا يضاهي قولَ القائلِ للواقفِ في موضعٍ مِنَ المواضعِ : إنَّ وراءَكَ سَبعاً ضارياً ، فإنْ لمْ تنزعجْ عنِ المكانِ . . قتلَكَ ، وإنِ التفتَّ وراءَكَ ونظرتَ . . عرفتَ صدقي ، فيقولُ الواقفُ : لا يثبتُ صدقُكَ ما لمْ ألتفتْ ورائي ، ولا ألتفتُ ورائي ولا أنظرُ ما لمْ يثبتْ صدقُكَ ، فيدلُّ هـٰذا علىٰ حماقةِ هـٰذا القائلِ وتهدُّفِهِ للهلاكِ ، ولا ضررَ فيهِ على الهادي المرشدِ .

فكذٰلكَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : إنَّ وراءَكُمُ الموتَ ، ودونَهُ السباعُ الضاريةُ والنيرانُ المحرقةُ إنْ لمْ تأخذوا منها حذرَكُمْ ، وتعرفوا لي صدقي بالالتفاتِ إلىٰ معجزتي ، فمَنِ التفتَ . . عرفَ واحترزَ ونجا ، ومَنْ لمْ يلتفتْ وأصرَّ . . هلكَ وتردَّىٰ ، ولا ضررَ عليَّ إنْ هلكَ الناسُ كلُّهُمْ أجمعونَ ، وإنَّما عليَّ البلاغُ المبينُ .

فالشرعُ يعرفُ وجودَ السباعِ الضاريةِ بعدَ الموتِ ، والعقلُ يفيدُ فهمَ كلامِهِ والإحاطةَ بإمكانِ ما يقولُهُ في المستقبلِ ، والطبعُ يستحثُّ على الحذرِ مِنَ الضَّررِ ، ومعنىٰ كونِ الشيءِ واجباً : أنَّ في تركِهِ ضرراً ، ومعنىٰ كونِ الشرعِ مُوجِباً : أنَّهُ معرِّفٌ للضررِ المتوقَّعِ ؛ فإنَّ العقلَ لا يهدي إلى التهدُّفِ للضررِ بعدَ الموتِ عندَ اتباعِ الشهواتِ .

❁ ❁ ❁

فهٰذا معنى الشرعِ والعقلِ وتأثيرِهما في تقريرِ الواجبِ ، ولولا خوفُ العقابِ علىٰ تركِ ما أُمِرَ بِهِ . . لَمْ يكنِ الوجوبُ ثابتاً ؛ إذْ لا معنىٰ للواجبِ إلا ما يرتبطُ بتركِهِ ضررٌ في الآخرةِ .

❀ ❀ ❀

الأصلُ التاسعُ : أنَّهُ ليسَ يستحيلُ بعثةُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ :

خلافاً للبراهِمَةِ ، حيث قالوا : لا فائدةَ في بعثتِهِمْ ؛ إذْ في العقلِ مندوحةٌ عنهُمْ ؛ لأنَّ العقلَ لا يهدي إلى الأفعالِ المنجيةِ في الآخرةِ كما لا يهدي إلىٰ الأدويةِ المفيدةِ للصحَّةِ ، فحاجةُ الخلْقِ إلى الأنبياءِ كحاجتِهِمْ إلى الأطبَّاءِ [1] ، ولٰكنْ يُعرفُ صدْقُ الطبيبِ بالتجربةِ ، ويُعرفُ صدقُ النبيّ بالمعجزةِ .

❀ ❀ ❀

الأصلُ العاشرُ : أنَّ اللهَ سبحانَهُ قدْ أرسلَ محمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خاتماً للنبيِّينَ ، وناسخاً لما قبلَهُ مِنْ شرائعِ اليهودِ والنصارىٰ والصابئينَ :

وأيَّدَهُ بالمعجزاتِ الظاهرةِ والآياتِ الباهرةِ ؛ كانشقاقِ القمرِ [2] ، وتسبيحِ الحصىٰ [3] ، وإنطاقِ العجماءِ [4] ، وما تفجَّرَ مِنْ بينِ أصابعِهِ مِنَ الماءِ [5] .

ومِنْ آياتِهِ الظاهرةِ التي تحدَّىٰ بها معَ كافَّةِ العربِ القرآنُ العظيمُ [6] ، فإنَّهُمْ معَ تميُّزِهِمْ بالفصاحةِ والبلاغةِ تهدَّفوا لسبيِهِ ونهبِهِ وقتلِهِ وإخراجِهِ كما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُمْ ، ولمْ يقدروا علىٰ معارضتِهِ بمثلِهِ ؛ إذْ لمْ يكنْ في قدرةِ البشرِ الجمعُ بينَ جزالةِ القرآنِ ونظمِهِ ، هٰذا معَ ما فيهِ مِنْ أخبارِ الأوَّلينَ معَ كونِهِ أمِّيّاً غيرَ ممارسٍ للكتُبِ ، والإنباءِ عَنِ الغيبِ في أمورٍ تحقَّقَ صدقُهُ فيها في الاستقبالِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾

ووجهُ دلالةِ المعجزةِ علىٰ صدْقِ الرسُلِ أنَّ كلَّ ما عجزَ عنهُ البشرُ لمْ يكنْ إلَّا فعلاً للهِ تعالىٰ ، فمهما كانَ مقروناً بتحدِّي النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . نُزِّلَ منزلةَ قولِهِ : صدقْتَ ، وذٰلكَ مثلُ القائمِ بينَ يدي الملكِ المدَّعِي علىٰ رعيتِهِ أنَّهُ رسولُ الملكِ إليهِمْ ، فإنَّهُ مهما قالَ للملكِ : إنْ كنتُ صادقاً . . فقمْ علىٰ سريرِكَ ثلاثاً واقعدْ علىٰ خلافِ عادتِكَ ، ففعلَ الملكُ ذٰلكَ ؛ حصلَ للحاضرينَ علمٌ ضروريٌّ بأنَّ ذٰلكَ نازلٌ منزلةَ قولِهِ : صدقتَ .

❀ ❀ ❀

---

(١) إذ الرسالة سفارة بين الحق تعالىٰ وبين عباده ليزيح بها عللهم فيما قصرت عنه عقولهم . « إتحاف » (١٩٨/٢) .

(٢) كما في « البخاري » (٣٦٣٧) ، ومسلم (٢٨٠٢) .

(٣) كما روىٰ ذٰلك الطبراني في « الأوسط » (٤١٠٩) .

(٤) كما في حديث الحُمَّرة الذي رواه أبو داوود (٢٦٧٥)

(٥) كما في « البخاري » (٣٥٧٢) ، ومسلم (٢٢٧٩) .

(٦) **تحدّىٰ بها** : أي جارىٰ بها وعارض ، وأصل التحدي طلب المباراة في الحداء بالإبل ، ثم توسع فيه فأطلق علىٰ طلب المعارضة بالمثل في أي أمر كان . « إتحاف » (٢٠٩/٢) .

الركن الرابع : السمعيات ، وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه
ومداره على عشرة أصول

الأصلُ الأوّلُ : الحشرُ والنشرُ :

وقدْ وردَ بهما الشرعُ ، وهوَ حقٌّ ، والتصديقُ بهما واجبٌ ؛ لأنَّهُ في العقلِ ممكنٌ .

ومعناهُ : الإعادةُ بعدَ الإفناءِ ، وذٰلكَ مقدورٌ للهِ تعالىٰ ؛ كابتداءِ الإنشاءِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، فاستدلَّ بالابتداءِ على الإعادةِ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ، والإعادةُ ابتداءٌ ثانٍ ، فهوَ ممكنٌ كالابتداءِ الأوَّلِ .

❋ ❋ ❋

الأصلُ الثاني : سؤالُ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ :

وقدْ وردَتْ بهِ الأخبارُ ، فيجبُ التصديقُ بهِ ؛ لأنَّهُ ممكنٌ ، إذْ ليسَ يستدعي إلا إعادةَ الحياةِ إلىٰ جزءٍ مِنَ الأجزاءِ الذي بهِ فَهْمُ الخطابِ ، وذٰلكَ ممكنٌ في نفسِهِ ، ولا يدفعُ ذٰلكَ ما يُشاهدُ مِنْ سكونِ أجزاءِ الميْتِ وعدم سماعِنا للسؤالِ لهُ ؛ فإنَّ النائمَ ساكنٌ بظاهرِهِ ومدركٌ بباطنِهِ مِنَ الآلامِ واللذَّاتِ ما يحسُّ بأثرِهِ عندَ التنبُّهِ ، وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يسمعُ كلامَ جبريلَ عليهِ السلامُ ويشاهدُهُ ومَنْ حولَهُ لا يسمعونَهُ ولا يرونَهُ[1] ، فلا يحيطونَ بشيْءٍ مِنْ علمِهِ إلا بما شاءَ ، فإذا لمْ يخلُقْ لهمُ السمعَ والرؤيةَ . . لمْ يدركوهُ .

❋ ❋ ❋

الأصلُ الثالثُ : عذابُ القبرِ[2] :

وقدْ وردَ الشرعُ بهِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[3] ، واشتهرَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والسلفِ الصالحينَ الاستعاذةُ مِنْ عذابِ القبرِ[4] ، وهوَ ممكنٌ ، فيجبُ التصديقُ بهِ ، ولا يمنعُ مِنَ التصديقِ بهِ تفرُّقُ أجزاءِ الميّتِ في بطونِ السباعِ وحواصلِ الطيرِ ؛ فإنَّ المدركَ لألمِ العذابِ مِنَ الحيوانِ أجزاءٌ مخصوصةٌ يقدرُ اللهُ تعالىٰ علىٰ إعادةِ الإدراكِ إليها .

❋ ❋ ❋

الأصلُ الرابعُ : الميزانُ :

وهوَ حقٌّ[5] ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

---

(١) كما في « البخاري » (٣٢١٧) ، ومسلم (٢٤٤٧) .

(٢) وهو عذاب البرزخ ، وأضيف إلى القبر لأنه الغالب ، وإلا . . فكل ميت أراد الله تعذيبه ناله ما أراده قُبِرَ أو لم يقبر ، ومحله الروح والبدن جميعاً باتفاق . « إتحاف » (٣٧/٢) .

(٣) وقال تعالىٰ في قوم نوح عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ ، والفاء للتعقيب من غير مهلة . « إتحاف » (٢١٨/٢) .

(٤) روىٰ مسلم (٢٨٦٧) مرفوعاً : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر .

(٥) فلا يجوز العدول إلىٰ تأويله كما فعلت المعتزلة ، إذ قالت : هو كناية عن العدل .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ . . . ﴾ الآيةَ .

ووجهُهُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ يحدثُ في صحائفِ الأعمالِ وزناً بحسَبِ درجاتِ الأعمالِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فتصيرُ مقاديرُ أعمالِ العبادِ معلومةً للعبادِ ، حتَّىٰ يظهرَ لهُمُ العدلُ في العقابِ ، أوِ الفضلُ في العفْوِ وتضعيفِ الثوابِ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الخامسُ : الصراطُ :

وهوَ جسرٌ ممدودٌ علىٰ متْنِ جهنَّمَ ، أدقُّ مِنَ الشَّعْرِ ، وأحدُّ مِنَ السيفِ[١] ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ .

وهٰذا ممكنٌ ، فيجبُ التصديقُ بهِ ؛ فإنَّ القادرَ علىٰ أنْ يطيِّرَ الطيرَ في الهواءِ قادرٌ علىٰ أنْ يسيِّرَ الإنسانَ على الصراطِ[٢] .

❁ ❁ ❁

الأصلُ السادسُ : أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتانِ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ دليلٌ علىٰ أنَّها مخلوقةٌ ، فيجبُ إجراؤُهُ على الظاهرِ ؛ إذْ لا استحالةَ فيهِ .

ولا يُقالُ : لا فائدةَ في خلقِهِما قبلَ يومِ الجزاءِ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهمْ يُسْألونَ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ السابعُ : أنَّ الإمامَ الحقَّ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبو بكرٍ ، ثمَّ عمرُ ، ثمَّ عثمانُ ، ثمَّ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُمْ :

ولمْ يكنْ نصَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ إمامٍ أصلاً[٣] ؛ إذْ لوْ كانَ . . لكانَ أولىٰ بالظهورِ مِنْ نصبِهِ آحادَ الولاةِ والأمراءِ على الجنودِ في البلادِ ، ولمْ يخْفَ ذٰلكَ ، فكيفَ خَفِيَ هٰذا ؟ وإنْ ظهرَ . . فكيفَ اندرسَ حتَّىٰ لمْ يُنقلْ إلينا ؟!

فلمْ يكنْ أبو بكرٍ إماماً إلا بالاختيارِ والبيعةِ ، وأمَّا تقديرُ النصِّ علىٰ غيرِهِ . . فهوَ نسبةُ الصحابةِ كلِّهِمْ إلىٰ مخالفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وخرقٌ للإجماعِ ، وذٰلكَ ممَّا لا يستجرئُ على اختراعِهِ إلا الروافضُ[٤] .

واعتقادُ أهلِ السنَّةِ تزكيةُ جميعِ الصحابةِ والثناءُ عليهِمْ ؛ كما أثنى اللهُ سبحانَهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِمْ ، وما جرىٰ بينَ معاويةَ وعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما كانَ مبنياً على الاجتهادِ ، لا منازعةً مِنْ معاويةَ في الإمامةِ ؛ إذْ

---

(١) كما في « مسلم » (١٨٣) من قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) وقد ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ في عقيدته الصغرى المتقدمة الحوضَ ، ولم يذكره هنا .

(٣) أي : نصاً جلياً قطعي الدلالة .

(٤) وسموا رافضة لأنهم تركوا زيد بن علي حين نهاهم عن سبِّ الصحابة ، فلما عرفوا مقالته ، وأنه لا يتبرأ من الشيخين . . رفضوه . « إتحاف » (٢٢٣/٢) .

ظنَّ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ تسليمَ قتلةِ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ معَ كثرةِ عشائرِهِمْ واختلاطِهِمْ بالعسكرِ يؤدِّي إلى اضطرابِ أمرِ الإمامةِ في بدايتِها ، فرأى التأخيرَ أصوبَ ، وظنَّ معاويةُ أنَّ تأخيرَ أمرِهِمْ معَ عِظَمِ جنايتِهِمْ يوجبُ الإغراءَ بالأئمَّةِ ، ويعرِّضُ الدماءَ للسفكِ .

وقدْ قالَ أفاضلُ العلماءِ : (كلُّ مجتهدٍ مصيبٌ) ، وقالَ قائلونَ : (المصيبُ واحدٌ) ، ولمْ يذهبْ إلىٰ تخطئةِ عليٍّ ذو تحصيلٍ أصلاً [١] .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثامنُ : أنَّ فضلَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ علىٰ حَسَبِ ترتيبِهِمْ في الخلافةِ :

إذْ حقيقةُ الفضْلِ ما هوَ فضلٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ لا يطَّلعُ عليهِ إلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدْ وردَ في الثناءِ علىٰ جميعِهِمْ آياتٌ وأخبارٌ كثيرةٌ [٢] ، وإنَّما يُدرِكُ الفضلَ والترتيبَ في ذٰلكَ المشاهدونَ للوحيِ والتنزيلِ بقرائنِ الأحوالِ ودقائقِ التفصيلِ ، فلولا فهمُهُمْ ذٰلكَ . . لما رتَّبوا الأمرَ كذٰلكَ ؛ إذْ كانُوا لا تأخذُهُمْ في اللهِ لومةُ لائمٍ ، ولا يصرفُهُمْ عنِ الحقِّ صارفٌ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ التاسعُ : أنَّ شرائطَ الإمامةِ بعدَ الإسلامِ والتكليفِ خمسةٌ : الذكورةُ ، والورعُ [٣] ، والعلْمُ ، والكفايةُ ، ونسبُ قريشٍ :

لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأئمَّةُ مِنْ قريشٍ » [٤] ، وإذا اجتمعَ عددٌ مِنَ الموصوفينَ بهٰذهِ الصفاتِ . . فالإمامُ مَنِ انعقدَتْ لهُ البيعةُ مِنْ أكثرِ الخلقِ ، والمخالفُ للأكثرِ باغٍ يجبُ ردُّهُ إلى الانقيادِ إلى الحقِّ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ العاشرُ : أنَّهُ لوْ تعذَّرَ وجودُ الورعِ والعلمِ فيمَنْ يتصدَّىٰ للإمامةِ ، وكانَ في صرفِهِ إثارةُ فتنةٍ لا تُطاقُ . . حكمْنا بانعقادِ إمامتِهِ :

لأنَّا بينَ أنْ نحرِّكَ فتنةً بالاستبدالِ ، فما يلقى المسلمونَ فيهِ مِنَ الضَّررِ يزيدُ علىٰ ما يفوتُهُمْ مِنْ نقصانِ هٰذهِ الشروطِ

---

(١) بل كان رضي الله عنه هو المصيب في اجتهاده ، وقد نقل الحافظ الزبيدي عن الشهاب السهروردي من رسالته المسماة : « أعلام الهدىٰ وعقيدة أرباب التقىٰ » ما بعضه : (أيها المبرأ من الهوىٰ والعصبية ؛ اعلم : أن الصحابة مع نزاهة بواطنهم وطهارة قلوبهم كانوا بشراً ، وكانت لهم نفوس ، وللنفوس صفات تظهر ، فقد كانت نفوسهم تظهر بصفةٍ وقلوبهم منكرة لذٰلك ، فيرجعون إلىٰ حكم قلوبهم ، وينكرون ما كان من نفوسهم ، فانتقل اليسير من آثار نفوسهم إلىٰ أرباب نفوسٍ عدموا القلوب ، فما أدركوا قضايا قلوبهم ، وصارت صفات نفوسهم مدركة عندهم للجنسية النفسية ، فبنوا تصرف النفوس على الظاهر المفهوم عندهم ، ووقعوا في بدع وشبه أوردتهم كل مورد رديء ، وجرعتهم كل شرب وبيء . . . ، فإن قبلت النصح . . فأمسك عن التصرف في أمرهم ، واجعل محبتك للكل على السواء ، وأمسك عن التفصيل) . « إتحاف » (٢/٢٢٩) .

(٢) كما روى البخاري (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤٠) مرفوعاً : « لا تسبوا أصحابي ، لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده ؛ لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً . . ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه » ، وفي « الترمذي » (٣٨٦٢) مرفوعاً : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم . . فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم . . فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم . . فقد آذاني ، ومن آذاني . . فقد آذى الله ، ومن آذى الله . . يوشك أن يأخذه » .

(٣) أراد به العدالة ، وبها عبر الأكثر . « إتحاف » (٢/٢٣٠) .

(٤) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٩٠٩) .

التي أُثبتتْ لمزيَّةِ المصلحةِ ، فلا يُهدمُ أصلُ المصلحةِ شغفاً بمزاياها ؛ كالذي يبني قصراً ويهدم مِصراً ، وبينَ أنْ نحكمَ بخلوّ البلادِ عَنِ الإمامِ ، وبفسادِ الأقضيةِ ، وذٰلكَ محالٌ ، ونحنُ نقضي بنفوذِ قضاءِ أهلِ البغيِ في بلادِهِمْ لمسيسِ حاجتِهِمْ ، فكيفَ لا نقضي بصحَّةِ الإمامةِ عندَ الحاجةِ والضرورةِ ؟!

❋ ❋ ❋

فهٰذهِ الأركانُ الأربعةُ الحاويةُ للأصولِ الأربعينَ هيَ **قواعدُ العقائدِ** ، فمَنِ اعتقدَها . . كانَ موافقاً لأهلِ السنَّةِ ومبايناً لرهْطِ البدعةِ ، واللهُ تعالىٰ يسدِّدُنا بتوفيقِهِ ، ويهدينا إلى الحقِّ وتحقيقِهِ ، بمنِّهِ وسَعَةِ جودِهِ وفضلِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وكلِّ عبدٍ مصطفىً .

❋ ❋ ❋

الفَصْلُ الرَّابِعُ مِنْ قَوَاعِدِ العَقَائِدِ
في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرّق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه
وفيه ثلاث مسائل

مَسْأَلَةٌ

[هلِ الإسلامُ هوَ الإيمانُ بعينِهِ أوْ غيرُهُ ؟]

اختلفوا في أنَّ الإسلامَ : هلْ هوَ الإيمانُ أوْ غيرُهُ ؟

وإنْ كانَ غيرَهُ : فهلْ هوَ منفصلٌ عنهُ يوجدُ دونَهُ ، أوْ هوَ مرتبطٌ بهِ يلازمُهُ ؟

فقيل : إنَّهُما شيءٌ واحدٌ .

وقيلَ : إنَّهُما شيئانِ لا يتواصلانِ .

وقيلَ : إنَّهُما شيئانِ ولٰكنْ يرتبطُ أحدُهُما بالآخرِ .

وقدْ أوردَ أبو طالبٍ المكيُّ في هٰذا كلاماً شديدَ الاضطرابِ كثيرَ التطويلِ [1] ، فلنهجمِ الآنَ على التصريحِ بالحقِّ مِنْ غيرِ تعريجٍ علىٰ نقلِ ما لا تحصيلَ لهُ ، فنقولُ : في هٰذا ثلاثةُ مباحثَ : بحثٌ عنْ موجَبِ اللفظينِ في اللغةِ ، وبحثٌ عَنِ المرادِ بهِما في إطلاقِ الشرعِ ، وبحثٌ عَنْ حكمِهِما في الدنيا والآخرةِ .

والبحثُ الأوَّلُ لغويٌّ ، والثاني تفسيريٌّ ، والثالثُ فقهيٌّ شرعيٌّ .

البحث الأول : في موجب اللغة

والحقُّ فيهِ أنَّ الإيمانَ عبارةٌ عَنِ التصديقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾ ؛ أيْ : بمصدِّقٍ .

والإسلامُ عبارةٌ عنِ التسليمِ والاستسلامِ بالإذعانِ والانقيادِ ، وتركِ التمرُّدِ والإباءِ والعنادِ .

وللتصديقِ محلٌّ خاصٌّ وهوَ القلبُ ، واللسانُ ترجمانُهُ ، وأمَّا التسليمُ . . فإنَّهُ عامٌّ في القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، فإنَّ كلَّ تصديقٍ بالقلبِ فهوَ تسليمٌ وتركُ الإباءِ والجحودِ ، وكذٰلكَ الاعترافُ باللسانِ ، وكذٰلكَ الطاعةُ والانقيادُ بالجوارحِ .

فموجَبُ اللغةِ أنَّ الإسلامَ أعمُّ والإيمانَ أخصُّ ، وكأنَّ الإيمانَ عبارةٌ عنْ أشرفِ أجزاءِ الإسلامِ .

فإذاً ؛ كلُّ تصديقٍ تسليمٌ ، وليسَ كلُّ تسليمٍ تصديقاً

❀ ❀ ❀

---

(١) قوت القلوب (٢/١٢٩) .

البحث الثاني : عن إطلاق الشرع

والحقُّ فيهِ أنَّ الشرعَ قدْ وردَ باستعمالِهما على سبيلِ الترادفِ والتواردِ ، ووردَ على سبيلِ الاختلافِ ، ووردَ على سبيلِ التداخلِ :

أمَّا الترادفُ : ففي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، ولمْ يكنْ بالاتفاقِ إلا بيتٌ واحدٌ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنيَ الإسلامُ علىٰ خمسٍ »[1] ، وسُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّةً عَنِ الإيمانِ فأجابَ بهٰذهِ الخمسِ[2]

وأمَّا الاختلافُ : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ ، ومعناهُ : استسلمْنا في الظاهرِ ، فأرادَ بالإيمانِ ها هنا تصديقَ القلبِ فقطْ ، وبالإسلامِ الاستسلامَ ظاهراً باللسانِ والجوارحِ .

وفي حديثِ جبريلَ عليهِ السلامُ لمَّا سألَهُ عَنِ الإيمانِ فقالَ : « أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ وبالبعثِ بعدَ الموتِ وبالحسابِ وبالقدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ » ، فَقَالَ : فما الإسلامُ ؟ فذكرَ الخصالَ الخمسَ[3] ، فعبَّرَ بالإسلامِ عَنْ تسليمِ الظاهرِ بالقولِ والعملِ .

وفي حديثِ سعدٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أعطىٰ رجلاً عطاءً ولمْ يُعْطِ الآخرَ ، فقالَ لهُ سعدٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ تركتَ فلاناً لمْ تعطِهِ وهوَ مؤمنٌ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوْ مسلمٌ » ، فأعادَ عليهِ ، فأعادَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[4]

وأمَّا التداخلُ : فما رُوِيَ أيضاً أنَّهُ سُئِلَ فقيلَ لَهُ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإسلامُ » ، فقالَ : أيُّ الإسلامِ أفضلُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإيمانُ »[5]

وهٰذا دليلٌ على الاختلافِ ، والتداخلِ ، وهوَ أوفقُ الاستعمالاتِ في اللغةِ[6] ؛ لأنَّ الإيمانَ عملٌ مِنَ الأعمالِ ، وهوَ أفضلُها ، والإسلامُ هوَ تسليمٌ ؛ إمَّا بالقلبِ ، وإمَّا باللسانِ ، وإما بالجوارحِ ، وأفضلُها الذي بالقلبِ ، وهوَ التصديقُ الذي يسمَّىٰ إيماناً .

والاستعمالُ لَهُما علىٰ سبيلِ الاختلافِ ، وعلىٰ سبيلِ التداخلِ ، وعلىٰ سبيلِ الترادفِ . . كلُّهُ غيرُ خارجٍ عنْ طريقِ التجوُّزِ في اللغةِ .

---

(١) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٩٩/٤) ، وهو بغير ذكر الحج عند البخاري (٥٣) ، ومسلم (١٧) من حديث وفد عبد قيس عندهم .

(٣) رواه مسلم (٨) ، إلا قوله : (وبالبعث بعد الموت) فهو عند ابن منده في « الإيمان » (٧) .

(٤) رواه البخاري (٢٧) ، ومسلم (١٥٠) .

(٥) رواه أحمد في « مسنده » (١١٤/٤) .

(٦) أي : وروده علىٰ سبيل التداخل هو أوفق الاستعمالات في اللغة . « إتحاف » (٢٣٩/٢) .

أمَّا الاختلافُ : فهوَ أنْ يُجعَلَ الإيمانُ عبارةً عنِ التصديقِ بالقلبِ فقطْ ، وهوَ موافقٌ للغةِ ، والإسلامُ عبارةً عَنِ التسليمِ ظاهراً ، وهوَ أيضاً موافقٌ للغةِ ؛ فإنَّ التسليمَ ببعضِ محالِّ التسليمِ ينطلقُ عليهِ اسمُ التسليمِ ، فليسَ مِنْ شرطِ حصولِ الاسمِ عمومُ المعنىٰ لكلِّ محلٍّ يمكنُ أنْ يوجدَ المعنىٰ فيهِ ؛ فإنَّ مَنْ لمسَ غيرَهُ ببعضِ بدنِهِ يُسمَّىٰ لامساً وإنْ لمْ يستغرقْ جميعَ بدنِهِ ، فإطلاقُ اسمِ الإسلامِ على التسليمِ الظاهرِ عندَ عدمِ تسليمِ الباطنِ مطابقٌ للسانِ ، وعلىٰ هـٰذا الوجهِ جرىٰ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ ، وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : في حديثِ سعد : « أوْ مسلمٌ » ؛ لأنَّهُ فضَّلَ أحدَهُما على الآخرِ ، ويريدُ بالاختلافِ تفاضلَ المسمَّيينِ .

وأمَّا التداخلُ : فموافقٌ أيضاً للغةِ في خصوصِ الإيمانِ ، وهوَ أنْ يُجعلَ الإسلامُ عبارةً عنِ التسليمِ بالقلبِ والقولِ والعملِ جميعاً ، والإيمانُ عبارةً عنْ بعضِ ما دخلَ في الإسلامِ ، وهوَ التصديقُ بالقلبِ ، وهوَ الذي عنيناهُ بالتداخلِ ، وهوَ موافقٌ للغةِ في خصوصِ الإيمانِ وعمومِ الإسلامِ للكلِّ ، وعلىٰ هـٰذا خُرِّجَ قولُهُ : « الإيمانُ » ، في جوابِ قولِ السائلِ : أيُّ الإسلامِ أفضلُ ؟ لأنَّهُ جعلَ الإيمانَ خصوصاً مِنَ الإسلامِ ، فأدخلَهُ فيهِ

وأمَّا استعمالُهُ علىٰ سبيلِ الترادفِ : بأنْ يُجعلَ الإسلامُ عبارةً على التسليمِ بالقلبِ والظاهرِ جميعاً ، فإنَّ كلَّ ذٰلكَ تسليمٌ ، وكذا الإيمانُ ، ويكونُ التصرُّفُ في الإيمانِ على الخصوصِ بتعميمِهِ وإدخالِ الظاهرِ في معناهُ ، وهوَ جائزٌ ؛ لأنَّ تسليمَ الظاهرِ بالقولِ والعملِ ثمرةُ تصديقِ الباطنِ ونتيجتُهُ ، وقدْ يُطلقُ اسمُ الشجرِ ويُرادُ بِهِ الشجرُ معَ ثمرِهِ علىٰ سبيلِ التسامحِ ، فيصيرُ بهـٰذا القدْرِ مِنَ التعميمِ مرادفاً لاسمِ الإسلامِ ومطابقاً لهُ ، فلا يزيدُ عليهِ ولا ينقصُ ، وعليهِ خُرِّجَ قولُهُ : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

البحث الثالث : عن الحكم الشرعي

وللإسلامِ والإيمانِ حكمانِ ؛ أخرويٌّ ودنيويٌّ :

أمَّا الأخرويُّ : فهوَ الإخراجُ مِنَ النارِ ، ومنعُ التخليدِ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يخرجُ مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِن الإيمانِ »(١)

وقدِ اختلفوا في أنَّ هـٰذا الحكمَ علىٰ ماذا يترتَّبُ ، وعبَّروا عنهُ بأنَّ الإيمانَ ماذا ؟

فمنْ قائلٍ يقولُ : إنَّهُ مجرَّدُ العقْدِ(٢) ، ومِنْ قائلٍ يقولُ : إنَّهُ عقْدٌ بالقلبِ وشهادةٌ باللسانِ(٣) ، ومِنْ قائلٍ يزيدُ ثالثاً ، وهوَ العملُ بالأركانِ(٤)

ونحنُ نكشفُ الغطاءَ عنهُ ونقولُ : مَنْ جمعَ بينَ هـٰذهِ الثلاثِ . . فلا خلافَ في أنَّ مستقرَّهُ الجنَّةُ ، وهـٰذهِ درجةٌ .

❁ ❁ ❁

والدرجةُ الثانيةُ : أنْ يوجدَ اثنانِ وبعضُ الثالثِ ، وهوَ القولُ والعقْدُ وبعضُ الأعمالِ ، ولـٰكنِ ارتكبَ صاحبُهُ كبيرةً

---

(١) رواه البخاري (٢٢) ، ومسلم (١٨٣) ، والترمذي (٢٥٩٨) واللفظ له .

(٢) كما هو مختار الأشاعرة ، وبه قال الماتريدية . « إتحاف » (٢٤١/٢) .

(٣) وهو منقول عن الإمام أبي حنيفة ، ومشهور أصحابه ، وعن بعض المحققين من الأشاعرة . « إتحاف » (٢٤١/٢) .

(٤) وهـٰذا هو قول الخوارج ، وهـٰذا جرَّهم لتكفير صاحب الذنب مطلقاً ؛ لعدم تصور واسطة بين الكفر والإيمان . « إتحاف » (٢٤٢/٢) بتصرف .

أوْ بعضَ الكبائرِ ؛ فعندَ هـٰذا قالتِ المعتزلةُ : خرجَ بهـٰذا عنِ الإيمانِ ولمْ يدخلْ في الكفْرِ ، بلِ اسمُهُ فاسقٌ ، وهوَ علىٰ منزلةٍ بينَ المنزلتينِ ، وهوَ مخلَّدٌ في النارِ ، وهـٰذا باطلٌ كما سنذكرُهُ .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يوجدَ التصديقُ بالقلبِ والشهادةُ باللسانِ دونَ الأعمالِ بالجوارحِ ، وقدِ اختلفوا في حكمِهِ .

فقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : العملُ بالجوارحِ مِنَ الإيمانِ ولا يتمُّ دونَهُ ، وادَّعَى الإجماعَ فيهِ ، واستدلَّ بأدلَّةٍ تشعرُ بنقيضِ غرضِهِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ إذْ هـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ العملَ وراءَ الإيمانِ لا مِنْ نفْسِ الإيمانِ ، وإلَّا . . فيكونُ العملُ في حكمِ المعادِ .

والعجبُ أنَّهُ ادَّعَى الإجماعَ في هـٰذا ، وهوَ معَ ذٰلكَ ينقلُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يكفُرُ أحدٌ إلَّا بجحودِهِ لما أقرَّ بهِ »[1] ، وينكرُ على المعتزلةِ قولَهُمْ بالتخليدِ في النارِ بسببِ الكبائرِ !![2]

والقائلُ بهـٰذا قائلٌ بعينِ مذهبِ المعتزلةِ ، إذْ يُقالُ لهُ : مَنْ صدَّقَ بقلبِهِ وشهدَ بلسانِهِ وماتَ في الحالِ . . فهلْ هوَ في الجنَّةِ ؟ فلا بدَّ أنْ يقولَ : نعمْ ، وفيهِ حكمٌ بوجودِ الإيمانِ دونَ العملِ ، فنزيدُ ونقولُ : لوْ بقيَ حيّاً حتَّىٰ دخلَ عليهِ وقتُ صلاةٍ واحدةٍ فتركَها ثمَّ ماتَ ، أوْ زنىٰ ثمَّ ماتَ . . فهلْ يخلدُ في النارِ ؟ فإنْ قالَ : نعمْ . . فهوَ مرادُ المعتزلةِ ، وإنْ قالَ : لا . . فهوَ تصريحٌ بأنَّ العملَ ليسَ ركناً مِنْ نفسِ الإيمانِ ، ولا شرطاً في وجودِهِ ، ولا في استحقاقِ الجنَّةِ بهِ .

وإنْ قالَ : أردتُ بهِ أنْ يعيشَ مدَّةً طويلةً ولا يصلِّي ولا يقدِمُ علىٰ شيءٍ مِنَ الأعمالِ الشرعيةِ . . قلنا : فما ضبطُ تلكَ المدَّةِ ؟ وما عددُ تلكَ الطاعاتِ التي بتركِها يبطلُ الإيمانُ ؟ وما عددُ الكبائرِ التي بارتكابِها يبطلُ الإيمانُ ؟

وهـٰذا لا يمكنُ التحكُّمُ بتقديرِهِ ، ولمْ يصرْ إليهِ صائرٌ أصلاً .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الرابعةُ : أنْ يوجدَ التصديقُ بالقلبِ ، فقبلَ أنْ ينطقَ باللسانِ أوْ يشتغلَ بالأعمالِ ماتَ ، فهلْ نقولُ : ماتَ مؤمناً بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ؟[3]

وهـٰذا ممَّا اختُلفَ فيهِ ، ومَنْ شَرطَ القولَ لتمامِ الإيمانِ . . يقولُ : هـٰذا ماتَ قبلَ الإيمانِ ، وهوَ فاسدٌ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ »[4] ، وهـٰذا قلبُهُ طافحٌ بالإيمانِ ، فكيفَ يخلدُ في النارِ ولمْ يُشترَطْ في حديثِ جبريلَ عليهِ السلامُ للإيمانِ إلَّا التصديقُ باللهِ تعالىٰ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخِرِ كما سبقَ ؟!

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الخامسةُ : أنْ يصدِّقَ بالقلبِ ، ويساعدَهُ مِنَ العمرِ مهلةُ النطْقِ بكلمتيِ الشهادةِ ، وعَلِمَ وجوبَها ، ولـٰكنَّهُ لمْ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٤٣٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٣٠ ـ ١٣١) .

(٣) بناءً علىٰ أن التصديق القلبي كافٍ في مفهوم الإيمان . « إتحاف » (٢/٢٤٥) .

(٤) رواه البخاري (٢٢) ، ومسلم (١٨٤) ، والترمذي (٢٥٩٨) واللفظ له .

يَنطِقْ بها ؛ فيُحتمَلُ أنْ يُجعلَ امتناعُهُ عَنِ النطقِ كامتناعِهِ عَنِ الصلاةِ ، ونقولُ : هوَ مؤمنٌ غيرُ مخلَّدٍ في النارِ ، والإيمانُ هوَ التصديقُ المحضُ ، واللسانُ ترجمانُ الإيمانِ ، فلا بدَّ أنْ يكونَ الإيمانُ موجوداً بتمامِهِ قبلَ اللسانِ حتَّىٰ يترجمَهُ اللسانُ ، وهـٰذا هوَ الأظهرُ ؛ إذْ لا مستندَ إلا اتباعُ موجَبِ الألفاظِ ووضْعُ اللسانِ أنَّ الإيمانَ هوَ عبارةٌ عَنِ التصديقِ بالقلبِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَخرجُ مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ » ، ولا ينعدمُ الإيمانُ مِنَ القلبِ بالسكوتِ عنِ النطقِ الواجبِ ، كما لا ينعدمُ بالسكونِ عنِ الفعلِ الواجبِ .

وقالَ قائلونَ : القولُ ركنٌ ؛ إذْ ليسَ كلمتا الشهادةِ إخباراً عَنِ القلبِ ، بلْ هوَ إنشاءُ عقْدٍ آخرَ وابتداءُ شهادةٍ والتزامٍ ، والأوَّلُ أظهرُ .

وقدْ غلا في هـٰذا طائفةُ المرجئةِ فقالوا : هـٰذا لا يدخلُ النارَ أصلاً ، وقالوا : إنَّ المؤمنَ وإنْ عصىٰ فلا يدخلُ النارَ[1] ، وسنبطلُ ذٰلكَ عليهِمْ .

❁ ❁ ❁

الدرجةُ السادسةُ : أنْ يقولَ بلسانِهِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ) ، ولـٰكنْ لمْ يصدِّقْ بقلبِهِ ، فلا نشكُّ في أنَّ هـٰذا في حكمِ الآخرةِ مِنَ الكفَّارِ ، وأنَّهُ مخلَّدٌ في النارِ ، ولا نشكُّ في أنَّهُ في حكمِ الدنيا الذي يتعلَّقُ بالأئمَّةِ والولاةِ . . مِنَ المسلمينَ ؛ لأنَّ قلبَهُ لا يُطَّلَعُ عليهِ ، وعلينا أنْ نظنَّ بهِ أنَّهُ ما قالَهُ بلسانِهِ إلا وهوَ منطوٍ عليهِ في قلبِهِ ، وإنَّما نشكُّ في أمرٍ ثالثٍ ، وهوَ الحكمُ الدنيويُّ فيما بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ بأنْ يموتَ لهُ في هـٰذهِ الحالِ قريبٌ مسلمٌ ثمَّ يصدِّقُ بعدَ ذٰلكَ بقلبِهِ ، ثمَّ يَستفتي ويقولُ : كنتُ غيرَ مصدِّقٍ بالقلبِ حالةَ الموتِ ، والميراثُ الآنَ في يدي ، فهلْ يحلُّ لي بيني وبينَ اللهِ تعالىٰ ؟ أوْ نكحَ مسلمةً ثمَّ صدَّقَ بقلبِهِ هلْ يلزمُهُ إعادةُ النكاحِ ؟

هـٰذا في محلِّ النظرِ ؛ فيحتملُ أنْ يُقالَ : أحكامُ الدنيا منوطةٌ بالقولِ الظاهرِ ظاهراً وباطناً ، ويحتملُ أنْ يُقالَ : تناطُ بالظاهرِ في حقِّ غيرِهِ ؛ لأنَّ باطنَهُ غيرُ ظاهرٍ لغيرِهِ ، وباطنُهُ ظاهرٌ لهُ في نفسِهِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

والأظهرُ ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ أنَّهُ لا يحلُّ لهُ ذٰلكَ الميراثُ ، ويلزمُهُ إعادةُ النكاحِ ، ولذٰلكَ كانَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ لا يحضرُ جنازةَ مَنْ يموتُ مِنَ المنافقينَ ، وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يراعي ذٰلكَ منهُ ، فلا يحضرُ إذا لمْ يحضرْ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ[2] ، والصلاةُ فعلٌ ظاهرٌ في الدنيا وإنْ كانَ مِنَ العباداتِ ، والتوقي عَنِ الحرامِ أيضاً مِنْ جملةِ ما يجبُ للهِ ؛ كالصلاةِ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ الحلالِ فريضةٌ بعدَ الفريضةِ »[3]

وليسَ هـٰذا مناقضاً لقولنا : إنَّ الإرثَ حكمُ الإسلامِ ، وهوَ الاستسلامُ ، بلِ الاستسلامُ التامُّ هوَ ما يشملُ الظاهرَ والباطنَ .

وهـٰذهِ مباحثُ فقهيةٌ ظنيَّةٌ ، تُبنىٰ علىٰ ظواهرِ الألفاظِ والعموماتِ والأقيسةِ ، فلا ينبغي أنْ يظنَّ القاصرُ في العلومِ أنَّ المطلبَ فيهِ القطعُ مِنْ حيثُ جرتِ العادةُ بإيرادِهِ في فنِّ الكلامِ الذي يُطلبُ فيهِ القطعُ ، فما أفلحَ مَنْ نظرَ إلى العاداتِ والمراسمِ في العلومِ .

❁ ❁ ❁

(١) واشتهر قول هـٰؤلاء : لا يضرُّ مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .
(٢) رواه وكيع في « الزهد » (٤٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/٢٧٦) بنحوه .
(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/٧٤) .

فإنْ قلتَ : فما شبهةُ المعتزلةِ والمرجئةِ ؟ وما حجَّةُ بطلانِ قولِهِمْ ؟

فأقولُ : شبهتُهُمْ عموماتُ القرآنِ :

أما المرجئةُ . . فقالوا : لا يدخلُ المؤمنُ النارَ وإنْ أتىٰ بكلِّ المعاصي ؛ لقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾

ولقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ . . . ﴾ الآيةَ .

ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ ، فقولُهُ : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ ﴾ عامٌّ ، فينبغي أنْ يكونَ كلُّ مَنْ أُلقيَ فيها مكذِّباً .

ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۞ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ، وهـٰذا حصرٌ ، وإثباتٌ ونفيٌ .

ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ ، والإيمانُ رأسُ الحسناتِ .

ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

ولا حجَّةَ لهمْ في ذٰلكَ ؛ فإنَّهُ حيثُ ذُكرَ الإيمانُ في هـٰذهِ الآياتِ أُريدَ بهِ الإيمانُ معَ العملِ ؛ إذْ بيَّنَّا أنَّ الإيمانَ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ الإسلامُ ، وهوَ الموافقةُ بالقلبِ والقولِ والعملِ .

ودليلُ هـٰذا التأويلِ أخبارٌ كثيرةٌ في معاقبةِ العاصينَ ومقاديرِ العقابِ ، وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يخرجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ » ، فكيفَ يخرجُ إذا لمْ يدخلْ ؟!

ومِنَ القرآنِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، والاستثناءُ بالمشيئةِ يدلُّ على الانقسامِ[1]

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ ، وتخصيصُهُ بالكفرِ تحكُّمٌ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾

فهـٰذهِ العموماتُ في معارضةِ عموماتِهِمْ ، ولا بدَّ مِنْ تسليطِ التخصيصِ والتأويلِ على الجانبينِ ؛ لأنَّ الأخبارَ مصرحةٌ بأنَّ العصاةَ يُعذَّبونَ[2] ، بلْ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ كالصريحِ في أنَّ ذٰلكَ لا بدَّ منهُ للكلِّ ؛ إذْ لا يخلو مؤمنٌ عَنْ ذنبٍ يرتكبُهُ[3]

---

(١) أي : إلىٰ صغيرة وكبيرة ، ففيه تجويز العقاب على الصغيرة ، سواء اجتنب مرتكبها الكبيرة أم لا ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ، والإحصاء إنما يكون للسؤال والجزاء . « إتحاف » (٢/٢٥١) .

(٢) كما روى البخاري (٧٤٥٠) مرفوعاً : « ليصيبن أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبةً ، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته ، يقال لهم : الجهنميون » .

(٣) وورود الصراط هو ورود النار لكل أحد ، وبهـٰذا فسَّرَ الآيةَ ابنُ مسعود والحسن وقتادة ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ، وبعضهم فسر الورود بالدخول ، كما في حديث جابر رفعه وزاد : « لا يبقىٰ بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت علىٰ إبراهيم ، حتىٰ إن للنار لضجيجاً من بردهم ، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ . . . ﴾ الآية » ، رواه أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلىٰ والنسائي في « الكنىٰ » والبيهقي وغيرهم ، وهو حسن . « إتحاف » (٢/٢٥١) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَا يَصْلَـٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ أرادَ بهِ مِنْ جماعةٍ مخصوصينَ ، أو أرادَ بالأشقىٰ شخصاً معيَّناً أيضاً .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ ؛ أي : فوجٌ مِنَ الكفَّارِ .

وتخصيصُ العموماتِ قريبٌ ، ومنْ هـٰذهِ الآيةِ وقعَ للأشعريِّ وطائفةٍ مِنَ المتكلمينَ إنكارُ صيغِ العمومِ ، وأنَّ هـٰذهِ الألفاظَ يتوقَّفُ فيها إلىٰ أنْ تردَ قرينةٌ تدلُّ علىٰ معناها .

❀ ❀ ❀

وأما المعتزلةُ : فشبهتُهُمْ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ ، ثمَّ قال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ .

وكلُّ آيةٍ ذُكرَ العملُ الصالحُ مقروناً فيها بالإيمانِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا ﴾ .

وهـٰذهِ العموماتُ أيضاً مخصوصةٌ ؛ بدليلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، فينبغي أنْ تبقىٰ لهُ مشيئةٌ في مغفرةِ ما سوى الشركِ .

وكذٰلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ كَانَ فِي قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ »[1] .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فكيفَ يضيعُ أجرُ أصلِ الإيمانِ وجميعِ الطاعاتِ بمعصيةٍ واحدةٍ ؟!

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ أيْ : لإيمانِهِ ، وقدْ وردَ علىٰ مثلِ هـٰذا السببِ[2]

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فقدْ مالَ الاختيارُ إلىٰ أنَّ الإيمانَ حاصلٌ دونَ العملِ ، وقدِ اشتهرَ عنِ السلفِ قولُهُمْ : (الإيمانُ عقدٌ وقولٌ وعملٌ) ، فما معناهُ ؟

قلنا : لا يبعدُ أنْ يُعَدَّ العملُ مِنَ الإيمانِ ؛ لأنَّهُ مكمِّلٌ لهُ ومتمِّمٌ ، كما يُقالُ : الرأسُ واليدانِ مِنَ الإنسانِ ، ومعلومٌ أنَّهُ يخرجُ عنْ كونِهِ إنساناً بعدمِ الرأسِ ، ولا يخرجُ عنهُ بكونِهِ مقطوعَ اليدِ ، وكذٰلكَ يُقالُ : التسبيحاتُ والتكبيراتُ مِنَ الصلاةِ وإنْ كانتْ لا تبطلُ بفقدِها .

فالتصديقُ بالقلبِ مِنَ الإيمانِ كالرَّأسِ مِنْ وجودِ الإنسانِ ؛ إذْ ينعدمُ بعدمِهِ ، وبقيةُ الطاعاتِ كالأطرافِ ، وبعضُها أعلىٰ مِنْ بعضٍ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزني الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ »[3] ، والصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ

---

(١) رواه البخاري (٢٢) ، ومسلم (١٨٤) ، والترمذي (٢٥٩٨) واللفظ له .

(٢) وقد نزلت في رجل ارتدَّ بعد قبوله دية أخيه ، ثم قتل قاتل أخيه وفرَّ إلىٰ مكة ، فكانت ردَّته سبب خلوده في جهنم أبداً . انظر « الدر المنثور » (٦٢٢/٢) .

(٣) رواه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

ما اعتقدوا مذهبَ المعتزلةِ في الخروجِ عَنِ الإيمانِ بالزنا ، ولـٰكنْ معناهُ : غيرُ مؤمنٍ حقّاً إيماناً تامّاً كاملاً ؛ كما يُقالُ للعاجزِ المقطوعِ الأطرافِ : هـٰذا ليسَ بإنسانٍ ؛ أيْ : ليسَ لهُ الكمالُ الذي هوَ وراءَ حقيقةِ الإنسانيةِ (١)

مَسْأَلَةٌ

[في زيادةِ الإيمانِ ونقصانِهِ]

فإنْ قلتَ : فقدِ اتفقَ السلفُ علىٰ أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ ؛ يزيدُ بالطاعةِ ، وينقصُ بالمعصيةِ ، فإذا كان التصديقُ هوَ الإيمانَ . . فلا يُتصوَّرُ فيهِ زيادةٌ ولا نقصانٌ .

فأقولُ : السلفُ همُ الشهودُ العدولُ ، وما لأحدٍ عَنْ قولِهِمْ عُدولٌ ، فما ذكروهُ حقٌّ ، وإنَّما الشأنُ في فهمِهِ ، وفيهِ دليلٌ علىٰ أنَّ العملَ ليسَ مِنْ أجزاءِ الإيمانِ وأركانِ وجودِهِ ، بلْ هوَ مزيدٌ عليهِ يزيدُ بهِ ، والزائدُ موجودٌ ، والناقصُ موجودٌ ، والشيءُ لا يزيدُ بذاتِهِ ، فلا يجوزُ أنْ يُقالَ : الإنسانُ يزيدُ برأسِهِ ، بلْ يقالُ : يزيدُ بلحيتِهِ وسِمَنِهِ ، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ : الصلاةُ تزيدُ بالركوعِ والسجودِ ، بلْ تزيدُ بالآدابِ والسننِ .

فهـٰذا تصريحٌ بأنَّ الإيمانَ لهُ وجودٌ ، ثمَّ بعدَ الوجودِ يختلفُ حالُهُ بالزيادةِ والنقصانِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فالإشكالُ قائمٌ في أنَّ التصديقَ كيفَ يزيدُ وينقصُ وهوَ خصلةٌ واحدةٌ ؟

فأقولُ : إذا تركنا المداهنةَ ولمْ نكترثْ بتشغيبِ مَنْ تشغَّبَ وكشفْنا الغطاءَ . . ارتفعَ الإشكالُ ؛ فنقولُ : الإيمانُ اسمٌ مشتركٌ يُطلقُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

الأوَّلُ : أنَّهُ يُطلقُ للتصديقِ بالقلبِ علىٰ سبيلِ الاعتقادِ والتقليدِ مِنْ غيرِ كشْفٍ وانشراحِ صدْرٍ ، وهوَ إيمانُ العوامِّ ، بلْ إيمانُ الخلْقِ كلِّهِمْ إلا الخواصَّ .

وهـٰذا الاعتقادُ عقدةٌ على القلبِ ، تارةً تشتدُّ وتقوىٰ ، وتارةً تضعفُ وتسترخي ؛ كالعقدةِ على الخيطِ مثلاً .

ولا تستبعدْ هـٰذا ، واعتبرْهُ باليهوديِّ في صلابتِهِ في عقيدتِهِ التي لا يمكنُ نزوعُها منهُ بتخويفٍ وتحذيرٍ ، ولا تخييلٍ ووعظٍ ، ولا تحقيقٍ وبرهانٍ ، وكذلكَ النصرانيُّ والمبتدعةُ ، وفيهِمْ مَنْ يمكنُ تشكيكُهُ بأدنىٰ كلامٍ ، ويمكنُ استنزالُهُ عنِ اعتقادِهِ بأدنى استمالةٍ أوْ تخويفٍ ، معَ أنَّهُ غيرُ شاكٍّ في عقدِهِ كالأوَّلِ ، ولـٰكنَّهُما متفاوتانِ في شدَّةِ التصميمِ ، وهـٰذا موجودٌ في الاعتقادِ الحقِّ أيضاً .

والعملُ يؤثِّرُ في نماءِ هـٰذا التصميمِ وزيادتِهِ كما يؤثِّرُ سَقْيُ الماءِ في نماءِ الأشجارِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ : « الإيمانُ يزيدُ وينقصُ » (٢) ، وذٰلكَ بتأثيرِ الطاعاتِ في

---

(١) قال الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٣٢/٢) معلقاً على الحديث المذكور : (وفيه معنىً لطيف ، كأنه يرتفع عنه إيمان الحياء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحياء من الإيمان » ، والمستحي لا يكشف عورته علىٰ حرام ، ويبقىٰ إيمان الإسلام والتوحيد وإيجاب الأحكام) .

(٢) رواه ابن ماجه (٧٥) من قول ابن عباس وأبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهم .

القلبِ ، وهٰذا لا يدركُهُ إلا مَنْ راقبَ أحوالَ نفسِهِ في أوقاتِ المواظبةِ على العبادةِ والتجرُّدِ لها بحضورِ القلبِ معَ أوقاتِ الفتورِ وإدراكِ التفاوتِ في السكونِ إلىٰ عقائدِ الإيمانِ في هٰذهِ الأحوالِ حتَّىٰ يزيدَ عقدُهُ استعصاءً علىٰ مَنْ يريدُ حلَّهُ بالتشكيكِ ، بلْ مَنْ يعتقدُ في اليتيمِ معنى الرحمةِ إذا عملَ بموجَبِ اعتقادِهِ ، فمسح رأسَهُ وتلطَّفَ بهِ . . أدركَ مِنْ باطنِهِ تأكُّدَ الرحمةِ وتضاعفَها بسببِ العملِ ، وكذٰلكَ معتقدُ التواضعِ إذا عملَ بموجَبِهِ مقبِّلاً أوْ ساجداً لغيرِهِ . . أحسَّ مِنْ قلبِهِ بالتواضعِ عندَ إقدامِهِ على الخدمةِ .

وهٰكذا جميعُ صفاتِ القلبِ تصدرُ منها أعمالُ الجوارحِ ، ثمَّ يعودُ أثرُ الأعمالِ عليها فيؤكِّدُها ويزيدُها ، وسيأتي هٰذا في ربعِ المنجياتِ والمهلكاتِ عندَ بيانِ وجهِ تعلُّقِ الباطنِ بالظاهرِ ، والأعمالِ بالعقائدِ والقلوبِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ جنسِ تعلُّقِ المُلْكِ بالملكوتِ ، وأعني بالمُلْكِ عالَمَ الشهادةِ المدركَ بالحواسِّ ، وأعني بالملكوتِ عالَمَ الغيبِ المدركَ بنورِ البصيرةِ ، والقلبُ من عالمِ الملكوتِ ، والأعضاءُ وأعمالُها مِنْ عالمِ المُلكِ ، ولطُفُ الارتباطِ ودقتُهُ بينَ العالمينِ انتهىٰ إلىٰ حدٍّ ظنَّ بعضُ الناسِ اتحادَ أحدِهِما بالآخرِ ، وظنَّ آخرونَ أنَّهُ لا عالمَ إلا عالمُ الشهادةِ ، وهوَ هٰذهِ الأجسامُ المحسوسةُ ، ومَنْ أدركَ الأمرينِ وأدركَ تعدُّدَهُما ثمَّ ارتباطَهُما . . عبَّرَ عنهُ وقالَ[1] : [من الكامل]

رَقَّ الزُّجاجُ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ ... فَتَشابَها فَتَشاكَلَ الأَمْرُ

فَكَأَنَّما خَمْرٌ وَلا قَدَحٌ ... وَكَأَنَّما قَدَحٌ وَلا خَمْرُ

ولنرجعْ إلى المقصودِ ، فإنَّ هٰذا اعترضَ خارجاً عنْ علمِ المعاملةِ ، ولٰكنْ بينَ العلمينِ أيضاً اتصالٌ وارتباطٌ ، فلذٰلكَ ترىٰ علومَ المكاشفةِ تتسلَّقُ كلَّ ساعةٍ علىٰ علومِ المعاملةِ إلىٰ أنْ تكفَّ عنها بالتكلُّفِ .

فهٰذا وجهُ زيادةِ الإيمانِ بالطاعةِ بموجَبِ هٰذا الإطلاقِ ، ولهٰذا قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (إنَّ الإيمانَ ليبدو لمعةً بيضاءَ ، فإذا عملَ العبدُ الصالحاتِ . . نمتْ فزادتْ حتَّىٰ يبيضَّ القلبُ كلُّهُ ، وإنَّ النفاقَ ليبدو نكتةً سوداءَ ، فإذا انتهكَ الحرماتِ . . نمتْ وزادتْ حتَّىٰ يسودَّ القلبُ كلُّهُ ، فيُطبعَ علىٰ قلبِهِ ، فذٰلكَ الختمُ) ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم . . . ﴾ الآيةَ[2]

الإطلاقُ الثاني : أنْ يُرادَ بهِ التصديقُ والعملُ جميعاً ؛ كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ باباً »[3] ، وكما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزني الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ »[4]

وإذا دخلَ العملُ في مقتضىٰ لفظِ الإيمانِ . . لمْ تخفَ زيادتُهُ ونقصانُهُ ، وهلْ يؤثِّرُ ذٰلكَ في زيادةِ الإيمانِ الذي هوَ مجرَّدُ التصديقِ ؟ هٰذا فيهِ نظرٌ ، وقدْ أشرنا إلىٰ أنَّهُ يؤثِّرُ فيهِ .

الإطلاقُ الثالثُ : أنْ يُرادَ بهِ التصديقُ اليقينيُّ علىٰ سبيلِ الكشفِ وانشراحِ الصدْرِ والمشاهدةِ بنورِ البصيرةِ ، وهٰذا أبعدُ الأقسامِ عنْ قبولِ الزيادةِ .

ولٰكنّي أقولُ : الأمرُ اليقينيُّ الذي لا شكَّ فيهِ تختلفُ طمأنينةُ النفسِ إليهِ ، فليسَ طمأنينةُ النفسِ إلىٰ أنَّ الاثنينِ

---

(١) البيتان للصاحب بن عباد في « ديوانه » (ص ١٧٦) .

(٢) قوت القلوب (١٣٥/٢) ، وبنحوه رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٧) .

(٣) رواه الترمذي (٢٦١٤) بلفظه ، وبلفظ : « شعبة » بدل « باباً » عند البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

(٤) رواه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

أكثرُ منَ الواحدِ كطمأنينتِها إلىٰ أنَّ العالمَ مصنوعٌ حادثٌ ، وإنْ كانَ لا شكَّ في واحدٍ منهما ؛ فإنَّ اليقينياتِ تختلفُ في درجاتِ الإيضاحِ ، ودرجاتِ طمأنينةِ النفسِ إليها .

وقدْ تعرضْنا لهٰذا في فصلِ اليقينِ مِنْ كتابِ العلمِ ، في بابِ علاماتِ علماءِ الآخرةِ ، فلا حاجةَ إلى الإعادةِ .

وقدْ ظهرَ في جميعِ الإطلاقاتِ أنَّ ما قالوهُ مِنْ زيادةِ الإيمانِ ونقصانِهِ حقٌّ ، وكيفَ لا وفي الأخبارِ أنَّهُ « يخرجُ منَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ » ، وفي بعضِ المواضعِ في خبرٍ آخرَ : « مثقالُ دينارٍ »[1] ، فأيُّ معنىً لاختلافِ مقاديرِهِ إنْ كانَ ما في القلبِ لا يتفاوتُ ؟!

مسألة

[قوله : أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ اللهُ]

فإنْ قلتَ : ما وجهُ قولِ السلفِ : (أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ اللهُ) ، والاستثناءُ شكٌّ ، والشكُّ في الإيمانِ كفرٌ ، وقدْ كانوا كلُّهمْ يمتنعونَ عنْ جزمِ الجوابِ بالإيمانِ ويحترزونَ عنهُ ، فقالَ سفيانُ الثوريُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ قالَ : أنا مؤمنٌ عندَ اللهِ . . فهوَ مِنَ الكذَّابينَ ، ومَنْ قالَ : أنا مؤمنٌ حقّاً . . فهوَ بدعةٌ)[2] ، فكيفَ يكونُ كاذباً وهوَ يعلمُ أنَّهُ مؤمنٌ في نفسِهِ ، ومَنْ كانَ مؤمناً في نفسِهِ . . كانَ مؤمناً عندَ اللهِ ، كما أنَّ مَنْ كانَ طويلاً أوْ سخياً في نفسِهِ وعلمَ ذٰلكَ . . كانَ كذٰلكَ عندَ اللهِ ، وكذا مَنْ كانَ مسروراً أوْ حزيناً أوْ سميعاً أوْ بصيراً .

ولوْ قيلَ للإنسانِ : هلْ أنتَ حيوانٌ . . لمْ يحسنْ أنْ يقولَ : أنا حيوانٌ إنْ شاءَ اللهُ .

ولمَّا قالَ سفيانُ ذٰلكَ . . قيلَ لهُ : فماذا نقولُ ؟ قالَ : (قولوا : آمنَّا باللهِ وما أنزلَ إلينا) ، وأيُّ فرقٍ بينَ أنْ يقولَ : (آمنَّا باللهِ وما أُنزلَ إلينا) وبينَ أنْ يقولَ : (أنا مؤمنٌ) ؟

وقيلَ للحسنِ : أمؤمنٌ أنتَ ؟ فقال : إنْ شاءَ اللهُ ، فقيلَ لهُ : تستثني يا أبا سعيد في الإيمانِ ؟! فقالَ : أخافُ أنْ أقولَ : نعمْ . . فيقولَ اللهُ : كذبتَ يا حسنُ ، فتحقَّ عليَّ الكلمةُ ، وكانَ يقولُ : (ما يؤمنني أنْ يكونَ اللهُ سبحانَهُ قدِ اطلعَ عليَّ في بعضِ ما يكرَهُ فمقتَني وقالَ : اذهبْ لا قبلتُ لكَ عملاً ، فأنا أعملُ في غيرِ معملٍ)[3]

وقالَ إبراهيمُ[4] : (إذا قيلَ لكَ : أمؤمنٌ أنتَ ؟ فقلْ : لا إلٰهَ إلا اللهُ)[5] ، وقالَ مرَّةً : (قلْ : أنا لا أشكُّ في الإيمانِ ، وسؤالُكَ إيايَ بدعةٌ)[6]

وقيلَ لعلقمةَ : أمؤمنٌ أنتَ ؟ قالَ : أرجو إنْ شاءَ اللهُ[7]

---

(١) كما في « البخاري » (٧٤٤٠) ، ومسلم (١٨٣) .
(٢) قوت القلوب (١٣٧/٢) .
(٣) قوت القلوب (١٣٧/٢)
(٤) ابن يزيد النخعي فقيه الكوفة ، وليس هو بابن أدهم . « إتحاف » (٢٦٤/٢) .
(٥) قوت القلوب (١٣٧/٢)
(٦) قوت القلوب (١٣٧/٢) .
(٧) قوت القلوب (١٣٧/٢) .

وقالَ الثوريُّ : (نحنُ مؤمنونَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، وما ندري ما نحنُ عندَ اللهِ تعالىٰ)[١] ، فما معنىٰ هٰذهِ الاستثناءاتِ ؟[٢]

فالجوابُ : أنَّ هٰذا الاستثناءَ صحيحٌ ، ولهُ أربعةُ أوجهٍ : وجهانِ مستندانِ إلىٰ شكٍّ لا في أصلِ الإيمانِ ولٰكنْ في خاتمتِهِ أوْ كمالِهِ ، ووجهانِ لا يستندانِ إلى الشكِّ .

الوجهُ الأوَّلُ الذي لا يستندُ إلىٰ معارضةِ الشكِّ : الاحترازُ منَ الجزْمِ خيفةَ ما فيهِ منْ تزكيةِ النفسِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، وقالَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ .

وقيلَ لحكيمٍ : ما الصدقُ القبيحُ ؟ فقالَ : ثناءُ المرءِ علىٰ نفسِهِ .

والإيمانُ مِنْ أعلىٰ صفاتِ المجدِ ، والجزمُ بِهِ تزكيةٌ مطلقةٌ ، وصيغةُ الاستثناءِ كأنَّها نقلٌ مِنْ عُرْفِ التزكيةِ[٣] ؛ كما يُقالُ للإنسانِ : أنتَ طبيبٌ ، أوْ فقيهٌ ، أوْ مفسِّرٌ ؟ فيقولُ : نعمْ إنْ شاءَ اللهُ ، لا في معرضِ التشكيكِ ، ولٰكنْ لإخراجِ نفسِهِ عنْ تزكيةِ نفسِهِ .

فالصيغةُ صيغةُ الترديدِ والتضعيفِ لنفسِ الخبرِ[٤] ، ومعناهُ التضعيفُ للازمِ مِنْ لوازمِ الخبرِ ، وهوَ التزكيةُ ، وبهٰذا التأويلِ لوْ سُئلَ عنْ وصفِ ذمٍّ . . لمْ يحسنِ الاستثناءُ .

الوجهُ الثاني : التأدُّبُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ حالٍ ، وإحالةُ الأمورِ كلِّها إلىٰ مشيئةِ اللهِ سبحانَهُ ، فقدْ أدَّبَ اللهُ سبحانَهُ نبيَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، ثمَّ لمْ يقتصرْ علىٰ ذٰلكَ فيما لا يشكُّ فيهِ ، بلْ قالَ : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ ، وكانَ اللهُ سبحانَهُ عالماً بأنَّهُمْ يدخلونَ لا محالةَ ، وأنَّهُ شاءَهُ ، ولٰكنِ المقصودُ تعليمُهُ ذٰلكَ ، فتأدَّبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ ما كانَ يخبرُ عنهُ ، معلوماً كانَ أوْ مشكوكاً ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا دخلَ المقابرَ : « السلامُ عليكُمْ دارَ قومٍ مؤمنينَ ، وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكُمْ لاحقونَ »[٥] ، واللحوقُ بهِمْ غيرُ مشكوكٍ فيهِ ، ولٰكنْ مقتضى الأدبِ ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وربطُ الأمورِ بهِ ، وهٰذهِ الصيغةُ دالَّةٌ عليهِ[٦] ، حتَّىٰ صارَ بعرفِ الاستعمالِ عبارةً عنْ إظهارِ الرغبةِ والتمني ، فإذا قيلَ لكَ : إنَّ فلاناً يموتُ سريعاً ، فتقولُ : إنْ شاءَ اللهُ . . فيفهمُ منهُ رغبتُكَ ، لا تشكُّكُكَ .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٣٧) .

(٢) وكما ثبت عند فريق هٰذه الاستثناءات عن السلف الصالح . . ثبت ردُّها عنهم كذٰلك عند فريق آخر ، وهم عامة الحنفية ، فمن ذٰلك ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أخرج شاة لتذبح ، فمر به رجل ، فقال له ابن عمر : أمؤمن أنت ؟ قال : نعم إن شاء الله ، قال : لا يذبح نسيكتي من يشك في إيمانه ، ونقل عن عطاء أنه كان ينكر علىٰ من يستثني في إيمانه ، ونقل عن ابن مسعود رضي الله عنه استغفاره من الاستثناء لما ناظر صاحباً لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، وغيرها الكثير .
وقد يكون ما دعا المصنف رحمه الله تعالىٰ لتفصيل القول في هٰذه المسألة أحسن تفصيل مبتغياً نهج السبيل . . هو تعصب بعض الحنفية لدعواهم ، ورميهم مخالفيهم بالتكفير والتضليل ، والمسألة ـ كما قال تقي الدين السبكي ـ فرعية لا ينبني عليها هٰذا الخلاف الشديد .
قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢/٢٦٥) : (ولعلمائنا الحنفية في هٰذا المبحث كلام طويل ، تركته لما في أكثره من نسبة التكفير والتضليل والتحريم إلىٰ قائله ، فلم أستحسن إيراده) . وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٢/٢٨١) .

(٣) في (ب) و(و) : (كأنها نقلٌ من غَرْب التزكية) .

(٤) إذ موضوع (إن) في اللغة دخولها على المحتمل الذي هو الشك في قول ، ويلزم منه التضعيف لنفس الخبر . « إتحاف » (٢/٢٦٥) .

(٥) رواه مسلم (٢٤٩) .

(٦) أي : على التبرك والتأدب ، لٰكنه كله مستقبل ، وربط المستقبل بالشرط لا يستنكر . « إتحاف » (٢/٢٦٦) .

وإذا قيلَ لكَ : فلانٌ سيزولُ مرضُهُ ويصحُّ ، فتقولُ : إنْ شاءَ اللهُ ؛ بمعنى الرغبةِ . . فقدْ صارتِ الكلمةُ معدولةً عنْ معنى التشكيكِ إلىٰ معنى الرغبةِ ؛ فكذٰلكَ العدولُ إلىٰ معنى التأدُّبِ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ كيفَ كانَ الأمرُ .

الوجهُ الثالثُ : ومستندُهُ الشكُّ ، ومعناهُ : أنا مؤمنٌ حقّاً إنْ شاءَ اللهُ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ لقومٍ مخصوصينَ بأعيانِهِمْ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ، فانقسموا إلىٰ قسمينِ ، ويرجعُ هٰذا إلى الشكِّ في كمالِ الإيمانِ لا في أصلِهِ ، وكلُّ إنسانٍ شاكٌّ في كمالِ إيمانِهِ ، وذٰلكَ ليسَ بكفرٍ ، والشكُّ في كمالِ الإيمانِ حقٌّ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : مِنْ حيثُ إنَّ النفاقَ يُزيلُ كمالَ الإيمانِ ، وهوَ خفيٌّ لا تتحقَّقُ البراءةُ منهُ .

والثاني : أنَّهُ يكملُ بأعمالِ الطاعاتِ ، ولا يُدرىٰ وجودُها على الكمالِ .

أمَّا العملُ . . فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ ، فيكونُ الشكُّ في هٰذا الصدقِ .

وكذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ﴾ ، فشرطَ عشرينَ وصفاً ؛ كالوفاءِ بالعهدِ ، والصبرِ على الشدائدِ ، ثمَّ قالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإيمانُ عُريانٌ ، ولباسُهُ التقوىٰ . . . » الحديثَ[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ باباً ، أدناها إماطةُ الأذىٰ عنِ الطريقِ . . . » الحديثَ[2]

فهٰذا ما يدلُّ على ارتباطِ كمالِ الإيمانِ بالأعمالِ .

وأمَّا ارتباطُهُ بالبراءةِ عنِ النفاقِ والشركِ الخفيِّ . . فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ . . فهوَ منافقٌ خالصٌ وإنْ صامَ وصلَّىٰ وزعمَ أنَّهُ مؤمنٌ : مَنْ إذا حدَّثَ . . كذبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، وإذا ائتُمِنَ . . خانَ ، وإذا خاصمَ . . فجرَ » ، وفي بعضِ الرواياتِ : « وإذا عاهدَ . . غدرَ »[3]

وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ : « القلوبُ أربعةٌ : قلبٌ أجردُ وفيهِ سراجٌ يزهرُ ؛ فذٰلكَ قلبُ المؤمنِ[4] ، وقلبٌ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٣٨٣) من كلام وهب بن منبه ، وكذا ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨٩/٦٣) ، وقال أبو طالب في « القوت » (١٣٨/١) : (وقد أسنده حمزة الخراساني عن الثوري ، فرفعه إلىٰ عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم) ، وكذا هو عند الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٢٩ ـ ١٣٠) مرفوعاً وموقوفاً ، وقال الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٣٥/٢) أيضاً : (وقد روينا في خبر « الإيمان عريان ، ولباسه التقوىٰ ، وحليته الورع ، وثمرته العلم » ، ففيه دليل أنَّ من لا تقوىٰ له فلا لبس لإيمانه ، ومن لا ورع له فلا زينة لإيمانه ، ومن لا علم له فلا ثمرة لإيمانه ، فإن اتفق فاسق ظالم جاهل كان بالمنافقين أشبه منه بالمؤمنين ، وكان إيمانه إلى النفاق أقرب ويقينه إلى الشك أميل ، ولم يخرجه من اسم الإيمان إلا أن إيمانه عريان لا لبسة له ، معطل لا كسب له ، كما قال : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ ، والنفاق مقامات ، قيل : سبعون باباً ، والشرك مثل ذٰلك فيها طبقات) .

(٢) رواه الترمذي (٢٦١٤) بلفظه ، وبلفظ : « شعبة » بدل « باباً » عند البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

(٣) رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .

(٤) **القلب الأجرد** : هو المجرد عن الظلمات ، ويزهر : يضيء ، وهو في « قوت القلوب » (١٣٥/٢) .

مُصَفَّحٌ فيهِ إيمانٌ ونفَاقٌ ؛ فمثلُ الإيمانِ فيهِ كمثلِ البقلةِ يمُدُّها الماءُ العذبُ ، ومثلُ النفاقِ فيهِ كمثلِ القرحةِ يمُدُّها القيحُ والصَّديدُ ، فأيُّ المادَّتينِ غلبَ عليهِ . . حُكِمَ لهُ بها » ، وفي لفظٍ آخرَ : « غلبتْ عليهِ . . ذَهَبَتْ بِهِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ منافقي هـٰذهِ الأمَّةِ قُرَّاؤُها »[٢]

وفي حديثٍ آخرَ : « الشركُ أخفىٰ في أمتي مِنْ دبيبِ النملِ على الصفا »[٣]

وقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ الرجلُ يتكلمُ بالكلمةِ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يصيرُ بها منافقاً إلىٰ أنْ يموتَ ، وإنّي لأسمعُها مِنْ أحدِكم في اليومِ عشرَ مرَّاتٍ)[٤]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (أقربُ الناسِ مِنَ النفاقِ مَنْ يرىٰ أنَّهُ بريءٌ منهُ)[٥]

وقالَ حذيفةُ : (المنافقونَ اليومَ أكثرُ منهُمْ علىٰ عهْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكانوا إذْ ذاكَ يُخْفُونَهُ وهمُ اليومَ يُظْهِرونَهُ)[٦]

وهـٰذا النفاقُ يضادُّ صدقَ الإيمانِ وكمالَهُ ، وهوَ خفيٌّ ، وأبعدُ الناسِ منهُ مَنْ يتخوَّفُهُ ، وأقربُهُمْ منهُ مَنْ يرىٰ أنَّهُ بريءٌ منهُ ؛ فقدْ قيلَ للحسنِ البصريِّ : يقولونَ : أنْ لا نفاقَ اليومَ ، فقالَ : يا أخي ؛ لوْ هلكَ المنافقونَ . . لاستوحشْتُمْ في الطرقِ[٧]

وقالَ هوَ أوْ غيرُهُ : (لوْ نبتَ للمنافقينَ أذنابٌ . . ما قدرْنا أنْ نطأَ على الأرضِ)[٨]

وسمعَ ابنُ عمرَ رجلاً يتعرَّض للحَجَّاجِ فقالَ : أرأيتَ لوْ كانَ حاضراً يسمعُ : أكنتَ تتكلَّمُ فيهِ ؟ فقالَ : لا ، قالَ : كنَّا نعدُّ هـٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٩]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ ذا لسانينِ في الدنيا . . جعلَهُ اللهُ ذا لسانينِ في الآخرةِ »[١٠]

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ الناسِ ذو الوجهينِ الذي يأتي هـٰؤلاءِ بوجهٍ وهـٰؤلاءِ بوجهٍ »[١١]

وقيلَ للحسنِ : إنَّ قوماً يقولونَ : إنَّا لا نخافُ النفاقَ ، فقالَ : واللهِ ؛ لأَنْ أكونَ أعلمُ أنّي بريءٌ مِنَ النفاقِ أحبُّ إليَّ مِنْ تلاعِ الأرضِ ذهباً[١٢]

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (١٧/٣) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (١٧٥/٢) ، **والمراد بالقرّاء** : الفقهاء ؛ أي : يضعون العلم في غير مواضعه ، يتعلمون العلم نفية للتهمة وهم معتقدون خلافه ، وكان المنافقون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم بهـٰذه الصفة . « إتحاف » (٢٧٠/٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٢/٧) ، والضياء في « المختارة » (٦٢) .

(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٣٩٠/٥) .

(٥) قوت القلوب (١٣٦/٢) .

(٦) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٥٣١) ، وبنحوه عند البخاري (٧١١٣) .

(٧) قوت القلوب (١٣٧/٢) ، وبنحوه رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣١٧) .

(٨) قوت القلوب (١٣٧/٢) .

(٩) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤/٢٣) ، وأصله في « البخاري » (٧١٧٨) .

(١٠) ذكر الحافظ الزبيدي أنه من تتمة كلام سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما . « إتحاف » (٢٧١/٢) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٦٠/٢) مرفوعاً : « من كان ذا لسانين في الدنيا . . جعل الله له يوم القيامة لسانين من نار » .

(١١) رواه البخاري (٧١٧٩) ، ومسلم (٤٧١٥) .

(١٢) قوت القلوب (١٣٧/٢) ، **والتلاع** : جمع تلعة ، وهي ما ارتفع من الأرض ، وما انهبط منها أيضاً .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ مِنَ النفاقِ اختلافَ اللسانِ والقلبِ ، والسرّ والعلانيةِ ، والمدخلِ والمخرجِ)[1]

وقالَ رجلٌ لحذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ : إنِّي أخافُ أنْ أكونَ منافقاً ، فقالَ : لوْ كنتَ منافقاً . . ما خفتَ النفاقَ ؛ إنَّ المنافقَ قدْ أمنَ مِنَ النفاقِ[2]

وقالَ ابنُ أبي مليكةَ : (أدركتُ ثلاثينَ ومئةً ـ وفي روايةٍ : خمسَ مئةٍ ـ مِنْ أصحابِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كلُّهُمْ يخافونَ النفاقَ)[3]

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ جالساً في جماعَةٍ مِنْ أصحابِهِ ، فذكرُوا رجلاً وأكثروا الثناءَ عليهِ ، فبينا هُمْ كذٰلكَ إذْ طلعَ عليهِمُ الرجُلُ ووجهُهُ يقطرُ ماءً مِنْ أثرِ الوضوءِ ، وقدْ علَّقَ نعلَهُ بيدِهِ ، وبينَ عينيهِ أثرُ السجودِ ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ هوَ هٰذا الرجلُ الذي وصفناهُ ، فَقَالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَرَىٰ علىٰ وجههِ سَفْعَةً مِنَ الشيطانِ » ، فجاءَ الرجلُ حتَّىٰ سلَّمَ وجلسَ معَ القومِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نَشَدْتُكَ اللهَ ، هلْ حدَّثْتَ نفسَكَ حينَ أشرفتَ على القومِ أنَّهُ ليسَ فيهِمْ خيرٌ منكَ ؟ » فقالَ : اللهمَّ نعمْ[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أستغفرُكَ لِمَا علمتُ ولِمَا لمْ أعلمْ » ، فقيلَ لهُ : أتخافُ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « وما يؤمنني والقلوبُ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ يقلِّبُها كيفَ يشاءُ »[5]

وقدْ قالَ سبحانَهُ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، قيلَ في التفسيرِ : عملوا أعمالاً ظنُّوا أنَّها حسناتٌ ، فكانتْ في كفَّةِ السيئاتِ[6]

وقالَ سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ : (لوْ أنَّ إنساناً دخلَ إلىٰ بستانٍ فيهِ مِنْ جميعِ الأشجارِ ، عليها مِنْ جميعِ الأطيارِ ، فخاطبَهُ كلُّ طيرٍ منها بلغةٍ فقالَ : السلامُ عليكَ يا وليَّ اللهِ ، فسكنتْ نفسُهُ إلىٰ ذٰلكَ . . كانَ أسيراً في يديها)[7]

فهٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تعرفُكَ خطرَ الأمرِ بسببِ دقائقِ النفاقِ والشرْكِ الخفيِّ ، وأنَّهُ لا يُؤمَنُ منهُ ، حتَّىٰ كانَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يسألُ حذيفةَ عنْ نفسِهِ ، وأنَّهُ هلْ ذُكِرَ في المنافقينَ ؟[8]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (سمعتُ مِن بعضِ الأُمراءِ شيئاً ، فأردتُ أنْ أنكرَهُ ، فخفتُ أنْ يُؤمَرَ بقتلي ولمْ

---

(١) قوت القلوب (١٣٧/٢) .

(٢) قوت القلوب (١٣٧/٢) .

(٣) قوت القلوب (١٣٧/٢) ، وفي (ب) : (خمسين ومئة) بدل (خمس مئة) ، والذي في « صحيح البخاري » (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) : (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل) .

(٤) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٢/٣) ، والدارقطني في « سننه » (٥٤/٢) ، **والسفعة** : علامة سوداء ، يقال : به سفعة من الشيطان ؛ أي : مسٌّ ، كأنه أخذ بناصيته .

(٥) روىٰ آخره أحمد في « المسند » (٢٥٠/٦) ، وأوله عند مسلم (٤٨٩١) بلفظ : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل » ، وهو بلفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١٣٨/٢) .

(٦) كذا روي تفسيرها عن مجاهد كما في « أحكام القرآن » (٢٦٥/١٥) ، حتىٰ قال الإمام القشيري في هٰذه الآية : (في سماع هٰذه الآية حسراتٌ لأصحاب الانتباه) . « لطائف الإشارات » (٢٨٥/٣) .

(٧) حلية الأولياء (١١٨/١٠) .

(٨) رواه وكيع في « الزهد » (٤٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٦/١٢) بنحوه .

أخفْ مِنَ الموتِ ، ولٰكنْ خشيتُ أنْ يعرضَ لقلبي التزيُّنُ للخلقِ عندَ خروجِ روحي ، فكففتُ)[1]

وهٰذا مِنَ النفاقِ الذي يضادُّ حقيقةَ الإيمانِ وصدقَهُ وكمالَهُ وصفاءَهُ ، لا أصلَهُ[2]

فالنفاقُ نفاقانِ :

أحدُهُما : يُخرجُ مِنَ الدينِ ، ويُلحقُ بالكافرينَ ، ويُسلكُ في زمرةِ المخلَّدينَ في النارِ .

والثاني : يفضي بصاحبِهِ إلى النارِ مدَّةً ، أوْ ينقصُ مِنْ درجاتِ عليِّينَ ، ويحطُّ عنْ رتبةِ الصدِّيقينَ ، وذٰلكَ مشكوكٌ فيهِ ، فلذٰلكَ حَسُنَ فيهِ الاستثناءُ .

وأصلُ هٰذا النفاقِ تفاوتُ السرِّ والعلانيةِ ، والأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ ، والعُجبُ ، وأمورٌ أُخرُ لا يخلو عنها إلا الصدِّيقونَ .

الوجهُ الرابعُ : وهوَ أيضاً مستندٌ إلى الشكِّ ، وذٰلكَ مِنْ خوفِ الخاتمةِ ؛ فإنَّهُ لا يدري أيسْلَمُ لهُ الإيمانُ عندَ الموتِ أمْ لا ؟ فإنْ ختمَ لهُ بالكفرِ . . حبطَ الإيمانُ السابقُ ؛ لأنَّهُ موقوفٌ على سلامةِ الآخِرِ ، ولوْ سُئلَ الصائمُ ضحوةَ النهارِ عنْ صحَّةِ صومِهِ فقالَ : أنا صائمٌ قطعاً ، فلوْ أفطرَ في أثناءِ نهارِهِ بعدَ ذٰلك . . لتبيَّنَ كذبُهُ ؛ إذْ كانتِ الصحَّةُ موقوفةً على التمامِ إلى غروبِ الشمسِ مِنْ آخرِ النهارِ ، وكما أنَّ النهارَ ميقاتُ تمامِ الصومِ . . فالعمرُ ميقاتُ تمامِ صحَّةِ الإيمانِ ، ووصفُهُ بالصحَّةِ قبلَ آخرِهِ بناءً على الاستصحابِ ، وهوَ مشكوكٌ فيهِ ، والعاقبةُ مَخُوفَةٌ ، ولأجلِها كانَ أكثرُ بكاءِ الخائفينَ ؛ لأجلِ أنَّها ثمرةُ القضيةِ السابقةِ والمشيئةِ الأزليَّةِ التي لا تظهرُ إلا بظهورِ المقْضِيِّ بهِ ، ولا يطَّلعُ عليهِ بشرٌ ، فخوفُ الخاتمةِ كخوفِ السابقةِ ، وربَّما يظهرُ في الحالِ ما سبقتِ الكلمةُ بنقيضِهِ ، فمَنِ الذي يدري أنَّهُ مِنَ الذينَ سبقتْ لهمْ مِنَ اللهِ الحسنى ؟!

وقيلَ في معنى قولِهِ تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أيْ : بالسابقةِ ، يعني أظهرَتْها .

وقالَ بعضُ السلفِ : (إنما يُوزنُ مِنَ الأعمالِ خواتيمُها)[3]

وكانَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ يحلفُ باللهِ : (ما أحدٌ أمنَ أنْ يُسلبَ إيمانُهُ إلا سُلِبَهُ)[4]

ويُقالُ : مِنَ الذنوبِ ذنوبٌ عقوبتُها سوءُ الخاتمةِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذٰلكَ ، وقيلَ : هيَ عقوبةُ دعوى الولايةِ والكرامةِ بالافتراءِ[5]

وقالَ بعضُ العارفينَ : (لوْ عرضتْ عليَّ الشهادةُ عندَ بابِ الدارِ والموتُ على التوحيدِ عندَ بابِ الحجرةِ . . لاخترتُ الموتَ على التوحيدِ عندَ بابِ الحجرةِ ؛ لأنِّي لا أدري ما يَعْرِضُ لقلبي مِنَ التغيُّرِ عَنِ التوحيدِ إلى بابِ الدارِ)[6]

---

(١) قوت القلوب (٢/١٣٧) .

(٢) فعُلم أن المرادَ الحديثُ عن النفاق العملي الذي يطفئ نور الإيمان وكماله ، وهو وإن كان دون النفاق الاعتقادي ، غير أنه ذو خطر عظيم ؛ إذ هو قنطرة له أعاذنا الله تعالى منهما ؛ وذلك لأن الوقوف عند النعمة حجاب ، قال بشر بن الحارث : (سكون القلب إلى قبول المدح أضر عليه من المعاصي) .

(٣) كذا روي معناها عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى . انظر « الدر المنثور » (٣/٤١٨) .

(٤) قوت القلوب (٢/١٣٦) .

(٥) قوت القلوب (٢/١٣٦) .

(٦) قوت القلوب (٢/١٣٧) .

وقالَ بعضُهُمْ : (لوْ عرفتُ واحداً بالتوحيدِ خمسينَ سنةً ثمَّ حالَ بيني وبينَهُ ساريةٌ وماتَ . . لمْ أحكمْ لهُ أنَّهُ ماتَ على التوحيدِ)[1]

وفي الحديثِ : « مَنْ قالَ : أنا مؤمنٌ . . فهوَ كافرٌ ، ومَنْ قالَ : أنا عالمٌ . . فهوَ جاهلٌ »[2]

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ صدقاً لمَنْ ماتَ على الإيمانِ ، وعدلاً لمَنْ ماتَ على الشركِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[3]

فمهما كانَ الشكُّ بهٰذهِ المثابةِ . . كانَ الاستثناءُ واجباً ؛ لأنَّ الإيمانَ عبارةٌ عمَّا يفيدُ الجنَّةَ ، كما أنَّ الصومَ عبارةٌ عمَّا يبرئُ الذمةَ ، وما فسدَ قبلَ الغروبِ لا يبرئُ الذمَّةَ ، فيخرجُ عنْ كونِهِ صوماً ؛ فكذٰلكَ الإيمانُ ، بلْ لا يبعدُ أنْ يُسألَ عنِ الصومِ الماضي الذي لا يشكُّ فيهِ بعدَ الفراغِ منهُ ، فيقالُ : أصُمتَ بالأمسِ ؟ فيقولُ : نعمْ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ إذِ الصومُ الحقيقيُّ هوَ المقبولُ ، والقبولُ غائبٌ عنهُ لا يطَّلعُ عليهِ .

فمِنْ هٰذا حَسُنَ الاستثناءُ في جميعِ أعمالِ البرِّ ، ويكونُ ذٰلكَ شكّاً في القبولِ ؛ إذْ يَمنعُ مِنَ القبولِ بعدَ جريانِ ظاهرِ شروطِ الصحَّةِ أسبابٌ خفيَّةٌ لا يطَّلعُ عليها إلا ربُّ الأربابِ جلَّ جلالُهُ ، فيحسنُ الشكُّ فيهِ .

فهٰذهِ وجوهُ حسنِ الاستثناءِ في الجوابِ عنِ الإيمانِ ، وهيَ آخرُ ما نختمُ بهِ كتابَ (قواعدِ العقائدِ) ، واللهُ أعلمُ .

❀ ❀ ❀

تمَّ كتابُ قواعدِ العقائدِ

وهو الكتابُ الثاني من ربعِ العباداتِ من كتبِ إحياءِ علومِ الدين

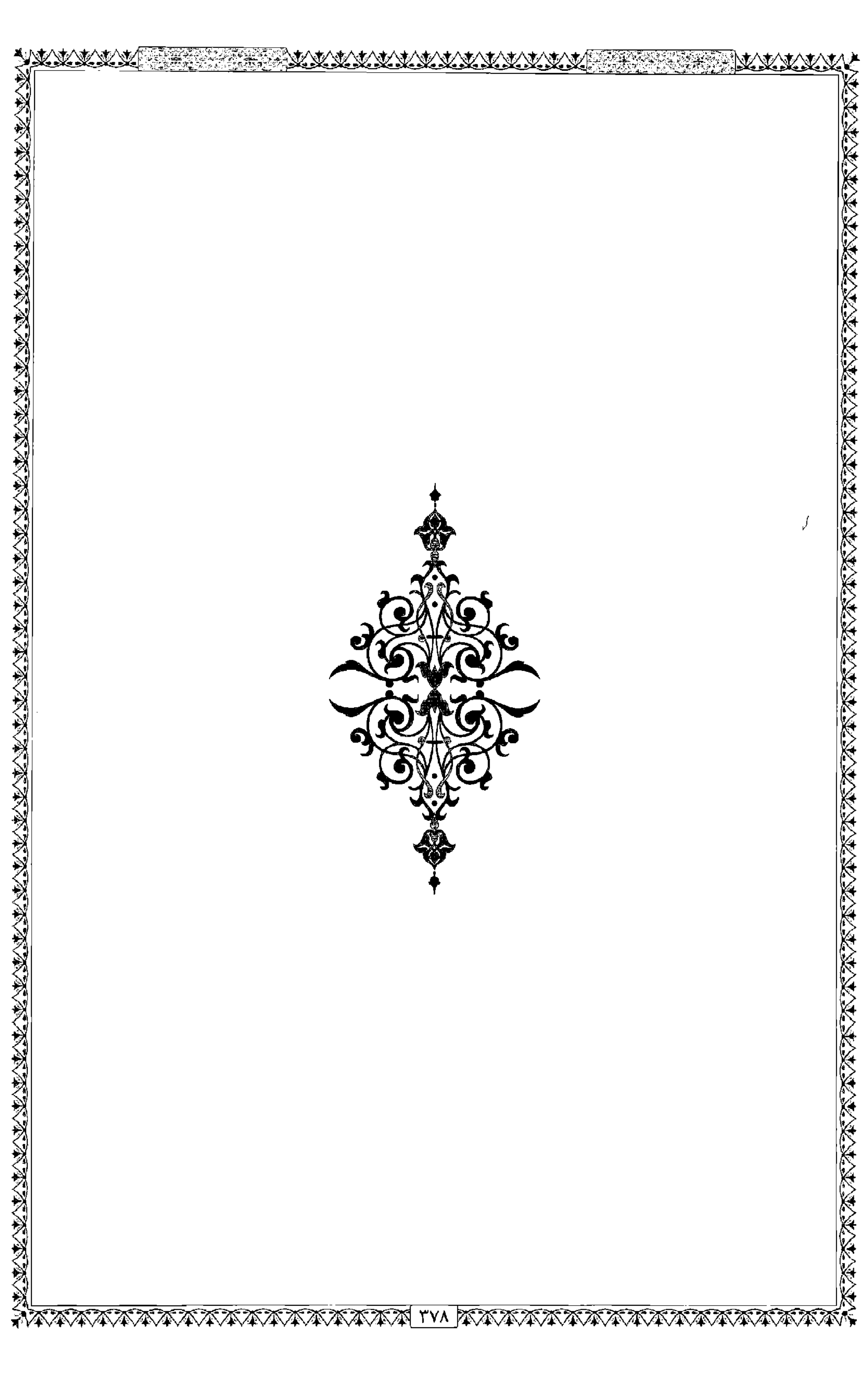
والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، وصلواتُه على سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ الطَّاهرين

يتلوه كتابُ أسرارِ الطَّهارةِ ومهمَّاتها

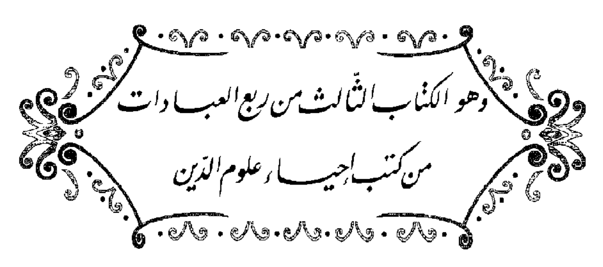
(١) أي : جزماً ويقيناً ؛ لسرعة تقلُّب القلوب ، انظر « قوت القلوب » (١٣٧/٢) .

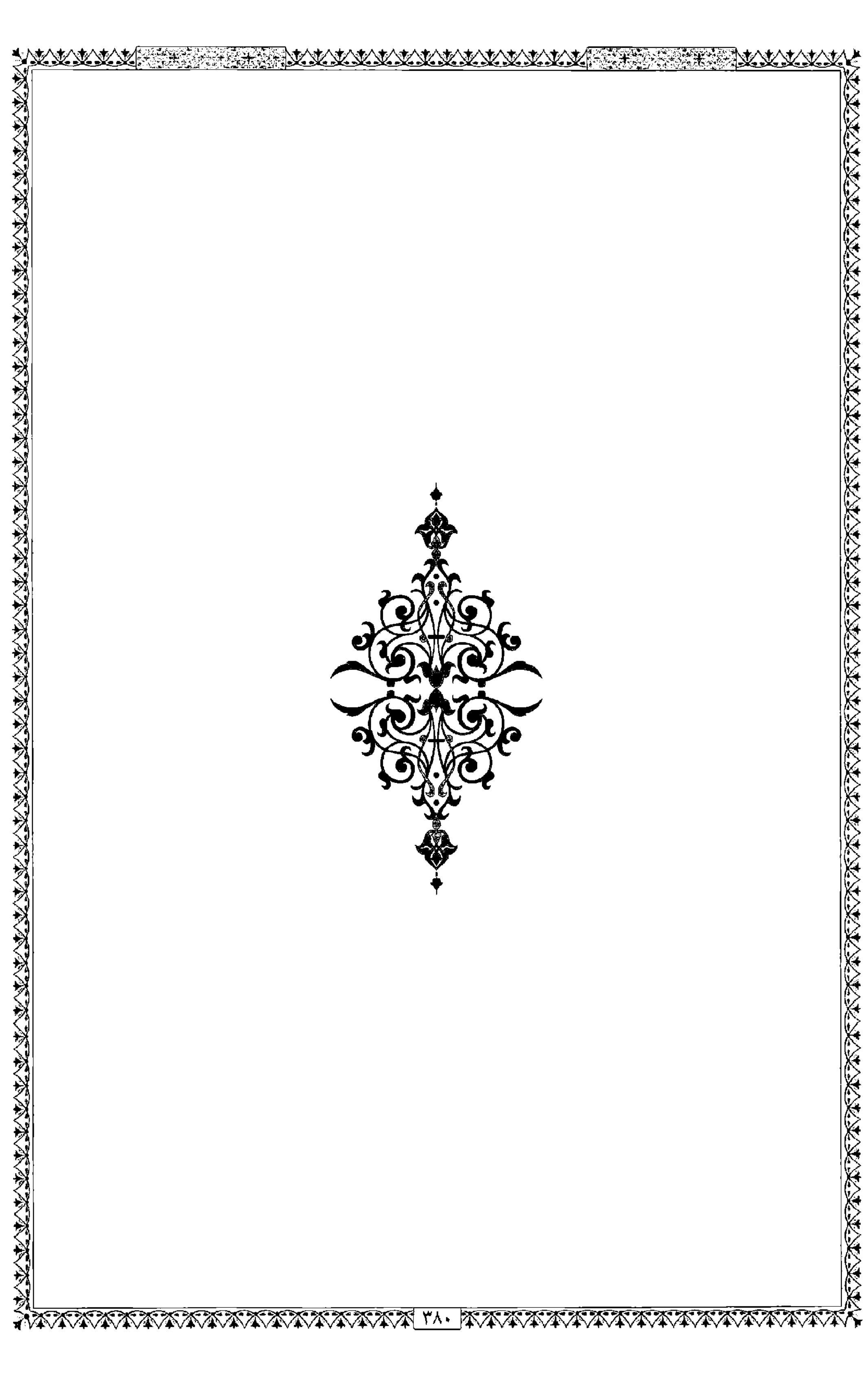
(٢) كذا في « القوت » (١٣٨/٢) ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٦٨٤٢) الشطر الثاني منه ، وفي « الصغير » (٦٥/١) : (ومن قال : إني في الجنة فهو في النار) من كلام يحيى بن أبي كثير .

(٣) قوت القلوب (١٣٨/٢) .



كتاب أسرار الطهارة ومهماتها





كتاب أسرار الطّهارة ومهمّاتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي تلطَّفَ بعبادِهِ فتعبَّدَهُمْ بالنظافةِ ، وأفاضَ علىٰ قلوبِهِمْ تزكيةً لسرائرِهِمْ أنوارَهُ وألطافَهُ ، وأعدَّ لظواهرِهِمْ تطهيراً لها الماءَ المخصوصَ بالرقَّةِ واللطافةِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ المستغرقِ بنورِ الهدىٰ أطرافَ العالمِ وأكنافَهُ ، وعلىٰ آلِهِ الطيِّبينَ الطاهرينَ صلاةً تحمينا بركاتُها يومَ المخافةِ ، وتنتصبُ جُنَّةً بينَنا وبينَ كلِّ آفةٍ .

أمّا بعـد :

فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الدينُ على النظافةِ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مفتاحُ الصلاةِ الطُّهُورُ »[2]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الطُّهُورُ نصفُ الإيمانِ »[3]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ .

فتفطنَ ذوو البصائرِ بهٰذهِ الظواهرِ أنَّ أهمَّ الأمورِ تطهيرُ السرائرِ ؛ إذْ يبعدُ أنْ يكونَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الطُّهورُ نصفُ الإيمانِ » عمارةَ الظاهرِ بالتنظيفِ بإفاضةِ الماءِ وإلقائِهِ ، وتخريبَ الباطنِ وإبقاءَهُ مشحوناً بالأخباثِ والأقذارِ ، هيهاتَ هيهاتَ !!

والطهارةُ لها أربعُ مراتبَ :

الأولىٰ : تطهيرُ الظاهرِ عنِ الأحداثِ وعنِ الأخباثِ والفَضَلاتِ .

والثانيةُ : تطهيرُ الجوارحِ عنِ الجرائمِ والآثامِ .

والثالثةُ : تطهيرُ القلبِ عَنِ الأخلاقِ المذمومةِ والرذائلِ الممقوتةِ .

والرابعةُ : تطهيرُ السرِّ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ ، وهيَ طهارةُ الأنبياءِ والصدِّيقينَ .

والطهارةُ في كلِّ رتبةٍ نصفُ العملِ الذي فيها ؛ فإنَّ الغايةَ القصوىٰ في عملِ السرِّ أنْ ينكشفَ لهُ جلالُ اللهِ تعالىٰ وعظمتُهُ ، ولن تحلَّ معرفةُ اللهِ تعالىٰ بالحقيقةِ في السرِّ ما لمْ يرتحلْ ما سوى اللهِ تعالىٰ عنهُ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ ؛ لأنَّهُما لا يجتمعانِ في قلبٍ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ .

---

(١) رواه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١٧٦/١) بلفظ : « فإن الله بنى الإسلام على النظافة » ، وعند الترمذي (٢٧٩٩) : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة . . . » .

(٢) رواه أبو داوود (٦١) ، والترمذي (٣) ، وابن ماجه (٢٧٥) .

(٣) رواه الترمذي (٣٥١٩) .

وأمَّا عملُ القلبِ . . فالغايةُ القصوىٰ عمارتُهُ بالأخلاقِ المحمودةِ والعقائدِ المشروعةِ ، ولنْ يتصفَ بها ما لمْ ينظُفْ عنْ نقائضِها ؛ من العقائدِ الفاسدةِ والرذائلِ المذمومةِ ، فتطهيرُهُ أحدُ الشطرينِ ، وهوَ الشطرُ الأوَّلُ الذي هوَ شرطٌ في الثاني [1] ، فكانَ الطُّهُورُ شطرَ الإيمانِ بهـٰذا المعنىٰ ، وكذٰلكَ تطهيرُ الجوارحِ عنِ المناهي أحدُ الشطرينِ ، وعمارتُها بالطاعاتِ الشطرُ الثاني .

وهـٰذهِ مقاماتُ الإيمانِ ، ولكلِّ مقامٍ طبقةٌ ، ولنْ ينالَ العبدُ الطبقةَ العاليةَ إلا أنْ يجاوزَ الطبقةَ السافلةَ ، فلا يصلُ إلىٰ طهارةِ السرِّ عَنِ الصفاتِ المذمومةِ وعمارتِهِ بالمحمودةِ مَنْ لمْ يَفْرَغْ عنْ طهارةِ القلبِ عَنِ الخلقِ المذمومِ وعمارتِهِ بالمحمودِ ، ولنْ يصلَ إلىٰ ذٰلكَ مَنْ لمْ يفرغْ عنْ طهارةِ الجوارحِ عنِ المناهي وعمارتِها بالطاعاتِ ، **وكلَّما عزَّ المطلبُ وشَرُفَ . . صَعُبَ مسلكُهُ وطالَ طريقُهُ وكثرتْ عقباتُهُ ، فلا تظنَّنَّ أنَّ هـٰذا الأمرَ يدركُ بالمنىٰ وينالُ بالهُوَيْنا .**

نعم ؛ مَنْ عميتْ بصيرتُهُ عنْ تفاوتِ هـٰذهِ الطبقاتِ . . لمْ يفهمْ مِنْ مراتبِ الطهارةِ إلا الدرجةَ الأخيرةَ التي هيَ كالقشرِ الأخيرِ بالإضافةِ إلى اللبِّ المطلوبِ ، فصارَ يمعنُ فيها ، ويستقصي في مجاريها ، ويستوعبُ جميعَ أوقاتِهِ في الاستنجاءِ ، وغسلِ الثيابِ ، وتنظيفِ الظاهرِ ، وطلبِ المياهِ الجاريةِ الكثيرةِ ؛ ظنّاً منهُ بحكمِ الوسوسةِ وخبلِ العقلِ أنَّ الطهارةَ المطلوبةَ المشرَّفةَ هيَ هـٰذهِ فقطْ ، وجهلاً بسيرةِ الأوَّلينَ واستغراقِهِم جميعَ الهمِّ والوَكْدِ [2] في تطهيرِ القلوبِ ، وتساهلِهِمْ في أمرِ الظاهرِ ؛ حتَّىٰ إنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ معَ علوِّ منصبِهِ توضَّأَ بماءٍ في جرَّةٍ نصرانيَّةٍ [3] ، وحتَّىٰ إنَّهم ما كانوا يغسلون اليدَ مِنَ الدسوماتِ والأطعمةِ ، بل كانوا يمسحونَ أصابعَهُمْ بأخمصِ أقدامِهِمْ ، وعدُّوا الأُشنانَ مِنَ البدعِ المحدثةِ [4]

ولقدْ كانوا يصلُّونَ على الأرضِ في المساجدِ ، ويمشونَ حفاةً في الطرقاتِ ، ومَنْ كانَ لا يجعلُ بينَهُ وبينَ الترابِ حاجزاً في مضجعِهِ . . كانَ مِنْ أكابرِهِمْ ، وكانوا يقتصرونَ على الحجارةِ في الاستنجاءِ .

وقالَ أبو هريرةَ وغيرُهُ مِنْ أهلِ الصفَّةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : (كنَّا نأكلُ الشِّواءَ ، فتقامُ الصلاةُ ، فنُدْخِلُ أصابِعَنا في الحصباءِ ، ثمَّ نفرُكُها بالترابِ ونكبِّرُ) [5]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما كنَّا نعرفُ الأُشنانَ في عصرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإنما كانتْ مناديلُنا بطونَ أرجلِنا ، كنَّا إذا أكلْنا الغَمَرَ . . مسحْنا بها) [6]

ويقالُ : (أوَّلُ ما ظهرَ مِنَ البدعِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أربعةٌ : المناخلُ ، والأُشنانُ ، والموائدُ ، والشبعُ) [7]

---

(١) الشطر جزء الماهية ، منه قوامها ، والشرط خارج عنها ، يلزم من عدمه العدم ، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته .

(٢) **الوَكْد** : التأكيد .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٢/١) ، وعلّقه البخاري قبل الحديث (١٩٣) إذ قال : (باب وضوء الرجل مع امرأته وفضل وضوء المرأة ، وتوضأ عمر بالحميم من بيت نصرانية) . **والحميم** : الماء الساخن .

(٤) **الأشنان** : عشب الغاسول ، وهو الذي يغسل به الأيدي ، فارسي معرب .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٣١١)

(٦) قوت القلوب (١٤٢/٢) ، **والغَمَر** : هو الدسم ، أو زنخ اللحم ، كنّىٰ به عنه .

(٧) قوت القلوب (١٤٢/٢) ، **والمراد بالموائد** : الأكل على الخِوان ، واستكثار استعماله ، وهـٰذه البدع دليل دخول الكلفة والغفلة والبطالة .

فكانتْ عنايتُهُمْ كلُّها بنظافةِ الباطنِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : الصلاةُ في النعلينِ أفضلُ[1] ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا نزعَ نعليهِ في صلاتِهِ إذْ أخبرَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ أنَّ بهما نجاسةً وخلعَ الناسُ نعالَهُمْ . . فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِمَ خلعتُمْ نعالَكُمْ ؟! »[2]

وقالَ النخعيُّ في الذينَ يخلعونَ نعالَهُمْ : (وددتُ لو أنَّ محتاجاً جاءَ إليها فأخذَها ؛ منكراً لخلْعِ النعالِ)[3]

فهٰكذا كانَ تساهلُهُمْ في هٰذهِ الأمورِ ، بلْ كانوا يمشونَ في طينِ الشوارعِ حفاةً ، ويجلسونَ عليها ، ويصلُّونَ في المساجدِ على الأرضِ ، ويأكلونَ مِنْ دقيقِ البرِّ والشعيرِ وهوَ يداسُ بالدوابِّ وتبولُ عليهِ ، ولا يحترزونَ مِنْ عرقِ الإبلِ والخيلِ معَ كثرةِ تمرُّغِها في النجاساتِ ، ولمْ يُنقلْ قطُّ عنْ واحدٍ منهُمْ سؤالٌ في دقائقِ النجاساتِ ، فهٰكذا كانَ تساهلُهُمْ فيها .

وقد انتهتِ النوبةُ الآنَ[4] إلىٰ طائفةٍ يسمُّونَ الرعونةَ نظافةً[5] ، ويقولونَ : هيَ مبنى الدينِ ، فأكثرُ أوقاتِهِمْ في تزيينِهِمُ الظواهرَ ؛ كفعلِ الماشطةِ بعروسِها ، والباطنُ خرابٌ مشحونٌ بخبائثِ الكِبْرِ والعجبِ والجهلِ والرياءِ والنفاقِ ، ولا يستنكرونَ ذٰلكَ ولا يتعجَّبونَ منهُ ، ولوِ اقتصرَ مقتصرٌ على الاستنجاءِ بالحجرِ ، أوْ مشىٰ على الأرضِ حافياً ، أوْ صلَّىٰ على الأرضِ أوْ علىٰ بواري المسجدِ مِنْ غيرِ سَجَّادةٍ مفروشةٍ[6] ، أوْ مشىٰ على الفرشِ مِنْ غيرِ غلافٍ للقدمِ مِنْ أُدُمٍ ، أوْ توضَّأَ مِنْ آنيةِ عجوزٍ أوْ رجلٍ غيرِ متقشِّفٍ . . أقاموا عليهِ القيامةَ ، وشدَّدوا عليهِ النكيرَ ، ولقَّبوهُ بالقَذِرِ ، وأخرجوهُ مِنْ زمرتِهِمْ ، واستنكفوا مِنْ مؤاكلتِهِ ومخالطتِهِ ، فسمَّوا البذاذةَ التي هيَ مِنَ الإيمانِ قذارةً[7] ، والرعونةَ نظافةً ، فانظرْ كيفَ صارَ المنكرُ معروفاً والمعروفُ منكراً ، وكيفَ اندرسَ مِنَ الدينِ رسمُهُ كما اندرسَ تحقيقُهُ وعلمُهُ !!

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : أفتقولُ : إنَّ هٰذه العاداتِ التي أحدثَها الصوفيَّةُ في هيئاتِهِمْ ونظافتِهِمْ مِنَ المحظوراتِ أوِ المنكراتِ ؟

فأقولُ : حاشَ للهِ أنْ أطلقَ القولَ فيهِ مِنْ غيرِ تفصيلٍ ، ولٰكنِّي أقولُ : هٰذا التكلُّفُ والتنظُّفُ ، وإعدادُ الأواني والآلاتِ ، واستعمالُ غلافِ القدمِ والإزارِ المتقنَّعِ بهِ لدفعِ الغبارِ ، وغيرُ ذٰلكَ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ ؛ إنْ وقعَ النظرُ إلىٰ ذاتِها علىٰ سبيلِ التجرُّدِ . . فهيَ مِنَ المباحاتِ ، وقدْ يقترنُ بها أحوالٌ ونيَّاتٌ تُلْحِقُها تارةً بالمعروفاتِ ، وتارةً بالمنكراتِ .

فأمَّا كونُهُ مباحاً في نفسِهِ : فلا يخفىٰ ؛ إذْ صاحبُهُ متصرفٌ بهِ في مالِهِ وبدنِهِ وثيابِهِ ، فليفعلْ بهِ ما يريدُ إذا لمْ يكنْ فيهِ إضاعةٌ وإسرافٌ .

---

(١) لأنها أقرب إلى التواضع والمسكنة ، وأبعد من الترفه . « إتحاف » (٣٠٩/٢) .

(٢) رواه أبو داوود (٦٥٠) ، وبلفظه عند أحمد في « المسند » (٢٠/٣) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٩٦٤) .

(٤) أي : **في حدود الأربع مئة والتسعين (٤٩٠ هـ)** . « إتحاف » (٣١٠/٢) .

(٥) **الرعونة** : الإفراط في الشيء مع جهالة ووسوسة لا أصل لها .

(٦) **البواري** : جمع بورياء ، وهي الحصيرة . فارسية معربة .

(٧) فقد روىٰ أبو داوود (٤١٦١) : « ألا تسمعون ، ألا تسمعون ؟ إن البذاذة من الإيمان » ، **والبذاذة** : رثاثة الهيئة .

وأما مصيرُهُ منكراً : فبأنْ يجعلَ ذٰلكَ من أصلِ الدينِ ، ومِنْ تفسيرِ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الدينُ على النظافةِ »[١] ، حتَّىٰ ينكرَ بِهِ علىٰ مَنْ يتساهلُ فيهِ تساهلَ الأوَّلينَ ، وأنْ يكونَ القصدُ بِهِ تزيينَ الظاهرِ للخلقِ ، وتحسينَ موقعِ نظرِهِمْ ؛ فإنَّ ذٰلكَ هوَ الرياءُ المحذورُ ، فيصيرُ مُنْكَراً بهٰذينِ الاعتبارينِ .

وأمَّا كونُهُ معروفاً : فبأنْ يكونَ القصدُ منهُ الخيرَ دونَ التزيُّنِ ، وألَّا ينكرَ علىٰ مَنْ تركَ ذٰلكَ ، ولا يؤخِّرَ بسببِهِ الصلاةَ عنْ أوائلِ الأوقاتِ ، ولا يشتغلَ بِهِ عَنْ عملٍ هوَ أفضلُ منهُ ، أوْ عنْ تربيةِ علمٍ[٢] ، أوْ غيرِهِ ، فإذا لَمْ يقترنْ بِهِ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ . . فهوَ مباحٌ يمكنُ أنْ يجعلَ قربةً بالنيَّةِ ، ولٰكنْ لا يتيسَّرُ ذٰلك إلا للبطَّالينَ الذينَ لوْ لمْ يشتغلوا بصرْفِ الأوقاتِ إليهِ . . لاشتغلوا بنومٍ أوْ حديثٍ فيما لا يعني ، فيصيرُ شغلُهُمْ بِهِ أولىٰ ؛ لأنَّ التشاغلَ بالطهاراتِ يجدِّدُ ذكرَ اللهِ تعالىٰ وذكرَ العباداتِ ، فلا بأسَ بِهِ إذا لَمْ يُخْرِجْ إلىٰ منكرٍ أوْ إسرافٍ .

وأمَّا أهلُ العلمِ والعملِ . . فلا ينبغي أنْ ينصرفَ مِنْ أوقاتِهِمْ إليهِ إلا قدْرُ الحاجةِ ، والزيادةُ عليهِ منكرٌ في حقِّهِمْ ، وتضييعُ العُمُرِ الذي هوَ أنفسُ الجواهرِ وأعزُّها في حقِّ مَنْ قَدَرَ على الانتفاعِ بِهِ ، ولا يتعجَّبُ مِنْ ذٰلكَ ؛ فإنَّ حسناتِ الأبرارِ سيئاتُ المقربينَ .

ولا ينبغي للبطَّالِ أنْ يتركَ النظافةَ وينكرَ على المتصوِّفةِ ويزعمَ أنَّهُ يتشبَّهُ بالصحابةِ ؛ إذْ التشبُّهُ بهِمْ في ألَّا يتفرَّغَ إلا لما هوَ أهمُّ منه ؛ كما قيلَ لداوودَ الطائيِّ : لِمَ لا تسرِّحُ لحيتَكَ ؟ قالَ : إنِّي إذاً لَفارغٌ[٣]

فلهٰذا لا أرىٰ للعالمِ ولا للمتعلمِ ولا للعاملِ أنْ يضيِّعَ وقتَهُ في غسْلِ الثيابِ احترازاً مِنْ أنْ يلبسَ الثيابَ المقصورةَ ؛ توهُّماً بالقَصَّارِ تقصيرَهُ في الغسلِ ، فقدْ كانوا في العصرِ الأوَّلِ يصلُّونَ في الفراءِ المدبوغةِ ، ولمْ يُعلمْ منهُمْ مَنْ فرَّقَ بينَ المدبوغةِ والمقصَّرةِ في الطهارةِ والنجاسةِ ، بلْ كانوا يجتنبونَ النجاسةَ إذا شاهدُوها ، ولا يدقِّقونَ نظرَهُمْ في استنباطِ الاحتمالاتِ الدقيقةِ ، بلْ كانوا يتأمَّلونَ في دقائقِ الرياءِ والظلْمِ ، حتَّىٰ قالَ سفيانُ الثوريُّ لرفيقٍ لهُ كانَ يمشي معَهُ فنظرَ إلىٰ بابِ دارٍ مرفوعٍ معمورٍ : لا تفعلْ ذٰلكَ ؛ فإنَّ الناسَ لوْ لمْ ينظروا إليهِ . . لكانَ صاحبُهُ لا يتعاطىٰ هٰذا الإسرافَ ، فالناظرُ إليهِ مُعينٌ لهُ على الإسرافِ[٤]

وكانوا يُعِدُّونَ جِمامَ الذهنِ لاستنباطِ مثلِ هٰذهِ الدقائقِ[٥] ، لا في احتمالِ النجاساتِ .

ولوْ وجدَ العالمُ عامّيّاً يتعاطىٰ لهُ غسْلَ الثيابِ محتاطاً . . فهوَ أفضلُ ؛ فإنَّهُ بالإضافةِ إلى التساهلِ خيرٌ ، وذٰلكَ العاميُّ ينتفعُ بتعاطيهِ ؛ إذْ يشغلُ نفسَهُ الأمَّارةَ بالسوءِ بعملٍ مباحٍ في نفسِهِ ، فيمتنعُ عليهِ المعاصي في تلكَ الحالِ ، والنفسُ إنْ لمْ تُشغلْ . . شغلَتْ صاحبَها ، وإذا قصدَ بِهِ التقرُّبَ إلى العالمِ . . صارَ ذٰلكَ عندَهُ مِنْ أفضلِ القرباتِ ، فوقتُ العالمِ أشرفُ مِنْ أنْ يصرفَ إلىٰ مثلِهِ ، فيبقىٰ محفوظاً عليهِ ، وأشرفُ وقتِ العاميِّ أنْ يشتغلَ بمثلِهِ ، فيتوفَّرُ الخيرُ عليهِ مِنْ كلِّ الجوانبِ .

---

(١) رواه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١٧٦/١) بلفظ : « فإن الله بنى الإسلام على النظافة » وعند الترمذي (٢٧٩٩) : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة . . . » .

(٢) أي : بالتعلم والتعليم ، والمطالعة والمذاكرة ، والتصدي لتأليف ما هو نافع . « إتحاف » (٣١١/٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣٣٩/٧) .

(٤) قوت القلوب (١٧٠/١) .

(٥) أي : في حفظ الباطن والظاهر . « إتحاف » (٣١٢/٢) .

وليتفطنْ بهـٰذا المثالِ لنظائرِهِ مِنَ الأعمالِ ، وترتيبِ فضائلِها ، ووجهِ تقديمِ البعضِ منها على البعضِ ، فتدقيقُ الحسابِ في حفْظِ لحظاتِ العمرِ بصرفِها إلى الأفضلِ أهمُّ مِنَ التدقيقِ في أموالِ الدنيا بحذافيرِها .

وإذا عرفتَ هـٰذهِ المقدمةَ ، واستبنتَ أنَّ الطهارةَ لها أربعُ مراتبَ . . فاعلمْ أنَّا في هـٰذا الكتابِ لسنا نتكلَّمُ إلا في المرتبةِ الرابعةِ ، وهيَ نظافةُ الظاهرِ ؛ لأنَّا في الشطرِ الأوَّلِ مِنَ الكتابِ لا نتعرَّضُ قصداً إلا للظواهرِ .

فنقولُ : طهارةُ الظاهرِ ثلاثةُ أقسامٍ : طهارةٌ عَنِ الخبثِ ، وطهارةٌ عنِ الحدثِ ، وطهارةٌ عن فضلاتِ البدنِ ؛ وهيَ التي تحصلُ بالقلْمِ ، والاستحدادِ ، واستعمالِ النُّورةِ ، والختانِ ، وغيرِهِ .

* * *

القِسْمُ الأوَّلُ
في طهارة الخبث والنظر فيه يتعلق بالمُزال، والمُزال به، والإزالة

الطرفُ الأوَّلُ : في المزالِ :

وهيَ النجاساتُ ، والأعيانُ ثلاثةٌ : جماداتٌ ، وحيواناتٌ ، وأجزاءُ حيواناتٍ .

أمَّا الجماداتُ : فطاهرةٌ كلُّها إلا الخمرَ ، وكلَّ مشتدٍّ مسكرٍ .

والحيواناتُ : طاهرةٌ كلُّها إلا الكلبَ والخنزيرَ وما تولَّدَ منهما أوْ مِنْ أحدِهِما ، فإذا ماتَتْ . . فكلُّها نجسةٌ إلا خمسةً : الآدميَّ ، والسمكَ ، والجرادَ ، ودودَ التفاحِ ، وفي معناهُ[١] كلُّ ما تستحيلُ إليهِ الأطعمةُ ، وكلَّ ما ليسَ له نَفْسٌ سائلةٌ ؛ كالذبابِ ، والخُنفساءِ ، وغيرِهِما ، فلا ينجسُ الماءُ بوقوعِ شيءٍ منها فيهِ .

وأمَّا أجزاءُ الحيواناتِ : فقسمانِ :

أحدُهما : ما يقطعُ منهُ ، وحكمهُ حكْمُ الميتِ ، والشعرُ لا ينجسُ بالجزِّ والموتِ ، والعظْمُ ينجسُ .

الثاني : الرطوباتُ الخارجةُ مِنْ باطنِهِ ، فكلُّ ما ليسَ مستحيلاً ولا لهُ مقرٌّ[٢] . . فهوَ طاهرٌ ؛ كالدمعِ ، والعرقِ ، واللُّعابِ ، والمخاطِ[٣] ، وما لهُ مقرٌّ وهوَ مستحيلٌ . . فنجسٌ ، إلَّا ما هوَ مادَّةُ الحيوانِ ؛ كالمنيِّ ، والبيضِ .

والقيحُ ، والدمُ ، والروثُ والبولُ نجسٌ مِنَ الحيواناتِ كلِّها .

ولا يعفىٰ عنْ شيءٍ مِنْ هـٰذهِ النجاساتِ قليلِها وكثيرِها إلَّا عَنْ خمسةٍ :

الأوَّلُ : أثرُ النجْوِ بعدَ الاستجمارِ بالأحجارِ يعفىٰ عنهُ ما لمْ يعْدُ المخرجَ .

الثاني : طينُ الشوارعِ وغبارُ الروْثِ في الطرقِ ، يعفىٰ عنهُ معَ تيقُّنِ النجاسةِ بقدْرِ ما يتعذَّرُ الاحترازُ عنهُ ، وهوَ الذي لا يُنسَبُ المتلطِّخُ بهِ إلىٰ تفريطٍ أوْ سقطةٍ .

الثالثُ : ما علىٰ أسفلِ الخفِّ مِنْ نجاسةٍ لا تخلو الطرقُ عنها ، فيعفىٰ عنهُ بعدَ الدلْكِ للحاجةِ .

الرابعُ : دمُ البراغيثِ ، ما قلَّ منهُ أوْ كثُرَ ، إلَّا إذا جاوزَ حدَّ العادةِ ، سواءٌ كانَ في ثوبِكَ أوْ في ثوبِ غيرِكَ فلبستَهُ .

الخامسُ : دمُ البثْراتِ وما ينفصلُ منها مِنْ قيحٍ وصديدٍ ، ودلكَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ بثرةً علىٰ وجهِهِ ، فخرجَ منها الدمُ وصلَّىٰ ولمْ يغسلْ[٤]

وفي معناهُ ما يترشَّحُ مِنْ لطخاتِ الدماميلِ التي تدومُ غالباً ، وكذٰلكَ أثرُ الفصْدِ ، إلَّا ما يقعُ نادراً مِنْ خُرَاجٍ أوْ غيرِهِ ، فيلحقُ بدمِ الاستحاضةِ ، ولا يكونُ في معنى البثراتِ التي لا يخلو الإنسانُ عنها في أحوالِهِ[٥]

(١) أي : في معنىٰ دود التفاح . « إتحاف » (٢/٣١٥) .

(٢) أي : ليس له اجتماع واستحالة في الباطن ، وإنما يرشح رشحاً . انظر « العزيز » (١/٣٥) .

(٣) بل حكمه حكم الحيوان المترشح منه ؛ إن كان نجساً . . فهو نجس ، وإن كان طاهراً . . فهو طاهر . انظر « العزيز » (١/٣٥)

(٤) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/١٤١) .

(٥) وحكم دم الاستحاضة العفو ، ولا يمنع الصلاة ، ويجب الوضوء لكل صلاة . انظر « العزيز » (١/٢٩٨) ، قال المصنف في « الوسيط »

ومسامحةُ الشرعِ في هٰذهِ النجاساتِ الخمسِ تعرفُكَ أنَّ أمرَ الطهاراتِ على التساهلِ ، وما ابتُدِعَ فيها وسوسةٌ لا أصلَ لها .

❁ ❁ ❁

الطرفُ الثاني : في المزالِ بهِ :

وهوَ إمَّا جامدٌ ، وإمَّا مائعٌ :

أمَّا الجامدُ : فحجرُ الاستنجاءِ ، وهوَ مطهِّرٌ تطهيرَ تخفيفٍ ، بشرطِ أنْ يكونَ صَلْباً طاهراً منشِّفاً غيرَ محترمٍ .

وأما المائعاتُ : فلا تُزالُ النجاسةُ بشيءٍ منها إلا بالماءِ ، ولا كلُّ ماءٍ ، بلِ الطاهرُ الذي لمْ يتفاحشْ تغيُّرُهُ بمخالطةِ ما يستغني عنهُ .

ويخرجُ الماءُ عَنِ الطهارةِ بأنْ يتغيَّرَ بملاقاةِ النجاسةِ ؛ طعمُهُ ، أوْ لونُهُ ، أوْ ريحُهُ ، فإنْ لمْ يتغيَّرْ وكانَ قريباً مِنْ مئتينِ وخمسينَ مَنّاً وهوَ خمسُ مئةِ رطلٍ برطلِ العراقِ . . لمْ ينجسْ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا بلغَ الماءُ قُلَّتَيْنِ . . لمْ يحملْ خبثاً »[1] ، وإنْ كانَ دونَهُ . . صارَ نجساً عندَ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ ، هٰذا في الماءِ الراكدِ .

وأمَّا الماءُ الجاري : إذا تَغيَّرَ بالنجاسةِ فالجريةُ المتغيرةُ نجسةٌ دونَ ما فوقَها وما تحتَها ؛ لأنَّ جرياتِ الماءِ متفاصلةٌ .

وكذا النجاسةُ الجاريةُ إذا جرتْ بمَجرى الماءِ . . فالنجسُ موقعُها مِنَ الماءِ ، وما عَنْ يمينِها وشمالِها إذا تقاصرَ عنْ قلَّتينِ ، وإنْ كانَ جَرْيُ الماءِ أقوىٰ منْ جريِ النجاسةِ . . فما فوقَ النجاسةِ طاهرٌ ، وما يسفلُ عنها فنجسٌ وإنْ تباعدَ وكثرَ ، إلَّا إذا اجتمعَ في حوضٍ قدْرَ قلَّتينِ .

وإذا اجتمعَ قلَّتانِ مِنْ ماءٍ نجسٍ . . طهرَ ، ولا يعودُ نجساً بالتفريقِ ، هٰذا مذهبُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ[2]

وكنت أودُّ أنْ يكونَ مذهبُهُ كمذهبِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ في أنَّ الماءَ وإنْ قلَّ لا ينجسُ إلا بالتغيُّرِ ؛ إذِ الحاجةُ ماسَّةٌ إليهِ ، ومثارُ الوساوسِ اشتراطُ القلَّتينِ ، ولأجلِهِ شقَّ على الناسِ ذٰلكَ ، وهوَ ـ لعمري ـ سببُ المشقَّةِ ، ويعرفُهُ مَنْ يجرِّبُهُ ويتأمَّلُهُ .

وممَّا لا أشكُّ فيهِ أنَّ ذٰلكَ لوْ كانَ مشروطاً . . لكانَ أولى المواضعِ بتعسُّرِ الطهارةِ مكةَ والمدينةَ ؛ إذْ لا يكثرُ فيهما المياهُ الجاريةُ ولا الراكدةُ الكثيرةُ .

ومِنْ أوَّلِ عصْرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ آخرِ عصرِ الصحابةِ لمْ تنقلْ واقعةٌ في الطهارةِ ، ولا سؤالٌ عَنْ كيفيةِ حفظِ الماءِ عنِ النجاساتِ ، وكانتْ أواني مياهِهِمْ يتعاطاها الصبيانُ والإماءُ الذينَ لا يحترزونَ عَنِ النجاساتِ .

وقدْ توضَّأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بماءٍ في جرَّةِ نصرانيَّةٍ[3] ، وهٰذا كالصريحِ في أنَّهُ لمْ يعوِّلْ إلا علىٰ عدمِ تغيُّرِ الماءِ ،

(١٦٣/٢) : (وأما لطخات الدماميل والقروح والفصد : فما يدوم منها غالباً . . يلحق بدم الاستحاضة ، وما لا يدوم . . يلحق بدم الأجنبي ؛ لأن وقوعها نادر) .

(١) رواه أبو داوود (٦٣) ، والترمذي (٦٧) ، والنسائي (٤٦/١) ، وابن ماجه (٥١٧) .

(٢) وهٰذا مشروط بعدم التغيُّر عند الاجتماع . انظر « الخلاصة » (ص ٦٠) ، و« العزيز » (٤٩/١) .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٢/١) ، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣) إذ قال : (باب وضوء الرجل مع امرأته وفضل وضوء المرأة ، وتوضأ عمر بالحميم من بيت نصرانية) .

وإلَّا . . فنجاسةُ النصرانيَّةِ وإنائِها غالبةٌ تُعلمُ بظنٍّ قريبٍ ، فإذاً عسرُ القيامِ بهٰذا المذهبِ وعدمُ وقوعِ السؤالِ في تلكَ الأعصارِ دليلٌ أوّلُ ، وفعلُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ دليلٌ ثانٍ .

والدليلُ الثالثُ : إصغاءُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الإناءَ للهرَّةِ[1] ، وعدمُ تغطيتِهِم الأوانيَ منها بعدَ أنْ تُرىٰ أنَّها تأكلُ الفأرةَ ، ولمْ يكنْ في بلادِهِمْ حياضٌ تلغُ السنانيرُ فيها ، وكانتْ لا تنزلُ الآبارَ .

والرابعُ : أنَّ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ نصَّ علىٰ أنَّ غسالةَ النجاسةِ طاهرةٌ إذا لمْ تتغيَّرْ ، ونجسةٌ إذا تغيَّرَتْ ، وأيُّ فرْقٍ بينَ أنْ يلاقيَ الماءُ النجاسةَ بالورودِ عليها أوْ بورودِها عليهِ ؟! وأيُّ معنىً لقولِ القائلِ : إنَّ قوَّةَ الورودِ تدفعُ النجاسةَ معَ أنَّ الورودَ لمْ يمنعْ مخالطةَ النجاسةِ ؟!

وإنْ أحيلَ ذٰلكَ على الحاجةِ . . فالحاجةُ أيضاً ماسَّةٌ إلىٰ هٰذا ، فلا فرقَ بينَ طرحِ الماءِ في إجَّانةٍ[2] فيها ثوبٌ نجسٌ ، أوْ طرحِ الثوبِ النجسِ في الإجَّانةِ وفيها ماءٌ ، وكلُّ ذٰلكَ معتادٌ في غسْلِ الثيابِ والأواني .

والخامسُ : أنَّهم كانوا يستنجونَ علىٰ أطرافِ المياهِ الجاريةِ القليلةِ ، ولا خلافَ في مذهبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ إذا وقعَ بولٌ في ماءٍ جارٍ ولمْ يتغيَّرْ أنَّهُ يجوزُ التوضُّؤُ بهِ وإنْ كانَ قليلاً ، وأيُّ فرْقٍ بينَ الجاري والراكدِ ؟!

وليتَ شعري ؛ هلِ الحوالةُ علىٰ عدمِ التغيُّرِ أولىٰ أوْ علىٰ قوَّةِ الماءِ بسببِ الجريانِ ؟ ثمَّ ما حدُّ تلكَ القوةِ : أتجري في المياهِ الجاريةِ في أنابيبِ الحماماتِ أمْ لا ؟ فإنْ لمْ تجرِ . . فما الفرقُ ؟ وإنْ جرتْ فما الفرقُ بينَ ما يقعُ فيها وبينَ ما يقعُ في مَجرى الماءِ مِنَ الأواني على الأبدانِ وهيَ أيضاً جاريةٌ ؟ ثمَّ البولُ أشدُّ اختلاطاً بالماءِ الجاري مِنْ نجاسةٍ جامدةٍ ثابتةٍ ؛ إذ قضي بأنَّ ما يجري عليها وإنْ لمْ يتغيَّرْ نجسٌ إلىٰ أنْ يجتمعَ في مستنقعٍ قلَّتانِ ، فأيُّ فرقٍ بينَ الجامدِ والمائعِ والماءُ واحدٌ والاختلاطُ أشدُّ من الجوارِ ؟![3]

والسادسُ : أنَّهُ إذا وقعَ رطْلٌ مِنَ البولِ في قلتينِ ، ثمَّ فُرِّقتا . . فكلُّ كوزٍ يغترفُ منهُ طاهرٌ ، ومعلومٌ أنَّ البولَ منتشرٌ فيهِ وهوَ قليلٌ ، فليتَ شعري ؛ هلْ تعليلُ طهارتِهِ بعدمِ التغيُّرِ أولىٰ أو بقوَّةِ كثرةِ الماءِ بعدَ انقطاعِ الكثرةِ وزوالِها معَ تحقُّقِ بقاءِ أجزاءِ النجاسةِ فيها ؟!

والسابعُ : أنَّ الحماماتِ لمْ تزلْ في الأعصارِ الخاليةِ يتوضَّأُ فيها المتقشِّفونَ[4] ، ويغمسونَ الأيديَ والأوانيَ في تلكَ الحياضِ معَ قلَّةِ الماءِ ، ومعَ العلمِ بأنَّ الأيديَ النجسةَ والطاهرةَ كانتْ تتواردُ عليها .

فهٰذهِ الأمورُ معَ الحاجةِ الشديدةِ تقوّي في النفسِ أنَّهُمْ كانوا ينظرونَ إلىٰ عدمِ التغيُّرِ ، معوِّلينَ علىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خُلِقَ الماءُ طهوراً لا يُنجِّسُهُ شيءٌ إلَّا ما غيَّرَ طعمَهُ أوْ ريحَهُ أوْ لونَهُ »[5]

وهٰذا فيهِ تحقيقٌ ، وهوَ أنَّ طبعَ كلِّ مائعٍ أنْ يقلبَ إلىٰ صفةِ نفسِهِ كلَّ ما يقعُ فيهِ وكانَ مغلوباً مِنْ جهتِهِ ، فكما

---

(١) رواه الدارقطني في « سننه » (١/٧٠) ، وهو عند أصحاب السنن الأربعة من فعل أبي قتادة ، وروىٰ في آخره حديث : « إنها ليست بنجس ؛ إنها من الطوافين عليكم والطوافات »

(٢) **الإجَّانة** : إناء تغسل فيه الثياب ، فارسي معرب .

(٣) ذكر الأصفهاني في « كشف تعليل المحرر » أن للشافعي قولاً قديماً أن الماء الجاري قليلاً أو كثيراً ، سريعاً أو بطيئاً لا ينجس بملاقاة النجاسة إلا بتغير أحد أوصافه . « إتحاف » (٢/٣٣١) .

(٤) **المتقشفون** : خشنو العيش من أرباب الصلاح .

(٥) رواه ابن ماجه (٥٢١) .

ترى الكلبَ يقعُ في المملحةِ[1] ، فيستحيلُ ملحاً ، ويحكم بطهارته ؛ لصيرورتِهِ ملحاً وزوالِ صفةِ الكلبيَّةِ عنهُ . . فكذٰلكَ الخلُّ يقعُ في الماءِ ، واللبنُ يقعُ فيهِ وهوَ قليلٌ فتبطلُ صفتُهُ ، ويتصوَّرُ بصفةِ الماءِ وينطبعُ بطبعِهِ ، إلَّا إذا كثرَ وغلبَ ، وتُعرفُ غلبتُهُ بغلبةِ طعمِهِ أوْ لونِهِ أوْ ريحِهِ .

فهٰذا المعيارُ[2] ، وقدْ أشارَ الشرعُ إليهِ في الماءِ القويِّ علىٰ إزالةِ النجاسةِ ، وهو جديرٌ بأنْ يعوَّلَ عليهِ ، فيندفعُ بهِ الحرجُ ، ويظهرُ بهِ معنىٰ كونِهِ طَهوراً ؛ إذْ يَغلبُ علىٰ غيرِهِ فيطهِّرُهُ ، كما صارَ كذٰلكَ فيما بعدَ القلتينِ ، وفي الغسالةِ ، وفي الماءِ الجاري ، وفي إصغاءِ الإناءِ للهرَّةِ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ذٰلكَ عفوٌ ؛ إذْ لوْ كانَ كذٰلكَ . . لكانَ كأثرِ الاستنجاءِ ودمِ البراغيثِ ، حتَّىٰ يصيرُ الماءُ الملاقي لهُ نجساً ، ولا ينجسُ بالغسالةِ ، ولا بولوغِ السنَّورِ في الماءِ القليلِ .

وأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يَحْمِلُ خبثاً »[3] . . فهوَ في نفسِهِ مبهمٌ[4] ؛ فإنَّهُ يحملُ إذا تغيَّرَ .

فإنْ قيلَ : أرادَ بهِ إذا لم يتغيَّرْ . . فيمكنُ أنْ يقالَ : أرادَ بهِ أنَّهُ في الغالبِ لا يتغيَّرُ بالنجاساتِ المعتادةِ .

❁ ❁ ❁

ثمَّ هوَ تمسُّكٌ بالمفهومِ فيما إذا لمْ يبلغْ قلَّتينِ[5] ، وتركُ المفهومِ بأقلَّ مِنَ الأدلَّةِ التي ذكرناها ممكنٌ .

وقولُهُ : « لا يحملُ خبثاً » : ظاهرُهُ نفيُ الحمْلِ ؛ أي : يقلبُهُ إلىٰ صفةِ نفسِهِ ؛ كما يقالُ : المملحة لا تحملُ كلباً ولا غيرَهُ ؛ أي : ينقلبُ ؛ وذٰلك لأنَّ الناسَ قد يستنجونَ في المياهِ القليلةِ في الغدرانِ ويغمسونَ الأوانيَ النجسةَ فيها ، ثمَّ يتردَّدونَ في أنَّها تغيَّرَتْ تغيُّراً مؤثِّراً أم لا ، فبيَّنَ أنَّهُ إذا كانَ قلَّتينِ . . لا يتغيَّرُ بهٰذهِ النجاساتِ المعتادةِ .

❁ ❁ ❁

فإن قلت : فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمْ يحملْ خَبَثاً » ، ومهما كثرتْ . . حملَها ، فهٰذا ينقلبُ عليكَ ؛ فإنَّها مهما كثرَت . . حملَها أيضاً حكماً كما حملَها حسّاً ، فلا بدَّ مِنَ التخصيصِ بالنجاساتِ المعتادةِ على المذهبينِ جميعاً[6] .

❁ ❁ ❁

وعلى الجملةِ : فميلي في أمورِ النجاساتِ إلى المساهلةِ فهماً مِنْ سيرةِ الأوَّلينَ ، وحسماً لمادةِ الوسواسِ ، وبذٰلكَ أفتيتُ بالطهارةِ فيما وقعَ الخلافُ فيهِ مِنْ هٰذهِ المسائلِ[7] .

❁ ❁ ❁

(1) **المملحة** : معدن الملح ؛ أي : منبته الذي يستخرج الملح منه ، ما يسمى اليوم بالمنجم .

(2) في (أ) : (المعتاد) بدل (المعيار) .

(3) رواه أبو داوود (٦٣) ، والترمذي (٦٧) ، والنسائي (٤٦/١) ، وابن ماجه (٥١٧) .

(4) أي : يصعب على الفهم إدراكه . « إتحاف » (٣٣٣/٣) .

(5) فإنه يحمل خبثاً ، دلَّ الحديث بمفهومه علىٰ ذٰلك . « إتحاف » (٣٣٣/٢) .

(6) مذهب الإمامين مالك والشافعي رضي الله عنهما . « إتحاف » (٣٣٤/٢) .

(7) يرى القارئ الكريم رجوع المصنف في مسائل الطهارة إلىٰ ما كان قد اعتمده وقرره في كتبه الفقهية ، وذٰلك بحسب ما ظهر له وأداه اجتهاده كما ذكر ذٰلك الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٣١/٢) ، واستدل بذٰلك علىٰ آخرية تأليف « الإحياء » .

الطرفُ الثالثُ في كيفيةِ الإزالةِ :

والنجاسةُ إنْ كانتْ حكميَّةً وهيَ التي ليسَ لها جِرْمٌ محسوسٌ . . فيكفي إجراءُ الماءِ علىٰ جميعِ مواردِها .

وإنْ كانتْ عينيَّةً . . فلا بدَّ مِنْ إزالةِ العينِ ، وبقاءُ الطعمِ يدلُّ علىٰ بقاءِ العينِ ، وكذا بقاءُ اللونِ ، إلَّا فيما يلتصقُ بهِ ، فهوَ معفوٌّ عنهُ بعدَ الحتِّ والقرْصِ .

وأمَّا الرائحةُ . . فبقاؤُها يدلُّ علىٰ بقاءِ العينِ ، ولا يعفىٰ عنها إلَّا إذا كانَ الشيءُ لهُ رائحةٌ فائحةٌ تعسرُ إزالتُها ، فالدلكُ والعصرُ مرَّاتٍ متوالياتٍ يقومُ مقامَ الحتِّ والقرْصِ في اللونِ .

والمزيلُ للوسواسِ أنْ يعلمَ أنَّ الأشياءَ خلقتْ طاهرةً بيقينٍ ، فما لا يشاهدُ عليهِ نجاسةٌ ولا يعلمُها يقيناً . . يصلِّىٰ معهُ ، ولا ينبغي أنْ يتوصَّلَ بالاستنباطِ إلىٰ تقديرِ النجاساتِ .

* * *

وهـٰذا لا يعني بحال تخلي الإمام الغزالي عن مذهب إمامه الشافعي ، ولـٰكنه دليل جزم علىٰ إمامته واجتهاده ضمن المذهب ، وأنه لم يكن مجرَّد مدافع عما يقوله الإمام ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢/٣٣٤) : (والمصنف رحمه الله كان ممن سُلِّم له دعوى الاجتهاد ؛ أي : في المذهب ، كما ينبئه كلام كثير من أئمة مذهبه ، ولعل من نظر إلىٰ ظاهر سياقه هـٰذا في هـٰذا الكتاب . . جزم بأنه رجع في آخر عمره مالكياً ، وليس كذٰلك ، وذكر الشيخ زروق في « شرحه علىٰ قواعد العقائد » للمصنف ما نصه : « سمعت أبا عبد الله القوري يقول : قال ابن العربي في كتاب « الاقتراب شرح الجلاب » : لما تغلغل شيخنا أبو حامد في العلوم . . ترك العناد ورجع إلى المقصود من مذهب مالك » ، وقال به سيدي أحمد زروق : « ولا يخفىٰ ما في هـٰذا الكلام من الحروشة والضعف والله أعلم » ، قلت : ابن العربي كان ممن شاهد المصنف وأخذ عنه ، وكأنه أشار بكلامه المذكور إلىٰ هـٰذا الذي أورده المصنف هنا ، ولا يلزم من مخالفته لإمامه في مسألة من المسائل أن يكون خرج عن مذهبه بالكلية ، هـٰذا لا يقول به أحد) .

القِسمُ الثّاني
طهارة الأحداث

وفيها : الوضوءُ ، والغسلُ ، والتيمُّمُ ، ويتقدَّمُها الاستنجاءُ .

فنوردُ كيفيتَها على الترتيبِ معَ آدابِها وسننِها ، مبتدئينَ بسببِ الوضوءِ ، وهوَ قضاءُ الحاجةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

بابُ آدابِ قضاءِ الحاجة

ينبغي أنْ يبعدَ عَنْ أعينِ الناظرينَ في الصحراءِ ، وأنْ يستترَ بشيءٍ إنْ وجدَهُ ، وألَّا يكشفَ عورتَهُ قبلَ الانتهاءِ إلىٰ موضعِ الجلوسِ ، وألَّا يستقبلَ الشمسَ والقمرَ ، وألَّا يستقبلَ القبلةَ ولا يستدبرَها إلا إذا كانَ في بناءٍ ، والعدولُ عنها أيضاً في البناءِ أحبُّ ، وإنِ استترَ في الصحراءِ براحلتِهِ . . جازَ ، وكذٰلكَ بذيلِهِ [1] ، وأنْ يتقيَ الجلوسَ في متحدَّثِ الناسِ ، وألَّا يبولَ في الماءِ الراكدِ ، ولا تحتَ الشجرةِ المثمرةِ ، ولا في الجُحْرِ ، وأنْ يتقيَ الموضعَ الصلْبَ ومهابَّ الرياحِ في البولِ استنزاهاً مِنْ رشاشِهِ ، وأنْ يتكئَ في جلوسِهِ على الرجْلِ اليسرىٰ ، وإنْ كانَ في بنيانٍ . . يقدِّمُ الرجْلَ اليسرىٰ في الدخولِ واليمنىٰ في الخروجِ .

ولا يبولُ قائماً ؛ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (مَنْ حدَّثَكُمْ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يبولُ قائماً . . فلا تصدِّقوهُ) [2]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : رآني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأنا أبولُ قائماً ، فقالَ : « يا عمرُ ؛ لا تبلْ قائماً » قالَ عمرُ : فما بلتُ قائماً بعدُ [3]

وفيهِ رخصةٌ ؛ إذْ روىٰ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بالَ قائماً ، قالَ : فأتيتُهُ بوضوءٍ ، فتوضَّأَ ومسحَ علىٰ خفيهِ [4]

ولا يبولُ في المغتَسَلِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عامَّةُ الوسواسِ منهُ » [5] ، وقالَ ابنُ المباركِ : (إنْ كانَ الماءُ جارياً . . فلا بأسَ) [6]

ولا يستصحبُ شيئاً عليهِ اسمُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، أوْ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا يدخلُ بيتَ الماءِ حاسرَ الرأسِ ، وأنْ يقولَ عندَ الدخولِ : (باسمِ اللهِ ، أعوذُ باللهِ مِنَ الرجسِ النجسِ الخَبيثِ المُخْبِثِ ، الشيطانِ الرجيمِ) [7] ، وعندَ الخروجِ : (الحمدُ للهِ الذي أذهبَ عنّي ما يؤذيني وأبقىٰ عليَّ ما ينفعُني) [8] ، ويكونُ ذٰلكَ خارجاً عنْ بيتِ الماءِ ، وأنْ

---

(١) بأن يترك طرف ثوبه مرخىً على الأرض .

(٢) رواه الترمذي (١٢) ، والنسائي (٢٦/١) ، وابن ماجه (٣٠٧) .

(٣) رواه الترمذي (١٢) ، وابن ماجه (٣٠٨) .

(٤) رواه البخاري (٢٢٤) ، ومسلم (٢٧٣) .

(٥) رواه أبو داوود (٢٧) ، والترمذي (٢١) ، والنسائي (١٩/١) ، وابن ماجه (٣٠٤) .

(٦) رواه الترمذي (٢١) .

(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤) .

(٨) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢) .

يُعِدَّ النُّبَلَ قبلَ الجلوسِ [1] ، وألا يستنجيَ بالماءِ في موضعِ الحاجةِ ، وأنْ يستبرئَ مِنَ البولِ بالتنحنحِ والنترِ ثلاثاً وإمرارِ اليدِ على أسفلِ القضيبِ ، ولا يكثرَ التفكُّرَ في الاستبراءِ فيتوسوسَ ويشقَّ عليهِ الأمرُ ، وما يحسُّ بهِ مِنْ بللٍ فليقدِّرْ أنَّهُ بقيةُ الماءِ ، فإنْ كانَ ذٰلكَ يؤذيهِ . . فليرشَّ عليهِ الماءَ حتَّىٰ يقوىٰ في نفسِهِ ذٰلكَ ، ولا يتسلطَ عليهِ الشيطانُ بالوسواسِ ، وفي الخبرِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فَعَلَهُ ؛ أعني رَشَّ الماءِ [2] ، وقدْ كانَ أخفُّهُمْ استبراءً أفقهَهُمْ ، فتدلُّ الوسوسةُ فيهِ علىٰ قلَّةِ الفقْهِ .

وفي حديثِ سلمانَ رضيَ اللهُ عنهُ : (علَّمَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلَّ شيءٍ حتَّى الخِراءَةَ ، فأمرَنا ألَّا نستنجيَ بعظمٍ ولا روثٍ ، ونهانا أنْ نستقبلَ القبلةَ بغائطٍ أوْ بولٍ) [3]

وقالَ رجلٌ لبعضِ الصحابةِ مِنَ الأعرابِ وقدْ خاصمَهُ [4] : لا أحسبُكَ تحسِنُ الخِراءَةَ ، قالَ : بلىٰ وأبيكَ ؛ إنّي لأحسنُها ، وإنّي بها لحاذقٌ ؛ أُبعِدُ الأثرَ وأُعِدُّ المدَرَ ، وأستقبلُ الشِيحَ ، وأستدبرُ الريحَ ، وأُقعي إقعاءَ الظبيِ ، وأَجفُلُ إجفالَ النعامِ .

الشيحُ : نبتٌ طيّبُ الرائحةِ بالباديةِ ، والإقعاءُ ها هنا : أنْ يستوفزَ علىٰ صدورِ قدميهِ ، والإجفالُ : أنْ يرفعَ عجزَهُ .

ومِنَ الرخصةِ : أنْ يبولَ الإنسانُ قريباً مِنْ صاحبِهِ مستتراً عنهُ ، فعلَ ذٰلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ شدَّةِ حيائِهِ ؛ ليبيِّنَ للناسِ ذٰلكَ [5]

كيفية الاستنجاء

ثمَّ يستنجي لمقعدتِهِ بثلاثةِ أحجارٍ ، فإنْ أنقىٰ بها . . كفىٰ ، وإلَّا . . استعملَ رابعاً ، فإنْ أنقىٰ . . استعملَ خامساً ؛ لأنَّ الإنقاءَ واجبٌ والإيتارَ مستحبٌّ ؛ قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ : « مَنِ استجمرَ . . فليوتِرْ » [6]

ويأخذُ الحجرَ بيسارِهِ ويضعُهُ علىٰ مقدَّمِ المقعدةِ قَبْلَ موضعِ النجاسةِ وَيُمِرُّهُ بالمسحِ ، والإدارةِ إلى المؤخرِ ، ويأخذُ الثانيَ ويضعُهُ على المؤخرةِ كذٰلكَ ، ويُمِرُّهُ إلى المقدمةِ ، ويأخذُ الثالثَ فيديرُهُ حولَ المَسْرَبةِ إدارةً [7] ، وإنْ عسرتِ الإدارةُ ومسحَ مِنَ المقدمةِ أوِ المؤخرةِ . . أجزأَهُ ، ثمَّ يأخذُ حجراً كبيراً بيمينِهِ والقضيبَ بيسارِهِ ويمسحُ الحجرَ بقضيبِهِ ويحرِّكُ اليسارَ ، فيمسحُ ثلاثاً في ثلاثةِ مواضعَ ، أوْ في ثلاثةِ أحجارٍ ، أوْ في ثلاثةِ مواضعَ مِنْ جدارٍ ، إلىٰ ألَّا يرى الرطوبةَ في محلِّ المسحِ ، فإنْ حصلَ ذٰلكَ بمرتينِ . . أتىٰ بالثالثةِ ، ووجبَ ذٰلكَ إنْ أرادَ الاقتصارَ على الحجرِ ، وإنْ حصلَ بالرابعةِ . . استحبَّتِ الخامسةُ للإيتارِ ، ثمَّ ينتقلُ مِنْ ذٰلكَ الموضعِ إلىٰ موضعٍ آخرَ ، ويستنجي بالماءِ ؛ بأنْ يفيضَهُ باليمنىٰ علىٰ محلِّ النجْوِ ، ويدلكَ باليسرىٰ حتَّىٰ لا يبقىٰ أثرٌ لذٰلكَ يدركُهُ الكفُّ بحسِّ اللمْسِ ، ويتركُ الاستقصاءَ فيهِ بالتعرُّضِ للباطنِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ منبعُ الوسواسِ .

---

(١) النُّبَل : هي الحجارة الصغار المعدَّة للاستنجاء ، واحدتها : نُبْلة ؛ كغُرفة وغُرَف

(٢) وهو النضح ، رواه أبو داوود (١٦٦) ، والنسائي (٨٦/١) ، وابن ماجه (٤٦١) .

(٣) رواه مسلم (٢٦٢) .

(٤) **الصحيح** : لبعض أصحابه من الأعراب . « إتحاف » (٣٤١/٢) .

(٥) كما جاء ذٰلك من وصف الصحابة له عند بوله قائماً كما سبق ، وفيه : (فتنحيت ، فدعاني وكنت عند عقبيه حتىٰ فرغ ، ثم توضأ ومسح علىٰ خفيه) .

(٦) رواه البخاري (١٦١) ، ومسلم (٢٣٧) .

(٧) المسربة : هي بوزان مقعدة ، مجرى الغائط ومخرجه ، سميت بذٰلك لانسراب الخارج منها . « إتحاف » (٣٤٣/٢) .

وليعلمْ أنَّ كلَّ ما لا يصلُ إليهِ الماءُ . . فهوَ باطنٌ ، ولا يثبتُ حكمُ النجاسةِ للفضلاتِ الباطنةِ ما لمْ تبرزْ ، وكلُّ ما هوَ ظاهرٌ وثبتَ لهُ حكمُ النجاسةِ فحدُّ ظهورِهِ أنْ يصلَ الماءُ إليهِ فيزيلَهُ ، فلا معنىٰ للوسواسِ .

ويقولُ عندَ الفراغِ مِنَ الاستنجاءِ : اللَّهُمَّ ؛ طهِّرْ قلبي مِنَ النفاقِ ، وحصِّنْ فرجي مِنَ الفواحشِ [1]

ويدلكُ يدَهُ بحائطٍ أوْ بالأرضِ إزالةً للرائحةِ إنْ بقيتْ ، والجمعُ بينَ الماءِ والحجرِ مستحبٌّ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ . . قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأهلِ قُباءَ : « ما هـٰذهِ الطهارةُ التي أثنى اللهُ بها عليكُمْ ؟ » قالوا : إنَّا نجمعُ بينَ الماءِ والحَجَرِ [2]

كيفية الوضوء

إذا فرغَ مِنَ الاستنجاءِ . . اشتغلَ بالوضوءِ ، فلمْ يُرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قطُّ خارجاً مِنَ الغائطِ إلَّا توضَّأَ [3]

ويبتدئُ بالسواكِ ، فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أفواهَكُمْ طُرُقُ القرآنِ ، فطيِّبُوها بالسواكِ » [4] ، فينبغي أنْ ينويَ عندَ السواكِ تطهيرَ فمِهِ لقراءةِ (الفاتحةِ) وذكرِ اللهِ تعالىٰ في الصلاةِ [5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةٌ علىٰ أثَرِ سواكٍ أفضلُ مِنْ خمسٍ وسبعينَ صلاةً بغيرِ سواكٍ » [6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنْ أشُقَّ علىٰ أمَّتي . . لأمرتُهُمْ بالسواكِ عندَ كلِّ صلاةٍ » [7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لي أراكُمْ تدخلونَ عليَّ قُلْحاً ؟ استاكوا » [8] أي : صفْرَ الأسنانِ .

وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يستاكُ في الليلةِ مراراً [9]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّهُ قالَ : (لمْ يزلْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُنا بالسواكِ حتَّىٰ ظننَّا أنَّهُ سينزلُ عليهِ فيهِ شيءٌ) [10]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عليكُمْ بالسواكِ ؛ فإنَّهُ مطْهَرَةٌ للفمِ ، مَرْضَاةٌ للرَّبِّ » [11]

---

(١) قوت القلوب (٢/٩٢) ، وكذا هو في « بداية الهداية » (ص ٧٨) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » كما في « مجمع الزوائد » (١/٢١٧) .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٥٤) .

(٤) رواه ابن ماجه (٢٩١) موقوفاً علىٰ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو عند البزار في « مسنده » (٦٠٣) مرفوعاً بنحوه .

(٥) ولو قال : (لقراءة القرآن) . . لكان شاملاً للمذهبين ؛ أي : أنه باستعماله السواك لا يقتصر علىٰ نية إزالة الوسخ عن فمه ، بل ينوي بذلك ما ذكر حتىٰ يثاب عليه . « إتحاف » (٢/٣٤٨) .

(٦) رواه أحمد في « مسنده » (٦/٢٧٢) بلفظ : « فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفاً » ، وكذا وقع بنصب (سبعين) ، وانظر فيه « فيض القدير » (٤/٤٣١) ، وهو بلفظ المصنف عند ابن عدي في « الكامل » (٦/٣١٦) .

(٧) رواه البخاري (٨٨٧) ، ومسلم (٢٥٢) .

(٨) رواه أحمد في « مسنده » (١/٢١٤) .

(٩) رواه مسلم (٧٦٣) .

(١٠) رواه أحمد في « مسنده » (١/٣٣٩) .

(١١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٠٧٠) ، وهو بنحوه عند البخاري تعليقاً (كتاب الصوم ، باب سواك الرطب واليابس للصائم) .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (السِّوَاكُ يزيدُ في الحفظِ ، ويُذْهِبُ البلغمَ)[1]

وكانَ أصحابُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يروحونَ والسواكُ علىٰ آذانِهِمْ[2]

وكيفيتُهُ : أنْ يستاكَ بخشبِ الأراكِ أوْ غيرِهِ مِنْ قضبانِ الأشجارِ ممَّا يخشنُ ويزيلُ القَلَحَ ، ويستاكُ عرضاً وطولاً ، وإنِ اقتصرَ . . فعرضاً .

ويستحبُّ السواكُ عندَ كلِّ صلاةٍ ، وعندَ كلِّ وضوءٍ وإنْ لمْ يصلِّ عَقيبَهُ ، وعندَ تغيُّرِ النَّكْهَةِ بالنومِ ، أوْ طولِ الأَزْمِ[3] ، أوْ أكلِ ما تُكْرَهُ رائحتُهُ .

ثمَّ عندَ الفراغِ مِنَ السواكِ يجلسُ للوضوءِ مستقبلَ القبلةِ ، ويقولُ : (بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ) ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا وضوءَ لِمَنْ لمْ يسمِّ اللهَ تعالىٰ »[4] ؛ أي : لا وضوءَ كاملاً .

ويقولُ عندَ ذٰلكَ : (أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشياطينِ ، وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يحضرونِ)[5]

ثمَّ يغسلُ يديهِ ثلاثاً قبلَ أنْ يدخلَهما الإناءَ ، ويقولُ : (اللَّهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ اليُمْنَ والبركةَ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الشؤمِ والهلكةِ) .

ثمَّ ينوي رفعَ الحدثِ أوِ استباحةَ الصلاةِ ، ويستديمُ النيَّةَ إلىٰ غسْلِ الوجهِ ، فإنْ نسيَها عندَ الوجهِ . . لمْ يُجزِهِ ، ثمَّ يأخذُ غُرفةً لفيهِ فيتمضمضُ بها ثلاثاً ويُغَرْغِرُ ؛ بأنْ يَرُدَّ الماءَ إلى الغَلْصَمَةِ[6] ، إلَّا أنْ يكونَ صائماً فيرفقُ ، ويقولُ : (اللَّهمَّ ؛ أعِنِّي علىٰ تلاوةِ كتابِكَ وكثرةِ الذكرِ لكَ) .

ثمَّ يأخذُ غُرفةً لأنفِهِ ويستنشقُ ثلاثاً ، ويُصعدُ الماءَ بالنَّفَسِ إلىٰ خياشيمِهِ ، ويستنثرُ ما فيها ، ويقولُ في الاستنشاقِ : (اللَّهُمَّ ؛ أوجدني رائحةَ الجنَّةِ وأنتَ عنِّي راضٍ) ، وفي الاستنثارِ : (اللَّهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِن روائحِ النارِ ، ومِنْ سوءِ الدارِ) ؛ لأنَّ الاستنشاقَ إيصالٌ ، والاستنثارَ إزالةٌ .

ثمَّ يغرفُ غُرفةً لوجهِهِ ، فيغسلُهُ مِنْ مبتدأ تسطيحِ الجبهةِ إلىٰ منتهىٰ ما يقبلُ مِنَ الذَّقَنِ في الطولِ ، ومِنَ الأُذُنِ إلى الأُذُنِ في العرْضِ ، ولا يدخلُ في حدِّ الوجهِ النَّزَعَتانِ اللتانِ علىٰ طرفي الجبينينِ ؛ فهما مِنَ الرأسِ[7] ، ويوصلُ الماءَ إلىٰ موضعِ التحذيفِ ، وهوَ ما يعتادُ النساءُ تنحيةَ الشعرِ عنهُ ، وهوَ القدْرُ الذي يقعُ في جانبِ الوجهِ مهما وُضِعَ طرفُ الخيطِ علىٰ رأسِ الأُذُنِ ، والطرفُ الثاني علىٰ زاويةِ الجبينِ ، ويوصلُ الماءَ إلىٰ منابتِ الشعورِ الأربعةِ : الحاجبانِ ، والشاربانِ ، والأهدابُ ، والعِذارانِ ؛ لأنَّها خفيفةٌ في الغالبِ ، والعذارانِ : هما ما يوازي الأذنينِ مِنْ مبتدأ اللحيةِ .

---

(١) وفي كتاب « النوادر » للترمذي الحكيم : السواك يزيد للحافظ حفظاً ، وفي كلام ابن عباس : في السواك عشر خصال ، فذكر منها أنه ينقي البلغم ، والبلغم أحد الأخلاط الأربعة . « إتحاف » (٣٤٩/٢) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٨٠٥) .

(٣) **الأَزْم** : الإمساك عن الطعام والكلام .

(٤) رواه أبو داوود (١٠١) ، والترمذي (٢٥) ، وابن ماجه (٣٩٩) بلفظ : « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » .

(٥) وقد أجاد البحث في دعاء الأعضاء العلامة المحدث ابن علان المكي في « شرح الأذكار » (٢٧/٢ ـ ٣٠) فليراجع .

(٦) **الغلصمة** : رأس الحلق .

(٧) **النَّزَعَتان** : مثنىٰ نَزَعَة ، وهما البياضان المكتنفان للناصية .

ويجبُ إيصالُ الماءِ إلىٰ منابتِ اللحيةِ الخفيفةِ ؛ أعني : ما يقبلُ مِنَ الوجهِ ، وأمَّا الكثيفةُ . . فلا ، وحكمُ الْعَنْفَقَةِ [١] حكمُ اللحيةِ في الكثافةِ والخفَّةِ ، ثمَّ يفعلُ ذٰلكَ ثلاثاً ، ويفيضُ الماءَ علىٰ ظاهرِ ما استرسلَ مِنَ اللحيةِ ، ويدخلُ الإصبعَ في محاجرِ العينينِ وموضعِ الرَّمَصِ ومجتمعِ الكُحْلِ وينقِّيهما ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فعلَ ذٰلكَ [٢] ، ويأملُ عندَ ذٰلكَ خروجَ الخطايا مِنْ عينيهِ ، وكذٰلكَ عندَ كلِّ عضْوٍ ، ويقولُ عندَهُ : (اللَّهُمَّ ؛ بيضْ وجهي بنورِكَ يومَ تبيضُّ وجوهُ أوليائِكَ ، ولا تسوِّدْ وجهي بظلماتِكَ يومَ تسودُّ وجوهُ أعدائِكَ) ، ويخللُ اللحيةَ الكثيفةَ عندَ غسْلِ الوجهِ ؛ فإنَّهُ مستحبٌّ .

ثمَّ يغسلُ يديهِ إلىٰ مرفقيهِ ثلاثاً ، ويحرِّكُ الخاتَمَ [٣] ، ويطيلُ الغُرَّةَ ويرفعُ الماءَ إلىٰ أعالي العضدِ ؛ فإنَّهُمْ يحشرونَ يومَ القيامةِ غُرّاً مُحَجَّلينَ مِنْ آثارِ الوضوءِ ، كذٰلكَ وردَ الخبرُ ؛ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنِ استطاعَ منكمْ أنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ . . فليفعلْ » [٤] ، ورُوِيَ أنَّ الحليةَ تبلُغُ مواضعَ الوضوءِ [٥] .

ويبدأُ باليمنىٰ ويقولُ : (اللَّهُمَّ ؛ أعطني كتابي بيميني ، وحاسبني حساباً يسيراً) ، ويقولُ عندَ غسْلِ الشمالِ : (اللَّهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بِكَ أنْ تُعطيني كتابي بشِمالي أوْ مِنْ وراءِ ظهري) .

ثمَّ يستوعبُ رأسَهُ بالمسْحِ ، بأنْ يبلَّ يديهِ ويلصقَ رؤوسَ أصابعِ اليمنىٰ باليسرىٰ ويضعَهُما علىٰ مقدَّمةِ الرأسِ ، ويمرَّهما إلى القفا ، ثمَّ يردَّهُما إلى المقدَّمةِ ، وهٰذهِ مسحةٌ واحدةٌ ، يفعلُ ذٰلكَ ثلاثاً ، ويقولُ : (اللَّهُمَّ ؛ غشِّني برحمتِكَ ، وأنزلْ عَلَيَّ مِنْ بركاتِكَ ، وأظلَّني تحتَ ظلِّ عرشِكَ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّكَ) .

ثمَّ يمسحُ أذنيهِ ظاهرَهُما وباطنَهُما بماءٍ جديدٍ ؛ بأنْ يدخلَ مسبِّحتيهِ في صماخي أذنيهِ ، ويديرَ إبهاميهِ علىٰ ظاهرِ أذنيهِ ، ثمَّ يضعُ الكفَّينِ على الأذنينِ استظهاراً ويكرِّرُهُ ثلاثاً ، ويقولُ : (اللَّهُمَّ ؛ اجعلني مِنَ الذينَ يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحسنَهُ ، اللَّهُمَّ ؛ أسمعني مناديَ الجنَّةِ معَ الأبرارِ) .

ثمَّ يمسحُ رقبتَهُ بماءٍ جديدٍ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مسحُ الرقبةِ أمانٌ مِنَ الغلِّ يومَ القيامةِ » [٦] ، ويقول : (اللَّهُمَّ ؛ فكَّ رقبتي مِنَ النارِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ السلاسلِ والأغلالِ) .

ثمَّ يغسلُ رجْلَهُ اليمنىٰ ثلاثاً ، ويخلِّلُ باليدِ اليسرىٰ مِنْ أسفلِ أصابعِ الرجْلِ اليمنىٰ ، ويبدأُ بالخِنْصِرِ مِنَ الرجْلِ اليمنىٰ ويختمُ بالخِنْصَرِ مِنَ الرجْلِ اليسرىٰ ، ويقولُ : (اللَّهمَّ ؛ ثبتْ قدمي على الصراطِ يومَ تزلُّ الأقدامُ في النارِ) ، ويقولُ عندَ غسْلِ اليسرىٰ : (وأعوذُ بكَ أنْ تزلَّ قدمي عَنِ الصراطِ يومَ تزلُّ أقدامُ المنافقينَ) ، ويرفعُ الماءَ إلىٰ أنصافِ الساقينِ .

فإذا فرغَ . . رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقالَ : (أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ

---

(١) **العنفقة** : الشعر النابت تحت الشفة السفلىٰ ، وقيل : هي ما بين الشفة السفلىٰ والذَّقن سواء كان عليها شعر أم لا

(٢) روىٰ أحمد في « مسنده » (٢٥٨/٥) عن أبي أمامة رضي الله عنه : (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح المأقين) .

(٣) وجوباً إن لم يصل الماء إلا بالتحريك ، وندباً إن وصل .

(٤) رواه البخاري (١٣٦) ، ومسلم (٢٤٦) .

(٥) رواه مسلم (٢٥٠) .

(٦) ذهب المصنف رحمه الله في « البسيط » و« الوسيط » (٢٨٨/١) و« الوجيز » كما في « العزيز » (١٢٩/١) و« الخلاصة » (ص ٦٦) و« بداية الهداية » (ص ٨٣) إلىٰ سنيَّة مسح الرقبة ، ووافقه الإمام الرافعي في « العزيز » (١٣٠/١) . وانظر تخريج الحديث وطرقه في « تحفة الطلبة في تحقيق مسح الرقبة » للعلامة عبد الحي اللكنوي .

ورسولُهُ ، سبحانَكَ اللَّهمَّ وبحمدِكَ ، لا إلنهَ إلا أنتَ ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ ، فاغفرْ لي وتبْ عليَّ ، إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ ، اللَّهمَّ ؛ اجعلني مِنَ التَّوابينَ ، واجعلني مِنَ المتطهِّرينَ ، واجعلني مِنْ عبادِكَ الصالحينَ ، واجعلني عبداً صبوراً شكوراً ، واجعلني أذكرُكَ ذكراً كثيراً ، وأسبحُكَ بكرةً وأصيلاً) .

يُقالُ : إنَّ مَنْ قالَ هٰذا بعدَ الوضوءِ . . خُتِمَ علىٰ وضوئِهِ بخاتَمٍ ، ورُفِعَ لهُ تحتَ العرشِ ، فلمْ يزلْ يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ ويقدِّسُهُ ، ويكتبُ لهُ ثوابُ ذٰلكَ إلىٰ يومِ القيامةِ[1] .

ويُكرَهُ في الوضوءِ أمورٌ : منها أنْ يزيدَ على الثلاثِ ، فمَنْ زادَ . . فقدْ ظلمَ ، وأنْ يسرفَ في الماءِ ؛ توضَّأَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثاً ثلاثاً وقالَ : « مَنْ زادَ . . فقدْ ظلمَ وأساءَ »[2] ، وقالَ : « سيكونُ قومٌ مِنْ هٰذهِ الأمَّةِ يعتدونَ في الدعاءِ والطُّهُورِ »[3]

ويُقالُ : (مِنْ وَهَنِ علمِ الرجُلِ ولوعُهُ بالماءِ في الطُّهُورِ)[4]

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (يقالُ : إنَّ أوَّلَ ما يبدأُ الوسواس مِنْ قِبَلِ الطُّهورِ)[5]

وقالَ الحسنُ : (إنَّ شيطاناً يضحكُ بالناسِ في الوضوءِ يقالُ لهُ : الولْهان)[6]

ويكرَهُ أنْ ينفضَ اليدَ فيرشَّ الماءَ ، وأنْ يتكلَّمَ في أثناءِ الوضوءِ ، وأنْ يلطمَ وجهَهُ بالماءِ لطماً .

وكَرِهَ قومٌ التنشيفَ ، وقالوا : (الوضوءُ يوزنُ) ، قالَهُ سعيدُ بنُ المسيَّبِ والزهريُّ[7] ، لٰكنْ روىٰ معاذٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مسحَ وجهَهُ بطرَفِ ثوبِهِ[8] ، وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانتْ لهُ مِنْشفةٌ[9] ، ولٰكنْ قدْ طعنَ في الروايةِ عَن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها[10]

ويكرَهُ أنْ يتوضَّأَ مِنْ إناءِ صُفْرٍ[11] ، وأنْ يتوضَّأَ بالماءِ المشمَّسِ ، وذٰلكَ مِنْ جهةِ الطِّبِّ ، وقدْ رُوِيَ عنِ ابنِ عمرَ وأبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُما كراهةُ الإناءِ الصفرِ ، قالَ بعضُهُمْ : أخرجتُ لشعبةَ ماءً في إناءِ صفرٍ ، فأبىٰ أنْ يتوضَّأَ منهُ ، ونقلَ كراهيةَ ذٰلكَ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما[12] .

---

(١) قوت القلوب (٩٣/٢) ، وأصله حديث رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦٠٢٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٠) .
(٢) رواه أبو داوود (١٣٥) ، والنسائي (٨٨/١) .
(٣) رواه أبو داوود (٩٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٤) .
(٤) وظن العراقي أنه حديث ، فقال : (لم أجد له أصلاً) ، وليس كذٰلك ، بل هو من كلام بعض السلف . « إتحاف » (٣٧٠/٢) ، وهو من كلام محارب بن دثار يحكيه كما رواه عنه القاسم بن سلام في كتاب « الطهور » (١٢٣) .
(٥) رواه القاسم بن سلام في « الطهور » (١٢٤) عن إبراهيم التيمي رحمه الله تعالىٰ .
(٦) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٩٧/١) عنه ، وأصله في المرفوع كما رواه الترمذي (٥٧) ، وابن ماجه (٤٢١) .
(٧) كذا رواه عنهما الترمذي (٥٤) .
(٨) رواه الترمذي (٥٤) ، وعند أبي داوود (٢٤٥) من كلام إبراهيم بن خالد : (كانوا لا يرون بالمنديل بأساً ولٰكن كانوا يكرهون العادة) .
(٩) رواه الترمذي (٥٣) .
(١٠) أي : في هٰذا الحديث خاصة ، والضعف جاء من أبي معاذ ، سمَّاه الترمذي سليمان بن الأرقم ، وقال عقب روايته : (حديث عائشة ليس بالقائم) ، والذي اختاره الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (٢٣٢/٣) : (والثالث : أنه مباح ، يستوي فعله وتركه ، وهٰذا هو الأظهر المختار ؛ فقد جاء هٰذا الحديث الصحيح في الإباحة ، ولم يثبت في النهي شيء أصلاً) .
(١١) الصُّفْر : النحاس ، وقيل : أجوده
(١٢) قوت القلوب (٩٣/٢) .

ومهما فرغَ مِنْ وضوئِهِ وأقبلَ على الصلاةِ . . فينبغي أنْ يخطرَ ببالِهِ أنَّهُ طهَّرَ ظاهرَهُ وهوَ موضعُ نظرِ الخلْقِ ، فينبغي أنْ يستحييَ مِنْ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ تطهيرِ قلبِهِ وهوَ موضعُ نظرِ الربِّ سبحانَهُ .

وليتحققْ أنَّ طهارةَ القلبِ بالتوبةِ ، والخلوِّ عَنِ الأخلاقِ المذمومةِ ، والتخلُّقِ بالأخلاقِ الحميدةِ . . أولىٰ ، وأنَّ مَنِ اقتصرَ علىٰ طهارةِ الظاهرِ كمَنْ أرادَ أنْ يدعوَ ملكاً إلىٰ بيتِهِ ، فتركَهُ مشحوناً بالقاذوراتِ واشتغلَ بتجصيصِ ظاهرِ البابِ البرَّانيِّ مِنَ الدارِ ، وما أجدرَ مثلَ هٰذا الرجلِ بالتعرُّضِ للمقتِ والبوارِ !! واللهُ سبحانَهُ أعلمُ .

فضيلة الوضوء

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ، وصلَّىٰ ركعتينِ لمْ يُحَدِّثْ نفسَهُ فيهما بشيءٍ مِنَ الدنيا . . خرجَ مِنْ ذنوبِهِ كيومَ ولدتْهُ أمُّهُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « ولمْ يَسْهُ فيهما . . غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « ألا أنبِّئُكُمْ بما يكفِّرُ اللهُ بِهِ الخطايا ، ويرفعُ بِهِ الدرجاتِ ؟ إسباغُ الوُضُوءِ على المكارهِ ، ونقْلُ الأقدامِ إلى المساجدِ ، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ ، فذٰلكُمُ الرباطُ » ثلاثَ مراتٍ[2]

وتوضَّأَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرةً مرةً وقالَ : « هٰذا وضوءٌ لا يقبلُ اللهُ الصلاةَ إلا بِهِ » ، وتوضَّأَ مرَّتينِ مرَّتينِ وقالَ : « مَنْ توضَّأَ مرَّتينِ مرتين . . آتاهُ اللهُ أجرَهُ مرَّتينِ » ، وتوضَّأَ ثلاثاً ثلاثاً وقالَ : « هٰذا وضوئي ووضوءُ الأنبياءِ مِنْ قبلي ووضوءُ خليلِ اللهِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ذكرَ اللهَ عندَ وضوئِهِ . . طهَّرَ اللهُ جسدَهُ كُلَّهُ ، ومَنْ لمْ يذكُرِ اللهَ . . لمْ يطهِّرْ مِنهُ إلا ما أصابَ الماءُ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ توضَّأَ علىٰ طُهْرٍ . . كتبَ اللهُ لهُ بِهِ عشرَ حسناتٍ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الوضوءُ على الوضوءِ نورٌ علىٰ نورٍ »[6] ، وهٰذا كلُّهُ حثٌّ علىٰ تجديدِ الوضوءِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا توضَّأَ العبدُ المسلمُ فتمضمضَ . . خرجتِ الخطايا مِنْ فِيهِ ، فإذا استنثرَ . . خرجتِ الخطايا مِنْ أنفِهِ ، فإذا غسَلَ وجهَهُ . . خرجتِ الخطايا مِنْ وجهِهِ حتَّىٰ تخرُجَ مِنْ تحتِ أشفارِ عينيهِ ، فإذا غسلَ يديهِ . . خَرجتِ الخطايا مِن يديهِ حتَّىٰ تخرجَ مِنْ تحتِ أظفارِ يديهِ ، فإذا مسحَ برأسِهِ . . خرجتِ الخطايا مِنْ رأسِهِ حتَّىٰ تخرجَ مِنْ أذنيهِ ، فإذا غسلَ رجليهِ . . خرجتِ الخطايا مِن رِجليهِ حتَّىٰ تَخرجَ مِن تحتِ أظفارِ رجلَيْهِ ، ثمَّ كانَ مشيُهُ إلى المسجدِ وصلاتُهُ نافلةً لهُ »[7]

---

(١) كذا في « القوت » (٩١/٢) ، وبنحوه عند البخاري (١٦٠) ، ومسلم (٢٢٦) ، وأبي داوود (٩٠٥) .

(٢) رواه مسلم (٢٥١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٢٤٨٣) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٠) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٢٨٨) .

(٤) رواه الدارقطني في « سننه » (٧٤/١) .

(٥) رواه أبو داوود (٦٢) ، والترمذي (٥٩) ، وابن ماجه (٥١٢) .

(٦) قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٢٦٤) : (ذكره الغزالي في « الإحياء » فقال مخرجه ـ الحافظ العراقي ـ : لم أقف عليه ، وسبقه لذلك المنذري ، وأما شيخنا ـ ابن حجر ـ فقال : إنه حديث ضعيف رواه رزين في « مسنده » ، قلت : قد تقدم في معناه حديث : « من توضأ على طهر . . ») الحديث السابق .

(٧) رواه مالك في « الموطأ » (٣١/١) ، وهو كذلك عند النسائي (٧٤/١) ، وابن ماجه (٢٨٢) .

ويُروىٰ أنَّ الطاهرَ كالصائمِ [١]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ، ثمَّ رفعَ طرْفَهُ إلى السماءِ فقالَ : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ . . فتحتْ لهُ أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ ، يدخلُ مِنْ أيِّها شاءَ » [٢]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الوضوءَ الصالحَ يطردُ عنكَ الشيطانَ) .

وقالَ مجاهدٌ : (مَنِ استطاعَ ألَّا يبيتَ إلَّا طاهراً ذاكراً مستغفراً . . فليفعلْ ؛ فإنَّ الأرواحَ تبعثُ علىٰ ما قبضتْ عليهِ) [٣]

كيفيّة الغسل

وهوَ أنْ يضعَ الإناءَ عنْ يمينِهِ ، ثمَّ يسمِّيَ اللهَ تعالىٰ ، ويغسلَ يديهِ ثلاثاً ، ثمَّ يستنجيَ كما وصفناهُ ، ويزيلَ ما علىٰ بدنِهِ مِنْ نجاسةٍ إنْ كانتْ ، ثمَّ يتوضَّأَ وضوءَهُ للصلاةِ كما سبقَ إلا غسْلَ قدميهِ ، فإنَّهُ يؤخِّرُهُما ؛ فإنَّ غسلَهُما ثمَّ وضعَهُما على الأرضِ كالإضاعةِ للماءِ .

ثمَّ يصبَّ الماءَ علىٰ شقِّهِ الأيمنِ ثلاثاً ، ثمَّ علىٰ شقِّهِ الأيسرِ ثلاثاً ، ثمَّ علىٰ رأسِهِ ثلاثاً ، ثمَّ يدلكُ ما أقبلَ مِنْ بدنِهِ وما أدبرَ ، ويخلِّلُ شعرَ الرأسِ واللحيةِ ، ويوصلُ الماءَ إلىٰ منابتِها ما كثفَ منهُ أوْ خفَّ .

وليسَ على المرأةِ نقضُ الضفائرِ ، إلَّا إذا علمتْ أنَّ الماءَ لا يصلُ إلىٰ خللِ الشعرِ .

ويتعهَّدُ معاطفَ البدنِ ، وليتقِ أنْ يمسَّ ذكرَهُ في أثناءِ ذٰلكَ ؛ فإنْ فعلَ ذٰلكَ . . فليعدِ الوضوءَ ، وإنْ توضَّأَ قبْلَ الغسلِ . . فلا يعيدُهُ بعدَ الغسلِ .

فهـٰذهِ سننُ الوضوءِ والغسلِ ، ذكرْنا منها ما لا بدَّ منهُ لسالكِ طريقِ الآخرةِ مِنْ علمِهِ وعملِهِ ، وما عداهُ مِنَ المسائلِ يحتاجُ إليها في عوارضِ الأحوالِ ، فيُرْجَعُ فيها إلىٰ كتبِ الفقهِ .

والواجبُ مِنْ جملةِ ما ذكرناهُ في الغسْلِ أمرانِ : النيَّةُ ، واستيعابُ البدنِ بالغَسْلِ .

وفرضُ الوضوءِ : النيَّةُ ، وغسلُ الوجهِ ، وغسلُ اليدينِ إلى المرفقينِ ، ومسحُ ما ينطلقُ عليهِ الاسمُ مِنَ الرأسِ ، وغسْلُ الرجلينِ إلى الكعبينِ ، والترتيبُ

وأمَّا الموالاةُ . . فليستْ واجبةً .

والغسلُ الواجبُ أربعةٌ : الغسلُ لخروجِ المنيِّ ، ولالتقاءِ الختانينِ ، والحيضِ ، والنفاسِ .

وما عداهُ مِنَ الأغسالِ سنَّةٌ ؛ كالغسْلِ للجمعةِ والعيدينِ والإحرامِ ، ولوقوفِ عرفةَ ومزدلفةَ ، ولدخولِ مكَّةَ ، وثلاثةِ أغسالِ أيامَ التشريقِ ، ولطوافِ الوداعِ علىٰ قولٍ ، والكافرِ إذا أسلمَ غيرَ جنبٍ ، والمجنونِ إذا أفاقَ ، ولمنْ غسَّلَ ميّتاً ، فكلُّ ذٰلكَ مستحبٌّ .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٩٨١) وبلفظ : « الطاهر النائم كالصائم القائم » .

(٢) رواه أبو داوود (١٦٩) ، وهو عند مسلم (٢٣٤) بنحوه .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (١٢٧٢) ، وهو في « الحلية » (٣/٢٩٥) من قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

كيفية التيمم

مَنْ تعذَّرَ عليهِ استعمالُ الماءِ بفقدِهِ بعدَ الطلبِ ، أوْ بمانعٍ لهُ عَنِ الوصولِ إليهِ مِنْ سَبُعٍ أوْ حابسٍ ، أوْ كانَ الماءُ الحاضرُ يحتاجُ إليهِ لعطشهِ أوْ عطشِ رفيقِهِ ، أوْ كانَ مُلْكاً لغيرِهِ ولمْ يبعْهُ إلَّا بأكثرَ مِنْ ثمنِ المثلِ ، أوْ كانَ بهِ جراحةٌ أوْ مرضٌ وخافَ مِنِ استعمالِهِ فسادَ العضْوِ أوْ شدَّةَ الضنىٰ[1] . . فينبغي أنْ يصبرَ حتَّىٰ يدخلَ عليهِ وقتُ الفريضةِ ، ثمَّ يقصدَ صعيداً طيِّباً عليهِ ترابٌ طاهرٌ خالصٌ ليِّنٌ بحيثُ يثورُ منهُ غبارٌ ، ويضربَ عليهِ كفَّيهِ ضامّاً بينَ أصابعِهِ ، ويمسحَ بهما جميعَ وجهِهِ مرَّةً واحدةً ، وينويَ عندَهُ استباحةَ الصلاةِ .

ولا يتكلَّفُ إيصالَ الغبارِ إلىٰ ما تحتَ الشعورِ ، خفَّتْ أوْ كثُفَتْ ، ويجتهدُ أنْ يستوعبَ بشرةَ وجهِهِ بالغبارِ ، ويحصلُ ذٰلكَ بالضربةِ الواحدةِ ؛ فإنَّ عرْضَ الوجهِ لا يزيدُ علىٰ عرْضِ الكفينِ ، ويكفي في الاستيعابِ غالبُ الظنِّ ، ثمَّ ينزعُ خاتمَهُ ويضربُ ضربةً ثانيةً يفرّجُ فيها بينَ أصابعِهِ ، ثمَّ يلصقُ ظهورَ أصابعِ يدِهِ اليمنىٰ ببطونِ أصابعِ يدِهِ اليسرىٰ بحيثُ لا يجاوزُ أطرافَ الأناملِ مِنْ إحدى الجهتينِ عرْضَ المسبّحَةِ مِنَ الأخرىٰ ، ثمَّ يُمِرُّ يدَهُ اليسرىٰ مِنْ حيثُ وضعَها علىٰ ظاهرِ ساعدِهِ اليمنىٰ إلى المِرفَقِ ، ثمَّ يقلبُ بطْنَ كفِّهِ اليسرىٰ علىٰ باطنِ ساعِدِهِ اليمنىٰ ويُمِرُّها إلى الكوعِ ، ويُمِرُّ بطنَ إبهامِهِ اليسرىٰ علىٰ ظاهرِ إبهامِهِ اليمنىٰ ، ثمَّ يفعل باليدِ اليسرىٰ كذٰلكَ ، ثمَّ يمسحُ كفَّيهِ ويخلِّلُ بينَ أصابعِهِ .

وغرضُ هٰذا التكليفِ تحصيلُ الاستيعابِ إلى المرفقينِ بضربةٍ واحدةٍ ، فإنْ عَسُرَ عليهِ ذٰلكَ . . فلا بأسَ بأنْ يستوعبَ بضربتينِ وزيادةٍ .

فإذا صلَّىٰ بهِ الفرْضَ . . فلهُ أنْ يتنفَّلَ كيفَ شاءَ ، فإنْ جمعَ بينَ فرضينِ . . فينبغي أنْ يعيدَ التيمُّمَ للثانيةِ ، وهٰكذا يفردُ كلَّ فريضةٍ بتيمُّمٍ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) الضنى : المرض أو الهزال الشديد ، والسقم الطويل المديد .

القِسْمُ الثَّالِثُ مِنَ النَّظافَة
التّنظيف عن الفضلات الظّاهرة
وهي نوعان : أوساخ ، وأجزاء[1]

النّوع الأوّل : الأوساخ والرّطوبات المترشّحة
وهي ثمانية

الأَوَّلُ : ما يجتمعُ في شعرِ الرأسِ مِنَ الدَّرَنِ والقمْلِ ، فالتنظيفُ عنْهُ مستحبٌّ بالغسْلِ والترجيلِ والتدهينِ ؛ إزالةً للشعَثِ عنهُ .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدهنُ الشعرَ ويُرَجِّلُهُ غِبّاً ، ويأمرُ بهِ ويقولُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ادَّهنوا غِبّاً »[2]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ كانَ لهُ شعرةٌ . . فليكرمهَا »[3] أي : ليصنْها عَنِ الأوساخِ .

ودخلَ عليهِ رجلٌ ثائرُ الرأسِ أشعثُ اللّحيةِ ، فقالَ : « أما كانَ لهـٰذا دُهْنٌ يُسَكِّنُ بهِ شعرَهُ ؟! » ، ثمَّ قالَ : « يدخلُ عليَّ أحدُكُمْ كأنَّهُ شيْطانٌ ؟! »[4]

❁ ❁ ❁

الثاني : ما يجتمعُ مِنَ الوسخِ في معاطفِ الأُذُنِ ، والمسحُ يزيلُ ما يظهرُ منهُ ، وما يجتمعُ في قعْرِ الصماخِ . . فينبغي أنْ ينظِّفَ برفْقٍ عندَ الخروجِ مِنَ الحمَّامِ ؛ فإنَّ كثرةَ ذٰلكَ ربَّما تضرُّ بالسمعِ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : ما يجتمعُ في داخلِ الأنفِ مِنَ الرطوباتِ المنعقدةِ الملتصقةِ بجوانبِهِ ، ويزيلها الاستنشاقُ والاستنثارُ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : ما يجتمعُ على الأسنانِ وأطرافِ اللسانِ مِنَ القَلَحِ ، ويزيلُهُ السواكُ والمضمضةُ ، وقدْ ذكرناهُما .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : ما يجتمعُ في اللحيةِ مِنَ الوسخِ والقمْلِ إذا لمْ يتعهَّدْ ، ويستحبُّ إزالةُ ذٰلكَ بالغسْلِ والتسريحِ بالمُشْطِ ،

---

(١) **فالأوساخ** : ما تطرأ من خارج ، **والأجزاء** : تكون من البدن نفسه . انظر « الإتحاف » (٣٩٥/٢) .
(٢) **الغبُّ** : أصله : ورود الإبل الماء يوماً وتركه يوماً ، ثم استعمل فيما ذكر ، وإنما جاء النهي عن الترجل إلا غبّاً ؛ لأن إدمانه يشعر بمزيد الإمعان في الزينة والترفه ، وذلك إنما يليق بالنساء ؛ لأنه ينافي شهامة الرجال . انظر « الإتحاف » (٣٩٥/٢) ، والحديث رواه العسكري في « تصحيفات المحدثين » (ص ٣٦٠) ، وروى الترمذي في « الشمائل » (٣٣) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه ، وتسريح لحيته ، ويكثر القناع ، حتى كأن ثوبه ثوب زيَّات) .
(٣) رواه أبو داوود (٤١٦٣) ، ولفظ المصنف في « القوت » (١٤٤/٢) .
(٤) رواه مالك في « الموطأ » (٩٤٩/٢) ، وأبو داوود (٤٠٦٢) .

وفي الخبرِ المشهورِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ لا يفارقُهُ المُشْطُ والمِدْرَىٰ والمرآةُ في سفَرٍ ولا حضرٍ[١] ، وهيَ سنَّةُ العربِ .

وفي خبرٍ غريبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يسرِّحُ لحيتَهُ في اليومِ مرَّتينِ[٢] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثَّ اللحيةِ[٣] ، وكذٰلكَ كانَ أبو بكرٍ ، وكانَ عثمانُ طويلَ اللحيةِ رقيقَها ، وكانَ عليٌّ عريضَ اللحيةِ قدْ ملأَتْ ما بينَ منكِبيهِ .

وفي حديثٍ أغربَ منهُ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : اجتمعَ قومٌ ببابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فخرجَ إليهِم ، فرأيتُهُ يطلعُ في الحُبِّ يسوِّي مِنْ رأسِهِ ولحيتِهِ ، فقلتُ : أوَتفعلُ ذٰلكَ يا رسولَ اللهِ ؟! فقالَ : « نعم ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ عبدِهِ أنْ يتجَمَّلَ لإخوَانِهِ إذا خرجَ إليهِمْ »[٤]

والجاهلُ ربَّما يظنُّ أنَّ ذٰلكَ مِنْ حبِّ التزيُّنِ للناسِ ، قياساً علىٰ أخلاقِ غيرِهِ ، وتشبيهاً للملائكةِ بالحَدّادينَ ، وهيهاتَ !! فقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مأموراً بالدعوةِ ، وكانَ مِنْ وظائفِهِ أنْ يسعىٰ في تعظيمِ أمرِ نفسِهِ في قلوبِهِمْ ؛ كي لا تزدريَهُ نفوسُهُمْ ، وتحسينِ صورتِهِ في أعينِهِمْ ؛ كي لا تستصغرَهُ أعينُهُمْ فينفِّرَهُمْ ذٰلكَ ، ويتعلَّقَ المنافقونَ بذٰلكَ في تنفيرِهِمْ ، وهٰذا القصْدُ واجبٌ علىٰ كلِّ عالمٍ تصدَّىٰ لدعوةِ الخلْقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ أنْ يراعيَ مِنْ ظاهرِهِ ما لا يوجبُ نفرةَ الناسِ عنهُ ، والاعتمادُ في مثلِ هٰذهِ الأمورِ على النيَّةِ ؛ فإنَّها أعمالٌ في أنفسِها تكتسبُ الأوصافَ مِنَ القُصُودِ ؛ فالتزيُّنُ علىٰ هٰذا القصْدِ محبوبٌ ، وترْكُ الشعَثِ في اللحيةِ إظهاراً للزهدِ وقلَّةِ المبالاةِ بالنفسِ محذورٌ ، وتركُهُ شغلاً بما هوَ أهمُّ منهُ محبوبٌ[٥] .

وهٰذهِ أحوالٌ باطنةٌ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والناقدُ بصيرٌ ، والتلبيسُ غيرُ رائجٍ عليهِ بحالٍ .

وكمْ مِنْ جاهلٍ يتعاطىٰ هٰذهِ الأمورَ التفاتاً إلى الخلقِ ، وهوَ يلبِّسُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ غيرِهِ ، ويزعمُ أنَّ قصدَهُ الخيرُ ؛ فترىٰ أنَّ جماعةً مِنَ العلماءِ يلبَسونَ الثيابَ الفاخرةَ ويزعمونَ أنَّ قصدَهُمْ إرغامُ المبتدعةِ والمخالفينَ ، والتقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بهِ !!

وهٰذا أمرٌ ينكشفُ يومَ تُبْلَى السرائرُ ، ويومَ يُبعثرُ ما في القبورِ ، ويُحَصَّلُ ما في الصدورِ ، فعندَ ذٰلكَ تتميَّزُ السبيكةُ الخالصةُ مِنَ البهرجِ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الخزيِ يومَ العرْضِ الأكبرِ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : وسخُ البراجمِ ، وهيَ معاطفُ ظهورِ الأناملِ ، كانتِ العربُ لا تكثرُ غسْلَ ذٰلكَ ؛ لتركِها غسْلَ اليدِ عقيبَ الطعامِ ، فيجتمعُ في تلكَ الغضونِ وسخٌ ، فأمرَهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بغسْلِ البراجمِ[٦]

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٢٣٨) ، وابن طاهر في « صفوة التصوف » (ص ٣٩٢) ، **والمِدْرَى** : القرن الذي يحك به الرأس .

(٢) تقدم عند الترمذي في « الشمائل » (٣٩) أنه كان يكثر تسريح لحيته .

(٣) رواه النسائي (١٨٣/٨) .

(٤) قال العراقي : (أخرجه ابن عدي في « الكامل ») ، **والحُب** : وعاء كالخابية فيها ماء . ومعنىٰ (**أن يتجمّل لإخوانه**) : أن يريهم أثر جمال الله تعالى . انظر « الإتحاف » (٣٩٦/٢) ، وسياق المصنف عند صاحب « القوت » (١٤٤/٢) .

(٥) انظر « الإتحاف » (٣٩٧/٢) .

(٦) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٤٥) ويفيد معناه ما سيأتي من حديث جبريل .

السابعُ : تنظيفُ الرواجبِ ، أَمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ العربَ بتنظيفِها [١] ، وهيَ رؤوسُ الأناملِ ، وما تحتَ الأظفارِ مِنَ الوسخِ ؛ لأنَّها كانتْ لا يحضرُها المِقْراضُ في كلِّ وقتٍ ، فتجتمعُ فيها أوساخٌ ، فوقَّتَ لهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَلْمَ الأظفارِ ، ونتْفَ الإبطِ ، وحَلْقَ العانةِ أربعينَ يوماً [٢] .

لكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَ بتنظيفِ ما تحتَ الأظفارِ [٣] ، وجاءَ في الأثرِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استبطأَ الوحيَ ، فلمَّا هبطَ عليهِ جبريلُ عليهِ السلامُ . . قالَ لهُ : كيفَ ننزلُ عليكمْ وأنتمْ لا تغسلونَ براجمَكُمْ ، ولا تنظِّفونَ رواجبَكُمْ ، وقُلْحاً لا تستاكونَ ؟! مرْ أمَّتَكَ بذٰلكَ [٤]

والأُفُّ : وسخُ الظفرِ ، والتُّفُّ : وسخُ الأذنِ [٥] ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي : لا تعبْهُما بما تحتَ الظفرِ مِنَ الوسخِ ، وقيلَ : لا تتأذَّ بهما كما تتأذَّىٰ بما تحتَ الظفرِ [٦]

❁ ❁ ❁

الثامنُ : الدرَنُ الذي يجتمعُ علىٰ جميعِ البدنِ برشْحِ العرَقِ وغبارِ الطريقِ ، وذٰلكَ يزيلُهُ الحمَّامُ ، ولا بأسَ بدخولِ الحمَّامِ [٧] ؛ دخلَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حمَّاماتِ الشامِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (نعمَ البيتُ بيتُ الحمَّامِ ؛ يطهِّرُ البدنَ ويذكِّرُ النارَ) ، رُوِي ذٰلكَ عَنْ أبي الدرداءِ وأبي أيوبَ الأنصاريِّ رضيَ اللهُ عنهما [٨]

وقالَ بعضُهُمْ : (بئسَ البيتُ بيتُ الحمَّامِ ؛ يبدي العورةَ ، ويُذهِبُ الحياءَ) [٩]

فهٰذا تعرَّضَ لآفتِهِ ، وذٰلكَ تعرَّضَ لفائدتِهِ ، ولا بأسَ بطلبِ فائدتِهِ عندَ الاحترازِ منْ آفتِهِ .

❁ ❁ ❁

ولٰكنْ علىٰ داخلِ الحمَّامِ وظائفُ من السننِ والواجباتِ ، فعليهِ واجبانِ في عورتِهِ ، وواجبانِ في عورةِ غيرِهِ .

❁ ❁ ❁

أمَّا الواجبانِ في عورته : فهوَ أنْ يصونَها عَنْ نظرِ الغيرِ ، ويصونَها عَنْ مسِّ الغيرِ ، فلا يتعاطىٰ أمرَها وإزالةَ وسخِها

---

(١) سيأتي من حديث جبريل الآتي .

(٢) رواه مسلم (٢٥٨) ، قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرح صحيح مسلم » (١٤٩/٣) : (معناه ـ أي : التوقيت ـ : لا يترك تركاً يتجاوز به أربعين ، لا أنهم وُقِّتَ لهم الترك أربعين ، والله أعلم)

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٤٧/٢٢) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٨١٦) .

(٥) وقيل بالعكس ، وهو ما ذكره الحافظ الزبيدي في « تاج العروس » .

(٦) في « مفردات الراغب » (ص ٧٩) : (أصل الأف : كل مستقذر من وسخ وقلامة ظفر وما يجري مجراها ، ويقال ذٰلك لكل مُستَخفٍّ به استقذاراً له ؛ نحو : ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾) ، وانظر « الجامع لأحكام القرآن » (٢٤٢/١٠) .

(٧) أي : الذي في الأسواق ، وسيأتي تفصيل القول فيه ، وقد أفاد المؤلف كثيراً من « قوت القلوب » (٢٦٠/٢) ؛ إذ عقد الإمام أبو طالب المكي فيه فصلاً سمّاه : (كتاب ذكر دخول الحمام) .

(٨) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٧٣ ، ١١٧٦ ، ١١٧٩) عن أبي الدرداء وأبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٠٩/٧) عن أبي الدرداء وابن عمر رضي الله عنهم .

(٩) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٧٢) عن سيدنا علي مجتزأً ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٠٩/٧) عن أبي الدرداء أيضاً ، والأمر كما قال الإمام أبو طالب رحمه الله تعالىٰ في « القوت » (٢٦٠/٢) : (وقد اختلف مواجيد الصحابة في دخوله ، وكلٌّ فيه قدوة وهديٌ)

إلا بيدِهِ ، ويمنعُ الدلَّاكَ مِنْ مسِّ الفخذِ وما بينَ السرَّةِ إلى العانةِ ، وفي إباحةِ مسِّ ما ليسَ بسوءةٍ لإزالةِ الوسخِ احتمالٌ ، ولـٰكنَّ الأقيسَ التحريمُ ؛ إذْ أُلحِقَ مسُّ السوءتينِ في التحريمِ بالنظرِ ؛ فكذٰلكَ ينبغي أنْ تكونَ بقيَّةُ العورةِ ؛ أعني الفخذَيْنِ .

والواجبانِ في عورةِ الغيرِ : أنْ يغضَّ بصرَ نفسِهِ عنْها ، وأنْ يَنهىٰ عنْ كشفِها ؛ لأنَّ النهيَ عَنِ المنكرِ واجبٌ ، وعليهِ ذكرُ ذٰلكَ ، وليسَ عليهِ القبولُ ، ولا يسقطُ عنهُ وجوبُ الذكرِ إلا لخوفِ ضربٍ أو شتمٍ أو ما يجري عليه ممَّا هو حرامٌ في نفسِهِ ، فليسَ عليهِ أنْ ينكرَ حراماً يُرهِقُ[1] المنكَرَ عليهِ إلىٰ مباشرةِ حرامٍ آخرَ ، فأمَّا قولُهُ : (أعلمُ أنَّ ذٰلكَ لا يفيدُ ولا يعملُ بهِ) . . فهـٰذا لا يكونُ عذراً ، بلْ لا بدَّ مِنَ الذكرِ ؛ فلا يخلو قلبٌ عنِ التأثُّرِ بسماعِ الإنكارِ ، واستشعارِ الاحترازِ عندَ التعييرِ بالمعاصي ، وذٰلكَ يؤثِّرُ في تقبيحِ الأمرِ في عينِهِ وتنفيرِ نفسهِ عنهُ ، فلا يجوزُ تركُهُ .

ولمثلِ هـٰذا صارَ الحزمُ تركَ دخولِ الحمَّامِ في هـٰذهِ الأوقاتِ ؛ إذ لا تخلو عن عوراتٍ مكشوفةٍ ، لا سيما ما تحتَ السرَّةِ إلىٰ ما فوقَ العانةِ ، إذِ الناسُ لا يعدُّونَها عورةً ، وقدْ ألحقَها الشرعُ بالعورةِ وجعلَها كالحريمِ لها ، ولهـٰذا يستحبُّ تخليةُ الحمَّامِ .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (ما أعنِّفُ رجلاً لا يملكُ إلا درهماً دفعَهُ ليخلِّيَ لهُ الحمَّامُ)[2]

ورُئِيَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما في الحمَّامِ ووجهُهُ إلى الحائطِ ، وقدْ عصبَ عينيهِ بعصابةٍ[3]

وقالَ بعضُهُمْ : (لا بأسَ بدخولِ الحمَّامِ ولـٰكنْ بإزارينِ : إزارٍ للعورةِ ، وإزارٍ للرأسِ يتقنَّعُ بهِ ويحفظُ عينيهِ)[4]

❀ ❀ ❀

وأمَّا السننُ . . فعشرةٌ :

ـ فالأول : النيَّةُ ، وهوَ ألَّا يدخلَ الحمامَ لعاجلِ دنيا ، ولا عابثاً لأجلِ هوىً ، بلْ يقصدُ بهِ التنظُّفَ المحبوبَ تزيُّناً للصلاةِ .

ـ ثمَّ يعطي الحماميَّ الأجرةَ قبلَ الدخولِ ؛ فإنَّ ما يستوفيهِ مجهولٌ ، وكذا ما ينتظرُهُ الحماميُّ ، فتسليمُ الأجرةِ قبلَ الدخولِ دفعٌ للجهالةِ مِنْ أحدِ العوضينِ ، وتطييبٌ لنفسِهِ .

ـ ثمَّ يقدمُ رجلَهُ اليسرىٰ عندَ الدخولِ .

ـ ويقولُ : بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، أعوذُ باللهِ مِنَ الرجسِ النجسِ ، الخبيثِ المُخْبِثِ ، الشيطانِ الرجيمِ .

ـ ثمَّ يدخلُ وقتَ الخلوةِ ، أوْ يتكلَّفُ تخليةَ الحمّامِ ؛ فإنَّهُ وإنْ لمْ يكنْ في الحمامِ إلا أهلُ الدينِ والمحتاطونَ للعوراتِ . . فالنظرُ إلى الأبدانِ مكشوفةً فيهِ شائبةٌ مِنْ قلَّةِ الحياءِ ، وهوَ مذكِّرٌ للتأمُّلِ في العوراتِ ، ثمَّ لا يخلو الناسُ في الحركاتِ عَنِ انكشافِ العوراتِ بانعطافٍ في أطرافِ الأُزُرِ ، فيقعُ البصرُ على العورةِ مِنْ حيثُ لا يدري ، ولأجلِهِ عصبَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما عينيهِ .

---

(١) يرهق : يَحْمِلُ ويُلجئُ .
(٢) قوت القلوب (٢/٢٦٠) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (٢/٢٦٠) .
(٤) قوت القلوب (٢/٢٦١) بنحوه .

ـ ويغسلُ جناحيهِ عندَ الدخولِ .

ـ ولا يعجِّلُ بدخولِ البيتِ الحارِّ حتَّىٰ يعرقَ في الأوَّلِ .

ـ وألَّا يكثرَ صبَّ الماءِ ، بلْ يقتصرُ علىٰ قدْرِ الحاجةِ ؛ فإنَّهُ المأذونُ فيهِ بقرينةِ الحالِ ، والزيادةُ عليهِ لوْ علمَهُ الحماميُّ . . لكرهَهُ ، لا سيَّما الماءُ الحارُّ ؛ فلهُ مؤنةٌ وفيهِ تعبٌ .

ـ وأنْ يتذكَّرَ حرَّ النارِ بحرارةِ الحمَّامِ ، ويقدِّرَ نفسَهُ محبوساً في البيتِ الحارِّ ساعةً ، ويقيسَهُ إلىٰ جهنَّمَ ؛ فإنَّهُ أشبهُ بيتٍ بجهنَّمَ ، النارُ مِنْ تحتُ والظلامُ مِنْ فوقُ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذٰلكَ ، بلِ العاقلُ لا يغفُلُ عنْ ذكْرِ الآخرةِ في لحظةٍ ؛ فإنَّها مصيرُهُ ومستقرُّهُ ، فيكونُ لهُ في كلِّ ما يراهُ مِنْ ماءٍ أوْ نارٍ أوْ غيرِهِما عبرةٌ وموعظةٌ ، فإنَّ المرءَ ينظرُ بحسَبِ همَّتِهِ .

فإذا دخلَ بزازٌ ونجارٌ وبنَّاءٌ وحائكٌ داراً معمورةً مفروشةً ؛ فإذا تفقَّدتَهُمْ . . رأيتَ البزازَ ينظرُ إلى الفرشِ ويتأمَّلُ قيمتَها ، والحائكَ ينظرُ إلى الثيابِ يتأمَّلُ نسجَها ، والنجارَ ينظرُ إلى السقفِ يتأمَّلُ كيفيةَ تركيبِها ، والبنَّاءَ ينظرُ إلى الحيطانِ يتأمَّلُ كيفيةَ إحكامِها واستقامتِها ؛ فكذٰلكَ سالكُ طريقِ الآخرةِ ، لا يرىٰ مِنَ الأشياءِ شيئاً إلَّا ويكونُ لهُ موعظةٌ وذكرىٰ للآخرةِ ، بلْ لا ينظرُ إلىٰ شيءٍ إلَّا ويفتحُ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ طريقَ عبرةٍ ؛ فإنْ نظرَ إلىٰ سوادٍ . . تذكَّرَ ظلمةَ اللحدِ ، وإنْ نظرَ إلىٰ حيَّةٍ . . تذكَّرَ أفاعيَ جهنَّمَ ، وإنْ نظرَ إلىٰ صورةٍ قبيحةٍ شنيعةٍ . . تذكَّرَ مُنْكراً ونكِيراً والزبانيةَ ، وإنْ سمعَ صوتاً هائلاً . . تذكَّرَ نفخةَ الصورِ ، وإنْ رأىٰ شيئاً حسناً . . تذكَّرَ نعيمَ الجنَّةِ ، وإنْ سمعَ كلمةَ ردٍّ أوْ قَبولٍ في سوقٍ أوْ دارٍ . . تذكَّرَ ما ينكشفُ مِنْ آخرِ أمرِهِ بعدَ الحسابِ مِنَ الردِّ أوِ القبولِ .

وما أجدرَ أنْ يكونَ هٰذا هوَ الغالبَ علىٰ قلبِ العاقلِ ؛ إذْ لا يصرفُهُ عنهُ إلا مهمَّاتُ الدنيا ، فإذا نَسَبَ مدةَ المُقامِ في الدنيا إلىٰ مدَّةِ المُقامِ في الآخرةِ . . استحقرَها إنْ لمْ يكنْ ممَّن أُغفلَ قلبُهُ وأعميتْ بصيرتُهُ .

ـ ومنَ السننِ : ألَّا يسلِّمَ عندَ الدخولِ ، وإنْ سُلِّمَ عليهِ . . لمْ يُجبْ بلفظِ السلامِ ، بلْ يسكتُ إنْ أجابَ غيرُهُ ، وإنْ أحبَّ . . قالَ : عافاكَ اللهُ [1]

ولا بأسَ بأنْ يصافحَ الداخلَ ويقولَ : عافاكَ اللهُ لابتداءِ الكلامِ ، ثمَّ لا يكثرُ الكلامَ في الحمَّامِ ، ولا يقرأُ القرآنَ إلا سرّاً ، ولا بأسَ بإظهارِ الاستعاذةِ مِنَ الشيطانِ .

ويكرَهُ دخولُ الحمَّامِ بينَ العشاءينِ وقريباً مِنَ الغروبِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ وقتُ انتشارِ الشياطينِ .

ولا بأسَ بأنْ يدلكَهُ غيرُهُ ؛ فقدْ نُقِلَ عَنْ يوسفَ بنِ أسباطٍ أنَّه أوصىٰ بأنْ يغسِّلَهُ إنسانٌ لمْ يكنْ مِنْ أصحابِهِ ، وقالَ : إنَّهُ دلَّكَني في الحمَّامِ مرَّةً ، فأردتُ أنْ أكافئَهُ بما يفرحُ بهِ ، وإنَّهُ ليفرحُ بذٰلكَ [2]

ويدلُّ علىٰ جوازِهِ ما رَوَىٰ بعضُ الصحابةِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نزلَ منزلاً في بعضِ أسفارِهِ ، فنامَ علىٰ بطنِهِ وعبدٌ أسودُ يغمزُ ظهرَهُ ، فقلتُ : ما هٰذا يا رسُولَ اللهِ ؟ فقالَ : « إنَّ الناقةَ تَقَحَّمَتْ بي » [3]

---

(١) أي : محا عنك الذنوب والأسقام ، وقد صارت هٰذه الكلمة معروفة في خطاب من يخرج من الخلاء ، أو يقول : عوفيت وشفيت ، أو نعيماً لكم ، أو ما أشبه ذٰلك . « إتحاف » (٢/٤٠٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٦١) .

(٣) رواه الطبراني في « الصغير » (١/٨٣) ، تقحَّمت : رمتْ بي من علىٰ ظهرها .

ثمَّ مهما فرغَ مِنَ الحمَّامِ . . شكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ هـٰذهِ النعمةِ ؛ فقدْ قيلَ : (الماءُ الحارُّ في الشتاءِ مِنَ النعيمِ الذي يُسألُ عنهُ)[١] ، وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : (الحمَّامُ مِنَ النعيمِ الذي أحدثوهُ)[٢]

هـٰذا من جهةِ الشرعِ .

أمَّا مِنْ جهةِ الطبِّ . . فقدْ قيلَ : الحمَّامُ بعدَ النُّورةِ أمانٌ منَ الجذامِ[٣]

وقيلَ : (النُّورةُ في كلِّ شهرٍ مرةً تطفئُ الحرارةَ وتنقِّي اللونَ ، وتزيدُ في الجماعِ) ، وقيلَ : (بولةٌ في الحمامِ قائماً في الشتاءِ أنفعُ مِنْ شربةِ دواءٍ) ، وقيلَ : (نومةٌ في الصيفِ بعدَ الحمامِ تعدلُ شربةَ دواءٍ ، وغسلُ القدمينِ بماءٍ باردٍ بعدَ الخروجِ مِنَ الحمَّامِ أمانٌ مِنَ النقرسِ)[٤]

ويكرَهُ صبُّ الماءِ الباردِ على الرأسِ عندَ الخروجِ ، وكذا شربُهُ . **هـٰذا حكمُ الرجالِ** .

وأمَّا النساءُ : فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ للرجلِ أنْ يُدخِلَ حليلتَهُ الحمَّامَ وفي البيتِ مُستحَمٌّ »[٥]

والمشهورُ أنَّهُ حرامٌ على الرجالِ دخولُ الحمامِ إلا بمئزرٍ ، وحرامٌ على المرأةِ دخولُ الحمامِ إلَّا نفساءَ أوْ مريضةً[٦] .

ودخلتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها حمَّاماً مِنْ سقمٍ بها[٧] ، فإنْ دخلتْ لضرورةٍ . . فلا تدخلُ إلا بمئزرٍ سابغٍ .

ويكرَهُ للرجلِ أنْ يعطيَها أجرةَ الحمَّامِ ، فيكونَ معيناً لها على المكروهِ[٨]

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٦١) ، ولطائف الإشارات (٣/٧٦٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٦١) .

(٣) قوت القلوب (٢/٢٦١) وفيه : (الحنَّاء) بدل (الحمَّام) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٩/٣٩٣) .

(٤) ذكر ذٰلك كله أبو طالب في « قوت القلوب » (٢/٢٦١) .

(٥) رواه الترمذي (٢٨٠١) .

(٦) رواه أبو داوود (٤٠١١) بلفظ : « إنها ستفتح لكم أرض العجم ، وستجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات ، فلا يدخلنها الرجال إلا بالأُزُر ، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء » .

(٧) كذا في « قوت القلوب » (٢/٢٦١) ، وللبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٣٨٢) عن عائشة رضي الله عنها : (ما يسرُّ عائشة أن لها مثل أحد ذهباً وأنها دخلت الحمام) .

(٨) قوت القلوب (٢/٢٦١) .

النوع الثاني : مما يُحذف من البدن : الأجزاء
وهي ثمانية

الأوّلُ : شعرُ الرأسِ : ولا بأسَ بحلقِهِ لمَنْ أرادَ التنظيفَ ، ولا بأسَ بتركِهِ لمَنْ يدَّهِنُ ويُرجِّلُ ، إلَّا إذا تركَهُ قَزَعاً ؛ أي : قطعاً ، فهوَ دأبُ أهلِ الشطارةِ ، أوْ أرسلَ الذوائبَ علىٰ هيئةِ أهلِ الشرفِ حيثُ صارَ ذٰلكَ شعاراً لهُمْ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يكنْ شريفاً . . كانَ ذٰلكَ تلبيساً .

❁ ❁ ❁

الثاني : شعرُ الشاربِ : وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قُصُّوا الشواربَ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « جُزُّوا الشواربَ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « حُفُّوا الشواربَ واعْفُوا اللِّحَىٰ »[1] أي : اجعلوها حفافَ الشفَةِ ؛ أي : حولَها ، وحفافُ الشيءِ : حولَهُ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ ، وفي لفظٍ آخرَ : « احْفُوا » ، وهٰذا يشعرُ بالاستئصالِ ، وقولُهُ : « حُفُّوا » يدلُّ علىٰ ما دونَ ذٰلكَ ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾ أي : يستقصي عليكُمْ .

وأمَّا الحلقُ . . فلم يَرِدْ[2] ، والإحفاءُ القريبُ مِنَ الحلْقِ نُقِلَ عنِ الصحابةِ ؛ نظرَ بعضُ التابعينَ إلىٰ رجلٍ قدْ أحفىٰ شاربَهُ فقالَ : ذكرتني أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وقالَ المغيرةُ بنُ شعبةَ : نظرَ إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ طالَ شاربي فقالَ : « تعالَ ؛ فقَصَّهُ لي علىٰ سِواكٍ »[3] .

ولا بأسَ بتركِ سبالَيهِ ، وهما طرفا الشاربِ ، فعلَ ذٰلكَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وغيرُهُ ؛ لأنَّ ذٰلكَ لا يسترُ الفمَ ، ولا يبقىٰ فيهِ غمَرُ الطعامِ ؛ إذْ لا يصلُ إليهِ .

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعفُوا اللِّحَىٰ » أي : كثِّرُوها .

وفي الخبرِ : « إنَّ اليهودَ يعْفُونَ شواربَهُمْ ويقصُّونَ لحاهُمْ ، فخالِفوهُمْ »[4]

وكرهَ بعضُ العلماءِ الحلْقَ ورآهُ بدعةً[5]

❁ ❁ ❁

الثالثُ : شعرُ الإبْطِ : ويستحبُّ نتفُهُ في كلِّ أربعينَ يوماً مرَّةً ، وذٰلكَ سهلٌ علىٰ مَنْ تعوَّدَ في الابتداءِ نتفَهُ ، فأمَّا

---

(١) رواه البخاري (٥٨٩٢) ، ومسلم (٢٥٩ ، ٢٦٠) .

(٢) ولعل ما ورد في « السنن الكبرىٰ » للنسائي (٩) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « خمس من الفطرة » وذكر : « وحلق الشارب » يحمل على الإحفاء القريب من الحلق ؛ لئلا تتضادَّ الروايات . « إتحاف » (٤٠٨/٢) بتصرف .

(٣) رواه أبو داوود (١٨٨) .

(٤) روىٰ أحمد في « المسند » (٢٦٤/٥) في أثناء حديث لأبي أمامة رضي الله عنه : فقلنا : يا رسول الله ؛ إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ، ويوفرون سبالهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم ، وخالفوا أهل الكتاب » .

(٥) وهو الإمام مالك ، فقد عدَّ حلقه بدعة ومثلة . انظر « مواهب الجليل » (٣١٣/١) .

مَنْ تعوَّدَ الحلْقَ . . فيكفيهِ الحلْقُ ؛ إذْ في النتْفِ تعذيبٌ وإيلامٌ ، والمقصودُ النظافةُ ، وألَّا يجتمعَ الوسخُ في خللِها ، ويحصلُ ذٰلكَ بالحلْقِ .

❀ ❀ ❀

الرابعُ : شعرُ العانةِ : ويستحبُّ إزالةُ ذٰلكَ إمَّا بالحلْقِ أوْ بالنورةِ ، ولا ينبغي أنْ يتأخرَ عنْ أربعينَ يوماً .

❀ ❀ ❀

الخامسُ : الأظفارُ : وتقليمُها مستحبٌّ لشناعةِ صورتِها إذا طالتْ ، ولِما يجتمعُ فيها مِنَ الوسخِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ قَلِّمْ أظفارَكَ ؛ فإنَّ الشيطانَ يقعُدُ على ما طالَ منها »[1]

ولوْ كانَ تحتَ الظُّفرِ وسخٌ . . فلا يمنعُ ذٰلكَ صحَّةَ الوضوءِ ؛ لأنَّهُ لا يمنعُ وصولَ الماءِ ، ولأنَّهُ يُتساهلُ فيهِ للحاجةِ ، لا سيما في أظفارِ الرجْلِ ، وفي الأوساخِ التي تجتمعُ على البراجمِ وظهورِ الأرجُلِ والأيدي مِنَ العربِ وأهلِ السوادِ[2] ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُهُمْ بالقلْمِ ، وينكرُ ما يرىٰ تحتَ أظفارِهِمْ مِنَ الأوساخِ ، ولمْ يأمرْهُمْ بإعادةِ الصلواتِ ، ولوْ أمرَ بهِ . . لكانَ فيهِ فائدةٌ أخرىٰ ، وهيَ التغليظُ والزجرُ عَنْ ذٰلكَ .

ولمْ أرَ في الكتبِ خبراً مروياً في ترتيبِ قلْمِ الأظفارِ ، ولٰكنْ سمعتُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بدأَ بمسبِّحتِهِ اليمنىٰ ، وختمَ بإبهامِ اليمنىٰ ، وابتدأَ في اليسرىٰ بالخنصَرِ إلى الإبهامِ .

ولمَّا تأملتُ في هٰذا . . خطرَ لي مِنَ المعنىٰ ما يدلُّ علىٰ أنَّ الروايةَ فيه صحيحةٌ ؛ إذْ مثلُ هٰذا المعنىٰ لا ينكشفُ ابتداءً إلا بنورِ النبوَّةِ ، وأمَّا العالِمُ ذو البصيرةِ . . فغايتُهُ أنْ يستنبطَهُ مِنَ العقلِ بعدَ نقلِ الفعلِ إليهِ .

والذي لاحَ لي فيهِ والعلمُ عندَ اللهِ سبحانَهُ : أنَّهُ لا بدَّ مِنْ قلْمِ أظفارِ اليدِ والرجلِ ، واليدُ أشرفُ مِنَ الرجْلِ ، فيبدأُ بها ، ثمَّ اليمنىٰ أشرفُ مِنَ اليسرىٰ فيبدأُ بها ، ثمَّ على اليمنىٰ خمسةُ أصابعَ ، والمسبِّحَةُ أشرفُها ؛ إذْ هيَ المشيرةُ في كلمتي الشهادةِ مِنْ جملةِ الأصابعِ ، ثمَّ بعدَها ينبغي أنْ يبتدئَ بما علىٰ يمينِها ؛ إذِ الشرعُ يستحبُّ إدارةَ الطهورِ وغيرِهِ على اليمينِ ، وإنْ وضعتَ ظهرَ الكفِّ على الأرضِ . . فالإبهامُ هوَ اليمينُ ، وإنْ وضعتَ بطنَ الكفِّ[3] . . فالوسطىٰ هيَ اليمنىٰ[4] ، واليدُ إذا تركتْ بطبعِها . . كانَ الكفُّ مائلاً إلىٰ جهةِ الأرضِ ؛ إذْ جهةُ حركةِ اليمنىٰ إلى اليسارِ ، واستتمامُ الحركةِ إلى اليسارِ يجعلُ ظهرَ الكفِّ عالياً ، فما يقتضيهِ الطبعُ أولىٰ .

ثمَّ إذا وُضعتِ الكفُّ على الكفِّ . . صارتِ الأصابعُ في حكْمِ حلقةٍ دائرةٍ ، فيقتضي ترتيبُ الدورِ الذهابَ عنْ يمينِ المسبِّحَةِ إلىٰ أنْ يعودَ إلى المسبِّحَةِ ، فتقعُ البدايةُ بخنصرِ اليسرىٰ ، والختمُ بإبهامِها ، ويبقىٰ إبهامُ اليمنىٰ فيختمُ بهِ التقليمَ .

وإنَّما قدرتُ الكفَّ موضوعاً على الكفِّ حتَّىٰ تصيرَ الأصابعُ كأشخاصٍ في حلقةٍ ليظهرَ ترتيبُها ، وتقديرُ ذٰلكَ أولىٰ

---

(١) كذا هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٥٧٩) عن علي رضي الله عنه ، وروى الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٥٨٩/١) : « خللوا لحاكم ، وقصوا أظافيركم ؛ فإن الشيطان يجري ما بين اللحم والظفر » .

(٢) أراد بالعرب سكانَ البادية ، وبالسواد سكانَ القرىٰ والريف ، وغالباً ما يستعملها المصنف بهٰذا المعنىٰ .

(٣) أي : علىٰ بطنها .

(٤) أي : باعتبار المسبِّحة .

من تقديرِ وضعِ الكفِّ علىٰ ظهرِ الكفِّ ، أَوْ وضعِ ظهرِ الكفِّ علىٰ ظهرِ الكفِّ ، فإنَّ ذٰلك لا يقتضيهِ الطبعُ[1] .

وأمَّا أصابعُ الرجْلِ . . فالأولىٰ عندي إِذْ لم يثبتْ فيها نقلٌ : أَنْ يبدأَ بخنصرِ اليمنىٰ ، ويختمَ بخنصرِ اليسرىٰ كما في التخليلِ ؛ فإنَّ المعانيَ التي ذكرناها في اليدِ لا تتجهُ ها هنا ؛ إِذْ لا مسبِّحةَ في الرجلِ ، وهٰذهِ الأصابعُ في حكمِ صفٍّ واحدٍ ثابتٍ على الأرضِ ، فيبدأُ مِنْ جانبِ اليمينِ ، فإنَّ تقديرَها حلقةً بوضعِ الأخمصِ على الأخمصِ يأباهُ الطبعُ بخلافِ اليدينِ .

وهٰذهِ الدقائقُ في الترتيبِ تنكشفُ بنورِ النبوَّةِ في لحظةٍ ، وإنما يطولُ التعبُ علينا ، ثمَّ لوْ سئلْنا ابتداءً عنِ الترتيبِ في ذٰلكَ . . ربَّما لمْ يخطرْ لنا ، وإذا ذكَرْنا فعلَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وترتيبَهُ . . ربَّما تيسَّرَ لنا ـ بما عاينَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بشهادةِ الحكْمِ وتنبيهِهِ على المعنى ـ استنباطُ المعنىٰ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ أفعالَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جميعِ حركاتِهِ كانتْ خارجةً عن وزنٍ وقانونٍ وترتيبٍ ، بلْ جميعُ الأمورِ الاختياريةِ التي يتردَّدُ فيها الفاعلُ بينَ قسمينِ أوْ أقسامٍ . . كانَ لا يقدمُ علىٰ واحدٍ معيَّنٍ بالاتفاقِ ، بلْ بمعنىً يقتضي الإقدامَ والتقديمَ ؛ فإنَّ الاسترسالَ مهملاً كيفما اتفقَ سجيةُ البهائمِ ، وضبطُ الحركاتِ بموازينِ المعاني سجيةُ أولياءِ اللهِ تعالىٰ .

وكلَّما كانتْ حركاتُ الإنسانِ وخطراتُهُ إلى الضبطِ أقربَ ، وعنِ الإهمالِ وتركِهِ سدىً أبعدَ . . كانتْ مرتبتُهُ إلىٰ رتبةِ الأولياءِ والأنبياءِ أكثرَ ، وكانَ قربُهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أظهرَ ؛ إِذِ القريبُ مِنَ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وهوَ القريبُ من اللهِ . . لا بدَّ أن يكونَ قريباً ؛ فالقريبُ مِنَ القريبِ قريبٌ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ .

فنعوذُ باللهِ أنْ يكونَ زمامُ حركاتِنا وسكناتِنا في يدِ الشيطانِ بواسطةِ الهوىٰ .

واعتبرْ في ضبطِ الحركاتِ باكتحالِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّهُ كانَ يكتحلُ في عينِهِ اليمنىٰ ثلاثاً ، وفي اليسرى اثنينِ[2] ، فبدايتُهُ باليمنىٰ لشرفِها ، وتفاوتُهُ بينَ العينينِ لتكونَ الجملةُ وتراً ؛ فإنَّ للوترِ فضلاً على الزوجِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ وَترٌ يحبُّ الوَترَ[3] ، فلا ينبغي أنْ يخلوَ فعلُ العبدِ مِنْ مناسبةٍ لوصفٍ مِنْ أوصافِ الربِّ تعالىٰ ، ولذٰلكَ استُحبَّ الإيتارُ في الاستجمارِ .

وإنَّما لمْ يقتصرْ على الثلاثِ وهوَ وترٌ ؛ لأنَّ اليسرىٰ لا يخصُّها إلا واحدةٌ ، والغالبُ أنَّ الواحدةَ لا تستوعبُ أصولَ الأجفانِ بالكُحْلِ ، وإنَّما خصَّصَ اليمينَ بالثلاثِ ؛ لأنَّ التفضيلَ لا بدَّ منهُ للإيتارِ ، واليمينُ أفضلُ ، فهيَ بالزيادةِ أحقُّ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : لِمَ اقتصرَ على اثنينِ لليسرىٰ وهيَ زوجٌ ؟

فالجوابُ : أنَّ ذٰلكَ ضرورةٌ ؛ إِذْ لو جعلَ لكلِّ واحدةٍ وتراً . . كانَ المجموعُ زوجاً ؛ إِذِ الوترُ معَ الوترِ زوجٌ ، ورعايتُهُ

---

(١) فالصورة التي انتهىٰ إليها المصنف رحمه الله تعالى : الابتداء بالقصّ بمسبحة اليمنىٰ ثم وُسْطاها ثم بنصرها ثم خنصرها ، ثم خنصر اليسرىٰ ثم بنصرها ثم وسطاها ثم سبابتها ثم إبهامها ، ثم يختم بإبهام اليمنىٰ .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٤١٦/١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٩٥٣) .

(٣) رواه البخاري (٦٤١٠) ، ومسلم (٢٦٧٧) .

الإيتارَ في مجموعِ الفعلِ وهوَ في حكْمِ الخصلةِ الواحدةِ أحبُّ مِنْ رعايتِهِ في الآحادِ[1] ، ولذٰلكَ أيضاً وجهٌ ، وهوَ أنْ يكتحلَ في كلِّ واحدةٍ ثلاثاً علىٰ قياسِ الوضوءِ ، وقدْ نُقلَ ذٰلكَ في الصحيحِ ، وهوَ الأولىٰ[2]

ولوْ ذهبتُ أستقصي دقائقَ ما راعاهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حركاتِهِ . . لطالَ الأمرُ ، فقسْ بما سمعتَهُ ما لمْ تسمعْهُ .

❁ ❁ ❁

واعلمْ : أنَّ العالِمَ لا يكونُ وارثاً للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا إذا اطلعَ علىٰ جميعِ معاني الشريعةِ ، حتّىٰ لا يكونَ بينَهُ وبينَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا درجةٌ واحدةٌ ، وهيَ درجةُ النبوَّةِ ، وهيَ الدرجةُ الفارقةُ بينَ الوارثِ والموروثِ ؛ إذِ الموروثُ : هوَ الذي حصَّلَ المالَ لهُ واشتغلَ بتحصيلهِ واقتدرَ عليهِ ، والوارثُ : هوَ الذي لمْ يحصِّلْ ولمْ يقدرْ عليهِ ، ولٰكنِ انتقلَ إليهِ وتلقَّاهُ منهُ بعدَ حصولِهِ لهُ .

فأمثالُ هٰذهِ المعاني معَ سهولةِ أمرِها بالإضافةِ إلى الأغوارِ والأسرارِ لا يستقلُّ بدرْكِها ابتداءً إلا الأنبياءُ ، ولا يستقلُّ باستنباطِها تلقِّياً بعدَ تنبيهِ الأنبياءِ عليها إلا العلماءُ الذين همْ ورثةُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ .

❁ ❁ ❁

السادسُ والسابعُ : زيادةُ السرَّةِ وقُلْفَةُ الحشفةِ : أمَّا السرَّةُ . . فتقطعُ في أوَّلِ الولادةِ ، وأمَّا التطهيرُ بالختانِ . . فعادةُ اليهودِ في اليومِ السابعِ مِنَ الولادةِ ، ومخالفتُهُمْ بالتأخيرِ إلىٰ أنْ يثغرَ الولدُ أحبُّ وأبعدُ عن الخطرِ[3] ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الختانُ سنَّةٌ للرجالِ مكرمَةٌ للنساءِ »[4]

وينبغي ألَّا يبالغَ في خفْضِ المرأةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأمِّ عطيةَ وكانتْ تخفضُ : « يا أمَّ عطيةَ ؛ أشمِّي ولا تنْهَكِي ؛ فإنَّهُ أسرَىٰ للوجْهِ وأحظَىٰ عندَ الزوجِ »[5] أي : أكثرُ لماءِ الوجهِ ودمِهِ ، وأحسنُ في جماعِها .

فانظرْ إلىٰ جزالةِ لفظِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الكنايةِ ، وإلىٰ إشراقِ نورِ النبوَّةِ من مصالحِ الآخرةِ التي هي أهمُّ مقاصدِ النبوَّةِ إلىٰ مصالحِ الدنيا ، حتى انكشفَ لهُ وهو أميٌّ مِنْ هٰذا الأمرِ النازلِ قدرُهُ ما لو وقعتِ الغفلةُ عنهُ . . خيفَ ضررُهُ .

فسبحانَ مَنْ أرسلَهُ رحمةً للعالمين ؛ ليجمعَ لهُمْ بيُمْنِ بعثتِهِ مصالحَ الدنيا والدينِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

❁ ❁ ❁

الثامنُ : ما طالَ مِنَ اللحيةِ : وإنَّما أخرْناها لنلحقَ بها ما في اللحيةِ مِنَ السننِ والبدعِ ؛ إذْ هٰذا أقربُ موضعٍ يليقُ بهِ ذكرُها .

---

(١) وهٰذا علىٰ تقدير أن العينين في حكم عضو واحد ، فينظر فيه إلىٰ مجموع الفعل . « إتحاف » (٤١٦/٢) .

(٢) الاكتحال ثلاثاً في كل عين عند الترمذي (١٧٥٧) ، وابن ماجه (٣٤٩٩) .

(٣) **يثغر الولد** : تسقط أسنانه الرواضع ، أو يقوىٰ كما فسره الحافظ الزبيدي .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٧٥/٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٢٤/٨) .

(٥) بنحوه عند أبي داوود (٥٢٧١) ، وبلفظه عند الطبراني في « الأوسط » (٢٢٧٤) .

وقدِ اختلفوا فيما طالَ منها : فقيلَ : إنْ قبضَ الرجلُ علىٰ لحيتِهِ وأخذَ ما تحتَ القبضةِ . . فلا بأسَ ، فقدْ فعلَهُ ابنُ عمرَ وجماعةٌ مِنَ التابعينَ ، واستحسنَهُ الشعبيُّ وابنُ سيرينَ .

وكرهَهُ الحسنُ وقتادةُ ، وقالا : تركُها عافيةً أحبُّ إلينا[١] ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعفوا اللِّحَىٰ »[٢]

والأمرُ في هٰذا قريبٌ إذا لمْ ينتهِ إلىٰ تقصيصِ اللحيةِ وتدويرِها مِنَ الجوانبِ ؛ فإنَّ الطولَ المفرطَ قدْ يشوِّهُ الخلقةَ ويطلقُ ألسنةَ المغتابينَ بالنبزِ إليهِ ، فلا بأسَ بالاحترازِ عنهُ علىٰ هٰذهِ النيَّةِ .

وقالَ النخعيُّ : (عجبتُ لرجلٍ عاقلٍ طويلِ اللحيةِ كيفَ لا يأخذُ مِنْ لحيتِهِ فيجعلَها بينَ لِحيتينِ ، فإنَّ التوسطَ في كلِّ شيءٍ حسنٌ)[٣]

ولذٰلكَ قيلَ : (كلَّما طالتِ اللحيةُ . . تشمَّرَ العقلُ)[٤]

فَصْلٌ

[فيما يُكرهُ في اللحيةِ منْ خصالٍ]

وفي اللحيةِ عشْرُ خصالٍ مكروهةٍ ، وبعضُها أشدُّ كراهةً مِنْ بعضٍ ، وهيَ : خضابُها بالسوادِ ، وتبييضُها بالكبريتِ ، ونتفُها ، ونتفُ الشيبِ منها ، والنقصانُ منها ، والزيادةُ فيها ، وتسريحُها تصنُّعاً لأجلِ الرياءِ ، وتركُها شعثةً إظهاراً للزهدِ ، والنظرُ إلىٰ سوادِها عجباً بالشبابِ ، وإلىٰ بياضِها تكبُّراً بعلوِّ السنِّ ، وخضابُها بالحمرةِ والصفرةِ من غيرِ نيَّةٍ تشبُّهاً بالصالحينَ

❀ ❀ ❀

أمَّا الأوَّلُ : وهوَ الخضابُ بالسوادِ : فهوَ منهيٌّ عنهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ شبابِكُمْ مَنْ تشبَّهَ بشيوخِكُمْ ، وشرُّ شيوخِكُمْ من تشبَّهَ بشبابِكُمْ »[٥]

والمرادُ بالتشبُّهِ بالشيوخِ في الوقارِ ، لا في تبييضِ الشعرِ ، ونهىٰ عنِ الخضابِ بالسوادِ[٦] ، وقالَ : « هوَ خضابُ أهلِ النارِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « الخضابُ بالسوادِ خضابُ الكفارِ »[٧]

وتزوَّجَ رجلٌ علىٰ عهدِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وكانَ خضبَ بالسوادِ ، فنصَلَ خضابُهُ وظهرتْ شيبتُهُ ، فرفعَهُ أهلُ المرأةِ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فردَّ نكاحَهُ وأوجعَهُ ضرباً وقالَ : غررتَ القومَ بالشبابِ ولبَّسْتَ عليهم شيبتَكَ !![٨]

---

(١) قوت القلوب (١٤٤/٢) ، وتفصيل المصنف هنا أوسع مما في « القوت » .
(٢) رواه البخاري (٥٨٩٢) ، ومسلم (٢٥٩ ، ٢٦٠) .
(٣) قوت القلوب (١٤٥/٢) .
(٤) قوت القلوب (١٤٥/٢) .
(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٠٠) .
(٦) روىٰ مسلم (٢١٠٢) عن جابر رضي الله عنه قال : أُتي بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بياضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غيروا هٰذا بشيء واجتنبوا السواد » .
(٧) رواه الحاكم في « المستدرك » (٥٢٦/٣) بلفظ : « والسواد خضاب الكافر » ، والروايات والسياق عند صاحب « القوت » (١٤٤/٢) .
(٨) قوت القلوب (١٤٤/٢) ، ونصَلَ : زال عنه .

ويقالُ : أوّلُ مَنْ خضبَ بالسوادِ فرعونُ لعنَهُ اللهُ[(١)]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنِ النبيّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنّه قالَ : « يكونُ في آخرِ الزمانِ قومٌ يخضبونَ بالسوادِ كحواصلِ الحمامِ ، لا يَريحونَ رائحةَ الجنَّةِ »[(٢)]

❁ ❁ ❁

الثاني : الخِضابُ بالصفرةِ والحمرةِ : وهوَ جائزٌ تلبيساً للشيبِ على الكفارِ في الغزوِ والجهادِ ، فإنْ لمْ يكنْ علىٰ هـٰذهِ النيَّةِ بلْ للتشبُّهِ بأهلِ الدينِ . . فهوَ مذمومٌ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصُّفرةُ خِضابُ المسلمينَ ، والحمرةُ خِضابُ المؤمنينَ »[(٣)]

وكانوا يخضبونَ بالحناءِ للحمرةِ ، وبالخلوقِ والكتَمِ للصفرةِ[(٤)] ، وخضبَ بعضُ العلماءِ بالسوادِ لأجلِ الغزوِ ، وذلكَ لا بأسَ بهِ إذا صحَّتِ النيةُ ولمْ يكنْ فيهِ هوىً وشهوةٌ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : تبييضُها بالكبريتِ استعجالاً لإظهارِ علوّ السنِّ ؛ توصُّلاً إلى التوقيرِ ، وقبولِ الشهادةِ ، والتصديقِ بالروايةِ عنِ الشيوخِ ، وترفُّعاً عنِ الشبابِ ، وإظهاراً لكثرةِ العلمِ ؛ ظنّاً بأنَّ كثرةَ الأيامِ تعطيهِ فضلاً ، وهيهاتَ !! فلا يزيدُ كِبَرُ السنّ للجاهلِ إلا جهلاً ، فالعلمُ ثمرةُ العقلِ ، وهيَ غريزةٌ لا يؤثّرُ الشيبُ فيها ، ومَنْ كانتْ غريزتُهُ الحمْقَ . . فطولُ المدَّةِ يؤكّدُ حماقتَهُ .

وقدْ كانَ الشيوخُ يقدّمونَ الشبابَ بالعلمِ ؛ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقدّمُ ابنَ عباسٍ وهوَ حديثُ السنِّ علىٰ أكابرِ الصحابةِ ويسألُهُ دونَهُمْ[(٥)]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ما آتى اللهُ عزَّ وجلَّ عبداً علماً إلا شابّاً ، والخيرُ كلُّهُ في الشبابِ) ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[(٦)]

وكانَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : قُبضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وليسَ في رأسِهِ ولحيتِهِ عشرونَ شعرةً بيضاءَ . فقيلَ لهُ : يا أبا حمزةَ ؛ فقدْ أسنَّ ؟ فقالَ : لم يُشِنْهُ اللهُ تعالىٰ بالشيبِ ، فقيلَ : أَوَشينٌ هوَ ؟ فقالَ : كلُّكُمْ يكرهُهُ[(٧)] .

ويقالُ : إنَّ يَحيى بنَ أكثمَ وليَ القضاءَ وهوَ ابنُ إحدىٰ وعشرينَ سنةً ، فقالَ لهُ رجلٌ في مجلسِهِ يريدُ أنْ يخجلَهُ

---

(١) قوت القلوب (١٤٤/٢) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٢١٢) ، والنسائي (١٣٨/٨) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٥٢٦/٣) ، وقد تقدم بعضه .

(٤) قوت القلوب (١٤٤/٢) .

(٥) أصله في « البخاري » (٤٢٩٤) .

(٦) قوت القلوب (١٤٥/٢) .

(٧) وأما خبر : « الشيب وقار ونور » . . فيجاب عنه بأنه وإن كان كذلك لكنه يشين عند النساء غالباً ، وبأن الشيب المنفي الشين عند من كرهه لا مطلقاً ؛ لتجتمع الروايات . « إتحاف » (٤٢٣/٢) . وأصل الخبر عند البخاري (٣٥٤٧) ، ومسلم (٢٣٤٧) ، وكلام أنس عند أحمد (١٠٨/٣) .

بصغرِ سنِّهِ : كمْ سنُّ القاضي أيَّدَهُ اللهُ ؟ فقالَ : مثلُ سنِّ عتَّابِ بنِ أسيدٍ حينَ ولَّاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إمارةَ مكَّةَ وقضاءَهَا ، فأفحمَهُ[1]

ورُويَ عنْ مالكٍ أنَّهُ قالَ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ : لا تغرنَّكُمُ اللحَىٰ ؛ فإنَّ التيسَ لهُ لحيةٌ)[2]

وقالَ أبو عمرِو بنُ العلاءِ : (إذا رأيتَ الرجلَ طويلَ القامةِ صغيرَ الهامةِ عريضَ اللحيةِ .. فاقضِ عليهِ بالحمقِ ولوْ كانَ أميَّةَ بنَ عبدِ شمسٍ)[3]

وقالَ أيوبُ السختيانيُّ : (أدركتُ الشيخَ ابنَ ثمانينَ سنةً يتبعُ الغلامَ يتعلَّمُ منهُ)[4]

وقالَ عليُّ بنُ الحسينِ : (مَنْ سبقَ إليهِ العلمُ قبلَكَ فهوَ إمامُكَ فيهِ وإنْ كانَ أصغرَ سنّاً منكَ)[5]

وقيلَ لأبي عمرِو بنِ العلاءِ : أيَحْسُنُ منَ الشيخِ أنْ يتعلَّمَ مِنَ الصغيرِ ؟ فقالَ : إنْ كانَ الجهلُ يقبحُ بهِ .. فالتعلُّمُ يحسنُ بهِ[6]

وقالَ يحيى بنُ معينٍ لأحمدَ ابنِ حنبلٍ وقدْ رآهُ يمشي خلفَ بغلةِ الشافعيِّ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ تركتَ حديثَ سفيانَ بعلوِّهِ وتمشي خلْفَ بغلةِ هـٰذا الفتىٰ وتسمعُ منهُ ؟! فقالَ أحمدُ : لوْ عرفتَ .. لكنتَ تمشي منَ الجانبِ الآخرِ ؛ إنَّ علمَ سفيانَ إنْ فاتني بعلُوٍ .. أدركتُهُ بنزولٍ ، وإنَّ عقلَ هـٰذا الشابِّ إنْ فاتني .. لمْ أدركْهُ بعلوٍّ ولا بنزولٍ[7]

❁ ❁ ❁

الرابعُ : نَتف بياضِها استنكافاً مِنَ الشيبةِ ، وقدْ نهىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ عنْ نتفِ الشيبِ ، وقالَ : « هوَ نورُ المؤمنِ »[8] ، وهوَ في معنى الخضابِ بالسوادِ ، وعلَّةُ الكراهيةِ ما سبقَ ، والشيبُ نورُ اللهِ تعالىٰ ، والرغبةُ عنهُ رغبةٌ عنِ النورِ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : نتفُها أوْ نتفُ بعضِها بحكْمِ العبثِ والهوسِ ، وذٰلكَ مكروهٌ ومشوِّهٌ للخلقةِ ، ونتفُ الفَنِيكَيْنِ بدعةٌ ، وهما جنبتا العنفقةِ .

شهدَ عندَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رجلٌ كانَ ينتفُ فَنِيكَيْهِ ؛ فردَّ شهادتَهُ[9]

وردَّ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ وابنُ أبي ليلىٰ قاضي المدينةِ شهادةَ مَنْ كانَ ينتفُ لحيتَهُ[10]

---

(١) قوت القلوب (٢/١٤٥) .

(٢) في « القوت » (٢/١٤٥) : (وروينا عن مالك بن مغول) ، فإطلاق المصنف يوهم أنه الإمام مالك بن أنس كما نبَّه عليه الحافظ الزبيدي .

(٣) قوت القلوب (٢/١٤٥) .

(٤) قوت القلوب (٢/١٤٥) .

(٥) قوت القلوب (٢/١٤٥) .

(٦) قوت القلوب (٢/١٤٥) .

(٧) كذا هو في « القوت » (٢/١٤٥) ، وأصله مروي في « تاريخ بغداد » (٢/٦٤) .

(٨) رواه أبو داوود (٤٢٠٢) ، والترمذي (٢٨٢١) ، وابن ماجه (٣٧٢١) ، والنتف في الحديث أعم من أن يكون في اللحية أو من الرأس ؛ لأنه نور ووقار . « إتحاف » (٢/٤٢٥) .

(٩) رواه أبو بكر الجصاص في « أحكام القرآن » (٢/٢٣٦) بنحوه ، وهو بهـٰذا السياق في « القوت » (٢/١٤٤) .

(١٠) قوت القلوب (٢/١٤٤) .

وأمَّا نتفُها في أوَّلِ النباتِ تشبُّهاً بالمرْدِ . . فمنَ المنكراتِ الكبارِ ، فإنَّ اللحيةَ زينةُ الرجالِ ، فللهِ سبحانَهُ ملائكةٌ يُقسمونَ : والذي زيَّنَ بني آدمَ باللِّحَىٰ[1] ، وهيَ مِنْ تمامِ الخلقِ ، وبها يتميَّزُ الرجالُ عنِ النساءِ .

وقيلَ في غريبِ التأويلِ : اللحيةُ هيَ المرادُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾[2]

قالَ أصحابُ الأحنفِ بنِ قيسٍ : (وددْنا أنْ نشتريَ للأحنفِ لحيةً ولوْ بعشرينَ ألفاً)[3]

وقالَ شريحٌ القاضي : (وددتُ أنَّ لي لحيةً بعشرةِ آلافٍ)[4]

وكيفَ تُكرَهُ اللحيةُ وفيها تعظيمُ الرجلِ ، والنظرُ إليهِ بعينِ العلمِ والوقارِ ، والرفعُ في المجالسِ ، وإقبالُ الوجوهِ إليهِ ، والتقديمُ على الجماعةِ ، ووقايةُ العرضِ ، فإنَّ مَنْ يَشْتِمُ يعرِّضُ باللحيةِ إذا كانَ للمشتومِ لحيةٌ ؟!

وقدْ قيلَ : إنَّ أهلَ الجنَّةِ مردٌ إلا هارونَ أخا موسىٰ عليهما السلامُ ، فإنَّ لهُ لحيةً إلىٰ سرَّتِهِ تخصيصاً لهُ وتفضيلاً[5] .

❀ ❀ ❀

السادسُ : تقصيصُها كالتعبيةِ طاقةً علىٰ طاقةٍ للتزيُّنِ للنساءِ والتصنُّعِ[6]

قالَ كعبٌ : (يكونُ في آخرِ الزمانِ أقوامٌ يقصُّونَ لحاهُمْ كذنبِ الحمامةِ ، ويعرقفونَ نعالَهُمْ كالمناجلِ ، أولئكَ لا خلاقَ لهُمْ)[7]

❀ ❀ ❀

السابعُ : الزيادةُ فيها : وهوَ أنْ يزيدَ في شعرِ العارضينِ مِنَ الصدغينِ ، وهوَ مِنْ شعرِ الرأسِ حتَّىٰ يجاوزَ عظمَ اللحيِ أوْ ينتهيَ إلىٰ نصفِ الخدِّ ، وذلكَ يباينُ هيئةَ أهلِ الصلاحِ .

❀ ❀ ❀

الثامنُ : **تسريحُها لأجلِ الناسِ** : قالَ بشرٌ : (في اللحيةِ شِرْكانِ : تسريحُها لأجلِ الناسِ ، وتركُها متفتلةً لإظهارِ الزهدِ)[8]

❀ ❀ ❀

التاسعُ والعاشرُ : **النظرُ إلىٰ سوادِها أوْ بياضِها بعينِ العجْبِ** : وذلكَ مذمومٌ في جميعِ أجزاءِ البدنِ ، بلْ في جميعِ الأخلاقِ والأفعالِ علىٰ ما سيأتي بيانُهُ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤٣/٣٦) ، وروي عن السيدة عائشة أنها كانت تقوله كما ذكر ذلك ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٥٥/٤) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٢٤٧/١) .

(٢) قوت القلوب (١٤٢/٢) ، وقال : (وفيه وجوه كثيرة) .

(٣) قوت القلوب (١٤٢/٢) .

(٤) قوت القلوب (١٤٢/٢) .

(٥) قوت القلوب (١٤٢/٢) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص ١١٦) .

(٦) أي : يصففها تصفيفاً بالقص من أطرافها ، والنص في « القوت » (١٤٣/٢) .

(٧) قوت القلوب (١٤٤/٢) .

(٨) حكاه الإمام أبو طالب المكي عن السري السقطي في « قوت القلوب » (١٤٤/٢) .

فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنْ أنواعِ التزيُّنِ والنظافةِ ، وقدْ حصلَ مِنْ ثلاثةِ أحاديثَ مِنْ سننِ الجسدِ اثنتا عشرةَ خصلةً : خمسٌ منها في الرأسِ ، وهيَ : فَرْقُ شعرِ الرأسِ [1] ، والمضمضةُ ، والاستنشاقُ [2] ، وقصُّ الشاربِ ، والسواكُ ، وثلاثةٌ في اليدِ والرجْلِ ، وهي : القلْمُ ، وغسلُ البراجمِ ، وتنظيفُ الرواجبِ ، وأربعةٌ في الجسدِ ، وهي : نتفُ الإبْطِ ، والاستحدادُ ، والختانُ ، والاستنجاءُ بالماءِ ؛ فقدْ وردتِ الأخبارُ بمجموعِ ذٰلكَ .

وإذا كان غرضُ هٰذا الكتابِ التعرُّضَ للطهارةِ الظاهرةِ دونَ الباطنةِ . . فلنقتصرْ علىٰ هٰذا .

وليتحققْ أنَّ فضلاتِ الباطنِ وأوساخَهُ التي يجبُ التنظيفُ منها أكثرُ مِنْ أنْ تحصىٰ ، وسيأتي تفصيلُها في ربْعِ المهلكاتِ معَ تعريفِ الطرقِ في إزالتِها وتطهيرِ القلبِ منها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

تمّ كتاب أسرار الطّهارة ومهمّاتها

وهو الكتاب الثّالث من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

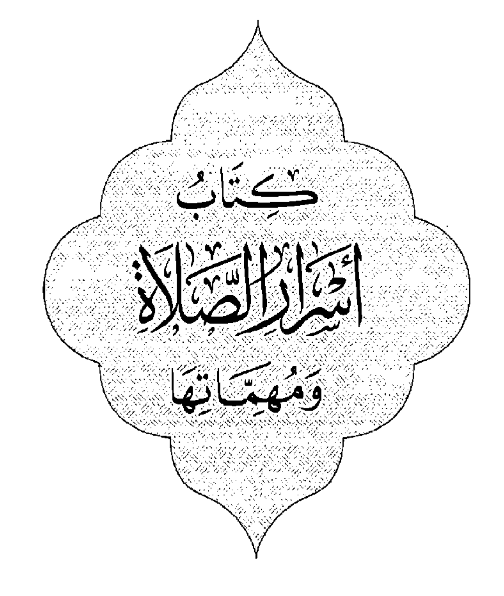
بحمد الله وعونه ، وصلاته على سيّدنا محمّد نبيّه وآله

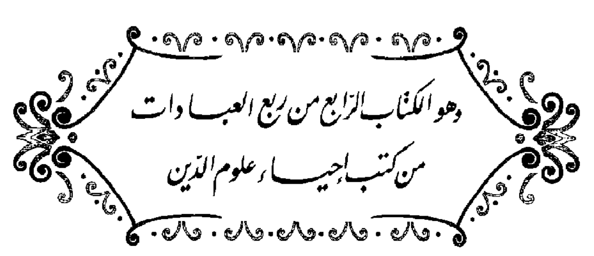
ويتلوه كتاب أسرار الصّلاة ومهمّاتها

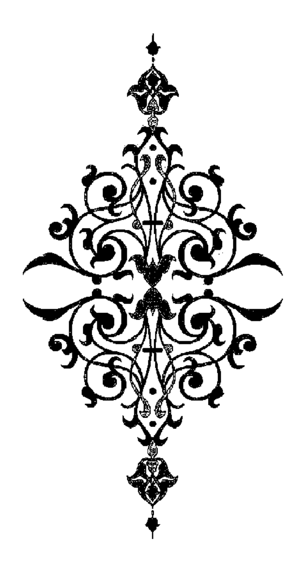
---

(١) روى البخاري (٣٥٥٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان صلى الله عليه وسلم يسدل شعره وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، فكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه) .

(٢) كما هي عند مسلم (٢٦١) .


كتاب
أسرار الصلاة
ومهماتها


وهو الكتاب الرابع من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب أسرار الصّلاة ومهمّاتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي غمرَ العبادَ بلطائفِهِ ، وعمرَ قلوبَهُمْ بأنوارِ الدينِ ووظائفِهِ ، الذي النزولُ عنْ عرشِ الجلالِ إلى السماءِ الدنيا مِنْ درجاتِ الرحمةِ إحدىٰ عواطفِهِ ، فارقَ الملوكَ معَ التفرُّدِ بالجلالِ والكبرياءِ بترغيبِ الخلْقِ في السؤالِ والدعاءِ ، فقالَ : « هلْ مِنْ داعٍ فأستجيبَ لهُ ؟ وهلْ مِنْ مستغفرٍ فأغفرَ لهُ »[1] ، وباينَ السلاطينَ بفتحِ البابِ ورفعِ الحجابِ ، فرخَّصَ للعبادِ في المناجاةِ بالصلواتِ كيفما تقلَّبَتْ بهمُ الحالاتُ في الجماعاتِ والخلواتِ ، ولمْ يقتصرْ على الرخصةِ ، بلْ تلطَّفَ بالترغيبِ والدعوةِ ، وغيرُهُ مِنْ ضعفاءِ الملوكِ لا يسمحُ بالخلوةِ إلَّا بعدَ تقديمِ الهديةِ والرِّشْوةِ ، فسبحانَهُ ما أعظمَ شأنَهُ وأقوىٰ سلطانَهُ ، وأتمَّ لطفَهُ وأعمَّ إحسانَهُ !!

والصلاةُ علىٰ محمدٍ نبيِّهِ المصطفىٰ ، ووليِّهِ المجتبىٰ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ مفاتيحِ الهدىٰ ، ومصابيحِ الدُّجا ، وسلَّمَ تسليماً .

أمّا بعـد :

فإنَّ الصلاةَ عمادُ الدينِ ، وعصامُ اليقينِ ، ورأسُ القرباتِ ، وغُرَّةُ الطاعاتِ ، وقدِ استقصينا في فنِّ الفقهِ في « بسيطِ المذهبِ » و« وسيطه » و« وجيزه » أصولَها وفروعَها ، صارفينَ جِمامَ العنايةِ إلىٰ تفاريعِها النادرةِ ووقائعِها الشاذَّةِ ؛ لتكونَ خِزانةً للمفتي منها يستمدُّ ، ومعوَّلاً لهُ إليها يفزعُ ويرجعُ .

ونحنُ الآنَ في هٰذا الكتابِ مقتصرونَ علىٰ ما لا بدَّ للمريدِ منهُ مِنْ أعمالِها الظاهرةِ وأسرارِها الباطنةِ ، وكاشفونَ مِنْ دقائقِ معانيها الخفيَّةِ في معاني الخشوعِ والإخلاصِ والنيَّةِ ما لمْ تجرِ العادةُ بذكرِهِ في كتبِ الفقهِ ، ومرتبونَ الكتابَ علىٰ سبعةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضائلِ الصلواتِ .

البابُ الثاني : في تفصيلِ الأعمالِ الظاهرةِ مِنَ الصلاةِ .

البابُ الثالثُ : في تفصيلِ الأعمالِ الباطنةِ منها .

البابُ الرابعُ : في الإمامةِ والقدوةِ .

البابُ الخامسُ : في صلاةِ الجمعةِ وآدابِها .

البابُ السادسُ : في مسائلَ متفرِّقةٍ تعمُّ بها البلوىٰ يحتاجُ المريدُ إلىٰ معرفتِها .

البابُ السابعُ : في التطوُّعاتِ وغيرِها .

❋ ❋ ❋

---

(١) روى البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) مرفوعاً : « ينزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيَهُ ؟ من يستغفرني فأغفرَ له ؟ » .

الباب الأول
في فضائل الصلوات والسجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ يومَ القيامةِ علىٰ كثيبٍ مِنْ مسكٍ أسودَ لا يهمُّهُمْ حسابٌ ولا ينالهُمْ فزعٌ حتَّىٰ يفرغَ ممَّا بينَ الناسِ : رجلٌ قرأَ القرآنَ ابتغاءَ وجهِ اللهِ وأَمَّ بهِ قوماً وهمْ بهِ راضونَ ، ورجلٌ أذَّنَ في مسجدٍ ودعا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ابتغاءَ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ورجلٌ ابتليَ بالرِّقِّ في الدنيا فلمْ يشغلْهُ ذٰلكَ عنْ عملِ الآخرةِ »[(١)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يسمعُ صوتَ المؤذِّنِ جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهدَ لهُ يومَ القيامةِ »[(٢)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدُ الرحمٰنِ علىٰ رأسِ المؤذِّنِ حتَّىٰ يفرغَ مِنْ أذانِهِ »[(٣)]

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ : نزلتْ في المؤذنينَ[(٤)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سمعتُمُ النداءَ . . فقولوا مثلَ ما يقولُ المؤذِّنُ »[(٥)]

وذٰلكَ مستحبٌّ إلا في الحيعلتينِ ؛ فإنَّهُ يقولُ فيهما : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ[(٦)]

وفي قولِهِ : (قدْ قامتِ الصلاةُ) : أقامَها اللهُ وأدامَها ما دامتِ السماواتُ والأرضُ[(٧)]

وفي التثويب : صدقتَ وبَرَرْتَ ونصحْتَ .

وعندَ فراغِ المؤذنِ يقولُ : اللَّهمَّ ؛ ربَّ هٰذهِ الدعوةِ التامَّةِ ، والصلاةِ القائمةِ ، آتِ محمداً الوسيلةَ والفضيلةَ والدرجةَ الرفيعةَ ، وابعثْهُ المقامَ المحمودَ الذي وعدتَهُ ، إنكَ لا تخلفُ الميعادَ[(٨)]

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (مَنْ صلَّىٰ بأرضٍ فلاةٍ . . صلَّىٰ عنْ يمينِهِ ملَكٌ وعنْ شمالِهِ ملَكٌ ، فإنْ أذَّنَ وأقامَ . . صلَّىٰ وراءَهُ أمثالُ الجبالِ مِنَ الملائكةِ)[(٩)]

* * *

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٦) بنحوه ، وهو بلفظه عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢٤/٤) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٩) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٠٠٨) ، وابن عدي في « الكامل » (٤٩/٥) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٦١) من قول عائشة رضي الله عنها ، وانظر « الدر المنثور » (٣٢٥/٧) .

(٥) رواه البخاري (٦١١) ، ومسلم (٣٨٣) .

(٦) كما في « مسلم » (٣٨٥) .

(٧) كما في « أبي داوود » (٥٢٨) .

(٨) كما في « البخاري » (٦١٤) ، و« النسائي » (٢٧/٢) .

(٩) رواه مالك في « الموطأ » (٧٤/١) .

فضيلة المكتوبة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خمسُ صلواتٍ كتبَهُنَّ اللهُ على العبادِ ، فمَنْ جاءَ بهِنَّ ولَمْ يُضَيّعْ منهُنَّ شيئاً استخفافاً بحقِّهِنَّ . . كانَ لهُ عندَ اللهِ عهدٌ أنْ يدخلَهُ الجنةَ ، ومَنْ لَمْ يأتِ بهنَّ . . فليسَ لَهُ عندَ اللهِ عهدٌ ، إنْ شاءَ . . عذَّبَهُ ، وإنْ شاءَ . . أدخلَهُ الجنةَ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ الصلواتِ الخمسِ كمثلِ نهرٍ عَذْبٍ غَمْرٍ ببابِ أحدِكُمْ يَقتحِمُ فيهِ كلَّ يومٍ خمسَ مَرَّاتٍ ، فما ترونَ ذٰلكَ يُبْقي مِنْ دَرَنِهِ ؟ » قالُوا : لَا شَيْءَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فَإِنَّ الصلواتِ الخمسَ تُذهبُ الذُّنُوبَ كما يذهبُ الماءُ الدَّرَنَ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الصلواتِ الخمسَ كفاراتٌ لما بينَهنَّ ما اجتنِبتِ الكبائرُ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بيننا وبينَ المنافقينَ شهودُ العتمةِ والصبحِ لا يستطيعونَهُما »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لقيَ اللهَ وهوَ مُضَيّعٌ للصلاةِ . . لَمْ يعبأ اللهُ بشيءٍ مِنْ حسناتِهِ »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلاةُ عمادُ الدِّينِ ، فمَنْ تركَها . . فقدْ هدمَ الدِّينَ »(٦)

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أَيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ : « الصلاةُ لمواقيتِها »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حافظَ على الخمسِ بإكمالِ طُهُورِها ومواقيتِها . . كانتْ لهُ نوراً وبرهاناً يومَ القيامةِ ، ومنْ ضيَّعَها . . حُشِرَ مع فرعونَ وهامانَ »(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مفتاحُ الجنةِ الصلاةُ »(٩)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما افترضَ اللهُ علىٰ خلقهِ بعدَ التوحيدِ أحبَّ إليهِ مِنَ الصلاةِ ، ولوْ كانَ شيءٌ أَحبَّ إليهِ مِنها . . لتعبَّدَ بهِ ملائكتَهُ ؛ فمنهُمْ راكعٌ ومنهُمْ ساجدٌ ، ومنهُمْ قائمٌ وقاعدٌ »(١٠)

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٢٠) ، والنسائي (٢٣٠/١) ، وابن ماجه (١٤٠١) .

(٢) رواه مسلم (٦٦٨) .

(٣) رواه مسلم (٢٣١) .

(٤) رواه مالك في « الموطأ » (١٣٠/١) .

(٥) روى الطبراني في « الأوسط » (١٨٨٠) مرفوعاً : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت . . صلح له سائر عمله ، وإن فسدت . . فسد سائر عمله » .

(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٥٥٠) بغير زيادة : « فمن تركها . . . » .

(٧) رواه البخاري (٥٢٧) ، ومسلم (٧٥) .

(٨) رواه أحمد في « المسند » (١٦٩/٢) ، وأصله عند أبي داوود (٤٣٠) ، وابن ماجه (١٤٠٣) .

(٩) رواه الترمذي (٤) .

(١٠) كذا بلفظه في « القوت » (١٠٠/٢) ، قال العراقي : (لم أجده هٰكذا ، وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر ، وعند الحاكم من حديث ابن عمر) . « إتحاف » (١٠/٣) .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ الصلاةَ متعمِّداً . . فقدْ كفرَ »[1] أي : قاربَ أنْ ينخلعَ عنِ الإيمانِ بانحلالِ عروتِهِ وسقوطِ عمادِهِ ، كما يقالُ لمنْ قاربَ البلدةَ : إنَّهُ بلغَها ودخلَها .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ صلاةً متعمِّداً . . فقدْ برئَ مِنْ ذمَّةِ محمدٍ » صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2]

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : « مَنْ توضَّأَ فأحسنَ وضوءَهُ ، ثمَّ خرجَ عامداً إلى الصلاةِ . . فإنَّهُ في صلاةٍ ما كانَ يعمدُ إلى الصلاةِ ، وإنَّهُ يُكتبُ لهُ بإحدىٰ خطوتيهِ حسنةٌ وتُمحَىٰ عنهُ بالأخرىٰ سيئةٌ ، فإذا سمعَ أحدُكُمُ الإقامةَ . . فلا يَسْعَ ؛ فإنَّ أعظمَكُمْ أجراً أبعدُكُمْ داراً » قالوا : لِمَ يا أبا هريرةَ ؟ قالَ : « مِنْ أجلِ كثرةِ الخُطا »[3]

ويُروىٰ : « أنَّ أوَّلَ ما يُنظرُ فيهِ يومَ القيامةِ مِنْ عملِ العبدِ الصلاةُ ؛ فإنْ وُجِدَتْ تامَّةً . . قُبِلَتْ منهُ وسائرُ عملِهِ ، وإنْ وُجدَتْ ناقصةً . . رُدَّتْ عليهِ وسائرُ عملِهِ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ مُرْ أهلكَ بالصَّلاةِ ، فإنَّ اللهَ يأتيكَ بالرزقِ مِن حيثُ لا تحتسبُ »[5] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مثلُ المصلِّي مثلُ التاجرِ الذي لا يخلصُ لهُ الربحُ حتَّىٰ يخلصَ لهُ رأسُ المالِ ، وكذٰلكَ المصلِّي لا تقبلُ لهُ نافلةٌ حتَّىٰ يؤديَ الفريضةَ)[6]

وكانَ أبو بكرٍ رضي اللهُ عنهُ يقولُ إذا حضرتِ الصلاةُ : (قُوموا إلىٰ نارِكُمُ التي أوقدتموها فأطفئوها)[7]

* * *

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٣٧٢) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤٢١/٦) .

(٣) رواه مالك في « الموطأ » (٣٣/١) ، ومثله لا يقال بالرأي .

(٤) رواه مالك في « الموطأ » (١٧٣/١) بلاغاً عن يحيى بن سعيد بنحوه ، وفي الصحاح ما يشهد له .

(٥) قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ، قال الحافظ الزبيدي بعدما نقل كلام الحافظ العراقي بأنه لم يقف علىٰ أصلٍ للحديث : (وهو من نسخة جمع فيها أحاديث يقول في أول كل منها : يا أبا هريرة ، وهٰذه النسخة موضوعة باتفاق المحدثين ، إلا أن بعض ما فيها هو صحيح باللفظ أو بالمعنىٰ ، كالذي نحن فيه ، فإن معناه صحيح لما أخرج عبد الرزاق في « المصنف » [٤٧٤٤] وعبد بن حميد عن رجل من قريش قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل علىٰ أهله بعضُ الضيق في الرزق . . أمر أهله بالصلاة ، ثم قرأ الآية : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾) « إتحاف » (١١/٣) .

(٦) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٨٧/٢) مرفوعاً .

(٧) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٤٨) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٢/٣) عن ابن سيرين مرسلاً ، ولفظه : « إن لله ملكاً ينادي عند كل صلاة : يا بني آدم ؛ قوموا إلىٰ نيرانكم . . . » .

فضيلة إتمام الأركان

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ الصلاةِ المكتوبةِ كمثلِ الميزانِ ، مَنْ أوْفىٰ . . استوفىٰ »[١]

وقالَ يزيدُ الرَّقاشيُّ : (كانتْ صلاةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مستويةً كأنَّها موزونةٌ)[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلينِ مِنْ أمتي ليقومانِ إلى الصلاةِ ورُكوعُهُما وسجودُهُما واحدٌ ، وإنَّ ما بينَ صلاتيْهِما ما بينَ السماءِ والأرضِ »[٣] ، وأشارَ إلى الخشوعِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينظرُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القِيامةِ إلى العبدِ لا يُقيمُ صُلبَهُ بينَ ركوعِهِ وسجودِهِ »[٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما يخافُ الذي يحوِّلُ وجهَهُ في الصلاةِ أنْ يحوِّلَ اللهُ وجهَهُ وجهَ حمارٍ ؟! »[٥]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّى الصلاةَ لوقتِها ، فأسبغَ وضوءَها ، وأتمَّ ركوعَها وسجودَها وخشوعَها . . عرجَتْ وهيَ بيضاءُ مسفرَةٌ تقولُ : حفظَكَ اللهُ كما حفظتَني ، ومَنْ صلَّىٰ لغيرِ وقتِها ، ولمْ يسبغْ وضوءَها ، ولمْ يتمَّ ركوعَها ولا سجودَها ولا خشوعَها . . عرجَتْ وهيَ سوداءُ مظلمةٌ تقولُ : ضيَّعكَ اللهُ كما ضيَّعْتني ، حتَّىٰ إذا كانتْ حيثُ شاءَ اللهُ . . لُفَّتْ كما يلفُّ الثوبُ الخَلَقُ ، فيضربُ بها وجهُهُ »[٦]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسوأُ الناسِ سرقةً الَّذِي يسرقُ مِنْ صلاتِهِ »[٧]

وقالَ ابنُ مسعودٍ وسلمانُ رضيَ اللهُ عنهُما : (الصلاةُ مكيالٌ ، فمَنْ أوفىٰ . . استوفىٰ ، ومَنْ طفَّفَ . . فقدْ علمتُمْ ما قالَ اللهُ في المطفِّفينَ)[٨]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٩٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٨٨٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٣) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧) من زيادات نعيم بن حماد في نسخته لكتاب « الزهد » ، عن شُفَيّ بن ماتع الأصبحي .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٥٢٥/٢) .

(٥) في « البخاري » (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) بلفظ : (يرفع رأسه) بدل (يحول وجهه) ، وقال الحافظ العراقي : (وعند ابن عدي في « عوالي مشايخ مصر » من حديث جابر : « ما يؤمنه إذا التفت في صلاته أن يحوّل الله وجهه وجه كلب أو وجه خنزير » ، قال : منكر بهٰذا الإسناد) ، وانظر « الإتحاف » (١٢/٣) .

(٦) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣١١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٨٧١) .

(٧) رواه أحمد في « المسند » (٥٦/٣) .

(٨) كذا في « القوت » (١٠١/٢) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٩٢) عن سلمان رضي الله عنه .

فضيلة الجماعة

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةُ الجماعةِ تفضلُ صلاةَ الفَذِّ بسبعٍ وعشرينَ درجةً »(1)

وروى أبو هريرةَ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقدَ ناساً في بعضِ الصلواتِ فقالَ : « لقدْ هممتُ أنْ آمرَ رجلاً يصلِّي بالناسِ ، ثمَّ أخالفَ إلى رجالٍ يتخلَّفونَ عنها فأحرِّقَ عليهِمْ بيوتَهُمْ » ، وفي روايةٍ أخرى : « ثمَّ أخالفَ إلى رجالٍ يتخلَّفونَ عنها فآمُرَ بهمْ فتُحَرَّقَ عليهِمْ بحُزَمِ الحطبِ بيوتُهُمْ ، ولوْ علمَ أحدُهُم أنَّهُ يجِدُ عَظْماً سميناً أوْ مِرْماتَينِ . . لشهِدَهَا » يعني : صلاةَ العشاءِ(2)

وقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ ويُروى مرفوعاً : « مَنْ شهِدَ العِشاءَ . . فكَأنَّما قامَ نِصفَ ليلةٍ ، ومَنْ شهدَ الصبحَ . . فكأنَّما قامَ ليلةً »(3)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّى صلاةً في جماعةٍ . . فقدْ ملأَ نحرَهُ عبادةً »(4)

وقالَ سعيدُ بن المسيَّبِ : (ما أَذَّنَ مؤذِّنٌ منذُ عشرينَ سنةً إلا وأنا في المسجدِ)(5)

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ : (ما أشتهي مِنَ الدنيا إلا ثلاثةً : أخاً إنْ تعوَّجْتُ . . قوَّمَني ، وقُوتاً مِنَ الرزقِ عفواً بغيرِ تبعةٍ ، وصلاةً في جماعةٍ يُرفعُ عنِّي سهوُها ويكتبُ لي فضلُها)(6)

ورُوِيَ أَنَّ أبا عبيدةَ بنَ الجرَّاحِ أمَّ قوماً مرَّةً ، فلمَّا انصرفَ . . قالَ : (ما زالَ الشيطانُ بي آنفاً حتَّى رأيتُ أنَّ لي فضلاً على غيري ، لا أَؤُمُّ أبداً)(7)

وقالَ الحسنُ : (لا تصلُّوا خلفَ رجلٍ لا يختلفُ إلى العلماءِ) .

وقالَ النخعيُّ : (مثلُ الذي يؤمُّ الناسَ بغيرِ علمٍ مثلُ الذي يكيلُ الماءَ في البحرِ ، لا يدري زيادتَهُ مِنْ نقصانِهِ) .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (فاتتني الصلاةُ في الجماعةِ ، فعزَّاني أبو إسحاقَ البخاريُّ وحدَهُ ، ولوْ ماتَ لي ولدٌ . . لعزَّاني أكثرُ مِنْ عشرةِ آلافٍ ؛ لأنَّ مصيبةَ الدينِ أهونُ عندَ الناسِ مِنْ مصيبةِ الدنيا) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (مَنْ سمعَ المناديَ ثمَّ لمْ يجبْ . . لمْ يردْ خيراً ولمْ يُرَدْ بِهِ)(8)

---

(1) رواه البخاري (٦٤٥) ، ومسلم (٦٤٩) ، **والفذُّ** : الفرد .

(2) رواه البخاري (٦٤٤) ، ومسلم (٦٥١) ، وقوله : (**مِرْماتين**) المرماة : ما بين ظلفي الشاة من اللحم .

(3) رواه مسلم (٦٥٦) من حديث عثمان رضي الله عنه مرفوعاً ، وذكر الترمذي (٢٢١) أنه روي موقوفاً ومرفوعاً .

(4) قال العراقي : (لم أره مرفوعاً ، وإنما هو من قول سعيد بن المسيب ، رواه محمد بن نصر في كتاب « الصلاة » [ص ١٩٦]) . « إتحاف » (١٥/٣) .

(5) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦٢/٢) ، وقالا : (ثلاثين) بدل (عشرين) ، وفي « الطيوريات » (٤٥٠) : (أربعين) .

(6) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦١/٥٦) .

(7) روه ابن المبارك في « الزهد » (٨٣٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١٤١) .

(8) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٨٥) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأَنْ تُملأَ أذنُ ابنِ آدمَ رصاصاً مذاباً خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يسمعَ النداءَ ثمَّ لا يجيبُهُ)[1]

ويُروىٰ أنّ ميمونَ بنَ مهرانَ أتى المسجدَ ، فقيلَ لهُ : إنَّ الناسَ قدِ انصرفوا !! فقالَ : إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، لَفضلُ هـٰذهِ الصلاةِ أحبُّ إليَّ مِنْ ولايةِ العراقِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ أربعينَ يوماً الصلواتِ في جماعةٍ لا تفوتُهُ فيها تَكْبيرَةُ الإحرامِ . . كُتبَ لهُ براءتانِ ؛ براءَةٌ مِنَ النفاقِ ، وبراءةٌ مِنَ النارِ »[2]

ويقالُ : إنَّهُ إذا كانَ يومُ القيامةِ يحشرُ قومٌ وجوهُهُمْ كالكوكبِ الدرّيِّ ، فتقولُ لهمُ الملائكةُ : ما كانتْ أعمالُكُمْ ؟ فيقولونَ : كنَّا إذا سمعْنا الأذانَ . . قمنا إلى الطهارةِ ولا يشغلُنا غيْرُها ، ثمَّ تحشرُ طائفةٌ وجوهُهُمْ كالأقمارِ ، فيقولونَ بعدَ السؤالِ : كنَّا نتوضَّأُ قبلَ الوقتِ ، ثمَّ تحشرُ طائفةٌ وجوهُهُمْ كالشمسِ ، فيقولونَ : كنَّا نسمعُ الأذانَ في المسجدِ[3] .

ورُوِيَ أَنَّ السلفَ كانوا يعزُّونَ أنفسَهُمْ ثلاثةَ أيامٍ إذا فاتتهُمُ التكبيرةُ الأولىٰ ، ويعزونَ سبعاً إذا فاتتهُمُ الجماعةُ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٨٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤١) .

(٣) أورد نحوه صاحب « القوت » (١٠١/٢) .

فضيلة السجود

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما تقرَّبَ العبدُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بشيءٍ أفضلَ مِنْ سجودٍ خفيّ »[1]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ مسلمٍ يسجدُ للهِ سجدةً إلا رفعَهُ اللهُ بها درجةً ، وحطَّ عنهُ بها سيئةً »[2]

ورُوِيَ أنَّ رجُلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ادعُ اللهَ أنْ يجعلني مِنْ أهلِ شفاعتِك ، وَأَنْ يرزقني مرافقتَكَ في الجنَّةِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعِنِّي بكثرةِ السجودِ »[3]

وقيلَ : « إن أقرَبَ ما يكونُ العبدُ منَ اللهِ تعالىٰ أنْ يكونَ ساجداً »[4] ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[5] .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ ، فقيلَ : هوَ ما يلتصقُ بوجوهِهِمْ مِنَ الأرضِ عندَ السجودِ ، وقيلَ : هو نورُ الخشوعِ ، فإنَّهُ يشرقُ مِنَ الباطنِ على الظاهرِ ، وهوَ الأصحُّ ، وقيلَ : هيَ الغُررُ التي تكونُ في وجوهِهِمْ يومَ القيامةِ مِنْ أثرِ الوضوءِ[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قرأَ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجدَ . . اعتزلَ الشيطانُ يبكي ويقولُ : يا ويلاهُ ؛ أُمِرَ هـٰذا بالسجودِ فسجدَ فلهُ الجنةُ ، وأُمِرتُ بالسجودِ فعصيتُ فليَ النارُ »[7]

ويُروىٰ عن عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ أنَّهُ كانَ يسجدُ في كلِّ يومٍ ألفَ سجدةٍ ، وكانوا يسمُّونَهُ السَّجَّادَ[8]

ويُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ لا يسجدُ إلا على الترابِ[9]

وكانَ يوسفُ بنُ أسباطٍ يقولُ : (يا معشرَ الشبابِ ؛ بادروا بالصحَّةِ قبلَ المرضِ فما بقيَ أحدٌ أحسدُهُ إلا رجلٌ يتمُّ ركوعَهُ وسجودَهُ ، وقدْ حيلَ بيني وبينَ ذٰلكَ)[10]

وقالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ : (ما آسىٰ علىٰ شيءٍ مِنَ الدنيا إلا على السجودِ)[11]

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٤) عن ضمرة بن حبيب بن صهيب مرسلاً .

(٢) رواه ابن ماجه (١٤٢٤) ، وأصله في « مسلم » (٤٨٨) .

(٣) رواه مسلم (٤٨٩) ، وهو ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه .

(٤) رواه مسلم (٤٨٢) .

(٥) انظر « الدر المنثور » (٨/٥٦٦) .

(٦) انظر « الدر المنثور » (٧/٥٤١) ، و« الإتحاف » (٣/١٨) .

(٧) رواه مسلم (٨١) .

(٨) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/٢٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٧) ، وكان أجمل قرشي علىٰ وجه الأرض وأوسمه وأكثره صلاة ، وكان يقال له : السجاد ؛ لعبادته وفضله ، وانظر « طبقات ابن سعد » (٧/٣٠٨) .

(٩) حكاه القشيري في « الرسالة » (ص ٢٦٦) ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١/٤٨٨) : (ولعله كان يفعله علىٰ جهة المبالغة في التواضع والخشوع ، فلا يكون فيه مخالفة للجماعة) ، والمقصود بالسجود على التراب تعمد فعل ذٰلك ؛ إذ كان يأتي بتراب فيضعه على الخُمرة ويسجد عليه .

(١٠) المجالسة وجواهر العلم (٣٣١) .

(١١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧٤) عن سعيدٍ يحكيه عن مسروق .

وقالَ عقبةُ بنُ مسلمٍ : (ما مِنْ خَصلةٍ في العبدِ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ رجلٍ يحبُّ لقاءَ اللهِ ، وما مِنْ ساعةٍ العبدُ فيها أقربُ إلى اللهِ منهُ حيثُ يخرُّ ساجداً)[1]

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (أقربُ ما يكونُ العبدُ إلى اللهِ إذا سجدَ ، فأكثروا الدعاءَ عندَ ذٰلكَ)[2]

* * *

(1) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٧٩) .
(2) رواه مسلم (٤٨٢) عن أبي هريرة مرفوعاً .

فضيلة الخشوع

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ ، قيل : سكارىٰ مِنْ كثرةِ الهمِّ ، وقيلَ : مِنْ حبِّ الدنيا[1]

وقالَ وهبٌ : (المرادُ بِهِ ظاهرُهُ)[2] ، ففيهِ تنبيهٌ علىٰ سكْرِ الدنيا ؛ إذْ بيَّنَ فيهِ العلَّةَ فقالَ : ﴿ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ ، وكمْ مِنْ مصلٍّ لم يشربِ الخمرَ وهوَ لا يعلمُ ما يقولُ في صلاتِهِ !!

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ركعتينِ لمْ يحدِّثْ نفسَهُ فيهِما بشيءٍ مِن الدنيا . . غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ »[3]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصلاةُ تمسكنٌ وتواضعٌ ، وتضرعٌ وتباؤسٌ وتنادمٌ ، وتُقْنِعُ يديكَ فتقولُ : اللَّهمَّ اللَّهُمَّ ، فمَنْ لمْ يفعلْ . . فهيَ خِداجٌ »[4]

ورُوِيَ عنِ اللهِ تعالىٰ في الكتبِ السالفةِ أَنَّهُ قالَ : (ليسَ كلُّ مصلٍّ أتقبَّلُ صلاتَهُ ، إنَّما أقبلُ صلاةَ مَنْ تواضعَ لعظمتي ولمْ يتكبرْ عليَّ ، وأطعمَ الفقيرَ الجائعَ لوجهي)[5]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما فُرِضتِ الصلاةُ وأُمِرَ بالحجِّ والطوافِ وأشعرتِ المناسكُ ؛ لإقامةِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ »[6] ، فإذا لمْ يكنْ في قلبِكَ للمذكورِ الذي هوَ المقصودُ والمبتغىٰ عظمةٌ ولا هيبةٌ . . فما قيمةُ ذكرِكَ ؟![7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي أوصاهُ : « وإذا صَلَّيْتَ . . فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ »[8] ؛ أي : مودعٍ لنفسِهِ ، مودعٍ لهواهُ ، مودعٍ لعمْرِهِ ، سائرٍ إلىٰ مولاهُ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾[9]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لَمْ تنهَهُ صلاتُهُ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ . . لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلَّا بُعْداً »[10] ، والصلاةُ مناجاةٌ ، فكيفَ تكونُ معَ الغفلةِ ؟!

---

(١) **قوت القلوب** (٩٧/٢) .

(٢) وهو قول عامة المفسرين ، وشاهد المؤلف يتأتى من تتمة الآية كما سيبين .

(٣) رواه البخاري (١٦٤) ، ومسلم (٢٢٦) ، ورواه ابن أبي شيبة (٧٧١٣) مرسلاً .

(٤) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (١٢٤/٣) ، وهو عند الترمذي (٣٨٥) بنحوه ، **تمسكن** : خضوع وذل ، **تقنع** : ترفع ، **خِداج** : ناقصة .

(٥) بنحوه رواه مرفوعاً أبو نعيم في « الحلية » (١٨/٤) ، وهو في « القوت » (٩٧/٢) .

(٦) رواه أبو داوود (١٨٨٨) ، والترمذي (٩٠٢) دون ذكر الصلاة بنحوه .

(٧) هو من كلام صاحب « القوت » (٩٨/٢) بعدما ساق الحديث السابق .

(٨) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

(٩) هو من كلام أبي طالب المكي بسياقه في « القوت » (٩٨/٢) .

(١٠) رواه الطبراني في « الكبير » (٤٦/١١) مرفوعاً .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ : (يا بنَ آدمَ ؛ إذا شئتَ أنْ تدخلَ علىٰ مولاكَ بغيرِ إذْنٍ . . دخلتَ ، قيلَ : وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : تسبغُ وضوءَكَ وتدخلُ محرابَكَ ، فإذا أنتَ قدْ دخلتَ علىٰ مولاكَ بغيرِ إذْنٍ فتكلِّمُهُ بغيرِ ترجمانٍ)[١]

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا قالتْ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحدِّثُنا ونحدِّثُهُ ، فإذا حضرتِ الصلاةُ . . فكأنَّهُ لمْ يعرِفْنا ولمْ نعرفْهُ)[٢] اشتغالاً بعظمةِ اللهِ تعالىٰ سبحانَهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينظرُ اللهُ إلىٰ صلاةٍ لا يحضرُ الرجلُ فيها قلبَهُ معَ بدنِهِ »[٣]

وكانَ إبراهيمُ الخليلُ عليهِ السلامُ إذا قامَ إلى الصلاةِ . . سُمعَ وَجِيبُ قلبِهِ علىٰ مِيلينِ[٤]

وكانَ سعيدٌ التنوخيُّ إذا صلَّىٰ لمْ تنقطعِ الدموعُ مِنْ خديهِ علىٰ لحيتِهِ[٥]

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً يَعْبَثُ بلحيتِهِ في الصلاةِ فقالَ : « لوْ خشعَ قلبُ هٰذا . . لَخَشَعَتْ جوارحُهُ »[٦]

ويُروىٰ أنَّ الحسنَ نظرَ إلىٰ رجلٍ يعبثُ بالحصىٰ ويقولُ : اللهمَّ ؛ زوجني الحورَ العينَ ، فقالَ : بئسَ الخاطبُ أنتَ ، تخطبُ الحورَ العينَ وأنتَ تعبثُ ؟![٧]

وقيلَ لخلفِ بنِ أيوبَ : ألا يؤذيكَ الذبابُ في الصلاةِ فتطردَها ؟ قالَ : لا أُعَوِّدُ نفسي شيئاً يفسدُ عليَّ صلاتي ، قيلَ لهُ : وكيفَ تصبرُ علىٰ ذٰلكَ ؟ قالَ : بلغني أنَّ الفساقَ يصبرونَ تحتَ أسواطِ السلطانِ ليقالَ : فلانٌ صبورٌ ويفتخرونَ بذٰلكَ ، فأنا قائمٌ بينَ يدي رَبِّي ، أفأتحرَّكُ لذبابةٍ ؟!

ويُروىٰ عنْ مسلمِ بنِ يسارٍ أنَّهُ كانَ إذا أرادَ الصلاةَ . . قالَ لأهلِهِ : (تحدَّثوا أنتمْ ، فإنِّي لستُ أسمعُكُمْ)[٨]

ويُروىٰ عنهُ أنَّهُ كانَ يصلِّي يوماً في جامعِ البصرةِ ، فسقطتْ ناحيةٌ مِنَ المسجدِ ، فاجتمعَ الناسُ لذٰلِكَ ، فلمْ يشعرْ بهِ حتَّى انصرفَ مِنَ الصلاةِ[٩]

---

(١) حلية الأولياء (٢/٢٢٩) بنحوه .

(٢) قال الحافظ ابن رجب في « فتح الباري » (٤/١١٤) : (خرجه الحافظ أبو الحسين بن المظفر في « غرائب شعبة » ـ وساق سنده ـ عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندي . . كان في مهنة أهله ، فإذا نودي بالصلاة . . كأنه لم يعرفنا ») ، وأيّد هٰذه الزيادة برواية أخرىٰ عند أبي زرعة في « تاريخه » ، وأصل الحديث عند البخاري (٦٧٦) .

(٣) روى المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٩٢) نحوه بلفظ : « ما بال أقوام يتلىٰ عليهم كتاب الله فلا يدرون ما يتلىٰ منه مما ترك ؟! هٰكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل ، فشهدت أبدانهم وغابت قلوبهم ، ولا يقبل الله من عبد عملاً حتىٰ يشهد بقلبه مع بدنه » .

(٤) روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/٢١٨) عن وهب بن منبه قال : (قرأت في بعض الكتب التي أنزلت من السماء : أن الله قال لإبراهيم عليه السلام : أتدري لم اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يا رب ، قال : لذلّ مقامك بين يدي في الصلاة) ، وعنه قال : (لما اتخذ الله تعالىٰ إبراهيم خليلاً . . كان يسمع خفقان قلبه من بُعدٍ خوفاً من الله عز وجل) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/٢٠٢ ـ ٢٠٣) .

(٦) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣١٧) مرفوعاً ، ورواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٨٩) موقوفاً علىٰ حذيفة ، ومن قول سعيد بن المسيب .

(٧) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/٢٨٧) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله بنحوه .

(٨) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/٢٩٠) .

(٩) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/٢٩٠) .

وكانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ وكرَّمَ وجهَهُ إذا حضرَ وقتُ الصلاةِ يتزلزلُ ويتلوَّنُ وجهُهُ ، فقيلَ لهُ : ما لكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ فيقولُ : جاءَ وقتُ أمانةٍ عرَضَها اللهُ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأَبَيْنَ أنْ يحملْنَها وأشفقْنَ منها وحملتُها .

ويُروىٰ عنْ عليِّ بنِ الحسينِ أَنَّهُ كانَ إذا توضَّأَ . . اصفرَّ لونُهُ ، فيقولُ لهُ أهلُهُ : ما هٰذا الذي يعتريكَ عندَ الوضوءِ ؟ فيقولُ : أتدرونَ بينَ يدي مَنْ أُريدُ أنْ أقومَ ؟[1]

ويُروىٰ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أَنَّهُ قالَ : قالَ داوودُ عليه السلامُ في مناجاتِهِ : إلٰهي ؛ مَنْ يسكنُ بيتَكَ وممَّنْ تتقبَّلُ الصلاةَ ؟ فأوحى اللهُ إليهِ : يا داوودُ ؛ إنَّما يسكنُ بيتي وأقبلُ الصلاةَ منهُ مَنْ تواضعَ لعظمتي ، وقطعَ نهارَهُ بذكري ، وكفَّ نفسَهُ عنِ الشهواتِ مِنْ أجلي ، يطعمُ الجائعَ ، ويُؤوي الغريبَ ، ويرحمُ المصابَ ، فذٰلكَ الذي يضيءُ نورُهُ في السماءِ كالشمسِ ، إنْ دعاني . . لبَّيتُهُ ، وإنْ سألني . . أعطيتُهُ ، أجعلُ لهُ في الجهلِ حِلماً ، وفي الغفلةِ ذكراً ، وفي الظلمةِ نوراً ، وإنَّما مثلُهُ في الناسِ كالفردوسِ في أعلى الجنانِ ، لا تيبسُ أنهارُها ، ولا تتغيَّرُ ثمارُها[2]

ويُروىٰ عَنْ حاتمٍ الأصمِّ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّهُ سئلَ عنْ صلاتِهِ فقالَ : (إذا حانتِ الصلاةُ . . أسبغتُ الوضوءَ ، وأتيتُ الموضعَ الذي أريدُ الصلاةَ فيهِ ، فأقعدُ فيهِ حتَّىٰ تجتمعَ جوارحي ؛ ثمَّ أقومُ إلىٰ صلاتي ، فأجعلُ الكعبةَ بينَ حاجبيَّ ، والصراطَ تحتَ قدميَّ ، والجنةَ عنْ يميني ، والنارَ عنْ يساري ، وملكَ الموتِ ورائي ، وأظنُّها آخرَ صلاتي ، ثمَّ أقومُ بينَ الرجاءِ والخوفِ ، وأكبِّرُ تكبيراً بتحنُّنٍ ، وأقرأُ قراءةً بترتيلٍ ، وأركعُ ركوعاً بتواضعٍ ، وأسجدُ سجوداً بتخشُّعٍ ، وأقعدُ على الوَرْكِ اليسرىٰ ، وأفرشُ ظهرَ قدمِها ، وأنصبُ القدمَ اليمنىٰ على الإبهامِ ، وأتبعُها الإخلاصَ ، ثمَّ لا أدري : أقبلتْ منِّي أمْ لا)[3]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ركعتانِ مقتصدتانِ في تفكُّرٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ والقلبُ ساهٍ)[4]

* * *

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٣٨) ، وابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (١٤٨) .

(٢) بنحوه مرفوعاً في « الحلية » (١٨/٤) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٦) والخطاب فيه لسيدنا موسىٰ عليه السلام .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧٥/٨) بنحوه .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٨٨) .

فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بَنَىٰ للهِ مسجداً ولوْ كَمَفْحَصِ قطاةٍ . . بنى اللهُ لَهُ قصراً في الجنَّةِ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ألفَ المسجدَ . . أَلِفَهُ اللهُ تعالىٰ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا دخلَ أحدُكمُ المسجدَ . . فليركعْ ركعتينِ قبلَ أنْ يجلسَ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا صلاةَ لجارِ المسجدِ إلا في المسجدِ »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الملائكةُ تُصلِّي علىٰ أحدِكُمْ ما دامَ في مصلَّاهُ الذي يصلِّي فيهِ ، تقولُ : اللهمَّ ؛ صلِّ عليه ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لهُ ، اللهمَّ ؛ ارحمْهُ ، ما لمْ يحدِثْ أوْ يَخرجْ مِنَ المسجدِ »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يأتي في آخرِ الزمانِ ناسٌ مِنْ أُمتي يأتونَ المساجدَ فيقعدونَ فيها حلقاً حلقاً ، ذكرهُمُ الدنيا وحُبُّ الدنيا ، لا تجالسوهُمْ ؛ فليسَ للهِ بهِمْ حاجةٌ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في بعضِ الكتبِ : إنَّ بيوتي في أرضِي المساجدُ ، وإنَّ زُوَّاري فيها عُمَّارُها ، فطُوبىٰ لعبدٍ تطهَّرَ في بيتِهِ ثمَّ زارني في بيتي ، فحقٌّ على المزُورِ أنْ يُكرمَ زائرَهُ »(٧)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا رأيْتمُ الرجلَ يعتادُ المساجد . . فاشهدُوا لهُ بالإيمانِ »(٨)

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (مَنْ جلسَ في المسجدِ . . فإنَّما يجالسُ ربَّهُ ، فما أحقَّهُ ألَّا يقولَ إلا خيراً)(٩)

ويروىٰ في الأثرِ أوْ في الخبرِ : (الحديثُ في المسجدِ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ البهيمةُ الحشيشَ)(١٠)

وقالَ النخعيُّ : (كانوا يرونَ أنَّ المشيَ في الليلةِ المظلمةِ إلى المسجدِ موجبٌ للجنَّةِ)(١١)

---

(١) رواه ابن ماجه (٧٣٨) وأصله في « الصحيحين » ، **ومفحص القطاة** : مكان رقودها علىٰ بيضها ، وهي لا تتخذ ذٰلك من الشجر بل على التراب ، ولهٰذا خص ذكر هٰذا الطائر .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٣٧٩) .

(٣) رواه البخاري (٤٤٤) ، ومسلم (٧١٤) .

(٤) رواه الدارقطني في « سننه » (٤١٩/١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٤٦/١) ، وجار المسجد هو الذي يسمع النداء كما جاء مصرحاً في بعض الروايات .

(٥) رواه البخاري (٤٤٥) ، ومسلم (٦٤٩) .

(٦) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣٢٣/٤) ، والطبراني في « الكبير » (١٩٨/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٩/٤) .

(٧) روىٰ صدره أبو نعيم في « الحلية » (٢١٣/١٠) بنحوه ، وآخره الطبراني في « الكبير » (٢٥٣/٦) بلفظ : « من توضأ في بيته ، فأحسن الوضوء ، ثم أتى المسجد . . فهو زائر الله ، وحق على المزور أن يكرم الزائر » .

(٨) رواه الترمذي (٢٦١٧) ، وابن ماجه (٨٠٢) .

(٩) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١٦)

(١٠) لم يصرح المصنف بكونه حديثاً ، وانظر « كشف الخفاء » (٤٢٣/١) ، ويفيد معناه حديث : « فيقعدون حلقاً ، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا ، فلا تجالسوهم » السابق .

(١١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٢٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٥٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢٥/٤) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (مَنْ أسرجَ في مسجدٍ سراجاً . . لمْ تزلِ الملائكةُ وحملةُ العرْشِ يستغفرونَ لهُ ما دامَ في ذٰلكَ المسجدِ ضوءُهُ)[1]

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (إذا ماتَ العبدُ . . بكىٰ عليهِ مصلَّاهُ مِنَ الأرضِ ومصعدُ عملِهِ مِنَ السماءِ) ، ثمَّ قرأَ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾[2]

وقالَ ابنُ عباسٍ : (تبكي عليهِ الأرضُ أربعينَ صباحاً)[3]

وقالَ عطاءٌ الخراسانيُّ : (ما مِنْ عبدٍ يسجدُ للهِ سجدةً في بقعةٍ مِنْ بقاعِ الأرضِ إلا شهدتْ لهُ بها يومَ القيامةِ ، وبكتْ عليهِ يومَ يموتُ)[4] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (ما مِنْ بقعةٍ يذكرُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليها بصلاةٍ أوْ ذكرٍ إلا افتخرتْ علىٰ ما حولَها مِنَ البقاعِ ، واستبشرتْ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلىٰ منتهاها مِنْ سبعِ أرضينَ ، وما مِنْ عبدٍ يقومُ يصلِّي إلا تزخرفتْ لهُ الأرضُ)[5]

ويقالُ : (ما مِنْ منزلٍ ينزلُهُ قومٌ إلا أصبحَ ذٰلكَ المنزلُ يصلِّي عليهِمْ أوْ يلعنُهُمْ)[6]

* * *

---

(١) رواه عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً الحارثُ بن أسامة في « مسنده » (١٢٧) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٨) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٤٠) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٩) .

(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٤) .

البَابُ الثَّاني
في كيفيّة الأعمال الظاهرة من الصّلاة والبداية بالتكبير وما قبله

ينبغي للمصلّي إذا فرغَ مِنَ الوضوءِ ، والطهارةِ مِنَ الخبثِ في البدنِ والثيابِ والمكانِ ، ومِنْ سترِ العورةِ مِنَ السرَّةِ إلى الركبةِ :

أنْ ينتصبَ قائماً متوجهاً إلى القبلةِ ، ويراوحَ بينَ قدميهِ[1] ولا يضمَّهُما ؛ فإنَّ ذٰلكَ ممَّا كانَ يستدلُّ بهِ علىٰ فقْهِ الرجلِ ، وقدْ نَهىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الصفْنِ والصفْدِ في الصلاةِ[2] ؛ **والصفدُ** : هوَ اقترانُ القدمينِ معاً ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ ، **والصفنُ** : هوَ رفعُ إحدى الرجلينِ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ ، هٰذا ما يراعيهِ في رجليهِ عندَ القيامِ .

ويراعي في ركبتيهِ ومعقدِ نطاقِهِ الانتصابَ ، وأمَّا رأسُهُ فإنْ شاءَ . . تركَهُ على استواءِ القيامِ ، وإنْ شاءَ . . أطرقَ ، والإطراقُ أقربُ للخشوعِ وأغضُّ للبصرِ .

وليكنْ بصرُهُ محصوراً علىٰ مصلاهُ الذي يصلِّي عليهِ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ مصلّىً . . فليقربْ مِنْ جدارٍ أوْ ليخطَّ خطّاً ، فإنَّ ذٰلكَ يقصِّرُ مسافةَ البصرِ ويمنعُ تفرُّقَ الفكرِ ، وليحجرْ علىٰ بصرِهِ أنْ يجاوزَ أطرافَ المصلَّىٰ وحدودَ الخطِّ ، وليدمْ هٰذا القيامَ كذٰلكَ إلى الركوعِ مِنْ غيرِ التفاتٍ ؛ هٰذا أدبُ القيامِ .

فإذا استوىٰ قيامُهُ واستقبالُهُ وإطراقُهُ كذٰلكَ . . فليقرأْ : (قل أعوذ برب الناس) تحصُّناً بهِ مِنَ الشيطانِ ، ثمَّ ليأتِ بالإقامةِ ، وإنْ كانَ يرجو حضورَ مَنْ يقتدي بهِ . . فليؤذِّنْ أوَّلاً ، ثمَّ ليحضرِ النيةَ ، وهوَ أنْ ينويَ في الظهرِ مثلاً ويقولَ بقلبِهِ : أؤدِّي فريضةَ الظهرِ للهِ ، ليميّزَها بقولِهِ : (أؤدِّي) عنِ القضاءِ ، وبـ (الفريضةِ) عنِ النفلِ ، وبـ (الظهرِ) عنِ العصرِ وغيرِهِ ، ولتكنْ معاني هٰذهِ الألفاظِ حاضرةً في قلبِهِ ؛ فإنَّهُ هُوَ النيةُ ، والألفاظُ مذكِّراتٌ وأسبابٌ لحضورِها ، ويجتهدُ أنْ يستديمَ ذٰلكَ إلىٰ آخرِ التكبيرِ حتَّىٰ لا يعزبَ

فإذا حضرَ في قلبِهِ ذٰلكَ . . فليرفعْ يديهِ إلىٰ حذْوِ مَنْكبيهِ بعدَ إرسالِهِما بحيثُ يحاذي بكفيهِ مَنْكبيهِ ، وبإبهاميهِ شحمتي أذنيهِ ، وبرؤوسِ أصابعِهِ رؤوسَ أُذنيهِ ؛ ليكونَ جامعاً بينَ الأخبارِ الواردةِ فيهِ ، ويكونُ مقبلاً بكفيهِ وإبهامَيْهِ إلى القبلةِ ، ويبسطُ الأصابعَ ولا يقبضُها ، ولا يتكلَّفُ فيها تفريجاً ولا ضمّاً ، بلْ يتركُها علىٰ مقتضىٰ طبعِها ؛ إذْ نقلَ في الأثرِ النشرُ والضمُّ ، وهٰذا بينَهُما ، فهوَ أولىٰ .

فإذا استقرتِ اليدانِ في مقرِّهما . . ابتدأَ التكبيرَ معَ إرسالِهِما وإحضارِ النيَّةِ ، ثمَّ يضعُ اليدينِ علىٰ ما فوقَ السرَّةِ

---

(١) أي : بين كعبيه في القيام ، ولكن يجعل بين قدميه مقدار أربع أصابع ، هٰكذا قرره الأردبيلي في « الأنوار » (٨٨/١) ، وأصل المراوحة في العملين : أن يعمل هٰذا مرة وهٰذا مرة ، وتقول : راوح بين رجليه ؛ أي : قام علىٰ إحداهما مرة وعلى الأخرىٰ مرة . « إتحاف » (٣٢/٣) .

(٢) ذكره ابن الأثير في « النهاية » (٣٥/٣ ، ٣٩) ، وروى النسائي (١٢٨/٢) عن عبد الله بن مسعود : أنه رأىٰ رجلاً يصلي قد صف بين قدميه فقال : (أخطأ السنة ، ولو راوح بينهما كان أعجب إليَّ) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨٩/٣) : (وأصل هٰذا في كتاب « القوت » [٩٦/٣] ، وهو الذي فسر معنى الألفاظ ، وتبعه من جاء بعده) .

وتحتَ الصدْرِ ، ويضعُ اليمنىٰ على اليسرىٰ إكراماً لليمنىٰ ؛ بأنْ تكونَ محمولةً ، وينشرُ المسبّحةَ والوسطىٰ مِنَ اليمنىٰ علىٰ طولِ الساعدِ ، ويقبضُ بالإبهامِ والخنصرِ والبنصرِ علىٰ كوعِ اليسرىٰ .

وقدْ رُويَ التكبيرُ معَ رفعِ اليدينِ ، ومعَ استقرارِهما ، ومعَ الإرسالِ ، وكلُّ ذٰلكَ لا حرجَ فيهِ ، وأراهُ بالإرسالِ أليقَ ؛ فإنَّهُ كلمةُ العقدِ[1] ، ووضعُ إحدى اليدينِ على الأخرىٰ في صورةِ العقدِ ، ومبدؤُهُ الإرسالُ ، وآخرُهُ الوضعُ ، ومبدأُ التكبيرِ الألفُ ، وآخرُهُ الراءُ ، فيليقُ مراعاةُ التطابقِ بينَ الفعلِ والعقدِ ، وأمَّا رفعُ اليدِ . . فكالمقدمةِ لهٰذهِ البدايةِ .

ثمَّ لا ينبغي أنْ يدفعَ يديهِ إلىٰ قدَّامٍ دفعاً عندَ التكبيرِ ، ولا يردَّهما إلىٰ خلفِ مَنْكبيهِ ، ولا ينفضَهُما عنْ يمينٍ وشمالٍ نفضاً إذا فرغَ مِنَ التكبيرِ ، ويرسلُهُما إرسالاً خفيفاً رفيقاً ، ويستأنفُ وضْعَ اليمينِ على الشمالِ بعدَ الإرسالِ .

وفي بعضِ الرواياتِ : أنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا كبَّرَ . . أرسلَ يديْهِ ، فإذا أرادَ أنْ يقرأَ . . وضعَ اليمنىٰ على اليسرىٰ ، فإنْ صحَّ هٰذا . . فهوَ أولىٰ ممَّا ذكرناه .

❁ ❁ ❁

وأمَّا التكبيرُ : فينبغي أنْ يضمَّ الهاءَ مِنْ قوله : (اللهُ) ، ضمةً خفيفةً مِنْ غيرِ مبالغةٍ ، ولا يدخلُ بينَ الهاءِ والألفِ[2] شبهَ الواوِ ، وذٰلكَ ينساقُ إليهِ بالمبالغةِ ، ولا يدخلُ بينَ باءِ : (أكبرْ) ورائِهِ ألفاً كأنَّهُ يقولُ : (أكبارْ) ، ويجزمُ راءَ التكبيرِ ولا يضمُّها .

فهٰذهِ هيئةُ التكبيرِ وما معَهُ .

القراءة

ثمَّ يبتدئُ بدعاءِ الاستفتاحِ ، وحسنَ أنْ يقولَ عَقيبَ قولِهِ : « اللهُ أَكْبَرْ » : (كبيراً ، وَالحمدُ للهِ كثيراً ، وسُبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً[3] ، وجهتُ وجهيَ . . .) إلىٰ قولِهِ : (وأنا مِنَ المسلمينَ)[4] ، ثمَّ يقولُ : (سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، وتباركَ اسمُكَ ، وتعالىٰ جدُّكَ ، وجلَّ ثناؤكَ ، ولا إلٰهَ غَيرُكَ)[5] ؛ ليكونَ جامعاً بينَ متفرقاتِ ما وردَ في الأخبارِ[6] ، وإنْ كانَ خلفَ الإمامِ . . اختصرَ إنْ لمْ يكنْ للإمامِ سكتةٌ طويلةٌ يقرأُ فيها (الفاتحةَ) .

ثمَّ يقولُ : أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ثمَّ يقرأُ (الفاتحةَ)[7] ، بتمامِ تشديداتِها وحروفِها ، ويجتهدُ في الفرقِ بينَ الضادِ والظاءِ ، ويقولُ : (آمينَ) في آخرِ (الفاتحةِ) ، ويمدُّها مدّاً ، ولا يصلُ (آمينَ) بقولِهِ : (ولا الضالينَ) وصلاً[8] .

---

(١) أي : يعقد قلبه علىٰ معناها من إثبات الكبرياء والجلال والعظمة لله تعالىٰ . « إتحاف » (٣/٣٩) .

(٢) من لفظ : (أكبر) .

(٣) رواه مسلم (٦٠١) .

(٤) رواه مسلم (٧٧١) ، وهو : (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذٰلك أمرت وأنا من المسلمين) .

(٥) رواه أبو داوود (٧٧٥) ، والترمذي (٢٤٢) ، والنسائي (٢/١٣٢) ، وهو عند مسلم (٣٩٩) موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه .

(٦) كذا في « القوت » (٢/٩٤) ، و« الأذكار » (ص ٩٩) .

(٧) في هامش (ز) : (يبتدئ فيها ببسم الله الرحمٰن الرحيم) .

(٨) بل بعد سكتة لطيفة جداً ؛ ليعلم أن (آمين) ليست من (الفاتحة) . « الأذكار » (ص ١٠٨) .

ويجهرُ بالقراءةِ في الصبحِ والمغربِ والعشاءِ[1] إلا أنْ يكونَ مأموماً ، ويجهرُ بالتأمينِ .

ثـمَّ يقرأُ السورةَ أوْ قدْرَ ثلاثِ آياتٍ مِنَ القرآنِ فما فوقَها ، ولا يصلُ آخرَ السورةِ بتكبيرِ الهويّ ، بل يفصلُ بينهما بقدْرِ قولِهِ : (سبحانَ اللهِ) .

ويقرأُ في الصبحِ مِنَ السورِ الطوالِ مِنَ المفصَّلِ ، وفي المغربِ مِنْ قصارِهِ ، وفي الظهرِ والعصرِ والعشاءِ نحو : (والسماءِ ذاتِ البروجِ) وما قاربَها ، وفي الصبحِ في السفرِ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، وكذلكَ في ركعتي الفجرِ والطوافِ والتحيةِ ، وهوَ في جميعِ ذلكَ مستديمٌ للقيامِ ووضعِ اليدينِ كما وصفْنا في أوَّلِ الصلاةِ .

الرّكوع ولواحقه

ثـمَّ يركعُ ويراعي فيهِ أموراً : أنْ يكبّرَ للركوعِ ، وأنْ يرفعَ يديهِ معَ تكبيرةِ الركوعِ ، وأنْ يمدَّ التكبيرَ مدّاً إلى الانتهاءِ إلى الركوعِ ، وأنْ يضعَ راحتيهِ على ركبتيهِ في الركوعِ وأصابعُهُ منشورةٌ موجهةٌ نحوَ القبلةِ على طولِ الساقِ ، وأنْ ينصبَ ركبتيهِ ولا يَثنِيَهُما ، وأنْ يمدَّ ظهرَهُ مستوياً ، وأنْ يكونَ عنقُهُ ورأسُهُ مستويينِ مع ظهرِهِ كالصفيحةِ الواحدةِ ، لا يكونُ رأسُهُ أخفضَ ولا أرفعَ ، وأنْ يجافيَ مرفقيهِ عنْ جنبيهِ ، وتضمُّ المرأةُ مرفقيها إلى جنبيها .

وأنْ يقولَ : (سبحانَ ربيَ العظيمِ) ثلاثاً ، والزيادةُ إلى السبعةِ وإلى العشرةِ حسنٌ إنْ لمْ يكنْ إماماً .

ثـمَّ يرفعُ مِنَ الركوعِ إلى القيامِ ، ويرفعُ يديهِ ويقولُ : (سمعَ اللهُ لمنْ حمدَه) ، ويطمئنُّ في الاعتدالِ ويقولُ : (ربَّنا لكَ الحمدُ[2] ، ملْءُ السماواتِ وملْءُ الأرضِ وملْءُ ما شئتَ مِنْ شيءٍ بعدُ)[3] ، ولا يطوّلُ هـذا القيامَ إلا في صلاةِ التسبيحِ والكسوفِ والصبحِ .

ويقنتُ في الصبحِ في الركعةِ الثانيةِ بالكلماتِ المأثورةِ قبلَ السجودِ[4]

السّجود

ثمَّ يهوي إلى السجودِ مكبّراً ، فيضعُ ركبتيهِ على الأرضِ ، ويضعُ جبهتَهُ وأنفَهُ وكفَّيهِ مكشوفةً ، ويكبّرُ عندَ الهويّ ، ولا يرفعُ يديهِ في غيرِ الركوعِ .

وينبغي أنْ يكونَ أولَ ما يقعُ منهُ على الأرضِ ركبتاهُ ، وأنْ يضعَ بعدَهُما يديهِ ، ثمَّ يضعَ بعدَهُما وجهَهُ ، وأنْ يضعَ جبهتَهُ وأنفَهُ على الأرضِ ، وأن يجافيَ مرفقيهِ عنْ جنبيهِ ، ولا تفعلُ المرأةُ ذلكَ ، وأنْ يفرّجَ بينَ رجليهِ ، ولا تفعلُ المرأةُ ذلكَ ، وأنْ يكونَ في سجودِهِ مخوياً على الأرضِ ، ولا تكونُ المرأةُ مخويةً ، **والتخويةُ** : رفعُ البطنِ عنِ الفخذينِ

(١) في الأوليين من المغرب والعشاء وجميع الصبح ، إماماً كان أو منفرداً . « الخلاصة » (ص ١٠٠) .

(٢) كذا بإسقاط الواو في النسخ إلا (ب) : (ولك) قال الرافعي في « العزيز » (٥١٢/١) : (والروايتان معاً صحيحتان) ، قال الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (٦٩٤/٢) : (فأما الرواية بإثبات الواو . . فمتفق عليها ، وأما بإسقاطها . . ففي « صحيح أبي عوانة ») .

(٣) كما في « مسلم » (٤٧١) .

(٤) وهي التي رواها البيهقي في « السنن الكبرى » (٢٠٩/٢) ، وهي عند أصحاب السنن مخصوصة بالوتر : (اللهم ؛ اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، إنك تقضي ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت ، وصلى الله على النبي وآله وسلم) انظر « العزيز شرح الوجيز » (٥١٦/١)

والتفريجُ بينَ الفخذينِ [1] ، وأنْ يضعَ يديهِ على الأرضِ حذاءَ مَنْكِبيهِ ، وألا يفرّجَ أصابعَهُما ، بلْ يضمُّهُما ويضمُّ الإبهامَ إليها ، وإنْ لمْ يضمَّ الإبهامَ . . فلا بأسَ ، ولا يفترشْ ذراعيهِ على الأرضِ كما يفترشُ الكلبُ ؛ فإنَّهُ منهيٌّ عنهُ ، وأنْ يقولَ : (سبحانَ ربيَ الأعلىٰ) ثلاثاً ، فإنْ زادَ . . فحسنٌ ، إلا أنْ يكونَ إماماً .

ثمَّ يرفعُ مِنَ السجودِ ، فيطمئنُّ جالساً معتدلاً ، فيرفعُ رأسَهُ مكبراً ، ويجلسُ علىٰ رجلِهِ اليسرىٰ ، وينصبُ قدمَهُ اليمنىٰ ، ويضعُ يديهِ علىٰ فخذيهِ والأصابعُ منشورةٌ ، ولا يتكلَّفُ ضمَّها ولا تفريجَها ، ويقولُ : (ربِّ اغفرْ لي ، وارحمني ، وارزقني ، واهدني ، واجبرني ، وعافني ، واعفُ عنّي) [2] ، ولا يطوِّلُ هـٰذهِ الجلسةَ إلا في سجودِ التسبيحِ ، ويأتي بالسجدةِ الثانيةِ كذٰلكَ ، ويستوي منها جالساً جلسةً خفيفةً للاستراحةِ في كلِّ ركعةٍ لا تشهُّدَ عقيبَها ، ثمَّ يقومُ فيضعُ يديهِ على الأرضِ ، ولا يقدِّمُ إحدىٰ رجليهِ في حالةِ الارتفاعِ ، ويمدُّ التكبيرَ حتَّىٰ يستغرقَ ما بينَ وسطِ ارتفاعِهِ مِنَ القعودِ ، إلىٰ وسطِ ارتفاعِهِ إلى القيامِ ؛ بحيثُ تكونُ الهاءُ مِنْ قولِهِ : (اللهُ) عندَ استوائِهِ جالساً ، وكافُ (أكبرُ) عندَ اعتمادِهِ علىٰ يديهِ للقيامِ ، وراءُ (أكبرُ) في وسطِ ارتفاعِهِ إلى القيامِ ، ويبتدئُ في وسطِ ارتفاعِهِ إلى القعودِ حتَّىٰ يقعَ التكبيرُ في وسطِ انتقالِهِ ، ولا يخلو عنهُ إلا طرفاهُ ، وهوَ أقربُ إلى التعميمِ ، ويصلِّي الركعةَ الثانيةَ كالأولىٰ ، ويعيدُ التعوُّذَ كالابتداءِ .

التشهد

ثمَّ يتشهَّدُ في الركعةِ الثانيةِ التشهُّدَ الأوَّلَ ، ثمَّ يصلِّي علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ آلِهِ ، ويضعُ يدَهُ اليمنىٰ علىٰ فخذِهِ اليمنىٰ ، ويقبضُ أصابعَهُ اليمنىٰ إلا المسبِّحَةَ ، ولا بأسَ بإرسالِ الإبهامِ أيضاً ، ويشيرُ بمسبِّحَةِ يمناهُ وحدَهَا عندَ قولِهِ : (إلا اللهُ) ، لا عندَ قولِهِ : (لا إلـٰهَ) .

ويجلسُ في هـٰذا التشهدِ علىٰ رجلِهِ اليسرىٰ كما بينَ السجدتينِ .

وفي التشهدِ الأخيرِ يستكملُ الدعاءَ المأثورَ بعدَ الصلاةِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [3] ، وسننُهُ كسننِ التشهُّدِ الأوَّلِ ، لـٰكنْ يجلسُ في الأخيرِ علىٰ وركِهِ الأيسرِ ؛ لأنَّهُ ليسَ مستوفزاً للقيامِ ، بلْ هوَ مستقرٌّ ، ويضجعُ رجلَهُ اليسرىٰ خارجةً مِنْ تحتِهِ ، وينصبُ اليمنىٰ ، ويضعُ رأسَ الإبهامِ إلىٰ جهةِ القبلةِ إنْ لمْ يشقَّ عليهِ ، ثمَّ يقولُ : (السلامُ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ) ويلتفتُ يميناً بحيثُ يَرىٰ خدَّهُ الأيمنَ مَنْ وراءَهُ مِنَ الجانبِ اليمينِ ، ويلتفتُ شمالاً كذٰلكَ ، ويسلِّمُ تسليمةً ثانيةً ، وينوي الخروجَ بالسلامِ مِنَ الصلاةِ ، وينوي بالسلامِ علىٰ مَنْ علىٰ يمينِهِ مِنَ الملائكةِ والمسلمينَ في الأولىٰ ، وينوي مثلَ ذٰلكَ في الثانيةِ ، ويجزمُ التسليمَ ولا يمدُّهُ مداً ؛ فهوَ السنَّةُ .

وهـٰذهِ هيئةُ صلاةِ المنفردِ .

ويرفعُ صوتَهُ بالتكبيراتِ ، ولا يرفعُ صوتَهُ إلَّا بقدرِ ما يُسمِعُ نفسَهُ .

وينوي الإمامُ الإمامةَ لينالَ الفضلَ ، فإنْ لمْ ينوِ . . صحَّتْ صلاةُ القومِ إذا نوَوُا الاقتداءَ ، ونالُوا فضلَ الجماعةِ .

---

(١) في (هـ) : (والتفريج بين الفخذين والركبتين) ، وفي (و) : (الركبتين) .

(٢) رواه أبو داوود (٨٥٠) ، والترمذي (٢٨٤) ، وابن ماجه (٨٩٨) .

(٣) والمأثور كثير ، منه ما رواه مسلم (٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تشهد أحدكم . . فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهمّ ؛ إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » .

ويُسرُّ بدعاءِ الاستفتاحِ والتعوذِ كالمنفردِ ، ويجهرُ بـ (الفاتحةِ) والسورةِ في جميعِ الصبحِ وأوليَيِ العشاءِ والمغربِ ، وكذٰلكَ المنفردُ .

ويجهرُ بقولِهِ : (آمينَ) في الصلاةِ الجهريَّةِ ، وكذٰلكَ المأمومُ ، ويقرنُ المأمومُ تأمينَهُ بتأمينِ الإمامِ معاً لا تعقيباً ، ويسكُتُ الإمامُ سكتةً عقيبَ (الفاتحةِ) ؛ ليثوبَ إليهِ نَفَسُهُ ، ويقرأُ المأمومُ (الفاتحةَ) في الجهريةِ في هٰذهِ السكتةِ ؛ ليتمكَّنَ مِنَ الاستماعِ عندَ قراءةِ الإمامِ ، ولا يقرأُ المأمومُ السورةَ في الجهريَّةِ إلَّا إذا لمْ يسمعْ صوتَ الإمامِ .

ويقولُ الإمامُ : (سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهُ) عندَ رفعِ رأسِهِ مِنَ الركوعِ ، وكذا المأمومُ ، ولا يزيدُ الإمامُ على الثلاثِ في تسبيحاتِ الركوعِ والسجودِ ، ولا يزيدُ في التشهُّدِ الأولِ بعدَ قولِهِ : (اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ) ويقتصرُ في الركعتينِ الأخيرتينِ على (الفاتحةِ) ، ولا يطوّلُ على القومِ ، ولا يزيدُ علىٰ دعائِهِ في التشهُّدِ الأخيرِ علىٰ قدرِ التشهّدِ والصلاةِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وينوي عندَ السلامِ السلامَ على القومِ والملائكةِ ، وينوي القومُ بتسليمِهِمْ جوابَهُ .

ويثبتُ الإمامُ ساعةً حتَّىٰ يفرغَ الناسُ مِنَ السلامِ ، ويُقبلُ على الناسِ بوجهِهِ ، والأَولىٰ أنْ يثبتَ إنْ كانَ خلفَ الرجالِ نساءٌ ؛ لينصرفْنَ قبلَهُ ، ولا يقومُ واحدٌ مِنَ القومِ حتَّىٰ يقومَ ، وينصرفُ الإمامُ حيثُ يشاء مِنْ يمينِهِ وشمالِهِ ، واليمينُ أحبُّ إليَّ .

ولا يخصُّ الإمامُ نفسَهُ بالدعاءِ في قنوتِ الصبحِ ، بلْ يقولُ : (اللهمَّ اهدِنا . . .) ويجهرُ بهِ ، ويؤمّنُ القومُ ، ويرفعونَ أيديَهُمْ حذاءَ الصدورِ ، ويمسحُ الوجهَ عندَ ختْمِ الدعاءِ ؛ لحديثٍ نُقلَ فيهِ[١] ، وإلَّا . . فالقياسُ ألَّا يرفعَ اليدَ كما في آخرِ التشهّدِ .

المنهيّات

نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الصلاةِ عَنِ الصفْنِ والصفْدِ ، وقد ذكرْناهما[٢] ، وعنِ الإقعاءِ[٣] ، وعنِ السَّدْلِ[٤] ، والكفّ[٥] ، وعنِ الاختصارِ[٦] ، وعنِ الصَّلْبِ[٧] ، وعنِ المواصلةِ ، وعنْ صلاةِ الحاقنِ والحاقبِ والحازقِ[٨] ، وعن صلاةِ الجائعِ والغضبانِ والمتلثّمِ ؛ وهوَ سترُ الوجهِ .

---

(١) وهو ما رواه الترمذي (٣٣٨٦) : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه في الدعاء . . لم يحطَّهما حتىٰ يمسح بهما وجهه) . وانظر « المجموع » (٣/٤٦٢ ـ ٤٦٣) .

(٢) وسيأتي تفسير من المصنف لهٰذه المنهيات فيما يلي .

(٣) كما روى الترمذي (٢٨٢) ، وابن ماجه (٨٩٤) مرفوعاً : « لا تُقعِ بين السجدتين » .

(٤) كما روىٰ أبو داوود (٦٤٣) ، والترمذي (٣٧٨) .

(٥) في (ب) : (الكفت) وكلاهما صحيح ، والكفت والكف : ضم الشيء بعضه إلىٰ بعض ، وسيأتي الخبر الوارد فيه .

(٦) كما هو عند البخاري (١٢٢٠) ، ومسلم (٥٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي الرجل مختصراً) .

(٧) كما هو عند أبي داوود (٩٠٣) ، والنسائي (٢/١٢٧) عن زياد بن صبيح الحنفي قال : (صليت إلىٰ جنب ابن عمر ، فوضعت يدي علىٰ خاصرتي ، فلما صلّىٰ . . قال : هٰذا هو الصلب في الصلاة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهىٰ عنه) .

(٨) كما هو عند مسلم (٥٦٠) مرفوعاً : « لا صلاة بحضرة الطعام ، ولا هو يُدافعُهُ الأخبثان » ، والحازق ـ كما سيبين المصنف ـ في معنىٰ هٰذا من ذهاب الخشوع .

أمَّا الإقعاءُ : فهوَ عندَ أهلِ اللغةِ : أنْ يجلسَ علىٰ وركيهِ وينصبَ ركبتيه ، ويجعلَ يديهِ على الأرضِ كالكلبِ .

وعندَ أهلِ الحديثِ : أنْ يجلسَ علىٰ ساقيهِ جاثياً وليسَ على الأرضِ منهُ إلا رؤوسُ أصابعِ الرجلينِ والركبتانِ .

وأمَّا السدلُ : فمذهبُ أهلِ الحديثِ فيهِ : أنْ يلتحفَ بثوبِهِ ويدخلَ يديهِ مِنْ داخلٍ ، فيركعُ ويسجدُ كذٰلكَ ، وكانَ هٰذا فعلَ اليهودِ في صلاتِهِمْ ، فنهوا عنِ التشبُّهِ بهِمْ ، والقميصُ في معناهُ ، فلا ينبغي أنْ يركعَ ويسجدَ ويداهُ في بدنِ القميصِ ، وقيلَ : معناهُ : أنْ يضعَ وسَطَ الإزارِ علىٰ رأسِهِ ويرسلَ طرفيهِ عنْ يمينِهِ وشمالِهِ مِنْ غيرِ أنْ يجعلَهُما علىٰ كتفيهِ ، والأوَّلُ أقربُ[١]

وأمَّا الكفُّ : فهوَ أنْ يرفعَ ثيابَهُ مِنْ بينِ يديهِ أوْ مِنْ خلفِهِ إذا أرادَ السجودَ ، وقدْ يكونُ الكفُّ في شعرِ الرأسِ ، فلا يصلينْ وهوَ عاقصٌ شعرَهُ ، والنهيُ للرجالِ ، وفي الحديثِ : « أُمرتُ أنْ أسجدَ علىٰ سبعةِ أعضاءٍ ، ولا أكفَّ شعراً ولا ثوباً »[٢]

وكرهَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ أنْ يأتزرَ فوقَ القميصِ في الصلاةِ ورآهُ مِنَ الكفِّ[٣]

وأمَّا الاختصارُ : فأنْ يضعَ يديهِ علىٰ خاصرتِهِ .

وأمَّا الصَّلْبُ : فأنْ يضعَ يديهِ علىٰ خاصرتيهِ ويجافيَ بينَ عضديهِ في القيامِ .

وأمَّا المواصلةُ : فهيَ خمسةٌ ؛ اثنانِ على الإمامِ : ألا يصلَ قراءتَهُ بتكبيرةِ الإحرامِ ، ولا ركوعَهُ بقراءتِهِ ؛ واثنانِ على المأمومِ : ألا يصلَ تكبيرةَ الإحرامِ بتكبيرةِ الإمامِ ، ولا تسليمَهُ بتسليمِهِ ؛ وواحدةٌ بينهما : ألا يصلَ تسليمةَ الفرضِ بالتسليمةِ الثانيةِ ، وليفصلْ بينَهُما

وأمَّا الحاقنُ : فمِنَ البولِ ، **والحاقبُ** : مِنَ الغائطِ ، **والحازقُ** : صاحبُ الخفِّ الضيِّقِ ، فإنَّ كلَّ ذٰلكَ يمنعُ الخشوعَ ، وفي معناهُ : الجائعُ والمهتمُّ ، وفُهِمَ نهيُ الجائعِ مِن قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا حضرَ العَشاءُ وأقيمتِ الصلاةُ . . فابدؤوا بالعَشاءِ »[٤] ، إلا أنْ يضيقَ الوقتُ أوْ يكونَ ساكنَ القلبِ .

وفي الخبرِ : « لا يدخلنَّ أحدُكُمُ الصلاةَ وهوَ مقطِّبٌ ، ولا يصلِّينَّ أحدُكُمْ وهوَ غضبانُ »[٥]

وقالَ الحسنُ : (كلُّ صلاةٍ لا يحضرُ فيها القلبُ فهيَ إلى العقوبةِ أسرعُ)[٦]

وفي الخبرِ : « سبعةُ أشياءَ في الصَّلاةِ مِنَ الشيطانِ : الرُّعافُ ، والنعاسُ ، والوسوسةُ ، والتَّثاؤُبُ ، والحكاكُ ، والالتفاتُ ، والعبثُ بالشيءِ » ، وزادَ بعضُهُمْ : « والسهوُ ، والشكُّ »[٧]

---

(١) وقيل : هو الإسبال للثوب حتىٰ يلامس الأرض ، وعن المعنى الثاني قال إمام أهل اللغة الزبيدي : (وليس بشيء عندي) . « إتحاف » (٩١/٣) .

(٢) رواه البخاري (٨٠٩) ، ومسلم (٤٩٠) .

(٣) قال ابن قدامة في « المغني » (٣٠٠/٢) : (فأما شد الوسط في الصلاة ؛ فإن كان بمنطقة أو مئزر أو ثوب أو شد قباء . . فلا يكره ، رواية واحدة . . . ، وإن كان بخيط أو حبل مع سرّته وفوقها فهل يكره ؟ علىٰ روايتين ؛ إحداهما : يكره ؛ لما فيه من التشبه بأهل الكتاب) .

(٤) رواه البخاري (٥٤٦٥) ، ومسلم (٥٥٧) .

(٥) هٰكذا أورده صاحب « القوت » (٩٧/٢) وقال العراقي : (لم أجده) « إتحاف » (٩٤/٣) .

(٦) رواه الطوسي في « أربعينه » (١١) ، وهو في « القوت » (٩٧/٢) .

(٧) في « الترمذي » (٢٧٤٨) : « العطاس ، والنعاس ، والتثاؤب في الصلاة ، والحيض ، والقيء ، والرعاف من الشيطان » ، وعند البخاري (٧٥١)

وقالَ بعضُ السلفِ : (أربعةٌ في الصلاةِ مِنَ الجفاءِ : الالتفاتُ ، ومسحُ الوجهِ ، وتسويةُ الحصىٰ ، وأنْ تصلِّيَ بطريقِ مَنْ يمرُّ بينَ يديكَ)[1]

ونهىٰ أيضاً عنْ أنْ يشبِّكَ أصابعَهُ[2] ، أوْ يفرقعَ أصابعَهُ[3] ، أوْ يسترَ وجهَهُ[4] ، أوْ يضعَ إحدىٰ كفيهِ على الأخرىٰ ويدخلَهُما بينَ فخذيهِ في الركوعِ ؛ قالَ بعضُ الصحابة رضيَ اللهُ عنهُم : (كنَّا نفعلُ ذٰلكَ فنهينا عنهُ)[5]

ويكرهُ أيضاً أنْ ينفخَ في الأرضِ عندَ السجودِ للتنظيفِ[6] ، وأنْ يسويَ الحصىٰ بيدِهِ[7] ؛ فإنَّها أفعالٌ مستغنىً عنها ، ولا يرفعُ إحدىٰ قدميهِ فيضعُها علىٰ فخذِهِ ، ولا يستندُ في قيامِهِ إلىٰ حائطٍ ، فإنِ استندَ بحيثُ لوْ سلَّ ذٰلكَ الحائطُ . . لسقطَ ؛ فالأظهرُ بطلانُ صلاتِهِ .

تمييز الفرائض والسنن

جملةُ ما ذكرناهُ يشتملُ علىٰ فرائضَ وسننٍ وآدابٍ وهيئاتٍ ممَّا ينبغي لمريدِ طريقِ الآخرةِ أنْ يراعيَ جميعَها .

فالفرضُ مِنْ جملتِها اثنتا عشرةَ خصلةً : النيةُ ، وتكبيرةُ الإحرامِ ، والقيامُ ، و(الفاتحةُ) ، والانحناءُ في الركوعِ إلىٰ أنْ تنالَ راحتاهُ ركبتيهِ معَ الطمأنينةِ ، والاعتدالُ عنهُ قائماً ، والسجودُ معَ الطمأنينةِ ، ولا يجبُ وضعُ اليدينِ ، والاعتدالُ عنهُ قاعداً ، والجلوسُ للتشهدِ الأخيرِ ، والتشهدُ الأخيرُ ، والصلاةُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والسلامُ الأوَّلُ ، فأمَّا نيةُ الخروجِ . . فلا تجبُ .

وما عدا هٰذا فليسَ بواجبٍ ، بلْ هيَ سننٌ وهيئاتٌ فيها[8] وفي الفرائضِ .

أمَّا السننُ : **فمنَ الأفعالِ أربعةٌ** : رفعُ اليدينِ في تكبيرةِ الإحرامِ ، وعندَ الهويِّ إلى الركوعِ ، وعندَ الارتفاعِ إلى القيامِ ، والجلسةُ للتشهدِ الأوَّلِ .

وأمَّا ما ذكرناهُ مِنْ كيفيةِ نشرِ الأصابعِ وحدِّ رفعِها . . فهيَ هيئاتٌ تابعةٌ لهٰذهِ السنَّةِ ، والتورُّكُ والافتراشُ هيئاتٌ تابعةٌ للجلسةِ ، والإطراقُ وتركُ الالتفاتِ هيئاتٌ للقيامِ وتحسينِ صورتِهِ ، وجلسةُ الاستراحةِ لمْ نعدَّها مِنْ أصولِ السننِ في الأفعالِ ؛ لأنَّها كالتحسينِ لهيئةِ الارتفاعِ مِنَ السجودِ إلى القيامِ ، لأنَّها ليستْ مقصودةً في نفسِها ، ولذٰلكَ لمْ تفردْ بذكرٍ .

أنه صلى الله عليه وسلم سُئل عن الالتفات في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » ، وعند مسلم (٢٢٠٣) شكاية عثمان بن أبي العاص الوسوسة في الصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك شيطان يقال له : خَنْزَبٌ ، فإذا أحسسته . . فتعوذ بالله منه . . . » ، وفي « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٨٩) : (قال سعيد بن جبير : خمس ينقص من الصلاة : الالتفات ، والاحتكاك ، وتفقيعك أصابعك في الصلاة ، والوسوسة ، وتقليب الحصىٰ) ، وما ذكره المصنف هو في « القوت » (٩٧/٢) .

(١) قوت القلوب (٩٧/٢) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٢٤١/٤) .

(٣) رواه ابن ماجه (٩٦٥) .

(٤) عند أبي داوود (٦٤٣) ، وابن ماجه (٩٦٦) : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغطي الرجل فاه في الصلاة) .

(٥) رواه البخاري (٧٩٠) ، ومسلم (٥٣٥) ، والمراد ببعض الصحابة هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٦) رواه الطبراني في « الكبير » (١٣٧/٥) .

(٧) رواه أبو داوود (٩٤٥) ، والترمذي (٣٧٩) ، والنسائي (٦/٣) .

(٨) أي : في السنن ؛ كما سيبين المصنف ذلك .

وأمَّا السننُ مِنَ الأذكارِ : فدعاءُ الاستفتاحِ ، ثمَّ التعوُّذُ ، ثمَّ قولُهُ : (آمينَ) فإنَّهُ سنةٌ مؤكدةٌ ، ثمَّ قراءةُ السورةِ ، ثمَّ تكبيراتُ الانتقالاتِ ، ثمَّ الذكرُ في الركوعِ والسجودِ ، والاعتدالِ عنهُما ، ثمَّ التشهدُ الأوَّلُ ، والصلاةُ فيهِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ الدعاءُ في آخرِ التشهدِ الأخيرِ ، ثمَّ التسليمةُ الثانيةُ .

وهٰذهِ وإنْ جمعناها في اسمِ السنةِ فلها درجاتٌ متفاوتةٌ ؛ إذْ يجبرُ مِنْ جملتِها بسجودِ السهوِ أربعةٌ :

أمَّا مِنَ الأفعالِ : فواحدةٌ ؛ وهيَ الجلسةُ الأولىٰ للتشهُّدِ الأوَّلِ ؛ فإنَّها مؤثرةٌ في ترتيبِ نظمِ الصلاةِ في أعينِ الناظرينَ ، حتَّىٰ يعرفُ بها أنَّها رباعيةٌ أمْ لا ، بخلافِ رفعِ اليدينِ ؛ فإنَّهُ لا يؤثرُ في تغييرِ النظمِ ، فعُبِّرَ عنْ ذٰلكَ بالبعضِ ، وقيلَ : الأبعاضُ تجبرُ بالسجودِ .

وأمَّا الأذكارُ : فكلُّها لا تقتضي سجودَ السهوِ إلا ثلاثةٌ : القنوتُ ، والتشهدُ الأوَّلُ ، والصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ ، بخلافِ تكبيراتِ الانتقالاتِ ، وأذكارِ الركوعِ والسجودِ ، والاعتدالِ عنهُما ؛ لأنَّ الركوعَ والسجودَ في صورتِهما مخالفانِ للعادةِ ، ويحصلُ بهما معنى العبادةِ معَ السكوتِ عَنِ الأذكارِ وعنْ تكبيراتِ الانتقالاتِ ، فعدمُ تلكَ الأذكارِ لا تغيِّرُ صورةَ العبادةِ .

وأمَّا الجلسةُ للتشهدِ الأوَّلِ . . ففعلٌ معتادٌ ، وما زيدتْ إلا للتشهدِ ، فتركُها ظاهرُ التأثيرِ [1] ، وأمَّا دعاءُ الاستفتاحِ والسورةُ . . فتركُهُما لا يؤثرُ ، معَ أنَّ القيامَ صارَ معموراً بـ (الفاتحةِ) ومميزاً عنِ العادةِ بها [2] ، وكذٰلكَ الدعاءُ في التشهدِ الأخيرِ .

والقنوتُ أبعدُ ما يجبرُ بالسجودِ ، ولٰكنْ شُرِعَ مدُّ الاعتدالِ في الصبحِ لأجلِهِ ، فكانَ كمدِّ جلسةِ الاستراحةِ ؛ إذْ صارتْ بالمدِّ معَ التشهدِ جلسةً للتشهدِ الأوَّلِ ، فبقيَ هٰذا قياماً ممدوداً معتاداً ليسَ فيهِ ذكرٌ واجبٌ ، وفي الممدودِ احترازٌ عنْ غيرِ الصبحِ ، وفي خلوِّهِ عنْ ذكرٍ واجبٍ احترازٌ عنْ أصلِ القيامِ في الصلاةِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : تمييزُ السننِ عنِ الفرائضِ معقولٌ ؛ إذْ تفوتُ الصحةُ بفوتِ الفرضِ دونَ السنةِ ، ويتوجَّهُ العقابُ بهِ دونَها ، فأمَّا تمييزُ سنةٍ عنْ سنةٍ . . فالكلُّ مأمورٌ بهِ علىٰ سبيلِ الاستحبابِ ، ولا عقابَ في تركِ الكلِّ ، والثوابُ مرجوٌّ على الكلِّ ؛ فما معناهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ اشتراكَهما في الثوابِ والعقابِ والاستحبابِ لا يرفعُ تفاوتَهُما ، وينكشفُ لكَ ذٰلكَ بمثالٍ ؛ وهوَ : أنَّ الإنسانَ لا يكونُ إنساناً موجوداً كاملاً إلا بمعنىً باطنٍ وأعضاءٍ ظاهرةٍ ؛ فالمعنى الباطنُ : هوَ الحياةُ والروحُ ، والظاهرُ : أجسامُ أعضائِهِ .

ثمَّ بعضُ تلكَ الأعضاءِ ينعدمُ الإنسانُ بعدمِها ؛ كالقلبِ والكبدِ والدماغِ وكلِّ عضوٍ تفوتُ الحياةُ بفواتِهِ ، وبعضُها لا تفوتُ بفواتِهِ الحياةُ ، ولٰكنْ يفوتُ بفواتِهِ مقاصدُ الحياةِ ؛ كالعينِ واليدِ والرجْلِ واللسانِ ، وبعضُها لا يفوتُ بفواتِها الحياةُ ولا مقاصدُها ، ولٰكنْ يفوتُ بها الحسنُ ؛ كالحاجبينِ واللحيةِ والأهدابِ وحسنِ اللونِ ، وبعضُها لا يفوتُ بها

(١) في تغيير صورة العبادة . « إتحاف » (١٠٧/٣) .

(٢) ولولا قراءتها فيه . . لم يتميز عن قيام العادة « إتحاف » (١٠٧/٣)

أصلُ الجمالِ ولٰكنْ كمالُهُ ؛ كاستقواسِ الحاجبينِ وسوادِ شعرِ اللحيةِ والأهدابِ وتناسبِ خلقةِ الأعضاءِ وامتزاجِ الحمرةِ بالبياضِ في اللونِ ، فهٰذهِ درجاتٌ متفاوتةٌ .

فكذٰلكَ العبادةُ صورةٌ صوَّرَها الشرعُ وتعبَّدَنا باكتسابِها ؛ فروحُها وحياتُها الباطنةُ : الخشوعُ والنيَّةُ وحضورُ القلبِ والإخلاصُ كما سيأتي ، ونحنُ الآنَ في أجزائِها الظاهرةِ ، فالركوعُ والسجودُ والقيامُ وسائرُ الأركانِ تجري منها مَجرى القلبِ والرأسِ والكبدِ ؛ إذْ يفوتُ وجودُ الصلاةِ بفواتِها ، والسننُ التي ذكرناها مِنْ رفعِ اليدينِ ودعاءِ الاستفتاحِ والتشهدِ الأوَّلِ . . تجري منها مَجرى اليدينِ والعينينِ والرجلينِ ولا تفوتُ الصحةُ بفواتِها كما لا تفوتُ الحياةُ بفواتِ هٰذهِ الأعضاءِ ، ولٰكنْ يصيرُ الشخصُ بسببِ فواتِها مشوَّهَ الخلقةِ مذموماً غيرَ مرغوبٍ فيهِ ، فكذٰلكَ مَنِ اقتصرَ علىٰ أقلِّ ما يُجزِئُ مِنَ الصلاةِ كانَ كمنْ أهدىٰ إلىٰ ملكٍ مِنَ الملوكِ عبداً حيّاً مقطوعَ الأطرافِ[1]

وأمَّا الهيئاتُ وهيَ ما وراءَ السننِ . . فتجري مَجرىٰ أسبابِ الحسنِ ؛ مِنَ الحاجبينِ واللحيةِ والأهدابِ وحسنِ اللونِ .

وأمَّا لطائفُ الآدابِ في تلكَ السننِ . . فهي مكمِّلاتٌ للحسنِ ؛ كاستقواسِ الحاجبينِ واستدارةِ اللحيةِ وغيرِها ، فالصلاةُ عندَكَ قربةٌ وتحفةٌ تتقرَّبُ بها إلىٰ حضرةِ ملكِ الملوكِ كوصيفةٍ يهديها طالبُ القربةِ مِنَ السلاطينِ إليهِمْ ، وهٰذهِ التحفةُ تعرضُ على اللهِ تعالىٰ ثمَّ تردُّ عليكَ يومَ العرضِ الأكبرِ ، فإليكَ الخيرةُ في تحسينِ صورتِها أوْ تقبيحِها ، فإنْ أحسنتَ . . فلنفسِكَ ، وإنْ أسأتَ . . فعليها .

ولا ينبغي أنْ يكونَ حظُّكَ مِنْ ممارسةِ الفقهِ أنْ يتميَّزَ لكَ السنةُ مِنَ الفرضِ ، فلا يعلقُ بفهمِكَ مِنْ أوصافِ السنَّةِ إلا أنَّهُ يجوزُ تركُها فتتركُها ؛ فإنَّ ذٰلكَ يضاهي قولَ الطبيبِ : إنَّ فقءَ العينِ لا يبطلُ وجودَ الإنسانِ ولٰكنْ يخرجُهُ عَنْ أنْ يَصْدُقَ رجاءُ المتقرِّبِ في قبولِ السلطانِ إذا أخرجَهُ في معرضِ الهديةِ !!

فهٰكذا ينبغي أنْ تفهمَ مراتبَ السننِ والهيئاتِ والآدابِ ، فكلُّ صلاةٍ لمْ يتمَّ الإنسانُ ركوعَها وسجودَها فهيَ الخصمُ الأوَّلُ علىٰ صاحبِها ، تقولُ : (ضيَّعَكَ اللهُ كما ضيعتني) ، فطالعِ الأخبارَ التي أوردْناها في إكمالِ أركانِ الصلاةِ ليظهرَ لكَ وقعُها .

❋ ❋ ❋

---

(١) روى المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (الصلاة قربان ، إنما مثل الصلاة كمثل رجل أراد من إمام حاجة ، فأهدىٰ له هدية . . .) .

الباب الثالث
في الشروط الباطنة من أعمال القلب

ولنذكرْ في هٰذا البابِ ارتباطَ الصلاةِ بالخشوعِ وحضورِ القلبِ ، ثمَّ لنذكرِ المعانيَ الباطنةَ وحدودَها وأسبابَها وعلاجَها ، ثمَّ لنذكرْ تفصيلَ ما ينبغي أنْ يحضرَ في كلِّ ركنٍ مِنْ أركانِ الصلاةِ ؛ لتكونَ صالحةً لزادِ الآخرةِ .

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلمْ : أنَّ أدلةَ ذٰلكَ كثيرةٌ ، فمنْ ذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ ، وظاهرُ الأمرِ الوجوبُ ، والغفلةُ تضادُّ الذكرَ[١] ، فمَنْ غفلَ في جميعِ صلاتِهِ كيفَ يكونُ مقيماً للصلاةِ لذكرِهِ ؟!

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ نهيٌ ، وظاهرُهُ التحريمُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ تعليلٌ لنهيِ السكرانِ ، وهوَ مطردٌ في الغافلِ المستغرقِ الهمِّ بالوسواسِ وأفكارِ الدنيا .

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصلاةُ تمسكنٌ وتواضعٌ »[٢] حصرٌ بالألفِ واللامِ ، وكلمةُ (إنَّما) للتحقيقِ والتوكيدِ[٣] ، وقدْ فهمَ الفقهاءُ مِنْ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما الشفعةُ فيما لمْ يُقسمْ »[٤] الحصرَ والإثباتَ والنفيَ .

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ تنهَهُ صلاتُهُ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ . . لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلا بُعداً »[٥] ، وصلاةُ الغافلِ لا تمنعُ مِنَ الفحشاءِ والمنكرِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ مِنْ قائمٍ حظُّهُ مِنْ قيامِهِ التعبُ والنصبُ »[٦] ، وما أرادَ بهِ إلا الغافلَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ للعبدِ مِنْ صلاتِهِ إلا ما عقلَ منها »[٧]

والتحقيقُ فيهِ : أنَّ المصليَ مُناجٍ ربَّهُ عزَّ وجلَّ كما وردَ الخبرُ بهِ[٨] ، والكلامُ معَ الغفلةِ ليسَ بمناجاةٍ ألبتةَ .

---

(١) **والغفلة** : هي فقد الشعور عما حقه أن يشعر به ، أو هي الذهول عن الشيء ، أو هي سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ ، أو هي متابعة النفس على ما تشتهيه ، وبكل معانيها تضاد الذكر سواء كان قلبياً أو لسانياً « إتحاف » (٣/١١٠) .

(٢) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣/١٢٤) ، وهو عند الترمذي (٣٨٥) بنحوه .

(٣) وقد ذهب إمام الحرمين والقاضي أبو الطيب إلىٰ إفادة (إنما) الحصر مع احتمالها لتأكيد الإثبات ، قال ابن دقيق العيد : وهٰذا هو مختار الغزالي . « إتحاف » (٣/١١١) ، وفي غير (ب ، ج) : (التمحيق) بدل : (التوكيد) .

(٤) رواه البخاري (٢٢١٣) ، ومسلم (١٦٠٨) عن جابر رضي الله عنه قال : (جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الشفعة في كل مال لم يقسم) ، والحديث يثبت الشفعة لما لم يقسم حصراً ، وينفيها عن المقسوم ، فالحصر واقع بينهما .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/٥٤) مرفوعاً .

(٦) عند ابن ماجه (١٦٩٠) : « ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ، وهو عند أحمد في « مسنده » (٢/٣٧٣) : « ورب قائم حظُّه من قيامه السهر » .

(٧) في « الحلية » (٧/٦١) عن سفيان الثوري قال : (يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها) ، وعند أبي داوود (٧٩٦) مرفوعاً وسيأتي : « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عُشْرُ صلاته ، تُسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » .

(٨) رواه البخاري (٤٠٥) ، ومسلم (٥٥١) بلفظ : « إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه » .

وبيانُهُ : أَنَّ الزكاةَ إنْ غفلَ الإنسانُ عنها مثلاً . . فهيَ في نفسِها مخالفةٌ للشهوةِ شديدةٌ على النفسِ ، وكذا الصومُ قاهرٌ للقُوىٰ كاسرٌ لسطوةِ الهوى التي هيَ آلةٌ للشيطانِ عدوِّ اللهِ ، فلا يبعدُ أنْ يحصلَ منهما مقصودٌ معَ الغفلةِ ، وكذلكَ الحجُّ أفعالٌ شاقةٌ شديدةٌ ، وفيهِ مِنَ المجاهدةِ ما يحصلُ بهِ الإيلامُ ، كانَ القلبُ حاضراً معَ أفعالِهِ أوْ لمْ يكنْ .

أمَّا الصلاةُ : فليسَ فيها إلا ذكرٌ وقراءةٌ ، وركوعٌ وسجودٌ ، وقيامٌ وقعودٌ :

فأمَّا الذكرُ : فإنَّهُ محاورةٌ ومناجاةٌ معَ اللهِ تعالىٰ ؛ فإمَّا أنْ يكونَ المقصودُ منهُ كونَهُ خطاباً ومحاورةً ، أوِ المقصودُ منهُ الحروفَ والأصواتَ امتحاناً للسانِ بالعملِ ؛ كما تمتحنُ المعدةُ والفرجُ بالإمساكِ في الصومِ ، وكما يمتحنُ البدنُ بمشاقِّ الحجِّ ، ويمتحنُ القلبُ بمشقَّةِ إخراجِ الزكاةِ واقتطاعِ المالِ المعشوقِ .

ولا شكَّ أَنَّ هٰذا القسمَ باطلٌ ؛ فإنَّ تحريكَ اللسانِ بالهذيانِ ما أخفَّهُ على الغافلِ ، فليسَ فيهِ امتحانٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ عملٌ ، بلِ المقصودُ الحروفُ مِنْ حيثُ إنَّهُ نطقٌ ، ولا يكونُ نطقاً إلا إذا أعربَ عمَّا في الضميرِ ، ولا يكونُ معرباً إلا بحضورِ القلبِ ؛ فأيُّ سؤالٍ في قولِهِ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إذا كانَ القلبُ غافلاً ؟ وإذا لمْ يقصدْ كونَهُ تضرُّعاً ودعاءً . . فأيُّ مشقَّةٍ في تحريكِ اللسانِ بهِ معَ الغفلةِ لا سيما بعدَ الاعتيادِ ؟!

هٰذا حكمُ الأذكارِ .

بلْ أقولُ : لوْ حلفَ الإنسانُ وقالَ : (لأشكرنَّ فلاناً وأثني عليهِ وأسألُهُ حاجةً) ، ثمَّ جرتِ الألفاظُ الدالَّةُ علىٰ هٰذهِ المعاني علىٰ لسانِهِ في النومِ . . لمْ يبرَّ في يمينِهِ ، ولوْ جرتْ علىٰ لسانِهِ في ظلمةٍ وذلكَ الإنسانُ حاضرٌ وهوَ لا يعرفُ حضورَهُ ولا يراهُ . . لا يصيرُ بارّاً في يمينِهِ ؛ إذْ لا يكونُ كلامُهُ خطاباً ونطقاً معهُ ما لمْ يكنْ هوَ حاضراً في قلبِهِ ، فلوْ كانتْ تجري هٰذهِ الكلماتُ علىٰ لسانِهِ وهوَ حاضرٌ إلا أَنَّهُ في بياضِ النهارِ غافلٌ ؛ لكونِهِ مستغرقَ الهمِّ بفكرٍ مِنَ الأفكارِ ولمْ يكنْ لهُ قصدُ توجيهِ الخطابِ إليه عندَ نطقهِ . . لمْ يصرْ بارّاً في يمينِهِ (١)

ولا شكَّ في أَنَّ المقصودَ مِنَ القراءةِ والأذكارِ الحمدُ والثناءُ والتضرُّعُ والدعاءُ ، والمخاطبُ هوَ اللهُ ، وقلبُهُ بحجابِ الغفلةِ محجوبٌ عنهُ ، فلا يراهُ ولا يشاهدُهُ (٢) ، بلْ هوَ غافلٌ عنِ المخاطبِ ولسانُهُ يتحرَّكُ بحكمِ العادةِ ، فما أبعدَ هٰذا عنِ المقصودِ بالصلاةِ التي شرعتْ لتصقيلِ القلبِ وتجديدِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ورسوخِ عَقْدِ الإيمانِ بهِ .

هٰذا حكمُ القراءةِ والذكرِ .

وبالجملةِ : فهٰذهِ الخاصيَّةُ لا سبيلَ إلىٰ إنكارِها في النطقِ ، وتمييزِهِ بها عنِ الفعلِ .

وأمَّا الركوعُ والسجودُ : فالمقصودُ بهما التعظيمُ قطعاً ، ولوْ جازَ أنْ يكونَ معظِّماً للهِ بفعلِهِ وهوَ غافلٌ عنهُ . . لجازَ أنْ يكونَ معظِّماً لصنمٍ موضوعٍ بينَ يديهِ وهوَ غافلٌ عنهُ ، أوْ يكونَ معظِّماً للحائطِ الذي بينَ يديهِ وهوَ غافلٌ عنهُ !!

وإذا خرجَ عنْ كونِهِ تعظيماً . . لمْ يبقَ إلا مجرَّدُ حركةِ الظهرِ والرأسِ ، وليسَ فيهِ مِنَ المشقَّةِ ما يقصدُ الامتحانُ بِهِ ،

---

(١) فتحصل عدم الأداء عند وجود : الغفلة ، أو عدم حضور القلب ، أو انتفاء القصد في الخطاب .

(٢) والمراد بالرؤية والمشاهدة هنا : هو معرفته بأسمائه وصفاته ، وفيها تتفاوت المراتب ؛ فليس من يعلم أنه عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السماء والأرض ، واستغرق في دقائق الحكمة ، واستوفىٰ لطائف التدبير ، وأما علىٰ سبيل الحقيقة . . فلا يهتز أحد لنيله إلا ردته سُبحات الجلال إلى الحيرة ، ولا يشرئب أحد لملاحظته إلا غطَّى الدهش طرفه . « إتحاف » (١١٣/٣) .

ثمَّ يُجعلُ عمادَ الدينِ ، والفاصلَ بينَ الكفرِ والإسلامِ ، ويقدَّمُ على الحجِّ وسائرِ العباداتِ ، ويجبُ القتلُ بسببِ تركِهِ على الخصوصِ ؟!

وما أرىٰ أنَّ هٰذهِ العظمةَ كلَّها للصلاةِ مِنْ حيثُ أعمالُها الظاهرةُ إلا أنْ يضافَ إليها مقصودُ المناجاةِ ، فإذْ ذاكَ تتقدمُ على الصومِ والزكاةِ والحجِّ وغيرِهِ ، بلِ الضحايا والقرابينِ التي هيَ مجاهدةٌ للنفسِ بتنقيصِ الملكِ[1] قالَ اللهُ تعالىٰ فيها : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ أي : الصفةُ التي استولتْ على القلبِ حتَّىٰ حملتْ على امتثالِ الأوامرِ هيَ المطلوبةُ ، فكيفَ الأمرُ في الصلاةِ ولا أربَ في أفعالِها ؟[2]

فهٰذا ما يدلُّ مِنْ حيثُ المعنىٰ على اشتراطِ حضورِ القلبِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : إنْ حكمتَ ببطلانِ الصلاةِ وجعلتَ حضورَ القلبِ شرطاً في صحَّتِها . . خالفتَ إجماعَ الفقهاءِ ؛ فإنَّهم لم يشترطوا إلا حضورَ القلبِ عندَ التكبيرِ .

فاعلمْ : أنَّهُ قدْ تقدَّمَ في كتابِ العلمِ أنَّ الفقهاءَ لا يتصرَّفونَ في الباطنِ ، ولا يشقُّونَ عنِ القلوبِ ولا في طريقِ الآخرةِ ، بلْ يبنونَ ظاهرَ أحكامِ الدينِ علىٰ ظاهرِ أعمالِ الجوارحِ ، وظاهرُ الأعمالِ كافٍ لسقوطِ القتلِ أوْ تعزيرِ السلطانِ ، فأمَّا أنَّهُ ينفعُ في الآخرةِ . . فليسَ هٰذا مِنْ حدودِ الفقهِ ، علىٰ أنَّه لا يمكنُ أنْ يدَّعى الإجماعُ ؛ فقدْ نُقِلَ عن بشرِ بنِ الحارثِ فيما رواهُ عنهُ أبو طالبٍ المكيُّ ، عنْ سفيانَ الثوريِّ أنَّهُ قالَ : (مَنْ لمْ يخشعْ . . فسدتْ صلاتُهُ)[3]

وروىٰ عنِ الحسنِ أنَّهُ قالَ : (كلُّ صلاةٍ لا يحضرُ فيها القلبُ فهيَ إلى العقوبةِ أسرعُ)[4]

وعنْ معاذِ بنِ جبلٍ : (مَنْ عرفَ مَنْ علىٰ يمينِهِ وشمالِهِ متعمِّداً وهوَ في الصلاةِ . . فلا صلاةَ لهُ)[5] ، ورُوِيَ أيضاً مسنداً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليصلِّي الصلاةَ لا يكتبُ لهُ سدسُها ولا عشرُها ، وإنَّما يكتبُ للعبدِ مِنْ صلاتِهِ ما عَقَلَ منها »[6]

وهٰذا لوْ نقلَ عنْ غيرِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لجعلَ مذهباً ، فكيفَ لا يتمسَّكُ بهِ ؟!

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : (أجمعتِ العلماءُ أنَّهُ ليسَ للعبدِ مِنْ صلاتِهِ إلا ما عقلَ منها)[7] ، فجعلَهُ إجماعاً .

وما نقلَ مِنْ هٰذا الجنسِ عنِ الفقهاءِ المتورِّعينَ وعنْ علماءِ الآخرةِ أكثرُ مِنْ أنْ يحصىٰ[8] ، والحقُّ الرجوعُ إلىٰ

---

(١) أي : لأجل المناجاة التي ينطوي بها حقيقة العبودة لله تعالىٰ تكون الصلاة سيدة العبادات ، ومقدمة علىٰ باقي أركان الدين ، بل وعلى الضحايا والقرابين .

(٢) الأرب : الحاجة .

(٣) قوت القلوب (٩٧/٢) .

(٤) رواه الطوسي في « أربعينه » (١١) ، والخبر في « القوت » (٩٧/٢) .

(٥) قوت القلوب (٩٧/٢) ، وقال : (وقد أسنده إسماعيل بن أبي زياد عن بشر بن الحارث وغيره) .

(٦) في سنن أبي داوود (٧٩٦) مرفوعاً : « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » ، وفي « الحلية » (٦١/٧) عن سفيان الثوري قال : (يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها) .

(٧) قوت القلوب (١٠٢/٢) .

(٨) وقد حملها أهل العلم ـ والمصنف معهم كما ستریٰ بعد قليل ـ على الكمال ، وجعلوا تفسيرها علىٰ ظاهرها من الغرائب ، قال الإمام النووي

أدلَّةِ الشرعِ ، والأخبارُ والآثارُ ظاهرةٌ في هـٰذا الشرطِ ، إلا أَنَّ مقامَ الفتوىٰ في التكليفِ الظاهرِ يتقدَّرُ بقدْرِ قصورِ الخلْقِ ، فلا يمكنُ أنْ يُشترطَ على الناسِ إحضارُ القلبِ في جميعِ الصلاةِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يعجزُ عنهُ كلُّ البشرِ إلا الأقلِّينَ ، وإذا لمْ يمكنِ اشتراطُ الاستيعابِ للضرورةِ . . فلا مردَّ لهُ ، إلا أنْ يُشترطَ منهُ ما ينطلقُ عليهِ الاسمُ ولوْ في اللحظةِ الواحدةِ ، وأولى اللحظاتِ بهِ لحظةُ التكبيرِ ، فاقتصرنا على التكليفِ بذٰلكَ .

ونحنُ مع ذٰلكَ نرجو ألا يكونَ حالُ الغافلِ في جميعِ صلاتِهِ مثلَ حالِ التاركِ بالكلِّيَّةِ ؛ فإنَّهُ على الجملةِ أقدمَ على الفعلِ ظاهراً وأحضرَ القلبَ لحظةً ، وكيفَ لا والذي صلَّىٰ معَ الحدثِ ناسياً صلاتُهُ باطلةٌ عندَ اللهِ ولـٰكنْ لهُ أجرٌ ما بحسبِ فعلِهِ وعلىٰ قدْرِ قصورِهِ وعذرِهِ ؟! ومع هـٰذا الرجاءِ فيخشىٰ أنْ يكونَ حالُهُ أشدَّ مِنْ حالِ التاركِ ، وكيفَ لا والذي يحضرُ الخدمةَ ويتهاونُ بالحضرةِ ويتكلَّمُ بكلامِ الغافلِ المستحقرِ أشدُّ حالاً مِنَ الذي يعرضُ عنِ الخدمةِ ؟!

وإذا تعارضتْ أسبابُ الخوفِ والرجاءِ وصارَ الأمرُ مخطراً في نفسِهِ . . فإليكَ الخيرةُ بعدَهُ في الاحتياطِ والتساهلِ[1] ، ومعَ هـٰذا فلا مطمعَ في مخالفةِ الفقهاءِ فيما أفتوا بهِ مِنَ الصحَّةِ مع الغفلةِ[2] ؛ فإنَّ ذٰلكَ ضرورةُ الفتوىٰ كما سبقَ التنبيهُ عليهِ .

ومَنْ عرفَ سرَّ الصلاةِ . . علمَ أَنَّ الغفلةَ تضادُّها ، ولـٰكنْ قدْ ذكرنا في بابِ الفرقِ بينَ العلمِ الباطنِ والظاهرِ في كتاب قواعدِ العقائدِ أَنَّ قصورَ الخلقِ أحدُ الأسبابِ المانعةِ عنِ التصريحِ بكلِّ ما ينكشفُ مِنْ أسرارِ الشرعِ .

فلنقتصرْ علىٰ هـٰذا القدْرِ مِنَ البحثِ ؛ فإنَّ فيهِ مقنعاً للمريدِ الطالبِ لطريقِ الآخرةِ ، وأمَّا المجادلُ المشغبُ . . فلسنا نقصدُ مخاطبتَهُ الآنَ .

وحاصلُ الكلامِ : أَنَّ حضورَ القلبِ هوَ روحُ الصلاةِ ، وأَنَّ أقلَّ ما يبقىٰ بهِ رمقُ الروحِ الحضورُ عندَ التكبيرِ ، فالنقصانُ منهُ هلاكٌ ، وبقدْرِ الزيادةِ عليهِ تنبسطُ الروحُ في أجزاءِ الصلاةِ ، وكمْ مِنْ حيٍّ لا حراكَ بهِ قريبٌ مِنْ ميتٍ ، فصلاةُ الغافلِ في جميعِها إلا عندَ التكبيرِ كحيٍّ لا حراكَ بهِ ، نسألُ اللهَ حسنَ العونِ .

❋ ❋ ❋

في « تهذيب الأسماء واللغات » (٤٠٦/١) : (ومن غرائب القاضي حسين ما حكيته عنه في آخر باب ما يفسد الصلاة في « شرح المهذب » أنه قال : لو صلىٰ وهو يدافع الأخبثين بحيث يذهب خشوعه . . لم تصح صلاته ، وقاله قبله الشيخ أبو زيد المروزي ، والصحيح المشهور : لا تبطل ، بل تكره) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١١٥/٣) : (سلمنا أن الفقهاء صححوها بما أدىٰ إليه علمهم بمقتضيات أقوال أئمتهم ؛ فهلا يأخذ المصلي بالاحتياط ليذوق لذة المناجاة ، فالتقوىٰ غير الفتوىٰ) .

(١) إما أن تأخذ بالاحتياط فهو الأقوىٰ ، وإما أن تأخذ بما صححه الفقهاء فعليه الفتوىٰ ، وهـٰذا محط الجواب وفصل الخطاب . « إتحاف » (١١٧/٣) .

(٢) نقل الحافظ الزبيدي في بداية هـٰذا الباب أن المصنف جعل الخشوع شرطاً في الصلاة ، بينما أصحاب المذهب يرون أنه سنة ، قال في « الإتحاف » (١١٠/٣) : (أكثر العلماء جعلوه ـ أي : الخشوع ـ من سنن الصلاة ، وعليه مشى الرافعي والنووي وغالب الأصحاب ، وجعله أبو طالب المكي وغيره من العارفين شرطاً في الصلاة ، ووافقهم المصنف) ، وكلام المصنف هنا بل في ثنايا هـٰذا الباب يشير إلى التأكيد والحرص على الخشوع ، وما حشده من أدلة بيِّن هنا أنها سيقت لبيان الكمال ، أو أنه أراد الوجوب غير الاصطلاحي ، وشتان بين صلاة شوهاء لا حظ للعبد منها ، وبين صلاة حصد فيها العبد الأجر والوصل .

بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة

اعلمْ : أَنَّ هٰذِهِ المعانيَ تكثرُ العباراتُ عنها ، ولٰكنْ يجمعُها ستُّ جملٍ ، وهيَ : حضورُ القلبِ ، والتفهُّمُ ، والتعظيمُ ، والهيبةُ ، والرجاءُ ، والحياءُ .

فلنذكرْ تفاصيلَها ، ثمَّ أسبابَها ، ثمَّ العلاجَ في اكتسابِها .

❁ ❁ ❁

أمَّا التفاصيلُ :

فالأوّلُ : حضورُ القلبِ : ونعني بهِ : أنْ يفرغَ القلبَ عَنْ غيرِ ما هوَ ملابسٌ لهُ ومتكلِّمٌ بهِ ، فيكونُ العلمُ بالفعلِ والقولِ مقروناً بهما ، ولا يكونُ الفكرُ جائلاً في غيرِهما ، ومهما انصرفَ الفكرُ عنْ غيرِ ما هوَ فيهِ ، وكانَ في قلبهِ ذكرٌ لما هوَ فيهِ ، ولمْ يكُنْ فيهِ غفلةٌ عنْ كلِّ شيءٍ . . فقدْ حصلَ حضورُ القلبِ .

ولٰكنَّ **التفهُّمَ** لمعنى الكلامِ أمرٌ وراءَ حضورِ القلبِ ، فربَّما يكونُ القلبُ حاضراً معَ اللفظِ ولا يكونُ حاضراً معَ معنى اللفظِ ، فاشتمالُ القلبِ على العلمِ بمعنى اللفظِ هوَ الذي أردناهُ بالتفهُّمِ .

وهٰذا مقامٌ يتفاوتُ الناسُ فيهِ ؛ إذْ ليسَ يشتركُ الناسُ في تفهُّمِ المعاني للقرآنِ والتسبيحاتِ ، وكمْ مِنْ معانٍ لطيفةٍ يفهمُها المصلِّي في أثناءِ صلاتِهِ ولمْ يكنْ قدْ خطرَ بقلبِهِ ذٰلكَ قبلَهُ ، ومِنْ هٰذا الوجهِ كانتِ الصلاةُ ناهيةً عنِ الفحشاءِ والمنكرِ ؛ فإنَّها تفهِمُ أموراً تلكَ الأمورُ تمنعُ مِنَ الفحشاءِ لا محالةَ .

وأمَّا التعظيمُ : فهوَ أمرٌ وراءَ حضورِ القلبِ والفهمِ ، إذِ الرجلُ يخاطبُ عبدَهُ بكلامٍ هوَ حاضرُ القلبِ فيهِ ومتفهِّمٌ لمعناهُ ولا يكونُ معظِّماً لهُ ، فالتعظيمُ زائدٌ عليهما [1]

وأمَّا الهيبةُ : فأمرٌ زائدٌ على التعظيمِ ، بلْ هيَ عبارةٌ عنْ خوفٍ منشؤُهُ التعظيمُ ؛ لأنَّ مَنْ لا يخافُ لا يسمَّىٰ هائِباً ، والمخافةُ مِنَ العقربِ وسوءِ خُلُقِ العبدِ وما يجري مَجراهُ مِنَ الأسبابِ الخسيسةِ لا تسمَّىٰ مهابةً ، بلِ الخوفُ مِنَ السلطانِ المعظَّمِ يسمَّىٰ مهابةً ، والهيبةُ : خوفٌ مصدرُهُ الإجلالُ .

وأمَّا الرجاءُ : فلا شكَّ في أَنَّهُ زائدٌ ، فكمْ مِنْ معظِّمٍ مَلكاً مِنَ الملوكِ يهابُهُ أوْ يخافُ سطوتَهُ ولٰكنْ لا يرجو مبرَّتَهُ ، والعبدُ ينبغي أنْ يكونَ راجياً بصلاتِهِ ثوابَ اللهِ تعالىٰ ؛ كما أَنَّهُ خائفٌ بتقصيرِهِ عقابَ اللهِ عزَّ وجلَّ

وأمَّا الحياءُ : فهوَ زائدٌ على الجملةِ ؛ لأنَّ مستندَهُ استشعارُ تقصيرٍ وتوهُّمُ ذنبٍ ، ويتصوَّرُ التعظيمُ والخوفُ والرجاءُ مِنْ غيرِ حياءٍ ، حيثُ لا يكونُ توهُّمُ تقصيرٍ وارتكابِ ذنبٍ [2]

❁ ❁ ❁

(١) ولا بد منه في مناجاة الحق سبحانه ، إذ لا ثمرة في الحضور والتفهم بدونه ، والمراد منه : ملاحظة عظمته وجلاله ، وأنه معظم في نفسه عظم نفسه بنفسه ، ويلاحظ تعاليه وتقدسه عن مشابهة المخلوقين . « إتحاف » (١٢٠/٣) .

(٢) مَنْ يُستحىٰ منه ثلاثةٌ : من البشر وهم أكثر من يستحىٰ منه ، ومن نفسه ، ثم من الله عز وجل ، ومن استحىٰ من الناس ولم يستحِ من نفسه . . فنفسه عنده أخسُّ من غيره ، ومن استحىٰ منهما ولم يستحِ من الله . . دلَّ علىٰ قلّة معرفته به ، ومن لم يعرف الله . . فكيف يستعظمه وكيف يعلم أنه مطلع عليه . « إتحاف » (١٢١/٣) .

وأمَّا أسبابُ هـٰذهِ المعاني الستَّةِ :

فاعلمْ : أَنَّ حضورَ القلبِ سببُهُ الهِمَّةُ ، فإنَّ قلبَكَ تابعٌ لهمِّكَ ، فلا يحضرُ إلا فيما يهمُّكَ ، ومهما أهمَّكَ أمرٌ . . حضرَ القلبُ فيهِ شاءَ أمْ أبىٰ ، فهوَ مجبولٌ عليهِ ومسخَّرٌ لهُ ، والقلبُ إذا لمْ يحضرْ في الصلاةِ . . لمْ يكنْ متعطِّلاً ، بلْ جائلاً فيما الهمَّةُ مصروفةٌ إليهِ مِنْ أمورِ الدنيا ، فلا حيلةَ ولا علاجَ لإحضارِ القلبِ إلا بصرفِ الهمَّةِ إلى الصلاةِ ، والهمَّةُ لا تنصرفُ إليها ما لمْ يتبينْ أَنَّ الغرضَ المطلوبَ منوطٌ بها ، وذٰلكَ هوَ الإيمانُ والتصديقُ بأَنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ ، وأَنَّ الصلاةَ وسيلةٌ إليها ، فإذا أضيفَ هـٰذا إلىٰ حقيقةِ العلْمِ بحقارةِ الدنيا ومهماتِها . . حصلَ مِنْ مجموعِها حضورُ القلبِ في الصلاةِ .

وبمثلِ هـٰذهِ العلَّةِ يحضرُ قلبُكَ إذا حضرتَ بينَ يدي بعضِ الأكابرِ ممَّنْ لا يقدرُ علىٰ مضرَّتِكَ ومنفعتِكَ ، فإذا كانَ لا يحضرُ عندَ المناجاةِ معَ ملكِ الملوكِ الذي بيدِهِ الملكُ والملكوتُ والنفعُ والضرُّ . . فلا تظنَّنَّ أَنَّ لهُ سبباً سوىٰ ضعفِ الإيمانِ .

فاجتهدِ الآنَ في تقويةِ الإيمانِ ، وطريقُهُ يُستقصىٰ في غيرِ هـٰذا الموضعِ .

وأمَّا التفهُّمُ : فسببُه بعدَ حضورِ القلبِ : إدمانُ الفكرِ وصرفُ الذهنِ إلىٰ إدراكِ المعنىٰ ، وعلاجُهُ : ما هو علاجُ إحضارِ القلبِ مع الإقبالِ على الفكرِ والتشمُّرِ لدفعِ الخواطرِ الشاغلةِ ، وعلاجُ دفعِ الخواطرِ الشاغلةِ : قطعُ موادِّها ؛ أعني : النزوعَ عنْ تلكَ الأسبابِ التي تنجذبُ الخواطرُ إليها ، وما لمْ تنقطعْ تلكَ الموادُّ . . لا تنصرفُ عنها الخواطرُ ، فمَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ ذكرَهُ ، فذكرُ المحبوبِ يهجمُ على القلبِ بالضرورةِ ، فلذٰلكَ ترىٰ أَنَّ مَنْ أحبَّ غيرَ اللهِ . . لا تصفو لهُ صلاةٌ عنِ الخواطرِ .

وأمَّا التعظيمُ : فهوَ حالةٌ للقلبِ تتولَّدُ مِنْ معرفتينِ :

إحداهُما : معرفةُ جلالِ اللهِ تعالىٰ وعظمتِهِ ، وهوَ مِنْ أصولِ الإيمانِ ؛ فإنَّ مَنْ لا يُعتقدُ عظمتُهُ لا تذعنُ النفسُ لتعظيمِهِ .

الثانيةُ : معرفةُ حقارةِ النفسِ وخسَّتِها ، وكونِها عبداً مسخَّراً مربوباً .

حتَّىٰ يتولَّدَ مِنَ المعرفتينِ الاستكانةُ والانكسارُ والخشوعُ للهِ سبحانَهُ ، فيعبَّرُ عنهُ بالتعظيمِ ، وما لمْ تمتزجْ معرفةُ حقارةِ النفسِ بمعرفةِ جلالِ اللهِ . . لا تنتظمُ حالةُ التعظيمِ والخشوعِ ؛ فإنَّ المستغنيَ عنْ غيرِهِ الآمنَ علىٰ نفسِهِ يجوزُ أنْ يعرفَ مِنْ غيرِهِ صفاتِ العظمةِ ولا يكونُ الخشوعُ والتعظيمُ حالَهُ ؛ لأنَّ القرينةَ الأخرىٰ ـ وهيَ معرفةُ حقارةِ النفسِ وحاجتِها ـ لمْ تقترنْ إليهِ .

وأمَّا الهيبةُ والخوفُ : فحالةٌ للنفسِ تتولَّدُ مِنَ المعرفةِ بقدرةِ اللهِ وسطوتِهِ ، ونفوذِ مشيئتِهِ فيهِ معَ قلَّةِ المبالاةِ بهِ ، وأَنَّهُ لوْ أهلكَ الأوَّلينَ والآخرينَ . . لمْ ينقصْ مِنْ ملكِهِ ذرَّةٌ ، هـٰذا معَ مطالعةِ ما يجري على الأنبياءِ والأولياءِ مِنَ المصائبِ وأنواعِ البلاءِ معَ القدرةِ على الدفعِ ، علىٰ خلافِ ما يشاهدُ مِنْ ملوكِ الأرضِ [1] .

وبالجملةِ : كلما زادَ العلمُ باللهِ . . زادتِ الخشيةُ والهيبةُ ، وسيأتي أسبابُ ذٰلكَ في كتابِ الخوفِ مِنْ ربعِ المنجياتِ .

---

(١) من نفاد خزائنهم بالأعطية ، وعدم القدرة علىٰ دفع ما نزل بهم . « إتحاف » (١٢٣/٣) .

وأمَّا **الرجاءُ** : فسببُهُ : معرفةُ لطْفِ اللهِ تعالىٰ وكرمِهِ وعميمِ إنعامِهِ ولطائفِ صنعِهِ ، ومعرفةُ صدقِهِ في وعدِهِ الجنَّةَ بالصلاةِ ، فإذا حصلَ اليقينُ بوعدِهِ والمعرفةُ بلطفِهِ . . انبعثَ مِنْ مجموعِهِما الرجاءُ لا محالةَ[(١)]

وأمَّا **الحياءُ** : فباستشعارِهِ التقصيرَ في العبادةِ ، وعلمِهِ بالعجزِ عنِ القيامِ بعظيمِ حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويقوىٰ ذٰلكَ بالمعرفةِ بعيوبِ النفسِ وآفاتِها ، وقلَّةِ إخلاصِها وخبثِ دُخْلَتِها[(٢)] ، وميلِها إلى الحظِّ العاجلِ في جميعِ أفعالِها ، معَ العلمِ بعظيمِ ما يقتضيهِ جلالُ اللهِ تعالىٰ ، والعلمِ بأَنَّهُ مطلعٌ على السرائرِ وخطراتِ القلبِ وإنْ دقتْ وخفيتْ ، وهٰذهِ المعارفُ إذا حصلتْ يقيناً . . انبعثَ منها بالضرورةِ حالةٌ تسمَّى الحياءَ .

فهٰذهِ أسبابُ هٰذهِ الصفاتِ ، وكلُّ ما طُلِبَ تحصيلُهُ فعلاجُهُ إحضارُ سببِهِ ، ففي معرفةِ السببِ معرفةُ العلاجِ ، **ورابطةُ جميعِ هٰذهِ الأسبابِ الإيمانُ واليقينُ** ؛ أعني بِهِ : هٰذهِ المعارفَ التي ذكرناها ، ومعنىٰ كونِها يقيناً انتفاءُ الشكِّ ، واستيلاؤُها على القلبِ كما سبقَ في بيانِ اليقينِ مِنْ كتابِ العلمِ ، وبقدْرِ اليقينِ يخشعُ القلبُ ، ولذٰلكَ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُحدِّثُنا ونُحدِّثُهُ ، فإذا حضرتِ الصلاةُ . . فكأَنَّهُ لمْ يعرِفْنا ولَمْ نعرفْهُ)[(٣)]

وقد رُوِيَ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام : (يا موسىٰ ؛ إذا ذكرتني . . فاذكرني وأنتَ تنتفضُ أعضاؤُكَ ؛ وكنْ عندَ ذكري خاشعاً مطمئناً ، وإذا ذكرتني . . فاجعلْ لسانَكَ مِنْ وراءِ قلبِكَ ، وإذا قمتَ بينَ يديَّ . . فقُمْ قيامَ العبدِ الذليلِ ، وناجني بقلبٍ وَجِلٍ ولسانٍ صادقٍ)[(٤)]

ورُوِيَ أَنَّهُ أُوحِيَ إليهِ : (قلْ لعُصاةِ أُمتِكَ : لا يذكروني ؛ فإنِّي آليتُ علىٰ نفسي أَنَّ مَنْ ذكرني . . ذكرتُهُ ، فإذا ذكروني . . ذكرتُهُمْ باللعنةِ)[(٥)] ، هٰذا في عاصٍ غيرِ غافلٍ في ذكرِهِ ، فكيفَ إذا اجتمعتِ الغفلةُ والعصيانُ ؟!

وباختلافِ المعاني التي ذكرناها في القلوبِ انقسمَ الناسُ إلىٰ غافلٍ يتمِّمُ صلاتَهُ ولمْ يحضرْ قلبُهُ في لحظةٍ منها ، وإلىٰ مَن يتمِّمُ ولمْ يغبْ قلبُهُ في لحظةٍ ، بلْ ربَّما كانَ مستوعبَ الهمِّ بها بحيثُ لا يحسُّ بما يجري بينَ يديهِ ، ولذٰلكَ لمْ يحسَّ مسلمُ بنُ يسارٍ بسقوطِ أسطوانةٍ في المسجدِ اجتمعَ الناسُ عليها[(٦)] ، وبعضُهُمْ كانَ يحضرُ الجماعةَ مدةً ولمْ يعرفْ قطُّ مَنْ علىٰ يمينِهِ ويسارِهِ[(٧)] ، ووجيبُ قلبِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ كانَ يسمعُ علىٰ ميلينِ[(٨)] ، وجماعةٌ كانتْ تصفرُّ وجوهُهُمْ وترتعدُ فرائصُهُمْ ، وكلُّ ذٰلكَ غيرُ مستبعدٍ ؛ فإنَّ أضعافَهُ مشاهدٌ في همِّ أهلِ الدنيا وخوفِ ملوكِ الدنيا معَ ضعفِهِمْ وعجزِهِمْ وخساسةِ الحظوظِ الحاصلةِ منهُمْ ، حتَّىٰ يدخلُ الواحدُ علىٰ ملكٍ أوْ وزيرٍ ويحدِّثُهُ بمهمِّهِ ثمَّ

---

(١) وقد فهم من سياقه أن معرفة كل من صدق الوعد واللطف قرينتان ، وأن الرجاء يتولد منهما جميعاً من حيث التركيب . « إتحاف » (٣/١٣٤) .

(٢) الدخلة : هي ـ بضم الدال وكسرها ـ : بطانة الأمر ، تقول : إنه لعفيف الدخلة ، أو لخبيثها ، وبالفتح : طريقة المرء أو مذهبه .

(٣) قال الحافظ ابن رجب في « فتح الباري » (٤/١١٤) : (خرجه الحافظ أبو الحسين بن المظفر في « غرائب شعبة » ـ وساق سنده ـ عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندي . . كان في مهنة أهله ، فإذا نودي بالصلاة . . كأنه لم يعرفنا ») ، وأيد هٰذه الزيادة برواية أخرىٰ عند أبي زرعة في « تاريخه » ، وأصل الحديث عند البخاري (٦٧٦) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٧٩) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/٥٥) .

(٥) قوت القلوب (١/٥٧) بلفظ : (ورويناه في الإسرائيليات : أوحى الله عز وجل لنبيه موسىٰ وداوود عليهما السلام . . .) بنحوه .

(٦) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٨/١٣٥) ، وهو في « القوت » (٢/١٠٢) .

(٧) وهو سعيد بن جبير ، ومدة حضوره أربعون سنة ، انظر « قوت القلوب » (٢/٩٧) .

(٨) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/٢١٨) بنحوه .

يخرجُ ، ولو سئلَ عمَّنْ حوالَيْهِ أوْ عنْ ثوبِ الملكِ . . لكانَ لا يقدرُ على الإخبارِ عنه ؛ لاشتغالِ همِّهِ بهِ عنْ ثوبِهِ وعنِ الحاضرينَ حولَهُ .

ولكلٍّ درجاتٌ ممَّا عملوا ، فحظُّ كلِّ واحدٍ مِنْ صلاتِهِ بقدْرِ خوفِهِ وخشوعِهِ وتعظيمِهِ ، فإنَّ موضِعَ نظرِ اللهِ تعالى القلوبُ دونَ ظاهرِ الحركاتِ[1] ، ولذٰلكَ قالَ بعضُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : (يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ علىٰ مثالِ هيئتِهِمْ في الصلاةِ مِنَ الطمأنينةِ والهدوءِ ، ومِنْ وجودِ النعيمِ بها واللذَّةِ)[2]

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّهُ يحشرُ كلٌّ علىٰ ما ماتَ عليهِ[3] ، ويموتُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ويُراعىٰ في ذٰلكَ حالُ قلبِهِ ، لا حالُ شخصِهِ ، فمِنْ صفاتِ القلوبِ تصاغُ الصورُ في الدارِ الآخرةِ ، ولا ينجو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، نسألُ اللهَ حسْنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) كما في « مسلم » (٢٥٦٤) مرفوعاً : « إن الله لا ينظر إلىٰ أجسادكم ولا إلىٰ صوركم ، ولٰكن ينظر إلىٰ قلوبكم » ، وأشار بأصابعه إلىٰ صدره .

(٢) قوت القلوب (٩٨/٢) ، وعنده (٤٦/١) قال : (ويقال : إن العبد يحشر عند الموت من قبره علىٰ هيئته في صلاته ، من السكون والطمأنينة ، وتكون راحته في الموقف علىٰ قدر راحته وتنعمه بالصلاة ، وروينا معنىٰ هٰذا عن أبي هريرة) .

(٣) كما في « مسلم » (٢٨٧٨) مرفوعاً : « يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه »

بيان الدّواء النّافع في حضور القلب

اعلمْ : أَنَّ المؤمنَ لا بدَّ أَنْ يكونَ معظِّماً للهِ عزَّ وجلَّ ، وخائفاً منهُ ، وراجياً لهُ ، ومستحيياً مِنْ تقصيرِهِ ، فلا ينفكُّ عنْ هـٰذهِ الأحوالِ بعدَ إيمانِهِ وإنْ كانتْ قوَّتُها بقدْرِ قوَّةِ يقينِهِ ، فانفكاكُهُ عنها في الصلاةِ لا سببَ لهُ إلا تفرُّقُ الفكْرِ وتقسُّمُ الخاطرِ ، وغيبةُ القلبِ عنِ المناجاةِ ، والغفلةُ عنِ الصلاةِ ، ولا يلهي عنِ الصلاةِ إلا الخواطرُ الواردةُ الشاغلةُ ، فالدواءُ في إحضارِ القلبِ هوَ دفعُ تلكَ الخواطرِ ، ولا يُدفعُ الشيءُ إلا بدفعِ سببِهِ ، فلتعلمْ سبَبَه .

وسببُ **مواردِ الخواطرِ** : **إمَّا أنْ يكونَ أمراً خارجاً ، أو أمراً في ذاتِهِ باطناً** :

أمَّا الخارجُ : فما يقرعُ السمعَ أوْ يظهرُ للبصرِ ، فإنَّ ذٰلكَ قدْ يختطفُ الهمَّ حتَّىٰ يتبعَهُ ويتصرَّفَ فيهِ ، ثمَّ ينجرُّ منهُ الفكرُ إلىٰ غيرِهِ ويتسلسلُ ، ويكونُ الإبصارُ سبباً للافتكارِ ، ثمَّ تصيرُ بعضُ تلكَ الأفكارِ سبباً للبعضِ [1] ، ومَنْ قويتْ نيَّتُهُ ، وعلتْ همتُهُ . . لمْ يلهِهِ ما يجري علىٰ حواسِّهِ ، ولـٰكنَّ الضعيفَ لا بدَّ وأنْ يتفرَّقَ بهِ فكرُهُ .

فعلاجُهُ : قطعُ هـٰذهِ الأسبابِ بأنْ يغضَّ بصرَهُ [2] ، أوْ يصلِّيَ في بيتٍ مظلمٍ ، أوْ لا يتركَ بينَ يديهِ ما يشغلُ حسَّهُ ، ويقربَ مِنْ حائطٍ عندَ صلاتِهِ حتَّىٰ لا تتسعَ مسافةُ بصرِهِ ، ويحترزَ مِنَ الصلاةِ على الشوارعِ ، وفي المواضعِ المنقوشةِ المصنوعةِ ، وعلى الفرشِ المصبوغةِ [3] ، ولذٰلكَ كانَ المتعبّدونَ يتعبَّدونَ في بيتٍ صغيرٍ مظلمٍ ، سعتُهُ بقدْرِ السجودِ ؛ ليكونَ ذٰلكَ أجمعَ للهمِّ [4] ، والأقوياءُ منهُمْ كانوا يحضرونَ المساجدَ ويغضُّونَ البصرَ ولا يجاوزونَ بهِ موضعَ السجودِ ، ويرونَ كمالَ الصلاةِ في ألا يعرفوا مَنْ علىٰ يمينِهِمْ وشمالِهِمْ .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما لا يدعُ في موضعِ الصلاةِ مصحفاً ولا سيفاً إلا نزعَهُ ، ولا كتاباً إلا محاهُ .

وأمَّا الأسبابُ الباطنةُ : فهيَ أشدُّ ؛ فإنَّ مَنْ تشعَّبَتْ بهِ الهمومُ في أوديةِ الدنيا . . لمْ ينحصرْ فكرُهُ في فنٍّ واحدٍ ، بلْ لا يزالُ يطيرُ مِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ ، وغضُّ البصرِ لا يغنيهِ في ذٰلكَ ؛ فإنَّ ما وقعَ في القلبِ مِنْ قبلُ كافٍ للشغلِ .

فهـٰذا طريقُهُ : أنْ يردَّ النفسَ قهراً إلىٰ فهْمِ ما يقرؤُهُ في الصلاةِ ويشغلَها بهِ عنْ غيرِهِ ، **ويعينُهُ علىٰ ذٰلكَ** : أنْ يستعدَّ لهُ قبلَ التحريمِ ؛ بأنْ يجدِّدَ علىٰ نفسِهِ ذكرَ الآخرةِ وموقفِ المناجاةِ وخطرِ المقامِ بينَ يدي اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وهولِ المطلعِ ، ويفرِّغَ قلبَهُ قبلَ التحريمِ بالصلاةِ عمَّا يهمُّهُ ، فلا يتركُ لنفسِهِ شغلاً يلتفتُ إليهِ خاطرُهُ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ

---

(١) فإن لم يستعجل بإخراج سببها عاجلاً بهمة مرشد كامل ، وإلا . . صار صاحبها مقيتاً ممقتاً لا ينجع فيه الدواء ، ولا يرفع رأسه للهدىٰ ولا يرضىٰ بالاقتداء ، فيعود في ضلاله كما بدأ . « إتحاف » (١٢٦/٣) . فوجب صون السمع والبصر اللذين هما أخطر قناتين للقلب ، لا في الصلاة كما سيذكر المصنف فحسب ، بل قبلها متهيئاً لها .

(٢) فلا يجيله متتبعاً ما حوله ، ويلزم نفسه بنظر السنة ؛ كالنظر إلىٰ موضع السجود قائماً ، كذا يفهم من كلامه كما سيبينه في اللحاق ، وليس المراد إغماض العينين .

(٣) وقد ابتلي الناس بزخرفة المساجد ونقشها بالصباغ المختلفة ، وعدوا ذٰلك إكراماً لبيت الرب ، وذهلوا أنها من جملة الشواغل للمصلين ، وهو من أعظم البدع والحوادث . « إتحاف » (١٢٧/٣) .

(٤) ففي « البخاري » (٣٨٢) ، و« مسلم » (٥١٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كنت أنام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاي في قبلته ، فإذا سجد . . غمزني ، فقبضت رجلي ، فإذا قام . . بسطتهما ، قالت : والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح) .

عليهِ وسلَّمَ لعثمانَ بنِ شيبةَ : « إنّي نسيتُ أنْ أقولَ لكَ أنْ تُخمِّرَ القدْرَ الذي في البيتِ ؛ فإنَّهُ لا ينبغي أنْ يكونَ في البيتِ شيءٌ يَشغلُ الناسَ عنْ صلاتِهِمْ »[1]

فهـٰذا طريقُ تسكينِ الأفكارِ ، فإنْ كانَ لا يسكنُ هائجُ أفكارِهِ بهـٰذا الدواءِ المسكِّنِ . . فلا ينجيهِ إلا المُسْهِلُ الذي يقمعُ مادةَ الداءِ مِنْ أعماقِ العروقِ ، وهوَ أنْ ينظرَ في الأمورِ الشاغلةِ الصارفةِ لهُ عنْ إحضارِ القلبِ ، ولا شكَّ أنَّها تعودُ إلىٰ مهمَّاتِهِ ، وأنَّها إنَّما صارتْ مهمَّاتٍ لشهواتِهِ ، فيعاقبَ نفسَهُ بالنزوعِ عنْ تلكَ الشهواتِ وقطعِ تلكَ العلائقِ ، فكلُّ ما يشغلُهُ عنْ صلاتِهِ فهوَ ضدُّ دينِهِ ، وجندُ إبليسَ عدوِّهِ ، فإمساكُهُ أضرُّ عليهِ مِنْ إخراجِهِ ، فيتخلَّصُ منهُ بإخراجِهِ ؛ كما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا لبسَ الخميصةَ التي أتىٰ بها أبو جَهْمٍ وعليها عَلَمٌ وصلَّىٰ بها . . نزعَها بعدَ صلاتِهِ وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اذهبوا بها إلىٰ أبي جهمٍ ؛ فإنَّها ألهتني آنفاً عَنْ صلاتي ، وأتوني بأنْبجانيَّةِ أبي جهمٍ »[2]

وأمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بتجديدِ شراكِ نعلِهِ ، ثمَّ نظرَ إليهِ في الصلاةِ إذْ كانَ جديداً ، فأمرَ أنْ ينزعَ منها ويردَّ الشراكُ الخَلَقُ[3]

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدِ احتذىٰ نعلاً ، فأعجبَهُ حسنُها ، فسجدَ وقالَ : « تواضعتُ لربِّي عزَّ وجلَّ كي لا يمقتَني » ، ثمَّ خرجَ بها فدفعَها إلىٰ أوَّلِ سائلٍ لقيَه ، ثمَّ أمرَ علياً رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يشتريَ لهُ نعلينِ سبتيَّتينِ جرداوينِ فلَبِسَهُما[4]

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في يدِهِ خاتمٌ مِنْ ذهبٍ قبلَ التحريمِ ، وكانَ على المنبرِ ، فرماهُ وقالَ : « شغلَني هـٰذا ، نظرةً إليهِ ونظرةً إليكُمْ »[5]

ويروىٰ أنَّ أبا طلحةَ صلَّىٰ في حائطٍ لهُ فيه شجرٌ ، فأعجبَهُ دُبْسِيٌّ طارَ في الشجرِ يلتمسُ مخرجاً ، فأتبعَهُ بصرَهُ ساعةً ، ثمَّ لمْ يدرِ كمْ صلَّىٰ ، فذكرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما أصابَهُ مِنَ الفتنةِ ، ثمَّ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هوَ صدقةٌ فضَعْهُ حيثُ شئتَ[6]

وعنْ رجلٍ آخرَ أنَّهُ صلَّىٰ في حائطٍ لهُ والنخلُ مطوَّقةٌ بثمرِها ، فنظرَ إليهِ فأعجبَهُ ، فلمْ يدرِ كمْ صلَّىٰ ، فذكرَ ذٰلكَ لعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : هوَ صدقةٌ ، فاجعلْهُ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، فباعَهُ عثمانُ بخمسينَ ألفاً[7]

---

(١) رواه أبو داوود (٢٠٣٠) بلفظ : « إني نسيت أنْ آمرك أن تخمِّرَ القرنينِ ؛ فإنه ليس ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » . والمقصود بالقرنين : قرنا الكبش الذي فُدي به الذبيح كما في « مسند أحمد » (٦٨/٤) .
وأشار الحافظ العراقي أن الصواب في اسم المخاطب هو عثمان بن طلحة ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٢٨/٣) : (ورأيت بخط الحافظ ابن حجر قال : صوابه : عثمان بن شيبة ، قلت : إن كان عثمان يكنىٰ أبا شيبة . . فهو كما ذكر ، وارتفع الخلاف) .

(٢) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٦٢/٥٥٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) .

(٤) كذا في « القوت » (١٠٥/٢) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٣٠/٣) : (قال العراقي : رواه أبو عبد الله بن خفيف في « شرف الفقراء » من حديث عائشة بإسناد ضعيف) .

(٥) رواه النسائي (١٩٤/٨) .

(٦) رواه مالك في « الموطأ » (٩٨/١) ، والدبسي . نوع من الحمام .

(٧) رواه مالك في « الموطأ » (٩٩/١) .

فكانوا يفعلونَ ذلكَ قطعاً لمادةِ الفكرِ ، وكفارةً لما جرىٰ مِنْ نقصانِ الصلاةِ ، وهاذا هوَ الدواءُ القامعُ لمادةِ العلَّةِ ، ولا يغني غيرُهُ .

فأمَّا ما ذكرناهُ مِنَ التلطُّفِ بالتسكينِ ، والردِّ إلىٰ فهْمِ الذكرِ . . فذلكَ ينفعُ في الشهواتِ الضعيفةِ ، والهممِ التي لا تَشغلُ إلا حواشيَ القلبِ ، فأمَّا الشهوةُ القويَّةُ المرهِقَةُ . . فلا ينفعُ فيها التسكينُ ، بلْ لا تزالُ تجاذبُها وتجاذبُكَ ثمَّ تغلبُكَ ، وتنقضي جميعُ صلاتِكَ في شغلِ المجاذبةِ .

ومثالُهُ : رجلٌ تحتَ شجرةٍ أرادَ أنْ يصفوَ لهُ فكرُهُ وكانتْ أصواتُ العصافيرِ تشوّشُ عليهِ ، فلمْ يزلْ يطيِّرُها بخشبةٍ في يدِهِ ويعودُ إلىٰ فكرِهِ ، فتعودُ العصافيرُ ، فيعودُ إلى التنفيرِ بالخشبةِ ، فقيلَ لهُ : إنَّ هاذا سيرُ السواني[1] ، ولا ينقطعُ ، فإنْ أردتَ الخلاصَ . . فاقلعِ الشجرةَ ؛ فكذلكَ شجرةُ الشهوةِ ، إذا استعلتْ وتفرَّعتْ أغصانُها . . انجذبتْ إليها الأفكارُ انجذابَ العصافيرِ إلى الأشجارِ ، وانجذابَ الذبابِ إلى الأقذارِ ، والشغلُ يطولُ في دفعِها ، فإنَّ الذبابَ كلَّما ذُبَّ . . آبَ ؛ ولأجلِهِ سمِّيَ ذُباباً ، فكذلكَ الخواطرُ .

وهاذهِ الشهواتُ كثيرةٌ ، وقلَّما يخلو العبدُ عنها ، ويجمعُها أصلٌ واحدٌ ، وهوَ حبُّ الدنيا[2] ، وذلكَ رأسُ كلِّ خطيئةٍ[3] ، وأساسُ كلِّ نقصانٍ ومنبعُ كلِّ فسادٍ ، ومَنِ انطوىٰ باطنُهُ علىٰ حبِّ الدنيا حتَّىٰ مالَ إلىٰ شيءٍ منها ، لا ليتزوَّدَ منها ويستعينَ بها على الآخرةِ . . فلا يطمعنَّ في أنْ تصفوَ لهُ لذةُ المناجاةِ في الصلاةِ ؛ فإنَّ مَنْ فرحَ بالدنيا لا يفرحُ باللهِ سبحانَهُ وبمناجاتِهِ .

وهمَّةُ الرجلِ معَ قرَّةِ عينِهِ ؛ فإنْ كانتْ قرَّةُ عينِهِ في الدنيا . . انصرفَ ـ لا محالةَ ـ إليها همُّهُ ، ولكنْ معَ هاذا فلا ينبغي أنْ يتركَ المجاهدةَ ، وردَّ القلبِ إلى الصلاةِ ، وتقليلَ الأسبابِ الشاغلةِ .

فهاذا هوَ الدواءُ المرُّ ، ولمرارتِهِ استبشعتْهُ الطباعُ ، وبقيتِ العلةُ مزمنةً ، وصارَ الداءُ عضالاً ، حتَّىٰ إنَّ الأكابرَ اجتهدوا أنْ يصلُّوا ركعتينِ لا يحدثونَ أنفسَهُمْ فيها بأمورِ الدنيا . . فعجزوا عنْ ذلكَ !! فإذاً ؛ لا مطمعَ فيهِ لأمثالنا ، وليتَهُ سلمَ لنا مِنَ الصلاةِ شطرُها أوْ ثلثُها عنِ الوسواسِ ؛ لنكونَ ممَّنْ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً .

وعلى الجملةِ : فهمَّةُ الدنيا وهمَّةُ الآخرةِ في القلبِ مثلُ الماءِ الذي يصبُّ في قدحٍ مملوءٍ بالخلِّ ، فبقدْرِ ما يدخلُ فيهِ مِنَ الماءِ يخرجُ مِنَ الخلِّ لا محالةَ ، ولا يجتمعانِ .

❋ ❋ ❋

(١) **السواني** : جمع سانية ، وهي الناقة يستقىٰ عليها ، فالمكان الذي تخرج منه تعود إليه وهاكذا دون جديد .

(٢) والمراد بالحب هنا : الاختياري ؛ بأن يختار لنفسه حب شيء من أمورها تعمداً وقصداً ، لا اضطراراً ؛ فإن الإنسان مجبول علىٰ حب ولده وزوجته وما ملكته يداه من الأنعام والحرث ، ثم إن كل ما أعان العبد على الآخرة من أمور الدنيا . . فليس داخلاً في حد الدنيا ؛ فإنها إنما جعلت قنطرة للآخرة يتبلغ بها العبد قدر حاجته في سفره إلىٰ مولاه . « إتحاف » (٣/١٣١) .

(٣) كما في « الحلية » (٦/٣٨٨) عن سفيان الثوري قال : (قال عيسى ابن مريم عليه السلام : حب الدنيا رأس كل خطيئة) ، وعند البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠١٩) مرسلاً عن الحسن البصري ، وسيأتي عند المصنف مصرحاً به .

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة

فنقولُ : حقُّكَ إنْ كنتَ مِنَ المريدينَ للآخرةِ ألا تغفُلَ أوّلاً عنِ التنبيهاتِ التي في شروطِ الصلاةِ وأركانِها .

أمّا الشروطُ السوابقُ . . فهيَ : الأذانُ[١] ، والطهارةُ ، وسترُ العورةِ ، واستقبالُ القبلةِ ، والانتصابُ قائماً ، والنيَّةُ .

❋ ❋ ❋

أمّا الأذانُ : فإذا سمعتَ نداءَ المؤذِّنِ . . فأحضرْ في قلبِكَ هوْلَ النداءِ يومَ القيامةِ ، وتشمَّرْ بظاهرِكَ وباطنِكَ للإجابةِ والمسارعةِ[٢] ، فإنَّ المسارعينَ إلىٰ هـٰذا النداءِ همُ الذين ينادونَ باللطْفِ يومَ العرضِ الأكبرِ .

فاعرضْ قلبَكَ علىٰ هـٰذا النداءِ ، فإنْ وجدتَهُ مملوءاً بالفرحِ والاستبشارِ ، مشحوناً بالرغبةِ إلى الابتدارِ . . فاعلمْ أنَّهُ يأتيكَ النداءُ بالبشرىٰ والفوزِ يومَ القضاءِ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرِحْنَا بها يا بِلَالُ »[٣] أي : أرِحْنا بها وبالنداءِ إليها ، إذْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرَّةُ عينِهِ فيها[٤]

❋ ❋ ❋

وأمّا الطهارةُ : فإذا أتيتَ بها في مكانِكَ وهوَ ظرفُكَ الأبعدُ ، ثمَّ في ثيابِكَ وهوَ غلافُكَ الأقربُ ، ثمَّ في بشرتِكَ وهوَ قشرُكَ الأدنىٰ . . فلا تغفُلْ عنْ لبّكَ الذي هوَ ذاتُكَ وهوَ قلبُكَ ، فاجتهدْ لهُ تطهيراً بالتوبةِ والندمِ علىٰ ما فرَطَ[٥] ، وتصميمِ العزمِ على التركِ في المستقبلِ ، فطهِّرْ بها باطنَكَ ؛ فإنَّهُ موقعُ نظرِ معبودِكَ[٦]

❋ ❋ ❋

وأمّا سترُ العورةِ : فاعلمْ أَنَّ معناهُ تغطيةُ مقابحِ بدنِكَ عنْ أبصارِ الخلقِ ، فإنَّ ظاهرَ بدنِكَ موقعُ نظرِ الخلقِ ، فما رأيُكَ في عوراتِ باطنِكَ وفضائحِ سرِّكَ التي لا يطلعُ عليها إلا ربُّكَ عزَّ وجلَّ ؟!

فأحضرْ تلكَ الفضائحَ ببالِكَ ، وطالبْ نفسَكَ بسترِها ، وتحقَّقْ أنَّهُ لا يسترُها عنْ عينِ اللهِ سبحانَهُ ساترٌ ، وإنَّما يكفِّرُها الندمُ والحياءُ والخوفُ ، فتستفيدُ بإحضارِها في قلبِكَ انبعاثَ جنودِ الخوفِ والحياءِ مِنْ مكامنِها ، فتذلُّ بها نفسُكَ ، ويستكينُ تحتَ الخجلةِ قلبُكَ ، وتقومُ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ قيامَ العبدِ المجرمِ المسيءِ الآبقِ الذي ندمَ فرجعَ إلىٰ مولاهُ ناكساً رأسَهُ مِنَ الحياءِ والخوفِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) والمراد به على الحقيقة دخولُ الوقت ، إذ الأذان المعروف ليس شرطاً لصحة الصلاة .

(٢) والإجابة تكون بمثل ما يقول المؤذن ، والمسارعة في خفة السير إلى الصلاة .

(٣) رواه أبو داوود (٤٩٨٥) .

(٤) كما روى النسائي (٦١/٧) : « حبب إلي من الدنيا النساء والطيب ، وجعل قرة عيني في الصلاة » .

(٥) فرط : سبق .

(٦) ثم إن تطهير القلب بما ذكر لا بد له من مرشد صادق ماهر بالعلاج ، يريه طرق الإصلاح وكيفية التطهير ، فليس له حد ينضبط ، ولا مرمىً ينتهي إليه ، فإذا حصل التطهير . . فلا بد من التنوير ، وتصقيله عن صدأ التكدير ، بالملازمة علىٰ ذكره المناسب لحاله من الإيراد والتصدير . « إتحاف » (١٣٨/٣) .

وأما الاستقبالُ : فهوَ صرفٌ لظاهرِ وجهِكَ عنْ سائرِ الجهاتِ إلىٰ جهةِ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، أفترىٰ أنَّ صرفَ القلبِ عنْ سائرِ الأمورِ إلىٰ أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ليسَ مطلوباً منكَ ؟

هيهاتَ !! فلا مطلوبَ سواهُ ، وإنَّما هـٰذهِ الظواهرُ تحريكاتٌ للبواطنِ ، وضبطٌ للجوارحِ ، وتسكينٌ لها بالإثباتِ في جهةٍ واحدةٍ حتَّىٰ لا تبغيَ على القلبِ ؛ فإنَّها إذا بغتْ وظلمتْ في حركاتِها والتفاتِها إلىٰ جهاتِها . . استتبعتِ القلبَ ، وانقلبتْ بهِ عنْ وجهِ اللهِ تعالىٰ .

فليكنْ وجهُ قلبِكَ معَ وجهِ بدنِكَ ، واعلمْ أنَّهُ كما لا يتوجَّهُ الوجهُ إلىٰ جهةِ البيتِ إلا بالانصرافِ عنْ غيرِها . . فلا ينصرفُ القلبُ إلى اللهِ سبحانَهُ إلا بالتفريغِ عمَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قامَ العبدُ إلىٰ صلاتِهِ ، فكانَ هواهُ ووجهُهُ وقلبُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . . انصرفَ كيومِ ولدتْهُ أمُّهُ »[1] .

وأمَّا الاعتدالُ قائماً : فإنَّما هوَ مثولٌ بالشخصِ والقلبِ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ ، فليكنْ رأسُكَ الذي هوَ أرفعُ أعضائِكَ مُطرقاً مطأطئاً مستكيناً ، وليكنْ وضعُ الرأسِ عنِ ارتفاعِهِ تنبيهاً علىٰ إلزامِ القلبِ التواضعَ والتذلُّلَ والتبرِّيَ عنِ الترؤُّسِ والتكبُّرِ ، وليكنْ علىٰ ذُكْرِكَ ها هنا خطرُ القيامِ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ في هولِ المطَّلَعِ عندَ العرضِ للسؤالِ[2]

واعلمْ في الحالِ : أنَّكَ قائمٌ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، وهوَ مطَّلِعٌ عليكَ ، فقمْ بينَ يديهِ قيامَكَ بينَ يدي بعضِ ملوكِ الزمانِ إنْ كنتَ تَعجَزُ عنْ معرفةِ كنْهِ جلالِهِ ، بل قدِّرْ في دوامِ قيامِكَ في صلاتِكَ أنَّكَ ملحوظٌ ومرقوبٌ بعينٍ كالئةٍ مِنْ رجلٍ صالحٍ مِنْ أهلِكَ أوْ ممَّنْ ترغبُ في أنْ يعرفَكَ بالصلاحِ ، فإنَّهُ تهدأُ عندَ ذٰلكَ أطرافُكَ ، وتخشعُ جوارحُكَ ، وتسكُنُ جميعُ أجزائِكَ ؛ خيفةَ أنْ ينسبَكَ ذٰلكَ العاجزُ المسكينُ إلىٰ قلَّةِ الخشوعِ[3]

وإذا أحسستَ مِنْ نفسِكَ بالتماسكِ عندَ ملاحظةِ عبدٍ مسكينٍ . . فعاتبْ نفسَكَ وقلْ لها : إنَّكِ تدَّعينَ معرفةَ اللهِ وحبَّهُ ، أفلا تستحيينَ مِنِ استجرائِكِ عليهِ معَ توقيرِكِ عبداً مِنْ عبادِهِ ؟! أوَتخشينَ الناسَ ولا تخشينَ اللهَ وهوَ أحقُّ أنْ يُخشىٰ ؟!

ولذٰلكَ لمَّا قالَ أبو هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ : كيفَ الحياءُ مِنَ اللهِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تستحيي منهُ كما تستحيي منَ الرجلِ الصالحِ مِنْ قومِكَ » ، ورُوِيَ : « من أهلِكَ »[4] .

❁ ❁ ❁

وأمَّا النيَّةُ : فاعزمْ علىٰ إجابةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في امتثالِ أمرِهِ بالصلاةِ وإتمامِها ، والكفِّ عنْ نواقضِها ومفسداتِها ، وإخلاصِ جميعِ ذٰلكَ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ ؛ رجاءً لثوابِهِ ، وخوفاً مِنْ عقابِهِ ، وطلباً للقربةِ منهُ ، متقلِّداً للمنَّةِ منهُ بإذنِهِ إيَّاكَ في المناجاةِ معَ سوءِ أدبِكَ وكثرةِ عصيانِكَ .

---

(١) نحوه عند مسلم (٢٣٤ ، ٨٣٢) .
(٢) والصلاة هي أول ما يسأل عنه العبد .
(٣) قال الراغب في « الذريعة » (ص ٢٠٨) : (حق الإنسان : إذا همَّ بقبيح . . أن يتصور أجلَّ مَنْ في نفسه ، حتىٰ كأنَّه يراه ؛ فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه ، ولذٰلك لا يستحي من الحيوان ولا من الأطفال ولا من الذين لا يميزون ، ويستحي من العالِم أكثر مما يستحي من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد) .
(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٦٩/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣٤٣) .

وعظِّمْ في نفسِكَ قدْرَ مناجاتِهِ ، وانظرْ مَنْ تناجي ، وكيفَ تناجي ، وبماذا تناجي ؟ وعندَ هـٰذا ينبغي أنْ يعرقَ جبينُكَ مِنَ الخجلِ ، وترتعدَ فرائصُكَ مِنَ الهيبةِ [1] ، ويصفرَّ وجهُكَ مِنَ الخوفِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا التكبيرُ : فإذا نطقَ بهِ لسانُكَ . . فينبغي ألا يكذِّبَهُ قلبُكَ ، فإنْ كانَ في قلبِكَ شيءٌ هوَ أكبرُ مِنَ اللهِ تعالىٰ . . فاللهُ يشهدُ إنَّكَ لكاذبٌ وإنْ كانَ الكلامُ صدقاً ؛ كما شهدَ على المنافقينَ في قولِهِمْ : إنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولُ اللهِ .

فإنْ كانَ هواكَ أغلبَ عليكَ مِنْ أمرِ اللهِ تعالىٰ . . فأنتَ أطوعُ لهُ منكَ للهِ تعالىٰ ؛ فقدِ اتخذتَهُ إلـٰهَكَ وكبَّرْتَهُ ، فيوشكُ أنْ يكونَ قولُكَ : (اللهُ أكبرُ) كلاماً باللسانِ المجرَّدِ وقدْ تخلَّفَ القلبُ عنْ مساعدتِهِ ، وما أعظمَ الخطرَ في ذٰلكَ لولا التوبةُ والاستغفارُ وحسنُ الظنِّ بكرمِ اللهِ تعالىٰ وعفوِهِ [2] .

❀ ❀ ❀

وأمَّا دعاءُ الاستفتاحِ : فأوَّلُ كلماتِهِ قولُكَ : (وجَّهْتُ وجهي للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ) ، وليسَ المرادُ بالوجهِ الوجهَ الظاهرَ ، فإنَّكَ إنَّما وجهتَهُ إلىٰ جهةِ القبلةِ ، واللهُ سبحانَهُ يتقدَّسُ عنْ أنْ تحدَّهُ الجهاتُ حتَّىٰ تقبلَ بوجهِ بدنِكَ عليهِ ، وإنَّما وجهُ القلبِ هوَ الذي تتوجَّهُ بهِ إلىٰ فاطرِ السماواتِ والأرضِ ، فانظرْ إليهِ : أمتوجِّهٌ هوَ إلىٰ أمانيهِ وهمِّهِ في البيتِ والسوقِ متبعٌ للشهواتِ ، أوْ مقبلٌ علىٰ فاطرِ السماواتِ ؟

وإيَّاكَ أنْ تكونَ أوَّلَ مفاتحتِكَ للمناجاةِ بالكذبِ والاختلاقِ ، ولنْ ينصرفَ الوجهُ إلى اللهِ تعالىٰ إلا بانصرافِهِ عمَّا سواهُ ، فاجتهدْ في الحالِ في صرفِهِ إليهِ وإنْ عجزتَ عنهُ على الدوامِ ؛ ليكونَ قولُكَ في الحالِ صادقاً .

وإذا قلتَ : (حنيفاً مسلماً) . . **فينبغي أنْ يخطرَ ببالِكَ أنَّ** المسلمَ هوَ الذي سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ [3] ، فإنْ لمْ تكنْ كذٰلكَ . . كنتَ كاذباً ، فاجتهدْ في أنْ تعزمَ عليهِ في الاستقبالِ ، وتندمَ علىٰ ما سبقَ من الأحوالِ .

❀ ❀ ❀

وإذا قلتَ : (وما أنا مِنَ المشركينَ) . . **فأخطرْ ببالِكَ الشركَ الخفيَّ** ، فإنَّ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ نزلَ فيمَنْ يقصدُ بعبادتِهِ وجهَ اللهِ وحمدَ الناسِ [4] ، وكنْ حذراً مشفقاً مِنْ هـٰذا الشركِ ، واستشعرِ الخجلةَ في قلبِكَ إنْ وصفْتَ نفسَكَ بأنَّكَ لستَ مِنَ المشركينَ مِنْ غيرِ براءةٍ عنْ هـٰذا الشركِ ؛ فإنَّ اسمَ الشركِ يقعُ على القليلِ والكثيرِ منهُ .

❀ ❀ ❀

---

(١) **الفرائص** : جمع فريصة ، وهي لحمة تحت الكتف في وسط الجنب عند منبض القلب ، وهي تُرعد عند الفزع .

(٢) وإلىٰ هـٰذا الإشارة في قول الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ ، فالعهد : ما أعطيت بلسانك ، والرعاية : الوفاء بالقلب ، فمن طابق قلبه لسانه . . دخل تحت هـٰذا الثناء والمدح . « إتحاف » (٣/١٤٢) .

(٣) كما في « البخاري » (١٠) ، و« مسلم » (٤٠) .

(٤) روىٰ ذٰلك ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٩/٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعند الطبراني في « الكبير » (٧/٢٩٠) مرفوعاً : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ببقيع واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي قال : أنا خير شريك ، كل عمل كان عُمل في الدنيا كان لي فيه شريك فأنا أدعه اليوم ، ولا أقبل اليوم إلا خالصاً ، ثم قرأ : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ » .

وإذا قلتَ : (محيايَ ومماتي للهِ) . . فاعلمْ : أَنَّ هـٰذا حالُ عبدٍ مفقودٍ لنفسِهِ موجودٍ لسيِّدِهِ ، وأَنَّهُ إنْ صدرَ ممَّنْ رضاهُ وغضبُهُ وقيامُهُ وقعودُهُ ورغبتُهُ في الحياة ورهبتُهُ مِنَ الموتِ لأمورِ الدنيا . . لمْ يكنْ ملائماً للحالِ[1]

❁ ❁ ❁

وإذا قلتَ : (أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ) . . فاعلمْ : أَنَّهُ عدوُّكَ ومترصِّدٌ لصرْفِ قلبِكَ عنِ اللهِ تعالىٰ حسداً لكَ علىٰ مناجاتِكَ معَ اللهِ سبحانَهُ وسجودِكَ لهُ ، مع أنَّهُ لُعِنَ بسببِ سجدةٍ واحدةٍ تركَها ولمْ يوفَّقْ لها ، وأَنَّ استعاذتَكَ باللهِ تعالىٰ منهُ بتركِ ما يحبُّهُ ، وتبديلِهِ بما يحبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ ، لا بمجرَّدِ قولِكَ ؛ فإنَّ مَنْ قصدَهُ سبعٌ أوْ عدوٌّ ليفترسَهُ أوْ ليقتلَهُ فقالَ : (أعوذُ منكَ بذٰلكَ الحصنِ الحصينِ) وهوَ ثابتٌ علىٰ مكانِهِ . . فإنَّ ذٰلكَ لا ينفعُهُ ، بلْ لا يعيذُهُ إلا تبديلُ المكانِ ، فكذٰلكَ مَنْ يتبعُ الشهواتِ التي هيَ محابُّ الشيطانِ ومكارهُ الرحمـٰنِ . . فلا يغنيهِ مجرَّدُ القولِ .

فليقترنْ قولُهُ بالعزمِ على التعوُّذِ بحصْنِ اللهِ عزَّ وجلَّ عنْ شرِّ الشيطانِ ، وحصنُهُ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، إذْ قالَ عزَّ وجلَّ فيما أخبرَ عنهُ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا إلـٰهَ إلا اللهُ حصني ، ومنْ دخلَ حصنِي . . أمِنَ منْ عذابي »[2] ، والمتحصِّنُ بهِ مَن لا معبودَ لهُ سوى اللهِ سبحانَهُ ، فأمَّا مَنِ اتخذَ إلـٰهَهُ هواهُ . . فهوَ في ميدانِ الشيطانِ ، لا في حصنِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

واعلمْ : أَنَّ مِنْ مكايدِهِ أنْ يشغلَكَ في الصلاةِ بذكرِ الآخرةِ وتدبيرِ فعلِ الخيراتِ ؛ ليمنعَكَ عنْ فهمِ ما تقرأُ ، فاعلمْ : أَنَّ كلَّ ما يشغلُكَ عنْ فهْمِ معاني قراءتِكَ فهوَ وسواسٌ ، فإنَّ حركةَ اللسانِ غيرُ مقصودةٍ ، بلِ المقصودُ معانيها .

❁ ❁ ❁

فأمَّا القراءةُ : فالناسُ فيها ثلاثةٌ : رجلٌ يتحرَّكُ لسانُهُ وقلبُهُ غافلٌ ، ورجلٌ يتحرَّكُ لسانُهُ وقلبُهُ يتبعُ اللسانَ فيسمعُ ويفهمُ منهُ كأَنَّهُ يسمعُهُ منْ غيرِهِ ، وهـٰذهِ درجاتُ أصحابِ اليمينِ ، ورجلٌ يسبقُ قلبُهُ إلى المعاني أوَّلاً ثمَّ يخدمُ اللسانُ القلبَ فيترجمُهُ ، ففرقٌ بينَ أنْ يكونَ اللسانُ ترجمانَ القلبِ أوْ يكونَ معلِّمَ القلبِ ، والمقرَّبونَ لسانُهُمْ ترجمانٌ يتبعُ القلبَ ولا يتبعُهُ القلبُ .

وتفصيلُ ترجمةِ المعاني : أَنَّكَ إذا قلتَ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فانوِ بهِ[3] التبرُّكَ لابتداءِ القراءةِ لكلامِ اللهِ سبحانَهُ ، وافهمْ أَنَّ معناهُ : أَنَّ الأمورَ كلَّها باللهِ تعالىٰ ، وأَنَّ المرادَ بالاسمِ ها هنا هوَ المسمَّىٰ[4]

وإذا كانتِ الأمورُ باللهِ سبحانَهُ . . فلا جرمَ كانَ الحمدُ للهِ ، ومعناهُ : أَنَّ الشكرَ للهِ ؛ إذِ النعمُ مِنَ اللهِ ، ومَنْ يرىٰ مِنْ غيرِ اللهِ نعمةً أوْ يقصدُ غيرَ اللهِ سبحانَهُ بشكرٍ لا مِنْ حيثُ إنَّهُ مسخَّرٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ وتباركَ اسمُهُ . . ففي تسميتِهِ وتحميدِهِ نقصانٌ بقدْرِ التفاتِهِ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ .

---

(١) ثم إذا قلت : (لا شريك له) وأنت تشرك معه في عبادته . . فهو كذب آخر ، والمعنىٰ : لا إلـٰه مقصود بهـٰذه العبادة إلا الله الذي خلقني من أجلها .
فإذا قلتَ : (وأنا من المسلمين) . . فالمسلمون عند شروطهم ، فهل أنت تفي بتلك الشروط وتعرف حقوقهم التي أوجبها الله عليك ، ولا بد أنك تقصر عن ذٰلك ، فهـٰذا كذب آخر ، فإذا كان دعاء الاستفتاح مشتملاً علىٰ عدة أكاذيب ومخالفات . . فكيف حالك في سائر الصلاة ؟! وما توفيقي إلا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . « إتحاف » (٣/١٤٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/١٩٢) ، وانظر « الإتحاف » (٣/١٤٧) .

(٣) أي : بقولك هـٰذا

(٤) فالتبرك في الحقيقة به تعالىٰ ، وإن ذكر الاسم حجاب حجب به قلوب عباده ، ولذا قال : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ . « إتحاف » (٣/١٤٩) .

فإذا قلتَ : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ . . فأحضرْ في قلبِكَ جميعَ أنواعِ لطفِهِ ؛ لتتضحَ لكَ رحمتُهُ ، فينبعثَ بذٰلكَ رجاؤُكَ .

ثمَّ استثرْ مِنْ قلبِكَ التعظيمَ والخوفَ بقولِكَ : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، أمَّا العظمةُ : فلأنَّهُ لا مُلكَ إلا لهُ ، وأمَّا الخوفُ : فلهولِ يومِ الجزاءِ والحسابِ الذي هوَ مالكُهُ .

ثمَّ جدِّدِ الإخلاصَ بقولِكَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وجدِّدِ العجزَ والاحتياجَ والتبرّيَ عنِ الحولِ والقوَّةِ بقولِكَ : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وتحقَّقْ أنَّهُ ما تيسرتْ طاعتُكَ إلا بإعانتِهِ ، وأنَّ لهُ المنَّةَ إذْ وفقَكَ لطاعتِهِ ، واستخدمَكَ لعبادتِهِ ، وجعلَكَ أهلاً لمناجاتِهِ ، ولوْ حرمَكَ التوفيقَ . . لكنتَ مِنَ المطرودينَ معَ الشيطانِ اللعينِ .

ثمَّ إذا فرغتَ مِنَ التعوُّذِ ، ومِنْ قولِكَ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، ومِنَ التحميدِ ، ومِنْ إظهارِ الحاجةِ إلى الإعانةِ مطلقاً . . فعيِّنْ سؤالَكَ ، ولا تطلبْ إلا أهمَّ حاجاتِكَ ، وقلْ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذي يسوقُنا إلىٰ جوارِكَ ، ويفضي بنا إلىٰ مرضاتِكَ ، وزدْهُ شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذينَ أفاضَ عليهِمْ نعمةَ الهدايةِ مِنَ النبيِّينَ والصدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، دونَ الذينَ غضبَ عليهِمْ مِنَ الكفَّارِ والزائغينَ مِنَ اليهودِ والنصارىٰ والصابئينَ ، ثمَّ التمسِ الإجابةَ وقلْ : (آمينَ) .

فإذا تلوتَ (الفاتحةَ) كذٰلكَ . . فيشبهُ أنْ تكونَ مِنَ الذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِمْ فيما أخبرَ عنهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قسمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفينِ : نصْفُها لي ونصفُها لعبدي ولعبدي ما سألَ ؛ يقولُ العبدُ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : حمدني عبدِي وأثنىٰ عليَّ . . . » ، وهوَ معنىٰ قولِهِ : (سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهْ . . .) الحديث إلىٰ آخرِهِ[1] .

فلوْ لمْ يكنْ لكَ مِنْ صلاتِكَ حظٌّ سوىٰ ذكرِ اللهِ لكَ في جلالِهِ وعظمتِهِ . . فناهيكَ بذٰلكَ غنيمةً ، فكيفَ بما ترجوهُ مِنْ ثوابِهِ وفضلِهِ ؟!

وكذٰلكَ ينبغي أنْ تفهمَ ما تقرؤُهُ مِنَ السورِ كما سيأتي في كتابِ تلاوةِ القرآنِ ، فلا تغفُلْ عنْ أمرِهِ ونهيِهِ ، ووعدِهِ ووعيدِهِ ، ومواعظِهِ وأخبارِ أنبيائِهِ ، وذكرِ مننِهِ وإحسانِهِ ، فلكلِّ واحدٍ حقٌّ ، فالرجاءُ حقُّ الوعدِ ، والخوفُ حقُّ الوعيدِ ، والعزمُ حقُّ الأمرِ والنهيِ ، والاتعاظُ حقُّ الموعظةِ ، والشكرُ حقُّ ذكرِ المنَّةِ ، والاعتبارُ حقُّ أخبارِ الأنبياءِ .

وَرُوِيَ أنَّ زرارةَ بنَ أوفىٰ لما انتهىٰ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ خرَّ ميتاً[2] .

وكانَ إبراهيمُ النخعيُّ إذا سمعَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ . . اضطربَ حتَّىٰ تضطربَ أوصالُهُ[3]

---

(١) روىٰ مسلم (٣٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالىٰ : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . . قال الله تعالىٰ : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ . . قال الله تعالىٰ : أثنىٰ علي عبدي ، وإذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . . قال : مجدني عبدي ، وقال مرة : فوَّض إليَّ عبدي ، فإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . . قال : هٰذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ . . قال : هٰذا لعبدي ولعبدي ما سأل » .

(٢) رواه الترمذي في « سننه » في ذيل حديث (٤٤٥) عن بهز بن حكيم قال : (كان زرارة بن أوفىٰ قاضي البصرة ، وكان يؤم في بني قشير ، فقرأ يوماً في صلاة الصبح : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ خرَّ ميتاً ، فكنت فيمن احتمله إلىٰ داره) .

(٣) في (هـ) : (إبراهيم بن أدهم) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ واقدٍ : رأيتُ ابنَ عمرَ يصلِّي مغلوباً ، وحقَّ لهُ أن يحترقَ قلبُهُ بوعدِ سيِّدِهِ ووعيدِهِ ؛ فإنَّهُ عبدٌ ذليلٌ مذنبٌ بينَ يدي جبَّارٍ قاهرٍ .

وتكونُ هاذهِ المعاني بحسَبِ درجاتِ الفهمِ ، ويكونُ الفهمُ بحسَبِ وفورِ العلمِ وصفاءِ القلبِ ، ودرجاتُ ذالكَ لا تنحصرُ ، والصلاةُ مفتاحُ القلوبِ ، فيها تنكشفُ أسرارُ الكلماتِ .

فهاذا حقُّ القراءةِ ، وهوَ حقُّ الأذكارِ والتسبيحاتِ أيضاً .

ثم يراعي الهيئةَ في القراءةِ ؛ فيرتِّلُ ولا يسردُ ؛ فإنَّ ذالكَ أيسرُ للتأمُّلِ ، ويفرِّقُ بينَ نغماتِهِ في آيةِ الرحمةِ والعذابِ ، والوعدِ والوعيدِ ، والتحميدِ والتعظيمِ والتمجيدِ .

كانَ النخعيُّ إذا مرَّ بمثلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ . . يغضُّ صوتَهُ كالمستحيي عَنْ أنْ يذكرَهُ بذالكَ الشيءِ .

ورُوِيَ أنَّهُ يقالُ لقارئِ القرآنِ : اقرَأْ وَارْقَ ، وَرَتِّلْ كما كنتَ ترتِّلُ في الدنيا[(١)]

❀ ❀ ❀

وأمَّا دوامُ القيامِ : فإنَّهُ تنبيهٌ علىٰ إقامةِ القلبِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ نعتٍ واحدٍ مِنَ الحضورِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مقبلٌ على المُصلِّي ما لمْ يلتفتْ »[(٢)]

وكما تجبُ حراسةُ الرأسِ والعينِ عنِ الالتفاتِ إلى الجهاتِ . . فكذالكَ تجبُ حراسةُ السرِّ عنِ الالتفاتِ إلىٰ غيرِ الصلاةِ ، فإذا التفتَ إلىٰ غيرِهِ . . فذكِّرْهُ باطلاعِ اللهِ عليكَ ، وبقبحِ التهاونِ بالمناجىٰ عندَ غفلةِ المناجي ؛ ليعودَ إليهِ .

وألزمِ الخشوعَ للقلبِ ، فإنَّ الخلاصَ عنِ الالتفاتِ باطناً وظاهراً ثمرةُ الخشوعِ ، ومهما خشعَ الباطنُ . . خشعَ الظاهرُ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ رأىٰ رجلاً مصلِّياً يعبثُ بلحيتِهِ : « أما هاذا لوْ خشعَ قلبُهُ . . لخشعتْ جوارحُهُ »[(٣)] ، فإنَّ الرعيةَ بحكمِ الراعي ؛ ولهاذا وردَ في الدعاءِ : (اللهمَّ ؛ أصلحِ الراعيَ والرعيةَ)[(٤)] ، وهوَ القلبُ والجوارحُ .

وكانَ الصِّديقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صلاتِهِ كأنَّهُ وَتِدٌ ، وابنُ الزبيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كأنَّهُ عودٌ[(٥)] ، وبعضُهُمْ كانَ يسكنُ في ركوعِهِ بحيثُ تقعُ العصافيرُ عليهِ كأنَّهُ جمادٌ[(٦)]

وكلُّ ذالكَ يقتضيهِ الطبعُ بينَ يدي مَنْ يعظَّمُ مِنْ أبناءِ الدنيا ، فكيفَ لا يتقاضاهُ بينَ يدي ملكِ الملوكِ عندَ مَنْ يعرفُ ملكَ الملوكِ ؟!

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٦٤) ، والترمذي (٢٩١٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٨٠٠٢) .

(٢) رواه أبو داوود (٩٠٩) ، والترمذي (٢٨٦٣) ، والنسائي (٨/٣) .

(٣) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣١٧) مرفوعاً ، ورواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٩) موقوفاً علىٰ حذيفة ، ومن قول سعيد بن المسيب .

(٤) هو قطعة من دعاء كان يدعو به الجنيد البغدادي رحمه الله تعالىٰ كما في « الحلية » (٢٨٦/١٠) ، وفي المرفوع : « ألا وإن في الجسد مضغة ؛ إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

(٥) كما رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٣٢٢) ، والمروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٨٧) .

(٦) وهو العنبس بن عقبة ، كما روىٰ ذالك أحمد في « الزهد » (٢٠٨٦) ، ومثله الربيع بن خثيم كما في « الحلية » (١١٤/٢) .

وكلُّ مَنْ يطمئنُّ بينَ يدي غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ خاشعاً ، وتضطربُ أطرافُهُ بينَ يدي اللهِ . . فذٰلكَ لقصورِ معرفتهِ عنْ جلالِ اللهِ تعالىٰ ، وعنِ اطلاعِهِ علىٰ سرِّهِ وضميرِهِ .

وقالَ عكرمةُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ، قالَ : (قيامُهُ وركوعُهُ وسجودُهُ وجلوسُهُ)[1] .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الركوعُ والسجودُ : فينبغي أنْ تجدِّدَ عندَهُما ذكرَ كبرياءِ اللهِ تعالىٰ ، وترفعَ يديكَ مستجيراً بعفوِ اللهِ مِنْ عقابِهِ ، ومتبعاً سنَّةَ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ تستأنفُ لهُ ذلاً وتواضعاً بركوعِكَ ، وتجتهدُ في ترقيقِ قلبِكَ وتجديدِ خشوعِكَ ، وتستشعرُ ذُلَّكَ وعزَّ مولاكَ ، واتضاعَكَ وعلوَّ ربِّكَ ، وتستعينُ علىٰ تقريرِ ذٰلكَ في قلبِكَ بلسانِكَ ، فتسبِّحُ ربَّكَ وتشهدُ لهُ بالعظمةِ ، وأنَّهُ أعظمُ مِنْ كلِّ عظيمٍ ، وتكرِّرُ ذٰلكَ علىٰ قلبِكَ ؛ لتؤكِّدَهُ بالتكرارِ ، ثمَّ ترتفعُ عنْ ركوعِكَ راجياً أنَّهُ راحمٌ ذُلَّكَ[2] ، ومؤكداً للرجاءِ في نفسِكَ بقولِكَ : (سمعَ اللهُ لمنْ حمدَهُ) ؛ أي : أجابَ لِمَنْ شكرَهُ .

ثمَّ تردفُ ذٰلكَ بالشكرِ المتقاضي للمزيدِ فتقولُ : (ربَّنا لكَ الحمدُ) ، وتكثِّرُ الحمدَ بقولِكَ : (ملْءَ السماواتِ وملْءَ الأرضِ) .

ثمَّ تهوي إلى السجودِ ، وهوَ أعلىٰ درجاتِ الاستكانةِ ، فتمكِّنُ أعزَّ أعضائِكَ وهوَ الوجهُ مِنْ أذلِّ الأشياءِ وهوَ الترابُ ، وإنْ أمكنَكَ ألا تجعلَ بينَهُما حائلاً فتسجدَ على الأرضِ . . فافعلْ ؛ فإنَّهُ أجلبُ للخضوعِ ، وأدلُّ على الذلِّ .

وإذا وضعتَ نفسَكَ موضعَ الذلِّ . . فاعلمْ : أنَّكَ وضعتَها موضعَها ، ورددتَ الفرعَ إلىٰ أصلِهِ ؛ فإنَّكَ مِنَ الترابِ خلقْتَ ، وإليهِ تعودُ ، فعندَ هٰذا جدِّدْ علىٰ قلبِكَ عظمةَ اللهِ وقلْ : (سبحانَ ربِّيَ الأعلىٰ) ، وأكِّدْهُ بالتكرارِ ، فإنَّ الكرَّةَ الواحدةَ ضعيفةُ الآثارِ ، فإذا رقَّ قلبُكَ وظهرَ ذُلُّكَ . . فلتُصَدِّقْ رجاءَكَ في رحمةِ ربِّكَ ، فإنَّ رحمتَهُ تتسارعُ إلى الضعفِ والذلِّ ، لا إلى التكبُّرِ والبطرِ .

فارفعْ رأسَكَ مكبِّراً وسائلاً حاجتَكَ وقائلاً : (ربِّ اغفرْ وارحمْ وتجاوزْ عمَّا تعلمُ)[3] ، أوْ ما أردتَ مِنَ الدعاءِ[4] ، ثمَّ أكدِ التواضعَ بالتكرارِ ، فعُد إلى السجودِ ثانياً كذٰلكَ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا التشهدُ : فإذا جلستَ لهُ . . فاجلسْ متأدِّباً ، وصرِّحْ بأنَّ جميعَ ما تدلي بهِ مِنَ الصلواتِ والطيباتِ ـ أيِ : الأخلاقِ الطاهرةِ ـ للهِ ، وكذٰلكَ الملكُ للهِ ، وهوَ معنى (التحياتُ)[5] ، وأحضرْ في قلبِكَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وشخصَهُ الكريمَ ، وقلْ : (السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ) ، وليصدقْ أملُكَ في أنَّهُ يبلُغُهُ ويردُّ عليكَ ما هوَ أوفىٰ منهُ .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٦٠٣٢) .

(٢) أشار بذٰلك : أن الركوع حالة الخضوع والذل ، والرفع منه حالة العز ، فلما أمر بالرفع علىٰ لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : « ثم ارفع حتىٰ تستوي قائماً » : أراد أن يرحم ذله . « إتحاف » (١٥٥/٣) .

(٣) قوت القلوب (٩٥/٢) .

(٤) كقوله : (رب ؛ اغفر لي وارحمني واهدني واجبرني وعافني واعف عني) .

(٥) أما التحيات . . فجمع تحية ، وهي السلام ، أو البقاء ، أو الملك ، أو العظمة ؛ أي : أنواع ذٰلك كله له ، والمصنف اقتصر علىٰ معنىً واحد . « إتحاف » (١٥٨/٣) .

ثم سلِّمْ علىٰ نفسِكَ وعلىٰ جميعِ عبادِ اللهِ الصالحين ، وتأَمَّلْ أنْ يردَّ اللهُ سبحانَهُ عليكَ سلاماً وافياً بعددِ عبادِهِ الصالحينَ .

ثمَّ تشهَّدْ للهِ بالوحدانيةِ ، ولمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالرسالةِ ، مجدداً عهدَ اللهِ سبحانَهُ بإعادةِ كلمتيِ الشهادةِ ، ومستأنفاً للتحصُّنِ بها .

ثمَّ ادعُ في آخِرِ صلاتِكَ بالدعاءِ المأثورِ معَ التواضعِ والخشوعِ ، والضراعةِ والابتهالِ ، وصدقِ الرجاءِ بالإجابةِ ، وأشركْ في دعائِكَ أبويكَ وسائرَ المؤمنينَ .

واقصدْ عندَ التسليمِ السلامَ على الملائكةِ والحاضرينَ ، وانوِ ختمَ الصلاةِ بهِ ، واستشعرْ شكرَ اللهِ سبحانَهُ علىٰ توفيقِهِ إيَّاكَ لإتمامِ هـٰذهِ الطاعةِ ، وتوهَّمْ أنَّكَ مودِّعٌ لصلاتِكَ هـٰذهِ ، وأنَّكَ ربَّما لا تعيشُ لمثلِها ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي أوصاهُ : « صلِّ صلاةَ مُودِّعٍ »(١)

ثمَّ أشعِرْ قلبَكَ الوجلَ والحياءَ مِنَ التقصيرِ في الصلاةِ ، وخفْ ألا تقبلَ صلاتُكَ ، وأنْ تكونَ ممقوتاً بذنبٍ ظاهرٍ أوْ باطنٍ ، فتردَّ صلاتُكَ في وجهِكَ ، وترجو مع ذٰلكَ أنْ يقبلَها بفضلِهِ وكرمِهِ .

كانَ يحيى بنُ وثَّابٍ إذا صلَّىٰ . مكثَ ما شاءَ اللهُ تُعرفُ عليهِ كآبَةُ الصلاةِ(٢) ، وكانَ إبراهيمُ يمكثُ بعدَ الصلاةِ ساعةً كأنَّهُ مريضٌ(٣)

فهـٰذا تفصيلُ صلاةِ الخاشعينَ الذينَ همْ علىٰ صلاتِهِمْ يحافظونَ ، والذينَ هُمْ علىٰ صلاتِهِمْ دائمونَ ، والذينَ هُم يناجونَ اللهَ علىٰ قَدْرِ استطاعتِهِمْ في العبوديةِ .

فليعرضِ الإنسانُ نفسَهُ علىٰ هـٰذهِ الصلاةِ ، فبالقدْرِ الذي يتيسَّرُ لهُ منهُ ينبغي أنْ يفرحَ ، وعلىٰ ما يفوتُهُ ينبغي أنْ يتحسَّرَ ، وفي مداواةِ ذٰلكَ ينبغي أنْ يجتهدَ .

وأمَّا صلاةُ الغافلينَ : فإنَّها مخطَرَةٌ ، إلا أنْ يتغمَّدَ اللهُ برحمتِهِ ، والرحمةُ واسعةٌ ، والكرمُ فائضٌ .

فنسألُ اللهَ أن يغمرَنا برحمتِهِ ، ويتغمَّدَنا بمغفرتِهِ ؛ إذْ لا وسيلةَ لنا إلا الاعترافُ بالعجزِ عنِ القيامِ بطاعتِهِ .

❀ ❀ ❀

واعلمْ : أَنَّ تخليصَ الصلاةِ عنِ الآفاتِ ، وإخلاصَها لوجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأداءَها بالشروطِ الباطنةِ التي ذكرْناها ؛ مِنَ الخشوعِ والتعظيمِ والحياءِ . . سببٌ لحصولِ أنوارٍ في القلبِ تكونُ تلكَ الأنوارُ مفاتيحَ علومِ المكاشفةِ ، فأولياءُ اللهِ المكاشَفونَ بملكوتِ السماواتِ والأرضِ وأسرارِ الربوبيةِ إنما يكاشفونَ بها في الصلاةِ ، لا سيما في السجودِ ، إذْ يتقربُ العبدُ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ بالسجودِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ .

وإنَّما تكونُ مكاشفةُ كلِّ مصلٍّ علىٰ قدْرِ صفائِهِ عنْ كدوراتِ الدنيا ، ويختلفُ ذٰلكَ بالقوَّةِ والضعفِ ، والقلَّةِ والكثرةِ ، وبالجلاءِ والخفاءِ ، حتَّىٰ ينكشفُ لبعضِهِمُ الشيءُ بعينِهِ ، وينكشفُ لبعضِهِمُ الشيءُ بمثالٍ ، كما كُشِفَ لبعضِهِمُ الدنيا في صورةِ جيفةٍ ، والشيطانُ في صورةِ كلْبٍ جاثمٍ عليها يدعو إليها .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥١٩) .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٣٩٦/٨) ، وإبراهيم هو النخعي .

ويختلفُ أيضاً بما فيهِ المكاشفةُ ، فبعضُهُمْ ينكشفُ لهُ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ وجلالِهِ ، ولبعضِهِمْ مِنْ أفعالِهِ ، ولبعضِهِمْ مِنْ دقائقِ علومِ المعاملةِ ، ويكونُ لتعيُّنِ تلكَ المعاني في كلِّ وقتٍ أسبابٌ خفيَّةٌ لا تحصىٰ ، وأشدُّها مناسبةً الهمَّةُ ؛ فإنَّها إذا كانتْ مصروفةً إلىٰ شيءٍ معيَّنٍ . . كانَ ذٰلكَ أولىٰ بالانكشافِ .

ولمَّا كانتْ هٰذهِ الأمورُ لا تتراءىٰ إلا في المرائي الصقيلة[١] ، وكانتِ المرائي كلُّها صدئةً ، فاحتجبتْ عنها الهدايةُ ، لا لبخلٍ مِنْ جهةِ المنعمِ بالهدايةِ ، بلْ لخبثٍ متراكمٍ علىٰ مصبِّ الهدايةِ . . تسارعتِ الألسنةُ إلىٰ إنكارِ مثلِ ذٰلكَ ؛ إذِ الطبعُ مجبولٌ علىٰ إنكارِ غيرِ الحاضرِ ، ولوْ كانَ للجنينِ عقلٌ . . لأنكرَ إمكانَ وجودِ إنسانٍ في متسعِ الهواءِ .

ولوْ كانَ للطفلِ تمييزٌ ما . . ربَّما أنكرَ ما يزعمُ العقلاءُ إدراكَهُ مِنْ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ .

وهٰكذا الإنسانُ في كلِّ طورٍ يكادُ ينكرُ ما بعدَهُ ، ومَنْ أنكرَ طورَ الولايةِ . . لزمَهُ أنْ ينكرَ طورَ النبوَّةِ ، وقدْ خلقَ الخلقَ أطواراً ، فلا ينبغي أنْ ينكرَ كلُّ واحدٍ ما وراءَ درجتِهِ .

نعمْ ؛ لمَّا طلبوا هٰذا مِنَ المجادلةِ والمباحثةِ المشوّشَةِ ، ولمْ يطلبوها مِنْ تصفيةِ القلبِ عمَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ . . فَقَدوهُ فأنكروهُ .

ومنْ لمْ يكنْ مِنْ أهلِ المكاشفةِ . . فلا أقلَّ مِنْ أنْ يؤمنَ بالغيبِ ويصدقَ بهِ إلىٰ أنْ يشاهدَ بالتجربةِ ؛ ففي الخبرِ : (إنَّ العبدَ إذا قامَ في الصلاةِ . . رفعَ اللهُ الحجابَ بينَهُ وبيْنَ عبدِهِ ، وواجهَهُ بوجهِهِ ، وقامتِ الملائكةُ مِنْ لَدُنْ مَنْكبيهِ إلى الهواءِ يصلُّونَ بصلاتِهِ ، ويؤمّنونَ علىٰ دعائِهِ ، وإنَّ المصلِّيَ لينثرُ عليهِ البرُّ مِنْ عنانِ السماءِ[٢] إلىٰ مفرقِ رأسِهِ ، ويناديهِ منادٍ : لوْ علمَ المناجي مَنْ يناجي . . ما التفتَ ، وإنَّ أبوابَ السماءِ تفتحُ لِلمصلِّينَ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ يباهي ملائكتَهُ بصدْقِ المصلّي)[٣] ، ففتحُ أبوابِ السماءِ ، ومواجهةُ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ بوجهِهِ كنايةٌ عنِ الكشْفِ الذي ذكرناهُ .

وفي التوراةِ مكتوبٌ : (يا بنَ آدمَ ؛ لا تعجَزْ أنْ تقومَ بينَ يديَّ مصلِّياً باكياً ، فأنا اللهُ الذي اقتربتُ مِنْ قلبِكَ ، وبالغيبِ رأيتَ نوري)[٤] ، قال : فكنَّا نرىٰ أَنَّ تلكَ الرقةَ والبكاءَ والفتوحَ الذي يجدُهُ المصلِّي في قلبِهِ مِنْ دنوِّ الربِّ تعالىٰ مِنَ القلبِ[٥] ، وإذا لمْ يكنْ هٰذا الدنوُّ هوَ القرْبَ بالمكانِ[٦] . . فلا معنىٰ لهُ إلا الدنوُّ بالهدايةِ والرحمةِ وكشفِ الحجابِ .

ويقالُ : إنَّ العبدَ إذا صلَّىٰ ركعتينِ عجبَ منهُ عشرةُ صفوفٍ مِنَ الملائكةِ ، كلُّ صفٍّ منهُمْ عشرةُ آلافٍ ، وباهى اللهُ بهِ مئةَ ألفِ مَلَكٍ ؛ وذٰلكَ أَنَّ العبدَ قدْ جمعَ في الصَّلاةِ بينَ القيامِ والقعودِ والركوعِ والسجودِ ، وقدْ فُرّقَ ذٰلكَ علىٰ أربعينَ ألفَ مَلَكٍ ، فالقائمونَ لا يركعونَ إلىٰ يومِ القيامةِ ، والساجدونَ لا يرفعونَ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وهٰكذا الراكعونَ والقاعدونَ ، فإنَّ ما رزقَ اللهُ تعالى الملائكةَ مِنَ القرْبِ والرتبةِ لازمٌ لهمْ مستمرٌّ علىٰ حالٍ واحدةٍ لا يزيدُ ولا ينقصُ ، ولذٰلكَ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهم إذْ قالوا : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، وفارقَ الإنسانُ الملائكةَ في الرقيِّ مِنْ درجةٍ إلىٰ

---

(١) المرآة الصقيلة : المجلوة الصافية .

(٢) عنان السماء : ما ظهر منها للناظر ، وفي غالب النسخ : (أعنان السماء) أي : نواحيها .

(٣) قوت القلوب (٢/١٠٠) ، وفيه : (بصفوف) بدل (بصدق) .

(٤) قوت القلوب (٢/١٠٠) .

(٥) قوت القلوب (٢/١٠٠) .

(٦) لاستحالته عليه سبحانه ؛ لأنه منزه عن كل ما يخص الأجسام . « إتحاف » (٣/١٦٥) .

درجةٍ ، فإنَّهُ لا يزالُ يتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ فيستفيدُ مزيدَ قربهِ ، وبابُ المزيدِ مسدودٌ على الملائكةِ عليهِمُ السلامُ ، وليسَ لكلِّ واحدٍ منهُمْ إلا رتبتُهُ التي هيَ وقْفٌ عليهِ ، وعبادتُهُ التي هوَ مشغولٌ بها ، لا ينتقلُ إلىٰ غيرِها ، ولا يفترُ عنها ، ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ .

ومفتاحُ مزيدِ الدرجاتِ هيَ الصلواتُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ ، فمدحَهُمْ بعدَ الإيمانِ بصلاةٍ مخصوصةٍ ، وهيَ المقرونةُ بالخشوعِ ، ثمَّ ختمَ أوصافَ المفلحينَ بالصَّلاةِ أيضاً فقالَ تعالىٰ في آخرِها : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [1] ، ثمَّ قالَ تعالىٰ في ثمرةِ تلكَ الصفاتِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ، فوصفَهُمْ بالفلاحِ أوَّلاً ، وبوراثةِ الفردوسِ آخراً .

وما عندي أَنَّ هذرمةَ اللسانِ معَ غفلةِ القلبِ تنتهي درجتُهُ إلىٰ هٰذا الحدِّ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ في أضدادِهِمْ : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ ، فالمصلُّونَ همْ ورثةُ الفردوسِ ، وهمُ المشاهدونَ لنورِ اللهِ تعالىٰ والمتنعمونَ بقربِهِ ودنوِّهِ مِنْ قلوبِهِمْ .

نسألُ اللهَ أنْ يجعلَنا منهم ، وأنْ يعيذَنا مِنْ عقوبةِ مَنْ تزيَّنَتْ أقوالُهُ وقبحتْ أفعالُهُ ؛ إنَّهُ الكريمُ المنَّانُ القديمُ الإحسانِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

---

(١) وهي قراءة حمزة وخلف والكسائي ؛ (صلاتهم) بدل (صلواتهم) .

حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين

اعلم : أنَّ الخشوعَ ثمرةُ الإيمانِ ، ونتيجةُ اليقينِ الحاصلِ بجلالِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ومَنْ رزقَ ذٰلكَ . . فإنَّهُ يكونُ خاشعاً في الصَّلاةِ وفي غيرِ الصَّلاةِ ، بلْ في خلوتِهِ ، وفي بيتِ الماءِ عندَ قضاءِ الحاجةِ[1] ؛ فإنَّ موجِبَ الخشوعِ معرفةُ اطلاعِ اللهِ تعالىٰ على العبدِ ، ومعرفةُ جلالِهِ ، ومعرفةُ تقصيرِ العبدِ ، فمِنْ هٰذهِ المعارفِ يتولَّدُ الخشوعُ ، وليستْ مختصَّةً بالصلاةِ .

ولذٰلكَ رُوِيَ عنْ بعضِهِمْ أَنَّهُ لمْ يرفعْ رأسَهُ إلى السَّماءِ أربعينَ سنةً ؛ حياءً مِنَ اللهِ سبحانَهُ وخشوعاً لَهُ[2] .

وكانَ الربيعُ بنُ خُثَيْمٍ مِنْ شدَّةِ غضِّهِ لبصرِهِ وإطراقِهِ يظنُّ بعضُ الناسِ أَنَّهُ أعمىٰ ، وكانَ يختلفُ إلىٰ منزلِ ابنِ مسعودٍ عشرينَ سنةً ، فإذا رأتْهُ جاريتُهُ . . قالتْ لابنِ مسعودٍ : صديقُكَ ذٰلكَ الأعمىٰ قدْ جاءَ ، فكانَ يضحكُ ابنُ مسعودٍ مِنْ قولِها ، وكانَ إذا دقَّ البابَ . . تخرجُ الجاريةُ إليهِ فتراهُ مطرقاً غاضاً بصرَهُ ، وكانَ ابنُ مسعودٍ إذا نظرَ إليهِ يقولُ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ ، أَمَا واللهِ ؛ لو رآكَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لفرحَ بكَ) ، وفي لفظٍ : (لأحبَّكَ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (لضحكَ)[3] .

ومشىٰ ذاتَ يومٍ معَ ابنِ مسعودٍ في الحدَّادينَ[4] ، فلما نظرَ إلى الأكوارِ تنفخُ وإلى النيرانِ تلتهبُ . . صعقَ وسقطَ مغشياً عليهِ ، وقعدَ ابنُ مسعودٍ عندَ رأسِهِ إلىٰ وقتِ الصلاةِ فلمْ يفقْ ، فحملَهُ علىٰ ظهرِهِ إلىٰ منزلِهِ ، فلمْ يزلْ مغشياً عليهِ إلىٰ مثلِ الساعةِ التي صعقَ فيها ، ففاتتْهُ خمسُ صلواتٍ وابنُ مسعودٍ عندَ رأسِهِ يقولُ : هٰذا واللهِ هوَ الخوفُ[5] .

وكانَ الربيعُ يقولُ : (ما دخلتُ في صلاةٍ قطُّ فأهمَّني فيها إلا ما أقولُ وما يقالُ لي)[6] .

وكانَ عامرُ بنُ عبدِ اللهِ مِنْ خاشعي المصلِّينَ ، وكانَ إذا صلَّىٰ . . ربَّما ضربتِ ابنتُهُ بالدُّفِّ وتحدَّثَ النساءُ بما يردْنَ في البيتِ ، ولمْ يكنْ يسمعُ ذٰلكَ ولا يعقلُهُ .

وقيلَ لهُ ذاتَ يومٍ : هلْ تحدِّثُكَ نفسُكَ في الصلاةِ بشيءٍ ؟ قالَ : نعمْ ، بوقوفي بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومنصرفي إلىٰ إحدى الدارينِ ، قيلَ : فهلْ تجدُ شيئاً ممَّا نجدُ مِنْ أمورِ الدنيا ؟ فقالَ : لأنْ تختلفَ الأسنَّةُ فيَّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أجدَ في الصلاةِ ما تجدونَ[7] .

وكانَ يقولُ : (لوْ كشفَ الغطاءُ . . ما ازددتُ يقيناً)[7] .

---

(١) وفي كل حال هناك أدبٌ هو مظهر هـٰذا الخشوع .

(٢) روي ذٰلك عن جمع كثير ، منهم سيدنا سليمان عليه السلام كما في « الزهد » (١٧٦) لابن المبارك من زيادات نعيم بن حماد ، ومنهم من بقي كذٰلك سبعين سنة ؛ كأبي عبيدة الخواص كما في « صفة الصفوة » (١٩٥/٤) .

(٣) روى الخبر أحمد في « الزهد » (١٩٨٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٥١/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٦/٢) ، وهو في « القوت » (١٠٢/٢) .

(٤) أي : في سوق الحدَّادين في الكوفة .

(٥) وكان قد سمع من ابن مسعود رضي الله عنه قوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ ، رواه أحمد في « الزهد » (١٩٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٠/٢) ، يقول الأعمش كما في « الزهد » (١٩٨٢) : (فمررت بالحدادين لأتشبه به ، فلم يكن عندي خير) ، والخبر في « القوت » (١٠٢/٢) .

(٦) قوت القلوب (١٠٢/٢) ، وما يقوله : هو التلاوة والذكر ، وما يقال له : المخاطبة والمناجاة والإجابة . انظر « الإتحاف » (١٦٧/٣) .

(٧) قوت القلوب (١٠٢/٢) .

وقدْ كانَ مسلمُ بنُ يسارٍ منهُمْ ، وقدْ نقلْنا أنَّهُ لمْ يشعرْ بسقوطِ أسطوانةٍ في المسجدِ وهوَ في الصلاةِ[1]

وتأكَّلَ طرفٌ مِنْ أطرافِ بعضِهِمْ ، واحتيجَ فيهِ إلى القطعِ ، فلمْ يمكنْ منهُ ، فقيلَ : إنَّهُ في الصلاةِ لا يحسُّ بما يجري عليهِ ، فقُطِعَ منهُ ذلكَ الطرفُ وهوَ في الصلاةِ[2]

وقالَ بعضُهُمْ : (الصلاةُ مِنَ الآخرةِ ، فإذا دخلتَ في الصلاةِ . . خرجتَ مِنَ الدنيا)[3]

وقيلَ لآخرَ : هلْ تحدِّثُ نفسَكَ في الصلاةِ بشيءٍ مِنَ الدنيا ؟ فقالَ : لا ؛ لا في الصلاةِ ولا في غيرِها[4]

وسئلَ بعضُهُمْ : هلْ تذكرُ في الصلاةِ شيئاً ؟ فقالَ : وهلْ شيءٌ أحبُّ إليَّ مِنَ الصلاةِ فأذكرَهُ فيها ؟![5]

وكانَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (مِنْ فقْهِ الرجلِ أنْ يبدأَ بحاجتِهِ قبلَ دخولِهِ في الصلاةِ ؛ ليدخلَ في الصلاةِ وقلبُهُ فارغٌ)[6]

وكانَ بعضُهُمْ يخفِّفُ الصلاةَ خيفةَ الوسواسِ ؛ ورُوِيَ أنَّ عمارَ بنَ ياسرٍ صلَّىٰ صلاةً فأخفَّها ، فقيلَ لهُ : خفَّفْتَ يا أبا اليقظانِ ؛ فقالَ : هلْ رأيتموني نقصْتُ مِنْ حدودِها شيئاً ؟ قالوا : لا ، قالَ : إنِّي بادرتُ سهوَ الشيطانِ ، إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ العبدَ ليُصلِّي الصَّلاةَ لا يُكتبُ لهُ منها نصفُها ، ولا ثلثُها ، ولا ربعُها ، ولا خمسُها ، ولا سدسُها ، ولا عُشرُها » ، وكانَ يقولُ : إنَّما يكتبُ للعبدِ مِنْ صلاتِهِ ما عقلَ منها[7]

ويقالُ : إنَّ طلحةَ والزبيرَ وطائفةً مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ كانوا أخفَّ الناسِ صلاةً ، وقالوا : (نبادرُ بها وسوسةَ الشيطانِ)[8]

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ على المنبرِ : إنَّ الرجلَ ليشيبُ عارضاهُ في الإسلامِ وما أكملَ للهِ تعالىٰ صلاةً ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : لا يتمُّ خشوعَها وتواضعَها وإقبالَهُ على اللهِ عزَّ وجلَّ فيها[9]

وسئلَ أبو العاليةِ عنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ . . قالَ : هوَ الذي يسهو في صلاتِهِ ، فلا يدري علىٰ كمْ ينصرفُ : أعلىٰ شفْعٍ أمْ علىٰ وترٍ ؟

وقالَ الحسنُ : هوَ الذي يسهو عنْ وقتِ الصلاةِ حتَّىٰ يخرجَ .

وقالَ بعضُهُمْ : هوَ الذي إنْ صلَّاها في أوَّلِ الوقتِ . . لمْ يفرحْ ، وإنْ أخَّرَها عنِ الوقتِ . . لمْ يحزنْ ، فلا يرىٰ تعجيلَها برّاً ، ولا تأخيرَها إثماً[10]

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣٥/٥٨) ، وهو في « القوت » (١٠٢/٢) .

(٢) وهو عروة بن الزبير ، عمُّ عامر الذي تقدم خبره ، والخبر رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦١/٤٠) دون تصريح أن القطع كان في الصلاة .

(٣) قوت القلوب (١٠٢/٢)

(٤) عوارف المعارف (٥٤٧/٢) ، وقد نسبه الحافظ الزبيدي إلى « القوت » .

(٥) قوت القلوب (١٠٢/٢) .

(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٤٢) ، وهو من معلقات البخاري .

(٧) رواه أبو داوود (٧٩٦) ، وكذا في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٩٠) ، والخبر في « القوت » (١٠٢/٢) .

(٨) روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٣٧٣٠) عن أبي رجاء قال : (صلىٰ بنا الزبير صلاة فخفف ، فقيل له ، فقال : إني أبادر الوسواس) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤٨٣) ، والخبر في « القوت » (١٠٣/٢)

(١٠) قوت القلوب (١٠٣/٢) .

واعلمْ : أنَّ الصلاةَ قدْ يحسبُ بعضُها ويكتبُ بعضُها دونَ بعضٍ كما دلَّتِ الأخبارُ عليهِ ، وإنْ كانَ الفقيهُ يقولُ : (إنَّ الصلاةَ في الصحَّةِ لا تتجزَّأُ) ، ولـٰكنَّ ذٰلكَ لهُ معنىً آخرُ ذكرناهُ ، وهـٰذا المعنىٰ دلَّتْ عليهِ الأحاديثُ ؛ إذْ وردَ جَبْرُ نقصانِ الفرائضِ بالنوافلِ في الخبرِ [1]

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يقولُ اللهُ تعالىٰ : بالفرائضِ نجا منِّي عبدي ، وبالنَّوافلِ تقرَّبَ إليَّ عبدي) [2]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : لا ينجو منِّي عبدِي إلا بأداءِ ما افترضتُ عليهِ » [3]

ورُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّىٰ صلاةً ، فتركَ مِنْ قراءتِهِ آيةً ، فلمَّا انفتلَ . . قالَ : « ماذا قرأتُ ؟ » فسكتَ القومُ ، فسألَ أُبَيَّ بنَ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : قرأتَ سورةَ كذا وتركتَ آيةَ كذا ، فما أدري : أَنُسختْ أمْ رُفعتْ ؟ فقالَ : « أنتَ لها يا أُبيُّ » ، ثمَّ أقبلَ على الآخرينَ فقالَ : « ما بالُ أقوامٍ يحضرونَ صلاتَهُمْ ، ويتِمُّون صفوفَهُمْ ، ونَبيُّهُمْ بينَ أيديهِمْ ، لا يدرونَ ما يتلو عليهِمْ مِنْ كتابِ ربِّهِمْ !! ألا إنَّ بني إسرائيلَ كذا فعلوا ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ أنْ قُلْ لقومِكَ : تحضروني أبدانَكُمْ وتعطوني ألسنتَكُمْ ، وتغيبونَ عنِّي بقلوبِكُمْ ؟! باطلٌ ما تذهبونَ » [4]

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ استماعَ ما يقرأُ الإمامُ وفهمَهُ بدلٌ عن قراءتِهِ السورةَ بنفسِهِ .

وقالَ بَعضُهُمْ : إنَّ العبدَ ليسجدُ السجدةَ عندَهُ أنَّهُ تقرَّبَ بها إلى اللهِ تعالىٰ ، ولوْ قسمتْ ذنوبُهُ في سجدتِهِ علىٰ أهلِ مدينتِهِ . . لهلكوا ، قيلَ : وكيفَ ذٰلكَ ؟ قال : يكونُ ساجداً عندَ اللهِ وقلبُهُ مصغٍ إلىٰ هوىً ، ومشاهدٌ لباطلٍ ، قدِ استولىٰ عليهِ [5]

فهـٰذهِ صفةُ الخاشعينَ .

فدلَّتْ هـٰذهِ الأخبارُ والحكاياتُ معَ ما سبقَ علىٰ أنَّ الأصلَ في الصلاةِ الخشوعُ وحضورُ القلبِ ، وأنَّ مجرَّدَ الحركاتِ معَ الغفلةِ قليلُ الجدوىٰ في المعادِ ، واللهُ أعلمُ ، نسألُ اللهَ حسْنَ التوفيقِ .

* * *

---

(١) كما روىٰ أبو داوود (٨٦٤) ، والترمذي (٤١٣) مرفوعاً : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، قال : يقول ربنا جلَّ وعزَّ لملائكته وهو أعلم : انظروا في صلاة عبدي : أتمَّها أم نَقَصَها ؟ فإن كانت تامة . . كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً . . قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فإن كان له تطوع . . قال : أتموا لعبدي فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال علىٰ ذاكم » .

(٢) كذا أورده صاحب « القوت » (١٠٣/٢) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٣٢) عن حسان بن عطية قال : (قال الله : لا ينجو مني . . .) ، وهو كذٰلك في « الزهد » لأبي داوود (٥) عن طاووس اليماني .

وفي « البخاري » (٦٥٠٢) : « وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته . . كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . . » .

(٤) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٩٢) عن عثمان بن أبي دهرش بلاغاً بنحوه ، وهو بلفظه في « القوت » (١٠٤/٢)

(٥) قوت القلوب (١٠٤/٢) ، وانظر « الإتحاف » (١٧٠/٣) .

البَابُ الرَّابِعُ
في الإمامة والقدوة

وعلى الإمامِ وظائفُ ؛ قبلَ الصلاةِ ، وفي القراءةِ ، وفي أركانِ الصلاةِ ، وبعدَ السلامِ .

❁ ❁ ❁

أمَّا الوظائفُ التي قبلَ الصلاةِ . . فستةٌ :

أوَّلُها : ألا يتقدَّمَ للإمامةِ علىٰ قومٍ يكرهونَهُ ، فإنِ اختلفوا . . كانَ النظرُ إلى الأكثرينَ ، فإنْ كانَ الأقلُّونَ هـمْ أهلَ الخيرِ والدينِ . . فالنظرُ إليهِمْ أولىٰ .

وفي الحديثِ : « ثلاثةٌ لا تجاوزُ صلاتُهُمْ رؤوسَهُمْ : العبدُ الآبقُ ، وامرأةٌ زوجُها ساخطٌ عليها ، وإمامُ قومٍ وهمْ لهُ كارهونَ »[1]

وكما يُنهىٰ عنْ تقدمِهِ معَ كراهتِهِمْ . . فكذٰلكَ يُنهىٰ عنِ التقدمةِ إنْ كانَ وراءَهُ مَنْ هوَ أفقَهُ منهُ وأقرأُ ، إلَّا إذا امتنعَ منْ هوَ أولىٰ منهُ ، فلهُ التقدُّمُ ، فإنْ لمْ يكنْ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ . . فليتقدَّمْ مهما قُدِّمَ وعرفَ مِنْ نفسِهِ القيامَ بشروطِ الإمامةِ .

ويكرَهُ عندَ ذٰلكَ المدافعةُ ، فقدْ قيلَ : إنَّ قوماً تدافعوا الإمامةَ بعدَ إقامةِ الصلاةِ . . فخُسِفَ بهم[2]

وما رُوِيَ مِنْ مدافعةِ الإمامةِ بينَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ فسببُهُ إيثارُهُمْ مَنْ رأوهُ أولىٰ بذٰلكَ ، أوْ خوفُهُمْ علىٰ أنفسِهِمُ السهوَ وخطرَ ضمانِ صلاتِهِمْ ؛ فإنَّ الأئمَّةَ ضمناءُ ، وكأَنَّ مَنْ لمْ يتعوَّدْ ذٰلكَ ربَّما يشتغلُ قلبُهُ ويتشوَّشُ عليهِ الإخلاصُ في الصلاةِ ؛ حياءً مِنَ المقتدينَ ، لا سيما في جهرِهِ بالقراءةِ ، فكانَ لاحترازِ مَنِ احترزَ أسبابٌ مِنْ هٰذا الجنسِ[3]

❁ ❁ ❁

الثانيةُ : إذا خيِّرَ المرءُ بينَ الأذانِ والإمامةِ . . فينبغي أنْ يختارَ الإمامةَ ؛ فإنَّ لكلِّ واحدٍ منهما فضلاً ، ولٰكنَّ الجمعَ مكروهٌ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ الإمامُ غيرَ المؤذِّنِ .

وإذا تعذَّرَ الجمعُ . . فالإمامةُ أولىٰ ، وقالَ قائلونَ : الأذانُ أولىٰ ؛ لما نقلناهُ في فضيلةِ الأذانِ ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإمامُ ضامنٌ ، والمؤذِّنُ مؤتمنٌ »[4] ، فقالوا : في الإمامةِ خطرُ الضمانِ .

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠) ، والكراهة لمعنىً يذم به شرعاً ، وإلا . . فلا ، واللوم علىٰ كارهه ، ثم إن الذي يذم شرعاً كفسق ، وبدعة ، وتساهل في تحرز عن خبث ، وإخلال بهيئة من هيئات الصلاة ، وتعامل حرفة مذمومة ، وعشرة فسقة ، ونحو ذٰلك . « إتحاف » (١٧١/٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٩٠) ، و« مجابو الدعوة » (٧٩) .

(٣) الأولىٰ بحال الصحابة الوجهُ الأول ، وهو الإيثار وخطر الضمان ، وقد كان ذٰلك من وصفهم ، وفي « القوت » (٢١٢/٢) : (ومن هٰذا كره سهل بن سعد الساعدي الإمامةَ ، قال أبو حازم : قلت لسهل بن سعد وكان يقدم فتيان قومه يصلون به ، فقلت : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولك من السابقة والفضل ، لو تقدمت فصليت بقومك ، فقال : يا بن أخي ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الإمام ضامن » فأكره أن أكون ضامناً) . انظر « الإتحاف » (١٧٢/٣) ، وسيعقب المصنف علىٰ ذٰلك .

(٤) رواه أبو داوود (٥١٧) ، والترمذي (٢٠٧) ، وابن ماجه (٩٨١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الإمامُ أمينٌ ، فإذا ركعَ . . فاركعوا ، وإذا سجدَ . . فاسجدوا »[1]

وفي الحديثِ « فإنْ أتمَّ . . فلهُ ولهُمْ ، وإنْ نقصَ . . فعليهِ لا عليهِمْ »[2]

ولأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « اللهمَّ ؛ أرشدِ الأئمَّةَ واغفرْ للمؤذِّنينَ »[3] ، والمغفرةُ أولىٰ بالطلبِ ؛ فإنَّ الرشدَ يرادُ للمغفرةِ .

وفي الخبرِ : « مَنْ أذَّنَ في مسجدٍ سبعَ سنينَ . . وجبتْ لهُ الجنَّةُ ، ومَنْ أذَّنَ أربعينَ عاماً . . دخلَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ »[4] ؛ ولذٰلكَ نُقلَ عنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أنَّهُمْ كانوا يتدافعونَ الإمامةَ .

والصحيحُ : أنَّ الإمامةَ أفضلُ ؛ إذْ واظبَ عليها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُما ، والأئمَّةُ بعدَهُم .

نعمْ ؛ فيها خطرُ الضمانِ ، والفضيلةُ معَ الخطرِ ، كما أنَّ رتبةَ الإمارةِ والخلافةِ أفضلُ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيومٌ مِنْ سلطانٍ عادلٍ أفضلُ مِنْ عبادةِ سبعينَ سنةً »[5]

ولٰكنْ فيها خطرٌ ، ولذٰلكَ وجبَ تقديمُ الأفضلِ والأفقهِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أئمتُكُمْ شفعاؤُكُمْ إلى اللهِ » ، أوْ قالَ : « وفدُكُمْ إلى اللهِ ، فإنْ أردتُمْ أنْ تُزكُّوا صلاتَكُمْ . . فقدِّموا خيارَكُمْ »[6]

وقالَ بعضُ السلفِ : (ليسَ بعدَ الأنبياءِ أفضلُ مِنَ العلماءِ ، ولا بعدَ العلماءِ أفضلُ مِنَ الأئمَّةِ المصلِّينَ ؛ لأنَّ هٰؤلاءِ قاموا بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ وبينَ خلقِهِ ؛ هٰذا بالنبوَّةِ ، وهٰذا بالعلمِ ، وهٰذا بعمادِ الدينِ وهوَ الصلاةُ)[7]

وبهٰذهِ الحجَّةِ احتجَّ الصحابةُ في تقديمِ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ وعنهُمْ للخلافةِ ؛ إذْ قالوا : (نظرْنا ؛ فإذا الصلاةُ عمادُ الدينِ ، فاخترْنا لدنيانا مَنْ رضيهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لدينِنا)[8] ، وما قدَّموا بلالاً احتجاجاً بأنَّهُ رضيَهُ للأذانِ[9]

وما رُوِيَ أنَّهُ قالَ لهُ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ دُلَّني علىٰ عملٍ أدخلُ بِهِ الجنَّةَ ، قالَ : « كُنْ مؤذِّناً » ، قالَ : لا أَستطيعُ ، قالَ : « كُنْ إماماً » ، قالَ : لا أستطيعُ ، قالَ : « صَلِّ بإزاءِ الإمامِ »[10] . . فلعلَّهُ ظنَّ أنَّهُ لا يُرضَىٰ بإمامتِهِ ؛

---

(١) رواه البخاري (٣٧٨) ، ومسلم (٤١١) ، دون : « الإمام أمين » ، أو « أمير » كما في بعض النسخ ، وهي عند ابن خزيمة في « صحيحه » (١٦١٣) .

(٢) رواه أبو داوود (٥٨٠) ، وابن ماجه (٩٨٣) بنحوه .

(٣) هو تتمة حديث : « الإمام ضامن » الذي سبق قريباً .

(٤) روى الشطر الأول منه الترمذي (٢٠٦) ، وابن ماجه (٧٢٧) بلفظ : « من أذَّنَ سبع سنين محتسباً . . كتبت له براءة من النار » وزيادة المصنف في « القوت » (٢١٢/٢) ، وفي (ج) : (أمَّ) بدل : (أذَّن) .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٣٧/١١) ، وفيه : (ستين) بدل (سبعين) .

(٦) رواه الدارقطني في « سننه » (٣٤٦/١) ، والجملة الأولىٰ منه (٨٧/٢) .

(٧) قوت القلوب (٢٠٨/٢) .

(٨) كما روىٰ ذٰلك ابن سعد في « طبقاته » (١٦٧/٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (١٢٩/٢٢) عن علي رضي الله عنه ، وفيه يقول : (نظرتُ في أمري ؛ فإذا الصلاةُ عظْمُ الإسلام ، وقوام الدين ، فرضينا لدنيانا . . .) ، والأثر المرفوع هو ما رواه البخاري (٦٦٤) ، ومسلم (٤١٨) : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

(٩) روي أمر النبي صلى الله عليه وسلم لبلال بالأذان عند « أبي داوود » (٤٩٩ ، ٥٠٦) ، وابن ماجه (١٢٣٤) .

(١٠) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٣٦/١) ، والطبراني في « الأوسط » (٣٦٨٣) .

إذِ الأذانُ إليهِ والإمامةُ إلى الجماعةِ وتقديمِهِمْ لهُ ، ثمَّ بعدَ ذٰلكَ توهَّمَ أنَّهُ ربَّما يقدرُ عليها .

❁ ❁ ❁

الثالثةُ : أنْ يراعيَ الإمامُ أوقاتَ الصلواتِ ، فيصلِّيَ في أوائلِها ؛ ليدركَ رضوانَ اللهِ سبحانَهُ ، ففضْلُ أوَّلِ الوقتِ علىٰ آخرِهِ كفضْلِ الآخرةِ على الدنيا ؛ هٰكذا رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1]

وفي الحديثِ : « إنَّ العبدَ ليصلِّي الصلاةَ في آخرِ وقتِها ولمْ تفتْهُ ، ولَمَا فاتَهُ مِنْ أوَّلِ وقتِها خيرٌ لَهُ مِنَ الدنيا وما فيها »[2]

ولا ينبغي أنْ يؤخِّرَ الصَّلاةَ لانتظارِ كثرةِ الجمعِ ، بلْ عليهِمُ المبادرةُ لحيازةِ فضيلةِ أوَّلِ الوقتِ ، فهيَ أفضلُ مِنْ كثرةِ الجماعةِ ، ومِنْ تطويلِ السورةِ ، وقدْ قيلَ : كانوا إذا حضرَ اثنانِ في الجماعةِ . . لمْ ينتظروا الثالثَ ، وإذا حضرَ أربعةٌ في الجِنازةِ . . لمْ ينتظروا الخامسَ[3]

وقدْ تأخَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ صلاةِ الفجرِ وكانوا في سفرٍ ، وإنَّما تأخَّرَ للطهارةِ . . فلمْ يُنتظَرْ ، وقُدِّمَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ عوفٍ ، فصلَّىٰ بهِمْ ، حتَّىٰ فاتتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ركعةٌ فقامَ يقضِيها ، قالَ : فأشفقْنا مِنْ ذٰلكَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قدْ أحسنتُمْ ، هٰكذا فافعلوا »[4]

وقدْ تأخَّرَ في صلاةِ الظهرِ ، فقدَّموا أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ حتَّىٰ جاءَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهمْ في الصلاةِ ، فقامَ إلىٰ جانبِهِ[5]

وليسَ على الإمامِ انتظارُ المؤذِّنِ ، وإنَّما على المؤذِّنِ انتظارُ الإمامِ للإقامةِ ، فإذا حضرَ . . فلا ينتظرُ غيرَهُ .

❁ ❁ ❁

الرابعةُ : أنْ يؤمَّ مخلصاً لوجْهِ اللهِ ، ومؤدِّياً أمانةَ اللهِ تعالىٰ في طهارتِهِ وجميعِ شروطِ صلاتِهِ .

أمَّا الإخلاصُ : فبألَّا يأخذَ عليها أجرةً ، فقدْ أمرَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عثمانَ بنَ أبي العاصِ الثقفيَّ فقالَ : « واتَّخذْ مؤذِّناً لا يأخذُ على الأذانِ أجْراً »[6]

والأذانُ طريقٌ إلى الصَّلاةِ ، فهيَ أولىٰ بألَّا يُؤْخذَ عليها أجرٌ ؛ فإنْ أخذَ رزقاً مِنَ مسجدٍ قدْ وُقِفَ علىٰ مَنْ يقومُ بإمامتِهِ ، أو مِنَ السلطانِ ، أوْ مِنْ آحادِ الناسِ . . فلا يحكمُ بتحريمِهِ ، ولٰكنَّهُ مكروهٌ ، والكراهيةُ في الفرائضِ أشدُّ منها في التراويحِ ، وتكونُ أجرةً لهُ علىٰ مداومتِهِ علىٰ حضورِ الموضعِ ، ومراقبةِ مصالحِ المسجدِ في إقامةِ الجماعةِ ، لا علىٰ نفْسِ الصَّلاةِ[7]

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٤٤٤/١) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (١٣١/٣) .

(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (٢٤٨/١) بنحوه .

(٣) أما عدم انتظار زيادة على اثنين في الصلاة . . فلحيازة فضيلة أول الوقت كما علم ، وأما عدم انتظار الخامس في الجنازة . . فلما ورد من الإسراع والتعجيل في شأنها . . . ، وإنما أورد المصنف الجنازة هنا اتباعاً لما في « القوت » (٢١١/٢) واستطراداً . « إتحاف » (١٧٧/٣) .

(٤) رواه مسلم (٢٧٤) ، وكان ذٰلك في غزوة تبوك ، وهو معنى السفر .

(٥) رواه البخاري (٦٨٤) ، ومسلم (٤٢١) .

(٦) رواه أبو داوود (٥٣١) ، والترمذي (٢٠٩) ، والنسائي (٢٣/٢) ، وابن ماجه (٧١٤) .

(٧) **وعلامة ذٰلك** : أنه إذا لم يعطَ الأجرة لا يتشوش قلبه في إقامة الجماعة علىٰ عادته الأولىٰ ، وهٰذه مصيبة قد عمت ، فقد صار الأمر الآن أن المؤذن أو الإمام أو الخطيب إذا قُصِّرَ في أداء أجرته ترك عمله ، نسأل الله العفو « إتحاف » (١٧٨/٣)

وأمَّا الأمانةُ : فهي الطهارةُ باطناً عنِ الفسْقِ والكبائرِ والإصرارِ على الصغائرِ ، فالمترشِّحُ للإمامةِ ينبغي أنْ يحترزَ عنْ ذٰلكَ جهدَهُ ؛ فإنَّهُ كالوفدِ والشفيعِ للقومِ ، فينبغي أنْ يكونَ خيرَ القومِ .

وكذا الطهارةُ ظاهراً عَنِ الحدثِ والخبثِ ؛ فإنَّهُ لا يطَّلعُ عليهِ سواهُ ، فإنْ تذكَّرَ في أثناءِ صلاتِهِ حدثاً ، أوْ خرجَ منهُ ريحٌ . . فلا ينبغي أنْ يستحييَ ، بلْ يأخذُ بيدِ مَنْ يقربُ منهُ ويستخلفُهُ ، فقدْ تذكَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الجنابةَ في أثناءِ الصَّلاةِ ، فاستخلفَ ، واغتسلَ ، ثمَّ رجعَ ودخلَ في الصَّلاةِ[1]

وقالَ سفيانُ : (صلِّ خلْفَ كلِّ بَرٍّ وفاجرٍ إلا مُدْمِنِ خمرٍ ، أوْ معلنٍ بالفسقِ ، أوْ عاقٍّ لوالديهِ ، أوْ صاحبِ بدعةٍ ، أوْ عبدٍ آبقٍ)[2]

❀ ❀ ❀

الخامسةُ : ألا يكبِّرَ حتَّىٰ تستويَ الصفوفُ ، فليلتفتْ يميناً وشمالاً ، فإنْ رأىٰ خللاً . . أمرَ بالتسويةِ ، قيلَ : كانوا يتحاذونَ بالمناكبِ ويتضامُّونَ بالكعابِ[3]

ولا يكبِّرُ حتَّىٰ يفرُغَ المؤذِّنُ مِنَ الإقامةِ ، والمؤذِّنُ يؤخِّرُ الإقامةَ عنِ الأذانِ بقدْرِ استعدادِ الناسِ للصلاةِ ؛ ففي الخبرِ : « ليتمهَّلِ المؤذِّنُ بينَ الأذانِ وَالإقامةِ بِقَدْرِ ما يفرغُ الآكلُ مِنْ طعامِهِ والمعتصِرُ مِنِ اعتصارِهِ »[4] ، وذٰلك لأنَّهُ نُهيَ عَنْ مدافعةِ الأخبثينِ[5] ، وأُمرَ بتقديمِ العَشَاءِ على العِشَاءِ[6] ؛ طلباً لفراغِ القلبِ .

❀ ❀ ❀

السادسةُ : أنْ يرفعَ صوتَهُ بتكبيرةِ الإحرامِ وسائرِ التكبيراتِ ، ولا يرفعُ المأمومُ صوتَهُ إلا بقدْرِ ما يسمعُ نفسَهُ ، وينوي الإمامةَ لينالَ الفضلَ ، فإنْ لمْ ينوِ . . صحتْ صلاتُهُ وصلاةُ القومِ إذا نووُا الاقتداءَ ، ونالوا فضلَ القدوةِ ، وهوَ لا ينالُ فضْلَ الإمامةِ .

وليؤخِّرِ المقتدي تكبيرَهُ عنْ تكبيرِ الإمامِ ، فيبتدئُ بعدَ فراغِهِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا وظائفُ القراءةِ . . فثلاثةٌ :

أوَّلُها : أنْ يُسِرَّ بدعاءِ الاستفتاحِ والتعوُّذِ كالمنفردِ ، ويجهرَ بـ (الفاتحةِ) والسورةِ بعدَها في جميعِ الصبْحِ وأوليي العشاءِ والمغربِ ، وكذا المنفردُ .

ويجهرَ بقولِهِ : (آمينَ) في الصلاةِ الجهريةِ ، وكذا المأمومُ ، ويقرنَ المأمومُ تأمينَهُ بتأمينِ الإمامِ معاً لا تعقيباً ،

---

(١) رواه أبو داوود (٢٣٣) وليس فيه ذكر الاستخلاف ، وعبارة « القوت » (٢٠٨/٢) : (فإن كانت الحادثة في الصلاة . . فعل ذلك ، وإن كان ذكر أنه دخل في الصلاة علىٰ غير طهارة . . خرج ولم يستخلف) .

(٢) الجملة الأولىٰ منه رواها اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٧٣/١) .

(٣) **الكعاب** : جمع كعب ؛ وهو العظم الناتئ عند ملتقى الساق والقدم ، والتضام ما لم يؤذ جاره . « إتحاف » (١٨٠/٣) .

(٤) رواه الترمذي (١٩٥) ، **والمعتصر** : هو الذي غلب عليه البول أو الغائط . « إتحاف » (١٨١/٣) .

(٥) كما في « مسلم » (٥٦٠) بلفظ : « لا صلاة بحضرة الطعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان » .

(٦) رواه البخاري (٥٤٦٥) ، ومسلم (٥٥٧) .

ويجهرَ بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، والأخبارُ فيهِ متعارضةٌ[1] ، واختيارُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ الجهرُ[2]

❁ ❁ ❁

الثانيةُ : أنْ يكونَ للإمامِ فِي القيامِ ثلاثُ سكَتاتٍ ، هـٰكذا رواهُ سَمرَةُ بنُ جندُبٍ وعِمْرانُ بنُ حصينٍ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3]

أولاهُنَّ : إذا كبَّرَ ، وهي الطُّولَىٰ منهنَّ ، مقدارُ ما يقرأُ مَنْ خلفَهُ (فاتحةَ الكتابِ) ، وذٰلكَ وقتَ قراءتِهِ لدعاءِ الاستفتاحِ ، فإنَّهُ إنْ لمْ يسكتْ . . يفوتُهُمُ الاستماعُ ، فيكونُ عليهِ ما نقصَ مِنْ صلاتِهِمْ ، فإنْ لمْ يقرؤوا (الفاتحة) في سكوتِهِ واشتغلوا بغيرِها . . فذٰلكَ عليهِمْ لا عليهِ .

والسكتةُ الثانيةُ : إذا فرغَ منَ (الفاتحةِ) ليتمَّ مَنْ يقرأُ (الفاتحةَ) في السكتةِ الأولىٰ فاتحتَهُ ، وهيَ كنصفِ السكتةِ الأولىٰ .

والسكتةُ الثالثةُ : إذا فرغَ مِنَ السورةِ قبلَ أنْ يركعَ ، وهيَ أخفُّها ، وذٰلكَ بقدْرِ ما تنفصلُ القراءةُ عنِ التكبيرِ ، فقدْ نُهِيَ عنِ الوصلِ فيهِ .

ولا يقرأُ المأمومُ وراءَ الإمامِ إلا (الفاتحةَ) ، فإنْ لمْ يسكتِ الإمامُ . . قرأَ (الفاتحةَ) معهُ ، والمقصِّرُ هوَ الإمامُ ، وإنْ لمْ يسمعِ المأمومُ في الجهريةِ لبعدِهِ ، أوْ كانَ في السريَّةِ . . فلا بأسَ بقراءتِهِ للسورةِ .

❁ ❁ ❁

الثالثةُ : أنْ يقرأَ في الصبحِ سورتينِ مِنَ المثاني ما دونَ المئةِ ، فإنَّ الإطالةَ في قراءةِ الفجرِ والتغليسَ بها سنَّةٌ ، ولا يضرُّهُ الخروجُ منها معَ الإسفارِ ، ولا بأسَ أنْ يقرأَ في الثانيةِ بأواخرِ السورِ ؛ نحوُ الثلاثينَ أوِ العشرينَ إلىٰ أنْ يختمَها ؛ لأنَّ ذٰلكَ لا يتكرَّرُ على الأسماعِ كثيراً ، فيكونُ أبلغَ في الوعظِ ، وأدعىٰ إلى التفكُّرِ ، وإنَّما كرِهَ بعضُ العلماءِ قراءةَ بعضِ أوَّلِ السورةِ وقطعَها ، وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأَ بعضَ سورةِ (يونسَ) ، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ ذكرِ موسىٰ وفرعونَ . . قطعَ فركعَ[4]

وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأَ في الفجرِ آيةً مِنَ (البقرَةِ) وهيَ قولُهُ : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية ، وفي الثانيةِ : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ ﴾[5]

وسمعَ بلالاً يقرأُ مِن ها هنا وها هنا ، فسألَهُ عنْ ذٰلكَ فقالَ : أخلطُ الطيِّبَ بالطيِّبِ ، فقالَ : « أحسنتَ »[6]

---

(١) وقد جمعها بإنصافٍ ـ مقدِّماً أحاديثَ الجهر مراعاةً لمذهب الإمام الغزالي ـ الإمامُ الحافظُ الزبيدي في « الإتحاف » (١٨٣/٣) وتحدث عنها فيه بإسهاب .

(٢) فقد نصَّ على الجهر بـ (آمين) و﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في « الأم » (٢٤٩/٢) ، (٣٣٠/٨) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٨٥٤) عن الحسن مرسلاً قال : (كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سكتات ؛ سكتة إذا افتتح التكبير حتىٰ يقرأ الحمد ، وإذا فرغ من الحمد حتىٰ يقرأ السورة ، وإذا فرغ من السورة حتىٰ يركع) . والذي عليه المعول ـ وهو من رواية سمرة وعمران رضي الله عنهما ـ أنهما سكتتان ، وقد أنكر عمران إحداهما ، فكتبا إلىٰ أبي بن كعب : فكتب : أن سمرة قد حفظ ، روىٰ ذٰلك أبو داوود (٧٨٠) ، والترمذي (٢٥١) ، وابن ماجه (٨٤٤) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٠٩/٢) ، وفي « مسلم » (٤٥٥) عن عبد الله بن السائب قال : (صلىٰ لنا النبي صلى الله عليه وسلم الصبح بمكة ، فاستفتح سورة « المؤمنين » ، حتىٰ جاء ذكر موسىٰ وهارون ، أو ذكر عيسىٰ . . أخذت النبيَّ صلى الله عليه وسلم سعلة فركع) .

(٥) رواه مسلم (٧٢٧) .

(٦) رواه أبو داوود (١٣٣٠) بنحوه .

ويقرأُ في الظهرِ بطوالِ المفصَّلِ إلىٰ ثلاثينَ آيةً ، وفي العصرِ بنصْفِ ذٰلكَ ، وفي المغربِ بأواخرِ المفصَّلِ .

وآخرُ صلاةٍ صلَّاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المغربُ ، قرأَ فيها بسورةِ (والمرسلات) ما صلَّىٰ بعدَها حتَّىٰ قُبِضَ [١]

وبالجملةِ : التخفيفُ أولىٰ ، لا سيما إذا كثرَ الجمعُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هٰذهِ الرخصةِ : « إذا صلَّىٰ أحدُكُمْ بالناسِ . . فليخففْ ؛ فإنَّ فيهمُ الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجةِ ، وإذا صلَّىٰ لنفسِهِ . . فليطولْ ما شاءَ » [٢]

وقدْ كانَ معاذُ بنُ جبلٍ يصلِّي بقومِ العشاءَ ، فقرأَ (البقرةَ) ، فخرجَ رجلٌ مِنَ الصلاةِ وأتمَّ لنفسِهِ ، فقالوا : نافقَ الرجلُ ، فتشاكيا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فزجرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معاذاً وقالَ : « أفتَّانٌ أنتَ يا معاذُ ؟! اقرأْ سورةَ (سبِّحْ) ، (والسماءِ والطارقِ) ، (والشمسِ وضحاها) » [٣]

❋ ❋ ❋

وأمَّا وظائفُ الأركانِ . . فثلاثةٌ :

أوَّلُها : أنْ يخفِّفَ الركوعَ والسجودَ ، فلا يزيدُ في التسبيحاتِ علىٰ ثلاثٍ ، فقدْ رُوِيَ عنْ أنسٍ أنَّهُ قالَ : (ما رأيتُ أخفَّ صلاةً مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في تمامٍ) [٤]

نعمْ ؛ رُوِيَ أيضاً أنَّ أنسَ بنَ مالكٍ لمَّا صلَّىٰ خلفَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وكانَ أميراً بالمدينةِ . . قالَ : (ما صليتُ وراءَ أحدٍ أشبهَ صلاةً بصلاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ هٰذا الشابِّ ، قالَ : وكنَّا نسبِّحُ وراءَهُ عشْراً عشراً) [٥] ، ورُوِيَ مجملاً أنَّهُمْ قالوا : (كنَّا نسبِّحُ وراءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الركوعِ والسجودِ عشراً عشراً) [٦] ، وذٰلكَ حسنٌ ، ولٰكنَّ الثلاثَ إذا كثرَ الجمعُ أحسنُ ، فأمَّا إذا لم يحضرْ إلا المتجرِّدونَ للدينِ . . فلا بأسَ بالعشرِ .

هٰذا وجهُ الجمْعِ بينَ الرواياتِ .

وينبغي أنْ يقولَ الإمامُ عندَ رفْعِ رأسِهِ مِنَ الركوعِ : (سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهُ) .

❋ ❋ ❋

الثانيةُ : ينبغي للمأمومِ ألا يسابقَ الإمامَ في الركوعِ والسجودِ ، بلْ يتأخَّرُ فلا يهوي للسجودِ إلا إذا وصلتْ جبهةُ الإمامِ إلى المسجدِ ، هٰكذا كانَ اقتداءُ الصحابةِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [٧] ، ولا يهوي للركوعِ حتَّىٰ يستويَ الإمامُ راكعاً .

وقدْ قيلَ : إنَّ الناسَ يخرجونَ مِنَ الصلاةِ علىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : طائفةٌ بخمسٍ وعشرينَ صلاةً ؛ وهُم الذينَ يكبِّرونَ

---

(١) رواه البخاري (٧٦٣) ، ومسلم (٤٦٢) .

(٢) رواه البخاري (٩٠ ، ٧٠٣) ، ومسلم (٤٦٧) .

(٣) رواه البخاري (٧٠٥) ، ومسلم (٤٦٥) ، وليس فيهما ذكر (والسماء والطارق) ، وهي عند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١١٢/٣) .

(٤) رواه البخاري (٧٠٨) ، ومسلم (٤٦٩)

(٥) رواه أبو داوود (٨٨٨) ، والنسائي (٢٢٤/٢) .

(٦) كذا قال أبو طالب في « القوت » (٢١٠/٢) ، وهو مستفاد أيضاً من الحديث الذي سبق .

(٧) رواه البخاري (٨١١) ، ومسلم (٤٧٤) ، ولفظه : (فإذا رفع من الركوع . . لم أرَ أحداً يحني ظهره حتىٰ يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم جبهته على الأرض ، ثم يخرُّ من وراءه سُجَّداً) .

ويركعونَ بعدَ ركوعِ الإمامِ ، وطائفةٌ بصلاةٍ واحدةٍ ؛ وهُم الذينَ يساوقونَهُ[١] ، وطائفةٌ بلا صلاةٍ ؛ وهمُ الذين يسابقونَ الإمامَ[٢] .

وقدِ اختلفَ في أَنَّ الإمامَ في الركوعِ : هلْ ينتظرُ لحوقَ مَنْ دخلَ لينالَ بهِ فضلَ جماعَتِهِمْ وإدراكَهُ لتلكَ الركعةِ ؟

ولعلَّ الأولىٰ أَنَّ ذٰلكَ مع الإخلاصِ لا بأسَ بهِ[٣] ، إذا لمْ يظهرْ تفاوتٌ ظاهرٌ للحاضرينَ ، فإنَّ حقَّهُمْ مَرعيٌّ في تركِ التطويلِ عليهِمْ .

❀ ❀ ❀

الثالثةُ : لا يزيدُ في دعاءِ التشهُّدِ علىٰ مقدارِ التشهُّدِ ؛ حذراً مِنَ التطويلِ ، ولا يخصُّ في الدعاءِ نفسَهُ ، بلْ يأتي بصيغةِ الجمعِ فيقولُ : (اللهمَّ ؛ اغفرْ لنا) ، ولا يقولُ : (اغفِرْ لي) ، فقدْ كُرِهَ للإمامِ أنْ يخصَّ نفسَهُ[٤] .

ولا بأسَ أنْ يستعيذَ في تشهدِهِ بالكلماتِ الخمسِ المأثورةِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقولَ : « نعوذُ بكَ مِنْ عذابِ جهنَّمَ ، وعذابِ القبرِ ، ونعوذُ بكَ مِن فِتنةِ المحيا والمماتِ ، ومنْ فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ ، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً . . فاقبضْنا إليكَ غيرَ مفتونينَ »[٥] ، وقيل : سُمِّيَ مسيحاً لأنَّهُ يمسحُ الأرضَ بطولِها ، وقيلَ : لأنَّهُ ممسوحُ العينِ ؛ أي : مطموسُها .

❀ ❀ ❀

وأمَّا وظائفُ التحلُّلِ . . فثلاثةٌ :

أُولاها : أنْ ينويَ بالتسليمتينِ السلامَ على القومِ والملائكةِ .

❀ ❀ ❀

الثانيةُ : أن يَثِبَ عَقِيبَ السلامِ ، كذٰلكَ فعلَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُما[٦] ، فيصلِّي النافلةَ في موضعٍ آخرَ[٧] ، فإنْ كانَ خلفَهُ نسوةٌ . . لمْ يقمْ حتَّىٰ ينصرفْنَ[٨]

---

(١) أي : يكبرون ويركعون ويسجدون معه ، كما هو في « القوت » (٢/٢٠٩) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٠٩)

(٣) والمراد بالإخلاص : ألا يفعل ذٰلك تقرباً لوجيهٍ مثلاً ، بل يخلص النية في فعله ؛ لينال المقتدي به أجر الجماعة وأجر الركعة المدركة .

(٤) قال الإمام الشافعي في « الأم » (٢/٣٠٥) : (وروي من وجه عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يصلي الإمام بقوم فيخصَّ نفسه بدعوة دونهم ») .

(٥) رواه مسلم (٥٨٨) ، وزيادة : « وإذا أردت . . . » هي عند الترمذي (٣٢٣٣) .

(٦) ففي « البخاري » (٨٤٩) عن أم سلمة قالت : (كان إذا سلم يمكث في مكانه يسيراً) ، وحديث مكث الشيخين يسيراً عند أبي داوود (١٠٠٧) ، وقد اعتمد الحافظ العراقي في « تخريجه » علىٰ رواية (يثب) ، وشاهدها عند المصنف قول الراوي : (يسيراً) وسيفسر هـٰذا اليسير فيما سيأتي .

(٧) كما في « البخاري » (٨٤٨) .

(٨) كما في « البخاري » (٨٥٠) .

وفي الخبرِ المشهورِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يكنْ يقعدُ إلا قدْرَ قولِهِ : « اللهمَّ ؛ أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، تباركْتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ »[1]

❀ ❀ ❀

الثالثةُ : إذا وثبَ . . فينبغي أنْ يقبلَ بوجهِهِ على الناسِ .

ويكرَهُ للمأمومِ القيامُ قبلَ انفتالِ الإمامِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ طلحةَ والزبيرِ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُما صلَّيا خلفَ إمامٍ ، فلمَّا سلَّما . . قالا للإمامِ : ما أحسنَ صلاتَكَ وأتمَّها إلا شيئاً واحداً ؛ أنَّكَ لمَّا سلَّمتَ . . لمْ تنفتلْ بوجهِكَ ، ثمَّ قالا للناسِ : ما أحسنَ صلاتَكُمْ إلا أنَّكُمْ انصرفتُمْ قبلَ أنْ ينفتلَ إمامُكُمْ[2] .

ثمَّ ينصرفُ الإمامُ حيثُ شاءَ مِنْ يمينِهِ أوْ شمالِهِ ، واليمينُ أحبُّ ، هٰذهِ وظيفةُ الصلواتِ .

وأمَّا الصبحُ : فيزيدُ فيها القنوتَ ، فيقولُ الإمامُ : (اللهمَّ ؛ اهدنا) ، ولا يقولُ : (اللهمَّ ؛ اهدني) ، ويؤمِّنُ المأمومُ ، فإذا انتهىٰ إلىٰ قولِهِ : (إنَّكَ تقضي ولا يُقضىٰ عليكَ) . . فلا يليقُ بهِ التأمينُ ؛ لأنَّهُ ثناءٌ ، فيقرأُ معهُ فيقولُ مثلَ قولِهِ ، أوْ يقولُ : (بلىٰ وأنا علىٰ ذٰلكَ مِنَ الشاهدينَ) ، أوْ (صدقتَ وبرَرتَ) وما أشبَهَ ذٰلكَ .

وقدْ رُوِيَ حديثٌ في رفعِ اليدينِ في القنوتِ ، فإذا صحَّ الحديثُ . . استحبَّ ذٰلكَ[3] ، وإنْ كانَ علىٰ خلافِ الدعواتِ في آخرِ التشهُّدِ ، إذْ لا يرفعُ بسببِها اليدَ ، بلْ التعويلُ على التوقيفِ ، وبينَهُما أيضاً فرْقٌ ؛ وذٰلكَ أنَّ للأيدي وظيفةً في التشهدِ ، وهوَ الوضْعُ على الفخذينِ علىٰ هيئةٍ مخصوصةٍ ، ولا وظيفةَ لهما ها هنا ، فلا يبعدُ أنْ يكونَ رفعُ اليدينِ هوَ الوظيفةَ في القنوتِ ؛ فإنَّهُ لائقٌ بالدعاءِ ، واللهُ أعلمُ .

فهٰذهِ جملُ آدابِ القدوةِ والإمامةِ ، واللهُ الموفِّقُ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه مسلم (٥٩١) ، وقوله : (المشهور) المراد به المعنى اللغوي ، لا مصطلح أهل الحديث . « إتحاف » (٢٠٩/٣) .

(٢) قوت القلوب (٢١٣/٢) .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢١١/٢) .

الباب الخامس
في فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة

اعلم : أنَّ هٰذا يومٌ عظيمٌ ، عظَّمَ اللهُ بهِ الإسلامَ ، وخصَّصَ بهِ المسلمينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ ﴾ ، فحرَّمَ الاشتغالَ بأمورِ الدنيا ، وبكلِّ صارفٍ عن السعيِ إلى الجمعةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ فرضَ عليكُمُ الجمعةَ في يومي هٰذا ، في مقامي هٰذا »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ الجمعةَ ثلاثاً مِنْ غيرِ عذرٍ . . طبعَ اللهُ علىٰ قلبِهِ »(٢) ، وفي لفظٍ آخرَ : « . . فقَدْ نبذَ الإسلامَ وراءَ ظهرِهِ »(٣)

واختلفَ رجلٌ إلى ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يسألُهُ عنْ رجلٍ ماتَ لمْ يكنْ يشهدُ جمعةً ولا جماعةً ، فقالَ : (في النارِ) ، فلمْ يزلْ يتردَّدُ إليهِ شهراً يسألُهُ عنْ ذٰلكَ وهوَ يقولُ : (في النارِ)(٤)

وفي الخبرِ : « إن أهلَ الكتابينِ أُعطوا يومَ الجمعةِ ، فاختلفوا فيهِ ، فصُرِفوا عنهُ وهدانا اللهُ تعالىٰ لهُ ، وأخَّرَهُ لهٰذهِ الأمةِ ، وجعلَهُ عيداً لهُمْ ، فهُمْ أوَّلُ الناسِ بهِ سبقاً وأهلُ الكتابينِ لهُمْ تبعٌ »(٥)

وفي حديثِ أنسٍ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أتاني جبريلُ عليهِ السلامُ في كفِّهِ مرآةٌ بيضاءُ ، وقالَ : هٰذهِ الجمعةُ يعرضُها عليكَ ربُّكَ ؛ لتكونَ لكَ عِيداً ولأمَّتِكَ مِنْ بعدِكَ ، قلتُ : فما لنا فيها ؟ قالَ : لكمْ فيها خيرُ ساعةٍ ، مَنْ دعا فيها بخيرٍ هوَ لهُ قِسْمٌ . . أعطاهُ اللهُ سبحانَهُ إيَّاهُ ، أوْ ليسَ لهُ قِسْمٌ . . ذُخِرَ لهُ ما هوَ أعظمُ منهُ ، أوْ تعوَّذَ مِنْ شرٍّ هوَ مكتوبٌ عليهِ . . إلا أعاذَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ أعظمَ منهُ ، وهوَ سيِّدُ الأيامِ عندَنا ، ونحنُ ندعوهُ في الآخرةِ يومَ المزيدِ ، قلتُ : ولِمَ ؟ قالَ : إنَّ ربَّكَ عزَّ وجلَّ اتَّخذَ في الجنةِ وادياً أفيحَ مِنْ مسكٍ أبيضَ ، فإذا كانَ يومُ الجمعةِ . . نزلَ تعالىٰ مِنْ عِلِّيِّينَ علىٰ كرسيِّهِ ، فيتجلَّىٰ لهُمْ حتَّىٰ ينظروا إلىٰ وجهِهِ الكريمِ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ يومٍ طلعتْ عليهِ الشمسُ يومُ الجمعةِ ؛ فيهِ خُلِقَ آدمُ عليهِ السلامُ ، وفيهِ أُدخلَ الجنَّةَ ، وفيهِ أُهبطَ إلى الأرضِ ، وفيهِ تِيبَ عليهِ ، وفيهِ ماتَ ، وفيهِ تقومُ الساعةُ ، وهوَ عندَ اللهِ يومُ المزيدِ ، كذٰلكَ تسمِّيهِ الملائكةُ في السماءِ ، وهوَ يومُ النظرِ إلى اللهِ تعالىٰ في الجنَّةِ »(٧)

---

(١) رواه ابن ماجه (١٠٨١) .

(٢) رواه أبو داوود (١٠٥٢) ، والترمذي (٥٠٠) ، والنسائي (٨٨/٣) ، وابن ماجه (١١٢٥) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٥١٦٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٧١٢) من قول ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) رواه الترمذي (٢١٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٧٥) .

(٥) رواه البخاري (٨٧٦) ، ومسلم (٨٥٥)

(٦) رواه الشافعي في « مسنده » (٥٣٦/١) ، والطبراني في « الأوسط » (٢١٠٥) .

(٧) رواه مسلم (٨٥٤) ، والنسائي (١١٤/٣)

وفي الخبرِ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ جمعةٍ ستَّ مئةِ ألفِ عتيقٍ مِنَ النارِ »[١]

وفي حديثِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا سلمَتِ الجمعةُ . . سلمتِ الأيامُ »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الجحيمَ تسعرُ في كلِّ يومٍ قبلَ الزوالِ عندَ استواءِ الشمسِ في كبدِ السماءِ ، فلا تصلُّوا في هٰذهِ الساعةِ إلا يومَ الجمعةِ ؛ فإنَّهُ صلاةٌ كلُّهُ ، وإنَّ جهنَّمَ لا تسعرُ فيهِ »[٣]

وقالَ كعبٌ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ فضَّلَ مِنَ البلدانِ مكَّةَ ، ومِنَ الشهورِ رمضانَ ، ومِنَ الأيامِ الجمعةَ ، ومِنَ الليالي ليلةَ القدرِ)[٤]

ويقالُ : (إنَّ الطيرَ والهوامَّ يلقىٰ بعضُها بعضاً يومَ الجمعةِ ، فتقولُ : سلامٌ سلامٌ ، يومٌ صالحٌ)[٥]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ مَاتَ يومَ الجمعةِ ، أوْ ليلةَ الجمعةِ . . كتبَ اللهُ لهُ أجرَ شهيدٍ ، ووُقِيَ فتنةَ القبرِ »[٦]

* * *

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٣٤) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٠/٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٤٣٤) .

(٣) رواه أبو داوود (١٠٨٣) بلفظ : « تسجر » ، وهو عند أبي نعيم في « الحلية » (١٨٨/٥) بلفظ المصنف .

(٤) قوت القلوب (٦٤/١) .

(٥) رواه أحمد في « الزهد » (١٣٧٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٥/٢) من كلام مطرف بن عبد الله الشخير ، ضمن خبر لطيف .

(٦) رواه الترمذي (١٠٧٤) بغير قوله : « أجر شهيد » ، وهو بهٰذه الزيادة في « الحلية » (١٥٥/٣) .

بيان شروط الجمعة

اعلمْ : أنَّها تشاركُ جميعَ الصلواتِ في الشروطِ ، وتتميَّزُ عنها بستةِ شروطٍ :

الأوَّلُ : الوقتُ ، فلوْ وقعتْ تسليمةُ الإمامِ في وقتِ العصرِ . . فاتتِ الجمعةُ ، وعليهِ أنْ يتمَّها ظهراً ، والمسبوقُ إذا وقعتْ ركعتُهُ الأخيرةُ خارجاً مِنَ الوقتِ . . ففيهِ خلافٌ (١)

الثاني : المكانُ ، فلا تصحُّ في الصحارىٰ والبوادي وبينَ الخيامِ ، بلْ لا بدَّ مِنْ بقعةٍ جامعةٍ لأبنيةٍ لا تنقلُ ، تجمعُ أربعينَ ممَّنْ تلزمُهُمُ الجمعةُ ، والقريةُ فيهِ كالبلدِ ، ولا يُشترطُ حضورُ السلطانِ ولا إذنُهُ ، ولـٰكنَّ الأحبَّ استئذانُهُ .

الثالثُ : العددُ ، فلا تنعقدُ بأقلَّ مِنْ أربعينَ ذكوراً ، مكلَّفينَ ، أحراراً ، مقيمينَ لا يظعنونَ شتاءً ولا صيفاً ، فإنِ انفضُّوا حتَّىٰ نقصَ العددُ إمَّا في الخطبةِ أو في الصلاةِ . . لمْ تصحَّ الجمعةُ ، بلْ لا بدَّ منهُمْ مِنَ الأوَّلِ إلى الآخرِ .

الرابعُ : الجماعةُ ، فلوْ صلَّىٰ أربعونَ في قريةٍ أوْ بلدٍ متفرقينَ . . لمْ تصحَّ جُمعتُهُمْ ، ولـٰكنَّ المسبوقَ إذا أدركَ الركعةَ الثانيةَ . . جازَ لهُ الانفرادُ بالركعةِ الثانيةِ ، وإنْ لمْ يدركْ ركوعَ الركعةِ الثانيةِ . . اقتدىٰ ونوى الظهرَ ، وإذا سلَّمَ الإمامُ . . تمَّمَها ظهراً .

الخامسُ : ألا تكونَ الجمعةُ مسبوقةً بأخرىٰ في ذٰلكَ البلدِ ، فإنْ تعذَّرَ اجتماعُهُمْ في جامعٍ واحدٍ . . جازَ في جامعينِ وثلاثةٍ وأربعةٍ بقدْرِ الحاجةِ ، وإنْ لمْ تكنْ حاجةٌ . . فالصحيحُ : الجمعةُ التي يقعُ بها التحريمُ أوَّلاً ، وإذا تحققتِ الحاجةُ . . فالأفضلُ الصلاةُ خلفَ الأفضلِ مِنَ الإمامينِ ، فإنْ تساويا . . ففي المسجدِ الأقدمِ ، فإنْ تساويا . . ففي الأقربِ (٢) ، ولكثرةِ الناسِ أيضاً فضلٌ يراعىٰ .

السادسُ : الخطبتانِ ، فهما فريضتانِ ، والقيامُ فيهما فريضةٌ ، والجلسةُ بينَهُما فريضةٌ .

وفي الأولىٰ أربعُ فرائضَ : التحميدُ ؛ وأقلُّهُ : (الحمدُ للهِ) ، والثانيةُ : الصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (٣) ، والثالثةُ : الوصيةُ بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، والرابعةُ : قراءةُ آيةٍ مِنَ القرآنِ ، وكذا فرائضُ الثانيةِ أربعةٌ ، إلا أنَّهُ يجبُ فيها الدعاءُ بدلَ القراءةِ ، واستماعُ الخطبةِ واجبٌ مِنَ الأربعينَ .



وأمَّا السننُ :

فإذا زالتِ الشمسُ وأذَّنَ المؤذِّنُ وجلسَ الإمامُ على المنبرِ . . انقطعتِ الصلاةُ سوى التحيَّةِ (٤) ، والكلامُ لا ينقطعُ إلا بافتتاحِ الخطبةِ .

---

(١) قال المصنف في « الوسيط » (٢/٢٦٣) : (فيه وجهان : أحدهما : أنها تصح ؛ لأنه تابع للقوم وقد صحت صلاتهم ، ولذٰلك حُطَّ شرط القدوة في الركعة الثانية عنه ، والثاني : أن الجمعة فائتة ؛ لأن الاعتناء بالوقت أعظم) . وسياق المصنف هنا يكاد يطابق ما في « الخلاصة » (ص ١٣٧ ـ ١٤٢) .

(٢) أي : من دار المصلي ، والسياق عند صاحب « القوت » (١/٦٣) بنحوه . « إتحاف » (٣/٢٢٥) .

(٣) وأقلُّهُ : (اللهم ؛ صل علىٰ محمد وآله) ، وأقلُّ الوصية بالتقوىٰ : (أوصيكم بتقوى الله) . « الخلاصة » (ص ١٤٠) .

(٤) وهي صلاة تحية المسجد ، تستحب للداخل مع التخفيف . انظر « الإتحاف » (٣/٢٢٩) .

ويسلِّمُ الخطيبُ على الناسِ إذا أقبلَ عليهِمْ بوجهِهِ ويردُّونَ عليهِ السلامَ ، فإذا فرغَ المؤذِّنُ . . قامَ مقبلاً على الناسِ بوجهِهِ لا يلتفتُ يميناً ولا شمالاً ، ويشغلُ يديهِ بقائمةِ السيفِ أو العَنَزَةِ والمنبرِ[1] ، كي لا يعبثَ بهما ، أوْ يضعُ إحداهُما على الأخرىٰ ، ويخطبُ خطبتينِ بينَهُما جلسةٌ خفيفةٌ ، ولا يستعملُ غريبَ اللغةِ ، ولا يمطِّطُ ، ولا يتغنَّىٰ ، وتكونُ الخطبةُ قصيرةً بليغةً جامعةً ، ويستحبُّ أنْ يقرأَ آيةً في الثانيةِ أيضاً .

ولا يسلِّمُ مَنْ دخلَ والخطيبُ يخطبُ ، فإنْ سلَّمَ . . لمْ يستحقَّ جواباً ، والإشارةُ بالجوابِ حسنٌ ، ولا يشمِّتُ العاطسَ أيضاً .

هـٰذهِ شروطُ الصحَّةِ .

❁ ❁ ❁

فأمَّا شروطُ الوجوبِ :

فلا تجبُ الجمعةُ إلَّا علىٰ كلِّ ذكرٍ ، بالغٍ ، عاقلٍ ، مسلمٍ ، حرٍّ ، مقيمٍ في قريةٍ أوْ بلدةٍ تشتملُ علىٰ أربعينَ جامعينَ لهـٰذهِ الصفاتِ ، أوْ في قريةٍ مِنْ سوادِ البلدِ يبلغُها نداءُ البلدِ مِنْ طرفٍ يليها والأصواتُ ساكنةٌ والمؤذِّنُ رفيعُ الصوتِ ، لقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

ويرخَّصُ لهـٰؤلاءِ في تركِ الجمعةِ لعذرِ المطرِ والوحلِ ، والفزعِ ، والمرضِ ، والتمريضِ إذا لمْ يكنْ للمريضِ قيِّمٌ غيرُهُ .

ثمَّ يستحبُّ لهُمْ ـ أعني : أصحابَ الأعذارِ ـ تأخيرُ الظهرِ إلىٰ أنْ يفرغَ الناسُ مِنَ الجمعةِ ، وإنْ حضرَ الجمعةَ مريضٌ أوْ مسافرٌ أوْ عبدٌ أوِ امرأةٌ . . صحَّتْ جُمعتُهُمْ وأجزأَتْ عَنِ الظهرِ ، واللهُ أعلمُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) أي : اليمنىٰ بالمنبر ، واليسرىٰ بقائمة السيف . « إتحاف » (٢٢٩/٣) ، والعَنَزَة : عصاً أقصر من الرمح .

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة
وهي عشر جمل

الأولىٰ : أنْ يستعدَّ لها يومَ الخميسِ عزماً عليها واستقبالاً لفضْلِها ؛ فيشتغلُ بالدعاءِ والاستغفارِ والتسبيحِ بعدَ العصرِ يومَ الخميسِ ؛ لأنَّها ساعةٌ قوبلتْ بالساعةِ المبهمةِ في يومِ الجمعةِ .

قالَ بعضُ السلفِ : (إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ فضلاً سوىٰ أرزاقِ العبادِ ، لا يُعطي مِنْ ذٰلكَ الفضلِ إلا مَنْ سألَهُ عشيَّةَ الخميسِ ويومَ الجمعةِ)(١)

ويغسلُ في هٰذا اليومِ ثيابَهُ ويبيِّضُها ، ويُعِدُّ الطيبَ إنْ لمْ يكنْ عندَهُ ، ويفرغُ قلبَهُ مِنَ الأشغالِ التي تمنعُهُ مِنَ البكورِ إلى الجمعةِ .

وينوي في هٰذهِ الليلةِ صومَ يومِ الجمعةِ ؛ فإنَّ لهُ فضلاً ، ولٰكنْ مضموماً إلىٰ يومِ الخميسِ أوِ السبتِ لا مفرداً ؛ فإنَّهُ مكروهٌ .

ويشتغلُ بإحياءِ هٰذهِ الليلةِ بالصلاةِ وختمِ القرآنِ ، فلها فضْلٌ كثيرٌ ، وينسحبُ عليها فضْلُ يومِ الجمعةِ .

ويجامعُ أهلَهُ في هٰذهِ الليلةِ أوْ في يومِ الجمعةِ ؛ فقدِ استحبَّ ذٰلكَ قومٌ ، وحملوا عليهِ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ مَنْ بَكَّرَ وابتكرَ ، وغَسَّلَ واغتسلَ »(٢) ، وهوَ حملُ الأهلِ على الغُسلِ ، وقيلَ : معناهُ : غسلُ ثيابِهِ ، فرُوِيَ بالتخفيفِ ، و(اغتسلَ) لجسدِهِ(٣)

وبهٰذا تتمُّ آدابُ الاستقبالِ ، ويخرجُ مِنْ زمرةِ الغافلينَ الذينَ إذا أصبحوا . . قالوا : ما هٰذا اليومُ ؟ قالَ بعضُ السلفِ : (أوفى الناسِ نصيباً مِنَ الجمعةِ مَنِ انتظرَهَا وراعاها مِنَ الأمسِ ، وأخسُّهُمْ نصيباً مَنْ إذا أصبحَ . . يقولُ : أيشٍ اليومُ ؟)(٤)

وكانَ بعضُهُمْ يبيتُ ليلةَ الجمعةِ في الجامعِ لأجلِها(٥)

❁ ❁ ❁

الثانية : إذا أصبحَ . . ابتدأَ بالغسلِ بعدَ طلوعِ الفجرِ ، وإنْ كانَ لا يبكِّرُ . . فأقربُهُ إلى الرواحِ أحبُّ(٦) ، ليكونَ أقربَ عهداً بالنظافةِ ، فالغُسلُ مستحبٌّ استحباباً مؤكَّداً ، وذهبَ بعضُ العلماءِ إلىٰ وجوبِهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « غسلُ الجمعةِ واجبٌ علىٰ كلِّ محتلمٍ »(٧)

---

(١) قوت القلوب (٦٦/١) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٤٥) ، والترمذي (٤٩٦) ، والنسائي (٩٥/٣) ، وابن ماجه (١٠٨٧) بنحوه .

(٣) قوت القلوب (٦٥/١) .

(٤) قوت القلوب (٧٠/١) ، **وأيشٍ** : أصله : (أي شيءٍ) ، ثم اختصر واستعمل هٰكذا في الاستفهام ، وهو شائع في اللسان العربي ، لٰكنه بالتنوين ، والعامة يستعملونه بلا تنوين . « إتحاف » (٢٤٢/٣) .

(٥) قوت القلوب (٧٠/١) ، وزاد : (ومنهم من كان يبيت ليلة السبت في الجامع لمزيد الجمعة) .

(٦) **الرواح** : اسم للوقت من زوال الشمس إلى الليل ، قال الزبيدي : (خروجاً من خلاف مالك) . « إتحاف » (٢٤٢/٣) .

(٧) رواه البخاري (٨٥٨) ، ومسلم (٨٤٦) .

والمشهورُ مِنْ حديثِ نافعٍ ، عن ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : « مَنْ أتى الجمعةَ . . فليغتسلْ »[1] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ شهدَ الجمعةَ مِنَ الرجالِ والنساءِ . . فليغتسلْ »[2]

وكانَ أهلُ المدينةِ إذا تسابَّ المتسابانِ . . يقولُ أحدُهُما للآخرِ : (لأنتَ أشرُّ ممَّنْ لا يغتسلُ يومَ الجمعةِ)[3]

وقالَ عمرُ لعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُما لمَّا دخلَ وهوَ يخطبُ : أهـٰذهِ الساعةَ ؟! ـ منكراً عليهِ تركَ البكورِ ـ فقالَ : ما زدتُ بعدَ أنْ سمعتُ الأذانَ علىٰ أنْ توضَّأتُ وخرجتُ ، فقالَ : والوضوءَ أيضاً وقدْ علمتَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يأمرُ بالغُسلِ ؟![4]

وقدْ عُرفَ جوازُ تركِ الغسلِ بوضوءِ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وبما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ توضَّأَ يومَ الجمعةِ . . فبهَا ونعمَتْ ، ومَنِ اغتسلَ . . فالغسلُ أفضلُ »[5]

ومَنِ اغتسلَ للجنابةِ . . فليفضِ الماءَ علىٰ بدنِهِ مرَّةً أُخرىٰ علىٰ نيَّةِ غُسلِ الجمعةِ ، فإنِ اكتفىٰ بغسلٍ واحدٍ . . أجزأَهُ ، وحصلَ لهُ الفضلُ إذا نوىٰ كليهِما ، ودخلَ غُسلُ الجمعةِ في غُسلِ الجنابةِ .

وقدْ دخلَ بعضُ الصحابةِ علىٰ ولدِهِ وقدِ اغتسلَ ، فقالَ لهُ : أللجمعةِ ؟ فقالَ : بل مِنْ جنابةٍ ، فقالَ : أعدْ غُسلاً ثانياً ، وروى الحديثَ في غُسلِ الجمعةِ علىٰ كلِّ محتلمٍ ، وإنَّما أمرهُ بهِ لأنَّهُ لمْ يكنْ نواهُ[6]

وكانَ لا يبعدُ أنْ يقالَ : المقصودُ النظافةُ ، وقدْ حصلتْ دونَ النيَّةِ ، ولـٰكنْ هـٰذا ينقدحُ في الوضوءِ أيضاً ، وقدْ جُعِلَ في الشرعِ قربةً ، فلا بدَّ مِنْ طلبِ فضْلِها .

ومَنِ اغتسلَ ثمَّ أحدثَ . . توضَّأَ ولمْ يبطلْ غُسلُهُ ، والأحبُّ أنْ يحترزَ عنْ ذٰلكَ .

❀ ❀ ❀

الثالثةُ : الزينةُ ، وهيَ مستحبَّةٌ في هـٰذا اليومِ ، وهيَ في ثلاثةٍ : الكِسوةِ ، والنظافةِ ، وتطييبِ الرائحةِ .

أمَّا النظافةُ . . فبالسواكِ ، وحلْقِ الشعرِ ، وقلْمِ الظفرِ ، وقصِّ الشاربِ ، وسائرِ ما سبقَ في كتابِ الطهارةِ .

قالَ ابنُ مسعودٍ : (مَنْ قلَّمَ أظفارَهُ يومَ الجمعةِ . . أخرجَ اللهُ عزَّ وجلَّ منهُ داءً وأدخلَ فيهِ شفاءً)[7]

فإنْ كانَ قدْ دخلَ الحمَّامَ في الخميسِ أوِ الأربعاءِ . . فقدْ حصلَ المقصودُ .

وليتطيَّبْ في هـٰذا اليومِ بأطيبِ طيبٍ عندَهُ ، ليغلِبَ بهِ الروائحَ الكريهةَ ، ويُوصلَ بذٰلكَ الرَّوْحَ والراحةَ إلىٰ مشامِّ الحاضرينَ في جوارِهِ .

---

(١) رواه البخاري (٨٧٧) ، ومسلم (٨٤٤) .
(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٢٢٦) .
(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٩٩/١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٠٣٩) عن أبي البَخْتَري رحمه الله ، وقد أورد المصنف هـٰذا الكلام في خلال الأحاديث مؤكداً لأمره في الإيجاب ، ولولا أنه بهـٰذه المثابة . . ما كانوا يتعايرون علىٰ تركه . « إتحاف » (٢٤٤/٣) .
(٤) رواه البخاري (٨٧٨) ، ومسلم (٨٤٥) .
(٥) رواه أبو داوود (٣٥٤) ، والترمذي (٤٩٧) ، والنسائي (٩٤/٣) ، وابن ماجه (١٠٩١) .
(٦) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٠٩٧) ، والصحابي هو أبو قتادة رضي الله عنه .
(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٦١٦) ، وهو عند عبد الرزاق في « المصنف » (٥٣١٠) مرفوعاً .

وأحبُّ طيبِ الرجالِ : ما ظهرَ ريحُهُ وخَفِيَ لونُهُ ، وطيبِ النساءِ : ما ظهرَ لونُهُ وخفِيَ ريحُهُ ، رُوِيَ ذٰلكَ في الأثرِ[1] .

وقالَ الشافعيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : (منْ نظَّفَ ثوبَهُ . . قلَّ همُّهُ ، ومَنْ طابَ ريحُهُ . . زادَ عقلُهُ)[2]

وأمَّا الكِسوةُ . . فأحبُّها البياضُ مِنَ الثيابِ ؛ إذْ أحبُّ الثيابِ إلى اللهِ تعالى البيضُ[3] ، ولا يلبَسُ ما فيهِ شهرةٌ ، ولبسُ السوادِ ليسَ مِنَ السنَّةِ ، ولا فيهِ فضْلٌ ، بلْ كرِهَ جماعةٌ النظرَ إليهِ ؛ لأنَّهُ بدعةٌ محدثَةٌ بعدَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

والعِمامةُ مستحبَّةٌ في هٰذا اليومِ ، روىٰ واثلةُ بنُ الأسقعِ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يصلُّونَ علىٰ أصحابِ العمائمِ يومَ الجمعةِ »[4] ، فإنْ أكربَهُ الحرُّ . . فلا بأسَ بنزعِها قبلَ الصلاةِ وبعدَها ، ولٰكنْ لا ينزعُها في وقتِ السعيِ مِنَ المنزلِ إلى الجمعةِ ، ولا في وقتِ الصلاةِ ، ولا عندَ صعودِ الإمامِ المنبرَ ، ولا في حالِ الخطبةِ .

❀ ❀ ❀

الرابعةُ : **البكورُ إلى الجامعِ** ، ويستحبُّ أنْ يقصدَ الجامعَ مِنْ فرسخينِ أوْ ثلاثةٍ ، وليبكِّرْ .

ويدخلُ وقتُ البكورِ بطلوعِ الفجرِ ، وفضلُ البكورِ عظيمٌ .

وينبغي أنْ يكونَ في سعيِهِ إلى الجمعةِ خاشعاً ، متواضعاً ، ناوياً للاعتكافِ في المسجدِ إلى الصلاةِ ، قاصداً للمبادرةِ إلىٰ جوابِ نداءِ اللهِ تعالىٰ إياهُ إلى الجمعةِ ، والمسارعةِ إلىٰ مغفرتِهِ ورضوانِهِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ رَاحَ إلى الجمعةِ في الساعةِ الأولىٰ . . فكأنَّما قرَّبَ بدنةً ، ومَنْ راحَ في الساعةِ الثانيةِ . . فكأنَّما قرَّبَ بقرةً ، ومَنْ راحَ في الساعةِ الثالثةِ . . فكأنَّما قرَّب كبشاً أقرنَ ، ومَنْ راحَ في الساعةِ الرابعةِ . . فكأنَّما أهدىٰ دجاجةً ، ومَنْ راحَ في الساعةِ الخامسةِ . . فكأنَّما أهدىٰ بيضةً ، فإذا خرجَ الإمامُ . . طويتِ الصحفُ ، ورفعتِ الأقلامُ ، واجتمعتِ الملائكةُ عندَ المنبرِ يستمعونَ الذكرَ ، فمَنْ جاءَ بعدَ ذٰلكَ . . فإنَّما جاءَ لحقِّ الصلاةِ ، ليسَ لهُ مِن الفضْلِ شيءٌ »[5]

والساعةُ الأولىٰ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ، والثانيةُ إلى ارتفاعِها ، والثالثةُ إلى انبساطِها حينَ ترمضُ الأقدامُ ، والرابعةُ والخامسةُ بعدَ الضحى الأعلىٰ إلى الزوالِ ، وفضلُهُما قليلٌ ، ووقتُ الزوالِ حقُّ الصلاةِ ، ولا فضلَ فيهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لوْ يعلمُ الناسُ ما فيهنَّ . . لرَكضوا الإبلَ في طلبِهِنَّ : الأذانُ ، والصَّفُّ الأوَّلُ ، والغدوُّ إلى الجمعةِ »[6] ، وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أفضلُهُنَّ الغدوُّ إلى الجمعةِ) .

---

(١) كذا رواه مرفوعاً أبو داوود (٢١٧٤) ، والترمذي (٢٧٨٧) ، والنسائي (١٥١/٨) .

(٢) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٥٢/٢/١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٨٤/٥) عن مكحول .

(٣) كما روى النسائي (٢٠٥/٨) مرفوعاً : « عليكم بالبياض من الثياب ، فليلبسها أحياؤكم ، وكفنوا فيها موتاكم ؛ فإنها من خير ثيابكم » .

(٤) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٣٣٦/٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٩٠/٥) .

(٥) رواه البخاري (٨٨١) ، ومسلم (٨٥٠) ، وزيادة : « طويت الصحف ورفعت الأقلام » عند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٢٦/٣) ، ولفظ المصنف من « القوت » (٦٤/١) ، والمراد بالإهداء في الموضعين ـ وكذا هو في « القوت » ـ التصدقُ ، كما دلَّ عليه لفظ : « قرَّب » . « إتحاف » (٢٥٦/٣) .

(٦) قال الحافظ العراقي : (أخرجه أبو الشيخ في « ثواب الأعمال » من حديث أبي هريرة) بنحوه ، وهو بلفظه عند صاحب « القوت » (٦٤/١) ، قال : (وروينا في خبر مقطوع ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره مع قول أحمد الآتي .

وفي الخبرِ : « إذا كانَ يومُ الجمعةِ . . قعدتِ الملائكةُ على أبوابِ المساجدِ بأيديهِمْ صحفٌ مِنْ فضةٍ وأقلامٌ مِنْ ذهبٍ يكتبونَ الأولَ فالأولَ على مراتبهِمْ »[١]

وجاءَ في الخبرِ : « إنَّ الملائكةَ يتفقَّدونَ العبدَ إذا تأخَّرَ عنْ وَقتِهِ يومَ الجمعةِ ، فيسألُ بعضُهُمْ بعضاً عنهُ : ما فعلَ فلانٌ ، وما الذي أخَّرَهُ عنْ وقتهِ ؟ فيقولونَ : اللهمَّ ؛ إنْ كانَ أخَّرَهُ فقرٌ . . فأغنِهِ ، وإنْ كانَ أخَّرَهُ مرضٌ . . فاشْفِهِ ، وإنْ كانَ أخَّرَهُ شغلٌ . . ففرِّغْهُ لعبادَتِكَ ، وَإنْ كانَ أخَّرَهُ لَهْوٌ . . فأقبلْ بقلبِهِ إلى طاعتِكَ »[٢] .

وكانَ يُرَىٰ في القرنِ الأوَّلِ سحراً وبعدَ الفجرِ الطرقاتُ مملوءةٌ مِنَ الناسِ يمشونَ في السُّرُجِ ، ويزدحمونَ فيها إلى الجامعِ كأيامِ العيدِ ، حتَّى اندرسَ ذٰلكَ ، فقيلَ : أوَّلُ بدعةٍ أُحدثتْ في الإسلامِ تركُ البكورِ إلى الجامعِ[٣]

وكيفَ لا يستحيي المؤمنونَ مِنَ اليهودِ والنصارىٰ وهمْ يبكِّرونَ إلى البِيَعِ والكنائسِ يومَ السبتِ والأحدِ ؟! وطلابُ الدنيا كيفَ يبكِّرونَ إلىٰ رحابِ الأسواقِ للبيعِ والشراءِ والربحِ ؟! فلمَ لا يسابقُهُمْ طلَّابُ الآخرةِ ؟!

ويقالُ : (إنَّ الناسَ يكونونَ في قربِهِمْ عندَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ قدْرِ بكورِهِمْ إلى الجمعةِ) ، ودخلَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ الجامعَ بكرةً ، فرأىٰ ثلاثةَ نفرٍ قدْ سبقوهُ بالبكورِ ، فاغتمَّ لذٰلكَ ، وجعلَ يقولُ لنفسِهِ معاتباً لها : (رابعُ أربعةٍ ، وما رابعُ أربعةٍ ببعيدٍ)[٤]

❀ ❀ ❀

الخامسةُ : في هيئةِ الدخولِ ، فينبغي ألا يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ ، ولا يمرَّ بينَ أيديهِمْ ، والبكورُ يسهِّلُ عليهِ ذٰلكَ ، فقدْ وردَ وعيدٌ شديدٌ في تخطِّي الرقابِ ، وهوَ أنَّهُ يُجعَلُ جسراً يومَ القيامةِ يتخطَّاهُ النَّاسُ[٥]

وروى ابنُ جريجٍ مرسلاً : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَما هوَ يخطبُ يومَ الجمعةِ إذْ رأىٰ رجلاً يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ حتَّىٰ تقدَّمَ فجلسَ ، فلمَّا قضى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلاتَهُ . . عارضَ الرَّجُلَ حَتَّىٰ لقيَهُ ، فقالَ : « يا فلانُ ؛ ما منعَكَ أنْ تُجَمِّعَ اليومَ معَنا ؟ » قال : يا نبيَّ اللهِ ؛ قدْ جمَّعتُ معَكُمْ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَلَمْ أرَكَ تتخطَّىٰ رقابَ النَّاسِ ؟! »[٦] ، أشارَ بذٰلكَ إلىٰ أنَّهُ أحبطَ عملَهُ .

وفي حديثٍ مسندٍ أنَّهُ قالَ : « ما منعَكَ أنْ تُصليَ معنا ؟ » ، فقالَ : أوَلَمْ ترني يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُكَ تأنَّيْتَ وآذَيْتَ »[٧] ؛ أي : تأخَّرتَ عنِ البكورِ ، وآذيتَ الحضورَ .

---

(١) في « البخاري » (٩٢٩) ، و« مسلم » (٨٥٠) مرفوعاً : « إذا كان يوم الجمعة . . وقفت الملائكة علىٰ باب المسجد يكتبون الأول فالأول . . . » ، ورواية : « صحف من فضة وأقلام . . . » عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٢/٤٣) بنحوه .

(٢) رواه ابن خزيمة في « صحيحه » (١٧٧١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٢٦/٣) .

(٣) قوت القلوب (٧٠/١) .

(٤) روى ابن ماجه (١٠٩٤) عن علقمة قال : (خرجت مع عبد الله إلى الجمعة ، فوجد ثلاثة قد سبقوه ، فقال : رابع أربعة ، وما رابع أربعة ببعيد ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس يجلسون من الله يوم القيامة علىٰ قَدْرِ رواحهم إلى الجمعات ، الأول والثاني والثالث » ، ثم قال : رابع أربعة ، وما رابع أربعة ببعيد) .

(٥) رواه الترمذي (٥١٣) ، وابن ماجه (١١١٦) .

(٦) قال الحافظ العراقي : (أخرجه ابن المبارك في « الرقائق ») . « إتحاف » (٢٦١/٣) ، وهو بلفظه في « القوت » (٦٥/١) ، وهو الحديث الآتي كما يظهر من السياق .

(٧) رواه أبو داوود (١١١٨) ، والنسائي (١٠٣/٣) ، وابن ماجه (١١١٥) بنحوه مختصراً ، وهو عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٥١٥) بزيادة تفصيل .

ومهما كانَ الصفُّ الأوَّلُ متروكاً خالياً . . فلهُ أنْ يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ ؛ لأنَّهم ضيَّعوا حقَّهُمْ وتركوا موضعَ الفضيلةِ ، قالَ الحسنُ : (تخطَّوا رقابَ الناسِ الذينَ يقعدونَ علىٰ أبوابِ الجامعِ يومَ الجمعةِ ؛ فإنَّهُ لا حرمةَ لهُمْ)[1]

وإذا لمْ يكنْ في المسجدِ إلا مَنْ يصلِّي . . فينبغي ألَّا يسلِّمَ ؛ فإنَّهُ تكليفُ جوابٍ في غيرِ محلِّهِ .

❀ ❀ ❀

السادسةُ : ألَّا يمرَّ بينَ يدي الناسِ ، ويجلسُ هوَ إلىٰ قريبٍ مِنْ أُسطوانةٍ أوْ حائطٍ ؛ حتَّىٰ لا يمرُّوا بينَ يديهِ ؛ أعني : بينَ يدي المصلِّي ، فإنَّ ذٰلكَ لا يقطعُ الصلاةَ ، ولٰكنَّهُ منهيٌّ عنهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ يقفَ أربعينَ سنةً خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يمُرَّ بينَ يدي المصلِّي »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ يكونَ الرجلُ رماداً رِمْدِداً تذروهُ الرياحُ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يمرَّ بينَ يدي المصلِّي »[3]

وسوَّىٰ في حديثٍ آخرَ بينَ المارِّ والمصلِّي حيثُ صلَّىٰ على الطريقِ ، أوْ قصَّرَ في الدفعِ ، فقالَ : « لوْ يعلمُ المارُّ بينَ يدَيِ المصلِّي والمصلِّي ما عليهِما في ذٰلكَ . . لكانَ أنْ يقفَ أربعينَ خيراً لهُ مِنْ أنْ يمُرَّ بينَ يديهِ »[4]

والأُسطوانةُ والحائطُ والمصلَّى المفروشُ حدُّ المصلِّي ، فمنِ اجتازَ بهِ . . فينبغي أنْ يدفعَهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليدفعْهُ ، فإنْ أبىٰ . . فليدفعْهُ ، فإنْ أبىٰ . . فليقاتلْهُ ؛ فإنَّهُ شيطانٌ »[5]

وكانَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ يدفعُ مَنْ يمرُّ بينَ يديهِ حتَّىٰ يصرعَهُ ، فربَّما تعلَّقَ بهِ الرجلُ ، فاستعدىٰ عليْهِ عندَ مروانَ ، فيخبرُهُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَهُ بذٰلكَ[6]

فإنْ لمْ يجدْ أُسطوانةً . . فلينصبْ بينَ يديهِ شيئاً طولُهُ قدْرُ الذراعِ ؛ ليكونَ ذٰلكَ علامةً لحدِّهِ .

❀ ❀ ❀

السابعةُ : أنْ يطلبَ الصفَّ الأوَّلَ ، فإنَّ فضلَهُ كثيرٌ كما رويناهُ في الخبرِ : « مَنْ غسَّلَ واغتسلَ ، وبكَّرَ وابتكرَ ، ودنا مِنَ الإمامِ واستمعَ . . كانَ لهُ ذٰلكَ كفارةً لما بينَ الجمعتينِ وزيادةَ ثلاثةِ أيامٍ »[7] ، وفي لفظٍ آخرَ : « غفرَ اللهُ لهُ إلى الجمعةِ الأخرىٰ »[8] ، وقدِ اشترطَ في بعضِها : « ولمْ يتخطَّ رقابَ الناسِ »[9]

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٨/٥٦) .

(٢) رواه البخاري (٥١٠) ، ومسلم (٥٠٧) وليس فيه : « سنة » ، بل قال أبو النضر أحد الرواة : (لا أدري : أقال أربعين يوماً أو شهراً أو سنةً) .

(٣) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٤١٧/١) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (١٤٩/٢١) وفيه : « رماداً يذرىٰ » ، والرِّمْدِد : الرماد ، أو صغار الفحم ، وهو تأكيد للفظ الأول ، وفي معناه : الرِّمْدِيد .

(٤) رواه أبو العباس السراج في « مسنده » (٣٩١) .

(٥) رواه البخاري (٥٠٩ ، ٣٢٧٥) ، ومسلم (٥٠٥)

(٦) رواه البخاري (٥٠٩) ، ومسلم (٥٠٥) .

(٧) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢٨١/١) .

(٨) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٩٨/٦) .

(٩) رواه أبو داوود (٣٤٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٨٣/١) بنحوه ، والروايات وسياقها في « القوت » (٦٥/١) .

ولا يغفُلُ في طلبِ الصفِّ الأوَّلِ عنْ ثلاثةِ أمورٍ :

أوَّلُها : أنَّهُ إنْ كانَ يرىٰ بقرْبِ الخطيبِ منكراً يعجَزُ عنْ تغييرِهِ ؛ مِنْ لبْسِ حريرٍ مِنَ الإمامِ أوْ غيرِهِ ، أوْ صلَّىٰ في سلاحٍ كثيرٍ ثقيلٍ شاغلٍ ، أوْ سلاحٍ مُذهَّبٍ ، أوْ غيرِ ذٰلكَ ممَّا يجبُ عليهِ الإنكارُ . . فالتأخُّرُ لهُ أسلمُ وأجمعُ للهمِّ ، فعلَ ذٰلكَ جماعةٌ مِنَ العلماءِ طلباً للسلامةِ :

قيلَ لبشرِ بنِ الحارثِ : نراكَ تبكِّرُ وتصلِّي في آخرِ الصفوفِ !! فقالَ : (إنَّما يُرادُ قربُ القلوبِ لا قربُ الأجسادِ)[1] ، وأشارَ بهِ إلىٰ أَنَّ ذٰلكَ أسلمُ لقلبِهِ .

ونظرَ سفيانُ الثوريُّ إلىٰ شعيبِ بنِ حربٍ عندَ المنبرِ يستمعُ إلى الخطبةِ مِنْ أبي جعفرٍ المنصورِ ، فلمَّا فرغَ مِنَ الصَّلاةِ . . قالَ : شغلَ قلبي قربُكَ مِنْ هٰذا ، هلْ أمنتَ أنْ تسمعَ كلاماً يجبُ عليكَ إنكارُهُ فلا تقومُ بهِ ؟! ثم ذكرَ ما أحدثوا مِنْ لبسِ السوادِ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أليسَ في الخبرِ : « ادْنُ فاستمِعْ » ؟![2] فقالَ : ويحكَ !! ذاكَ للخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ ، فأمَّا هٰؤلاءِ . . فكلما بعدتَ عنْهُمْ ولمْ تنظرْ إليهِمْ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[3]

وقالَ سعيدُ بنُ عامرٍ : صلَّيتُ إلىٰ جنْبِ أبي الدرداءِ ، فجعلَ يتأخَّرُ في الصفوفِ حتَّىٰ كنَّا في آخرِ صفٍّ ، فلمَّا صلَّينا . . قلتُ لهُ : أليسَ يقالُ : « خيرُ الصفوفِ أوَّلُها » ؟![4] قالَ : نعمْ ، إلَّا أنَّ هٰذهِ أمةٌ مرحومةٌ منظورٌ إليها مِنْ بينِ الأممِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ إذا نظرَ إلىٰ عبدٍ في الصلاةِ غفرَ لهُ ولمَنْ وراءَهُ مِنَ الناسِ ، فإنَّما تأخَّرْتُ رجاءَ أنْ يغفرَ لي بواحدٍ منهم ينظرُ اللهُ إليهِ[5]

ورویٰ بعضُ الرواةِ أنَّهُ قالَ : سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ ذٰلكَ[6]

فمَنْ تأخَّرَ علىٰ هٰذهِ النيَّةِ إيثاراً وإظهاراً لحسْنِ الخُلُقِ . . فلا بأسَ ، وعندَ هٰذا يقالُ : « الأعمالُ بالنيَّاتِ »[7]

وثانيها : أنَّهُ إنْ لمْ تكنْ مقصورةٌ عندَ الخطيبِ مقتطعَةٌ عَنِ المسجدِ للسلاطينِ . . فالصفُّ الأوَّلُ محبوبٌ ، وإلا . . فقدْ كرهَ بعضُ العلماءِ دخولَ المقصورةِ .

كانَ الحسنُ وبكرٌ المزنيُّ لا يصلِّيانِ في المقصورةِ ، ورَأَيا أنَّها قصرتْ على السلطانِ .

وهيَ بدعةٌ أحدثَتْ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المساجدِ ، والمسجدُ مطلقٌ لجميعِ الناسِ ، وقدِ اقتُطِعَ ذٰلكَ علىٰ خلافِهِ[8]

---

(١) بنحوه رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/٢٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠/٢٠٢) ، وهو كذا في « القوت » (١/٦٩) ، ولا التفات لما اعترض علىٰ هٰذا الخبر كابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ ؛ إذ غفل عن شرط المصنف هنا وقيده الذي ذكره .

(٢) رواه أبو داوود (١١٠٨) .

(٣) قوت القلوب (١/٦٩) .

(٤) رواه مسلم (٤٤٠) .

(٥) قوت القلوب (١/٦٩) .

(٦) أي : أبو الدرداء رضي الله عنه ، والخبر في « قوت القلوب » (١/٦٩) .

(٧) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٨٨) .

(٨) قوت القلوب (١/٦٨) ، وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٦٥٢ ، ٤٦٥٣) عن ابن محيريز وابن عمر أنهما كانا لا يصليان في المقصورة ، قال الحافظ الزبيدي : (ولم أر فيه ذكراً للحسن ولا لبكر المزني ، بل ذكر الحسن فيمن كان يصلي في المقصورة) . « إتحاف » (٣/٢٦٦) .

وصلّىٰ أنسُ بنُ مالكٍ وعمرانُ بنُ حصينٍ في المقصورةِ ، ولمْ يكرها ذٰلكَ ؛ لطلبِ القربِ [١]

ولعلَّ الكراهةَ تختصُّ بحالةِ التخصيصِ والمنعِ ، فأمَّا مجرَّدُ المقصورةِ إذا لمْ يكنْ منعٌ . . فلا يوجبُ كراهةً .

وثالثُها : أنَّ المنبرَ يقطعُ بعضَ الصفوفِ ، وإنَّما الصفُّ الأوَّلُ الواحدُ المتصلُ الذي في فناءِ المنبرِ ، وما علىٰ طرفيهِ مقطوعٌ ، وكانَ الثوريُّ يقولُ : (الصفُّ الأوَّلُ هوَ الخارجُ بينَ يدي المنبرِ) [٢] ، وهوَ متَّجهٌ ؛ لأنَّهُ متصلٌ ، ولأنَّ الجالسَ فيهِ يقابلُ الخطيبَ ويسمعُ ، ولا يبعدُ أنْ يقالَ : الأقربُ إلى القبلةِ هوَ الصفُّ الأوَّلُ ، ولا يراعىٰ هٰذا المعنىٰ .

وتكرهُ الصَّلاةُ في الأسواقِ والرحابِ الخارجةِ عنِ المسجدِ ، وكانَ بعضُ الصحابةِ يضربُ الناسَ ويقيمُهُمْ مِنَ الرحابِ [٣]

❁ ❁ ❁

الثامنةُ : أنْ يقطعَ الصَّلاةَ عندَ خروجِ الإمامِ ، ويقطعَ الكلامَ أيضاً ، بلْ يشتغلُ بجوابِ المؤذِّنِ ، ثمَّ باستماعِ الخطبةِ .

وقدْ جرتْ عادةُ بعضِ العوامِّ بالسجودِ عندَ قيامِ المؤذِّنينَ ، ولمْ يثبتْ لهُ أصلٌ في أثرٍ ولا خبرٍ ، لٰكنَّهُ إنْ وافقَ سجودَ تلاوةٍ . . فلا بأسَ أنْ يمدَّ الدعاءَ ؛ لأنَّهُ وقتٌ فاضلٌ ، ولا يحكمُ بتحريمِ هٰذا السجودِ ؛ فإنَّهُ لا سببَ لتحريمِهِ .

وقدْ رُوِيَ عنْ عليٍّ وعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُمَا : (منِ استمعَ وأنصتَ . . فلهُ أجرانِ ، ومَنْ لمْ يستمعْ وأنصتَ . . فلهُ أجرٌ ، ومَنْ سمعَ ولغا . . فعليهِ وزرانِ ، ومَنْ لمْ يستمعْ ولغا . . فعليهِ وزرٌ واحدٌ) [٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ لصاحبِهِ والإمامُ يخطبُ : أنصِتْ أوْ مَهْ . . فقدْ لغا ، ومَنْ لغا والإمامُ يخطبُ . . فلا جمعةَ لهُ » [٥]

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الإسكاتَ ينبغي أنْ يكونَ بإشارةٍ أوْ رَمْيِ حصاةٍ ، لا بالنطقِ ، وفي حديثِ أبي ذرٍّ لمَّا سألَ أُبيّاً والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخطبُ ، فقالَ : متىٰ أُنزلتْ هٰذهِ السورةُ ؟ فأومأَ إليهِ أنِ اسكتْ ، فلمَّا نزلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ لهُ أُبيٌّ : اذهبْ ، فلا جمعةَ لكَ ، فشكاهُ أبو ذرٍّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « صدقَ أُبيٌّ » [٦]

وإنْ كانَ بعيداً مِنَ الإمامِ . . فلا ينبغي أنْ يتكلَّمَ في العلمِ وغيرِهِ ، بلْ يسكتُ ؛ لأنَّ ذٰلكَ يتسلسلُ ويفضي إلىٰ هينمةٍ [٧] ، حتَّىٰ ينتهيَ إلى المستمعينَ ، ولا يجلسُ في حلقةِ مَنْ يتكلَّمُ ، فمنْ عجزَ عنِ الاستماعِ للبعدِ . . فلينصتْ ، فهوَ المستحبُّ .

---

(١) صلاة أنس فيها رواها ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٦٤٢) ، والسياق في « القوت » (٦٨/١) .
(٢) قوت القلوب (٦٩/١) .
(٣) قوت القلوب (٦٩/١) .
(٤) قوت القلوب (٦٨/١) ، وروىٰ أحمد في « مسنده » (٩٣/١) عن علي رضي الله عنه قال : (فمن دنا من الإمام ، فأنصت واستمع ولم يلغُ . . كان له كِفلان من الأجر ، ومن نأىٰ عنه ، فاستمع وأنصت ولم يلغُ . . كان له كفل من الأجر ، ومن دنا من الإمام ، فلغا ولم ينصت ولم يستمع . . كان عليه كِفلان من الوزر ، ومن نأىٰ عنه ، فلغا ولم ينصت ولم يستمع . . كان عليه كفل من الوزر) ، وبنحوه رواه أبو داوود (١٠٥١) .
(٥) رواه الترمذي (٥١٢) ، والنسائي (١٠٣/٣) دون زيادة : « ومن لغا . . فلا جمعة له » ، وهو عند أبي داوود من كلام علي رضي الله عنه في الحديث السابق مع هٰذه الزيادة .
(٦) رواه ابن ماجه (١١١١) ، والسائل أبو الدرداء أو أبو ذر ، وجزم ابن خزيمة في « صحيحه » (١٨٠٧) أنه أبو ذر رضي الله عنه .
(٧) **الهينمة** : كلام تسمع نغمته ولا تفهم معانيه لخفائه ، وهٰذه الهينمة تشوش وتمنع من السماع .

وإذا كانتْ تكرهُ الصَّلاةُ في وقتِ خطبةِ الإمامِ . . فالكلامُ أولىٰ بالكراهةِ ، قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (تكرهُ الصَّلاةُ في أربعِ ساعاتٍ : بعدَ الفجرِ ، وبعدَ العصرِ ، ونصفَ النهارِ ، والصَّلاةُ والإمامُ يخطبُ)[١]

❁ ❁ ❁

التاسعةُ : أنْ يراعيَ في قدوةِ الجمعةِ ما ذكرناهُ في غيرِها ، فإذا سمعَ قراءةَ الإمامِ . . لمْ يقرأْ سوى (الفاتحةِ) ، فإذا فرغَ مِنَ الجمعةِ . . قرأَ : (الحمدُ) سبعَ مراتٍ قبلَ أنْ يتكلَّمَ ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) سبعاً ، و(المعوذتينِ) سبعاً سبعاً ، ورُوِيَ عنْ بعضِ السلفِ أنَّ مَنْ فعلَهُ . . عُصِمَ مِنَ الجمعةِ إلى الجمعةِ ، وكانَ حرزاً لهُ مِنَ الشيطانِ[٢]

ويستحبُّ أنْ يقولَ بعدَ صلاةِ الجمعةِ : (اللَّهُمَّ ؛ يا غنيُّ يا حميدُ ، يا مبدئُ يا معيدُ ، يا رحيمُ يا ودودُ ، أغنني بحلالِكَ عنْ حرامِكَ ، وبفضلِكَ عمَّنْ سواكَ) ، يقالُ : مَنْ داومَ علىٰ هٰذا الدعاءِ . . أغناهُ اللهُ سبحانَهُ عنْ خلقِهِ ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ[٣]

ثمَّ يصلِّي بعدَ الجمعةِ ستَّ ركعاتٍ ؛ فقدْ روى ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي بعدَ الجمعةِ ركعتينِ)[٤] ، وروىٰ أبو هريرة : (أربعاً)[٥] ، وروىٰ عليٌّ وعبدُ اللهِ (ستّاً)[٦] ، والكلُّ صحيحٌ في أحوالٍ مختلفةٍ ، والأكملُ أفضلُ .

❁ ❁ ❁

العاشرةُ : أنْ يلازمَ المسجدَ حتَّىٰ يصلِّيَ العصرَ ، فإنْ أقامَ إلى المغربِ . . فهوَ الأفضلُ .

يقالُ : (مَنْ صلَّى العصرَ في الجامعِ . . كانَ لهُ ثوابُ حجَّةٍ ، ومَنْ صلَّى المغربَ . . فلهُ ثوابُ عمرةٍ)[٧] ، فإنْ لمْ يأمنِ التصنُّعَ ودخولَ الآفةِ عليهِ مِنْ نظرِ الخلقِ إلى اعتكافِهِ ، أوْ خافَ الخوضَ فيما لا يعني . . فالأفضلُ أنْ يرجعَ إلىٰ بيتِهِ ذاكراً للهِ عزَّ وجلَّ ، مفكِّراً في آلائِهِ ، شاكراً لهُ علىٰ توفيقِهِ ، خائفاً مِنْ تقصيرِهِ ، مراقباً لقلبِهِ ولسانِهِ إلىٰ غروبِ الشمسِ ؛ حتَّىٰ لا تفوتَهُ الساعةُ الشريفةُ .

ولا ينبغي أنْ يتكلَّمَ في الجامعِ وغيرِهِ مِنَ المساجدِ بحديثِ الدنيا ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يأتي على الناسِ زمانٌ يكونُ حديثُهُمْ في مساجدِهِمْ أمرَ دنياهُمْ ، ليسَ للهِ تعالىٰ فيهِمْ حاجةٌ ، فلا تجالسوهُمْ »[٨]

❁ ❁ ❁

---

(١) قوت القلوب (٦٨/١) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٦٢١ ، ٣٠٢١٨) عن أسماء بنت الصِّديق رضي الله عنهما .
(٣) قوت القلوب (٦٩/١) .
(٤) رواه البخاري (١١٦٩) ، ومسلم (٨٨٢) .
(٥) رواه مسلم (٨٨١) .
(٦) حديث علي رضي الله عنه رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٥٥٢٤) ، والطبراني في « الكبير » (٣١٠/٩) ، وحديث عبد الله وهو ابن عمر رضي الله عنهما رواه أبو داوود (١١٣٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٤١٢) .
(٧) قوت القلوب (٧٠/١) . وفي (ب) و(ج) : (فله ثواب عمرة مع الحج) .
(٨) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٤٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٧٠١) عن الحسن مرسلاً .

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع النهار وهي سبعة أمور

الأَوَّلُ : أنْ يحضرَ مجالسَ العلمِ : بكرةً أوْ بعدَ الصلاةِ ، أوْ بعدَ العصرِ ، ولا يحضرَ مجالسَ القُصَّاصِ ، فلا خيرَ في كلامِهِمْ .

ولا ينبغي أنْ يخلوَ المريدُ في جميعِ يومِ الجمعةِ عنِ الخيراتِ والدعواتِ حتَّىٰ توافيَهُ الساعةُ الشريفةُ وهوَ في خيرٍ .

ولا ينبغي أنْ يحضرَ الحِلَقَ قبلَ الصَّلاةِ ، روىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنِ التحلُّقِ يومَ الجمعةِ قبلَ الصلاةِ)[1] ، إلا أنْ يكونَ عالماً باللهِ ، يذكِّرُ بأيامِ اللهِ ، ويفقِّهُ في دينِ اللهِ ، يتكلَّمُ في الجامعِ بالغداةِ ، فيجلسُ إليهِ ، فيكونُ جامعاً بينَ البكورِ وبينَ الاستماعِ ، واستماعُ العلمِ النافعِ في الآخرةِ أفضلُ منِ اشتغالِهِ بالنوافلِ ؛ فقدْ روىٰ أبو ذرٍّ : (أنَّ حضورَ مجلسِ علمٍ أفضلُ مِنْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ)[2]

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ : (أما إنَّهُ ليسَ بطلبِ دنيا ، ولٰكنْ عيادةُ مريضٍ وشهودُ جنازةٍ ، وتعلُّمُ علمٍ ، وزيارةُ أخٍ في اللهِ عزَّ وجلَّ)[3]

وقدْ سمَّى اللهُ تعالى العلمَ فضلاً في مواضعَ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ يعني : العلمَ[4] ، فتعليمُ العلمِ في هٰذا اليومِ وتعلُّمُهُ مِنْ أفضلِ القرباتِ .

والصَّلاةُ أفضلُ مِنْ مجالسِ القُصَّاصِ ؛ إذْ كانوا يرونَهُ بدعةً ، ويُخرجونَ القصَّاصَ مِنَ الجامعِ .

حضرَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما إلىٰ مجلسِهِ في المسجدِ الجامعِ ؛ فإذا قاصٌّ يقصُّ في موضعِهِ ، فقالَ لهُ : قمْ عنْ مجلسي ، فقالَ : لا أقومُ وقدْ جلستُ وسبقتُكَ إليهِ ، فأرسلَ ابنُ عمرَ إلىٰ صاحبِ الشُّرْطَةِ فأقامَهُ .

فلوْ كانَ ذٰلكَ مِنَ السنَّةِ . . لما استحلَّ إقامتَهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقيمنَّ أحدُكُمْ أخاهُ مِنْ مجلسِهِ ثمَّ يجلسُ فيهِ ، ولٰكنْ تفسَّحوا وتوسَّعوا »[5]

وكانَ ابنُ عمرَ إذا قامَ لهُ الرجلُ مِنْ مجلسِهِ . . لمْ يجلسْ فيهِ حتَّىٰ يعودَ إليهِ[6]

ورُوِيَ أنَّ قاصّاً كانَ يجلسُ بفناءِ حجرةِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، فأرسلتْ إلى ابنِ عمرَ أنَّ هٰذا قدْ آذاني بقصصِهِ وشغلني عنْ سُبْحَتي ، فضربَهُ ابنُ عمرَ حتَّىٰ كسرَ عصاً علىٰ ظهرِهِ ، ثمَّ طردَهُ[7]

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أبو داوود (١٠٧٩) ، والترمذي (٣٢٢) ، والنسائي (٤٧/٢) ، وابن ماجه (١١٣٣) .

(٢) قوت القلوب (٦٧/١) ، وانظر « الإتحاف » (٩٩/١) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٢٦/٢٨/١٤) عن أنس مرفوعاً .

(٤) بدليل قوله في الآية الأخرىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا . . . ﴾ الآية . « إتحاف » (٢٧٨/٣) .

(٥) رواه البخاري (٩١١) ، ومسلم (٢١٧٧) .

(٦) رواه مسلم (٢١٧٧) تتمة الحديث السابق .

(٧) قوت القلوب (٦٨/١) ، **والسُّبْحَةُ** : التطوع من الذكر والصلاة .

الثاني : أنْ يكونَ حسنَ المراقبةِ للساعةِ الشريفةِ : ففي الخبرِ المشهورِ : « إنَّ في الجمعةِ ساعةً لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ تعالىٰ فيها شيئاً إلا أعطاهُ »(١)

وفي خبرٍ آخرَ : « لا يصادفُها عبدٌ يصلِّي »(٢)

واختلفَ فيها ؛ فقيلَ : إنَّها عندَ طلوعِ الشمسِ ، وقيلَ : عندَ الزوالِ .

وقيلَ : معَ الأذانِ .

وقيلَ : إذا صعدَ الخطيبُ المنبرَ وأخذَ في الخطبةِ ، وقيلَ : إذا قامَ الناسُ إلى الصلاةِ .

وقيلَ : آخرَ وقتِ العصرِ ؛ أعني : وقتَ الاختيارِ .

وقيلَ : قبلَ غروبِ الشمسِ ، وكانتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنهَا تراعي ذٰلكَ الوقتَ وتأمرُ خادمَها أنْ ينظرَ إلى الشمسِ فيؤذنَها بسقوطِها ، فتأخذُ في الدعاءِ والاستغفارِ إلىٰ أنْ تغربَ ، وتخبرُ بأنْ تلكَ الساعةَ هيَ المنتظرةُ ، وتأثرُهُ عنْ أبيها صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٣)

وقالَ بعضُ العلماءِ : هيَ مبهمةٌ في جميعِ اليومِ مثلَ ليلةِ القدْرِ ؛ حتَّىٰ تتوفَّرَ الدواعي علىٰ مراقبتِها .

وقدْ قيلَ : إنَّها تنتقلُ في ساعاتِ يومِ الجمعةِ كتنقُّلِ ليلةِ القدرِ ، وهٰذا هوَ الأشبهُ ، ولهُ سرٌّ لا يليقُ بعلمِ المعاملةِ ذكرُهُ ، ولٰكنْ ينبغي أنْ يصدِّقَ بما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لربِّكُمْ في أيامِ دهرِكُمْ نفحاتٍ ، ألا فتعرَّضوا لها »(٤) ، ويومُ الجمعةِ مِنْ جملةِ تلكَ الأيامِ ، فينبغي أنْ يكونَ العبدُ في جميعِ نهارِهِ متعرِّضاً لها ؛ بإحضارِ القلبِ ، وملازمةِ الذكرِ ، والنزوعِ عنْ وساوسِ الدنيا ، فعساهُ يحظىٰ بشيءٍ مِنْ تلكَ النفحاتِ .

وقدْ قالَ كعبُ الأحبارِ : إنَّها في آخرِ ساعةٍ مِنْ يومِ الجمعةِ ، وذٰلكَ عندَ الغروبِ ، فقالَ أبو هريرةَ : كيفَ تكونُ آخرَ ساعةٍ وقدْ سمعتُ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « لا يوافقُها عبدٌ يصلِّي » ولاتَ حينَ صلاةٍ ؟ فقالَ كعبٌ : ألَمْ يقلْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قعدَ ينتظرُ الصلاةَ . . فهوَ في صلاةٍ » ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : فذاكَ صلاةٌ ، فسكتَ أبو هريرة(٥)

---

(١) رواه النسائي (٣/١١٥) ، وهو عند البخاري (٩٣٥) ، ومسلم (٨٥٢) بزيادة : « وهو قائم يصلي » ، وهو في الرواية الآتية .

(٢) رواه أبو داوود (١٠٤٦) ، والنسائي (٣/١١٤) .

(٣) رواه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (٢١٠٩) ، قال : (فكانت فاطمة تقول لغلام يقال له أربد : اصعد على الظراب ، فإذا رأيت الشمس قد تدلت للغروب . . فأخبرني ، فيخبرها ، فكانت تقوم إلىٰ مسجدها ، فلا تزال تدعو حتىٰ تغرب الشمس ، ثم تصلي) . وهو بنحوه عند البيهقي في « الشعب » (٢٧١٦) .

وجميع الأقوال التي أوردها قد رويت عن السلف الصالح رضي الله عنهم ، وسياق المصنف منتزع من « القوت » (١/٦٦) ، وقال : (فهٰذا جمل ما قيل في هٰذه الساعة بروايات جاءت في ذٰلك متفرقة ، حذفنا ذكرها للاختصار ، فليتوخ هٰذه الأوقات ، وليتعهد الدعاء فيها ، والصلاة فيما صلح منها) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٩/٢٣٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٥/٣٣٩) بنحوه .

(٥) رواه أبو داوود (١٠٤٦) ، والنسائي (٣/١١٤) من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وكعب حكىٰ قوله هٰذا ووافقه عليه ، وتراجع عن قولٍ له قديم أنها في السنة مرة ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/٢٨٢) : (وجدت بخط شمس الدين الداوودي ما نصه : « صحح أبو زرعة الدمشقي أن أبا هريرة إنما روى الحديث كله عن كعب » ، فعلىٰ هٰذا : لذكر كعب في القصة أصل) . وفي معنىٰ : « قائم يصلي » نقل الإمام النووي في « شرح مسلم » (٦/١٤٠) : أنه ملازم للدعاء فيها ، وعليه فلا حاجة لإيراد حديث : « من قعد ينتظر الصلاة . . . » ، وروايته عند مسلم (٤٩١) : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة . . فهو في صلاة » ، وسياق المصنف في « القوت » (١/٦٦) .

وكانَ كعبٌ مائلاً إلىٰ أنَّها رحمةٌ مِنَ اللهِ سبحانَهُ للقائمينَ بحقِّ هٰذا اليومِ ، وأوانُ إرسالِها عندَ الفراغِ مِنْ تمامِ العملِ .

وبالجملةِ : هٰذا وقتٌ شريفٌ معَ وقتِ صعودِ الإمامِ المنبرَ ، فليكثرِ الدعاءَ فيهِما .

❁ ❁ ❁

الثالث : يستحبُّ أنْ يكثرَ الصلاةَ علىٰ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هٰذا اليومِ : فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ في يومِ الجمعةِ ثمانينَ مرَّةً . . غفرَ اللهُ لهُ ذُنوبَ ثمانينَ سنةً » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ الصلاةُ عليكَ ؟ قالَ : « تقولُ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ النبيِّ الأميِّ وتعقدُ واحدةً »[1]

وإنْ قلتَ : (اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ صلاةً تكونُ لكَ رضاءً ، ولحقِّهِ أداءً ، وأعطِهِ الوسيلةَ والمقامَ المحمودَ الذي وعدتَهُ ، واجزِهِ عنَّا ما هوَ أهلُهُ ، واجزِهِ أفضلَ ما جزيتَ نبيّاً عنْ أمَّتِهِ ، وصلِّ علىٰ جميعِ إخوانِهِ ، مِنَ النبيِّينَ والصالحينَ يا أرحمَ الراحمينَ) ، تقولُ هٰذا سبعَ مراتٍ ؛ فقدْ قيلَ : مَنْ قالَها في سبعِ جُمعٍ في كلِّ جمعةٍ سبعَ مراتٍ . . وجبتْ لهُ شفاعتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2]

وإنْ أرادَ أنْ يزيدَ . . أتىٰ بالصلواتِ المأثورةِ فقالَ : (اللهمَّ ؛ اجعلْ فضائلَ صلواتِكَ ، ونواميَ بركاتِكَ ، وشرائفَ زكواتِكَ ورأفتِكَ ورحمتِكَ وتحيَّتِكَ ، علىٰ محمدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وإمامِ المتقينَ ، وخاتمِ النبيينَ ، ورسولِ ربِّ العالمينَ ، قائِدِ الخيرِ ، وفاتحِ البرِّ ، ونبيِّ الرحمةِ ، وسيِّدِ الأمةِ ، اللهمَّ ؛ ابعثْهُ مقاماً محموداً تُزْلِفُ بهِ قربَهُ ، وتقرُّ بهِ عينَهُ ، يغبطُهُ بهِ الأوَّلونَ والآخرونَ ، اللهمَّ ؛ أعْطِهِ الفضلَ والفضيلةَ ، والشرفَ والوسيلةَ ، والدرجةَ الرفيعةَ ، والمنزلةَ الشامخةَ المنيفةَ ، اللهمَّ ؛ أعطِ محمداً سؤلَهُ ، وبلِّغْهُ مأمولَهُ ، واجعلْهُ أوَّلَ شافعٍ وأوَّلَ مشفَّعٍ ، اللهمَّ ؛ عظِّمْ برهانَهُ ، وثقِّلْ ميزانَهُ ، وأفلِجْ حجَّتَهُ ، وارفعْ في أعلى المقربينَ درجتَهُ ، اللهمَّ ؛ احشرْنا في زمرتِهِ ، واجعلْنا مِنْ أهلِ شفاعتِهِ ، وأحينا علىٰ سنَّتِهِ ، وتوفَّنا علىٰ ملَّتِهِ ، وأوزدنا حوضَهُ ، واسقنا بكأسِهِ غيرَ خزايا ولا نادمينَ ، ولا شاكِّينَ ولا مبدِّلينَ ، ولا فاتنينَ ولا مفتونينَ ، آمينَ يا ربَّ العالمينَ)[3]

وعلى الجملةِ : فكلُّ ما أتىٰ بهِ مِنْ ألفاظِ الصلاةِ ولوِ المشهورَ في التشهدِ . . كانَ مصلِّياً .

وينبغي أنْ يضيفَ إليهِ الاستغفارَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ أيضاً مستحبٌّ في هٰذا اليومِ[4]

❁ ❁ ❁

الرابعُ : قراءةُ القرآنِ : فليكثرْ منهُ ، وليقرأْ سورةَ (الكهفِ) خاصةً ؛ فقدْ روى ابنُ عباسٍ وأبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ قرأَ سورةَ (الكهفِ) ليلةَ الجمعةِ أوْ يومَ الجمعةِ . . أُعطيَ نوراً

---

(١) رواه ابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (٢٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٦٣/١٣) ، قال الحافظ العراقي : (وقال ابن النعمان : حديث حسن) . « إتحاف » (٢٨٦/٣) .

(٢) عزاه الحافظ السخاوي في « القول البديع » (ص ١٢٦) لابن أبي عاصم في بعض تصانيفه .

(٣) رواه ابن أبي عاصم في « الصلاة على النبي ﷺ » (٢١) مرفوعاً ، و(٢٣) موقوفاً على علي رضي الله عنه ، بنحوه ، وهو في « القوت » (٦٦/١) ، **وأفلج** : أظهر .

(٤) قوت القلوب (٦٧/١) .

مِنْ حيثُ يقرؤُها إلىٰ مكةَ ، وغُفِرَ لهُ إلىٰ يومِ الجمعةِ الأخرىٰ وفضْلَ ثلاثةِ أيامٍ ، وصلَّىٰ عليهِ سبعونَ ألفَ ملكٍ حتَّىٰ يصبحَ ، وعوفيَ مِنَ الداءِ والدُّبيلَةِ وذاتِ الجنْبِ والبَرصِ والجذامِ ، وفتنةِ الدجَّالِ »[١]

ويستحبُّ أنْ يختمَ القرآنَ في يومِ الجمعةِ وليلتِها إنْ قدرَ ، وليكنْ ختمُهُ للقرآنِ في ركعتي الفجرِ إنْ قرأَ بالليلِ ، أوْ في ركعتي المغربِ ، أوْ بينَ الأذانِ والإقامةِ للجمعةِ ، فلهُ فضلٌ عظيمٌ[٢]

وكانَ العابدونَ يستحبُّونَ أنْ يقرؤوا يومَ الجمعةِ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ألفَ مرَّةٍ[٣] ، ويقالَ : إنَّ مَنْ قرأَها في عشْرِ ركعاتٍ أوْ عشرينَ ركعةً . . فهوَ أفضلُ مِنْ ختمةٍ .

وكانوا يصلُّونَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألفَ مرةٍ[٤] ، ويقولونَ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) ألفَ مرَّةٍ ، وإنْ قرأَ المسبِّحاتِ الستَّ في يومِ الجمعةِ أوْ ليلتِها . . فحسنٌ[٥]

وليسَ يُروىٰ أنّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقرأُ سوراً بأعيانِها إلا في يومِ الجمعةِ وليلتِها ، كانَ يقرأُ في صلاةِ المغربِ ليلةَ الجمعةِ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، وكانَ يقرأُ في صلاةِ العشاءِ الآخرةِ ليلةَ الجمعةِ : سورةَ (الجمعةِ) ، و(المنافقينَ)[٦]

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقرؤُهما في ركعتي الجمعةِ ، وكانَ يقرأُ في صلاةِ الصبحِ يومَ الجمعةِ بسورةِ (سجدةِ لقمانَ)[٧] ، وسورةِ (هلْ أتىٰ على الإنسانِ)[٨]

❀ ❀ ❀

الخامسُ : الصلواتُ : يستحبُّ إذا دخلَ الجامعَ ألَّا يجلسَ حتَّىٰ يصلِّيَ أربعَ ركعاتٍ ، يقرأُ فيهنَّ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) مئتي مرةٍ ، في كلِّ ركعةٍ خمسينَ مرَّةً ، فقدْ نُقلَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ مَنْ فعلَهُ . . لمْ يمتْ حتَّىٰ يرىٰ مقعدَهُ من الجنَّةِ ، أوْ يُرَىٰ لهُ[٩]

ولا يدعُ ركعتيِ التحيةِ وإنْ كانَ الإمامُ يخطبُ ، ولـٰكنْ يخفِّفُ ، أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ[١٠] ،

---

(١) قال صاحب « القوت » (٦٧/١) : (وروى ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .) ، وذكره الحافظ المناوي في « فيض القدير » (١٩٨/٦) وقال : (رواه الديلمي عن أبي هريرة يرفعه) ، وأصل الحديث مروي عند عبد الرزاق في « المصنف » (٧٣٠) ، والدارمي في « سننه » (٣٤٥٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٦٤/١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . **والدُّبيلة** : بوزان جهينة ، كل ورم في داخله موضع تنصب إليه المادة ، **وذات الجنب** : ورم حار في العضلات الباطنة والحجاب المستبطن ، وانظر « الإتحاف » (٢٩٣/٣) .

(٢) قوت القلوب (٦٧/١) .

(٣) روى الرافعي في « تاريخ قزوين » (٢٠٦/٢) مرفوعاً : « من قرأ : (قل هو الله أحد) ألف مرة . . فقد اشترىٰ نفسه من الله عز وجل » .

(٤) انظر « جلاء الأفهام » (ص ٥٧) .

(٥) هي السور التي في أولها نحو : ﴿ سَبَّحَ ﴾ ، ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ ، وهي : الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن ، والأعلىٰ .

(٦) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٨٤١) .

(٧) وهي سورة (السجدة) ، سميت بالإضافة إلىٰ مجاورَتها تمييزاً بها عن غيرها .

(٨) رواه مسلم (٨٧٩) .

(٩) قال الحافظ العراقي : (أخرجه الخطيب في « الرواة عن مالك » من حديث ابن عمر ، وقال : غريب جداً) ، وأخرجه الدارقطني في « غرائب مالك » وقال : لا يصح . « إتحاف » (٢٩٦/٣) .

(١٠) رواه مسلم (٨٧٥) .

وفي حديثٍ غريبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سكتَ للدَّاخلِ حتَّىٰ فرغَ[1] ، فقالَ الكوفيونَ : إنْ سكتَ لهُ الإمامُ . . صلَّاهُما[2]

ويستحبُّ في هـٰذا اليومِ أوْ في ليلتِهِ أنْ يصلِّيَ أربعَ ركعاتٍ بأربعِ سورٍ ؛ سورةِ (الأنعامِ) ، و(الكهفِ) ، و(طـٰه) ، و(يسٓ) ، فإنْ لمْ يُحسنْ . . قرأَ (يسٓ) ، وسجدةَ (لقمانَ) ، وسورةَ (الدخانَ) ، وسورةَ (الملكِ) ، ولا يدعُ قراءةَ هـٰذهِ الأربعِ سورٍ في ليلةِ الجمعةِ ، ففيها فضلٌ كثيرٌ .

ومَنْ لا يحسنُ القرآن . . قرأَ ما يحسنُ ، فهوَ لهُ بمنزلةِ ختمةٍ[3] ، ويكثرُ مِنْ قراءةِ سورةِ (الإخلاصِ) .

ويستحبُّ أنْ يصلِّيَ صلاةَ التسبيحِ كما سيأتي في بابِ التطوُّعاتِ كيفيتُها ، ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لعمِّهِ العباسِ : « صلِّها في كلِّ جمعةٍ »[4]

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما لا يدعُ هـٰذهِ الصلاةَ يومَ الجمعةِ بعدَ الزوالِ ، وكانَ يخبرُ عنْ جلالةِ فضلِها[5]

والأحسنُ : أنْ يجعلَ وقتَهُ إلى الزوالِ للصلاةِ ، وبعدَ الجمعةِ إلى العصرِ لاستماعِ العلمِ ، وبعدَ العصرِ إلى المغربِ للتسبيحِ والاستغفارِ[6]

❁ ❁ ❁

السادسُ : الصدقةُ مستحبةٌ في هـٰذا اليومِ خاصةً : فإنَّها تُضاعفُ إلا علىٰ مَنْ سألَ والإمامُ يخطبُ وكانَ يتكلَّمُ في كلامِ الإمامِ ، فهـٰذا مكروهٌ .

قالَ صالحُ بنُ أحمدَ : (سألَ مسكينٌ يومَ الجمعةِ والإمامُ يخطبُ وكانَ إلىٰ جنبِ أبي ، فأعطىٰ رجلٌ أبي قطعةً ـ ولمْ يعرفْهُ ـ ليناولَهُ إيَّاها ، فلمْ يأخذْها منهُ أبي)[7]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إذا سألَ الرجلُ في المسجدِ . . فقدِ استحقَّ ألَّا يعطىٰ ، وإذا سألَ على القرآنِ . . فلا تعطوهُ)[8] .

ومنَ العلماءِ مَنْ كرهَ الصدقةَ على السُّؤَّالِ في الجامعِ الذين يتخطونَ رقابَ الناسِ ، إلا أنْ يسألَ قائماً أوْ قاعداً في مكانٍ مِنْ غيرِ أنْ يتخطَّىٰ .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : (مَنْ شهدَ الجمعةَ ، ثمَّ انصرفَ ، فتصدَّقَ بشيئينِ مختلفينِ مِنَ الصدقةِ ، ثمَّ رجعَ فركعَ ركعتينِ يتمُّ ركوعَهُما وسجودَهُما وخشوعَهُما ، ثم يقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ باسمِكَ بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، وباسمِكَ الذي لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، هوَ الحيُّ القيُّومُ ، لا تأخذُهُ سنةٌ ولا نومٌ . . لمْ يسألِ اللهِ تعالىٰ شيئاً إلا أعطاهُ)[9]

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٢٠٦) ، والدارقطني في « سننه » (١٦/٢) .
(٢) قوت القلوب (٦٧/١) ، وقال : (ولعل سكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم مخصوص له ؛ لوجوب قوله) .
(٣) قوت القلوب (٦٧/١) ، وقال : (فذلك له ختمةٌ ، فقيل : ختمة من حيث علمه)
(٤) رواه أبو داوود (١٢٩٧) ، وابن ماجه (١٣٨٧) .
(٥) قوت القلوب (٦٧/١) .
(٦) قوت القلوب (٦٥/١) ، وقال : (فكذلك كان المتقدمون يقسمون يوم الجمعة هـٰذه الأقسام الثلاثة) .
(٧) قوت القلوب (٦٩/١) ، ولو كانت مستحبة . . لفعلها أحمد رحمه الله تعالىٰ .
(٨) قوت القلوب (٦٩/١) ، واللحاق الآتي منه كذلك .
(٩) قوت القلوب (٦٩/١) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (مَنْ أطعمَ مسكيناً يومَ الجمعةِ ، ثمَّ غدا وابتكرَ ، ولمْ يؤذِ أحداً ، ثمَّ قالَ حينَ يسلِّمُ الإمامُ : بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ الحيِّ القيُّومِ ، أسأَلُكَ أنْ تغفرَ لي وترحمَني وأنْ تعافيَني مِنَ النارِ ، ثمَّ دعا بما بدا لهُ . . استجيبَ لَهُ)[1]

❁ ❁ ❁

السابعُ : أنْ يجعلَ يومَ الجمعةِ للآخرةِ : فيكفُّ فيهِ عنْ جميعِ أشغالِ الدنيا ، ويكثرُ فيهِ الأورادَ ، ولا يبتدئُ فيهِ السفرَ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ مَنْ سافرَ في ليلةِ الجمعةِ . . دعا عليهِ ملكاهُ[2] ، وهوَ بعدَ طلوعِ الفجرِ حرامٌ إلا إذا كانتِ الرفقةُ تفوتُ .

وكرهَ بعضُ السلفِ شراءَ الماءِ في المسجدِ مِنَ السقَّاءِ ليشربَهُ أوْ يسبِّلَهُ ؛ حتَّىٰ لا يكونَ مبتاعاً في المسجدِ ، فإنَّ البيعَ والشراءَ في المسجدِ مكروهٌ ، وقالوا : لا بأسَ لوْ أعطى القطعةَ خارجَ المسجدِ ثمَّ شربَ أوْ سبَّلَ في المسجدِ[3] .

وبالجملةِ : ينبغي أنْ يزيدَ في الجمعةِ في أورادِهِ وأنواعِ خيراتِهِ ، فإنَّ اللهَ سبحانَهُ إذا أحبَّ عبداً . . استعملَهُ في الأوقاتِ الفاضلةِ بفواضلِ الأعمالِ ، وإذا مقتَهُ . . استعملَهُ في الأوقاتِ الفاضلةِ بسيِّئِ الأعمالِ ، ليكونَ ذٰلكَ أوجعَ في عقابِهِ ، وأشدَّ لمقتِهِ ؛ لحرمانِهِ بركةَ الوقتِ ، وانتهاكِهِ حرمةَ الوقتِ .

ويستحبُّ في الجمعةِ دعواتٌ ، وسيأتي ذكرُها في كتابِ الدعواتِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

❁ ❁ ❁

---

(١) قوت القلوب (١/٦٩) .

(٢) رواه الخطيب في « الرواة عن مالك » ، والدارقطني في « الأفراد » ، كذا ذكر الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/٣٠٢) ، وهو بنحوه عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥١٥٨) ، وأبي نعيم في « الحلية » (٦/٧٥) .

(٣) قوت القلوب (١/٦٩) .

البَابُ السَّادِسُ
في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ، ويحتاج المريد إلى معرفتها

فأمَّا المسائلُ التي تقعُ نادرةً . . فقدِ استقصيناها في كتبِ الفقهِ .

مَسْأَلَةٌ
[تتعلقُ بأفعالِ المصلي وحركاتِه في الصلاةِ صحةً وفساداً]

الفعلُ القليلُ وإنْ كانَ لا يبطلُ الصلاةَ فهوَ مكروهٌ إلا لحاجةٍ ، وذٰلكَ في دفعِ المارِّ أوْ قتلِ عقربٍ يخافُها ويمكنُ قتلُها بضربةٍ أوْ بضربتينِ ، فإذا صارتْ ثلاثاً . . كثرتْ وبطلتِ الصَّلاةُ ، وكذٰلكَ القملةُ والبرغوثُ ، مهما تأذَّىٰ بهما . . كانَ لهُ دفعُهُما ، وكذا حاجتُهُ إلى الحكِّ الذي يشوِّشُ عليهِ الخشوعَ .

كانَ معاذٌ يأخذُ القملةَ والبرغوثَ في الصَّلاةِ [1] ، وابنُ عمرَ كانَ يقتلُ القملةَ في الصَّلاةِ حتَّىٰ يظهرَ الدمُ علىٰ يدِهِ [2]

وقالَ النخعيُّ : (يأخذُها ويوهنُها ، ولا شيءَ عليه إنْ قتلَها) [3]

وقالَ ابنُ المسيَّبِ : (يأخذُها فيخدِّرُها ثمَّ يطرحُها) [4] .

وقالَ مُجاهدٌ : (الأحبُّ إليَّ أنْ يدعَها ، إلا أنْ تؤذيَهُ فتشغلَهُ عنْ صلاتِهِ ، فيوهنُها قدْرَ ما لا تؤذي ثمَّ يلقيها) [5]

وهٰذهِ رخصةٌ ، وإلَّا . . فالكمالُ الاحترازُ عنِ الفعلِ وإنْ قلَّ ، ولذٰلكَ كانَ بعضُهمْ لا يطردُ الذبابَ ، وقالَ : (لا أعوِّدُ نفسي ذٰلكَ فيفسدَ عليَّ صلاتي ، وقدْ سمعتُ أنَّ الفساقَ يصبرونَ بينَ يديِ الملوكِ علىٰ أذىً كثيرٍ ولا يتحرَّكونَ) .

ومهما تثاءبَ . . فلا بأسَ أنْ يضعَ يدَهُ علىٰ فيهِ ، وهوَ الأولىٰ ، وإنْ عطسَ . . حمدَ اللهَ عزَّ وجلَّ في نفسِهِ ولمْ يحرِّكْ لسانَهُ ، وإنْ تجشَّأَ . . فينبغي ألا يرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ، وإنْ سقطَ رداؤُهُ . . فلا ينبغي أنْ يسويَهُ ، وكذٰلكَ أطرافُ عِمامتِهِ ، فكلُّ ذٰلكَ مكروهٌ إلا لضرورةٍ .

مَسْأَلَةٌ
[في حكمِ خلعِ النعالِ في الصلاةِ هلْ يفسدُ أمْ لا ، وهلِ الصلاةُ في النعلينِ جائزةٌ أمْ لا]

الصلاةُ في النعلينِ جائزةٌ وإنْ كانَ نزْعُ النعلينِ سهلاً ، وليستِ الرخصةُ في الخفِّ لعسرِ النزْعِ ، بلْ هٰذهِ النجاسةُ معفوٌّ عنها ، وفي معناها المَداسُ ، صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في نعليهِ ثمَّ نزعَ ، فنزعَ النَّاسُ نعالَهُمْ ، فقالَ :

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٥ ، ٧٥٦٠) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٦) عن عمر رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٩) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٧) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٦٣) بمعناه .

« لِمَ خلعتُمْ نعالَكُمْ ؟ » قالوا : رأيناكَ خلعتَ فخلعْنا ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ أتاني فأخبرني أنَّ بهما خبثاً ، فإذا أرادَ أحدُكُمُ المسجدَ . . فليقلبْ نعليْهِ ولينظرْ فيهما ، فإنْ رأىٰ خبثاً . . فليمسحْهُ بالأرضِ وليصلِّ فيهما »[1]

وقالَ بعضُهُمْ : الصلاةُ في النعلينِ أفضلُ ؛ لأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لِمَ خَلَعْتُمْ نعالَكُمْ ؟ » وهٰذهِ مبالغةٌ ؛ فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَهُمْ ليبيِّنَ لهمْ سببَ خلعِهِ ، إذْ علمَ أنَّهُمْ خلعوا علىٰ موافقتِهِ .

وقدْ روىٰ عبدُ اللهِ بنُ السائبِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خلعَ نعليهِ[2] ، فإذاً قدْ فعلَ كليهما ؛ فمَنْ خلعَ . . فينبغي ألَّا يضعَهُما عنْ يمينِهِ ويسارِهِ فيضيِّقَ الموضعَ ويقطعَ الصفَّ ، بلْ يضعُهُما بينَ يديهِ ، ولا يتركُهُما وراءَهُ فيكونَ قلبُهُ ملتفتاً إليهما .

ولعلَّ مَنْ رأى الصلاةَ فيهما أفضلَ . . راعىٰ هٰذا المعنىٰ ، وهوَ التفاتُ القلبِ إليهما ، روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا صلَّىٰ أحدُكُمْ . . فليجعلْ نعلَيْهِ بينَ رجليهِ »[3] .

وقالَ أبو هريرةَ لغيرِهِ : (اجعلْهُما بينَ رجليكَ ولا تؤذِ بهما مسلماً)[4]

ووضعَهُما رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ يسارِهِ وكانَ إماماً[5] ، فللإمامِ أنْ يفعلَ ذٰلكَ ؛ إذْ لا يقفُ أحدٌ علىٰ يسارِهِ ، والأولىٰ ألا يضعَهما بينَ قدميهِ فيشغلاهُ ، ولٰكنْ قدَّامَ قدميهِ ، ولعلَّهُ المرادُ بالحديثِ ، وقدْ قالَ جبيرُ بنُ مطعمٍ : (وضْعُ الرجلِ نعليهِ بينَ قدميهِ بدعةٌ)[6]

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ البزاقِ في الصلاةِ إذا غلبَهُ كيفَ يفعلُ]

إذا بزقَ في صلاتِهِ . . لمْ تبطلْ صلاتُهُ ؛ لأنَّهُ فعلٌ قليلٌ ، وما يحصلُ بهِ مِنْ صوتٍ لا يُعدُّ كلاماً وليسَ علىٰ شكلِ حروفِ الكلامِ ، إلا أنَّهُ مكروهٌ ، فينبغي أنْ يحترزَ عنهُ ، إلا كما أذنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ : إذْ روىٰ بعضُ الصحابةِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأىٰ في القبلةِ نُخامةً ، فغضبَ غضباً شديداً ، ثمَّ حكَّها بعرجونٍ كانَ في يدِهِ ، وقالَ : « ائتوني بعبيرٍ » ، فلطَّخَ أثرَها بزعفرانٍ ، ثمَّ التفتَ إلينا وقال : « أيُّكم يُحِبُّ أَنْ يُبزقَ في وجهِهِ ؟ » فقلنا : لا أيُّنا ، قالَ : « فإنَّ أحدَكُمْ إذا دخلَ في صلاتِهِ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بينَهُ وبينَ القِبلةِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « . . واجَهَهُ اللهُ تعالىٰ ، فلا يبزقَنَّ أحدُكُمْ تلقاءَ وجْهِهِ ، ولا عنْ يمينِهِ ، ولٰكنْ عنْ شِمالِهِ أوْ تحتَ قدمِهِ اليسرىٰ ، فإنْ بدرَتْهُ بادرَةٌ . . فليبصقْ في ثوبِهِ وليقلْ بهِ هٰكذا » ودلكَ بعضَهُ ببعضٍ[7]

---

(١) رواه أبو داوود (٦٥٠) .

(٢) رواه النسائي (١٧٦/٢) .

(٣) رواه أبو داوود (٦٥٥) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٩٨٠) .

(٥) رواه أبو داوود (٦٤٨) ، والنسائي (٧٤/٢) ، وابن ماجه (١٤٣١) .

(٦) والخبرُ عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٩٨١) عن نافع بن جبير بن مطعم .

(٧) رواه مسلم (٣٠٠٨) ضمن حديث جابر الطويل ، وسياق المصنف من « القوت » (٩٩/١) .

مَسْأَلَةٌ

[في كيفيةِ وقوفِ المقتدي وراءَ الإمامِ]

لوقوفِ المقتدي سنةٌ وفرضٌ :

أمّا السنةُ : فأنْ يقفَ الواحدُ عنْ يمينِ الإمامِ متأخِّراً عنهُ قليلاً ، والمرأةُ الواحدةُ تقفُ خلفَ الإمامِ ، فإنْ وقفتْ بجنبِ الإمامِ . . لمْ يضرَّ ، ولـٰكنْ خالفتِ السنةَ ، فإنْ كانَ معها رجلٌ . . وقفَ الرجلُ عنْ يمينِ الإمامِ وهي خلفَ الرجلِ .

ولا يقفُ أحدٌ خلفَ الصفِّ منفرداً ، بلْ يدخلُ في الصفِّ ، أوْ يجرُّ إلىٰ نفسِهِ واحداً مِنَ الصفِّ ، فإنْ وقفَ منفرداً . . صحَّتْ صلاتُهُ معَ الكراهةِ .

وأمّا الفرضُ : فاتصالُ الصفِّ ، وهوَ أنْ يكونَ بينَ المقتدي والإمامِ رابطةٌ جامعةٌ ، فإنَّهُما في جماعةٍ ، فإنْ كانا في مسجدٍ . . كفىٰ ذٰلكَ جامعاً ؛ لأنه بُنِيَ لهُ ، فلا يحتاجُ إلى اتصالِ صفٍّ ، بلْ إلىٰ أنْ يعرفَ أفعالَ الإمامِ ؛ صلَّىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ ظهْرِ المسجدِ بصلاةِ الإمامِ[1]

وإذا كانَ المأمومُ علىٰ فناءِ المسجدِ في طريقٍ أوْ صحراءَ مشتركةٍ وليسَ بينَهُما اختلافُ بناءٍ مفرّقٍ . . فيكفي القربُ بقدْرِ غَلْوةِ سهْمٍ[2] ، وهيَ رابطةٌ ؛ إذْ يصلُ فعلُ أحدِهِما إلى الآخرِ ، وإنما يشترطُ[3] إذا وقفَ في صحنِ دارٍ علىٰ يمينِ المسجدِ أوْ يسارِهِ وبابُها لافظٌ في المسجدِ[4] ، فالشرطُ أنْ يمتدَّ صفُّ المسجدِ في دهليزِها مِنْ غيرِ انقطاعٍ إلى الصحنِ ، ثمَّ تصحُّ صلاة مَنْ في ذٰلكَ الصفِّ ومَنْ خلفَهُ دونَ مَنْ تقدَّمَ عليهِ ، وهـٰكذا حكمُ الأبنيةِ المختلفةِ ، فأمَّا البناءُ الواحدُ والعَرْصَةُ الواحدةُ . . فكالصحراءِ[5]

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ المسبوقِ]

المسبوقُ إذا أدركَ آخرَ صلاةِ الإمامِ . . فهوَ أوَّلُ صلاتِهِ ؛ فليوافقِ الإمامَ وليبنِ عليهِ ، وليقنتْ في الصبحِ في آخرِ صلاةِ نفسِهِ وإنْ قنتَ معَ الإمامِ ، وإنْ أدركَ معَ الإمامِ بعضَ القيامِ . . فلا يشتغلْ بالدعاءِ ، وليبدأْ بـ (الفاتحةِ) وليخففْها ، فإنْ ركعَ الإمامُ قبلَ تمامِها وقدرَ علىٰ لحوقِهِ في اعتدالِهِ عنِ الركوعِ . . فليتمَّ ، فإنْ عجزَ . . وافقَ الإمامَ وركعَ وكانَ لبعضِ (الفاتحةِ) حكمُ جميعِها ، فتسقطُ عنهُ بالسبقِ ، وإنْ ركعَ الإمامُ وهوَ في السورةِ . . فليقطعْها .

وإنْ أدركَ الإمامَ في السجودِ أوِ التشهدِ . . كبَّرَ للإحرامِ وجلسَ ولمْ يكبِّرْ ، بخلافِ ما إذا أدركَهُ في الركوعِ ؛ فإنَّهُ يكبِّرُ ثانياً في الهُوِيِّ ؛ لأنَّ ذٰلكَ انتقالٌ محسوبٌ لهُ ، والتكبيراتُ للانتقالاتِ الأصليةِ في الصلاةِ ، لا للعوارضِ بسببِ القدوةِ .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٢١٥) ، وهو من معلقات البخاري (باب الصلاة في السطوح والمنبر والخشب) .

(٢) أي : مقدار رمية سهم ، وهي ثلاث مئة ذراع إلىٰ أربع مئة ذراع ، والتقدير عرفي . انظر « الإتحاف » (٣١٣/٣) .

(٣) أي : يشترط الاتصال بالإمام إن كان المأموم في غير فضاء ، كما إذا . . .

(٤) لافظ : لاصق بالأرض نافذ من غير فاصل بينهما من طريق أو غيره . انظر « مشكل الوسيط » (٢٣١/٢) .

(٥) العرصة : الساحة ، والبقعة الواسعة لا بناء فيها ؛ والضمير في قوله : (من تقدَّم عليه) عائد على الصفِّ .

ولا يكونُ مدركاً للركعةِ ما لمْ يطمئنَّ في الركوعِ والإمامُ بعدُ في حدِّ الراكعينَ ، فإنْ لمْ يتمَّ طمأنينتَهُ إلا بعدَ مجاوزةِ الإمامِ حدَّ الراكعينَ . . فاتتْهُ تلكَ الركعةُ .

مسألة

[في متفرقاتِ مسائلِ الفائتةِ والجماعةِ]

مَنْ فاتَتْهُ صلاةُ الظهرِ إلىٰ وقتِ العصرِ . . فليصلِّ الظهرَ أوَّلاً ثمَّ العصرَ ، فإنِ ابتدأَ بالعصرِ . . أجزأَهُ ، ولٰكنْ تركَ الأولىٰ ، واقتحمَ شبهةَ الخلافِ [1]

فإنْ وجدَ إماماً . . فليصلِّ العصرَ ثمَّ ليصلِّ الظهرَ بعدَهُ ، فإنَّ الجماعةَ بالأداءِ أولىٰ .

وإنْ صلَّىٰ منفرداً في أوَّلِ الوقتِ ، ثمَّ أدركَ جماعةً . . صلَّىٰ في الجماعةِ ونوىٰ صلاةَ الوقتِ ، واللهُ يحتسبُ أكملَهُما ، فإنْ نوىٰ فائتةً أوْ تطوُّعاً . . جازَ .

وإنْ كانَ قدْ صلَّىٰ في جماعةٍ ، فأدركَ جماعةً أخرىٰ . . فلينوِ الفائتةَ أوِ النافلةَ ، فإعادةُ المؤدَّاةِ بالجماعةِ مرَّةً أخرىٰ لا وجهَ لهُ ، وإنَّما احتملَ ذٰلكَ لدركِ فضيلةِ الجماعةِ .

مسألة

[في حكمِ منْ رأىٰ علىٰ ثوبِهِ نجاسةً : هلْ يتمُّ صلاتَهُ أو يستأنفُ]

مَنْ صلَّىٰ ثمَّ رأىٰ علىٰ ثوبِهِ نجاسةً . . فالأحبُّ قضاءُ الصلاةِ ولا يلزمُهُ ، ولوْ رأى النجاسةَ في أثناءِ الصلاةِ . . رمىٰ بالثوبِ وأتمَّ ، والأحبُّ الاستئنافُ .

وأصلُ هٰذا : قصةُ خلْعِ النعلينِ ، حيثُ أخبرَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ بأنَّ عليهِما نجاسةً ، فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يستأنفِ الصلاةَ .



مسألة

[في حكمِ سجودِ السهوِ]

مَنْ تركَ التشهدَ الأوَّلَ ، أوِ القنوتَ ، أوْ تركَ الصلاةَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في التشهدِ الأوَّلِ ، أوْ فعلَ فعلاً سهواً وكانت الصلاةُ تبطلُ بعمدِهِ ، أوْ شكَّ فلمْ يدْرِ : أصلَّىٰ ثلاثاً أمْ أربعاً . . أخذَ باليقينِ وسجدَ سجدتيِ السهوِ قبلَ السلامِ ، فإنْ نسيَ . . فبعدَ السلامِ مهما تذكَّرَ على القربِ ، فإنْ سجدَ بعدَ السلامِ ، وأحدثَ . . بطلتْ صلاتُهُ ؛ فإنَّهُ لمَّا دخلَ في السجودِ كأنَّهُ جعلَ سلامَهُ نسياناً في غيرِ محلِّهِ ، فلمْ يحصلِ التحلُّلُ بهِ ، وعادَ إلى الصلاةِ ، فلذٰلكَ يستأنفُ السلامَ بعدَ السجودِ .

فإنْ تذكَّرَ سجودَ السهوِ بعدَ خروجِهِ مِنَ المسجدِ ، أوْ بعدَ طولِ الفصْلِ . . فقدْ فاتَ .

---

(1) إذ الترتيبُ بين الفائتة والوقتية وبين الفوائت مستحقٌّ لازم عند الحنفية . انظر « مراقي الفلاح » (ص ٣٧٧) .

مَسْأَلَةٌ

[في بيانِ الدواءِ النافعِ للوسوسةِ في نيةِ الصلاةِ]

الوسوسةُ في نيَّةِ الصلاةِ سببُها خَبَلٌ في العقلِ ، أوْ جهلٌ بالشرعِ ؛ لأنَّ امتثالَ أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ مثلُ امتثالِ أمرِ غيرِهِ ، وتعظيمَهُ كتعظيمِ غيرِهِ في حقِّ القصْدِ[1] ، ومَنْ دخلَ عليهِ عالمٌ فقامَ لهُ ، فلوْ قالَ : نويتُ أنْ أنتصبَ قائماً تعظيماً لدخولِ زيدٍ الفاضلِ لأجلِ فضلِهِ متصلاً بدخولِهِ مقبلاً عليهِ بوجهي . . سُفِّهَ في عقلِهِ ، بلْ كما يراهُ ويعلمُ فضلَهُ تنبعثُ داعيةُ التعظيمِ فتقيمُهُ ويكونُ معظِّماً ، إلا إذا قامَ لشغلٍ آخرَ أوْ في غفلةٍ .

واشتراطُ كونِ الصلاةِ ظهراً أداءً فرضاً في كونِهِ امتثالاً كاشتراطِ كونِ القيامِ مقروناً بالدخولِ معَ الإقبالِ بالوجهِ على الداخلِ وانتفاءِ باعثٍ آخرَ سواهُ ، وقصْدِ التعظيمِ بهِ ليكونَ تعظيماً ؛ فإنَّهُ لوْ قامَ مدبراً عنهُ ، أوْ صبرَ فقامَ بعدَ ذلكَ بمدةٍ . . لمْ يكنْ معظِّماً .

ثمَّ هٰذهِ الصفاتُ لا بدَّ وأنْ تكونَ معلومةً ، وأنْ تكونَ مقصودةً ، ثمَّ لا يطولُ حضورُها في النفسِ في لحظةٍ واحدةٍ ، وإنَّما يطولُ نظْمُ الألفاظِ الدالَّةِ عليها ؛ إمَّا تلفظاً باللسانِ ، وإمَّا تفكُّراً بالقلبِ ، فمَنْ لمْ يفهمْ نيَّةَ الصلاةِ علىٰ هٰذا الوجهِ . . فكأنَّهُ لمْ يفهمِ النيَّةَ ، فليسَ في ذلكَ إلا أنَّكَ دعيتَ إلىٰ أنْ تصلِّيَ في وقتٍ ، فأجبتَ وقمتَ ، فالوسوسةُ محضُ الجهلِ ، فإنَّ هٰذهِ القُصُودَ وهٰذهِ العلومَ تجتمعُ في النفسِ في حالةٍ واحدةٍ ، ولا تكونُ مفصَّلةَ الآحادِ في الذهنِ بحيثُ تطالعُها النفسُ وتتأمَّلُها .

وفرقٌ بينَ حضورِ الشيءِ في النفسِ وبينَ تفصيلِهِ بالفكرِ ، والحضورُ مضادٌّ للعزوبِ[2] والغفلةِ وإنْ لمْ يكنْ مفصّلاً ؛ فإنَّ مَنْ علمَ الحادثَ مثلاً فيعلمُهُ بعلمٍ واحدٍ في حالةٍ واحدةٍ ، وهٰذا العلمُ يتضمَّنُ علوماً هيَ حاضرةٌ وإنْ لمْ تكنْ مفصَّلةً ، فإنَّ مَنْ علمَ الحادثَ فقدْ علمَ الموجودَ والمعدومَ ، والتقدُّمَ والتأخُّرَ ، والزمانَ ، وأنَّ التقدُّمَ للعدمِ ، وأنَّ التأخرَ للوجودِ .

فهٰذهِ العلومُ منطويةٌ تحتَ العلْمِ بالحادثِ ؛ بدليلِ أنَّ العالِمَ بالحادثِ إذا لمْ يعلمْ غيرَهُ لوْ قيلَ لهُ : (هلْ علمتَ التقدُّمَ قطُّ أوِ التأخُّرَ أوِ العدمَ أوْ تقدُّمَ العدمِ أوْ تأخُّرَ الوجودِ أوِ الزمانَ المنقسمَ إلى المتقدِّمِ والمتأخِّرِ ؟) فقالَ : ما عرفتُهُ قطُّ . . كانَ كاذباً ، وكانَ قولُهُ مناقضاً لقولِهِ : (إنِّي أعلمُ الحادثَ) .

ومِنَ الجهلِ بهٰذهِ الدقيقةِ يثورُ الوسواسُ ، فإنَّ الموسوِسَ يكلِّفُ نفسَهُ أنْ يحضرَ في قلبِهِ الظُّهريةَ والأدائيةَ والفرضيةَ في حالةٍ واحدةٍ مفصَّلةً بألفاظِها وهوَ يطالعُها ، وذلكَ محالٌ ، ولوْ كلَّفَ نفسَهُ ذلكَ في القيامِ لأجلِ العالمِ لتعذَّرَ عليهِ .

فبهٰذهِ المعرفةِ يندفعُ الوسواسُ ؛ وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ امتثالَ أمرِ اللهِ سبحانَهُ في النيةِ كامتثالِ أمرِ غيرِهِ .

ثمَّ أزيدُ عليهِ علىٰ سبيلِ التسهيلِ والرخصةِ وأقولُ : لوْ لمْ يفهمِ الموسوِسُ النيَّةَ إلا بإحضارِ هٰذهِ الأمورِ مفصَّلةً ، ولمْ يتمثَّلْ في نفسِهِ الامتثالَ دفعةً واحدةً ، وأحضرَ جملةَ ذلكَ في أثناءِ التكبيرِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ، بحيثُ لمْ يفرغْ مِنَ التكبيرِ إلا وقدْ حصلتِ النيَّةُ . . كفاهُ ذلكَ ، ولا نكلِّفُهُ أنْ يقرنَ الجميعَ بأوَّلِ التكبيرِ أوْ آخرِهِ ، فإنَّ ذلكَ تكليفُ

(١) وهٰذا ضربه مثلاً للبيان أو التفهيم ، وإن كان بين الامتثالين والتعظيمين بونٌ لا يخفىٰ . « إتحاف » (٣/٣٢١) .
(٢) العزوب : الغيبة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ أي : لا يغيب .

شططٌ ، ولوْ كانَ مأموراً بهِ . . لوقعَ للأوَّلينَ سؤالٌ عنهُ ، ولوسوسَ واحدٌ مِنَ الصحابةِ في النيةِ ، فعدمُ وقوعِ ذٰلكَ دليلٌ علىٰ أَنَّ الأمرَ على التساهلِ ، فكيفما تيسَّرتِ النيةُ للموسوسِ ينبغي أنْ يقنعَ بها ، حتَّىٰ يتعوَّدَ ذٰلكَ وتفارقَهُ الوسوسةُ ، ولا يطالبُ نفسَهُ بتحقيقِ ذٰلكَ ؛ فإنَّ التحقيقَ يزيدُ في الوسوسةِ .

وقدْ ذكرنا في « الفتاوىٰ »[1] وجوهاً مِنَ التحقيقِ في تفصيلِ العلومِ والقُصُودِ المتعلقةِ بالنيةِ ، تفتقرُ العلماءُ إلىٰ معرفتِها ، أمَّا العاميُّ فربَّما يضرُّهُ سماعُها ، وتهيِّجُ عليهِ الوسواسَ ، فلذٰلكَ تركناها .

مَسْأَلَةٌ

[في ذكرِ شرطِ صحةِ الاقتداءِ]

لا ينبغي أنْ يتقدَّمَ المأمومُ على الإمامِ في الركوعِ والسجودِ والرفعِ منهُما ، وفي سائرِ الأعمالِ ، ولا ينبغي أنْ يساوقَهُ ، بلْ يتبعُهُ ويقفو أثرَهُ ، فهٰذا معنى الاقتداءِ ، فإن ساوقَهُ عمداً[2] . . لمْ تبطلْ صلاتُهُ ، كما لوْ وقفَ بجنبِهِ غيرَ متأخِرٍ عنهُ ، وإنْ تقدَّمَ عليهِ . . ففي بطلانِ صلاتِهِ خلافٌ ، ولا يبعدُ أنْ يُقضىٰ بالبطلانِ تشبيهاً بما لوْ تقدَّمَ في الموقفِ على الإمامِ ، بلْ هٰذا أولىٰ ؛ لأنَّ الجماعةَ اقتداءٌ في الفعلِ لا في الموقفِ ، فالتبعيةُ في الفعلِ أهمُّ ، وإنَّما شُرِطَ تركُ التقدُّمِ في الموقفِ تسهيلاً للمتابعةِ في الفعلِ ، وتحصيلاً لصورةِ التبعيةِ ؛ إذِ اللائقُ بالمقتدىٰ بهِ أنْ يتقدَّمَ ، فالتقدُّمُ عليهِ في الفعلِ لا وجهَ لهُ إلا أنْ يكونَ سهواً ، ولذٰلكَ شدَّدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ النكيرَ وقالَ : « أما يخشى الذي يرفعُ رأسَهُ قبلَ الإمامِ أنْ يحوِّلَ اللهُ رأسَهُ رأسَ حمارٍ »[3]

وأمَّا التأخُّرُ عنهُ بركنٍ واحدٍ . . فلا يبطلُ الصلاةَ ، وذٰلكَ بأنْ يعتدلَ الإمامُ عنْ ركوعِهِ وهوَ بعدُ لمْ يركعْ ، ولٰكنَّ التأخُّرَ إلىٰ هٰذا الحدِّ مكروهٌ ، فإنْ وضعَ الإمامُ جبهتَهُ على الأرضِ وهوَ بعدُ لمْ ينتهِ إلىٰ حدِّ الراكعينَ . . بطلتْ صلاتُهُ ، وكذا إنْ وضعَ الإمامُ جبهتَهُ للسجودِ الثاني وهوَ بعدُ لمْ يسجدِ السجودَ الأوَّلَ .

مَسْأَلَةٌ

[في الأمرِ بالمعروفِ ، وتسويةُ الصفوفِ ، وفضلِ الجماعةِ والصفِّ الأيمنِ]

حقٌّ علىٰ مَنْ حضرَ الصلاةَ إذا رأىٰ مِنْ غيرِهِ إساءةً في صلاتِهِ أنْ يغيِّرَهُ وينكرَ عليهِ ، وإنْ صدرَ عنْ جهلٍ . . رفَقَ بالجاهلِ وعلَّمَهُ ، فمنْ ذٰلكَ : الأمرُ بتسويةِ الصفوفِ ، ومنعُ المنفردِ بالوقوفِ خارجَ الصفِّ ، والإنكارُ علىٰ مَنْ يرفعُ رأسَهُ قبلَ الإمامِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الأمورِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ويلٌ للعالمِ مِنَ الجاهلِ حيثُ لا يعلِّمُهُ »[4]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ رأىٰ مَنْ يسيءُ صلاتَهُ فلمْ ينهَهُ . . فهوَ شريكُهُ في وزرِها) .

---

(١) وهي أسئلة وردت عليه من أصحابه وأقرانه ، وأجاب عنها ، ثم جمع ذلك في كتاب ، وهو مشهور ينقل عنه الأئمة ويعتمدونه ، واختصره محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر الفارقي في كتاب لطيف . « إتحاف » (٣/٣٢٣) .

(٢) في غير التكبير . « إتحاف » (٣/٣٢٤) .

(٣) رواه البخاري (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) .

(٤) قال العراقي : (أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس بسند ضعيف) ، وفي حديث المسيء صلاته المشهور شاهد لهٰذه المسألة . « إتحاف » (٣/٣٢٧) .

وعنْ بلالِ بنِ سعدٍ أنَّهُ قالَ : (الخطيئةُ إذا أُخفيتْ . . لمْ تضرَّ إلا صاحبَها ، فإذا أُظهرتْ فلمْ تُغيَّرْ . . أضرَّتْ بالعامَّةِ)[١]

وجاءَ في الحديثِ : أَنَّ بلالاً كانَ يسوِّي الصفوفَ ويضربُ عراقيبَهُمْ بالدِّرَّةِ[٢]

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (تفقَّدُوا إخوانَكُمْ في الصلاةِ ، فإذا فقدتموهُمْ ؛ فإنْ كانوا مرضىٰ . . فعودُوهُمْ ، وإنْ كانوا أصحَّاءَ . . فعاتبوهُمْ) ، والعتابُ إنكارٌ علىٰ تركِ الجماعةِ ، ولا ينبغي أنْ يتساهلَ فيهِ .

وقدْ كانَ الأوَّلونَ يبالغونَ فيهِ ، حتَّىٰ كانَ بعضُهمْ يحملُ الجنازةَ إلىٰ بابِ مَنْ تخلَّفَ عنِ الجماعةِ إشارةً إلىٰ أَنَّ الميتَ هوَ الذي يتأخَّرُ عنِ الجماعةِ دونَ الحيِّ .

ومَنْ دخلَ المسجدَ ينبغي أنْ يقصدَ يمينَ الصفِّ ، ولذٰلكَ تزاحمَ الناسُ عليهِ في زمنِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ قيلَ لهُ : تعطلتِ الميسرةُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عمَّرَ ميسرةَ المسجدِ . . كانَ لهُ كِفلانِ مِنَ الأجرِ »[٣]

ومهما وجدَ غلاماً في الصفِّ ولمْ يجدْ لنفسِهِ مكاناً . . فلهُ أنْ يخرجَهُ إلىٰ خلفٍ ويدخلَ فيهِ ؛ أعني : إذا لمْ يكنْ بالغاً .

فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنَ المسائلِ التي تعمُّ بها البلوىٰ ، وسيأتي أحكامُ الصلواتِ المتفرقةِ في كتابِ الأورادِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٢٢) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٤٣٥) ، ولفظه : (كان بلال يضرب أقدامنا في الصلاة ، ويسوي مناكبنا) .

(٣) رواه ابن ماجه (١٠٠٧) .

البَابُ السَّابِعُ
في النّوافِـــل مِن الصّلوات

اعلمْ : أَنَّ ما عدا الفرائضَ مِنَ الصلواتِ ينقسمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : **سننٌ** ، **ومستحبَّاتٌ** ، **وتطوعاتٌ** .

ونعني **بالسننِ** : ما نُقلَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المواظبةُ عليهِ ؛ كالرواتبِ عَقيبَ الصلواتِ ، وصلاةِ الضحىٰ ، والوترِ ، والتهجُّدِ ، وغيرِهِ ؛ لأنَّ السنَّةَ عبارةٌ عنِ الطريقةِ المسلوكةِ .

ونعني **بالمستحبَّاتِ** : ما وردَ الخبرُ بفضلِهِ ولمْ ينقلِ المواظبةُ عليهِ ؛ كما سننقلُهُ في صلواتِ الأيامِ والليالي في الأسبوعِ ، وكالصلاةِ عندَ الخروجِ مِنَ المنزلِ والدخولِ فيهِ ، وأمثالِ ذٰلكَ[1]

ونعني **بالتطوعاتِ** : ما وراءَ ذٰلكَ ؛ ممَّا لمْ يردْ في عينِهِ أثرٌ ، ولٰكنَّهُ تطوَّعَ بِهِ العبدُ مِنْ حيثُ رغبَ في مناجاةِ اللهِ تعالىٰ بالصَّلاةِ التي وردَ الشرعُ بفضلِها مطلقاً ، فكأنَّهُ متبرِّعٌ بهِ ؛ إذْ لمْ يندبْ إلىٰ تلكَ الصَّلاةِ بعينِها وإنْ ندبَ إلى الصَّلاةِ مطلقاً[2] ، والتطوُّعُ عبارةٌ عنِ التبرُّعِ .

وسمِّيتِ الأقسامُ الثلاثةُ نوافلَ مِنْ حيثُ إنَّ النفلَ هوَ الزيادةُ ، وجملتُها زائدةٌ على الفرائضِ ، فلفظُ النافلةِ والسنةِ والمستحبِّ والتطوعِ أردنا الاصطلاحَ عليهِ لتعريفِ هٰذهِ المقاصدِ ، ولا حرجَ علىٰ مَنْ يغيِّرُ هٰذا الاصطلاحَ ، فلا مشاحَّةَ في الألفاظِ بعدَ فهمِ المقاصدِ .

وكلُّ قسمٍ مِنْ هٰذهِ الأقسامِ تتفاوتُ درجاتُهُ في الفضْلِ بحسَبِ ما وردَ فيهِ مِنَ الأخبارِ والآثارِ المعرِّفةِ لفضلِهِ ، وبحسَبِ طولِ مواظبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِ ، وبحسَبِ صحَّةِ الأخبارِ الواردةِ فيهِ واشتهارِها ، ولذٰلكَ نقولُ :

سننُ الجماعاتِ أفضلُ مِنْ سننِ الانفرادِ .

وأفضلُ سننِ الجماعاتِ : صلاةُ العيدِ ، ثمَّ الكسوفِ ، ثمَّ الاستسقاءِ .

وأفضلُ سننِ الانفرادِ : الوترُ ، ثمَّ ركعتا الفجرِ ، ثمَّ ما بعدَهُما مِن الرواتبِ علىٰ تفاوتِها .

واعلمْ : أَنَّ النوافلَ باعتبارِ الإضافةِ إلىٰ متعلقاتِها تنقسمُ إلىٰ :

- ما يتعلَّقُ بأسبابٍ ؛ كالكسوفِ والاستسقاءِ .

وإلىٰ ما يتعلَّقُ بأوقاتٍ ، والمتعلِّقُ بالأوقاتِ ينقسم إلىٰ :

- ما يتكرَّرُ بتكرُّرِ اليومِ والليلةِ .
- أوْ بتكرُّرِ الأسبوعِ .
- أوْ بتكرُّرِ السنةِ .

فالجملةُ أربعةُ أقسامٍ .

* * *

(١) وكذا لو أمر به ولم يفعله ، كما صرَّح به الخوارزمي في « الكافي » ، ومثاله : الركعتان قبل المغرب . « إتحاف » (٣/٣٢٩) .

(٢) فقد روى الطبراني في « الأوسط » (٢٤٥) مرفوعاً : « الصلاة خير موضوع ، فمن استطاع أن يستكثر ، فليستكثر » .

القسم الأول : ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي
وهي ثمانية

خمسةٌ هيَ رواتبُ الصلواتِ الخمسِ ، وثلاثةٌ وراءَها وهيَ : صلاةُ الضحىٰ ، وإحياءُ ما بينَ العشاءينِ ، والتهجُّدُ مِنَ الليلِ .

الأولىٰ : راتبةُ الصبحِ : وهيَ ركعتانِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ركعتا الفجرِ خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها »[1]

ويدخلُ وقتُها بطلوعِ الفجرِ الصادقِ ، وهوَ المستطيرُ دونَ المستطيلِ[2] ، وإدراكُ ذٰلكَ بالمشاهدةِ عسيرٌ في أوَّلِهِ ، إلَّا بتعلُّمِ منازلِ القمرِ ؛ إذْ يُعلمُ اقترانُ طلوعِهِ بالكواكبِ الظاهرةِ للبصرِ ، فيُستدلُّ بالكواكبِ عليهِ ، ويعرفُ بالقمرِ في ليلتينِ مِنَ الشهرِ ، فإنَّ القمرَ يطلعُ معَ الفجرِ ليلةَ ستٍّ وعشرينَ ، ويطلعُ الصبحُ معَ غروبِ القمرِ ليلةَ اثني عشرَ مِنَ الشهرِ ، هٰذا هوَ الغالبُ[3] ، ويتطرَّقُ إليهِ تفاوتٌ في بعضِ البروجِ ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ .

وتعلُّمُ منازلِ القمرِ مِنَ المهمَّاتِ للمريدِ ؛ حتَّىٰ يطلعَ بهِ علىٰ مقاديرِ الأوقاتِ بالليلِ وعلى الصبحِ .

ويفوتُ وقتُ ركعتيِ الفجرِ بفواتِ وقتِ فريضةِ الصبحِ ، وهوَ طلوعُ الشمسِ ، ولٰكنَّ السنَّةَ أداؤُهما قبلَ الفرضِ ، فإنْ دخلَ المسجدَ وقدْ قامتِ الصلاةُ . . فليشتغلْ بالمكتوبةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أقيمتِ الصلاةُ . . فلا صلاةَ إلا المكتوبةُ »[4]

ثمَّ إذا فرغَ مِنَ المكتوبةِ . . قامَ إليهما وصلَّاهُما .

والصحيحُ : أنَّهما تكونانِ أداءً ما وقعتا قبلَ طلوعِ الشمسِ ؛ لأنَّهما تابعتانِ للفرضِ في وقتِهِ ، وإنَّما الترتيبُ بينَهُما سنَّةٌ في التقديمِ والتأخيرِ إذا لمْ يصادفْ جماعةً ، فإذا صادفَها . . انقلبَ الترتيبُ وبقيتا أداءً .

والمستحبُّ أنْ يصليَهُما في المنزلِ ويخففَهُما ، ثمَّ يدخلُ المسجدَ ويصلِّي ركعتي التحيةِ ، ثمَّ يجلسُ ولا يصلِّي إلىٰ أنْ يصلِّيَ المكتوبةَ ، فما بينَ الصبحِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ الأحبُّ فيهِ الذكرُ والفكْرُ ، والاقتصارُ علىٰ ركعتيِ الفجرِ والفريضةِ[5]

❀ ❀ ❀

الثانيةُ : راتبةُ الظهرِ : وهيَ ستُّ ركعاتٍ : ركعتانِ بعدَها وهي سنَّةٌ مؤكَّدةٌ ، وأربعٌ قبلَها وهيَ أيضاً سنَّةٌ وإنْ كانتْ دونَ الركعتينِ الأخيرتينِ .

---

(١) رواه مسلم (٧٢٥) .

(٢) **فالمستطير** : هو الذي يطلع عرضاً منتشراً ، سمي صادقاً لأنه صدق عن الصبح وبينه ، **والمستطيل** : هو الفجر الكاذب الذي يظهر طولاً كذنب السرحان ثم يغيب . « إتحاف » (٣٣١/٣) .

(٣) وثمة تفصيل ذكره صاحب « القوت » (٢٢/١) .

(٤) رواه مسلم (٧١٠) .

(٥) وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ فيهما بـ (قل يا أيها الكافرون) و(قل هو الله أحد) كما في « مسلم » (٧٢٦) وغيره .

رویٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ أربعَ ركعاتٍ بعدَ زوالِ الشمسِ ، يحسنُ قراءتَهُنَّ وركوعَهُنَّ وسجودَهُنَّ . . صلَّىٰ معهُ سبعونَ ألفَ ملكٍ يستغفرونَ لهُ حتَّى الليلِ »[1]

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يدعُ أربعاً بعدَ الزوالِ ، يطيلُهُنَّ ويقولُ : « إنَّ أبوابَ السماءِ تفتحُ في هٰذهِ الساعةِ ، فأحبُّ أنْ يُرفعَ لي فيها عملٌ » رواهُ أبو أيوبَ الأنصاريُّ وتفرَّدَ بهِ[2]

ودلَّ عليهِ أيضاً ما روتْ أمُّ حبيبةَ زوجُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ في يومٍ اثنتي عشرَةَ ركعةً غيرَ المكتوبةِ . . بنى اللهُ لهُ بيتاً في الجنَّةِ : ركعتينِ قبلَ الفجرِ ، وأربعاً قبلَ الظهرِ ، وركعتينِ بعدَها ، وركعتينِ قبلَ العصرِ ، وركعتينِ بعدَ المغربِ »[3]

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (حفظتُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ يومٍ عشرَ ركعاتٍ) ، فذكرَ ما ذكرتْهُ أمُّ حبيبةَ رضيَ اللهُ عنها إلا ركعتيِ الفجرِ ، فإنَّهُ قالَ : (تلكَ ساعةٌ لمْ يكنْ يُدخلُ فيها علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولٰكنْ حدثتني أختي حفصةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي ركعتينِ في بيتِها ثمَّ يخرجُ) ، وقالَ في حديثِهِ : (ركعتينِ قبلَ الظهرِ ، وركعتينِ بعدَ العشاءِ)[4] ، فصارَ الركعتانِ قبلَ الظهرِ آكدَ مِنْ جملةِ الأربعةِ .

ويدخلُ وقتُ ذٰلكَ بالزوالِ ، والزوالُ يعرفُ بزيادةِ ظلِّ الأشخاصِ المنتصبةِ مائلاً إلىٰ جهةِ المشرقِ ، إذْ يقعُ للشخصِ ظلٌّ عندَ الطلوعِ في جانبِ المغربِ يستطيلُ ، فلا تزالُ الشمسُ ترتفعُ والظلُّ ينقصُ وينحرفُ عنْ جهةِ المغربِ إلىٰ أنْ تبلغَ الشمسُ منتهى ارتفاعِها ، وهوَ قوسُ نصفِ النهارِ ، فيكونُ ذٰلكَ منتهىٰ نقصانِ الظلِّ ، فإذا زالتِ الشمسُ عنْ منتهى الارتفاعِ . . أخذَ الظلُّ في الزيادةِ ، فمِنْ حيثُ صارتِ الزيادةُ مدركةً بالحسِّ . . دخلَ وقتُ الظهرِ ، ويعلمُ قطعاً أنَّ الزوالَ في علمِ اللهِ تعالىٰ وقعَ قبلَهُ ، ولٰكنَّ التكاليفَ لا ترتبطُ إلا بما يدخلُ تحتَ الحسِّ .

والقدْرُ الباقي مِنَ الظلِّ الذي منهُ يأخذُ في الزيادةِ يطولُ في الشتاءِ ويقصرُ في الصيفِ ، ومنتهىٰ طولِهِ بلوغُ الشمسِ أوَّلَ الجدْيِ[5] ، ومنتهىٰ قصرِهِ بلوغُها أوَّلَ السرطانِ[6]

ويعرفُ ذٰلكَ بالأقدامِ والموازينِ[7]

ومِنَ الطرقِ القريبةِ مِنَ التحقيقِ لمنْ أحسنَ مراعاتَهُ : أنْ يلاحظَ القطبَ الشماليَّ بالليلِ ، ويضعَ على الأرضِ لوحاً مربَّعاً وضعاً مستوياً ، بحيثُ يكونُ أحدُ أضلاعِهِ مِنْ جانبِ القطبِ ، بحيثُ لوْ توهمتَ سقوطَ حجرٍ مِنَ القطبِ

---

(١) في « القوت » (١/٢٧) : (عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : . . .) وذكره ، وقال الحافظ العراقي : (ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغاً من حديث ابن مسعود ، ولم أره من حديث أبي هريرة) . « إتحاف » (٣/٣٣٦) وقد ذكره المصنف في « بداية الهداية » (ص ١١٩) .

(٢) رواه الترمذي (٤٧٨) عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، وقال : (وفي الباب عن علي وأبي أيوب) ، وهو عن أبي أيوب عند أحمد في « مسنده » (٥/٤١٦) .

(٣) رواه النسائي (٣/٢٦٢) بتأخير ركعتي الفجر ، وأصله عند مسلم (٧٢٨) .

(٤) حديث ابن عمر رضي الله عنهما بجملِهِ رواه البخاري (١١٨٠ ، ١١٨١) .

(٥) وهو ثامن البروج ، يبدأ في (١٦) كانون الأول الرومي . انظر « الإتحاف » (٣/٣٤١) .

(٦) وهو رابع البروج ، يبدأ من بعد انتصاف (١٧) حزيران الرومي . « إتحاف » (٣/٣٤١) .

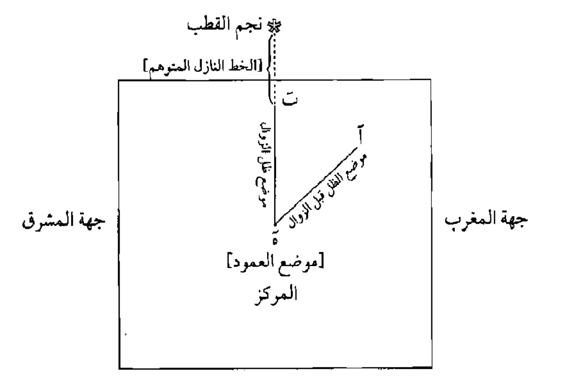
(٧) أفاض في شرح ذٰلك الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/٣٤١ ـ ٣٤٤) .

إلى الأرضِ ثمَّ توهمْتَ خطّاً مِنْ مسقَطِ الحجرِ إلى الضلعِ الذي يليهِ مِنَ اللوحِ . . لقامَ الخطُّ على الضلعِ على زاويتينِ قائمتينِ ؛ أيْ : لا يكونُ الخطُّ مائلاً إلىٰ أحدِ الضلعينِ ، ثمَّ تنصبُ عموداً على اللوحِ نصباً مستوياً في موضعِ علامةِ (ہ) وهوَ بإزاءِ القطبِ ، فيقعُ ظلُّهُ على اللوحِ في أوَّلِ النهارِ مائلاً إلىٰ جهةِ المغربِ في صوبِ خطِّ (آ) ، ثمَّ لا يزالُ يميلُ إلىٰ أنْ ينطبقَ علىٰ خطِ (بـَ) بحيثُ لوْ مدَّ رأسُهُ . . لانتهىٰ على الاستقامةِ إلىٰ مسقطِ الحجرِ ، ويكونُ موازياً للضلعِ الشرقيِّ والغربيِّ غيرَ مائلٍ إلىٰ أحدِهما ، فإذا بطلَ ميلُهُ إلى الجانبِ الغربيِّ . . فالشمسُ في منتهى الارتفاعِ ، فإذا انحرفَ الظلُّ عنِ الخطِّ الذي على اللوحِ إلىٰ جانبِ الشرقِ . . فقدْ زالتِ الشمسُ .

وهٰذا يدركُ بالحسِّ تحقيقاً في وقتٍ هوَ قريبٌ مِنْ أوَّلِ الزوالِ في علمِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ يُعْلِمُ علىٰ رأسِ الظلِّ عندَ انحرافِهِ علامةً ، فإذا صارَ الظلُّ مِن تلكَ العلامةِ مثلَ العمودِ القائِمِ . . دخلَ وقتُ العصرِ .

فهٰذا القدْرُ لا بأسَ بمعرفتِهِ في علمِ الزوالِ .

وهٰذِهِ صورتُهُ[1] :



❁ ❁ ❁

الثالثةُ : راتبةُ العصرِ : وهيَ أربعُ ركعاتٍ قبلَ العصرِ ، روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « رحمَ اللهُ عبداً صلَّى أربعاً قبلَ العصرِ »[2] .

ففعلُ ذٰلكَ علىٰ رجاءِ الدخولِ في دعوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . مستحبٌّ استحباباً مؤكَّداً ؛ فإنَّ دعوتَهُ مستجابةٌ لا محالةَ .

ولمْ تكنْ مواظبتُهُ على السنَّةِ قبلَ العصرِ كمواظبتِهِ علىٰ ركعتينِ قبلَ الظهرِ .

❁ ❁ ❁

الرابعةُ : راتبةُ المغربِ : وهما ركعتانِ بعدَ الفريضةِ ، لمْ تختلفِ الروايةُ فيهما .

وأمَّا ركعتانِ قبلَها بينَ أذانِ المؤذِّنِ وإقامتِهِ علىٰ سبيلِ المبادرةِ . . فقدْ نُقِلَ عنْ جماعةٍ مِنَ الصحابةِ ؛ كأبيِّ بنِ

---

(١) هٰذه الصورة أثبتت من (أ) وهي أوضح الصور وأقربها لشرح المصنف .

(٢) رواه أبو داوود (١٢٧١) ، والترمذي (٤٣٠) عن ابن عمر لا عن أبي هريرة رضي الله عنهم .

كعبٍ ، وعبادةَ بنِ الصامتِ ، وأبي ذرٍّ ، وزيدِ بنِ ثابتٍ وغيرِهِمْ[١] ، قالَ عبادةُ أوْ أنسٌ : (كانَ المؤذِّنُ إذا أذَّنَ لصلاةِ المغربِ . . ابتدرَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ السواريَ يصلُّونَ ركعتينِ)[٢]

وقالَ بعضُهُمْ : (كنَّا نصلِّي الركعتينِ قبلَ المغربِ حتَّىٰ يدخلَ الداخلُ فيحسَبُ أنَّا صلَّينا ، فيسألُ : أصليتُمُ المغربَ ؟)[٣]

وذٰلكَ يدخلُ في عمومِ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَ كلِّ أذانينِ صلاةٌ لِمَنْ شاءَ »[٤]

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يصلِّيهِما ، فعابَهُ الناسُ فتركَهما ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : (لمْ أرَ الناسَ يصلونَهُما فتركتُهُما) ، وقالَ : إنْ صلاهُما الرجلُ في بيتِهِ أوْ حيثُ لا يراهُ الناسُ . . فحسنٌ)[٥]

ويدخلُ وقتُ المغربِ بغيبوبةِ الشمسِ عنِ الأبصارِ في الأراضي المستويةِ التي ليستْ محفوفةً بالجبالِ ، فإنْ كانتْ محفوفةً بها في جهةِ المغربِ . . فيتوقَّفُ إلىٰ أنْ يرىٰ إقبالَ السوادِ مِنْ جانبِ المشرقِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أقبلَ الليلُ مِنْ ها هنا ، وأدبرَ النهارُ مِنْ ها هنا . . فقدْ أفطرَ الصائمُ »[٦]

والأحبُّ المبادرةُ في صلاةِ المغربِ خاصَّةً ، وإنْ أُخِرتْ وصُلِّيتْ قبلَ غيبوبةِ الشفقِ الأحمرِ . . وقعتْ أداءً ، ولٰكنَّهُ مكروهٌ .

وأخَّرَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ صلاةَ المغربِ ليلةً حتَّىٰ طلعَ نجمٌ ، فأعتقَ رقبةً ، وأخَّرَ ابنُ عمرَ حتَّىٰ طلعَ كوكبانِ ، فأعتقَ رقبتينِ[٧]

❁ ❁ ❁

الخامسةُ : راتبةُ العشاءِ الآخرةِ : وهيَ أربعُ ركعاتٍ بعدَ الفريضةِ ، قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يصلِّي بعدَ العشاءِ الآخرةِ أربعَ ركعاتٍ ثمَّ ينامُ)[٨]

واختارَ بعضُ العلماءِ مِنْ مجموعِ الأخبارِ أنْ يكونَ عددُ الرواتبِ سبعَ عشرةَ ركعةً كعددِ المكتوبةِ : ركعتانِ قبلَ الصبحِ ، وأربعٌ قبلَ الظهرِ ، وركعتانِ بعدَها ، وأربعٌ قبلَ العصرِ ، وركعتانِ بعدَ المغربِ ، وثلاثٌ بعدَ العشاءِ الآخرةِ هيَ الوترُ .

ومهما عرفتَ الأحاديثَ الواردةَ فيهِ . . فلا معنىٰ للتقديرِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلاةُ خيرُ موضوعٍ ، فمنْ شاءَ . . أكثرَ ، ومَنْ شاءَ . . أقلَّ »[٩]

---

(١) فعند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٤٥٦) عن زرّ قال : (رأيت عبد الرحمٰن بن عوف وأبيّ بن كعب إذا أذن المؤذن المغربَ . . قاما فصليا ركعتين) ، وورد فعلها عنده (٧٤٥٧ ، ٧٤٦٤) عن أنس وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما .

(٢) هو عن أنس كما في « البخاري » (٦٢٥) ، و« مسلم » (٨٣٧) .

(٣) هو تتمة حديث مسلم (٨٣٧) السابق .

(٤) رواه البخاري (٦٢٤) ، ومسلم (٨٣٨) .

(٥) قوت القلوب (١٤٧/٢) .

(٦) رواه البخاري (١٩٥٤) ، ومسلم (١١٠١) .

(٧) قوت القلوب (٢٦/١) .

(٨) رواه أبو داوود (١٣٠٣) بنحوه .

(٩) رواه أحمد في « المسند » (١٧٨/٥) .

فإذاً ؛ اختيارُ كلِّ مريدٍ مِنْ هـٰذهِ الصلواتِ بقدْرِ رغبتِهِ في الخيرِ ، وقدْ ظهرَ فيما ذكرناهُ أنَّ بعضَها آكدُ مِنْ بعضٍ ، وتركُ الآكدِ أبعدُ ، لا سيما والفرائضُ تكملُ بالنوافلِ ، فمنْ لمْ يستكثرْ منها . . يوشكُ ألا تسلمَ لهُ فرائضُهُ مِنْ غيرِ جابرٍ .

❁ ❁ ❁

السادسةُ : الوترُ : قالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوترُ بعدَ العشاءِ بثلاثِ ركعاتٍ ، يقرأُ في الأولىٰ : (سبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلىٰ) ، وفي الثانيةِ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وفي الثالثةِ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) [١]

وجاءَ في خبرٍ آخرَ : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي بعدَ الوترِ جالساً ركعتينِ) [٢] ، وفي بعضِها : (متربعاً) [٣]

وفي بعضِ الأخبارِ : (إذا أرادَ أنْ يدخلَ فراشَهُ . . زحفَ إليهِ وصلَّىٰ فوقَهُ ركعتينِ قبلَ أنْ يرقدَ ، يقرأُ فيهما : (إذا زلزلتِ الأرضُ) وسورةَ : (ألهاكُمُ التكاثرُ) ، وفي روايةٍ أخرىٰ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) [٤]

ويجوزُ الوترُ مفصولاً وموصولاً بتسليمةٍ واحدةٍ وتسليمتينِ [٥]

وقدْ أوترَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بركعةٍ ، وثلاثٍ ، وخمسٍ ، وهـٰكذا بالأوتارِ إلىٰ إحدىٰ عشرةَ ، والروايةُ مترددةٌ في ثلاثَ عشرةَ ، وفي حديثٍ شاذٍّ : سبعَ عشرةَ ركعةً [٦]

وكانتْ هـٰذهِ الركعاتُ ـ أعني : ما سمينا جملتَها وتراً ـ صلاتَهُ بالليلِ ، وهوَ التهجُّدُ .

والتهجُّدُ بالليلِ سنةٌ مؤكدةٌ ، وسيأتي فضلُها في كتابِ الأورادِ .

وفي الأفضلِ خلافٌ : فقيلَ : إنَّ الإيتارَ بركعةٍ فردةٍ أفضلُ ؛ إذْ صحَّ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يواظبُ على الإيتارِ بركعةٍ فردةٍ .

وقيلَ : الموصولُ أفضلُ ؛ للخروجِ مِنْ شبهةِ الخلافِ ، لا سيما للإمامِ ؛ إذْ قدْ يقتدي بهِ مَنْ لا يرى الركعةَ الفردةَ صلاةً [٧]

فإنْ صلَّىٰ موصولاً . . نوىٰ بالجميعِ الوترَ ، وإنِ اقتصرَ علىٰ ركعةٍ واحدةٍ بعدَ ركعتي العشاءِ ، أوْ بعدَ فرضِ العشاءِ . . نوى الوترَ وصحَّ ؛ لأنَّ شرطَ الوترِ أنْ يكونَ في نفسِهِ وتراً ، وأنْ يكونَ مُوتِراً لغيرِهِ ممَّا سبقَ قبلَهُ ، وقدْ أوترَ الفرضَ .

---

(١) رواه عن أنس ابنُ عدي في « الكامل » (٦/١٣٣) ، وهو عن غيره عند أبي داوود (١٤٢٣) ، والترمذي (٤٦٠) ، والنسائي (٣/٢٣٥) ، وابن ماجه (١١٧١) .

(٢) رواه أبو داوود (١٣٤٠) ، والترمذي (٤٧١) ، وابن ماجه (١١٩٥)

(٣) صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم متربعاً رواها النسائي (٣/٢٢٤) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/١٤٧) ، وورد قراءة السور الثلاث المذكورة معاً في الوتر عند أحمد في « المسند » (١/٨٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/٣٣) ، ولم يذكرا الزحف إلى الفراش .

(٥) بتسليمة موصولاً ، وبتسليمتين مفصولاً . « إتحاف » (٣/٣٥٦) .

(٦) فالإيتار بركعة عند البخاري (٩٩٥) ، ومسلم (٧٤٩) ، وبثلاث قد سبق ، وبخمس عند مسلم (٧٣٧) ، وبسبع عند مسلم (٧٤٦) ، وبتسع عند مسلم (٧٣٨) ، والنسائي (٣/٢٤٠) ، وبإحدىٰ عشرة عند النسائي (٣/٢٤٣) ، وبثلاث عشرة عند مسلم (٧٦٥) ، والنسائي (٣/٢٣٧) ، وبسبع عشرة عند ابن المبارك في « الزهد » (١٢٧٣) . والحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/٣٥٨) قد قام بتفنيد الروايات ، فلما وصل إلىٰ رواية التردد . . قال : (تبع المصنف فيه ـ أي : التردد ـ شيخه إمام الحرمين ؛ حيث حكىٰ تردداً في ثبوت النقل في الإيتار بثلاث عشرة) ، ثم ذكر وجه التردد الوارد في الروايات والكلام فيه .

(٧) أي : لا يرىٰ سنيتها . « إتحاف » (٣/٣٦٠) .

ولوْ أوترَ قبلَ العشاءِ . . لم يصحَّ ؛ أي : لا ينالُ فضيلةَ الوترِ الذي هوَ خيرٌ لهُ مِن حُمْرِ النَّعَمِ كما وردَ بهِ الخبرُ[1] ، وإلَّا . . فركعةٌ فردةٌ صحيحةٌ في أيِّ وقتٍ كانَ[2] ، وإنَّما لمْ يصحَّ قبلَ العشاءِ لأنَّهُ خرقُ إجماعِ الخلقِ في الفعلِ ، ولأنَّهُ لمْ يتقدَّمْ لهُ ما يصيرُ بهِ وتراً .

فأمَّا إذا أرادَ أنْ يوترَ بثلاثٍ مفصولةٍ . . ففي نيَّتِهِ في الركعتينِ نظرٌ ، فإنَّهُ إنْ نوىٰ بهِ التهجُّدَ أوْ سنةَ العشاءِ . . لمْ يكنْ هوَ مِنَ الوترِ ، وإنْ نوى الوترَ . . لمْ يكنْ هوَ في نفسِهِ وتراً ، وإنَّما الوترُ ما بعدَهُ ، ولـٰكنِ الأظهرُ أنَّهُ ينوي الوترَ كما ينوي في الثلاثِ الموصولةِ الوترَ ، ولـٰكنْ للوترِ معنيانِ :

أحدُهما : أنْ يكونَ في نفسهِ وتراً .

والآخرُ : أنْ ينشأَ ليجعلَ وتراً بما بعدَهُ ، فيكونُ مجموعُ الثلاثةِ وتراً والركعتانِ مِنْ جملةِ الثلاثِ ، إلا أنَّ وتريتَهُ موقوفةٌ على الركعةِ الثالثةِ ، وإذا كانَ هوَ علىٰ عزْمِ أنْ يوترَهُما بثالثةٍ . . كانَ لهُ أنْ ينويَ بهما الوترَ .

فالركعةُ الثالثةُ وترٌ في نفسِها ومُوتِرَةٌ لغيرِها ، والركعتانِ لا يُوتِرانِ غيرَهما ، وليستا وتراً بأنفسِهِما ، ولـٰكنَّهُما مُوتَرَتانِ بغيرِهِما .

والوترُ ينبغي أنْ يكونَ آخرَ صلاةِ الليلِ ، فيقعُ بعدَ التهجُّدِ ، وسيأتي فضائلُ الوترِ والتهجُّدِ وكيفيةُ الترتيبِ بينَهُما في كتابِ ترتيبِ الأورادِ .

❁ ❁ ❁

السابعةُ : **صلاةُ الضحىٰ** : فالمواظبةُ عليها مِنْ عزائمِ الأفعالِ وفواضلِها ، أمَّا عددُ ركعاتِها . . فأكثرُ ما نُقلَ فيهِ ثماني ركعاتٍ .

روتْ أمُّ هانئٍ أختُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّى الضحىٰ ثمانيَ ركعاتٍ أطالهنَّ وحسَّنَهُنَّ) ، ولم ينقلْ هـٰذا العددَ غيرُها[3]

فأمَّا عائشةُ رضيَ اللهُ عنها . . فإنَّها ذكرتْ : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي الضحىٰ أربعاً ويزيدُ ما شاءَ اللهُ)[4] ، فلمْ تحدَّ الزيادةَ ، إلا أنَّهُ كانَ يواظبُ على الأربعِ ولا ينقصُ منها ، وقدْ يزيدُ زياداتٍ .

وقدْ رُويَ في حديثٍ مفردٍ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي الضحىٰ ستَّ ركعاتٍ[5]

وأمَّا وقتُها : فقدْ روىٰ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي الضحىٰ ستاً في وقتينِ : إذا أشرقتِ الشمسُ وارتفعتْ . . قامَ وصلَّىٰ ركعتينِ ـ وهوَ أوَّلُ الوردِ الثاني من أورادِ النهارِ كما سيأتي ـ ، وإذا انبسطتِ الشمسُ وكانتْ في ربعِ السماءِ مِنْ جانبِ الشرقِ . . صلَّىٰ أربعاً)[6]

---

(١) رواه أبو داوود (١٤١٨) ، والترمذي (٤٥٢) ، وابن ماجه (١١٦٨) .

(٢) فالتطوع بركعة واحدة جائز عند الشافعية ، فانقلبت هـٰذه الركعة إلىٰ تطوع محض .

(٣) رواه البخاري (١١٠٣) ، ومسلم (٣٢٦) بغير زيادة : (أطالهن وحسنهن) ، بل المذكور أنهن خفاف إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان يتم الركوع والسجود ، وذكر الطول عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٩٠٠) .

(٤) رواه مسلم (٧١٩)

(٥) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٨٩) .

(٦) رواه الترمذي (٥٩٨) ، والنسائي (٢/١٢٠) ، وابن ماجه (١١٦١) .

فالأوَّلُ : إنَّما يكونُ إذا ارتفعتِ الشمسُ قيدَ نصفِ رمحٍ .

والثاني : إذا مضىٰ مِنَ النهارِ ربعُهُ بإزاءِ صلاةِ العصرِ ، فإنَّ وقتَهُ أنْ يبقىٰ مِنَ النهارِ ربعُهُ [1] ، والظهرُ علىٰ منتصفِ النهارِ ، ويكونُ الضحىٰ علىٰ منتصفِ ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ ، كما أنَّ العصرَ علىٰ منتصفِ ما بينَ الزوالِ إلى الغروبِ [2] .

هـٰذا أفضلُ الأوقاتِ ، ومِنْ وقتِ ارتفاعِ الشمسِ إلىٰ ما قبلَ الزوالِ وقتٌ للضحىٰ على الجملةِ .

❀ ❀ ❀

الثامنةُ : إحياءُ ما بينَ العشاءينِ : وهيَ سنةٌ مؤكدةٌ ، وممَّا نقلَ عددُهُ مِنْ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ العشاءينِ ستُّ ركعاتٍ [3] .

ولهـٰذهِ الصلاةِ فضلٌ عظيمٌ ، وقيلَ : إنَّها المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [4] .

وقدْ رُويَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ ما بينَ المغربِ والعشاءِ . . فإنَّها مِنْ صلاةِ الأوابينَ » [5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عكفَ نفسَهُ ما بينَ المغربِ والعشاءِ في مسجدِ جماعةٍ لمْ يتكلَّمْ إلا بصلاةٍ أوْ قرآنٍ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يبنيَ لهُ قصرينِ في الجنةِ ، مسيرةُ كلِّ قصرٍ منهما مئةُ عامٍ ، ويغرسَ لهُ بينَهُما غراساً ، لوْ طافهُ أهلُ الدنيا . . لوسعَهُمْ » [6] .

وسيأتي بقيَّةُ فضائلِها في كتابِ الأورادِ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

---

(١) أي : وقت صلاة العصر أن يبقىٰ من النهار ربعه ، وبهـٰذا لا يخلو ربع عن صلاة .

(٢) انظر « بداية الهداية » (ص ١٠٧) ، وسيأتي مزيد تفصيل للمصنف .

(٣) روى الترمذي (٤٣٥) ، وابن ماجه (١١٦٧) مرفوعاً : « من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء . . عدلنَ له بعبادة ثنتي عشرة سنةً » .

(٤) رواه أبو داوود (١٣٢١) ، والترمذي (٣١٩٦) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٥٩) عن ابن المنكدر مرسلاً .

(٦) رواه ابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (٧٥) .

القسم الثاني : ما يتكرر بتكرر الأسابيع وهي صلوات أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أمَّا الأيامُ . . فنبدأُ فيها بيومِ الأحدِ[١] :

يومُ الأحدِ

رَوىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الأحدِ أربعَ ركعاتٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) ، و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ مرةً . . كتبَ اللهُ لهُ بعددِ كلِّ نصرانيٍّ ونصرانيَّةٍ حسناتٍ ، وأعطاهُ اللهُ ثوابَ نبيٍّ ، وكتبَ لهُ حجةً وعمرةً ، وكتبَ لهُ بكلِّ ركعةٍ ألفَ صلاةٍ ، وأعطاهُ اللهُ في الجنةِ بكلِّ حرفٍ مدينةً مِنْ مسكٍ أذفَرَ »[٢]

ورُوِيَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « وحِّدُوا اللهَ بكثرةِ الصلاةِ يومَ الأحدِ ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ أَحدٌ لا شريكَ لهُ ، فمنْ صلَّىٰ يومَ الأحدِ بعدَ صلاةِ الظهرِ أربعَ ركعاتٍ بعدَ الفريضةِ والسنةِ ، يقرأُ في الركعةِ الأولىٰ (فاتحةَ الكتابِ) ، و(تنزيلَ السجدةِ) ، وفي الثانيةِ (فاتحةَ الكتابِ) و(تباركَ الملكُ) ، ثمَّ تشهَّدَ وسلَّمَ ، ثمَّ قامَ فصلَّىٰ ركعتينِ أُخريينِ ، يقرأُ فيهما (فاتحةَ الكتابِ) وسورةَ (الجمعةِ) ، وسألَ اللهَ تعالىٰ حاجتَهُ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يقضيَ حاجتَهُ »[٣]

يومُ الاثنينِ

رَوىٰ جابرٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الاثنينِ ، عندَ ارتفاعِ النهارِ ركعتينِ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) مرةً ، وآيةَ الكرسيِّ مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، و(المعوِّذتينِ) مرةً مرةً ، فإذا سلَّمَ استغفرَ اللهَ عشرَ مراتٍ ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عشرَ مراتٍ . . غفرَ اللهُ تعالىٰ لهُ ذنوبَهُ كلَّها »[٤]

ورَوىٰ أنسُ بنُ مالكٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الاثنينِ اثنتي عشرةَ ركعةً ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) وآيةَ الكرسيِّ مرةً ، فإذا فرغَ قرأ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) اثنتي عشرةَ مرةً ، واستغفرَ اللهَ اثنتي عشرةَ مرةً . . يُنادىٰ بهِ يومَ القيامةِ : أينَ فلانُ بنُ فلانٍ ؟ ليقمْ فليأخذْ ثوابَهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فأوَّلُ ما يُعطىٰ مِنَ الثوابِ

---

(١) وهو أول الأسبوع ، منقول من أحد ، وأصله : (وحد) ، أبدلت الواو همزة . « إتحاف » (٣٧٢/٣) . أما بشأن الآثار المروية في هـٰذا القسم . . فالمصنف فيها تابع لصاحب « القوت » ومعول عليه .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني في كتاب « وظائف الليالي والأيام » من حديث أبي هريرة بسند ضعيف) ، ثم أورد الحافظ الزبيدي طريق ابن الجوزي والسيوطي للحديث ، وقال : (الحكم علىٰ هـٰذا الحديث بالوضع ليس بسديد ، وغاية ما يقال : إنه ضعيف) ، وقال : (فالقول ما قاله الحافظ العراقي : إن سنده ضعيف ، لا قول ابن الجوزي : إنه موضوع ، وشتان بين الموضوع والضعيف ، فافهم) . « إتحاف » (٣٧٣/٣) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد) . « إتحاف » (٣٧٣/٣) ، وهو والذي قبله عند صاحب « القوت » (٢٧/١) ، وزاد في الثاني : « ويبرّئه مما كانت النصارىٰ عليه » .

(٤) قال صاحب « القوت » (٢٧/١) : (روينا عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) فذكره ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعاً ، وهو حديث منكر) ، وانظر « الإتحاف » (٣٧٤/٣) إذْ رأىٰ ضعفه .

ألفُ حُلَّةٍ ، ويتوَّجُ ويقالُ لهُ : ادخلِ الجنةَ ، فيستقبلُهُ مئةُ ألفِ ملكٍ ، معَ كلِّ ملكٍ هديةٌ يشيعونَهُ حتَّىٰ يدورَ علىٰ ألفِ قصرٍ مِنْ نورٍ يتلألأُ »(١)

يومُ الثَّلاثاءِ

رَوىٰ يزيدُ الرَّقاشيُّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منْ صلَّىٰ يومَ الثلاثاءِ عشرَ ركعاتٍ عندَ انتصافِ النهارِ ـ وفي حديثٍ آخرَ : عندَ ارتفاعِ النهارِ ـ يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) وآيةَ الكرسيِّ مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ثلاثَ مراتٍ . . لمْ تُكتبْ عليهِ خطيئةٌ إلىٰ سبعينَ يوماً ، فإنْ ماتَ إلىٰ سبعينَ يوماً . . ماتَ شهيداً ، وغُفِرَ لهُ ذنوبُ سبعينَ سنةً »(٢)

يومُ الأربعاءِ

روىٰ أبو إدريسَ الخولانيُّ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الأربعاءِ اثنتي عشرةَ ركعةً عندَ ارتفاعِ النهارِ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) وآيةَ الكرسيِّ مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ثلاثَ مراتٍ ، و(المعوذتينِ) ثلاثَ مراتٍ . . نادىٰ بهِ ملكٌ عندَ العرشِ : يا عبدَ اللهِ ؛ استأنفِ العملَ ، فقدْ غُفرَ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ ، ودفعَ اللهُ عنهُ عذابَ القبرِ وضيقَهُ وظلمتَهُ ، ودفعَ عنهُ شدائدَ القيامةِ ، ورفعَ لهُ مِنْ يومِهِ عملَ نبيٍّ »(٣) .

يومُ الخميسِ

عنْ عكرمةَ ، عنِ ابنِ عباسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الخميسِ بينَ الظهرِ والعصرِ ركعتينِ ، يقرأُ في الأولىٰ (فاتحةَ الكتابِ) مرةً ، وآيةَ الكرسيِّ مئةَ مرةٍ ، وفي الثانيةِ (فاتحةَ الكتابِ) مرةً و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) مئةَ مرةٍ ، ويصلِّي علىٰ محمدٍ مئةَ مرةٍ . . أعطاهُ اللهُ ثوابَ مَنْ صامَ رجبَ وشعبانَ ورمضانَ ، وكانَ لهُ مِنَ الثوابِ مثلُ حاجِّ البيتِ ، وكُتِبَ لهُ بعددِ كلِّ مَنْ آمنَ باللهِ سبحانَهُ وتوكَّلَ عليهِ حسنةٌ »(٤)

يومُ الجمعةِ

رُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يومُ الجمعةِ صلاةٌ كلُّهُ ، مَا مِنْ عبدٍ مؤمنٍ قامَ إذا استقلَّتِ الشمسُ وارتفعتْ قيدَ رمحٍ أوْ أكثرَ مِنْ ذٰلكَ ، فتوضَّأَ ثمَّ أسبغَ الوضوءَ ، فصلَّىٰ تسبيحةَ الضحىٰ ركعتينِ إيماناً واحتساباً . . إلا كتبَ اللهُ لهُ مئتي حسنةٍ ، ومحا عنهُ مئتي سيئةٍ ، ومَنْ صلَّىٰ أربعَ ركعاتٍ . . رفعَ اللهُ سبحانَهُ لهُ في الجنةِ أربعَ مئةِ درجةٍ ، ومَنْ صلَّىٰ ثمانَ ركعاتٍ . . رفعَ اللهُ تعالىٰ لهُ في الجنةِ ثمانَ مئةِ درجةٍ ، وغفرَ لهُ ذنوبَهُ كلَّها ، ومَنْ صلَّى اثنتي عشرةَ ركعةً . . كتبَ اللهُ لهُ ألفاً ومئتي حسنةٍ ، ومحا عنهُ ألفاً ومئتي سيئةٍ ، ورفعَ لهُ في الجنةِ ألفاً ومئتي درجةٍ »(٥)

---

(١) كذا ذكره صاحب « القوت » (٢٧/١) عن ثابت البناني عن أنس مرفوعاً ، وقال الحافظ العراقي : (ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد ، وهو منكر) . « إتحاف » (٣٧٥/٣) .

(٢) قوت القلوب (٢٧/١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني بسند ضعيف ، ولم يقل : عند انتصاف النهار ، ولا عند ارتفاعه) .

(٣) قوت القلوب (٢٧/١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني وقال : رواته ثقات ، والحديث مركب ، قلت : بل فيه ابن حميد غير مسمىً ، وهو محمد بن الرازي أحد الكذابين) . « إتحاف » (٣٧٦/٣) .

(٤) قوت القلوب (٢٨/١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني بسند ضعيف) . « إتحاف » (٣٧٦/٣) .

(٥) هو في « القوت » (٢٨/١) حيث قال : (روينا عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن أبيه ، عن جده قال :

وعنْ نافعٍ ، عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ دخلَ الجامعَ يومَ الجمعةِ ، فصلَّىٰ أربعَ ركعاتٍ قبلَ صلاةِ الجمعةِ ، قرأَ في كلِّ ركعةٍ (الحمدُ) مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسينَ مرةً . . لمْ يمتْ حتَّىٰ يرىٰ مقعدَهُ مِنَ الجنةِ أوْ يُرىٰ لهُ »[1]

يومُ السبتِ

رَوىٰ أبو هريرةَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ السبتِ أربعَ ركعاتٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) مرةً ، و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ثلاثَ مراتٍ ، فإذا فرغَ قرأَ آيةَ الكرسيِّ . . كتبَ اللهُ لهُ بكلِّ حرفٍ حجةً وعمرةً ، ورفعَ لهُ بكلِّ حرفٍ أجرَ سنةٍ صيامَ نهارِها وقيامَ ليلِها ، وأعطاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بكلِّ حرفٍ ثوابَ شهيدٍ ، وكانَ تحتَ ظلِّ عرشِ اللهِ معَ النبيينَ والشهداءِ »[2]

❀ ❀ ❀

وأمَّا الليالي :

ليلةُ الأحدِ

رَوىٰ أنسُ بنُ مالكٍ في ليلةِ الأحدِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الأحدِ عشرينَ ركعةً ، قرأَ في كلِّ ركعةٍ (الحمدُ للهِ) مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسينَ مرةً ، و(المعوِّذتينِ) مرةً مرةً ، واستغفرَ اللهَ عزَّ وجلَّ مئةَ مرةٍ ، واستغفرَ لنفسِهِ ولوالديهِ مئةَ مرةٍ ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مئةَ مرةٍ ، وتبرَّأَ مِنْ حولِهِ وقوتِهِ ، والتجأَ إلى اللهِ ثمَّ قالَ : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، وأشهدُ أنَّ آدمَ صفوةُ اللهِ وفطرتُهُ ، وإبراهيمَ خليلُ اللهِ ، وموسىٰ كليمُ اللهِ ، وعيسىٰ روحُ اللهِ ، ومحمداً حبيبُ اللهِ . . كانَ لهُ مِنَ الثوابِ بعددِ مَنْ دعا للهِ ولداً ومَنْ لمْ يدعُ للهِ ولداً ، وبعثَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ معَ الآمنينَ ، وكانَ حقّاً على اللهِ تعالىٰ أنْ يدخلَهُ الجنةَ معَ النبيينَ »[3]

ليلةُ الاثنينِ

رَوى الأعمشُ عنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الاثنينِ أربعَ ركعاتٍ ، قرأَ في الركعةِ الأولى (الحمدُ للهِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) عشرَ مراتٍ ، وفي الركعةِ الثانيةِ (الحمدُ للهِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) عشرينَ مرةً ، وفي الثالثةِ (الحمدُ للهِ) مرةً و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ثلاثينَ مرةً ، وفي الرابعةِ (الحمدُ للهِ) و(قلْ هوَ اللهُ

سمعت . . .) وذكره ، وقال الحافظ الزبيدي : (ووجدت في طرة الكتاب ما نصه : هو في « قربان المتقين » لأبي نعيم بمعناه ، وإسناده متروك) . « إتحاف » (٣/٣٧٦) . أما القطعة الأولىٰ منه ، وهي : « يوم الجمعة صلاة كله » . . فقد رواها عبد الرزاق في « المصنف » (٥٣٣٥) عن طاووس ، وكذا ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٤٧١)

(١) كذا هو عند صاحب « القوت » (١/٢٨) ، قال الحافظ العراقي : (رواه الدارقطني في « غرائب مالك » وقال : لا يصح ، وعبد الله بن وصيف مجهول ، ورواه الخطيب في « الرواة عن مالك » وقال : غريب جداً ، لا أعلم له وجهاً غير ذٰلك) ، وانظر « الإتحاف » (٣/٣٧٧) .

(٢) كذا هو عند صاحب « القوت » (١/٢٨) ، وانظر « الإتحاف » (٣/٣٧٧ ، ٣٨٢) .

(٣) كذا في « القوت » (١/٢٨) حيث قال : (عن مختار بن فلفل ، عن أنس بن مالك قال : سمعت . . .) وذكره ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني بغير إسناد ، وهو منكر ، وروىٰ أيضاً من حديث أنس في فضل الصلاة فيها : « ست ركعات » و« أربع ركعات » ، وكلاهما ضعيف جداً) . « إتحاف » (٣/٣٧٨) .

أحدٌ) أربعينَ مرةً ، ثمَّ سلَّمَ وقرأَ (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمساً وسبعينَ مرةً ، واستغفرَ اللهَ لنفسِهِ ولوالديهِ خمساً وسبعينَ مرةً ، وصلَّىٰ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خمساً وسبعينَ مرةً ، ثمَّ سألَ اللهَ حاجتَهُ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يعطيَهُ سُؤْلَهُ ما سألَ » ، وهيَ تسمَّىٰ صلاةَ الحاجةِ [1]

ليلةُ الثّلاثاءِ

يصلّي ركعتينِ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) و(المعوِّذتينِ) خمسَ عشرةَ مرةً ، ويقرأُ بعدَ التسليمِ خمسَ عشرةَ مرةً آيةَ الكرسيّ ، ويستغفرُ اللهَ تعالىٰ خمسَ عشرةَ مرةً . . كانَ لهُ ثوابٌ عظيمٌ ، وأجرٌ جسيمٌ [2]

رُويَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الثلاثاءِ ركعتينِ يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) مرَّةً و(إنَّا أنزلناهُ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) سبعَ مرَّاتٍ . . أعتقَ اللهُ رقبتَهُ مِنَ النارِ ، ويكونُ يومَ القيامةِ قائِدَهُ ودليلَهُ إلى الجنة » .

ليلة الأربعاء

روَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنهَا عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الأربعاءِ ركعتينِ ، يقرأُ في أولِ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) مرةً ، و(قلْ أعوذُ بربِّ الفلقِ) عشرَ مراتٍ ، وفي الركعةِ الثانيةِ (فاتحةَ الكتابِ) مرةً ، و(قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ) عشرَ مراتٍ ، ثمَّ إذا سلَّمَ . . استغفرَ اللهَ عشرَ مراتٍ ، ثمَّ يصلِّي علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عشرَ مراتٍ . . نزلَ مِنْ كلِّ سماءٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يكتبونَ ثوابَهُ إلىٰ يوْمِ القيامةِ » [3]

وفي حديثٍ آخرَ : « ستَّ عشرةَ ركعةً ، يقرأُ بعدَ (الفاتحةِ) ما شاءَ اللهُ ، ويقرأُ في آخرِ الركعتينِ آيةَ الكرسيِّ ثلاثينَ مرَّةً ، وفي الأوليينِ ثلاثينَ مرَّةً « قلْ هوَ اللهُ أحدٌ » . . يشفعْ في عشرةٍ مِنْ أهلِ بيتِهِ ، كلُّهُمْ وجبَتْ عليهِمُ النارُ » [4]

وروتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الأربعاءِ ستَّ ركعاتٍ بثلاثِ تسليماتٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بعدَ (الفاتحةِ) مرةً ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . . ﴾ إلىٰ آخرِ الآيةِ ، فإذا فرغَ من صلاتِهِ يقولُ سبعينَ مرةً : جزى اللهُ محمداً عنَّا ما هوَ أهلُهُ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنوبَ سبعينَ سنةً ، وكتبَ لهُ براءةً من النارِ » [5]

ليلةُ الخميسِ

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الخميسِ ما بينَ المغربِ والعشاءِ ركعتينِ ، يقرأُ في كلِّ ركْعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) ، وآيةَ الكرسيِّ خمسَ مراتٍ ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسَ مراتٍ ،

---

(١) كذا في « القوت » (٢٨/١) ، وقال الحافظ العراقي : (هٰكذا رواه أبو موسى المديني عن الأعمش بغير إسناد ، وأسند من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثاً في صلاة ست ركعات فيها ، وهو منكر) . « إتحاف » (٣٧٩/٣) .

(٢) ذكره في « القوت » (٢٩/١) بنحوه ، قال الحافظ العراقي : (ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد حكاية عن بعض المصنفين ، وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثاً في صلاة أربع ركعات فيها ، وكلها منكرة) . « إتحاف » (٣٨٠/٣) .

(٣) كذا هو في « القوت » (٢٩/١) ، ولم يذكر لهٰذه الليلة حديثاً غيره ، وانظر « الإتحاف » (٣٨٠/٣) .

(٤) انظر « الإتحاف » (٣٨٠/٣) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً) . « إتحاف » (٣٨٠/٣) .

و(المعوِّذتينِ) خمسَ مراتٍ ، فإذا فرغَ مِنْ صلاتهِ استغفرَ اللهَ تعالىٰ خمسَ عشرةَ مرةً ، وجعلَ ثوابَهُ لوالديهِ . . فقدْ أدَّىٰ حقَّ والديهِ عليهِ وإنْ كانَ عاقّاً لهُما ، وأعطاهُ اللهُ تعالىٰ ما يُعطي الصِّديقينَ والشهداءَ »[1]

ليلةُ الجمعةِ

قالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الجمعةِ بينَ المغربِ والعشاءِ اثنتي عشرةَ ركعةً ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) إحدىٰ عشرةَ مرةً . . فكأنَّما عبَدَ اللهَ تعالى اثنتي عشرةَ سنةً صيامَ نهارِها وقيامَ ليلِها »[2] .

وقالَ أنسٌ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الجمعةِ صلاةَ العشاءِ الآخرةِ في جماعةٍ ، وصلَّىٰ ركعتي السنةِ ، ثمَّ صلَّىٰ بعدَها عشرَ ركعاتٍ ، قرأَ في كلِّ ركعةٍ (الحمدُ للهِ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) و(المعوِّذتينِ) مرةً مرةً ، ثمَّ أوترَ بثلاثِ ركعاتٍ ، ونامَ علىٰ جنبِهِ الأيمنِ ووجهُهُ إلى القبلةِ . . فكأنَّما أحيا ليْلةَ القدرِ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنَ الصلاةِ عليَّ في الليلةِ الغراءِ واليومِ الأزهرِ » ، ليلةَ الجمعةِ ويومَ الجمعةِ[4]

ليلةُ السبتِ

قالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ السبتِ بينَ المغربِ والعشاءِ اثنتي عشرةَ ركعةً . . بُنِيَ لهُ قصرٌ في الجنةِ ، وكأنَّما تصدَّقَ علىٰ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ ، وتبرَّأَ مِنَ اليهودِ ، وكانَ حقّاً على اللهِ أنْ يغفرَ لهُ »[5]



(١) كذا في « القوت » (٢٩/١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني ، وأبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » بسند ضعيف جداً ، وهو منكر) . « إتحاف » (٣٨١/٣) .

(٢) هو عند صاحب « القوت » (٢٩/١) ، وقال : (أبو جعفر محمد بن علي ، عن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال . . .) وذكره ، وقال الحافظ العراقي : (باطل لا أصل له) . « إتحاف » (٣٨١/٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٩/١) ، حيث قال : (وروينا عن كثير بن سليم ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، وانظر « الإتحاف » (٣٨١/٣) .

(٤) هو عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠٩/٥٣) بلفظ : (يا رسول الله ؛ أمرنا أن نكثر الصلاة عليك في الليلة الغراء واليوم الأزهر . . .) ، وقوله : (ليلة الجمعة ويوم الجمعة) بيان للغراء والأزهر ، وعند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٤٩/٣) : « أكثروا الصلاة علي في يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فمن صلىٰ علي صلاة . . صلى الله عليه عشراً » .

(٥) كذا هو في « القوت » (٢٩/١) قال : (عن كثير بن شنظير ، عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، وقال العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، وانظر « الإتحاف » (٣٨٢/٣) .

القسم الثالث : ما يتكرر بتكرر السنين وهي أربعة

صلاةُ العيدينِ ، والتراويحِ ، وصلاةُ رجبٍ ، وصلاةُ النصفِ مِنْ شعبانَ

الأولىٰ : صلاةُ العيدينِ : وهيَ سنةٌ مؤكدةٌ ، وشعارٌ مِن شعائرِ الدينِ ، وينبغي أنْ يُراعيَ فيها سبعةَ أمورٍ :

الأوَّلُ : التكبيرُ ثلاثاً نسقاً ، فيقولُ : اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسُبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، مخلصينَ لهُ الدينَ ولوْ كرهَ الكافرونَ .

ويفتتحُ التكبيرَ ليلةَ الفطرِ إلى الشروعِ في صلاةِ العيدِ ، وفي العيدِ الثاني يفتتحُ التكبيرَ عَقِيبَ الصبحِ يومَ عرفةَ إلىٰ آخرِ النهارِ يومَ الثالثَ عشرَ ، وهـٰذا أكملُ الأقاويلِ ، ويكبِّرُ عَقِيبَ الصلواتِ المفروضةِ وعقيبَ النوافلِ ، وهوَ عَقِيبَ الفرائضِ آكدُ .

الثاني : إذا أصبحَ يومَ العيدِ . . يغتسلُ ويتزيَّنُ ويتطيَّبُ كما ذكرناهُ في الجمعةِ ، والرداءُ والعِمامةُ هوَ الأفضلُ للرجالِ ، وليتجنَّبِ الصبيانُ الحريرَ ، والعجائزُ التزينَ عندَ الخروجِ

الثالثُ : أنْ يخرجَ منْ طريقٍ ويرجعَ مِنْ طريقٍ آخرَ ، هـٰكذا فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [1] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُ بإخراجِ العواتقِ وذواتِ الخدورِ [2]

الرابعُ : المستحبُّ الخروجُ إلى الصحراءِ إلا بمكةَ وبيتِ المقدسِ ، وإنْ كانَ يومُ مطرٍ . . فلا بأسَ بالصلاةِ في المسجدِ ، ويجوزُ في يومِ الصحوِ أنْ يأمرَ الإمامُ رجلاً يصلِّي بالضعفةِ في المسجدِ ، ويخرجَ بالأقوياءِ مكبِّرينَ .

الخامسُ : أنْ يُراعى الوقتُ ، فوقتُ صلاةِ العيدِ ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ ، ووقتُ الذبحِ للضحايا ما بينَ ارتفاعِ الشمسِ بقدْرِ ركعتينِ وخطبتينِ إلىٰ آخرِ اليومِ الثالثَ عشرَ .

ويستحبُّ تعجيلُ صلاةِ الأضحىٰ لأجلِ الذبحِ ، وتأخيرُ صلاةِ الفطرِ لأجلِ تفريقِ صدقةِ الفطرِ قبلَها ، هـٰذهِ سنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [3]

السادسُ : في كيفيةِ الصَّلاةِ ؛ فليخرجِ الناسُ مكبِّرينَ في الطريقِ ، وإذا بلغَ الإمامُ المصلَّىٰ . . لمْ يجلسْ ولمْ يتنفَّلْ ، وللناسِ التنفُّلُ ، ثمَّ ينادي منادٍ : (الصَّلاةُ جامعةٌ) ، ويصلي الإمامُ بهِمْ ركعتينِ ؛ يكبِّرُ في الأولىٰ سوىٰ تكبيرةِ الإحرامِ والركوعِ سبعَ تكبيراتٍ ، يقولُ بينَ كلِّ تكبيرتينِ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) ، ويقولُ :

---

(١) رواه البخاري (٩٨٦) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٤) ، ومسلم (٨٩٠) .

(٣) روى الشافعي بسنده في « الأم » (٤٨٩/٢) : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلىٰ عمرو بن حزم وهو بنجران : أن عجِّل الغدو إلى الأضحىٰ ، وأخِّر الفطر ، وذكر الناس) ، ورواه البيهقي من طريقه في « السنن الكبرىٰ » (٢٨٢/٣) .

(وجهتُ وجهي للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ) عَقيبَ تكبيرةِ الافتتاحِ ، ويؤخِّرُ الاستعاذةَ إلىٰ ما وراءَ الثامنةِ ، ويقرأُ سورةَ (قٓ) في الأولىٰ بعدَ (الفاتحةِ) ، و(اقتربتْ) في الثانيةِ ، والتكبيراتُ الزائدةُ في الثانيةِ خمسٌ سوىٰ تكبيرتي القيامِ والركوعِ ، وبينَ كلِّ تكبيرتينِ ما ذكرناهُ .

ثمَّ يخطبُ خطبتينِ بينَهُما جلسةٌ ، ومَنْ فاتتْهُ صلاةُ العيدِ . . قضاها .

السابعُ : أنْ يضحيَ بكبشٍ ، ضحَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بكبشٍ ، وذبحَ بيدِهِ وقالَ : « باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ ، هٰذا عنِّي وعمَّنْ لمْ يضحِّ مِنْ أمَّتي »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ رأىٰ هلالَ ذي الْحجةِ وأرادَ أنْ يضحِّيَ . . فلا يأخذَنَّ مِنْ شَعْرِهِ ولَا مِنْ أظفارِهِ شيئاً »[2]

قالَ أبو أيوبَ الأنصاريُّ : (كانَ الرجلُ يضحِّي علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالشاةِ عنْ أهلِ بيتِهِ ، فيأكلونَ ويطعمونَ »[3]

ولهُ أنْ يأكلَ مِنَ الضحيةِ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ فما فوقُ ، ووردتْ فيهِ الرخصةُ بعدَ النهيِ عنهُ[4]

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (يستحبُّ أنْ يصلِّيَ بعدَ عيدِ الفطرِ اثنتي عشرةَ ركعةً ، وبعدَ عيدِ الأضحىٰ ستَّ ركعاتٍ) ، وقالَ : (هوَ مِنَ السنةِ)[5]

❁ ❁ ❁

الثانيةُ : **التراويحُ** : وهيَ عشرونَ ركعةً ، وكيفيتُها مشهورةٌ ، وهيَ سنةٌ مؤكدةٌ وإنْ كانتْ دونَ العيدينِ ، واختلفوا في أنَّ الجماعةَ فيها أفضلُ أمِ الانفرادُ .

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيها ليلتينِ أوْ ثلاثاً للجماعةِ ، ثمَّ لمْ يخرجْ ، وقالَ : « أخافُ أنْ توجبَ عليكُمْ »[6]

وجمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ الناسَ عليها في الجماعةِ حيثُ أمنَ مِنَ الوجوبِ بانقطاعِ الوحيِ ؛ فقيلَ : إنَّ الجماعةَ

---

(١) رواه أبو داوود (٢٨١٠) ، والترمذي (١٥٢١) ، وأصله عند مسلم (١٩٦٧) . بلفظ : (عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بكبش أقرن ، يطأ في سواد ، ويبرك في سواد ، وينظر في سواد ـ كناية عن سواد قوائمه وبطنه وعينيه ـ فأُتِيَ به ليضحِّي به ، فقال لها : « يا عائشة ؛ هلمي المدية » ، ثم قال : « اشحذيها بحجر » ففعلت ، ثم أخذها ، وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه ، ثم قال : « باسم الله ، اللهم ؛ تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد » ثم ضحَّىٰ به) . وفي (ج) : (كبشين) بدل (كبش) دون زيادة : (أملحين) ، وعليه مشى الحافظ العراقي في تخريجه .

(٢) رواه مسلم (٤٢/١٩٧٧) .

(٣) رواه الترمذي (١٥٠٥) ، وابن ماجه (٣١٤٧) ، وحمل بعض أهل العلم هٰذا والذي قبله على الاشتراك في الثواب ، وتأدية الشعار والسنة لجميع أهل البيت الواحد ، وإلا . . فلا تجزئ الشاة ونحوها إلا عن فرد . انظر « الإتحاف » (٤٠٦/٣) .

(٤) ففي « مسلم » (٩٧٧) مرفوعاً : « ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، فأمسكوا ما بدا لكم » .

(٥) أخرج ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٧٩٩) : (كان سعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وعلقمة يصلون بعد العيد أربعاً) ، وعنده (٥٨٠٦) عن عاصم قال : (رأيت الحسن وابن سيرين يصليان بعد العيد ويطيلان القيام) . قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٤٧٦/٢) : (والحاصل : أن صلاة العيد لم يثبت لها سنة قبلها ولا بعدها ، خلافاً لمن قاسها على الجمعة ، وأما مطلق النفل . . فلم يثبت فيه منع بدليل خاص إلا إن كان ذٰلك في وقت الكراهة الذي في جميع الأيام ، والله أعلم) .

(٦) رواه البخاري (٩٢٤) ، ومسلم (٧٦١) بلفظ : « لٰكني خشيت أن تفرض عليكم » .

أفضلُ ؛ لفعلِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، ولأنَّ الاجتماعَ بركةٌ ولهُ فضيلةٌ ؛ بدليلِ الفرائضِ ، ولأنَّهُ ربَّما يكسلُ في الانفرادِ ، وينشطُ عندَ مشاهدةِ الجمعِ [١]

وقيلَ : الانفرادُ أفضلُ ؛ لأنَّ هـٰذهِ سنةٌ ليستْ مِنَ الشعائرِ كالعيدينِ ، فإلحاقُها بصلاةِ الضحىٰ وتحيةِ المسجدِ أولىٰ ، ولـمْ تشرعْ فيها جماعةٌ [٢] ، وقدْ جرتِ العادةُ بأنْ يدخلَ المسجدَ جمعٌ معاً ، ثمَّ لمْ يصلوا التحيةَ بالجماعةِ ، ولقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ صلاةِ التطوُّعِ في بيتِهِ علىٰ صلاتِهِ في المسجدِ . . كفضلِ صلاةِ المكتوبةِ في المسجدِ علىٰ صلاتِهِ في البيتِ » [٣]

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « صلاةٌ في مسجدي هـٰذا أفضلُ مِنْ مئةِ صلاةٍ في غيرِهِ مِنَ المساجدِ ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ مِنْ ألفِ صلاةٍ في مسجدي ، وأفضلُ مِنْ ذٰلكَ كلِّهِ رجلٌ يصلِّي في زاويةِ بيتِهِ ركعتينِ لا يعلمُهُما إلا اللهُ عزَّ وجلَّ » [٤]

وهـٰذا لأنَّ الرياءَ والتصنُّعَ ربَّما يتطرَّقُ إليهِ في الجمعِ ، ويأمنُ منهُ في الوحدةِ ، فهـٰذا ما قيلَ فيهِ .

والمختارُ : أنَّ الجماعةَ أفضلُ [٥] ، كما رآهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فإنَّ بعضَ النوافلِ قدْ شُرِعَتْ فيها الجماعةُ ، وهـٰذا جديرٌ بأنْ يكونَ مِنَ الشعائرِ التي تظهرُ .

وأمَّا الالتفاتُ إلى الرياءِ في الجمعِ ، والكسلِ في الانفرادِ . . فعدولٌ عنْ مقصودِ النظرِ في فضيلةِ الجمعِ مِنْ حيثُ إنَّهُ جماعةٌ ، وكأنَّ قائلَهُ يقولُ : (الصلاةُ خيرٌ منْ تركِها بالكسلِ ، والإخلاصُ خيرٌ مِنَ الرياءِ) ، فلنفرضِ المسألةَ فيمنْ يثِقُ بنفسِهِ أنَّهُ لا يكسلُ لوِ انفردَ ، ولا يرائي لوْ حضرَ الجمعَ . . فأيُّهُما أفضلُ لهُ ؟

فيدورُ النظرُ بينَ بركةِ الجمعِ وبينَ مزيدِ قوَّةِ الإخلاصِ وحضورِ القلبِ في الوحدةِ ، فيجوزُ أنْ يكونَ في تفضيلِ أحدِهِما على الآخرِ تردُّدٌ .

وممَّا يستحبُّ : القنوتُ في الوترِ في النصفِ الأخيرِ مِنْ رمضانَ .



---

(١) ففي « البخاري » (٢٠١٠) عن عبد الرحمـٰن بن عبدٍ القاريِّ قال : (خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلةً في رمضان إلى المسجد ، فإذا الناس أوزاعٌ متفرقون ، يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط ، فقال عمر : إني أرىٰ لو جمعت هـٰؤلاء علىٰ قارئ واحد . . لكان أمثل ، ثم عزم ، فجمعهم علىٰ أبيّ بن كعب ، ثم خرجت معه ليلة أخرىٰ والناس يصلون بصلاة قارئهم ، قال عمر : نعمَ البدعة هـٰذه ، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون ، يريد آخر الليل وكان الناس يقومون أوله) .

(٢) أي : في صلاة الضحىٰ وتحية المسجد . « إتحاف » (٤١٨/٣) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٤٦/٨) وبلفظ : « فضل صلاة الرجل في بيته علىٰ صلاته حيث يراه الناس . . كفضل المكتوبة على النافلة » . وفي « البخاري » (٧٣١) ، و« مسلم » (٧٨١) بعد أن ترك صلى الله عليه وسلم الخروج إلى التراويح وهم ينتظرونه قال لهم : « قد عرفت الذي رأيت من صنيعكم ، فصلوا أيها الناس في بيوتكم ؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » .

(٤) ذكره الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (٤٨٤/١) بنحوه وقال : (رواه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب « الثواب ») . وأما صدره . . فمتفق عليه ، وفي معنى القطعة الأخيرة منه روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٧١٦) عن أبي عثمان قال : اشترىٰ رجل حائطاً من المدينة ، فربح فيه مئة نخلة كاملة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأفضل من هـٰذا ؟ رجل توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم صلىٰ ركعتين في غارٍ أو سفح جبل أفضل ربحاً من هـٰذا » انظر « الإتحاف » (٤١٩/٣) .

(٥) قال الإمام النووي في « المجموع » (٤٠/٤) : (الصحيح عندنا : أن فعل التراويح في جماعة أفضل من الانفراد ، وبه قال جماهير العلماء ، حتىٰ إن علي بن موسى القمي ادعىٰ فيه الإجماع ، وقال ربيعة ومالك وأبو يوسف وآخرون : الانفراد بها أفضل ، دليلنا : إجماع الصحابة علىٰ فعلها جماعة كما سبق) .

أمَّا صلاةُ رجبٍ[1] :

فقدْ رُوِيَ بإسنادٍ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ما مِنْ أحدٍ يصومُ أوَّلَ خميسٍ مِنْ رجبٍ ، ثمَّ يصلِّي فيما بينَ العِشاءِ والعتمةِ اثنتي عشرة ركعةً ، يفصلُ بينَ كلِّ ركعتينِ بتسليمةٍ .

يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بـ (فاتحةِ الكتابِ) مرةً ، و(إنَّا أنزلناهُ في ليلةِ القدرِ) ثلاثَ مراتٍ ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) اثنتي عشرةَ مرةً .

فإذا فرغَ مِنْ صلاتهِ . . صلَّىٰ عليَّ سبعينَ مرةً ، ويقولُ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ النبيِّ الأميِّ وعلىٰ آلِهِ .

ثمَّ يسجدُ ويقولُ في سجودِهِ سبعينَ مرةً : سبوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكةِ والروحِ .

ثمَّ يرفعُ رأسَهُ ويقولُ سبعينَ مرةً : ربِّ ؛ اغفرْ وارحمْ وتجاوزْ عمَّا تعلمُ إنكَ أنتَ الأعزُّ الأكرمُ .

ثمَّ يسجدُ سجدةً أخرىٰ ويقولُ فيها مثلَ ما قالَ في السجدةِ الأولىٰ .

ثمَّ يسألُ حاجتَهُ في سجودِهِ . . فإنَّها تُقضىٰ » .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يصلِّي أحدٌ هـٰذهِ الصلاةَ . . إلا غفرَ اللهُ تعالىٰ لهُ جميعَ ذنوبِهِ ولوْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ وعددِ الرملِ ووزنِ الجبالِ وورقِ الأشجارِ ، ويشفَّعُ يومَ القيامةِ في سبعِ مئةٍ مِنْ أهلِ بيتِهِ ممَّنْ قدِ استوجبَ النارَ » .

فهـٰذهِ صلاةٌ مستحبةٌ ، وإنَّما أوردناها في هـٰذا القسمِ لأنَّها تتكرَّرُ بتكرُّرِ السنينَ ، وإنْ كانت لا تبلغُ رتبتُها رتبةَ التراويحِ وصلاةِ العيدينِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ الصلاةَ نقلَها الآحادُ ، ولـٰكنِّي رأيتُ أهلَ القدسِ بأجمعِهِمْ يواظبونَ عليها ولا يسمحونَ بتركِها ، فأحببتُ إيرادَها[2]

---

(١) وهي المسماة بصلاة الرغائب . « إتحاف » (٤٢٢/٣) .

(٢) روىٰ حديث صلاة الرغائب هـٰذه الحافظُ الزبيدي من طريق ابن الجوزي في « الموضوعات » (٤٧/٢) .

ونقل ابن عراق في « تنزيه الشريعة » (٩٢/٢) عن الحافظ العراقي أنه قال في « أماليه » : (قد تساهل الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر السلامي في إيراده هـٰذا الحديث في المجلس الرابع عشر من « أمالي ابن حصين » وقوله : إنه حسن غريب) .

والإمام الغزالي نزل بهـٰذا الأثر ، وعرف أنه لا يرقىٰ للاحتجاج أصلاً حين ذكر علة إيراده لصلاة الرغائب بأنها من استحباب الصالحين كما رآه في القدس .

وقول العز بن عبد السلام إنها مبتدعة في سنة (٤٤٨ هـ) لا يستقيم ؛ إذ ذكر أنها وصلاة النصف من شعبان مما ابتدع هـٰذه السنة ، وقد ذكر الأخيرة صاحب « القوت » المتوفىٰ (٣٨٦ هـ) .

وقد قال الحافظ الزبيدي : (وليس في سند أبي طالب المكي علي بن عبد الله بن جهضم ـ وهو المتهم بوضع هـٰذا الحديث ـ بل هو إن لم يكن متأخراً عنه في الزمن . . فهو معاصر له ، وهو مع ذلك ليس من الوضاعين ، قال الذهبي في « الديوان » : « ليس بثقة » .

فغاية ما يقال في حديثه : إنه ضعيف لا موضوع ، فكم من رجل غير ثقة وحديثه لا يدخل في حيز المنكر) . « إتحاف » (٤٢٥/٣) .

وكان قد أورد نقول أهل العلم بوضع حديث الرغائب والكلام في الطعن فيه من وجوه : كعدم جواز النفل جماعة ، وعدم جواز تخصيص بعض السور بالتلاوة في الصلاة ، أو تخصيص ليلة بعينها .

ثم قال : (وهو كلام حسن ، وإن كان في بعض ما أورده من الوجوه محل نظر وتأمل ؛ ففي أداء النفل جماعة اختلاف في المذهب ، وقد سبق النسفي البزازي بالجواز ، وتخصيص بعض السور في بعض صلوات معينة قد ورد به الشرع ، ومن طالع كتب الحديث عرف ذلك ، وكذا تخصيص بعض الليالي بالقيام وبعض الأيام بالصيام ورد به الشرع .

وإن قلنا بالكراهة . . فهي تنزيهية كما صرح به العلماء ، وكون أن العامة يعتقدونها فرضاً لازماً . . لا يتجه به الكراهة ؛ فإنهم إذا فهموا من ذلك

وأمّا صلاةُ شعبانَ :

فليلةَ الخامسَ عشرَ منهُ يصلِّي مئةَ ركعةٍ ، كلَّ ركعتينِ بتسليمةٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بعدَ (الفاتحةِ) : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) عشرَ مراتٍ ، وإنْ شاءَ صلَّىٰ عشرَ ركعاتٍ يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بعدَ (الفاتحةِ) مئةَ مرةٍ (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) .

فهٰذهِ الصلاةُ أيضاً مرويةٌ في جملةِ الصلواتِ ، كانَ السلفُ يصلُّونَ هٰذهِ الصَّلاةَ ويسمُّونَها : صلاةَ الخيرِ ، ويجتمعونَ فيها ، وربَّما صلَّوها جماعةً ، رُوِيَ عنِ الحسنِ أنَّهُ قالَ : (حدَّثني ثلاثونَ مِنْ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ مَنْ صلَّىٰ هٰذهِ الصلاةَ في هٰذهِ الليلةِ . . نظرَ اللهُ إليهِ سبعينَ نظرةً ، وقضىٰ لهُ بكلِّ نظرةٍ سبعينَ حاجةً ، أدناها المغفرةُ)[1]



خلاف ما يفهمه الخاصة . . كان ذٰلك لتقصيرهم وسوء فهمهم ، فطريقهم أن يسألوا ويتفهموا ، ما علينا من العامة إذا غلطوا في فهمهم ، ولو جئنا ننظر إلىٰ هٰذا . . لغيَّرنا أوضاعاً شرعية كثيرة .

وكون أن فعلها يغري واضع الحديث علىٰ وضعها . . فهٰذا قد قفل بابه من بعد الثلاث مئة ، فلا تكون هٰذه الملاحظة وجهاً لكراهتها .

وكون أن الاشتغال بعدِّ السور مما يخلُّ بالخشوع . . ففيه خلاف ، والأشهر جوازه في النوافل .

وما ذكر أن تعجيل الإفطار فيها مما يخالف السنة . . هو غريب !! بل السنة قاضية على استحباب التعجيل في الإفطار وكراهية تأخيره إلى اشتباك النجوم .

وأما كراهة السجدة المنفردة . . فمسلَّمٌ ، إلا أن المدعي يقول : لم لا يجوز أن تكون هٰذه السجدة شكراً لنعمة الله تعالىٰ علىٰ رأي من يجوز ذٰلك ؟

وقوله : إن الصحابة والتابعين ومن بعدهم لم ينقل عنهم أنهم صلوها . . فاعلم : لا يلزم من عدم فعلهم لها على الطريقة المعهودة كراهتها أو عدم ورودها ، ثم هي من التطوعات ، من شاء . . صلاها ، ومن شاء . . تركها) . « إتحاف » (٣/٤٢٤) .

(١) قوت القلوب (١/٦٢) ، وقال : (وقد قيل : إن هٰذه الليلة هي التي قال الله عز وجل فيها : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، وأنه ينسخ فيها أمر السنة وتدبير الأحكام إلىٰ مثلها من قابل والله أعلم ، والصحيح من ذٰلك عندي أنه في ليلة القدر ، وبذٰلك سميت ؛ لأن التنزيل يشهد له ؛ إذ في أول الآية : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ ، ثم وصفها فقال : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، فالقرآن إنما أنزل في ليلة القدر) .

وحديث صلاة النصف من شعبان أسنده ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/٥٠) بنحوه ، أما فضيلة هٰذه الليلة . . فقد ثبت بالحديث الصحيح الذي رواه ابن حبان في « صحيحه » (٥٦٦٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/١٠٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/١٩١) : « يطلع الله إلىٰ خلقه في ليلة النصف من شعبان ، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن » .

وكان الإمام الشافعي يقول : (بلغنا أنه كان يقال : إن الدعاء يستجاب في خمس ليال : في ليلة الجمعة ، وليلة الأضحىٰ ، وليلة الفطر ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان) . « الأم » (٢/٤٨٥) ، ورواه عنه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/٣١٩) .

قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/٤٢٧) نقلاً عن النجم الغيطي : (ولم يثبت في قيامها جماعة شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه ، واختلف علماء الشام علىٰ قولين : **أحدهما** : استحباب إحيائها بجماعة في المسجد ، وممن قال بذٰلك من أعيان التابعين خالد بن معدان وعثمان بن عامر ، ووافقهم إسحاق بن راهويه . **والثاني** : كراهة الاجتماع لها في المساجد للصلاة ، وإليه ذهب الأوزاعي فقيه الشام ومفتيهم) .

القسم الرابع من النوافل : ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهي تسعة

كصلاةِ الخسوفِ والكسوفِ ، والاستسقاءِ ، وتحيةِ المسجدِ ، وركعتيِ الوضوءِ ، وركعتينِ بينَ الأذانِ والإقامةِ ، وركعتينِ عندَ الخروجِ مِنَ المنزلِ والدخولِ فيهِ ، ونظائرِ ذٰلكَ ، فنذكرُ منها ما يحضرُنا الآنَ :

الأولىٰ : صلاةُ الخسوفِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ مِن آياتِ اللهِ ، لا يخسفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ ، فإذا رأيتمْ ذٰلكَ . . فافزعوا إلىٰ ذكرِ اللهِ وإلى الصلاةِ » ، قالَ ذٰلكَ لمَّا ماتَ ولدُهُ إبراهيمُ وكَسَفَتِ الشمسُ ، فقالَ الناسُ : إنَّما كسفتْ لموتِهِ[1]

والنظرُ في كيفيتِها ووقتِها :

أمَّا الكيفيةُ : فإذا كسفتِ الشمسُ في وقتٍ مكروهٍ أوْ غيرِ مكروهٍ . . نوديَ : (الصلاةُ جامعةٌ) ، وصلَّى الإمامُ بالناسِ في المسجدِ ركعتينِ ، وركعَ في كلِّ ركعةٍ ركوعينِ ، أوائلُهما أطولُ مِنْ أواخرِهما ، ولا يجهرُ ، فيقرأُ في الأولىٰ مِنْ قيامَيِ الركعةِ الأولى (الفاتحةَ) و(البقرةَ) ، وفي الثانيةِ (الفاتحةَ) و(آلَ عمرانَ) ، وفي الثالثةِ (الفاتحةَ) وسورةَ (النساءِ) ، وفي الرابعةِ (الفاتحةَ) و(المائدةَ) ، أوْ مقدارَ ذٰلكَ مِنَ القرآنِ مِنْ حيثُ أرادَ .

ولوِ اقتصرَ على (الفاتحةِ) في كلِّ قيامٍ . . أجزأَهُ ، ولوِ اقتصرَ علىٰ سورٍ قصارٍ . . فلا بأسَ ، ومقصودُ التطويلِ دوامُ الصلاةِ إلى الانجلاءِ .

ويسبِّحُ في الركوعِ الأوَّلِ قدْرَ مئةِ آيةٍ ، وفي الثاني قدْرَ ثمانينَ آيةً ، وفي الثالثِ قدْرَ سبعينَ ، وفي الرابعِ قدْرَ خمسينَ ، وليكنِ السجودُ علىٰ قدْرِ الركوعِ في كلِّ ركعةٍ .

ثمَّ يخطبُ خطبتينِ بعدَ الصَّلاةِ بينَهُما جلسةٌ ، ويأمرُ الناسَ بالصدقةِ والعتقِ والتوبةِ .

وكذٰلكَ يفعلُ بخسوفِ القمرِ ، إلا أنَّهُ يجهرُ فيها ؛ لأنَّها ليليةٌ .

أمَّا وقتُها : فعندَ ابتداءِ الخسوفِ إلىٰ تمامِ الانجلاءِ ، ويخرجُ وقتُها بأنْ تغربَ الشمسُ كاسفةً ، ويفوتُ خسوفُ القمرِ بأنْ يطلعَ قرصُ الشمسِ ، إذْ بطلَ سلطانُ الليلِ ، ولا يفوتُ بغروبِ القمرِ خاسفاً ؛ لأنَّ الليلَ كلَّهُ سلطانُ القمرِ ، وإنِ انجلىٰ في أثناءِ الصَّلاةِ . . أتمَّها مخففةً ، ومَنْ أدركَ الركوعَ الثانيَ معَ الإمامِ . . فقدْ فاتتْهُ تلكَ الركعةُ ؛ لأنَّ الأصلَ هوَ الركوعُ الأوَّلُ .

❁ ❁ ❁

الثانيةُ : صلاةُ الاستسقاءِ : فإذا غارتِ الأنهارُ ، وانقطعتِ الأمطارُ ، أوِ انهارتْ قناةٌ . . فيستحبُّ للإمامِ أنْ يأمرَ الناسَ أوَّلاً بصيامِ ثلاثةِ أيامٍ ، وما أطاقوا مِنَ الصدقةِ ، والخروجِ مِنَ المظالمِ ، والتوبةِ مِنَ المعاصي ، ثمَّ يخرجُ بهمْ يومَ الرابعِ ، وبالعجائزِ والصبيانِ متنظِّفينَ في ثيابِ بِذْلَةٍ واستكانةٍ متواضعينَ[2] ، بخلافِ العيدِ .

---

(١) رواه البخاري (١٠٤٣) ، ومسلم (٩٠٤) .

(٢) **ثياب البِذْلة** : هي التي تلبس حال الخدمة والشغل بالأعمال ، ولكون هـٰذا يوهم عدم النظافة . . قيدها بقوله : (متنظفين) .

وقيلَ : يستحبُّ إخراجُ الدوابِّ لمشاركتِها في الحاجةِ ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا صبيانٌ رضَّعٌ ، ومشايخُ ركَّعٌ ، وبهائمُ رتَّعٌ . . لَصُبَّ عليكمُ العذابُ صبّاً »[1]

ولوْ خرجَ أهلُ الذمَّةِ أيضاً متميّزينَ . . لمْ يمنعوا .

فإذا اجتمعوا في المصلَّى الواسعِ مِنَ الصحراءِ . . نوديَ : (الصلاةُ جامعةٌ) ، وصلَّىٰ بهمُ الإمامُ ركعتينِ مثلَ صلاةِ العيدِ بغيرِ فرقٍ[2] ، ثمَّ يخطُبُ خطبتينِ بينَهما جلسةٌ خفيفةٌ ، وليكنِ الاستغفارُ معظمَ الخطبتينِ[3] ، وينبغي في وسطِ الخطبةِ الثانيةِ أنْ يستدبرَ الناسَ ، ويستقبلَ القبلةَ ، ويحوّلَ رداءَهُ في هٰذهِ الساعةِ ؛ تفاؤلاً بتحويلِ الحالِ ، هٰكذا فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[4] ، فيجعلُ أعلاهُ أسفلَهُ ، وما على اليمينِ على الشمالِ ، وما على الشمالِ على اليمينِ ، وكذٰلكَ يفعلُ الناسُ ، ويدعونَ في هٰذهِ الساعةِ سرّاً .

ثمَّ يستقبلُهُمْ فيختمُ الخطبةَ ، ويَدَعونَ أرديتَهُمْ محوَّلةً كما هيَ حتَّىٰ ينزعوها متىٰ نزعوا الثيابَ .

ويقولُ في الدعاءِ : (اللهمَّ ؛ إنَّكَ أمرتنا بدعائِكَ ، ووعدتَنا إجابتَكَ ، فقدْ دعوناكَ كما أمرتَنا ، فأجبْنا كما وعدتَنا ، اللهمَّ ؛ فامنُنْ علينا بمغفرةِ ما قارفْنا وإجابتِكَ في سقيانا وسعةِ أرزاقِنا)[5]

ولا بأسَ بالدعاءِ أدبارَ الصلواتِ في الأيامِ الثلاثةِ قبلَ الخروجِ ، ولهٰذا الدعاءِ آدابٌ وشروطٌ باطنةٌ مِنَ التوبةِ وردِّ المظالمِ وغيرِها ، وسيأتي ذٰلكَ في كتابِ الدعواتِ .

❁ ❁ ❁

الثالثةُ : صلاةُ الجَنازةِ : وكيفيتُها مشهورةٌ[6] ، وأجمعُ دعاءٍ مأثورٍ ما رُويَ في الصحيحِ عنْ عوفِ بنِ مالكٍ قالَ : (صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ جنازةٍ ، فحفظتُ مِنْ دعائِهِ وهوَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لهُ ، وارحمْهُ ، وعافِهِ واعفُ عنهُ ، وأكرمْ نزلَهُ ، ووسّعْ مُدخلَهُ ، واغسلْهُ بالماءِ والثلجِ والبرَدِ ، ونقِّهِ مِنَ الخطايا كما يُنقَّى الثوبُ الأبيضُ مِنَ الدنسِ ، وأبدلْهُ داراً خيراً مِنْ دارِهِ ، وأهلاً خيراً مِنْ أهلِهِ ، وزوجاً خيراً مِنْ زوجِهِ ، وأدخلْهُ الجنةَ ، وأعذْهُ مِنْ عذابِ القبرِ ومِنْ عذابِ النارِ » ، قالَ عوفٌ : حتَّىٰ تمنَّيت أنْ أكونَ ذٰلكَ الميتَ)[7]

ومَنْ أدركَ التكبيرةَ الثانيةَ مِنْ صلاةِ الجنازةِ . . فينبغي أنْ يراعيَ ترتيبَ صلاةِ نفسِهِ ، ويكبِّرَ معَ تكبيراتِ الإمامِ ، فإذا سلَّمَ الإمامُ قضىٰ تكبيرَهُ الذي فاتَ كفعلِ المسبوقِ ، فإنَّهُ لوْ بادرَ التكبيراتِ . . لمْ يبقَ للقدوةِ في هٰذهِ الصلاةِ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٩/٢٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٤٥/٣) بنحوه .

(٢) أي : في التكبيرات وفي القراءة وفي الوقوف بين كل تكبيرتين مسبحاً حامداً مهللاً . « إتحاف » (٤٤٠/٣) .

(٣) أي : يبدل التكبيرات المشروعة في أولهما بالاستغفار ، ويكثر منه في الخطبة . « إتحاف » (٤٤٢/٣) .

(٤) رواه البخاري (١٠٢٣) ، ومسلم (٨٩٤) .

(٥) نص علىٰ هٰذا الدعاء الإمام الشافعي كما في « الأم » (٥٤٦/٢) ، وهٰذا الدعاء يكون ضمن الدعاء الوارد في الخطبة .

(٦) قال المصنف في « الخلاصة » (ص ١٦٦) : (وأركانها تسعة : **النية** ، ولا يضر إن لم يعرف الميت ذكراً أو أنثىٰ ، **والتكبيرات الأربع** أركان ، فإن زاد خامسة . . بطلت الصلاة ، و(**فاتحة الكتاب**) ركن بعد التكبيرة الأولىٰ ، **والصلاة علىٰ رسول الله** صلى الله عليه وسلم ركن بعد الثانية ، **ودعاء الميت** ركن بعد الثالثة ، ويقول : « اللهم ؛ لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده ، واغفر لنا وله » والدعاء المعروف ، وليس بعد الرابعة ذكر مفروض ، ولٰكن **يسلم** إن شاء تسليمة واحدة وهي الركن الأخير ، وإن شاء تسليمتين) .

(٧) رواه مسلم (٩٦٣) .

معنىً ، فالتكبيراتُ هيَ الأركانُ الظاهرةُ ، وجديرٌ بأنْ تقامَ مقامَ الركعاتِ في سائرِ الصلواتِ ، هـٰذا هوَ الأوجهُ عندي وإنْ كانَ غيرُهُ محتملاً .

والأخبارُ الواردةُ في فضْلِ صلاةِ الجنازةِ وتشييعِها مشهورةٌ ، فلا نطوِّلُ بإيرادِها[1] ، وكيفَ لا يعظمُ فضلُها وهيَ مِنْ فرائضِ الكفاياتِ ، وإنَّما تصيرُ نفلاً في حقِّ مَنْ لمْ تتعيَّنْ عليهِ بحضورِ غيرِهِ ، ثمَّ ينالُ بها فضلُ فرضِ الكفايةِ وإنْ لمْ يتعينْ ؛ لأنَّهُمْ بجملتِهِمْ قاموا بما هوَ فرضٌ ، وأسقطوا الحرجَ عَنْ غيرِهِمْ ، فلا يكونُ ذٰلكَ كنفلٍ لا يسقطُ بهِ فرضٌ عنْ أحدٍ .

ويستحبُّ طلبُ كثرةِ الجمعِ تبرُّكاً بكثرةِ الهممِ والأدعيةِ واشتمالِهِ علىٰ ذي دعوةٍ مستجابةٍ ؛ لما روىٰ كريبٌ عنِ ابنِ عباسٍ : أنَّهُ ماتَ لهُ ابنٌ فقالَ : يا كريبُ ؛ انظرْ ما اجتمعَ لهُ مِنَ الناسِ ، قالَ : فخرجتُ فإذا ناسٌ قدِ اجتمعوا لهُ ، فأخبرتُهُ ، فقالَ : تقولُ : همْ أربعونَ ؟ قالَ : قلتُ : نعمْ ، قالَ : أخرجوهُ ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما مِنْ رجلٍ مسلمٍ يموتُ فيقومُ علىٰ جنازتِهِ أربعونَ رجلاً لا يشركونَ باللهِ تعالىٰ شيئاً إلا شفَّعَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ »[2]

فإذا شيَّعَ الجنازةَ ، فوصلَ المقابرَ أوْ دخلَها ابتداءً . . قالَ : (السلامُ علىٰ أهلِ الديارِ مِنَ المؤمنينَ والمسلمينَ ، ويرحمُ اللهُ المستقدمينَ منَّا والمستأخرينَ ، وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكمْ لاحقونَ)[3]

والأولىٰ ألا ينصرفَ حتَّىٰ يُدفنَ الميِّتُ ، فإذا سوِّيَ على الميتِ قبرُهُ . . قامَ عليهِ وقالَ : (اللهمَّ ؛ عبدُكَ رُدَّ إليكَ ، فارؤُفْ بهِ وارحمْهُ ، اللهمَّ ؛ جافِ الأرضَ عنْ جنبيهِ ، وافتحْ أبوابَ السماءِ لروحِهِ ، وتقبلْهُ بقبولٍ حسَنٍ ، اللهمَّ ؛ إنْ كانَ محسناً . . فضاعفْ لهُ في إحسانِهِ ، وإنْ كانَ مسيئاً . . فتجاوزْ عنهُ)[4]

❁ ❁ ❁

الرابعةُ : تحيةُ المسجدِ : ركعتانِ فصاعداً ، سنةٌ مؤكدةٌ ، حتىٰ إنَّها لا تسقطُ وإنْ كانَ الخطيبُ في الخطبةِ يومَ الجمعةِ معَ تأكُّدِ وجوبِ الإصغاءِ إلى الخطيبِ .

ولوِ اشتغلَ بفرضٍ أوْ قضاءٍ . . تأدَّىٰ بهِ التحيةُ وحصلَ الفضلُ ؛ إذِ المقصودُ ألا يخلوَ ابتداءُ دخولِهِ عنِ العبادةِ الخاصَّةِ بالمسجدِ قياماً بحقِّ المسجدِ ، ولهـٰذا يكرَهُ أنْ يدخلَ المسجدَ علىٰ غيرِ وضوءٍ ، فإنْ دخلَ لعبورٍ أوْ جلوسٍ . . فليقلْ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) يقولُها أربعَ مراتٍ ، فيقالُ : إنَّها عدْلُ ركعتينِ في الفضلِ[5]

ومذهبُ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ : أنَّهُ لا تكرَهُ التحيةُ في أوقاتِ الكراهيةِ ؛ وهيَ بعدَ العصرِ ، وبعدَ الصبحِ ، ووقتَ الزوالِ ، ووقتَ الطلوعِ والغروبِ ؛ لما رُويَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّىٰ ركعتينِ بعدَ العصرِ ، فقيلَ لهُ : أما

---

(١) ومن أشهرها : ما رواه البخاري (١٣٢٥) ، ومسلم (٩٤٥) مرفوعاً : « من شهد الجنازة حتىٰ يصلي عليها . . فله قيراط ، ومن شهدها حتىٰ تدفن . . فله قيراطان ، قال : مثل الجبلين العظيمين » .

(٢) رواه مسلم (٩٤٨) .

(٣) رواه مسلم (٩٧٤) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٨٢٧) ، ويقال : ارؤفْ وارأفْ ، كلاهما صحيح .

(٥) كذا ذكر أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢٣/١) .

نهيتَنا عنْ هـٰذا ؟ فقالَ : « هما ركعتانِ كنتُ أصلّيهما بعدَ الظهرِ ، فشغلني عنهُما الوفدُ »[1] ، فأفادَ هـٰذا الحديثُ فائدتينِ :

إحداهما : أنَّ الكراهةَ مقصورةٌ علىٰ صلاةٍ لا سببَ لها ، ومِنْ أضعفِ الأسبابِ قضاءُ النوافلِ ؛ إذِ اختلفَ العلماءُ في أنَّ النوافلَ : هلْ تقضىٰ ؟ وإذا فعلَ مثلَ ما فاتَهُ . . هلْ يكونُ قضاءً ؟ فإذا انتفتِ الكراهيةُ بأضعفِ الأسبابِ . . فبالحريِّ أنْ تنتفيَ بدخولِ المسجدِ وهوَ سببٌ قويٌّ ، ولذٰلكَ لا تكرَهُ صلاةُ الجنازةِ إذا حضرتْ ، ولا صلاةُ الخسوفِ والاستسقاءِ في هـٰذهِ الأوقاتِ ؛ لأنَّ لها أسباباً .

الفائدةُ الثانيةُ : قضاءُ النوافلِ ؛ إذْ قضىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذٰلكَ ، ولنا فيهِ أسوةٌ حسنةٌ ، وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا غلبَهُ نومٌ أوْ مرضٌ فلمْ يقمْ تلكَ الليلةَ . . صلَّىٰ مِنَ النهارِ اثنتي عشرةَ ركعةً)[2]

وقدْ قالَ العلماءُ : (مَنْ كانَ في صلاةٍ ، ففاتَهُ جوابُ المؤذِّنِ ؛ فإذا سلَّمَ . . قضىٰ وأجابَ وإنْ كانَ المؤذِّنُ قدْ سكتَ) ، ولا معنى الآنَ لقولِ مَنْ يقولُ : إنَّ ذٰلكَ مثلُ الأوَّلِ وليسَ بقضاءٍ ؛ إذْ لو كانَ كذٰلكَ . . لما صلَّاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في وقتِ الكراهةِ .

أجلْ ؛ مَنْ كانَ لهُ وردٌ ، فعاقَهُ عنْ ذٰلكَ عذرٌ . . فينبغي ألا يرخِّصَ لنفسِهِ في تركِهِ ، بلْ يتداركُهُ في وقتٍ آخرَ ؛ حتَّىٰ لا تميلَ نفسُهُ إلى الدعةِ والرفاهيةِ ، وتداركُهُ حسنٌ علىٰ سبيلِ مجاهدةِ النفسِ ، ولأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالىٰ أدومُها وإنْ قلَّ »[3] ، فيقصدُ بهِ ألا يفتُرَ في دوامِ عملِهِ .

ورويَ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ عبدَ اللهَ عزَّ وجلَّ بعبادةٍ ثمَّ تركَها ملالةً . . مقتَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ »[4]

فليحذرْ أنْ يدخلَ تحتَ هـٰذا الوعيدِ ، وتحقيقُ هـٰذا الخبرِ : أنَّهُ مقتَهُ اللهُ تعالىٰ بتركِها ملالةً ، ولولا المقتُ والإبعادُ . . لما سلطتْ عليهِ الملالةُ .

❁ ❁ ❁

الخامسةُ : **ركعتانِ بعدَ الوضوءِ** : مستحبتانِ ؛ لأنَ الوضوءَ قربةٌ ، ومقصودَها الصلاةُ والأحداثُ عارضةٌ ، فربَّما يطرأُ الحدثُ قبلَ الصلاةِ فينتقضُ الوضوءُ ويضيعُ السعيُ ، فالمبادرةُ إلىٰ ركعتينِ استيفاءً لمقصودِ الوضوءِ قبلَ الفواتِ ، وعرفَ ذٰلكَ بحديثِ بلالٍ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دخلتُ الجنةَ ، فرأيتُ بلالاً فيها ، فقلتُ لبلالٍ :

---

(١) رواه البخاري (١٢٣٣) ، ومسلم (٨٣٤) .

(٢) رواه مسلم (٧٤٦) .

(٣) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٢) ، والمعنىٰ : أن العمل المداوم عليه وإن قلَّ فإنه من أحب الأعمال إلى الله تعالىٰ ؛ لأن النفس تألفه ، فيدوم بسببه الإقبال على الحق ، ولأن تارك العمل بعد الشروع كالمعرض بعد الوصل ، ولأن المواظب ملازم للخدمة ، وليس من لازم الباب كمن جدَّ ثم انقطع عن الأعتاب ، ولهـٰذا قال بعضهم : لا تقطع الخدمة ولو ظهر لك عدم القبول ، وكفىٰ لك شرفاً أن يقيمك في خدمته . « إتحاف » (٤٦٢/٣)

(٤) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن السني في « رياضة المتعلمين » موقوفاً علىٰ عائشة) ، ووجدت في حاشية كتاب « المغني » ما نصه : مصلح في نسخة « من عوَّد الله تعالىٰ » بالواو بدل (عبد) . « إتحاف » (٤٦٢/٣) . وفي « القوت » (٢٢/١ ، ٨٤) باللفظين : (عبد) ثم (عوَّده) .

بمَ سبقتني إلى الجنةِ ؟ » فقالَ بلالٌ : لا أعرفُ شيئاً إلا أني لا أحدثُ وضوءاً إلا أصلِّي عَقيبَهُ ركعتينِ ، أوْ كما قالَ[1]

❁ ❁ ❁

السادسةُ : ركعتانِ عندَ دخولِ المنزلِ وعندَ الخروجِ منهُ : روىٰ أبو سلمةَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا خرجتَ مِنْ منزلِكَ . . فصلِّ ركعتينِ يمنعانِكَ مخرجَ السوءِ ، وإذا دخلتَ إلىٰ منزلِكَ . . فصلِّ ركعتينِ يمنعانِكَ مدخلَ السوءِ »[2]

وفي معنىٰ هٰذا : كلُّ أمرٍ يبتدأُ بهِ ممَّا لهُ وقعٌ[3] ، ولذٰلكَ وردَ : ركعتانِ عندَ الإحرامِ[4] ، وركعتانِ عندَ ابتداءِ السفرِ[5] ، وركعتانِ عندَ الرجوعِ مِنَ السفرِ في المسجدِ قبلَ دخولِ البيتِ[6] ، فكلُّ ذٰلكَ مأثورٌ مِنْ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وكانَ بعضُ الصالحينَ إذا أكلَ أكلةً . . صلَّىٰ ركعتينِ ، وإذا شربَ شربةً . . صلَّىٰ ركعتينِ ، وكذٰلكَ في كلِّ أمرٍ يحدثُهُ[7]

وبدايةُ الأمورِ ينبغي أنْ يتبرَّكَ فيها بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وهيَ علىٰ ثلاثِ مراتبَ :

ـ بعضُها يتكرَّرُ مراراً ؛ كالأكلِ والشربِ ، فيبدأُ فيهِ باسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأُ فيهِ ببسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ . . فهوَ أبترُ »[8]

ـ الثانيةُ : ما لا يكثرُ تكرُّرُهُ ولهُ وقْعٌ ؛ كعقدِ النكاحِ ، وابتداءِ النصيحةِ والمشورةِ ، فالمستحبُّ في ذٰلكَ أنْ يصدِّرَ بحمدِ اللهِ سبحانَهُ ، فيقولُ المزوِّجُ : (الحمدُ للهِ ، والصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، زوجتُكَ ابنتي) ، ويقولُ القابلُ : (الحمدُ للهِ ، والصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قبلتُ النكاحَ) .

وكانتْ عادةُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم في ابتداءِ أداءِ الرسالةِ والنصيحةِ والمشورةِ تقديمَ التحميدِ .

ـ الثالثةُ : ما لا يتكرَّرُ كثيراً ، وإذا وقعَ . . دامَ وكانَ لهُ وقْعٌ ؛ كالسفرِ ، وشراءِ دارٍ جديدةٍ ، والإحرامِ ، وما يجري

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٩) ، وأصله في « البخاري » (١١٤٩) ، و« مسلم » (٢٤٥٨) ، وقوله : (**أو كما قال**) : هي زيادة حسنة يؤتىٰ بها للتأدب مع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إتحاف » (٤٦٤/٣) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٨١٤) بزيادة : « إذا خرجت من منزلك إلى الصلاة » .

(٣) وشأنٌ في النفوس ؛ أي : (ذو بال) كما سيأتي .

(٤) كما في « البخاري » (١٥٥٤) .

(٥) فقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٩١٤) مرفوعاً : « ما خلفَ عبد علىٰ أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد السفر » .

(٦) كما في « البخاري » (٤٤١٨) ، و« مسلم » (٧١٦) : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يقدم من سفر إلا نهاراً في الضحىٰ ، فإذا قدم . . بدأ بالمسجد فصلىٰ فيه ركعتين ثم جلس فيه .

(٧) يصلي عنده ركعتين ، وهٰذا مشهد المستغرق بنعمة الله تعالىٰ ، وتلك الصلاة عند كل ما يحدثه هي صلاة شكر علىٰ نعمه التي تتجدد عليه في كل أمر وحال يحدثه . « إتحاف » (٤٦٦/٣) .

(٨) هو برواية : (بالحمد لله) بدل (باسم الله) رواه أبو داوود (٤٨٤٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٢٥٨) ، وابن ماجه (١٨٩٤) ، والخبر : (أجذم ، أقطع) و(أبتر) لفظ النسائي ، أما رواية : (ببسم الله الرحمٰن الرحيم) فانظر للتفصيل كتاب « الأقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة » (ص ٨٢) وما بعدها .

مَجراهُ ، فيستحبُّ تقديمُ ركعتينِ عليهِ ، وأدناهُ الخروجُ مِنَ المنزلِ والدخولُ فيهِ ؛ فإنَّهُ نوعُ سفرٍ خفيفٍ .

❁ ❁ ❁

السابعةُ : صلاةُ الاستخارةِ : فمَنْ همَّ بأمرٍ وكانَ لا يدري عاقبتَهُ ولا يعرفُ أنَّ الخيرةَ في تركِهِ أوْ في الإقدامِ عليهِ . . فقدْ أمرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنْ يصلِّيَ ركعتينِ ، يقرأُ في الأولىٰ (فاتحةَ الكتابِ) و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وفي الثانيةِ (الفاتحةَ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، فإذا فرغَ . . دعا وقالَ : « اللهمَّ[1] ؛ إني أستخيرُكَ بعلمِكَ ، وأستقدرُكَ بقدرتِكَ ، وأسألُكَ مِنْ فضلِكَ العظيمِ ، فإنَّكَ تقدِرُ ولا أقدِرُ ، وتعلمُ ولا أعلمُ ، وأنتَ علَّامُ الغيوبِ ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هٰذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ودنيايَ وعاقبةِ أمري وعاجلِهِ وآجلِهِ[2] . . فقدِّرْهُ لي ، ويسِّرْهُ لي ، ثمَّ باركْ لي فيهِ ، وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هٰذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ودنيايَ وعاقبةِ أمري وعاجلِهِ وآجلِهِ . . فاصرفْني عنهُ ، واصرفْهُ عنِّي ، وقدِّرْ ليَ الخيرَ أينَما كانَ ، إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ » رواه جابرُ بنُ عبدِ اللهِ ، قالَ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعلِّمُنا الاستخارةَ في الأمورِ كلِّها كما يعلِّمُنا السورةَ مِنَ القرآنِ)[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا همَّ أحدُكُمْ بأمرٍ . . فليصلِّ ركعتينِ ، ثمَّ يسمي الأمرَ »[4] ، ويدعو بما ذكرْنا .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنْ أُعطيَ أربعاً . . لمْ يمنعْ أربعاً : مَنْ أُعطيَ الشكرَ . . لمْ يُمنعِ المزيدَ ، ومَنْ أُعطيَ التوبةَ . . لمْ يمنعِ القبولَ ، ومَنْ أُعطيَ الاستخارةَ . . لمْ يمنعِ الخيرةَ ، ومَنْ أُعطيَ المشورةَ . . لمْ يمنعِ الصوابَ)[5]

❁ ❁ ❁

الثامنةُ : صلاةُ الحاجةِ : فمَنْ ضاقَ عليهِ الأمرُ ومستْ حاجتُهُ في صلاحِ دينِهِ أوْ دنياهُ إلىٰ أمرٍ تعذَّرَ عليهِ . . فليصلِّ هٰذهِ الصلاةَ ؛ فقدْ رُويَ عنْ وهيبِ بنِ الوردِ أنَّهُ قالَ : إنَّ مِنَ الدعاءِ الذي لا يُردُّ أنْ يصلِّيَ العبدُ اثنتي عشرةَ ركعةً ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بأمِّ القرآنِ وآيةِ الكرسيِّ و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، فإذا فرغَ . . خرَّ ساجداً ثمَّ قالَ : سبحانَ الذي لبسَ العزَّ وقالَ بهِ ، سبحانَ الذي تعطَّفَ بالمجدِ وتكرَّمَ بهِ ، سبحانَ الذي أحصىٰ كلَّ شيءٍ بعلمِهِ ، سبحانَ الذي لا ينبغي التسبيحُ إلا لهُ ، سبحانَ ذي المنِّ والفضلِ ، سبحانَ ذي العزِّ والتكرُّمِ ، سبحانَ ذي الطَّوْلِ ، أسألُكَ بمعاقدِ عزِّكَ مِنْ عرشِكَ ، ومنتهى الرحمةِ مِنْ كتابِكَ ، وباسمِكَ الأعظمِ ، وجدِّكَ الأعلىٰ ، وكلماتِكَ التامَّاتِ التي لا يجاوزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ . . أنْ

---

(١) ذكر الحافظ الزبيدي لكلمة (اللهم) هنا معنىً لطيفاً ، ويمكن تعميمه دون تكلف أيضاً ، فقال : (اللهم ؛ أي : يا ألله اقصد ، فأدخل الإرادة ؛ لأن القصد الإرادة ، فحذف الهمزة واكتفىٰ بالهاء من الله لقرب المخرج والمجاورة ـ أي : الأصل : يا أللهُ هُمَّ ـ وليدل بذٰلك علىٰ عظيم الوصلة) . « إتحاف » (٣/٤٦٨) .

(٢) المشهور في هٰذا الدعاء : أو قال : « عاجل أمري » بدل قوله : « وعاقبة أمري » لٰكن جمع احتياطاً للروايات . « إتحاف » (٣/٤٦٨) .

(٣) رواه البخاري (١١٦٢) ، وفيه : (فاقدره) بدل (فقدِّره) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠١٦) .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٩٥) عن أبي بكر بن عياش عن بعض الحكماء . ونقل الحافظ الزبيدي عن بعض العارفين أنه قال : (يفعل ذٰلك في كل حاجة مهمة يريد فعلها أو قضاءها ، ثم يشرع في حاجته ، وإن كان له فيها خيرة . . سهل الله أسبابها إلىٰ أن تحصل ، فتكون عاقبتها محمودة ، وإن تعذرت الأسباب ولم يتفق تحصيلها . . فيعلم أن الله اختار تركها ، فلا يتألم لذٰلك ، وسيحمد عاقبتها تركاً كان أو فعلاً) . « إتحاف » (٣/٤٦٩) .

تصلِّيَ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، ثمَّ يسألُ حاجتَهُ التي لا معصيةَ فيها ؛ فيجابُ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ . قالَ وهيبٌ : بلَغنا أنَّهُ كانَ يقالُ : لا تعلِّموها سفهاءَكُمْ فيتعاونونَ بها علىٰ معصيةِ اللهِ تعالىٰ(١)

وهـٰذهِ الصلاةُ رواها ابنُ مسعودٍ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢)

❊ ❊ ❊

التاسعةُ : صلاةُ التسبيحِ : وهـٰذهِ الصلاةُ مأثورةٌ علىٰ وجهِها ، ولا تختصُّ بوقتٍ ولا بسببٍ ، ويستحبُّ ألا يخلوَ الأسبوعُ عنها مرةً واحدةً ، أوِ الشهرُ مرةً ؛ فقدْ روىٰ عكرمةُ عنِ ابنِ عباسٍ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ للعباسِ بنِ عبدِ المطلبِ : « ألا أعطيكَ ، ألا أمنحُكَ ، ألا أحبوكَ بشيءٍ إذا أنتَ فعلتَهُ . . غفرَ اللهُ لكَ ذنبكَ ؛ أوَّلَهُ وآخرَهُ ، قديمَهُ وحديثَهُ ، خطأَهُ وعمدَهُ ، سرَّهُ وعلانيتَهُ ؟ تصلِّي أربعَ ركعاتٍ ، تقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) وسورةً ، فإذا فرغتَ مِنَ القراءةِ في أوَّلِ ركعةٍ وأنتَ قائمٌ . . قلتَ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ خمسَ عشرةَ مرةً ، ثمَّ تركعُ فتقولُها وأنتَ راكعٌ عشراً ، ثمَّ ترفعُ رأسَكَ منَ الركوعِ فتقولُها عشراً ، ثمَّ تسجدُ فتقولُها عشراً ، ثمَّ ترفعُ رأسَكَ مِنَ السجودِ فتقولُها عشراً ، ثمَّ تسجدُ فتقولُها عشراً ، ثمَّ ترفعُ رأسَكَ فتقولُها عشراً ، فذٰلكَ خمسٌ وسبعونَ في كلِّ ركعةٍ ، تفعلُ ذٰلكَ في أربعِ ركعاتٍ ، إنِ استطعتَ أن تصلِّيَها في كلِّ يومٍ مرةً . . فافعلْ ، فإنْ لمْ تفعلْ . . ففي كلِّ جمعةٍ مرةً ، فإنْ لمْ تفعلْ . . ففي كلِّ شهرٍ مرةً ، فإنْ لمْ تفعلْ . . ففي السنةِ مرةً »(٣)

وفي روايةٍ أخرىٰ أنَّهُ يقولُ في أوَّلِ الصلاةِ : « سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، وتباركَ اسمُكَ ، وتعالىٰ جدُّكَ ، ولا إلـٰهَ غيرُكَ ، ثمَّ يسبِّحُ خمسَ عشرةَ تسبيحةً قبلَ القراءةِ ، وعشراً بعدَ القراءةِ ، والباقي كما سبقَ عشراً عشراً ، ولا يسبِّحُ بعدَ السجدةِ الأخرىٰ قاعداً » ، وهـٰذا هوَ الأحسنُ ، وهوَ اختيارُ ابنِ المباركِ(٤) ، والمجموعُ في الروايتينِ ثلاثُ مئةِ تسبيحةٍ ، فإنْ صلَّاها نهاراً . . فبتسليمةٍ واحدةٍ ، وإنْ صلَّاها ليلاً . . فبتسليمتينِ أحسنُ ؛ إذْ وردَ أنَّ صلاةَ الليلِ مثنىٰ مثنىٰ(٥) ، وإنْ زادَ بعدَ التسبيحِ قولَهُ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ . . فهوَ حسنٌ ، فقدْ وردَ ذٰلكَ في بعضِ الرواياتِ(٦)

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥٨/٨) .

(٢) عزاه الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (٥٣٧/١) للحاكم ، وقال : (قال أحمد بن حرب : قد جربته فوجدته حقاً ، وقال إبراهيم بن علي الديبلي : قد جربته فوجدته حقاً ، وقال الحاكم : قال لنا أبو زكريا : قد جربته فوجدته حقاً ، قال الحاكم : قد جربته فوجدته حقاً . تفرد به عامر بن خداش ، وهو ثقة مأمون) . ولصلاة الحاجة صورة أخرىٰ مشهورة جداً ، رواها جمع من أئمة المحدثين ، منهم الترمذي (٣٥٧٨) ، وابن ماجه (١٣٨٥) واللفظ له ، عن عثمان بن حنيف : أن رجلاً ضريرَ البصرِ أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادعُ الله لي أن يعافيني ، فقال : « إن شئت . . أخَّرْتُ لك وهو خير ، وإن شئت . . دعوتُ » ، فقال : ادعُهْ ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويصلي ركعتين ، ويدعو بهـٰذا الدعاء : « اللهمَّ ؛ إني أسألك ، وأتوجَّه إليك بمحمدٍ نبي الرحمة ، يا محمدُ ؛ إني قد توجهت بك إلىٰ ربي في حاجتي هـٰذه لتُقضى ، اللهمَّ ؛ فشفِّعه فيَّ » ، زاد النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٤٢١) : (فرجع وقد كُشف له عن بصره) .

(٣) رواه أبو داوود (١٢٩٧) ، وابن ماجه (١٣٨٧) .

(٤) رواها عنه حاكياً قوله الترمذيُّ (٤٨١) .

(٥) رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) ، وهـٰذا اختيار ابن المبارك كما في حديث الترمذي المشار إليه قبلُ .

(٦) قوت القلوب (٤٤/١) ، وقد عقد الحافظ الزبيدي فصلاً في « الإتحاف » (٤٧٧/٣) لدراسة أسانيد الرواية لصلاة التسبيح ، ونقل كلام الجلَّة من أهل العلم في الأخذ بها والحرص عليها ، ثم قال : (ولأبي موسى المديني الحافظ كتاب حافل سماه : « دستور الذاكرين ومنشور المتعبدين »

فهٰذهِ هيَ الصلواتُ المأثورةُ .

ولا يُستحبُّ شيءٌ مِنْ هٰذهِ النوافلِ في الأوقاتِ المكروهةِ إلا تحيةُ المسجدِ وما أوردناهُ قبلَها[1] ، وما أوردناهُ بعدَ التحيةِ مِنْ ركعتي الوضوءِ وصلاةِ السفرِ والخروجِ مِنَ المنزلِ والاستخارةِ . . فلا ؛ لأنَّ النهيَ مؤكَّدٌ ، وهٰذهِ الأسبابُ ضعيفةٌ ، فلا تبلغُ درجةَ الخسوفِ والاستسقاءِ والتحيةِ .

وقدْ رأيتُ بعضَ المتصوِّفةِ يصلي في الأوقاتِ المكروهةِ ركعتي الوضوءِ ، وذٰلكَ في غايةِ البعدِ ؛ لأنَّ الوضوءَ لا يكونُ سبباً للصلاةِ ، بلِ الصلاةُ سببُ الوضوءِ ، فينبغي أنْ يتوضَّأَ ليصلِّيَ لا أنَّهُ يصلِّي لأنَّهُ توضَّأَ ، وكلُّ محدثٍ يريدُ أنْ يصلِّيَ في وقتِ الكراهيةِ فلا سبيلَ لهُ إلا أنْ يتوضَّأَ ويصلِّيَ ، فلا يبقىٰ للكراهيةِ معنىً ، ولا ينبغي أنْ ينويَ ركعتي الوضوءِ كما ينوي ركعتي التحيةِ ، بلْ إذا توضَّأَ . . صلَّىٰ ركعتينِ تطوُّعاً كيلا يتعطَّلَ وضوءُهُ كما كانَ يفعلُهُ بلالٌ ، فهوَ تطوُّعٌ محضٌ يقعُ عَقيبَ الوضوءِ .

وحديثُ بلالٍ لمْ يدلَّ علىٰ أنَّ الوضوءَ سببٌ كالخسوفِ والتحيةِ حتَّىٰ ينويَ ركعتي الوضوءِ ، فيستحيلُ أنْ ينويَ بالصلاةِ الوضوءَ ، بلْ ينبغي أنْ ينويَ بالوضوءِ الصلاةَ ، وكيفَ ينتظمُ أنْ يقولَ في وضوئِهِ : أتوضَّأُ لصلاتي ، وفي صلاتِهِ يقولُ : أصلِّي لوضوئي ؟! بلْ مَنْ أرادَ أنْ يحرسَ وضوءَهُ عنِ التعطيلِ في وقتِ الكراهيةِ . . فلينوِ قضاءً إنْ كانَ يجوزُ أنْ يكونَ في ذمتِهِ قضاءُ صلاةٍ تطرَّقَ الخللُ إليها بسببٍ مِنَ الأسبابِ ، فإنَّ قضاءَ الصلواتِ في أوقاتِ الكراهيةِ غيرُ مكروهٍ ، فأمَّا نيَّةُ التطوُّعِ . . فلا وجهَ لهُ[2]

ففي النهي في أوقاتِ الكراهيةِ مهماتٌ ثلاثةٌ :

أحدُها : التوقي مِنْ مضاهاةِ عبدةِ الشمسِ .

والثاني : الاحترازُ مِنَ انتشارِ الشياطينِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشمسَ لتطلعُ ومعها قرنُ الشيطانِ ، فإذا طلعتْ . . قارنَها ، فإذا ارتفعتْ . . فارقَها ، فإذا استوتْ . . قارنَها ، فإذا زالتْ . . فارقَها ، فإذا تضيَّفتْ للغروبِ . . قارنَها ، فإذا غربتْ . . فارقَها »[3] ، فنهىٰ عنِ الصلاةِ في هٰذهِ الأوقاتِ ونبَّهَ بهِ على العلَّةِ .

والثالثُ : أنَّ سالكي طريقِ الآخرةِ لا يزالونَ يواظبونَ على الصلاةِ في جميعِ الأوقاتِ ، والمواظبةُ علىٰ نمطٍ واحدٍ مِنَ العباداتِ يورثُ المَلالَ ، ومهما مُنِعَ منها ساعةً . . زادَ النشاطُ وانبعثتِ الدواعي ، والإنسانُ حريصٌ علىٰ ما مُنِعَ منهُ ، ففي تعطيلِ هٰذهِ الأوقاتِ زيادةُ تحريضٍ وبعثٍ على انتظارِ انقضاءِ الوقتِ ، فخصِّصَتْ هٰذهِ الأوقاتُ بالتسبيحِ والاستغفارِ ؛ حذراً مِنَ المَلالِ بالمداومةِ ، وتفرُّجاً بالانتقالِ مِنْ نوعِ عبادةٍ إلىٰ نوعٍ آخرَ ، ففي الاستطرافِ والاستجدادِ لذةٌ ونشاطٌ ، وفي الاستمرارِ علىٰ شيءٍ واحدٍ استثقالٌ ومَلالٌ ؛ ولذٰلكَ لمْ تكنِ الصلاةُ سجوداً مجرَّداً ، ولا ركوعاً مجرَّداً ، ولا قياماً مجرَّداً ، بلْ رتبتِ العباداتُ مِنْ أعمالٍ مختلفةٍ وأذكارٍ متباينةٍ ؛ فإنَّ القلبَ يدركُ مِنْ كلِّ عملٍ منها لذةً جديدةً عندَ الانتقالِ إليها ، ولوْ واظبَ على الشيءِ الواحدِ . . لتسارعَ إليهِ المَلالُ .

جمع فيه فأوعى ، جمع فيه جميع ما ذكر مسنداً ، غير أن منه الضعيف ، فينبغي عمله وإن لم يصح ؛ لأنه لا ينافي ما صح ، لا سيما وهو في فضائل الأعمال ، والله أعلم) .

(١) وهي صلاة الكسوف والاستسقاء والجنازة ، فإن كلاً من ذٰلك مستثناة مثل تحية المسجد . « إتحاف » (٣/٤٨٣)

(٢) وهٰذا اختيار المصنف ، والمشهور في المذهب أن ركعتي الوضوء تؤديان في وقت الكراهة .

(٣) رواه النسائي (١/٢٧٥) ، وابن ماجه (١٢٥٣) ، **وتضيفت** : مالت .

فإذاً ؛ كانتْ هٰذهِ أموراً مهمةً في النهيِ عنِ الأوقاتِ المكروهةِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ أسرارٍ أخرَ ليسَ في قوةِ البشرِ الاطلاعُ عليها ، واللهُ ورسولُهُ أعلمُ بها ، فهٰذهِ المهماتُ لا تتركُ إلا بأسبابٍ مهمَّةٍ في الشرعِ ؛ مثلَ قضاءِ الصلواتِ ، وصلاةِ الاستسقاءِ ، والخسوفِ ، وتحيةِ المسجدِ ، فأمَّا ما ضعفَ عنْ هٰذهِ . . فلا ينبغي أنْ يصادمَ بها مقصودُ النهيِ ، هٰذا هوَ الأوجهُ عندَنا . **واللهُ أعلمُ بالصوابِ** [1]

❁ ❁ ❁

تم كتاب أسرار الصلاة ومهماتها

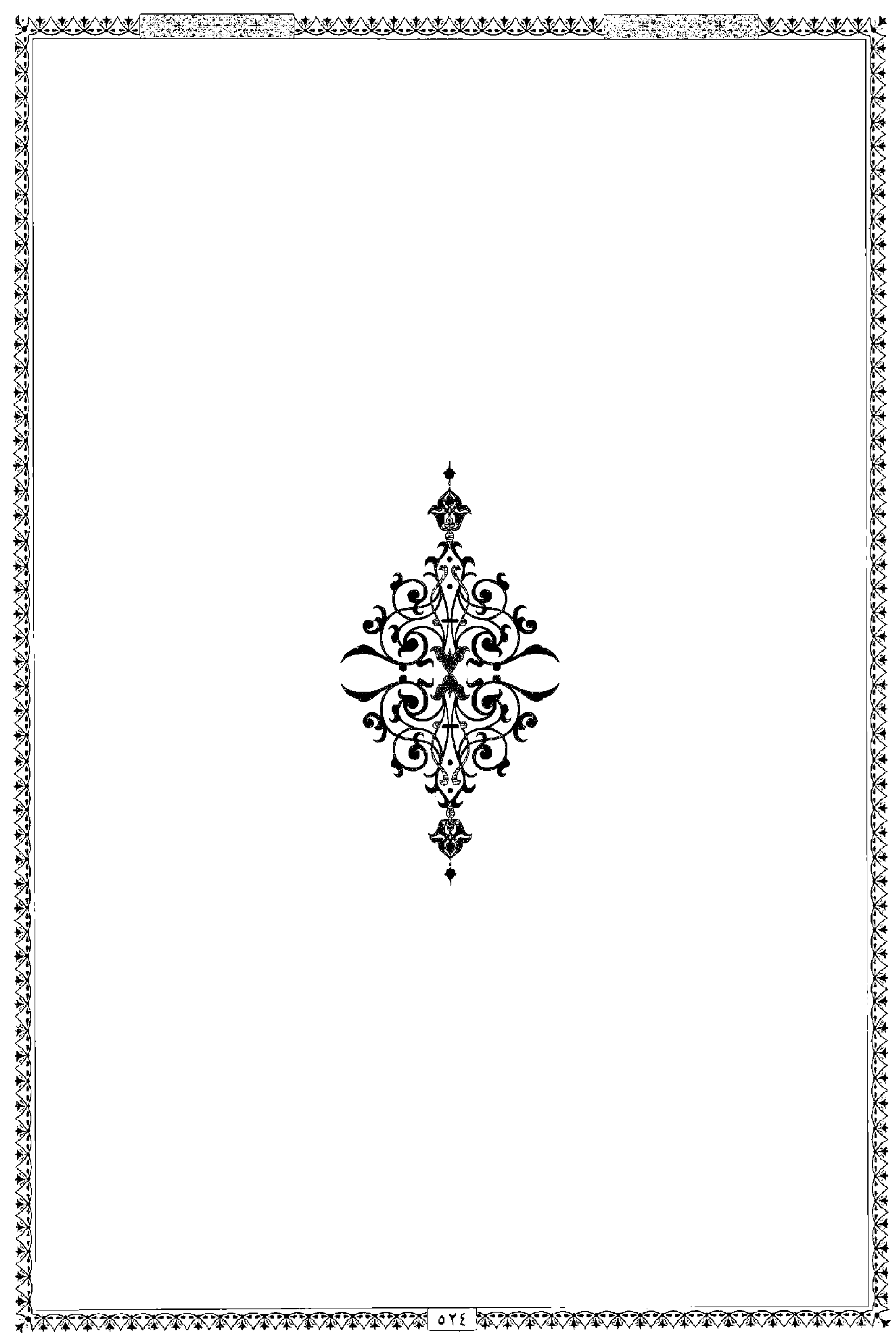
وهو الكتاب الرابع من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدين

بحمد الله وحسن توفيقه ، وصلاته على سيد المرسلين محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين

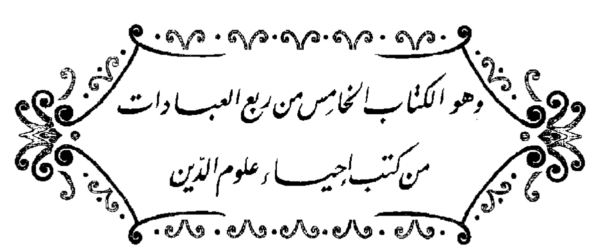
يتلوه كتاب أسرار الزكاة

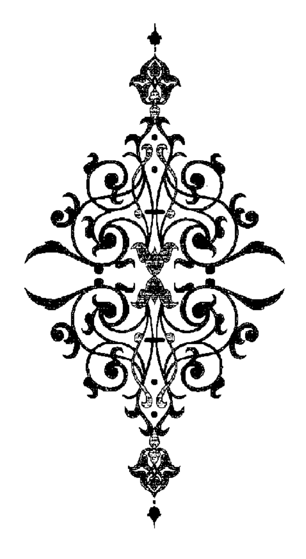
---

(١) في (ز) : (قوبل بأصله وصحح) .



كتاب
أسرار الزكاة





كتاب أسرار الزكاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أسعدَ وأشقىٰ ، وأماتَ وأحيا ، وأضحكَ وأبكىٰ ، وأوجدَ وأفنىٰ ، وأفقرَ وأغنىٰ ، وأضرَّ وأقنىٰ[1] ، الذي خلقَ الحيوانَ مِنْ نطفةٍ تُمنىٰ ، ثمَّ تفرَّدَ عنِ الخلقِ بوصْفِ الغنىٰ ، ثمَّ خصَّصَ بعضَ عبادِهِ بالحسنىٰ ، فأفاضَ عليهِ مِنْ نعمِهِ ما أيسرَ بهِ منْ شاءَ واستغنىٰ ، وأحوجَ إليهِ مَنْ أخفقَ في رزقِهِ وأكدىٰ[2] ؛ إظهاراً للامتحانِ والابتلا ، ثمَّ جعلَ الزكاةَ للدينِ أساساً ومبنىٰ ، وبيَّنَ أنْ بفضلِهِ تزكَّىٰ مِنْ عبادِهِ مَنْ تزكَّىٰ ، ومِنْ غناهُ زكَّىٰ مالَهُ مَنْ زكَّىٰ[3] .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ المصطفىٰ سيِّدِ الورىٰ وشمسِ الهدىٰ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ المخصوصينَ بالعلمِ والتقىٰ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ الزكاةَ إحدىٰ مباني الإسلامِ ، وأردفَ بذكرِها الصلاةَ التي هيَ أعلى الأعلامِ ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ .

وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الإسلامُ علىٰ خمسٍ : شهادةِ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، وإقامِ الصلاةِ ، وإيتاءِ الزكاةِ . . . »[4] .

وشدَّدَ الوعيدَ على المقصِّرينَ فيها فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[5]

ومعنى الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ : إخراجُ حقِّ الزكاةِ ، قالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : كنتُ في نفرٍ مِنْ قريشٍ ، فمرَّ أبو ذرٍّ فقالَ : (بشِّرِ الكانزينَ بكيٍّ في ظهورِهِمْ يخرجُ مِنْ جنوبِهِمْ ، وبكيٍّ مِنْ قِبَلِ أقفائِهِمْ يخرجُ مِنْ جباهِهِمْ)[6] ، وفي روايةٍ أخرىٰ : أنَّهُ يُوضَعُ علىٰ حَلَمَةِ ثديِ أحدِهِمْ فيخرجُ مِنْ نُغْضِ كتفِهِ ، ويُوضعُ علىٰ نُغْضِ كتفِهِ حتَّىٰ يخرجَ مِنْ حَلَمَةِ ثديِهِ يتزلزلُ[7]

---

(١) **أقنىٰ** : أعطىٰ وأرضىٰ ، فيكون المعطوف عليه (أضرَّ) بمعنىٰ حَرَم ومنع .

(٢) الضمير في (إليه) عائد إلىٰ بعض العباد المفاض عليه ، **وأكدىٰ** : تعب . « إتحاف » (٤/٦) .

(٣) والضمير في (غناه) عائد إليه سبحانه ، وذلك لأن القدر المعين من مال المزكّي المسمىٰ زكاة ليس من ماله ، بل هو أمانة عنده لتوجه الأمر عليه بالإخراج ، فمن يزكّي إنما يزكي بغناه جلَّ وعزَّ . « إتحاف » (٤/٦) .

(٤) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .

(٥) **الكنز في الشرع** : كل مال لم يخرج منه الواجب وإن لم يكن مدفوناً . « إتحاف » (٤/٧) .

(٦) رواه مسلم (٩٩٢) ، وزاد : (ثم تنحَّىٰ فقعد ، قال : قلتُ : من هـٰذا ؟ قالوا : هـٰذا أبو ذر ، قال : فقمتُ إليه ، فقلت : ما شيء سمعتك تقولُ قُبيلُ ؟! قال : ما قلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيِّهم صلى الله عليه وسلم ، قال : قلت : ما تقول في هـٰذا العطاء ؟ قال : خذه ؛ فإن فيه اليوم معونةً ، فإذا كان ثمناً لدينك . . فدعْهُ) .

(٧) رواه البخاري (١٤٠٧) ، **والنُّغْض** : العظم الرقيق علىٰ طرف الكتف ، وقيل : أعلى الكتف .

وقالَ أبو ذرٍّ : انتهيتُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ جالسٌ في ظلِّ الكعبةِ ، فلمَّا رآني . . قالَ : « همُ الأخسرونَ وربِّ الكعبةِ » ، فقلتُ : ومَنْ هُم ؟ قالَ : « الأكثرونَ أموالاً إلا مَنْ قالَ هٰكذا وهٰكذا وهٰكذا ـ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفِهِ وعنْ يمينِهِ وعنْ شمالِهِ ـ وقليلٌ ما هُمْ ، ما مِنْ صاحبِ إبلٍ ولا بقرٍ ولا غنمٍ لا يؤدِّي زكاتَها إلا جاءتْ يومَ القيامةِ أعظمَ ما كانتْ وأسمنَهُ ، تنطحُهُ بقرونِها وتطؤُهُ بأظلافِها ، كلَّما نفدتْ أُخراها . . عادتْ عليْهِ أُولاها ، حتَّىٰ يُقضىٰ بينَ الناسِ »[1]

وإذا كانَ هٰذا التشديدُ مخرَّجاً في « الصحيحينِ » . . فقدْ صارَ مِنْ مهمَّاتِ الدينِ الكشفُ عنْ أسرارِ الزكاةِ ، وشروطِها الجليَّةِ والخفيَّةِ ، ومعانيها الظاهرةِ والباطنةِ ، معَ الاقتصارِ علىٰ ما لا يستغني عنْ معرفتِهِ مؤدِّي الزكاةِ وقابضُها .

وينكشفُ ذٰلكَ في أربعةِ فصولٍ :

الأوَّلُ : في أنواعِ الزكاةِ وأسبابِ وجوبِها .

الثاني : في أدائِها وشروطِها الظاهرةِ والباطنةِ .

الثالثُ : في القابضِ وشروطِ استحقاقِهِ وآدابِ قبضِهِ .

الرابعُ : في صدقةِ التطوُّعِ وفضلِها .

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٠ ، ٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) ، والجملة المعترضة بيان لجهة الإشارة إلى الجوانب التي هي كناية عن صرف المال في وجوه الخير .

الفَصْلُ الأَوَّلُ
في أنواع الزّكوات وأسباب وجوبها

والزكاةُ باعتبارِ متعلَّقاتِها ستَّةُ أنواعٍ : زكاةُ النَّعَمِ ، والنقدينِ ، والتجارةِ ، وزكاةُ الرِّكازِ والمعادِنِ ، وزكاةُ المُعَشَّراتِ ، وزكاةُ الفطرِ .

النّوع الأوّل : زكاة النَّعَم

ولا تجبُ هٰذهِ الزكاةُ وغيرُها إلا علىٰ حرٍّ مسلمٍ ، ولا يشترطُ البلوغُ والعقلُ ، بلْ تجبُ في مالِ الصبيِّ والمجنونِ ، هٰذا شرطُ مَنْ تجبُ عليهِ الزكاةُ .

❁ ❁ ❁

فأما المالُ . . فشروطُهُ خمسةٌ : أنْ يكونَ نَعَماً ، سائمةً ، باقياً حولاً ، نصاباً كاملاً ، مملوكاً على الكمالِ :

الشرطُ الأوَّلُ : كونُهُ نَعَماً :

فلا زكاةَ إلا في الإبلِ والبقرِ والغنمِ ، أمَّا الخيلُ والبغالُ والحميرُ والمتولِّدُ مِنْ بينِ الظباءِ والغَنَمِ . . فلا زكاةَ فيها .

❁ ❁ ❁

الثاني : السومُ :

فلا زكاةَ في معلوفةٍ ، وإذا أُسيمتْ في وقتٍ وعَلَفَتْ في وقتٍ ، فظهرتْ بذٰلكَ مؤنتُها . . فلا زكاةَ فيها .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : الحولُ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا زكاةَ في مالٍ حتَّىٰ يَحولَ عليهِ الحولُ »[1] ، ويستثنىٰ مِنْ هٰذا نتاجُ المالِ ؛ فإنَّهُ ينسحبُ عليهِ حكمُ المالِ ، وتجبُ الزكاةُ فيهِ بحولِ الأصولِ ، ومهما باعَ المالَ في أثناءِ الحولِ ، أوِ استُحِقَّ ، أوْ وهبَ . . انقطعَ الحولُ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : كمالُ المِلْكِ والتصرُّفِ :

فتجبُ الزكاةُ في الماشيةِ المرهونةِ ؛ لأنَّهُ هوَ الذي حَجَرَ علىٰ نفسِهِ فيها ، ولا تجبُ في الضالِّ والمغصُوبِ إلا إذا عادَ بجميعِ نَمائِهِ ، فتجبُ فيهِ زكاةُ ما مضىٰ عندَ عَوْدِهِ ، ولوْ كانَ عليهِ دينٌ مستغرقٌ لمالِهِ . . فلا زكاةَ عليهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ غنيّاً بِهِ ، إذِ الغنىٰ ما يفضُلُ عنِ الحاجةِ[2] .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥٧٢) ، وابن ماجه (١٧٩٢) .

(٢) وقال المصنف في « الخلاصة » (ص ١٨٤) : (إذا ملك نصاباً وعليه مثل ما له دينٌ . . فأظهر القولين أنه يلزمه الزكاة ، خلافاً لأبي حنيفة) ، وقوله هنا هو قول الشافعي القديم ، وبه قال أبو حنيفة . « إتحاف » (١٩/٤) .

الخامسُ : كمالُ النصابِ :

أمَّا الإبلُ : فلا شيءَ فيها حتَّىٰ تبلغَ خمساً ، فإذا بلغتْ خمساً . . ففيها جذعةٌ منَ الضأْنِ ، والجَذَعَةُ : هيَ التي تكونُ في السنةِ الثانيةِ ، أو ثنيَّةٌ مِنَ المعزِ ؛ وهيَ التي تكونُ في السنةِ الثالثةِ ، وفي عشْرٍ . . شاتانِ ، وفي خمسَ عشرةَ . . ثلاثُ شياهٍ ، وفي عشرينَ . . أربعُ شياهٍ .

وفي خمسٍ وعشرينَ . . بنتُ مخاضٍ[1] ؛ وهيَ التي في السنةِ الثانيةِ ، فإنْ لمْ يكنْ في مالِهِ بنتُ مخاضٍ . . فابنُ لبونٍ ذكرٌ ؛ وهوَ الذي في السنةِ الثالثةِ ، يؤخذُ وإنْ كانَ قادراً علىٰ شرائِها[2] ، وفي ستٍ وثلاثينَ . . بنتُ لبونٍ ، ثمَّ إذا بلغتْ ستّاً وأربعينَ . . ففيها حِقَّةٌ ؛ وهيَ التي في السنةِ الرابعةِ ، فإذا صارتْ إحدىٰ وستينَ . . ففيها جَذَعةٌ ؛ وهيَ التي في السنةِ الخامسةِ ، فإذا صارتْ ستّاً وسبعينَ . . ففيها بنتا لبونٍ ، فإذا صارتْ إحدىٰ وتسعينَ . . ففيها حِقَّتانِ ، فإذا صارتْ إحدىٰ وعشرينَ ومئةً . . ففيها ثلاثُ بناتِ لبونٍ ، فإذا صارتْ مئةً وثلاثينَ . . فقدِ استقرَّ الحسابُ ؛ ففي كلِّ خمسينَ . . حِقَّةٌ ، وفي كلِّ أربعينَ . . بنتُ لبونٍ .

وأمَّا البقرُ : فلا شيءَ فيها حتَّىٰ تبلغَ ثلاثينَ ، فإذا بلغتْ ثلاثينَ . . ففيها تَبِيعٌ ؛ وهوَ الذي في السنةِ الثانيةِ ، ثمَّ في أربعينَ . . مُسنَّةٌ ؛ وهيَ التي في السنةِ الثالثةِ ، ثمَّ في الستينَ . . تبيعانِ ، واستقرَّ الحسابُ بعدَ ذٰلكَ ؛ ففي كلِّ أربعينَ . . مُسنَّةٌ ، وفي كلِّ ثلاثينَ . . تبيعٌ[3] .

وأمَّا الغنمُ : فلا زكاةَ فيها حتَّىٰ تبلغَ أربعينَ ، فإذا بلغتْ أربعينَ . . ففيها شاةٌ جَذَعَةٌ مِنَ الضأْنِ أوْ ثنيَّةٌ مِنَ المعزِ ، ثمَّ لا شيءَ فيها حتَّىٰ تبلغَ مئةً وعشرينَ وواحدةً . . ففيها شاتانِ ، إلىٰ مئتَي شاةٍ وواحدةٍ . . ففيها ثلاثُ شياهٍ ، إلىٰ أربعِ مئةٍ . . ففيها أربعُ شياهٍ ، ثمَّ استقرَّ الحسابُ ، ففي كلِّ مئةٍ . . شاةٌ .

وصدقةُ الخَلِيطَينِ كصدقةِ المالكِ الواحدِ في النُّصبِ ، فإذا كانَ بينَ رجلينِ أربعونَ مِنَ الغنمِ . . ففيها شاةٌ ، وإنْ كانَ بينَ ثلاثةِ نفرٍ مئةُ شاةٍ وعشرونَ . . ففيها شاةٌ واحدةٌ علىٰ جميعِهِمْ .

وخُلطةُ الجوارِ كخُلطةِ الشيوعِ[4] ، ولٰكنْ يُشترطُ : أنْ يريحا معاً ، ويسقيا معاً ، ويحلبا معاً ، ويسرحا معاً ، ويكونَ المرعىٰ معاً ، ويكونَ إنزاءُ الفحلِ معاً ، وأنْ يكونا جميعاً مِنْ أهلِ الزكاةِ ؛ فلا حكمَ للخُلطةِ معَ الذمِّي والمكاتبِ .

ومهما نزلَ في واجبِ الإبلِ عنْ سنٍّ إلىٰ سنٍّ . . فهوَ جائزٌ ما لمْ يجاوزْ بنتَ المخاضِ في النزولِ ، ولٰكنْ يضمُّ إليهِ

---

(١) **المخاض** : اسم للنوق الحوامل ، واحدتها : خَلِفَة ، لا واحد لها من لفظها ، وبنت مخاض وابن مخاض : ما دخل في السنة الثانية ؛ لأن أمه لحقت بالمخاض ، وهي الحوامل وإن لم تكن حاملاً . « إتحاف » (٢٣/٤) .

(٢) أي : لا يكلف شراء بنت مخاض ، بل يجزئ ابن لبون عنها وإن كان أقلَّ قيمة منها . انظر « العزيز » (٤٧٨/٢) ، و« مغني المحتاج » (٥٥٠/١) .

(٣) ويتغيَّر الفرض بعشرٍ عشرٍ ؛ ففي سبعينَ . . تبيع ومسنَّة ، وفي ثمانين . . مسنتان ، وفي تسعينَ . . ثلاثة أتبعة ، وفي مئة . . مسنة وتبيعان ، وهٰكذا أبداً . « إتحاف » (٢٧/٤) .

(٤) **الخلطة علىٰ نوعين** : خلطة اشتراك ، وخلطة جوار ، وقد يعبَّر عن الأول بخلطة الأعيان وبخلطة الشيوع ، وعن الثاني بخلطة الأوصاف ، **والمراد بالأول** : ألا يتميز نصيب أحد الرجلين أو الرجال عن نصيب غيره ؛ كماشية ورثها قوم أو ابتاعوها معاً ، فهي شائعة بينهم ، **وبالثاني** : أن يكون مال كل واحد معيناً متميِّزاً عن مال غيره ، ولٰكن يجاوره مجاورة المال ـ وسيذكر شروط هٰذه المجاورة ـ ولكل واحدة من الخلطتين أثر في الزكاة ، فتجعلان مال الشخصين أو الأشخاص بمنزلة الواحد ، ثم قد توجب الزكاة أو تكثرها . « إتحاف » (٢٩/٤) .

جبرانَ السنّ ؛ لسنةٍ واحدةٍ شاتينِ أو عشرينَ درهماً ، ولسنتينِ أربعَ شياهٍ أو أربعينَ درهماً ، ولهُ أنْ يصعدَ في السنّ ما لمْ يجاوزِ الجَذَعَةَ في الصعودِ ، ويأخذُ الجبرانَ مِنَ الساعي مِنْ بيتِ المالِ [١]

ولا تؤخذُ في الزكاةِ مريضةٌ إذا كانَ بعضُ المالِ صحيحاً ولو واحدةً ، ويُؤخذُ مِنَ الكرائمِ كريمةٌ ومِنَ اللئامِ لئيمةٌ [٢] ، ولا يُؤخذُ مِنَ المالِ الأكولةُ ولا الماخضُ ولا الرُّبَّى ، ولا الفحْلُ ، ولا حَزَراتُ المال [٣]

* * *

---

(١) فمن وجب عليه بنت مخاض وليست عنده . . جاز أن يخرج بنت لبون ويأخذ من الساعي الجبران . « إتحاف » (٤/٣١) .

(٢) فيتخيَّرُ الوسط من أمواله ، فلو وجب عليه بنت لبون . . فلا يؤخذ خيار بنات لبون ، بل أوسطها . انظر « الإتحاف » (٤/٣٢) .

(٣) **الرُّبَّى** : الشاة التي وضعت حديثاً ، **وحزرات المال** : خياره التي تحرزها العين لحسنها . انظر « المهذب » (١/٢٠٤) ، وفي بعض النسخ : (غرّاء) بدل (حزرات) وهما بمعنىً ، والمثبت لفظ المصنف في « الخلاصة » (ص ١٧٩) .

النوع الثاني زكاة المعشرات

فيجبُ العشْرُ في كلِّ مستنْبَتٍ مقتاتٍ بلغَ ثمانَ مئةِ مَنٍّ ، ولا شيءَ فيما دونَها ، ولا في الفواكهِ والقطْنِ ، ولـٰكنْ في الحبوبِ التي تُقتاتُ ، وفي التمرِ والزبيبِ ، ويعتبرُ أنْ تكونَ ثمانَ مئةِ مَنٍّ تمراً أوْ زبيباً ، لا رطباً وعنباً ، ويُخرجُ ذٰلكَ بعدَ التجفيفِ ، ويكمَّلُ مالُ أحدِ الخليطينِ بمالِ الآخرِ في خُلطةِ الشيوعِ ؛ كالبستانِ المشتركِ بينَ ورثةٍ لجميعِهِمْ ثمانُ مئةِ مَنٍّ مِنْ زبيبٍ ، فيجبُ علىٰ جميعِهِمْ ثمانونَ منّاً مِنْ زبيبٍ بقدْرِ حصصِهِمْ ، ولا يعتبرُ خُلطةُ الجوارِ فيهِ ، ولا يكمَّلُ نصابُ الحنطةِ بالشعيرِ ، ويكمَّلُ نصابُ الشعيرِ بالسُّلْتِ ؛ فإنَّهُ نوعٌ منهُ[1]

هـٰذا قدْرُ الواجبِ إنْ كانَ يُسقىٰ بسَيْحٍ أوْ قناةٍ[2]

فإنْ كانَ يُسقىٰ بنضْحٍ أوْ داليةٍ[3] . . فيجبُ نصفُ العشْرِ ؛ فإنِ اجتمعا . . فالأغلبُ يُعتبرُ .

وأمَّا صفةُ الواجبِ : فالتمرُ والزبيبُ اليابسُ ، والحبُّ اليابسُ بعدَ التنقيةِ ، ولا يُؤخذُ عنبٌ ولا رطبٌ إلا إذا حلَّتْ بالأشجارِ آفةٌ وكانتِ المصلحةُ في قطعِها قبلَ تمامِ الإدراكِ ، فيؤخذُ الرطبُ فيكالُ ؛ تسعةٌ للمالكِ وواحدٌ للفقيرِ ، ولا يمنعُ مِنْ هـٰذهِ القسمةِ قولُنا : (إنَّ القسمةَ بيعٌ) ، بلْ يرخَّصُ في مثلِ هـٰذا للحاجةِ[4]

ووقتُ الوجوبِ : أنْ يبدوَ الصلاحُ في الثمارِ ، وأنْ يشتدَّ الحبُّ .

ووقتُ الأداءِ : بعدَ الجفافِ .

* * *

---

(١) **السُّلت** : هو الشعير الحامض ، أو الذي لا قشر له ، أو نوع من أنواعه كما ذكر .

(٢) **السيح** : الماء الجاري علىٰ وجه الأرض .

(٣) **الدالية** : شيء يتخذ من خوص وخشب يُسقىٰ به بحبال تشدُّ في رأس جذع طويل ، وتطلق الدالية على الأرض التي تسقىٰ بالدلو كذٰلك .

(٤) فلا يراعىٰ فيها تعبدات الربا . « إتحاف » (٣٧/٤) .

النوع الثالث : زكاة النقدين

فإذا تمَّ الحولُ علىٰ وزنِ مئتي درهمٍ بوزْنِ مكَّةَ نُقْرةً خالصةً[1] . . ففيها خمسةُ دراهمَ ، وهوَ ربعُ العُشرِ ، وما زادَ . . فبحسابِهِ ولوْ درهماً .

ونصابُ الذهبِ : عشرونَ مثقالاً خالصاً بوزنِ مكَّةَ ، ففيها ربعُ العشرِ ، وما زادَ . . فبحسابِهِ .

وإنْ نقصَ مِنَ النصابِ حبةٌ . . فلا زكاةَ .

وتجبُ علىٰ مَنْ معَهُ دراهمُ مغشوشةٌ إذا كانَ فيها هٰذا المقدارُ مِنَ النُّقرةِ الخالصةِ .

وتجبُ الزكاةُ في التبرِ وفي الحُليِّ المحظورِ[2] ؛ كأواني الذهبِ والفضةِ ، ومراكبِ الذهبِ للرجالِ ، ولا تجبُ في الحُليِّ المباحِ .

وتجبُ في الدينِ الذي هوَ علىٰ مليءٍ ، ولٰكنَّها تجبُ عندَ الاستيفاءِ ، وإنْ كانَ الدينُ مؤجَّلاً . . فلا تجبُ إلا بعدَ حلولِ الأجلِ .

* * *

(١) النقرة : القطعة المذابة من الفضة ، وتطلق على المسبوكة منها .

(٢) التبر : ما كان من الذهب والفضة غير مضروب .

النوع الرّابع : زكاة التجـارة

وهيَ كزكاةِ النقدينِ ، وإنَّما ينعقدُ الحولُ مِنْ وقتِ مِلكِ النقْدِ الذي بهِ اشترى البضاعةَ إنْ كانَ النقدُ نصاباً ، وإنْ كانَ ناقصاً ، أوِ اشترىٰ بعَرَضٍ علىٰ نيَّةِ التجارةِ . . فالحولُ مِنْ وقتِ الشراءِ .

ويؤدِّي الزكاةَ مِنْ نقدِ البلدِ ، وبهِ يقوَّمُ ، فإنْ كانَ ما بهِ الشراءُ نقداً وكانَ نصاباً كاملاً . . كانَ التقويمُ بهِ أولىٰ مِنْ نقدِ البلدِ (١)

ومَنْ نوى التجارةَ في مالِ قُنيةٍ . . فلا ينعقدُ الحولُ بمجرَّدِ نيتِهِ حتَّىٰ يشتريَ بهِ شيئاً ، ومهما قطعَ نيَّةَ التجارةِ قبلَ تمامِ الحولِ . . سقطتِ الزكاةُ ، والأولىٰ أنْ يؤدِّيَ زكاةَ تلكَ السنةِ .

وما كانَ مِنْ ربحٍ في السلعةِ في آخرِ الحولِ . . وجبتِ الزكاةُ فيهِ لحولِ رأْسِ المالِ ، ولمْ يُستأنفْ لهُ حولٌ كما في النتاجِ .

وأموالُ الصيارفةِ لا ينقطعُ حولُها بالمبادلةِ الجاريةِ بينَهُمْ كسائرِ التجاراتِ ، وزكاةُ ربحِ مالِ القراضِ على العاملِ ـ أعني : حصتَهُ ـ وإنْ كانَ قبلَ القسمةِ ، هٰذا هوَ الأقيسُ .

* * *

---

(١) بأن اشترىٰ عرضاً بمئتي درهم أو عشرين ديناراً ، فيقوم آخر الحول به . « إتحاف » (٤/٤٤) .

النوع الخامس : زكاة الرِّكاز والمعدن

والرِّكازُ : مالٌ دُفِنَ في الجاهليةِ ووجدَ في أرضٍ لمْ يجرِ عليها في الإسلامِ ملكٌ .

فعلىٰ واجِدِهِ في الذهبِ والفضةِ منهُ الخمسُ ، والحولُ غيرُ معتبرٍ ، والأولىٰ ألا يُعتبرَ النصابُ أيضاً ؛ لأنَّ إيجابَ الخمسِ يؤكِّدُ شبهَهُ بالغنيمةِ ، واعتبارُهُ أيضاً ليسَ بعيداً ؛ لأنَّ مصرفَهُ مصرفُ الزكاةِ ، ولذٰلكَ يخصَّصُ على الصحيحِ بالنقدينِ .

وأمَّا المعادنُ : فلا زكاةَ فيما استخرجَ منها سوى الذهبِ والفضَّةِ ، ففيهما بعدَ الطحنِ والتخليصِ ربعُ العشرِ علىٰ أصحِّ القولينِ ، وعلىٰ هٰذا : يعتبرُ النصابُ ، وفي الحولِ قولانِ .

وفي قولٍ يجبُ الخمسُ ، فعلىٰ هٰذا : لا يعتبرُ الحولُ ، وفي النصابِ قولانِ .

والأشبهُ ـ والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ ـ أنْ يلحقَ في قَدْرِ الواجبِ بزكاةِ التجارةِ ؛ فإنَّهُ نوعُ اكتسابٍ ، وفي الحولِ بالمُعَشَّراتِ ، فلا يعتبرُ الحولُ ؛ لأنَّهُ عينُ الرفقِ ، ويعتبرُ النصابُ كالمعشَّراتِ .

والاحتياطُ : أنْ يُخرجَ الخمسَ مِنَ القليلِ والكثيرِ ، ومِنْ غيرِ النقدينِ أيضاً ؛ خروجاً عنْ شبهةِ هٰذهِ الاختلافاتِ ، فإنَّها ظنونٌ قريبةٌ مِنَ التعارضِ ، وجزْمُ الفتوىٰ فيها مخطرٌ لتعارضِ الاشتباهِ .

* * *

النوع السادس صدقة الفطر

وهيَ واجبةٌ علىٰ لسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [١] ، علىٰ كلِّ مسلمٍ فضَلَ عنْ قوتِهِ وقوتِ مَنْ يقوتُهُ يومَ الفطرِ وليْلَتَهُ صاعٌ ممَّا يقتاتُ بصاعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ منوانِ وثلثا مَنٍّ ، يخرجُهُ مِنْ جنسِ قوتِهِ أو مِنْ أفضلَ منهُ ، فإنِ اقتاتَ الحنطةَ . . لمْ يجزِ الشعيرُ ، وإنِ اقتاتَ حبوباً مختلفةً . . اختارَ خيرَها ، ومِنْ أيِّها أخرجَ أجزأَهُ .

وقسمتُها كقسمةِ زكاةِ الأموالِ ، فيجبُ فيها استيعابُ الأصنافِ ، ولا يجوزُ إخراجُ الدقيقِ والمسوّسِ .

ويجبُ على الرجلِ المسلمِ فطرةُ زوجتِهِ المسلمةِ ، ومماليكِهِ وأولادِهِ ، وكلِّ قريبٍ هوَ في نفقتِهِ ؛ أعني : مَنْ تجبُ عليهِ نفقتُهُ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ والأولادِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَدُّوا صدقةَ الفطرِ عَمَّنْ تَمُونُونَ » [٢]

وتجبُ صدقةُ العبدِ المشتركِ على الشريكينِ ، ولا تجبُ صدقةُ العبدِ الكافرِ .

وإنْ تبرعتِ الزوجةُ بالإخراجِ عنْ نفسِها . . أجزأتْهُ ، وللزوجِ الإخراجُ عنها دونَ إذنِها ، وإنْ فضلَ عنهُ ما يؤدِّي عَنْ بعضِهِمْ . . أدَّىٰ عنْ بعضِهِمْ ، وأولاهم بالتقديمِ مَنْ كانتْ نفقتُهُ آكدَ ، وقدْ قدَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نفقةَ الولدِ علىٰ نفقةِ الزوجةِ ، ونفقتَها علىٰ نفقةِ الخادمِ [٣]

فهٰذهِ أحكامٌ فقهيةٌ لا بدَّ للغنيِّ مِنْ معرفتِها ، وقدْ تعرضُ لهُ وقائعُ نادرةٌ خارجةٌ عنْ هٰذا ، فلهُ أنْ يتَّكِلَ فيها على الاستفتاءِ عندَ نزولِ الواقعةِ بعدَ إحاطتِهِ بهٰذا المقدارِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) كما في « البخاري » (١٥٠٣) ، و« مسلم » (٩٨٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ، على العبد والحر ، والذكر والأنثىٰ ، والصغير والكبير من المسلمين ، وأمر بها أن تؤدىٰ قبل خروج الناس إلى الصلاة) .

(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (١٤١/٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٦١/٤) .

(٣) فقد روىٰ أبو داوود (١٦٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصدقة فقال رجل : يا رسول الله ، عندي دينار ، فقال : « تصدق به علىٰ نفسك » ، قال : عندي آخر ، قال : « تصدق به علىٰ ولدك » قال : عندي آخر ، قال : « تصدق به علىٰ زوجتك ـ أو قال : زوجك ـ » ، قال : عندي آخر ، قال : « تصدق به علىٰ خادمك » قال : عندي آخر ، قال : « أنت أبصر » ، وفي « النسائي » (٦٢/٥) : تقديم الزوجة على الولد ، وأطبق الشافعية علىٰ ذٰلك . انظر « الإتحاف » (٧٢/٤ ـ ٧٣) .

الفَصَلُ الثَّاني
في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

بيان الشروط الظاهرة

اعلمْ : أنَّهُ يجبُ علىٰ مؤدِّي الزكاةِ مراعاةُ خمسةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : النيةُ : وهوَ أنْ ينويَ بقلبِهِ زكاةَ الفرضِ ، وليسَ عليهِ تعيينُ الأموالِ ، فإنْ كانَ لهُ مالٌ غائبٌ فقالَ : (هـٰذا عَنْ مالي الغائبِ إنْ كانَ سالماً ، وإلا . . فهوَ نافلةٌ) . . جازَ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يصرِّحْ بهِ . . جاز ؛ فكذلكَ يكونُ عندَ إطلاقِهِ .

ونيَّةُ الوليِّ تقومُ مقامَ نيَّةِ المجنونِ والصبيِّ ، ونيَّةُ السلطانِ تقومُ مقامَ نيَّةِ المالكِ الممتنعِ عنِ الزكاةِ ولـٰكنْ في ظاهرِ حكمِ الدنيا ؛ أعني : في قطعِ المطالبةِ عنهُ ، أمَّا في الآخرةِ . . فلا ، بلْ تبقىٰ ذمَّتُهُ مشغولةً إلىٰ أنْ يستأنفَ الزكاةَ .

وإذا وكَّلَ بأداءِ الزكاةِ ونوىٰ عندَ التوكيلِ أوْ وكَّلَ الوكيلَ بالنيَّةِ . . كفاهُ ؛ لأنَّ توكيلَهُ بالنيَّةِ نيةٌ .

❋ ❋ ❋

الثاني : البدارُ عَقيبَ الحولِ : وفي زكاةِ الفطرِ لا يؤخِّرُها عنْ يومِ الفطرِ ، ويدخلُ وقتُ وجوبِها بغروبِ الشمسِ مِنْ آخرِ يومٍ مِنْ شهرِ رمضانَ ، ووقتُ تعجيلِها شهرُ رمضانَ كلُّهُ .

ومَنْ أخَّرَ زكاةَ مالِهِ معَ التمكُّنِ . . عصىٰ ، ولمْ يسقطْ عنهُ بتلفِ مالِهِ ، وتمكُّنُهُ : بمصادفةِ المستحقِّ ، وإنْ أخَّرَها لعدمِ المستحقِّ ، فتلفَ مالُهُ . . سقطتِ الزكاةُ عنهُ .

وتعجيلُ الزكاةِ جائزٌ بشرطِ أنْ يقعَ بعدَ كمالِ النصابِ وانعقادِ الحولِ ، ويجوزُ تعجيلُ زكاةِ حولينِ ، ومهما عجَّلَ فماتَ المسكينُ قبلَ الحولِ ، أوِ ارتدَّ ، أو صارَ غنياً بغيرِ ما عجَّلَ إليهِ ، أوْ تلفَ مالُ المالكِ ، أوْ ماتَ . . فالمدفوعُ ليسَ بزكاةٍ ، واسترجاعُهُ غيرُ ممكنٍ إلا إذا قيَّدَ الدفعَ بالاسترجاعِ ، فليكنِ المعجِّلُ مُراقباً آخرَ الأمرِ وسلامةَ العاقبةِ .

❋ ❋ ❋

الثالثُ : ألا يخرجَ بدلاً باعتبارِ القيمةِ : بلْ يُخرجُ المنصوصَ عليهِ ، فلا يجزئُ وَرِقٌ عن ذهبٍ ، ولا ذهبٌ عن وَرِقٍ وإنْ زادَ عليهِ في القيمةِ .

ولعلَّ بعضَ مَنْ لا يدركُ غرضَ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ يتساهلُ في ذٰلكَ ، ويلاحظُ المقصودَ مِنْ سدِّ الخَلَّةِ ، وما أبعدَهُ عنِ التحصيلِ !! فإنَّ سَدَّ الخَلَّةِ مقصودٌ ، وليسَ هوَ كلَّ المقصودِ ، **بلْ واجباتُ الشرعِ ثلاثةُ أقسامٍ :**

ـ قسمٌ هوَ تعبُّدٌ محضٌ لا مدخلَ للحظوظِ والأغراضِ فيهِ : وذٰلكَ كرمي الجمراتِ مثلاً ؛ إذْ لا حظَّ للجمرةِ في وصولِ الحصىٰ إليها ، فمقصودُ الشرعِ فيهِ الابتلاءُ بالعملِ ؛ ليُظهرَ العبدُ رقَّهُ وعبوديتَهُ بفعلِ ما لا يعقلُ لهُ معنىً [1] ؛

---

(١) هـٰذا بالنسبة إلىٰ قاصر النظر علىٰ ظواهر الأحكام ، ولـٰكن مَنْ تعدىٰ هـٰذا الطور ، وأعطي منحاً إلـٰهية . . فإنه يعقل لرمي الجمار معنىً غريباً غير ما يعرفه القاصرون ، وكذا سائر المتعبدات الشرعية . « إتحاف » (٤/٩٥) .

لأنَّ ما يعقلُ معناهُ فقدْ يساعدُهُ الطبعُ عليهِ ويدعوهُ إليهِ ، فلا يظهرُ بهِ خلوصُ الرقِّ والعبوديةِ ؛ إذِ العبوديةُ تظهرُ بأنْ تكونَ الحركةُ لحقِّ أمرِ المعبودِ فقطْ ، لا لمعنىً آخرَ ، وأكثرُ أعمالِ الحجِّ كذٰلكَ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في إحرامِهِ : « لبيكَ بحجَّةٍ حقّاً ، تعبُّداً ورقّاً »[1] تنبيهاً علىٰ أنَّ ذٰلكَ إظهارٌ للعبوديةِ بالانقيادِ لمجرَّدِ الأمرِ وامتثالِهِ كما أمرَ مِنْ غيرِ استئناسِ العقلِ منهُ بما يميلُ إليهِ ويحثُّ عليهِ .

ـ **والقسمُ الثاني مِنْ واجباتِ الشرعِ : ما المقصودُ منهُ حظٌّ معقولٌ وليسَ يقصدُ منهُ التعبُّدُ** : كقضاءِ دينِ الآدميينَ ، وردِّ المغصوبِ ، فلا جرمَ لا يعتبرُ فيهِ فعلُهُ ونيَّتُهُ ، ومهما وصلَ الحقُّ إلىٰ مستحقِّهِ بأخذِ المستحَقِّ أوْ ببدلٍ عنهُ عندَ رضاهُ . تأدَّى الوجوبُ وسقطَ خطابُ الشرعِ ، فهٰذانِ قسمانِ لا تركيبَ فيهما ، يشتركُ في دركِهما جميعُ الناسِ .

ـ **والقسمُ الثالثُ : هوَ المركَّبُ الذي يقصدُ منهُ الأمرانِ جميعاً** : وهوَ حظُّ العبادِ وامتحانُ المكلَّفِ بالاستعبادِ ، فيجتمعُ فيهِ تعبُّدُ رميِ الجمارِ وحظُّ ردِّ الحقوقِ ، فهٰذا قسمٌ في نفسِهِ معقولٌ ، فإنْ وردَ الشرعُ بهِ . . وجبَ الجمعُ بينَ المعنيينِ ، ولا ينبغي أنْ ينسىٰ أدقَّ المعنيينِ ؛ وهوَ التعبُّدُ والاسترقاقُ بسببِ أجلاهما[2] ، ولعلَّ الأدقَّ هوَ الأهمُّ .

والزكاةُ مِنْ هٰذا القبيلِ ، ولمْ يتنبَّهْ لهُ غيرُ الشافعيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ؛ فحظُّ الفقيرِ مقصودٌ في سدِّ الخَلَّةِ وهو جليٌّ سابقٌ إلى الأفهامِ ، وحقُّ التعبُّدِ في اتباعِ التفاصيلِ مقصودٌ للشرعِ ، وباعتبارِهِ صارتِ الزكاةُ قرينةَ الصلاةِ والحجِّ في كونِها مِنْ مباني الإسلامِ ، ولا شكَّ في أنَّ على المكلَّفِ تعباً في تمييزِ أجناسِ مالِهِ وإخراجِ حِصَّةِ كلِّ مالٍ منْ نوعِهِ وجنسِهِ وصفتِهِ ، ثمَّ توزيعِهِ على الأصنافِ الثمانيةِ كما سيأتي .

والتساهلُ فيهِ غيرُ قادحٍ في حظِّ الفقيرِ ، ولٰكنَّهُ قادحٌ في التعبُّدِ ، ويدلُّ علىٰ أنَّ التعبُّدَ مقصودٌ بتعيينِ الأنواعِ أمورٌ ذكرناها في كتبِ الخلافِ مِنَ الفقهياتِ ، ومِنْ أوضحِها أنَّ الشرعَ أوجبَ في خمسٍ مِنَ الإبلِ شاةً ، فعدلَ عنِ الإبلِ إلى الشاةِ ، ولمْ يعدِلْ إلى النقدينِ والتقويمِ ، وإنْ قُدِّرَ أنَّ ذٰلكَ لقلَّةِ النقودِ في أيدي العربِ . . بطلَ بذكرِهِ عشرينَ درهماً في الجبرانِ معَ الشاتينِ ، فلِمَ لمْ يُذكرْ في الجبرانِ قدْرُ النقصانِ مِنَ القيمةِ ؟ ولِمَ قُدِّرَ بعشرينَ درهماً وشاتينِ إنْ كانتِ الثيابُ والأمتعةُ كلُّها في معناها ؟

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ التخصيصاتِ يدلُّ علىٰ أنَّ الزكاةَ لمْ تتركْ خاليةً عنِ التعبداتِ ؛ كما في الحجِّ ، ولٰكنْ جمعَ بينَ المعنيينِ ، والأذهانُ الضعيفةُ تقصرُ عنْ دركِ المركَّباتِ ، فهٰذا مثارُ الغلطِ فيهِ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : ألا ينقلَ الصدقةَ إلىٰ بلدٍ آخرَ : فإنَّ أعيُنَ المساكينِ في كلِّ بلدةٍ تمتدُّ إلىٰ أموالِها ، وفي النقلِ تخييبٌ للظنونِ ، فإنْ فعلَ ذٰلكَ . . أجزأَهُ في قولٍ ، ولٰكنِ الخروجُ عنْ شبهةِ الخلافِ أولىٰ ، فليخرجْ زكاةَ كلِّ مالٍ في تلكَ البلدةِ ، ثمَّ لا بأسَ أنْ يصرفَ إلى الغرباءِ في تلكَ البلدةِ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : أنْ يقسمَ مالهُ بعددِ الأصنافِ الموجودينَ في بلدِهِ : فإنَّ استيعابَ الأصنافِ واجبٌ ، وعليهِ يدلُّ ظاهرُ قولِهِ

---

(١) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص ٦٢٤) وهو آخر كتابه ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٨/١٤) .
(٢) أي : أجلى المعنيين . « إتحاف » (٩٦/٤)

تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ . . . ﴾ الآيةَ ، فإنَّهُ شبيهٌ بقولِ المريضِ : (إنما ثلثُ مالي للفقراءِ والمساكينِ) ، وذٰلكَ يقتضي التشريكَ في التمليكِ ، والعباداتُ ينبغي أنْ يُتوقَّىٰ عنِ الهجومِ فيها على الظواهرِ .

وقدْ عُدِمَ مِنَ الثمانيةِ صنفانِ في أكثرِ البلادِ ، وهُمُ المُؤَلَّفةُ قلوبُهُمْ ، والعاملونَ على الزكاةِ ، ويوجدُ في جميعِ البلادِ أربعةُ أصنافٍ : الفقراءُ ، والمساكينُ ، والغارمونَ ، والمسافرونَ ؛ أعني : أبناءَ السبيلِ ، وصنفانِ يوجدانِ في بعضِ البلادِ دونَ بعضٍ ، وهمُ الغزاةُ ، والمكاتبونَ ، فإنْ وجدَ خمسةَ أصنافٍ مثلاً . . قسمَ بينهم زكاةَ مالِهِ بخمسةِ أقسامٍ متساويةٍ ، وعيَّنَ لكلِّ صنفٍ قسماً ، ثمَّ قسمَ كلَّ قسمٍ ثلاثةَ أسهمٍ فما فوقَها ، إمَّا متساويةً أو متفاوتةً ، وليسَ عليهِ التسويةُ بينَ آحادِ الصنفِ ، فإنَّ لهُ أنْ يقسمَهُ علىٰ عشرةٍ وعشرينَ ، فينقصَ نصيبَ كلِّ واحدٍ ، وأمَّا الأصنافُ . . فلا تقبلُ الزيادةَ والنقصانَ ، ولا ينبغي أنْ ينقصَ في كلِّ صنفٍ عَنْ ثلاثةٍ إنْ وجدَ .

ثمَّ لوْ لمْ يجبْ إلا صاعٌ للفطرةِ ووجدَ خمسةَ أصنافٍ . . فعليهِ أنْ يوصلَهُ إلىٰ خمسةَ عشرَ نفراً ، ولو نقصَ منهمْ واحدٌ معَ الإمكانِ . . غرمَ نصيبَ ذٰلكَ الواحدِ ، وإنْ عسرَ عليهِ ذٰلكَ لقلَّةِ الواجبِ . . فليشاركْ جماعةً ممَّنْ عليهمُ الزكاةُ ، وليخلطْ مالَ نفسِهِ بمالِهِمْ ، وليجمعِ المستحقينَ ، وليسلِّمْ إليهم حتَّىٰ يتساهموا فيهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ لا بدَّ منهُ .

* * *

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلمْ : أنَّ علىٰ مريدِ طريقِ الآخرةِ بزكاتِهِ وظائفَ :

الوظيفةُ الأولىٰ : فهمُ وجوبِ الزكاةِ ومعناها ووجهِ الامتحانِ فيها ، وأنَّها لِمَ جُعلتْ مِنْ مباني الإسلامِ معَ أنَّها تصرُّفٌ ماليٌّ وليسَتْ مِنْ عباداتِ الأبدانِ : وفيها ثلاثةُ معانٍ :

ـ **الأوَّلُ** : أنَّ التلفظَ بكلمتيِ الشهادةِ التزامٌ للتوحيدِ ، وشهادةٌ بإفرادِ المعبودِ ، وشرطُ تمامِ الوفاءِ بهِ ألا يبقىٰ للموحِّدِ محبوبٌ سوى الواحدِ الفردِ ؛ فإنَّ المحبَّةَ لا تقبلُ الشِّرْكةَ[1] ، والتوحيدُ باللسانِ قليلُ الجدوىٰ ، وإنَّما تُمتحنُ درجةُ الحبِّ بمفارقةِ المحبوباتِ ، والأموالُ محبوبةٌ عندَ الخلقِ ؛ لأنَّها آلةُ تمتعِهِمْ بالدنيا ، وبسببِها يأنسونَ بهٰذا العالمِ ، وينفُرونَ عنِ الموتِ معَ أنَّ فيهِ لقاءَ المحبوبِ ، فامتحنوا بتصديقِ دعواهُمْ في المحبوبِ ، واستُنْزلوا عنِ المالِ الذي هوَ مرموقُهُمْ ومعشوقُهُمْ[2] ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ، وذٰلكَ بالجهادِ ، وهوَ مسامحةٌ بالمهجةِ شوقاً إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والمسامحةُ بالمالِ أهونُ ، **ولما فهمَ هٰذا المعنىٰ في بذلِ الأموالِ . . انقسمَ الناسُ ثلاثةَ أقسامٍ :**

ـ **قسمٌ** صدقوا التوحيدَ ووفَّوا بعهدِهِ ، ونزلوا عنْ جميعِ أموالِهِمْ ، فلم يدَّخِرُوا ديناراً ولا درهماً ، وأبَوا أنْ يتعرَّضوا لوجوبِ الزكاةِ عليهمْ ، حتَّىٰ قيلَ لبعضِهِمْ : كمْ يجبُ مِنَ الزكاةِ في مئتي درهمٍ ، فقالَ : أمَّا على العوامِّ بحكمِ الشرعِ . . فخمسةُ دراهمَ ، وأمَّا نحنُ . . فيجبُ علينا بذلُ الجميعِ[3] .

ولهٰذا تصدَّقَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بجميعِ مالِهِ ، وعُمَرُ رضيَ اللهُ عنهُ بشطرِ مالِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أبقيتَ لأهلِكَ ؟ » فقالَ : مثلَهُ ، وقالَ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « ما أبقيتَ لأهلِكَ ؟ » قَالَ : اللهَ ورسولَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَكُمَا ما بينَ كلمتيكُما »[4] ، فالصِّدِّيقُ وفَّىٰ بتمامِ الصدْقِ ، فلمْ يمسكْ سوى المحبوبِ عندَهُ ، وهوَ اللهُ ورسولُهُ .

ـ **القسمُ الثاني** : درجتُهُمْ دونَ درجةِ هٰؤلاءِ ، وهمُ الممسكونَ أموالَهُمْ ، المراقبونَ لمواقيتِ الحاجاتِ ومواسمِ الخيراتِ ، فيكونُ قصدُهُمْ في الادخارِ الإنفاقَ علىٰ قدْرِ الحاجةِ دونَ التنعُّمِ ، وصرفَ الفاضلِ عنِ الحاجةِ إلىٰ وجوهِ البرِّ مهما ظهرتْ وجوهُهُ ، وهٰؤلاءِ لا يقتصرونَ علىٰ مقدارِ الزكاةِ .

وقدْ ذهبَ جماعةٌ مِنَ التابعينَ إلىٰ أنَّ في المالِ حقوقاً سوى الزكاةِ ؛ كالنخعيِّ والشعبيِّ وعطاءٍ ومجاهدٍ ، قالَ

---

(١) أي : الاشتراك ، والمراد بها الاختيارية ، وأما الاضطرارية . . فالإنسان مجبول فيها إلىٰ ما يستلذه طبعاً ، ولا تكون المحبة كاملة حتىٰ تكون مع المحبوب اضطراراً واختياراً ، فحينئذ لا يخطر بباله شيء سواه ، وإن خطر ما عداه . . فيعده من جملة مظاهره وتعيناته . « إتحاف » (٤/١٠١) .

(٢) مرموقهم : منظورهم الذي لا يفتؤون ينظرون إليه .

(٣) حُكي ذٰلك عن الشبلي رحمه الله تعالى . انظر « كشف المحجوب » (ص ٣٤٧)

(٤) رواه أبو داوود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥) ، وقوله : « بينكما ما بين كلمتيكما » عند أبي نعيم في « الحلية » (١/٣٢) بنحوه مرسلاً عن الحسن .

الشعبيُّ بعدَ أنْ قيلَ لهُ : هلْ في المالِ حقٌّ سوى الزكاةِ ؟ قالَ : نعمْ ، أما سمعْتَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ . . . ﴾ الآية ؟[1]

واستدلوا بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُم ﴾ ، وزعموا أنَّ ذٰلكَ غيرُ منسوخٍ بآيةِ الزكاةِ ، بلْ هوَ داخلٌ في حقِّ المسلمِ على المسلمِ ، ومعناه : أنَّهُ يجبُ على الموسرِ مهما وجدَ محتاجاً أنْ يزيلَ حاجتَهُ فضلاً عنْ مالِ الزكاةِ[2]

والذي يصحُّ في الفقهِ مِنْ هٰذا البابِ أنَّهُ مهما أرهقتِ الحاجةُ . . كانتْ إزالتُها فرضاً على الكفايةِ ؛ إذْ لا يجوزُ تضييعُ مسلمٍ ، ولٰكنْ يحتملُ أنْ يقالَ : ليسَ على الموسرِ إلا تسليمُ ما يزيلُ الحاجةَ قرضاً ، ولا يلزمُهُ بذلُهُ بعدَ أنْ أسقطَ الزكاةَ عنْ نفسِهِ ، ويحتملُ أنْ يقالَ : يلزمُهُ بذلُهُ في الحالِ ، ولا يجوزُ لهُ الإقراضُ ؛ أي : لا يجوزُ لهُ تكليفُ الفقيرِ قبولَ القرضِ ، وهٰذا مختلفٌ فيهِ .

والإقراضُ نزولٌ إلى الدرجةِ الأخيرةِ مِنْ درجاتِ العوامِّ ، وهيَ درجةُ **القسمِ الثالثِ** الذينَ يقتصرونَ علىٰ أداءِ الواجبِ ، فلا يزيدونَ عليهِ ولا ينقصونَ منهُ ، وهيَ أقلُّ الرتبِ ، وقدْ اقتصرَ جميعُ العوامِّ علىٰ ذٰلكَ ؛ لبخلِهِمْ بالمالِ ، وميلِهِمْ إليهِ ، وضعفِ حبِّهِمْ للآخرةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾ يحفِكُمْ ؛ أي : يستقصي عليكُمْ ، فكمْ بينَ عبدٍ اشترىٰ منهُ مالَهُ ونفسَهُ بأنَّ لهُ الجنةَ وبينَ عبدٍ لا يستقصي عليهِ لبخلِهِ .

فهٰذا أحدُ معاني أمرِ اللهِ سبحانَهُ عبادَهُ ببذلِ الأموالِ .

ـ **المعنى الثاني** : **التطهيرُ مِنْ صفةِ البخلِ** : فإنَّهُ مِنَ المهلكاتِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »[3]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وسيأتي في ربعِ المهلكاتِ وجهُ كونِهِ مهلكاً ، وكيفيةُ التفصي منهُ[4]

وإنَّما تزولُ صفةُ البخلِ بأنْ يتعوَّدَ بذلَ المالِ ، فحبُّ الشيءِ لا ينقطعُ إلا بقهرِ النفسِ علىٰ مفارقتِهِ حتَّىٰ يصيرَ ذٰلكَ اعتياداً ، فالزكاةُ بهٰذا المعنىٰ طهْرةٌ ؛ أي : تطهِّرُ صاحبَها عن خبْثِ البخلِ المهلِكِ ، وإنَّما طهارتُهُ بقدْرِ بذلِهِ وبقدْرِ فرحِهِ بإخراجِهِ واستبشارِهِ بصرفِهِ إلى اللهِ تعالىٰ .

ـ **المعنى الثالثُ** : **شكرُ النعمةِ** : فإنَّ للهِ عزَّ وجلَّ علىٰ عبدِهِ نعمةً في نفسِهِ وفي مالِهِ ، فالعباداتُ البدنيةُ شكرٌ لنعمةِ البدنِ ، والماليةُ شكرٌ لنعمةِ المالِ ، وما أخسَّ مَنْ ينظرُ إلى الفقيرِ وقدْ ضُيِّقَ عليهِ الرزقُ وأُحوجَ إليهِ ثمَّ لا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يؤدِّيَ شكرَ اللهِ تعالىٰ علىٰ إغنائِهِ عنِ السؤالِ وإحواجِ غيرِهِ إليهِ بربعِ العشْرِ أوِ العشرِ مِنْ مالِهِ !!

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٦٢٧) ، وهو عن النخعي (١٠٦٢٥) ، وعن عطاء (١٠٦٢٩) ، وعن مجاهد (١٠٦٢٦) .

(٢) قوت القلوب (١٠٦/٢) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

(٤) التفصِّي : التخلص

الوظيفةُ الثانيةُ : في وقتِ الأداءِ :

ومِنْ آدابِ ذوي الدينِ التعجيلُ عنْ وقتِ الوجوبِ ؛ إظهاراً للرغبةِ في الامتثالِ بإيصالِ السرورِ إلىٰ قلوبِ الفقراءِ ، ومبادرةً لعوائقِ الزمانِ أنْ تعوّقَ عنِ الخيراتِ ، وعلماً بأنَّ في التأخيرِ آفاتٍ معَ ما يتعرَّضُ العبدُ لهُ مِنَ العصيانِ لوْ أخَّرَ عنْ وقتِ الوجوبِ ، ومهما ظهرتْ داعيةُ الخيرِ مِنَ الباطنِ . . فينبغي أنْ يغتنمَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ لَمَّةُ الملكِ ، وقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ ، فما أسرعَ تقلُّبَهُ !!

والشيطانُ يعدُ الفقرَ ويأمرُ بالفحشاءِ والمنكرِ ، وله لَمَّةٌ عَقيبَ كلِّ لَمَّةٍ للملكِ ، فليغتنمِ الفرصةَ في ذٰلكَ .

وليعيِّنْ لزكاتِهِ إنْ كانَ يؤدِّيها جميعاً شهراً معلوماً ، وليجتهدْ أنْ يكونَ مِنْ أفضلِ الأوقاتِ ؛ ليكونَ ذٰلكَ سبباً لنماءِ قربتِهِ وتضاعفِ زكاتِهِ ، وذٰلكَ كشهرِ المحرَّمِ ؛ فإنَّهُ أوَّلُ السنةِ ، وهوَ مِنَ الأشهرِ الحرمِ ، أوْ رمضانَ ؛ فقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أجودَ الخلقِ ، وكانَ في رمضانَ كالريحِ المرسلةِ ، لا يمسكُ فيهِ شيئاً[1] ، ولرمضانَ فضيلةُ ليلةِ القدرِ ، وأنَّهُ أُنزلَ فيهِ القرآنُ ، وكانَ مجاهدٌ يقولُ : (لا تقولوا : رمضانَ ؛ فإنَّهُ اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالىٰ ، ولٰكنْ قولوا : شهرَ رمضانَ)[2]

وذو الحِجَّةِ أيضاً مِنَ الشهورِ الكثيرةِ الفضلِ ؛ فإنَّهُ شهرٌ حرامٌ ، وفيهِ الحجُّ الأكبرُ ، وفيهِ الأيامُ المعلوماتُ ؛ وهيَ العشرُ الأُوَلُ ، والأيامُ المعدوداتُ ؛ وهيَ أيامُ التشريقِ ، وأفضلُ أيامِ شهرِ رمضانَ العشرُ الأواخرُ ، وأفضلُ أيامِ ذي الحجةِ العشرُ الأُوَلُ .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ الثالثةُ : الإسرارُ :

فإنَّ ذٰلكَ أبعدُ عنِ الرياءِ والسمعةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصدقةِ جهْدُ المقلِّ إلىٰ فقيرٍ في سرٍّ »[3] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ثلاثٌ مِنْ كنوزِ البرِّ ، منها : إخفاءُ الصدقةِ) ، وقدْ رُوِيَ أيضاً مسنداً[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعملُ عملاً في السرِّ فيكتبُهُ اللهُ لهُ سرّاً ، فإنْ أظهرَهُ . . نقلَ مِنَ السرِّ وكتبَ في العلانيةِ ، فإنْ تحدَّثَ بهِ . . نقلَ مِنَ السِّرِّ والعلانيةِ وكتبَ رياءً »[5]

وفي الحديثِ المشهورِ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » ، أحدُهُمْ : « رجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فلمْ تعلمْ شمالُهُ بما أعطتْ يمينُهُ »[6]

---

(١) رواه البخاري (٦) ، ومسلم (٢٣٠٨) .

(٢) رواه عن مجاهد ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣٩/٢٦) ، وقد جاء مرفوعاً عند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٠١/٤) ، وسياق المصنف هنا في « القوت » (١٠٧/٢)

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٧٨/٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) من حديث طويل عنده بنحوه ، ولفظ المصنف من « القوت » (١٠٧/٢) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٧/٧) مرفوعاً ، وانظر « قوت القلوب » (١٠٧/٢) .

(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦١/٦) ، وقال أبو طالب في « القوت » (١٠٧/٢) عقبه : (فلو لم يكن في إظهار الصدقة مع الإخلاص إلا فوت ثواب السر . . لكان فيه نقص عظيم) .

(٦) رواه البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١) .

وفي الخبرِ : « صدقةُ السرِّ تطفئُ غضبَ الربِّ »[١]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

وفائدةُ الإخفاءِ : الخلاصُ مِنْ آفاتِ الرياءِ والسمعةِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقبلُ اللهُ مِنْ مُسَمِّعٍ ولا مراءٍ ولا منَّانٍ »[٢] ، والمتحدِّثُ بصدقتِهِ يطلبُ السمعةَ ، والمعطي في ملأٍ مِنَ الناسِ يبغي الرياءَ ، والإخفاءُ والسكوتُ هوَ المخلِّصُ منْ ذٰلكَ .

وقدْ بالغَ في قصْدِ الإخفاءِ جماعةٌ ، حتَّى اجتهدوا ألا يعرفَ القابضُ المعطيَ ، فكانَ بعضُهُمْ يلقيهِ في يدِ أعمىٰ ، وبعضُهُمْ يلقيهِ في طريقِ الفقيرِ وفي موضعِ جلوسِهِ حيثُ يراهُ ولا يرى المعطيَ ، وبعضُهُمْ كانَ يصُرُّهُ في ثوبِ الفقيرِ وهوَ نائمٌ ، وبعضُهُمْ كانَ يُوصِلُ إلىٰ يدِ الفقيرِ علىٰ يدِ غيرِهِ بحيثُ لا يعرفُ المعطيَ ، وكانَ يستكتمُ المتوسِّطَ شأنَهُ ، ويوصيهِ بألا يفشيَهُ ، كلُّ ذٰلكَ توصُّلاً إلىٰ إطفاءِ غضبِ الربِّ عزَّ وجلَّ ، واحترازاً مِنَ الرياءِ والسمعةِ[٣]

ومهما لمْ يتمكَّنْ مِنَ الإعطاءِ إلا بأنْ يعرفَهُ شخصٌ واحدٌ . . فتسليمُهُ إلىٰ وكيلٍ ليسلِّمَ إلى المسكينِ والمسكينُ لا يعرفُ أولىٰ ؛ إذْ في معرفةِ المسكينِ الرياءُ والمنَّةُ جميعاً ، وليسَ في معرفةِ المتوسِّطِ إلا الرياءُ ، ومهما كانتِ الشهرةُ مقصودةً لهُ . . حبطَ عملُهُ ؛ لأنَّ الزكاةَ إزالةٌ للبخلِ ، وتضعيفٌ لحبِّ المالِ ، وحبُّ الجاهِ أشدُّ استيلاءً على النفسِ مِنْ حبِّ المالِ ، وكلُّ واحدٍ منهما مهلِكٌ في الآخرةِ ، ولٰكنَّ صفةَ البخلِ تنقلبُ في القبرِ في حكمِ المثالِ عقرباً لدَّاغةً ، وصفةُ الرياءِ تنقلبُ في القبرِ أفعىً مِنَ الأفاعي ، وهوَ مأمورٌ بتضعيفِهِما أوْ قتلِهِما ؛ لدفعِ أذاهُما أوْ تخفيفِ أذاهُما ، فمهما قصدَ الرياءَ والسمعةَ . . فكأنَّهُ جعلَ بعضَ أطرافِ العقربِ قوتاً للحيَّةِ ، فبقدْرِ ما ضعفَ مِنَ العقربِ زادَ في قوَّةِ الحيَّةِ ، ولوْ تركَ الأمرَ كما كانَ . . لكانَ الأمرُ أهونَ عليهِ .

وقوَّةُ هٰذهِ الصفاتِ التي بها قوَّتُها العملُ بمقتضاها ، وضعفُ هٰذهِ الصفاتِ بمجاهدتِها ومخالفتِها ، والعملِ بخلافِ مقتضاها ، فأيُّ فائدةٍ في أنْ يخالفَ دواعيَ البخلِ ويجيبَ دواعيَ الرياءِ ، فيضعفَ الأدنىٰ ويقوِّيَ الأقوىٰ ؟!

وستأتي أسرارُ هٰذهِ المعاني في ربعِ المهلكاتِ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الرابعةُ : أنْ يظهرَ حيثُ يعلمُ أنَّ في إظهارِهِ ترغيباً للناسِ في الاقتداءِ :

ويحرسَ سرَّهُ عنْ داعيةِ الرياءِ بالطريقِ الذي سنذكرُهُ في معالجةِ الرياءِ في كتابِ الرياءِ ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ ، وذٰلكَ حيثُ يقتضي الحالُ الإبداءَ ؛ إمَّا للاقتداءِ ، وإمَّا لأنَّ السائلَ إنَّما سألَ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، فلا ينبغي أنْ يتركَ التصدُّقَ خيفةً مِنَ الرياءِ في الإظهارِ ، بلْ ينبغي أنْ يتصدَّقَ ويحفظَ سرَّهُ عنِ الرياءِ بقدْرِ الإمكانِ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/٢٦١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/٥٦٨) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٣) من زيادات نعيم بن حماد ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٦٠٦) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ : (لا يسمع الله من مُسَمِّع ، ولا من مراء ، ولا لاعب ، إلا داعٍ دعا يثبت من قلبه) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (٢/١٠٧) .

(٣) قوت القلوب (٢/١٠٨) .

وهٰذا لأنَّ في الإظهارِ محذوراً ثالثاً سوى المنِّ والرياءِ ، وهوَ هتْكُ سترِ الفقيرِ ، فإنَّهُ ربَّما يتأذَّىٰ بأنْ يُرىٰ في صورةِ المحتاجِ ، فمَنْ أظهرَ السؤالَ . . فهوَ الذي هتكَ سترَ نفسِهِ ، فلا يحذرُ هٰذا المعنىٰ في إظهارِهِ ، وهوَ كإظهارِ الفسقِ علىٰ مَنْ يتستَّرُ بهِ ؛ فإنَّهُ محظورٌ ، والتجسسُ فيهِ والاغتيابُ بذكرِهِ منهيٌّ عنهُ ، فأمَّا مَنْ أظهرَهُ . . فإقامةُ الحدِّ عليهِ إشاعةٌ ، ولٰكنْ هوَ السببُ فيها ، وبمثلِ هٰذا المعنىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ألقىٰ جلبابَ الحياءِ . . فلا غيبةَ لهُ »[1]

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ندبَ إلى العلانيةِ أيضاً لما فيها مِنْ فائدةِ الترغيبِ ، فليكنِ العبدُ دقيقَ التأمُّلِ في وزْنِ هٰذهِ الفائدةِ بالمحذورِ الذي فيها ؛ فإنَّ ذٰلكَ يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فقدْ يكونُ الإعلانُ في بعضِ الأحوالِ لبعضِ الأشخاصِ أفضلَ ، ومَنْ عرفَ الفوائدَ والغوائلَ ولمْ ينظرْ بعينِ الشهوةِ . . اتضحَ لهُ الأولىٰ والأليقُ بكلِّ حالٍ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الخامسةُ : ألا يفسدَ صدقتَهُ بالمنِّ والأذىٰ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ ، واختلفوا في حقيقةِ المنِّ والأذىٰ :

فقيلَ : المنُّ : أنْ يذكرَها ، والأذىٰ : أنْ يظهرَها .

وقالَ سفيانُ : مَنْ مَنَّ . . فسدتْ صدقتُهُ ، فقيلَ لهُ : كيفَ المنُّ ؟ فقالَ : أنْ يذكرَهُ ويتحدَّثَ بهِ .

وقيلَ : المنُّ : أنْ يستخدمَهُ بالعطاءِ ، والأذىٰ : أنْ يعيِّرَهُ بالفقرِ .

وقيلَ : المنُّ : أنْ يتكبَّرَ عليهِ لأجلِ عطائِهِ ، والأذىٰ : أنْ ينتهرَهُ أو يوبِّخَهُ بالمسألةِ[2]

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقبلُ اللهُ صدقةَ منَّانٍ »[3]

وعندي : أنَّ المنَّ لهُ أصلٌ ومغرسٌ ، وهوَ مِنْ أحوالِ القلبِ وصفاتِهِ ، ثمَّ يتفرَّعُ عليهِ أفعالٌ ظاهرةٌ على اللسانِ والجوارحِ ، فأصلُهُ : أنْ يرىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ ومنعِماً عليهِ ، وحقُّهُ : أنْ يرى الفقيرَ هوَ المحسنَ بقبولِ حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ منهُ الذي هوَ طهْرتُهُ ونجاتُهُ مِنَ النارِ ، وأنَّهُ لوْ لمْ يقبلْهُ . . لبقيَ مرتهناً بهِ ، فحقُّهُ أنْ يتقلَّدَ منَّةً مِنَ الفقيرِ إذْ جعلَ كفَّهُ نائباً عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ في قبضِ حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الصدقةَ تقعُ بيدِ اللهِ تعالىٰ قبلَ أنْ تقعَ في يدِ السائلِ »[4] .

فليتحققْ أنَّهُ مسلِّمٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حقَّهُ ، والفقيرُ آخذٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ رزقَهُ بعدَ صيرورتِهِ مسلَّماً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولو كانَ عليهِ دينٌ لإنسانٍ ، فأحالَ صاحبُ الدينِ بهِ عبدَهُ أو خادمَهُ الذي هوَ متكفِّلٌ برزقِهِ . . لكانَ اعتقادُ مؤدِّي الدينِ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣٨٦/١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢١٠/١٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٤٢٦) .

(٢) حكىٰ هٰذه الأقوال أبو طالب في « القوت » (١٠٧/٢) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هٰكذا) . « إتحاف » (١١٩/٤) ، ولٰكن روىٰ مسلم (١٠٦) مرفوعاً : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة : المنَّان الذي لا يعطي شيئاً إلا منَّهُ ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره » ، ولعل المصنف يشير إلى الحديث المتقدم : « لا يقبل الله من مُسَمِّع . . . » .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٤٠٥/١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨١/٤) .

كونَ القابضِ تحتَ منَّتِهِ سفهاً وجهلاً ؛ فإنَّ المنَّةَ للمحسِنِ إليهِ المتكفِّلِ برزقِهِ ، أمَّا هوَ . . فإنَّما يقضي الذي لزمَهُ بشراءِ ما أحبَّهُ ، فهوَ ساعٍ في حقِّ نفسِهِ ، فلمْ يمنُّ بهِ علىٰ غيرِهِ .

ومهما عرفَ المعانيَ الثلاثةَ التي ذكرناها في فهمِ وجوبِ الزكاةِ أوْ أحدَها . . لمْ يرَ نفسَهُ محسِناً إلا إلىٰ نفسِهِ ؛ إمَّا ببذلِ مالِهِ إظهاراً لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، أوْ تطهيراً لنفسِهِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، أوْ شكراً علىٰ نعمةِ المالِ طلباً للمزيدِ ، وكيفَما كانَ . . فلا معاملةَ بينَهُ وبينَ الفقيرِ حتَّىٰ يرىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ ، ومهما جهلَ هـٰذا الجهلَ بأنْ رأىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ . . تفرَّعَ منهُ علىٰ ظاهرِهِ ما ذُكِرَ في معنى المنِّ ؛ وهوَ التحدُّثُ بهِ ، وإظهارُهُ ، وطلبُ المكافأةِ منهُ ؛ بالشكرِ والدعاءِ ، والخدمةِ والتوقيرِ ، والتعظيمِ والقيامِ بالحقوقِ ، والتقديمِ في المجالسِ ، والمتابعةِ في الأمورِ ، فهـٰذهِ كلُّها ثمراتُ المنَّةِ ، ومعنى المنَّةِ في الباطنِ ما ذكرناهُ .

وأما الأذىٰ : فظاهرُهُ : التوبيخُ والتعييرُ ، وتخشينُ الكلامِ وتقطيبُ الوجهِ ، وهتْكُ السترِ بالإظهارِ وفنونِ الاستخفافِ ، وباطنُهُ ـ وهوَ منبعُهُ ـ : أمرانِ :

أحدُهُما : كراهيتُهُ لرفعِ اليدِ عنِ المالِ وشدَّةُ ذٰلكَ علىٰ نفسِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يضيِّقُ الخُلُقَ لا محالةَ .

والثاني : رؤيتُهُ أنَّهُ خيرٌ مِنَ الفقيرِ ، وأنَّ الفقيرَ بسببِ حاجتِهِ أخسُّ رتبةً منهُ .

وكلاهُما منشؤُهُ الجهلُ :

أمَّا كراهةُ تسليمِ المالِ : فهوَ حمْقٌ ؛ لأنَّ مَنْ كرِهَ بذْلَ دِرْهَمٍ في مقابلةِ ما يساوي ألفاً . . فهوَ شديدُ الحماقةِ ، ومعلومٌ أنَّهُ يبذلُ المالَ لطلبِ رضا اللهِ عزَّ وجلَّ ، والثوابِ في الدارِ الآخرةِ ، وذٰلكَ أشرفُ ممَّا بذلَهُ أوْ يبذلُهُ لتطهيرِ نفسِهِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، أوْ شكراً لطلبِ المزيدِ ، وكيفَما فرضَ . . فالكراهةُ لا وجهَ لها .

وأما الثاني : فهوَ أيضاً جهلٌ ؛ لأنَّهُ لوْ عرفَ فضْلَ الفقرِ على الغنىٰ ، وعرفَ خطرَ الأغنياءِ . . لما استحقرَ الفقيرَ ، بلْ تبرَّكَ بهِ وتمنَّىٰ درجتَهُ ، فصلحاءُ الأغنياءِ يدخلونَ الجنَّةَ بعدَ الفقراءِ بخمسِ مئةِ عامٍ[1] ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « همُ الأخسرونَ وربِّ الكعبةِ » ، فقالَ أبو ذرٍّ : مَنْ هم ؟ قالَ : « همُ الأكثرونَ أمْوالاً . . . » الحديثَ[2]

ثمَّ كيفَ يستحقرُ الفقيرَ وقدْ جعلَهُ اللهُ تعالىٰ سُخرةً لهُ ؟! إذْ يكتسبُ المالَ بجُهدِهِ ، ويستكثرُ منهُ ، ويجتهدُ في حفظِهِ لمقدارِ الحاجةِ ، وقدْ أُلزِمَ أنْ يسلِّمَ إلى الفقيرِ قدْرَ حاجتِهِ ، ويكفَّ عنهُ الفاضلَ الذي يضرُّهُ لوْ سُلِّمَ إليهِ ، فالغنيُّ مستخدَمٌ للسعيِ في رزْقِ الفقيرِ ، ويتميَّزُ عليهِ بتقلُّدِ المظالمِ ، والتزامِ المشاقِّ ، وحراسةِ الفضلاتِ إلىٰ أنْ يموتَ ، فيأكلُهُ أعداؤُهُ .

فإذاً ؛ مهما انتفتِ الكراهةُ ، وتبدَّلتْ بالسرورِ والفرحِ بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ لهُ في أداءِ الواجبِ وتقبيضِهِ للفقيرِ حتَّىٰ يخلِّصَهُ عنْ عهدتِهِ بقبولِهِ منهُ . . انتفى الأذىٰ والتوبيخُ وتقطيبُ الوجهِ ، وتبدَّلَ بالاستبشارِ والثناءِ وقبولِ المنَّةِ ، فهـٰذا منشأُ المنِّ والأذىٰ .



---

(١) كما روىٰ ذٰلك الترمذي (٢٣٥٤) ، وابن ماجه (٤١٢٢) .

(٢) رواه البخاري (١٤٦٠ ، ٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) .

فإنْ قلتَ : فرؤيتُهُ نفسَهُ في درجةِ المحسنِ أمرٌ غامضٌ ، فهلْ مِنْ علامةٍ يمتحنُ بها قلبَهُ ، فيعرفَ بها أنَّهُ لمْ يرَ نفسَهُ محسناً ؟

فاعلمْ : أنَّ لهُ علامةً دقيقةً واضحةً ؛ وهيَ أنْ يقدِّرَ أنَّ الفقيرَ لوْ جنىٰ عليهِ جنايةً أوْ مالأَ عدواً لهُ عليهِ مثلاً . . هلْ كانَ يزيدُ استنكارُهُ واستبعادُهُ لهُ على استنكارِهِ قبلَ التصدُّقِ ؟ فإنْ زادَ . . لمْ تخلُ صدقتُهُ عنْ شائبةِ المنَّةِ ؛ لأنَّهُ توقَّعَ بسببِ صدقتِهِ ما لمْ يكنْ يتوقَّعُهُ قبلَ ذٰلكَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهٰذا أمرٌ غامضٌ ، ولا ينفكُّ قلبُ أحدٍ عنهُ ، فما دواؤُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ لهُ دواءً باطناً ودواءً ظاهراً :

أمَّا الباطنُ : فالمعرفةُ بالحقائقِ التي ذكرناها في فهمِ الوجوبِ ، وأنَّ الفقيرَ هوَ المحسنُ إلى الغنيِّ في تطهيرِهِ بالقبولِ .

وأمَّا الظاهرُ : فالأعمالُ التي يتعاطاها متقلِّدُ المنَّةِ ؛ فإنَّ الأفعالَ التي تصدرُ عنِ الأخلاقِ تصبغُ القلوبَ بالأخلاقِ كما سيأتي أسرارُهُ في الشطرِ الأخيرِ منَ الكتابِ .

ولذٰلكَ ؛ كانَ بعضُهُمْ يضعُ الصدقةَ بينَ يدي الفقيرِ ويمثلُ قائماً بينَ يديهِ يسألُهُ قبولَها ، حتَّىٰ يكونَ هوَ في صورةِ السائلينَ ، وهوَ يستشعرُ معَ ذٰلكَ كراهيةَ الردِّ لوْ ردَّ عليهِ[1]

وكانَ بعضُهُمْ يبسطُ كفَّهُ ليأخذَ الفقيرُ منْ كفِّهِ ؛ لتكونَ يدُ الفقيرِ هيَ العليا[2]

وكانتْ عائشةُ وأمُّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنهما إذا أرسلَتا معروفاً إلىٰ فقيرٍ . قالَتا للرسولِ : احفظْ ما يدعو بهِ ، ثمَّ كانتا تردَّانِ عليهِ مثلَ قولِهِ ، وتقولانِ : هٰذا بذاكَ ، حتَّىٰ تخلصَ لنا صدقتُنا[3]

فكانوا لا يتوقَّعونَ الدعاءَ ؛ لأنَّهُ شبهُ المكافأةِ ، وكانوا يقابلونَ الدعاءَ بمثلِهِ ، وهٰكذا فعلَ عمرُ بنُ الخطابِ وابنُهُ عبدُ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما[4] ، فهٰكذا كانَ أربابُ القلوبِ يداوونَ قلوبَهُمْ ، ولا دواءَ مِنْ حيثُ الظاهرُ إلا هٰذهِ الأعمالُ الدالَّةُ على التذلُّلِ والتواضعِ وقبولِ المنَّةِ ، ومِنْ حيثُ الباطنُ المعارفُ التي ذكرناها ، هٰذا مِنْ حيثُ العملُ ، وذٰلكَ مِنْ حيثُ العلمُ ، ولا يعالجُ القلبُ إلا بمعجونِ العلمِ والعملِ .

وهٰذهِ الشريطةُ في الزكواتِ تجري مَجرى الخشوعِ مِنَ الصلاةِ ، وثبتَ ذٰلكَ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ للمرءِ مِنْ صلاتِهِ إلا ما عقلَ منها »[5] ، وثبتَ هٰذا بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يتقبَّلُ اللهُ

---

(١) قوت القلوب (١٠٩/٢)

(٢) قوت القلوب (١٠٩/٢) .

(٣) قوت القلوب (١٠٩/٢) .

(٤) قوت القلوب (١٠٩/٢) .

(٥) في « الحلية » (٦١/٧) عن سفيان الثوري قال : (يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها) ، وعند أبي داوود (٧٩٦) مرفوعاً : « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » ، فكما أن الخشوع فرض في الصلاة لا بد منه ، فكذلك الإخلاص في الزكاة .

صدقة منّانٍ »[1] ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ .

وأمَّا فتوى الفقيهِ بوقوعِها موقعَها ، وبراءةِ ذمّتِهِ منها دونَ هٰذا الشرطِ . . فحديثٌ آخرُ ، وقدْ أشرنا إلىٰ معناهُ في كتابِ الصلاةِ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ السادسةُ : أنْ يستصغرَ العطيةَ :

فإنَّهُ إنِ استعظمَها . . أعجبَ بها ، والعجْبُ مِنَ المهلكاتِ ، وهوَ محبطٌ للأعمالِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾[2]

ويقالُ : (إنَّ الطاعةَ كلَّما استُصْغِرَتْ . . كبُرَتْ عندَ اللهِ تعالىٰ ، والمعصيةَ كلَّما استعظمَتْ . . صغرَتْ عندَ اللهِ تعالىٰ)[3]

وقيلَ : (لا يتمُّ المعروفُ إلا بثلاثٍ : تصغيرُهُ ، وتعجيلُهُ ، وسترُهُ)[4]

وليسَ الاستعظامُ هوَ المنَّ والأذىٰ ؛ فإنَّهُ لوْ صرفَ مالَهُ إلىٰ عمارةِ مسجدٍ أوْ رباطٍ . . أمكنَ فيهِ الاستعظامُ ، ولا يمكنُ فيهِ المنُّ والأذىٰ ، بلِ العجبُ والاستعظامُ يجري في جميعِ العباداتِ ، ودواؤُهُ **علْمٌ وعملٌ** :

أمَّا العلمُ : فهوَ أنْ يعلمَ أنَّ العُشْرَ أوْ ربعَ العشرِ قليلٌ مِنْ كثيرٍ ، وأنَّهُ قدْ قنعَ لنفسِهِ بأخسِّ درجاتِ البذلِ كما ذكرنا في فهمِ الوجوبِ ، فهوَ جديرٌ بأنْ يستحييَ منهُ ، فكيفَ يستعظمُهُ ؟!

وإنِ ارتقىٰ إلى الدرجةِ العليا ، فبذلَ كلَّ مالِهِ أوْ أكثرَه . . فليتأملْ أنَّهُ مِنْ أينَ لهُ المالُ ؟ وإلىٰ ماذا يصرفُهُ ؟ فالمالُ للهِ عزَّ وجلَّ ، ولهُ المنَّةُ عليهِ إذْ أعطاهُ ، ثمَّ وفَّقَهُ لبذلِهِ ، فلِمَ يستعظمُ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ما هوَ عينُ حقِّ اللهِ سبحانَهُ ؟!

وإنْ كانَ مقامُهُ يقتضي أنْ ينظرَ إلى الآخرةِ وأنَّهُ يبذلُهُ للثوابِ . . فلِمَ يستعظمُ بذلَ ما ينتظرُ عليهِ أضعافَهُ ؟!

وأمَّا العملُ : فهوَ أنْ يعطيَهُ عطاءَ الخَجِلِ مِنْ بخلِهِ بإمساكِهِ بقيَّةَ مالِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، فتكونُ هيئتُهُ الانكسارَ والحياءَ ؛ كهيئةِ مَنْ يطالَبُ بردِّ وديعةٍ فيمسكُ بعضَها ويردُّ البعضَ ؛ لأنَّ المالَ كلَّهُ للهِ تعالىٰ ، وبذلُ جميعِهِ هوَ الأحبُّ عندَ اللهِ سبحانَهُ ، وإنَّما لمْ يأمرْ بهِ عبدَهُ لأنَّهُ يشقُّ عليهِ بسببِ بخلِهِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ السابعةُ : أنْ ينتقيَ مِنْ مالِهِ أجودَهُ وأحبَّهُ إليهِ وأحلَّهُ وأطيبَهُ :

فإنَّ اللهَ تعالىٰ طيّبٌ لا يقبلُ إلا طيّباً[5] ، وإذا كانَ المُخرَجُ مِنْ شبهةٍ . . فربما لا يكونُ ملكاً لهُ طِلقاً ، فلا يقعُ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هكذا) . « إتحاف » (١١٩/٤) ، ولكن روىٰ مسلم (١٠٦) مرفوعاً : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة : المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا منّةً ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره » ، ولعل المصنف يشير إلى الحديث المتقدم : « لا يقبل الله من مُسَمِّع . . . » .

(٢) إذ قال المسلمون يومها : لن نغلب اليوم من قلّة ، فانكشفوا ، ثم أمدهم الله بنصره . انظر « الإتحاف » (١٢٣/٤) .

(٣) قوت القلوب (١١١/٢) .

(٤) قوت القلوب (١١١/٢) .

(٥) كما في « مسلم » (١٠١٥) ، ومعنىٰ « طيب » : منزه عن النقائص مقدس عن الآفات والعيوب . « إتحاف » (١٢٦/٤) .

الموقعَ ، وفي حديثِ أبانَ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ : « طوبىٰ لعبدٍ أنفقَ مِنْ مالٍ اكتسبَهُ مِنْ غيرِ معصيةٍ »[1]

وإذا لـمْ يكنِ المُخرَجُ مِنْ جيّدِ المالِ . . فهوَ مِنْ سوءِ الأدبِ ، إذْ قدْ يمسكُ الجيّدَ لنفسِهِ أوْ لعبدِهِ أوْ أهلِهِ ، فيكونُ قدْ آثرَ على اللهِ عزَّ وجلَّ غيرَهُ ، ولوْ فعلَ هـٰذا بضيفِهِ وقدَّمَ إليهِ أردأَ طعامٍ في بيتِهِ . . لأوغرَ بذٰلكَ صدرَهُ ، هـٰذا إنْ كانَ نظرُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ .

وإنْ كانَ نظرُهُ إلىٰ نفسِهِ وثوابِهِ في الآخرةِ . . فليسَ بعاقلٍ مَنْ يؤثرُ غيرَهُ علىٰ نفسِهِ ، وليسَ لهُ مِنْ مالِهِ إلا ما تصدَّقَ بهِ فأمضىٰ ، أوْ أكلَ فأفنىٰ[2] ، والذي يأكلُهُ قضاءُ وطرٍ في الحالِ ، فليسَ مِنَ العقلِ قصرُ النظرِ على العاجلةِ وتركُ الادخارِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ أيْ : لا تأخذونَهُ إلا معَ كراهيةٍ وحياءٍ ، وهوَ معنى الإغماضِ ، فلا تؤثروا بهِ ربَّكُمْ[3]

وفي الخبرِ : « سبقَ درهمٌ مئةَ ألفِ درهمٍ »[4] ، وذٰلكَ بأنْ يخرجَهُ الإنسانُ وهوَ مِنْ أحلِّ مالِهِ وأجودِهِ ، فيصدرُ ذٰلكَ عنِ الرضا والفرحِ بالبذلِ ، وقدْ يخرجُ مئةَ ألفِ درهمٍ مما يكرَهُ مِنْ مالِهِ ، فيدلُّ ذٰلكَ علىٰ أنَّهُ ليسَ يؤثرُ اللهَ عزَّ وجلَّ بشيءٍ ممَّا يحبُّهُ ، ولذٰلكَ ذمَّ اللهُ تعالىٰ قوماً جعلوا للهِ ما يكرهونَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا ﴾ وقفَ بعضُ القرّاءِ على النفيِ تكذيباً لهُمْ ، ثمَّ ابتدأَ وقالَ : ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ ؛ أي : كَسَبَ لهُمْ جعلُهُمْ للهِ ما يكرهونَ النارَ[5]

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يطلبَ لصدقتِهِ مَنْ تزكو بهِ الصدقةُ :

ولا يكتفي بأنْ يكونَ مِنْ عمومِ الأصنافِ الثمانيةِ ؛ فإنَّ في عمومِهِمْ خصوصَ صفاتٍ ، فليراعِ خصوصَ تلكَ الصفاتِ ، وهيَ ستٌّ :

الصفةُ الأولىٰ : أنْ يطلبَ الأتقياءَ المعرضينَ عنِ الدنيا ، المتجرِّدينَ لتجارةِ الآخرةِ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٧١/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢/٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٨٢/٤) من حديث طويل ، ومن طريق أبان عن أنس رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤٠/٥٤) واللفظ له .

(٢) كما في « مسلم » (٢٩٥٨) وفيه : « وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ، وأمضىٰ أبقىٰ .

(٣) وعند الترمذي (٢٩٨٧) ، وابن ماجه (١٨٢٢) واللفظ له عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، في الأصحاب الذين كانوا لا ينتخبون الجيد من الصدقة وقد نزلت فيهم هـٰذه الآية ، قال : (يقول : لو أهدي لكم . . ما قبلتموه إلا على استحياء من صاحبه غيظاً أنه بعث إليكم ما لـم يكن لكم فيه حاجة ، واعلموا أن الله غني عن صدقاتكم) .

(٤) رواه النسائي (٥٩/٥) وتمامه : قالوا : وكيف ؟ قال : « كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما ، وانطلق رجل إلىٰ عُرْض ماله فأخذ منه مئة ألف درهم فتصدق بها » ، وفي « الدر المنثور » (٦٢/٢) : (وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي هريرة قال : (لدرهم طيب أحب إلي من مئة ألف ، اقرأ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ . . . ﴾ الآيةَ) .

(٥) فلم تعد (جرم) اسماً ، بل هي هنا فعل بمعنىٰ : (كسب) أو (وجب) ، وجعْلُ (لا) ردّاً لما قبلها هو قول قُطرب ، فعنده علىٰ هـٰذا الوقفُ علىٰ (لا) . انظر « مغني اللبيب » (٣١٤/١) ، و« تاج العروس » (ج ر م) ، وسياق المصنف عند صاحب « القوت » (١٠٨/٢) ، حيث قال : (وفي الآية وقف غريب لا يعلمه إلا الحذاق من أهل العربية ، تقف علىٰ « لا » فيكون نفياً لوصفهم أن لهم الحسنىٰ ، ثم تستأنف بـ ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ أي : كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار ؛ أي : بجرمهم واكتسابهم) .

تأكلْ إلا طعامَ تقيٍّ ، ولا يأكلْ طعامَكَ إلا تقيٌّ »[1] ، وهـٰذا لأنَّ التقيَّ يستعينُ بهِ على التقوىٰ ، فتكونُ شريكاً لهُ في طاعتِهِ بإعانتِكَ إيَّاهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أطعموا طعامَكُمُ الأتقياءَ ، وأَوْلُوا معروفَكُمُ المؤمنينَ »[2] ، وفي خبرٍ آخرَ : « أضفْ بطعامِكَ مَنْ تحبُّهُ في اللهِ تعالىٰ »[3]

وكانَ بعضُ العلماءِ يؤثرُ بالعطاءِ فقراءَ الصوفيةِ دونَ غيرِهِمْ ، فقيلَ لهُ : لوْ عمَّمْتَ بمعروفِكَ جميعَ الفقراءِ . . لكانَ أفضلَ ؛ فقالَ : لا ، هـٰؤلاءِ قومٌ همُّهُمُ اللهُ سبحانَهُ ، فإذا طرقَتْهُمْ فاقةٌ تشتتَ هَمُّ أحدِهِمْ ، فلأَنْ أردَّ همَّةَ واحدٍ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعطيَ ألفاً ممَّنْ همَّتُهُ الدنيا ، فذُكِرَ هـٰذا الكلامُ للجنيدِ ، فاستحسنَهُ وقالَ : هـٰذا وليٌّ مِنْ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ، وقالَ : ما سمعتُ منذُ زمانٍ كلاماً أحسنَ مِنْ هـٰذا .

ثمَّ حُكِيَ أنَّ هـٰذا الرجلَ اختلَّ حالُهُ وهمَّ بتركِ الحانوتِ ، فبعثَ إليهِ الجنيدُ مالاً وقالَ : اجعلْهُ بضاعتَكَ ولا تتركِ الحانوتَ ، فإنَّ التجارةَ لا تضرُّ مثلَكَ ، وكانَ هـٰذا الرجلُ بقّالاً لا يأخذُ مِنَ الفقراءِ ثمنَ ما يبتاعونَ منهُ[4]

الصفةُ الثانيةُ : أنْ يكونَ مِنْ أهلِ العلمِ خاصةً : فإنَّ ذٰلكَ إعانةٌ لهُ على العلمِ ، والعلمُ أشرفُ العباداتِ مهما صحَّتْ فيهِ النيَّةُ .

وكانَ ابنُ المباركِ يخصِّصُ بمعروفِهِ أهلَ العلمِ ، فقيلَ لهُ : لوْ عمَّمْتَ ؛ فقالَ : إنِّي لا أعرفُ بعدَ مقامِ النبوَّةِ أفضلَ مِنْ مقامِ العلماءِ ، فإذا اشتغلَ قلبُ أحدِهِمْ بحاجتِهِ . . لمْ يتفرَّغْ للعلمِ ، ولمْ يقبِلْ على التعليمِ ، فتفريغُهُمْ للعلمِ أفضلُ[5]

الصفةُ الثالثةُ : أنْ يكونَ صادقاً في تقواهُ وعلمِهِ بالتوحيدِ : وتوحيدُهُ أنَّهُ إذا أخذَ العطاءَ . . حمدَ اللهَ عزَّ وجلَّ وشكرَهُ ، ورأىٰ أنَّ النعمةَ منهُ ، ولمْ ينظرْ إلىٰ واسطةٍ ، فهـٰذا هوَ أشكرُ العبادِ للهِ سبحانَهُ ، وهوَ أنْ يرىٰ أنَّ النعمةَ كلَّها منهُ .

وفي وصيةِ لقمانَ لابنِهِ : (لا تجعلْ بينَكَ وبينَ اللهِ منعماً ، واعددْ نعمةَ غيرِهِ عليكَ مغرماً)[6]

ومَنْ شكرَ غيرَ اللهِ سبحانَهُ . . فكأنَّهُ لمْ يعرفِ المنعمَ ، ولمْ يتيقَّنْ أنَّ الواسطةَ مقهورٌ مسخَّرٌ بتسخيرِ اللهِ تعالىٰ ؛

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٣٢) ، والترمذي (٢٣٩٥) بلفظ : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » ، وإنما نهىٰ عن مؤاكلة غير تقي ؛ لأن المطاعمة توجب الألفة ، وتؤدي إلى المخالطة ، بل هي أوثق عرى المداخلة ، ومخالطة غير التقي تخلُّ بالدين ، وتوقع في الشبهة والمحظورات ، فكأنه نهىٰ عن مخالطة الفجار ؛ إذ لا تخلو عن فساد : إما بمتابعة فعل ، أو مسامحة في إغضاء عن منكر ، فإن سلم من ذٰلك . . فلا يخطئه فتنته الغيرية . « إتحاف » (١٢٨/٤) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥٥/٣) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١١٠٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦١٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٦٦) عن الضحاك مرسلاً ، وابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٩٧) ، وفي بعض النسخ : (وفي لفظ) بدل (وفي خبر) ، وهو موافق للفظ « القوت » (١١٢/٢) .

(٤) قوت القلوب (١١٣/٢) .

(٥) قوت القلوب (١١٣/٢) .

(٦) رواه أحمد في « الزهد » (٢٢٣٩) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٣١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤/٨) من كلام إبراهيم بن أدهم ، وهو في « القوت » (١١٠/٢) من وصية علي كرم الله وجهه ، قال الحافظ الزبيدي : (ويحتمل أن يكون هـٰذا قول لقمان من رواية علي رضي الله عنه) . « إتحاف » (١٣٠/٤) .

إذْ سلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهِ دواعيَ الفعلِ ، ويسَّرَ لهُ الأسبابَ ، فأعطىٰ وهوَ مقهورٌ ، ولوْ أرادَ تركَهُ . . لمْ يقدرْ عليهِ بعدَ أنْ ألقى اللهُ تعالىٰ في قلبِهِ أنَّ صلاحَ دينِهِ ودنياهُ في فعلِهِ ، فمهما قَوِيَ الباعثُ . . أوجبَ ذٰلكَ جزمَ الإرادةِ وانتهاضَ القدرةِ ، ولمْ يستطعِ العبدُ مخالفةَ الباعثِ القويِّ الذي لا تردُّدَ فيهِ ، واللهُ هوَ سبحانَهُ خالقُ البواعثِ ومهيِّجُها ، ومزيلُ الضعفِ والتردُّدِ عنها ، ومسخِّرُ القدرةِ للانتهاضِ بمقتضى البواعثِ ، فمَنْ تيقَّنَ هٰذا . . لمْ يكنْ لهُ نظرٌ إلا إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، وتيقُّنُ مثلِ هٰذا العبدِ أنفعُ للمعطي مِنْ ثناءِ غيرِهِ وشكرِهِ ، فذٰلكَ حركةُ لسانٍ يقلُّ في الأكثرِ جدواهُ ، وإعانةُ مثلِ هٰذا العبدِ الموحِّدِ لا تضيعُ .

فأمَّا الذي يمدحُ بالعطاءِ ويدعو بالخيرِ . . فسيذمُّ بالمنعِ ويدعو بالشرِّ عندَ اليأسِ مِنَ العطاءِ وأحوالُهُ متفاوتةٌ .

وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثَ معروفاً إلىٰ بعضِ الفقراءِ وقالَ للرسولِ : « احفظْ ما يقولُ » ، فلمَّا وصلَ إليهِ وأعطاهُ . . قالَ : الحمدُ للهِ الذي لا ينسىٰ مَنْ ذكرَهُ ، ولا يضيعُ مَنْ شكرَهُ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ لمْ تنسَ فلاناً ـ يعني نفسَهُ ـ فاجعلْ فلاناً لا ينساكَ ، فأُخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذٰلكَ ؛ فسُرَّ وقالَ : « علمتُ أنَّهُ يقولُ ذٰلكَ » ، فانظرْ كيفَ قصرَ التفاتَهُ على اللهِ وحدَهُ[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « تُبْ » ، فقالَ : أتوبُ إلى اللهِ ولا أتوبُ إلىٰ محمدٍ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرفَ الحقَّ لأهلِهِ »[2]

ولمَّا نزلتْ براءةُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها في قصَّةِ الإفكِ . . قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قُومي فقبِّلي رأسَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقالتْ : واللهِ ؛ لا أفعلُ ، ولا أَحْمدُ إلا اللهَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعْها يا أبا بكرٍ » ؛ وفي لفظٍ آخرَ : أنَّها رضيَ اللهُ عنها قالتْ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (بحمدِ اللهِ ، لا بحمدِكَ ولا بحمدِ صاحبِكَ) ، فلمْ ينكرْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليها ذٰلكَ ، معَ أنَّ الوحيَ وصلَ إليها علىٰ لسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3]

ورؤيةُ الأشياءِ مِنْ غيرِ اللهِ سبحانَهُ وصفُ الكافرينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ ، ومَنْ لمْ يصفُ باطنُهُ عنْ رؤيةِ الوسائطِ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُمْ وسائطُ . . فكأنَّهُ لمْ ينفكَّ عنِ الشركِ الخفيِّ سرُّهُ ، فليتقِ اللهَ سبحانَهُ في تصفيةِ توحيدِهِ عنْ كدوراتِ الشركِ وشوائبِهِ .

الصفةُ الرابعةُ : أنْ يكونَ مستتراً مخفياً حاجتَهُ ، لا يكثرُ البثَّ والشكوىٰ : أوْ يكونَ مِنْ أهلِ المروءةِ ممَّنْ ذهبتْ نعمتُهُ وبقيتْ عادتُهُ ، فهوَ يتعيَّشُ في جلبابِ التجمُّلِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم

---

(١) كذا في « قوت القلوب » (١١٠/٢) وقال : (وقد روي هٰذا عن عمر وعن أبي الدرداء مع حُدَيْر) ، وخبر حدير رواه مرفوعاً عن ابن عمر بقصة طويلة أبو بكر الخلال في « الحث على التجارة والصناعة والعمل » (١٠٥) ، واسم هٰذا الرجل : حُدَير ، ورواه عن أبي الدرداء موقوفاً عليه على أنه هو المرسل لحُدَير البيهقيُّ في « الشعب » (٤١١٢) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٨١/٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤٢/١٢) ، وكنية حُدَير أبو فوزة .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤٣٥/٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٨٦/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١١١) عن الأسود بن سريع رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم أُتي بأسير ، فقاله .

(٣) خبر السيدة عائشة رضي الله عنها رواه أبو داوود (٥٢١٩) ، والقصة بطولها عند البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) ، والرواية الثانية عند الطبراني في « الكبير » (١٢٣/٢٣) .

بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أيْ : لا يلحُّونَ في السؤالِ ؛ لأنَّهُمْ أغنياءُ بيقينِهِمْ ، أعزَّةٌ بصبرِهِمْ ، وهـٰذا ينبغي أنْ يُطلبَ بالتفحُّصِ عنْ أهلِ الدينِ في كلِّ محلَّةٍ ، ويستكشفَ عنْ بواطنِ أحوالِ أهلِ الخيرِ والتجمُّلِ ، فثوابُ صرْفِ المعروفِ إليهِمْ أضعافُ ما يصرفُ إلى المجاهرينَ بالسؤالِ .

الصفةُ الخامسةُ : أنْ يكونَ مُعيلاً أوْ محبوساً بمرضٍ أوْ بسببٍ مِنَ الأسبابِ : فيوجدَ فيهِ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] أيْ : حُبسوا في طريقِ الآخرةِ لعَيْلَةٍ أوْ ضيقِ معيشةٍ ، أوْ إصلاحِ قلبٍ ، ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لأنَّهُمْ مقصوصو الجناحِ ، مقيدو الأطرافِ ، بهـٰذهِ الأسبابِ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يعطي أهلَ البيتِ القطيعَ مِنَ الغنمِ العشرةَ فما فوقَها[2] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعطي العطاءَ علىٰ قَدْرِ العَيْلَةِ[3] ، وسئل عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ جهْدِ البلاءِ فقالَ : (كثرةُ العيالِ وقلَّةُ المالِ)[4]

الصفةُ السادسةُ : أنْ يكونَ مِنَ الأقاربِ وذوي الأرحامِ : فتكونُ صدقةً وصلةَ رحمٍ ، وفي صلةِ الرحمِ مِنَ الثوابِ ما لا يخفىٰ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أصلَ أخاً مِنْ إخواني بدرهمٍ . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بعشرينَ درهماً ، ولأنْ أصلَهُ بعشرينَ درهماً . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بمئةِ درهمٍ ، ولأنْ أصلَهُ بمئةِ درهمٍ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتقَ رقبةً)[5]

والأصدقاءُ وإخوانُ الخيرِ أيضاً يتقدمونَ على المعارفِ كما يتقدَّمُ الأقاربُ على الأجانبِ ، فليراعِ هـٰذهِ الدقائقَ .

فهـٰذهِ هيَ الصفاتُ المطلوبةُ ، وفي كلِّ صفةٍ درجاتٌ ، فينبغي أنْ يطلبَ أعلاها ، فإنْ وجدَ مَنْ جمعَ جملةً مِنْ هـٰذهِ الصفاتِ . . فهيَ الذخيرةُ الكبرىٰ والغنيمةُ العظمىٰ ، ومهما اجتهدَ في ذٰلكَ وأصابَ . . فلهُ أجرانِ ، وإنْ أخطأَ . . فلهُ أجرٌ واحدٌ .

فإنَّ أحدَ أجريهِ في الحالِ : تطهيرُهُ نفسَهُ عنْ صفةِ البخلِ ، وتأكيدُ حبِّ اللهِ عزَّ وجلَّ في قلبِهِ ، واجتهادُهُ في طاعتِهِ ، وهـٰذهِ الصفاتُ هيَ التي تقوىٰ في قلبِهِ ، فتشوقُهُ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ واليومِ الآخرِ .

والأجرُ الثاني : ما يعودُ إليهِ مِنْ فائدةِ دعوةِ الآخذِ وهمَّتِهِ ؛ فإنَّ قلوبَ الأبرارِ لها آثارٌ في الحالِ والمآلِ ، فإنْ أصابَ . . حصلَ الأجرانِ ، وإنْ أخطأَ . . حصلَ الأوَّلُ دونَ الثاني .

فهـٰذا معنىٰ تضاعفِ أجرِ المصيبِ في الاجتهادِ ها هنا وفي سائرِ المواضعِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) قوله : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ متعلق بمحذوف ؛ أي : اجعلوا صدقاتكم لهـٰؤلاء . « إتحاف » (١٣٢/٤) .

(٢) قوت القلوب (١١٢/٢) .

(٣) كما هو عند أبي داوود (٢٩٥٣) عن عوف بن مالك قال : (كان إذا أتاه صلى الله عليه وسلم الفيء . . قسمه في يومه ، فأعطى الآهل حظين ، وأعطى العَزَب حظّاً) ، والآهل : الذي له زوجة وعيال ، والعَزَب : مَنْ لا زوجة له .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٤٤٣) عن ابن عمر ، وهو كذٰلك في « القوت » (١١٣/٢) .

(٥) قوت القلوب (١٠٩/٢) .

الفَصلُ الثَّالِثُ
في القابض، وأسباب استحقاقه، ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلمْ : أنَّهُ لا يستحقُّ الزكاةَ إلا حرٌّ ، مسلمٌ ، ليسَ بهاشميٍّ ولا مطَّلبيٍّ ، اتصفَ بصفةٍ مِنْ صفاتِ الأَصنافِ الثمانيةِ المذكورينَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ [١] ، فلا تصرفُ زكاةٌ إلىٰ كافرٍ ، ولا إلىٰ عبدٍ ، ولا إلىٰ هاشميٍّ ولا مطلبيٍّ ، أمَّا الصبيُّ والمجنونُ . . فيجوزُ الصرفُ إليهما إذا قبضَ عنهما وليُّهُما

❀ ❀ ❀

فلنذكرْ صفاتِ الأصنافِ الثمانيةِ :

الصنفُ الأوَّلُ : الفقراءُ :

والفقيرُ : هوَ الذي ليسَ لهُ مالٌ ولا قدرةٌ على الكسبِ ، فإنْ كانَ معهُ قوتُ يومِهِ وكُسوةُ حالِهِ . . فليسَ بفقيرٍ ، ولـٰكنَّهُ مسكينٌ ، وإنْ كانَ معهُ نصفُ قوتِ يومِهِ . . فهوَ فقيرٌ ، وإنْ كانَ معهُ قميصٌ وليسَ معهُ منديلٌ ولا خفٌّ ولا سراويلُ ولمْ تكنْ قيمةُ القميصِ بحيثُ تفي بجميعِ ذٰلكَ كما يليقُ بالفقراءِ . . فهوَ فقيرٌ ؛ لأنَّهُ في الحالِ قدْ عدمَ ما هوَ محتاجٌ إليهِ ، وما هوَ عاجزٌ عنهُ ، فلا ينبغي أنْ يُشترطَ في الفقيرِ ألا يكونَ لهُ كسوةٌ سوىٰ ساترِ العورةِ ، فإنَّ هـٰذا غلوٌّ ، والغالبُ أنَّهُ لا يوجدُ مثلُهُ .

ولا يخرجُهُ عنِ الفقرِ كونُهُ معتاداً للسؤالِ ، فلا يجعلُ السؤالُ كسباً ، بخلافِ ما لوْ قدرَ علىٰ كسبٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يخرجُهُ عنِ الفقرِ ، فإنْ قدرَ على الكسبِ بآلةٍ وليسَ لهُ آلةٌ . . فهوَ فقيرٌ ، ويجوزُ أنْ يُشترىٰ لهُ آلةٌ .

وإنْ قدرَ علىٰ كسبٍ لا يليقُ بمروءتِهِ وبحالِ مثلِهِ . . فهوَ فقيرٌ ، وإنْ كانَ متفقِّهاً ويمنعُهُ الاشتغالُ بالكسبِ عنِ التفقهِ . . فهوَ فقيرٌ ، ولا تعتبرُ قدرتُهُ [٢]

وإنْ كانَ متعبِّداً يمنعُهُ الكسبُ مِنْ وظائفِ العباداتِ وأورادِ الأوقاتِ . . فليكتسبْ ؛ لأنَّ الكسبَ أولىٰ منْ ذٰلكَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ الحلالِ فريضةٌ بعدَ الفريضةِ » [٣] ، وأرادَ بهِ السعيَ في الاكتسابِ .

وقالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عنْهُ : (كسبٌ في شبهةٍ خيرٌ مِنْ مسألةٍ) [٤]

وإنْ كانَ مكفيّاً بنفقةِ أبيهِ أوْ مَنْ تجبُ عليهِ نفقتُهُ . . فهـٰذا أهونُ مِنَ الكسبِ ، فليسَ بفقيرٍ .

❀ ❀ ❀

---

(١) في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(٢) ومفهومه : أنه لو كان مشتغلاً بغير العلوم الشرعية ؛ كالمنطق والكلام والفلسفة والرياضة . . لا يدخل في هـٰذا . « إتحاف » (١٣٨/٤) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٧٤/١٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٢٨/٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٢٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٣٢٩/١٨) بلفظ : (مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس)

الصنفُ الثاني : المساكينُ :

والمسكينُ : هوَ الذي لا يفي دخلُهُ بخَرْجِهِ ، فقدْ يملكُ ألفَ درهمٍ وهوَ مسكينٌ ، وقدْ لا يملكُ إلا فأساً وحبلاً وهوَ غنيٌّ ، والدويرةُ التي يسكنُها والثوبُ الذي يسترُهُ علىٰ قدْرِ حالِهِ لا يسلبُهُ اسمَ المسكينِ ، وكذا أثاثُ البيتِ ؛ أعني : ما يحتاجُ إليهِ ، وذٰلكَ ممَّا يليقُ بهِ ، وكذا كتبُ الفقهِ لا تخرجُهُ عنِ المسكنةِ ، وإذا لمْ يملكْ سوى الكتبِ . . فلا تلزمُهُ صدقةُ الفطرِ ، وحكْمُ الكتابِ حكمُ الثوبِ وأثاثِ البيتِ ؛ فإنَّهُ محتاجٌ إليهِ ، ولٰكنْ ينبغي أنْ يحتاطَ في فهمِ الحاجةِ بالكتابِ ، فالكتابُ محتاجٌ إليهِ لثلاثةِ أغراضٍ : التعليمُ ، والاستفادةُ ، والتفرُّجُ بالمطالعةِ .

أمَّا حاجةُ التفرُّجِ . . فلا تعتبرُ ؛ كاقتناءِ كتبِ الأشعارِ وتواريخِ الأخبارِ وأمثالِ ذٰلكَ ، ممَّا لا ينفعُ في الآخرةِ ولا يجدي في الدنيا إلا مجرَّدَ التفرُّجِ والاستئناسِ ، فهٰذا يباعُ في الكفارةِ وزكاةِ الفطرِ ، ويمنعُ اسمَ المسكنةِ .

وأمَّا حاجةُ التعليمِ إنْ كانَ لأجلِ الكسبِ ؛ كالمؤدِّبِ والمعلِّمِ والمدرِّسِ بأجرةٍ . . فهٰذهِ آلتُهُ ، فلا تباعُ في الفطرةِ ؛ كأدواتِ الخيَّاطِ وسائرِ المحترفينَ ، وإنْ كانَ يدرِّسُ للقيامِ بفرضِ الكفايةِ . . فلا تباعُ أيضاً ، ولا يسلبُهُ ذٰلكَ اسمَ المسكينِ ؛ لأنَّها حاجةٌ مهمةٌ .

وأمَّا حاجةُ الاستفادةِ والتعلُّمِ مِنَ الكتابِ ؛ كادخارِهِ كتابَ طبٍّ ليعالجَ بهِ نفسَهُ ، أوْ كتابَ وعْظٍ ليطالعَ فيهِ ويتعظَ بهِ . . فإنْ كانَ في البلدِ طبيبٌ وواعظٌ . . فهٰذا مستغنىً عنهُ ، وإنْ لمْ يكنْ . . فهو محتاجٌ إليهِ ، ثمَّ ربَّما لا يحتاجُ إلىٰ مطالعةِ الكتابِ إلا بعدَ مدَّةٍ ، فينبغي أنْ يضبطَ مدَّةَ الحاجةِ ، والأقربُ أنْ يقالَ : ما لا يحتاجُ إليهِ في السنةِ فهوَ مستغنىً عنهُ ، فإنَّ مَنْ فضلَ عنْ قوتِ يومِهِ شيءٌ . . لزمتْهُ الفطرةُ ، فإذا قدَّرْنا حاجةَ القوتِ باليومِ . . فحاجةُ أثاثِ البيتِ وثيابِ البدنِ ينبغي أنْ تقدَّرَ بالسنةِ ، فلا تباعُ ثيابُ الصيفِ في الشتاءِ ولا ثيابُ الشتاءِ في الصيفِ ، والكتبُ بالثيابِ والأثاثِ أشبهُ .

وقدْ يكونُ لهُ مِنْ كتابٍ نسختانِ ، فلا حاجةَ إلا إلىٰ إحداهُما ، فإنْ قالَ : إحداهُما أصحُّ ، والأخرىٰ أحسنُ ، فأنا محتاجٌ إليهما . . قلنا : اكتفِ بالأصحِّ وبعِ الأحسنَ ، ودعِ التفرُّجَ والترفُّهَ .

وإنْ كانَ نسختانِ مِنْ علمٍ واحدٍ ، إحداهُما بسيطةٌ والأخرىٰ وجيزةٌ ؛ فإنْ كانَ مقصودُهُ الاستفادةَ . . فليكتفِ بالبسيطِ ، وإنْ كانَ قصدُهُ التدريسَ . . فيحتاجُ إليهما ؛ إذْ في كلِّ واحدةٍ فائدةٌ ليستْ في الأخرىٰ .

وأمثالُ هٰذهِ الصورِ لا تنحصرُ ، ولمْ يُتعرَّضْ لهُ في فنِّ الفقهِ ، وإنَّما أوردناهُ لعمومِ البلوىٰ ، والتنبيهِ بجنسِ هٰذا النظرِ علىٰ غيرِه ، فإنَّ استقصاءَ هٰذهِ الصورِ غيرُ ممكنٍ ؛ إذْ يتعدَّىٰ مثلُ هٰذا النظرِ في أثاثِ البيتِ في مقدارِهِ وعددِهِ ونوعِهِ ، وفي ثيابِ البدنِ ، وفي الدارِ وسعتِها وضيقِها ، وليسَ لهٰذهِ الأمورِ حدودٌ محدودةٌ ، ولٰكنَّ الفقيهَ يجتهدُ فيها برأيِهِ ، ويقربُ في التحديداتِ بما يراهُ ، ويقتحمُ فيهِ خطرَ الشبهاتِ ، والمتورِّعُ يأخذُ فيهِ بالأحوطِ ويدعُ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، والدرجاتُ المتوسطةُ المشكلةُ بينَ الأطرافِ المتقابلةِ الجليَّةِ كثيرةٌ ، ولا ينجي منها إلا الاحتياطُ ، واللهُ أعلمُ .

❁ ❁ ❁

الصنفُ الثالثُ : العاملونَ :

وهمُ السعاةُ الذينَ يجمعونَ الزكواتِ سوى الخليفةِ والقاضي ، ويدخلُ فيهِ العريفُ والكاتبُ والمستوفي والحافظُ

والنقَّالُ ، ولا يزادُ واحدٌ منهُم على أجرِ المثلِ ، فإنْ فضلَ شيءٌ مِنَ الثمنِ عنْ أجرِ مثلِهِمْ . . ردَّ على بقيةِ الأصنافِ ، وإنْ نقصَ كُمِّلَ مِنْ مالِ المصالحِ .

❁ ❁ ❁

الصنفُ الرابعُ : المؤلفةُ قلوبُهُمْ :

وهمُ الأشرافُ الذينَ قدْ أسلموا وهمْ مطاعونَ في قومِهِمْ ، وفي إعطائِهِمْ تقريرُهُمْ على الإسلامِ ، وترغيبُ نظرائِهِمْ وأتباعِهِمْ .

❁ ❁ ❁

الصنفُ الخامسُ : المكاتبونَ :

ويدفعُ إلى السيِّدِ سهمُ المكاتبِ ، وإنْ دفعَ إلى المكاتبِ . . جازَ ، ولا يدفعُ السيِّدُ زكاتَهُ إلىٰ مكاتبِ نفسِهِ ؛ لأنَّهُ بعدُ عبدٌ لهُ .

❁ ❁ ❁

الصنفُ السادسُ : الغارمونَ :

والغارمُ : هوَ الذي استقرضَ في طاعةٍ أوْ مباحٍ وهوَ فقيرٌ ، فإنِ استقرضَ في معصيةٍ . . فلا يعطىٰ إلا إذا تابَ ، وإنْ كانَ غنياً . . لمْ يقضَ دينُهُ إلا إذا كانَ قدِ استقرضَ لمصلحةٍ أوْ إطفاءِ فتنةٍ .

❁ ❁ ❁

الصنفُ السابعُ : الغزاةُ الذينَ ليسَ لهُمْ مرسومٌ في ديوانِ المرتزقةِ :

فيصرفُ إليهم سهمٌ وإنْ كانوا أغنياءَ ؛ إعانةً لهمْ على الغزوِ .

❁ ❁ ❁

الصنفُ الثامنُ : ابنُ السبيلِ :

وهوَ الذي شَخَصَ مِنْ بلدِهِ ليسافرَ في غيرِ معصيةٍ أوِ اجتازَ بها ، فيعطىٰ إنْ كانَ فقيراً ، وإنْ كانَ لهُ مالٌ ببلدٍ آخرَ . . أعطيَ بقدْرِ بُلغتِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فبمَ تُعرفُ هٰذهِ الصفاتُ ؟

قلنا : أمَّا الفقرُ والمسكنةُ . . فبقولِ الآخذِ ، ولا يطالبُ ببينةٍ ولا يحلَّفُ ، بلْ يجوزُ اعتمادُ قولِهِ إذا لمْ يُعلمْ كذبُهُ .

وأمَّا الغزوُ والسفرُ . . فهوَ أمرٌ مستقبلٌ ، فيعطىٰ بقولِهِ : (إنِّي عازمٌ)[1] ، فإنْ لمْ يفِ بهِ . . استردَّ .

وأمَّا بقيةُ الأصنافِ . . فلا بدَّ فيها مِنَ البينةِ ، فهٰذهِ شروطُ الاستحقاقِ ، وأمَّا مقدارُ ما يصرفُ إلىٰ كلِّ واحدٍ . . فسيأتي .

❁ ❁ ❁

(١) أي : على الغزو ، أو السفر لمحلتي ، وفي بعض النسخ : (إني غاز) ، وعليه مشى الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٥٣/٤) .

بيان وظائف القابض
وهي خمسة

الأولىٰ : أن يعلمَ أنَّ اللهَ تبارك وتعالىٰ أوجبَ صرفَ الزكاةِ إليهِ ليُكفىٰ مُهِمَّهُ ، ويجعلَ همومَهُ همّاً واحداً :

فقدْ تعبَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الخلقَ بأنْ يكونَ همُّهُمْ واحداً ، وهوَ اللهُ سبحانَهُ واليومُ الآخرُ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١)

ولـٰكنْ لمَّا اقتضتِ الحكمةُ أنْ تسلَّطَ على العبدِ الشهواتُ والحاجاتُ وهيَ تفرِّقُ همَّهُ . . اقتضى الكرمُ إفاضةَ نعمةٍ تكفي الحاجاتِ ، فأكثرَ الأموالَ وصبَّها في أيدي عبادِهِ لتكونَ آلةً لهُم في دفْعِ حاجاتِهِمْ ، ووسيلةً لتفرّغِهُمْ لطاعاتِهِمْ ، فمنهُمْ مَنْ أكثرَ مالَهُ ، فجعلَهُ عليهِ فتنةً وبليةً ، فأقحمَهُ في الخطرِ ، ومنهُمْ مَنْ أحبَّهُ ، فحماهُ الدنيا كما يحمي المشفقُ مريضَهُ ، فزوىٰ عنهُ فُضُولَها ، وساقَ إليه قدْرَ حاجتِهِ علىٰ أيدي الأغنياءِ ليكونَ شغلُ الكسبِ والتعبِ في الجمعِ والحفظِ عليهِمْ ، وفائدتُهُ تنصبُّ إلى الفقراءِ ، فيتجرَّدونَ لعبادةِ اللهِ والاستعدادِ لما بعدَ الموتِ ، فلا تصرفُهُمْ عنْ ذٰلكَ فضولُ الدنيا ، ولا تشغلُهُمْ عنِ التأهُّبِ الفاقةُ ، وهـٰذا منتهى النعمةِ ، فحقُّ الفقيرِ أنْ يعرفَ قدْرَ نعمةِ الفقرِ ، ويتحقَّقَ أنَّ فضْلَ اللهِ عليهِ فيما زواهُ عنهُ أكثرُ مِنْ فضلِهِ فيما أعطاهُ ؛ كما سيأتي في كتابِ الفقرِ تحقيقُهُ وبيانُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

فليأخذْ ما يأخذُهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ رزقاً وعوناً لهُ على الطاعةِ ، ولتكنْ نيَّتُهُ فيهِ أنْ يتقوَّىٰ بهِ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ لمْ يقدرْ عليهِ . . فليصرفْهُ إلىٰ ما أباحَهُ اللهُ تعالىٰ ، فإنِ استعانَ بهِ علىٰ معصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . كانَ كافراً لأنعمِ اللهِ ، مستحقّاً للبعدِ والمقتِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

الثانيةُ : أنْ يشكرَ المعطيَ ويدعوَ لهُ ويثنيَ عليهِ :

ويكونُ شكرُهُ ودعاؤُهُ بحيثُ لا يخرجُهُ عنْ كونِهِ واسطةً ، ولـٰكنَّهُ طريقُ وصولِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وللطريقِ حقٌّ مِنْ حيثُ جعلَهُ اللهُ طريقاً وواسطةً ، وذٰلكَ لا ينافي رؤيةَ النعمةِ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لَمْ يشكرِ الناسَ . . لمْ يشكرِ اللهَ »(٢) ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ في مواضعَ علىٰ أعمالِهِمْ وهوَ خالقُها وخالقُ القدرةِ عليها ؛ نحوَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ .

وليقلِ القابضُ في دعائِهِ : (طهَّرَ اللهُ قلبَكَ في قلوبِ الأبرارِ ، وزكَّىٰ عملَكَ في عملِ الأخيارِ ، وصلَّىٰ علىٰ روحِكَ في أرواحِ الشهداءِ)(٣) ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أسدىٰ إليكُمْ معروفاً . . فكافئوهُ ، فإنْ لمْ تستطيعوا . . فادعوا لهُ حتَّىٰ تعلموا أنَّكُمْ قدْ كافأتموهُ »(٤)

---

(١) أي : يقصدوني بعبادتهم وتذللهم ، فأكفيهم مؤنتهم وهمومهم ، وروى ابن ماجه (٢٥٧) مرفوعاً : « من جعل الهموم همّاً واحداً ؛ همَّ آخرته . . كفاه الله همَّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا . . لم يبالِ الله في أيّ أوديتها هلك » . انظر « الإتحاف » (١٥٤/٤) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .

(٣) قوت القلوب (١٠٩/٢) .

(٤) رواه أبو داوود (١٦٧٢) ، والنسائي (٨٢/٥) .

ومِنْ تمامِ الشكرِ أَنْ يسترَ عيوبَ العطاءِ إنْ كانَ فيهِ عيبٌ ، ولا يحقرَهُ ولا يذمَّهُ ولا يُعيِّرَهُ بالمنعِ إذا منعَ ، ويفخِّمَ عندَ نفسِهِ وعندَ الناسِ صنيعَهُ ، فوظيفةُ المعطي الاستصغارُ ، ووظيفةُ القابضِ تقلُّدُ المنَّةِ والاستعظامُ ، وعلىٰ كلِّ عبدٍ القيامُ بحقِّهِ ، وذٰلكَ لا تناقضَ فيهِ ؛ إذْ موجباتُ التصغيرِ والتعظيمِ لا تتعارضُ ، والنافعُ للمعطي ملاحظةُ أسبابِ التصغيرِ ، ويضرُّهُ خلافُهُ ، والآخذُ بالعكسِ منهُ[1] ، وكلُّ ذٰلكَ لا يناقض رؤيةَ النعمةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ مَنْ لا يرى الواسطةَ واسطةً . . فقدْ جهلَ ، وإنَّما المنكَرُ أنْ يرى الواسطةَ أصلاً .

❀ ❀ ❀

الثالثةُ : أنْ ينظرَ فيما يأخذُهُ :

فإنْ لمْ يكنْ مِنْ حلِّهِ . . تورَّعَ عنهُ ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، ولنْ يعدمَ المتورِّعُ عنِ الحرامِ فتوحاً منَ الحلالِ ، فلا يأخذَنْ مِنْ أموالِ الأتراكِ والجنودِ وعمَّالِ السلاطينِ[2] ومَنْ أكثرُ كسبِهِ مِنَ الحرامِ ؛ إلا إذا ضاقَ عليهِ الأمرُ وكانَ ما يسلَّمُ إليهِ لا يعرفُ لهُ مالكاً معيَّناً ، فلهُ أنْ يأخذَ بقدْرِ الحاجةِ ، فإنَّ فتوى الشرعِ في مثلِ هٰذا أنْ يتصدَّقَ بهِ علىٰ ما سيأتي بيانُهُ في كتابِ الحلالِ والحرامِ ، وذٰلكَ إذا عجزَ عنِ الحلالِ ، فإذا أخذَ . . لمْ يكنْ أخذُهُ أخذَ زكاةٍ ؛ إذْ لا يقعُ زكاةً عنْ مؤدِّيهِ وهوَ حرامٌ .

❀ ❀ ❀

الرابعةُ : أنْ يتوقَّىٰ مواقعَ الريبةِ والاشتباهِ في مقدارِ ما يأخذُهُ :

فلا يأخذُ إلا القدْرَ المباحَ ، ولا يأخذُ إلا إذا تحقَّقَ أنَّهُ موصوفٌ بصفةِ الاستحقاقِ .

فإنْ كانَ يأخذُ بالكتابةِ أوِ الغرامةِ . . فلا يزيدُ علىٰ مقدارِ الدينِ ، وإنْ كانَ يأخذُ بالعملِ . . فلا يزيدُ علىٰ أجرةِ المثْلِ ، وإنْ أعطيَ زيادةً . . أبىٰ وامتنعَ ؛ إذْ ليسَ المالُ للمعطي حتَّىٰ يتبرَّعَ بهِ ، وإنْ كانَ مسافراً . . لمْ يزدْ علىٰ الزادِ وكراءِ الدابَّةِ إلىٰ مقصدِهِ ، وإنْ كانَ غازياً . . لمْ يأخذْ إلا ما يحتاجُ إليهِ للغزوِ خاصَّةً ؛ مِنْ خيلٍ وسلاحٍ ونفقةٍ ، وتقديرُ ذٰلكَ بالاجتهادِ ، وليسَ لهُ حدٌّ ، وكذا زادُ السفرِ ، والورعُ تركُ ما يَريبُهُ إلىٰ ما لا يَريبُهُ .

وإنْ أخذَ بالمسكنةِ . . فلينظرْ أوَّلاً إلىٰ أثاثِ بيتِهِ وثيابِهِ وكتبِهِ : هلْ فيها ما يُستغنىٰ عنهُ بعينِهِ أو يُستغنىٰ عنْ نفاستِهِ فيمكنُ أنْ يبدَّلَ بما يكفي ويفضلَ بعضُ قيمتِهِ ؟ وكلُّ ذٰلكَ إلى اجتهادِهِ ، وفيهِ طرفٌ ظاهرٌ يتحقَّقُ معَهُ أنَّهُ مستحقٌّ ، وطرفٌ آخرُ مقابلٌ يتحقَّقُ معَهُ أنَّهُ غيرُ مستحقٍّ ، وبينَهُما أوساطٌ مشتبهةٌ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، والاعتمادُ في هٰذا علىٰ قولِ الآخذِ ظاهراً .

وللمحتاجِ في تقديرِ الحاجاتِ مقاماتٌ في التضييقِ والتوسيعِ ، ولا تنحصرُ مراتبُهُ ، وميلُ الوَرِعِ إلى التضييقِ ، وميلُ المتساهلِ إلى التوسيعِ ، حتَّىٰ يرىٰ نفسَهُ محتاجاً إلىٰ فنونٍ مِنَ التوسيعِ هيَ ممقوتةٌ في الشرعِ .

ثمَّ إذا تحقَّقَتْ حاجتُهُ . . فلا يأخذنْ مالاً كثيراً ، بلْ ما يتمِّمُ كفايتَهُ مِنْ وقتِ أخذِهِ إلىٰ سنةٍ ، فهٰذا أقصىٰ ما يرخَّصُ فيهِ مِنْ حيثُ إنَّ السنةَ إذا تكرَّرَتْ . . تكرَّرَتْ أسبابُ الدَّخْلِ ، ومِنْ حيثُ إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ادَّخَرَ لعيالِهِ

---

(١) فإنه ينفعه ملاحظة أسباب التعظيم ، ويضرُّهُ التحقير . « إتحاف » (١٥٧/٤) .

(٢) أي : ممن عهد عنه الظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإلا . . فلا منع .

قوتَ سنةٍ[1] ، فهٰذا أقربُ ما يحدُّ بهِ حدُّ الفقيرِ والمسكينِ ، ولوِ اقتصرَ علىٰ حاجةِ شهرِهِ أوْ حاجةِ يومِهِ . . فهوَ أقربُ للتقوىٰ .

ومذاهبُ العلماءِ في قدْرِ المأخوذِ بحكْمِ الزكاةِ والصدقةِ مختلفةٌ ؛ فمِنْ مبالغٍ في التقليلِ إلىٰ حدٍّ أوجبَ الاقتصارَ علىٰ قدرِ قوتِ يومِهِ وليلتِهِ ، وتمسكَ بما روىٰ سهلُ بنُ الحنظليةِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنِ السؤالِ معَ الغنىٰ ، فسئلَ عن غناهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « غداؤُهُ وعشاؤُهُ »[2]

وقالَ آخرونَ : يأخذُ إلىٰ حدِّ الغنىٰ ، وحدُّ الغنىٰ نصابُ الزكاةِ ؛ إذْ لمْ يوجبِ اللهُ تعالى الزكاةَ إلا على الأغنياءِ ، فقالوا : لهُ أنْ يأخذَ لنفسِهِ ولكلِّ واحدٍ مِنْ عيالِهِ نصابَ زكاةٍ .

وقالَ قائلونَ : حدُّ الغنيِّ خمسونَ درهماً أوْ قيمتُها مِنَ الذهبِ ؛ لما روى ابنُ مسعودٍ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ سألَ ولهُ مالٌ يغنيهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ وفي وجهِهِ خُمُوشٌ » ، قيلَ : وما غناهُ ؟ قالَ : « خمسونَ درهماً أوْ قيمتُها مِنَ الذهبِ » ، وقيلَ : راويهِ ليسَ بقويٍّ[3]

وقالَ قومٌ : أربعونَ ؛ لما رواهُ عطاءُ بنُ يسارٍ منقطعاً أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ سألَ ولهُ أوقيةٌ . . فقدْ ألحفَ في السؤالِ »[4]

وبالغَ آخرونَ في التوسيعِ فقالوا : لهُ أنْ يأخذَ مقدارَ ما يشتري بهِ ضيعةً ، فيستغنيَ بها طولَ عمرِهِ ، أوْ يهيّئَ بضاعةً ليتجرَ فيها ويستغنيَ بها طولَ عمرِهِ ؛ لأنَّ هٰذا هوَ الغنىٰ ، وقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا أعطيتُمْ . . فأغنوا)[5] ، حتَّىٰ ذهبَ قومٌ إلىٰ أنَّ مَنِ افتقرَ . . فلهُ أنْ يأخذَ بقدْرِ ما يعودُ بهِ إلىٰ مثلِ حالِهِ ولوْ عشرةَ آلافِ درهمٍ ، إلا إذا خرجَ عنْ حدِّ الاعتدالِ .

ولما شغلَ أبا طلحةَ بستانُهُ عنِ الصلاةِ . . قالَ : جعلتُهُ صدقةً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اجعلْهُ في قرابتِكَ ، فهوَ خيرٌ لكَ »[6] ، فأعطاهُ حسَّانَ وأبا قتادةَ ، فحائطٌ مِنْ نخلٍ لرجلينِ كثيرٌ مغنٍ ، وأعطىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أعرابياً ناقةً معَها ظئراها[7] ، فهٰذا ما يُحكىٰ فيهِ .

فأمَّا التقليلُ إلىٰ قوتِ اليومِ أوِ الأوقيةِ . . فذٰلكَ وردَ في كراهيةِ السؤالِ والتردُّدِ على الأبوابِ ، وذٰلكَ مستنكرٌ ، ولهُ

---

(1) كما في « البخاري » (٢٩٠٤) ، و« مسلم » (١٧٥٧) بلفظ : (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله علىٰ رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان ينفق علىٰ أهله نفقة سنة ، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله) ، ولفظ الترمذي (١٧١٩) : (كان يعزل نفقة أهله سنة) .

(2) رواه أبو داوود (١٦٢٩) بلفظ : « من سأل وعنده ما يغنيه . . فإنما يستكثر من النار » فقالوا : وما يغنيه ؟ قال : « قدر ما يغديه ويعشيه » .

(3) رواه أبو داوود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٩٧/٥) ، وابن ماجه (١٨٤٠) ، وقوله : (قيل : راويه ليس بقوي) : عنىٰ به حكيم بن جبير ، فقد ضعفوه ، متهم بالرفض ، ولذا ضعَّف الحديث النسائي والخطابي ، ولذا طلبوا من سفيان الرواية عن غيره ، فحدَّثهم عن زبيد ، فصار الحديث بهٰذا الطريق قوياً ، والله أعلم . « إتحاف » (١٦٠/٤) .

(4) رواه أبو داوود (١٦٢٧ ، ١٦٢٨) ، والنسائي (٩٨/٥) ، زاد هشام في حديثه عند أبي داوود : (وكانت الأوقية علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين درهماً) ، وبالأربعين صرَّح النسائي في حديث آخر (٩٨/٥) .

(5) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٥٢٦) .

(6) روى الجزء الأول منه مالك في « الموطأ » (٩٨/١) ، والباقي عند البخاري (١٤٦١) ، ومسلم (٩٩٨) .

(7) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١٦/٤٤) ، وظئراها هنا : أبوها وأمُّها

حكمٌ آخرُ ، بلِ التجويزُ إلىٰ أنْ يشتريَ ضيعةً فيستغنيَ بها أقربُ إلى الاحتمالِ ، وهوَ أيضاً مائلٌ إلى الإسرافِ .

والأقربُ إلى الاعتدالِ : كفايةُ سنةٍ ، فما وراءَهُ فيهِ خطرٌ ، وفيما دونَهُ تضييقٌ ، وهـٰذهِ الأمورُ إذا لمْ يكنْ فيها تقديرٌ . . جُزِمَ بالتوقيفِ ، فليسَ للمجتهدِ إلا الحكمُ بما يقعُ لهُ ، ثمَّ يقالُ للورعِ : « استفتِ قلبَكَ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ » كما قالَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ؛ إذِ الإثمُ حَوَازُّ القلوبِ ، فإذا وجدَ القابضُ في نفسِهِ شيئاً ممَّا يأخذُهُ . . فليتقِ اللهَ فيهِ ، ولا يترخصْ تعلُّلاً بالفتوىٰ منْ علماءِ الظاهرِ ؛ فإنَّ لفتاويهِمْ قيوداً ومطلقاتٍ مِنَ الضروراتِ ، وفيها تخميناتٌ واقتحامُ شبهاتٍ ، والتوقي مِنَ الشبهاتِ مِنْ شيَمِ ذوي الدينِ وعاداتِ السالكينَ لطريقِ الآخرةِ .

❁ ❁ ❁

الخامسةُ : أنْ يسألَ صاحبَ المالِ عنْ قدْرِ الواجبِ عليهِ :

فإنْ كانَ ما يعطيهِ فوقَ الثُّمُنِ . . فلا يأخذْ منهُ ؛ لأنَّهُ لا يستحقُّ معَ شريكَيهِ إلا الثُّمُنَ ، فلينقصْ مِنَ الثُّمُنِ مقدارَ ما يصرفُ إلى اثنينِ مِنْ صنفِهِ ، وهـٰذا السؤالُ واجبٌ علىٰ أكثرِ الخلقِ ، فإنَّهُمْ لا يراعونَ هـٰذهِ القسمةَ ؛ إمَّا لجهلٍ ، وإمَّا لتساهلٍ ، وإنَّما يجوزُ تركُ السؤالِ عنْ مثلِ هـٰذهِ الأمورِ إذا لمْ يغلبْ على الظنِّ احتمالُ التحريمِ ، وسيأتي ذكْرُ مظانِّ السؤالِ ودرجةِ الاحتمالِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٤/٢٢٨) .

الفَصْلُ الرَّابِعُ
في صدقة التطوّع ، وفضلها ، وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

الأخبار :

قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تصدَّقوا ولوْ بتمرةٍ ، فإنَّها تسدُّ مِنَ الجائعِ ، وتطفئُ الخطيئةَ كما يطفئُ الماءُ النارَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ تجدوا . . فبكلمةٍ طيبةٍ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا منْ عبدٍ مسلمٍ يتصدَّقُ بصدقةٍ مِنْ كسبٍ طيِّبٍ ـ ولا يقبلُ اللهُ إلا طيِّباً ـ إلا كانَ اللهُ يأخذُها بيمينِهِ ، فيربّيها لهُ كما يربّي أحدُكُمْ فَصِيلَهُ أوْ فَلُوَّهُ حتَّىٰ تبلغَ التمرةُ مثلَ أُحُدٍ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي الدرداءِ : « إذا طبختَ مرقةً . . فأكثرْ ماءَها ، ثمَّ انظرْ أهلَ بيتٍ مِنْ جيرانِكَ ، فأصبْهُمْ منهُ بمعروفٍ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحسنَ عبدٌ الصدقةَ إلا أحسنَ اللهُ عزَّ وجلَّ الخلافةَ علىٰ تركتِهِ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقتِهِ يومَ القيامةِ حتَّىٰ يُقضىٰ بينَ الناسِ »[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصدقةُ تسدُّ سبعينَ باباً مِنَ الشرِّ »[7] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صدقةُ السرِّ تطفئُ غضبَ الربِّ عزَّ وجلَّ »[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الذي أعطىٰ مِنْ سَعةٍ بأفضلَ أجراً مِنَ الذي يقبلُ مِنْ حاجةٍ »[9] ، ولعلَّ المرادَ بهِ : الذي يقصدُ مِنْ دفْعِ حاجتِهِ التفرُّغَ للدينِ ، فيكونُ مساوياً للمعطي الذي يقصدُ بإعطائِهِ عمارةَ دينِهِ .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الصدقةِ أفضلُ ؟ قالَ : « أنْ تَصَدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ ، تأملُ الغنىٰ وتخشى الفاقةَ ، ولا تمهلُ حتَّىٰ إذا بلغتِ الحلقومَ . . قلتَ : لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا ، ألا وقدْ كانَ لفلانٍ »[10] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً لأصحابِهِ : « تصدَّقوا » ، فقالَ رجلٌ : إنَّ عندي ديناراً ، فقالَ : « أنفقْهُ علىٰ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٥١) .
(٢) رواه البخاري (١٤١٣) ، ومسلم (١٠١٦) .
(٣) رواه مسلم (١٠١٤) .
(٤) رواه مسلم (٢٦٢٥) والخطاب فيه لأبي ذر رضي الله عنه .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤٦) عن ابن شهاب مرسلاً .
(٦) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٨) .
(٧) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٧٤/٤) .
(٨) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٦١/٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٦٨/٣) .
(٩) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٢٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٥/٨) .
(١٠) رواه البخاري (١٤١٩) ، ومسلم (١٠٣٢) .

نفسِكَ » ، فقالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ : « أنفقْهُ على زوجتِكَ » ، قالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ : « أنفقْهُ على ولدِكَ » ، قالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ : « أنفقْهُ على خادمِكَ » ، قالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتَ أبصرُ بهِ »(1)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تحلُّ الصدقةُ لآلِ محمدٍ ، إنَّما هيَ أوساخُ الناسِ »(2)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ردُّوا مذمَّةَ السائلِ ولوْ بمثلِ رأسِ الطائرِ منَ الطعامِ »(3)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ صدقَ السائلُ . . ما أفلحَ مَنْ ردَّهُ »(4)

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ ردَّ سائلاً خائباً مِنْ بيتِهِ . . لمْ تغشَ الملائكةُ ذٰلكَ البيتَ سبعةَ أيامٍ) .

وكانَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يكلُ خصلتينِ إلىٰ غيرِهِ ؛ كانَ يضعُ طَهورَهُ بالليلِ ويخمِّرُهُ ، وكانَ يناولُ المسكينَ بيدِهِ(5)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ المسكينُ الذي تردُّهُ التمرةُ والتمرتانِ واللقمةُ واللقمتانِ ، إنَّما المسكينُ المتعفِّفُ ، اقرؤوا إنْ شئتُمْ : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ »(6)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ مسلمٍ يكسو مسلماً . . إلا كانَ في حفظِ اللهِ عزَّ وجلَّ ما دامتْ عليهِ منهُ رقعةٌ »(7)

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ عروةُ بنُ الزبيرِ : (لقدْ تصدَّقَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها بخمسينَ ألفاً ، وإنَّ درعَها لمرقَّعٌ)(8) .

وقالَ مجاهدٌ في قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ فقالَ : (وهمْ يشتهونَهُ)(9)

وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلِ الفضلَ عندَ خيارِنا ، لعلَّهُمْ يعودونَ بهِ علىٰ أولي الحاجةِ منَّا) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بن عميرٍ : (الصلاةُ تبلِّغُكَ نصفَ الطريقِ ، والصومُ يبلِّغُكَ بابَ المَلِكِ ، والصدقةُ تدخلُكَ عليهِ)(10)

---

(1) رواه أبو داوود في « سننه » (١٦٩١) ، والنسائي (٦٢/٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٣٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤١٥/١) .

(2) رواه مسلم (١٠٧٢) .

(3) رواه العقيلي في « الضعفاء » (١٢١/١) وفيه : (رأس الذباب) بدل (رأس الطائر) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٩١٥) عن حميد بن عبد الرحمٰن قال : (كان يقال : ردوا السائل ولو بمثل رأس القطاة) .

(4) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٤٦/٨) بلفظ : « لولا أن المساكين يكذبون . . ما أفلح من ردَّهم » ، وكذٰلك هو عند البيهقي في « الشعب » (٣١٢٦) ، وهو بلفظ المصنف رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٩٧/٥) ، وانظر « الإتحاف » (١٧١/٤) .

(5) رواه ابن ماجه (٣٦٢) عن ابن عباس قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكل طهوره إلىٰ أحد ، ولا صدقته التي يتصدق بها ، يكون هو الذي يتولاها بنفسه) .

(6) رواه البخاري (٤٥٣٩) ، ومسلم (١٠٣٩) .

(7) رواه الترمذي (٢٤٨٤) بنحوه ، وهو بمعناه عند أبي داوود (١٦٨٢) .

(8) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٥٤) .

(9) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٥٤/٢٩/١٤) .

(10) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٤٤٠) عن ابن أبي الحواري ، عن عبد العزيز بن محمد ، وعبد العزيز بن عمير روىٰ عنه أحمد بن أبي الحواري كما في « تاريخ دمشق » (٣٣٣/٣٦) .

وقالَ ابنُ أبي الجعدِ : (إنَّ الصدقةَ لتدفعُ سبعينَ باباً مِنَ السوءِ ، وفضلُ سرِّها علىٰ علانيتِها بسبعينَ ضعفاً ، وإنَّها لتفكُّ لَحْيَي سبعينَ شيطاناً)[1]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إنَّ رجلاً عبدَ اللهَ سبعينَ سنةً ، ثم أصابَ فاحشةً فأحبطَ عملَهُ ، ثمَّ مرَّ بمسكينٍ ، فتصدَّقَ عليهِ برغيفٍ ، فغفرَ اللهُ لهُ ذنبَهُ ، وردَّ عليهِ عملَ السبعينَ سنةً)[2]

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (إذا اخطأتَ خطيئةً . . فأعطِ صدقةً)[3]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (ما أعرفُ حبَّةً تزنُ جبالَ الدنيا إلا الحبةَ مِنَ الصدقةِ)[4]

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ : (كانَ يقالُ : ثلاثةٌ مِنْ كنوزِ الجنةِ أوْ مِنْ كنوزِ البرِّ : كتمانُ المرضِ ، وكتمانُ الصدقةِ ، وكتمانُ المصائبِ) ، ورُوِيَ مسنداً[5]

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الأعمالَ تباهتْ ؛ فقالتِ الصدقةُ : أنا أفضلُكُنَّ) .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ يتصدَّقُ بالسُّكَّرِ ويقولُ : (سمعتُ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، واللهُ يعلمُ أنِّي أحبُّ السُّكَّرَ)[6]

وقالَ النخعيُّ : (إذا كانَ الشيءُ للهِ عزَّ وجلَّ . . لا يسرُّني أنْ يكونَ فيهِ عيبٌ) .

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ : (يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ أجوعَ ما كانوا قطُّ ، وأعطشَ ما كانوا قطُّ ، وأعرىٰ ما كانوا قطُّ ، فمنْ أطعمَ للهِ عزَّ وجلَّ . . أشبعَهُ اللهُ ، ومَنْ سقىٰ للهِ عزَّ وجلَّ . . سقاهُ اللهُ ، ومنْ كسا للهِ عزَّ وجلَّ . . كساهُ اللهُ)[7]

وقالَ الحسنُ : (لو شاءَ اللهُ لجعلَكُمْ أغنياءَ لا فقيرَ فيكُمْ ، ولـٰكنَّهُ ابتلىٰ بعضَكُمْ ببعضٍ)[8]

وقالَ الشعبيُّ : (مَنْ لمْ يرَ نفسَهُ إلىٰ ثوابِ الصدقةِ أحوجَ مِنَ الفقيرِ إلىٰ صدقتِهِ . . فقدْ أبطلَ صدقتَهُ ، وضربَ بها وجهَهُ) .

---

(١) روىٰ أوله الطبراني في « الكبير » (٢٧٤/٤) ، وآخره رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤٩) .

(٢) رواه الحسين بن حرب في « البر والصلة » (٢٧٩) بلفظ المصنف ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٥٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦٣/١) عن أبي بردة قال : (لما حضر أبا موسى الوفاةُ ـ وأبو بردة ابنه ـ قال : يا بُنَيَّ ؛ اذكروا صاحبَ الرغيفِ ، قال : كان رجل يتعبد في صومعة ـ أُراه قال : سبعينَ سنة ـ لا ينزل إلا في يوم أحد ، قال : فنزل في يوم أحد ، قال : فشُبِّهَ أو شبَّ الشيطان في عينه امرأة ، فكان معها سبعة أيام وسبع ليال ، قال : ثم كُشف عن الرجل غطاؤه ، فخرج تائباً ، فكان كلما خطا خطوة صلىٰ وسجد ، قال : فآواه الليل إلىٰ دكان عليه اثنا عشر مسكيناً ، فأدركه الإعياء ، فرمىٰ بنفسه بين رجلين منهم ، وكان ثَمَّ راهب يبعث إليهم كل ليلة بأرغفة ، فيعطي كل إنسانٍ رغيفاً ، فجاء صاحب الرغيف فأعطىٰ كل إنسان رغيفاً ، فقال المتروك لصاحب الرغيف : ما لك لم تعطني رغيفي ؟ ما كان إليَّ عنه غنىً ، قال : تُراني أُمسكه عنك ؟! والله لا أعطيك شيئاً الليلة ، قال : فعمد التائب إلى الرغيف الذي دفعه إليه ، فدفعه إلى الرجل الذي ترك ، فأصبح التائب ميتاً ، قال : فوزنت السبعون سنة بالسبع الليالي . . فلم تزن !! قال : فوزن الرغيف بالسبع الليالي ، قال : فرجح الرغيف ، فقال أبو موسىٰ : يا بني ؛ اذكروا صاحب الرغيف) .

(٣) رواه الحسين بن حرب في « البر والصلة » (٢٨١) .

(٤) حكاه الثعلبي في « تفسيره » (٢٨٤/٢) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٧/٧) مرفوعاً ، وانظر « قوت القلوب » (١٠٧/٢) .

(٦) عزا السيوطي في « الدر المنثور » (٢٦٢/٢) روايته لابن المنذر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، والسُّكَّر : نوع من الرطب شديد الحلاوة .

(٧) رواه أحمد في « الزهد » (١٠٩٢) .

(٨) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٧١) ، وفيه قبل الاستدراك : (ولو شاء لجعلكم فقراء لا غني فيكم) عن الحسن مرسلاً .

وقالَ مالكٌ : (لا نرىٰ بشربِ الموسرِ مِنَ الماءِ الذي يُتصدَّقُ بهِ ويُسقىٰ في المسجدِ بأساً ؛ لأنَّهُ إنَّما جُعِلَ للعطشانِ مَنْ كانَ ، ولمْ يُردْ بهِ أهلُ الحاجةِ والمسكنةِ على الخصوصِ) .

ويقالُ : إنَّ الحسنَ مرَّ بهِ نخَّاسٌ ومعهُ جاريةٌ ، فقالَ للنخَّاسِ : أترضىٰ ثمنَها الدرهمَ والدرهمينِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فاذهبْ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رضيَ في الحورِ العينِ بالفَلْسِ واللقمةِ [1]

* * *

(١) نثر الدر (٥/١٨٣ ـ ١٨٤) .

بيان إخفاء أخذ الصدقة وإظهارها

قدِ اختلفَ الناسُ في طُرقِ طلَّابِ الإخلاصِ في ذٰلكَ ؛ فمالَ قومٌ إلىٰ أنَّ الإخفاءَ أفضلُ ، ومالَ قومٌ إلى الإظهارِ ، ونحنُ نشيرُ إلىٰ ما في كلِّ واحدٍ مِنَ المعاني والآفاتِ ، ثمَّ نكشفُ الغطاءَ عنِ الحقِّ فيهِ :

أمَّا الإخفاءُ . . ففيهِ خمسةُ معانٍ :

الأوَّلُ : أنَّهُ أبقىٰ للسَّتْرِ على الآخذِ ؛ فإنَّ أخْذَهُ ظاهراً هتكٌ لستْرِ المروءةِ ، وكشفٌ عنِ الحاجةِ ، وخروجٌ عنْ هيئةِ التعفُّفِ والتصوُّنِ المحبوبِ الذي يحسبهُمُ الجاهِلُ بِهِ أغنياءَ مِنَ التعفُّفِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : أنَّهُ أسلمُ لقلوبِ الناسِ ولألسنتِهِمْ ؛ فإنَّهُمْ ربما يحسدونَ أوْ ينكرونَ عليهِ أخْذَهُ ، ويظنُّونَ أنَّهُ آخذٌ معَ الاستغناءِ ، أوْ ينسبونَهُ إلىٰ أخْذِ زيادةٍ ، والحسدُ وسوءُ الظنِّ والغيبةُ مِنَ الذنوبِ الكبائرِ ، وصيانتُهُمْ عنْ هٰذهِ الجرائمِ أولىٰ .

وقالَ أبو أيوبَ السِّخْتيانيُّ : (إنِّي لأتركُ لُبْسَ الثوبِ الجديدِ خشيةَ أنْ يحدِثَ في جيراني حسداً)(1)

وقالَ بعضُ الزهَّادِ : (ربما تركتُ استعمالَ الشيءِ لأجلِ إخواني ، يقولونَ : مِنْ أينَ لهُ هٰذا ؟!)(2)

وعنْ إبراهيمَ التيميِّ : أنَّهُ رُئِيَ عليهِ قميصٌ جديدٌ ، فقالَ بعضُ إخوانِهِ : مِنْ أينَ لكَ هٰذا ؟ فقالَ : كسانيهِ أخي خيثمةُ ، ولوْ علمتُ أنَّ أهلَهُ علموا بهِ . . ما قبلتُهُ(3)

❁ ❁ ❁

الثالثُ : إعانةُ المعطي علىٰ إسرارِ العملِ ؛ فإنَّ فضلَ السرِّ على الجهرِ في الإعطاءِ أكثرُ ، والإعانةُ علىٰ إتمامِ المعروفِ معروفٌ ، والكتمانُ لا يتمُّ إلا باثنينِ ؛ فمهما أظهرَ هٰذا . . انكشفَ أمرُ المعطي .

ودفعَ رجلٌ إلىٰ بعضِ العلماءِ شيئاً ظاهراً فردَّهُ إليهِ ، ودفعَ إليه آخرُ شيئاً في السرِّ فقبلَهُ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ؟ فقالَ : إنَّ هٰذا عملَ بالأدبِ في إخفاءِ معروفِهِ فقبلتُهُ ، وذاكَ أساءَ أدبَهُ في عملِهِ فرددتُ عليهِ عملَهُ(4)

وأعطىٰ رجلٌ بعضَ الصوفيةِ شيئاً في الملأ فردَّهُ ، فقالَ لهُ : لِمَ تردُّ على اللهِ عزَّ وجلَّ ما أعطاكَ ؟ فقالَ : إنَّكَ أشركتَ غيرَ اللهِ سبحانَهُ فيما للهِ تعالىٰ ولَمْ تقنعْ بعينِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فرددتُ عليكَ شِرْكَكَ(5)

وقبِلَ بعضُ العارفينَ في السرِّ شيئاً كانَ ردَّهُ في العلانيةِ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ؟ فقالَ : عصيتَ اللهَ بالجهرِ ، فلمْ أكُ عوناً لكَ على المعصيةِ ، وأطعتَهُ بالإخفاءِ ، فأعنتُكَ علىٰ بِرِّكَ(6)

---

(1) قوت القلوب (٢/٢٠١) .

(2) رواه وكيع في « أخبار القضاة » (٣/٣٥) ، وفيه معنى الخبر الذي قبله ، عن محارب بن دثار القاضي .

(3) رواه هناد في « الزهد » (٦٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١١٣) ، والخبر عن إبراهيم النخعي لا التيمي كما في « تهذيب الكمال » (٨/٣٧٢) ، والمصنف تبع صاحب « القوت » (٢/٢٠٢)

(4) قوت القلوب (٢/٢٠٢) .

(5) قوت القلوب (٢/٢٠٢) .

(6) قوت القلوب (٢/٢٠٢) .

وقالَ الثوريُّ : (لو علمتُ أنَّ أحدَهُمْ لا يذكرُ صلتَهُ ولا يتحدَّثُ بها . . لقبلتُ صلتَهُ)[١]

❁ ❁ ❁

الرابعُ : أنَّ في إظهارِ الأخذِ ذلاً وامتهاناً ، وليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ[٢]

كانَ بعضُ العلماءِ يأخذُ في السرِّ ولا يأخذُ في العلانيةِ ، ويقولُ إنَّ في إظهارِهِ إذلالاً للعلمِ وامتهاناً لأهلِهِ ، فما كنتُ بالذي أرفعُ شيئاً مِنَ الدنيا بوضعِ العلمِ وإذلالِ أهلِهِ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : الاحترازُ عنْ شبهةِ الشِّرْكَةِ ، قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أُهدِيَ لهُ هديةٌ وعندَهُ قومٌ . . فهُمْ شركاؤُهُ فيها »[٣] ، وبأنْ يكونَ وَرِقاً أوْ ذهباً لا يخرجُ عَنْ كونِهِ هديةً ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ ما أهدى الرجلُ إلىٰ أخيهِ وَرِقاً ، أوْ يطعمُهُ خبزاً »[٤] ، فجعلَ الوَرِقَ هديةً ، فانفرادُهُ بما يُعطىٰ في الملأ مكروهٌ إلا برضا جميعِهِمْ ، ولا يخلو عنْ شبهةٍ ، فإذا انفردَ . . سلمَ منْ هـٰذهِ الشبهةِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الإظهارُ والتحدُّثُ بهِ . . ففيهِ معانٍ أربعةٌ :

الأوَّلُ : الإخلاصُ والصدقُ والسلامةُ عن تلبيسِ الحالِ والمراءاةِ

❁ ❁ ❁

والثاني : إسقاطُ الجاهِ والمنزلةِ ، وإظهارُ العبوديةِ والمسكنةِ ، والتبرِّي عنِ الكبرياءِ ودعوى الاستغناءِ ، وإسقاطُ النفسِ مِنْ أعينِ الخلقِ .

قالَ بعضُ العارفينَ لتلميذِهِ : أظهرِ الأخذَ علىٰ كلِّ حالٍ إنْ كنتَ آخذاً ؛ فإنَّكَ لا تخلو مِنْ أحدِ رجلينِ : رجلٌ تسقطُ مِنْ قلبِهِ إذا فعلتَ ذٰلكَ ، فذٰلكَ هوَ المرادُ ؛ لأنَّهُ أسلمُ لدينِكَ ، وأقلُّ لآفاتِ نفسِكَ ، أوْ رجلٌ تزدادُ في قلبِهِ بإظهارِكَ الصدْقَ ، فذٰلكَ الذي يريدُهُ أخوكَ ؛ لأنَّهُ يزدادُ ثواباً بزيادةِ حبِّهِ لكَ وتعظيمِهِ إيَّاكَ ، فتؤجرُ أنتَ إذْ كنتَ سببَ مزيدِ ثوابِهِ[٥]

❁ ❁ ❁

الثالثُ : هوَ أنَّ العارفَ لا نظرَ لهُ إلا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، والسرُّ والعلانيةُ في حقِّهِ واحدٌ ، فاختلافُ الحالِ شرْكٌ

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٠٢) .

(٢) حديث : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » رواه الترمذي (٢٢٥٤) ، وابن ماجه (٤٠١٦) ، والخبر في « القوت » (٢/٢٠٢) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٤٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٥١) ، وانظر « الإتحاف » (٤/١٧٨) .

(٤) لفظ المصنف لهـٰذا الحديث تبع فيه صاحب « القوت » (٢/٢٠٢) ، وحق كلمة (ورقاً) الرفع على الخبرية ، كذا وجد مصوَّباً في نسخة « المغني » للحافظ العراقي بخطه كما رآها الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤/١٧٨) ، وروى ابن عدي في « الكامل » (٣/٤٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٢٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ قال : « أن تدخل على أخيك المسلم سروراً ، أو تقضي عنه ديناً ، أو تطعمه خبزاً » ، وروى الترمذي (١٩٥٧) مرفوعاً : « من منح منيحة لبن أو وَرِقٍ ، أو هدىٰ زقاقاً كان له مثل عتق رقبة » ، والحديثان يوفيان شاهد المصنف ، وانظر « الإتحاف » (٤/١٧٨) .

(٥) قوت القلوب (٢/٢٠٢)

في التوحيدِ ، قالَ بعضُهُمْ : (كنَّا لا نعبأُ بدعاءِ مَنْ يأخذُ في السرِّ ويردُّ في العلانيةِ)[1]

والالتفاتُ إلى الخلقِ حضروا أمْ غابوا نقصانٌ في الحالِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ النظرُ مقصوراً على الواحدِ الفرْدِ ، حُكِيَ أنَّ بعضَ الشيوخِ كانَ كثيرَ الميلِ إلىٰ واحدٍ مِنْ جملةِ المريدينَ ، فشقَّ على الآخرينَ ذٰلكَ ، فأرادَ أنْ يظهرَ لهم فضيلةَ ذٰلكَ المريدِ ، فأعطىٰ كلَّ واحدٍ منهُمْ طائراً وقالَ لَهُ : اذبحْ هٰذا حيثُ لا يراكَ أحدٌ ، فذهبوا ثمَّ جاؤوا وقدْ ذبحَ كلُّ واحدٍ طائرَهُ إلا ذٰلكَ المريدَ ، فإنَّهُ ردَّ طائرَهُ ، فسألَهُمْ ، فقالوا : فعلنا ما أمرَنا بهِ الشيخُ ، فقالَ الشيخُ للمريدِ : ما لكَ لمْ تذبحْ كما ذبحَ أصحابُكَ ؟ فقالَ ذٰلكَ المريدُ : لمْ أقدرْ علىٰ مكانٍ لا يراني فيهِ أحدٌ ؛ فإنَّ اللهَ يراني في كلِّ موضعٍ ، فقالَ الشيخُ : لهٰذا أميلُ إليهِ ؛ لأنَّهُ لا يلتفتُ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ[2]

❁ ❁ ❁

الرابعُ : أنَّ الإظهارَ إقامةٌ لسنةِ الشكرِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، والكتمانُ كفرانُ النعمةِ ، وقدْ ذمَّ اللهُ تعالىٰ مَنْ كتمَ ما آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وقرنَهُ بالبخْلِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أنعمَ اللهُ علىٰ عبدٍ نعمةً أحبَّ أنْ تُرىٰ عليهِ »[3]

وأعطىٰ رجلٌ بعضَ العارفينَ شيئاً في السرِّ ، فرفعَ بهِ يدَهُ وقالَ : (هٰذا مِنَ الدنيا ، والعلانيةُ فيها أفضلُ ، والسرُّ في أمورِ الآخرةِ أفضلُ)[4] ، ولذٰلكَ قالَ بعضُهُمْ : (إذا أُعطيتَ في الملأ . . فخذْ ثمَّ اردُدْ في السرِّ)[5]

والشكرُ محثوثٌ عليهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ يشكرِ الناسَ . . لمْ يشكرِ اللهَ عزَّ وجلَّ »[6] ، والشكرُ قائمٌ مقامَ المكافأةِ ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أسدىٰ إليكُمْ معروفاً . . فكافئُوهُ ، فإنْ لمْ تستطيعوا . . فأثنوا عليهِ بهِ خيراً ، وادعوا لهُ حتَّىٰ تعلموا أنَّكُمْ قدْ كافأتموهُ »[7]

ولمَّا قالتِ المهاجرونَ في الشكرِ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما رأينا خيراً مِنْ قومٍ نزلْنا عندَهُمْ ، قاسمونا الأموالَ حتَّىٰ خفْنا أنْ يذهبوا بالأجرِ كلِّهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلَّا ؛ ما شكرْتُمْ لهمْ وأثنيْتُمْ بهِ عليهِمْ » أي : هوَ مكافأةٌ[8]

❁ ❁ ❁

فالآنَ : إذا عرفتَ هٰذهِ المعانيَ . . فاعلمْ أنَّ ما نقلَ مِنِ اختلافِ الناسِ فيهِ ليسَ اختلافاً في المسألةِ ، بلْ هوَ اختلافُ حالٍ .

---

(١) قوت القلوب (٢٠٢/٢) عن بعض العارفين .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٣٣٤) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » (٤٧٣/٣) ، وهو عند الترمذي (٢٠٠٦) بنحوه .

(٤) قوت القلوب (٢٠٢/٢) .

(٥) قوت القلوب (٢٠٢/٢) بنحوه .

(٦) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .

(٧) رواه أبو داوود (١٦٧٢) ، والنسائي (٨٢/٥) .

(٨) رواه الترمذي (٢٤٨٧) ولفظ النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « لا ، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم »

فكشفُ الغطاءِ في هٰذا : أنَّا لا نحكمُ حكماً بتّاً بأنَّ الإخفاءَ أفضلُ في كلِّ حالٍ أوِ الإظهارُ أفضلُ ، بلْ يختلفُ ذٰلكَ باختلافِ النيَّاتِ ، وتختلفُ النيَّاتُ باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، فينبغي أنْ يكونَ المخلصُ مراقباً لنفسِهِ ؛ حتَّىٰ لا يتدلَّىٰ بحبلِ الغرورِ ، ولا ينخدعَ بتلبيسِ الطبْعِ ومكرِ الشيطانِ ، والمكرُ والخداعُ أغلبُ في معاني الإخفاءِ منهُ في الإظهارِ ، مع أنَّ له دخلاً في كلِّ واحدٍ منهما :

فأمَّا مدخلُ الخداعِ في الإسرارِ : فمنْ ميلِ الطبعِ إليهِ ؛ لمَا فيهِ مِنْ خفضِ الجاهِ والمنزلةِ ، وسقوطِ القدْرِ مِنْ أعينِ الناسِ ، ونظرِ الخلقِ إليهِ بعينِ الازدراءِ ، وإلى المعطي بعينِ المنعمِ المحسنِ إليهِ ، فهٰذا هوَ الداءُ الدفينُ ، ويستكنُّ في النفسِ ، والشيطانُ بواسطتِهِ يظهرُ معانيَ الخيرِ حتَّىٰ يتعلَّلَ بالمعاني الخمسةِ التي ذكرناها .

ومعيارُ كلِّ ذٰلكَ ومحكُّهُ أمرٌ واحدٌ : وهوَ أنْ يكونَ تألُّمُهُ بانكشافِ أخذِهِ للصدقةِ كتألُّمِهِ بانكشافِ صدقةٍ أخذَها بعضُ نظرائِهِ وأمثالِهِ ، فإنَّهُ إنْ كانَ يبغي صيانةَ الناسِ عنِ الغيبةِ والحسدِ وسوءِ الظنِّ ، أوْ يتقي انهتاكَ السترِ ، أوْ إعانةَ المعطي على الإسرارِ ، أوْ صيانةَ العلمِ عنِ الابتذالِ . . فكلُّ ذٰلكَ ممَّا يحصلُ بانكشافِ صدقةِ أخيهِ ، فإنْ كانَ انكشافُ أمرِهِ أثقلَ عليهِ مِنِ انكشافِ أمرِ غيرِهِ . . فتقديرُهُ الحذرَ منْ هٰذهِ المعاني أغاليطُ وأباطيلُ مِنْ مكرِ الشيطانِ وخِدَعِهِ ؛ فإنَّ إذلالَ العلمِ محذورٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ علمٌ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ علمُ زيدٍ أوْ علمُ عمرٍو ، والغيبةُ محذورةٌ مِنْ حيثُ إنَّها تعرُّضٌ لعِرْضٍ مصونٍ ، لا مِنْ حيثُ إنَّها تعرُّضٌ لعرْضِ زيدٍ على الخصوصِ ، ومَنْ أحسنَ ملاحظةَ مثلِ هٰذا . . ربما يعجزُ الشيطانُ عنهُ ، وإلا . . فلا يزالُ كثيرَ العملِ قليلَ الحظِّ .

وأمَّا جانبُ الإظهارِ : فميلُ الطبعِ إليهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ تطييبٌ لقلبِ المعطي ، واستحثاثٌ لهُ علىٰ مثلِهِ ، وإظهارُهُ عندَ غيرِهِ أنَّهُ مِنَ المبالغينَ في الشكرِ حتَّىٰ يرغبوا في إكرامِهِ وتفقُّدِهِ ، وهٰذا داءٌ دفينٌ في الباطنِ ، والشيطانُ لا يقدِرُ على المتديِّنِ إلا بأنْ يروِّجَ عليهِ هٰذا الخبْثَ في معرضِ السنَّةِ ، ويقولَ لهُ : الشكرُ مِنَ السنةِ ، والإخفاءُ مِنَ الرياءِ ، ويوردَ عليهِ المعانيَ التي ذكرناها ؛ ليحملَهُ على الإظهارِ ، وقصدُهُ الباطنُ ما ذكرناهُ !!

ومعيارُ ذٰلكَ ومحكُّهُ : أنْ ينظرَ إلىٰ ميلِ نفسِهِ إلى الشكرِ حيثُ لا ينتهي الخبرُ إلى المعطي ولا إلىٰ مَنْ يرغبُ في عطائِهِ ، وبينَ يدي جماعةٍ يكرهونَ إظهارَ العطيَّةِ ويرغبونَ في إخفائِها ، وعادتُهُمْ أنَّهُمْ لا يعطونَ إلا مَنْ يُخفي ولا يشكرُ ؛ فإنِ استوتْ هٰذهِ الأحوالُ عندَهُ . . فليعلمْ أنَّ باعثَهُ هوَ إقامةُ السنَّةِ في الشكرِ والتحدُّثُ بالنعمةِ ، وإلا . . فهوَ مغرورٌ .

ثمَّ إذا علمَ أنَّ باعثَهُ السنَّةُ في الشكرِ . . فلا ينبغي أنْ يغفُلَ عنْ قضاءِ حقِّ المعطي ، فلينظرْ :

فإنْ كانَ هوَ ممَّنْ يحبُّ الشكرَ والنشرَ . . فينبغي أنْ يخفيَ ولا يشكرَ ؛ لأنَّ قضاءَ حقِّهِ ألا ينصرَهُ على الظلمِ ، وطلبُهُ الشكرَ ظلمٌ .

وإذا علمَ مِنْ حالِهِ أنَّهُ لا يحبُ الشكرَ ولا يقصدُهُ . . فعندَ ذٰلكَ يشكرُهُ ويظهرُ صدقتَهُ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرجلِ الذي مُدِحَ بينَ يديهِ : « ضربتُمْ عنقَهُ ، لوْ سمعَها . . ما أفلحَ »[1] ، معَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يثني

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) دون زيادة : « لو سمعها . . ما أفلح » ، وتمامه : « إذا كان أحدكم مادحاً لا محالة . . فليقل : أحسبُ فلاناً والله حسيبُهُ ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذٰلك منه » ، والزيادة رواها أحمد في « المسند » (٥١/٥) ، وذكر الحافظ في « فتح الباري » (٢٧٦/٥) احتمال أن يكون المثني هو محجن بن الأدرع الأسلمي ، والمثنى عليه هو عبد الله ذو البجادين رضي الله عنهم أجمعين .

علىٰ قومٍ في وجوهِهِمْ ؛ لثقتِهِ بيقينِهِمْ ، وعلمِهِ بأنَّ ذٰلكَ لا يضرُّهُمْ ، بلْ يزيدُ في رغبتِهِمْ في الخيرِ ، فقالَ لواحدٍ : « إنَّهُ سيِّدُ أهلِ الوبرِ »[1] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في آخرَ : « إذا جاءَكُمْ كريمُ قومٍ . . فأكرموهُ »[2] ، وسمعَ كلامَ رجلٍ ، فأعجبَهُ ، فقالَ : « إنَّ مِنَ البيانِ لسحراً »[3] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا علمَ أحدُكُمْ مِنْ أخيهِ خيراً . . فليخبرْهُ ؛ فإنَّهُ يزدادُ رغبةً في الخيرِ »[4] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مدحَ المؤمنُ . . ربا الإيمانُ في قلبِهِ »[5] .

وقالَ الثوريُّ : (مَنْ عرفَ نفسَهُ . . لمْ يضرَّهُ مدحُ الناسِ)[6]

وقالَ أيضاً ليوسفَ بنِ أسباطٍ : (إذا أوليتُكَ معروفاً ، فكنتُ أنا أَسَرَّ بهِ منكَ ، ورأيتُ ذٰلكَ نعمةً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ عليَّ . . فاشكرْ ، وإلا . . فلا تشكرْ)[7]

فدقائقُ هٰذهِ المعاني ينبغي أنْ يلحظَها مَنْ يراعي قلبَهُ ، فإنَّ أعمالَ الجوارحِ معَ إهمالِ هٰذهِ الدقائقِ ضُحْكَةٌ للشيطانِ وشماتةٌ لهُ[8] ؛ لكثرةِ التعبِ وقلَّةِ النفعِ .

ومثلُ هٰذا العلمِ هوَ الذي يقالُ فيهِ : إنَّ تعلُّمَ مسألةٍ واحدةٍ منهُ أفضلُ مِنْ عبادةِ سنةٍ ؛ إذْ بهٰذا العلمِ تحيا عبادةُ العمرِ ، وبالجهلِ بهِ تموتُ عبادةُ العمرِ كلِّهِ وتتعطَّلُ .

وعلى الجملةِ : فالأخذُ في الملأ والردُّ في السرِّ أحسنُ المسالكِ وأسلمُها ، فلا ينبغي أنْ يُدفعَ بالتزويقاتِ إلا أنْ تكملَ المعرفةُ بحيثُ يستوي السرُّ والعلانيةُ ، وذٰلكَ هوَ الكبريتُ الأحمرُ الذي يُتحدَّثُ بهِ ولا يُرىٰ ، نسألُ اللهَ الكريمَ حسنَ العونِ والتوفيقِ .

* * *

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٦١١/٣) ، قاله صلى الله عليه وسلم في حقّ الحليم الكريم قيس بن عاصم المنقري رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧١٢) ، قاله صلى الله عليه وسلم في حقّ جرير بن عبد الله رضي الله عنهما ، كما في « المستدرك » (٢٩١/٤) .

(٣) رواه البخاري (٥١٤٦) في رجلين خطبا أمامه صلى الله عليه وسلم ، حُكي أنهما الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، كما في « فتح الباري » (٢٣٧/١٠) .

(٤) رواه الدارقطني في « العلل » (٣٠٤/٧) بنحوه .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (١٧٠/١) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٩٧/٣) .

(٦) قوت القلوب (٢٠٣/٢) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥٤/٧) .

(٨) **الضُّحْكة** ـ بضم فسكون ـ : الشيء الذي يضحك منه ، رجلاً كان أو غيره .

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كانَ إبراهيمُ الخوّاصُ والجنيدُ وجماعةٌ يرونَ أنَّ الأخذَ مِنَ الصدقةِ أفضلُ ؛ فإنَّ في أخذِ الزكاةِ مزاحمةً للمساكينِ وتضييقاً عليهمْ ، ولأنَّهُ ربما لا تكملُ في أخذِهِ صفةُ الاستحقاقِ كما وُصِفَ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الصدقةُ . . فالأمرُ فيها أوسعُ .

وقالَ قائلونَ[1] : يأخذُ الزكاةَ دونَ الصدقةِ ؛ لأنَّهُ إعانةٌ على واجبٍ ، ولوْ تركَ المساكينُ كلُّهُمْ أخذَ الزكاةِ . . لأثموا ، ولأنَّ الزكاةَ لا منَّةَ فيها ، وإنَّما هوَ حقٌّ واجبٌ للهِ تعالىٰ رزقاً لعبادِهِ المحتاجينَ ، ولأنَّهُ أخذٌ بالحاجةِ ، والإنسانُ يعلمُ حاجةَ نفسِهِ قطعاً ، وأخذُ الصدقةِ أخذٌ بالدِّينِ ؛ فإنَّ الغالبَ أنَّ المتصدِّقَ يعطي مَنْ يعتقدُ فيهِ خيراً ، ولأنَّ موافقةَ المساكينِ أدخلُ في الذلِّ والمسكنةِ ، وأبعدُ عنِ التكبُّرِ ؛ إذْ قدْ يأخذُ الإنسانُ الصدقةَ في معرضِ الهديةِ فلا تتميَّزُ عنها ، وهـٰذا تنصيصٌ على ذلِّ الآخذِ وحاجتِهِ .

والقولُ الحقُّ في هـٰذا : أنَّ هـٰذا يختلفُ بأحوالِ الشخصِ وما يغلبُ عليهِ وما يحضرُهُ مِنَ النيَّةِ ؛ فإنْ كانَ في شبهةٍ مِن اتصافِهِ بصفةِ الاستحقاقِ . . فلا ينبغي أنْ يأخذَ الزكاةَ ، فإذا علمَ أنَّهُ مستحقٌّ قطعاً ؛ كما إذا حصلَ عليهِ دينٌ صرفَهُ إلىٰ خيرٍ وليسَ لهُ وجهٌ في قضائِهِ . . فهوَ مستحقٌّ قطعاً .

فإذا خيِّرَ هـٰذا بينَ الزكاةِ وبينَ الصدقةِ ؛ فإنْ كانَ صاحبُ الصدقةِ لا يتصدَّقُ بذٰلكَ المالِ لوْ لمْ يأخذْهُ هوَ . . فليأخذِ الصدقةَ ؛ فإنَّ الزكاةَ الواجبةَ يصرفُها صاحبُها إلىٰ مستحقِّها ، ففي ذٰلكَ تكثيرٌ للخيرِ وتوسيعٌ على المساكينِ ، وإنْ كانَ المالُ معرَّضاً للصدقةِ ولمْ يكنْ في أخذِ الزكاةِ تضييقٌ على المساكينِ . . فهوَ مخيَّرٌ ، والأمرُ فيهما متفاوتٌ ، وأخذُ الزكاةِ أشدُّ في كسرِ النفسِ وإذلالِها في أغلبِ الأحوالِ ، **واللهُ أعلمُ** .



تمّ كتاب أسرار الزكاة

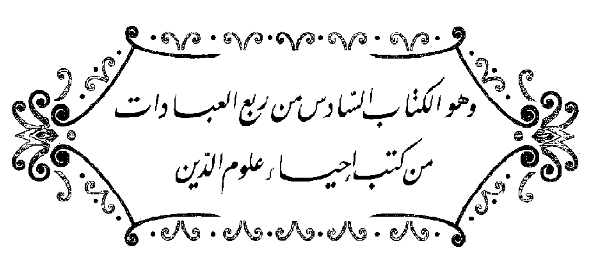
وهو الكتاب الخامس من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدين

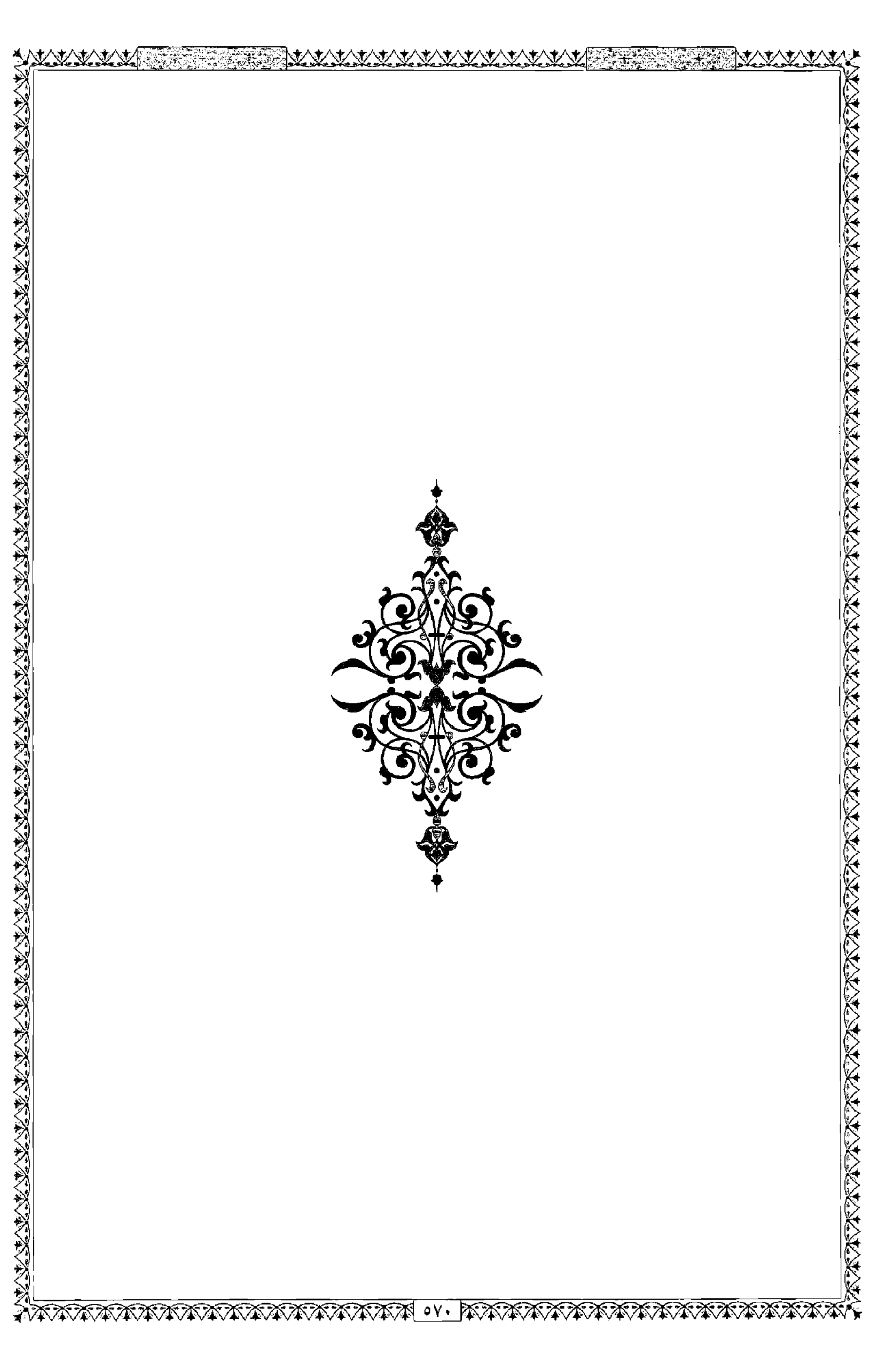
والحمد لله حق حمده ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

يتلوه كتاب أسرار الصوم ومهماته

(١) وهم القرّاء من العابدين ، كما في « القوت » (٢٠٤/٢) .

كتاب أسرار الصوم ومهماته





كتاب أسرار الصّوم ومهمّاته

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أعظمَ على عبادِه المِنَّةَ ، لمَّا دفعَ عنهُمْ كيدَ الشيطانِ وفنَّهُ ، وردَّ أملَهُ وخيَّبَ ظنَّهُ ، إذْ جعلَ الصومَ حصناً لأوليائِهِ وجُنَّةً ، وفتحَ لهمْ بهِ أبوابَ الجَنَّةِ ، وعرَّفَهُمْ أنَّ وسيلةَ الشيطانِ إلى قلوبِهِمُ الشهواتُ المستكنَّةُ ، وأنَّ بقمعِها تصبحُ النفسُ المطمئنَّةُ ظاهرةَ الشوكةِ في قصْمِ خصمِها قويَّةَ المُنَّةِ[1]

والصلاةُ على محمدٍ قائدِ الخلقِ وممهِّدِ السنَّةِ ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ذوي الآراءِ الثاقبةِ والعقولِ المُرْجَحِنَّةِ[2] ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أمّا بعد :

فإنَّ الصومَ ربعُ الإيمانِ بمقتضى قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »[3] ، وبمقتضى قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ »[4]

ثمَّ هوَ متميِّزٌ بخاصيَّةِ النسبةِ إلى اللهِ تعالى مِنْ بينِ سائرِ الأركانِ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالى فيما حكاهُ عنهُ نبيُّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ حسنةٍ بعشرِ أمثالِها إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ إلا الصيامَ ؛ فإنَّهُ لي وأنا أجزي بهِ »[5]

وقدْ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، والصومُ نصفُ الصبرِ ، فقدْ جاوزَ ثوابُهُ قانونَ التقديرِ والحسابِ .

وناهيكَ في معرفةِ فضلِهِ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لَخُلُوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِنْ ريحِ المسكِ ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّما يذرُ شهوتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ مِنْ أجلي ، فالصومُ لي وأنا أجزي بهِ »[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للجنَّةِ بابٌ يقالُ لهُ : الريانُ ، لا يدخلُهُ إلا الصائمونَ »[7]

وهوَ موعودٌ بلقاءِ اللهِ تعالى في جزاءِ صومِهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للصائمِ فرحتانِ : فرحةٌ عندَ إفطارِهِ ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّهِ »[8]

---

(١) المُنَّة ـ بالضم ـ : القوة ، أو قوة القلب خاصة ، وهو ضدٌّ يطلق على الضعف كذٰلك ، والمتأمل يرى تضمين هٰذه المقدمة جملة من أحاديث الكتاب وغيره .

(٢) **المرجحنة** : وافرة فياضة ، دائمة السحّ ، يقال : ارجحنَّ المطرُ ؛ أي : دام .

(٣) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/٢٢٧) ، وأوقفه الطبراني في « الكبير » (٩/١٠٤) على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

(٦) هو بعض الحديث المتقدم آنفاً ، **والخُلُوفُ** : تغير رائحة الفم .

(٧) رواه البخاري (١٨٩٦) ، ومسلم (١١٥٢) .

(٨) رواه البخاري (٧٤٩٢) ، ومسلم (١١٥١) ، وقد تقدم بعضه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكلِّ شيءٍ بابٌ ، وبابُ العبادةِ الصومُ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نومُ الصائمِ عبادةٌ »[2]

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا دخلَ شهرُ رمضانَ . . فُتِّحتْ أبوابُ الجنَّةِ ، وغُلِّقتْ أبوابُ النارِ ، وصفِّدتِ الشياطينُ ، ونادىٰ منادٍ : يا باغيَ الخيرِ ؛ هلمَّ ، ويا باغيَ الشرِّ ؛ أقصِرْ »[3]

وقالَ وكيعٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ : (هيَ أيامُ الصيامِ ؛ إذْ تركوا فيها الأكلَ والشربَ)[4]

وقدْ جمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في رتبةِ المباهاةِ بينَ الزهدِ في الدنيا وبينَ الصومِ فقالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يباهي ملائكتَهُ بالشابِّ العابدِ فيقولُ : أيُّها الشابُّ التاركُ شهوتَهُ لأجلي ، المُبَذِّلُ شبابَهُ لي ؛ أنتَ عندي كبعضِ ملائكتي »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الصائمِ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : يا ملائكتي ؛ انظروا إلىٰ عبدي !! تركَ شهوتَهُ ولذَّتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ مِنْ أجلي »[6]

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قيلَ : كانَ عملُهُمُ الصيامَ ؛ لأنَّهُ قالَ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فيُفرَغُ للصائمِ أجرُهُ إفراغاً ، ويجازَفُ جزافاً ، فلا يدخلُ تحتَ وهمٍ وتقديرٍ[7]

وجديرٌ بأنْ يكونَ كذٰلكَ ؛ لأنَّ الصومَ إنَّما كانَ لهُ ومشرَّفاً بالنسبةِ إليهِ وإنْ كانتِ العباداتُ كلُّها لهُ ؛ كما شَرُفَ البيتُ بالنسبةِ إلىٰ نفسِهِ والأرضُ كلُّها لهُ . . لمعنيينِ :

أحدُهما : أنَّ الصومَ كفٌّ وتركٌ ، وهوَ في نفسِهِ سرٌّ ، ليسَ فيهِ عملٌ يشاهدُ ، فجميعُ أعمالِ الطاعاتِ بمشهدٍ مِنَ الخلقِ ومرأىً ، والصومُ لا يراهُ إلا اللهُ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ عملٌ في الباطنِ بالصبرِ المجرَّدِ .

والثاني : أنَّهُ قهرٌ لعدوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّ وسيلةَ الشيطانِ لعنَهُ اللهُ الشهواتُ ، وإنما تقوى الشهواتُ بالأكلِ والشربِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ ليجري مِنِ ابنِ آدمَ مَجرى الدمِ ، فضيِّقوا مجاريَهُ بالجوعِ »[8] ، ولذٰلكَ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٣٢) من طريقه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٦٥٢) .

(٣) رواه بتمامه الترمذي (٦٨٢) ، وأصله عند البخاري (١٨٩٩) ، ومسلم (١٠٧٩) .

(٤) رواه عنه بنحوه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨٩) .

(٥) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣/٣٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١٣٩) ، وهو عند ابن المبارك في « الزهد » (٣٤٦) وغيره من كلام يزيد بن ميسرة ، وجاء في (ب) : (المتبذِّل) وفي هامشها : (الباذل) بدل (المبذل) ، والمبذل كمُحْسِن ومحدِّث . انظر « الإتحاف » (٤/١٩٣) .

(٦) قوله : « ترك شهوته . . . » تقدم أنه في « الصحيحين » ، وهو بذكر المباهاة معه رواه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٣٩) موقوفاً على الحسن قال : (تقول الحوراء لولي الله وهو متكئ معها على نهر العسل تعاطيه الكأس : يا نعم عيشة !! أتدري يا حبيبَ الله متىٰ زوجنيك مولاي ؟ فيقول : لا أدري ، فتقول : نظر إليك في يوم صائف بعيدِ الطرفين وأنت في ظمأ هاجرة من جهد العطش ، فباهىٰ بك الملائكة وقال : انظروا إلىٰ عبدي !! ترك زوجته ، وشهوته ولذته ، وطعامه وشرابه من أجلي ، رغبةً فيما عندي ، أشهدكم أني قد غفرت له ، فغفرَ لك يومئذٍ وزوجنيك) . وهو بلفظ المصنف في « القوت » (١/٧٣) .

(٧) قوت القلوب (١/٧٣) .

(٨) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) دون زيادة : « فضيقوا مجاريه بالجوع » ، قال الحافظ الزبيدي : (وأنا أظن أن هٰذه الزيادة وقعت

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « داومي قرْعَ بابِ الجنَّةِ » ، قالت : بماذا ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بالجوعِ »(١)

وستأتي فضائلُ الجوعِ في بابِ شرهِ الطعامِ وعلاجِهِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ .

فلمَّا كانَ الصومُ على الخصوصِ قمعاً للشيطانِ وسدّاً لمسالِكِهِ وتضييقاً لمجاريهِ . . استحقَّ التخصيصَ بالنسبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ففي قمْعِ عدوِّ اللهِ نصرةُ اللهِ سبحانَهُ ، ونصرةُ اللهِ تعالىٰ موقوفةٌ على النصرةِ لهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ، فالبدايةُ بالجهدِ مِنَ العبدِ ، والجزاءُ بالهدايةِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ، وإنَّما التغييرُ بكسرِ الشهواتِ ، فهيَ مرتعُ الشياطينِ ومرعاهُمْ ، فما دامتْ مخصِبةً . . لمْ ينقطعْ تردُّدُهُمْ وما داموا يتردَّدونَ . . لمْ ينكشفْ للعبدِ جلالُ اللهِ سبحانَهُ ، وكانَ محجوباً عنْ لقائِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماواتِ »(٢) ، فمِنْ هٰذا الوجهِ صارَ الصومُ بابَ العبادةِ ، وصارَ جُنَّةً .

وإذا عظمتْ فضيلتُهُ إلىٰ هٰذا الحدِّ . . فلا بدَّ مِنْ بيانِ شروطِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، بذكرِ أركانِهِ ، وسننِهِ ، وشروطِهِ الباطنةِ ، ونبيِّنُ ذٰلكَ بثلاثةِ فصولٍ .

* * *

تفسيراً للحديث من بعض رواته ، فألحقها به من روىٰ عنه) . « إتحاف » (١٩٤/٤) ، ومعنى الزيادة صحيح كما لا يخفىٰ ؛ إذ الشبع مسلك ومدخل من مداخل الشيطان ، روىٰ أحمد في « الزهد » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٢٩/٢) عن ثابت البناني قال : (بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرأىٰ عليه معاليق من كل شيء ، فقال له : ما هٰذه المعاليق التي أراها عليك ؟ قال : هٰذه الشهوات التي أُصيب بها بني آدم ، فقال له يحيىٰ عليه السلام : هل لي فيها شيء ؟ قال : لا ، قال : فهل تصيب مني شيئاً ؟ قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة والذكر ، قال : هل غير ذا ؟ قال : لا ، قال : لا جرم !! والله لا أشبع أبداً) ، وأول خطيئة وسوس بها الشيطان لبني آدم لقمة .

(١) قوت القلوب (١٧١/٢) بقوله : (وقد روينا عن عائشة رضي الله عنها . . .) وذكره وزاد : (بالجوع والظمأ) ، ونقل الحافظ الزبيدي عن الحافظ العراقي أنه لم يجد له أصلاً . انظر « الإتحاف » (١٩٤/٤) .

(٢) هو عند أحمد في « المسند » (٣٥٣/٢) في قصة الإسراء مرفوعاً ، ومنه : « فلما نزلت إلى السماء الدنيا . . نظرت أسفلَ مني ، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات ، فقلت : ما هٰذا يا جبريل ؟ قال : هٰذه الشياطين يحومون علىٰ أعين بني آدم ألا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذٰلك . . لرأَوُا العجائب » .

الفَصْلُ الأَوَّلُ
في الواجبات والسنن الظّاهرة واللّوازم بإفساده

أمَّا الواجباتُ الظاهرةُ . . فستةٌ :

الأوَّلُ : مراقبةُ أوَّلِ شهرِ رمضانَ :

وذلكَ برؤيةِ الهلالِ ، فإنْ غُمَّ . . فباستكمالِ ثلاثينَ يوماً مِنْ شعبانَ ، ونعني بالرؤيةِ : العلمَ ، ويحصلُ ذلكَ بقولِ عدْلٍ واحدٍ ، ولا يثبتُ هلالُ شوالٍ إلا بقولِ عدلينِ ؛ احتياطاً للعبادةِ ، ومَنْ سمعَ عدلاً ووثقَ بقولِهِ ، وغلبَ على ظنِّهِ صدقُهُ . . لزمَهُ الصومُ وإنْ لمْ يقضِ القاضي بهِ ، فليتبعْ كلُّ عبدٍ في عبادتِهِ موجَبَ ظنِّهِ .

وإذا رُئِيَ الهلالُ ببلدةٍ ولمْ يُرَ بأخرىٰ وكانَ بينَهُما أقلُّ مِنْ مرحلتينِ . . وجبَ الصومُ على الكلِّ ، وإنْ كانَ أكثرَ . . كانَ لكلِّ بلدةٍ حكمُها ، ولا يتعدَّى الوجوبُ .

❁ ❁ ❁

الثاني : النيَّةُ :

ولا بدَّ لكلِّ ليلةٍ مِنْ نيَّةٍ مبيَّتةٍ معيَّنَةٍ جازمةٍ ، فلو نوىٰ أنْ يصومَ شهرَ رمضانَ دفعةً واحدةً . . لم يكفِهِ ، وهوَ الذي عنينا بقولِنا : (كلِّ ليلةٍ) .

ولوْ نوىٰ بالنهارِ . . لم يجزِهِ صومُ رمضانَ ولا صومُ الفرضِ إلا التطوعُ ، وهوَ الذي عنينا بقولِنا : (مبيتَةٍ) .

ولوْ نوى الصومَ مطلقاً ، أوِ الفرضَ مطلقاً . . لمْ يجزِهِ حتَّىٰ ينويَ فريضةَ اللهِ عزَّ وجلَّ صومَ رمضانَ .

ولوْ نوىٰ ليلةَ الشكِّ أنْ يصومَ غداً إنْ كانَ مِنْ رمضانَ . . لمْ يجزِهِ ؛ فإنَّها ليستْ جازمةً ، إلا أنْ تستندَ نيتُهُ إلىٰ قولِ شاهدٍ عدلٍ ، واحتمالُ غلطِ العدلِ أوْ كذبِهِ لا يبطلُ الجزْمَ ، أوْ يستندَ إلى استصحابٍ ؛ كالشكِّ في الليلةِ الأخيرةِ مِنْ رمضانَ ، فذلكَ لا يمنعُ جزْمَ النيةِ ، أوْ يستندَ إلى اجتهادٍ ؛ كالمحبوسِ في المطمورةِ إذا غلبَ علىٰ ظنِّهِ دخولُ رمضانَ باجتهادِهِ ، فشكُّهُ لا يمنعُهُ مِنَ النيةِ[1]

ومهما كانَ شاكّاً ليلةَ الشكِّ . . لمْ ينفعْهُ جزمُهُ النيةَ باللسانِ ؛ فإنَّ النيةَ محلُّها القلبُ ، ولا يُتصوَّرُ فيها جزْمُ القصدِ معَ الشكِّ ؛ كما لوْ قالَ في وسطِ رمضانَ : (أصومُ غداً إنْ كانَ مِنْ رمضانَ) ، فإنَّ ذلكَ لا يضرُّهُ ؛ لأنَّهُ ترديدُ لفظٍ ، ومحلُّ النيَّةِ لا يتصوَّرُ فيهِ تردُّدٌ ، بلْ هوَ قاطعٌ بأنَّهُ مِنْ رمضانَ .

ومَنْ نوىٰ ليلاً ثمَّ أكلَ . . لم تفسدْ نيَّتُهُ ، ولو نوتِ امرأةٌ في الحيضِ ثمَّ طهرتْ قبلَ الفجرِ . . صحَّ صومُها .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : الإمساكُ عنْ إيصالِ شيءٍ إلى الجوفِ عمداً معَ ذكرِ الصومِ :

---

(١) المطمورة : حفرة تحفر تحت الأرض ، أو مكان تحت الأرض ، لا تُرىٰ فيها الشمس

فيفسُدُ صومُهُ بالأكلِ ، والشربِ ، والسُّعُوطِ[1] ، والحقنةِ ، ولا يفسدُ بالفصدِ ، والحجامةِ ، والاكتحالِ ، وإدخالِ الميلِ في الأذنِ والإحليلِ ، إلا أنْ يقطرَ فيهِ ما يبلغُ المثانةَ .

وما يصلُ بغيرِ قصْدٍ مِنْ غبارِ الطريقِ أو ذبابةٍ تسبقُ إلىٰ جوفِهِ ، أوْ ما يسبقُ إلىٰ جوفِهِ في المضمضةِ . . فلا يفطرُ ، إلا إذا بالغَ في المضمضةِ فيفطرُ ؛ لأنَّهُ مقصِّرٌ ، وهوَ الذي أردنا بقولِنا : (عمداً) .

فأمَّا (ذكرُ الصومِ) . . فأردْنا بهِ الاحترازَ عنِ الناسي ؛ فإنَّهُ لا يفطرُ ، أمَّا مَنْ أكلَ عامداً في طرفيِ النهارِ ثمَّ ظهرَ لهُ أنَّهُ أكلَ نهاراً بالتحقيقِ . . فعليهِ القضاءُ ، وإنْ بقيَ علىٰ حكمِ ظنِّهِ واجتهادِهِ . . فلا قضاءَ عليهِ ، ولا ينبغي أنْ يأكلَ في طرفيِ النهارِ إلا بنظرٍ واجتهادٍ .

❀ ❀ ❀

الرابعُ : الإمساكُ عنِ الجماعِ :

وحدُّهُ : تغييبُ الحشفةِ ، فإنْ جامعَ ناسياً . . لمْ يفطرْ ، وإنْ جامعَ ليلاً أوِ احتلمَ ، فأصبحَ جنباً . . لمْ يفطرْ ، وإنْ طلعَ الفجرُ وهوَ مخالطٌ أهلَهُ ، فنزعَ في الحالِ . . صحَّ صومُهُ ، فإنْ صبرَ . . فسدَ ولزمتْهُ الكفارةُ .

❀ ❀ ❀

الخامسُ : الإمساكُ عنِ الاستمناءِ :

وهوَ إخراجُ المنيِّ قصداً ، بجماعٍ أو بغيرِ جماعٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يفطرُهُ ، ولا يفطُرُ بقبلةِ زوجتِهِ ولا بمضاجعتِها ما لمْ ينزلْ ، لـٰكنْ يكرَهُ ذٰلكَ إلا أنْ يكونَ شيخاً أوْ مالكاً لإِرْبِهِ ، فلا بأسَ بالتقبيلِ ، وتركهُ أولىٰ ، وإذا كانَ يخافُ مِنَ التقبيلِ أنْ ينزلَ ، فقبَّلَ وسبقَ المنيُّ . . أفطرَ لتقصيرِهِ .

❀ ❀ ❀

السادسُ : الإمساكُ عنْ إخراجِ القيءِ :

فالاستقاءةُ تفسدُ الصومَ ، وإنْ ذرعَهُ القيءُ . . لمْ يفسدْ صومُهُ ، وإنِ اقتلعَ نُخامةً مِنْ حلقِهِ أوْ صدرِهِ . . لمْ يفسدْ صومُهُ ؛ رخصةً لعمومِ البلوىٰ بهِ ، إلا أنْ يبتلعَهُ بعدَ وصولِهِ إلىٰ فيهِ ، فإنَّهُ يفطرُ عندَ ذٰلكَ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا لوازمُ الإفطارِ . . فأربعةٌ :

القضاءُ ، والكفارةُ ، والفديةُ ، وإمساكُ بقيَّةِ النهارِ تشبيهاً بالصائمينَ .

❀ ❀ ❀

أمَّا القضاءُ :

فوجوبُهُ عامٌّ علىٰ كلِّ مسلمٍ مكلَّفٍ تركَ الصومَ بعذرٍ أوْ بغيرِ عذرٍ ، فالحائضُ تقضي الصومَ ، وكذا المرتدُّ ، أمَّا الكافرُ ، والصبيُّ ، والمجنونُ . . فلا قضاءَ عليهِمْ .

---

(١) **السعوط** : هو بضم السين مصدر من سعط ، إذا أوصل شيئاً إلىٰ دماغه من أنفه ، وبفتحها اسم لما يصب فيه .

ولا يشترطُ التتابعُ في قضاءِ رمضانَ ، ولـٰكنْ يقضي كيفَ شاءَ مفرَّقاً ومجموعاً .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الكفارةُ :

فلا تجبُ إلا بالجماعِ ، أمَّا الاستمناءُ والأكلُ والشربُ وما عدا الجماعَ . . فلا تجبُ بهِ كفارةٌ .

والكفارةُ : عتقُ رقبةٍ ، فإنْ أعسرَ . . فصومُ شهرينِ متتابعينِ ، فإنْ عجزَ . . فإطعامُ ستينَ مسكيناً مُداً مُداً .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الإمساكُ بقيةَ النهارِ :

فيجبُ علىٰ مَنْ عصىٰ بالفطرِ أوْ قصَّرَ فيهِ ، ولا يجبُ على الحائضِ إذا طهرتْ إمساكُ بقيَّةِ النهارِ ، ولا على المسافرِ إذا قدمَ مفطراً مِنْ سفرٍ بلغَ مرحلتينِ .

ويجبُ الإمساكُ إذا شهدَ بالهلالِ عدلٌ واحدٌ يومَ الشكِّ .

والصومُ في السفرِ أفضلُ مِنَ الفطرِ إلا إذا لمْ يطقْ ، ولا يفطرُ يومَ يخرجُ وكانَ مقيماً في أوَّلِهِ ، ولا يومَ يقدَمُ إذا قَدِمَ صائماً .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الفديةُ :

فتجبُ على الحاملِ والمرضعِ إذا أفطرَتا خوفاً علىٰ ولديهِما ، لكلِّ يومٍ مدُّ حنطةٍ لمسكينٍ واحدٍ معَ القضاءِ ، والشيخُ الهرمُ إذا لمْ يصمْ . . تصدَّقَ عنْ كلِّ يومٍ بمدٍّ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا السننُ . . فستٌّ :

تأخيرُ السحورِ ، وتعجيلُ الفطرِ بالتمرِ أوِ الماءِ قبلَ الصلاةِ ، وتركُ السواكِ بعدَ الزوالِ ، والجودُ في شهرِ رمضانَ لما سبقَ مِنْ فضائلِهِ في الزكاةِ ، ومدارسةُ القرآنِ ، والاعتكافُ في المسجدِ لا سيما في العشرِ الأخيرِ ، فهوَ عادةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كانَ إذا دخلَ العشرُ الأواخرُ . . طوى الفراشَ ، وشدَّ المئزرَ ودأبَ ودأبَ معهُ أهلُهُ[1] ؛ أي : أداموا النصبَ في العبادةِ ؛ إذْ فيها ليلةُ القدْرِ ، والأغلبُ أنَّها في أوتارِها ، وأشبهُ الأوتارِ ليلةُ إحدىٰ وثلاثٍ وخمسٍ وسبعٍ ، والتتابعُ في هـٰذا الاعتكافِ أولىٰ ، فإنْ نذرَ اعتكافاً متتابعاً أوْ نواهُ . . انقطعَ تتابعُهُ بالخروجِ مِنْ غيرِ ضرورةٍ ؛ كما لوْ خرجَ لعيادةِ مريضٍ ، أوْ شهادةٍ أوْ جنازةٍ أوْ زيارةٍ أوْ تجديدِ طهارةٍ ، وإنْ خرجَ لقضاءِ الحاجةِ . . لمْ ينقطعِ اعتكافُهُ ، ولهُ أنْ يتوضَّأَ في البيتِ ، ولا ينبغي أنْ يعرِّجَ علىٰ شغلٍ آخرَ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يخرجُ إلا لحاجةِ الإنسانِ[2] ، ولا يسألُ عنِ المريضِ إلا مارّاً[3]

---

(١) كما في « البخاري » (٢٠٢٤) ، و« مسلم » (١١٧٤) .

(٢) كما في « البخاري » (٢٠٢٩) ، و« مسلم » (٢٩٧) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٧) من فعل السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعند أبي داوود (٢٤٧٢) عنها قالت : (وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بالمريض وهو معتكف ، فيمرُّ كما هو ولا يعرج يسألُ عنه) .

وينقطعُ التتابعُ بالجماعِ ، ولا ينقطعُ بالتقبيلِ ، ولا بأسَ في المسجدِ بالتطيُّبِ وعقدِ النكاحِ ، وبالأكلِ والنومِ وغسلِ اليدينِ في الطَّسْتِ ، وكلُّ ذٰلكَ قدْ يحتاجُ إليهِ في التتابعِ ، ولا ينقطعُ التتابعُ بخروجِ بعضِ بدنِهِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدني رأسَهُ فترجلُهُ عائشةُ أمُّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها وهيَ في الحجرةِ [١]

ومهما خرجَ المعتكفُ لقضاءِ حاجتِهِ ؛ فإذا عادَ . . ينبغي أنْ يستأنفَ النيَّةَ إلا إذا كانَ قدْ نوىٰ أوَّلاً عشرةَ أيامٍ مثلاً ، والأفضلُ معَ ذٰلكَ التجديدُ .

* * *

(١) كما في « البخاري » (٢٩٦) ، و« مسلم » (٢٩٧) .

الفَصْلُ الثَّاني
في أسرار الصّوم وشروطه الباطنة

اعلمْ : أنَّ للصومِ ثلاثَ درجاتٍ : صومُ العمومِ ، وصومُ الخصوصِ ، وصومُ خصوصِ الخصوصِ .

ـ **أمَّا صومُ العمومِ** : فهوَ كفُّ البطنِ والفرجِ عنْ قضاءِ الشهوةِ كما سبقَ تفصيلُهُ .

ـ **وأمَّا صومُ الخصوصِ** : فهوَ كفُّ السمعِ والبصرِ واللسانِ واليدِ والرجْلِ وسائرِ الجوارحِ عنِ الآثامِ .

ـ **وأمَّا صومُ خصوصِ الخصوصِ** : فصومُ القلبِ عنِ الهممِ الدنيَّةِ والأفكارِ الدنيويةِ ، وكفُّهُ عمَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ بالكليَّةِ ، ويحصلُ الفطرُ في هٰذا الصومِ بالفكرِ فيما سوى اللهِ عزَّ وجلَّ واليومِ الآخرِ ، وبالفكرِ في الدنيا إلا دنيا ترادُ للدينِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ زادِ الآخرةِ وليسَ مِنَ الدنيا ، حتَّىٰ قالَ أربابُ القلوبِ : (مَنْ تحرَّكتْ همَّتُهُ بالتصرُّفِ في نهارِهِ لتدبيرِ ما يفطرُ عليهِ . . كتبتْ عليهِ خطيئةٌ)[1] ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ قلَّةِ الوثوقِ بفضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقلَّةِ اليقينِ برزقِهِ الموعودِ .

وهٰذهِ رتبةُ الأنبياءِ والصديقينَ والمقربينَ ، ولا نطوّلُ النظرَ في تفصيلِ ذٰلكَ قولاً ، ولٰكنْ في تحقيقِهِ عملاً ، فإنَّهُ إقبالٌ بكنْهِ الهمَّةِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، وانصرافٌ عنْ غيرِ اللهِ سبحانَهُ ، وتلبسٌ بمعنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

❁ ❁ ❁

وأمَّا صومُ الخصوصِ ـ وهوَ صومُ الصالحينَ ـ فهوَ كفُّ الجوارحِ عنِ الآثامِ ، وتمامُهُ بستةِ أمورٍ :

الأولُ : غضُّ البصرِ وكفُّهُ عنِ الاتساعِ في النظرِ إلىٰ كلِّ ما يذمُّ ويكرَهُ ، وإلىٰ كلِّ ما يشغلُ القلبَ ويلهي عنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ ، فمنْ تركَها خوفاً مِنَ اللهِ . . آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إيماناً يجدُ حلاوتَهُ في قلبِهِ »[2]

وروىٰ جابرٌ عنْ أنسٍ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « خمسٌ يفطرْنَ الصائمَ : الكذبُ ، والغيبةُ ، والنميمةُ ، واليمينُ الكاذبةُ ، والنظرُ بشهوةٍ »[3]

❁ ❁ ❁

الثاني : حفظُ اللسانِ عنِ الهذيانِ والكذبِ والغيبةِ والنميمةِ والفحشِ والجفاءِ والخصومةِ والمراءِ ، وإلزامُهُ السكوتَ ، وشغلُهُ بذكرِ اللهِ سبحانَهُ وتلاوةِ القرآنِ ، فهٰذا صومُ اللسانِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/١١٤) بنحوه .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/١٧٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/١٠١) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه الأزدي في « الضعفاء » من رواية جابان عن أنس ، وقوله : « جابر » تصحيف ، قال أبو حاتم : هٰذا كذب) ، وهو عند الديلمي في « الفردوس » (٢/١٩٧) ، وانظر « الإتحاف » (٤/٢٤٥) حيث قال : (أما طريق داوود بن رشيد عن بقية . . فإسناده متقارب ، وليس فيه من رمي بالكذب ، إلا أنه ضعيف لضعف محمد بن حجاج ، والله أعلم) ، وهو كما أورده المصنف عند صاحب « القوت » (٢/١١٤) . وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٩٧٥) عن عمر رضي الله عنه : (ليس الصيام من الطعام والشراب وحده ، ولٰكنه من الكذب والباطل واللغو والحلف) .

وقدْ قالَ سفيانُ : (الغيبةُ تفسدُ الصومَ) رواهُ بشرُ بنُ الحارثِ عنهُ[1]

وروىٰ ليثٌ عنْ مجاهدٍ : (خصلتانِ تفسدانِ الصيامَ : الغيبةُ والكذبُ)[2]

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصومُ جُنَّةٌ ، فإذا كانَ أحدُكُمْ صائماً . . فلا يرفُثْ ولا يجهلْ ، وإنِ امرؤٌ قاتلَهُ أوْ شاتمَهُ . . فليقلْ : إنِّي صائمٌ إنِّي صائمٌ »[3]

وجاءَ في الخبرِ : أنَّ امرأتينِ صامتا علىٰ عهْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأجهدَهُما الجوعُ والعطشُ مِنْ آخرِ النهارِ حتَّىٰ كادتا أنْ تتلَفا ، فبعثتا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تستأذنانِهِ في الإفطارِ ، فأرسلَ إليهما قدحاً وقالَ للرسولِ : « قلْ لهما قِيئَا فيهِ ما أكلْتُما » ، فقاءَتْ إحداهُما نصفَهُ دماً عَبيطاً ولحماً غريضاً ، وقاءَتِ الأخرىٰ مثلَ ذٰلكَ حتَّىٰ ملأَتاهُ ، فعجبَ الناسُ مِنْ ذٰلكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هاتانِ صامتا عمَّا أحلَّ اللهُ لهما ، وأفطرَتا علىٰ ما حرَّمَ اللهُ تعالىٰ عليهِما ؛ قعدَتْ إحداهُما إلى الأخرىٰ ، فجعلتا تغتابانِ الناسَ ، فهٰذا ما أكلتَا مِنْ لحومِهِمْ »[4]

❁ ❁ ❁

الثالثُ : كفُّ السمعِ عنِ الإصغاءِ إلىٰ كلِّ مكروهٍ ؛ لأنَّ كلَّ ما حَرَّمَ اللهُ قولَهُ . . حرَّمَ الإصغاءَ إليهِ ، ولذٰلكَ سوَّى اللهُ تعالىٰ بينَ المستمعِ وآكلِ السحْتِ فقالَ : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ فالسكوتُ على الغيبةِ حرامٌ .

وقالَ أيضاً : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المغتابُ والمستمعُ شريكانِ في الإثمِ »[5]

❁ ❁ ❁

الرابعُ : كفُّ بقيةِ الجوارحِ عنِ الآثامِ مِنَ اليدِ والرجلِ وعنِ المكارهِ ، وكفُّ البطْنِ عنِ الشبهاتِ وقتَ الإفطارِ ، فلا معنىٰ للصومِ وهوَ الكفُّ عنِ الطعامِ الحلالِ ثمَّ الإفطارُ على الحرامِ ؛ فمثالُ هٰذا الصائمِ مثالُ مَنْ يبني قصراً ويهدمُ مِصراً ؛ فإنَّ الطعامَ الحلالَ إنَّما يضرُّ بكثرتِهِ لا بنوعِهِ ، فالصومُ لتقليلِهِ ، وتاركُ الاستكثارِ مِنَ الدواءِ خوفاً مِنْ ضررِهِ إذا عدلَ إلىٰ تناولِ السُّمِّ . . كانَ سفيهاً ، والحرامُ سمٌّ يهلكُ الدينَ ، والحلالُ دواءٌ ينفعُ قليلُهُ ويضرُّ كثيرُهُ ، وقصدُ الصومِ تقليلُهُ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ مِنْ صائمٍ ليسَ لهُ مِنْ صومِهِ إلا الجوعُ والعطشُ »[6] ، فقيلَ : هوَ الذي يفطرُ

(١) كذا في « القوت » (١١٤/٢) ، وقال سفيان والأوزاعي بالفساد حقيقة انظر « الإتحاف » (٢٤٥/٤) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٩٨٠) ، وهو في « القوت » (١١٤/٢) .

(٣) رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١١٥٠) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٤٣١/٥) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (٧٥/١) ، والعبيط : هو من الدم الخالصُ الطري ، **والغريض** : الطري كذٰلك .

(٥) في معناه روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩٣/٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٢١/٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغناء والاستماع إلى الغناء ، ونهىٰ عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وعن النميمة والاستماع إلى النميمة) .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (٣٧٣/٢) ، وبنحوه عند ابن ماجه (١٦٩٠) .

على الحرامِ ، وقيلَ : هوَ الذي يمسكُ عنِ الطعامِ الحلالِ ويفطرُ علىٰ لحومِ الناسِ بالغيبةِ وهيَ حرامٌ ، وقيلَ : هوَ الذي لا يحفظُ جوارحَهُ عنِ الآثامِ [1]

❀ ❀ ❀

الخامسُ : ألا يستكثرَ مِنَ الطعامِ الحلالِ وقتَ الإفطارِ بحيثُ يمتلئُ جوفُهُ ، فما مِنْ وعاءٍ أبغضُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ بطنٍ مُلِئَ مِنْ حلالٍ [2]

وكيفَ يُستفادُ مِنَ الصومِ قهرُ عدوِّ اللهِ وكسرُ الشهوةِ إذا تداركَ الصائمُ عندَ فطرِهِ ما فاتَهُ ضحوةَ نهارِهِ ؟! وربما يزيدُ عليهِ في ألوانِ الطعامِ ، حتَّى استمرتِ العاداتُ بأنْ تدَّخرَ جميعُ الأطعمةِ لرمضانَ ، فيؤكلُ مِنَ الأطعمةِ فيهِ ما لا يؤكلُ في عدَّةِ أشهرٍ ، ومعلومٌ أنَّ مقصودَ الصومِ الخَواءُ وكسرُ الهوىٰ ؛ لتقوى النفسُ على التقوىٰ ، وإذا دفعتِ المعدةُ ضحوةَ النهارِ إلى العشاءِ حتَّىٰ هاجتْ شهوتُها وقويتْ رغبتُها ، ثمَّ أطعمتْ مِنَ اللذاتِ وأشبعتْ . . زادتْ لذتُها وتضاعفتْ قوَّتُها ، وانبعثَ مِنَ الشهواتِ ما عساهُ كانَ راكداً لوْ تركَتْ علىٰ عادتِها !!

فروحُ الصومِ وسرُّهُ تضعيفُ القُوى التي هيَ وسائلُ الشيطانِ في القوْدِ إلى الشرورِ ، ولنْ يحصلَ ذٰلكَ إلا بالتقليلِ ؛ وهوَ أنْ يأكلَ أكلتَهُ التي كانَ يأكلُها كلَّ ليلةٍ لوْ لمْ يصمْ ، فأمَّا إذا جمعَ ما كانَ يأكلُ ضحوةً إلىٰ ما كانَ يأكلُ ليلاً . . فلنْ ينتفعَ بصومِهِ .

بلْ مِنَ الآدابِ ألا يكثرَ النومَ بالنهارِ حتَّىٰ يحسَّ بالجوعِ والعطشِ ، ويستشعرَ ضعْفَ القُوىٰ ، فيصفوَ عندَ ذٰلكَ قلبُهُ ، ويستديمَ في ليلِهِ قدْراً مِنَ الضعفِ حتَّىٰ يخفَّ عليهِ تهجُّدُه وأورادُهُ ، فعسى الشيطانُ ألا يحومَ علىٰ قلبِهِ ؛ فينظرَ إلىٰ ملكوتِ السماءِ .

وليلةُ القدْرِ عبارةٌ عنِ الليلةِ التي ينكشفُ فيها شيءٌ مِنَ الملكوتِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ ، ومَنْ جعلَ بينَ قلبِهِ وبينَ صدرِهِ مِخلاةً مِنَ الطعامِ . . فهوَ عنهُ محجوبٌ ، ومَنْ أخلىٰ معدتَهُ . . فلا يكفيهِ ذٰلكَ لرفعِ الحجابِ ما لمْ يخلِ همَّتَهُ عنْ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وذٰلكَ هوَ الأمرُ كلُّهُ ، ومبدأُ جميعِ ذٰلكَ تقليلُ الطعامِ ، وسيأتي لهُ مزيدُ بيانٍ في كتابِ الأطعمةِ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

❀ ❀ ❀

السادسُ : أنْ يكونَ قلبُهُ بعدَ الإفطارِ معلَّقاً مضطرباً بينَ الخوفِ والرجاءِ ؛ إذْ ليسَ يدري : أَتُقُبِّلَ صومُهُ فهوَ مِنَ المقرَّبينَ ، أوْ رُدَّ عليهِ فهوَ مِنَ الممقوتينَ ؟

وليكنْ كذٰلكَ في آخرِ كلِّ عبادةٍ يفرُغُ منها ، فقدْ رُوِيَ عنِ الحسنِ بنِ أبي الحسنِ البصريِّ أنَّهُ مرَّ بقومٍ يومَ العيدِ وهمْ يضحكونَ ، فقالَ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ شهرَ رمضانَ مضماراً لخلقِهِ يستبقونَ فيهِ لطاعتِهِ ، فسبقَ أقوامٌ ففازوا ، وتخلَّفَ أقوامٌ فخابوا ، فالعجَبُ كلُّ العجبِ للضاحكِ اللاعبِ في اليومِ الذي فازَ فيهِ السابقونَ المسارعونَ ، وخابَ فيهِ

---

(١) حكى الأقوال الثلاثة صاحب « القوت » (١١٤/٢) .

(٢) كما في « الترمذي » (٢٣٨٠) ، و« ابن ماجه » (٣٣٤٩) .

المبطلونَ !![1] أمَا واللهِ ؛ لوْ كُشِفَ الغطاءُ . . لاشتغلَ المحسنُ بإحسانِهِ والمسيءُ بإساءتِهِ)[2] أيْ : كانَ سرورُ المقبولِ يشغلُهُ عنِ اللعبِ ، وحسرةُ المردودِ تسدُّ عليهِ بابَ الضحكِ .

وعنِ الأحنفِ بنِ قيسٍ أنَّهُ قيلَ لهُ : إنَّكَ شيخٌ كبيرٌ ، وإنَّ الصيامَ يضعفُكَ ، فقالَ : إنِّي أعدُّهُ لشرٍّ طويلٍ ، والصبرُ علىٰ طاعةِ اللهِ سبحانَهُ أهونُ مِنَ الصبرِ علىٰ عذابِهِ[3]

فهٰذِهِ هيَ المعاني الباطنةُ في الصومِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فمنِ اقتصرَ علىٰ كفِّ شهوةِ البطنِ والفرجِ وتركَ هٰذهِ المعاني فقدْ قالَ الفقهاءُ : صومُهُ صحيحٌ . . فما معناهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ فقهاءَ الظاهرِ يثبتونَ شروطَ الظاهرِ بأدلَّةٍ هي أضعفُ مِنْ هٰذهِ الأدلَّةِ التي أوردناها في هٰذهِ الشروطِ الباطنةِ ، لا سيما الغيبةُ وأمثالُها ، ولٰكنْ ليسَ إلىٰ فقهاءِ الظاهرِ مِنَ التكليفاتِ إلا ما يتيسَّرُ علىٰ عمومِ الغافلينَ المقبلينَ على الدنيا الدخولُ تحتَهُ .

فأمَّا علماءُ الآخرةِ . . فيعنونَ بالصحَّةِ القَبولَ ، وبالقبولِ الوصولَ إلى المقصودِ ، ويفهمونَ أنَّ المقصودَ مِنَ الصومِ التخلُّقُ بخلقٍ مِنْ أخلاقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ الصمديَّةُ[4] ، والاقتداءُ بالملائكةِ في الكفِّ عنِ الشهواتِ بحسَبِ الإمكانِ ؛ فإنَّهُمْ منزَّهونَ عنِ الشهواتِ ، والإنسانُ رتبتُهُ فوقَ رتبةِ البهائمِ ؛ لقدرتِهِ بنورِ العقلِ علىٰ كسْرِ شهوتِهِ ، ودونَ رتبةِ الملائكةِ ؛ لاستيلاءِ الشهواتِ عليهِ وكونِهِ مبتلىً بمجاهدتِها ، فكلَّما انهمكَ في الشهواتِ . . انحطَّ إلىٰ أسفلِ السافلينَ ، والتحقَ بغمارِ البهائمِ ، وكلَّما قمعَ الشهواتِ . . ارتفعَ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، والتحقَ بأفقِ الملائكةِ ، والملائكةُ مقرَّبونَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والذي يقتدي بهمْ ويتشبَّهُ بأخلاقِهِمْ . . يقربُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كقربِهِمْ ؛ فإنَّ الشبيهَ مِنَ القريبِ قريبٌ ، وليسَ القربُ ثَمَّ بالمكانِ ، بلْ بالصفاتِ .

وإذا كانَ هٰذا سرَّ الصومِ عندَ أربابِ الألبابِ وأصحابِ القلوبِ . . فأيُّ جدوىٰ لتأخيرِ أكلةٍ وجمعِ أكلتينِ عندَ العشاءِ معَ الانهماكِ في الشهواتِ الأُخَرِ طولَ النهارِ ؟!

ولوْ كانَ لمثلِهِ جدوىٰ . . فأيُّ معنىً لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ مِنْ صائمٍ ليسَ لهُ مِنْ صومِهِ إلا الجوعُ والعطشُ » ؟![5]

ولهٰذا قالَ أبو الدرداءِ : (يا حبذا نومُ الأكياسِ وفطرُهُمْ ، كيفَ يغبنونَ صومَ الحمقىٰ وسهرَهم ؟! ولذرةٌ مِنْ ذوي يقينٍ وتقوىٰ أفضلُ وأرجحُ مِنْ أمثالِ الجبالِ عبادةً مِنَ المغترِّينَ)[6]

---

(١) قال في « الإتحاف » (٤/٢٥٠) : (هٰكذا في النسخ ، ولو كان « المبطئون » . . فهو أنسب) .

(٢) أورده ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٢/٣٣٥) ، وابن الجوزي في « بستان الواعظين » (ص ٣٢١) .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٩/٩٥) إلىٰ قوله : (لشرٍّ طويل) .

(٤) إذ إن من معاني الصمد : الذي لا جوف له ، والذي لا يطعم .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٧٣) ، وبنحوه عند ابن ماجه (١٦٩٠) .

(٦) رواه أحمد في « الزهد » (٧٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢١١) ، وهو في « القوت » (١/٧٥) .

ولذلكَ قالَ بعضُ العلماءِ : (كمْ مِنْ صائمٍ مفطرٌ ، وكمْ مِنْ مفطرٍ صائمٌ) ، والمفطرُ الصائمُ : هوَ الذي يحفظُ جوارحَهُ عنِ الآثامِ ويأكلُ ويشربُ ، والصائمُ المفطرُ : هوَ الذي يجوعُ ويعطشُ ويطلقُ جوارحَهُ .

ومَنْ فهمَ معنى الصومِ وسِرَّهُ . . علمَ أنَّ مثَلَ مَنْ كفَّ عنِ الأكلِ والجماعِ وأفطرَ بمخالطةِ الآثامِ . . كمَنْ مسحَ علىٰ عضوٍ مِنْ أعضائِهِ في الوضوءِ ثلاثَ مراتٍ ، فقدْ وافقَ في الظاهرِ العددَ ، إلا أنَّهُ تركَ المهمَّ وهوَ الغسلُ ، فصلاتُهُ مردودةٌ عليهِ لجهلِهِ ، ومثلُ مَن أفطرَ بالأكلِ وصامَ بجوارحِهِ عنِ المكارهِ . . كمَنْ غسلَ أعضاءَهُ مرَّةً مرَّةً ، فصلاتُهُ متقبَّلةٌ إنْ شاءَ اللهُ ؛ لإحكامِهِ الأصلَ وإنْ تركَ الفضْلَ ، ومثلُ مَنْ جمعَ بينَهُما . . كمَنْ غسلَ كلَّ عضوٍ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فجمعَ بينَ الأصلِ والفضْلِ ، وهوَ الكمالُ [1]

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصومُ أمانةٌ ، فليحفظْ أحدُكُمْ أمانتَهُ » [2]

ولمَّا تلا قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ . . وضعَ يدَهُ علىٰ سمعِهِ وبصرِهِ فقال : « السمعُ أمانةٌ ، والبصرُ أمانةٌ » [3] ، ولولا أنَّهُ مِنْ أماناتِ الصومِ . . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فليقلْ : إنِّي صائمٌ » [4] ؛ أي : إنِّي أُودعتُ لساني لأحفظَهُ ، فكيفَ أطلقُهُ بجوابِكَ ؟!

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ لكلِّ عبادةٍ ظاهراً وباطناً ، وقشراً ولبّاً ، ولقشورِها درجاتٍ ، ولكلِّ درجةٍ طبقاتٍ . . فإليكَ الخيرةُ الآنَ في أنْ تقنعَ بالقشرِ عنِ اللبابِ ، أوْ تتحيَّزَ إلىٰ غمارِ أربابِ الألبابِ .

* * *

---

(١) هـٰذه المُثُل ذكرها الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٧٥/١) .

(٢) روى الطبراني في « الكبير » (٢١٩/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠١/٤) مرفوعاً : « القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها ـ أو قال : كلَّ شيء ـ إلا الأمانة ، والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الحديث ، فأشد ذلك الودائع »

(٣) روى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما نحوه .

(٤) رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١١٥٠) .

الفَصْلُ الثَّالِثُ
في التّطوّع بالصّيام وترتيب الأوراد فيه

اعلمْ : أنَّ استحبابَ الصومِ يتأكَّدُ في الأيامِ الفاضلةِ ، وفواضلُ الأيامِ بعضُها يوجدُ في كلِّ سنةٍ ، وبعضُها في كلِّ شهرٍ ، وبعضُها في كلِّ أسبوعٍ .

❁ ❁ ❁

أمّا في السَّنَةِ بعدَ أيامِ رمضانَ :

فيومُ عرفةَ ، ويومُ عاشوراءَ ، والعشرُ الأُوَلُ مِنْ ذي الحجةِ ، والعشرُ الأُوَلُ مِنَ المحرَّمِ ، وجميعُ الأشهرِ الحرُمِ مظانُّ الصومِ ، وهيَ أوقاتٌ فاضلةٌ ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ صومَ شعبانَ حتَّىٰ كانَ يُظَنُّ أنَّهُ في رمضانَ[1] ، وفي الخبرِ : « أفضلُ الصيامِ بعدَ شهرِ رمضانَ شهرُ اللهِ المحرَّمُ »[2] ، ولأنَّهُ ابتداءُ السنةِ فبناؤُهُ على الخيرِ أحبُّ وأرجىٰ لدوامِ بركتِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صومُ يومٍ مِنْ شهرٍ حرامٍ أفضلُ مِنْ ثلاثينَ مِنْ غيرِهِ ، وصومُ يومٍ مِنْ رمضانَ أفضلُ مِنْ ثلاثينَ مِنْ شهرٍ حرامٍ »[3]

وفي الحديث : « مَنْ صامَ ثلاثةَ أيامٍ مِنْ شهرٍ حرامٍ ؛ الخميسُ والجمعةُ والسبتُ . . كتبَ اللهُ لهُ عبادةَ تسعِ مئةِ عامٍ »[4]

وفي الخبرِ : « إذا كانَ النصفُ مِنْ شعبانَ . . فلا صومَ حتَّىٰ رمضانَ »[5] ، ولهٰذا يستحبُّ أن يفطرَ قبلَ رمضانَ أياماً ، فإنْ وصلَ شعبانَ برمضانَ . . فجائزٌ ، فعلَ ذٰلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّةً[6] ، وفصَلَ مراراً كثيرةً[7]

ولا يجوزُ أنْ يقصدَ استقبالَ رمضانَ بيومينِ أَوْ ثلاثةٍ ، إلا أنْ يوافقَ ورداً لهُ ، وكرهَ بعضُ الصحابةِ أنْ يُصامَ رجبٌ كلُّهُ ؛ حتَّىٰ لا يضاهيَ بشهرِ رمضانَ[8]

فالأشهرُ الفاضلةُ : ذو الحِجَّةِ والمحرَّمُ ورجبٌ وشعبانُ ، والأشهرُ الحُرُمُ : ذو القعدةِ وذو الحِجَّةِ والمحرَّمُ

---

(١) فقد روى البخاري (١٩٧٠) ، ومسلم (١١٥٦) عن عائشة رضي الله عنها : (كان يصوم شعبان كله) .

(٢) رواه مسلم (١١٦٣) .

(٣) روى الطبراني في « الصغير » (٧١/٢) مرفوعاً : « من صام يوم عرفة . . كان له كفارة سنتين ، ومن صام يوماً من المحرَّم . . فله بكل يوم ثلاثون يوماً » .

(٤) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٣٣٧/١) ، وفي (هـ ، ز ، و) : (سبع) بدل (تسع) ، وهي عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١١٦/١٩) ، وعند الطبراني في « الأوسط » (١٨١٠) بلفظ : (سنتين) .

(٥) رواه أبو داوود (٢٣٣٧) ، والترمذي (٧٣٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٢٩٢٣) ، وابن ماجه (١٦٥١) .

(٦) سبق تخريج حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم شعبان كله ، ووصل شعبان برمضان رواه أبو داوود (٢٣٣٦) ، والترمذي (٧٣٦) ، والنسائي (٢٣٥٣) ، وابن ماجه (١٦٤٨) .

(٧) ففي « أبي داوود » (٢٣٢٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من شعبان ما لا يتحفظ من غيره ، ثم يصوم لرؤية رمضان ، فإن غمَّ عليه . . عدَّ ثلاثين يوماً ثم صام) .

(٨) روى ابن ماجه (١٧٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن صيام رجب) .

ورجبٌ ، واحدٌ فردٌ وثلاثةٌ سردٌ ، وأفضلُها ذو الحجَّةِ ؛ لأنَّ فيهِ الحجَّ والأيامَ المعلوماتِ والمعدوداتِ ، وذو القعدةِ مِنَ الأشهرِ الحُرُمِ وهوَ مِنْ أشهرِ الحجِّ ، وشوَّالٌ مِنْ أشهرِ الحجِّ وليسَ مِنَ الحُرُمِ ، والمحرَّمُ ورجبٌ ليسا مِنْ أشهرِ الحجِّ .

وفي الخبرِ : « ما مِنْ أيامِ العملُ فيهنَّ أفضلُ وأحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ أيامِ عشْرِ ذي الحِجَّةِ ، إنَّ صومَ يومٍ منهُ يعدِلُ صيامَ سنةٍ ، وقيامَ ليلةٍ منهُ تعدلُ قيامَ ليلةِ القدْرِ » ، قيلَ : ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : « ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، إلا مَنْ عُقِرَ جوادُهُ وأُهْرِيقَ دمُهُ »[1]

❁ ❁ ❁

وأمَّا ما يتكرَّرُ في الشهرِ :

فأوَّلُ الشهرِ ، وأوسطُهُ ، وآخرُهُ ، ووسَطُهُ الأيامُ البيضُ ؛ وهيَ الثالثَ عشرَ ، والرابعَ عشرَ ، والخامسَ عشرَ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا في الأسبوعِ :

فالاثنينُ والخميسُ والجمعةُ[2] ، فهٰذهِ هيَ الأيامُ الفاضلةُ ، فيستحبُّ فيها الصيامُ ، وتكثيرُ الخيراتِ ؛ لتضاعفِ أجورِها ببركةِ هٰذهِ الأوقاتِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا صومُ الدهرِ :

فإنَّهُ شاملٌ للكلِّ وزيادةٌ ، وللسالكينَ فيهِ طرقٌ : فمنهُمْ مَنْ كرهَ ذٰلكَ ؛ إذْ وردتْ أخبارٌ تدلُّ علىٰ كراهتِهِ[3] ، **والصحيحُ** : أنَّهُ إنَّما يكرهُ لشيئينِ :

أحدُهما : ألا يفطرَ في العيدينِ وأيامِ التشريقِ ، فهوَ الدهرُ كلُّهُ .

والآخرُ : أنْ يرغبَ عنِ السنَّةِ في الإفطارِ ويجعلَ الصومَ حجْراً علىٰ نفسِهِ ، معَ أنَّ اللهَ يحبُّ أنْ تُؤتىٰ رخصُهُ كما يُحبُّ أنْ تؤتَىٰ عزائمُهُ[4]

فإذا لمْ يكنْ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ ، ورأىٰ صلاحَ نفسِهِ في صومِ الدهرِ . . فليفعلْ ذٰلكَ ؛ فقدْ فعلَهُ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ لهُم بإحسانٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ[5]

---

(١) رواه الترمذي (٧٥٨) ، وابن ماجه (١٧٢٨) دون زيادة : « ولا الجهاد في سبيل الله . . . » ، وهي عند البخاري (٩٦٩) بغير ذكر الصوم في الحديث ، وروى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/٢٨٥) : أن رجلاً سأل أبا هريرة فقال : إن علي رمضان وأنا أريد أن أتطوع في العشر ؟ قال : لا ، بل ابدأ بحق الله فاقضه ، ثم تطوع بعد ما شئت .

(٢) إن صام يوماً قبله أو بعده ، أو وافق يوماً يصومه ؛ إذ إفراده بالصوم مكروه .

(٣) كما روى البخاري (١٩٧٧) ، ومسلم (١١٥٩) مرفوعاً « لا صام من صام الأبد » .

(٤) كما روىٰ ذٰلك أحمد في « المسند » (٢/١٠٨) .

(٥) كعبد الله بن الزبير ، وعروة وسعيد بن المسيب ووكيع وغيرهم ، وذكر الحافظ الزبيدي عن شيخه العالم الورع الزاهد محمد بن شاهين الدمياطي أنه كان كذٰلك ، يصوم الدهر ولا يفطر ، وانظر « الإتحاف » (٤/٢٦١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ أبو موسى الأشعريُّ : « مَنْ صامَ الدهرَ كلَّهُ . . ضُيِّقَتْ عليهِ جهنَّمُ » وعقدَ تسعينَ[1] ، معناه : لمْ يكنْ لهُ فيها موضعٌ .

ودونَهُ درجةٌ أخرىٰ ، وهيَ صومُ نصْفِ الدهرِ ؛ بأنْ يصومَ يوماً ويفطرَ يوماً ، وذلكَ أشدُّ على النفسِ وأقوىٰ في قهرِها ، وقدْ وردَ في فضلِهِ أخبارٌ كثيرةٌ ؛ لأنَّ العبدَ فيهِ بينَ صبْرِ يومٍ وشكْرِ يومٍ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرضتْ عليَّ مفاتيحُ خزائنِ الدنيا وكنوزُ الأرضِ ، فرددتُها وقلتُ : أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، أحمدُكَ إذا شبعتُ ، وأتضرَّعُ إليكَ إذا جعتُ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصيامِ صومُ أخي داوودَ ، كانَ يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً »[3]

ومِنْ ذلكَ : منازلتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما في الصومِ وهوَ يقولُ : إنِّي أطيقُ أفضلَ مِنْ ذلكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صُمْ يوماً وأفطرْ يوماً » ، فقالَ : إنِّي أطيقُ أفضلَ مِنْ ذلكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أفضلَ مِنْ ذلكَ »[4]

وقدْ رُويَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما صامَ شهراً كاملاً قطُّ إلا رمضانَ[5] ، بلْ كانَ يفطرُ مِنْ غيرِهِ .

ومَنْ لا يقدرُ علىٰ صومِ نصفِ الدهرِ . . فلا بأسَ بثلثِهِ ، وهوَ أنْ يصومَ يوماً ويفطرَ يومينِ[6] ، وإذا صامَ ثلاثةً مِنَ أوَّلِ الشهرِ وثلاثةً مِنَ الوسطِ وثلاثةً مِنَ الآخرِ . . فهوَ ثلثٌ وواقعٌ في الأوقاتِ الفاضلةِ ، وإنْ صامَ الاثنينَ والخميسَ والجمعةَ . . فهوَ قريبٌ مِنَ الثلثِ .

❁ ❁ ❁

وإذا ظهرتْ أوقاتُ الفضيلةِ . . فالكمالُ في أنْ يفهمَ الإنسانُ معنى الصومِ ، وأنَّ مقصودَهُ تصفيةُ القلبِ وتفريغُ الهمِّ للهِ عزَّ وجلَّ .

والفقيهُ بدقائقِ الباطنِ ينظرُ إلىٰ أحوالِهِ ، فقدْ يقتضي حالُهُ دوامَ الصومِ ، وقدْ يقتضي دوامَ الفطرِ ، وقدْ يقتضي مزجَ الإفطارِ بالصومِ ، فإذا فهمَ المعنىٰ وتحقَّقَ حدَّهُ في سلوكِ طريقِ الآخرةِ بمراقبةِ القلبِ . . لمْ يخفَ عليهِ صلاحُ قلبِهِ ، وذلكَ لا يوجبُ ترتيباً مستمرّاً ، ولذلكَ رُويَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصومُ حتَّىٰ يقالَ : لا يفطرُ ، ويفطرُ حتَّىٰ يقالَ : لا يصومُ ، وينامُ حتَّىٰ يقالَ : لا يقومُ ، ويقومُ حتَّىٰ يقالَ : لا ينامُ[7] ، وكانَ ذلكَ بحسَبِ ما ينكشفُ لهُ بنورِ النبوَّةِ مِنَ القيامِ بحقوقِ الأوقاتِ .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٥٨٤) ، ثم ابن حبان : (القصد في هاذا الخبر صوم الدهر الذي فيه أيام التشريق والعيدين) ، وقال ابن الملقن في « البدر المنير » (٧٦٥/٥) : (أي : ضيقت عنه فلم يدخلها ، أو ضيقت عليه ؛ أي : لا يكون له فيها موضع) ، وهاذا ما سيفسره به المصنف رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٧) بنحوه .

(٣) رواه الترمذي (٧٧٠) بلفظه ، وهو عند الشيخين من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الآتي .

(٤) رواه البخاري (١٩٧٦) ، ومسلم (١١٥٩) .

(٥) كما في « البخاري » (١٩٧١) ، و« مسلم » (١١٥٦)

(٦) كما في « مسلم » (١١٦٢) حيث قال صلى الله عليه وسلم فيه : « وددت أني طوقت ذلك »

(٧) كما في « البخاري » (١١٤١) ، و« مسلم » (١١٥٨) ، واللفظ للبخاري عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقدْ كرهَ بعضُ العلماءِ أنْ يواليَ بينَ الإفطارِ أكثرَ مِنْ أربعةِ أيامٍ ، تقديراً بيومِ العيدِ وأيامِ التشريقِ ، وذكروا أنَّ ذٰلكَ يقسِّي القلبَ ، ويولِّدُ رديءَ العاداتِ ، ويفتحُ أبوابَ الشهواتِ .

ولعمري ؛ هوَ كذٰلكَ في حقِّ أكثرِ الخلقِ ، لا سيما مَنْ يأكلُ في اليومِ والليلةِ مرتينِ .

فهٰذا ما أردنا ذكرَهُ مِنْ ترتيبِ الصومِ المتطوَّعِ بهِ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

❀ ❀ ❀

تم كتاب أسرار الصوم ومهماته

وهو الكتاب السادس من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدين

والله تعالى محمود مشكور

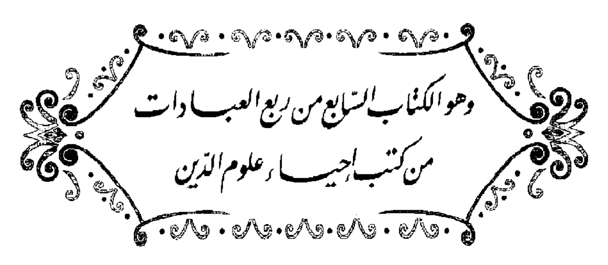
وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين

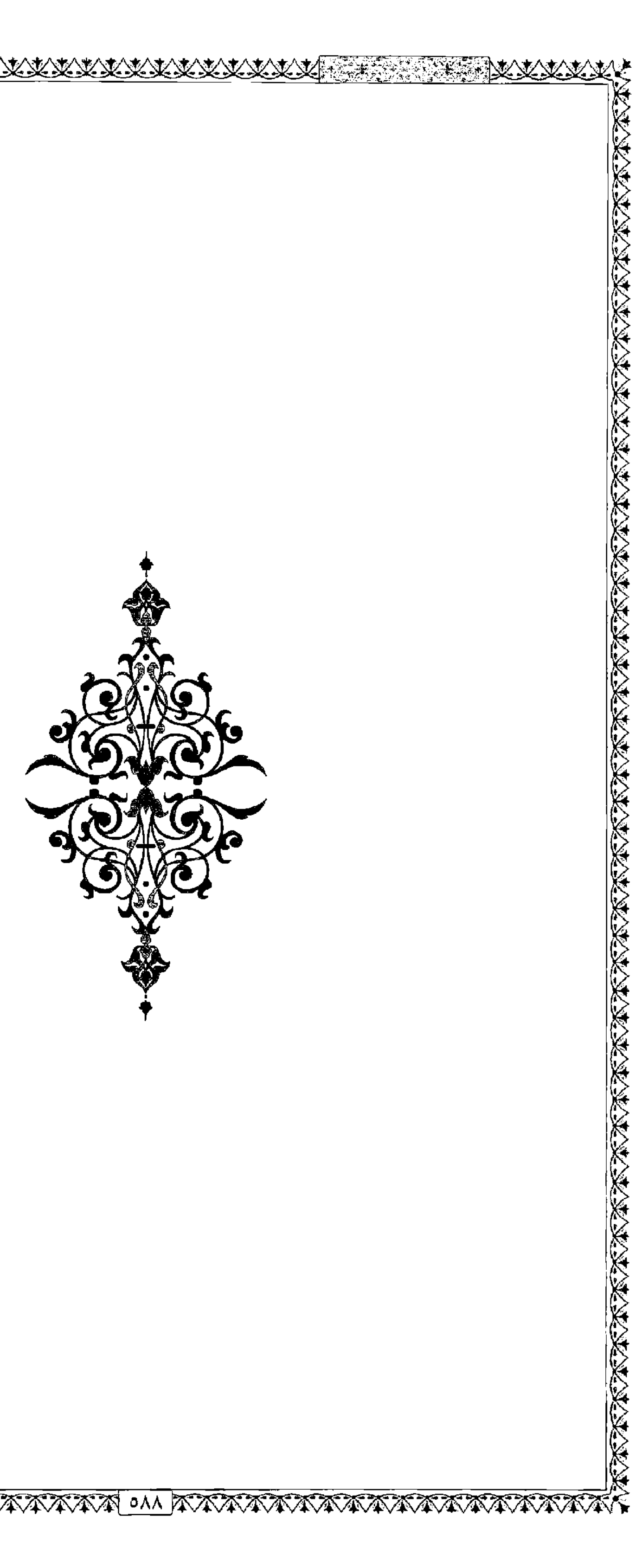
يتلوه كتاب أسرار الحج ومهماته

يفطر من الشهر حتىٰ نظن أن لا يصومُ ، ويصوم حتىٰ نظن أن لا يفطرُ منه شيئاً ، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ، ولا نائماً إلا رأيته) .

كِتَابُ

أَسْرَارِ الْحَجِّ وَمُهِمَّاتِهِ





كتاب أسرار الحجّ ومهمّاته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ كلمةَ التوحيدِ لعبادِهِ حرزاً وحصناً ، وجعلَ البيتَ العتيقَ مثابةً للناسِ وأمناً ، وأكرمَهُ بالنسبةِ إلىٰ نفسِهِ تشريفاً وتخصيصاً ومنّاً ، وجعلَ زيارتَهُ والطوافَ بهِ حجاباً بينَ العبدِ وبينَ العذابِ ومِجَنّاً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ نبيِّ الرحمةِ وسيِّدِ الأمَّةِ ، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ قادةِ الحقِّ وسادةِ الخلْقِ ، وسلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الحجَّ مِنْ بينِ أركانِ الإسلامِ ومبانيهِ عبادةُ العمرِ ، وختامُ الأمرِ ، وتمامُ الإسلامِ ، وكمالُ الدينِ ، فيهِ أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قولَهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ .

وفيهِ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ ولمْ يحجَّ . . فليمتْ إنْ شاءَ يهودياً وإنْ شاءَ نصرانياً »(١)

فأعظمْ بعبادةٍ يعدمُ الدين بفقدِها الكمالَ ، ويساوي تاركُها اليهودَ والنصارىٰ في الضلالِ ، وأجدرْ بها أنْ تُصرفَ العنايةُ إلىٰ شرحِها وتفصيلِ أركانِها وسننِها وآدابِها وفضائِلها وأسرارِها .

وجملةُ ذٰلكَ ينكشفُ بتوفيقِ اللهِ عزَّ وجلَّ في ثلاثةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضائِلها وفضائلِ مكَّةَ والبيتِ العتيقِ ، وجملِ أركانِها وشرائطِ وجوبِها .

البابُ الثاني : في أعمالِها الظاهرةِ على الترتيبِ مِنْ مبدأ السفرِ إلى الرجوعِ .

البابُ الثالثُ : في آدابِها الدقيقةِ وأسرارِها الخفيَّةِ وأعمالِها الباطنةِ .

❁ ❁ ❁

فلنبدأْ بالبابِ الأوَّلِ :

---

(١) رواه الترمذي (٨١٢) ، والدارمي في « سننه » (١٨٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥١/٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٣٤/٤) ، وقال : (وهٰذا وإن كان إسناده غير قوي . . فله شاهد من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه) وذكره .

الباب الأول
في فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرائط وجوبها
وفيه فصلان[1]

الفصل الأول
في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله وشد الرحال إلى المشاهد العظام

فضيلة الحج

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

قالَ قتادةُ : (لمَّا أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ أنْ يؤذِّنَ في الناسِ بالحجِّ . . نادىٰ : يا أيُّها الناسُ ؛ إنَّ للهِ بيتاً فحجُّوهُ)[2]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ ، قيلَ : (التجارةُ في الموسمِ ، والأجرُ في الآخرةِ)[3]

ولمَّا سمعَ بعضُ السلفِ هـٰذا . . قالَ : (غفرَ لهُمْ وربِّ الكعبةِ)[4]

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ : إنَّهُ طريقُ مكَّةَ ، يقعدُ الشيطانُ عليها ليمنعَ الناسَ منها[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حجَّ البيتَ فلمْ يرفثْ ولمْ يفسقْ . . خرجَ مِنْ ذنوبِهِ كيومَ ولدتْهُ أُمُّهُ »[6]

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما رُئِيَ الشيطانُ في يومٍ هُوَ أصغرَ ولا أدحرَ ولا أحقرَ ولا أغيظَ منهُ يومَ عرفةَ ، وما ذٰلكَ إلا لما يرىٰ مِنْ تنزُّلِ الرحمةِ ، وتجاوزِ اللهِ عنِ الذنوبِ العظامِ »[7] ، إذْ يقالُ : « إنَّ مِنَ الذنوبِ ذنوباً لا يكفِّرُها إلا الوقوفُ بعرفةَ » ، وقدْ أسندَهُ جعفرُ بنُ محمدٍ إلىٰ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[8]

وذكرَ بعضُ المكاشفينَ مِنَ المقرَّبينَ : أنَّ إبليسَ ظهرَ لهُ في صورةِ شخصٍ بعرفةَ ، فإذا هوَ ناحلُ الجسمِ ، مصفرُّ اللونِ باكي العينِ ، مقصوفُ الظهرِ ، فقالَ لهُ : ما الذي أبكىٰ عينَكَ ؟ قالَ : خروجُ الحاجِّ إليهِ بلا تجارةٍ ، أقولُ : قدْ

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) رواه قتادة عن عكرمة بن خالد كما في « مناسك ابن أبي عروبة » (٢٢) ، وه تاريخ دمشق » (٢٠٧/٦) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٨٦/١٧/١٠) عن مجاهد .

(٤) قوت القلوب (١٢٠/٢) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٥٣/٤) عن عون بن عبد الله ، وروي موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من رواية الفاكهي في « أخبار مكة » (١٣٢/٤) .

(٦) رواه البخاري (١٥٢١) ، ومسلم (١٣٥٠) .

(٧) رواه مالك في « الموطأ » (٤٢٢/١) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً ، والدحر : الدفع بعنف علىٰ سبيل المهانة والإذلال .

(٨) كذا قال صاحب « القوت » (١٢٠/٢) ولفظه : (وقد رفعه جعفر بن محمد فأسنده) .

قصدوهُ ، أخافُ ألا يخيبَهُمْ ، فيحْزُنُني ذلكَ ، قالَ : فما الذي أنحلَ جسمَكَ ؟ قالَ : صهيلُ الخيلِ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولوْ كانتْ في سبيلي كانَ أحبَّ إليَّ ، قالَ : فما الذي غيَّرَ لونَكَ ؟ قالَ : تعاونُ الجماعةِ على الطاعةِ ، ولوْ تعاونوا على المعصيةِ كانَ أحبَّ إليَّ ، قالَ : فما الذي قصفَ ظهرَكَ ؟ قالَ : قولُ العبدِ : أسألُكَ حسنَ الخاتمةِ ، أقولُ : يا ويلتي !! متىٰ يعجبُ هـٰذا بعملِهِ ، أخافُ أنْ يكونَ قدْ فطنَ[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خرجَ مِنْ بيتِهِ حاجّاً أَوْ معتمراً ، فماتَ . . أُجريَ لهُ أجرُ الحاجِّ المعتمرِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، ومَنْ ماتَ في أحدِ الحرمينِ . . لمْ يُعْرَضْ ولمْ يحاسبْ ، وقيلَ لهُ : ادخلِ الجنَّةَ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حجَّةٌ مبرورةٌ خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ، وحجةٌ مبرورةٌ ليسَ لها جزاءٌ إلا الجنةُ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجَّاجُ والعمَّارُ وفدُ اللهِ عزَّ وجلَّ وزوَّارُهُ ، إنْ سألوهُ . . أعطاهُمْ ، وإنِ استغفروهُ . . غفرَ لهُمْ ، وإنْ دعَوا . . استجيبَ لهُمْ ، وإنْ تشفَّعُوا . . شُفِّعُوا »[4]

وفي حديثٍ مسندٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ عليهمُ السلامُ : « أعظمُ الناسِ ذنباً مَنْ وقفَ بعرفةَ فظنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يغفرْ لهُ »[5]

وروى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ينزلُ علىٰ هـٰذا البيتِ في كلِّ يومٍ مئةٌ وعشرونَ رحمةً ، ستونَ للطائفينَ ، وأربعونَ للمصلِّينَ ، وعشرونَ للناظرينَ »[6]

وفي الخبرِ : (استكثروا منَ الطوافِ بالبيتِ ؛ فإنَّهُ مِنْ أقلِّ شيءٍ تجدونَهُ في صحفِكُمْ يومَ القيامةِ ، وأغبطِ عملٍ تجدونَهُ)[7] ، ولهـٰذا يستحبُّ الطوافُ ابتداءً مِنْ غيرِ حجٍّ ولا عمرةٍ .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٢٠) ، وروى ابن ماجه (٣٠١٣) حديث دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في عرفة ، وفيه : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أو قال : تبسم ـ فقال له أبو بكر وعمر : بأبي أنت وأمي ؛ إن هـٰذه لساعة ما كنت تضحك فيها ، فما الذي أضحكك أضحك الله سنَّك ؟ قال : « إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب دعائي وغفر لأمتي . . أخذ التراب ، فجعل يحثوه علىٰ رأسه ويدعو بالويل والثبور ، فأضحكني ما رأيت من جزعه » .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٣٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٨٠٢) .

(٣) روى البخاري (١٧٧٣) ، ومسلم (١٣٤٩) مرفوعاً : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ، ومعنى الشطر الأول مستفاد من حديثين ؛ ما رواه البخاري (٢٧٩٢) ، ومسلم (١٨٨٠) مرفوعاً : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » ، وما رواه البخاري (١٥٢٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله ؛ نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : « لا ، لـٰكنَّ أفضل الجهاد حج مبرور » .

(٤) الحديث أورده المصنف بلفظ صاحب « القوت » (٢/١٢٠) ، وأوله عند ابن ماجه (٢٨٩٢) بلفظ : « الحجاج والعمار وفد الله ، إن دعوه . . أجابهم ، وإن استغفروه . . غفر لهم » .

(٥) كذا في « القوت » (٢/١٢٠) ، حيث قال : (وقد روينا حديثاً مسنداً من طريق أهل البيت . . .) وذكره ، وقد رواه الخطيب في « المتفق والمفترق » (٢١٩) .

(٦) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/١٩٥) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/١٥١) ، ورواه مسلسلاً بالمكيين الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٤/٢٧٢) ، ورواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/٨) من كلام حسان بن عطية .

(٧) لفظ المصنف لهـٰذا الحديث عند صاحب « القوت » (٢/١١٩) ، وهو موقوف علىٰ سيدنا علي رضي الله عنه كما رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/٢١٨) بلفظ : (استكثروا من الطواف بهـٰذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه ، فكأني أنظر إليه حبشياً أصيلع أصيمع قائماً عليها يهدمها بمسحاته) ، فالرواية للقطعة الأولىٰ منه .

وفي الخبرِ : « مَنْ طافَ أسبوعاً حافياً حاسراً . . كانَ لهُ كعتقِ رقبةٍ ، ومَنْ طافَ أسبوعاً في المطرِ . . غُفِرَ له ما سلفَ مِنْ ذنوبِهِ »(١)

ويقالُ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا غفرَ لعبدٍ ذنباً في الموقفِ . . غفرَهُ لكلِّ مَنْ أصابَهُ في ذٰلكَ الموقفِ)(٢)

وقالَ بعضُ السلفِ : (إذا وافقَ يومُ عرفةَ يومَ جمعةٍ . . غُفِرَ لكلِّ أهلِ عرفةَ)(٣) ، وهوَ أفضلُ يومٍ في الدنيا ، وفيهِ حجَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حجَّةَ الوداعِ ، وكانَ واقفاً إذْ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ، قالَ أهلُ الكتابِ : لوْ أنزلتْ هٰذهِ الآيةُ علينا . . لجعلناها يومَ عيدٍ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أشهدُ لقدْ أنزلتْ هٰذهِ الآيةُ في يومِ عيدينِ اثنينِ ؛ يومَ عرفةَ ويومَ جمعةٍ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ واقفٌ بعرفةَ(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ للحاجِّ ولمَنِ استغفرَ لهُ الحاجُّ »(٥)

ورُوِيَ أنَّ عليَّ بنَ الموفقِ حجَّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حججاً ، قالَ : فرأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ لي : يا بنَ الموفقِ ؛ حججتَ عنِّي ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : ولبَّيتَ عنِّي ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : فإنِّي أكافئُكَ بها يومَ القيامةِ ؛ آخذُ بيدِكَ في الموقفِ ، فأدخلُكَ الجنَّةَ والخلائقُ في كرْبِ الحسابِ(٦)

وقالَ مجاهدٌ وغيرُهُ مِنَ العلماءِ : (إنَّ الحاجَّ إذا قدموا مكَّةَ . . تلقتْهُمُ الملائكةُ ، فسلَّموا علىٰ ركبانِ الإبلِ ، وصافحوا ركبانَ الحُمُرِ ، واعتنقوا المشاةَ اعتناقاً)(٧)

وقالَ الحسنُ : (مَنْ ماتَ عَقيبَ رمضانَ أَوْ عَقيبَ غزوٍ أوْ عقيبَ حجٍّ . . ماتَ شهيداً)(٨)

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (الحاجُّ مغفورٌ لهُ ولمَنِ استغفرَ لهُ في شهرِ ذي الحجَّةِ والمحرَّمِ وصفرٍ وعشرٍ مِنْ ربيعٍ الأوَّلِ)(٩)

وقدْ كانَ مِنْ سنَّةِ السلفِ أنْ يشيِّعُوا الغزاةَ ، وأنْ يستقبلوا الحاجَّ ، ويقبِّلُوا بينَ أعينِهِمْ ، ويسألوهُمُ الدعاءَ لهُمْ ، ويبادرونَ ذٰلكَ قبلَ أنْ يتدنَّسوا بالآثامِ(١٠)

---

(١) كذا هو لفظ الحديث عند صاحب « القوت » (١١٩/٢) ، وقال : (روي ذلك عن الحسن بن علي ، قاله لأصحابه ، ورفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وأوله عند الترمذي (٩٥٩) ، وحديث الطواف في المطر عند ابن ماجه (٣١١٨) .
(٢) قوت القلوب (١٢٠/٢) .
(٣) قوت القلوب (١٢٠/٢) .
(٤) كما في « البخاري » (٤٥) ، ومسلم (٣٠١٧) .
(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٥٨٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٤١/١) .
(٦) قوت القلوب (١٢١/٢) .
(٧) روىٰ نحوه البيهقي مرفوعاً في « الشعب » (٣٨٠٥) ، ورواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٢٧٦/٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وعن مجاهد ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٢٠/٢) ، وأما استعمال لفظ (الحاجّ) مع إرادة الجمع . . فإما أن يكون كالجامل والباقر ، وهو يطلق علىٰ جماعة الجمال والبقر مع رعاتها ، فهو اسم جمع ، وإما أن يراد به الجنس ، وعليه يجري قولهم : أقبل الحاجُّ والداجُّ ؛ فالحاجُّ : الذين يحجون ، والداجُّ : أعوانهم .
(٨) قوت القلوب (١٢٠/٢) .
(٩) قوت القلوب (١٢٠/٢) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٧٥/٤) : (ويوجد في بعض نسخ الكتاب : « وعشرين من ربيع الأول » واغترَّ به المناوي فنقله في « شرح الجامع » [٤٣٧/١] هٰكذا نقلاً عن الكتاب ، وهو وهم ، والصواب ما تقدم) .
(١٠) قوت القلوب (١٢٠/٢)

ويُروىٰ عنْ عليِّ بنِ الموفقِ قالَ : (حججتُ سنةً ، فلمَّا كانَ ليلةُ عرفةَ . . نمتُ بمنىً في مسجدِ الخَيْفِ ، فرأيتُ في المنامِ كأنَّ ملكينِ قدْ نزلا مِنَ السماءِ عليهما ثيابٌ خضْرٌ ، فنادىٰ أحدُهُما صاحبَهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ فقالَ الآخرُ : لبيكَ يا عبدَ اللهِ ؛ قالَ : تدري كمْ حجَّ بيتَ ربِّنا عزَّ وجلَّ في هـٰذهِ السنةِ ؟ قالَ : لا أدري ، قالَ : حجَّ بيتَ ربِّنا ستُّ مئةِ ألفٍ ، فتدري كمْ قُبِلَ منهم ؟ قالَ : لا ، قالَ : قُبِلَ منهُمْ ستَّةُ أنفسٍ .

قال : ثمَّ ارتفعا في الهواءِ ، فغابا عنِّي ، فانتبهتُ فزِعاً ، واغتممْتُ غمّاً شديداً ، وأهمَّني أمري ، فقلتُ : إذا قُبِلَ حجُّ ستَّةِ أنفسٍ . . فأينَ أكونُ أنا في ستَّةِ أنفسٍ ؟

فلما أفضتُ مِنْ عرفةَ . . قمتُ عندَ المشعرِ الحرامِ ، فجعلتُ أفكِّرُ في كثرةِ الخلْقِ وفي قلَّةِ مَنْ قُبِلَ منهُمْ ، فحملني النومُ ، فإذا الشخصانِ قدْ نزلا علىٰ هيئتِهِما ، فنادىٰ أحدُهما صاحبَهُ ، وأعادَ ذٰلكَ الكلامَ بعينِهِ ثمَّ قالَ : أتدري ماذا حَكَمَ ربُّنا عزَّ وجلَّ في هـٰذهِ الليلةِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإنَّهُ وَهَبَ لكلِّ واحدٍ مِنَ الستةِ مئةَ ألفٍ . قالَ : فانتبهتُ وبي مِنَ السرورِ ما يجلُّ عنِ الوصفِ)(١)

وعنهُ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً أنَّهُ قالَ : (حججتُ سنةً ، فلمَّا قضيتُ مناسكي . . تفكرْتُ فيمَنْ لا يُتقبَّلُ حجُّهُ ، فقلتُ : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ وهبتُ حجتي وجعلتُ ثوابَها لمنْ لا يُتقبَّلُ حجُّهُ ، قالَ : فرأيتُ ربَّ العزَّةِ جلَّ جلالُهُ في النومِ ، فقالَ لي : يا عليُّ ؛ تتسخَّىٰ عليَّ وأنا خلقتُ السخاءَ والأسخياءَ ، وأنا أجودُ الأجودينَ ، وأكرمُ الأكرمينَ ، وأحقُّ بالجودِ والكرمِ مِنَ العالمينَ ؟! قدْ وهبتُ كلَّ مَن لمْ أقبلْ حجَّهُ لمَنْ قبلتُهُ)(٢)

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/١٢٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٢١) .

فضيلة البيت ومكة حرسها الله

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ قدْ وعدَ هـٰذا البيتَ أنْ يحجَّهُ في كلِّ سنةٍ ستُّ مئةِ ألفٍ ، فإنْ نقصوا . . أكملَهُمُ اللهُ تعالىٰ بالملائكةِ ، وإنَّ الكعبةَ تحشرُ كالعروسِ المزفوفةِ ، وكلُّ مَنْ حجَّها يتعلَّقُ بأستارِها يسعونَ حولَها حتىٰ تدخلَ الجنَّةَ ، فيدخلونَ معَها »(١)

وفي الخبرِ : « إنَّ الحجرَ الأسودَ ياقوتةٌ مِنْ يواقيتِ الجنَّةِ ، وإنَّهُ يبعثُ يومَ القيامةِ لهُ عينانِ ولسانٌ ينطقُ بهِ ، يشهدُ لِمَنِ استلمَهُ بحقٍّ وصدْقٍ »(٢)

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبِّلُهُ كثيراً(٣) ، ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سجدَ عليهِ(٤) ، وكانَ يطوفُ على الراحلةِ ، فيضعُ المحجَنَ عليهِ ثمَّ يقبِّلُ طرفَ المحجَنِ(٥)

وقبَّلَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ثمَّ قالَ : (إنِّي لأعلَمُ أنَّكَ حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ ، ولولا أنِّي رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبلُكَ . . ما قبلتُكَ)(٦) ، ثمَّ بكىٰ حتَّىٰ علا نشيجُهُ ، فالتفتَ إلىٰ ورائِهِ فرأىٰ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : يا أبا الحسنِ ؛ ها هنا تسكبُ العبراتُ ، فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ بلْ هوَ يضرُّ وينفعُ ، قالَ : وكيفَ ؟ قالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا أخذَ الميثاقَ على الذريَّةِ . . كتبَ عليهِمْ كتاباً ثمَّ ألقمَهُ هـٰذا الحجرَ ، فهوَ يشهدُ للمؤمنِ بالوفاءِ ، ويشهدُ على الكافرِ بالجحودِ(٧)

قيلَ : فذٰلكَ هوَ معنىٰ قولِ الناسِ عندَ الاستلامِ : اللهمَّ ؛ إيماناً بكَ ، وتصديقاً بكتابِكَ ، ووفاءً بعهدِكَ(٨)

ورُوِيَ عنِ الحسنِ البصريِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ صومَ يومٍ فيها بمئةِ ألفِ يومٍ ، وصدقةَ درهمٍ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، وكذٰلكَ كلُّ حسنةٍ بمئةِ ألفٍ(٩)

---

(١) كذا في « القوت » (١٢١/٢) ، وقد رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٤٣٦/١) عن أبي بكر ـ شك في رفعه ـ بلفظ : « تحشر الكعبة إلىٰ بيت المقدس متعلقاً بأستارها كل من حج واعتمر » ، وفي رواية : (إن الكعبة تحشر يوم القيامة إلىٰ بيت المقدس تزف زف العروس ، متعلق بها من حج إليها ، فتقول الصخرة : مرحباً بالزائر والمزور) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (٣٢٩/١) : (وأخرج الواسطي عن كعب قال : لا تقوم الساعة حتىٰ يزف البيت الحرام إلىٰ بيت المقدس ، فينقادان إلى الجنة وفيهما أهلهما ، والعرض والحساب ببيت المقدس) .

(٢) رواه الترمذي (٩٦١) بلفظ : « والله ؛ ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به ، يشهد علىٰ من استلمه بحق » ، وله (٨٧٨) أيضاً : « إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ، ولو لم يطمس نورهما . . لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب » .

(٣) تقبيله صلى الله عليه وسلم للحجر عند البخاري (١٥٩٧) ، ومسلم (١٢٧٠) .

(٤) كما روىٰ ذٰلك الدارقطني في « سننه » (٢٨٩/٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٧٣/١) .

(٥) كما روىٰ ذٰلك مسلم (١٢٧٥) .

(٦) رواه البخاري (١٥٩٧) ، ومسلم (١٢٧٠) وسبق .

(٧) روىٰ هـٰذه الزيادة الأزرقي في « أخبار مكة » (٢٥٧/١) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٥٧/١) وزادا : (فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا با الحسن) بحذف الهمزة من الأب تخفيفاً وهو مستعمل ، وقوله : (تسكب العبرات) جاء رواية لابن ماجه (٢٩٤٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر ، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً ، ثم التفت فإذا هو بعمر بن الخطاب ، فقال : « يا عمر ؛ ها هنا تسكب العبرات » ، ولفظ المصنف وسياقه من « القوت » (١٢١/٢) .

(٨) قوت القلوب (١٢١/٢) ، والدعاء مروي عن جمع من السلف . انظر « خلاصة البدر المنير » (٨/٢) .

(٩) ذكره في « قوت القلوب » (١٢١/٢) عن ابن عباس وأنس والحسن متفرقاً .

ويقالُ : طوافُ سبعةِ أسابيعَ يعدلُ عمرةً ، وثلاثُ عُمَرٍ تعدلُ حجَّةً [١]

وفي الخبرِ الصحيحِ عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عمرةٌ في رمضانَ كحجَّةٍ معي » [٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا أَوَّلُ مَنْ تنشقُّ عنهُ الأرضُ ، ثمَّ آتي أهلَ البقيعِ ، فيحشرونَ معي ، ثمَّ آتي أهلَ مكَّةَ فأُحْشَرُ بينَ الحرمينِ » [٣]

وفي الخبرِ : (إنَّ آدمَ عليهِ السلامُ لمَّا قضىٰ مناسكَهُ . . لقيتْهُ الملائكةُ ، فقالوا : بُرَّ حجُّكَ يا آدمُ ؛ لقدْ حججْنَا هـٰذا البيتَ قبلَكَ بألفي عامٍ) [٤]

وجاءَ في الأثرِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ ينظرُ في كلِّ ليلةٍ إلىٰ أهلِ الأرضِ ، فأَوَّلُ مَنْ ينظرُ إليهِ أهلُ الحرمِ ، وأَوَّلُ مَنْ ينظرُ إليهِ مِنْ أهلِ الحرمِ أهلُ المسجدِ الحرامِ ، فمنْ رآهُ طائفاً . . غفرَ لهُ ، ومَنْ رآهُ مصلِّياً . . غفرَ لهُ ، ومَنْ رآهُ نائماً مستقبلَ القبلةَ . . غفرَ لهُ [٥]

وكُوشفَ بعضُ الأولياءِ رضيَ اللهُ عنهمْ ، قالَ : (إنِّي رأيتُ الثغورَ كلَّها تسجدُ لعَبَّادانِ ، ورأيتُ عبَّادانَ ساجدةً لجُدَّةَ) [٦]

ويقالُ : (لا تغربُ الشمسُ مِنْ يومٍ إلا ويطوفُ بهـٰذا البيتِ رجلٌ مِنَ الأبدالِ ، ولا يطلعُ الفجرُ مِنْ ليلةٍ إلا طافَ بهِ واحدٌ مِنَ الأوتادِ ، وإذا انقطعَ ذٰلكَ . . كانَ سببَ رفعِهِ مِنَ الأرضِ ، فيصبحُ الناسُ وقدْ رفعتِ الكعبةُ لا يُرىٰ لها أثرٌ وهـٰذا إذا أتىٰ عليها سبعُ سنينَ . . لمْ يحجَّها أحدٌ ، ثمَّ يرفعُ القرآنُ مِنَ المصاحفِ ، فيصبحُ الناسُ فإذا الورقُ أبيضُ يلوحُ ليسَ فيهِ حرفٌ ، ثم ينسخُ القرآنُ مِنَ القلوبِ ، فلا يذكرُ منهُ كلمةٌ ، ثمَّ يرجعُ الناسُ إلى الأشعارِ والأغاني وأخبارِ الجاهليةِ ، ثمَّ يخرجُ الدجالُ ، وينزلُ عيسىٰ عليهِ السلامُ فيقتلُهُ ، والساعةُ عندَ ذٰلكَ بمنزلةِ الحاملِ المقربِ يتوقعُ ولادُها) [٧]

وفي الخبرِ : « استكثروا مِنَ الطوافِ بهـٰذا البيتِ قبلَ أنْ يرفعَ ، فقدْ هدمَ مرتينِ ويرفعُ في الثالثةِ » [٨]

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : إذا أردتُ أنْ أخربَ الدنيا . . بدأتُ ببيتي فخرَّبتُهُ ، ثمَّ أخربُ الدنيا علىٰ أثرِهِ » [٩]

* * *

---

(١) قوت القلوب (١٢٠/٢) .

(٢) رواه البخاري (١٧٨٢) ، ومسلم (١٢٥٦) .

(٣) رواه الترمذي (٣٦٩٢) وفيه : « ثم أنتظر أهل مكة حتىٰ أُحشرَ بين الحرمين » .

(٤) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١٦/١) عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق بلاغاً ، والبيهقي في « الشعب » (٣٧٠٣) عن وهب بن منبه بنحوه .

(٥) قوت القلوب (١٢١/٢) .

(٦) قوت القلوب (١٢١/٢) ، وعبَّادان ـ بالتشديد والتثنية ـ : اسم بلد هو اليوم في جنوب العراق في شط العرب ، وقال أبو طالب معللاً ذلك عقب الخبر : (لأنها ـ أي : جُدة ـ خزانة الحرم ، وفرضة أهل المسجد الحرام) .

(٧) قوت القلوب (١٢٢/٢) .

(٨) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٧٥٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٤١/١) ، والبزار في « مسنده » (٦١٥٧) .

(٩) قال صاحب « القوت » (١٢٢/٢) : (وروينا في حديث أبي رافع عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، وخراب البيت آخرَ الزمان علىٰ يد ذي السويقتين من الحبشة ثابت كما في « البخاري » (١٥٩١) ، و« مسلم » (٢٩٠٩) ، وهو نذير خراب الدنيا أجمع .

فضيلة المقام بمكة المكرمة حرسها الله تعالى وكراهته

كرهَ الخائفونَ المحتاطونَ مِنَ العلماءِ المُقامَ بمكةَ لمعانٍ ثلاثةٍ :

أحدُها : خوفُ التبرُّمِ والأُنْسِ بالبيتِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ربما يؤثِّرُ في تسكينِ حرقةِ القلبِ في الاحترامِ ، ولهٰذا كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يضربُ الحجَّاجَ إذا حجُّوا ويقولُ : (يا أهلَ اليمنِ يمنَكُمْ ، ويا أهلَ الشامِ شامَكُمْ ، ويا أهلَ العراقِ عراقَكُمْ)[1] ، ولذٰلكَ همَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بمنعِ الناسِ مِنْ كثرةِ الطوافِ وقالَ : (خشيتُ أنْ يأنسَ الناسُ بهٰذا البيتِ) .

الثاني : تهييجُ الشوقِ بالمفارقةِ لتنبعثَ داعيةُ العوْدِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ البيتَ مثابةً للناسِ وأمناً ؛ أي : يثوبونَ ويعودونَ إليهِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، ولا يقضونَ منهُ وطراً .

وقالَ بعضُهُمْ : (لأَنْ تكونَ في بلدٍ وقلبُكَ مشتاقٌ إلىٰ مكَّةَ متعلِّقٌ بهٰذا البيتِ . . خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تكونَ فيهِ وأنتَ متبرِّمٌ بالمُقامِ وقلبُكَ في بلدٍ آخرَ)[2]

وقالَ بعضُ السلفِ : (كمْ مِنْ رجلٍ بخراسانَ وهوَ أقربُ إلىٰ هٰذا البيتِ ممَّنْ يطوفُ بهِ)[3]

ويُقالُ : إنَّ للهِ تعالىٰ عباداً تطوفُ بهمُ الكعبةُ تقرُّباً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[4]

الثالثُ : الخوفُ مِنْ ركوبِ الخطايا والذنوبِ بها ؛ فإنَّ ذٰلكَ مخطرٌ ، وبالحريِّ أنْ يورثَ مقتَ اللهِ عزَّ وجلَّ لشرفِ الموضعِ[5]

ورُوِيَ عنْ وهيبِ بنِ الوردِ المكِّيِّ قالَ : كنتُ ذاتَ ليلةٍ في الحِجْرِ أُصلِّي ، فسمعتُ كلاماً بينَ الكعبةِ والأستارِ يقولُ : إلى اللهِ أشكو ثمَّ إليكَ يا جبريلُ ما ألقىٰ مِنَ الطائفينَ حولي ؛ مِنْ تفكُّههِمْ في الحديثِ ولغوِهِمْ ولهوِهِمْ ، لئنْ لمْ ينتهوا عنْ ذٰلكَ . . لأنتفضنَّ انتفاضةً يرجعُ كلُّ حجرٍ منِّي إلى الجبلِ الذي قطعَ منهُ[6]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : ما مِنْ بلدٍ يؤاخذُ العبدُ فيه بالهمَّةِ قبلَ العملِ إلا مكةَ ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي : إنَّهُ علىٰ مجرَّدِ الإرادةِ[7]

ويقالُ : (إنَّ السيئاتِ تضاعفُ بها كما تضاعفُ الحسناتُ)[8]

---

(١) قوت القلوب (١٢٢/٢) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٣٤٧٠) عنه قال : (لا تقيموا بعد النفْر إلا ثلاثاً) .

(٢) قوت القلوب (١٢٢/٢) .

(٣) قوت القلوب (١٢٢/٢) .

(٤) قوت القلوب (١٢٢/٢) ، وانظر « تفسير الآلوسي » (١٤/٢٣ ـ ١٥) .

(٥) وقد روى الأزرقي في « أخبار مكة » (١٢٥/٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول لقريش : (يا معشر قريش ؛ الحقوا بالأرياف ، فهو أعظم لأخطاركم ، وأقل لأوزاركم) .

(٦) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١٣/٢) .

(٧) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١٢٧/٢) .

(٨) وفي ذٰلك أخبار ، منها ما رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١٢٨/٢) عن ابن جريج قال : (بلغني أن الخطيئة بمكة بمئة خطيئة ، والحسنة علىٰ نحو ذٰلك) .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (الاحتكارُ بمكَّةَ مِنَ الإلحادِ في الحرمِ)[1]

وقيلَ : (الكذبُ أيضاً)[2]

وقالَ ابنُ عباسٍ : (لأَنْ أذنبَ سبعينَ ذنباً بِرُكْبة أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أذنبَ ذنباً واحداً بمكَّةَ)[3] ، ورُكْبَةُ : منزلٌ بينَ مكَّةَ والطائفِ[4]

ولخوفِ ذٰلكَ انتهىٰ بعضُ المقيمينَ إلىٰ أَنْ لمْ يقضِ حاجتَهُ في الحرمِ ، بلْ كانَ يخرجُ إلى الحلِّ عندَ قضاءِ الحاجةِ[5] ، وبعضُهُمْ أقامَ شهراً وما وضَعَ جنبَهُ على الأرضِ[6]

وللمنعِ مِنَ الإقامةِ كرِهَ بعضُ العلماءِ أجورَ دورِ مكَّةَ[7]

ولا تظنَّنَّ أَنَّ كراهةَ المُقامِ يناقضُ فضلَ البقعةِ ؛ لأنَّ هٰذهِ كراهةٌ علَّتُها ضعْفُ الخلْقِ وقصورُهُمْ عنِ القيامِ بحقِّ الموضعِ ، فمعنىٰ قولِنا : (إنَّ تركَ المُقامِ بها أفضلُ) أي : بالإضافةِ إلىٰ مُقامٍ معَ التقصيرِ والتبرُّمِ ، أمَّا أَنْ يكونَ أفضلَ مِنَ المُقامِ معَ الوفاءِ بحقِّهِ . . فهيهاتَ ، وكيفَ لا ولمّا عادَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ مكَّةَ . . استقبلَ الكعبةَ وقالَ : « إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأحبُّ بلادِ اللهِ تعالىٰ إليَّ ، ولولا أنِّي أُخرجتُ منْكِ . . ما خرجتُ » ؟![8] ، وكيفَ لا والنظرُ إلى البيتِ عبادةٌ ، والحسناتُ فيها مضاعفةٌ كما ذكرناهُ ؟!

* * *

---

(١) كذا في « القوت » (١١٩/٢) ، وروىٰ نحوه الأزرقي في « أخبار مكة » (١٢٦/٢) عن عمر وابنه رضي الله عنهما .

(٢) أي : من الإلحاد في مكة الكذب كذٰلك ، والقول في « القوت » (١١٩/٢) ، والسياق له .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٨٨٧١) ، والأزرقي في « أخبار مكة » (١٢٥/٢ ، ١٢٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكذا هو عن عمر في « القوت » (١١٩/٢) .

(٤) معجم البلدان (٦٣/٣) ، بضم الراء وسكون الكاف .

(٥) روي ذٰلك عن جمع ، منهم كما ذكر صاحب « القوت » (١١٩/٢) : عبد الله بن عمر ، وعمر بن عبد العزيز ، ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص كما في « أخبار مكة » (١٢٣/٢) للأزرقي ، ونقل البيهقي في « الشعب » (٣٧٢٩) عن محمد بن إبراهيم الزجاجي أنه بقي أربعين عاماً في الحرم لا يبول ولا يتغوط ، بل يخرج إلى الحل .

(٦) ومرجع هٰذا كله لحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه ابن ماجه (٣١١٠) : « لا تزال هٰذه الأمة بخير ما عظموا هٰذه الحرمة ـ أي : الكعبة ـ حق تعظيمها ، فإذا ضيعوا ذٰلك . . هلكوا » .

(٧) وقد روى الفاكهي في « أخبار مكة » (٢٤٧/٣) عن مجاهد حديثاً مرسلاً : « إن مكة حرام ، حرمها الله تعالىٰ ، لا يحل بيع رباعها ـ جمع رَبْع ؛ مكان القوم ـ ولا أجور بيوتها » .

(٨) رواه الترمذي (٣٩٢٥) ، وابن ماجه (٣١٠٨) .

فضيلة مدينة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على سائر البلاد

ما بعدَ مكَّةَ بقعةٌ أفضلَ مِنْ مدينةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فالأعمالُ فيها أيضاً مضاعفةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةٌ في مسجدي هٰذا خيرٌ مِنْ ألفِ صلاةٍ فيما سواهُ إلا المسجدَ الحرامَ »(١)

وكذٰلكَ كلُّ عملٍ بالمدينةِ بألفٍ ، وبعدَ المدينةِ الأرضُ المقدسةُ ؛ فإنَّ الصلاةَ فيها بخمسِ مئةِ صلاةٍ فيما سواها ، وكذٰلكَ سائرُ الأعمالِ ، وروى ابنُ عباسٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « صلاةٌ في مسجدِ المدينةِ بعشرةِ آلافِ صلاةٍ ، وصلاةٌ في المسجدِ الأقصىٰ بألفِ صلاةٍ ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ بمئةِ ألفِ صلاةٍ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يصبرُ علىٰ شدَّتِها ولأوائِها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامةِ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استطاعَ أنْ يموتَ بالمدينةِ . . فليمتْ ؛ فإنَّهُ لنْ يموتَ بها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامةِ »(٤)

وما بعدَ هٰذهِ البقاعِ الثلاثةِ فالمواضعُ فيها متساويةٌ إلا الثغورَ ؛ فإنَّ المُقامَ بها للمرابطةِ فيها فيهِ فضلٌ عظيمٌ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تشدُّ الرحالُ إلا إلىٰ ثلاثةِ مساجدَ ؛ المسجدِ الحرامِ ، ومسجدي هٰذا ، والمسجدِ الأقصىٰ »(٥)

وقدْ ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى الاستدلالِ بهٰذا الحديثِ في المنعِ مِنَ الرحلةِ لزيارةِ المشاهدِ وقبورِ العلماءِ والصلحاءِ ، وما تبيَّنَ لي أنَّ الأمرَ كذٰلكَ ، بلِ الزيارةُ مأمورٌ بها ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كنتُ نهيتُكُمْ عنْ زيارةِ القبورِ ، فزورُوها ولا تقولوا هُجْراً »(٦)

والحديثُ إنَّما وردَ في المساجدِ ، وليسَ في معناها المشاهدُ ؛ لأنَّ المساجدَ بعدَ المساجدِ الثلاثةِ متماثلةٌ ، ولا بلدَ إلا وفيهِ مسجدٌ ، فلا معنىٰ للرحلةِ إلىٰ مسجدٍ آخرَ ، وأمَّا المشاهدُ . . فلا تتساوىٰ ، بلْ بركةُ زيارتِها علىٰ قدْرِ درجاتِهِمْ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

نعم ؛ لوْ كانَ في موضعٍ لا مسجدَ فيهِ . . فلهُ أنْ يشدَّ الرحالَ إلىٰ موضعٍ فيهِ مسجدٌ ، وينتقلَ إليهِ بالكليَّةِ إنْ شاءَ .

ثمَّ ليتَ شعري ؛ هلْ يمنعُ هٰذا القائلُ مِنْ شدِّ الرحالِ إلىٰ قبورِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ مثلَ إبراهيمَ وموسىٰ ويحيىٰ وغيرِهِمْ عليهِمُ السلامُ ؟!

---

(١) رواه البخاري (١١٩٠) ، ومسلم (١٣٩٤) .

(٢) كذا في « القوت » (١٢٣/٢) وقال : (روينا عن عطاء عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره بلفظه هنا ، وكون الصلاة بألف في بيت المقدس هو عند ابن ماجه (١٤٠٧) ، ولفظه مرفوعاً وقد سئل عن بيت المقدس : « أرض المحشر والمنشر ، ائتوه فصلوا فيه ، فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره » .

(٣) رواه مسلم (١٣٦٣) .

(٤) رواه الترمذي (٣٩١٧) ، وابن ماجه (٣١١٢) .

(٥) رواه البخاري (١١٨٩) ، ومسلم (١٣٩٧) ، والاستثناء مفرغ ـ ولمسلم من طريق الزهري : « تشدُّ الرحال إلىٰ ثلاثة مساجد » دون نفي واستثناء ـ والمراد : لا يسافر لمسجد للصلاة فيه إلا لهٰذه الثلاثة ، لا أنه لا يسافر أصلاً إلا لها ، والنهي للتنزيه عند الجمهور . « إتحاف » (٢٨٥/٤) .

(٦) رواه مسلم (٩٧٧) ، وأورده المصنف هنا بزيادة : « ولا تقولوا هُجْراً » ، ورواها النسائي (٨٩/٤) ، **والهُجْر** : القول الفاحش الذي ينافي مقام التذكُّر والعبرة عند الزيارة .

فالمنعُ مِنْ ذٰلكَ في غايةِ الإحالةِ ، وإذا جوَّزَ هـٰذا . . فقبورُ الأولياءِ والعلماءِ والصلحاءِ في معناها ، فلا يبعدُ أنْ يكونَ ذٰلكَ مِنْ أغراضِ الرحلةِ ، كما أنَّ زيارةَ العلماءِ في الحياةِ مِنَ المقاصدِ . هـٰذا في الرحلةِ .

❋ ❋ ❋

أمَّا المُقامُ : فالأولىٰ بالمريدِ أنْ يلازمَ مكانَهُ إذا لمْ يكنْ قصدُهُ مِنَ السفرِ استفادةَ العلمِ مهما سَلِمَ لهُ حالُهُ في وطنِهِ ، فإنْ لمْ يسلمْ . . فليطلبْ مِنَ المواضعِ ما هوَ أقربُ إلى الخمولِ ، وأسلمُ للدينِ ، وأفرغُ للقلبِ ، وأيسرُ للعبادةِ ، فهوَ أفضلُ المواضعِ لهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البلادُ بلادُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والخلقُ عبادُهُ ، فأيُّ موضعٍ رأيتَ فيهِ رِفْقاً . . فأقمْ واحمدِ اللهَ تعالىٰ »[١]

وفي الخبرِ : « مَنْ رزقَ مِنْ شيءٍ . . فليلزمْهُ ، ومَنْ جعلتْ معيشتُهُ في شيءٍ . . فلا ينتقلْ عنهُ حتَّى يتغيَّرَ عليهِ »[٢] .

وقالَ أبو نعيمٍ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ وقدْ جعلَ جرابَهُ علىٰ كتفِهِ وأخذَ قُلَّتَهُ بيدِهِ ، فقلتُ : إلىٰ أينَ يا أبا عبدِ اللهِ ؟ قالَ : إلىٰ بلدٍ أملأُ فيهِ جرابي بدرْهمٍ .

وفي حكايةٍ أخرىٰ : بلغني أنَّ قريةً فيها رخصٌ أقيمُ بها ، قالَ : فقلتُ : وتفعلُ هـٰذا يا أبا عبدِ اللهِ ؟! فقالَ : نعمْ ، إذا سمعتَ في بلدٍ برخصٍ . . فاقصدْهُ ؛ فإنَّهُ أسلمُ لدينِكَ وأقلُّ لهمِّكَ[٣]

وكانَ يقولُ : (هـٰذا زمانُ سوءٍ ، لا يؤمنُ فيهِ على الخاملينَ ، فكيفَ بالمشهورينَ ؟! هـٰذا زمانُ تنقُّلٍ يتنقلُ الرجلُ مِنْ قريةٍ إلىٰ قريةٍ يفرُّ بدينِهِ مِنَ الفتنِ)[٤]

ويُحكىٰ عنهُ أنَّهُ قالَ : واللهِ ؛ ما أدري أيَّ البلادِ أسكنُ ؟! فقيلَ لهُ : خُراسانَ ، فقالَ : مذاهبُ مختلفةٌ وآراءٌ فاسدةٌ ، قيلَ : فالشامَ ، قالَ : يشارُ إليكَ بالأصابعِ ـ أرادَ الشهرةَ ـ قيلَ : فالعراقَ ، قالَ : بلدُ الجبابرةِ ، قيلَ : مكةَ ، قالَ : مكةُ تذيبُ الكِيسَ والبدنَ[٥]

وقالَ لهُ رجلٌ غريبٌ : عزمتُ على المجاورةِ بمكَّةَ فأوصني ، قالَ : أوصيكَ بثلاثٍ : لا تصلينْ في الصفِّ الأوَّلِ ، ولا تصحبنْ قرشيّاً ، ولا تُظْهِرَنْ صدقةً[٦]

وإنما كرهَ الصفَّ الأوَّلَ ؛ لأنَّهُ يُشتهرُ ، فيفتقدُ إذا غابَ ، فيختلطُ بعملِهِ التزيُّنُ والتصنُّعُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (١٦٦/١) بنحوه

(٢) أوله عند ابن ماجه (٢١٤٧) بلفظ : « من أصاب من شيء . . فليلزمه » ، وتمامه عنده كذٰلك (٢١٤٨) عن نافع بن عطاء قال : كنت أجهز إلى الشام وإلىٰ مصر ، فجهزت إلى العراق ، فأتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : يا أم المؤمنين ؛ كنت أجهز إلى الشام ، فجهزت إلى العراق ، فقالت : لا تفعل ، ما لك ولمتجرك ؟! فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سبَّبَ الله لأحدكم رزقاً من وجه . . فلا يدعه حتىٰ يتغيَّرَ له أو يتنكَّرَ له » .

(٣) أبو نعيم هو الفضل بن دكين ، والخبر في « القوت » (١٢٣/٢) ، والمراد ببلد يُملأ فيها الجراب بدرهم : انتشار الرخص فيها حتىٰ لا يحتاج إلىٰ إشغال قلبه بكثرة التسبب وطلب القوت ، ولم يترجم المصنف لسفيان رحمه الله تعالىٰ عندما ترجم للمجتهدين الأربعة ، وكان قد وعد بذكر شيء من أخباره هناك ، وهنا سيذكر طرفاً من ذٰلك .

(٤) قوت القلوب (١٢٣/٢) .

(٥) قوت القلوب (١٢٢/٢) ، ومعنىٰ (**تذيب الكيس والبدن**) : لما فيها من الغلاء في أكثر الأوقات ؛ لأنها بواد غير ذي زرع ، وذوبان البدن يكون بالمجاهدة في الطاعة والقيام بواجبها . انظر « الإتحاف » (٢٨٧/٤) .

(٦) قوت القلوب (١٢٢/٢) ، ونسب الحافظ الزبيدي هـٰذه الروايات لصاحب « الحلية » كذٰلك . انظر « الإتحاف » (٢٨٧/٤ ـ ٢٨٨) .

الفَصْلُ الثَّاني
في شروط وجوب الحجّ وصحّته وأركانه وواجباته ومحظوراته

في شروط الحجّ

أَمَّا الشرائطُ : فشرطُ صحَّةِ الحجِّ اثنانِ : **الوقتُ** ، **والإسلامُ** .

فيصحُّ حجُّ الصبيِّ ، ويُحرِمُ بنفسِهِ إنْ كانَ مميِّزاً ويُحرِمُ عنهُ وليُّهُ إنْ كانَ صغيراً ، ويفعلُ بهِ ما يفعلُ في الحجِّ ؛ مِنَ الطوافِ والسعيِ وغيرِهِ .

وأَمَّا الوقتُ : فهوَ شوالٌ وذو القعدةِ وتسعٌ مِنْ ذي الحجَّةِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ مِنْ يومِ النحرِ ، فمَنْ أحرمَ بالحجِّ في غيرِ هـٰذهِ المدَّةِ . . فهيَ عمرةٌ .

وجميعُ السنةِ وقتُ العمرةِ ، ولـٰكنْ مَنْ كانَ معكوفاً على النسكِ أيامَ منىً . . فلا ينبغي أنْ يحرمَ بالعمرةِ ؛ لأنَّهُ لا يتمكَّنُ مِنَ الاشتغالِ عَقيبَه لاشتغالِهِ بأعمالِ منىً .

وأَمَّا شروطُ وقوعِهِ عنْ حجةِ الإسلامِ . . فخمسةٌ :

الإسلامُ ، والحريةُ ، والبلوغُ ، والعقلُ ، والوقتُ .

فإنْ أحرمَ الصبيُّ أَوِ العبدُ ولـٰكنْ عَتَقَ العبدُ وبلغَ الصبيُّ بعرفةَ أَوْ بمزدلفةَ وعادَ إلىٰ عرفةَ قبلَ طلوعِ الفجرِ . . أجزأَهُما عنْ حجَّةِ الإسلامِ ؛ لأنَّ الحجَّ عرفةُ ، وليسَ عليهما دمُ الإساءةِ .

وتُشترَطُ هـٰذهِ الشرائطُ في وقوعِ العمرةِ عنْ فرضِ الإسلامِ إلا الوقتَ .

وأَمَّا شرطُ وقوعِ الحجِّ نفلاً عنِ الحرِّ البالغِ :

فهوَ براءةُ ذمتِهِ عنْ حجَّةِ الإسلامِ ، فحجُّ الإسلامِ متقدمٌ ، ثـمَّ القضاءُ لمَنْ أفسدَهُ في حالةِ الرقِّ ، ثـمَّ النذرُ ، ثـمَّ النيابةُ ، ثـمَّ النفلُ ، وهـٰذا الترتيبُ مستحقٌّ ، وكذٰلكَ يقعُ وإنْ نوىٰ خلافَهُ .

وأَمَّا شرائطُ لزومِ الحجِّ . . فخمسةٌ :

الإسلامُ ، والبلوغُ ، والعقلُ ، والحريةُ ، والاستطاعةُ .

ومَنْ لزمَهُ فرضُ الحجِّ . . لزمَهُ فرضُ العمرةِ ، ومَنْ أرادَ دخولَ مكَّةَ لزيارةٍ أَوْ تجارةٍ ولـمْ يكنْ حطَّاباً . . لزمَهُ الإحرامُ علىٰ قولٍ ، ثـمَّ يتحلَّلُ بعملِ عمرةٍ أَوْ حجٍّ .

وأَمَّا الاستطاعةُ . . فنوعانِ :

أحدُهُما : المباشرةُ : وذٰلكَ لهُ أسبابٌ :

أَمَّا في نفسِهِ . . فبالصحةِ .

وأَمَّا في الطريقِ . . فبأنْ تكونَ خصبةً آمنةً ، بلا بحرٍ مخطرٍ ، ولا عدوٍّ قاهرٍ .

وأمَّا في المالِ . . فبأنْ يجدَ نفقةَ ذهابِهِ وإيابِهِ إلىٰ وطنِهِ ، كانَ لهُ أهلٌ أَوْ لمْ يكنْ ؛ لأنَّ مفارقةَ الوطنِ شديدةٌ ، وأنْ يملكَ نفقةَ مَنْ تلزمُهُ نفقتُهُ في هٰذهِ المدَّةِ ، وأنْ يملكَ ما يقضي بهِ ديونَهُ ، وأنْ يقدرَ علىٰ راحلةٍ ، أَوْ كرائِها بمَحْمِلٍ ، أَوْ زاملةٍ إنِ استمسكَ على الزاملةِ[1]

وأمَّا النوعُ الثاني : فاستطاعةُ المعضوبِ بمالِهِ[2] ، وهوَ أنْ يستأجرَ مَنْ يحجُّ عنهُ بعدَ فراغِ الأجيرِ عنْ حجَّةِ الإسلامِ لنفسِهِ ، ويكفي نفقةُ الذهابِ بزاملةٍ في هٰذا النوعِ .

والابنُ إذا عرضَ طاعتَهُ على الأبِ الزَّمِنِ . . صارَ بهِ مستطيعاً ، ولوْ عرضَ مالَهُ . . لمْ يصرْ بهِ مستطيعاً ؛ لأنَّ الخدمةَ بالبدنِ فيها شرفٌ للولدِ ، وبذلُ المالِ فيهِ منَّةٌ على الوالدِ .

ومَنِ استطاعَ . . لزمَهُ الحجُّ ، ولهُ التأخيرُ ، ولٰكنَّهُ فيهِ علىٰ خطرٍ ، فإنْ تيسَّرَ لهُ ولوْ في آخرِ عمرِهِ . . سقطَ عنهُ ، وإنْ ماتَ قبلَ الحجِّ . . لقيَ اللهَ عاصياً بتركِ الحجِّ ، وكانَ الحجُّ في تركتِهِ يُحجُّ عنهُ وإنْ لمْ يوصِ كسائرِ ديونِهِ ، وإنِ استطاعَ في سنةٍ فلمْ يخرجْ معَ الناسِ وهلكَ مالُهُ في تلكَ السنةِ قبلَ حجِّ الناسِ ، ثمَّ ماتَ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ ولا حجَّ عليهِ .

ومَنْ ماتَ ولمْ يحجَّ معَ اليسارِ . . فأمرُهُ شديدٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لقدْ هممتُ أنْ أكتُبَ في الأمصارِ بضربِ الجزيةِ علىٰ مَنْ لمْ يحجَّ ممَّنْ يستطيعُ إليه سبيلاً)[3]

وعنْ سعيدِ بنِ جبيرٍ وإبراهيمَ النخعيِّ ومجاهدٍ وطاووسٍ : (لوْ علمتُ رجلاً غنيّاً وجبَ عليهِ الحجُّ ثمَّ ماتَ قبلَ أنْ يحجَّ . . ما صليتُ عليهِ)[4]

وبعضُهُمْ كانَ لهُ جارٌ موسرٌ ، فماتَ ولمْ يحجَّ ؛ فلمْ يصلِّ عليهِ[5]

وكانَ ابنُ عباسٍ يقولُ : (مَنْ ماتَ ولمْ يزكِّ ولمْ يحجَّ . . سألَ الرجعةَ إلى الدنيا) وقرأَ قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۞ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ قالَ : أحجُّ[6]

❀ ❀ ❀

وأمَّا الأركانُ التي لا يصحُّ الحجُّ دونَها . . فخمسةٌ :

الإحرامُ ، والطوافُ ، والسعيُ بعدَهُ ، والوقوفُ بعرفةَ ، والحلْقُ بعدَهُ علىٰ قولٍ ، وأركانُ العمرةِ كذٰلكَ إلا الوقوفَ .

❀ ❀ ❀

والواجباتُ المجبورةُ بالدمِ ستةٌ : الإحرامُ مِنَ الميقاتِ ، فمَنْ تركَهُ وجاوزَ الميقاتَ محلاًّ . . فعليهِ شاةٌ ، وأمَّا الرميُ . .

---

(١) أي : إن لم يقدر على شراء الراحلة . . فقدرته علىٰ أجرتها كافية للوجوب ، **والزاملة** : البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع ولا مَحْمِل له ، **والمحمل** ـ كمنبر ومجلس ـ : الهودج المركَّب على البعير .

(٢) **المعضوب** : الضعيف ، **والمراد** : العاجز عن أداء الحج لعلَّة وزمانة فيه .

(٣) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٢/٩٢٤) .

(٤) رواها ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٤٦٦٦ ، ١٤٦٦٨) ، وحكاها في « القوت » (٢/١١٤)

(٥) قوت القلوب (٢/١١٤) .

(٦) رواه الترمذي (٣٣١٦) .

ففيهِ الدمُ قولاً واحداً ، وأمَّا الصبْرُ بعرفةَ إلىٰ غروبِ الشمسِ ، والمبيتُ بمزدلفةَ ، والمبيتُ بمنىً ، وطوافُ الوداعِ . . فهٰذهِ الأربعةُ يجبرُ تركُها بالدمِ علىٰ أحدِ القولينِ ، وفي القولِ الثاني : فيها دمٌ علىٰ وجهِ الاستحبابِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا وجوهُ أداءِ الحجّ والعمرةِ . . فثلاثةٌ :

الأوَّلُ : الإفرادُ : وهوَ الأفضلُ ، وذٰلكَ أنْ يقدِّمَ الحجَّ وحدَهُ ، فإذا فرغَ . . خرجَ إلى الحلِّ ، فأحرمَ واعتمرَ ، وأفضلُ الحلِّ لإحرامِ العمرةِ الجِعْرَانَةُ ، ثمَّ التنعيمُ ، ثمَّ الحُدَيْبيَةُ ، وليسَ على المفردِ دمٌ إلا أنْ يتطوَّعَ .

الثاني : القِرانُ : وهوَ أنْ يجمعَ فيقولَ : (لبيكَ بحجَّةٍ وعمرةٍ معاً) ، فيصيرُ مُحْرِماً بهما ، ويكفيهِ أعمالُ الحجِّ ، وتندرجُ العمرةُ تحتَ الحجِّ كما يندرجُ الوضوءُ تحتَ الغسلِ ، إلا أنَّهُ إذا طافَ وسعىٰ قبلَ الوقوفِ . . فسعيُهُ محسوبٌ مِنَ النسكينِ ، وأمَّا طوافُهُ . . فغيرُ محسوبٍ ؛ لأنَّ شرطَ طوافِ الفرضِ في الحجِّ أنْ يقعَ بعدَ الوقوفِ ، وعلى القارنِ دمُ شاةٍ ، إلا أنْ يكونَ مكيّاً فلا شيءَ عليهِ ؛ لأنَّهُ لمْ يتركْ ميقاتَهُ ؛ إذْ ميقاتُهُ مكَّةُ .

الثالثُ : التمتُّعُ : وهوَ أنْ يجاوزَ الميقاتَ محرماً بعمرةٍ ويتحلَّلَ بمكَّةَ ، ويتمتَّعَ بالمحظوراتِ إلىٰ وقتِ الحجِّ ، ثمَّ يحرمَ بالحجِّ ، ولا يكونُ متمتِّعاً إلا بخمسِ شرائطَ :

أحدُها : ألا يكونَ مِنْ حاضري المسجدِ الحرامِ ، **وحاضرُهُ** : مَنْ كانَ منهُ علىٰ مسافةٍ لا تُقصَرُ فيها الصلاةُ .

الثاني : أنْ يقدِّمَ العمرةَ على الحجِّ .

الثالثُ : أنْ تكونَ عمرتُهُ في أشهرِ الحجِّ .

الرابعُ : ألا يرجعَ إلىٰ ميقاتِ الحجِّ ، ولا إلىٰ مثلِ مسافتِهِ لإحرامِ الحجِّ .

الخامسُ : أنْ يكونَ حجُّهُ وعمرتُهُ عنْ شخصٍ واحدٍ .

فإذا وجدتْ هٰذهِ الأوصافُ . . كانَ متمتِّعاً ، ولزمَهُ دمُ شاةٍ ، فإنْ لمْ يجدْ . . فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجِّ قبلَ يومِ النحرِ متفرِّقَةٍ أَوْ متتابعةٍ ، وسبعةٍ إذا رجعَ إلى الوطنِ ، وإنْ لمْ يصمِ الثلاثةَ حتَّىٰ رجعَ إلى الوطنِ . . صامَ العشرةَ متتابعةً أَوْ متفرقةً ، وبدلُ دمِ القِرانِ والتمتُّعِ سواءٌ .

والأفضلُ : الإفرادُ ، ثمَّ التمتُّعُ ، ثم القِرانُ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا محظوراتُ الحجّ والعمرةِ . . فستةٌ :

الأوَّلُ : اللبسُ للقميصِ والسراويلِ والخفِّ والعِمامةِ : بلْ ينبغي أنْ يلبَسَ إزاراً ورداءً ونعلينِ ، فإنْ لمْ يجدْ نعلينِ . . فمِكْعبينِ (١) ، فإنْ لمْ يجدْ إزاراً . . فسراويلَ ، ولا بأسَ بالمِنْطَقةِ (٢) ، والاستظلالِ بالمَحْمِلِ ، ولٰكنْ لا ينبغي أنْ يغطيَ رأسَهُ ؛ فإنَّ إحرامَهُ في الرأسِ .

---

(١) المكعب : هو بوزان مِقْوَد أو مُعَظَّم ، غير عربي ، مداسٌ يستر ظاهر القدمين ولا يبلغ الكعبين .

(٢) المِنْطَقة : ما يشدُّه في وسطه ؛ كالحزام ونحوه .

وللمرأةِ أنْ تلبسَ كلَّ مخيطٍ بعدَ ألا تسترَ وجهَها بما يماسُّهُ ؛ فإنَّ إحرامَها في وجهِها .

الثاني : **الطِّيبُ** : فليجتنبْ كلَّ ما يعدُّهُ العقلاءُ طِيباً ، فإنْ تطيَّبَ أَوْ لبسَ . . فعليهِ دمُ شاةٍ .

الثالثُ : **الحلْقُ والقلْمُ** : وفيهما الفديةُ ؛ أعني : دمَ شاةٍ ، ولا بأسَ بالكحْلِ ، ودخولِ الحمَّامِ ، والفصدِ ، والحجامةِ ، وترجيلِ الشعرِ .

الرابعُ : **الجماعُ** : وهوَ مفسدٌ قبلَ التحلُّلِ الأوَّلِ ، وفيهِ بدنةٌ أَوْ بقرةٌ أَوْ سَبْعُ شياهٍ ، وإنْ كانَ بعدَ التحلُّلِ الأولِ . . لزمَهُ البدنةُ ولمْ يفسدْ حجُّهُ .

الخامسُ : **مقدماتُ الجماعِ** : كالقبلةِ والملامسةِ التي تنقضُ الطهْرَ معَ النساءِ ، فهوَ محرَّمٌ ، وفيهِ شاةٌ ، وكذا في الاستمناءِ ، ويحرمُ النكاحُ والإنكاحُ ولا دمَ فيهِ ؛ لأنَّهُ لا ينعقدُ .

السادسُ : **قتلُ صيدِ البرِّ** : أعني : ما يؤكلُ أَوْ ما هوَ متولِّدٌ مِنَ الحلالِ والحرامِ ، فإنْ قتلَ صيداً . . فعليهِ مثلُهُ مِنَ النَّعَمِ ، يُراعىٰ فيهِ التقاربُ في الخلْقَةِ ، وصيدُ البحرِ حلالٌ ولا جزاءَ فيهِ .

* * *

البابُ الثَّاني
في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع
وهي عشر جمل

الجملة الأولى : في السنن من أول الخروج إلى الإحرام
وهي ثمان

الأولىٰ : في المالِ : فينبغي أن يبدأَ بالتوبةِ ، وردِّ المظالمِ ، وقضاءِ الديونِ ، وإعدادِ النفقةِ لكلِّ مَنْ تلزمُهُ نفقتُهُ إلىٰ وقتِ الرجوعِ ، ويردُّ ما عندَهُ مِنَ الودائعِ ، ويستصحبُ مِنَ المالِ الطيِّبِ الحلالِ ما يكفيهِ لذهابِهِ وإيابِهِ مِنْ غيرِ تقتيرٍ ، بلْ علىٰ وجهٍ يمكنُهُ معهُ التوسُّعُ في الزادِ ، والرفقُ بالضعفاءِ والفقراءِ ، ويتصدَّقُ بشيءٍ قبلَ خروجِهِ ، ويشتري لنفسِهِ دابةً قويَّةً على الحملِ ، لا تضعفُ ، أوْ يكتريها ؛ فإنِ اكترىٰ . . فليظهرْ للمكاري كلَّ ما يريدُ أنْ يحملَهُ مِنْ قليلٍ وكثيرٍ ، ويُحَصِّلْ رضاهُ فيهِ[1]

❁ ❁ ❁

الثانيةُ : في الرفيقِ : ينبغي أنْ يلتمسَ رفيقاً صالحاً ، محبّاً للخيرِ معيناً عليه ، إنْ نسيَ . . ذكَّرَهُ ، وإنْ ذكرَ . . أعانَهُ ، وإنْ جبنَ . . شجَّعَهُ ، وإنْ عجزَ . . قوَّاهُ ، وإنْ ضاقَ صدرُهُ . . صبَّرَهُ .

وأمَّا رفقاؤُهُ المقيمونَ وإخوانُهُ وجيرانُهُ . . فيودِّعُهُمْ ويلتمسُ أدعيتَهُمْ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ جاعلٌ في أدعيتِهِمُ البركةَ ، والسنَّةُ في الوداعِ أنْ يقولَ : (أستودعُ اللهَ دينَكَ ، وأمانتَكَ ، وخواتيمَ عملِكَ)[2] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ لمَنْ أرادَ السفرَ : « في حفْظِ اللهِ وفي كنفِهِ ، زوَّدَكَ اللهُ التقوىٰ ، وغفرَ ذنبَكَ ، ووجَّهَكَ للخيرِ أينَما توجَّهْتَ »[3]

❁ ❁ ❁

الثالثةُ : في الخروجِ مِنَ الدارِ : ينبغي إذا همَّ بالخروجِ أنْ يصلِّيَ أوَّلاً ركعتينِ ؛ يقرأُ في الأولىٰ بعدَ (الفاتحةِ) : (قل يا أيها الكافرون) ، وفي الثانيةِ (الإخلاصَ) ، فإذا فرغَ . . رفعَ يديهِ ودعا اللهَ سبحانَهُ عنْ إخلاصٍ صافٍ ونيَّةٍ صادقةٍ وقالَ : (اللهمَّ ؛ أنتَ الصاحبُ في السفرِ ، وأنتَ الخليفةُ في الأهلِ والمالِ والولدِ والأصحابِ ، احفظنا وإيَّاهُمْ مِنْ كلِّ آفةٍ وعاهةٍ ، اللهمَّ ؛ إنَّا نسأَلُكَ في مسيرِنا هـٰذا البرَّ والتقوىٰ ، ومِنَ العملِ ما ترضى ، اللهمَّ ؛ إنَّا نسأَلُكَ أنْ تطويَ لنا الأرضَ ، وتهوِّنَ علينا السفرَ ، وأنْ ترزقَنا في سفرِنا هـٰذا سلامةَ البدنِ والدينِ والمالِ ، وتبلغنَا حجَّ بيتِكَ وزيارةَ قبرِ نبيِّكَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، اللهمَّ ؛ إنَّا نعوذُ بِكَ مِنْ وعثاءِ السفرِ ، وكآبةِ المنقلبِ ، وسوءِ المنظرِ في الأهلِ

---

(١) ولو بإعطاء شيء زائد على الأجرة تطييباً لخاطره ورفعاً للشبهة . « إتحاف » (٣٢٤/٤) .

(٢) كما روىٰ ذٰلك أبو داوود (٢٦٠٠) ، والترمذي (٣٤٤٣) ، وابن ماجه (٢٨٢٦) ، ومعناه : أسأل الله تعالىٰ أن يحفظ عليك دينك ، وأهلك ومالك ، وعملك الصالح الذي جعلته آخر أيام إقامتك ؛ إذ يسنُّ للمسافر أن يختم إقامته بالأدعية المأثورة التي سيذكرها المصنف ، وبقراءة آية الكرسي ، وصلاة ركعتين ، وهـٰذا الدعاء يدعو به كل من المتوادعين ، لا المودِّعُ فقط ، ويزيد المقيم ما سيأتي . انظر « الإتحاف » (٣٢٥/٤) .

(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٢٧١٣) ، وهو عند الترمذي (٣٤٤٤) بغير : « في حفظ الله وفي كنفه » .

والمالِ والولدِ والأصحابِ ، اللهمَّ ؛ اجعلْنا وإيَّاهُمْ في جوارِكَ ، ولا تسلبْنا وإيَّاهُمْ نعمتَكَ ، ولا تغيِّرْ ما بنا وبهِمْ مِنْ عافيتِكَ)[١]

❀ ❀ ❀

الرابعةُ : إذا حصلَ علىٰ بابِ الدارِ[٢] . . قالَ : (باسمِ اللهِ ، توكَّلْتُ على اللهِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، ربِّ أعوذُ بكَ أنْ أضلَّ أوْ أُضَلَّ ، أوْ أزلَّ أوْ أُزَلَّ ، أوْ أذِلَّ أوْ أُذَلَّ ، أوْ أَظلمَ أوْ أُظلَمَ ، أوْ أجهلَ أوْ يُجْهَلَ عليَّ ، اللهمَّ ؛ إنِّي لمْ أخرجْ أشراً ولا بطراً ، ولا رياءً ولا سمعةً ، بلْ خرجتُ اتقاءَ سخطِكَ ، وابتغاءَ مرضاتِكَ ، وقضاءَ فرضِكَ ، واتباعَ سنَّةِ نبيِّكَ ، وشوقاً إلىٰ لقائِكَ) .

فإذا مشىٰ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ بكَ انتشرتُ وعليكَ توكَّلْتُ ، وبكَ اعتصمتُ ، وإليكَ توجَّهْتُ ، اللهمَّ ؛ أنتَ ثقتي ، وأنتَ رجائي ، فاكفني ما أهمَّنِي ، وما لا أهتمُّ بهِ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، عزَّ جارُكَ ، وجلَّ ثناؤُكَ ، ولا إلـٰهَ غيرُكَ ، اللهمَّ ؛ زودني التقوىٰ ، واغفرْ لي ذنبي ، ووجهني للخيرِ أينما توجهتُ)[٣]

ويدعو بهـٰذا الدعاءِ في كلِّ منزلٍ يرحلُ عنهُ .

❀ ❀ ❀

الخامسةُ : في الركوبِ : فإذا ركبَ الراحلةَ . . يقولُ : (باسمِ اللهِ وباللهِ واللهُ أكبرُ ، توكلتُ على اللهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لمْ يشأْ لمْ يكنْ ، سبحانَ الذي سخَّرَ لنا هـٰذا وما كنَّا لهُ مقرنينَ ، وإنَّا إلىٰ ربِّنا لمنقلبونَ ، اللهمَّ ؛ إنِّي وجَّهْتُ وجهي إليكَ ، وفوضتُ أمري كلَّهُ إليكَ ، وتوكَّلْتُ في جميعِ أموري عليكَ ، أنتَ حسبي ونعمَ الوكيلُ) .

فإذا استوىٰ على الراحلةِ واستوتْ تحتَهُ . . قالَ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) سبعَ مراتٍ ، وقالَ : (الحمدُ للهِ الذي هدانا لهـٰذا وما كنَّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا اللهُ ، اللهمَّ ؛ أنتَ الحاملُ على الظهْرِ ، وأنتَ المستعانُ على الأمورِ) .

السادسةُ : في النزولِ : والسنةُ ألا ينزلَ حتَّىٰ يحمى النهارُ ، ويكونُ أكثرُ سيرِهِ بالليلِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالدُّلْجَةِ ؛ فإنَّ الأرضَ تُطوىٰ بالليلِ ما لا تُطوىٰ بالنهارِ »[٤]

وليقللْ نومَهُ بالليلِ حتَّىٰ يكونَ عوناً على السيرِ ، ومهما أشرفَ علىٰ منزلٍ . . فليقلْ : (اللهمَّ ، ربَّ السماواتِ السبعِ وما أظللنَ ، وربَّ الأرضينَ السبعِ وما أقللنَ ، وربَّ الشياطينِ وما أضللنَ ، وربَّ الرياحِ وما ذَرينَ ، وربَّ البحارِ وما جرينَ ؛ أسأَلُكَ خيرَ هـٰذا المنزلِ وخيرَ أهلِهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ هـٰذا المنزلِ وشرِّ أهلِهِ وشرِّ ما فيهِ ، اصرفْ عنِّي شرَّ شرارِهِمْ) .

فإذا نزلَ المنزلَ . . صلَّىٰ فيهِ ركعتينِ ثمَّ قالَ : (أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ التي لا يجاوزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شرِّ ما خلقَ) .

---

(١) بعض هـٰذا الدعاء مأثور من دعاء للنبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً واستوىٰ علىٰ مركوبه ، كما في « مسلم » (١٣٤٢) .
(٢) أي : وصل إليه وأمسكه .
(٣) هـٰذا الدعاء والذي قبله من المأثور المتوازع في دواوين السنة ، **والأَشَرُ والبَطَرُ** : كفر النعمة .
(٤) رواه أبو داوود (٢٥٧١) دون : « ما لا تطوىٰ بالنهار » ، وهي عند مالك في « الموطأ » (٩٧٩/٢) مرسلةً .

فإذا جَنَّ عليهِ الليلُ . . يقولُ : (يا أرضُ ؛ ربِّي وربُّكِ اللهُ ، أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ وشرِّ ما فيكِ ، وشرِّ ما دبَّ عليكِ ، أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ كلِّ أسدٍ وأسودَ ، وحيَّةٍ وعقربٍ ، ومِنْ شرِّ ساكنِ البلدِ ، ووالدٍ وما ولدَ ، ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾) .

❋ ❋ ❋

السابعةُ : في الحراسةِ : فينبغي أنْ يحتاطَ بالنهارِ ، فلا يمشي منفرداً خارجَ القافلةِ ؛ لأنَّهُ ربما يُغتالُ أوْ ينقطعُ ، ويكونُ بالليلِ متحفِّظاً عندَ النومِ ، فإنْ نامَ في ابتداءِ الليلِ . . افترشَ ذراعَهُ ، وإنْ نامَ في آخرِ الليلِ . . نصبَ ذراعَهُ نصباً وجعلَ رأسَهُ في كفِّهِ ، هٰكذا كانَ ينامُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أسفارِهِ(1) ؛ لأنَّهُ ربَّما استثقلَ النومُ ، فتطلعُ الشمسُ وهوَ لا يدري ، فيكونُ ما يفوتُهُ مِنَ الصلاةِ أفضلَ ممَّا ينالُهُ مِنَ الحجِّ .

والأحبُّ في الليلِ أنْ يتناوبَ الرفيقانِ في الحراسةِ ، فإذا نامَ أحدُهُما . . حرسَ الآخرُ ، فهوَ السنَّةُ ، فإنْ قصدَهُ عدوٌّ أوْ سبُعٌ في ليلٍ أوْ نهارٍ . . فليقرأْ آيةَ الكرسيِّ ، و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، و(الإخلاصَ) و(المعوذتينِ) ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ ما شاءَ اللهُ ، لا قوةَ إلا باللهِ ، حسبيَ اللهُ ، توكَّلتُ على اللهِ ، ما شاءَ اللهُ لا يأتي بالخيرِ إلا اللهُ ، ما شاءَ اللهُ لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ ، حسبيَ اللهُ وكفىٰ ، سمعَ اللهُ لمنْ دعا ، ليسَ وراءَ اللهِ منتهىً ، ولا دونَ اللهِ ملجا ، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، تحصنتُ باللهِ العظيمِ ، واستغثتُ بالحيِّ الذي لا يموتُ ، اللهمَّ ؛ احرسنا بعينِكَ التي لا تنامُ ، واكنفْنا بركْنِكَ الذي لا يُرامُ ، اللهمَّ ؛ ارحمْنا بقدرتِكَ علينا ، فلا نهلِكُ وأنت ثقتُنا ورجاؤُنا ، اللهمَّ ؛ أعطفْ علينا قلوبَ عبادِكَ وإمائِكَ برأفةٍ ورحمةٍ إنَّكَ أنتَ أرحمُ الراحمينَ) .

❋ ❋ ❋

الثامنةُ : مهما علا نَشَزاً مِنَ الأرضِ في الطريقِ . . فيستحبُّ أنْ يكبِّرَ ثلاثاً ، ثمَّ يقولُ : اللهمَّ ؛ لكَ الشرفُ علىٰ كلِّ شرفٍ ، ولكَ الحمدُ علىٰ كلِّ حالٍ .

ومهما هبطَ . . سبَّحَ ، ومهما خافَ الوحشةَ في سفرهِ . . قالَ : سبحانَ الملكِ القدوسِ ، ربِّ الملائكةِ والروحِ ، جلَّلتَ السماواتِ بالعزَّةِ والجبروتِ(2)

❋ ❋ ❋

---

(1) كما في « مسلم » (٦٨٣) عن أبي قتادة قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر ، فعرَّس بليل . . اضطجع علىٰ يمينه ، وإذا عرَّس قبيل الصبح . . نصب ذراعه ، ووضع رأسه علىٰ كفه) .

(2) حديث ذهاب الوحشة بهٰذا الدعاء رواه الطبراني في « الكبير » (٢٤/٢) .

الجملة الثانية : في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة

الأوَّلُ : أنْ يغتسلَ وينويَ بهِ غسْلَ الإحرامِ ؛ أعني : إذا انتهىٰ إلى الميقاتِ المشهورِ الذي يُحْرِمُ الناسُ منهُ ، ويتمِّمُ غسلَهُ بالتنظيفِ ، فيسرِّحُ رأسَهُ ولحيتَهُ[1] ، ويقلِّمُ أظفارَهُ ، ويقصُّ شاربَهُ ، ويستكملُ النظافةَ التي ذكرناها في الطهارةِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : أنْ يفارقَ الثيابَ المخيطةَ ، ويلبسَ ثوبَ الإحرامِ ، فيرتدي ويتَّزِرُ بثوبينِ أبيضينِ والأبيضُ هوَ أحبُّ الثيابِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويتطيَّبُ في بدنِهِ وثيابِهِ ، ولا بأسَ بطيبٍ يبقىٰ جرمُهُ بعدَ الإحرامِ ، فقد رُئِيَ وبيصُ المسْكِ علىٰ مَفْرِقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ الإحرامِ ممَّا كانَ استعملَهُ قبلَ الإحرامِ[2]

❁ ❁ ❁

الثالثُ : أنْ يصبرَ بعدَ لبسِ الثيابِ حتَّىٰ تنبعثَ بهِ راحلتُهُ إنْ كانَ راكباً ، أوْ يبتدئَ بالسيرِ إنْ كانَ راجلاً ، فعندَ ذٰلكَ ينوي الإحرامَ بالحجِّ أوْ بالعمرةِ قِراناً أوْ إفراداً كما أرادَ[3] ، ويكفي مجرَّدُ النيَّةِ لانعقادِ الإحرامِ ، ولٰكنَّ السنَّةَ أنْ يقرنَ بالنيَّةِ لفظَ التلبيةِ فيقولَ : (لبيكَ اللهمَّ لبيكَ ، لبيكَ لا شريكَ لكَ لبيكَ ، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلْكُ لا شريكَ لكَ)[4] ، وإنْ زادَ . . قالَ : (لبيكَ وسعديكَ ، والخيرُ كلُّهُ بيديكَ ، والرغباءُ إليكَ ، لبيكَ بحجَّةٍ حقّاً ، تعبُّداً ورقّاً ، اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ)[5]

❁ ❁ ❁

الرابعُ : إذا انعقدَ إحرامُهُ بالتلبيةِ المذكورةِ . . فيستحبُّ أنْ يقولَ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أريدُ الحجَّ ، فيسِّرْهُ لي وأعنِّي علىٰ أداءِ فرضِهِ وتقبَّلْهُ منِّي ، اللهمَّ ؛ إنِّي نويتُ أداءَ فريضتِكَ في الحجِّ ، فاجعلني مِنَ الذينَ استجابوا لكَ وآمنوا بوعدِكَ واتبعوا أمرَكَ ، واجعلني مِنْ وفدِكَ الذينَ رضيتَ عنهُمْ وارتضيتَ وقبلْتَ منهُمْ ، اللهمَّ ؛ فيسِّرْ لي أداءَ ما نويتُ مِنَ الحجِّ ، اللهمَّ ؛ قدْ أحرمَ لكَ شعري ولحمي ، ودمي وعصبي ، ومخِّي وعظامي ، وحرَّمْتُ علىٰ نفسي النساءَ والطيبَ ولبسَ المخيطِ ابتغاءَ وجهِكَ والدارِ الآخرةِ) .

---

(١) في (أ ، و ، ز ، هـ) : (يحسِّر) بدل (يسرح) أي : يكشف عن رأسه ولا يغطيه .

(٢) رواه البخاري (٢٧١) ، ومسلم (١١٩٠) ، **والوبيص** : البريق .

(٣) وقد زاد المصنف في « الوجيز » سنة صلاة ركعتي الإحرام ، وعبارته فيه كما في « العزيز » (٣٨٠/٣) : (الرابعة : أن يصلي ركعتي الإحرام ، ثم يلبي حيث تنبعث دابته ، وفي القديم : بحيث يتحلل عن الصلاة) .

(٤) كذا كانت تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في « البخاري » (١٥٤٩) ، ومسلم (١١٨٤) .

(٥) بنحوها عند مسلم (١١٨٤) ، وأما إتباع التلبية الصلاةَ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقد رواه الدارقطني في « سننه » (٢٣٨/٢) عن القاسم بن محمد عند الفراغ منها ، كما يتبعها سؤال المغفرة والرضوان منه سبحانه ، وعبارة المصنف في « الخلاصة » (ص ٢٣١) : (ويكرر هٰذه التلبية لا يزيد عليها ، إلا أن يصلي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسأله الجنة ويستعيذ من النار) ، وقد استحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التلبية الإمام الشافعي كما في « الأم » (٣٩٥/٣)

ومِنْ وقتِ الإحرامِ حَرُمَ عليهِ المحظوراتُ الستَّةُ التي ذكرناها مِن قبلُ فليجتنبْها .

❀ ❀ ❀

الخامسُ : يستحبُّ تجديدُ التلبيةِ في دوامِ الإحرامِ ، خصوصاً عندَ ازدحامِ الركابِ ، وتلقي الرفاقِ ، وعندَ اجتماعِ الناسِ ، وعندَ كلِّ صعودٍ وهبوطٍ ، وعندَ كلِّ ركوبٍ ونزولٍ ، رافعاً بها صوتَهُ بحيثُ لا يبحُّ حلقُهُ ولا ينبهرُ[١] ، فإنَّهُ لا ينادي أصمَّ ولا غائباً كما وردَ في الحديثِ[٢] .

ولا بأسَ برفْعِ الصوتِ بالتلبيةِ في المساجدِ الثلاثةِ ؛ فإنَّها مَظِنَّةُ المناسكِ ؛ أعني : المسجدَ الحرامَ ، ومسجدَ الخَيْفِ ، ومسجدَ الميقاتِ[٣] ، وأمَّا سائرُ المساجدِ . . فلا بأسَ فيها بالتلبيةِ مِنْ غيرِ رفْعِ صوتٍ ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أعجبَهُ شيءٌ . . قالَ : « لبيكَ إنَّ العيشَ عيشُ الآخرةِ »[٤]

❀ ❀ ❀

(١) وإنما يستحب رفع الصوت في حق الرجال ، والنساء يقتصرن على أنفسهن ولا يجهرن كما في الصلاة . انظر « الإتحاف » (٣٣٨/٤) ، **والانبهار** : الانقطاع .

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢) ، ومسلم (٢٧٠٤) .

(٣) وفي (ب) : (ومسجد عرفات) .

(٤) رواه الشافعي كما في « الأم » (٣٩١/٣) عن مجاهد مرسلاً .

الجملة الثالثة : في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة

الأوَّلُ : أنْ يغتسلَ بذي طُوىً لدخولِ مكَّةَ [1]

والأغسالُ المستحبَّةُ المسنونةُ في الحجِّ تسعةٌ : الأوَّلُ للإحرامِ مِنَ الميقاتِ ، ثمَّ لدخولِ مكَّةَ [2] ، ثمَّ للوقوفِ بعرفةَ ، ثمَّ للوقوفِ بمزدلفةَ ، ثمَّ ثلاثةُ أغسالٍ لرمي الجمراتِ الثلاثِ ، ولا غسلَ لرمي جمرةِ العقبةِ ، ثمَّ لطوافِ الإفاضةِ ، ثمَّ لطوافِ الوداعِ ، ولمْ يرَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ في الجديدِ الغسْلَ لطوافِ الزيارةِ ولطوافِ الوداعِ ، **فتعودُ إلىٰ سبعةٍ** .

❊ ❊ ❊

الثاني : أنْ يقولَ عندَ الدخولِ في أوَّلِ الحرمِ وهوَ خارجَ مكَّةَ : (اللهمَّ ؛ هـٰذا حرمُكَ وأمنُكَ ، فحرِّمْ لحمي ودمي وشعري وبشري على النارِ ، وآمنِّي مِنْ عذابِكَ يومَ تبعثُ عبادَكَ ، واجعلني مِنْ أوليائِكَ وأهلِ طاعتِكَ) .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : أنْ يدخلَ مكَّةَ مِنْ جانبِ الأبطحِ ، وهوَ مِنْ ثَنِيَّةِ كَداءٍ بفتحِ الكافِ والمدِّ ، عَدَلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ جادَّةِ الطريقِ إليها [3] ، فالتأسِّي بهِ أولىٰ .

وإذا خرجَ . . خرجَ مِنْ ثنيَّةِ كُدىً بضمِّ الكافِ ؛ وهيَ الثنيَّةُ السفلىٰ ، والأُولىٰ هيَ العليا [4]

❊ ❊ ❊

الرابعُ : إذا دخلَ مكَّةَ وانتهىٰ إلىٰ رأسِ الردْمِ ، فعندَهُ يقعُ بصرُهُ على البيتِ . . فليقلْ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ، أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، ودارُكَ دارُ السلامِ ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ ، اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا بيتُكَ ، عظَّمْتَهُ وكرَّمْتَهُ وشرَّفْتَهُ ، اللهمَّ ؛ فزدْهُ تعظيماً وزدْهُ تشريفاً وتكريماً ، وزدْه مهابةً ، وزدْ مَنْ حجَّهُ بِرّاً وكرامةً ، اللهمَّ ؛ افتحْ لي أبوابَ رحمتِكَ ، وأدخلني جنَّتَكَ ، وأعذني مِنَ الشيطانِ الرجيمِ) .

❊ ❊ ❊

---

(1) **ذو طوىٰ** : قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (١٣٩/٣) : (بكسر الطاء : اسم بئر ـ مطوية ـ أو موضع بقرب مكة ، ولأبي ذر ـ أحد رواة الصحيح ـ طُوىٰ بضمها ، ويجوز فتحها ـ وصوبه القاضي في « مشارق الأنوار » [٢٧٦/١] ـ والتنوينُ وعدمه ؛ كما في « القاموس » ، فمن صرفه . . جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه . . جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة) ، وقد روى البخاري (١٥٧٣) ، ومسلم (١٢٥٩) حكاية فعله صلى الله عليه وسلم لذٰلك .

(2) وهو الغسل الذي ذكره حين **قال** : (يغتسل بذي طوىً لدخول مكة) .

(3) رواه البخاري (١٥٧٨) ، ومسلم (١٢٥٨) ، **وكَداء** : موضع جبل بمكة ، ويناسب الدخول منه لعلو مقدار البيت . وروى الطبري في « تفسيره » (٢٨٧/١٣/٨) عن ابن عباس : أن إبراهيم عليه السلام كان علىٰ ثنية كَداء حين دعا ، **ولذٰلك قال** : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ ، وانظر « **الإتحاف** » (٢٤٣/٤) .

(4) يجوز في كَداء وكُدى الصرف وعدمه ، **نص علىٰ ذٰلك القسطلاني** في « إرشاد الساري » (١٤٢/٣) ، والضم والقصر في الثاني لازم ، وقال **الحافظ الزبيدي في « الإتحاف »** (٣٤٢/٤) : (ويكتب بالياء ويجوز بالألف) ، ويقال للأول : كُدَي .

الخامسُ : إذا دخلَ المسجدَ الحرامَ . . فليدخلْ مِنْ بابِ بني شيبةَ ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ ، وباللهِ ، ومِنَ اللهِ ، وإلى اللهِ ، وفي سبيلِ اللهِ ، وعلىٰ ملَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) .

فإذا قَرُبَ منَ البيتِ . . قالَ : (الحمدُ للهِ وسلامٌ علىٰ عبادِهِ الذينَ اصطفى ، اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ ، وعلىٰ إبراهيمَ خليلِكَ ، وعلىٰ جميعِ أنبيائِكَ ورسلِكَ) ، وليرفعْ يديهِ وليقلْ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ في مَقامي هـٰذا في أوَّلِ مناسكي أنْ تتقبَّلَ توبتي ، وأنْ تتجاوزَ عَنْ خطيئتي ، وتضعَ عنِّي وزري ، الحمدُ للهِ الذي بلَّغني بيتَهُ الحرامَ الذي جعلَهُ مثابةً للناسِ وأمناً ، وجعلَهُ مباركاً وهدىً للعالمينَ ، اللهمَّ ؛ إنِّي عبدُكَ ، والبلدُ بلدُكَ ، والحَرَمُ حرمُكَ ، والبيتُ بيتُكَ ، جئتُكَ أطلبُ رحمتَكَ ، وأسألُكَ مسألةَ المضطرِّ الخائفِ مِنْ عقوبتِكَ ، والراجي رحمتَكَ ، الطالبِ مرضاتَكَ) .

❁ ❁ ❁

السادسُ : أنْ يقصدَ الحجرَ الأسودَ بعدَ ذٰلكَ ويمسَّهُ بيدِهِ اليمنىٰ ، ويقبِّلَهُ ويقولَ : (اللهمَّ ؛ أمانتي أديتُها ، وميثاقي وفيتُهُ ، اشهدْ لي بالموافاةِ)[1] ، فإنْ لمْ يستطعِ التقبيلَ . . وقفَ في مقابلتِهِ ويقولُ ذٰلكَ .

ثم لا يعرِّجُ علىٰ شيءٍ دونَ الطوافِ ، وهوَ طوافُ القدومِ ، إلا أنْ يجدَ الناسَ في المكتوبةِ ، فيصليَ معهُمْ ثمَّ يطوفَ .

❁ ❁ ❁

---

(١) في هـٰذا الدعاء إشارة للحديث الذي رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢٥٩/١) عن مجاهد قال : (يأتي يوم القيامة الركن والمقام كل واحد منهما مثل أبي قبيس ـ اسم جبل ـ يشهدان لمن وافاهما بالموافاة) .

الجملة الرابعة : في الطواف

فإذا أرادَ افتتاحَ الطوافِ ، إمَّا للقدومِ أوْ لغيرِهِ . . فينبغي أنْ يراعيَ أموراً ستةً :

الأوَّلُ : أنْ يراعيَ شروطَ الصلاةِ ؛ مِنْ طهارةِ الحدثِ والخبثِ ، في الثوبِ والبدنِ والمطافِ ، وسترِ العورةِ ؛ فالطوافُ بالبيتِ صلاةٌ ، ولكنَّ اللهَ سبحانَهُ أباحَ فيهِ الكلامَ .

وليضطبعْ قبلَ ابتداءِ الطوافِ ؛ وهوَ أنْ يجعلَ وسَطَ ردائِهِ تحتَ إبْطِهِ الأيمنِ ، ويجمعَ طرفيهِ علىٰ مَنْكِبِهِ الأيسرِ ، فيرخيَ طرفاً وراءَ ظهرِهِ وطرفاً علىٰ صدرِهِ .

ويقطعُ التلبيةَ عندَ ابتداءِ الطوافِ ، ويشتغلُ بالأدعيةِ التي سنذكرُها .

❀ ❀ ❀

الثاني : إذا فرغَ مِنَ الاضطباعِ . . فليجعلِ البيتَ علىٰ يسارِهِ ، وليقفْ عندَ الحجرِ الأسودِ ، وليتنحَّ عنهُ قليلاً ليكونَ الحجرُ قدَّامَهُ ، فيمرَّ بجميعِ الحجرِ بجميعِ بدنِهِ في ابتداءِ طوافِهِ ، وليجعلْ بينَهُ وبينَ البيتِ قدْرَ ثلاثِ خطواتٍ ؛ ليكونَ قريباً منَ البيتِ ، فإنَّهُ أفضلُ ، ولكيلا يكونَ طائفاً على الشاذَرْوانِ ؛ فإنَّهُ مِنَ البيتِ ، وعندَ الحجرِ الأسودِ قدْ يتصلُ الشاذَرْوانُ بالأرضِ ويلتبس بها ، والطائفُ عليهِ لا يصحُّ طوافُهُ ؛ لأنَّهُ طائفٌ في البيتِ ، **والشاذَرْوانُ** : هوَ الذي فضَلَ مِنْ عرْضِ جدارِ البيتِ بعدَ أنْ ضيِّقَ أعلى الجدارِ ، ثمَّ مِنْ هـٰذا الموقفِ يبتدئُ الطوافَ .

❀ ❀ ❀

الثالثُ : أنْ يقولَ قبلَ مجاوزةِ الحجرِ ، بلْ في ابتداءِ الطوافِ : (باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ؛ إيماناً بكَ وتصديقاً بكتابِكَ ووفاءً بعهدِكَ ، واتباعاً لسنَّةِ نبيِّكَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) .

ويطوفُ ، فأوَّلَ ما يجاوزُ الحجرَ ينتهي إلىٰ بابِ البيتِ فيقولُ : (اللهمَّ ؛ هـٰذا البيتُ بيتُكَ ، وهـٰذا الحرَمُ حرمُكَ ، وهـٰذا الأمنُ أمنُكَ ، وهـٰذا مَقامُ العائذِ بكَ مِنَ النارِ) .

وعندَ ذكْرِ المقامِ يشيرُ بعينِهِ إلىٰ مَقامِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ويقولُ : (اللهمَّ ؛ إنَّ بيتَكَ عظيمٌ ، ووجهَكَ كريمٌ ، وأنتَ أرحمُ الراحمينَ ؛ فأعذني مِنَ النارِ ومِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، وحرِّمْ لحمي ودمي على النارِ ، وأمِّنِّي مِنْ أهوالِ يومِ القيامةِ ، واكفني مؤنةَ الدنيا والآخرةِ) .

ثمَّ يسبِّحُ اللهَ ويحمدُهُ حتَّىٰ يبلغَ الركنَ العراقيَّ ، فعندَهُ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ الشركِ والشكِّ ، والكفرِ والنفاقِ ، والشقاقِ وسوءِ الأخلاقِ ، وسوءِ المنظرِ في الأهلِ والمالِ والولدِ) .

فإذا بلغَ الميزابَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ أظلَّني تحتَ ظلِّ عرشِكَ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّ عرشِكَ ، اللهمَّ ؛ اسقني بكأسِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شربةً لا أظمأُ بعدَها أبداً) .

فإذا بلغَ الركنَ الشاميَّ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ اجعلْهُ حجّاً مبروراً ، وسعياً مشكوراً ، وذنباً مغفوراً ، وتجارةً لنْ تبورَ ، يا عزيزُ يا غفورُ ، ربِّ اغفرْ وارحمْ ، وتجاوزْ عمَّا تعلمُ ، إنَّكَ أنتَ الأعزُّ الأكرمُ) .

فإذا بلغَ الركنَ اليمانيَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنَ الكفرِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الفقرِ ، ومِنْ عذابِ القبرِ ، ومِنْ فتنةِ المحيا والمماتِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الخزيِ في الدنيا والآخرةِ) .

ويقولُ بينَ الركنِ اليماني والحجرِ الأسودِ : (اللهمَّ ؛ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرةِ حسنةً ، وقنا برحمتِكَ عذابَ القبرِ وعذابَ النارِ) .

فإذا بلغَ الحجرَ الأسودَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ اغفرْ لي برحمتِكَ ، أعوذُ بربِّ هٰذا الحجرِ مِنَ الدَّيْنِ والفقرِ ، وضيقِ الصدْرِ ، وعذابِ القبرِ) .

وعندَ ذٰلكَ قدْ تمَّ لهُ شوطٌ واحدٌ ، فيطوفُ كذٰلكَ سبعةَ أشواطٍ ويدعو بهٰذهِ الأدعيةِ في كلِّ شوطٍ .

❀ ❀ ❀

الرابعُ : أنْ يرمُلَ في ثلاثةِ أشواطٍ ، ويمشيَ في الأربعةِ الأُخَرِ على الهيئةِ المعتادةِ ، **ومعنى الرَّمَلِ** : الإسراعُ في المشيِ معَ تقاربِ الخُطا وهوَ دونَ العدْوِ وفوقَ المشيِ المعتادِ ، والمقصودُ منهُ ومِنَ الاضطباعِ : إظهارُ الشطارةِ والجلادةِ والقوَّةِ ، هٰكذا كانَ القصدُ أوَّلاً ؛ قطعاً لطمعِ الكفَّارِ ، وبقيتْ تلكَ السنَّةُ[1] .

والأفضلُ الرَّمَلُ معَ الدنوِّ مِنَ البيتِ ، فإنْ لمْ يمكنْهُ للزحمةِ . . فالرَّمَلُ معَ البعدِ أفضلُ ، فليخرجْ إلىٰ حاشيةِ المطافِ ، وليرملْ ثلاثاً ، ثمَّ ليقرُبْ إلى البيتِ في المزدحمِ وليمشِ أربعاً .

وإنْ أمكنَهُ استلامُ الحجرِ في كلِّ شوطٍ . . فهوَ الأحبُّ ، وإنْ منعتْهُ الزحمةُ . . أشارَ باليدِ وقبَّلَ يدَهُ ، وكذٰلكَ استلامُ الركنِ اليماني مستحبٌّ مِنْ سائرِ الأركانِ ، ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يستلمُ الركنَ اليمانيَ ويقبِّلُهُ ، ويضعُ خدَّهُ عليهِ[2] .

ومَنْ أرادَ تخصيصَ الحجرِ بالتقبيلِ ، واقتصرَ في الركنِ اليماني على الاستلامِ ؛ أعني : المسَّ باليدِ . . فهو الأولىٰ ؛ إذْ هو أشهرُ في الروايةِ[3] .

❀ ❀ ❀

الخامسُ : إذا تمَّ الطوافُ سبعاً . . فليأتِ الملتزمَ ـ وهوَ بينَ الحجَرِ والبابِ ، وهوَ موضعُ استجابةِ الدعوةِ[4] ـ وليلتزقْ بالبيتِ ، وليتعلَّقْ بالأستارِ ، وليلصقْ بطنَهُ بالبيتِ ، وليضعْ عليهِ خدَّهُ الأيمنَ ، وليبسطْ عليهِ ذراعيهِ وكفَّيْهِ ، وليقلْ : (اللهمَّ ، يا ربَّ البيتِ العتيقِ ؛ أعتقْ رقبتي مِنَ النارِ ، وأعذني منَ الشيطانِ الرجيمِ ، وأعذني مِنْ كلِّ سوءٍ ،

---

(١) كون الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار عند أبي داوود (١٨٨٧) ، وابن ماجه (٢٩٥٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (فيمَ الرملانُ اليوم والكشفُ عن المناكب وقد أطَّأ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله ؟! مع ذٰلك لا ندع شيئاً كنَّا نفعله علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وأما الرمل وحدَه . . فقد روىٰ حديثه البخاري (١٦٠٢) ، ومسلم (١٢٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمَّىٰ يثرب ؛ فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرمُلوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم) .

(٢) أما استلام الركن اليماني . . ففي « البخاري » (١٦٦) ، و« مسلم » (١٢٦٧) ، وأما تقبيله . . فهو عند البخاري في « التاريخ الكبير » (٢٨١/١) ، وأما تقبيله مع وضع الخد عليه . . فهو عند ابن خزيمة في « صحيحه » (٢٧٢٧) ، والدارقطني في « سننه » (٢٩٠/٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٥٦/١) .

(٣) الأم (٤٣٠/٣) .

(٤) كما روىٰ ذٰلك الأزرقي في « أخبار مكة » (٢٧٧/١) .

وقَنِّعْني بما رزقتني ، وبارِكْ لي فيما آتيتني ، اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا البيتَ بيتُكَ والعبدَ عبدُكَ ، وهـٰذا مَقامُ العائذِ بكَ مِنَ النارِ ، اللهمَّ ؛ اجعلني مِنْ أكرمِ وفدِكَ عليكَ)[1]

ثمَّ ليحمدِ اللهَ كثيراً في هـٰذا الموضعِ ، وليصلِّ علىٰ رسولِهِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ جميعِ الرسلِ كثيراً ، وليدعُ بحوائجِهِ الخاصَّةِ ، وليستغفرِ اللهَ مِنْ ذنوبِهِ ، كانَ بعضُ السلفِ في هـٰذا الموضعِ يقولُ لمواليهِ : (تنحَّوْا عنِّي حتَّىٰ أُقِرَّ لربِّي بذنوبي) .

❀ ❀ ❀

السادسُ : إذا فرغَ مِنْ ذٰلكَ . . ينبغي أنْ يصلِّيَ خلْفَ المقامِ ركعتينِ ، يقرأُ في الأولىٰ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وفي الثانيةِ (الإخلاصَ) ، وهما ركعتا الطوافِ ، قالَ الزهريُّ : (مضتِ السنَّةُ أنْ يُصلَّىٰ لكلِّ أسبوعٍ ركعتانِ)[2]

وإنْ قرنَ بين أسابيعَ وصلَّىٰ ركعتينِ . . جازَ ، فعلَ ذٰلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3]

وكلُّ أسبوعٍ طوافٌ ، وليدعُ بعدَ ركعتيِ الطوافِ وليقلْ : (اللهمَّ ؛ يسِّرْ ليَ اليسرىٰ ، وجنبنيَ العسرىٰ ، واغفرْ لي في الآخرةِ والأُولىٰ ، اللهمَّ ؛ اعصمْني بألطافِكَ حتَّىٰ لا أعصيَكَ ، وأعنِّي علىٰ طاعتِكَ بتوفيقِكَ ، وجنبني معاصيَكَ ، واجعلني ممَّنْ يحبُّكَ ويحبُّ ملائكتَكَ ورسلَكَ ، ويحبُّ عبادَكَ الصالحينَ ، اللهمَّ ؛ حبِّبْني إلىٰ ملائكتِكَ ورسلِكَ ، وإلىٰ عبادِكَ الصالحينَ ، اللهمَّ ؛ فكما هديتني للإسلامِ فثبتني عليهِ بألطافِكَ وولايتِكَ ، واستعملني لطاعتِكَ وطاعةِ رسولِكَ ، وأجِرْني مِنْ مضلَّاتِ الفتنِ) .

ثمَّ ليعدْ إلى الحجَرِ وليستلمْهُ ، وليختمْ بهِ الطوافَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَن طافَ بالبيتِ أسبوعاً ، وصلىٰ ركعتينِ . . فلهُ مِنَ الأجرِ كعتقِ رقبةٍ »[4] . هـٰذهِ كيفيةُ الطوافِ .

والواجبُ مِنْ جملتِهِ بعد وجوبِ شروطِ الصلاةِ : أنْ يستكملَ عددَ الطوافِ سبعاً بجميعِ البيتِ ، وأنْ يبتدئَ بالحجَرِ الأسودِ ويجعلَ البيتَ علىٰ يسارِهِ ، وأنْ يطوفَ داخلَ المسجدِ وخارجَ البيتِ ، لا على الشاذَرْوانِ ، ولا في الحجْرِ ، وأنْ يواليَ بينَ الأشواطِ ولا يفرِّقَها تفريقاً خارجاً عنِ المعتادِ ، وما عدا هـٰذا فهوَ سننٌ وهيئاتٌ .

❀ ❀ ❀

(١) الهيئة التي ذكرها المصنف في هـٰذا الدعاء ؛ من الإلزاق والتعلق بالأستار ووضع الخد . . . إلخ رواها أبو داوود (١٨٩٩) ، والنسائي (٢٢٠/٥) ، وابن ماجه (٢٩٦٢) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٥٠٢٨) ، **الأسبوع** : سبع طوفات ، ويقال : سُبُوع

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرن ثلاثة أطواف ليس بينها صلاة ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » ، وابن شاهين في « أماليه » من حديث أبي هريرة وزاد : « ثم صلىٰ لكل أسبوع ركعتين ، وفي إسنادهما عبد السلام بن أبي الجنوب ، منكر الحديث » . « إتحاف » (٣٥٧/٤) . وعقد ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٥٥٠/٨) باباً في القران بين الأسباع ومن رخص في ذٰلك ، ولم يرو فيه حديثاً مرفوعاً ، بل نقل فعل ذٰلك عن عائشة ومجاهد والمسور بن مخرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبير وعلي بن الحسين .

(٤) رواه الترمذي (٩٥٩) ، والنسائي (٢٢١/٥) ، وابن ماجه (٢٩٥٦) .

الجملة الخامسة : في السعي

فإذا فرغَ مِنَ الطوافِ[1] . . فليخرجْ مِنْ بابِ الصفا ، وهوَ في محاذاةِ الضلعِ الذي بينَ الركنِ اليماني والحجرِ ، فإذا خرجَ مِنْ ذٰلكَ البابِ ، وانتهىٰ إلى الصفا وهوَ جبلٌ . . فيرقىٰ فيهِ دَرَجاً في حضيضِ الجبلِ بقدْرِ قامةِ الرجلِ ، رَقِيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ حتَّىٰ بدتْ لهُ الكعبةُ[2] ، وابتداءُ السعيِ مِنْ أصلِ الجبلِ كافٍ ، وهٰذهِ الزيادةُ مستحبةٌ ، ولٰكنْ بعضُ تلكَ الدَّرَجِ مستحدثةٌ ، فينبغي ألا يخلِّفَها وراءَ ظهرِهِ ، فلا يكونُ متمِّماً للسعيِ ، وإذا ابتدأَ مِنْ ها هنا . . سعىٰ بينَهُ وبينَ المروةِ سبعَ مرَّاتٍ .

وعندَ رقيِّهِ في الصفا ينبغي أنْ يُقْبِلَ على البيتِ ويقولَ : (اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، الحمدُ للهِ علىٰ ما هدانا ، الحمدُ للهِ بمحامِدِهِ كلِّها علىٰ جميعِ نعمِهِ كلِّها ، لا إلٰهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، بيدِهِ الخيرُ وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وأعزَّ جندَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ ، لا إلٰهَ إلا اللهُ مُخلصينَ لهُ الدِّينَ ولوْ كرِهَ الكافرونَ ، لا إلٰهَ إلا اللهُ مخلصينَ لهُ الدينَ ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۞ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً دائماً ، ويقيناً صادقاً ، وعلماً نافعاً ، وقلباً خاشعاً ، ولساناً ذاكراً ، وأسألُكَ العفوَ والعافيةَ ، والمعافاةَ الدائمةَ في الدنيا والآخرةِ) ، ويصلِّي علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويدعو اللهَ بما شاءَ مِنْ حاجتِهِ عَقيبَ هٰذا الدعاءِ .

ثمَّ ينزلُ ويبتدئُ السعيَ وهوَ يقولُ : (ربِّ اغفرْ وارحمْ ، وتجاوزْ عمَّا تعلمُ ، إنَّكَ أنتَ الأعزُّ الأكرمُ ، ربَّنا ؛ آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرةِ حسنةً ، وقنا عذابَ النارِ) .

ويمشي علىٰ هِينةٍ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الميلِ الأخضرِ ، وهوَ أوَّلُ ما يلقاهُ إذا نزلَ مِنَ الصفا وهوَ علىٰ زاويةِ المسجدِ الحرامِ ، فإذا بقيَ بينَهُ وبينَ محاذاةِ الميلِ ستةُ أذرعٍ . . أخذَ في السيرِ السريعِ ـ وهوَ الرَّمَلُ ـ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الميلينِ الأخضرينِ ، ثمَّ يعودُ إلى الهِينةِ .

فإذا انتهىٰ إلى المروةِ . . صعدَها كما صعدَ الصفا ، وأقبلَ بوجهِهِ على الصفا ، ودعا بمثلِ ذٰلكَ الدعاءِ ، وقدْ حصلَ السعيُ مرَّةً واحدةً ، فإذا عادَ إلى الصفا . . حصلتْ مرَّتانِ ، يفعلُ ذٰلكَ سبعاً ، ويرمُلُ في موضعِ الرَّمَلِ في كلِّ مرَّةٍ ، ويسكُنُ في موضعِ السكونِ كما سبقَ ، وفي كلِّ نوبةٍ يصعدُ الصفا والمروةَ .

فإذا فعلَ ذٰلكَ . . فقدْ فرغَ مِنْ طوافِ القدومِ والسعيِ ، وهما سنَّتانِ ، والطهارةُ مستحبَّةٌ للسعيِ وليستْ بواجبةٍ ، بخلافِ الطوافِ .

وإذا سعىٰ . . فينبغي ألا يعيدَ السعيَ بعدَ الوقوفِ ، ويكتفي بهٰذا ركناً ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْ شرطِ السعيِ أنْ يتأخرَ عنِ الوقوفِ ، وإنَّما ذٰلكَ شرطٌ في طوافِ الركنِ .

نعمْ ؛ شرطُ كلِّ سعيٍ أنْ يقعَ بعدَ طوافٍ أيَّ طوافٍ كانَ .

* * *

---

(١) أي : بعد صلاته ركعتين ، واستلامه الحجر والركن ، وشربه ماء زمزم . « إتحاف » (٤/٣٦٠)

(٢) كما في « مسلم » (١٢١٨) ضمن حديث طويل .

الجملة السادسة : في الوقوف وما قبله

الحاجُّ إذا انتهىٰ يومَ عرفةَ إلىٰ عرفاتٍ . . فلا يتفرَّغُ لطوافِ القدومِ ودخولِ مكَّةَ قبلَ الوقوفِ ، وإذا وصلَ قبلَ ذٰلكَ بأيامٍ . . طافَ طوافَ القدومِ ، فيمكثُ محرماً إلى اليومِ السابعِ مِنْ ذي الحجَّةِ[1] ، فيخطبُ الإمامُ بمكَّةَ خطبةً بعدَ الظهرِ عندَ الكعبةِ ، ويأمرُ الناسَ بالاستعدادِ للخروجِ إلىٰ منىً يومَ الترويةِ ، والمبيتِ بها ، وبالغدوِّ منها إلىٰ عرفةَ لإقامةِ فرْضِ الوقوفِ بعدَ زوالِ الشمسِ ؛ إذْ وقتُ الوقوفِ مِنَ الزوالِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ الصادقِ مِنْ يومِ النحرِ ، فينبغي أنْ يخرجَ إلىٰ منىً ملبّياً ، ويُستحبُّ لهُ المشيُ مِنْ مكَّةَ في المناسكِ إلى انقضاءِ حجِّهِ إنْ قدَرَ عليهِ ، والمشيُ مِنْ مسجدِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ إلى الموقفِ أفضلُ وآكدُ .

فإذا انتهىٰ إلىٰ منىً . . قالَ : (اللهمَّ ؛ هٰذهِ منىً ، فامننْ عليَّ بما مننْتَ بهِ علىٰ أوليائِكَ وأهلِ طاعتِكَ) ، وليمكثْ هٰذهِ الليلةَ بمنىً ، وهوَ مبيتُ منزلٍ لا يتعلَّقُ بهِ نسكٌ .

فإذا أصبحَ يومَ عرفةَ . . صلَّى الصبحَ ، فإذا طلعتِ الشمسُ علىٰ ثَبِيرٍ[2] . . سارَ إلىٰ عرفاتٍ ، ويقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْها خيرَ غَدوةٍ غدوتُها قطُّ ، وأقربَها مِنْ رضوانِكَ ، وأبعدَها مِن سخطِكَ ، اللهمَّ ؛ إليكَ غدوتُ ، وإيَّاكَ رجوتُ ، وعليكَ اعتمدتُ ، ووجهَكَ أردتُ ؛ فاجعلني ممَّنْ تُباهي بِهِ اليومَ مَنْ هوَ خيرٌ منِّي وأفضلُ)[3]

فإذا أتىٰ عرفاتٍ . . فليضربْ خباءَهُ بنَمِرَةَ قريباً مِنَ المسجدِ ، فثَمَّ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قُبَّتَهُ[4] ، ونَمِرَةُ : هي بطنُ عُرَنَةَ[5] ، دونَ الموقفِ ودونَ عرفةَ .

وليغتسلْ للوقوفِ ، فإذا زالتِ الشمسُ . . خطبَ الإمامُ خطبةً وجيزةً وقعدَ[6] ، وأخذَ المؤذِّنُ في الأذانِ والإمامُ في الخطبةِ الثانيةِ[7] ، ووصلَ الإقامةَ بالأذانِ ، وفرغَ الإمامُ معَ تمامِ إقامةِ المؤذِّنِ ، ثمَّ جمعَ بينَ الظهرِ والعصرِ بأذانٍ وإقامتينِ ، وقصرَ الصلاةَ ، وراحَ إلى الموقفِ ، فليقفْ بعرفَةَ ، ولا يقفنْ في وادي عُرَنَةَ .

وأمَّا مسجدُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ . . فصدرُهُ في الوادي وأخرياتُهُ مِنْ عرفةَ ، فمَنْ وقفَ في صدْرِ المسجدِ . . لمْ يحصلْ لهُ الوقوفُ بعرفةَ ، ويتميَّزُ مكانُ عرفةَ مِنَ المسجدِ بصخَراتٍ كبارٍ فرشتْ ثَمَّ ، والأفضلُ أنْ يقفَ عندَ الصخَراتِ بقربِ الإمامِ مستقبلاً للقبلةِ راكباً .

وليكثرْ مِنْ أنواعِ التحميدِ والتسبيحِ والتهليلِ والثناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، والدعاءِ والتوبةِ[8] ، ولا يصومُ في هٰذا

---

(١) أي : إن لم يكن متمتعاً .

(٢) ثَبير : اسم جبل بين مكة ومنىً ، ويرىٰ من منىً ، وهو علىٰ يمين الداخل منها إلىٰ مكة . « إتحاف » (٣٦٦/٤) .

(٣) أراد الملائكة ؛ ففي « مسلم » (١٣٤٨) مرفوعاً : « ما من يوم أكثرَ من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفةَ ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هٰؤلاء » .

(٤) كما في حديث مسلم (١٢١٨) الذي مرَّ بعضه .

(٥) عُرَنَة : واد بحذاء عرفات ، فهي ليست من الموقف .

(٦) وهي الخطبة الأولىٰ .

(٧) هٰذه الثانية تكون مع الأذان ، وتنتهي بانتهاء إقامة المؤذن للصلاة . انظر « الخلاصة » (ص ٢٣٤) .

(٨) والتضرع والابتهال والبكاء ، وهنالك تسكب العبرات ، وتستقال العثرات ، وتنجح الطلبات ، فقد ثبت ـ كما روى الطبراني في « المعجم

اليومِ ؛ ليقوىٰ على المواظبةِ على الدعاءِ ، ولا يقطعُ التلبيةَ يومَ عرفةَ ، بلِ الأحبُّ أنْ يلبِّيَ تارةً ، ويكبَّ على الدعاءِ أخرىٰ .

وينبغي ألا ينفصلَ مِنْ طرفِ عرفةَ إلا بعدَ الغروبِ ؛ ليجمعَ في عرفةَ بينَ الليلِ والنهارِ ، وإنْ أمكنَهُ الوقوفُ يومَ الثامنِ ساعةً عندَ إمكانِ الغلطِ في الهلالِ . . فهوَ الحزمُ ، وبهِ الأمنُ مِنَ الفواتِ . ومَنْ فاتَهُ الوقوفُ حتَّىٰ طلعَ الفجرُ يومَ النحرِ . . فقدْ فاتَهُ الحجُّ ، فعليهِ أنْ يتحلَّلَ عنْ إحرامِهِ بأعمالِ العمرةِ ، ثمَّ يريقَ دماً لأجلِ الفواتِ ، ثمَّ يقضيَ العامَ الآتيَ .

وليكنْ أهمَّ أشغالِهِ في هـٰذا اليومِ الدعاءُ ؛ ففي مثلِ تلكَ البقعةِ ومثلِ ذٰلكَ الجمعِ تُرجىٰ إجابةُ الدعواتِ[١]

والدعاءُ المأثورُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعنِ السلفِ في يومِ عرفةَ أولىٰ ما يدعو بهِ ، فليقلْ :

لا إلٰهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ يُحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ[٢]

اللهمَّ ؛ اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي لساني نوراً ، اللهمَّ ؛ اشرحْ لي صدري ، ويسِّرْ لي أمري[٣]

وليقلْ : اللهمَّ ، ربَّ الحمدِ ؛ لكَ الحمدُ كما نقولُ ، وخيراً ممَّا نقولُ ، لكَ صلاتي ونسكي ، ومحيايَ ومماتي ، وإليكَ مآبي ، وإليكَ ثوابي ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ وساوسِ الصدرِ ، وشتاتِ الأمرِ ، وعذابِ القبرِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما يلجُ في الليلِ ، ومِنْ شرِّ ما يلجُ في النهارِ ، ومِنْ شرِّ ما تهبُّ بهِ الرياحُ ، ومِنْ شرِّ بوائقِ الدهرِ[٤]

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ تحوُّلِ عافيتِكَ ، وفجأةِ نقمتِكَ ، وجميعِ سخطِكَ[٥]

اللهمَّ ؛ اهدني بالهدىٰ ، واغفرْ لي في الآخرةِ والأولىٰ[٦] ، يا خيرَ مقصودٍ ، وأيسرَ منزولٍ عليهِ ، وأكرمَ مسؤولٍ ما لديهِ ؛ أعطني العشيَّةَ أفضلَ ما تعطي أحداً مِنْ خلقِكَ وحجَّاجِ بيتِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ ، اللهمَّ ؛ يا رفيعَ الدرجاتِ ، ومنزِّلَ البركاتِ ، ويا فاطرَ الأرضينَ والسماواتِ ؛ ضجَّتْ إليكَ الأصواتُ بصنوفِ اللغاتِ يسألونَكَ الحاجاتِ ، وحاجتي إليكَ ألا تنساني في دارِ البِلىٰ إذا نسيني أهلُ الدنيا[٧]

الأوسط » (٢٩١٣) ـ عن ابن عباس قال : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بعرفة بالموقف ويداه إلىٰ صدره كاستطعام المسكين) . انظر « الإتحاف » (٣٧١/٤) .

(١) حيث يجتمع في هـٰذا المكان المبارك خيارُ عباد الله ، ومن لا يشقىٰ بهم جليسهم من أولياء الله ، وببركاتهم وأسرارهم ترجىٰ إجابة الدعوات . انظر « الإتحاف » (٣٧٣/٤) .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٨٥) مرفوعاً بلفظ : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير » ، وإلىٰ قوله : « لا شريك له » عند مالك في « الموطأ » (٤٢٢/١) مرسلاً ، وهو بتمامه من رواية ابن بكار البصري كما في « جمهرة الأجزاء الحديثية » (ص ١٦٨) من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١١٧/٥) موصولاً ببعض الدعاء السابق ، من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٣٠) بنحوه ، وبعضه بعض حديث البيهقي المتقدم ، من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ، وقوله : (ثوابي) من الثَّوْب ؛ أي : رجوعي ، أو هو علىٰ ظاهره .

(٥) رواه مسلم (٣٧٣٩) من دعائه صلى الله عليه وسلم عموماً .

(٦) رواه بنحوه الطبراني في « الدعاء » (٨٧٨) ، من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٥/٧) عن سفيان بن عيينة ، عنْ أعرابي سمعه يدعو به وهو متعلق بأستار الكعبة .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ تسمعُ كلامي ، وترىٰ مكاني ، وتعلمُ سرِّي وعلانيتي ، ولا يخفىٰ عليكَ شيءٌ مِنْ أمري ، أنا البائسُ الفقيرُ ، المستغيثُ المستجيرُ ، الوجِلُ المشفقُ المعترفُ بذنبِهِ ، أسألُكَ مسألةَ المسكينِ ، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ المذنبِ الذليلِ ، وأدعوكَ دعاءَ الخائفِ الضريرِ ، دعاءَ مَنْ خضعتْ لكَ رقبتُهُ ، وفاضتْ لكَ عبرتُهُ ، وذلَّ لكَ جسدُهُ ، ورغمَ لكَ أنفُهُ ، اللهمَّ ؛ لا تجعلني بدعائِكَ ربِّ شقياً ، وكنْ بي رؤوفاً رحيماً ، يا خيرَ المسؤولينَ ، وأكرمَ المعطينَ[1]

إلـٰهي ؛ مَنْ مدحَ إليكَ نفسَهُ . . فإنِّي لائمٌ لنفسي .

إلـٰهي ؛ أخرستِ المعاصي لساني ، فما لي وسيلةٌ مِنْ عملٍ ، ولا شفيعٌ سوى الأملِ .

إلـٰهي ؛ إنِّي أعلمُ أنَّ ذنوبي لمْ تُبْقِ لي عندَكَ جاهاً ، ولا للاعتذارِ وجهاً ، ولـٰكنَّكَ أكرمُ الأكرمينَ .

إلـٰهي ؛ إنْ لم أكُ أهلاً أنْ أبلغَ رحمتَكَ . . فإنَّ رحمتَكَ أهلٌ أنْ تبلغَني ، رحمتُكَ وسعَتْ كلَّ شيءٍ ، وأنا شيءٌ[2] .

إلـٰهي ؛ إنَّ ذنوبي وإنْ كانتْ عظاماً ، ولـٰكنَّها صغارٌ في جنْبِ عفوِكَ ؛ فاغفرْها لي يا كريمُ[3]

إلـٰهي ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، أنا العوَّادُ إلى الذنوبِ ، وأنتَ العوَّادُ إلى المغفرةِ[4]

إلـٰهي ؛ إنْ كنتَ لا ترحمُ إلا أهلَ طاعتكَ . . فإلىٰ مَنْ يفزعُ المذنبونَ ؟![5]

إلـٰهي ؛ تجنبْتُ عنْ طاعتِكَ عمْداً ، وتوجهتُ إلىٰ معصيتِكَ قصداً ، فسبحانَكَ ما أعظمَ حُجَّتَكَ عليَّ ، وأكرمَ عفوَكَ عنِّي ، فبوجوبِ حجَّتِكَ عليَّ ، وانقطاعِ حجَّتي عنكَ ، وفقري إليكَ ، وغناكَ عنِّي . . إلا غفرتَ لي[6]

يا خيرَ مَنْ دعاهُ داعٍ ، وأفضلَ مَنْ رجاهُ راجٍ ؛ بحرمةِ الإسلامِ ، وبذمَّةِ محمدٍ عليهِ السلامُ أتوسَّلُ إليكَ ، فاغفرْ لي جميعَ ذنوبي ، واصرفني مِنْ موقفي هـٰذا مقضيَّ الحوائجِ ، وهبْ لي ما سألتُ ، وحقِّقْ رجائي فيما تمنيتُ .

إلـٰهي ؛ دعوتُكَ بالدعاءِ الذي علَّمتَنيهِ[7] ، فلا تحرمني الرجاءَ الذي عرَّفتَنيهِ .

إلـٰهي ؛ ما أنتَ صانعٌ العشيةَ بعبدٍ مقرٍّ لكَ بذنبِهِ ، خاشعٍ لكَ بذلِّهِ ، مستكينٍ بجرْمِهِ ، متضرِّعٍ إليكَ مِنْ عملِهِ ، تائبٍ إليكَ مِنِ اقترافِهِ ، مستغفرٍ لكَ مِنْ ظلمِهِ ، مبتهلٍ إليكَ في العفوِ عنْهُ ، طالبٍ إليكَ في نجاحِ حوائجِهِ ، راجٍ إليكَ في موقفِهِ معَ كثرةِ ذنوبِهِ ؟!

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (٢٤٧/١) من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ، وسيأتي المصنف فيما يلي بمناجاة قال فيها الحافظ العراقي : (وباقي الدعاء من قول بعض السلف ، وفي بعضه ما هو مرفوع ، ولـٰكن ليس مقيداً بموقف عرفة) .

(٢) روىٰ هـٰذا الدعاء أبو نعيم في « الحلية » (٢٩٨/٥) عن عمر بن عبد العزيز ، وزاد : (اللهم ؛ إنك خلقت قوماً فأطاعوك فيما أمرتهم ، وعملوا في الذي خلقتهم له ، فرحمتك إياهم كانت قبل طاعتهم لك يا أرحم الراحمين) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٦/٣٧) من دعاء عبد الملك بن مروان ، وقال فيه الشعبي : (ما حسدت أحداً علىٰ كلام تكلم به ما حسدت عبد الملك بن مروان ، فإني سمعته يقول . . .) وذكره .

(٤) روىٰ تمام في « فوائده » (١٦٩٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٩/٥) مرفوعاً : « مر رجل ممن كان قبلكم بجمجمة ، فوقف عليها وجعل يفكر ، فقال : يا رب ؛ أنت أنت ، وأنا أنا ، أنت العواد بالمغفرة ، وأنا العواد بالذنوب ، فقيل له : ارفع رأسك ، فأنت العواد بالذنوب ، وأنا العواد بالمغفرة ، قال : فغفر له » .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٨) ضمن مناجاة ليحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالىٰ .

(٦) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٤/٧) عن سفيان بن عيينة أنه سمع أعرابياً يدعو به في المقام .

(٧) أي : ألهمتني إياه . « إتحاف » (٣٧٧/٤) .

فيا ملجأ كلِّ حيٍّ ، ووليَّ كلِّ مؤمنٍ ؛ مَنْ أحسنَ . . فبرحمتِكَ يفوزُ ، ومَنْ أساءَ . . فبخطيئتِهِ يهلِكُ .

اللهمَّ ؛ إليكَ خرجْنا ، وبفِنائِكَ أنخْنا ، وإيَّاكَ أمَّلْنا ، وما عندَكَ طلبْنا ، ولإحسانِكَ تعرَّضْنا ، ورحمتَكَ رجونا ، ومِنْ عذابِكَ أشفقْنا ، وإليكَ بأثقالِ الذنوبِ هربْنا ، ولبيتِكَ الحرامِ حججْنا ، يا مَنْ يملكُ حوائجَ السائلينَ ، ويعلمُ ضمائرَ الصامتينَ ، يا مَنْ ليسَ معَهُ ربٌّ يُدعىٰ ، ويا مَنْ ليسَ فوقَهُ خالقٌ يُخشىٰ ، ويا مَنْ ليسَ لهُ وزيرٌ يُؤتىٰ ، ولا حاجبٌ يُرشىٰ ، يا مَنْ لا يزدادُ علىٰ كثرةِ السؤالِ إلا كرماً وجوداً ، وعلىٰ كثرةِ الحوائجِ إلا تفضُّلاً وإحساناً (١)

اللهمَّ ؛ إنَّكَ جعلتَ لكلِّ ضيفٍ قرىً ، ونحنُ أضيافُكَ ؛ فاجعلْ قِرانا منكَ الجنَّةَ (٢)

اللهمَّ ؛ إنَّ لكلِّ وفدٍ جائزةً ، ولكلِّ زائرٍ كرامةً ، ولكلِّ سائلٍ عطيةً ، ولكلِّ راجٍ ثواباً ، ولكلِّ ملتمسٍ لما عندَكَ جزاءً ، ولكلِّ مسترحمٍ عندَكَ رحمةً ، ولكلِّ راغبٍ إليكَ زلفىٰ ، ولكلِّ متوسِّلٍ إليكَ عفواً ، وقدْ وفدنا إلىٰ بيتِكَ الحرامِ ، ووقفْنا بهٰذهِ المشاعرِ العظامِ وشهدْنا هٰذهِ المشاهدَ الكرامَ ؛ رجاءً لما عندَكَ ، فلا تخيِّبْ رجاءَنا .

إلٰهَنا ؛ تابعتَ النعمَ حتَّى اطمأنتِ الأنفسُ بتتابعِ نعمِكَ ، وأظهرتَ العِبَرَ حتَّىٰ نطقَتِ الصوامتُ بحجَّتِكَ ، وظاهرتَ المننَ حتَّى اعترفَ أولياؤُكَ بالتقصيرِ عنْ حقِّكَ ، وأظهرتَ الآياتِ حتَّىٰ أفصحتِ السماواتُ والأرضونَ بأدلَّتِكَ ، وقهرتَ بقدرتِكَ حتَّىٰ خضعَ كلُّ شيءٍ لعزَّتِكَ ، وعنتِ الوجوهُ لعظمتِكَ ، إذا أساءَ عبادُكَ . . حلُمْتَ وأمهلْتَ ، وإذا أحسنوا . . تفضلْتَ وقبِلْتَ ، وإذا عصوا . . سترْتَ ، وإذا أذنبوا . . عفوْتَ وغفرْتَ ، وإذا دعونا . . أجبتَ ، وإذا نادينا . . سمعتَ ، وإذا أقبلْنا إليكَ . . قرُبْتَ ، وإذا ولَّيْنا عنكَ . . دعوتَ !!

إلٰهَنا ؛ إنَّكَ قلتَ في كتابِكَ المبينِ ، لمحمدٍ خاتَمِ النبيينَ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، فأرضاكَ عنهُمُ الإقرارُ بكلمةِ التوحيدِ بعدَ الجحودِ ، وإنَّا نشهدُ لكَ بالتوحيدِ مُخْبتينَ ، ولمحمدٍ بالرسالةِ مخلصينَ ؛ فاغفرْ لنا بهٰذهِ الشهادةِ سوالفَ الإجرامِ ، ولا تجعلْ حظَّنا فيهِ أنقصَ مِنْ حظِّ مَنْ دخلَ في الإسلامِ .

إلٰهَنا ؛ إنَّكَ أحببتَ التقرُّبَ إليكَ بعتْقِ ما ملكَتْ أيمانُنا ، ونحنُ عبيدُكَ ، وأنتَ أولىٰ بالتفضُّلِ ؛ فأعتقْنا ، وإنَّكَ أمرتَنا أنْ نتصدَّقَ علىٰ فقرائِنا ، ونحنُ فقراؤُكَ ، وأنتَ أحقُّ بالتطوُّلِ ؛ فتصدَّقْ علينا ، ووصَّيْتَنا بالعفوِ عمَّنْ ظلمَنا ، وقدْ ظلمْنا أنفسَنا ، وأنتَ أحقُّ بالكرمِ ؛ فاعفُ عنَّا .

ربَّنا ؛ اغفرْ لنا وارحمنا أنتَ مولانا .

ربَّنا ، آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً ، وقنا برحمتِكَ عذابَ النارِ (٣)

وليكثرْ مِنْ دعاءِ الخَضِرِ عليهِ السلامُ ، وهوَ أنْ يقولَ : (يا مَنْ لا يشغلُهُ شأنٌ عنْ شأنٍ ، يا مَنْ لا يشغلُهُ سمعٌ عنْ سمعٍ ، ولا تشتبهُ عليهِ الأصواتُ ، يا منْ لا تغلطُهُ المسائلُ ، ولا تختلفُ عليهِ اللغاتُ ، يا مَنْ لا يبرمُهُ إلحاحُ الملحِّينَ ، ولا تضجرُهُ مسألةُ السائلينَ ؛ أذقْنا بردَ عفوِكَ وحلاوةَ رحمتِكَ) (٤)

---

(١) أورد نحوه ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٢٧١/٢) عن الأصمعي ، عن أعرابية تدعو .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٢) عن الأصمعي كذٰلك ، عن أعرابي يدعو في الملتزم .

(٣) ختم بها المناجاة تبركاً ، ولكونه جامعاً شاملاً لسائر خيور الدنيا والآخرة . « إتحاف » (٣٧٨/٤) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٤٠/٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٥/١٦) .

وليدعُ بما بدا لهُ ، وليستغفرْ لنفسِهِ ولوالديهِ ولجميعِ المؤمنينَ والمؤمناتِ ، وليلحَّ في الدعاءِ ، وليعظمِ المسألةَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ .

قالَ مطرِّفُ بنُ عبد اللهِ وهوَ بعرفةَ : (اللهمَّ ؛ لا تردَّ الجميعَ منْ أجلي)[1]

وقالَ بكرٌ المزنيُّ : (قالَ رجلٌ : لمَّا نظرتُ إلىٰ أهلِ عرفاتٍ . . ظننتُ أنَّهُمْ قدْ غُفِرَ لهمْ لولا أنِّي كنتُ فيهِمْ)[2]

* * *

(١) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣/١١٩) .

(٢) وهو بكر بن عبد الله المزني ، رواه عنه البيهقي في « الشعب » (٧٩٠٢ ، ٧٩٠٣) .

الجملة السابعة : في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف

فإذا أفاضَ مِنْ عرفةَ بعدَ غروبِ الشمسِ . . فينبغي أنْ يكونَ على السكينةِ والوقارِ ، وليجتنبْ وجيفَ الخيلِ وإيضاعَ الرِّكابِ كما يعتادُهُ بعضُ الناسِ[١] ؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنْ وجيفِ الخيلِ وإيضاعِ الإبلِ[٢] ، وقالَ : « اتقوا اللهَ ، وسيروا سيراً جميلاً ، لا تَطؤوا ضعيفاً ، ولا تُوجِلُوا مسلماً »[٣]

فإذا بلغَ المزدلفةَ . . اغتسلَ لها ؛ لأنَّ المزدلفةَ مِنَ الحرمِ ، فليدخلْهُ بغسْلٍ ، وإنْ قدَرَ علىٰ دخولِهِ ماشياً . . فهوَ أفضلُ وأقربُ إلىٰ توقيرِ الحرمِ ، ويكونُ في الطريقِ رافعاً صوتَهُ بالتلبيةِ .

فإذا بلغَ المزدلفةَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذهِ مزدلفةُ ، جمعتَ فيها ألسنةً مختلفةً ، تسألُكَ حوائجَ مؤتنفةً[٤] ، فاجعلني ممَّنْ دعاكَ فاستجبتَ لهُ ، وتوكَّلَ عليكَ فكفيتَهُ) .

ثمَّ يجمعُ بينَ المغربِ والعشاءِ بمزدلفةَ في وقتِ العشاءِ قاصراً لها بأذانٍ وإقامتينِ ، ليسَ بينَهُما نافلةٌ ، ولـٰكنْ يجمعُ نافلةَ المغربِ والعشاءِ والوترِ بعدَ الفريضتينِ ، ويبدأُ بنافلةِ المغربِ ، ثمَّ بنافلةِ العشاءِ كما في الفريضتينِ ، وهـٰكذا يفعلُ الجامعُ في السفرِ ، فإنَّ تركَ النوافلِ في السفرِ خسرانٌ ظاهرٌ ، وتكليفُ إيقاعِها في الأوقاتِ إضرارٌ وقطعٌ للتبعيةِ بينَها وبينَ الفرائضِ ، فإذا جازَ أنْ يؤديَ النوافلَ معَ الفرائضِ بتيممٍ واحدٍ بحكمِ التبعيةِ . . فبأنْ يجوزَ أداؤُهُما علىٰ حكمِ الجمعِ بالتبعيةِ أولىٰ ، ولا يمنعُ مِنْ هـٰذا مفارقةُ النفلِ للفرضِ في جوازِ أدائِهِ على الراحلةِ ؛ لما أومأنا إليهِ مِنَ التبعيةِ والحاجةِ .

ثمَّ يمكثُ تلكَ الليلةَ بمزدلفةَ ، وهوَ مبيتُ نُسُكٍ ، ومَنْ خرجَ منها في النصفِ الأوَّلِ مِنَ الليلِ ولمْ يبتْ . . فعليهِ دمٌ ، وإحياءُ هـٰذهِ الليلةِ الشريفةِ مِنْ محاسنِ القُرُباتِ لمَنْ يقدِرُ عليهِ .

ثمَّ مهما انتصفَ الليلُ . . يأخذُ في التأهُّبِ للرحيلِ ، ويتزوَّدُ الحصىٰ منها ، ففيها أحجارٌ رَخوةٌ ، فليأخذْ سبعينَ حصاةً ؛ فإنَّها قدْرُ الحاجةِ ، ولا بأسَ بأنْ يستظهرَ بزيادةٍ ، فربما يسقطُ منهُ بعضُهُ ، ولتكنِ الحصىٰ خِفافاً ؛ بحيثُ يحتوي عليهِ أطرافُ البراجمِ .

ثمَّ ليغلسْ بصلاةِ الصبحِ ، وليأخذْ في المسيرِ ، حتَّىٰ إذا انتهىٰ إلى المشعرِ الحرامِ وهوَ آخرُ المزدلفةِ . . فيقفُ[٥] ، ويدعو إلى الإسفارِ ويقولُ : (اللهمَّ ؛ بحقِّ المشعرِ الحرامِ ، والبيتِ الحرامِ ، والشهرِ الحرامِ ، والركنِ والمقامِ . . بلِّغْ روحَ محمدٍ منَّا التحيَّةَ والسلامَ ، وأدخلْنا دارَ السلامِ ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ)[٦]

---

(١) **الوجيف** : الإسراع في السير ، **والإيضاع** : سير مثل الخبب ، فيه سرعة كذلك ، وقيل : حمل الركاب على السير .

(٢) كما في « البخاري » (١٦٧١) ، و« أبي داوود » (١٩٢٠) ، و« النسائي » (٥/٢٥٧) .

(٣) هو في معناه ضمن الحديث السابق ، وهو بلفظه مع النهي من رواية ابن البختري كما في « مجموع فيه مصنفاته » (٢٠٨) ، ومعنىٰ (**توجلوا**) : تؤذوا .

(٤) **مؤتنفة** : متجددة مستأنفة .

(٥) أي : علىٰ جبل قُزَح ، وعبارة المصنف في « الخلاصة » (ص ٢٣٥) : (غلس بالصبح ، ووقف علىٰ قزح للدعاء إلىٰ مقاربة شروق الشمس) .

(٦) رواه أبو الشيخ في « طبقات المحدثين » (٤٤١) بنحوه غير مخصوص بمزدلفة .

ثمَّ يدفعُ منها قبلَ طلوعِ الشمسِ حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ موضعٍ يقالُ لهُ : وادي مُحَسِّرٍ ، فيستحبُّ لهُ أنْ يحرّكَ دابتَهُ حتَّىٰ يقطعَ عرْضَ الوادي ، وإنْ كانَ راجلاً . . أسرعَ في المشيِ .

ثمَّ إذا أصبحَ يومَ النحرِ . . خلطَ التلبيةَ بالتكبيرِ ، فيلبِّي تارةً ويكبِّرُ أخرىٰ ، فينتهي إلىٰ منىً ومواضعِ الجمراتِ ، وهيَ ثلاثةٌ ، فيجاوزُ الأولىٰ والثانيةَ . . فلا شغلَ لهُ معَهُما يومَ النحرِ ، حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ جمرةِ العقبةِ ، وهيَ علىٰ يمينِ مستقبلِ القبلةِ في الجادَّةِ ، والمرمىٰ مرتفعٌ قليلاً في سفحِ الجبلِ ، وهوَ ظاهرٌ بمواقعِ الجمراتِ ، ويرمي جمرةَ العقبةِ بعدَ طلوعِ الشمسِ بقِيدِ رمْحٍ ، وكيفيتُهُ : أنْ يقفَ مستقبلاً للقبلةِ ـ وإنِ استقبلَ الجمرةَ . . فلا بأسَ ـ ويرميَ سبعَ حصياتٍ رافعاً يدَهُ ، ويبدِّلُ التلبيةَ بالتكبيرِ ، ويقولُ معَ كلِّ حصاةٍ : (اللهُ أكبرُ ، علىٰ طاعةِ الرحمـٰنِ ورغمِ الشيطانِ ، اللهمَّ ؛ تصديقاً بكتابِكَ واتباعاً لسنَّةِ نبيِّكَ)[1]

فإذا رمىٰ . . قطعَ التلبيةَ والتكبيرَ ، إلا التكبيرَ عَقيبَ فرائضِ الصلواتِ مِنْ ظهرِ يومِ النحرِ إلىٰ عَقيبِ الصبحِ آخرَ أيامِ التشريقِ ، ولا يقفُ في هـٰذا اليومِ للدعاءِ ، بلْ يدعو في منزلِهِ .

وصفةُ التكبيرِ : أنْ يقولَ : (اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، مخلصينَ لهُ الدينَ ولوْ كرِهَ الكافرونَ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ ، صدقَ وعدهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ) .

ثمَّ ليذبحِ الهدْيَ إنْ كانَ معهُ ، والأولىٰ أنْ يذبحَ بنفسِهِ ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ، منكَ وبكَ ولكَ تقبَّلْ منِّي كما تقبَّلْتَ مِنْ خليلِكَ إبراهيمَ)[2]

والتضحيةُ بالبُدْنِ أفضلُ ، ثمَّ بالبقرِ ، ثمَّ بالشاةِ ، والشاةُ أفضلُ مِنْ مشاركةِ ستةٍ في البَدَنَةِ أوِ البقرةِ ، والضأْنُ أفضلُ مِنَ المعزِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأُضْحِيَّةِ الكبشُ الأقرنُ »[3] ، والبيضاءُ أفضلُ مِنَ الغبراءِ والسوداءِ ، وقالَ أبو هريرةَ : (البيضاءُ أفضلُ في الأضحىٰ مِنْ دمِ سوداوينِ)[4]

وليأكلْ منهُ إنْ كانَ مِنْ هـٰذِي التطوعِ ، ولا يضحينْ بالعرجاءِ والجدعاءِ والعضباءِ والجرباءِ والشرقاءِ والخرقاءِ والمقابلةِ والمدابرةِ والعجفاءِ ؛ والجَدَعُ في الأنفِ والأُذنِ : القطعُ منهما ، والعَضْبُ : في القرْنِ وفي نقصانِ القوائمِ ، والشرقاءُ : المشقوقةُ الأذنِ مِنْ فوقٍ ، والخرقاءُ : مِنْ أسفلَ ، والمقابلةُ : المخروقةُ الأذنِ مِنْ قدَّامٍ ، والمدابرةُ : مِنْ خلفٍ ، والعجفاءُ : المهزولةُ التي لا تُنْقِي ؛ أي : لا مخَّ لها مِنَ الهزالِ[5]

ثمَّ ليحلقْ بعدَ ذٰلكَ ، والسنَّةُ أنْ يستقبلَ القبلةَ ، ويبتدئَ بمقدَّمِ رأسِهِ ، فيحلقُ الشقَّ الأيمنَ إلى العظمينِ المشرفينِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٦٠٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧٩/٥) عن علي رضي الله تعالىٰ عنه .

(٢) فقد ذبح رسول الله صلى الله عليه وسلم كبشين أقرنين أملحين مَوجَأين كما في « أبي داوود » (٢٧٩٥) . فلما وجههما قال : « إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض علىٰ ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذٰلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم ؛ منك ولك وعن محمد وأمته ، باسم الله والله أكبر » ثم ذبح .

(٣) رواه أبو داوود (٣١٥٦) ، والترمذي (١٥١٧) ، وابن ماجه (٣١٣٠) .

(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٨١٦٥) ، ورفعه أحمد في « المسند » (٤١٧/٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٢٧/٤) .

(٥) قوت القلوب (١١٨/٢) .

على القفا ، ثمَّ يحلقُ الباقيَ ، ويقولُ : (اللهمَّ ؛ أثبتْ لي بكلِّ شعرةٍ حسنةً ، وامحُ عنّي بها سيئةً ، وارفعْ لي بها عندَكَ درجةً)[1]

والمرأةُ تقصِّرُ مِنْ شعرِها ، والأصلعُ يستحبُّ لهُ إمرارُ الموسىٰ علىٰ رأسِهِ ، ومهما حلقَ بعدَ رميِ الجمرةِ . . فقدْ حصلَ لهُ التحلُّلُ الأوَّلُ ، وحلَّ لهُ كلُّ المحظوراتِ في الإحرامِ إلا النساءَ والصيدَ .

ثمَّ يفيضُ إلىٰ مكَّةَ ويطوفُ كما وصفناهُ ، وهٰذا الطوافُ طوافُ ركنٍ في الحجِّ ، ويسمَّىٰ : طوافَ الزيارةِ ، وأوَّلُ وقتِهِ : بعدَ نصْفِ الليلِ مِنْ ليلةِ النحرِ ، وأفضلُ وقتِهِ : يومُ النحرِ ، ولا آخرَ لوقتِهِ ، بلْ لهُ أنْ يؤخِّرَ إلىٰ أيِّ وقتٍ شاءَ ، ولٰكنْ يبقىٰ متقيِّداً بعلقةِ الإحرامِ ، فلا تحلُّ لهُ النساءُ إلىٰ أنْ يطوفَ ، فإذا طافَ . . تمَّ التحلُّلُ ، وحلَّ الجماعُ ، وارتفعَ الإحرامُ بالكليَّةِ ، ولمْ يبقَ إلا رميُ أيامِ التشريقِ والمبيتُ بمنىً ، وهيَ واجباتٌ بعدَ زوالِ الإحرامِ علىٰ سبيلِ الإتباعِ للحجِّ .

وكيفيةُ هٰذا الطوافِ معَ الركعتينِ كما سبقَ في طوافِ القدومِ ، فإذا فرغَ مِنَ الركعتينِ . . فليسعَ كما وصفنا إنْ لمْ يكنْ سعىٰ بعدَ طوافِ القدومِ ، وإنْ كانَ قدْ سعىٰ . . فقدْ وقعَ ذٰلكَ ركناً ، فلا ينبغي أنْ يعيدَ السعيَ .

وأسبابُ التحلُّلِ ثلاثةٌ : الرميُ ، والحلْقُ ، والطوافُ الذي هوَ ركنٌ ، ومهما أتىٰ باثنينِ مِنْ هٰذهِ الثلاثةِ . . فقدْ تحلَّلَ أحدَ التحلُّلينِ ، ولا حرجَ عليهِ في التقديمِ والتأخيرِ في هٰذهِ الثلاثِ معَ الذبحِ ، ولٰكنِ الأحسنُ أنْ يرميَ ، ثمَّ يذبحَ ، ثمَّ يحلقَ ، ثمَّ يطوفَ .

والسنةُ للإمامِ في هٰذا اليومِ : أنْ يخطبَ بعدَ الزوالِ ، وهيَ خطبةُ وداعِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] ، **ففي الحجِّ أربعُ خطبٍ** : خطبةُ يومِ السابعِ ، وخطبةُ يومِ عرفةَ ، وخطبةُ يومِ النحرِ ، وخطبةُ يومِ النفرِ الأوَّلِ ، وكلُّها عَقيبَ الزوالِ ، وكلُّها أفرادٌ إلا خطبةَ يومِ عرفةَ وخطبةَ يومِ العيدِ ؛ فإنَّهُما خطبتانِ بينَهُما جلسةٌ .

ثمَّ إذا فرغَ مِنَ الطوافِ . . عادَ إلىٰ منىً للمبيتِ والرمي ، فيبيتُ تلكَ الليلةَ بمنىً ، وتسمَّىٰ ليلةَ القَرِّ ؛ لأنَّ الناسَ في غدِها يقَرُّونَ بمنىً ولا ينفرونَ .

فإذا أصبحَ اليومَ الثاني مِنَ العيدِ وزالتِ الشمسُ . . اغتسلَ للرميِ ، وقصدَ الجمرةَ الأولى التي تلي عرفةَ ، وهيَ علىٰ يمينِ الجادَّةِ ، ويرمي إليها بسبعِ حصياتٍ ، فإذا تعدَّاها . . انحرفَ قليلاً عنْ يمينِ الجادَّةِ ، ووقفَ مستقبلَ القبلةِ وحَمِدَ اللهَ تعالىٰ ، وهلَّلَ وَكبَّرَ ، ودعا معَ حضورِ القلبِ وخشوعِ الجوارحِ ، ووقفَ مستقبلَ القبلةِ قدْرَ قراءةِ سورةِ (البقرةِ) مقبلاً على الدعاءِ .

ثمَّ يتقدَّمُ إلى الجمرةِ الوسطىٰ ، ويرمي كما رمى الأُولىٰ ، ويقفُ كما وقفَ للأُولىٰ .

ثمَّ يتقدَّمُ إلىٰ جمرةِ العقبةِ ويرمي سبعاً ، ولا يعرِّجُ علىٰ شغلٍ ، ولا يقفُ لدعاءٍ ، بلْ يرجعُ إلىٰ منزلِهِ ، ويبيتُ تلكَ الليلةَ بمنىً ، وتسمَّىٰ هٰذهِ الليلةُ ليلةَ النَّفرِ الأوَّلِ .

---

(١) فيه أثر رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (١/١٩٠) ، ويكبر بعد الفراغ ، ويدفن شعره ، ويصلي بعده ركعتين ، وإن قصَّر . . فليقصر الجميع . انظر « الإتحاف » (٤/٣٩٩) .

(٢) كما في « البخاري » (٩٦٨) ، ومسلم (١٦٧٩) ، وهي خطبة يوم النحر .

ويصبحُ ، فإذا صلَّى الظهرَ في اليومِ الثاني مِنْ أيامِ التشريقِ . . رمىٰ في هـٰذا اليومِ إحدىٰ وعشرينَ حصاةً كاليومِ الذي قبلَهُ ، ثمَّ هوَ مخيَّرٌ بينَ المُقامِ بمنىً وبينَ العودِ إلىٰ مكَّةَ ، فإنْ خرجَ مِنْ منىً قبلَ غروبِ الشمسِ . . فلا شيءَ عليهِ ، وإنْ صبرَ إلى الليلِ . . فلا يجوزُ لهُ الخروجُ ، بلْ يلزمُهُ المبيتُ حتَّىٰ يرميَ في يومِ النَّفْرِ الثاني إحدىٰ وعشرينَ حصاةً كما سبقَ .

وفي تركِ المبيتِ والرميِ إراقةُ دمٍ ، وليتصدَّقْ باللحمِ[1] ، ولهُ أنْ يزورَ البيتَ في ليالي منىً ، بشرطِ ألا يبيتَ إلا بمنىً ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يفعلُ ذٰلكَ[2] ، ولا يتركنْ حضورَ الفرائضِ معَ الإمامِ في مسجدِ الخَيْفِ ؛ فإنَّ فضلَهُ عظيمٌ ، فإذا أفاضَ مِنْ منىً . . فالأَوْلىٰ أنْ يقيمَ بالمُحَصَّبِ مِنْ منىً ، ويصليَ العصرَ والمغربَ والعشاءَ ، ويرقدَ رقدةً ، فهوَ السنَّةُ ، رواهُ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ[3] فإنْ لمْ يفعلْ ذٰلكَ . . فلا شيءَ عليهِ .

* * *

---

(١) فلا يجوز له الأكل منه ؛ لأنه دم واجب .

(٢) رواه ذٰلك ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٤٤٩٢) ، وأبو داوود في « المراسيل » (١٥١) .

(٣) رواه البخاري (١٧٦٩) وزاد صلاة الظهر ، وهو كذٰلك عند أبي داوود (٢٠١٣) ، وقول المصنف : (رُوِيَ ذٰلك عن جماعة من الصحابة) فالمراد بهم : أبو بكر وعمر وابن عمر كما في « صحيح مسلم » (١٣١١) ، وعثمان كما عند الترمذي (٩٢١) ، وابن ماجه (٣٠٦٩) ، وقد رُوي إنكاره عن عائشة وابن عباس وطاووس ومجاهد وسعيد بن جبير ، والله أعلم . « إتحاف » (٤٠٦/٤) .

الجملة الثامنة : في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

مَنْ أرادَ أنْ يعتمرَ بعدَ حجِّهِ أوْ قبلَهُ كيفما أرادَ . . فليغتسلْ ، وليلبسْ ثيابَ الإحرامِ كما سبقَ في الحجِّ ، ويحرمْ بالعمرةِ مِنْ ميقاتِها .

وأفضلُ مواقيتِها : الجِعْرَانةُ ، ثمَّ التنعيمُ ، ثمَّ الحديبيَةُ .

وينوي العمرةَ ويلبِّي ، ويقصدُ مسجدَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، ويصلِّي ركعتينِ ويدعو بما شاءَ ، ثمَّ يعودُ إلىٰ مكَّةَ وهوَ يلبِّي حتَّىٰ يدخلَ المسجدَ الحرامَ ، فإذا دخلَ المسجدَ . . تركَ التلبيةَ ، وطافَ سبعاً ، وسعىٰ سبعاً كما وصفناهُ ، فإذا فرغَ . . حلقَ رأسَهُ وقدْ تمَّتْ عمرتُهُ .

والمقيمُ بمكَّةَ ينبغي أنْ يكثرَ الاعتمارَ والطوافَ ، وليكثرِ النظرَ إلى البيتِ ، فإذا دخلَهُ . . فليصلِّ ركعتينِ بينَ العمودينِ ، فهوَ الأفضلُ ، وليدخلْهُ حافياً موقِّراً ، قيلَ لبعضِهِمْ : هلْ دخلتَ بيتَ ربِّكَ اليومَ ؟ فقالَ : واللهِ ؛ ما أرىٰ هاتينِ القدمينِ أهلاً للطوافِ حولَ بيتِ ربِّي ، فكيفَ أراهما أهلاً لأنْ أطأَ بهما بيتَ ربِّي وقدْ علمتُ حيثُ مشتا ، وإلىٰ أينَ مشتا ؟![1]

وليكثرْ شربَ ماءِ زمزمَ ، وليستقِ بيدِهِ مِنْ غيرِ استنابةٍ إنْ أمكنَهُ ، وليرتوِ منهُ حتَّىٰ يتضلَّعَ ، وليقلْ : (اللهمَّ ؛ اجعلْهُ شفاءً مِنْ كلِّ داءٍ وسقمٍ ، وارزقني الإخلاصَ واليقينَ والمعافاةَ في الدنيا والآخرةِ)[2]

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ماءُ زمزمَ لما شربَ لهُ » أي : يشفي ما قصدَ بهِ[3]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٥٠) عن وهيب بن الورد ، عن امرأة قالت ذلك .

(٢) روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٩١١٢) ، والدارقطني في « سننه » (٢/٢٨٨) عن عكرمة قال : (كان ابن عباس إذا شرب من زمزم . . قال : اللهم ؛ إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء) . وروى ابن ماجه (٣٠٦١) عن عبد الرحمٰن بن أبي بكر قال : (كنت عند ابن عباس جالساً ، فجاءه رجل ، فقال : من أين جئت ؟ قال : من زمزم ، قال : فشربت منها كما ينبغي ؟ قال : وكيف ؟ قال : إذا شربت منها . . فاستقبل القبلة ، واذكر اسم الله ، وتنفس ثلاثاً ، وتضلع منها ـ والتضلع : الامتلاء حتىٰ تمتد الأضلاع ـ فإذا فرغت . . فاحمد الله عز وجل ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم ») . وفي « البخاري » (٥٦١٧) ، و« مسلم » (٢٠٢٧) : (أنه صلى الله عليه وسلم شرب من زمزم قائماً) .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٠٦٢) ، وقول المصنف : (يشفي ما قصد به) ليس تخصيصاً ، فقد روى الدارقطني في « سننه » (٢/٣٨٩) مرفوعاً : « ماء زمزم لما شرب له ؛ إن شربته تستشفي به . . شفاك الله ، وإن شربته لشبعك . . أشبعك الله به ، وإن شربته ليقطع ظمأك . . قطعه الله ، وهي هزمة جبريل ، وسقيا الله إسماعيل » ، وروى الدينوري في « المجالسة » (ص ٨٦) عن الحميدي قال : (كنا عند سفيان بن عيينة ، فحدثنا بحديث زمزم أنه لما شرب له ، فقام رجل من المجلس ثم عاد ، فقال له : يا أبا محمد ؛ أليس الحديث صحيحاً الذي حدثتنا به في زمزم أنه لما شرب له ؟ فقال سفيان : نعم ، فقال الرجل : فإني قد شربت الآن دلواً من زمزم علىٰ أنك تحدثني بمئة حديث ـ وعند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/٣٠٨) : بمئتي حديث ـ فقال سفيان : اقعد ، فحدثه بمئة حديث) .

الجملة التاسعة : في طواف الوداع

مهما عنَّ لهُ الرجوعُ إلى الوطنِ بعدَ الفراغِ مِنْ إتمامِ الحجِّ والعمرةِ . . فلينجزْ أوّلاً أشغالَهُ ، وليشدَّ رحالَهُ ، وليجعلْ آخرَ أشغالِهِ وداعَ البيتِ ، ووداعُهُ بأنْ يطوفَ بهِ سبعاً كما سبقَ ، ولـٰكنْ مِنْ غيرِ رَمَلٍ واضطباعٍ .

فإذا فرغَ منهُ . . صلَّىٰ ركعتينِ خلفَ المقامِ ، وشربَ مِنْ ماءِ زمزمَ ، ثمَّ يأتي الملتزمَ ، ويدعو ويتضرَّعُ ، ويقولُ : (اللهمَّ ؛ البيتُ بيتُكَ ، والعبدُ عبدُكَ وابنُ عبدِكَ وابنُ أمتِكَ ، حملتَني علىٰ ما سخرتَ لي مِنْ خلقِكَ حتَّىٰ سيرتَني في بلادِكَ ، وبلغتَني بنعمتِكَ حتَّىٰ أعنتَني علىٰ قضاءِ مناسكِكَ ، فإنْ كنتَ رضيتَ عنِّي . . فازددْ عنِّي رضاً ، وإلا . . فمُنَّ الآنَ قبلَ تباعدي عنْ بيتِكَ[1] ، هـٰذا أوانُ انصرافي إنْ أذنتَ لي غيرَ مستبدلٍ بكَ ولا ببيتِكَ ، ولا راغبٍ عنْكَ ولا عنْ بيتِكَ ، اللهمَّ ؛ أصحبني العافيةَ في بدني ، والعصمةَ في ديني ، وأحسنْ منقلبي ، وارزقني طاعتَكَ ما أبقيتَني ، واجمعْ لي خيرَ الدنيا والآخرةِ ؛ إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، اللهمَّ ؛ لا تجعلْ هـٰذا آخرَ عهدي ببيتِكَ الحرامِ ، وإنْ جعلتَهُ آخرَ عهدي . . فعوضني عنهُ الجنَّةَ)[2] .

والأحبُّ : ألا يصرفَ بصرَهُ عنِ البيتِ حتَّىٰ يغيبَ عنهُ .

* * *

(١) ذكر الإمام النووي رحمه الله في قوله : (فمن الآن) ثلاثة أوجه : فمُنَّ الآنَ ، فمِنَ الآنَ ، فمِنِ الآنَ ، ورجح الأول . انظر « المجموع » (١٨٩/٨) .

(٢) روىٰ هـٰذا الدعاء البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٦٤/٥) عن الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه وفيه : (أحب له إذا ودع البيت ...) .

الجملة العاشرة : في زيارة المدينة وآدابها

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارني بعدَ وفاتي . . فكأنَّما زارني في حياتي »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ وجدَ سعةً ولمْ يفدْ إليَّ . . فقدْ جفاني »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جاءَني زائراً لا يهمُّهُ إلا زيارتي . . كانَ حقّاً على اللهِ سبحانَهُ أنْ أكونَ لهُ شفيعاً »[3]

فمنْ قصدَ زيارةَ المدينةِ . . فليصلِّ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في طريقِهِ كثيراً .

فإذا وقعَ بصرُهُ علىٰ حيطانِ المدينةِ وأشجارِها . . قالَ : (اللهمَّ ؛ هٰذا حرمُ رسولِكَ ، فاجعلْهُ لي وقايةً مِنَ النارِ ، وأماناً مِنَ العذابِ وسوءِ الحسابِ) .

وليغتسلْ قبلَ الدخولِ مِنْ بئرِ الحَرَّةِ ، وليتطيَّبْ ، وليلبسْ أفضلَ ثيابِهِ وأنظفَها ، فإذا دخلَها . . فليدخلْها متواضعاً معظِّماً ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ وعلىٰ ملَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ربِّ ؛ أدخلني مُدْخَلَ صدْقٍ ، وأخرجني مُخْرَجَ صدقٍ ، واجعلْ لي مِنْ لدنْكَ سُلطاناً نصيراً) .

ثمَّ يقصدُ المسجدَ ويدخلُهُ[4] ، ويصلِّي بجنْبِ المنبرِ ركعتينِ ، ويجعلُ عمودَ المنبرِ حذاءَ مَنكبِهِ الأيمنِ ، ويستقبلُ الساريةَ التي إلىٰ جانبِها الصندوقُ ، وتكونُ الدائرةُ التي في قبلةِ المسجدِ بينَ عينيهِ ؛ فذٰلكَ موقفُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يغيَّرَ المسجدُ ، وليجتهدْ أنْ يصليَ في مسجدِهِ الأوَّلِ قبلَ أنْ يزادَ فيهِ .

ثمَّ يأتي قبرَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقفُ عندَ وجهِهِ ، وذٰلكَ بأنْ يستدبرَ القبلةَ ويستقبلَ جدارَ القبرِ علىٰ نحوٍ مِنْ أربعةِ أذرعٍ مِنَ الساريةِ التي في زاويةِ جدارِ القبرِ ، ويجعلُ القنديلَ علىٰ رأسِهِ[5] ، وليسَ مِنَ السنَّةِ أنْ يمسَّ الجدارَ ، ولا أنْ يقبِّلَهُ[6] ، بلِ الوقوفُ مِنْ بعدٍ أقربُ إلى الاحترامِ ، فيقفُ ويقولُ : (السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، السلامُ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٨٩ ، ٣٤٠٠) ، والدارقطني في « سننه » (٢٧٨/٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٤٦/٥) ، وانظر « شفاء السقام » (ص ٣٢) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (١٤/٧) ، والدارقطني في « غرائب مالك » كما في « المغني عن حمل الأسفار » (٨١٨) ، وانظر « شفاء السقام » (ص ٢٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٩١/١٢) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٩٠/٢) ، وصححه سعيد بن السكن كما في « شفاء السقام » (ص ١٦ ، ٢٠) ، والإمام تقي الدين السبكي جمع في « شفائه » من الأحاديث والأخبار في تأييد هٰذا المعنىٰ ما هو المغنَىٰ .

(٤) من باب جبريل عليه السلام ، مقدماً يمناه في الدخول ، قائلاً : باسم الله ، اللهم ، رب محمد ؛ صلِّ علىٰ محمد ، ربِّ ؛ اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك . « إتحاف » (٤١٧/٤) .

(٥) كذا رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٧١) عن ابن أبي مليكة ، واليوم يقف أمام الشباك الذي هو في المواجهة الشريفة .

(٦) فقد روى ابن عاصم الأصبهاني في « جزئه » (٢٧) عن نافع : (أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يكره مس قبر النبي صلى الله عليه وسلم) . قال الحافظ الذهبي في « معجم الشيوخ » (٧٣/١) معلقاً علىٰ هٰذه الرواية بعدما رواها من طريق أحمد بن عبد المنعم القزويني : (قلت : كره ذلك لأنه رآه إساءة أدب ، وقد سئل أحمد ابن حنبل عن مس القبر النبوي وتقبيله . . فلم يرَ بذٰلك بأساً ، رواه عنه ولده عبد الله بن أحمد ، فإن قيل : فهلا فعل ذلك الصحابة ؟ قيل : لأنهم عاينوه حياً وتملَّوا به ، وقبَّلوا يده ، وكادوا يقتتلون علىٰ وضوئه ، واقتسموا شعره المطهر يوم الحج الأكبر ، وكان إذا تنخم لا تكاد نخامته تقع إلا في يد رجل فيدلك بها وجهه ، ونحن فلمَّا لم يصح لنا مثل هٰذا النصيب الأوفر . . ترامينا علىٰ قبره بالالتزام والتبجيل والاستلام والتقبيل ، ألا ترىٰ فعل ثابت البناني ؛ كان يقبِّل يد أنس بن مالك ويضعها علىٰ وجهه ويقول : يد مست

عليكَ يا نبيَّ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا أمينَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا حبيبَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا صفوةَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا خيرةَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا أحمدُ ، السلامُ عليكَ يا محمدُ ، السلامُ عليكَ يا أبا القاسمِ ، السلامُ عليكَ يا ماحي ، السلامُ عليكَ يا عاقبُ ، السلامُ عليكَ يا حاشرُ ، السلامُ عليكَ يا بشيرُ ، السلامُ عليكَ يا نذيرُ ، السلامُ عليكَ يا طُهْرُ ، السلامُ عليكَ يا طاهرُ ، السلامُ عليكَ يا أكرمَ ولدِ آدمَ ، السلامُ عليكَ يا سيِّدَ المرسلينَ ، السلامُ عليكَ يا خاتمَ النبيينَ ، السلامُ عليكَ يا رسولَ ربِّ العالمينَ ، السلامُ عليكَ يا قائدَ الخيرِ ، السلامُ عليكَ يا فاتحَ البِرِّ[1] ، السلامُ عليكَ يا نبيَّ الرحمةِ ، السلامُ عليكَ يا هاديَ الأمَّةِ ، السلامُ عليكَ يا قائدَ الغرِّ المحجلينَ .

السلامُ عليكَ وعلىٰ أهلِ بيتِكَ الذينَ أذهبَ اللهُ عنهمُ الرجسَ وطَهَّرَهُم تطهيراً .

السلامُ عليكَ وعلىٰ أصحابِكَ الطيبينَ وعلىٰ أزواجِكَ الطاهراتِ أمهاتِ المؤمنينَ .

جزاكَ اللهُ عنَّا أفضلَ ما جزىٰ نبيّاً عنْ قومِهِ ، ورسولاً عنْ أمَّتِهِ ، وصلَّىٰ عليكَ كلَّما ذكرَكَ الذاكرونَ ، وكلَّما غفلَ عنكَ الغافلونَ وصلَّىٰ عليكَ في الأوَّلينَ والآخرينَ أفضلَ وأكملَ وأعلىٰ وأجلَّ وأطيبَ وأطهرَ ما صلَّىٰ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِهِ ، كما استنقذَنا بكَ مِنَ الضلالةِ ، وبصَّرَنا بكَ مِنَ العَمايةِ[2] ، وهدانا بكَ مِنَ الجهالةِ .

أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّكَ عبدُهُ ورسولُهُ ، وأمينُهُ وصفيُّهُ ، وخيرتُهُ مِنْ خلقِهِ ، وأشهدُ أنَّكَ قدْ بلغتَ الرسالةَ ، وأديتَ الأمانةَ ، ونصحتَ الأمَّةَ ، وجاهدْتَ عدوَّكَ ، وهديتَ أمَّتَكَ ، وعبدتَ ربَّكَ حتَّىٰ أتاكَ اليقينُ ، فصلَّى اللهُ عليكَ وعلىٰ أهلِ بيتِكَ الطيبينَ ، وسلَّمَ وكرَّمَ وشرَّفَ وعظَّمَ) .

وإنْ كانَ قدْ أوصيَ بتبليغِ سلامٍ[3] . . فيقولُ : (السلامُ عليكَ مِنْ فلانٍ ، السلامُ عليكَ مِنْ فلانٍ) .

ثمَّ يتأخَّرُ قدْرَ ذراعٍ ، ويسلِّمُ علىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ لأنَّ رأسَهُ عندَ مَنْكِبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ورأسُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ عندَ منكبِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ[4] . ثمَّ يتأخرُ قدْرَ ذراعٍ ، ويسلِّمُ على الفاروقِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، ويقولُ : (السلامُ عليكما يا وزيري رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والمعاونينِ لهُ على القيامِ بالدِّينِ ما دامَ حيّاً ، والقائمينِ في أمَّتِهِ بعدَهُ بأمورِ الدينِ ، تتبعانِ في ذٰلكَ آثارَهُ ، وتعملانِ بسنَّتِهِ ، فجزاكُما اللهُ خيرَ ما جزىٰ وزراءَ نبيٍّ عنْ دينِهِ) .

ثمَّ يرجعُ ، فيقفُ عندَ رأسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ القبرِ والأُسطوانَةِ اليومَ ، ويستقبلُ القبلةَ ، وليحمدِ اللهَ

يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهـٰذه الأمور لا يحركها من المسلم إلا فرط حبه للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ هو مأمور بأن يحب الله ورسوله أشد من حبه لنفسه وولده والناس أجمعين ، ومن أمواله ومن الجنة وحورها ، بل خلْقٌ من المؤمنين يحبون أبا بكر وعمر أكثر من حب أنفسهم ، حكىٰ لنا جندار أنه كان بجبل البقاع ، فسمع رجلاً سب أبا بكر ، فسلَّ سيفه وضرب عنقه ، ولو كان سمعه يسبه أو يسب أباه . . لما استباح دمه ، ألا ترى الصحابة في فرط حبهم للنبي صلى الله عليه وسلم قالوا : ألا نسجد لك ؟ فقال : « لا » ، فلو أذن لهم . . لسجدوا له سجود إجلال وتوقير ، لا سجود عبادة ؛ كما قد سجد إخوة يوسف عليه السلام ليوسف ، وكذٰلك القول في سجود المسلم لقبر النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ سبيل التعظيم والتبجيل لا يكفَّر به أصلاً بل يكون عاصياً ، فليعرف أن هـٰذا منهي عنه ، وكذٰلك الصلاة إلى القبر) ، وله كذٰلك نحو هـٰذا في « سير أعلام النبلاء » (٤/٤٢) و(١١/٢١٢) .

(١) بالكسر ، وهو الخير والفضل ؛ أي : فاتح أبوابه ومقرب أسبابه . « إتحاف » (٤/٤١٨) .

(٢) استنقذنا : خلصنا ، والعماية : الغواية ، والحيرة ، والظلمة .

(٣) وهـٰذه الوصاية بإبلاغه صلى الله عليه وسلم السلام من فعل السلف ، وقد روى البيهقي في « الشعب » (٣٨٦٩) عن حاتم بن وردان قال : (كان عمر بن عبد العزيز يوجه بالبريد قاصداً إلى المدينة ليقرئ عنه النبي صلى الله عليه وسلم السلام) .

(٤) نقل ذٰلك أبو زرعة كما في « الشعب » (٣٨٧٥) .

عزَّ وجلَّ ، وليمجدْهُ ، وليكثرْ مِنَ الصلاةِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ يقولُ : (اللهمَّ ، إنَّكَ قدْ قلتَ وقولُكَ الحقُّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

اللهمَّ ؛ إنَّا قدْ سمعْنا قولَكَ ، وأطعْنا أمرَكَ ، وقصدنا نبيَّكَ ، مستشفعينَ بهِ إليكَ في ذنوبِنا وما أثقلَ ظهورَنا مِنْ أوزارِنا ، تائبينَ مِنْ زللِنا ، معترفينَ بخطايانا وتقصيرِنا ، فتبِ اللهمَّ علينا ، وشفِّعْ نبيَّكَ هٰذا فينا[١] ، وارفعْنا بمنزلتِهِ عندَكَ وحقِّهِ عليكَ .

اللهمَّ ؛ اغفرْ للمهاجرينَ والأنصارِ ، واغفرْ لنا ولإخوانِنا الذينَ سبقونا بالإيمانِ .

اللهمَّ ؛ لا تجعلْهُ آخرَ العهدِ مِنْ قبرِ نبيِّكَ ومِنْ حرمِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ)[٢]

ثمَّ يأتي الروضةَ ، فيصلِّي فيها ركعتينِ ، ويكثرُ مِنَ الدعاءِ ما استطاعَ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما بينَ قبري ومنبري روضةٌ مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، ومنبري علىٰ حوضي »[٣]

ويدعو عندَ المنبرِ ، ويستحبُّ أنْ يضعَ يدَهُ على الرمَّانَةِ السفلى التي كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضعُ يدَهُ عليها عندَ الخطبةِ[٤]

ويستحبُّ لهُ أنْ يأتيَ أُحُداً يومَ الخميسِ[٥] ، ويزورَ قبورَ الشهداءِ ، فيصلِّي الغداةَ في مسجدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ يخرجُ ويعودُ إلى المسجدِ لصلاةِ الظهرِ ، فلا تفوتُهُ فريضةٌ في الجماعةِ في مسجدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ويستحبُّ أنْ يخرجَ كلَّ يومٍ إلى البقيعِ بعدَ السلامِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٦] ، ويزورَ قبرَ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وقبرَ الحسنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما ، وفيهِ أيضاً قبرُ عليِّ بنِ الحسينِ ، ومحمدِ بنِ عليٍّ ، وجعفرِ بنِ محمدٍ رضيَ اللهُ عنهُم أجمعينَ ، ويصليَ في مسجدِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، ويزورَ قبرَ إبراهيمَ بنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقبرَ صفيَّةَ عمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذٰلكَ كلُّهُ بالبقيعِ .

ويستحبُّ لهُ أنْ يأتيَ مسجدَ قُباءَ في كلِّ سبتٍ ويصلِّيَ فيهِ ؛ لما رُوِيَ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ خرجَ مِنْ بيتِهِ حتَّىٰ يأتيَ مسجدَ قباءَ ويصلِّي فيهِ . . كانَ لهُ عَدْلُ عمرةٍ »[٧]

---

(١) ويشير بذٰلك إلىٰ حضرته صلى الله عليه وسلم بالتفات وجهه إليه . « إتحاف » (٤٢٢/٤) .

(٢) وإن لم يستحضر هٰذا الدعاء . . فليدع بما أحب وألهمه الله علىٰ لسانه وقلبه . « إتحاف » (٤٢٢/٤) .

(٣) رواه البخاري (١١٩٦) ، ومسلم (١٣٩١) ، وفيهما : (بيتي) بدل (قبري) ، وبيته صلى الله عليه وسلم هو قبره ، وجاء التصريح بلفظ : (قبري) عند أحمد في « المسند » (٦٤/٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٦١٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٤٦/٥)

(٤) تأسياً بفعل السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم ، روى ابن سعد في « طبقاته » (٢١٨/١) عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط قال : (رأيت ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا خلا المسجد . . أخذوا برمانة المنبر الصلعاء التي تلي القبر بميامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون) ، وروى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩٢/٥١) عن محمد بن إبراهيم التيمي قال : (رأيت سعد بن أبي وقاص وابن عمر يأخذان برمانة المنبر ثم ينصرفان) .

(٥) لكون الوقعة كانت في يوم الخميس ، أو لكونه يوم فراغ أهل المدينة من أشغالهم ، أو للنظر إلىٰ قوله صلى الله عليه وسلم ـ كما روىٰ ذٰلك الطبراني في « الأوسط » (٤٨٢٦) ـ : « بورك لأمتي في غدوة الخميس » ، أو لغير ذٰلك ، وهٰذا إن اتفق للحاج والزائر ، فإن لم يمكنه . . ففي أي يوم يتفق « إتحاف » (٤٢٣/٤) .

(٦) وقد جاء الأمر من الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم بزيارة أهل البقيع والاستغفار لهم ، كما في « مسلم » (٩٧٤) .

(٧) رواه النسائي (٣٧/٢) ، وابن ماجه (١٤١٢) .

ويأتي بئرَ أَرِيسَ ، ويقالُ : إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تفلَ فيها مِنْ ريقِهِ[1] ، وهيَ عندَ المسجدِ ، فيتوضَّأُ منها ، ويشربُ مِنْ مائِها ، ويأتي مسجدَ الفتحِ ، وهوَ على الخندقِ ، وكذا يأتي سائرَ المساجدِ والمشاهدِ .

ويقالُ : إنَّ جميعَ المشاهدِ والمساجدِ بالمدينةِ ثلاثونَ موضعاً ، يعرفُها أهلُ البلدِ ، فيقصدُ ما قَدَرَ عليهِ ، وكذلكَ يقصدُ الآبارَ التي كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتوضَّأُ منها ، ويغتسلُ ويشربُ منها ، وهي سبعُ آبارٍ[2] ؛ طلباً للشفاءِ ، وتبرُّكاً بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وإنْ أمكنَهُ الإقامةُ بالمدينةِ معَ مراعاةِ الحرمةِ . . فلها فضلٌ عظيمٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يصبر علىٰ لأوائِها وشدَّتِها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامةِ »[3] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استطاعَ أنْ يموتَ بالمدينةِ . . فليمتْ بها ؛ فإنَّهُ لنْ يموتَ بها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً أوْ شهيداً يومَ القيامةِ »[4]

ثمَّ إذا فرغَ مِنْ أشغالِهِ ، وعزمَ على الخروجِ مِنَ المدينةِ . . فالمستحبُّ أنْ يأتيَ القبرَ الشريفَ ، ويعيدَ دعاءَ الزيارةِ كما سبقَ ، ويودِّعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يرزقَهُ العَوْدَ إليهِ ، ويسألَ السلامةَ في سفرِهِ ، ثمَّ يصلِّيَ ركعتينِ في الروضةِ الصغيرةِ ، وهيَ موضعُ مقامِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ زيدتِ المقصورةُ في المسجدِ .

فإذا خرجَ . . فليُخْرِجْ رجلَهُ اليسرىٰ أوَّلاً ، ثمَّ اليمنىٰ ، وليقلْ : (اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، ولا تجعلْهُ آخرَ العهدِ بنبيِّكَ ، وحطَّ أوزاري بزيارتِهِ ، وأصحبْني في سفري السلامةَ ، ويسِّرْ رجوعي إلىٰ أهلي ووطني سالماً ، يا أرحمَ الراحمينَ) .

وليتصدَّقْ علىٰ جيرانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قَدَرَ عليهِ ، وليتتبَّعِ المساجدَ التي بينَ المدينةِ ومكَّةَ فيصلِّيَ فيها ، وهي عشرونَ موضعاً[5]

❋ ❋ ❋

---

(١) كما روىٰ ذلك البيهقي في « دلائل النبوة » (١٣٦/٦) عن يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك وقد سأل عن بئر بقباء فدَلَّ عليها فقال : (لقد كانت هـٰذه وإن الرجل لينضح علىٰ حماره ، فينزح ، فنستخرجها له ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بذَنوب ـ دلوٍ ـ فسقي ، فإما أن يكون توضأ منه أو تفل فيه ، ثم أمر به فأعيد في البئر ، قال : فما نزحت بعدُ) ، وقد بين الحافظ الشامي أنها هي بئر أريس في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٣٤٦/٧) ، وأَرِيس : نسبة إلىٰ رجل من يهود ، وهو الفلاح بلغة أهل الشام ، ومنه حديث : « فإن عليك إثم الأريسيين » ، وهي من أعذب آبار المدينة المنورة .

(٢) قال الحافظ الشامي في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٣٤٦ ـ ٣٦٠) : (جملة الآبار التي ورد شربه صلى الله عليه وسلم منها وبصقه فيها ودعاؤه بالبركة لها هي إحدىٰ وعشرون بئراً ، الذي اشتهر معرفته منها سبع) ، قال الحافظ العراقي في « المغني » : (وهي بئر أريس ، وبَيرَحاء وقد تفصل لتصير : بير حاء ، وبئر رُومَة ، وبئر غَرْس ، وبئر بُضاعة ، وبئر البُصَة بتخفيف الصاد وتشديدها ، وبئر السُّقيا أو العهن أو بئر جمل ، تردد في السابعة بين هـٰذه الثلاثة) . فجاء ذكر بئر أريس في « البخاري » (٣٦٧٤) ، و« مسلم » (٢٤٠٣) ، وبيرحاء في « البخاري » (٤٥٥٥) ، و« مسلم » (٩٩٨) وهي بئر أبي طلحة رضي الله عنه ، وبئر رومة في « الترمذي » (٣٦٩٩) ، وبئر غَرْس في « ابن ماجه » (١٤٦٨) إذ أوصىٰ صلى الله عليه وسلم أن يغسل إن مات بسبع قِرَب منها ، وبئر بضاعة في « أبي داوود » (٦٦) ، و« الترمذي » (٦٦) ، و« النسائي » (١٧٤/١) ، وبئر البصة فانظر « خلاصة الوفا » (١٢٦/٢) إذ نسبه لابن عدي ، وبئر السقيا في « أبي داوود » (٣٧٣٥) ، وبئر جمل في « البخاري » (٣٣٧) ، و« مسلم » (٣٦٩) ، وبئر العهن فقد ذهب السيد السمهودي إلىٰ أنها هي بئر اليسيرة كما في « خلاصة الوفا » (١٣٨/٢ ، ١٤٢) .

(٣) رواه مسلم (١٣٦٣) .

(٤) رواه الترمذي (٣٩١٧) ، وابن ماجه (٣١١٢) .

(٥) روىٰ ذلك البخاري في « صحيحه » (٤٨٣ ، ٤٨٤) .

فصل في سنن الرجوع من السفر

كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قفلَ مِنْ غزوٍ أوْ حجٍّ أوْ غيرِهِ . . يكبِّرُ علىٰ كلِّ شَرَفٍ مِنَ الأرضِ ثلاثَ تكبيراتٍ ، ويقولُ : « لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، آيبونَ تائبونَ عابدونَ ساجدونَ لربِّنا حامدونَ ، صدقَ اللهُ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ »[1] ، وفي بعضِ الرواياتِ : « وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، لهُ الحكْمُ وإليهِ ترجعونَ »[2] ، فينبغي أنْ يستعملَ هٰذهِ السنَّةَ في رجوعِهِ .

وإذا أشرفَ علىٰ مدينتِهِ . . يحرِّكُ الدابَّةَ ويقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْ لنا بها قراراً ورزقاً حسناً)[3] ، ثمَّ ليرسلْ إلىٰ أهلِهِ مَنْ يخبرُهُمْ بقدومِهِ كي لا يقدمَ عليهم بغتةً[4] ، فذٰلكَ هوَ السنَّةُ ، ولا ينبغي أنْ يطرقَ أهلَهُ ليلاً[5] ، فإذا دخلَ البلدَ . . فليقصدِ المسجدَ أوَّلاً ، وليصلِّ ركعتينِ ، فهوَ السنَّةُ ، كذٰلكَ كانَ يفعلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[6]

فإذا دخلَ بيتَهُ . . قالَ : (توباً توباً ، لربنا أوباً ، لا يغادِرُ علينا حُوباً)[7]

فإذا استقرَّ في منزلِهِ . . فلا ينبغي أنْ ينسىٰ ما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ مِنْ زيارةِ بيتِهِ وحرمِهِ وقبرِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيكفرَ تلكَ النعمةَ بأنْ يعودَ إلى الغفلةِ واللهوِ والخوضِ في المعاصي ، فما ذٰلكَ علامةَ الحجِّ المبرورِ ، بلْ علامتُهُ أنْ يعودَ زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرةِ ، متأهِّباً للقاءِ ربِّ البيتِ بعدَ لقاءِ البيتِ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤) .

(٢) رواه المحاملي في « الدعاء » (٧٧) .

(٣) روى المحاملي في « الدعاء » (٩٥) : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من أسفاره ، فأشرف على المدينة . . يسرع السير ويقول : « اللهم ؛ اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً » .

(٤) كما في « البخاري » (٥٠٧٩) ، و« مسلم » (١٨١/١٩٢٨) إذ قال صلى الله عليه وسلم للركب : « أمهلوا حتىٰ ندخل ليلاً ؛ أي : عشاء ، كي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » ، فإعلام الأهل مفهوم من سياق الحديث .

(٥) أي : بعد العشاء ، فلا يدخل حتىٰ يحصل الإخبار لأهله بقدومه ، والليل مانع منه .

(٦) كما في « البخاري » (٤٤١٨) ، و« مسلم » (٧١٦) .

(٧) رواه أحمد في « المسند » (٢٥٥/١) ، ومعنىٰ (لا يغادر) : لا يترك ، والحوب : الإثم .

البَابُ الثَّالِثُ
في الآداب الدّقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب
وهي عشرة

الأَوَّلُ : أنْ تكونَ النفقةُ حلالاً ، وتكونَ اليدُ خاليةً مِنْ تجارةٍ تشغَلُ القلبَ وتفرّقُ الهمَّ ، حتَّىٰ يكونَ الهمُّ مجرَّداً للهِ تعالىٰ ، والقلبُ مطمئناً منصرفاً إلىٰ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ وتعظيمِ شعائرِهِ .

وقدْ رُوِيَ في خبرٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : « إذا كانَ آخرُ الزمانِ . . خرجَ الناسُ إلى الحجِّ أربعةَ أصنافٍ : سلاطينُهُمْ للنزهةِ ، وأغنياؤُهُم للتجارةِ ، وفقراؤُهُمْ للمسألةِ ، وقراؤُهُمْ للسمعَةِ »[١]

وفي الخبرِ إشارةٌ إلىٰ جملةِ أغراضِ الدنيا التي يتصوَّرُ أنْ تتصلَ بالحجِّ ، وكلُّ ذٰلكَ ممَّا يمنعُ فضيلةَ الحجِّ ، ويخرجُهُ عنْ حيِّزِ حجِّ الخصوصِ ، لا سيما إذا كانَ متَّجِراً بنفسِ الحجِّ ؛ بأنْ يحجَّ لغيرِهِ بأجرةٍ ، فيطلبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ ، وقدْ كرهَ الورعونَ وأربابُ القلوبِ ذٰلكَ إلا أنْ يكونَ قصدُهُ المُقامَ بمكَّةَ ولمْ يكنْ لهُ ما يبلِّغُهُ ، فلا بأسَ أنْ يأخذَ ذٰلكَ علىٰ هٰذا القصدِ ، لا ليتوصلَ بالدِّينِ إلى الدنيا ، بلْ بالدنيا إلى الدينِ ، وعندَ ذٰلكَ ينبغي أنْ يكونَ قصدُهُ زيارةَ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومعاونةَ أخيهِ المسلمِ بإسقاطِ الفرضِ عنهُ ، وفي مثلِهِ ينزَّلُ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُدْخِلُ اللهُ سبحانَهُ بالحجَّةِ الواحدةِ ثلاثةً الجنةَ : الموصِي بها ، والمنفِذُ لها ، ومَنْ حجَّ بها عنْ أخيهِ »[٢]

ولستُ أقولُ : لا تحلُّ الأجرةُ ، أوْ يحرمُ ذٰلكَ بعدَ أنْ أسقطَ فرضَ الإسلامِ عنْ نفسِهِ ، ولٰكنِ الأَوْلىٰ ألا يفعلَ ، ولا يتخذَ ذٰلكَ مكسبَهُ ومتجرَهُ ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يعطي الدنيا بالدينِ ، ولا يعطي الدينَ بالدنيا ، وفي الخبرِ : « مثلُ الذي يغزو في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ويأخذُ أجراً مثلُ أمِّ موسىٰ عليهِ السلامُ ، ترضعُ ولدَها وتأخذُ أجرَها »[٣]

فمَنْ كانَ مثالُهُ في أخذِ الأُجرةِ على الحجِّ مثالَ أمِّ موسىٰ . . فلا بأسَ بأخذِهِ ؛ فإنَّهُ يأخذُ ليتمكَّنَ مِنَ الحجِّ والزيارةِ فيهِ ، وليسَ يحجُّ ليأخذَ الأجرةَ ، بلْ يأخذُ الأجرةَ ليحجَّ ؛ كما كانتْ أمُّ موسىٰ تأخذُ ليتيسَّرَ لها الإرضاعُ بتلبيسِ حالِها عليهِمْ .

❁ ❁ ❁

الثاني : ألا يعاونَ أعداءَ اللهِ سبحانَهُ بتسليمِ المكْسِ[٤] ، وهمُ الصادُّونَ عنِ المسجدِ الحرامِ مِنْ أمراءِ مكَّةَ والأعرابِ المترصِّدينَ في الطريقِ ؛ فإنَّ تسليمَ المالِ إليهِمْ إعانةٌ على الظلْمِ وتيسيرٌ لأسبابِهِ عليهِمْ ، فهوَ كالإعانةِ بالنفسِ .

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٩٥/١٠) بنحوه ، وأبو عثمان الصابوني في « المئتين » ، وساق سنده الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤٣٢/٤) ، ولفظ المصنف من « القوت » (١١٧/٢) ، وكذا سياق المصنف هنا .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٨٠/٥) ، وفي « الشعب » (٣٨٢٨)

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٩٨٨١) ، وأبو داوود في « المراسيل » (٣١٨) .

(٤) **المكْس** : الجباية والظلم ، وغلب استعماله فيما يأخذه أعوان السلطان ظلماً عند البيع والشراء ، ونحو ذٰلك ، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داوود (٢٩٣٧) : « لا يدخل الجنة صاحب مكس »

فليتلطفْ في حيلةِ الخلاصِ ، فإنْ لمْ يقدرْ . . فقدْ قالَ بعضُ العلماءِ ـ ولا بأسَ بما قالَهُ ـ : (إنَّ تركَ التنفُّلِ بالحجِّ والرجوعَ عنِ الطريقِ أفضلُ مِنْ إعانةِ الظلمةِ)[1] ، فإنَّ هـٰذهِ بدعةٌ أحدثَتْ ، وفي الانقيادِ لها ما يجعلُها سنَّةً مطردةً ، وفيهِ ذلٌّ وصَغارٌ على المسلمينَ ببذْلِ جزيةٍ .

ولا معنىٰ لقولِ القائلِ : (إنَّ ذٰلكَ يؤخذُ منِّي وأنا مضطرٌّ) فإنَّهُ لوْ قعدَ في البيتِ ، أوْ رجعَ مِنَ الطريقِ . . لمْ يؤخذْ منهُ شيءٌ ، بلْ ربما يُظهِرُ أسبابَ الترفُّهِ ، فتكثرُ مطالبتُهُ ، ولوْ كانَ في زيِّ الفقراءِ . . لمْ يطالبْ ، فهوَ الذي ساقَ نفسَهُ إلىٰ حالةِ الاضطرارِ .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : التوسُّعُ في الزادِ ، وطيبُ النفسِ بالبذلِ ، والإنفاقُ مِنْ غيرِ تقتيرٍ ولا إسرافٍ ، بلْ على الاقتصادِ ، وأعني **بالإسرافِ** : التنعُّمَ بأطايبِ الأطعمةِ ، والترفُّهَ بأشرفِ أنواعِها علىٰ عادةِ المترفينَ ، فأمَّا كثرةُ البذْلِ . . فلا سرفَ فيهِ ؛ إذْ لا خيرَ في السرفِ ولا سرفَ في الخيرِ كما قيلَ[2] ، وبذلُ الزادِ في طريقِ الحجِّ نفقةٌ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والدرهمُ بسبعِ مئةِ درهمٍ ، قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (مِنْ كرمِ الرجلِ طيبُ زادِهِ في سفرِهِ)[3] ، وكانَ يقولُ : (أفضلُ الحجاجِ أخلصُهُمْ نيَّةً ، وأزكاهُمْ نفقةً ، وأحسنُهُمْ يقيناً)[4]

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجُّ المبرورُ ليسَ لهُ جزاءٌ إلا الجنةَ » ، فقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما برُّ الحجِّ ؟ فقالَ : « طيبُ الكلامِ ، وإطعامُ الطعامِ »[5]

❊ ❊ ❊

الرابعُ : تركُ الرفثِ والفسوقِ والجدالِ كما نطقَ بهِ القرآنُ .

والرفثُ : اسمٌ جامعٌ لكلِّ لغوٍ وخناً وفحشٍ مِنَ الكلامِ ، ويدخلُ فيهِ مغازلةُ النساءِ ومداعبتُهُنَّ ، والتحدثُ بشأنِ الجماعِ ومقدماتِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يهيجُ داعيةَ الجماعِ المحظورِ ، والداعي إلى المحظورِ محظورٌ .

والفسوقُ : اسمٌ جامعٌ لكلِّ خروجٍ عنْ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

والجدالُ : هوَ المبالغةُ في الخصومةِ ، والمماراةُ بما يورثُ الضغائنَ ، ويفرِّقُ في الحالِ الهمَّةَ ، ويناقضُ حسنَ الخلقِ .

وقدْ قالَ سفيانُ : (مَنْ رفثَ . . فسدَ حجُّهُ)[6] ، وقدْ جعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ طيبَ الكلامِ معَ إطعامِ الطعامِ مِنْ برِّ الحجِّ[7] ، والمماراةُ تناقضُ طيبَ الكلامِ ، فلا ينبغي أنْ يكونَ كثيرَ الاعتراضِ علىٰ رفيقِهِ وجمَّالِهِ ، وعلىٰ غيرِهِما مِنْ أصحابِهِ ، بلْ يلينُ جانبَهُ ، ويخفضُ جناحَهُ للسائرينَ إلىٰ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

---

(١) قوت القلوب (١١٧/٢) .
(٢) نسبه ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٦١٤/٢) للحسن بن سهل .
(٣) قوت القلوب (١١٥/٢) .
(٤) قوت القلوب (١١٥/٢) .
(٥) أوله في « الصحيحين » وقد تقدم ، وهو بهـٰذا اللفظ رواه أحمد في « المسند » (٣٢٥/٣) بنحوه .
(٦) قوت القلوب (١١٥/٢) .
(٧) تقدم في الحديث السابق .

ويلزمُ حسنَ الخلقِ ، وليسَ حسنُ الخلقِ كفَّ الأذىٰ ، بلِ احتمالُ الأذىٰ ، وقيلَ : سمِّيَ السفرُ سفراً لأنَّهُ يُسْفِرُ عنْ أخلاقِ الرجالِ ، ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لمَنْ زعمَ أنَّهُ يعرفُ رجلاً : هلْ صحبتَهُ في السفرِ الذي يستدلُّ بهِ علىٰ مكارمِ الأخلاقِ ؟ قالَ : لا ، فقالَ : ما أراكَ تعرفُهُ[1]

❀ ❀ ❀

الخامسُ : أنْ يحجَّ ماشياً إن قدرَ عليهِ ، فذٰلكَ الأفضلُ ، أوصىٰ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما بنيهِ عندَ موتهِ فقالَ : يا بنيَّ ؛ حجوا مشاةً ؛ فإنَّ للحاجِّ الماشي بكلِّ خطوةٍ يخطوها سبعَ مئةِ حسنةٍ مِنْ حسناتِ الحرمِ ، قيلَ : وما حسناتُ الحرمِ ؟ قال : الحسنةُ بمئةِ ألفٍ[2]

والاستحبابُ في المشيِ في المناسكِ ، والتردُّدِ مِنْ مكَّةَ إلى الموقفِ وإلىٰ منىً آكدُ منهُ في الطريقِ .

وإنْ أضافَ إلى المشيِ الإحرامَ مِنْ دويرةِ أهلِهِ ؛ فقدْ قيلَ : إنَّ ذٰلكَ مِنْ إتمامِ الحجِّ ، قالَهُ عمرُ وعليٌّ وابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُم في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾[3]

وقالَ بعضُ العلماءِ : الركوبُ أفضلُ ؛ لما فيهِ مِنَ الإنفاقِ والمؤنةِ ولأنَّهُ أبعدُ عنْ ضجرِ النفسِ وأقلُّ لأذاهُ ، وأقربُ إلىٰ سلامتِهِ وتمامِ حجِّهِ[4] .

وهٰذا عندَ التحقيقِ ليسَ مخالفاً للأوَّلِ ، بلْ ينبغي أنْ يفصَّلَ ويقالَ : مَنْ سهلَ عليهِ المشيُ . . فهو أفضلُ ، فإنْ كانَ يضعفُ ويؤدِّي بهِ ذٰلكَ إلىٰ سوءِ الخلقِ وقصورٍ عنْ عملٍ . . فالركوبُ لهُ أفضلُ ، كما أنَّ الصومَ أفضلُ للمسافرِ والمريضِ ما لمْ يفضِ إلىٰ ضعْفٍ وسوءِ خلقٍ .

وسئلَ بعضُ العلماءِ عن العمرةِ : المشيُ فيها أفضلُ أَوْ يكتري حماراً بدرهمٍ ؟ فقالَ : إنْ كانَ وزنُ الدرهمِ أشدَّ عليهِ . . فالكراءُ أفضلُ مِنَ المشيِ ، وإنْ كانَ المشيُ أشدَّ عليهِ ؛ كالأغنياءِ . . فالمشيُ لهُ أفضلُ[5]

وكأنَّهُ ذهبَ فيهِ إلىٰ طريقِ مجاهدةِ النفسِ ، ولهُ وجهٌ ، ولٰكنِ الأفضلُ لهُ أنْ يمشيَ ويصرفَ ذٰلكَ الدرهمَ إلىٰ خيرٍ ، فهوَ أولىٰ مِنْ صرفِهِ إلى المكاري ، عوضاً عنْ إيذاءِ الدابةِ ، فإذا كانَ لا تتسعُ نفسُهُ للجمعِ بينِ مشقةِ النفسِ ونقصانِ المالِ . . فما ذكرهُ غيرُ بعيدٍ فيهِ .

❀ ❀ ❀

السادسُ : ألا يركبَ إلا زاملةً ، أمَّا المحملُ . . فليجتنبْهُ ، إلا إذا كانَ يخافُ على الزاملةِ ، أَوْ لا يستمسكُ عليها لعذرٍ ، **وفيهِ معنيانِ** :

أحدُهُما : التخفيفُ عنِ البعيرِ ؛ فإنَّ المحملَ يؤذيهِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٧) ، وبلفظ المصنف هو في « القوت » (٢/١١٥) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٦٩٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٤٦٠) ، وبلفظ المصنف رواه أبو ذر الهروي في « منسكه » كما في « الإتحاف » (٤/٤٣٥) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٢٧٦) عن علي رضي الله عنه ، وانظر « التلخيص الحبير » (٤/١٥٢٧) ، وهو ما ذهب إليه أبو طالب في « القوت » (٢/١١٧) .

(٤) قوت القلوب (٢/١١٦)

(٥) قوت القلوب (٢/١١٧) .

والثاني : اجتنابُ زيِّ المترفينَ والمتكبرينَ .

حجَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على راحلةٍ وكانَ تحتهُ رحْلٌ رثٌّ وقطيفةٌ خلقةٌ قيمتُها أربعةُ دراهمَ[1] ، وطافَ على الراحلةِ لينظرَ الناسُ إلى هديهِ وشمائلِهِ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خذوا عنِّي مناسككُمْ »[2]

وقيلَ : إنَّ هـٰذهِ المحاملَ أحدثَها الحَجَّاجُ ، وكانَ العلماءُ في وقتِهِ ينكرونَها[3]

وروىٰ سفيانُ الثوريُّ عنْ أبيهِ أنَّهُ قالَ : (برزتُ مِنَ الكوفةِ إلى القادسيةِ للحجِّ ، ووافيت الرفاقَ مِنَ البلدانِ ، فرأيتُ الحاجَّ كلَّهم علىٰ زواملَ وجُوالِقاتٍ ورواحلَ ، وما رأيتُ في جميعِهِمْ إلا محملينِ)[4]

وكانَ ابنُ عمرَ إذا نظرَ إلىٰ ما أحدثَ الحُجَّاجُ مِنَ الزيِّ والمحاملِ . . يقولُ : الحاجُّ قليلٌ والركبُ كثيرٌ ، ثمَّ نظرَ إلىٰ رجلٍ مسكينٍ رثِّ الهيئةِ تحتَهُ جُوالِقٌ فقالَ : هـٰذا نعم مِنَ الحُجَّاجِ[5]

❁ ❁ ❁

السابعُ : أنْ يكونَ رثَّ الهيئةِ ، أشعثَ ، أغبرَ ، غيرَ مستكثرٍ مِنَ الزينةِ ، ولا مائلٍ إلىٰ أسبابِ التفاخرِ والتكاثرِ ، فيكتبُ في ديوانِ المتكبرينَ والمترفهينَ ، ويخرجُ عنْ حزبِ الضعفاءِ والمساكينِ وخصوصِ الصالحينَ ، فقدْ أمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالشَّعَثِ والاحتفاءِ[6] ، ونهىٰ عنِ التنعُّمِ والرفاهيةِ في حديثِ فضالةَ بنِ عبيدٍ[7]

وفي الحديثِ : « إنَّما الحاجُّ الشَّعِثُ التَّفِلُ »[8] ، « يقولُ اللهُ تعالى : انظروا إلىٰ زوَّارِ بيتي ، قدْ جاؤوني شُعْثاً غُبْراً مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ »[9]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ ، والتفثُ : الشعَثُ والاغبرارُ ، وقضاؤُهُ بالحلْقِ وقصِّ الشاربِ والأظفارِ[10]

وكتبَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ أمراءِ الأجنادِ : (اخلولقوا ، واخشوشنوا)[11] أي : البسوا الخُلْقانَ ، واستعملوا الخشونةَ في الأشياءِ .

---

(١) كما روىٰ ذٰلك الترمذي في « الشمائل » (٣٣٤) ، وهو عند ابن ماجه (٢٨٩٠) كذٰلك ، ومع ذٰلك كان يقول : « اللهم ؛ اجعله حجّاً لا رياء فيه ولا سمعة » .

(٢) رواه مسلم (١٢٩٧) .

(٣) حكىٰ ذٰلك الجاحظ في « البيان والتبيُّن » (٣٠٣/٢) ، وقال : وقال بعض رجاز الأكرياء :

أولُ عــبــدٍ عــمــلَ الــمــحــامــلا أخــزاه ربــي عــاجــلاً وآجــلا

وسياق المصنف في « القوت » (١١٦/٢) .

(٤) قوت القلوب (١١٦/٢) ، والجوالقات : الأوعية الكبيرة ، مفرده : جِوالِق ، وهو معرَّب ، ويقال في الجمع : جَواليق وجَوالِق أيضاً .

(٥) قوت القلوب (١١٦/٢) .

(٦) **الشعث** : انتشار الشعر وترك تعاهده ، **والاحتفاء** : المشي حافياً ، وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٨٤٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٠٥٨) مرفوعاً : « تمعددوا واخشوشنوا وانتضلوا وامشوا حفاة » .

(٧) رواه أبو داوود (٤١٦٠) وهو قوله : (كان صلى الله عليه وسلم ينهانا عن كثير من الإرفاه) ، وقال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نحتفي أحياناً) ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٢٤٣/٥) من وصيته صلى الله عليه وسلم معاذاً لما بعثه إلى اليمن : « إياك والتنعمَ ـ ولفظه : إياي ؛ لأن راويه هو معاذ نفسه ـ فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين » .

(٨) رواه الترمذي (٢٩٩٨) ، وابن ماجه (٢٨٩٦) .

(٩) رواه الطبراني في « الكبير » (٤٢٥/١٢) بلفظ المصنف ضمن حديث طويل ، وكذا أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٥/٣) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٤٦٥/١) بغير زيادة : « من كل فج عميق » ، وهو كذٰلك عند أحمد في « المسند » (٢٢٤/٢) ، وهـٰذا الخبر والذي قبله ساقهما صاحب « القوت » (١١٦/٢) خبراً واحداً ، والمصنف تبعه .

(١٠) كذا في « القوت » (١١٦/٢) ، وقد روىٰ ذٰلك الطبري عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم في « تفسيره » (١٩٠/١٧/١٠) .

(١١) رواه الحربي في « غريب الحديث » (خ ش ب) وزاد فيه : (واخشوشبوا) .

وقدْ قيلَ : « زينُ الحجيجِ أهلُ اليمنِ »[1] ؛ لأنَّهُمْ علىٰ هيئةِ التواضعِ والضعفِ وسيرةِ السلفِ .

وينبغي أنْ يجتنبَ الحمرةَ في زيِّهِ على الخصوصِ ، والشهرةَ كيفما كانتْ على العمومِ ؛ فقدْ رُويَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ في سفرٍ ، فنزلَ أصحابُهُ منزلاً ، فسرحتِ الإبلُ ، فنظرَ إلىٰ أكسيةٍ حمْرٍ على الأقتابِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرىٰ هـٰذهِ الحُمْرةَ قدْ غلبتْ عليكُمْ !! » قالوا : فقمنا إليها ونزعناها عنْ ظهورِها حتَّىٰ شَرَدَ بعضُ الإبلِ[2]

❁ ❁ ❁

الثامنُ : أنْ يرفُقَ بالدابَّةِ ، فلا يحمِّلُها ما لا تطيقُ ، والمَحْمِلُ خارجٌ عنْ حدِّ طاقتِها ، والنومُ عليها يؤذيها ويثقلُ عليها ، كانَ أهلُ الورعِ لا ينامونَ على الدوابِّ إلا غفوةً عنْ قعودٍ ، وكانوا لا يقفونَ عليها الوقوفَ الطويلَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتخذوا ظهورَ دوابِّكُمْ كراسيَّ »[3]

ويستحبُّ أنْ ينزلَ عنْ دابتِهِ غدوةً وعشيةً يروِّحُها بذٰلكَ ، فهوَ سنةٌ[4] ، وفيهِ آثارٌ عنِ السلفِ[5] ، وكانَ بعضُ السلفِ يكتري بشرطِ ألا ينزلَ ، ويوفي الأجرةَ ، ثمَّ كانَ ينزلُ ؛ ليكونَ بذٰلكَ محسناً إلى الدابةِ ، فيكونَ في حسناتِهِ ، ويوضعَ في ميزانِهِ لا في ميزانِ المكاري[6]

وكلُّ مَنْ آذىٰ بهيمةً ، وحمَّلَها ما لا تطيقُ . . طولبَ بهِ يومَ القيامةِ ، قالَ أبو الدرداءِ لبعيرٍ لهُ عندَ الموتِ : (يا أيُّها البعيرُ ؛ لا تخاصمني إلىٰ ربِّكَ ، فإنِّي لمْ أكنْ أحمِّلُكَ فوقَ طاقتِكَ)[7]

وعلى الجملةِ : في كلِّ كبدٍ حرَّىٰ أجرٌ[8] ، فليراعِ حقَّ الدابَّةِ وحقَّ المكاري جميعاً ، وفي نزولِهِ ساعةً ترويحُ الدابةِ وسرورُ قلبِ المكاري ، قالَ رجلٌ لابنِ المباركِ : احملْ لي هـٰذا الكتابَ معكَ لتوصلَهُ ، فقالَ : حتَّىٰ أستأمرَ الجمَّالَ ، فإنِّي قدِ اكتريتُ[9]

فانظرْ كيفَ تورَّعَ مِنِ استصحابِ كتابٍ لا وزنَ لهُ ، وهوَ طريقُ الحزْمِ في الورعِ ، فإنَّهُ إذا فُتِحَ بابُ القليلِ . . انجرَّ إلى الكثيرِ يسيراً يسيراً .

❁ ❁ ❁

التاسعُ : أنْ يتقرَّبَ بإراقةِ دمٍ وإنْ لمْ يكنْ واجباً عليهِ ، ويجتهدُ أنْ يكونَ مِنْ سمينِ النَّعَمِ ونفيسِهِ ، وليأكلْ منهُ إنْ كانَ تطوُّعاً ، ولا يأكلُ إنْ كانَ واجباً .

قيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ : إنَّهُ تحسينُهُ وتسمينُهُ[10]

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٨٨٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه أبو داوود (٤٠٧٠) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٤١/٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٤٤/١) .

(٤) روى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٥٥/٥) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر في السفر . . مشىٰ ـ زاد فيه غيره : قليلاً ـ وناقته تقاد) .

(٥) روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٦/٦١) : (أن نافع بن جبير كان يحج ماشياً وناقته أو راحلته تقاد معه) .

(٦) قوت القلوب (١١٦/٢) .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٣) ، وكان اسم هـٰذا البعير : دمون .

(٨) كما في « البخاري » (٢٣٦٣) ، و« مسلم » (٢٢٤٤) .

(٩) قوت القلوب (١١٦/٢) .

(١٠) روى الطبري ذٰلك في « تفسيره » (١٩٨/١٧/١٠) عن ابن عباس ومجاهد .

وسوقُ الهدي مِنَ الميقاتِ أفضلُ إنْ كانَ لا يجهدُهُ ولا يكدُّهُ ، وليتركِ المكاسَ في شرائِهِ ، فقدْ كانوا يغالونَ في ثلاثٍ ويكرهونَ المكاسَ فيهنَّ : الهديُ والأضحيةُ والرقبةُ ، فإنَّ أفضلَ ذٰلكَ أغلاهُ ثمناً وأنفسُهُ عندَ أهلِهِ .

وروى ابنُ عمرَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أُهدِيَ نجيبةً ، فطُلِبتْ منهُ بثلاثِ مئةِ دينارٍ ، فسألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يبيعَها ويشتريَ بثمنِها بُدْناً ؛ فنهاهُ عنْ ذٰلكَ وقالَ : « بلْ أهدِها »[١] ؛ وذٰلكَ لأنَّ القليلَ الجيِّدَ خيرٌ مِنَ الكثيرِ الدُّونِ ، وفي ثلاثِ مئةِ دينارٍ قيمةُ ثلاثينَ بدنةً ، وفيها تكثيرُ اللحمِ ، ولٰكنْ ليسَ المقصودُ اللحمَ ، إنما المقصودُ تزكيةُ النفسِ وتطهيرُها عنْ صفةِ البخْلِ ، وتزيينُها بجمالِ التعظيمِ للهِ عزَّ وجلَّ ، فلنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ، ولٰكنْ ينالُهُ التقوىٰ منكُمْ ، وذٰلكَ يحصلُ بمراعاةِ النفاسةِ في القيمةِ ، كثُرَ العددُ أمْ قلَّ .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ما برُّ الحجِّ ؟ فقالَ : « العجُّ والثجُّ »[٢] ، **والعجُّ** : هوَ رفعُ الصوتِ بالتلبيةِ ، **والثجُّ** : هوَ نحرُ البدْنِ .

وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما عملَ آدميٌّ يومَ النحرِ أحبَّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ إهراقِهِ دماً ، وإنَّها لتأتي يومَ القيامةِ بقرونِها وأظلافِها ، وإنَّ الدمَ يقعُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بمكانٍ قبلَ أنْ يقعَ بالأرضِ ، فطيبوا بها نفساً »[٣]

وفي الخبرِ : « لكمْ بكلِّ صوفةٍ مِنْ جلدِها حسنةٌ ، وكلِّ قطرةٍ مِنْ دمِها حسنةٌ ، وإنَّها لتوضعُ في الميزانِ ، فأبشروا »[٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استنجدُوا هداياكُمْ ؛ فإنَّها مطاياكُمْ يومَ القيامةِ »[٥]

❀ ❀ ❀

العاشرُ : أنْ يكونَ طيِّبَ النفسِ بما أنفقَهُ مِن نفقةٍ وهدْيٍ ، وبما أصابَهُ مِنْ خسرانٍ ومصيبةٍ في مالٍ أوْ بدنٍ إنْ أصابَهُ ذٰلكَ ، فإنَّ ذٰلكَ مِنْ دلائلِ قَبولِ حجِّهِ ، فإنَّ المصيبةَ في طريقِ الحجِّ تعدلُ النفقةَ في سبيلِ اللهِ تعالى ، الدرهمُ بسبعِ مئةِ درهمٍ ، وهوَ بمثابةِ الشدائدِ في طريقِ الجهادِ ، فلهُ بكلِّ أذىً احتملَهُ وخسرانٍ أصابَهُ ثوابٌ ، ولا يضيعُ منهُ شيءٌ عندَ اللهِ تعالىٰ .

ويقالُ : إنَّ مِنْ علامةِ قَبولِ الحجِّ أيضاً تركَ ما كانَ عليهِ مِنَ المعاصي ، وأنْ يستبدلَ بإخوانِهِ البطَّالينَ إخواناً صالحينَ ، وبمجالسِ اللهوِ والغفلةِ مجالسَ الذكرِ واليقظةِ[٦]

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أبو داوود (١٧٥٦) ، وفيه : (انحرها) بدل (أهدها) .
(٢) رواه الترمذي (٨٢٧) ، وابن ماجه (٢٨٩٦)
(٣) رواه الترمذي (١٤٩٣) ، وابن ماجه (٣١٢٦) .
(٤) كذا في « القوت » (١١٨/٢) ، وهو بنحوه عند ابن ماجه (٣١٢٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٨٣/٩) .
(٥) رواه الديلمي في « الفردوس » (٢٦٨) بلفظ : « استفرهوا ضحاياكم ؛ فإنها مطاياكم على الصراط » .
(٦) قوت القلوب (١١٩/٢) .

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره

اعلمْ : أنَّ أوَّلَ الحجِّ الفهْمُ ؛ أعني : فهمَ موقعِ الحجِّ في الدينِ ، ثمَّ الشوقُ إليهِ ، ثمَّ العزمُ عليهِ ، ثمَّ قطْعُ العلائقِ المانعةِ منهُ ، ثمَّ شراءُ ثوبيِ الإحرامِ ، ثمَّ شراءُ الزادِ ، ثمَّ اكتراءُ الراحلةِ ، ثمَّ الخروجُ ، ثمَّ السيرُ في الباديةِ ، ثمَّ الإحرامُ مِنَ الميقاتِ بالتلبيةِ ، ثمَّ دخولُ مكَّةَ ، ثمَّ استتمامُ الأفعالِ كما سبقَ .

وفي كلِّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الأمورِ تذكرةٌ للمتذكِّرِ ، وعبرةٌ للمعتبرِ ، وتنبيهٌ للمريدِ الصادقِ ، وتعريفٌ وإشارةٌ للفَطِنِ ، فلنرمزْ إلىٰ مفاتحِها ، حتَّىٰ إذا انفتحَ بابُها ، وعرفتْ أسبابُها . . انكشفَ لكلِّ حاجٍّ مِنْ أسرارِها ما يقتضيهِ صفاءُ قلبِهِ وطهارةُ باطنِهِ وغزارةُ علمِهِ .

❀ ❀ ❀

أمَّا الفهمُ : فاعلمْ : أنَّهُ لا وصولَ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إلا بالتنزُّهِ عنِ الشهواتِ ، والكفِّ عنِ اللذاتِ ، والاقتصارِ على الضروراتِ فيها ، والتجرُّدِللهِ سبحانَهُ في جميعِ الحركاتِ والسكناتِ ، ولأجلِ هـٰذا انفردَ الرهابينُ في المللِ السالفةِ عنِ الخلْقِ[1] ، وانحازوا إلىٰ قُلَلِ الجبالِ ، وآثروا التوحُّشَ عنِ الخلْقِ ؛ لطلبِ الأُنْسِ باللهِ تعالىٰ ، فتركوا للهِ عزَّ وجلَّ اللذاتِ الحاضرةَ ، وألزموا أنفسَهُمُ المجاهداتِ الشاقَّةَ ؛ طمعاً في الآخرةِ ، وأثنى اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِمْ في كتابِهِ فقالَ :
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

فلمَّا اندرسَ ذٰلكَ ، وأقبلَ الخلقُ على اتباعِ الشهواتِ ، وهجروا التجرُّدَ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وفتروا عنهُ . . بعثَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ نبيَّهُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لإحياءِ طريقِ الآخرةِ ، وتجديدِ سنةِ المرسلينَ في سلوكِها ، فسألَهُ أهلُ المِلَلِ عنِ الرهبانيةِ والسياحةِ في دينِهِ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبدلَنا اللهُ بها الجهادَ والتكْبيرَ علىٰ كلِّ شَرَفٍ »[2] ؛ يعني : الحجَّ .

وسئلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ السائحينَ فقالَ : « همُ الصائمونَ »[3]

فأنعمَ اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ هـٰذهِ الأمةِ بأنْ جعلَ الحجَّ رهبانيةً لهُمْ ، فشرَّفَ البيتَ العتيقَ بالإضافةِ إلىٰ نفسِهِ ونصبَهُ مقصداً لعبادِهِ ، وجعلَ ما حواليهِ حرماً لبيتِهِ تفخيماً لأمرِهِ ، وجعلَ عرفاتٍ كالميدانِ علىٰ فِناءِ حرمِهِ ، وأكَّدَ حرمةَ الموضعِ بتحريمِ صيدِهِ وشجرِهِ ، ووضعَهُ علىٰ مثالِ حضرةِ الملوكِ ، يقصدُهُ الزوَّارُ مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ ، ومِنْ كلِّ أَوْبٍ سحيقٍ ، شعثاً غبراً ، متواضعينَ لربِّ البيتِ ومستكينينَ لهُ ؛ خضوعاً لجلالِهِ واستكانةً لعزَّتِهِ ، معَ الاعترافِ بتنزُّهِهِ عنْ

---

(١) الرهابين : جمع راهب ، والمشهور رهباني ، وقيل : الرهابين جمع الجمع ، وهم عبَّاد النصارىٰ ، والاسم : الرهبانية ، من الرهبة ، وهو الخوف ، وقد ترهب الراهب : انقطع للعبادة . « إتحاف » (٤/٤٤٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الجهاد » (١٧) عن عمارة بن غزية مرسلاً ، وروىٰ أبو داوود (٢٤٨٦) عن أبي أمامة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ ائذن لي في السياحة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالىٰ » ، وحديث التكبير علىٰ كل شرف رواه البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٣٣٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/٣٠٥) .

أنْ يحويَهُ بيتٌ أوْ يكتنفَهُ بلدٌ ، ليكونَ ذٰلكَ أبلغَ في رقِّهِمْ وعبوديَّتِهِمْ ، وأتمَّ في إذعانِهِمْ وانقيادِهِمْ ، ولذٰلكَ وظَّفَ عليهِمْ فيها أعمالاً لا تأنسُ بها النفوسُ ، ولا تهتدي إلىٰ معانيها العقولُ ؛ كرمي الجمارِ بالأحجارِ ، والتردُّدِ بينَ الصفا والمروةِ علىٰ سبيلِ التكرارِ .

وبمثلِ هٰذهِ الأعمالِ يظهرُ كمالُ الرقِّ والعبوديَّةِ ؛ فإنَّ الزكاةَ إرفاقٌ[1] ، ووجهُهُ مفهومٌ ، وللعقلِ إليهِ ميلٌ ، والصومُ كسرٌ للشهوةِ التي هيَ آلةُ عدوِّ اللهِ ، وتفرُّغٌ للعبادةِ بالكفِّ عنِ الشواغلِ ، والركوعُ والسجودُ في الصلاةِ تواضعٌ للهِ عزَّ وجلَّ بأفعالٍ هيَ هيئةُ التواضعِ ، وللنفوسِ أنسٌ بتعظيمِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فأمَّا تردُّداتُ السعيِ ورميِ الجمارِ وأمثالِ هٰذهِ الأعمالِ . . فلا حظَّ للنفوسِ فيها ، ولا أنسَ للطبعِ فيها ، ولا اهتداءَ للعقلِ إلىٰ معانيها ، فلا يكونُ في الإقدامِ عليها باعثٌ إلا الأمرُ المجرَّدُ ، وقصدُ الامتثالِ للأمرِ مِنْ حيثُ إنَّهُ أمرٌ واجبُ الاتباعِ فقط ، وفيهِ عزْلُ العقلِ عنْ تصرُّفِهِ ، وصرفُ النفسِ والطبعِ عنْ محلِّ أنسِهِ ، فإنَّ كلَّ ما أدركَ العقلُ معناهُ . . مالَ الطبعُ إليهِ ميلاً ما ، فيكونُ ذٰلكَ الميلُ معيناً للأمرِ وباعثاً معهُ على الفعلِ ، فلا يكادُ يظهرُ بهِ كمالُ الرِّقِّ والانقيادِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الحجِّ على الخصوصِ : « لبيكَ بحجَّةٍ حقّاً ، تعبُّداً ورِقاً »[2] ، ولمْ يقلْ ذٰلكَ في صلاةٍ ولا غيرِها .

وإذا اقتضتْ حكمةُ اللهِ تعالىٰ ربطَ نجاةِ الخلْقِ بأنْ تكونَ أعمالُهُمْ علىٰ خلافِ هوىٰ طباعِهِمْ ، وأنْ يكونَ زمامُها بيدِ الشرعِ ، فيتردَّدونَ في أعمالِهِمْ علىٰ سننِ الانقيادِ ، وعلىٰ مقتضى الاستعبادِ . . كانَ ما لا يُهتدىٰ إلىٰ معانيهِ أبلغَ أنواعِ التعبداتِ في تزكيةِ النفوسِ ، وصرفِها عنْ مقتضى الطباعِ والأخلاقِ إلىٰ مقتضى الاسترقاقِ ، وإذا تفطنتَ لهٰذا . . فهمتَ أنَّ تعجُّبَ النفوسِ مِنْ هٰذهِ الأفعالِ العجيبةِ مصدرُهُ الذهولُ عنْ أسرارِ التعبُّداتِ .

وهٰذا القدْرُ كافٍ في تفهُّمِ أصلِ الحجِّ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الشوقُ : فإنَّما ينبعثُ بعدَ الفهْمِ والتحقُّقِ بأنَّ البيتَ بيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنَّهُ وُضِعَ علىٰ مثالِ حضرةِ الملوكِ ، فقاصدُهُ قاصدٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وزائرٌ لهُ ، وإنَّ مَنْ قصدَ البيتَ في الدنيا جديرٌ بألا تضيعَ زيارتُهُ ، فيرزقَ مقصودَ الزيارةِ في ميعادِهِ المضروبِ لهُ ، وهوَ النظرُ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ في دارِ القرارِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ العينَ القاصرةَ الفانيةَ في دارِ الدنيا لا تتهيَّأُ لقَبولِ نورِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا تطيقُ احتمالَهُ ، ولا تستعدُّ للاكتحالِ بهِ لقصورِها ، وإنَّها إنْ أُمدَّتْ في الدارِ الآخرةِ بالبقاءِ ، ونُزِّهَتْ عنْ أسبابِ التغيرِ والفناءِ . . استعدَّتْ للنظرِ والإبصارِ ، ولٰكنَّها بقصدِ البيتِ والنظرِ إليهِ تستحقُّ لقاءَ ربِّ البيتِ بحكْمِ الوعدِ الكريمِ[3] .

فالشوقُ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ يشوِّقُهُ إلىٰ أسبابِ اللقاءِ لا محالةَ ، هٰذا معَ أنَّ المحبَّ مشتاقٌ إلىٰ كلِّ ما لَهُ إلىٰ

---

(١) أي : إنفاق فيه رفق وإشفاق .

(٢) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص ٦٢٤) وهو آخر كتابه ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٨/١٤) .

(٣) فالحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، وفيها تقع المشاهدة ؛ إذ هي دار المشاهدة واللقاء ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٨٨٠٢) : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ، فرأىٰ ركباً ، فقال : مَن الركْبُ ؟ فقال : قالوا : حاجّين ، قال : ما أنهزكم غيره ثلاث مرات ؟ قالوا : لا ، قال : لو يعلم الركب بمن أناخوا . . لقرت أعينهم بالفضل بعد المغفرة . « إتحاف » (٤٤٥/٤) .

محبوبِهِ إضافةٌ ، والبيتُ مضافٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، فبالحريّ أنْ يشتاقَ إليهِ لمجرَّدِ هٰذهِ الإضافةِ ، فضلاً عنِ الطلبِ لنيلِ ما وعدَ عليهِ مِنَ الثوابِ الجزيلِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا العزمُ : فليعلمْ أنَّهُ بعزمِهِ قاصدٌ إلىٰ مفارقةِ الأهلِ والوطنِ ، ومهاجرةِ الشهواتِ واللذاتِ ، متوجهاً إلىٰ زيارةِ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فليعظِّمْ في نفسِهِ قدْرَ البيتِ ، وقدْرَ ربِّ البيتِ ، وليعلمْ أنَّهُ عزمَ علىٰ أمرٍ رفيعٍ شأنُهُ خطيرٍ أمرُهُ ، وأنَّ مَنْ طلبَ عظيماً . . خاطرَ بعظيمٍ ، وليجعلْ عزمَهُ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، بعيداً عنْ شوائبِ الرياءِ والسمعةِ .

وليتحقَّقْ أنَّهُ لا يقبلُ مِنْ قصدِهِ وعملِهِ إلا الخالصُ ، وأنَّ مِنْ أفحشِ الفواحشِ أنْ يقصدَ بيتَ الملكِ وحرمَهُ والمقصودُ غيرُهُ ، فليصحِّحْ معَ نفسِهِ العزمَ ، وتصحيحُهُ بإخلاصِهِ ، وإخلاصُهُ باجتنابِ كلِّ ما فيهِ رياءٌ وسمعةٌ ، وليحذرْ أنْ يستبدلَ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا قطعُ العلائقِ : فمعناهُ : ردُّ المظالمِ ، والتوبةُ الخالصةُ للهِ تعالىٰ عن جملةِ المعاصي ، فكلُّ مظلمةٍ علاقةٌ ، وكلُّ علاقةٍ مثلُ غريمٍ حاضرٍ متعلِّقٍ بتلابيبِهِ ينادي عليهِ ويقولُ لهُ : إلىٰ أينَ تتوجَّهُ ؟ أتقصدُ بيتَ ملكِ الملوكِ وأنتَ مضيِّعٌ أمرَهُ في منزلِكَ هٰذا ، ومستهينٌ بهِ ، ومهملٌ لهُ ؟ أوَلا تستحيي مِنْ أنْ تقدمَ عليهِ قدومَ العبدِ العاصي فيردَّكَ ولا يقبلَكَ ؟!

فإنْ كنتَ راغباً في قبولِ زيارتِكَ . . فنفِّذْ أوامرَهُ ، وردَّ المظالمَ ، وتبْ إليهِ أوَّلاً مِنْ جميعِ المعاصي ، واقطعْ علاقةَ قلبِكَ عنِ الالتفاتِ إلىٰ ما وراءَكَ ؛ لتكونَ متوجِّهاً إليهِ بوجهِ قلبِكَ كما أنَّكَ متوجِّهٌ إلىٰ بيتِهِ بوجهِ ظاهرِكَ ، فإنْ لمْ تفعلْ ذٰلكَ . . لمْ يكنْ لكَ مِنْ سفرِكَ أوَّلاً إلا النصبُ والشقاءُ ، وآخراً إلا الطرْدُ والردُّ .

وليقطعِ العلائقَ عنْ وطنِهِ قطعَ مَنِ انقلعَ عنهُ وقدَّرَ ألا يعودَ إليهِ ، وليكتبْ وصيَّتَهُ لأهلِهِ وأولادِهِ ؛ فإنَّ المسافرَ ومالَهُ لعلىٰ قَلَتٍ إلا ما وقى اللهُ تعالىٰ [1] .

وليتذكَّرْ عندَ قطعِهِ العلائقَ لسفرِ الحجِّ قطعَ العلائقِ لسفرِ الآخرةِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ بينَ يديهِ على القربِ ، وما يقدِّمُهُ مِنْ هٰذا السفرِ طمعٌ في تيسيرِ ذٰلكَ السفرِ ، فهوَ المستقرُّ وإليهِ المصيرُ ؛ فلا ينبغي أنْ يغفُلَ عنْ ذٰلكَ السفرِ عندَ الاستعدادِ لهٰذا السفرِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الزادُ : فليطلبْهُ مِنْ موضعٍ حلالٍ ، وإذا أحسَّ مِنْ نفسِهِ بالحرْصِ على استكثارِهِ ، وطلبِ ما يبقىٰ منهُ علىٰ طولِ السفرِ ولا يتغيَّرُ ولا يفسُدُ قبلَ بلوغِ المقصدِ . . فليتذكرْ أنَّ سفرَ الآخرةِ أطولُ مِنْ هٰذا السفرِ ، وأنَّ زادَهُ التقوىٰ ، وأنَّ ما عداهُ ممَّا يظنُّ أنَّهُ زادُهُ يتخلَّفُ عنهُ عندَ الموتِ ويخونُهُ ، فلا يبقىٰ معهُ ؛ كالطعامِ الرطْبِ الذي يفسُدُ في أوَّلِ منازلِ السفرِ ، فيبقىٰ وقتَ الحاجةِ متحيِّراً محتاجاً لا حيلةَ لهُ .

---

(١) القلت : الهلاك ، قال الجاحظ في « البيان والتبيُّن » (٢/١٠٥) : (وقال أعرابي : إن المسافر ومتاعه لعلىٰ قَلَتٍ إلا ما وقى الله) ، فعبارة المصنف محكية كما ترىٰ .

فليحذرْ أنْ تكونَ أعمالُهُ التي هيَ زادُهُ إلى الآخرةِ لا تصحبُهُ بعدَ الموتِ ، بلْ يفسدُها شوائبُ الرياءِ وكدوراتُ التقصيرِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الراحلةُ : إذا أحضرَها . . فليشكرِ اللهَ تعالىٰ بقلبِهِ علىٰ تسخيرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ لهُ الدوابَّ لتحمِلَ عنهُ الأذىٰ ، وتخفِّفَ عنهُ المشقَّةَ ، وليتذكرْ عندَهُ المركبَ الذي يركبُهُ إلى الدارِ الآخرةِ ، وهي الجَنازةُ التي يحمَلُ عليها ؛ فإنَّ أمرَ الحجِّ مِنْ وجهٍ يوازي أمرَ السفرِ إلى الآخرةِ .

ولينظرْ : أيصلحُ سفرُهُ علىٰ هـٰذا المركبِ لأنْ يكونَ زاداً لذٰلكَ السفرِ علىٰ ذٰلكَ المركبِ ؟ فما أقربَ ذٰلكَ منهُ !! وما يدريهِ لعلَّ الموتَ قريبٌ ، ويكونُ ركوبُهُ للجنازةِ قبلَ ركوبِهِ للجَمَّازةِ[1] ، فركوبُ الجنازةِ مقطوعٌ بهِ ، وتيسُّرُ أسبابِ السفرِ مشكوكٌ فيهِ ، فكيفَ يحتاطُ في أسبابِ السفرِ المشكوكِ فيهِ ويستظهرُ في زادِهِ وراحلتِهِ ويهملُ أمرَ السفرِ المستيقنِ ؟!

❁ ❁ ❁

وأمَّا شراءُ ثوبي الإحرامِ : فليتذكرْ عندَهُ الكفنَ ولفَّهُ فيهِ ؛ فإنَّهُ سيرتدي ويتَّزرُ بثوبي الإحرامِ عندَ القربِ مِنْ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، وربما لا يتمُّ سفرُهُ إليهِ ، وأنَّهُ سيلقى اللهَ تعالىٰ ملفوفاً في ثيابِ الكفنِ لا محالةَ[2]

فكما لا يلقىٰ بيتَ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا مخالفاً عادتَهُ في الزيِّ والهيئةِ . . فلا يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ بعدَ الموتِ إلا في زيٍّ مخالفٍ لزيِّ الدنيا ، وهـٰذا الثوبُ قريبٌ مِنْ ذٰلكَ الثوبِ ؛ إذْ ليسَ فيهِ مخيطٌ ولا محيطٌ كما في الكفنِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الخروجُ مِنَ البلدِ : فليعلمْ عندَهُ أنَّهُ فارقَ الأهلَ والوطنَ متوجِّهاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في سفرٍ لا يضاهي أسفارَ الدنيا ، فليحضرْ في قلبِهِ أنَّهُ ماذا يريدُ ؟ وأينَ يتوجهُ ؟ وزيارةَ مَنْ يقصدُ ؟ وأنَّهُ متوجِّهٌ إلىٰ ملكِ الملوكِ في زمرةِ الزائرينَ لهُ ، الذينَ نُودوا فأجابوا ، وشُوِّقوا فاشتاقوا ، واستنهضوا فنهضوا ، وقطعوا العلائقَ ، وفارقوا الخلائقَ ، وأقبلوا علىٰ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي فخَّمَ أمرَهُ وعظَّمَ شأنَهُ ورفعَ قدْرَهُ ؛ تسلِّياً بلقاءِ البيتِ عنْ لقاءِ ربِّ البيتِ ، إلىٰ أنْ يرزقوا منتهىٰ مُناهم ، ويسعَدُوا بالنظرِ إلىٰ مولاهُمْ .

وليحضرْ في قلبِهِ رجاءَ الوصولِ والقَبولِ ، لا إدلالاً بأعمالِهِ في الارتحالِ ومفارقةِ الأهلِ والمالِ ، ولـٰكنْ ثقةً بفضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ورجاءً لتحقيقِهِ وعدَهُ لمَنْ زارَ بيتَهُ ، وليرجُ أنَّهُ إنْ لمْ يصلْ وأدركتْهُ المنيَّةُ في الطريقِ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وافداً إليهِ ؛ إذْ قالَ جلَّ جلالُهُ : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[3]

وأمَّا دخولُ الباديةِ إلى الميقاتِ ، ومشاهدةُ تلكَ العقباتِ : فليتذكرْ فيها ما بينَ الخروجِ مِنَ الدنيا بالموتِ إلىٰ ميقاتِ يومِ القيامةِ ، وما بينَهُما مِنَ الأهوالِ والمطالباتِ .

---

(١) يقال : ناقة جَمَّازةٌ ؛ أي : تعدو الجمزىٰ ، وهو إسراعٌ في المشي ، **والجمز** : السير بالجنائز كذٰلك .

(٢) لما ورد : يحشر الميت في ثيابه ، ولذٰلك أمر بتحسين الأكفان . « إتحاف » (٤/٤٤٦) .

(٣) انظر ما رواه البخاري (١٢٦٥) ، ومسلم (١٢٠٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وليتذكَّرْ مِنْ هولِ قطَّاعِ الطريقِ هولَ سؤالِ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ ، ومِنْ سباعِ البوادي عقاربَ القبرِ وديدانَهُ وما فيهِ مِنَ الأفاعي والحيَّاتِ ، ومِنِ انفرادِهِ عنْ أهلِهِ وأقاربِهِ وحشةَ القبرِ وكربتَهُ ووحدتَهُ .

وليكنْ في هـٰذهِ المخاوفِ في أعمالِهِ وأقوالِهِ متزوِّداً لمخاوفِ القبرِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الإحرامُ والتلبيةُ مِنَ الميقاتِ : فليعلمْ أنَّ معناهُ إجابةُ نداءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فليرجُ أنْ يكونَ مقبولاً ، وليخشَ أنْ يقالَ لهُ : لا لبيكَ ولا سعديكَ ، وليكنْ بينَ الرجاءِ والخوفِ متردِّداً ، وعنْ حولِهِ وقوَّتِهِ متبرِّئاً ، وعلىٰ فضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وكرمِهِ متَّكلاً ؛ فإنَّ وقتَ التلبيةِ هوَ بدايةُ الأمرِ ، وهوَ محلُّ الخطرِ .

قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : حجَّ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما ، فلمَّا أحرمَ واستوتْ بهِ راحلتُهُ . . اصفرَّ لونُهُ ، وانتفضَ ، ووقعتْ عليهِ الرِّعْدَةُ ، ولمْ يستطعْ أنْ يلبِّيَ ، فقيلَ لهُ : لِمَ لا تلبِّي ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ يقالَ لي : لا لبيكَ ولا سعديكَ ، فلمَّا لبَّىٰ . . غشيَ عليهِ ووقعَ عنْ راحلتِهِ ، فلمْ يزلْ يعتريهِ ذٰلكَ حتَّىٰ قضَىٰ حجَّهُ[1]

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري : كنتُ معَ أبي سليمانَ الدارانيِّ رضيَ اللهُ عنهُ حينَ أرادَ الإحرامَ ، فلمْ يلبِّ حتَّىٰ سِرْنا ميلاً ، فأخذتْهُ كالغشيةِ ، ثمَّ أفاقَ وقالَ : يا أحمدُ ؛ إنَّ اللهَ سبحانَهُ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : مُرْ ظَلَمَةَ بني إسرائيلَ أنْ يُقِلُّوا مِنْ ذِكْري ؛ فإنِّي أذكرُ مَنْ ذكرني منهُمْ باللعنةِ ، ويحكَ يا أحمدُ ؛ بلغني أنَّ مَنْ حجَّ مِنْ غيرِ حِلِّهِ ثمَّ لبَّىٰ . . قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : لا لبيكَ ولا سعديكَ حتَّىٰ تردَّ ما في يديكَ ، فما نأمنُ أنْ يقالَ لنا ذٰلكَ[2]

وليتذكرِ الملبِّي عندَ رفعِ الأصواتِ بالتلبيةِ في الميقاتِ ؛ إجابةً لنداءِ اللهِ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ نداءَ الخلْقِ بنفْخِ الصُّورِ ، وحشرَهُمْ مِنَ القبورِ ، وازدحامَهُمْ في عرصاتِ القيامةِ مجيبينَ لنداءِ اللهِ تعالىٰ ، ومنقسمينَ إلىٰ مقرَّبينَ وممقوتينَ ، ومقبولينَ ومردودينَ ، ومتردِّدينَ في أوَّلِ الأمرِ بينَ الخوفِ والرجاءِ تردُّدَ الحاجِّ في الميقاتِ ، حيثُ لا يدرونَ أيتيسَّرُ لهمْ إتمامُ الحجِّ وقبولُهُ أمْ لا ؟

وأمَّا دخولُ مكَّةَ : فليتذكرْ عندَ ذٰلكَ أنَّهُ قدِ انتهىٰ إلىٰ حرمٍ آمنٍ ، وليرجُ عندَهُ أنْ يأمَنَ بدخولِهِ مِنْ عقابِ اللهِ تعالىٰ ، وليخشَ ألا يكونَ أهلاً للقربِ ، فيكونَ بدخولِهِ الحرَمَ خائباً مستحقّاً للمقتِ ، وليكنْ رجاؤُهُ في جميعِ الأوقاتِ غالباً ، فالكرمُ عميمٌ ، والربُّ رحيمٌ ، وشرفُ البيتِ عظيمٌ ، وحقُّ الزائرِ مرعيٌّ ، وذمامُ المستجيرِ اللائذِ غيرُ مضيَّعٍ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا وقوعُ البصرِ على البيتِ : فينبغي أنْ تُحضرَ عندَهُ عظمةَ البيتِ في القلبِ ، وتقدِّرَ أنَّكَ مشاهدٌ لربِّ البيتِ لشدَّةِ تعظيمِكَ ، وارجُ أنْ يرزقَكَ اللهُ تعالى النظرَ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ كما رزقَكَ اللهُ النظرَ إلىٰ بيتِهِ العظيمِ ، واشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ تبليغِهِ إيَّاكَ هـٰذهِ الرتبةَ ، وإلحاقِهِ إيَّاكَ بزمرةِ الوافدينَ إليهِ .

واذكرْ عندَ ذٰلكَ انصبابَ الناسِ في القيامةِ إلىٰ جهةِ الجنَّةِ آملينَ لدخولِها كافةً ، ثمَّ انقسامَهُمْ إلىٰ مأذونينَ في

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٣٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٨/٤١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٣/٩) ، والحديث الذي بلغه ما رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٢٢٤) : « وإذا خرج بالنفقة الخبيثة ، فوضع رجله في الغرز ، فنادىٰ : لبيك . . ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك ، زادك حرام ، ونفقتك حرام ، وحجك غير مبرور » .

الدخولِ ومصروفينَ ؛ انقسامَ الحاجّ إلىٰ مقبولينَ ومردودينَ ، ولا تغفُلْ عنْ تذكُّرِ أمورِ الآخرةِ في شيءٍ ممَّا تراهُ ؛ فإنَّ كلَّ أحوالِ الحاجِّ دليلٌ علىٰ أحوالِ الآخرةِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الطوافُ بالبيتِ : فاعلمْ أنَّهُ صلاةٌ ، وأحضرْ قلبَكَ فيهِ مِنَ التعظيمِ والخوفِ والرجاءِ والمحبةِ ما فصَّلْناهُ في كتابِ الصلاةِ ، واعلمْ أنَّكَ بالطوافِ متشبِّهٌ بالملائكةِ المقرَّبينَ ، الحافِّينَ حولَ العرشِ الطائفينَ حولَهُ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ المقصودَ طوافُ جسمِكَ بالبيتِ ، بلِ المقصودُ طوافُ قلبِكَ بذكْرِ ربِّ البيتِ ، حتَّىٰ لا تبتدئَ الذكرَ إلا منهُ ، ولا تختمَ إلا بهِ ؛ كما تبتدئُ الطوافَ مِنَ البيتِ وتختمُ بالبيتِ .

واعلمْ : أنَّ الطوافَ الشريفَ هوَ طوافُ القلبِ بحضرةِ الربوبيةِ ، وأنَّ البيتَ مثالٌ ظاهرٌ في عالمِ الملكِ لتلكَ الحضرةِ التي لا تشاهدُ بالبصرِ وهيَ في عالمِ الملكوتِ ، كما أنَّ البدَنَ مثالٌ ظاهرٌ في عالمِ الشهادةِ للقلبِ الذي لا يشاهدُ بالبصرِ وهوَ في عالمِ الغيبِ ، وأنَّ عالمَ الملكِ والشهادةِ مَدْرَجَةٌ إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ لمَنْ فتحَ اللهُ لهُ البابَ ، وإلىٰ هٰذهِ الموازنةِ وقعتِ الإشارةُ بأنَّ البيتَ المعمورَ في السماواتِ بإزاءِ الكعبةِ ، وأنَّ طوافَ الملائكةِ بهِ كطوافِ الإنسِ بهٰذا البيتِ ، ولمَّا قصرتْ رتبةُ أكثرِ الخلْقِ عنْ مثلِ ذٰلكَ الطوافِ . . أُمروا بالتشبُّهِ بهم بحسَبِ الإمكانِ ، ووُعِدُوا بأنَّ مَنْ تشبَّهَ بقومٍ . . فهوَ منهُمْ[1] ، والذي يقدرُ علىٰ مثلِ ذٰلكَ الطوافِ هوَ الذي يقالُ : إنَّ الكعبةَ تزورُهُ وتطوفُ بهِ ، علىٰ ما رآهُ بعضُ المكاشفينَ لبعضِ أولياءِ اللهِ سبحانه وتعالىٰ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الاستلامُ : فاعتقدْ عندَهُ أنَّكَ مبايعٌ للهِ عزَّ وجلَّ علىٰ طاعتِهِ ، فصمِّمْ عزيمتَكَ على الوفاءِ ببيعتِكَ ، فمَنْ غدَرَ في المبايعةِ . . استحقَّ المقْتَ ، وقدْ روى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ عزَّ وجلَّ في الأرضِ ، يصافحُ بها خلقَهُ كما يصافحُ الرجلُ أخاهُ »[2]

❁ ❁ ❁

وأمَّا التعلُّقُ بأستارِ الكعبةِ والالتصاقُ بالملتزمِ : فلتكنْ نيَّتُكَ في الالتزامِ طلبَ القرْبِ حبّاً وشوقاً للبيتِ ولربِّ البيتِ ، وتبرُّكاً بالمماسَّةِ ، ورجاءً للتحصُّنِ عنِ النارِ في كلِّ جزْءٍ مِنْ بدنِكَ لاقى البيتَ .

ولتكنْ نيَّتُكَ في التعلُّقِ بالسترِ الإلحاحَ في طلبِ المغفرةِ وسؤالَ الأمانِ ؛ كالمذنبِ المتعلِّقِ بثيابِ مَنْ أذنبَ إليهِ ، المتضرِّعِ إليهِ في عفوِهِ عنهُ ، المظهرِ لهُ أنَّهُ لا ملجأَ لهُ منهُ إلا إليهِ ، ولا مفزعَ لهُ إلا عفوُهُ وكرمُهُ ، وأنَّهُ لا يفارقُ ذيلَهُ إلا بالعفوِ وبذلِ الأمنِ في المستقبلِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا السعيُ بينَ الصفا والمروةِ في فِناءِ البيتِ : فإنَّهُ يضاهي تردُّدَ العبدِ بفِناءِ دارِ الملكِ جائياً وذاهباً مرَّةً بعدَ أخرىٰ ؛

---

(١) رواه أبو داوود (٤٠٣١) .

(٢) هو بسياقه هنا رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢٥٧/١) موقوفاً على ابن عباس وبلفظ : (الركن يمين الله في الأرض ، يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه) هو شطر من حديث رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٥٧/١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، **والركن هنا** : هو الحجر المذكور في الحديث .

إظهاراً للخلوصِ في الخدمةِ ورجاءً للملاحظةِ بعينِ الرحمةِ ؛ كالذي دخلَ على الملكِ وخرجَ وهوَ لا يدري ما الذي يقضي بهِ الملكُ في حقِّهِ مِنْ قَبولٍ أَوْ ردٍّ ، فلا يزالُ يتردَّدُ علىٰ فِناءِ الدارِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ يرجو أنْ يرحمَ في الثانيةِ إنْ لمْ يرحمْ في الأولىٰ .

وليتذكَّرْ عندَ تردُّدِهِ بينَ الصفا والمروةِ تردُّدَهُ بينَ كفَّتيِ الميزانِ في عرصاتِ القيامةِ ، وليمثِّلِ الصفا بكفَّةِ الحسناتِ ، والمروةَ بكفَّةِ السيئاتِ ، وليتذكَّرْ تردُّدَهُ بينَ الكفَّتينِ ناظراً إلى الرجحانِ والنقصانِ ، متردِّداً بينَ العذابِ والغفرانِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الوقوفُ بعرفةَ : فاذكرْ بما ترىٰ مِنِ ازدحامِ الخلْقِ ، وارتفاعِ الأصواتِ ، واختلافِ اللغاتِ واتباعِ الفرقِ أئمَّتَهُمْ في التردُّداتِ على المشاعرِ ؛ اقتفاءً لهُمْ وسيراً بسيرِهم . . عرصاتِ القيامةِ ، واجتماعَ الأممِ معَ الأنبياءِ والأئمَّةِ ، واقتفاءَ كلِّ أمةٍ نبيَّها ، وطمعَهُمْ في شفاعتِهِمْ ، وتحيرَهُمْ في ذٰلكَ الصعيدِ الواحدِ بينَ الردِّ والقَبولِ .

وإذا تذكَّرْتَ ذٰلكَ . . فألزمْ قلبَكَ الضراعةَ والابتهالَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فتحشرَ في زمرةِ الفائزينَ المرحومينَ ، وحقِّقْ رجاءَكَ بالإجابةِ ؛ فالموقفُ شريفٌ ، والرحمةُ إنَّما تصلُ مِنْ حضرةِ الجلالِ إلىٰ كافَّةِ الخلقِ بواسطةِ القلوبِ العزيزةِ مِنْ أوتادِ الأرضِ ، ولا ينفكُّ الموقفُ عنْ طبقةٍ مِنَ الأبدالِ والأوتادِ ، وطبقاتٍ مِنَ الصالحينَ وأربابِ القلوبِ ، فإذا اجتمعتْ هممُهُمْ وتجرَّدَتْ للضراعةِ والابتهالِ قلوبُهُمْ ، وارتفعتْ إلى اللهِ تعالىٰ أيديهِمْ ، وامتدَّتْ إليهِ أعناقُهُمْ ، وشخصتْ نحوَ السماءِ أبصارُهُمْ ، مجتمعينَ بهمَّةٍ واحدةٍ علىٰ طلبِ الرحمةِ . . فلا تظنَّنَّ أنَّهُ يخيِّبُ أملَهُمْ ، ويضيِّعُ سعيَهُمْ ، ويدخرُ عنهُمْ رحمةً تغمرُهُمْ ، ولذٰلكَ قيلَ : (إنَّ مِنْ أعظمِ الذنوبِ أنْ يحضرَ عرفاتٍ ويظنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يغفرْ لهُ) .

وكأنَّ اجتماعَ الهممِ والاستظهارَ بمجاورةِ الأبدالِ والأوتادِ المجتمعينَ مِنْ أقطارِ البلادِ . . هوَ سرُّ الحجِّ وغايةُ مقصودِهِ ، فلا طريقَ إلى استدرارِ رحمةِ اللهِ سبحانَهُ مثلُ اجتماعِ الهممِ ، وتعاونِ القلوبِ في وقتٍ واحدٍ علىٰ صعيدٍ واحدٍ [1]

❁ ❁ ❁

وأمَّا رميُ الجمارِ : فاقصدْ بهِ الانقيادَ للأمرِ ؛ إظهاراً للرقِّ والعبوديةِ ، وانتهاضاً لمجرَّدِ الامتثالِ ، مِنْ غيرِ حظٍّ للعقلِ والنفسِ .

ثمَّ اقصِدْ بهِ التشبُّهَ بإبراهيمَ عليهِ السلامُ ؛ حيثُ عرضَ لهُ إبليسُ لعنهُ اللهُ تعالىٰ في ذٰلكَ الموضعِ ليُدْخِلَ علىٰ حجِّهِ شبهةً أَوْ يفتنَهُ بمعصيةٍ ، فأمرَهُ اللهُ تعالىٰ أنْ يرميَهُ بالحجارةِ ؛ طرداً لهُ ، وقطعاً لأملِهِ [2]

فإنْ خطرَ لكَ أنَّ الشيطانَ عرضَ لهُ وشاهدَهُ فلذٰلكَ رماهُ ، وأمَّا أنا فليسَ يعرضُ ليَ الشيطانُ . . فاعلمْ أنَّ هٰذا الخاطرَ مِنَ الشيطانِ ، وأنَّهُ الذي ألقاهُ في قلبِكَ ؛ ليفتِّرَ عزمَكَ في الرميِ ، ويخيِّلَ إليكَ أنَّهُ فعلٌ لا فائدةَ فيهِ ، وأنَّهُ يضاهي اللعبَ ، فلِمَ تشتغلُ بهِ ؟!

---

(١) ومن هنا قال العارفون : إذا قرئت سورة (يسٓ) في جوف الليل الذي هو الثلث الأخير لأي حاجة . . قضيت مع الإخلاص ؛ لأنه اجتمعت فيه ثلاثة قلوب : قلب الداعي ، وقلب القرآن ، وقلب الليل ، فإذا كان هٰذا في ثلاثة قلوب . . فما بال آلاف من القلوب مع شرف الموقف ؟! وهو سر جليل . « إتحاف » (٤٥٣/٤) .

(٢) روىٰ هٰذا الخبر الأزرقي في « أخبار مكة » (٤٣/١) .

فاطرِدْهُ عنْ نفسِكَ بالجدِّ والتشميرِ في الرمي فيهِ . . ترغمْ أنفَ الشيطانِ ، واعلمْ أنَّكَ في الظاهرِ ترمي الحصىٰ إلى العقبةِ ، وفي الحقيقةِ ترمي بهِ وجهَ الشيطانِ وتقصمُ بهِ ظهرَهُ ؛ إذْ لا يحصلُ إرغامُ أنفِهِ إلا بامتثالِكَ أمرَ اللهِ سبحانه ؛ تعظيماً لمجرَّدِ الأمرِ مِنْ غيرِ حظٍّ للنفسِ والعقلِ فيهِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا ذبحُ الهديِ : فاعلمْ أنَّهُ تقرُّبٌ إلى اللهِ تعالىٰ بحكْمِ الامتثالِ ، فأكمِلِ الهديَ وأجزاءَهُ ، وارجُ أنْ يعتقَ اللهُ بكلِّ جزءٍ منهُ جزءاً منكَ مِنَ النارِ ، فهٰكذا وردَ الوعدُ ، فكلَّما كانَ الهديُ أكبرَ وأجزاؤُهُ أوفرَ . . كانَ فداؤُكَ بهِ مِنَ النارِ أعمَّ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا زيارةُ المدينةِ : فإذا وقعَ بصرُكَ علىٰ حيطانِها . . فتذكَّرْ أنَّهَا البلدةُ التي اختارَها اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وجعلَ إليها هجرتَهُ ، وأنَّها دارُهُ التي شرعَ فيها فرائضَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وسننَهُ ، وجاهدَ عدوَّهُ وأظهرَ بها دينَهُ إلىٰ أنْ توفَّاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ .

ثمَّ جعلَ تربتَهُ فيها ، وتربةَ وزيريهِ القائمَينِ بالحقِّ مِنْ بعدِهِ .

ثمَّ مثِّلْ في نفسِكَ مواقعَ أقدامِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ تردادِهِ فيها ، وأنَّهُ ما مِنْ موضعِ قدمٍ تطؤُهُ إلا وهوَ موقعُ قدمِهِ العزيزةِ ، فلا تضعُ قدمَكَ عليهِ إلا علىٰ سكينةٍ ووَجَلٍ .

وتذكَّرْ مشيَهُ وتخطيَهُ في سككِها ، وتصوَّرْ خشوعَهُ وسكينتَهُ في المشيِ ، وما استودعَ اللهُ سبحانَهُ قلبَهُ مِنْ عظيمِ معرفتِهِ ، ورفعةِ ذكرِهِ معَ ذكرِهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ قرنَهُ بذكْرِ نفسِهِ ، وإحباطَهُ عملَ مَنْ هتكَ حرمتَهُ ولوْ برفْعِ صوتِهِ فوقَ صوتِهِ .

ثمَّ تذكَّرْ ما منَّ اللهُ بِهِ علي الذينَ أدركوا صحبتَهُ وسعدوا بمشاهدتِهِ واستماعِ كلامِهِ ، وأعظمْ تأسُّفَكَ علىٰ ما فاتَكَ مِنْ صحبتِهِ وصحبةِ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُم .

ثمَّ اذكرْ أنَّكَ قدْ فاتَتْكَ رؤيتُهُ في الدنيا ، وأنَّكَ مِنْ رؤيتِهِ في الآخرةِ علىٰ خطرٍ ، وأنَّكَ ربما لا تراهُ إلا بحسرةٍ وقدْ حيلَ بينَكَ وبينَ قبولِهِ إيَّاكَ لسوءِ عملكَ ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُرفَعُ إليَّ أقوامٌ ، فيقولونَ : يا محمدُ ، يا محمدُ ؛ فأقولُ : يا ربِّ ؛ أصحابي ، فيقولُ : إنَّكَ لا تدري ما أحدثوا بعدَكَ ، فأقولُ : بُعداً وسُحقاً »[1] ، فإنْ تركتَ حرمةَ شريعتِهِ ولوْ في دقيقةٍ مِنَ الدقائقِ . . فلا تأمنْ أنْ يحالَ بينَكَ وبينَهُ بعُدُولِكَ عنْ محجَّتِهِ .

وليعْظُمْ معَ ذٰلكَ رجاؤُكَ ألا يحولَ اللهُ بينَكَ وبينَهُ بعدَ أنْ رزقَكَ الإيمانَ ، وأشخصَكَ مِنْ وطنِكَ لأجلِ زيارتِهِ مِنْ غيرِ تجارةٍ ولا حظٍّ في دنيا ، بل لمحضِ حبِّكَ لهُ وتشوُّقِكَ إلىٰ أنْ تنظرَ إلىٰ آثارِهِ ، وإلىٰ حائطِ قبرِهِ ، إذْ سمحَتْ نفسُكَ بالسفرِ لمجرَّدِ ذٰلكَ لمَّا فاتتْكَ رؤيتُهُ ، فما أجدرَكَ بأنْ ينظرَ اللهُ إليكَ بعينِ الرحمةِ .

فإذا بلغتَ المسجدَ . . فاذكرْ أنَّها العرصةُ التي اختارَها اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولأوَّلِ المسلمينَ وأفضلِهِمْ عصابةً ، وأنَّ فرائضَ اللهِ سبحانَهُ أوَّلُ ما أقيمتْ في تلكَ العرصةِ ، وأنَّها جمعَتْ أفضلَ خلْقِ اللهِ حيّاً وميْتاً .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٨٥) ، ومسلم (٢٤٩) دون لفظ النداء .

فليعظمْ أملُكَ في اللهِ سبحانَهُ أنْ يرحمَكَ بدخولِكَ إيَّاهُ ، فادخلْهُ خاشعاً معظِّماً ، وما أجدرَ هـٰذا المكانَ بأنْ يستدعيَ الخشوعَ مِنْ قلبِ كلِّ مؤمنٍ ؛ كما حُكِيَ عنْ أبي سليمانَ أنَّهُ قالَ : حجَّ أويسٌ القرنيُّ رحمَهُ اللهُ ، ودخلَ المدينةَ ، فلمَّا وقفَ علىٰ بابِ المسجدِ . . قيلَ لهُ : هـٰذا قبرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فغشيَ عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : أخرجوني ، فليسَ يلذُّ لي بلدٌ فيهِ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مدفونٌ[1]

❁ ❁ ❁

وأمَّا زيارةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : فينبغي أنْ تقفَ بينَ يديهِ كما وصفناهُ ، وتزورُهُ ميِّتاً كما تزورُهُ حيّاً .

ولا تقربُ مِنْ قبرِهِ إلا كما كنتَ تقرُبُ مِنْ شخصِهِ الكريمِ لوْ كانَ حيّاً ، وكما كنتَ ترى الحرمةَ في ألا تمسَّ شخصَهُ ولا تقبلَهُ .

بلْ تقفُ مِنْ بعدٍ ماثلاً بينَ يديهِ ، فكذٰلكَ فافعلْ ؛ فإنَّ المسَّ والتقبيلَ للمَشاهِدِ عادةُ النصارىٰ واليهودِ .

واعلمْ : أنَّهُ عالِمٌ بحضورِكَ وقيامِكَ وزيارتِكَ ، وأنَّهُ يبلغُهُ سلامُكَ وصلاتُكَ .

فمثِّلْ صورتَهُ الكريمةَ في خيالِكَ موضوعاً في اللحدِ بإزائِكَ ، وأحضرْ عظيمَ رتبتِهِ في قلبِكَ .

فقدْ رُوِيَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ وكَّلَ بقبرِهِ ملكاً يبلِّغُهُ سلامَ مَنْ سلَّمَ عليهِ مِنْ أُمَّتِهِ[2] ، هـٰذا في حقِّ مَنْ لمْ يحضرْ قبرَهُ ، فكيفَ بمَنْ فارقَ الوطنَ ، وقطعَ البواديَ شوقاً إلىٰ لقائِهِ ، واكتفاءً بمشاهدةِ مشهدِهِ الكريمِ إذْ فاتَهُ مشاهدةُ غرَّتِهِ الكريمةِ ؟!

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ مرَّةً واحدةً . . صلَّى اللهُ عليهِ عشراً »[3]

فهـٰذا جزاؤُهُ في الصلاةِ عليهِ بلسانِهِ ، فكيفَ بالحضورِ لزيارتِهِ ببدنِهِ ؟!

ثمَّ ائتِ منبرَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وتوهَّمْ صعودَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المنبرَ .

ومثِّلْ في قلبِكَ طلعتَهُ البهيَّةَ قائماً على المنبرِ وقدْ أحدقَ بهِ المهاجرونَ والأنصارُ رضيَ اللهُ عنهُم ، وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحثُّهُمْ علىٰ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بخطبتِهِ .

واسألِ اللهَ عزَّ وجلَّ ألَّا يفرِّقَ في القيامةِ بينَكَ وبينَهُ .

فهـٰذهِ وظيفةُ القلبِ في أعمالِ الحجِّ .

❁ ❁ ❁

---

(١) روى الخبر أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٢/٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥٠/٩) ، وفي غالب النسخ : (بلدي) بدل (بلد لي) ، والمثبت من (ج) ، والمعنىٰ متقارب .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٧٧٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠١/٥٤) وفيه : « ثم يوكل الله بذلك ملكاً يدخله في قبري كما تدخل الهدايا ، يخبرني من صلىٰ علي باسمه ونسبه إلىٰ عشيرته ، فأثبته عندي في صحيفة بيضاء » ، وله ألفاظ أخرىٰ حكاها الحافظ السخاوي في « القول البديع » (ص ٣١٣) وما بعدها ، وللنسائي (٤٣/٣) : « إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام » .

(٣) رواه مسلم (٤٠٨) .

فإذا فرغَ منها كلِّها : فينبغي أنْ يُلزِمَ قلبَهُ الهمَّ والحزنَ والخوفَ ؛ فإنَّهُ ليسَ يدري : أَقُبِلَ منهُ حجُّهُ وأُثبتَ في زمرةِ المحبوبينَ ، أمْ ردَّ حجُّهُ وأُلحقَ بالمطرودينَ ؟

وليتعرَّفْ ذٰلكَ مِنْ قلبِهِ وأعمالِهِ .

فإنْ صادفَ قلبَهُ قدِ ازدادَ تجافِياً عنْ دارِ الغرورِ ، وانصرافاً إلىٰ دارِ الأنسِ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ووجدَ أعمالَهُ قدِ اتزنتْ بميزانِ الشرعِ . . فليثقْ بالقَبولِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يقبلُ إلا مَنْ أحبَّهُ .

ومَنْ أحبَّهُ . . تولَّاهُ وأظهرَ عليهِ آثارَ محبَّتِهِ ، وكفَّ عنهُ سطوةَ عدوِّهِ إبليسَ لعنَهُ اللهُ .

فإذا ظهرَ ذٰلكَ عليهِ . . دلَّ على القبولِ ، وإنْ كانَ الأمرُ بخلافِهِ . . فيوشكُ أنْ يكونَ حظُّهُ مِنْ سفرِهِ العناءَ والتعبَ ، نعوذُ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ مِنْ ذٰلكَ .

❀ ❀ ❀

تمَّ كتابُ أسرارِ الحجِّ ومهمّاتِهِ

وهو الكتابُ السّابعُ من ربعِ العباداتِ من كتبِ إحياءِ علومِ الدّين

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ حمداً كثيراً طيّباً مباركاً كما هو أهلُهُ ومستحقُّهُ

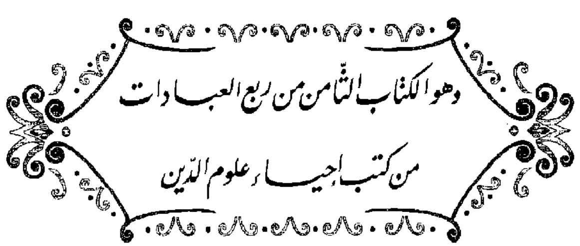
وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ

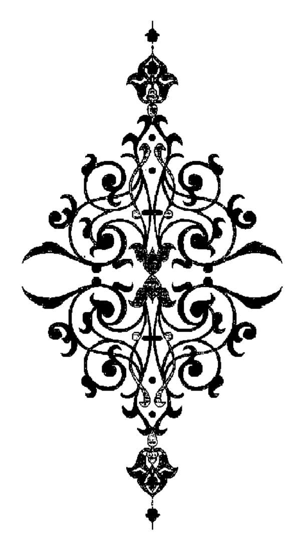
وصلواتُهُ وسلامُهُ على خيرِ خلقِهِ سيّدِنا محمّدٍ النّبيِّ الأُمّيِّ وعلى آلهِ الطّاهرينَ

كلّما ذكرَهُ الذّاكرونَ وغفلَ عنهُ الغافلونَ

يتلوهُ كتابُ آدابِ تلاوةِ القرآنِ

كتاب
آداب تلاوة القرآن





كتاب آداب تلاوة القرآن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي امتنَّ علىٰ عبادِهِ بنبيِّهِ المرسلِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكتابِهِ المنزلِ عليهِ ، الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا مِنْ خلفِهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ ، حتَّى اتسعتْ علىٰ أهلِ الافتكارِ طرقُ الاعتبارِ بما فيهِ مِنَ القصصِ والأخبارِ ، واتضحَ بِهِ سلوكُ المنهجِ القويمِ والصراطِ المستقيمِ بما فصَّلَ فيهِ مِنَ الأحكامِ ، وفرَّقَ بينَ الحلالِ والحرامِ ، فهوَ الضياءُ والنورُ ، وبِهِ النجاةُ مِنَ الغرورِ ، وفيهِ شفاءٌ لما في الصدورِ .

مَنْ خالفَهُ مِنَ الجبابرةِ . . قصمَهُ اللهُ ، ومَنِ ابتغى العلمَ في غيرِهِ . . أضلَّهُ اللهُ ، هوَ حبلُ اللهِ المتينُ ، ونورُهُ المبينُ ، والعروةُ الوثقىٰ ، والمعتصمُ الأوقىٰ ، وهوَ المحيطُ بالقليلِ والكثيرِ ، والصغيرِ والكبيرِ ، لا تنقضي عجائبُهُ ، ولا تتناهىٰ غرائبُهُ ، لا يحيطُ بفوائدِهِ عندَ أهلِ الفهمِ تحديدٌ ، ولا يخلقُهُ عندَ أهلِ التلاوة كثرةُ الترديدِ ، هوَ الذي أرشدَ الأوَّلين والآخرينَ ، ولمَّا سمعَهُ الجنُّ . . لمْ يلبثوا أنْ ولَّوا إلىٰ قومِهِمْ منذرينَ ، فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ .

فكلُّ مَنْ آمنَ بِهِ . . فقدْ وفِّقَ ، ومنْ قالَ بِهِ . . فقدْ صدقَ ، ومَنْ تمسَّكَ بِهِ . . فقد هُدِيَ ، ومَنْ عملَ بِهِ . . فقدْ فازَ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ ، ومِنْ أسبابِ حفظِهِ في القلوبِ والمصاحفِ استدامةُ تلاوتِهِ ، والمواظبةُ علىٰ دراستِهِ معَ القيامِ بآدابِهِ وشروطِهِ ، والمحافظةُ علىٰ ما فيهِ مِنَ الأعمالِ الباطنةِ والآدابِ الظاهرةِ ، وذٰلكَ لا بدَّ مِنْ بيانِهِ وتفصيلِهِ .

وتنكشفُ مقاصدُهُ في أربعةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضلِ القرآنِ وأهلِهِ .

البابُ الثاني : في آدابِ التلاوةِ في الظاهرِ .

البابُ الثالثُ : في الأعمالِ الباطنةِ عندَ التلاوةِ .

البابُ الرابعُ : في فهْمِ القرآنِ وتفسيرِهِ بالرأيِ وغيرِهِ .

* * *

الباب الأول
في فضل القرآن وأهله، وذمّ المقصّرين في تلاوته

فضيلة القرآن

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قرأَ القرآنَ ثمَّ رأىٰ أنَّ أحداً أُوتيَ أفضلَ ممَّا أُوتيَ . . فقدِ استصغرَ ما عظَّمَهُ اللهُ تعالىٰ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ شفيعٍ أفضلَ منزلةً عِندَ اللهِ تعالىٰ مِنَ القرآنِ ، لا نبيٌّ ولا ملكٌ ولا غيرُهُ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ القرآنُ في إهابٍ . . ما مسَّتْهُ النارُ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ عبادةِ أمَّتي قراءةُ القرآنِ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قرأَ (طه) و(يس) قبلَ أنْ يخلقَ الخلْقَ بألفِ عامٍ ، فلمَّا سمعتِ الملائكةُ القرآنَ . . قالتْ : طوبىٰ لأمَّةٍ ينزلُ عليهِمْ هٰذا ، وطوبىٰ لأجوافٍ تحملُ هٰذا ، وطوبىٰ لألسنةٍ تنطقُ بهٰذا »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : مَنْ شغلَهُ قراءةُ القرآنِ عنْ دعائي ومسألتي . . أعطيتُهُ أفضلَ ثوابِ الشاكرينَ »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ يومَ القيامةِ علىٰ كثيبٍ مِنْ مسكٍ أسودَ لا يهولُهُمْ فزعٌ ولا ينالُهُمْ حسابٌ حتَّىٰ يفرغَ ممَّا بينَ الناسِ : رجلٌ قرأَ القرآنَ ابتغاءَ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأمَّ بهِ قوماً وهُمْ بهِ راضونَ . . . »(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أهلُ القرآنِ أهلُ اللهِ وخاصَّتُهُ »(٩)

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٠٣/٩) ، وأوقفه البيهقي في « الشعب » (٢٣٥٢) على عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً ، وللطبراني ـ في « الكبير » [١٣٢/٩] ـ من حديث ابن مسعود : « والقرآن شافع مشفع » ، ولمسلم ـ في « صحيحه » [٨٠٤] ـ من حديث أبي أمامة : « اقرؤوا القرآن ؛ فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه ») « إتحاف » (٤٦٣/٤) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٥٥/٤) ، والطبراني في « الكبير » (١٧٢/٦) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (١٨٦٥) .

(٥) رواه الدارمي في « سننه » (٣٤٥٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٨٧٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٢٢٥) بنحوه .

(٦) رواه البخاري (٥٠٢٧) .

(٧) رواه الترمذي (٢٩٢٦) بنحوه ، ورواه الدارمي في « سننه » (٣٣٩٩) ، وابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (١٥٣) .

(٨) رواه الترمذي (١٩٨٦) بنحوه ، وهو بلفظه عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢٤/٤) .

(٩) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٩٧٧) ، وابن ماجه (٢١٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ هٰذهِ القلوبَ تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما جلاؤُها ؟ فقالَ : « تلاوةُ القرآنِ ، وذكرُ الموتِ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أشدُّ أَذَناً إلىٰ قارئِ القرآنِ مِنْ صاحبِ القَينةِ إلىٰ قَينتِهِ »[2]



الآثارُ :

قالَ أبو أمامةَ الباهليُّ : (اقرؤوا القرآنَ ولا تغرنَّكُمْ هٰذهِ المصاحفُ المعلَّقَةُ ؛ فإنَّ اللهَ لا يعذِّبُ قلباً وعى القرآنَ)[3]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إذا أردتُمُ العلمَ . . فأثيروا القرآنَ ؛ فإنَّ فيهِ علمَ الأولينَ والآخرينَ)[4]

وقالَ أيضاً : (اقرؤوا القرآنَ ، فإنَّكُمْ تؤجرونَ عليهِ بكلِّ حرفٍ منهُ عشرَ حسناتٍ ، أمَا إنِّي لا أقولُ : الحرفُ « ألم » ، ولٰكنِ الألفُ حرفٌ ، واللامُ حرفٌ ، والميمُ حرفٌ)[5]

وقالَ أيضاً : (لا يسألُ أحدُكُم عنْ نفسِهِ إلا القرآنَ ، فإنْ كانَ يحبُّ القرآنَ ويعجبُهُ . . فهوَ يحبُّ اللهَ سبحانَهُ ورسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإنْ كانَ يبغضُ القرآنَ . . فهوَ يبغضُ اللهَ سبحانَهُ ورسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[6]

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ : (كلُّ آيةٍ في القرآنِ درجةٌ في الجنَّة ، ومصباحٌ في بيوتِكُمْ)[7]

وقالَ أيضاً : (مَنْ قرأَ القرآنَ . . فقدْ أدرجتِ النبوَّةُ بينَ جنبيهِ إلا أنَّهُ لا يوحَىٰ إليهِ)[8] .

وقالَ أبو هريرةَ : (إنَّ البيتَ الذي يُتلىٰ فيهِ كتابُ اللهِ اتسعَ بأهلِهِ ، وكَثُرَ خيرُهُ ، وحضرتْهُ الملائكةُ ، وخرجتْ منهُ الشياطينُ ، وإنَّ البيتَ الذي لا يُتلىٰ فيهِ كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ ضاقَ بأهلِهِ ، وقلَّ خيرُهُ ، وخرجتْ منهُ الملائكةُ ، وحضرتْهُ الشياطينُ)[9]

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (رأيتُ اللهَ عزَّ وجلَّ في المنامِ ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ ما أفضلُ ما تقرَّبَ بِهِ المتقرّبونَ إليكَ ؟ قالَ : بكلامي يا أحمدُ ، قالَ : قلتُ : يا ربِّ ؛ بفهمٍ أوْ بغيرِ فهمٍ ؟ قالَ : بفهمٍ وبغيرِ فهمٍ)[10] .

وقالَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ : (إذا سمعَ الناسُ القرآنَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ . . فكأنَّهُمْ لمْ يسمعوهُ قطُّ)[11] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٧/٨) بغير ذكر الموت ، والبيهقي في « الشعب » (١٨٥٩) .
(٢) رواه ابن ماجه (١٣٤٠) ، وأصله في مسلم (٧٩٢) ، والأَذَن : الاستماع .
(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٣٣٦٢) بتمامه ، وهو متوازع في المرفوع . انظر « الإتحاف » (٤٦٥/٤) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨١٤) .
(٥) رواه الترمذي (٢٩١٠) بنحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، وأشار إلىٰ روايته موقوفاً عليه .
(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٣٢/٩) بنحوه ، وهو في « القوت » (٥٧/١) .
(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨٩) .
(٨) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٩) .
(٩) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٠) .
(١٠) رواه ابن الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » (ص ٥٢٧) .
(١١) رواه مرفوعاً الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٩٨١) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (ينبغي لحاملِ القرآنِ ألا يكونَ لهُ إلىٰ أحدٍ حاجةٌ ، ولا إلى الخلفاءِ فمَنْ دونَهُمْ ، وينبغي أنْ تكونَ حوائجُ الخلقِ إليهِ)[1]

وقالَ أيضاً : (حاملُ القرآنِ حاملُ رايةِ الإسلامِ ، فلا ينبغي أنْ يلهوَ معَ مَنْ يلهو ، ولا يسهوَ مع مَنْ يسهو ، ولا يلغوَ معَ مَنْ يلغو ؛ تعظيماً لحقِّ القرآنِ)[2]

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (إذا قرأَ الرجلُ القرآنَ . . قبَّلَ الملكُ بينَ عينيهِ)[3]

وقالَ عمرُ بنُ ميمونٍ : (مَنْ نشرَ مصحفاً حينَ يصلِّي الصبحَ ، فقرأَ مئةَ آيةٍ . . رفعَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ مثلَ عملِ جميعِ أهلِ الدنيا)[4]

ويروىٰ أنَّ خالدَ بنَ عقبةَ جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : اقرأْ عليَّ القرآنَ ، فقرأَ عليهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ الآيةَ ، فقالَ لهُ : أعدْ ؛ فأعادَ ، فقالَ : واللهِ ؛ إنَّ لهُ لحلاوةً ، وإنَّ عليهِ لطلاوةً ، وإنَّ أسفلَهُ لمغدقٌ ، وإنَّ أعلاهُ لمثمرٌ ، وما يقولُ هـٰذا بشرٌ[5]

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما دونَ القرآنِ مِنْ غنىً ، ولا بعدَهُ مِنْ فاقةٍ) .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ قرأَ خاتمةَ سورةِ « الحشرِ » حينَ يصبحُ ثمَّ ماتَ منْ يومِهِ . . خُتِمَ لهُ بطابعِ الشهداءِ ، ومَنْ قرأَها حينَ يمسي ثمَّ ماتَ مِنْ ليلتِهِ . . خُتِمَ لهُ بطابعِ الشهداءِ)[6]

وقالَ القاسمُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ : قلتُ لبعضِ النسَّاكِ : ما ها هُنا أحدٌ تستأنسُ بهِ ؟ فمدَّ يدَهُ إلى المصحفِ ووضعَهُ علىٰ حجرِهِ وقالَ : هـٰذا[7]

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثٌ يزدْنَ في الحفْظِ ، ويذهبنَ البلغمَ : السواكُ ، والصيامُ ، وقراءةُ القرآنِ)[8]

❊ ❊ ❊

(١) رواه الآجري في « أخلاق حملة القرآن » (ص ٥٠) .

(٢) رواه الآجري في « أخلاق حملة القرآن » (ص ٥١) ضمن الخبر السابق .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٦٩) ، وفيه : (ختم) بدل (قرأ) .

(٤) ذكره الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٣٥٤/٢) ، وفيه : (عمرو) بدل (عمر) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

(٥) كذا حكىٰ هـٰذا القول عن خالد بن عقبة ابنُ عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٢٠٠) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٣٣) والقائل عنده ـ وهو المشهور في كتب السير ـ هو الوليد بن المغيرة .

(٦) رواه ابن الضريس في « فضائل القرآن » (ص ١٧٢) عن الفضيل عن هشام عن الحسن ، وهو عن الحسن بغير طريق الفضيل رواه الدارمي في « سننه » (٣٤٦٦) .

(٧) الخبر في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٠٠) ، ثم قال : وفي معناه أنشدوا :

وكتْبُكَ حولي لا تفارقُ مضجعي ... وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتمُ

(٨) انظر « الإتحاف » (٣٤٩/٢) .

في ذمّ تلاوة الغافلين

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (رُبَّ تالٍ للقرآنِ والقرآنُ يلعنُهُ) (١)

وقالَ ميسرةُ : (الغريبُ هوَ القرآنُ في جوفِ الفاجرِ) (٢)

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الزبانيةُ أسرعُ إلىٰ حملةِ القرآنِ الذين يعصونَ اللهَ عزَّ وجلَّ منهُمْ إلىٰ عبدةِ الأوثانِ حينَ عصَوُا اللهَ سبحانَهُ بعدَ القرآنِ) (٣)

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا قرأَ ابنُ آدمَ القرآنَ ثمَّ خلطَ ثمَّ عادَ يقرأُ . . قيلَ لهُ : ما لكَ ولكلامي ؟!) (٤)

وقالَ ابنُ الرمَّاحِ : (ندمتُ على استظهاري القرآنَ ؛ لأنَّهُ بلغني أنَّ أصحابَ القرآنِ يُسألونَ عمَّا يُسألُ عنهُ الأنبياءُ يومَ القيامةِ) (٥)

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (ينبغي لحاملِ القرآنِ أنْ يُعرفَ بليلِهِ إذا الناسُ ينامونَ ، وبنهارِهِ إذا الناسُ يفطرونَ ، وبحزنِهِ إذا الناسُ يفرحونَ ، وببكائِهِ إذا الناسُ يضحكونَ ، وبصمتِهِ إذا الناسُ يخوضونَ ، وبخشوعِهِ إذا الناسُ يختالونَ ، وينبغي لحاملِ القرآنِ أنْ يكونَ سكّيتاً ليّناً ، ولا ينبغي لهُ أنْ يكونَ جافياً ولا مماريًا ، ولا صيَّاحاً ولا صخَّاباً ولا حديداً) (٦)

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ منافقي هـٰذهِ الأمَّةِ قرَّاؤُها » (٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقرأ القرآنَ ما نهاكَ ، فإنْ لمْ ينهَكَ . . فلستَ تقرؤُهُ » (٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما آمنَ بالقرآنِ مَنِ استحلَّ محارمَهُ » (٩)

وقالَ بعضُ السلفِ : إنَّ العبدَ ليفتتحُ سورةً فتصلّي عليهِ الملائكةُ حتَّىٰ يفرغَ منها ، وإنَّ العبدَ ليفتتحُ سورةً فتلعنُهُ حتَّىٰ يفرغَ منها ، فقيلَ لهُ : وكيفَ ذٰلكَ ؟! فقالَ : إذا أحلَّ حلالَها وحرَّمَ حرامَها . . صلَّتْ عليهِ ، وإلا . . لعنَتْهُ (١٠)

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّ العبدَ ليتلو القرآنَ فيلعنُ نفسَهُ وهوَ لا يعلمُ ؛ يقرأُ : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهوَ ظالمٌ نفسَهُ ، ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهوَ منهُمْ !!) (١١)

---

(١) كون القرآن علىٰ حالين من قارئه ثابت في صحاح الحديث ، ففي « مسلم » (٢٢٣) مرفوعاً : « والقرآن حجة لك أو عليك » ، وروى ابن الضريس في « فضائل القرآن » (ص ١٠٤) مرفوعاً : « يمثل القرآن يوم القيامة رجلاً ، فيؤتىٰ بالرجل قد حمله فخالف أمره ، فيتمثل له خصماً فيقول : يا رب ؛ حملته إياي فبئس حامل ؛ تعدىٰ حدودي ، وضيع فرائضي ، وركب معصيتي ، وترك طاعتي ، فما يزال يقذف عليه بالحجج حتىٰ يقال : فشأنك ، فيأخذ بيده فما يرسله حتىٰ يكبه علىٰ منخره في النار » ، وسيورد المصنف أخباراً في هـٰذا المعنىٰ صريحة .

(٢) بمعناه مرفوعاً عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٣٠١) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٣٨٢) ، ورواه مرفوعاً أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٦/٨) .

(٤) هـٰذا العالم هو يحيى بن الجلاء ، روىٰ هـٰذا الخبر البيهقي في « الشعب » (٢٣٨٢) .

(٥) رواه مرفوعاً من غير طريق ابن الرماح ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧٤/٣٢) ، وهو في « الحلية » (٢٨١/٧) من كلام سفيان بنحوه .

(٦) رواه أحمد في « الزهد » (٨٩٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٣٤) ، والحديد : صاحب حدَّة الخلق سريع الغضب .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤) من زيادات نعيم بن حماد ، وأحمد في « المسند » (١٧٥/٢) .

(٨) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١٣٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٧/٥) .

(٩) رواه الترمذي (٢٩١٨) .

(١٠) قوت القلوب (٥٨/١) .

(١١) قوت القلوب (٥٨/١) ، وفيه وفي كل النسخ : (الكاذبين) بدل (الظالمين) في الموضع الثاني ، وهو خطأ ، والله أعلم .

وقالَ الحسنُ : (إنَّكُمْ اتخذتمْ قراءةَ القرآنِ مراحلَ ، وجعلتُمُ الليلَ جَمَلاً ، فأنتُمْ تركبونَهُ فتقطعونَ بهِ مراحلَهُ ، وإنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ رأوهُ رسائلَ مِنْ ربِّهِمْ ، فكانوا يتدبرونَها بالليلِ وينفذونَها بالنهارِ)[1]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (أُنزلَ القرآنُ عليهِمْ ليعملوا بهِ ، فاتخذوا دراستَهُ عملاً ، إنَّ أحدَهُمْ ليقرأُ القرآنَ مِنْ فاتحتِهِ إلىٰ خاتمتِهِ ما يسقطُ منهُ حرفاً وقدْ أسقطَ العملَ بهِ !!)[2]

وفي حديثِ ابنِ عمرَ وحديثِ جُنْدُبٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لقدْ عشْنَا دهراً طويلاً وأحدُنا يُؤْتَى الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، فتنزلُ السورةُ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيتعلَّمُ حلالَها وحرامَها ، وآمرَها وزاجرَها ، وما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ منها ، ثمَّ لقدْ رأيتُ رجالاً يُؤْتَىٰ أحدُهُمُ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، فيقرأُ ما بينَ (فاتحةِ الكتابِ) إلىٰ خاتمتِهِ لا يدري ما آمرُهُ ولا زاجرُهُ ، ولا ما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ منهُ ، ينثرُهُ نثرَ الدَّقَلِ)[3]

وقدْ وردَ في التوراةِ : (يا عبدي ؛ أما تستحي منِّي ؟! يأتيكَ كتابٌ مِنْ بعضِ إخوانِكَ وأنتَ في الطريقِ تمشي فتعدلُ عنِ الطريقِ وتقعدُ لأجلِهِ وتقرؤُهُ وتتدبَّرُهُ حرفاً حرفاً حتَّىٰ لا يفوتَكَ شيءٌ منهُ ، وهـٰذا كتابي أنزلتُهُ إليكَ ، انظرْ كمْ وصَّلْتُ لكَ فيهِ مِنَ القولِ[4] ، وكمْ كرَّرْتُ عليكَ فيهِ لتتأمَّلَ طولَهُ وعرضَهُ ، ثمَّ أنتَ معرضٌ عنهُ ، أفكنتُ أهونَ عليكَ مِنْ بعضِ إخوانِكَ ؟! يا عبدي ؛ يقعدُ إليكَ بعضُ إخوانِكَ فتقبلُ عليهِ بكلِّ وجهِكَ ، وتصغي إلىٰ حديثِهِ بكلِّ قلبِكَ ، فإنْ تكلَّمَ متكلِّمٌ أَوْ شغلَكَ شاغلٌ عنْ حديثِهِ . . أومأْتَ إليهِ أنْ كفَّ ، وهـٰأنذا مقبلٌ عليكَ ومحدِّثٌ لكَ وأنتَ معرضٌ بقلبِكَ عنِّي ، أفجعلتَني أهونَ عندَكَ مِنْ بعضِ إخوانِكَ ؟!)[5] .

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (١/٥٨) .

(٢) قوت القلوب (١/٥٨) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٣٥) .

(٤) قوله : (وصَّلت) بتشديد الصاد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، والمراد بالتوصيل : متابعة الوعظ واتصال المعاني ، أو التنوع فيها وفي الأخبار .

(٥) قوت القلوب (١/٥٩) .

الباب الثاني
في ظاهر آداب التلاوة
وهي عشرة

الأوَّلُ : في حالِ القارئ :

وهوَ أنْ يكونَ على الوضوءِ ، واقفاً على هيئةِ الأدبِ والسكونِ ؛ إمَّا قائماً ، وإمَّا جالساً ، مستقبلَ القبلةِ ، مطرقاً رأسَهُ ، غيرَ متربّعٍ ولا متكئٍ ولا جالسٍ على هيئةِ التكبُّرِ[1] ، ويكونُ جلوسُهُ وحدَهُ كجلوسِهِ بينَ يدي أستاذِهِ .

وأفضلُ الأحوالِ أنْ يقرأَهُ في الصلاةِ قائماً ، وأنْ يكونَ في المسجدِ ؛ فذلكَ مِنْ أفضلِ الأعمالِ .

فإنْ قرأَ على غيرِ وضوءٍ وكانَ مضطجعاً في الفراشِ . . فلهُ أيضاً فضلٌ ، ولكنَّهُ دونَ ذلكَ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ، فأثنى على الكلِّ ، ولكنْ قدَّمَ القيامَ في الذكرِ ، ثمَّ القعودَ ، ثمَّ الذكرَ مضطجعاً .

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ قرأَ القرآنَ وهوَ قائمٌ في الصلاةِ . . كانَ لهُ بكلِّ حرفٍ مئةُ حسنةٍ ، ومَنْ قرأَهُ وهوَ جالسٌ في الصلاةِ فلهُ بكلِّ حرفٍ خمسونَ حسنةً ، ومَنْ قرأَهُ في غيرِ صلاةٍ وهوَ على وضوءٍ . . فخمسٌ وعشرونَ حسنةً ، ومَنْ قرأَهُ على غيرِ وضوءٍ . . فعشرُ حسناتٍ)[2] .

وما كانَ مِنَ القيامِ بالليلِ فهوَ أفضلُ ؛ لأنَّهُ أفرغُ للقلبِ ، قالَ أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ كثرةَ السجودِ بالنهارِ ، وإنَّ طولَ القيامِ بالليلِ)[3]

❀ ❀ ❀

الثاني : في مقدارِ القراءةِ :

وللقرَّاءِ عاداتٌ مختلفةٌ في الاستكثارِ والاقتصارِ ؛ فمنهُمْ مَنْ يختمُ في اليومِ والليلةِ مرَّةً ، وبعضُهُمْ مرَّتينِ ، وانتهى بعضُهُمْ إلى ثلاثٍ[4] ، ومنهُمْ مَنْ يختمُ في الشهرِ مرَّةً .

وأولى ما يرجعُ إليهِ في التقديراتِ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قرأَ القرآنَ في أقلَّ مِنْ ثلاثٍ . . لمْ يفقهْهُ »[5] ، وذلكَ لأنَّ الزيادةَ عليهِ تمنعُهُ الترتيلَ[6] ، وقدْ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها

---

(١) بأن يجعل إحدى رجليه على الأخرى أو غير ذلك ، ويحسن به أن يتطيَّبَ ويتبخَّر بأطيب ما يجد عنده إن أمكنه ذلك ، وأن يستاك ، فقد روى ابن ماجه عن سيدنا علي أنه قال : (أفواهكم طرق القرآن ، فطيبوها بالسواك) ، فإن كان متطيلساً . . فهو الأحسن ؛ إذ هو الخلوة الصغرى . انظر « الإتحاف » (٤/٤٧٠) .

(٢) بنحوه رواه تمام في « فوائده » (١٣٠٤) مرفوعاً من رواية سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

(٣) قوت القلوب (١/٤٦) .

(٤) قال الإمام النووي في « الأذكار » (ص ١٨٩) : (وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمان ختمات ؛ أربعاً في الليل ، وأربعاً في النهار ، وممن ختم أربعاً في الليل وأربعاً في النهار السيد الجليل ابن الكاتب الصوفي رضي الله عنه ، وهذا أكثر ما بلغنا في اليوم والليلة) .

(٥) رواه بهذا اللفظ أحمد في « المسند » (٢/١٦٤) ، وهو بنحوه عند أبي داوود (١٣٩٠) ، والترمذي (٢٩٤٩) ، وابن ماجه (١٣٤٧) .

(٦) قال الإمام الترمذي (٢٩٤٦) : (وقال بعض أهل العلم : لا يقرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث ؛ للحديث الذي روي عن النبي صلى الله عليه

لمَّا سمعتْ رجلاً يهُذُّ القرآنَ هذّاً : (إنَّ هـٰذا ما قرأَ القرآنَ ولا سكتَ)[1]

وأمرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما أنْ يختمَ القرآنَ في سبعٍ[2] ، وكذٰلكَ كانَ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ يختمونَ القرآنَ في كلِّ جمعةٍ ؛ كعثمانَ ، وزيدِ بنِ ثابتٍ ، وابنِ مسعودٍ ، وأبيِّ بنِ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ[3]

ففي الختمِ أربعُ درجاتٍ :

الختمُ في يومٍ وليلةٍ وقدْ كرهَهُ جماعةٌ .

والختمُ في كلِّ شهرٍ كلَّ يومٍ جزءٌ مِنْ ثلاثينَ جزءاً ، وكأنَّهُ مبالغةٌ في الاقتصارِ كما أنَّ الأولَ مبالغةٌ في الاستكثارِ ، وبينَهُما درجتانِ معتدلتانِ :

إحداهما : في الأسبوعِ مرَّةً .

والثانيةُ : في الأسبوعِ مرتينِ تقريباً مِنَ الثلاثِ .

والأحبُّ : أنْ يختمَ ختمةً بالليلِ وختمةً بالنهارِ ، ويجعلَ ختمةَ النهارِ يومَ الاثنينِ في ركعتيِ الفجرِ أوْ بعدَهُما ، ويجعلَ ختمةَ الليلِ ليلةَ الجمعةِ في ركعتيِ المغربِ ، أوْ بعدَهُما ؛ ليستقبلَ بختمتيهِ أوَّلَ النهارِ وأوَّلَ الليلِ ؛ فإنَّ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ تصلِّي عليهِ إنْ كانَ ختمُهُ ليلاً حتَّىٰ يصبحَ ، وإنْ كانَ نهاراً حتَّىٰ يمسيَ ، فتشملُ بركتُهُما جميعَ الليلِ والنهارِ[4]

والتفصيلُ في مقدارِ القراءةِ : أنَّهُ إنْ كانَ مِنَ العابدينَ السالكينَ بطريقِ العملِ . . فلا ينبغي أنْ ينقصَ عنْ ختمتينِ في الأسبوعِ ، وإنْ كانَ مِنَ السالكينَ بأعمالِ القلبِ وضروبِ الفكرِ ، أوْ مِنَ المشتغلينَ بنشرِ العلمِ . . فلا بأسَ أنْ يقتصرَ في الأسبوعِ علىٰ مرَّةٍ ، وإنْ كانَ نافذَ الفكرِ في معاني القرآنِ . . فقدْ يكتفي في الشهرِ بمرَّةٍ ؛ لكثرةِ حاجتِهِ إلىٰ كثرةِ الترديدِ والتأمُّلِ .

الثالثُ : في وجهِ القسمةِ :

أمَّا مَنْ ختمَ في الأسبوعِ مرَّةً . . فيقسمُ القرآنَ سبعةَ أحزابٍ ، فقدْ حزَّبَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمُ القرآنَ أحزاباً[5] ، فرُوِيَ أنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يفتتحُ ليلةَ الجمعةِ بـ (البقرةِ) إلى (المائدةِ) ، وليلةَ السبتِ بـ (الأنعامِ) إلىٰ (هودٍ) ، وليلةَ الأحدِ بـ (يوسفَ) إلىٰ (مريمَ) ، وليلةَ الاثنينِ بـ (طه) إلىٰ (طسٓمٓ موسىٰ وفرعونَ) ، وليلةَ الثلاثاءِ

وسلم ، ورخص فيه بعض أهل العلم ، وروي عن عثمان بن عفان أنه كان يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها ، وروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ القرآن في ركعة في الكعبة ، والترتيل في القراءة أحب إلىٰ أهل العلم) ، فالمسألة باعتبار الشخص وحاله كما ذكر ذٰلك الإمام النووي في « الأذكار » (ص ١٩٠) ، و« التبيان » (ص ٨٠) ، وكما سيأتي كذٰلك تفصيل المصنف فيه .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٩٧) ، **ويهذُّ** : يسرع ويتابع في قراءته .

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٤) ، ومسلم (١١٥٩) حيث قال له صلى الله عليه وسلم : « فاقرأْهُ في سبع ولا تزد علىٰ ذٰلك » .

(٣) رواه أبو طالب في « القوت » (٤٥/١) .

(٤) فقد روى الدارمي في « سننه » (٣٥١٨) عن عبدة بن أبي لبابة : (إذا ختم الرجل القرآن بنهار . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يمسي ، وإن فرغ منه ليلاً . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يصبح) .

(٥) روىٰ ذٰلك أبو طالب في « القوت » (٤٥/١) .

بـ (العنكبوتِ) إلىٰ (ص) ، وليلةَ الأربعاءِ بـ (تنزيلُ) إلى (الرحمـٰنِ) ، ويختمُ ليلةَ الخميسِ[١]

وابنُ مسعودٍ كانَ يقسمُهُ سبعةَ أقسامٍ لا علىٰ هـٰذا الترتيبِ[٢]

وقيلَ : أحزابُ القرآنِ سبعةٌ : فالحزبُ الأوَّلُ : ثلاثُ سورٍ ، والحزبُ الثاني : خمسُ سورٍ ، والحزبُ الثالثُ : سبعُ سورٍ ، والرابعُ : تسعُ سورٍ ، والخامسُ : إحدىٰ عشرةَ سورةً ، والسادسُ : ثلاثَ عشرةَ سورةً ، والسابعُ : المفصَّلُ مِنْ سورةِ (قٓ) إلىٰ آخرِهِ . فهـٰكذا حزَّبَهُ الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهِم ، وكانوا يقرؤونَهُ كذٰلكَ ، وفيهِ خبرٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٣] ، وهـٰذا قبلَ أنْ تعملَ الأخماسُ والعواشرُ والأجزاءُ[٤] ، فما سوىٰ هـٰذا محدَثٌ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : في الكِتبةِ[٥] :

يستحبُّ تحسينُ كتابةِ القرآنِ وتبيينُهُ ، ولا بأسَ بالنقْطِ والعلاماتِ بالحمرةِ وغيرِها ؛ فإنَّ ذٰلكَ تزيينٌ وتبيينٌ وصدٌّ عنِ اللحنِ والخطأ لمَنْ يقرؤُهُ .

وقدْ كانَ الحسنُ وابنُ سيرينَ ينكرانِ الأخماسَ والعواشرَ والأجزاءَ[٦] ، ورُوِيَ عنِ الشعبيِّ وإبراهيمَ كراهيةُ النقطِ بالحمرةِ وأخذِ الأجرةِ علىٰ ذٰلكَ ، وكانوا يقولونَ : (جرِّدوا القرآنَ)[٧] ، والظنُّ بهـٰؤلاءِ أنَّهُمْ كرهوا فتحَ هـٰذا البابِ خوفاً مِنْ أنْ يؤديَ إلىٰ إحداثِ زياداتٍ ، وحسماً للبابِ ، وشوقاً إلىٰ حراسةِ القرآنِ عمَّا يُطَرِّقُ إليهِ تغييراً[٨] ، وإذا لمْ يؤدِّ إلىٰ محذورٍ واستقرَّ أمرُ الأمَّةِ فيهِ علىٰ ما يحصلُ بهِ مزيدُ معرفةٍ . . فلا بأسَ بهِ ، ولا يمنعُ مِنْ ذٰلكَ كونُهُ محدثاً ، فكمْ مِنْ محدثٍ حسنٌ ؛ كما قيلَ في إقامةِ الجماعاتِ في التراويحِ : إنَّها مِن محدثاتِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وإنَّها بدعةٌ حسنةٌ ، وإنَّما البدعةُ المذمومةُ ما يصادمُ السنةَ القديمةَ أَوْ يكادُ يفضي إلىٰ تغييرِها[٩]

وبعضُهُمْ كانَ يقولُ : أقرأُ في المصحفِ المنقوطِ ولا أنقُطُهُ بنفسي[١٠]

وقالَ الأوزاعيُّ عنْ يحيى بنِ أبي كثيرٍ : (كانَ القرآنُ مجرَّداً في المصاحفِ ، فأوَّلُ ما أحدثوا فيهِ النقطُ على الباءِ

---

(١) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٥١٧/١) .

(٢) قوت القلوب (٤٥/١)

(٣) وهو ما رواه أبو داوود (١٣٩٣) ، وابن ماجه (١٣٤٥) عن أوس بن حذيفة قال : (سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يُحزِّبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدىٰ عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده) .

(٤) **الأخماس** : جمع خُمُس ، وهو جزء من خمسة أجزاء ، **والعواشر** : جمع عَشِير ، لغة في العُشْر ، جزء من عشرة أجزاء ، وسيأتي أنها تطلق كذٰلك على العلامات الدالة علىٰ معانيها في القرآن .

(٥) **الكِتبة** ـ بكسر الكاف ـ : هيئة الكتابة وحالتها .

(٦) أي : العلامات الدالة علىٰ تخميس وتعشير وتجزيء القرآن الكريم ، والخبر عند صاحب « القوت » (٤٥/١) .

(٧) روي هـٰذا بطرق عديدة ، وعن الشعبي وإبراهيم النخعي وغيرهما الكثير ، رواها ابن أبي داوود في « المصاحف » (٥١١/٢ ـ ٥٢٨) .

(٨) **يُطَرِّق** : يدخل عليه ؛ أي : يكون سبباً وطريقاً للتغيير

(٩) وقد قالوا : إن البدعة المباحة هو ما شهد بحسنه أصل الشرع أو اقتضته مصلحة تندفع بها مفسدة ، وفيما نحن فيه حصول مزيد المعرفة ، والتبيين مصلحة شرعية ، فلا يكون النقط والعلامات من البدع المذمومة . « إتحاف » (٤٧٧/٤) .

(١٠) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٧١٧٨) عن الشعبي أنه قال لرجل سأله عن مصحف منقوط : (اقرأ عليه ولا تنقطه بيدك) .

والتاءِ ، وقالوا : لا بأسَ بهِ ؛ فإنَّهُ نورٌ لهُ ، ثمَّ أحدثوا بعدَهُ نُقَطاً كِباراً عندَ منتهى الآيِ ، فقالوا : لا بأسَ بهِ ؛ يعرفُ بهِ رأسُ الآيةِ ، ثمَّ أحدثوا بعدَ ذٰلكَ الخواتيمَ والفواتحَ)(١)

قالَ أبو بكرٍ الهذليُّ : سألتُ الحسنَ عنْ تنقيطِ المصاحفِ بالأحمرِ فقالَ : وما تنقيطُها ؟ قلتُ : يعربونَ الكلمةَ بالعربيةِ ، قالَ : أمَّا إعرابُ القرآنِ . . فلا بأسَ بهِ(٢)

وقالَ خالدٌ الحذَّاءُ : (دخلتُ على ابنِ سيرينَ ، فرأيتُهُ يقرأُ في مصحفٍ منقوطٍ وقدْ كانَ يكرهُ النقْطَ)(٣)

وقيلَ : إنَّ الحجَّاجَ هوَ الذي أحدثَ ذٰلكَ ، وأحضرَ القرَّاءَ حتَّىٰ عدُّوا كلماتِ القرآنِ وحروفَهُ وسوَّوْا أجزاءَهُ وقسَّمُوهُ إلىٰ ثلاثينَ جزءاً وإلىٰ أقسامٍ أُخَرَ(٤)

❁ ❁ ❁

الخامسُ : الترتيلُ :

هوَ المستحبُّ في هيئةِ القرآنِ ؛ لأنَّا سنبيِّنُ أنَّ المقصودَ مِنَ القراءةِ التفكُّرُ ، والترتيلُ معينٌ عليهِ ، ولذٰلكَ نعتتْ أمُّ سلمةَ قراءةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإذا هيَ تنعتُ قراءةً مفسَّرةً حرفاً حرفاً(٥)

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أقرأَ « البقرةَ » و« آلَ عمرانَ » أرتِّلُهُما وأتدبَّرُهُما . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أقرأَ القرآنَ كلَّهُ هذرمةً)(٦)

وقالَ أيضاً : (لأنْ أقرأَ : « إذا زلزلت » و« القارعةَ » أتدبَّرُهُما . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أقرأَ « البقرةَ » و« آلَ عمرانَ » تهذيراً)(٧)

وسئلَ مجاهدٌ عنْ رجلينِ دخلا في الصلاةِ ، فكانَ قيامُهُما واحداً إلا أنَّ أحدَهُما قرأَ (البقرةَ) فقطْ وقرأَ الآخرُ القرآنَ كلَّهُ . . فقالَ : هما في الأجرِ سواءٌ(٨)

واعلمْ : أنَّ الترتيلَ مستحبٌّ لا لمجرَّدِ التدبُّرِ ؛ فإنَّ العجميَّ الذي لا يفهمُ معنى القرآنِ يستحبُّ لهُ أيضاً في القراءةِ الترتيلُ والتؤدةُ ؛ لأنَّ ذٰلكَ أقربُ إلى التوقيرِ والاحترامِ ، وأشدُّ تأثيراً في القلبِ مِنَ الهذرمةِ والاستعجالِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) الخبر في « القوت » (٤٥/١) ، وروى ابن أبي داوود في « المصاحف » (٤٤٥) عن هارون بن موسىٰ قال : (أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر) .

(٢) رواه عن الهذلي مختزلاً ابنُ أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٩٤٣) ، والخبر في « القوت » (١٧١/١) .

(٣) رواه ابن أبي داوود في « المصاحف » (٤٦٥) ، وكراهته لنقطه (٤٥١) .

(٤) قوت القلوب (١٧١/١) .

(٥) رواه أبو داوود (١٤٦٦) ، والترمذي (٢٩٢٧) ، والنسائي (١٨١/٢) .

(٦) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥٤/٢) .

(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٨٢٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٤/٣) عن محمد بن كعب القرظي ، ونسبته إلى ابن عباس رضي الله عنهما في « القوت » (٤٦/١) .

(٨) قوت القلوب (٤٦/١) .

السادسُ : البكاءُ :

البكاءُ مستحبٌّ معَ القراءةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتلُوا القرآنَ وابكُوا ، فإنْ لمْ تبكُوا . . فتباكوا »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ منَّا مَنْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ »[2]

وقال صالحٌ المريُّ : (قرأتُ القرآنَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ لي : يا صالحُ ؛ هـٰذهِ القراءةُ ، فأينَ البكاءُ ؟!)[3]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إذا قرأتُمْ سجدةَ « سبحانَ » . . فلا تعجلوا بالسجودِ حتَّىٰ تبكُوا ، فإنْ لمْ تبكِ عينُ أحدِكُمْ . . فليبكِ قلبُهُ)[4]

وإنَّما طريقُ تكلُّفِ البكاءِ : أنْ يحضرَ قلبَهُ الحزْنَ ، فمِنَ الحزْنِ ينشأُ البكاءُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ القرآنَ نزلَ بحزْنٍ ، فإذا قرأتُمُوهُ فتحازَنُوا »[5]

ووجهُ إحضارِ الحزنِ : أنْ يتأمَّلَ ما فيهِ مِنَ التهديدِ والوعيدِ ، والمواثيقِ والعهودِ ، ثمَّ يتأمَّلَ تقصيرَهُ في أوامرِهِ وزواجرِهِ ، فيحزنَ لذلكَ ـ لا محالةَ ـ ويبكيَ ، فإنْ لمْ يحضرْهُ حزْنٌ وبكاءٌ كما يحضرُ أربابَ القلوبِ الصافيةِ . . فليبكِ علىٰ فقْدِ الحزْنِ والبكاءِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ أعظمُ المصائبِ .



السابعُ : أنْ يراعيَ حقَّ الآياتِ :

فإذا مرَّ بآيةِ سجدةٍ . . سجدَ ، وكذٰلكَ إذا سمعَ مِنْ غيرِهِ سجدةً . . سجدَ إذا سجدَ التالي ، ولا يسجدُ إلا إذا كانَ علىٰ طهارةٍ ، وفي القرآنِ أربعَ عشرةَ سجدةً ، وفي (الحجّ) سجدتانِ ، وليسَ في (صٓ) سجدةٌ[6] ، وأقلُّهُ : أنْ يسجدَ بوضْعِ جبهتِهِ على الأرضِ ، وأكملُهُ : أنْ يكبّرَ فيسجدَ ويدعوَ في سجودِهِ بما يليقُ بالآيةِ التي قرأَها ، مثلَ أنْ يقرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، فيقولَ : (اللهُمَّ ؛ اجعلني مِنَ الساجدينَ لوجهِكَ ، المسبِّحينَ بحمدِكَ ، وأعوذُ بكَ أنْ أكونَ مِنَ المستكبرينَ عنْ أمرِكَ أوْ علىٰ أوليائِكَ) ، وإذا قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ . . فليقلْ : (اللهمَّ ؛ اجعلني مِنَ الباكينَ إليكَ ، الخاشعينَ لكَ) ، وكذٰلكَ في كلِّ سجدةٍ .

ويشترطُ في هـٰذهِ السجدةِ شروطُ الصلاةِ ؛ مِنْ سترِ العورةِ ، واستقبالِ القبلةِ ، وطهارةِ الثوبِ والبدنِ مِنَ الحدثِ والخبثِ ، ومَنْ لمْ يكنْ علىٰ طهارةٍ عندَ السماعِ للسجدةِ ؛ فإذا تطهَّرَ . . سجدَ ، وقدْ قيلَ في كمالِها : إنَّهُ يكبّرُ رافعاً

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٧) .

(٢) رواه البخاري (٧٥٢٧) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٨٣/٦٥) عن يزيد الرقاشي ، والخبر في « القوت » (٤٧/١) عن ثابت البناني

(٤) قوت القلوب (٤٧/١) .

(٥) قوله : « إن القرآن نزل بحزن » هو قطعة من حديث ابن ماجه المتقدم وهو بمعناه عموماً ، وبلفظ الحزن روى الآجري في « فضائل القرآن » (ص ٨٠) مرفوعاً : « اقرؤوا القرآن بحزْنٍ ؛ فإنه نزل بحزن » .

(٦) أي : ليست سجدة (صٓ) من عزائم السجود ؛ أي : متأكداته ، وإنما هي مستحبة . « إتحاف » (٤٨٠/٤) .

يديه للتحريم ، ثمَّ يكبّرُ للسجودِ ، ثمَّ يكبّرُ للارتفاعِ ، ثمَّ يسلِّمُ ، وزادَ زائدونَ التشهُّدَ ، ولا أصلَ لهـٰذا إلا القياسُ علىٰ سجودِ الصلاةِ ، وهوَ بعيدٌ ؛ فإنَّهُ وردَ الأمرُ بالسجودِ ، فليتبعْ فيهِ الأمرَ [(١)] ، وتكبيرةُ الهويّ أقربُ للبدايةِ ، وما عدا ذٰلكَ ففيهِ بُعْدٌ .

ثمَّ المأمومُ ينبغي أنْ يسجدَ عندَ سجودِ الإمامِ ، ولا يسجدُ لتلاوةِ نفسِهِ إذا كانَ مأموماً .

❁ ❁ ❁

الثامنُ : أنْ يقولَ في مبتدأ قراءتِهِ :

(أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ربِّ ؛ أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشياطينِ ، وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يَحْضُرُونِ) ، وليقرأْ : (قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ) وسورةَ (الحمدُ للهِ) [(٢)]

وليقلْ عندَ فراغِهِ مِنْ كلِّ سورةٍ : (صدقَ اللهُ تعالىٰ ، وبلَّغَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، اللهمَّ ؛ انفعْنا بهِ ، وباركْ لنا فيهِ ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأستغفرُ اللهَ الحيَّ القيومَ) [(٣)]

وفي أثناءِ القراءةِ إذا مرَّ بآيةِ تسبيحٍ . . سبَّحَ وكبَّرَ ، وإنْ مرَّ بآيةِ دعاءٍ واستغفارٍ . . دعا واستغفرَ ، وإنْ مرَّ بمرجوٍّ . . سألَ ، وإنْ مرَّ بمُخَوِّفٍ . . استعاذَ ، يفعلُ ذٰلكَ بلسانهِ أوْ بقلبِهِ ؛ فيقولُ : سبحانَ اللهِ ، نعوذُ باللهِ ، اللهمَّ ارزقنا ، اللهمَّ ارحمنا ، قالَ حذيفةُ : (صلَّيْتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فابتدأَ سورةَ « البقرةِ » ، فكانَ لا يمرُّ بآيةِ عذابٍ إلا استعاذَ ، ولا بآيةِ رحمةٍ إلا سألَ ، ولا بآيةِ تنزيهٍ إلا سبَّحَ) [(٤)] .

وإذا فرغَ . . قالَ ما كانَ يقولُهُ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ عندَ ختْمِ القرآنِ : « اللهمَّ ؛ ارحمني بالقرآنِ العظيمِ ، واجعلْهُ لي إماماً ونوراً ، وهدىً ورحمةً ، اللهمَّ ؛ ذكِّرْني منهُ ما نسيتُ ، وعلِّمني منهُ ما جهلتُ ، وارزقني تلاوتَهُ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، واجعلْهُ حجةً لي يا ربَّ العالمينَ » [(٥)]

❁ ❁ ❁

التاسعُ : في الجهرِ بالقراءةِ :

ولا شكَّ في أنَّهُ لا بدَّ أنْ يجهرَ بها إلىٰ حدٍّ يُسْمِعُ نفسَهُ ؛ إذِ القراءةُ عبارةٌ عنْ تقطيعِ الصوتِ بالحروفِ ، ولا بدَّ مِنْ صوتٍ ، وأقلُّهُ ما يُسْمِعُ نفسَهُ ، فإنْ لمْ يسمعْ نفسَهُ . . لمْ تصحَّ صلاتُهُ ، فأمَّا الجهرُ بحيثُ يسمعُ غيرَهُ . . فهوَ محبوبٌ علىٰ وجهٍ ، ومكروهٌ علىٰ وجهٍ آخرَ .

ويدلُّ على استحبابِ الإسرارِ ما رُويَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « فضلُ قراءةِ السرِّ علىٰ قراءةِ العلانيةِ

---

(١) في غير (ب) : (الاسم) .

(٢) قوت القلوب (١/٦٠) .

(٣) قوت القلوب (١/٦٠) .

(٤) رواه مسلم (٧٧٢) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٦٨٤) بنحوه .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجاني في « فضائل القرآن » ، وأبو بكر بن الضحاك في « الشمائل » كلاهما من طريق أبي ذر الهروي من رواية داوود بن قيس معضلاً) . « إتحاف » (٤/٤٩٢) . وقال في هـٰذا الحديث الحافظ الإمام ابن الجزري في « النشر في القراءات العشر » (٢/٤٦٤) : (وهـٰذا الحديث لا أعلم ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ختم القرآن غيره) أي : تخصيص هـٰذا الدعاء ، وإلا . . فقد أورد هو نفسه مرفوعات في دعائه صلى الله عليه وسلم عند الختم عقب هـٰذا القول .

كفضْلِ صدقةِ السرِّ علىٰ صدقةِ العلانيةِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « الجاهرُ بالقرآنِ كالجاهرِ بالصدقةِ ، والمسرُّ بهِ كالمسرِّ بالصدقةِ »[١]

وفي الخبرِ العامِّ : « يفضلُ عملُ السرِّ علىٰ عملِ العلانيةِ سبعينَ ضعفاً »[٢] ، وكذٰلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الرزْقِ ما يكفي ، وخيرُ الذكْرِ الخفيُّ »[٣]

وفي الخبرِ : « لا يجهرْ بعضُكُمْ علىٰ بعضٍ في القراءةِ بينَ المغربِ والعشاءِ »[٤]

وسمعَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ ذاتَ ليلةٍ في مسجدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ يجهرُ بالقراءةِ في صلاتِهِ وكانَ حسنَ الصوتِ ، فقالَ لغلامِهِ : اذهبْ إلىٰ هٰذا المصلِّي فمرْهُ أنْ يخفضَ مِنْ صوتِهِ ، فقالَ الغلامُ : إنَّ المسجدَ ليسَ لنا وللرجلِ فيه نصيبٌ ، فرفعَ سعيدٌ صوتَهُ وقالَ : يا أيُّها المصلِّي ؛ إنْ كنتَ تريدُ اللهَ عزَّ وجلَّ بصلاتِكَ . . فاخفضْ صوتَكَ ، وإنْ كنتَ تريدُ الناسَ . . فإنَّهم لنْ يُغنوا عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً ، فسكتَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وخفَّفَ ركعتَهُ ، فلمَّا سلَّمَ . . أخذَ نعليهِ وانصرفَ ، وهوَ يومئذٍ أميرُ المدينةِ[٥]

ويدلُّ على استحبابِ الجهرِ ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سمعَ جماعةً مِنْ أصحابِهِ يجهرونَ في صلاةِ الليلِ ، فصوَّبَ ذٰلكَ[٦] ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قامَ أحدُكُمْ مِنَ الليلِ يصلِّي . . فليجهرْ بقراءتِهِ ؛ فإنَّ الملائكةَ وعمَّارَ الدارِ يستمعونَ إلىٰ قراءتِهِ ويصلُّونَ بصلاتِهِ »[٧]

ومرَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بثلاثةٍ مِنْ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مختلفي الأحوالِ ، فمرَّ علىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يخافتُ ، فسألَهُ عنْ ذٰلكَ ؛ فقالَ : (إنَّ الذي أناجيهِ هوَ يسمعني) ، ومرَّ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يجهرُ ، فسألهُ عنْ ذٰلكَ ؛ فقالَ : (أوقظُ الوَسْنانَ وأزجُرُ الشيطانَ) ، ومرَّ علىٰ بلالٍ وهوَ يقرأُ آياً مِنْ هٰذهِ السورةِ وآياً مِنْ هٰذهِ السورةِ ، فسألَهُ عنْ ذٰلكَ ؛ فقالَ : (أخلطُ الطيِّبَ بالطيِّبِ) ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّكُمْ قدْ أحسنَ وأصابَ »[٨]

فالوجهُ في الجمعِ بينَ هٰذهِ الأحاديثِ : أنَّ الإسرارَ أبعدُ عنِ الرياءِ والتصنُّعِ ، فهوَ أفضلُ في حقِّ مَنْ يخافُ ذٰلكَ علىٰ نفسِهِ ، فإنْ لمْ يخفْ ، ولمْ يكنْ في الجهرِ ما يشوِّشُ الوقتَ علىٰ مصلٍّ آخرَ . . فالجهرُ أفضلُ ؛ لأنَّ العملَ فيهِ

---

(١) رواه أبو داوود (١٣٣٣) ، والترمذي (٢٩١٩) ، والنسائي (٢٢٥/٣) ، واللفظ الأول للحديث في « القوت » (٥٩/١) ، وهو بنحوه كذٰلك موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٧/٤) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥١) ، وبنحوه كذٰلك عن أبي الدرداء (٦٣٩٤) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٧٢/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٤٨) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٩٦/١) .

(٥) قوت القلوب (٥٩/١) ، وقد روى القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص ١٦٩) : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة يقرأ في المسجد يجهر بقراءته في صلاة النهار فقال : « يا بن حذافة ؛ سمِّع الله ولا تسمِّعنا » .

(٦) حيث روى البخاري (٥٠٤٢) ، ومسلم (٧٨٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمع النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً يقرأ من الليل في المسجد ، فقال : « يرحمه الله ؛ لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتها من سورة كذا وكذا » . وروى البخاري (٤٢٣٢) ، ومسلم (٢٤٩٩) مرفوعاً : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل . . . » الحديث .

(٧) رواه البزار كما في « مختصر زوائد مسند البزار » (٥٠١ ، ١٥٦٢) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٣١) ، وابن الضريس في « فضائل القرآن » (ص ١١٦) موقوفاً علىٰ عبادة بن الصامت ، ضمن حديث طويل عند الجميع .

(٨) رواه أبو داوود (١٣٣٠) ، وهو في « القوت » (٥٩/١) .

أكثرُ ، ولأنَّ فائدتَهُ أيضاً تتعلَّقُ بغيرِهِ ، فالخيرُ المتعدِّي أفضلُ مِنَ اللازمِ ، ولأنَّهُ يوقِظُ قلبَ القارئِ ، ويجمعُ همَّهُ إلى الفكرِ فيهِ ، ويصرفُ إليهِ سمعَهُ ، ولأنَّهُ يطردُ النومَ برفعِ الصوتِ ، ولأنَّهُ يزيدُ في نشاطِهِ للقراءةِ ، ويقلِّلُ مِنْ كسلِهِ ، ولأنَّهُ يرجو بجهرِهِ تيقُّظَ نائمٍ ، فيكونُ هوَ سببَ إحيائِهِ ، ولأنَّهُ قدْ يراهُ بطَّالٌ غافلٌ فينشَطُ بسببِ نشاطِهِ ، ويشتاقُ إلى الخدمةِ .

فمهما حضرَهُ شيءٌ مِنْ هـٰذهِ النيَّاتِ . . فالجهرُ أفضلُ ، وإنِ اجتمعتْ هـٰذهِ النيَّاتُ . . تضاعفَ الأجرُ ، وبكثرةِ النيَّاتِ تزكو أعمالُ الأبرارِ وتتضاعفُ أجورُهُمْ ، فإنْ كانَ في العملِ الواحدِ عشرُ نيَّاتٍ . . كانَ فيهِ عشرةُ أجورٍ .

ولهـٰذا نقولُ : قراءةُ القرآنِ في المصحفِ أفضلُ ؛ إذْ يزيدُ في العملِ النظرَ وتأمُّلَ المصحفِ وحَمْلَهُ ، فيزيدُ الأجرُ بسببِهِ ، وقدْ قيلَ : الختمةُ في المصحفِ بسبعٍ ؛ لأنَّ النظرَ في المصحفِ أيضاً عبادةٌ[1]

وخرقَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ مصحفينِ لكثرةِ قراءتِهِ منهما ، وكانَ كثيرٌ مِنَ الصحابةِ يقرؤونَ مِنَ المصحفِ ويكرهونَ أن يخرجَ يومٌ ولمْ ينظروا في المصحفِ[2]

ودخلَ بعضُ فقهاءِ مصرَ على الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ في السحَرِ وبينَ يديهِ المصحفُ ، فقالَ له الشافعيُّ : (شغلَكُمُ الفقهُ عنِ القرآنِ ، إنِّي لأصلِّي العتمةَ وأضعُ المصحفَ بينَ يديَّ فما أطبقُهُ حتَّىٰ أصبحَ)[3]

❁ ❁ ❁

العاشرُ : تحسينُ القراءةِ وتزيينُها بترديدِ الصوتِ مِنْ غيرِ تمطيطٍ مفرطٍ يغيِّرُ النظْمَ :

فذلكَ سنَّةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زيِّنُوا القرآنَ بأصواتِكُمْ »[4] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أذنَ اللهُ لشيءٍ أَذَنَهُ لحسنِ الصوتِ بالقرآنِ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ منَّا مَنْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ »[6] ، فقيلَ : أرادَ بهِ الاستغناءَ ، وقيلَ : أرادَ بهِ الترنُّمَ وترديدَ الألحانِ بهِ ، وهوَ أقربُ عندَ أهلِ اللغةِ[7]

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ ليلةً ينتظرُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، فأبطأَتْ عليهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ

---

(١) قوت القلوب (١/٦١) ، وقد قال كذلك الإمام النووي في « الأذكار » (ص ١٩٨) : (قراءة القرآن في المصحف أفضل من القراءة من حفظه ، هـٰكذا قاله أصحابنا ، وهو مشهور عن السلف رضي الله عنهم ، وهـٰذا ليس علىٰ إطلاقه ، بل إن كان القارئ من حفظه يحصل له من التدبر والفكر وجمع القلب والبصر أكثر مما يحصل له من المصحف . . فالقراءة من الحفظ أفضل ، وإن استويا . . فمن المصحف أفضل ، هـٰذا مراد السلف) . وقد روى القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص ١٠٤) : « فضل قراءة القرآن نظراً علىٰ من يقرؤه ظاهراً كفضل الفريضة على النافلة » .

(٢) قوت القلوب (١/٦١) .

(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/١٦٠) .

(٤) رواه أبو داوود (١٤٦٨) ، والنسائي (٢/١٧٩) ، وابن ماجه (١٣٤٢) .

(٥) رواه البخاري (٥٠٢٣) ، ومسلم (٧٩٢) ولفظه : « ما أذن الله لشيء كأَذَنِهِ لنبي يتغنىٰ بالقرآن يجهر به » .

(٦) رواه البخاري (٧٥٢٧) .

(٧) أما معنى الاستغناء . . فقد رواه البيهقي في « السنن الصغرىٰ » (١/٣٥٢) عن سفيان بن عيينة ، وأعقبه بقول الإمام الشافعي : (نحن أعلم بهـٰذا ، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الاستغناء به . . لقال : ليس منا من لم يستغنِ بالقرآن ، فلما قال : « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن » . . علمنا أنه التغني به) ، ومع ذلك فقد نقل الأزهري في « تهذيبه » (غنىٰ) عن أبي عبيد ما يؤيد هـٰذا حيث قال : (قال أبو عبيد : وهـٰذا كلام جائز فاشٍ في كلام العرب ، يقولون : تغنيت تغنياً وتغانيت تغانياً بمعنى استغنيت) ، وقد روى البيهقي في « السنن الصغرىٰ » (١/٣٥٢) كذلك عن الشافعي قال : (معناه : يقرؤه حدراً وتحزيناً) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حَبَسَكِ ؟ » قالتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ كنتُ أستمعُ قراءةَ رجلٍ ما سمعتُ أحسنَ صوتاً منهُ ، فقامَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّى استمعَ إليهِ طويلاً ، ثمَّ رجعَ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هـٰذا سالمٌ مولىٰ أبي حذيفةَ ، الحمدُ للهِ الذي جعلَ في أمَّتِي مثلَهُ »(١)

واستمعَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً ذاتَ ليلةٍ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ومعَهُ أبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُما ، فوقفوا طويلاً ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أرادَ أنْ يقرأَ القرآنَ غضّاً كما أنزلَ . . فليقرأْهُ علىٰ قراءَةِ ابنِ أُمِّ عبدٍ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ مسعودٍ : « اقرأْ عليَّ » فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزلَ ؟! فقالَ : « إنِّي أُحبُّ أنْ أسمعَهُ مِنْ غيري » ، فكانَ يقرأُ وعينا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تفيضانِ(٣)

واستمعَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ قراءةِ أبي موسىٰ فقالَ : « لقدْ أوتيَ هـٰذا مزماراً مِنْ مزاميرِ آلِ داوودَ » ، فبلغَ ذٰلكَ أبا موسىٰ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ لوْ علمتُ أنَّكَ تستمعُ . . لحبَّرْتُهُ لكَ تحبيراً(٤)

ورأىٰ هيثمٌ القارئُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في منامِهِ ، قالَ : فقالَ لي : أنتَ الهيثمُ الذي تزيِّنُ القرآنَ بصوتِكَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : جزاكَ اللهُ خيراً(٥)

وفي الخبرِ : كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا اجتمعوا . . أمروا أحدَهُمْ أنْ يقرأَ سورةً مِنَ القرآنِ(٦)

وقدْ كانَ عمرُ يقولُ لأبي موسىٰ رضيَ اللهُ عنهُما : ذكِّرْنا ربَّنا ، فيقرأُ عندَهُ حتَّىٰ يكادُ وقتُ الصلاةِ أنْ يتوسَّطَ ، فيقالُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ الصلاةَ الصلاةَ ، فيقولُ : أَوَلَسْنا في صلاةٍ ؟! إشارةٌ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استمعَ إلىٰ آيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . كانتْ لهُ نوراً يومَ القيامةِ »(٨) ، وفي الخبرِ : « كتبَ لهُ عشْرُ حسناتٍ »(٩)

ومهما عظُمَ أجرُ الاستماعِ وكانَ التالي هوَ السببَ فيهِ . . كانَ شريكاً في الأجرِ ، إلا أنْ يكونَ قصدُهُ الرياءَ والتصنعَ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٨) .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٢٠٠) ، وهو عند أحمد في « المسند » (١/٢٥) ، والمرفوع دون القصة عند ابن ماجه (١٣٨) .

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٢) ، ومسلم (٨٠٠) .

(٤) رواه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) ، وقول أبي موسىٰ من زيادة البرقاني كما في « الجمع بين الصحيحين » (١/٣١٥) ، والتحبير : التحسين .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢١٦) ، وهو الهيثم بن اليمان الرازي .

(٦) قوت القلوب (١/٦٠) .

(٧) قوت القلوب (١/٦٠) .

(٨) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٤١) ، والدارمي في « سننه » (٣٤١٠) .

(٩) قوت القلوب (١/٦٠) ، وانظر « الإتحاف » (٤/٥٠٠) .

البَابُ الثَّالِثُ
في أعمال الباطن في التلاوة
وهي عشرة

فهمُ أصْلِ الكلامِ ، ثمَّ التعظيمُ ، ثمَّ حضورُ القلبِ ، ثمَّ التدبُّرُ ، ثمَّ التفهُّمُ ، ثمَّ التخلِّي عنْ موانعِ الفهْمِ ، ثمَّ التخصيصُ ، ثمَّ التأثُّرُ ، ثمَّ الترقي ، ثمَّ التبرِّي .

❊ ❊ ❊

الأوَّلُ : فهْمُ عظمةِ الكلامِ وعلوِّهِ ، وفضلِ اللهِ سبحانَهُ ولطفِهِ بخلقِهِ في نزولِهِ عنْ عرشِ جلالِهِ إلىٰ درجةِ أفهامِ خلقِهِ :

فلينظرْ كيفَ لطفَ بخلقِهِ في إيصالِ معاني كلامِهِ الذي هوَ صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذاتِهِ إلىٰ أفهامِ خلقِهِ ، وكيفَ تجلَّتْ لهمْ تلكَ الصفةُ في طيِّ حروفٍ وأصواتٍ هي صفاتُ البشرِ ، إذْ يعجزُ البشرُ عنِ الوصولِ إلىٰ فهْمِ صفاتِ اللهِ تعالىٰ إلا بوسيلةِ صفاتِ نفسِهِ ، ولولا استتارُ كُنْهِ جلالةِ كلامِهِ بكُسوةِ الحروفِ . . لما ثبتَ لسماعِ الكلامِ عرشٌ ولا ثرىً ، ولتلاشىٰ ما بينَهما مِنْ عظمةِ سلطانِهِ وسُبُحاتِ نورِهِ ، ولولا تثبيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ لموسىٰ عليهِ السلامُ . . لما أطاقَ سماعَ كلامِهِ ؛ كما لمْ يطقِ الجبلُ مباديَ تجلِّيهِ ، حيثُ صارَ دكّاً .

ولا يمكنُ تفهيمُ عظمةِ الكلامِ إلا بأمثلةٍ علىٰ حدِّ فهْمِ الخلْقِ ، ولهـٰذا عبَّرَ بعضُ العارفينَ عنهُ فقالَ : (إنَّ كلَّ حرفٍ مِنْ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ في اللوحِ أعظمُ مِنْ جبلِ قافٍ[1] ، وإنَّ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ لوِ اجتمعتْ على الحرفِ الواحدِ أنْ يُقِلُّوهُ . . ما أطاقوهُ حتَّىٰ يأتيَ إسرافيلُ عليهِ السلامُ وهوَ ملكُ اللوحِ فيرفعَهُ فيقلَّهُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورحمتِهِ ، لا بقوتِهِ وطاقتِهِ ، ولـٰكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ طوَّقَهُ ذٰلكَ واستعملَهُ بهِ)[2]

ولقدْ تأنَّقَ بعضُ الحكماءِ في التعبيرِ عنْ وجهِ اللطْفِ في إيصالِ معاني الكلامِ معَ علوِّ درجتِهِ إلىٰ فهْمِ الإنسانِ معَ قصورِ رتبتِهِ ، وضربَ لهُ مثلاً لمْ يقصِّرْ فيهِ ، وذٰلكَ أنَّهُ دعا بعضَ الملوكِ إلىٰ شريعةِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، فسألَهُ الملكُ عنْ أمورٍ ، فأجابَ بما يحتملُهُ فهمُهُ .

فقالَ الملكُ : أرأيتَ ما يأتي بهِ الأنبياءُ إذا ادعيتَ أنَّهُ ليسَ بكلامِ الناسِ ، وأنَّهُ كلامُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكيفَ يُطِيقُ الناسُ حملَهُ ؟

فقالَ الحكيمُ : إنَّا رأينا الناسَ لمَّا أرادوا أنْ يُفهِموا بعضَ الدوابِّ والطيرِ ما يريدونَ مِنْ تقديمِها وتأخيرِها وإقبالِها وإدبارِها ، ورأَوُا الدوابَّ يقصرُ تمييزُها عنْ فهمِ كلامِهِمُ الصادرِ عنْ أنوارِ عقولِهِمْ معَ حسنِهِ وترتيبِهِ وبديعِ نظمِهِ . . فنزلوا إلىٰ درجةِ تمييزِ البهائمِ ، وأوصلوا مقاصدَهُمْ إلىٰ بواطنِ البهائمِ بأصواتٍ يضعونَها لائقةً بها ؛ مِنَ النقْرِ والصفيرِ والأصواتِ القريبةِ مِنْ أصواتِها التي تُطِيقُ حملَها .

---

(١) يراد بجبل قاف : العظمة والسعة ، وهو جبل محيط بالأرضين السبع عندهم ، روىٰ في ذكره وبيانه آثاراً عن السلف أبو الشيخ في « العظمة » (١٤٨٤/٤ ـ ١٤٩١) .

(٢) قوت القلوب (٤٧/١) .

وكذٰلكَ الناسُ يعجِزونَ عنْ حملِ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ بكُنْهِهِ وكمالِ صفاتِهِ ، فصاروا بما تواضعوا بينَهُمْ مِنَ الأصواتِ التي سمعوا بها الحكمةَ كصوتِ النقرِ والصفيرِ الذي سمعَتْ بهِ الدوابُّ مِنَ الناسِ ، ولمْ يمنعْ ذٰلكَ معانيَ الحكمةِ المخبوءَةِ في تلكَ الصفاتِ مِنْ أنْ شَرُفَ الكلامُ ـ أي : الأصواتُ ـ لشرفِها ، وعظمَ لتعظيمِها .

فكانَ الصوتُ للحكمةِ جسداً ومسكناً ، والحكمةُ للصوتِ نفساً وروحاً .

فكما أنَّ أجسادَ البشرِ تكرمُ وتعزُّ لمكانِ الروحِ فكذٰلكَ أصواتُ الكلامِ تشرفُ للحكمةِ التي فيها ، والكلامُ عالي المنزلةِ ، رفيعُ الدرجةِ ، قاهرُ السلطانِ ، نافذُ الحكمِ في الحقِّ والباطلِ ، وهوَ القاضي العدلُ ، والشاهدُ المرتضىٰ ، يأمرُ وينهىٰ ، ولا طاقةَ للباطلِ أنْ يقومَ قدَّامَ كلامِ الحكمةِ ؛ كما لا يستطيعُ الظلُّ أنْ يقومَ قدَّامَ شعاعِ الشمسِ ، ولا طاقةَ للبشرِ أنْ ينفذوا غورَ الحكمةِ ؛ كما لا طاقةَ لهمْ أنْ ينفذوا بأبصارِهِمْ ضوءَ عينِ الشمسِ ، ولٰكنَّهُمْ ينالونَ مِنْ ضوءِ عينِ الشمسِ ما تحيا بهِ أبصارُهُمْ ، ويستدلُّونَ بهِ علىٰ حوائجِهِمْ فقطْ ، فالكلامُ كالملكِ المحجوبِ الغائبِ وجهُهُ الشاهدِ أمرُهُ ، وكالشمسِ العزيزةِ الظاهرةِ وعنصرُها مكنونٌ ، وكالنجومِ الزاهرةِ التي قدْ يهتدي بها مَنْ لا يقفُ علىٰ سيرِها ، فهوَ مفتاحُ الخزائنِ النفيسةِ ، وشرابُ الحياةِ الذي مَنْ شربَ منهُ . . لمْ يمتْ ، ودواءُ الأسقامِ الذي مَنْ سُقِيَ منهُ . . لمْ يسقمْ [1]

فهٰذا الذي ذكرَهُ الحكيمُ نبذةٌ مِنْ تفهيمِ معنى الكلامِ ، والزيادةُ عليهِ لا تليقُ بعلْمِ المعاملةِ ، فينبغي أنْ يقتصرَ عليهِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : التعظيمُ للمتكلِّمِ :

فالقارئُ عندَ البدايةِ بتلاوةِ القرآنِ ينبغي أنْ يحضرَ في قلبِهِ عظمةَ المتكلِّمِ ، ويعلمَ أنَّ ما يقرؤُهُ ليسَ مِنْ كلامِ البشرِ ، وأنَّ في تلاوةِ كلامِ اللهِ تعالىٰ غايةَ الخطرِ ، فإنَّهُ تعالىٰ قالَ : ﴿ لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [2] ، وكما أنَّ ظاهرَ جلْدِ المصحفِ وورقَهُ محروسٌ عنْ ظاهرِ بشرةِ اللامسِ إلا إذا كانَ متطهِّراً . . فباطنُ معناهُ أيضاً بحكْمِ عزِّهِ وجلالِهِ محجوبٌ عنْ باطنِ القلبِ إلا إذا كانَ متطهِّراً عنْ كلِّ رجْسٍ ، ومستنيراً بنورِ التعظيمِ والتوقيرِ ، وكما لا يصلحُ لمسِّ جلدِ المصحفِ كلُّ يدٍ . . فلا يصلحُ لتلاوةِ حروفِهِ كلُّ لسانٍ ، ولا لنيلِ معانيهِ كلُّ قلبٍ ، ولمثلِ هٰذا التعظيمِ كانَ عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ إذا نشرَ المصحفَ . . غُشِيَ عليهِ ويقولُ : (هوَ كلامُ ربِّي ، هوَ كلامُ ربِّي) [3]

فتعظيمُ الكلامِ بتعظيمِ المتكلِّمِ ، ولنْ تحضرَهُ عظمةُ المتكلِّمِ ما لمْ يتفكَّرْ في صفاتِهِ وجلالِهِ وأفعالِهِ ، فإذا خطرَ ببالِهِ العرشُ والكرسيُّ والسماواتُ والأرضونَ وما بينَهُما مِنَ الجنِّ والإنسِ والدوابِّ والأشجارِ ، وعلمَ أنَّ الخالقَ لجميعِها والقادرَ عليها والرازقَ لها واحدٌ ، وأنَّ الكلَّ في قبضةِ قدرتِهِ مردَّدونَ بينَ فضلِهِ ورحمتِهِ ، وبينَ نقمتِهِ وسطوتِهِ ، إنْ أنعمَ . . فبفضلِهِ ، وإنْ عاقبَ . . فبعدلِهِ ، وأنَّهُ الذي يقولُ : « هٰؤلاءِ في الجنةِ ولا أبالي ، وهٰؤلاءِ

---

(١) قوت القلوب (٤٧/١) ، وقال بعد هٰذه الحكاية : (نقلت هٰذا نقلاً من كلام الصديق الحكيم الذي خاطب به الملك فاستجاب له بإذن الله عز وجل) ، ثم أشار إلىٰ فضل الله تعالىٰ وإلهامه لهٰذا الحكيم بما فتح عليه من حسن التشبيه .

(٢) وهو إخبار في معنى الإنشاء ، والتطهير أعم من تطهير الظاهر والباطن « إتحاف » (٥٠٣/٤) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٧١/١٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٤٣/٣) .

في النارِ ولا أبالي »[1] ، وهٰذا غايةُ العظمةِ والتعالي . . فبالتفكرِ في أمثالِ هٰذا يحضرُ تعظيمُ المتكلِّمِ ثمَّ تعظيمُ الكلامِ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : حضورُ القلبِ وتركُ حديثِ النفْسِ :

قيلَ في تفسيرِ : ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾ أي : بجدٍّ واجتهادٍ ، وأخذُهُ بالجدِّ أنْ يكونَ متجرِّداً لهُ عندَ قراءتِهِ ، منصرفَ الهمَّةِ إليهِ عنْ غيرِهِ .

وقيلَ لبعضِهِمْ : إذا قرأتَ القرآنَ تحدّثُ نفسَكَ بشيءٍ ؟ فقالَ : أَوَشيءٌ أحبُّ إليَّ مِنَ القرآنِ أحدِّثُ بهِ نفسي ؟![2] .

وكانَ بعضُ السلفِ إذا قرأَ سورةً لمْ يكنْ قلبُهُ فيها . . أعادَها ثانيةً .

وهٰذهِ الصفةُ تتولَّدُ عمَّا قبلَها منَ التعظيمِ ، فإنَّ المعظِّمَ للكلامِ الذي يتلوهُ يستبشرُ بهِ ويستأنسُ ولا يغفُلُ عنهُ ، ففي القرآنِ ما يستأنسُ بهِ القلبُ إنْ كانَ التالي أهلاً لهُ ، فكيفَ يطلبُ الأنسَ بالفكْرِ في غيرِهِ وهوَ في متنزَّهٍ ومتفرَّجٍ[3] ، والذي يتفرَّجُ في المتنزَّهاتِ لا يتفكَّرُ في غيرِها ؛ فقدْ قيلَ : إنَّ في القرآنِ ميادينَ وبساتينَ ومقاصيرَ وعرائسَ ودبابيجَ ورياضاً وخاناتٍ[4] ، فالميماتُ ميادينُ القرآنِ ، والراءاتُ بساتينُ القرآنِ ، والحاءاتُ مقاصيرُهُ ، والمسبِّحاتُ عرائسُ القرآنِ ، والحاميماتُ دبابيجُ القرآنِ ، والمفصَّلُ رياضُهُ ، والخاناتُ ما سوىٰ ذٰلكَ ، فإذا دخلَ القارئُ في الميادينِ ، وقطفَ مِنَ البساتينِ ، ودخلَ المقاصيرَ ، وشهدَ العرائسَ ، ولبسَ الديباجَ ، وتنزَّهَ في الرياضِ ، وسكنَ غرفَ الخاناتِ . . استغرقَهُ ذٰلكَ وشغلَهُ عمَّا سواهُ ، فلمْ يعزُبْ قلبُهُ ، ولمْ يتفرَّقْ فكرُهُ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : التدبُّرُ :

وهوَ وراءَ حضورِ القلبِ ، فإنَّهُ قدْ لا يتفكَّرُ في غيرِ القرآنِ ، ولٰكنَّهُ يقتصرُ علىٰ سماعِ القرآنِ مِنْ نفسِهِ وهوَ لا يتدبَّرُهُ ، والمقصودُ مِنَ القراءةِ التدبُّرُ ، ولذٰلكَ سُنَّ فيهِ الترتيلُ ، لأنَّ الترتيلَ في الظاهرِ ليتمكَّنَ مِنَ التدبُّرِ بالباطنِ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا خيرَ في عبادةٍ لا فقهَ فيها ، ولا في قراءةٍ لا تدبُّرَ فيها)[5]

وإذا لمْ يتمكَّنْ مِنَ التدبُّرِ إلا بترديدٍ . . فليردِّدْ إلا أنْ يكونَ خلْفَ إمامٍ ، فإنَّهُ لوْ بقيَ في تدبُّرِ آيةٍ وقدِ اشتغلَ الإمامُ بآيةٍ أخرىٰ . . كانَ مسيئاً ؛ مثلَ مَنْ يشتغلُ بالتعجُّبِ مِنْ كلمةٍ واحدةٍ ممَّنْ يناجيهِ عنْ فهْمِ بقيةِ كلامِهِ ، وكذٰلكَ إذا كانَ في تسبيحِ الركوعِ وهوَ متفكِّرٌ في آيةٍ قرأَها إمامُهُ ، فهٰذا وسواسٌ ، فقدْ رُوِيَ عنْ عامرِ بنِ عبدِ قيسٍ أنَّهُ قالَ : الوسواسُ يعتريني في الصلاةِ ، فقيلَ : في أمرِ الدنيا ؟ فقالَ : لأَنْ تختلفَ فيَّ الأسنَّةُ أحبُّ إليَّ مِنْ ذٰلكَ ، ولٰكنْ يشتغلُ قلبي بموقفي بينَ يدي ربِّي عزَّ وجلَّ وأنِّي كيفَ أنصرفُ[6]

---

(١) حديث القبضتين رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٢٢) عن أنس مرفوعاً .
(٢) قوت القلوب (٤٦/١) .
(٣) **المتنزه** ـ علىٰ صيغة اسم المفعول ـ : البساتين والمواضع البعيدة عن المساكن ، **والمنفرج** علىٰ وزنه : أعم من ذٰلك . « إتحاف » (٥٠٤/٤) .
(٤) **الدبابيج** : جمع ديباج ، ثوب فاخر من الإبريسم .
(٥) رواه الدارمي في « سننه » (٣٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٧/١) .
(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٦١) بنحوه .

فعدَّ ذٰلكَ وسواساً ، وهوَ كذٰلكَ ؛ فإنَّهُ يشغلُهُ عنْ فهْمِ ما هوَ فيهِ ، والشيطانُ لا يقدرُ علىٰ مثلِهِ إلا بأنْ يشغلَهُ بمهمٍّ دينيٍّ ولٰكنْ يمنعُهُ بهِ عنِ الأفضلِ ، ولمَّا ذُكرَ ذٰلكَ للحسنِ . . قالَ : إنْ كنتُم صادقينَ عنهُ . . فما اصطنعَ اللهُ ذٰلكَ عندَنا .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأَ (بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ) فردَّدَها عشرينَ مرَّةً[١] ، وإنَّما ردَّدَها لتدبرِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في معانيها .

وعنْ أبي ذرٍّ قالَ : قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنا ليلةً ، فقامَ بآيةٍ يردِّدُها ، وهيَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٢]

وقامَ تميمٌ الداريُّ ليلةً بهٰذهِ الآيةِ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . ﴾ الآيةَ[٣]

وقامَ سعيدُ بنُ جبيرٍ ليلةً يردِّدُ هٰذهِ الآيةَ : ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[٤]

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي لأفتتحُ السورةَ فيوقفني بعضُ ما أشهدُ فيها عنِ الفراغِ منها حتَّىٰ يطلعَ الفجرُ)[٥]

وكانَ بعضُهُمْ يقولُ : (كلُّ آيةٍ لا أتفهَّمُها ولا يكونُ قلبي فيها . . لا أعدُّ لها ثواباً)[٦]

وحُكِيَ عنْ أبي سليمانَ الدارانيِّ أنَّهُ قالَ : (إنِّي لأتلو الآيةَ فأقيمُ فيها أربعَ ليالٍ أوْ خمسَ ليالٍ ، ولولا أنِّي أقطعُ الفكْرَ فيها . . ما جاوزتُها إلىٰ غيرِها)[٧]

وعنْ بعضِ السلفِ أنَّهُ بقيَ في سورةِ (هودٍ) ستَّةَ أشهرٍ يكرِّرُها ولا يفرغُ مِنَ التدبُّرِ فيها[٨]

وقالَ بعضُ العارفينَ : (لي في كلِّ جمعةٍ ختمةٌ ، وفي كلِّ شهرٍ ختمةٌ ، وفي كلِّ سنةٍ ختمةٌ ، ولي ختمةٌ منذُ ثلاثينَ سنةً ما فرغتُ منها بعدُ)[٩] ، وذٰلكَ بحسَبِ درجاتِ تدبُّرِهِ وتفتيشِهِ ، وكانَ هٰذا أيضاً يقولُ : (أقمتُ نفسي مقامَ الأُجرَاءِ ، فأنا أعملُ مياومةً ومسابعةً ومشاهرَةً ومسانهَةً)[١٠]

❀ ❀ ❀

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي ﷺ » (٥٥١) .
(٢) رواه النسائي (١٧٧/٢) ، وابن ماجه (١٣٥٠) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤) ، والطبراني في « الكبير » (٥٠/٢) .
(٤) رواه القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص ١٤٨) ، وفيه قراءة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وفي رواية : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ بدل ما ذكر المصنف ، وحكىٰ تكرير الآي عن ابن مسعود ، وعمر بن الخطاب ، وعامر بن عبد قيس ، وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم .
(٥) قوت القلوب (٤٦/١)
(٦) قوت القلوب (٤٦/١) .
(٧) قوت القلوب (٥٠/١) .
(٨) قوت القلوب (٥٠/١) .
(٩) قوت القلوب (٥٠/١) ، والخبر المذيَّل له الآتي . . فيه كذلك .
(١٠) **والمياومة** : معاملة يوم بيوم ، **والمسابعة** : معاملة الأسبوع إلى الأسبوع ، **والمشاهرة** : معاملة الشهر إلى الشهر ، **والمسانهة** : معاملة السنة إلى السنة .

الخامسُ : التفهُّمُ :

وهوَ أنْ يستوضحَ مِنْ كلِّ آيةٍ ما يليقُ بها ، إذِ القرآنُ يشتملُ علىٰ ذكْرِ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وذكرِ أفعالِهِ ، وذكرِ أحوالِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، وذكرِ أحوالِ المكذِّبينَ لهمْ ، وأنَّهُمْ كيفَ أُهلكوا ، وذكرِ أوامرِهِ وزواجرِهِ ، وذكرِ الجنةِ والنارِ .

ـ **أمَّا صفاتُ اللهِ عزَّ وجلَّ** : فكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ ، فليتأملْ معانيَ هٰذهِ الأسماءِ والصفاتِ لينكشفَ لهُ أسرارُها ، فتحتَها معانٍ مدفونةٌ لا تنكشفُ إلا للموفقينَ ، وإليهِ أشارَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ بقولِهِ : (ما أسرَّ إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شيئاً كتمَهُ عنِ الناسِ إلا أنْ يؤتيَ اللهُ عزَّ وجلَّ عبداً فهماً في كتابِهِ)[1] ، فليكنْ حريصاً علىٰ طلبِ ذٰلكَ الفهمِ .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ أرادَ علمَ الأوَّلينَ والآخرينَ . . فليُثوِّرِ القرآنَ)[2] ، وأعظمُ علومِ القرآنِ تحتَ أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِهِ ؛ إذْ لمْ يدركْ أكثرُ الخلقِ منها إلا أموراً لائقةً بأفهامِهِمْ ، ولمْ يعثروا علىٰ أغوارِها[3] .

ـ **وأمَّا أفعالُهُ تعالىٰ** : فكذكرِهِ خلْقَ السماواتِ والأرضِ وغيرِها ، فليفهمِ التالي منها صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ وجلالَهُ ؛ إذِ الفعلُ يدلُّ على الفاعلِ ، فتدلُّ عظمتُهُ علىٰ عظمتِهِ ، فينبغي أنْ يشهدَ في الفعْلِ الفاعلَ دونَ الفعْلِ ، فمَنْ عرفَ الحقَّ . . رآهُ في كلِّ شيءٍ ؛ إذْ كلُّ شيءٍ فهوَ منهُ وإليهِ ، وبهِ ولهُ ، فهوَ الكلُّ على التحقيقِ[4] ، ومَنْ لا يراهُ في كلِّ ما يراهُ . . فكأنَّهُ ما عرفَهُ ، ومَنْ عرفَهُ . . عرفَ أنَّ كلَّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، لا أنَّهُ سيبطلُ في ثاني الحالِ ، بلْ هوَ الآنَ باطلٌ إنِ اعتُبِرَ ذاتُهُ مِنْ حيثُ هوَ ، إلا أنْ يُعتبرَ وجودُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ موجودٌ باللهِ عزَّ وجلَّ وبقدرتِهِ ، فيكونُ لهُ بطريقِ التبعيَّةِ ثباتٌ ، وبطريقِ الاستقلالِ بطلانٌ محْضٌ ، وهٰذا مبدأٌ مِنْ مبادئِ علمِ المكاشفةِ[5] .

ولهٰذا ينبغي إذا قرأَ التالي قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ . . ألَّا يقصرَ نظرَهُ على الماءِ والنارِ والحرثِ والمنيِّ ، بلْ يتأمَّلُ في المنيِّ وهوَ نطفةٌ متشابهةُ الأجزاءِ ، ثمَّ ينظرُ في كيفيةِ انقسامِها إلى اللحمِ والعظمِ والعروقِ والعصبِ ، وكيفيةِ تشكُّلِ أعضائِها بالأشكالِ المختلفةِ مِنَ الرأسِ واليدِ والرجْلِ والكبدِ والقلبِ وغيرِها ، ثمَّ إلىٰ ما ظهرَ فيها مِنَ الصفاتِ الشريفةِ مِنَ السمعِ والبصرِ والعقلِ وغيرِها ، ثمَّ إلىٰ ما ظهرَ فيها مِنَ الصفاتِ المذمومةِ مِنَ الغضبِ والشهوةِ والكبرِ والجهلِ والتكذيبِ والمجادلةِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، فيتأمَّلُ هٰذهِ العجائبَ ليرقَىٰ منها إلىٰ أعجبِ العجائبِ ، وهوَ الصنعةُ[6] التي منها صدرَتْ هٰذهِ الأعاجيبُ ، فلا يزالُ ينظرُ إلى الصنعةِ ويرى الصانعَ[7]

---

(١) رواه النسائي (٢٣/٨) بنحوه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨١٤) .

(٣) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٣) .

(٤) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٤٢) .

(٥) ألمع بشيء من البسط المصنفُ رحمه الله تعالىٰ في الحديث عن هٰذا المبدأ في « مشكاة الأنوار » (ص ٤٥) .

(٦) في جميع النسخ : (الصفة) ، والمثبت من « الإتحاف » (٥١٠/٤) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

(٧) وعبارة المصنف في « مشكاة الأنوار » (ص ٤٥) : (ثم ترتقي جملتها إلىٰ نور الأنوار ومعدنها الأول ، وأن ذٰلك هو الله عز وجل وحده لا شريك له ، وأن سائر الأنوار مستعارة ، وإنما الحقيقي نوره فقط) .

ـ **وأمَّا أحوالُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ** : فإذا سمعَ منها أنَّهُمْ كيفَ كُذِّبوا وضُربوا وقُتِلَ بعضُهُمْ . . فليفهمْ منهُ صفةَ الاستغناءِ للهِ عزَّ وجلَّ عنِ الرسلِ والمرسَلِ إليهمْ ، وأنَّهُ لوْ أهلكَ جميعَهُمْ . . لمْ يؤثِّرْ في ملكِهِ شيئاً ، وإذا سمعَ نصرتَهُمْ في آخرِ الأمرِ . . فليفهَمْ قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ وإرادتَهُ لنصرةِ الحقِّ .

ـ **وأمَّا أحوالُ المكذِّبينَ** : كعادٍ وثمودَ وما جرىٰ عليهِمْ ، فليكنْ فهمُهُ منهُ استشعارَ الخوفِ مِنْ سطوتِهِ ونقمتِهِ ، وليكنْ حظُّهُ منهُ الاعتبارَ في نفسِهِ ، وأنَّهُ إنْ غفَلَ وأساءَ الأدبَ واغترَّ بما أمهلَ . . فربما تدركُهُ النقمةُ وتنفذُ فيهِ القضيةُ .

وكذٰلكَ إذا سمعَ **وصفَ الجنَّةِ والنارِ وسائرَ ما في القرآنِ** ، فلا يمكنُ استقصاءُ ما يفهمُ منها ؛ لأنَّ ذٰلكَ لا نهايةَ لهُ ، وإنَّما لكلِّ عبدٍ منهُ بقدْرِ رزقِهِ ، فلا رطْبَ ولا يابسَ إلا في كتابٍ مبينٍ ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

ولذٰلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ شئتُ . . لأوقرْتُ سبعينَ بعيراً مِنْ تفسيرِ « فاتحةِ الكتابِ »)[(١)]

فالغرضُ ممَّا ذكرناهُ التنبيهُ علىٰ طريقِ التفهُّمِ لينفتحَ بابُهُ ، فأمَّا الاستقصاءُ . . فلا مطمعَ فيهِ ، ومَنْ لمْ يكنْ لهُ فهْمٌ ما في القرآنِ ولوْ في أدنى الدرجاتِ . . دخلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، والطابَعُ : هيَ الموانعُ التي سنذكرُها في موانعِ الفهْمِ ، وقدْ قيلَ : (لا يكونُ المريدُ مريداً حتَّىٰ يجدَ في القرآنِ كلَّ ما يريدُ ، ويعرفَ منهُ النقصانَ مِنَ المزيدِ ، ويستغنيَ بالمولىٰ عَنِ العبيدِ)[(٢)]



السادسُ : **التخلِّي عنْ موانعِ الفهْمِ** :

فإنَّ أكثرَ الناسِ مُنعوا عنْ فهمِ معاني القرآنِ لأسبابٍ وحُجُبٍ أسدلَها الشيطانُ علىٰ قلوبِهِمْ ، فعميَتْ عليهِمْ عجائبُ أسرارِ القرآنِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلى الملكوتِ »[(٣)] ، ومعاني القرآنِ مِنْ جملةِ الملكوتِ ، وكلُّ ما غابَ عنِ الحواسِّ ولمْ يُدركْ إلا بنورِ البصيرةِ . . فهوَ مِنَ الملكوتِ .

وحُجُبُ الفهْمِ أربعةٌ :

ـ **أوَّلُها** : أنْ يكونَ الهمُّ منصرفاً إلىٰ تحقيقِ الحروفِ بإخراجِها مِنْ مخارجِها ، وهٰذا يتولَّىٰ حفظَهُ شيطانٌ وُكِّلَ بالقرَّاءِ ليصرفَهُمْ عنْ فهمِ معاني كلامِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يزالُ يحملُهُمْ علىٰ ترديدِ الحرْفِ يخيِّلُ إليهِمْ أنَّهُ لمْ يخرجْ مِنْ مخرجِهِ[(٤)] ، فهٰذا يكونُ تأمُّلُهُ مقصوراً علىٰ مخارجِ الحروفِ ، فأنَّىٰ تنكشفُ لهُ المعاني ؟! وأعظَمُ ضُحْكَةٍ للشيطانِ مَنْ كانَ مطيعاً لمثْلِ هٰذا التلبيسِ .

ـ **ثانيها** : أنْ يكونَ مقلِّداً لمذهبٍ سمعَهُ بالتقليدِ وجمدَ عليهِ ، وثبتَ في نفسِهِ التعصُّبُ لهُ بمجرَّدِ الاتباعِ للمسموعِ ،

---

(١) قوت القلوب (١/٥٠) .

(٢) قوت القلوب (١/٥٧) عن بعض العارفين .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٥٣) في قصة الإسراء مرفوعاً .

(٤) ويوهم عليهم أنهم كما تُعُبِّدوا بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده . . متعبَّدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه المتلقاة من أئمة القراءة ، ويزيد عليهم شيئاً آخر أجلىٰ مما سبق ؛ بأن يخطر علىٰ بالهم بأن القراءة بغير تجويد لحنٌ ، ولولا أنكم تجوّدون الألفاظ . . لا تصلون إلى فهم المعاني منها ، ولعمري ؛ هٰذا الذي يخيل إليهم به حق وصدق ، لٰكنه يريد بإلقاء مثل ذٰلك إليهم تثبيطهم عن المهم . « إتحاف » (٤/٥١٢) .

مِنْ غيرِ وصولٍ إليهِ ببصيرةٍ ومشاهدةٍ ، فهـٰذا شخصٌ قيَّدَهُ معتقَدُهُ عنْ أنْ يجاوزَهُ ، فلا يمكِّنُهُ أنْ يخطرَ ببالِهِ غيرَ معتقدِهِ ، فصارَ نظرُهُ موقوفاً علىٰ مسموعِهِ ، فإنْ لمعَ برقٌ علىٰ بعْدٍ ، وبدا لهُ معنىً مِنَ المعاني التي تباينُ مسموعَهُ . . حملَ عليهِ شيطانُ التقليدِ حملةً وقالَ : كيفَ يخطرُ هـٰذا ببالِكَ وهوَ خلافُ معتقدِ آبائِكَ ؟! فيرىٰ أنَّ ذٰلكَ غرورٌ مِنَ الشيطانِ ، فيتباعدُ منهُ ، ويحترزُ عنْ مثلِهِ .

ولمثْلِ هـٰذا قالتِ الصوفيَّةُ : (إنَّ العلمَ حجابٌ)[١] ، وأرادوا بالعلمِ : العقائدَ التي استمرَّ عليها أكثرُ الناسِ بمجرَّدِ التقليدِ ، أوْ بمجرَّدِ كلماتٍ جدليَّةٍ حرَّرَها المتعصِّبونَ للمذاهبِ وألقَوْها إليهِمْ ، فأمَّا العلمُ الحقيقيُّ الذي هوَ الكشْفُ والمشاهدةُ بنورِ البصيرةِ . . فكيفَ يكونُ حجاباً وهوَ منتهى المطلبِ ، وهـٰذا التقليدُ قدْ يكونُ باطلاً ، فيكونُ مانعاً ؛ كمَنْ يعتقدُ مِنَ الاستواءِ على العرشِ التمكُّنَ والاستقرارَ ، فإنْ خطرَ لهُ مثلاً في القدوسِ أنَّهُ المقدَّسُ عَنْ كلِّ ما يجوزُ علىٰ خلقِهِ . . لمْ يمكِّنْهُ تقليدُهُ منْ أنْ يستقرَّ ذٰلكَ في نفسِهِ ، ولوِ استقرَّ في نفسِهِ . . لانجرَّ إلىٰ كشفٍ ثانٍ وثالثٍ ، ولتواصلَ ، ولـٰكنْ يتسارعُ إلىٰ دفعِ ذٰلكَ عنْ خاطرِهِ ؛ لمناقضتِهِ تقليدَهُ الباطلَ .

وقدْ يكونُ حقّاً ويكونُ أيضاً مانعاً مِنَ الفهْمِ والكشفِ ؛ لأنَّ الحقَّ الذي كُلِّفَ الخلقُ اعتقادَهُ لهُ مراتبُ ودرجاتٌ ، ولهُ مبدأٌ ظاهرٌ وغورٌ باطنٌ ، وجمودُ الطبعِ على الظاهرِ يمنعُ مِنَ الوصولِ إلى الغورِ الباطنِ كما ذكرناهُ في الفرْقِ بينَ العلمِ الظاهرِ والباطنِ في كتابِ قواعدِ العقائدِ .

ـ **ثالثُها** : أنْ يكونَ مصرّاً علىٰ ذنبٍ أوْ متصفاً بكبْرٍ أوْ مبتلىً في الجملةِ بهوىً في الدنيا مطاعٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ سببُ ظلمةِ القلبِ وصدئِهِ ، وهوَ كالخبثِ على المرآةِ ، فيمنعُ جليَّةَ الحقِّ مِنْ أنْ تتجلَّىٰ فيهِ ، وهوَ أعظَمُ حجابٍ للقلْبِ ، وبهِ حُجِبَ الأكثرونَ ، وكلَّما كانتِ الشهواتُ أشدَّ تراكماً . . كانتْ معاني الكلامِ أشدَّ احتجاباً ، وكلَّما خفَّ عَنِ القلبِ أثقالُ الدنيا . . قَرُبَ تجلِّي المعنىٰ فيهِ .

فالقلبُ مثلُ المرآةِ ، والشهواتُ مثلُ الصدأ ، ومعاني القرآنِ مثلُ الصورِ التي تتراءىٰ في المرآةِ ، والرياضةُ للقلْبِ بإماطةِ الشهواتِ مثلُ تصقيلِ الجلّاءِ للمرآةِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا عظَّمَتْ أُمَّتي الدينارَ والدرهمَ . . نُزِعَ منها هيبةُ الإسلامِ ، وإذا تركوا الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ . . حُرموا بركةَ الوحيِ »[٢] ، قالَ الفضيلُ : (يعني : حُرموا فهْمَ القرآنِ)[٣]

وقدْ شرطَ اللهُ تعالى الإنابةَ في الفهمِ والتذكُّرِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ ، وقالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، فالذي آثرَ غرورَ الدنيا علىٰ نعيمِ الآخرةِ . . فليسَ مِنْ ذوي الألبابِ ، ولذٰلكَ لا تنكشفُ لهُ أسرارُ الكتابِ .

ـ **رابعُها** : أنْ يكونَ قدْ قرأَ تفسيراً ظاهراً واعتقدَ أنَّهُ لا معنىٰ لكلماتِ القرآنِ إلا ما تناولَهُ النقلُ عنِ ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ وغيرِهما ، وأنَّ ما وراءَ ذٰلكَ تفسيرٌ بالرأيِ ، و« أنَّ مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ . . فقدْ تبوَّأَ مقعدَهُ مِنَ النارِ »[٤] ،

---

(١) أي : بين العبد والوصول إلى الله ، وربما زادوا فقالوا : (حجاب الله الأكبر) . انظر « الإتحاف » (٥١٣/٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٣٧) عن الفضيل معضلاً ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢١٦) ، وقد أورد سند الحكيم الحافظ الزيلعي في « تخريج الأحاديث والآثار » (٤٧٢/١) عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٣) قوت القلوب (٥٨/١) .

(٤) رواه الترمذي (٢٩٥١) .

فهٰذا أيضاً مِنَ الحُجُبِ العظيمةِ ، وسنبيّنُ معنى التفسيرِ بالرأيِ في البابِ الرابعِ ، وأنَّ ذٰلكَ لا يناقضُ[1] قولَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إلا أنْ يُؤتيَ اللهُ عبداً فهماً في القرآنِ) ، وأنَّهُ لوْ كانَ المعنىٰ هوَ الظاهرَ المنقولَ . . لما اختلفَ الناسُ فيهِ .

السابعُ : التخصيصُ :

وهوَ أنْ يقدِّرَ أنَّهُ المقصودُ بكلِّ خطابٍ في القرآنِ ، فإنْ سمعَ أمراً أوْ نهياً . . قدَّرَ أنَّهُ المنهيُّ والمأمورُ ، وإنْ سمعَ وعْداً أوْ وعيداً . . فكمثلِ ذٰلكَ ، وإنْ سمعَ قصصَ الأولينَ والأنبياءِ . . علمَ أنَّ السمَرَ غيرُ مقصودٍ ، وإنَّما المقصودُ ليعتبرَ بهِ ، وليأخذَ مِنْ تضاعيفِهِ ما يحتاجُ إليهِ ، فما مِنْ قصَّةٍ في القرآنِ إلا وسياقُها لفائدةٍ في حقِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأمَّتِهِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ ، فليقدِّرِ العبدُ أنَّ اللهَ يثبِّتُ فؤادَهُ بما يقصُّهُ عليهِ مِنْ أحوالِ الأنبياءِ ، وصبرِهِمْ على الإيذاءِ ، وثباتِهِمْ في الدينِ لانتظارِ نصرِ اللهِ تعالىٰ .

وكيفَ لا يقدِّرُ هٰذا والقرآنُ ما أنزلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرسولِ اللهِ خاصةً ، بلْ شفاءً وهدىً ورحمةً ونوراً للعالمينَ ، ولذٰلكَ أمرَ اللهُ تعالى الكافَّةَ بشكرِ نعمةِ الكتابِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ ، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ ، ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وإذا قصدَ بالخطابِ جميعَ الناسِ . . فقدْ قصدَ الآحادَ ، فهٰذا الواحدُ القارئُ مقصودٌ ، فما لهُ ولسائرِ الناسِ ؟! فليقدِّرْ أنَّهُ المقصودُ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ ، قالَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ : (مَنْ بلغَهُ القرآنُ . . فكأنَّما كلَّمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ)[2]

وإذا قدَّرَ ذٰلكَ . . لمْ يتخذْ دراسةَ القرآنِ عملَهُ ، بلْ يقرؤُهُ كما يقرأُ العبدُ كتابَ مولاهُ الذي كتبَهُ إليهِ ليتأمَّلَهُ ويعملَ بمقتضاهُ ، ولذٰلكَ قالَ بعضُ العلماءِ : (هٰذا القرآنُ رسائلُ أتتنا مِنْ قبلِ ربِّنا عزَّ وجلَّ بعهودِهِ ، نتدبَّرُها في الصلواتِ ، ونقفُ عليها في الخلواتِ ، وننفذُها في الطاعاتِ بالسننِ المتبعاتِ)[3]

وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يقولُ : (ما زرعَ القرآنُ في قلوبِكُمْ يا أهلَ القرآنِ ؟ إنَّ القرآنَ ربيعُ المؤمنِ ؛ كما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرضِ)[4]

وقالَ قتادةُ : (لمْ يجالسْ أحدٌ هٰذا القرآنَ إلا قامَ بزيادةٍ أوْ نقصانٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾)[5]

---

(١) في النسخة (ق) : (يناقض) ، وانظر « الإتحاف » (٥١٦/٤) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٠٦/٧/٥) ، وفيه : (فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم) .

(٣) أورده في « قوت القلوب » (٥٨/١) عن الحسن بنحوه .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٨/٢) ، وتمامه : (فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض ، فيصيب الحشَّ ، فتكون فيه الحبة ، فلا يمنعها نتنُ موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن ، فيا حملة القرآن ؛ ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ أين أصحاب سورة ؟ أين أصحاب سورتين ؟ ماذا عملتم فيهما ؟) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨٨) ، والفريابي في « فضائل القرآن » (٧٨) من طريقه .

الثامنُ : التأثُّرُ :

وهوَ أنْ يتأثَّرَ قلبُهُ بآثارٍ مختلفةٍ بحسَبِ اختلافِ الآياتِ ، فيكونَ لهُ بحسَبِ كلِّ فهْمٍ حالٌ ووجْدٌ يتصفُ بهِ قلبُهُ ؛ مِنَ الحزْنِ والخوفِ والرجاءِ وغيرِهِ ، ومهما تمَّتْ معرفتُهُ . . كانتِ الخشيةُ أغلبَ الأحوالِ علىٰ قلبِهِ ، فإنَّ التضييقَ غالبٌ علىٰ آياتِ القرآنِ ؛ فلا يُرىٰ ذكرُ المغفرةِ والرحمةِ إلا مقروناً بشروطٍ يقصُرُ العارفُ عنْ نيلِها ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ ، ثمَّ أتبعَ ذٰلكَ بأربعةِ شروطٍ : ﴿ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ذكرَ أربعةَ شروطٍ ، وحيثُ اقتصرَ . . ذكرَ شرطاً جامعاً فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فالإحسانُ يجمعُ الكلَّ ، وهٰكذا مَنْ يتصفَّحُ القرآنَ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ .

ومَنْ فهمَ ذٰلكَ . . فجديرٌ بأنْ يكونَ حالُهُ الخشيةَ والحزنَ ، ولذٰلكَ قالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما أصبحَ اليومَ عبدٌ يتلو هٰذا القرآنَ يؤمنُ بهِ . . إلا كثُرَ حزنُهُ وقلَّ فرحُهُ ، وكثُرَ بكاؤُهُ وقلَّ ضحكُهُ ، وكثُرَ نصبُهُ وشغلُهُ وقلَّتْ راحتُهُ وبطالتُهُ)[1]

وقالَ وُهيبُ بنُ الوردِ : (نظرنا في هٰذهِ الأحاديثِ والمواعظِ ، فلمْ نجدْ شيئاً أرقَّ للقلوبِ ولا أشدَّ استجلاباً للحزْنِ مِنْ قراءةِ القرآنِ وتفهُّمِهِ وتدبُّرِهِ)[2]

فتأثُّرُ العبدِ بالتلاوةِ : أنْ يصيرَ بصفةِ الآيةِ المتلوةِ ؛ فعندَ الوعيدِ وتقييدِ المغفرةِ بالشروطِ يتضاءلُ مِنْ خيفتِهِ كأنَّهُ يكادُ يموتُ ، وعندَ التوسُّعِ ووعدِ المغفرةِ يستبشرُ كأنَّهُ يطيرُ مِنَ الفرحِ ، وعندَ ذكْرِ اللهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ يتطأطأُ خضوعاً لجلالِهِ واستشعاراً لعظمتِهِ ، وعندَ ذكرِ الكفارِ ما يستحيلُ على اللهِ تعالىٰ كذكرِهِمْ للهِ سبحانه ولداً وصاحبةً . . يغضُّ صوتَهُ وينكسرُ في باطنِهِ حياءً مِنْ قبْحِ مقالتِهِمْ ، وعندَ وصْفِ الجنَّةِ ينبعثُ بباطنِهِ شوقاً إليها ، وعندَ وصْفِ النارِ ترتعدُ فرائصُهُ خوفاً منها .

ولمَّا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ مسعودٍ : « اقرأْ عليَّ » . . قالَ : فافتتحتُ سورةَ (النساءِ) ، فلمَّا بلغتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ . . رأيتُ عينيهِ تذرفانِ بالدمعِ ، فقالَ لي : « حسْبُكَ الآنَ »[3] ، وهٰذا لأنَّ مشاهدةَ تلكَ الحالةِ استغرقتْ قلبَهُ بالكليَّةِ .

ولقدْ كانَ في الخائفينَ مَنْ خرَّ مغشياً عليهِ عندَ آياتِ الوعيدِ ، ومنهم مَنْ ماتَ في سماعِ الآياتِ[4] ، فمثلُ هٰذهِ الأحوالِ يخرجُهُ عنْ أنْ يكونَ حاكياً في كلامِهِ ، فإذا قالَ : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإذا لمْ يكنْ خائفاً . . كانَ حاكياً .

وإذا قالَ : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ولمْ يكنْ حالُهُ التوكُّلَ والإنابةَ . . كانَ حاكياً .

وإذا قالَ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ . . فليكنْ حالُهُ الصبرَ أوِ العزيمةَ عليهِ ؛ حتَّىٰ يجدَ حلاوةَ التلاوةِ .

---

(١) قوت القلوب (٤٧/١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٢/٨) .

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٢) ، ومسلم (٨٠٠) .

(٤) وقد ألَّف الثعلبي في ذٰلك كتاباً سماه : « قتلى القرآن » ، وروى الترمذي (٤٤٥) عن بهز بن حكيم قال : (كان زرارة بن أوفىٰ قاضي البصرة ، وكان يؤم في بني قشير ، فقرأ يوماً في صلاة الصبح : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۞ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ خرَّ ميتاً ، فكنت فيمن احتمله إلىٰ داره) ، وقد تقدم ، وانظر « الإتحاف » (٥١٩/٤) .

فإنْ لمْ يكنْ بهٰذهِ الصفاتِ ولمْ يتردَّدْ قلبُهُ بينَ هٰذهِ الحالاتِ . . كانَ حظُّهُ مِنَ التلاوةِ حركةَ اللسانِ معَ صريحِ اللعنِ علىٰ نفسِهِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الآياتِ .

وكانَ داخلاً في معنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ يعني : إلا التلاوةَ المجرَّدَةَ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ، لأنَّ القرآنَ هوَ المبيِّنُ لتلكَ الآياتِ في السماواتِ والأرضِ ، ومهما تجاوزَها ولمْ يتأثَّرْ بها . . كانَ معرضاً عنها ، ولذٰلكَ قيلَ : (إنَّ مَنْ لمْ يكنْ متصفاً بأخلاقِ القرآنِ ؛ فإذا قرأَ القرآنَ . . ناداهُ اللهُ تعالىٰ : ما لكَ ولكلامي وأنتَ معرضٌ عنّي ؟! دعْ عنكَ كلامي إنْ لمْ تُنِبْ إليَّ)(١)

ومثالُ العاصي إذا قرأَ القرآنَ وكرَّرَهُ مثالُ مَنْ يكرّرُ كتابَ الملكِ في كلِّ يومٍ مرَّاتٍ وقدْ كتبَ إليهِ في عمارةِ مملكتِهِ وهوَ مشغولٌ بتخريبِها ومقتصرٌ علىٰ دراسةِ كتابِهِ ، فلعلَّهُ لوْ تركَ الدراسةَ عندَ المخالفةِ . . لكانَ أبعدَ عنِ الاستهزاءِ واستحقاقِ المقْتِ ، ولذٰلكَ قالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (إنِّي لأهمُّ بقراءةِ القرآنِ ، فإذا ذكرتُ ما فيهِ . . خشيتُ المقْتَ ، فأعدلُ إلى التسبيحِ والاستغفارِ)(٢)

والمعرضُ عنِ العملِ بهِ أُريدَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقرؤوا القرآنَ ما ائتلفتْ عليهِ قلوبُكُمْ ، ولانتْ لهُ جلودُكُمْ ، فإذا اختلفتُمْ . . فلستُمْ تقرؤونَهُ » ، وفي بعضِها : « فإذا اختلفتُمْ . . فقوموا عنهُ »(٣)

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحسنَ الناسِ صوتاً بالقرآنِ الذي إذا سمعتَهُ يقرأُ . . رأيتَ أنَّهُ يخشى اللهَ عزَّ وجلَّ »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يُسمعُ القرآنُ مِنْ أحدٍ أشهىٰ منهُ ممَّنْ يخشى اللهَ عزَّ وجلَّ »(٥)

فالقرآنُ يرادُ لاستجلابِ هٰذهِ الأحوالِ إلى القلبِ والعملِ بهِ ، وإلا . . فالمؤنةُ في تحريكِ اللسانِ بحروفِهِ خفيفةٌ ، ولذٰلكَ قالَ بعضُ القرَّاءِ : قرأتُ القرآنَ علىٰ شيخٍ لي ثمَّ رجعتُ لأقرأَ ثانياً ، فانتهرني وقالَ : جعلتَ القراءةَ عليَّ عملاً ؟! اذهبْ فاقرأْ على اللهِ عزَّ وجلَّ فانظرْ بماذا يأمرُكَ وماذا يفهمُكَ(٦)

وبهٰذا كانَ شغلُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم في الأحوالِ والأعمالِ ، حتَّىٰ ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٣٨٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٣/٨) بنحوه ، وهو بلفظه في « القوت » (٥٨/١) .

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٠) ، ومسلم (٢٦٦٧) ، دون قوله : « ولانت له جلودكم » ، واللفظ لصاحب « القوت » (٥٨/١) ، ولين الجلود كناية عن الخشية ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

(٤) رواه ابن ماجه (١٣٣٩) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٣) مرسلاً عن طاووس .

(٦) قوت القلوب (٥٨/١) ، ولفظه : (فانظر ماذا يُسمعك منه ، ويُفهمك عنه) .

عشرينَ ألفاً مِنَ الصحابةِ[1] ، لمْ يحفظِ القرآنَ منهم إلا ستَّةٌ ، اختلفَ منهُمْ في اثنينِ[2] ، وكانَ أكثرُهُمْ يحفظُ السورةَ والسورتينِ[3] ، وكانَ الذي يحفظُ (البقرةَ) و(الأنعامَ) مِنْ علمائِهِمْ[4] ، ولمَّا جاءَ واحدٌ ليتعلمَ القرآنَ ، فانتهىٰ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ . . فقالَ : يكفيني هـٰذا ، وانصرفَ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انصرفَ الرجلُ وهوَ فقيهٌ »[5]

وإنَّما العزيزُ مثلُ تلكَ الحالةِ التي يمنُّ اللهُ تعالىٰ بها علىٰ قلبِ العبدِ عَقِيبَ فهْمِ الآيةِ ، فأمَّا مجرَّدُ حركةِ اللسانِ . . فقليلُ الجدوىٰ ، بلِ التالي باللسانِ المعرضُ عنِ العملِ جديرٌ بأنْ يكونَ هوَ المرادَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ ؛ أيْ : تركتَها ولمْ تنظرْ إليها ولمْ تعبأْ بها ، فإنَّ المقصِّرَ في الأمرِ يقالُ : إنَّهُ نسيَ الأمرَ .

وتلاوةُ القرآنِ حقَّ تلاوتِهِ : أنْ يشتركَ فيهِ اللسانُ والعقلُ والقلبُ ، فحظُّ اللسانِ تصحيحُ الحروفِ بالترتيلِ ، وحظُّ العقلِ تفسيرُ المعاني ، وحظُّ القلبِ الاتعاظُ والتأثُّرُ بالانزجارِ والائتمارِ ، فاللسانُ يرتِّلُ ، والعقلُ يترجمُ ، والقلبُ يتعظُ .

❁ ❁ ❁

التاسعُ : الترقِّي :

وأعني بِهِ : أنْ يترقَّىٰ إلىٰ أنْ يسمعَ الكلامَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، لا مِنْ نفسِهِ ، فدرجاتُ القراءةِ ثلاثٌ :

أدناها : أنْ يقدِّرَ العبدُ كأنَّهُ يقرؤُهُ على اللهِ تعالىٰ واقفاً بينَ يديهِ وهوَ ناظرٌ إليهِ ومستمعٌ منهُ ، فيكونُ حالُهُ عندَ هـٰذا التقديرِ السؤالَ والتملُّقَ والتضرُّعَ والابتهالَ .

الثانيةُ : أنْ يشهدَ بقلبِهِ كأنَّ ربَّهُ عزَّ وجلَّ يراهُ ويخاطبُهُ بألطافِهِ ، ويناجيهِ بإنعامِهِ وإحسانِهِ ، فمقامُهُ الحياءُ والتعظيمُ والإصغاءُ والفهْمُ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لعله أراد بالمدينة ، وإلا . . فقد روينا عن أبي زرعة الرازي أنه قال : قبض عن مئة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روىٰ عنه وسمع منه) . « إتحاف » (٥٢٢/٤) .

(٢) روى البخاري (٣٧٥٨) ، ومسلم (٢٤٦٤) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « استقرئوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ـ فبدأ به ـ وسالم مولىٰ أبي حذيفة ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل » . وروى البخاري (٣٨١٠) ، ومسلم (٢٤٦٥) عن أنس رضي الله عنه قال : (جمع القرآن علىٰ عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة ، كلهم من الأنصار : أبيّ ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد بن ثابت ، قال قتادة : من أبو زيد ؟ قال أنس : أحد عمومتي) ، وبالروايتين يظهر الخلاف في الاثنين المختلف فيهما .

(٣) روى ابن الأنباري في « المصاحف » ـ ذكر سنده القرطبي في « تفسيره » (٤٠/١) ـ عن ابن عمر قال : (كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هـٰذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، ورزقوا العمل بالقرآن ، وإن آخر هـٰذه الأمة يقرؤون القرآن منهم الصبي والأعمىٰ ولا يرزقون العمل به) .

(٤) روى الترمذي (٢٨٧٦) عن أبي هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً وهم ذو عدد ، فاستقرأهم ، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن ، فأتىٰ علىٰ رجل منهم من أحدثهم سناً ، فقال : « ما معك يا فلان ؟ » قال : معي كذا وكذا وسورة (البقرة) ، قال : « أمعك سورة (البقرة) ؟ » فقال : نعم ، قال : « فاذهب فأنت أميرهم » الحديث .

(٥) رواه أبو داوود (١٣٩٩) ، ولفظه عن عبد الله بن عمرو قال : أتىٰ رجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : أقرئني يا رسول الله ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات (الٓر) » ، فقال : كبرت سني واشتد قلبي وغلظ لساني ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات (حمٓ) » فقال مثل مقالته ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من المسبحات » ، فقال مثل مقالته ، فقال الرجل : يا رسول الله ؛ أقرئني سورة جامعة ، فأقرأه النبي صلى الله عليه وسلم (إذا زلزلت الأرض) حتىٰ فرغ منها ، فقال الرجل : والذي بعثك بالحق ؛ لا أزيد عليها أبداً ، ثم أدبر الرجل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفلح الرويجلُ » مرتين .

الثالثةُ : أنْ يرىٰ في الكلامِ المتكلِّمَ ، وفي الكلماتِ الصفاتِ ، فلا ينظرُ إلىٰ نفسِهِ ولا إلىٰ قراءتِهِ ولا إلىٰ تعلُّقِ الإنعامِ بهِ منْ حيثُ إنَّهُ منعَمٌ عليهِ ، بلْ يكونُ مقصورَ الهمِّ على المتكلِّمِ ، موقوفَ الفكرِ عليهِ ؛ كأَنَّهُ مستغرقٌ بمشاهدةِ المتكلِّمِ عنْ غيرِهِ ، وهـٰذهِ درجةُ المقرَّبينَ ، وما قبلَها درجةُ أصحابِ اليمينِ ، وما خرجَ عنْ هـٰذا فهوَ درجاتُ الغافلينَ .

وعنِ الدرجةِ العليا أخبرَ جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (واللهِ ؛ لقدْ تجلَّى اللهُ عزَّ وجلَّ لخلقِهِ في كلامِهِ ، ولـٰكنَّهُمْ لا يبصرونَ)[١] ، وقالَ أيضاً وقدْ سألوهُ عنْ حالةٍ لحقتْهُ في الصلاةِ حتَّىٰ خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فلمَّا سُرِّيَ عنهُ . . قيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : (ما زلتُ أرَدِّدُ الآيةَ علىٰ قلبي حتَّىٰ سمعتُها مِنَ المتكلِّمِ بها ، فلمْ يثبتْ جسمي لمعاينةِ قدرتِهِ)[٢]

وفي مثلِ هـٰذهِ الدرجةِ تعظُمُ الحلاوةُ ولذَّةُ المناجاةِ ، ولذٰلكَ قالَ بعضُ الحكماءِ : (كنتُ أقرأُ القرآنَ فلا أجدُ لهُ حلاوةً حتَّىٰ تلوتُهُ كأنِّي أسمعُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتلوهُ علىٰ أصحابِهِ ، ثمَّ رُفعتُ إلىٰ مقامٍ فوقَهُ ، فكنتُ أتلوهُ كأنِّي أسمعُهُ مِنْ جبريلَ عليهِ السلامُ يلقيهِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ جاءَ اللهُ بمنزلةٍ أخرىٰ ، فأنا الآنَ أسمعُهُ منَ المتكلِّمِ بهِ ، فعندَها وجدْتُ لهُ لذَّةً ونعيماً لا أصبرُ عنهُ)[٣]

وقالَ عثمانُ وحذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُما : (لوْ طهرتِ القلوبُ . . لمْ تشبعْ مِنْ قراءةِ القرآنِ)[٤] ، وإنَّما قالا ذٰلكَ لأنَّها بالطهارةِ تترقَّىٰ إلىٰ مشاهدةِ المتكلِّمِ في الكلامِ ، ولذٰلكَ قالَ ثابتٌ البنانيُّ : (كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنةً ، وتنعمتُ بهِ عشرينَ سنةً)[٥]

وبمشاهدةِ المتكلِّمِ دونَ ما سواهُ يكونُ العبدُ ممتثلاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ، فمَنْ لمْ يرَهُ في كلِّ شيءٍ . . فقدْ رأىٰ غيرَهُ ، وكلُّ ما التفتَ إليهِ العبدُ سوى اللهِ تعالىٰ تضمَّنَ التفاتُهُ شيئاً مِنَ الشرْكِ الخفيِّ ، بلِ التوحيدُ الخالصُ ألا يرىٰ في كلِّ شيءٍ إلا اللهَ عزَّ وجلَّ .

❀ ❀ ❀

العاشرُ : التبرِّي :

وأعني بهِ : أنْ يتبرَّأَ مِنْ حولِهِ وقوتِهِ والالتفاتِ إلىٰ نفسِهِ بعينِ الرضا والتزكيةِ ، فإذا تلا آياتِ الوعدِ والمدْحِ للصالحينَ . . فلا يشهدُ نفسَهُ عندَ ذٰلكَ ، بلْ يشهدُ الموقنينَ والصديقينَ فيها ، ويتشوَّقُ إلىٰ أنْ يلحقَهُ اللهُ تعالىٰ بهِمْ .

وإذا تلا آياتِ المقْتِ وذمِّ العصاةِ والمقصرينَ . . شهدَ نفسَهُ هناكَ ، وقدَّرَ أنَّهُ المخاطبُ خوفاً وإشفاقاً ، ولذٰلكَ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أستغفرُكَ لظلمي وكفْري ، فقيلَ لهُ : هـٰذا الظلْمُ فما بالُ الكفرِ ؟ فتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[٦]

---

(١) قوت القلوب (٤٧/١) .

(٢) قوت القلوب (٤٧/١) .

(٣) قوت القلوب (٤٩/١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٠/٧) ، وهو في « القوت » (٥٠/١) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٠/٢) ولفظه : (الصلاة) بدل (القرآن) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (٥٠/١) .

(٦) ذكر السيوطي في « الدر المنثور » (٤٥/٥) أنه من رواية ابن أبي حاتم ، وهو في « القوت » (٤٩/١) .

وقيلَ ليوسفَ بنِ أسباطٍ : إذا قرأتَ القرآنَ بماذا تدعو ؟ فقالَ : بماذا أدعو !! أستغفرُ اللهَ عزَّ وجلَّ مِنْ تقصيري سبعين مرَّةً[(١)]

فإذا رأىٰ نفسَهُ بصورةِ التقصيرِ في القراءةِ كانَ رؤيتُهُ سببَ قربِهِ ، فإنَّ مَنْ أُشهدَ البعدَ في القربِ . . لُطِفَ بهِ في الخوفِ حتَّىٰ يسوقَهُ الخوفُ إلىٰ درجةٍ أخرىٰ في القربِ وراءَها ، ومَنْ أُشهدَ القربَ في البعدِ . . مُكِرَ بهِ بالأمنِ الذي يفضيهِ إلىٰ درجةٍ أخرىٰ في البعدِ أسفلَ ممَّا هوَ فيهِ ، ومهما كانَ مشاهداً نفسَهُ بعينِ الرضا . . صارَ محجوباً بنفسِهِ ، فإذا جاوزَ حدَّ الالتفاتِ إلىٰ نفسِهِ ولمْ يشاهدْ إلا اللهَ تعالىٰ في قراءتِهِ . . انكشفَ لهُ الملكوتُ .

قالَ سليمانُ بنُ أبي سليمانَ الدارانيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : وعدَ ابنُ ثوبانَ أخاً لهُ أنْ يفطرَ عندَهُ ، فأبطأَ عليهِ حتَّىٰ طلعَ الفجرُ ، فلقيَه أخوهُ مِنَ الغدِ ، فقالَ لهُ : وعدتَني أنْ تفطرَ عندي فأخلفتَ !! فقالَ : لولا ميعادُكَ ما أخبرتُكَ بالذي حبسني عنكَ ؛ إنِّي لمَّا صليتُ العتمةَ . . قلتُ : أوترُ قبلَ أنْ أجيئَكَ ؛ لأنِّي لا آمنُ ما يحدثُ مِنَ الموتِ ، فلمَّا كنتُ في الدعاءِ مِنَ الوترِ . . رفعتْ لي روضةٌ خضراءُ فيها أنواعُ الزهرِ مِنَ الجنةِ ، فما زلتُ أنظرُ إليها حتَّىٰ أصبحتُ[(٢)]

وهٰذهِ المكاشفاتُ لا تكونُ إلا بعدَ التبرّي عنِ النفسِ ، وعدمِ الالتفاتِ إليها وإلىٰ هواها ، ثمَّ تخصَّصُ هٰذهِ المكاشفاتُ بحسَبِ أحوالِ المكاشفِ ، فحيثُ يتلو آياتِ الرجاءِ ويغلبُ علىٰ حالهِ الاستبشارُ . . تنكشفُ لهُ صورةُ الجنَّةِ فيشاهدُها كأنَّهُ يراها عِياناً ، وإنْ غلبَ عليهِ الخوفُ . . كوشفَ بالنارِ حتَّىٰ يرىٰ أنواعَ عذابِها ، وذٰلكَ لأنَّ كلامَ اللهِ تعالىٰ يشتملُ على السهْلِ اللطيفِ ، والشديدِ العسوفِ ، والمرجوّ والمَخُوفِ ، وذٰلكَ بحسَبِ أوصافِهِ ؛ إذْ منها الرحمةُ واللطفُ والانتقامُ والبطشُ ، فبحسَبِ مشاهدةِ الكلماتِ والصفاتِ يتقلَّبُ القلْبُ في اختلافِ الحالاتِ ، وبحسَبِ كلِّ حالةٍ منها يستعدُّ للمكاشفةِ بأمرٍ يناسبُ تلكَ الحالةَ ويقاربُها ؛ إذْ يستحيلُ أنْ يكونَ حالُ المستمعِ واحداً والمسموعُ مختلفاً ، إذْ فيهِ كلامُ راضٍ وكلامُ غضبانَ ، وكلامُ منعِمٍ وكلامُ منتقمٍ ، وكلامُ جبَّارٍ متكبّرٍ لا يبالي ، وكلامُ حنَّانٍ متعطّفٍ لا يهملُ .

❋ ❋ ❋

(١) قوت القلوب (١/٥٨) .

(٢) قوت القلوب (١/٤٦) .

الباب الرّابع

في فهم القرآن وتفسيره بالرّأي من غير نقل

لعلكَ تقولُ : عظَّمْتَ الأمرَ فيما سبقَ في فهْمِ أسرارِ القرآنِ وما ينكشفُ لأربابِ القلوبِ الزكيَّةِ مِنْ معانيهِ ، فكيفَ يستحبُّ ذٰلكَ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيهِ . . فليتبوأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ » ؟![1] وعنْ هٰذا شنَّعَ أهلُ العلمِ بظاهرِ التفسيرِ على أهلِ التصوُّفِ[2] منَ المفسرينَ المنسوبينَ إلى التصوُّفِ في تأويلِ كلماتِ القرآنِ على خلافِ ما نُقِلَ عنِ ابنِ عباسٍ وسائرِ المفسرينَ ، وذهبوا إلى أنَّهُ كفرٌ ، فإنْ صحَّ ما قالَهُ أهلُ التفسيرِ . . فما معنى فهمِ القرآنِ سوى حفْظِ تفسيرِهِ ؟ وإنْ لمْ يصحَّ ذٰلكَ . . فما معنى قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيهِ . . فليتبوأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ » ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ زعمَ أنْ لا معنى للقرآنِ إلا ما يترجمُهُ ظاهرُ التفسيرِ . . فهوَ مخبرٌ عنْ حدِّ نفسِهِ ، وهوَ مصيبٌ في الإخبارِ عنْ نفسِهِ ، ولٰكنَّهُ مخطئٌ في الحكمِ بردِّ الخلقِ كافَّةً إلى درجتِهِ التي هيَ حدُّهُ ومحطُّهُ[3] ، بلِ الأخبارُ والآثارُ تدلُّ على أنَّ في معاني القرآنِ متسعاً لأربابِ الفهمِ .

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إلا أنْ يُؤتيَ اللهُ عبداً فهماً في القرآنِ)[4] ، فإنْ لمْ يكنْ سوى الترجمةِ المنقولةِ . . فما ذٰلكَ الفهمُ ؟!

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للقرآنِ ظهراً وبطناً ، وحدّاً ومطلعاً »[5] ، ويُروى أيضاً عنِ ابنِ مسعودٍ موقوفاً عليهِ وهوَ مِنْ علماءِ التفسيرِ[6] ، فما معنى الظهْرِ والبطنِ والحدِّ والمطلعِ ؟!

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (لوْ شئتُ . . لأوقرتُ سبعينَ بعيراً مِنْ تفسيرِ « فاتحةِ الكتابِ »)[7] ، فما معناهُ وتفسيرُ ظاهرِها في غايةِ الاختصارِ ؟!

وقالَ أبو الدرداءِ : (لا يفقهُ الرجلُ حتَّى يجعلَ للقرآنِ وجوهاً)[8]

وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : (لكلِّ آيةٍ ستونَ ألفَ فهْمٍ وما بقيَ مِنْ فهمِها أكثرُ)[9]

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥١) .

(٢) أي : في معاني الألفاظ . « إتحاف » (٥٢٦/٤) .

(٣) وقد ذكر المصنف فيما سبق : أن هٰذا الاعتقاد مانع من موانع الفهم كذٰلك .

(٤) رواه النسائي (٢٣/٨) بنحوه .

(٥) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٥) بلفظ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، لكل آية منها ظهر وبطن » ، وهو عند عبد الرزاق في « المصنف » (٥٩٦٥) بلفظ : (والذي نفسي بيده ؛ ما منه آية إلا ولها ظهر وبطن ، وما فيه حرف إلا وله حد ، ولكل حد مطلع) من قول الحسن ، ولفظ المصنف هنا عند صاحب « القوت » (٥١/١) .

(٦) انظر « قوت القلوب » (٥١/١) .

(٧) قوت القلوب (٥٠/١) .

(٨) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٤٧٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١١/١) .

(٩) رواه أبو طالب في « القوت » (٥٠/١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (القرآنُ يحوي سبعةً وسبعينَ ألفَ علمٍ ومئتي علمٍ ؛ إذْ لكلِّ كلمةٍ علمٌ ، ثمَّ يتضاعفُ ذٰلكَ أربعةَ أضعافٍ ؛ إذْ لكلِّ كلمةٍ ظاهرٌ وباطنٌ وحدٌّ ومطلعٌ)(١)

وترديدُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ) عشرينَ مرَّةً لا يكونُ إلا لتدبُّرِهِ باطنَ معانيها ، وإلا . . فترجمتُها وتفسيرُها ظاهرٌ لا يحتاجُ مثلُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ تكريرٍ(٢)

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ أرادَ علمَ الأولينَ والآخرينَ . . فليُثَوِّرِ القرآنَ)(٣) ، وذٰلكَ لا يحصلُ بمجردِ تفسيرِهِ الظاهرِ .

وبالجملةِ : فالعلومُ كلُّها داخلةٌ في أفعالِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وفي القرآنِ شرحُ ذاتِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ ، وهٰذهُ العلومُ لا نهايةَ لها ، وفي القرآنِ إشارةٌ إلىٰ مجامِعِها .

❁ ❁ ❁

والمقاماتُ في التعمُّقِ في تفصيلِهِ راجعةٌ إلىٰ فهْمِ القرآنِ ، ومجرَّدُ ظاهرِ التفسيرِ لا يشيرُ إلىٰ ذٰلكَ ، بلْ كلُّ ما أشكلَ على النظَّارِ واختلفَ فيهِ الخلائقُ في النظرياتِ والمعقولاتِ ففي القرآنِ رموزٌ إليهِ ودلالاتٌ عليهِ يختصُّ أهلُ الفهمِ بدرْكِها ، فكيفَ يفي بذٰلكَ ترجمةُ ظاهرِهِ وتفسيرُهُ ؟!(٤)

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقرؤوا القرآنَ والتمسوا غرائبَهُ »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « والذي بعثني بالحقِّ نبيّاً ؛ لتفترقنَّ أمتي عنْ أصلِ دينِها وجماعتِها على اثنتينِ وسبعينَ فرقةً ، كلُّها ضالَّةٌ مضلَّةٌ يُدعونَ إلى النارِ ، فإذا كانَ ذٰلكَ . . فعليكُمْ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ فيهِ نبأَ ما كانَ قبلَكُمْ ، ونبأَ ما يأتي بعدَكُمْ ، وحكمَ ما بينَكُمْ ، مَنْ خالفَهُ مِنَ الجبابرةِ . . قصمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، ومَنِ ابتغى العلمَ في غيرِهِ . . أضلَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وهوَ حبلُ اللهِ المتينُ ، ونورُهُ المبينُ ، وشفاؤُهُ النافعُ ، عصمةٌ لمَنْ تمسَّكَ بهِ ، ونجاةٌ لمَنِ اتبعَهُ ، لا يعوجُّ فيقوَّمَ ، ولا يزيغُ فيستقيمَ ، ولا تنقضي عجائبُهُ ، ولا يخلِقُهُ كثرةُ الردِّ » الحديثَ(٦)

وفي حديثِ حذيفةَ لمَّا أخبرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالاختلافِ والفرقةِ بعدَهُ . . قالَ : فقلتُ يا رسولَ اللهِ ؛ فما تأمرني إنْ أدركتُ ذٰلكَ ؟ فقالَ : « تعلَّمْ كتابَ اللهِ واعملْ بما فيهِ ، فهوَ المخرجُ مِنْ ذٰلك » قال : فأعدتُ عليهِ ذٰلكَ ثلاثاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثاً : « تعلَّمْ كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ واعملْ بما فيهِ ، ففيهِ النجاةُ »(٧)

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنْ فهمَ القرآنَ . . فسَّر جملَ العلمِ)(٨) ، أشارَ بهِ إلىٰ أنَّ القرآنَ يشيرُ إلىٰ مجامعِ العلومِ كلِّها .

---

(١) قوت القلوب (٥٧/١) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي ﷺ » (٥٥١) .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٨٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٣٥/٩) .

(٤) حتىٰ قال الإمام الشافعي في « الرسالة » (ص ٢٠) : (فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل علىٰ سبيل الهدىٰ فيها) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٥٣٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٦٠) ، وفيهما : (أعربوا) بدل (اقرؤوا) .

(٦) رواه الترمذي (٢٩٠٦) دون ذكر الافتراق ، بل قال : « ألا إنها ستكون فتنة » ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (٤٨/١) .

(٧) رواه أبو داوود (٤٢٤٤) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٩٧٨) .

(٨) قوت القلوب (٤٩/١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ يعني : الفهمَ في القرآنِ (١)

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ سمَّىٰ ما آتاهما علماً وحُكْماً ، وخصَّصَ ما انفردَ بِهِ سليمانُ بالتفطُّنِ لهُ باسمِ الفهْمِ ، وجعلَهُ مقدَّماً على العلمِ والحكمِ (٢)

فهٰذِهِ الأمورُ تدلُّ علىٰ أنَّ في فهْمِ معاني القرآنِ مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً ، وأنَّ المنقولَ مِنْ ظاهرِ التفسيرِ ليسَ منتهى الإدراكِ فيهِ .

فأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ » ، ونهيُهُ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقولُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أيُّ أرضٍ تقلُّني ، وأيُّ سماءٍ تظلُّني إذا قلتُ في القرآنِ برأيي ؟!) (٣) إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا وردَ في الآثارِ والأخبارِ في النهيِ عنْ تفسيرِ القرآنِ بالرأيِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ المرادُ بِهِ الاقتصارَ على النقلِ والمسموعِ وتركَ الاستنباطِ والاستقلالِ بالفهمِ ، أوْ المرادُ بِهِ أمراً آخرَ .

❁ ❁ ❁

وباطلٌ قطعاً أنْ يكونَ المرادُ بِهِ ألا يتكلَّمَ أحدٌ في القرآنِ إلا بما سمعَهُ لوجوهٍ :

أحدُها : أنَّهُ يشترطُ أنْ يكونَ ذٰلكَ مسموعاً مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومسنداً إليهِ ، وذٰلكَ ممَّا لا يُصادَفُ إلا في بعضِ القرآنِ ، فأمَّا ما يقولُهُ ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ مِنْ أنفسِهِمْ . . فينبغي ألا يقبلَ ، ويقالَ : هوَ تفسيرٌ بالرأيِ ؛ لأنَّهُمْ لمْ يسمعوهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكذا غيرُهُمْ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

والثاني : أنَّ الصحابةَ والمفسرينَ اختلفوا في تفسيرِ بعضِ الآياتِ ، فقالوا فيها أقاويلَ مختلفةً لا يمكنُ الجمعُ بينها ، وسماعُ جميعِها مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محالٌ ، ولوْ كانَ الواحدُ مسموعاً . . لتُرِكَ الباقي ، فتبيَّنَ على القطعِ أنَّ كلَّ مفسِّرٍ قالَ في المعنىٰ بما ظهرَ لهُ باستنباطِهِ ، حتَّىٰ قالوا في الحروفِ التي هيَ أوائلَ السورِ سبعةَ أقاويلَ مختلفةٍ لا يمكنُ الجمعُ بينَها ، فقيلَ : إنَّ ﴿ الٓر ﴾ هيَ حروفٌ مِنَ الرحمٰنِ ، وقيلَ : إنَّ الألفَ اللهُ ، واللامَ لطيفٌ ، والراءَ رحيمٌ ، وقيلَ غيرُ ذٰلكَ ، والجمعُ بينَ الكلِّ غيرُ ممكنٍ ، فكيفَ يكونُ الكلُّ مسموعاً ؟!

والثالثُ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دعا لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : « اللهمَّ ، فقهْهُ في الدينِ وعلِّمْهُ التأويلَ » (٤) ، فإنْ كانَ التأويلُ مسموعاً كالتنزيلِ ومحفوظاً مثلَهُ . . فما معنىٰ تخصيصه بذٰلكَ ؟!

والرابعُ : أنَّهُ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، فأثبتَ لأهلِ العلمِ استنباطاً ، ومعلومٌ أنَّهُ وراءَ السماعِ ، وجملةُ ما نقلناهُ مِنَ الآثارِ في فهمِ القرآنِ يناقضُ هٰذا الخيالَ ، فبطلَ أنْ يُشترطَ السماعُ في التأويلِ ، وجازَ لكلِّ واحدٍ أنْ يستنبطَ مِنَ القرآنِ بقدرِ فهمِهِ وحدِّ عقلِهِ (٥)

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه عنه الطبري في « تفسيره » (١١٧/٣/٣) .

(٢) قوت القلوب (٤٩/١) .

(٣) رواه القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص ٣٧٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٦١) .

(٤) رواه البخاري (١٤٣) ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (٢٦٦/١) .

(٥) لا مطلقاً ، بل مع مراعاة الشروط التي ذكرها العلماء لمريد التفسير والاستنباط ، والتي أشار إلىٰ شيء منها المصنف فيما يأتي .

وأمَّا النهيُ . . فإنَّهُ ينزَّلُ علىٰ أحدِ وجهينِ :

أحدُهما : أنْ يكونَ لهُ في الشيءِ رأيٌ ، وإليهِ ميْلٌ مِنْ طبعِهِ وهواهُ ، فيتأوَّلُ القرآنَ علىٰ وَفْقِ رأيِهِ وهواهُ ؛ ليحتجَّ علىٰ تصحيحِ غرضِهِ ، ولوْ لمْ يكنْ لهُ ذٰلكَ الرأيُ والهوىٰ . . لكانَ لا يلوحُ لهُ مِنَ القرآنِ ذٰلكَ المعنىٰ .

وهٰذا تارةً يكونُ معَ العلمِ ؛ كالذي يحتجُّ ببعضِ آياتِ القرآنِ علىٰ تصحيحِ بدعتِهِ وهوَ يعلمُ أنَّهُ ليسَ المرادُ بالآيةِ ذٰلكَ ، ولٰكنْ يلبّسُ بهِ علىٰ خصمِهِ .

وتارةً يكونُ معَ الجهلِ ، ولٰكنْ إذا كانتِ الآيةُ محتمِلةً . . فيميلُ فهمُهُ إلى الوجهِ الذي يوافقُ غرضَهُ ، ويرجّحُ ذٰلكَ الجانبَ برأيِهِ وهواهُ ، فيكونُ قدْ فسَّرَ برأيِهِ ؛ أيْ : رأيُهُ هوَ الذي حملَهُ علىٰ ذٰلكَ التفسيرِ ، ولولا رأيُهُ . . لما كانَ يترجَّحُ عندَهُ ذٰلكَ الوجهُ .

وتارةً قدْ يكونُ لهُ غرضٌ صحيحٌ ، فيطلبُ لهُ دليلاً مِنَ القرآنِ ، ويستدلُّ عليهِ بما يعلمُ أنَّهُ ما أريدَ بهِ ؛ كمَنْ يدعو إلى الاستغفارِ بالأسحارِ ، فيستدلُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تسحَّروا فإنَّ في السحورِ بركةً »[1] ، ويزعمُ أنَّ المرادَ بهِ التسحُّرُ بالذكرِ وهوَ يعلمُ أنَّ المرادَ بهِ الأكلُ ، وكالذي يدعو إلىٰ مجاهدةِ القلْبِ القاسي ، فيقولُ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ ويشيرُ إلىٰ قلبِهِ ويومئُ إلىٰ أنَّهُ المرادُ بفرعونَ .

وهٰذا الجنسُ قدْ يستعملُهُ بعضُ الوعَّاظِ في المقاصدِ الصحيحةِ تحسيناً للكلامِ وترغيباً للمستمعِ ، وهو ممنوعٌ ، وقدْ تستعملُهُ الباطنيةُ في المقاصدِ الفاسدةِ لتغريرِ الناسِ ودعوتِهِمْ إلىٰ مذهبِهِمُ الباطلِ ، فينزّلونَ القرآنَ علىٰ وَفقِ رأيِهِمْ ومذهبِهِمْ علىٰ أمورٍ يعلمونَ قطعاً أنَّها غيرُ مرادةٍ بهِ .

فهٰذهِ الفنونُ أحدُ وجهي المنعِ مِنَ التفسيرِ بالرأيِ ، ويكونُ المرادُ بالرأيِ الرأيَ الفاسدَ الموافقَ للهوىٰ دونَ الاجتهادِ الصحيحِ ، والرأيُ يتناولُ الصحيحَ والفاسدَ ، والموافقُ للهوىٰ قدْ يخصَّصُ باسمِ الرأيِ .

والوجهُ الثاني : أنْ يتسارعَ إلىٰ تفسيرِ القرآنِ بظاهرِ العربيةِ مِنْ غيرِ استظهارٍ بالسماعِ والنقلِ فيما يتعلَّقُ بغرائبِ القرآنِ وما فيهِ مِنَ الألفاظِ المبهمةِ والمبدَّلَةِ ، وما فيهِ مِنَ الاختصارِ والحذْفِ والإضمارِ والتقديمِ والتأخيرِ ، فمَنْ لمْ يحكِمْ ظاهرَ التفسيرِ وبادرَ إلى استنباطِ المعاني بمجرَّدِ فهْمِ العربيةِ . . كثرَ غلطُهُ ، ودخلَ في زمرةِ مَنْ يفسّرُ بالرأيِ ؛ فالنقلُ والسماعُ لا بدَّ منهُ في ظاهرِ التفسيرِ أوَّلاً ، ليتقيَ بهِ مواضعَ الغلطِ ، ثمَّ بعدَ ذٰلكَ يتسعُ التفهُّمُ والاستنباطُ .

والغرائبُ التي لا تفهمُ إلا بالسماعِ كثيرةٌ ، ونحنُ نرمزُ إلىٰ جملٍ منها ليُستدَلَّ بها علىٰ أمثالِها ، ويُعلمَ أنَّهُ لا يجوزُ التهاونُ بحفْظِ التفسيرِ الظاهرِ أوَّلاً ، ولا مطمعَ في الوصولِ إلى الباطنِ قبلَ إحكامِ الظاهرِ ، ومَنِ ادعىٰ فهمَ أسرارِ القرآنِ ولمْ يحكمِ التفسيرَ الظاهرَ . . فهوَ كمَنْ يدَّعي البلوغَ إلىٰ صدْرِ البيتِ قبلَ مجاوزةِ البابِ ، أوْ يدَّعي فهْمَ مقاصدِ الأتراكِ مِنْ كلامِهِمْ وهوَ لا يفهمُ لغةَ الترْكِ ، فإنَّ ظاهرَ التفسيرِ يجري مَجرىٰ تعليمِ اللغةِ التي لا بدَّ منها للفهمِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (١٩٢٣) ، ومسلم (١٠٩٥) .

وما لا بدَّ فيهِ مِنَ السماعِ فنونٌ كثيرةٌ[١] :

منها الإيجازُ بالحذفِ والإضمارِ : كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ معناهُ : آيةً مبصرةً فظلموا أنفسَهُمْ بقتلِها ، فالناظرُ إلىٰ ظاهرِ العربيةِ يظنُّ أنَّ المرادَ بهِ أنَّ الناقةَ كانتْ مبصرةً ولمْ تكنْ عمياءَ ، ولا يدري أنَّهُمْ بماذا ظلموا ، وأنَّهُمْ ظلموا غيرَهُمْ أوْ أنفسَهُمْ[٢] .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أيْ : حبَّ العجلِ ، فحذفَ الحبَّ .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ أيْ : ضعفَ عذابِ الأحياءِ وضعفَ عذابِ الموتىٰ ، فحذفَ العذابَ ، وأبدلَ الأحياءَ والموتىٰ بذكرِ الحياةِ والموتِ ، وكلُّ ذٰلكَ جائزٌ في فصيحِ اللغةِ .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أيْ : أهلَ القريةِ وأهلَ العيرِ ، فالأهلُ فيها محذوفٌ مضمرٌ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معناهُ : خفيتْ علىٰ أهلِ السماواتِ والأرضِ ، والشيءُ إذا خفيَ . . ثقلَ ، فأُبدِلَ اللفظُ بهِ وأُقيمَ (في) مقامَ (علىٰ) ، وأُضمرَ الأهلُ وحُذفَ[٣] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ؛ أيْ : شكرَ رزقِكُمْ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ ؛ أيْ : علىٰ ألسنةِ رسلِكَ ، فحذفَ الألسنةَ[٤] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ أرادَ القرآنَ وما سبقَ لهُ ذكرٌ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ أرادَ الشمسَ وما سبقَ لها ذكرٌ[٥] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ؛ أيْ : يقولونَ : ما نعبُدُهُمْ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ معناهُ : لا يفقهونَ حديثاً يقولونَ : ما أصابَكَ مِنْ حسنةٍ . . فمنَ اللهِ ، فإنْ لمْ يردْ هـٰذا . . كانَ مناقضاً لقولِهِ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وسبقَ إلى الفهمِ منهُ مذهبُ القدريةِ[٦] .

ومنها المنقولُ المنقلبُ : كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ؛ أيْ : طورِ سيناءَ[٧] ، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ ؛ أيْ :

---

(١) عقد لهـٰذا البحث الإمام أبو طالب المكي في « القوت » (١/٥١) فصلاً سماه : (ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام ، وفيه مدح العالمين وذم الغافلين ، وتفسير الغريب والمشكل) .

(٢) ويجوز نعتها بالمبصرة باعتبارها سبب الإبصار ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ، وانظر « تفسير الطبري » (٩/١٥/١٣٥) ، و« الدر المصون » (٧/٣٧٦) .

(٣) أي : أهل السماوات وأهل الأرض . « إتحاف » (٤/٥٤٥) .

(٤) وهـٰذه الآيات التي أوردها المصنف من الأول إلىٰ هنا كلها أمثلة لإيجاز الحذف بأقسامه علىٰ طريق الإجمال . « إتحاف » (٤/٥٤٥) .

(٥) وهـٰذا من أمثلة المكنى المضمر .

(٦) وهـٰذان المثالان من أمثلة المضمر المختصر ، وعلى التحديد حذف القول ، والإلماع إلى القدرية ـ وهم المعتزلة هنا ـ عند صاحب « القوت » (١/٥٣) .

(٧) وهو مما قلب اسمه لازدواج الكلم كما في « قوت القلوب » (١/٥٢) .

علىٰ إلياسَ ، وقيلَ : إدريسَ ؛ لأنَّ في حرفِ ابنِ مسعودٍ : (سلامٌ علىٰ إدراسينَ)[١]

❀ ❀ ❀

ومنها المكرَّرُ القاطعُ لوصْلِ الكلامِ في الظاهرِ : كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ معناهُ : وما يتبعُ الذينَ يدعونَ مِنْ دونِ اللهِ شركاءَ إلا الظنَّ[٢] ، وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾ معناهُ : الذينَ استكبروا لمنْ آمنَ مِنَ الذينِ استضعفوا[٣]

ومنها المقدَّمُ والمؤخَّرُ : وهوَ مَظِنَّةُ الغلطِ ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ معناهُ : لولا كلمةٌ وأجلٌ مسمّىً . . لكانَ لزاماً ، ولولاهُ . . لكانَ نَصباً كاللزامِ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أيْ : يسألونكَ عنها كأنَّكَ حفيٌّ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فهٰذا الكلامُ غيرُ متصلٍ ، وإنَّما هوَ عائدٌ إلىٰ قولِهِ السابقِ : ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أيْ : فصارتْ أنفالُ الغنائمِ لكَ إذْ أنتَ راضٍ بخروجِكَ وهمْ كارهونَ ، فاعترضَ بينَ الكلامِ الأمرُ بالتقوىٰ وغيرُهُ .

ومِنْ هٰذا النوعِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ . . . ﴾ الآيةَ[٤]

❀ ❀ ❀

ومنها المبهمُ : وهوَ اللفظُ المشتركُ بينَ معانٍ مِنْ كلمةٍ أوْ حرفٍ :

ـ أمَّا الكلمةُ : فكالشيءِ ، والقرينِ ، والأمَّةِ ، والروحِ ، ونظائرِها ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أرادَ بهِ النفقةَ ممَّا رُزِقَ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ؛ أي : الأمرِ بالعدلِ والاستقامةِ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَيْءٍ ﴾ أرادَ بهِ مِنْ صفاتِ الربوبيةِ ، وهيَ العلومُ التي لا يحلُّ السؤالُ عنها حتَّىٰ يبتدئَ بها العارفُ في أوانِ الاستحقاقِ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ ؛ أي : منْ غيرِ خالقٍ ، فربما يتوهَّمُ بهِ أنَّهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يُخلَقُ شيءٌ إلا مِنْ شيءٍ[٥]

---

(١) قوت القلوب (٥٢/١) ، وهي قراءة ابن مسعود ويحيىٰ والأعمش والمنهال بن عمرو والحكم بن عتيبة ، وقبلها : (وإن إدريس) ، وهو ما يعبر عنه بتخليط العرب بالاسم الأعجمي ، كذا في « المحتسب » (٢٢٤/٢) .

(٢) قوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ مردود ـ مكرر ـ ردَّه للتوكيد والإفهام ، كأنه لما طال الكلام . . أعيد ليقرب من الفهم . « قوت القلوب » (٥٣/١) .

(٣) فلما قدم الذين استضعفوا وكان المراد بعضهم . . كرَّر المراد بإعادة ذكر ﴿ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾ للبيان . « قوت القلوب » (٥٣/١) .

(٤) قوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ إنما هو موصول بقوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ ؛ لأنها نزلت في قولهم : فقد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك عند قوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ﴾ فقالوا : فهلا نستغفر لآبائنا المشركين ؟ فنزلت هٰذه الآية ليستثني القدوة في إبراهيم في هٰذا ، ثم نزلت الآية الأخرىٰ معذرة له . « قوت القلوب » (٥٦/١) .

(٥) قال صاحب « القوت » (٥٤/١) : (روينا ذٰلك عن ابن عباس وعن زيد بن علي رضي الله عنهما قالا : أي : من غير رب ، كيف يكون خلق من غير خالق ؟!) .

وأمَّا القرينُ : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أرادَ بهِ الملكَ الموكَّلَ بهِ .

وقولُهُ : ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أرادَ بهِ الشيطانَ .

وأمَّا الأمَّةُ : فتطلقُ علىٰ ثمانيةِ أوجهٍ :

الأمةُ : الجماعةُ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾

وأتباعُ الأنبياءِ ؛ كقولِكَ : نحنُ مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

والأمةُ : الرجلُ الجامعُ للخيرِ يُقتدىٰ بهِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾

والأمةُ : الدِّينُ ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ .

والأمةُ : الحينُ والزمانُ ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ ، وقولِهِ : ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ .

والأمةُ : القامةُ ؛ يقالُ : فلانٌ حسنُ الأمَّةِ ؛ أي : القامةِ .

وأمَّةٌ : رجلٌ منفردٌ بدينٍ لا يشركُهُ فيهِ أحدٌ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُبعَثُ زيدُ بنُ عمرِو بنِ نفيلٍ أمَّةً وحدَهُ »[1]

والأمةُ : الأمُّ ؛ يقالُ : هٰذهِ أُمَّةُ زيدٍ ؛ أيْ : أمُّ زيدٍ .

والروحُ أيضاً وردَ في القرآنِ بمعانٍ كثيرةٍ ، فلا نطوِّلُ بإيرادِها[2]

ـ وكذٰلكَ قدْ يقعُ الإبهامُ في الحروفِ : مثلَ قولِهِ تعالىٰ :

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ فالهاءُ الأولىٰ : كنايةٌ عنِ الحوافرِ ، وهيَ الموريات أثرنَ بالحوافرِ نقعاً ، والثانيةُ : كنايةٌ عنِ الإغارةِ ، وهيَ المغيراتُ صبحاً ، فوسطنَ بهِ جمعاً : جمعَ المشركينَ ، فأغاروا بجمعِهِمْ .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ يعني : بالسحابِ ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يعني : بالماءِ ، وأمثالُ هٰذا في القرآنِ لا ينحصرُ .

❁ ❁ ❁

ومنها التدريجُ في البيانِ : كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ، إذْ لمْ يظهرْ بهِ أنَّهُ ليلٌ أَوْ نهارٌ ، وبانَ بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ ، ولمْ يظهرْ أنَّهُ في أيِّ ليلةٍ ، فظهرَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ، وربما يظنُّ في الظاهرِ الاختلافُ بينَ هٰذهِ الآياتِ ، فهٰذا وأمثالُهُ لا يغني فيهِ إلا النقلُ والسماعُ .

والقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ غيرُ خالٍ عنْ هٰذا الجنسِ ؛ لأنَّهُ أُنزلَ بلغةِ العربِ ، فكانَ مشتملاً علىٰ أصنافِ كلامِهِمْ ؛ مِنْ إيجازٍ ، وتطويلٍ ، وإضمارٍ ، وحذفٍ ، وإبدالٍ ، وتقديمٍ ، وتأخيرٍ ؛ ليكونَ ذٰلكَ مفحماً لهُمْ ومعجزاً في حقِّهِمْ .

فكلُّ مَنِ اكتفىٰ بفهْمِ ظاهرِ العربيةِ ، وبادرَ إلىٰ تفسيرِ القرآنِ ولمْ يستظهرْ بالسماعِ والنقلِ في هٰذهِ الأمورِ . . فهوَ

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨١٣١) .

(٢) انظر تفصيلاً فيها في « الإتحاف » (٤/٥٥٠) .

داخلٌ فيمَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ ؛ مثلَ أنْ يفهمَ مِنْ لفظِ الأمَّةِ المعنى الأشهرَ منهُ ، فيميلَ طبعُهُ ورأيُهُ إليهِ ، فإذا سمعَهُ في موضعٍ آخرَ . . مالَ رأيُهُ إلىٰ ما سمعَهُ مِنْ مشهورِ معناهُ وتركَ تتبُّعَ النقلِ في كثرةِ معانيهِ ، فهٰذا ما يمكنُ أنْ يكونَ منهيّاً عنهُ دونَ التفهُّمِ لأسرارِ المعاني كما سبقَ ، فإذا حصلَ السماعُ بأمثالِ هٰذهِ الأمورِ . . علمَ ظاهرَ التفسيرِ ، وهوَ ترجمةُ الألفاظِ ، ولا يكفي ذٰلكَ في فهْمِ حقائقِ المعاني .

ويُدرَكُ الفرقُ بينَ حقائقِ المعاني وظاهرِ التفسيرِ بمثالٍ ، وهوَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ فظاهرُ تفسيرِهِ واضحٌ ، وحقيقةُ معناهُ غامضٌ ؛ فإنَّهُ إثباتٌ للرمي ونفيٌ لهُ ، وهما متضادانِ في الظاهرِ ما لمْ يفهمْ أنَّهُ رمىٰ مِنْ وجهٍ ولمْ يرمِ مِنْ وجهٍ ، ومِنَ الوجهِ الذي لمْ يرمِ . . رماهُ اللهُ تعالىٰ .

وكذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ فإذا كانوا همُ المقاتلينَ . . كيفَ يكونُ اللهُ هوَ المعذِّبَ ؟ وإنْ كانَ اللهُ تعالىٰ هوَ المعذِّبَ بتحريكِ أيديهِمْ . . فما معنىٰ أمرِهِمْ بالقتالِ ؟

فحقيقةُ هٰذا يستمدُّ مِنْ بحرٍ عظيمٍ مِنْ علومِ المكاشفاتِ ، لا يغني عنهُ ظاهرُ التفسيرِ ، وهوَ أنْ يعلمَ وجهَ ارتباطِ الأفعالِ بالقدرةِ الحادثةِ ، ويفهمَ وجهَ ارتباطِ القدرةِ بقدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّىٰ ينكشفَ بعدَ إيضاحِ أمورٍ كثيرةٍ غامضةٍ صدقُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ، ولعلَّ العمرَ لوْ أنفقَ في استكشافِ أسرارِ هٰذا المعنىٰ وما يرتبطُ بمقدماتِهِ ولواحقِهِ (١) . . لانقضَى العمرُ قبلَ استيفاءِ جميعِ لواحقِهِ ، وما مِنْ كلمةٍ مِنَ القرآنِ إلا وتحقيقُها محوجٌ إلىٰ مثلِ ذٰلكَ ، وإنَّما ينكشفُ للراسخينَ في العلمِ مِنْ أسرارِهِ بقدْرِ غزارةِ علومِهِمْ وصفاءِ قلوبِهِمْ ، وتوفُّرِ دواعيهِمْ على التدبُّرِ ، وتجرُّدِهِمْ للطلبِ ، ويكونُ لكلِّ واحدٍ حدٌّ في الترقي إلىٰ أعلىٰ درجةٍ منهُ .

فأمَّا الاستيفاءُ . . فلا مطمعَ فيهِ ، ولوْ كانَ البحرُ مداداً والأشجارُ أقلاماً . . فأسرارُ كلماتِ اللهِ لا نهايةَ لها ، فتنفدُ الأبحرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فمِنْ هٰذا الوجهِ يتفاوتُ الخلْقُ في الفهْمِ بعدَ الاشتراكِ في معرفةِ ظاهرِ التفسيرِ ، وظاهرُ التفسيرِ لا يغني عنهُ .

ومثالُهُ : فهمُ بعضِ أربابِ القلوبِ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سجودِهِ : « أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وأعوذُ بمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ ، وأعوذُ بكَ منكَ لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ » (٢) أنَّهُ قيلَ لهُ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ، فوجدَ القرْبَ في السجودِ ، فنظرَ إلى الصفاتِ ، فاستعاذَ ببعضِها مِنْ بعضٍ ، فإنَّ الرضا والسخْطَ وصفانِ ، ثـمَّ زادَ قربُهُ فاندرجَ القربُ الأوَّلُ فيهِ ، فرقيَ إلى الذاتِ وقالَ : « أعوذُ بكَ منْكَ » (٣) ، ثـمَّ زادَ قربُهُ بما استحيا بهِ مِنَ الاستعاذةِ علىٰ بساطِ القرْبِ ، فالتجأَ إلى الثناءِ ، فأثنىٰ بقولِهِ : « لا أحصي ثناءً عليكَ » ، ثـمَّ علمَ أنَّ ذٰلكَ قصورٌ فقالَ : « أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ » (٤) .

---

(١) التي منها معرفة درجات الكمال ، ثم معرفة الرغبة في طلبه كيف يكون ، ومعرفة تماثل الضدين ، ومعرفة أن واجب الوجود هل يرجع معناه إلىٰ سلب السبب عنه ، أو إلىٰ إضافة الأفعال إليه ، وما نهاية معرفة العارفين ، وكيف تفاوت درجاتهم ، وهل معرفته بالصفات معرفة تامة حقيقية أم لا ؟ وغير ذٰلك من العلوم التي تتعلق به . « إتحاف » (٤/٥٥٣)

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٣) وهٰذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ، بل رأىٰ نفسه فاراً منه إليه ، ففني عن مشاهدة نفسه . « إتحاف » (٤/٥٥٤) .

(٤) فأخبر أنه المثني والمثنىٰ عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وكل شيء هالك إلا وجهه . « إتحاف » (٤/٥٥٤) .

فهٰذهِ خواطرُ تنفتحُ لأربابِ القلوبِ ، ثمَّ لها أغوارٌ وراءَ هٰذا ، وهوَ فهْمُ معنى القربِ واختصاصِهِ بالسجودِ ، ومعنى الاستعاذةِ مِنْ صفةٍ بصفةٍ ومنهُ بهِ ، وأسرارُ ذٰلكَ كثيرةٌ ، ولا يدلُّ تفسيرُ ظاهرِ اللفظِ عليها ، وليسَ هوَ مناقضاً لظاهرِ التفسيرِ ، بلْ هوَ استكمالٌ لهُ ، ووصولٌ إلىٰ لُبابِهِ عنْ ظاهرِهِ .

فهٰذا ما نريدُهُ بفهْمِ المعاني الباطنةِ ، لا ما يناقضُ الظاهرَ ، واللهُ أعلمُ[1]

❀ ❀ ❀

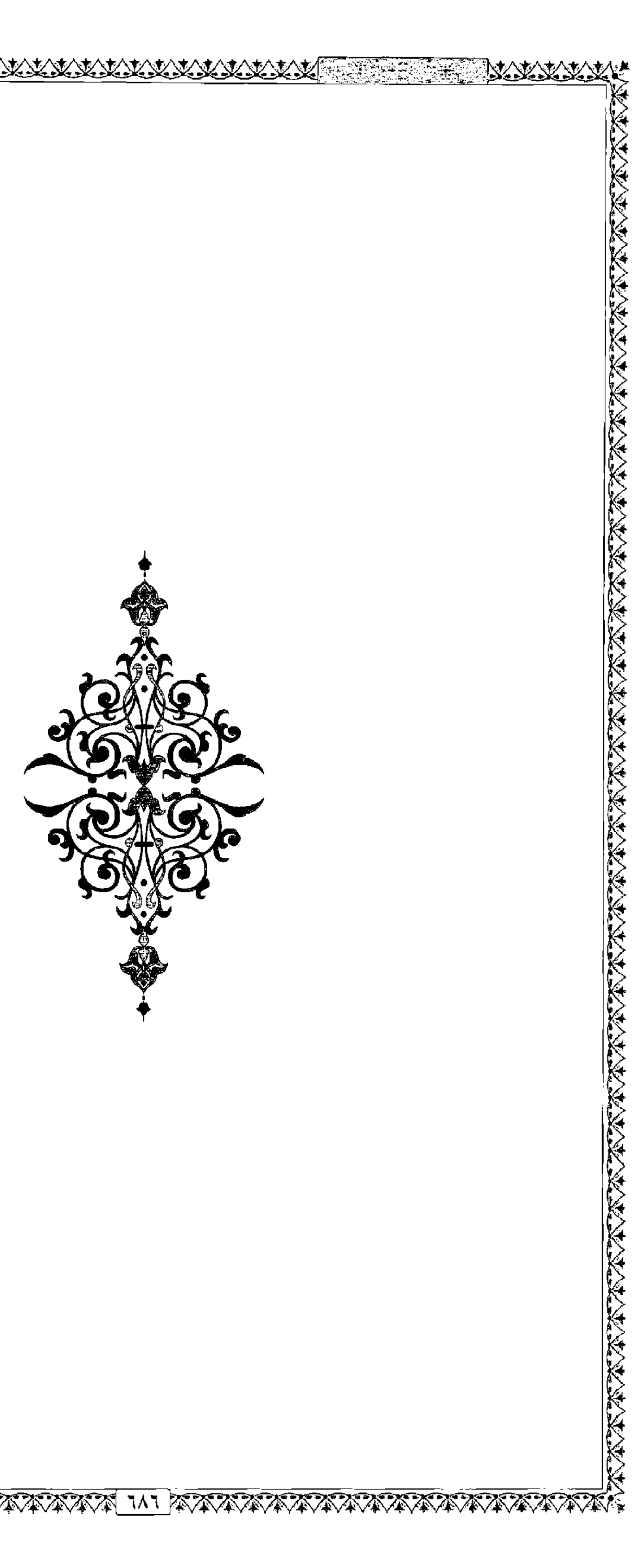
تمّ كتاب آداب تلاوة القرآن

وهو الكتاب الثّامن من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

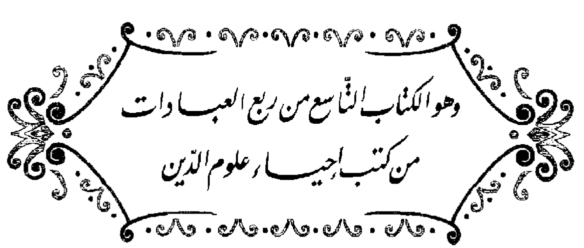
والحمد لله حقّ حمده ، وصلاته على خير خلقه سيّدنا محمّد النّبيّ وعلى آله الطّاهرين وصحبه الأكرمين

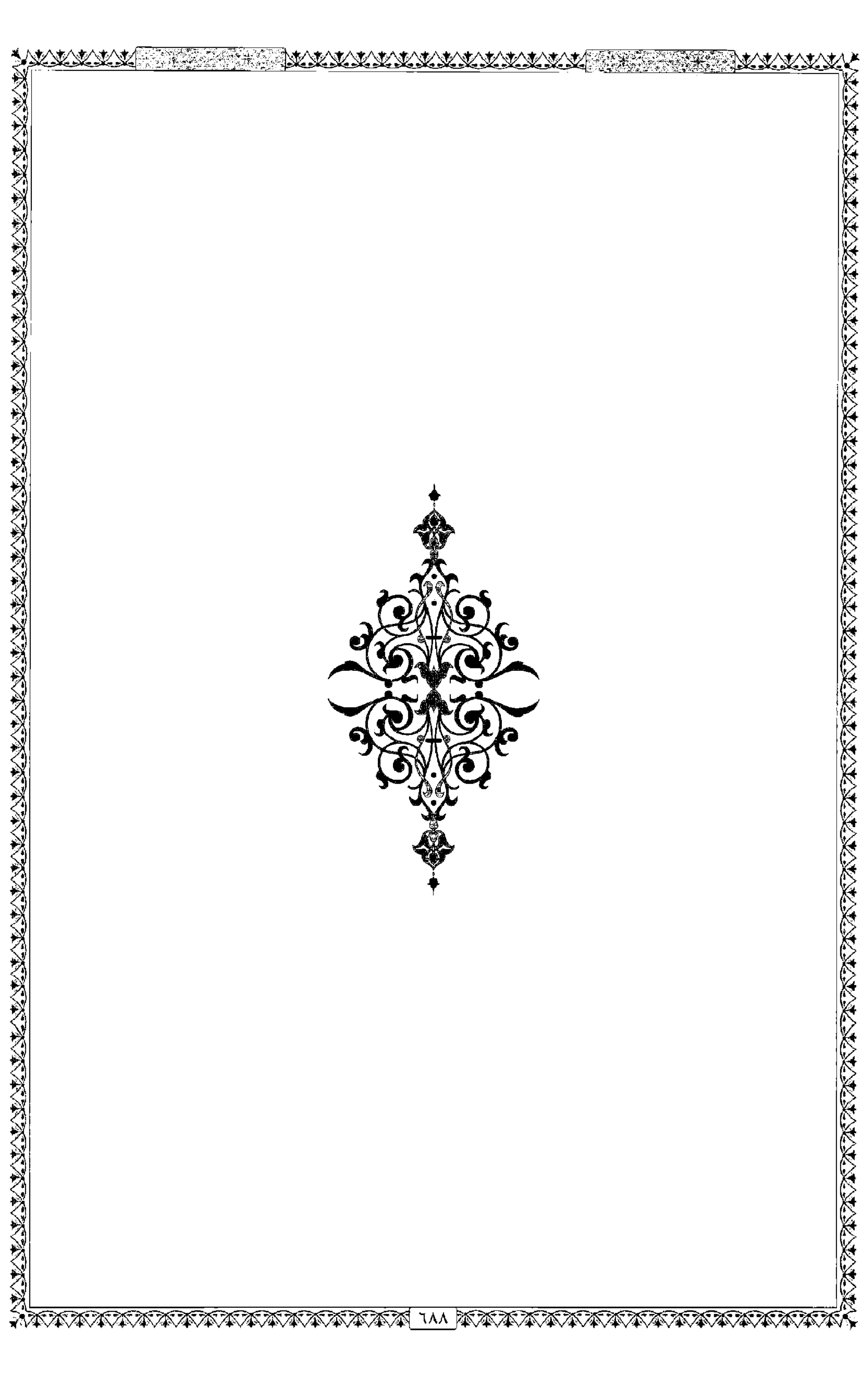
يتلوه كتاب الأذكار والدّعوات

(١) جاء في خاتمة (ز) : (قوبل بأصله وصحح) .



كتاب
الأذكار والدعوات


وهو الكتاب التاسع من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب الأذكار والدّعوات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الشاملةِ رأفتُهُ ، العامَّةِ رحمتُهُ ، الذي جازىٰ عبادَهُ عنْ ذكرِهِمْ بذكرِهِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، ورغَّبَهُمْ في السؤالِ والدعاءِ بأمرِهِ ، فقالَ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، وأطمعَ المطيعَ والعاصيَ والدانيَ والقاصيَ في الانبساطِ إلىٰ حضرةِ جلالِهِ برفْعِ الحاجاتِ والأماني بقولِهِ : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ أنبيائِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ خِيرةِ أصفيائِهِ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فليسَ بعدَ تلاوةِ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ عبادةٌ تؤدَّىٰ باللسانِ أفضلَ مِنْ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ ، ورفْعِ الحاجاتِ بالأدعيةِ الخالصةِ إلى اللهِ سبحانَهُ ، فلا بدَّ مِنْ شرْحِ فضيلةِ الذكْرِ على الجملةِ ، ثمَّ على التفصيلِ في أعيانِ الأذكارِ ، وشرحِ فضيلةِ الدعاءِ ، وشروطِهِ ، وآدابِهِ ، ونقْلِ المأثورِ مِنَ الدعواتِ الجامعةِ لمقاصدِ الدينِ والدنيا ، والدعواتِ الخاصَّةِ لسؤالِ المغفرةِ أوِ الاستعاذةِ أوْ غيرِها ، ويتحرَّرُ المقصودُ مِنْ ذٰلكَ بذكْرِ أبوابٍ خمسةٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الذكرِ وفائدتِهِ جملةً وتفصيلاً .

البابُ الثاني : في فضيلةِ الدعاءِ وآدابِهِ وفضيلةِ الاستغفارِ والصلاةِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

البابُ الثالثُ : في أدعيةٍ مأثورةٍ ومعزيةٍ إلىٰ أصحابِها وأسبابِها .

البابُ الرابعُ : في أدعيةٍ منتخبةٍ محذوفةِ الإسنادِ مِنَ الأدعيةِ المأثورةِ .

البابُ الخامسُ : في الأدعيةِ المأثورةِ عندَ حدوثِ الحوادثِ .

❋ ❋ ❋

الباب الأول

في فضيلة الذكر على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار

ويدلُّ علىٰ فضيلةِ الذكرِ على الجملةِ :

مِنَ الآياتِ :

قولُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، قالَ ثابتٌ البنانيُّ رحمهُ اللهُ : إنِّي أعلمُ متىٰ يذكرُني ربِّي عزَّ وجلَّ ، ففزعوا منهُ وقالوا : كيفَ تعلمُ ذٰلكَ ؟! فقالَ : إذا ذكرتُهُ . . ذكرَني [1]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أيْ : بالليلِ والنهارِ ، في البرِ والبحرِ ، والسفرِ والحضرِ ، والغنىٰ والفقرِ ، والمرضِ والصحَّةِ ، والسرِّ والعلانيةِ) [2]

وقالَ تعالىٰ في ذمِّ المنافقينَ : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لهُ وجهانِ : أحدُهما : أنَّ ذكرَ اللهِ تعالىٰ لكُمْ أكبرُ مِنْ ذكرِكُمْ إيَّاهُ ، والآخرُ : أنَّ ذكْرَ اللهِ أكبرُ مِنْ كُلِّ عبادةٍ سواهُ) [3]

إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الآياتِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكرُ اللهِ في الغافلينَ كالشجرةِ الخضراءِ في وَسَطِ الهشيمِ » [4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكرُ اللهِ في الغافلينَ كالمقاتلِ بينَ الفارِّينَ » [5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكرُ اللهِ في الغافلينَ كالحيِّ بينَ الأمواتِ » [6]

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٢٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٢٤/٢) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٣٣٥/٤/٤) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٩٣/٢٠/١١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٦١) وفيهما : (مثل الشجرة الخضراء في وسط الشجر) .

(٥) هو القطعة الأولىٰ من الحديث الذي سبق آنفاً .

(٦) قوت القلوب (٢٦٥/٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : أنا معَ عبدي ما ذكرَني وتحرَّكَتْ بي شفتاهُ » [١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما عملَ ابنُ آدمَ مِنْ عملٍ أنجىٰ لهُ مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ ذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ ؟ قالَ : « ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ إلا أنْ تضربَ بسيفِكَ حتَّىٰ ينقطعَ ، ثمَّ تضربَ بهِ حتَّىٰ ينقطعَ ، ثمَّ تضربَ بهِ حتَّىٰ ينقطعَ » [٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ أنْ يرتعَ في رياضِ الجنَّةِ . . فليكثِرْ ذكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ » [٣]

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ : « أنْ تموتَ ولسانُكَ رطبٌ منْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ » [٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أصبحْ وأمسِ ولسانُكَ رطبٌ بذكرِ اللهِ تصبحْ وتمسي وليسَ عليكَ خطيئةٌ » [٥]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ بالغداةِ والعشيِّ أفضلُ مِنْ حطمِ السيوفِ في سبيلِ اللهِ ، ومِنْ إعطاءِ المالِ سحّاً » [٦]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذا ذكرني عبدي في نفسِهِ . . ذكرتُهُ في نفسي ، وإذا ذكرني في ملأٍ . . ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ مِنْ ملئِهِ ، وإذا تقرَّبَ منِّي شبراً . . تقرَّبْتُ منهُ ذراعاً ، وإذا تقرَّبَ منِّي ذراعاً . . تقرَّبْتُ منهُ باعاً ، وإذا مشىٰ إليَّ . . هرولتُ إليهِ » [٧] ، يعني بالهرولةِ : سرعةَ الإجابةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » منْ جملتِهِمْ : « رجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناهُ مِنْ خشيةِ اللهِ » [٨]

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أنبئُكُمْ بخيرِ أعمالِكُمْ ، وأزكاها عندَ مليكِكُمْ ، وأرفعِها في درجاتِكُمْ ، وخيرٌ لكُمْ مِنْ إعطاءِ الوَرِقِ والذهبِ ، وخيرٌ لكُمْ مِنْ أنْ تلقَوا عدوَّكُمْ فتضربوا أعناقَهُمْ ويضربوا أعناقَكُمْ ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ » [٩] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ شغلَهُ ذكري عنْ مسألتي . . أعطيتُهُ أفضلَ ما أعطي السائلينَ » [١٠]

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٩٢) ، وهو من معلقات البخاري (كتاب التوحيد باب قوله تعالىٰ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٣١٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٣٥) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٧٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/١٥٧) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٤١) عن الحسن مرسلاً ، ورواه مرفوعاً ابن حبان في « صحيحه » (٨١٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٥١٣) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو القاسم الأصبهاني في « الترغيب والترهيب » من حديث أنس : « من أصبح وأمسىٰ ولسانه رطب من ذكر الله يمسي ويصبح وليس عليه خطيئة » ، وفيه من لا يعرف) . « إتحاف » (٥/٦) .
(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٩) موقوفاً علىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورواه مرفوعاً بتمامه ابن شاهين في « الترغيب في الذكر » كما في « الإتحاف » (٥/٦) .
(٧) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .
(٨) رواه البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١) .
(٩) رواه الترمذي (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٧٩٠) ، ووقع في بعض النسخ زيادة كلمة (دائماً) آخره
(١٠) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٢/١٠٠) ، والبزار في « مسنده » (١٣٧) .

وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ الفضيلُ : (بلغَنا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : يا بنَ آدمَ ؛ اذكرني بعدَ الصبحِ ساعةً ، وبعدَ العصرِ ساعةً . . أكفِكَ ما بينَهُما)[1]

وقالَ بعضُ العلماءِ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : أيُّما عبدٍ اطلعتُ علىٰ قلبِهِ ، فرأيتُ الغالبَ عليهِ التمسُّكَ بذكري . . توليتُ سياستَهُ ، وكنتُ جليسَهُ ومحادثَهُ وأنيسَهُ .

وقالَ الحسنُ : (الذكرُ ذكرانِ : ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ بينَ نفسِكَ وبينَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ما أحسنَهُ وأعظمَ أجرَهُ !! وأفضلُ مِنْ ذٰلكَ ذكرُ اللهِ سبحانَهُ عندَ ما حرمَ اللهُ عزَّ وجلَّ)[2]

ويروىٰ أنَّ كلَّ نفسٍ تخرجُ مِنَ الدنيا عطشىٰ إلا ذاكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ يتحسَّرُ أهلُ الجنَّةِ علىٰ شيءٍ إلا علىٰ ساعةٍ مرَّتْ بهِمْ لمْ يذكروا اللهَ تعالىٰ فيها)[3] ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

---

(١) رواه مرفوعاً أبو نعيم في « الحلية » (٢١٣/٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨٧/٤) عن ميمون بن مهران ، ورواه كذلك في « الحلية » (٢٢٤/٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٤) عن بلال بن سعد .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩٣/٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً .

فضيلة مجالس الذكر

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جلسَ قومٌ مجلساً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . إلا حفَّتْ بهمُ الملائكةُ ، وغشيتْهُمُ الرحمةُ ، وذكرَهُمُ اللهُ تعالىٰ فيمَنْ عندَهُ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ قومٍ اجتمعوا يذكرونَ اللهَ تعالىٰ لا يريدونَ بذٰلكَ إلا وجهَهُ . . إلا ناداهُمْ منادٍ مِنَ السماءِ : قوموا مغفوراً لكُمْ ، قدْ بُدِّلَتْ لكُمْ سيئاتُكُمْ حسناتٍ »(٢)

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما قعدَ قومٌ مقعداً لمْ يذكروا اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ فيهِ ، ولمْ يصلُّوا على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . إلا كانَ عليهِمْ حسرةً يومَ القيامةِ »(٣)

وقالَ داوودُ عليهِ السلامُ : (إلٰهي ؛ إذا رأيتني أجاوزُ مجالسَ الذاكرينَ إلىٰ مجالسِ الغافلينَ . . فاكسرْ رجْلي دونَهُمْ ؛ فإنَّها نعمةٌ تنعِمُ بها عليَّ)(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المجلسُ الصالحُ يكفِّرُ عنِ المؤمنِ ألفي ألفِ مجلسٍ مِنْ مجالسِ السوءِ »(٥)

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ أهلَ السماءِ ليتراءونَ بيوتَ أهلِ الأرضِ التي يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ تعالىٰ كما تُتَراءى النجومُ)(٦) .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ رحمَهُ اللهُ : (إذا اجتمعَ قومٌ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ . . اعتزلَ الشيطانُ والدنيا ، فيقولُ الشيطانُ للدنيا : ألا ترينَ ما يصنعونَ ؟ فتقولُ الدنيا : دعْهُمْ فإنَّهُمْ إذا تفرَّقوا . . أخذتُ بأعناقِهِمْ إليكَ) .

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ دخلَ السوقَ وقالَ : أراكُمْ ها هنا وميراثُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقسمُ في المسجدِ !! فذهبَ الناسُ إلى المسجدِ وتركوا السوقَ ، فلم يرَوا ميراثاً ، فقالوا : يا أبا هريرةَ ؛ ما رأينا ميراثاً يقسمُ في المسجدِ ، فقالَ : فماذا رأيتُمْ ؟ قالوا : رأينا قوماً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ ويقرؤونَ القرآنَ ، قالَ : فذٰلكَ ميراثُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٧)

وروى الأعمشُ عنْ أبي صالحٍ ، عنْ أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ الخدريِّ ، عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملائكةً سياحينَ في الأرضِ فضلاً عَنْ كتَّابِ الناسِ ، فإذا وجدوا قوماً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . تنادَوا : هلمُّوا إلىٰ بغيتِكُمْ ، فيجيئونَ ، فيَحُفُّونَ بهِمْ إلى السماءِ الدنيا ، فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : أيَّ شيءٍ تركتُمْ عبادي يصنعونَ ؟ فيقولونَ : تركناهُمْ يحمدونَكَ ويمجِّدُونَكَ ويسبِّحونَكَ ، فيقولُ تعالىٰ : وهلْ رأوني ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولُ جلَّ جلالُهُ :

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠) ، وهو بلفظ المصنف عند أحمد في « المسند » (٤٩/٣) كذٰلك .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٤٢/٣) ، والطبراني في « الأوسط » (١٥٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٨/٣) .
(٣) رواه الترمذي (٣٣٨٠) ، وفيه : (تِرَةً) بدل (حسرة) وهما بمعنىً .
(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٤٥٣) ، وابن أبي الدنيا في « العلم » (١٣٩) .
(٥) قال الحافظ العراقي : (ذكره صاحب « الفردوس » [٥٨٣] من حديث أسد بن وداعة ، وهو مرسل ، ولم يخرجه ولده ، وكذٰلك لم أجد له إسناداً) . « إتحاف » (٩/٥) .
(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٦٣) .
(٧) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٤٥١) .

كيفَ لوْ رأوني ؟ فيقولونَ : لوْ رأوكَ . . لكانوا أشدَّ تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً ، فيقولُ لهُمْ : مِنْ أيِّ شيءٍ يتعوَّذونَ ؟ فيقولونَ : مِنَ النارِ ، فيقولُ تعالىٰ : وهلْ رأوها ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : فكيفَ لوْ رأوها ؟ فيقولونَ : لوْ رأوها . . لكانوا أشدَّ هرباً منها وأشدَّ نفوراً ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : وأيَّ شيءٍ يطلبونَ ؟ فيقولونَ : الجنَّةَ ، فيقولُ تعالىٰ : وهلْ رأوها ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولُ تعالىٰ : فكيفَ لوْ رأوها ؟ فيقولونَ : لوْ رأوها . . لكانوا أشدَّ عليها حرصاً ، فيقولُ جلَّ جلالُهُ : فإنِّي أشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُمْ ، فيقولونَ : كانَ فيهِمْ فلانٌ لمْ يردْهُمْ ، إنَّما جاءَ لحاجةٍ !! فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : هُمُ القومُ لا يشقىٰ بهِمْ جليسُهُمْ »[١]

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٠) عنهما ، وهو عن أبي هريرة في « البخاري » (٦٤٠٨) ، و« مسلم » (٢٦٨٩) بنحوه .

فضيلة التهليل

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ ما قلتُهُ أنا والنبيونَ مِنْ قبلي : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ في يومٍ مئةَ مرَّةٍ . . كانتْ لهُ عدْلَ عشرِ رقابٍ ، وكتبت لهُ مئةُ حسنةٍ ، ومحيتْ عنهُ مئةُ سيئةٍ ، وكانتْ لهُ حرزاً مِنَ الشيطانِ يومَهُ ذٰلكَ حتىٰ يمسيَ ، ولمْ يأتِ أحدٌ بأفضلَ ممَّا جاءَ بهِ إلا أحدٌ عملَ أكثرَ مِنْ ذٰلكَ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما منْ عبدٍ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ، ثمَّ رفعَ طرفَهُ إلى السماءِ فقالَ : أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ . . إلَّا فتحتْ لهُ أبوابُ الجنَّةِ يدخلُ مِنْ أيِّها شاءَ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ علىٰ أهلِ لا إلـهَ إلا اللهُ وحشةٌ في قبورِهِمْ ولا في نشورِهِمْ ، كأنِّي أنظرُ إليهِمْ عندَ الصيحةِ ينفضونَ رؤوسَهُمْ مِنَ الترابِ ويقولونَ : الحمدُ للهِ الذي أذهبَ عنَّا الحزنَ إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً لأبي هريرةَ : « يا أبا هريرةَ ؛ إنَّ كلَّ حسنةٍ تعملُها توزنُ يومَ القيامةِ إلا شهادةَ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ ، فإنَّها لا توضعُ في ميزانٍ ؛ لأنَّها لوْ وضعتْ في ميزانِ مَنْ قالَها صادقاً ووضعتِ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ وما فيهنَّ . . كانَتْ لا إلـهَ إلا اللهُ أرجحَ مِنْ ذٰلكَ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ جاءَ قائلُ : لا إلـهَ إلا اللهُ صادقاً بِقُرابِ الأرضِ ذنوباً . . لغفرَ اللهُ لهُ ذٰلكَ »[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ لقِّنِ الموتىٰ شهادةَ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ ؛ فإنَّها تهدِمُ الذنوبَ هدْماً » ، قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا للموتىٰ فكيفَ للأحياءِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هيَ أهدمُ وأهدمُ »[7]

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٩٣) ، ومسلم (٢٦٩١) .

(٣) رواه أبو داوود (١٦٩) ، وهو عند مسلم (٢٣٤) بنحوه .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٧٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩) .

(٥) تقدم الكلام تعليقاً علىٰ وصية أبي هريرة ، وروى الطبراني في « الكبير » (٢٥٤/١٢) مرفوعاً : « والذي نفسي بيده ؛ لو جيء بالسماوات والأرضين ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن ، فوضعت في كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرىٰ . . لرجحت بهن » ، ونحوه عند النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦٠٢) ، وهو حديث سيدنا موسىٰ عليه السلام المشهور .

(٦) الذي رواه مسلم (٢٦٨٧) مرفوعاً حديثاً قدسياً : « ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً . . لقيته بمثلها مغفرة » ، ومعنى التهليل في قوله : « لا يشرك بي شيئاً » ، وعند الترمذي (٣٥٤٠) : « يا بن آدم ؛ إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً . . **لأتيتك بقرابها مغفرة** » . وروى ابن عدي في « **الكامل** » (٦٤/٥) : **أن رجلاً جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال** : ما لي إن شهدت أن لا إله إلا الله وكبرته وحمدته وسبحته ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبراهيم سأل ربه عز وجل فقال : يا رب ؛ ما جزاء من هلل مخلصاً من قلبه ؟ فقال : يا إبراهيم ؛ جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب . . . » الحديث .

(٧) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢١٨٩/٤) مرفوعاً ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦٠٤٨) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ لا إلـهَ إلا اللهُ مخلصاً . . دخلَ الجنَّةَ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لتدخلُنَّ الجنَّةَ كلُّكُمْ إلا مَنْ أبىٰ وشردَ على اللهِ عزَّ وجلَّ شرادَ البعيرِ علىٰ أهلِهِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنِ الذي يأبىٰ ؟ قالَ : « مَنْ لَمْ يقلْ : لا إلـهَ إلا اللهُ[2] ، فأكثروا مِنْ قولِ : لا إلـهَ إلا اللهُ قبلَ أنْ يحالَ بينَكُمْ وبينَها[3] ، فإنَّها كلمةُ التوحيدِ[4] ، وهيَ كلمةُ الإخلاصِ ، وهيَ كلمةُ التقوىٰ[5] ، وهيَ الكلمةُ الطيبةُ[6] ، وهيَ دعوةُ الحقِّ[7] ، وهيَ العروةُ الوثقىٰ[8] ، وهيَ ثمنُ الجنَّةِ »[9]

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ ، فقيلَ : الإحسانُ في الدنيا : قولُ لا إلـهَ إلا اللهُ ، وفي الآخرةِ : الجنَّةُ[10] ، وكذا قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[11]

وروى البراءُ بنُ عازبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ عشرَ مراتٍ . . كانتْ لهُ عدْلَ رقبةٍ أوْ نسمةٍ »[12]

ورَوىٰ عمرُو بنُ شعيبٍ ، عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ قالَ في يومٍ مئتي مرَّةٍ : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . . لمْ يسبقْهُ أحدٌ كانَ قبلَهُ ، ولا يدركُهُ أحدٌ كانَ بعدَهُ إلا مَنْ عملَ بأفضلَ مِنْ عملِهِ »[13]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ في سوقٍ مِنَ الأسواقِ : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . . كتبَتْ لهُ ألفُ ألفِ حسنةٍ ومُحيتْ عنهُ ألفُ ألفِ سيئةٍ ، وبُنيَ لهُ بيتٌ في الجنَّةِ »[14]

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥٤/٩) ، وتمامه عند الطبراني : قيل : وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله عز وجل » .

(٢) إلىٰ هنا في « البخاري » (٧٢٨٠) مرفوعاً : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ » ، قالوا : يا رسول الله ؛ ومن يأبىٰ ؟ قال : « من أطاعني . . دخل الجنة ، ومن عصاني . . فقد أبىٰ » ، وعند الطبراني في « الأوسط » (٨١٢) مرفوعاً : « والذي نفسي بيده ؛ لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبىٰ وشرد على الله شراد البعير » الحديث .

(٣) هـٰذه القطعة رواها أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٤٧) ، وابن عدي في « الكامل » (١٠٤/٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٤٨/٣) .

(٤) روىٰ أبو الشيخ في « الثواب » من حديث الحكم بن عمير مرسلاً : « إذا قلت : لا إلـه إلا الله . . فهي كلمة التوحيد . . . » الحديث . « إتحاف » (١١/٥) .

(٥) كونها كلمة الإخلاص وكلمة التقوىٰ عند أحمد في « المسند » (٦٣/١) ، وسماها النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة الإخلاص كذٰلك عند الطبراني في « الدعاء » (٤٧٧) .

(٦) روىٰ ذٰلك الطبراني في « الدعاء » (١٥٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما

(٧) روىٰ ذٰلك الطبراني في « الدعاء » (١٥٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٨) روىٰ ذٰلك الطبراني في « الدعاء » (١٥٦٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٩) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٣٤٨/٦) .

(١٠) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٥٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(١١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٣٧/١١/٧) .

(١٢) رواه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (٧٤٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٨) .

(١٣) رواه أحمد في « المسند » (١٨٥/٢ ، ٢١٤) .

(١٤) رواه الترمذي (٣٤٢٨) ، وابن ماجه (٢٢٣٥) عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً ، وأشار الدارقطني في « علله » (٤٩/٢) إلىٰ رواية وقفه عليه ، وهو بزيادة المصنف : « وبني له . . . » عند ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٨٢) .

ويُروىٰ : « أن العبدَ إذا قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . أتتْ علىٰ صحيفتِهِ فلا تمرُّ علىٰ خطيئةٍ إلا محتْها ، حتَّىٰ تجدَ حسنةً مثلَها فتجلسَ إلىٰ جنبِها »(١)

وفي الصحيحِ عنْ أبي أيوبَ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ عشرَ مراتٍ . . كانَ كمَنْ أعتقَ أربعةَ أنفسٍ مِنْ ولدِ إسماعيلَ عليهِ السلامُ »(٢)

وفي الصحيحِ أيضاً عنْ عبادةَ بنِ الصامتِ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ تعارَّ مِنَ الليلِ ، فقالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، الحمدُ للهِ ، وسبحانَ اللهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي أَوْ دعا . . استجيبَ لهُ ، فإنْ توضَّأَ وصلَّىٰ . . قبلَتْ صلاتُهُ »(٣)

* * *

---

(١) روىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٦١١) مرفوعاً : « ما قال عبد : لا إلـه إلا الله في ساعة من ليل أو نهار . . إلا طمستْ ما في صحيفته من السيئات حتى يسكن إلىٰ مثلها من الحسنات » .

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) .

(٣) رواه البخاري (١١٥٤) ، والتعارُّ : السهر والتقلب على الفراش ليلاً .

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سبَّحَ اللهَ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ ، وحمدَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ ، وكبَّرَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ ، وختمَ المئةَ بلا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . . غفرَتْ ذنوبُهُ ولوْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ في يومٍ مئةَ مرَّةٍ . . حُطتْ خطاياهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ »(٢)

ورُوِيَ أنَّ رجلاً جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : تولَّتْ عنِّيَ الدنيا ، وقلَّتْ ذاتُ يدي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فأينَ أنتَ منْ صلاةِ الملائكةِ وتسبيحِ الخلائقِ وبها يرزقونَ ؟! » قالَ : فقلتُ : وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « قلْ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ ، أستغفرُ اللهَ مئةَ مرَّةٍ ما بينَ طلوعِ الفجرِ إلىٰ أنْ تصلِّيَ الصبحَ . . تأتيكَ الدنيا راغمةً صاغرةً ، ويخلقُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ كلِّ كلمةٍ ملكاً يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ إلىٰ يومِ القيامةِ لكَ ثوابُهُ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قالَ العبدُ : الحمدُ للهِ . . ملأَتْ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، فإذا قالَ : الحمدُ للهِ الثانيةَ . . ملأَتْ ما بينَ السماءِ السابعةِ إلى الأرضِ السفلىٰ ، فإذا قالَ : الحمدُ للهِ الثالثةَ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : سلْ تعطَ »(٤)

وقالَ رِفاعةُ الزُّرَقيُّ : كنَّا يوماً نصلِّي وراءَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا رفعَ رأسَهُ مِنَ الركوعِ وقالَ : « سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهْ » . . قالَ رجلٌ وراءَهُ : ربَّنا ولكَ الحمدُ حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيهِ ، فلمَّا انصرفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ صلاتِهِ . . قالَ : « مَنِ المتكلِّمُ آنفاً ؟ » قال : أنا يا رسولَ اللهِ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ رأيتُ بضعةً وثلاثينَ ملكاً يبتدرونَها أيُّهُمْ يكتبُها أوَّلاً »(٥)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الباقياتُ الصالحاتُ هُنَّ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، وسبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما على الأرضِ رجلٌ يقولُ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، وسبحانَ اللهِ ،

---

(١) رواه مسلم (٥٩٧) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٩١) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه المستغفري في « الدعوات » من حديث ابن عمر وقال : غريب من حديث مالك ، ولا أعرف له أصلاً في حديث مالك ، ولأحمد من حديث عبد الله بن عمر [١٧٠/٢] : أن نوحاً قال لابنه : آمرك بلا إلٰه إلا الله . . . الحديث ، ثم قال : سبحان الله وبحمده ؛ فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق ، وإسناده صحيح) . « إتحاف » (١٣/٥) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (غريب بهٰذا اللفظ لم أجده) . « إتحاف » (١٤/٥) ، إذ المشهور هو حديث مسلم (٢٢٣) وفيه : « والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض » .

(٥) رواه البخاري (٧٩٩) ، وفيه : فلما انصرف . . قال : « من المتكلم ؟ » قال : أنا ، قال : « رأيت بضعة . . . » .

(٦) رواه بلفظ المصنف الضياء في « الأحاديث المختارة » (٣٢٣) موقوفاً على عثمان رضي الله عنه ، وهو بنحوه عند النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٥٤) مرفوعاً ، بغير زيادة : « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

والحمدُ للهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ . . إلا غفرَتْ ذنوبُهُ ولوْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ » ، رواهُ ابنُ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما[1]

وروى النعمانُ بنُ بشيرٍ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « الذي تذكرونَ مِنْ جلالِ اللهِ وتسبيحِهِ وتهليلِهِ وتحميدِهِ ينعطفْنَ حولَ العرشِ لهُنَّ دويٌّ كدويِّ النحلِ يُذَكِّرُ بصاحبِهِ ، أوَلا يحبُّ أحدُكُمْ ألا يزالَ عندَ اللهِ تعالىٰ مَنْ يُذَكِّرُ بهِ »[2]

وروىٰ أبو هريرةَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لأَنْ أقولَ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ . . أحبُّ إليَّ ممَّا طلعَتْ عليهِ الشمسُ »[3] ، وفي روايةٍ أخرىٰ زادَ : « ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ » وقالَ : « هي خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّ الكلامِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أربعٌ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، لا يضرُّكَ بأيِّهِنَّ بدأتَ » رواهُ سَمُرَةُ بنُ جُنْدُبٍ[5]

وروىٰ أبو مالكٍ الأشعريُّ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقولُ : « الطُّهورُ شطرُ الإيمانِ ، والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ ، وسبحانَ اللهِ واللهُ أكبرُ تملأُ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، والصلاةُ نورٌ ، والصدقةُ برهانٌ ، والصبرُ ضياءٌ ، والقرآنُ حجَّةٌ لكَ أوْ عليكَ ، كلُّ الناسِ يغدو ؛ فبائعٌ نفسَهُ فمعتقُها أوْ موبقُها »[6]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ ، ثقيلتانِ في الميزانِ ، حبيبتانِ إلى الرحمـٰنِ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ »[7]

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الكلامِ أحبُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اصطفى اللهُ عزَّ وجلَّ لملائكتِهِ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ »[8]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالى اصطفىٰ مِنَ الكلامِ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، فإذا قالَ العبدُ : سبحانَ اللهِ . . كُتِبَ لهُ عشرونَ حسنةً ، وحُطَّ عنهُ عشرونَ سيئةً ، وإذا قالَ : اللهُ أكبرُ . . فمثلُ ذٰلكَ » ، وذكرَ إلىٰ آخرِ الكلماتِ[9]

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٠) ، وجاء في النسخ : (عمر) بدل (عمرو) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٠٩) .

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٥) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (رواها المستغفري في « الدعوات » من رواية مالك بن دينار : أن أبا أمامة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : قلت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . . خير من الدنيا وما فيها ، قال : « أنت أغنم القوم » ، وهو مرسل جيد الإسناد) . « إتحاف » (١٤/٥) .

(٥) رواه مسلم (٢١٣٧) .

(٦) رواه مسلم (٢٢٣) بنحوه ، وهو بلفظ المصنف هنا : « وسبحان الله والله أكبر . . . » رواه الطبراني في « الكبير » (٢٤٨/٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤٢/١) .

(٧) رواه البخاري (٦٦٨٢) ، ومسلم (٢٦٩٤) .

(٨) رواه مسلم (٢٧٣١) بنحوه ودون زيادة : « سبحان الله العظيم » ، وعند الترمذي (٣٥٩٣) بلفظ المصنف ، ولفظ المرفوع فيه : « ما اصطفى الله لملائكته : سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده » ، وانظر « الإتحاف » (١٥/٥) .

(٩) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٤٦) ، وفي ثواب : « الحمد لله » قال : « كتب له ثلاثون حسنة ، وحطت عنه ثلاثون سيئة » .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ . . غرستْ لهُ نخلةٌ في الجنَّةِ »[1]

وعنْ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : قالَ الفقراءُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ذهبَ أهلُ الدثورِ بالأجورِ ؛ يصلُّونَ كما نصلِّي ، ويصومونَ كما نصومُ ، ويتصدَّقونَ بفضولِ أموالِهِمْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوليسَ قدْ جعلَ اللهُ لكُمْ ما تصدَّقونَ بهِ ؟! إنَّ لكمْ بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً ، وتحميدةٍ صدقةً ، وتهليلةٍ صدقةً ، وتكبيرةٍ صدقةً ، وأمرٌ بمعروفٍ صدقةٌ ، ونهيٌ عنْ منكرٍ صدقةٌ ، ويضعُ أحدُكُمْ اللقمةَ في في أهلِهِ فهيَ لهُ صدقةٌ ، وفي بُضعِ أحدِكُمْ صدقةٌ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ يأتي أحدُنا شهوتَهُ ويكونُ لهُ فيها أجرٌ ؟! قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرأيتُمْ لوْ وضعَها في حرامٍ . . أكانَ عليهِ فيها وزرٌ ؟ قالُوا : نعمْ ، قالَ : كذٰلكَ إنْ وضعَها في الحلالِ . . كانَ لهُ فيها أجرٌ »[2]

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : قلتُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : سبقَ أهلُ الأموالِ بالأجرِ ؛ يقولونَ ما نقولُ ، وينفقونَ ولا ننفقُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفلا أدلُّكَ علىٰ عملٍ إذا أنتَ فعلتَهُ . . أدركتَ مَنْ قبلَكَ ، وفُتَّ مَنْ بعدَكَ إلا منْ قالَ مثلَ قولِكَ ؟ تسبِّحُ اللهَ بعدَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ ، وتحمدُ ثلاثاً وثلاثينَ ، وتكبِّرُ أربعاً وثلاثينَ »[3]

وروتْ يُسَيْرَةُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « عليكنَّ بالتسبيحِ والتهليلِ والتقديسِ ، فلا تغفلْنَ ، واعقدْنَ بالأناملِ ؛ فإنَّها مستنطَقاتٌ »[4] ، يعني : بالشهادةِ في القيامةِ .

وقالَ ابنُ عمرٍو : (رأيتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعقدُ التسبيحَ)[5]

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما شهدَ عليهِ أبو هريرةَ وأبو سعيدٍ الخدريُّ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا قالَ العبدُ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ . . قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : صدقَ عبدي ، لا إلٰهَ إلا أنا ، وأنا أكبرُ ، وإذا قالَ العبدُ : لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ . . قال اللهُ تعالىٰ : صدقَ عبدي ، لا إلٰهَ إلا أنا وحدِي لا شريكَ لي ، وإذا قالَ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ . . يقولُ اللهُ تعالىٰ : صدقَ عبدي ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بي ، ومَنْ قالَهُنَّ عندَ الموتِ . . لمْ تمسُّهُ النارُ »[6]

وروىٰ مصعبُ بنُ سعدٍ عنْ أبيهِ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أيعجزُ أحدُكُمْ أنْ يكسبَ كلَّ يومٍ ألفَ حسنةٍ ؟ فقيلَ : كيفَ ذٰلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ مئةَ تسبيحةٍ ، فيُكتبُ لهُ ألفُ حسنةٍ ، ويُحطُّ عنهُ ألفُ سيئةٍ »[7]

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٤) .

(٢) رواه مسلم (١٠٠٦) .

(٣) رواه ابن ماجه (٩٢٧) ، والمرفوع بصيغة الجمع ، وفيه قول ابن عيينة : (لا أدري أيتهن أربع) ، وهو بلفظ المصنف عند النسائي في « عمل اليوم والليلة » (١٤٧) عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٤) رواه أبو داوود (١٥٠١) ، والترمذي (٣٥٨٣) .

(٥) رواه أبو داوود (١٥٠٢) ، والترمذي (٣٤١١) ، والنسائي (٣/٧٩) ، ووقع في النسخ : (عمر) بدل (عمرو) .

(٦) رواه الترمذي (٣٤٣٠) ، وابن ماجه (٣٧٩٤) بنحوه .

(٧) رواه مسلم (٢٦٩٨) والعطف فيه بـ « أو » ، وبرواية المصنف عند الترمذي (٣٤٦٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ اللهِ بنَ قيسٍ ـ أَوْ يا أبا موسىٰ ـ ألا أدلُّكَ علىٰ كنزٍ مِنْ كنوزِ الجنَّةِ ؟ » قالَ : بلىٰ ، قالَ : « قل : لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ »(١)

وفي روايةٍ أخرىٰ : « ألا أعلِّمكَ كلمةً مِنْ تحتِ العرشِ : لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ »(٢)

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أدلُّكَ علىٰ عملٍ مِنْ كنزِ الجنَّةِ مِنْ تحتِ العرشِ ، قولُ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، يقولُ اللهُ تعالىٰ : أسلَمَ عبدي واستسلمَ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ حينَ يصبحُ : رضيتُ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبالقرآنِ إماماً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيّاً ورسولاً . . كانَ حقّاً على اللهِ سبحانَهُ أنْ يرضيَهُ يومَ القيامةِ » ، وفي روايةٍ : « مَنْ قالَ ذٰلك . . رضيَ اللهُ عنهُ »(٤)

وقالَ مجاهدٌ : (إذا خرجَ الرجلُ مِنْ بيتِهِ فقالَ : باسمِ اللهِ . . قالَ الملكُ : هديتَ ، فإذا قالَ : توكلتُ على اللهِ . . قالَ الملكُ : كفيتَ ، وإذا قالَ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ . . قالَ الملكُ : وقيتَ ، فتتفرَّقُ عنهُ الشياطينُ ، فيقولونَ : ما تريدونَ مِنْ رجلٍ قدْ هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ ؟ لا سبيلَ لكمْ إليهِ)(٥)

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما بالُ ذكرِ اللهِ سبحانَهُ معَ خفَّتِهِ على اللسانِ وقلَّةِ التعبِ فيهِ . . صارَ أفضلَ وأنفعَ مِنْ جملةِ العباداتِ معَ كثرةِ المشقَّاتِ فيها ؟

فاعلمْ : أنَّ تحقيقَ هٰذا لا يليقُ إلا بعلمِ المكاشفةِ ، والقدْرُ الذي يُسمحُ بذكرِهِ في علمِ المعاملةِ أَنَّ المؤثِّرَ النافعَ هوَ الذكرُ على الدوامِ معَ حضورِ القلبِ ، فأمَّا الذكرُ باللسانِ والقلبُ لاهٍ . . فهوَ قليلُ الجدوىٰ ، وفي الأخبارِ ما يدلُّ علىٰ ذٰلكَ أيضاً(٦) ، وحضورُ القلبِ في لحظةٍ بالذكرِ والذهولُ عنِ اللهِ تعالىٰ معَ الاشتغالِ بالدنيا أيضاً قليلُ الجدوىٰ ، بلْ حضورُ القلبِ معَ اللهِ تعالىٰ على الدوامِ أوْ في أكثرِ الأوقاتِ هوَ المقدَّمُ على العباداتِ ، بلْ بهِ تَشْرُفُ سائرُ العباداتِ ، وذٰلكَ هوَ غايةُ ثمرةِ العباداتِ العمليَّةِ .

❁ ❁ ❁

وللذكرِ أوَّلٌ وآخرٌ ، فأوَّلُهُ يوجبُ الأُنسَ والحبَّ ، وآخرُهُ يوجبُهُ الأُنسُ والحبُّ ويصدرُ عنهُ ، والمطلوبُ هوَ ذٰلكَ الأنسُ والحبُّ ، فإنَّ المريدَ في بدايةِ الأمرِ قدْ يكونُ متكلِّفاً بصرْفِ قلبِهِ ولسانِهِ عنِ الوسواسِ إلىٰ ذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنْ وُفِّقَ للمداومةِ . . أنسَ بهِ ، وانغرسَ في قلبِهِ حبُّ المذكورِ .

---

(١) رواه البخاري (٤٢٠٥) ، ومسلم (٢٧٠٤) ، وعبد الله بن قيس هو سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٧٥٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢٩٨/٢) .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٧٢) ، والترمذي (٣٣٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٧٠) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٩٥/٣) عن مجاهد ، وهو عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٩٨١٤) عنه ، عن عبد لله بن ضمرة ، عن كعب الأحبار ، ونحوه عند ابن ماجه (٣٨٨٦) مرفوعاً من غير طريق مجاهد .

(٦) قال تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، وروى الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة مرفوعاً : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ » .

ولا ينبغي أنْ يُتعجَّبَ مِنْ هـٰذا ، فإنَّ مِنَ المشاهَدِ في العاداتِ أنْ يُذكرَ غائبٌ غيرُ مشاهدٍ بينَ يدي شخصٍ ويكرَّرَ ذكرُ خصالِهِ عندَهُ فيحبَّهُ ، وقدْ يعشقُ بالوصْفِ وكثرةِ الذكرِ ، ثمَّ إذا عشقَ بكثرةِ الذكرِ المتكلَّفِ أوَّلاً . . صارَ مضطراً إلىٰ كثرةِ الذكرِ آخراً ، بحيثُ لا يصبرُ عنهُ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ مِنْ ذكرِهِ ، ومَن أكثرَ ذكرَ شيءٍ وإنْ كانَ تكلُّفاً . . أحبَّهُ ؛ فكذٰلكَ أوَّلُ الذكرِ متكلَّفٌ إلىٰ أنْ يثمرَ الأُنسَ بالمذكورِ والحبَّ لهُ ، ثمَّ يمتنعُ الصبرُ عنهُ آخراً ، فيصيرُ الموجَبُ موجِباً والثمرةُ مثمراً .

وهـٰذا معنىٰ قولِ بعضِهِمْ : (كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ تنعمتُ بهِ عشرينَ سنةً)[1] ، ولا يصدرُ التنعُّمُ إلا مِنَ الأُنسِ والحبِّ ، ولا يصدرُ الأنسُ إلا مِنَ المداومةِ على المكابدةِ والتكلُّفِ مدَّةً طويلةً ، حتَّىٰ يصيرَ المتكلَّفُ طبعاً .

وكيفَ يُستبعدُ هـٰذا وقدْ يتكلَّفُ الإنسانُ تناولَ طعامٍ يستبشعُهُ أوَّلاً ، ويكابدُ أكلَهُ ، ويواظبُ عليهِ ، فيصيرُ موافقاً لطبعِهِ ، حتَّىٰ لا يصبرُ عنهُ !! فالنفسُ معتادةٌ متحمِّلةٌ لما تتكلَّفُ ، وقدْ قيلَ[2] : [من الطويل]

هـيَ الـنَّـفْـسُ مـا عـوَّدْتَـهـا تَـتَـعَـوَّدُ

أيْ : ما كلفْتَها أوَّلاً يصيرُ لها طبعاً آخراً .

ثمَّ إذا حصلَ الأنسُ بذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . انقطعَ عنْ غيرِ ذكْرِ اللهِ سبحانَهُ ، وما سوى اللهِ سبحانَهُ هوَ الذي يفارقُهُ عندَ الموتِ ، فلا يبقىٰ معَهُ في القبرِ أهلٌ ولا مالٌ ولا ولدٌ ولا ولايةٌ ، ولا يبقىٰ إلا ذكرُ اللهِ سبحانَهُ[3] ، فإنْ كانَ قدْ أنسَ بهِ . . تمتَّعَ بهِ ، وتلذَّذَ بانقطاعِ العوائقِ الصارفةِ عنهُ ؛ إذْ ضروراتُ الحاجاتِ في الحياةِ الدنيا تصدُّ عنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا يبقىٰ بعدَ الموتِ عائقٌ ، فكأنَّهُ خُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ ، فعظمَتْ غبطتُهُ ، وتخلَّصَ مِنَ السجنِ الذي كانَ ممنوعاً فيهِ عمَّا بهِ أنسُهُ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القُدُسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ ما أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ »[4] ، أرادَ بهِ كلَّ ما يتعلَّقُ بالدنيا ، فإنَّ ذٰلكَ يفنىٰ في حقِّهِ بالموتِ ، فكلُّ مَنْ عليها فانٍ ، ويبقىٰ وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرامِ .

وإنَّما تفنى الدنيا بالموتِ في حقِّهِ إلىٰ أنْ تفنىٰ في نفسِهَا عندَ بلوغِ الكتابِ أجلَهُ ، وهـٰذا الأنسُ يتلذَّذُ بهِ العبدُ بعدَ موتِهِ إلىٰ أنْ ينزلَ في جوارِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويترقَّىٰ مِنَ الذكرِ إلى اللقاءِ ، وذٰلكَ بعدَ أنْ يُبعثَرَ ما في القبورِ ، ويحصَّلَ ما في الصدورِ .

ولا ينكرنَّ بقاءَ ذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ معهُ بعدَ الموتِ فيقولَ : إنَّهُ أعدمَ ، فكيفَ يبقىٰ معهُ ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

فإنَّهُ لمْ يُعدمْ عدماً يمنعُ الذكرَ ، بل عدماً مِنَ الدنيا وعالمِ الملكِ والشهادةِ ، لا مِنْ عالمِ الملكوتِ ، وإلىٰ ما ذكرناهُ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القبرُ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النارِ ، أوْ روضةٌ مِنْ رياضِ الجنَّةِ »[5] ، وبقولِهِ صلَّى اللهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٠/٢) ، ولفظه : (الصلاة) بدل (القرآن) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (٥٠/١) .
(٢) أصل هـٰذا الشعر لعلي بن الجهم في « ديوانه » (ص ١٧٢) ، وانظر « الإتحاف » (٢١/٥) .
(٣) أي : يبقىٰ ذكر الله تعالىٰ عملاً للذاكر بعد الموت ولا ينقطع ، لا أن أجره فقط هو الذي يبقىٰ ؛ إذ كل الأعمال الصالحات أجرها باقٍ بعد الموت ، قال الزبيدي في « الإتحاف » (٢٢/٥) : (وما ورد في الخبر : « إذا مات ابن آدم . . انقطع عمله إلا من ثلاث » الحديث . . فإن المراد عمله الدنيوي ، وهو في عالم الملك ، وأما ذكر الله . . فهو في عالم الملكوت ، فهو كالمستثنىٰ في الأعمال) . وسيفصل المصنف ذٰلك .
(٤) رواه الحاكم (٣٢٥/٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) عن سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنهما
(٥) رواه الترمذي (٢٤٦٠) .

عليهِ وسلَّمَ : « أرواحُ الشهداءِ في حواصلِ طيرٍ خضرٍ »[1] ، وبقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لقتلىٰ بدرٍ مِنَ المشركينَ : « يا فلانُ يا فلانُ ـ وقدْ سمَّاهُمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ : هلْ وجدتُمْ ما وعدَكُمْ ربُّكُمْ حقّاً ؟ فإنِّي قدْ وجدتُ ما وعدَني ربِّي حقّاً » ، فسمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ يسمعونَ ، وأنَّىٰ يجيبونَ وقدْ جَيَّفوا ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما أنتمْ بأسمعَ لكلامي منهُمْ ، ولـٰكنَّهُمْ لا يقدرونَ أنْ يجيبوا » ، والحديثُ في « الصحيحِ »[2] ، هـٰذا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في المشركينَ .

وأمَّا المؤمنونَ والشهداءُ . . فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرواحُهُمْ في حواصلِ طيرٍ خُضْرٍ معلَّقةٍ تحتَ العرشِ »[3] ، وهـٰذهِ الحالةُ وما أشيرَ بهـٰذهِ الألفاظِ إليهِ لا ينافي ذكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ ، ولأجلِ شرفِ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ عظمَتْ رتبةُ الشهادةِ ؛ لأنَّ المطلوبَ الخاتمةُ ، ونعني بالخاتمةِ : وداعَ الدنيا والقدومَ على اللهِ عزَّ وجلَّ والقلبُ مستغرقٌ باللهِ تباركَ وتعالىٰ منقطعُ العلائقِ عنْ غيرِهِ ، فإنْ قدرَ عبدٌ علىٰ أنْ يجعلَ همَّهُ مستغرقاً باللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا يقدرُ علىٰ أنْ يموتَ علىٰ تلكَ الحالةِ إلَّا في صفِّ القتالِ ؛ فإنَّهُ قطعَ الطمعَ عنْ مهجتِهِ وأهلِهِ ومالِهِ وولدِهِ ، بلْ مِنَ الدنيا كلِّها ، فإنَّهُ يريدُ ذٰلكَ لحياتِهِ ، وقدْ هوَّنَ علىٰ قلبِهِ حياتَهُ في حبِّ اللهِ عزَّ وجلَّ وطلبِ مرضاتِهِ ، فلا تجرُّدَ للهِ تعالىٰ أعظمُ مِنْ ذٰلكَ ، ولذٰلكَ عظُمَ أمرُ الشهادةِ ، ووردَ فيهِ مِنَ الفضائلِ ما لا يحصىٰ ، فمِنْ ذٰلكَ : أنَّهُ لمَّا استشهدَ عبدُ اللهِ بن عمرٍو الأنصاريُّ يومَ أحدٍ . . قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لجابرٍ ابنِهِ : « ألا أبشِّرُكَ يا جابرُ ؟ » قالَ : بلىٰ بشَّرَكَ اللهُ بالخيرِ ، قالَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أحيا أباكَ ، فأقعدَهُ بينَ يديهِ وليسَ بينَهُ وبينَهُ سترٌ ، فقالَ تعالىٰ : تمنَّ عليَّ يا عبدي ما شئتَ أعطيكَهُ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أن تردَّني إلى الدنيا حتَّىٰ أقتلَ فيكَ وفي نبيِّكَ مرَّةً أخرىٰ ، فقالَ تعالىٰ : سبقَ القضاءُ منِّي بأنَّهُمْ إليها لا يرجعونَ »[4]

ثمَّ القتلُ سببُ الخاتمةِ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ ، فإنَّهُ لوْ لمْ يقتلْ وبقيَ مدَّةً . . ربما عادَتْ شهواتُ الدنيا وغلبَتْ ما استولىٰ علىٰ قلبِهِ مِنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ولهـٰذا عظُمَ خوفُ أهلِ المعرفةِ مِنَ الخاتمةِ ، فإنَّ القلْبَ وإنْ ألزمَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ متقلِّبٌ ، لا يخلو عنِ الالتفاتِ إلىٰ شهواتِ الدنيا ، ولا ينفكُّ عنْ فترةٍ تعتريهِ ، فإذا تمثَّلَ في آخرِ الحالِ في قلبِهِ أمرٌ مِنَ الدنيا واستولىٰ عليهِ وارتحلَ عنِ الدنيا والحالةُ هـٰذهِ . . فيوشكُ أنْ يبقى استيلاؤُهُ عليهِ ، فيحيا بعدَ الموتِ علىٰ ذٰلكَ ، ويتمنَّى الرجوعَ إلى الدنيا ، وذٰلكَ لقلَّةِ حظِّهِ في الآخرةِ ؛ إذْ يموتُ المرءُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ويحشرُ علىٰ ما ماتَ عليهِ .

وأسلمُ الأحوالِ عنْ هـٰذا الخطرِ خاتمةُ الشهادةِ إذا لمْ يكنْ قصدُ الشهيدِ نيلَ مالٍ ، أوْ أنْ يقالَ : شجاعٌ ، أوْ غيرَ ذٰلكَ ؛ كما وردَ بهِ الخبرُ[5] ، بلْ حبَّ اللهِ عزَّ وجلَّ وإعلاءَ كلمتِهِ ، فهـٰذهِ الحالةُ هيَ التي عبَّرَ عنها بأنَّ اللهَ اشترىٰ مِنَ المؤمنينَ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهُمُ الجنَّةَ ، ومثلُ هـٰذا الشخصِ هوَ البائعُ للدنيا بالآخرةِ .

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٧) ، وعند أبي داوود (٢٥٢٠) بنحوه مصرحاً برفعه في شهداء أحد ، وابن ماجه (١٤٤٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أي : في « صحيح مسلم » (٢٨٧٥) ، وجَيَّفوا : أنتنوا .

(٣) رواه ابن ماجه (١٤٤٩) في أرواح المؤمنين خاصة ، والذي سبق في أرواح الشهداء .

(٤) رواه الترمذي (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) ، وقوله : « وفي نبيك » عند ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٣) .

(٥) ففي « البخاري » (٢٨١٠) ، و« مسلم » (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجلُ

وحالةُ الشهيدِ توافقُ معنىٰ قولِكَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ؛ فإنَّهُ لا مقصودَ لهُ سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ولا معبودَ لهُ سواهُ ، وكلُّ مقصودٍ معبودٌ ، وكلُّ معبودٍ إلـٰهٌ ، فهـٰذا الشهيدُ قائلٌ بلسانِ حالِهِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ؛ إذْ لا مقصودَ لهُ سواه ، ومَنْ يقولُ ذٰلكَ بلسانِهِ ولـمْ يساعدْهُ حالُهُ . . فأمرُهُ في مشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا يُؤْمَنُ في حقِّهِ الخطرُ .

ولذٰلكَ فضَّلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) علىٰ سائرِ الأذكارِ[١] ، وذكرَ ذٰلكَ مطلقاً في مواضعِ الترغيبِ ، ثـمَّ ذكرَ في بعضِ المواضعِ الصدقَ والإخلاصَ ، فقالَ مرَّةً : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ مخلصاً »[٢] ومعنى الإخلاصِ : مساعدةُ الحالِ للمقالِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا في الخاتمةِ مِنْ أهلِ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) حالاً ومقالاً ، وظاهراً وباطناً ، حتَّىٰ نودِّعَ الدنيا غيرَ ملتفتينَ إليها ، بلْ متبرِّمينَ بها ، ومحبِّينَ للقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ تعالىٰ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، ومَنْ كرهَ لقاءَ اللهِ . . كرهَ اللهُ لقاءَهُ[٣]

فهـٰذهِ مرامزُ إلىٰ معاني الذكرِ ، لا يمكنُ الزيادةُ عليها في علْمِ المعاملةِ .

* * *

يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرىٰ مكانُهُ ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في سبيل الله » . وفي « مسلم » (١٩٠٥) : « إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتي به ، فعرَّفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولـٰكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار » الحديث .

(١) كما روىٰ ذٰلك الترمذي (٣٣٨٣) ، وابن ماجه (٣٨٠٠) .

(٢) فقيَّدها ها هنا بالإخلاص ، وهو مروي عند الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبي نعيم في « الحلية » (٩/٢٥٤) .

(٣) كما روىٰ ذٰلك البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) ، وسيأتي للمصنف في آخر الكتاب .

الباب الثاني

في آداب الدعاء وفضله، وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفضيلة الاستغفار

فضيلة الدعاء

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وروى النعمانُ بنُ بشيرٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ الدعاءَ هوَ العبادةُ ، ثمَّ قرأ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدعاءُ مخُّ العبادةِ »[2] .

وروىٰ أبو هريرةَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ليسَ شيءٌ أكرمَ على اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الدعاءِ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ لا يخطئُهُ مِنَ الدعاءِ إحدىٰ ثلاثٍ : إمَّا ذنبٌ يُغفرُ لهُ ، وإمَّا خيرٌ يُعجَّلُ لهُ ، وإمَّا خيرٌ يُدَّخرُ لهُ »[4]

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (يكفي مِنَ الدعاءِ معَ البرِّ ما يكفي معَ الطعامِ مِنَ الملحِ)[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سلوا اللهَ تعالىٰ مِنْ فضلِهِ ، فإنَّهُ تعالىٰ يُحِبُّ أنْ يسألَ ، وأفضلُ العبادةِ انتظارُ الفرجِ »[6]

* * *

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٧٩) ، والترمذي (٢٩٦٩) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٤٠٠) ، وابن ماجه (٣٨٢٨) .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧١) ، وإنما كان مخاً لها لأن الداعي إنما يدعو الله عند انقطاع أمله مما سواه ، وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص ، ولا عبادة فوقهما ، أو لما فيه من إظهار الافتقار والتبري من الحول والقوة ، وهو سمة العبودية واستشعار ذلة البشرية . « إتحاف » (٢٩/٥) .

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٠) ، وابن ماجه (٣٨٢٩)

(٤) هو بلفظ المصنف عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٤٩) ، وبنحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (٣٢٤/٢) ، وهو عند أحمد في « المسند » (١٨/٣) بلفظ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم . . إلا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاثٍ : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » ، قالوا : إذاً نكثر ، قال : « الله أكثر » .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦٤/١) .

(٦) رواه الترمذي (٣٥٧١) .

آداب الدعاء وهي عشرة

الأَوَّلُ : أنْ يترصَّدَ لدعائِهِ الأوقاتَ الشريفةَ :

كيومِ عرفةَ مِنَ السنةِ ، ورمضانَ مِنَ الشهورِ ، ويومِ الجمعةِ مِنَ الأسبوعِ ، ووقتِ السحرِ مِنْ ساعاتِ الليلِ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينزلُ اللهُ عزَّ وجلَّ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سماءِ الدنيا حينَ يبقىٰ ثلثُ الليلِ الأخيرُ ، فيقولُ عزَّ وجلَّ : مَنْ يدعوني فأستجيبَ لهُ ؟ مَنْ يسألني فأعطيَهُ ؟ مَنْ يستغفرُني فأغفرَ لهُ ؟ »[1]

وقيلَ : إنَّ يعقوبَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ السلامُ إنَّما قالَ لبنيهِ : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ ليدعوَ في وقتِ السحرِ ، فقيلَ : إنَّهُ قامَ وقتَ السحرِ يدعو وأولادُهُ يؤمِّنونَ خلفَهُ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : أنِّي قدْ غفرتُ لهُمْ وجعلتُهُمْ أنبياءَ[2]

❁ ❁ ❁

الثاني : أنْ يغتنمَ الأحوالَ الشريفةَ :

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ أبوابَ السماءِ تُفتَّحُ عندَ زحْفِ الصفوفِ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، وعندَ نزولِ الغيثِ ، وعندَ إقامةِ الصلواتِ المكتوبةِ ؛ فاغتنموا الدعاءَ فيها)[3]

وقالَ مجاهدٌ : (إنَّ الصلاةَ جُعلَتْ في خيرِ الساعاتِ ، فعليكُمْ بالدعاءِ خلفَ الصلواتِ)[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدعاءُ بينَ الأذانِ والإقامةِ لا يردُّ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « الصائمُ لا تردُّ دعوتُهُ »[6]

وبالحقيقةِ : يرجعُ شرفُ الأوقاتِ إلىٰ شرفِ الحالاتِ أيضاً ؛ إذْ وقتُ السحرِ وقتُ صفاءِ القلبِ وإخلاصِهِ ، وفراغِهِ مِنَ المشوشاتِ ، ويومُ عرفةَ ويومُ الجمعةِ وقتُ اجتماعِ الهمَمِ وتعاونِ القلوبِ على استدرارِ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فهٰذا أحدُ أسبابِ شرفِ الأوقاتِ سوىٰ ما فيها مِنْ أسرارٍ لا يطلعُ البشرُ عليها .

وحالةُ السجودِ أيضاً جديرةٌ بالإجابةِ ، قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقربُ

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

(٢) تأخيره الدعاء عليه السلام إلىٰ وقت السحر عند الطبري في « تفسيره » (٨٣/١٣/٨) ، وتأخيره الدعاء إلىٰ ليلة الجمعة جاء في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٣٥٧٠) ، وانظر « الدر المنثور » (٥٨٥/٤) .

(٣) بنحوه عند الطبراني في « الكبير » (١٧١/٨) مرفوعاً من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٣٢٠/٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) روى النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٨١٧) عن أنس رضي الله عنه : (إذا أقيمت الصلاة .. فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء) .

(٥) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٨١٢) .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (٤٧٧/٢) .

ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وهوَ ساجدٌ ، فأكثروا مِنَ الدعاءِ »[1]

وروى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنِّي نهيتُ أنْ أقرأَ القرآنَ راكعاً أوْ ساجداً ، فأمَّا الركوعُ . . فعظِّموا فيهِ الربَّ تباركَ وتعالىٰ ، وأمَّا السجودُ . . فاجتهدُوا فيهِ بالدعاءِ ؛ فإنَّهُ قمنٌ أنْ يستجابَ لكُمْ »[2]

❋ ❋ ❋

الثالثُ : أنْ يدعوَ مستقبلَ القبلةِ ، ويرفعَ يديهِ بحيثُ يُرىٰ بياضُ إبْطيهِ :

روىٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أتى الموقفَ بعرفةَ واستقبلَ القبلةَ ، ولمْ يزلْ يدعو حتَّىٰ غربتِ الشمسُ)[3]

وقالَ سلمانُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ ربَّكُمْ حييٌّ كريمٌ يستحيي مِنْ عبدِهِ إذا رفعَ يديهِ إليهِ أنْ يردَّهُما صفراً »[4]

وروىٰ أنسٌ : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يرفعُ يديهِ حتَّىٰ يُرىٰ بياضُ إبْطيهِ في الدعاءِ ، ولا يشيرُ بإصبعيهِ)[5]

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ علىٰ إنسانٍ يدعو ويشير بإصبعيه السبابتينِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَحِّدْ أَحِّدْ »[6] ؛ أيِ : اقتصرْ على الواحدةِ .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ارفعوا هٰذهِ الأيديَ قبلَ أنْ تُغلَّ بالأغلالِ)[7]

ثمَّ ينبغي أنْ يمسحَ بهما وجهَهُ في آخرِ الدعاءِ ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا مدَّ يديهِ في الدعاءِ . . لمْ يردُّهُما حتَّىٰ يمسحَ بهما وجهَهُ)[8]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا دعا . . ضمَّ كفيهِ وجعلَ بطونَهُما ممَّا يلي وجهَهُ)[9]

فهٰذهِ هيئاتُ اليدِ .

---

(1) رواه مسلم (٤٨٢)

(2) رواه مسلم (٤٧٩) .

(3) قطعة من حديث طويل رواه مسلم (١٢١٨) ، وفيه : (فلم يزل واقفاً حتىٰ غربت الشمس) ، وعند النسائي من حديث أسامة رضي الله عنه (٢٥٤/٥) : (فرفع يديه يدعو)

(4) رواه أبو داوود (١٤٨٨) ، والترمذي (٣٥٥٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٥) .

(5) رواه البخاري (١٠٣١) في الاستسقاء ، ومسلم (٨٩٥) عامّاً .

(6) رواه الترمذي (٣٥٥٧) ، والنسائي (٣٨/٣) .

(7) رواه الفريابي في « الذكر » . « إتحاف » (٣٤/٥) .

(8) رواه الترمذي (٣٣٨٦) .

(9) بنحوه عند الحاكم في « المستدرك » (٥٣٦/١) عن ابن عباس مرفوعاً : « إذا سألتم الله . فاسألوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهورهما ، وامسحوا بها وجوهكم » ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢١٣/٨) من حديث أنس قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو رافعاً يديه باطنهما مما يلي وجهه) .

ولا يرفعُ بصرَهُ إلى السماءِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لينتهيَنَّ أقوامٌ عنْ رفعِ أبصارِهِمْ إلى السماءِ عندَ الدعاءِ أَوْ لتخطفَنَّ أبصارُهُمْ »(١)

❁ ❁ ❁

الرابعُ : خفضُ الصوتِ بينَ المخافتةِ والجهرِ :

لما رُوِيَ أنَّ أبا موسى الأشعريَّ قالَ : قدمْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا دنونا مِنَ المدينةِ . . كبَّرَ وكبَّرَ الناسُ ورفعوا أصواتَهُمْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أيُّها الناسُ ؛ إنَّ الذي تدعونَ ليسَ بأصمَّ ولا غائبٍ ، إنَّ الذي تدعونَ بينَكُمْ وبينَ أعناقِ ركابِكُمْ »(٢)

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ ؛ أيْ : بدعائِكَ(٣)

وقدْ أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ نبيِّهِ زكريا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : ألَّا يتكلَّفَ السجعَ في الدعاءِ :

فإنَّ حالَ الداعي ينبغي أنْ يكونَ حالَ متضرعٍ ، والتكلُّفُ لا يناسبُهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ قومٌ يعتدونَ في الدعاءِ »(٤)

وقدْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ قيلَ : معناهُ : التكلُّفُ للأسجاعِ(٥) ، والأَولىٰ : ألَّا يجاوزَ الدعواتِ المأثورةَ ؛ فإنَّهُ إذا جاوزَها . . ربما اعتدىٰ في دعائِهِ ، فيسألُ ما لا تقتضيهِ مصلحتُهُ ، فما كلُّ أحدٍ يحسنُ الدعاءَ ؛ ولذٰلكَ وردَ في الخبرِ والأثرِ : أنَّ العلماءَ يُحتاجُ إليهِمْ في الجنَّةِ ؛ إذ يقالُ لأهلِ الجنَّةِ : تمنَّوْا ، فلا يدرونَ كيفَ يتمنَّونَ حتَّىٰ يتعلَّموا مِنَ العلماءِ(٦)

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والسجعَ في الدعاءِ ، بحسْبِ أحدِكُمْ أنْ يقولَ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ ، وأعوذُ بكَ مِنَ النارِ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ »(٧)

وفي الخبرِ : « سيأتي قومٌ يعتدونَ في الدعاءِ والطهورِ »(٨)

---

(١) رواه مسلم (٤٢٩) وقال : « عند الدعاء في الصلاة » . انظر « الإتحاف » (٣٤/٥) .

(٢) رواه أبو داوود (١٥٢٦) ، والترمذي (٣٣٧٤) ، وأصله في « الصحيحين » .

(٣) رواه البخاري (٦٣٢٧) ، ومسلم (٤٤٧) .

(٤) رواه أبو داوود (١٤٨٠) .

(٥) السَّجع : ائتلاف أواخر الكلم علىٰ نسق كائتلاف القوافي ، والجمع : أسجاع ، وتقدم الحديث الذي رواه البخاري (٦٣٣٧) عن ابن عباس حيث قال : (فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ؛ فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلا ذٰلك) يعني : إلا ذٰلك الاجتناب .

(٦) كذا رُوي مرفوعاً من حديث جابر رضي الله عنه ، رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/٥١) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٨٨٠) ، وانظر « الإتحاف » (٣٧/٥) .

(٧) كذا أورده صاحب « القوت » (١٦٥/١) ، وتقدم بمعناه تعليقاً ؛ أعني حديث ابن عباس السالف الذكر ، وقد روىٰ بشأن الدعاء المذكور أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (ص ٢١٩) ، وابن ماجه (٣٨٤٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٢١/١) واللفظ له مرفوعاً .

(٨) رواه أبو داوود (٩٦) .

ومرَّ بعضُ السلفِ بقاصٍّ يدعو بسجعٍ ، فقالَ لهُ : أعلى اللهِ تبالغُ ؟! أشهدُ لقدْ رأيتُ حبيباً العجميَّ يدعو وما يزيدُ علىٰ قوله : اللهمَّ ؛ اجعلنا جيّدينَ ، اللهمَّ ؛ لا تفضحْنا يومَ القيامةِ ، اللهمَّ ؛ وفقنا للخيرِ ، والناسُ يدعون مِنْ كلِّ ناحيةٍ وراءَهُ ، وكانَ يُتَعرَّفُ بركةُ دعائِهِ [١]

وقالَ بعضُهُمْ : (ادعُ بلسانِ الذلَّةِ والافتقارِ ، لا بلسانِ الفصاحةِ والانطلاقِ) [٢]

ويقالُ : إنَّ العلماءَ والأبدالَ لا يزيدُ أحدُهُمْ في الدعاءِ علىٰ سبعِ كلماتٍ فما دونَها ، ويشهدُ لهُ آخرُ سورةِ (البقرةِ) ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يخبرْ في موضعٍ مِنْ أدعيةِ عبادِهِ أكثرَ مِنْ ذٰلكَ [٣]

واعلمْ : أنَّ المرادَ بالسجعِ هوَ المتكلَّفُ مِنَ الكلامِ ، فإنَّ ذٰلكَ لا يلائمُ الضراعةَ والذلَّةَ ؛ وإلا . . ففي الأدعيةِ المأثورةِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلماتٌ متوازنةٌ ، لٰكنَّها غيرُ متكلَّفةٍ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسألُكَ الأمنَ يومَ الوعيدِ ، والجنَّةَ يومَ الخلودِ ، معَ المقرَّبينَ الشهودِ ، والركَّعِ السجودِ ، المُوفينَ بالعهودِ ، إنَّكَ رحيمٌ ودودٌ ، وأنتَ تفعلُ ما تريدُ » [٤] ، وأمثالِ ذٰلكَ .

فليقتصرْ على المأثورِ مِنَ الدعواتِ ، أوْ ليلتمسْ بلسانِ التضرُّعِ والخشوعِ مِنْ غيرِ سجْعٍ وتكلُّفٍ ، فالتضرُّعُ هوَ المحبوبُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : التضرُّعُ والخشوعُ والرغبةُ والرهبةُ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ حتَّىٰ يسمعَ تضرُّعَهُ » [٥]

❁ ❁ ❁

السابعُ : أنْ يجزمَ الدعاءَ ، ويوقنَ بالإجابةِ ، ويصدقَ رجاؤُهُ فيهِ :

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقلْ أحدُكُمْ إذا دعا : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي إنْ شئتَ ، اللهمَّ ؛ ارحمني إنْ شئتَ ، ليعزمِ المسألةَ ؛ فإنَّهُ لا مُكرهَ لهُ » [٦]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا دعا أحدُكُمْ . . فليعظمِ الرغبةَ ، فإنَّ الله تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ » [٧]

---

(١) قوت القلوب (١٦٥/١) .

(٢) قوت القلوب (١٦٥/١) .

(٣) قوت القلوب (١٦٥/١) ، وهو المستنبط للدليل .

(٤) رواه الترمذي (٣٤١٩) ضمن حديث طويل من دعائه صلى الله عليه وسلم .

(٥) رواه هناد في « الزهد » (٤٠٥) ، والشاشي في « مسنده » (٦١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٣٣١) ، وفي « البخاري » (٥٦٤٥) مرفوعاً : « من يرد الله به خيراً . . يصب منه » .

(٦) رواه البخاري (٦٣٣٩) ، ومسلم (٢٦٧٩) .

(٧) رواه مسلم (٢٦٧٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ادعوا اللهَ وأنتمْ موقنونَ بالإجابةِ ، واعلموا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يستجيبُ دعاءً مِنْ قلبٍ غافلٍ »[1]

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : (لا يمنعنَّ أحدَكُمْ مِنَ الدعاءِ ما يعلمُ مِنْ نفسِهِ ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أجابَ دعاءَ شرِّ الخلقِ إبليسَ إذْ قالَ : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾)[2]

❀ ❀ ❀

الثامنُ : أنْ يلحَّ في الدعاءِ ، ويكرِّرَهُ ثلاثاً :

قالَ ابنُ مسعودٍ : (كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إذا دعا . . دعا ثلاثاً ، وإذا سألَ . . سألَ ثلاثاً)[3]

وينبغي ألَّا يستبطئَ الإجابةَ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يستجابُ لأحدِكُمْ ما لمْ يعجلْ فيقولَ : دعوتُ فلمْ يستجبْ لي »[4]

فإذا دعوتَ . . فاسْألِ اللهَ كثيراً ؛ فإنَّكَ تدعو كريماً .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ منذُ عشرينَ سنةً حاجةً وما أجابني ، وأنا أرجو الإجابةَ ، سألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يوفقَني لتركِ ما لا يعنيني)[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سألَ أحدُكُم ربَّهُ مسألةً ، فتعرَّفَ الإجابةَ . . فليقلْ : الحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحاتُ ، ومَنْ أبطأَ عنهُ مِنْ ذٰلكَ شيءٌ . . فليقلْ : الحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ »[6]

❀ ❀ ❀

التاسعُ : أنْ يفتتحَ الدعاءَ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ :

فلا يبدأُ بالسؤالِ ، قالَ سلمةُ بنُ الأكوعِ : ما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يستفتحُ الدعاءَ إلا استفتحَهُ فقالَ : « سبحانَ ربِّيَ العليِّ الأعلى الوهَّابِ »[7]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ أرادَ أنْ يسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ حاجةً . . فليبدأْ بالصلاةِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ يسألُهُ حاجتَهُ ، ثمَّ يختمُ بالصلاةِ عليهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقبلُ الصلاتينِ ، وهوَ أكرمُ مِنْ أنْ يدعَ ما بينَهما)[8]

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١١٠٧) .

(٣) رواه مسلم (١٧٩٤) .

(٤) رواه البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) .

(٥) هو مؤرق العجلي رحمه الله تعالىٰ ، روىٰ هـٰذا الخبر أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٣٥) .

(٦) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ١٧١) ، وكان هـٰذا حال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ابن ماجه (٣٨٠٣) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأىٰ ما يحبُّ . . قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » ، وإذا رأىٰ ما يكره . . قال : « الحمد لله علىٰ كل حال » .

(٧) رواه أحمد في « مسنده » (٤/٥٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٤٩٨)

(٨) انظر « مطالع المسرات » (ص ٣٦) ، وزاد تمام كلامه حيث قال : (وكل الأعمال فيها المقبول والمردود إلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها مقبولة غير مردودة) .

ورُوي في الخبرِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا سألتمُ اللهَ عزَّ وجلَّ حاجةً . . فابدؤوا بالصلاةِ عليَّ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ أكرمُ مِنْ أنْ يُسألَ حاجتينِ فيقضيَ إحداهُما ويردَّ الأخرىٰ » ، رواهُ أبو طالبٍ المكِّيُّ رحمهُ اللهُ (1)

❁ ❁ ❁

العاشرُ ـ وهوَ الأدبُ الباطنُ ، وهوَ الأصلُ في الإجابةِ ـ : التوبةُ وردُّ المظالمِ والإقبالُ على اللهِ عزَّ وجلَّ بكنهِ الهمَّةِ :

فذٰلكَ هوَ السببُ القريبُ في الإجابةِ ، يروىٰ عنْ كعبِ الأحبارِ رحمهُ اللهُ أنَّهُ قالَ : أصابَ الناسَ قحطٌ شديدٌ علىٰ عهدِ موسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ السلامُ ، فخرجَ موسىٰ ببني إسرائيلَ ليستسقيَ بهِمْ فلمْ يسقوا ، حتَّىٰ خرجَ ثلاثَ مرَّاتٍ ولمْ يسقَوا ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : أنِّي لا أستجيبُ لكَ ولا لمَنْ معكَ وفيكُمْ نمَّام ، فقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ ومَنْ هوَ حتَّىٰ نخرجَهُ مِنْ بينِنا ؟ فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : يا موسىٰ ؛ أنهاكُمْ عنِ النميمةِ وأكونُ نماماً ؟! فقالَ موسىٰ لبني إسرائيلَ : توبوا إلىٰ ربِّكُمْ بأجمعِكُمْ منَ النميمةِ ، فتابوا ، فأرسلَ اللهُ تعالىٰ عليهِمُ الغيثَ .

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : قحطَ الناسُ في زمنِ ملكٍ مِنْ ملوكِ بني إسرائيلَ ، فاستسقَوا ، فقالَ الملكُ لبني إسرائيلَ : ليرسلنَّ اللهُ تعالىٰ علينا السماءَ أوْ لنؤذينَّهُ ، فقيلَ لهُ : وكيفَ تقدرُ أنْ تؤذيَهُ وهوَ في السماءِ ؟ فقالَ : أقتلُ أولياءَهُ وأهلَ طاعتِهِ ، فيكونُ ذٰلكَ أذىً لهُ ، فأرسلَ اللهُ تعالىٰ عليهِمُ السماءَ (2)

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : بلغني أنَّ بني إسرائيلَ قُحطوا سبعَ سنينَ حتَّىٰ أكلوا الميتةَ مِنَ المزابلِ ، وأكلوا الأطفالَ ، وكانوا كذٰلكَ يخرجونَ إلى الجبالِ يبكونَ ويتضرَّعونَ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ أنبيائِهِمْ عليهِمُ السلامُ : لوْ مشيتُمْ إليَّ بأقدامِكُمْ حتَّىٰ تحفىٰ ركبُكُمْ وتبلغَ أيديكُمْ عنانَ السماءِ ، وتكلَّ ألسنتُكُمْ عنِ الدعاءِ . . فإنِّي لا أجيبُ لكمْ داعياً ، ولا أرحمُ منكمْ باكياً ؛ حتَّىٰ تردُّوا المظالمَ إلىٰ أهلِها ، ففعلوا ، فمطروا منْ يومِهِمْ .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : أصابَ الناسَ في بني إسرائيلَ قحطٌ ، فخرجوا مراراً ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ نبيِّهِمْ : أنْ أخبرْهُمْ أنَّكُمْ تخرجونَ إليَّ بأبدانٍ نجسةٍ ، وترفعونَ إليَّ أكفاً قدْ سفكتُمْ بها الدماءَ ، وملأتُمْ بطونَكُمْ مِنَ الحرامِ ، الآنَ قدِ اشتدَّ غضبي عليكُمْ ، ولنْ تزدادوا منِّي إلا بعداً (3)

وقالَ أبو الصدِّيق الناجي : خرجَ سليمانُ عليهِ السلامُ يستسقي ، فمرَّ بنملةٍ ملقاةٍ علىٰ ظهرِها رافعةٍ قوائمَها

---

(1) أورده في « القوت » (٦/١) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما هو موقوف علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه) ، وروىٰ أبو داوود (١٤٨١) ، والترمذي (٣٤٧٧) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه يقول : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو في صلاته ، فلم يصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عَجِلَ هٰذا » ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلىٰ أحدكم . . فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ، ثم ليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ليدع بما شاء » . انظر « الإتحاف » (٤١/٥) . وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٣١١٧) مرفوعاً : « لا تجعلوني كقدح الراكب ، فإن الراكب إذا أراد أن ينطلق . . علق معالقه ، وملأ قدحاً ماءً ، فإن كانت له حاجة في أن يتوضأ . . توضأ ، وأن يشرب . . شرب ، وإلا أهراق ، فاجعلوني في وسط الدعاء ، وفي أوله ، وفي آخره » .

(2) دلَّ ذٰلك علىٰ أن الإقبال على الله بكنه الهمة مما يوجب الإجابة ، فإن هٰؤلاء الخاصة لما سمعوا ذٰلك . . أقبلوا على الله بكليتهم ، فاستجيب لهم ، والخبر رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٢/٤) .

(3) رواه أبو داوود في « الزهد » (١٣) .

إلى السماءِ وهيَ تقولُ : اللهمَّ ؛ إنَّا خلقٌ مِنْ خلقِكَ ، ولا غنىً بنا عنْ رزقِكَ ، فلا تهلكْنا بذنوبِ غيرِنا ، فقالَ سليمانُ عليهِ السلامُ : ارجعوا ، فقدْ سقيتُمْ بدعوةِ غيرِكُمْ[1]

وقالَ الأوزاعيُّ : خرجَ الناسُ يستسقونَ ، فقامَ فيهِمْ بلالُ بنُ سعدٍ ، فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ، ثمَّ قالَ : يا معشرَ مَنْ حضرَ ؛ ألستُمْ مقرِّينَ بالإساءةِ ، فقالوا : اللهمَّ نعمْ ، فقالَ : اللهمَّ ؛ إنَّا قدْ سمعناكَ تقولُ : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ ، وقدْ أقررْنا بالإساءةِ ، فهلْ تكونُ مغفرتُكَ إلا لمثلِنا ، اللهمَّ ؛ فاغفرْ لنا ، وارحمْنا ، واسقِنا ، فرفعَ يديهِ ورفعوا أيديَهُمْ ، فسقوا[2]

وقيلَ لمالكِ بنِ دينارٍ : ادعُ لنا ربَّكَ ، فقالَ : إنَّكُمْ تستبطئُونَ المطرَ وأنا أستبطئُ الحجارةَ[3]

ويُروىٰ أنَّ عيسىٰ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ خرجَ يستسقي ، فلمَّا أصحروا . . قالَ لهُمْ عيسىٰ عليهِ السلامُ : مَنْ أصابَ منكُمْ ذنباً . . فليرجعْ ، فرجعوا كلُّهُمْ ولمْ يبقَ معهُ في المفازةِ إلا رجلٌ واحدٌ ، فقالَ لهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ : أما لكَ مِنْ ذنبٍ ؟ فقالَ : واللهِ ما أعلمُ مِنْ شيءٍ غيرَ أنِّي كنتُ ذاتَ يومٍ أصلِّي ، فمرَّتْ بيَ امرأةٌ ، فنظرتُ إليها بعيني هـٰذهِ ، فلمَّا جاوزتْ . . أدخلتُ إصبعي في عيني فانتزعتُها ، وأتبعتُ المرأةَ بها ، فقالَ لهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ : فادعُ حتَّىٰ أؤمِّنَ علىٰ دعائِكَ ، قالَ : فدعا ، فتجلَّلَتِ السماءُ سحاباً ، ثمَّ صبَّتْ فسُقُوا[4]

وقالَ يحيى الغسَّانيُّ : أصابَ الناسَ قحطٌ علىٰ عهْدِ داوودَ عليهِ السلامُ ، فاختاروا ثلاثةً مِنْ علمائِهِمْ ، فخرجوا يستسقونَ بهِمْ ، فقالَ أحدُهُمْ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ أنزلتَ في توراتِكَ أنْ نعفوَ عمَّنْ ظلمَنا ، اللهمَّ ؛ إنَّا قدْ ظلمْنا أنفسَنا فاعفُ عنَّا ، وقالَ الثاني : اللهمَّ ؛ إنَّكَ أنزلتَ في توراتِكَ أنْ نعتقَ أرقَّاءَنا ، اللهمَّ ؛ إنَّا أرقاؤُكَ فأعتقْنا ، وقالَ الثالثُ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ أنزلتَ في توراتِكَ ألَّا نردَّ المساكينَ إذا وقفوا بأبوابِنا ، اللهمَّ ؛ إنَّا مساكينُكَ وقفْنا ببابِكَ فلا تردَّ دعاءَنا ، فسقوا[5]

وقالَ عطاءٌ السَّليميُّ : مُنعنا الغيثَ ، فخرجْنا نستسقي ، فإذا نحنُ بسَعدونٍ المجنونِ في المقابرِ ، فنظرَ إليَّ وقالَ : يا عطاءُ ؛ أهذا يومُ النشورِ ؟ أوَبعثرَ ما في القبورِ ؟! فقلتَ : لا ، ولـٰكنَّا مُنعْنا الغيثَ ، فخرجْنا نستسقي ، فقالَ : يا عطاءُ ؛ بقلوبٍ أرضيَّةٍ أوْ بقلوبٍ سماويَّةٍ ؟ فقلتُ : بلْ بقلوبٍ سماويَّةٍ ، فقالَ : هيهاتَ يا عطاءُ !! قلْ للمتبهرجينَ : لا تتبهرجوا ؛ فإنَّ الناقدَ بصيرٌ ، ثمَّ رمقَ السماءَ بطرفِهِ وقالَ : إلـٰهي وسيِّدي ومولايَ ؛ لا تهلكْ بلادَكَ بذنوبِ عبادِكَ ، ولـٰكنْ بالسرِّ المكنونِ مِنْ أسمائِكَ وما وارتِ الحجبُ مِنْ آلائِكَ إلا ما سقيتَنا ماءً غدقاً فراتاً تحيي بهِ العبادَ ، وتُرْوي بهِ البلادَ ، يا مَنْ هوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، قالَ عطاءٌ : فما استتمَّ الكلامَ حتَّىٰ أرعدتِ السماءُ وأبرقَتْ ، وجاءَتْ بمطرٍ كأفواهِ القِرَبِ ، فولَّىٰ وهوَ يقولُ[6] : [من الخفيف]

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠١٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠١/٣)

(٢) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٠٧٠١) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٩٨) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٢٥) .

(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤٩١٦) ، والطبراني في « الدعاء » (٩٦٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١١/٤٧) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (ص ١٣٩) عن سعيد بن سنان الحمصي

(٦) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص ١١٤) ، والأبيات عنده :

أيـا مَـنْ كُـلَّـمـا نـودي أجابـا ... ومَـنْ بـجـلالِـهِ يـنـشـي الـسـحـابـا

نَـعِـمَ الـــزَّاهِــدُونَ وَالْـعـابِـدُونـا ... إِذْ لِـمَــوْلاهُـمُ أَجـاعُــوا الْـبُـطُـونـا

أَسْـــهَــرُوا الأَعْــيُــنَ الْـعَـلِـيـلَـةَ حبّاً ... فَـانْـقَـضَـىٰ لَـيْـلُـهُـمْ وَهُــمْ ساهِرُونا

شَـغَـلَـتْـهُـمْ عِــبــادَةُ اللهِ حَـتَّـىٰ ... حسِـبَ الـنَّــاسُ أَنَّ فِـيـهِـمْ جُنُونا

وقالَ ابنُ المباركِ : قدمتُ المدينةَ في عامٍ شديدِ القحْطِ ، فخرجَ الناسُ يستسقونَ وخرجتُ معَهُمْ ، إذْ أقبلَ غلامٌ أسودُ عليهِ قطعتا خَيْشٍ ، قدِ اتزرَ بإحداهُما وألقى الأخرىٰ علىٰ عاتقِهِ ، فجلسَ إلىٰ جنبي ، فسمعتُهُ يقولُ : إلـٰهي ؛ أخلقتِ الوجوهَ عندَكَ كثرةُ الذنوبِ ومساوئُ الأعمالِ ، وقدْ حبستَ عنَّا غيثَ السماءِ لتؤدِّبَ عبادَكَ بذٰلكَ ، فأسألُكَ يا حليماً ذا أناةٍ ، يا مَنْ لا يعرفُ عبادُهُ منهُ إلا الجميلَ ؛ أنْ تسقيَهُمُ الساعةَ الساعةَ ، فلمْ يزلْ يقولُ : الساعةَ الساعةَ حتَّى اكتستِ السماءُ بالغمامِ ، وأقبلَ المطرُ مِنْ كلِّ مكانٍ ، قالَ ابنُ المباركِ : فجئتُ إلى الفضيلِ ، فقالَ : ما لي أراكَ كئيباً !! فقلتُ : سبقنا إليهِ غيرُنا ، فتولاهُ دونَنا ، وقصصتُ عليهِ القصَّةَ ، فصاحَ الفضيلُ وخرَّ مغشيّاً عليهِ[1]

ويُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ استسقىٰ بالعبَّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ عمِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا فرغَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ دعائِهِ . . قالَ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ : اللهمَّ ؛ إنَّهُ لمْ ينزلْ بلاءٌ مِنَ السماءِ إلا بذنبٍ ، ولمْ يكشفْ إلا بتوبةٍ ، وقد توجَّهَ بيَ القومُ إليكَ لمكاني مِنْ نبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهـٰذهِ أيدينا إليكَ بالذنوبِ ونواصينا بالتوبةِ وأنتَ الراعي لا تهملُ الضالَّةَ ، ولا تدعُ الكسيرَ بدارِ مَضِيعَةٍ ، فقدْ ضرعَ الصغيرُ ، ورقَّ الكبيرُ ، وارتفعتِ الأصواتُ بالشكوىٰ ، وأنتَ تعلمُ السرَّ وأخفى ، اللهمَّ ؛ فأغثْهُمْ بغياثِكَ قبلَ أنْ يقنطوا فيهلِكوا ، فإنَّهُ لا ييئسُ مِنْ روحِ اللهِ إلا القومُ الكافرونَ ، قالَ : فما تمَّ كلامُهُ حتىٰ أرختِ السماءُ مثلَ الجبالِ[2] .

* * *

ويـا مَـنْ كـلَّـمَ الـصـديـقَ مـوسىٰ ... كـلامـاً ثـم ألـهـمـهُ جـوابـا

ويـا مَـنْ ردَّ يـوسـفَ بـعـد ضـرٍّ ... علىٰ مَـنْ كـانَ ينتحبُ انتحابا

ويـا مَـنْ خـصَّ أحـمـدَ باصـطـفـاءٍ ... وأعـطـاهُ الـرسـالـةَ والـكـتـابـا

ثم قال : اسقنا . والأبيات أعلاه رواها لواحد من عقلاء مجانينه وهو عليّان (ص ١٧٠) بنحوها أيضاً .

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٩٢) ، وابن الجوزي في « المنتظم » (٢٧٠/٥) ضمن خبر طويل .

(٢) رواه بلفظه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٢٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥٨/٢٦) ، وكان ذلك في عام الرمادة ، وأصل القصة عند البخاري (١٠١٠) عن أنس : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا . . استسقىٰ بالعباس بن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال : فيسقون .

فضيلة الصلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفضله صلّى الله عليه وسلّم

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ .

ورُوِيَ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جاءَ ذاتَ يومٍ والبشرىٰ تُرىٰ في وجهِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّهُ جاءَني جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ : أما ترضىٰ يا محمدُ أَلَّا يصليَ عليكَ أحدٌ مِنْ أمتِكَ صلاةً واحدةً إلا صليتُ عليهِ عشراً ، ولا يسلِّمَ عليكَ أحدٌ مِنْ أمتِكَ إلا سلمتُ عليهِ عشراً »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ . . صلَّتْ عليهِ الملائكةُ ما صلَّىٰ عليَّ ، فليقلَّ عبدٌ مِنْ ذٰلكَ أوْ ليكثرْ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ أولى الناسِ بي أكثرُهُمْ عليَّ صلاةً »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بحسْبِ المؤمنِ مِنَ البخلِ أنْ أُذكرَ عندَهُ فلا يصلِّي عليَّ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنَ الصلاةِ عليَّ يومَ الجمعةِ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ مِنْ أمَّتي . . كُتِبَتْ لهُ عشرُ حسناتٍ ، ومُحيَتْ عنهُ عشرُ سيئاتٍ »[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ حينَ يسمعُ الأذانَ والإقامةَ : اللهمَّ ، ربَّ هٰذهِ الدعوةِ التامَّةِ والصلاةِ القائمةِ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدكَ ورسولِكَ ، وأعطِهِ الوسيلةَ والفضيلةَ والدرجةَ الرفيعةَ والشفاعةَ يومَ القيامةِ . . حلَّتْ لهُ شفاعتي »[7] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ في كتابٍ . . لمْ تزلِ الملائكةُ تستغفرُ لهُ ما دامَ اسمي في ذٰلكَ الكتابِ »[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ في الأرضِ ملائكةً سياحينَ يبلِّغوني عنْ أمَّتي السلامَ »[9]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ أحدٌ يسلِّمُ عليَّ إلا ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتَّىٰ أردَّ عليهِ السلامَ »[10]

وقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ نصلِّي عليكَ ؟ فقالَ : « قولوا : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ وعلىٰ آلِهِ وأزواجِهِ

---

(١) رواه النسائي (٤٤/٣) بنحوه .

(٢) رواه ابن ماجه (٩٠٧) .

(٣) رواه الترمذي (٤٨٤) ، ولفظه : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة » .

(٤) رواه الجهضمي في « فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٣٦) ، وهو عند الترمذي (٣٥٤٦) بلفظ : « البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ » .

(٥) رواه أبو داوود (١٠٤٧) ، والنسائي (٩١/٣) ، وابن ماجه (١٦٣٧) .

(٦) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٨٠٩) وفيه زيادة

(٧) رواه البخاري (٦١٤) دون ذكر الإقامة ، وللطبراني في « الأوسط » (١٩٦) : « من قال حين ينادي المنادي بالصلاة : اللهم رب هٰذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ؛ صلِّ علىٰ محمد وارضَ عني رضاء لا سخط بعده . . استجاب الله عز وجل له » .

(٨) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٨٥٦) ، والخطيب في « شرف أصحاب الحديث » (ص ٣٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٨٠/٦) .

(٩) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٩١٤) ، والنسائي (٤٣/٣) .

(١٠) رواه أبو داوود (٢٠٤١) .

وذريَّتِهِ كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ ، وبارِكْ على محمدٍ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ كما باركتَ على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ »[1]

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ سُمِعَ بعدَ موتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يبكي ويقولُ :

(بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ كانَ جِذْعٌ تخطبُ الناسَ عليهِ ، فلمَّا كثُرَ الناسُ . . اتخذتَ منبراً لتسمعَهُمْ ، فحنَّ الجذعُ لفراقِكَ حتَّى جعلتَ يدكَ عليهِ فسكنَ ، فأمَّتُكَ كانتْ أولى بالحنينِ إليكَ لمَّا فارقتَهُمْ[2]

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِكَ عندَهُ أنْ جعلَ طاعتَكَ طاعتَهُ ، فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِكَ عندَهُ أنْ أخبرَكَ بالعفوِ عنكَ قبلَ أنْ يخبرَكَ بالذنبِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِك عندَهُ أنْ بعثَكَ آخرَ الأنبياءِ وذكرَكَ في أوَّلِهِمْ ، فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ . . . ﴾ الآيةَ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِكَ عندَهُ أنَّ أهلَ النارِ يودُّونَ أنَّهُمْ قدْ أطاعوكَ وهمْ بينَ أطباقِها يعذَّبونَ ، ﴿ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لئنْ كانَ موسى بنُ عمرانَ أعطاهُ اللهُ حجراً تتفجَّرُ منهُ الأنهارُ . . فما ذٰلكَ بأعجبَ مِنْ أصابعِكَ حينَ نبعَ منها الماءُ صلَّى اللهُ عليكَ[3]

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لئنْ كانَ سليمانُ بنُ داوودَ أعطاهُ اللهُ الريحَ غدوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ . . فما ذٰلكَ بأعجبَ مِنَ البراقِ حينَ سريتَ عليهِ إلى السماءِ السابعةِ ، ثمَّ صليتَ الصبحَ مِنْ ليلتِكَ بالأبطحِ صلَّى اللهُ عليكَ[4]

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لئنْ كانَ عيسى ابنُ مريمَ أعطاهُ اللهُ إحياءَ الموتىٰ . . فما ذٰلكَ بأعجبَ مِنَ الشاةِ المسمومةِ حينَ كلَّمَتْكَ وهيَ مشويَّةٌ فقالتْ لكَ الذراعُ : لا تأكلني ؛ فإنِّي مسمومةٌ[5] .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ دعا نوحٌ على قومِهِ فقالَ : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ، ولوْ دعوتَ علينا مثلَها . . لهلكْنا كلُّنا ، فلقدْ وُطِئَ ظهرُكَ وأُدميَ وجهُكَ وكُسرَتْ رَباعيتُكَ[6] ، فأبيتَ أنْ تقولَ إلا خيراً ، فقلتَ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لقومي فإنَّهُمْ لا يعلمونَ »[7]

---

(١) رواه البخاري (٣٣٦٩) ، ومسلم (٤٠٧) ، ولفظه : « اللهمَّ ؛ صل علىٰ محمد وأزواجه وذريته كما صليت علىٰ آل إبراهيم ، وبارك علىٰ محمد وأزواجه وذريته كما باركت علىٰ آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

(٢) حديث حنين الجذع عند البخاري (٩١٨ ، ٣٥٨٣) .

(٣) حديث نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم عند البخاري (١٦٩) ، ومسلم (٢٢٧٩) .

(٤) حديث الإسراء والمعراج عند البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) دون ذكر الصلاة بالأبطح .

(٥) حديث الشاة المسمومة عند البخاري (٢٦١٧) ، ومسلم (٢١٩٠) .

(٦) وكان ذٰلك في غزوة أحد كما في « البخاري » (٢٩٠٣) ، ومسلم (١٧٩٠) .

(٧) كنىٰ عن نفسه صلى الله عليه وسلم بذٰلك كما في « البخاري » (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) .

بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدِ اتبعَكَ في قلَّةِ سنِّكَ وقصرِ عمرِكَ ما لمْ يتبعْ نوحاً في كثرةِ سنِّهِ وطولِ عمرِهِ ، ولقدْ آمنَ بكَ الكثيرُ وما آمنَ معهُ إلا قليلٌ .

بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ اللهِ ؛ لوْ لمْ تجالسْ إلا كفؤاً لكَ . . ما جالستَنا ، ولوْ لمْ تنكحْ إلا كفؤاً لكَ . . ما نكحتَ إلينا ، ولوْ لمْ تؤاكلْ إلا كفؤاً لكَ . . ما واكلتنا ، فلقدْ ـ واللهِ ـ جالستَنا ، ونكحتَ إلينا ، وواكلتنا ، ولبستَ الصوفَ [1] ، وركبتَ الحمارَ ، وأردفتَ خلفَكَ [2] ، ووضعتَ طعامَكَ على الأرضِ [3] ، ولعقتَ أصابعَكَ تواضعاً منكَ [4] ، صلَّى اللهُ عليكَ) [5]

وقالَ بعضُهُمْ : كنتُ أكتبُ الحديثَ وأصلّي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ ولا أسلِّمُ ، فرأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقالَ : أمَا تتمُّ الصلاةَ عليَّ في كتابِكَ ؟ فما كتبتُ بعدَ ذٰلكَ إلا صلَّيتُ وسلَّمْتُ عليهِ [6]

ورُوِيَ عنْ أبي الحسنِ الشافعيِّ قالَ : رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ بمَ جُزِيَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ عنكَ حيثُ يقولُ في كتابِهِ « الرسالةِ » : (وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ كلَّما ذكرَهُ الذاكرونَ وغفلَ عنْ ذكرِهِ الغافلونَ) ؟ [7] فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : جُزِيَ عنّي أنَّهُ لا يوقفُ للحسابِ [8]

* * *

---

(١) لبسه صلى الله عليه وسلم الصوف عند البخاري (٥٧٩٩) ، ومسلم (٢٧٤) ، وروى الترمذي (٢٤٧٩) عن أبي موسى الأشعري قال : (يا بنيّ ؛ لو رأيتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصابتنا السماء . . لحسبت أن ريحنا ريح الضأن) ، قال الترمذي : ومعنىٰ هـٰذا الحديث : أنه كان ثيابهم الصوف ، فإذا أصابهم المطر . . يجيء من ثيابهم ريح الضأن .

(٢) كما في « البخاري » (٢٩٨٧) ، و« مسلم » (١٧٩٨) .

(٣) فقد روى البخاري (٥٣٨٦) أنه صلى الله عليه وسلم ما أكل علىٰ خوان قط .

(٤) كما في « مسلم » (٢٠٣٤) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (هو غريب بطوله من حديث عمر ، وهو معروف من أوجه) ، وحكىٰ تخريج قِطَعِهِ . « إتحاف » (٥٣/٥) .

(٦) رواه الحافظ السلفي في « الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » (٢٨) .

(٧) الرسالة (ص ١٦) .

(٨) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣٦/٥١) .

فضيلة الاستغفار

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾

وقالَ علقمةُ والأسودُ : قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ آيتانِ ما أذنبَ عبدٌ ذنباً فقرأهما ، واستغفرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . إلا غفرَ اللهُ لهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [1]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ أنْ يقولَ : « سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ » [2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أكثرَ الاستغفارَ . . جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ مِنْ كلِّ همٍّ فرجاً ، ومِنْ كلِّ ضيقٍ مخرجاً ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ » [3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأستغفرُ اللهَ سبحانَهُ وأتوبُ إليهِ في اليومِ سبعينَ مرَّةً » [4] ، هـٰذا معَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ [5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليغانُ علىٰ قلبي ، حتَّىٰ إنِّي لأستغفرُ اللهَ تعالىٰ في كلِّ يومٍ مئةَ مرَّةٍ » [6] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ حينَ يأوي إلىٰ فراشِهِ : أستغفرُ اللهَ العظيمَ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيومَ وأتوبُ إليهِ ثلاثَ مرَّاتٍ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنوبَهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ أوْ عددَ رملِ عالجٍ أوْ عددَ ورقِ الشجرِ أوْ عددَ أيامِ الدنيا » [7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ آخرَ : « مَنْ قالَ ذٰلكَ . . غُفرَتْ ذنوبُهُ وإنْ كانَ فارّاً مِنَ الزحفِ » [8]

وقالَ حذيفةُ : كنتُ ذربَ اللسانِ علىٰ أهلي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ خشيتُ أنْ يُدخلَني لساني النارَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فأينَ أنتَ مِنَ الاستغفارِ ، فإنِّي لأستغفرُ اللهَ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ » [9]

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠١٣٧) من طريق علقمة والأسود النخعيين .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤١٠/١) ، وهو في « الصحيحين » في أذكار الركوع والسجود دون قوله : « إنك أنت التواب الرحيم » .

(٣) رواه أبو داوود (١٥١٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٢١٧) ، وابن ماجه (٣٨١٩) .

(٤) رواه البخاري (٦٣٠٧) بزيادة : (أكثر) ، وبلفظ المصنف هو عند الترمذي (٣٢٥٩) ، وابن ماجه (٣٨١٦) .

(٥) فهو من باب الترقي ، أو الاعتراف بما عسىٰ حصل له من التقصير في رؤية الأعمال والالتفات . « إتحاف » (٥٧/٥) .

(٦) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، والغين : التغطية .

(٧) رواه الترمذي (٣٣٩٧) .

(٨) رواه أبو داوود (١٥١٧) ، والترمذي (٣٥٧٧) .

(٩) رواه الحاكم في « المستدرك » (٥١٠/١) .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ . . فاستغفري اللهَ وتوبي إليهِ ؛ فإنَّ التوبةَ مِنَ الذنبِ الندمُ والاستغفارُ »(١)

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في الاستغفارِ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لي خطيئتي وجهْلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي جدِّي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكلُّ ذٰلكَ عندي ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، أنتَ المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ ، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ »(٢)

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : كنتُ رجلاً إذا سمعتُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حديثاً . . نفعَني اللهُ عزَّ وجلَّ بما شاءَ أنْ ينفعَني منهُ ، وإذا حدَّثني أحدٌ مِنْ أصحابِهِ . . استحلفتُهُ ، فإذا حلفَ . . صدقتُهُ ، قالَ : وحدَّثني أبو بكرٍ وصدقَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما مِنْ عبدٍ يذنبُ ذنباً ، فيحسنُ الطهورَ ، ثمَّ يقومُ فيصلِّي ركعتينِ ، ثمَّ يستغفرُ اللهَ عزَّ وجلَّ . . إلا غفرَ اللهُ لهُ » ثمَّ تلا قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ . . . ﴾ الآيةَ(٣)

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ المؤمنَ إذا أذنبَ ذنباً . . كانتْ نكتةٌ سوداءُ في قلبِهِ ، فإنْ تابَ ونزعَ واستغفرَ . . صُقِلَ قلبُهُ منها ، فإنْ زادَ . . زادَتْ حتَّىٰ تعلوَ قلبَهُ ، فذٰلكَ الرانُ الذي ذكرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابِهِ : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ »(٤)

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ اللهَ سبحانَهُ ليرفعُ الدرجةَ للعبدِ في الجنَّةِ ، فيقولُ : يا ربِّ ؛ أنَّىٰ لي هٰذهِ ؟ فيقولُ عزَّ وجلَّ : باستغفارِ ولدِكَ لكَ »(٥)

وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « اللهمَّ ؛ اجعلني مِنَ الذين إذا أحسنوا . . استبشروا ، وإذا أساؤوا . . استغفروا »(٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أذنبَ العبدُ ذنباً فقالَ : اللَّهمَّ ؛ اغفرْ لي . . فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أذنبَ عبدي ذنباً ، فعلمَ أنَّ لهُ ربّاً يأخذُ بالذنبِ ويغفرُ الذنبَ ، عبدي ؛ اعملْ ما شئتَ ، فقدْ غفرتُ لكَ »(٧)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أصرَّ مَنِ استغفرَ وإنْ عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً »(٨)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً لَمْ يعملْ خيراً قطُّ نظرَ إلى السماءِ فقالَ : إنَّ لي ربّاً ، يا ربِّ ؛ اغفرْ لي ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : قدْ غفرتُ لكَ »(٩)

---

(١) هو قطعة من حديث براءتها رضي الله تعالىٰ عنها ، وهو عند البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) ، والحديث بتمامه وبلفظ المصنف رواه أحمد في « المسند » (٢٦٤/٦) .

(٢) رواه البخاري (٦٣٩٨) ، ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له .

(٣) رواه أبو داوود (١٥٢١) ، والترمذي (٤٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠١٧٥) ، وابن ماجه (١٣٩٥) .

(٤) رواه الترمذي (٣٣٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٦٦٠) ، وأحمد في « المسند » (٥٠٩/٢) .

(٦) رواه ابن ماجه (٣٨٢٠) .

(٧) رواه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) ويكون ذٰلك بعد ثلاث مرار .

(٨) رواه أبو داوود (١٥١٤) ، والترمذي (٣٥٥٩) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٠٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أذنبَ ذنباً ، فعلمَ أنَّ اللهَ قدِ اطلعَ عليهِ . . غفرَ لهُ وإنْ لمْ يستغفرْ »[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا عبادي ؛ كلُّكُمْ مذنبٌ إلا مَنْ عافيتُهُ ، فاستغفروني أغفرْ لكمْ ، ومَنْ علمَ أنِّي ذو قدرةٍ على أنْ أغفرَ لهُ . . غفرتُ لهُ ولا أبالي »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : سبحانَكَ ، ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءاً فاغفرْ لي ، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ . . غُفِرَتْ لهُ ذنوبُهُ ولوْ كانتْ كمدبِّ النملِ »[٣]

ويروى أنَّ أفضلَ الاستغفارِ : اللَّهمَّ ؛ أنتَ ربِّي وأنا عبدُكَ خلقتَني ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعتُ ، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ ، وأبوءُ على نفسي بذنبي ، فقدْ ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي ، فاغفرْ لي ذنوبي ما قدَّمتُ منها وما أخَّرْتُ ؛ فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ جميعاً إلا أنتَ[٤]



الآثار :

قالَ خالدُ بنُ معدانَ : (قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّ أحبَّ عبادي إليَّ المتحابُّونَ بحبِّي ، والمتعلقةُ قلوبُهُمْ بالمساجدِ ، والمستغفرونَ بالأسحارِ ، أولئكَ الذين إذا أردتُ أهلَ الأرضِ بعقوبةٍ . . ذكرتُهُمْ ، فتركتُهُمْ وصرفتُ العقوبةَ عنهُمْ)[٥] .

وقالَ قتادةُ رحمهُ اللهُ : (القرآنُ يدلُّكُمْ على دائِكُمْ ودوائِكُمْ ، أمَّا داؤُكُمْ . . فالذنوبُ ، وأمَّا دواؤُكُمْ . . فالاستغفارُ)[٦]

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (العجبُ ممَّنْ يهلِكُ ومعهُ النجاةُ !! قيلَ : وما هيَ ؟ قالَ : الاستغفارُ) .

وكانَ يُقالُ : (ما ألهمَ اللهُ سبحانهُ عبداً الاستغفارَ وهوَ يريدُ أنْ يعذِّبَهُ) .

وقالَ الفضيلُ : (قولُ العبدِ : أستغفرُ اللهَ . . تفسيرُها : أقلني)[٧]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (العبدُ بينَ ذنبٍ ونعمةٍ ، لا يصلحُهُما إلا الحمدُ والاستغفارُ)[٨]

وقالَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ رحمهُ اللهُ : (لا يقولنَّ أحدُكُمْ : أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ ، فيكونَ ذنباً وكذباً إنْ لمْ يفعلْ ، ولكنْ ليقلْ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي وتبْ عليَّ)[٩]

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٤٦٩) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٥) ، وابن ماجه (٤٢٥٧) ، وأصله عند مسلم (٢٥٧٧) .

(٣) رواه البيهقي في « الدعوات الكبير » (١٩٠) ، ولفظه : عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده يوماً فقال : « ألا أعلمك كلمات تقولهن : لو كانت عليك كعدد النمل أو كعدد الذر ذنوباً . . غفرها الله لك على أنه غفور لك ؟ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملت سوءاً وظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

(٤) رواه بنحوه البخاري (٦٣٠٦) وهو حديث سيد الاستغفار .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/٢١٢) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٢٦٨٥) مرفوعاً : « يقول الله عز وجل : إني لأهم بأهل الأرض عذاباً ، فإذا نظرت إلى عمار بيوتي والمتحابين فيَّ ، وإلى المستغفرين بالأسحار . . صرفت عنهم » .

(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٤٥) .

(٧) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٩٩)

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٥٠) .

(٩) أورده الرافعي في « تاريخ قزوين » (١/١٠٠) ، وانظر « الأذكار » (ص ٦٥٠) ، و« الإتحاف » (٥/٦١) .

وقالَ الفضيلُ رحمهُ اللهُ : (الاستغفارُ بلا إقلاعٍ توبةُ الكذابينَ)[1]

وقالتْ رابعةُ العدويَّةُ رحمَها اللهُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ كثيرٍ)[2]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنْ قدَّمَ الاستغفارَ على الندمِ . . كانَ مستهزئاً باللهِ عزَّ وجلَّ وهوَ لا يعلمُ)[3]

وسُمِعَ أعرابيٌّ وهوَ متعلِّقٌ بأستارِ الكعبةِ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنَّ استغفاري معَ إصراري للؤمٌ ، وإنَّ تركيَ استغفارَكَ معَ علمي بسعةِ عفوِكَ لعجْزٌ ، فكمْ تتحبَّبُ إليَّ بالنعمِ معَ غناكَ عنِّي ، وكمْ أتبغَّضُ إليكَ بالمعاصي معَ فقري إليكَ ؟! يا مَنْ إذا وعدَ . . وفىٰ ، وإذا أوعدَ . . عفا ، أدخلْ عظيمَ جُرمي في عظيمِ عفوِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ)[4]

وقالَ أبو عبدِ اللهِ الورَّاقُ : لوْ كانَ عليكَ مثلُ عددِ القطرِ وزبدِ البحرِ ذنوباً . . لمُحيَتْ عنكَ إذا دعوتَ ربَّكَ بهـٰذا الدعاءِ مخلصاً إنْ شاءَ اللهُ العزيزُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أستغفرُكَ مِنْ كلِّ ذنبٍ تبتُ إليكَ منهُ ثمَّ عدتُ فيهِ ، وأستغفرُكَ مِنْ كلِّ ما وعدتُكَ بهِ مِنْ نفسي ثمَّ لمْ أوفِ لكَ بهِ ، وأستغفرُكَ مِنْ كلِّ عملٍ أردتُ بهِ وجهَكَ فخالطَهُ غيرُكَ ، وأستغفرُكَ مِنْ كلِّ نعمةٍ أنعمتَ بها عليَّ فاستعنتُ بها علىٰ معصيتِكَ ، وأستغفرُكَ يا عالمَ الغيبِ والشهادةِ مِنْ كلِّ ذنبٍ أتيتُهُ في ضياءِ النهارِ وسوادِ الليلِ ، في ملأٍ أو خلاءٍ ، وسرٍّ وعلانيةٍ ، يا حليمُ) ويقالُ : إنَّهُ استغفارُ آدمَ عليه الصلاةُ والسلامُ ، وقيل : الخضرِ عليهِ الصلاةُ السلامُ[5]

* * *

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٧٧) عن ذي النون المصري .

(٢) قوت القلوب (١٨٩/١) .

(٣) روى الخبر البيهقي في « الشعب » (٦٧٧٨) .

(٤) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١١٥٢/٣) بنحوه ، ونقل نحوه الجاحظ في « البيان والتبيُّن » (١٧١/٣) عن شيخ من أعراب طيء .

(٥) قوت القلوب (٩/١) بنحوه ، قال الحافظ الزبيدي : (وقد وقع إلينا مسنداً) . « إتحاف » (٦٢/٥) .

البَابُ الثَّالِثُ

في أدعيةٍ مأثورةٍ ومَعزيّةٍ إلى أسبابها وأربابها مما يُستحبّ أن يدعو بها المريد صباحًا ومساءً وبعقب كلّ صلاة

فمنها : دعاءُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ ركعتيِ الفجرِ :

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : بعثني العباسُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأتيتُهُ ممسياً وهوَ في بيتِ خالتي ميمونةَ ، فقامَ يصلِّي مِنَ الليلِ ، فلمَّا صلَّى الركعتينِ قبلَ صلاةِ الفجرِ . . قالَ : « اللَّهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ رحمةً مِنْ عندِكَ تهدي بها قلبي ، وتجمعُ بها شملي ، وتلمُّ بها شَعَثي ، وتردُّ بها أُلفتي ، وتصلحُ بها ديني ، وتحفظُ بها غائبي ، وترفعُ بها شاهدي ، وتزكِّي بها عملي ، وتبيِّضُ بها وجهي ، وتلهمُني بها رشدي ، وتعصمُني بها مِنْ كلِّ سوءٍ .

اللهمَّ ؛ أعطني إيماناً صادقاً ، ويقيناً ليسَ بعدَهُ كفرٌ ، ورحمةً أنالُ بها شرفَ كرامتِكَ في الدنيا والآخرةِ .

اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الفوزَ عندَ القضاءِ ، ومنازلَ الشهداءِ ، وعيشَ السعداءِ ، والنصرَ على الأعداءِ ، ومرافقةَ الأنبياءِ .

اللهمَّ ؛ إنِّي أُنزلُ بكَ حاجتي وإنْ ضَعُفَ رأيي ، وقَصُرَ عملي ، وافتقرتُ إلىٰ رحمتِكَ ، فأسألُكَ يا قاضيَ الأمورِ ، ويا شافيَ الصدورِ ، كما تجيرُ بينَ البحورِ : أنْ تجيرني مِنْ عذابِ السعيرِ ، ومنْ دعوةِ الثبورِ ، ومِنْ فتنةِ القبورِ .

اللهمَّ ؛ ما قَصُرَ عنهُ رأيي ، وضَعُفَ عنهُ عملي ، ولمْ تبلغْهُ نيَّتي وأمنيتي مِنْ خيرٍ وعدْتَهُ أحداً مِنْ عبادِكَ ، أوْ خيرٍ أنتَ معطيهِ أحداً مِنْ خلقِكَ ؛ فإنِّي أرغبُ إليكَ فيهِ ، وأسألُكَهُ يا ربَّ العالمينَ .

اللهمَّ ؛ اجعلْنا هادينَ مهتدينَ ، غيرَ ضالِّينَ ولا مضلِّينَ ، حرباً لأعدائِكَ وسلْماً لأوليائِكَ ، نحبُّ بحبِّكَ مَنْ أطاعَكَ مِنْ خلقِكَ ، ونعادي بعداوتِكَ مَنْ خالفَكَ مِنْ خلقِكَ .

اللهمَّ ؛ هٰذا الدعاءُ وعليكَ الإجابةُ ، وهٰذا الجُهْدُ وعليكَ التكلانُ ، وإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ .

ذا الحبلِ الشديدِ والأمرِ الرشيدِ ؛ أسألُكَ الأمنَ يومَ الوعيدِ ، والجنَّةَ يومَ الخلودِ ، معَ المقرَّبينَ الشهودِ ، والركَّعِ السجودِ ، المُوفينَ بالعهودِ ، إنَّكَ رحيمٌ ودودٌ ، وأنتَ تفعلُ ما تريدُ .

سبحانَ الذي تعطَّفَ بالعزِّ وقالَ بهِ ، سبحانَ الذي لبسَ المجدَ وتكرَّمَ بهِ ، سبحانَ الذي لا ينبغي التسبيحُ إلا لهُ ، سبحانَ ذي الفضلِ والنعمِ ، سبحانَ ذي القدرةِ والكرمِ ، سبحانَ الذي أحصىٰ كلَّ شيءٍ بعلمِهِ .

اللَّهمَّ ؛ اجعلْ لي نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شَعَري ، ونوراً في بشري ، ونوراً في لحمي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في عظامي ، ونوراً مِنْ بينِ يديَّ ، ونوراً مِنْ خلفي ، ونوراً عَنْ يميني ، ونوراً عَنْ شمالي ، ونوراً مِنْ فوقي ، ونوراً مِنْ تحتي .

اللَّهمَّ ؛ زدني نوراً ، وأعطني نوراً ، واجعلْ لي نوراً »(١)

❁ ❁ ❁

(١) الحديث بلفظ المصنف عند صاحب « القوت » (٥/١) ، ورواه كذلك الطبراني في « الكبير » (٢٨٣/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٩/٣) ، وهو عند الترمذي (٣٤١٩) من غير ذكر بعث ابن عباس إلىٰ بيت خالته ميمونة رضي الله عنهم .

دعاءُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا[1] :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « عليكِ بالجوامعِ الكواملِ ؛ قُولي : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ مِنَ الخيرِ كلِّهِ ، عاجلِهِ وآجلِهِ ، ما علمتُ منهُ وما لمْ أعلمْ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الشرِّ كلِّهِ ، عاجلِهِ وآجلِهِ ، ما علمتُ منهُ وما لمْ أعلمْ ، وأسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ ، وأعوذُ بكَ مِنَ النارِ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ ، وأسألُكَ مِنَ الخيرِ ما سألَكَ عبدُكَ ورسولُكَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأستعيذُكَ ممَّا استعاذَكَ منهُ عبدُكَ ورسولُكَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأسألُكَ ما قضيتَ لي مِنْ أمرٍ أنْ تجعلَ عاقبتَهُ رشداً ، برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ »[2]

❀ ❀ ❀

دعاءُ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا فاطمةُ ؛ ما يمنعُكِ أنْ تسمعي ما أوصيكِ بهِ ؟ أنْ تقولي : يا حيُّ ، يا قيُّومُ ؛ برحمتِكَ أستغيثُ ، لا تكلني إلىٰ نفسي طرفةَ عينٍ ، وأصلحْ لي شأني كلَّهُ »[3]

❀ ❀ ❀

دعاءُ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ :

علَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبا بكرٍ الصديقَ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يقولَ : « اللَّهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ بمحمَّدٍ نبيِّكَ ، وإبراهيمَ خليلِكَ ، وموسىٰ نجيِّكَ ، وعيسىٰ كلمتِكَ وروحِكَ ، وبتوراةِ موسىٰ ، وإنجيلِ عيسىٰ ، وزبورِ داوودَ ، وفرقانِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعليهِمْ أجمعينَ ، وبكلِّ وحيٍ أوحيتَهُ ، أوْ قضاءٍ قضيتَهُ ، أوْ سائلٍ أعطيتَهُ ، أوْ غنيٍّ أفقرتَهُ ، أوْ فقيرٍ أغنيتَهُ ، أوْ ضالٍّ هديتَهُ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي أنزلتَهُ علىٰ موسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي بثثتَ بهِ أرزاقَ العبادِ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على الأرضِ فاستقرَّتْ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على السماواتِ فاستقلَّتْ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على الجبالِ فرسَتْ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي استقلَّ بهِ عرشُكَ ، وأسألُكَ باسمكَ الطهرِ الطاهرِ الأحدِ الصمدِ الوترِ المنزَّلِ في كتابِكَ مِنْ لدنْكَ مِنَ النورِ المبينِ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على النهارِ فاستنارَ ، وعلى الليْلِ فأظلمَ ، وبعظمتِكَ وكبريائِكَ ، وبنورِ وجهِكَ الكريمِ : أنْ ترزقني القرآنَ والعلمَ بهِ وتخلطَهُ بلحمي ودمي ، وسمعي وبصري ، وتستعملَ بهِ جسدي بحولِكَ وقوَّتِكَ ، فإنَّهُ لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ »[4]

❀ ❀ ❀

دعاءُ بريدةَ الأسلميِّ رضيَ اللهُ عنهُ :

رُوِيَ أنَّهُ قالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا بريدةُ ؛ ألا أعلِّمُكَ كلماتٍ مَنْ أرادَ اللهُ بهِ خيراً علَّمَهُنَّ إيَّاهُ ثمَّ

---

(١) وإنما نسب إليها لكون النبي صلى الله عليه وسلم علَّمها إياه . « إتحاف » (٥/٦٦) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٤٦) ، وهو في « القوت » (١/٨) .

(٣) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٣٣٠) ، وهو في « القوت » (١/٨) .

(٤) كذا في « القوت » (١/٨) ، والحديث بهٰذه القصة عزاه الحافظ العراقي لأبي الشيخ في « الثواب » ، ومن رواية ابن عباس رواه الطبراني في « الدعاء » (١٣٣٤) ، ومن رواية ابن مسعود رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢/٣٩٢) . وروىٰ أبو داوود (٥٠٦٧) ، والترمذي (٣٣٩٢) من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر دعاء ، قال : « قل : اللهم ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إلـٰه إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه » .

لمْ يُنسِهنَّ إياهُ أبداً ؟ » قالَ : قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليكَ ؛ قالَ : « قلْ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي ضعيفٌ فقوِّ في رضاكَ ضعفي ، وخذْ إلى الخيرِ بناصيتي ، واجعلِ الإسلامَ منتهىٰ رضايَ ، اللَّهمَّ ، إنِّي ضعيفٌ فقوِّني ، وإنِّي ذليلٌ فأعزَّني ، وإنِّي فقيرٌ فأغنني ، يا أرحمَ الراحمينَ »(١)

❁ ❁ ❁

دعاءُ قبيصةَ بنِ المخارقِ :

إذْ قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : علِّمني كلماتٍ ينفعُني اللهُ عزَّ وجلَّ بها ؛ فقدْ كبرَ سنِّي ، وعجَزتُ عنْ أشياءَ كثيرةٍ كنتُ أعملُها ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمَّا لدنياكَ : فإذا صلَّيتَ الغداةَ . . فقلْ ثلاثَ مرَّاتٍ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، فإنَّكَ إذا قلتَهُنَّ . . أمنتَ مِنَ عمىً وجذامٍ وبرصٍ وفالجٍ ، وأمَّا لآخرتِكَ : فقلْ : اللهمَّ ؛ اهدني مِنْ عندِكَ ، وأفضْ عليَّ مِنْ فضلِكَ ، وانشرْ عليَّ مِنْ رحمتِكَ ، وأنزلْ عليَّ مِنْ بركاتِكَ » ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنَّهُ إذا وافىٰ بهنَّ عبدٌ يومَ القيامةِ لمْ يدعْهُنَّ . . فُتِحَ لهُ أربعةُ أبوابٍ مِنَ الجنَّةِ ، يدخلُ مِنْ أيِّها شاءَ »(٢) .

❁ ❁ ❁

دعاءُ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ :

قيلَ لأبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ ذاتَ يومٍ : قدِ احترقَتْ دارُكَ ، وكانتِ النارُ قدْ وقعَتْ في محلَّتِهِ ، فقالَ : ما كانَ اللهُ ليفعلَ ذٰلكَ ، فقيلَ لهُ ذٰلكَ ثلاثاً وهوَ يقولُ : ما كانَ اللهُ ليفعلَ ذٰلكَ ، ثمَّ أتاهُ آتٍ فقالَ : يا أبا الدرداءِ ؛ إنَّ النارَ حيثُ دنَتْ مِنْ دارِكَ . . طفئَتْ ، قالَ : قدْ علمتُ ذٰلكَ ، فقيلَ لهُ : ما ندري أيُّ قوليكَ أعجبُ ، قالَ : إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَن قالَ هٰؤلاءِ الكلماتِ في ليلٍ أوْ نهارٍ . . لمْ يضرُّهُ شيءٌ » وقدْ قلتُهُنَّ ، وهيَ : « اللهمَّ ؛ أنتَ ربِّي لا إلٰهَ إلَّا أنتَ ، عليكَ توكَّلْتُ وأنتَ ربُّ العرشِ العظيمِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لمْ يشأْ لمْ يكنْ ، أعلمُ أنَّ اللهَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وأنَّ اللهَ قدْ أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً وأحصىٰ كلَّ شيءٍ عدداً ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ نفسي ، ومِنْ شرِّ كلِّ دابَّةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِها ، إنَّ ربِّي علىٰ صراطٍ مستقيمٍ »(٣)

❁ ❁ ❁

دعاءُ الخليلِ إبراهيمَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ :

كانَ يقولُ إذا أصبحَ : (اللهمَّ ؛ إنَّ هٰذا خلقٌ جديدٌ ، فافتحْهُ عليَّ بطاعتِكَ ، واختمْهُ لي بمغفرتِكَ ورضوانِكَ ، وارزقني فيهِ حسنةً تقبلُها منِّي ، وزكِّها وضعِّفْها لي ، وما عملتُ فيهِ مِنْ سيئةٍ فاغفرْها لي ، إنَّكَ غفورٌ رحيمٌ ، ودودٌ كريمٌ) ، قالَ : ومَنْ دعا بهٰذا الدعاءِ إذا أصبحَ . . فقدْ أدَّىٰ شكرَ يومِهِ(٤)

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن أبي شيبة (٢٩٩٦٥) ، والرامهرمزي (ص ٣٤٣) ، والحاكم (١/٥٢٧) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨/٣٦٨) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٣٣ ، ١٣٤) بنحوه ، ولفظه عند صاحب « القوت » (١/٦) .

(٣) كذا في « القوت » (١/٩) ، ورواه الطبراني في « الدعاء » (٣٤٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٨) .

(٤) قوت القلوب (١/٩) .

دعاءُ عيسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ :

كانَ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أصبحتُ لا أستطيعُ دفعَ ما أكرهُ ، ولا أملكُ نفعَ ما أرجو ، وأصبحَ الأمرُ بيدِ غيري ، وأصبحتُ مرتهناً بعملي ، فلا فقيرَ أفقرُ منِّي ، اللهمَّ ؛ لا تُشْمِتْ بي عدُوِّي ، ولا تَسُؤْ بي صديقي ، ولا تجعلْ مصيبتي في ديني ، ولا تجعلِ الدنيا أكبرَ همِّي ، ولا تسلِّطْ عليَّ مَنْ لا يرحمني يا حيُّ يا قيومُ)(١)

❀ ❀ ❀

دعاءُ الخضرِ عليهِ السلامُ :

يقالُ : إنَّ الخضرَ وإلياسَ عليهما السلامُ إذا التقيا في كلِّ موسمٍ . . لمْ يفترقا إلا عنْ هـٰذهِ الكلماتِ : (باسمِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا قوَّةَ إلا باللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، كلُّ نعمةٍ مِنَ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، الخيرُ كلُّهُ بيدِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ) ، فمَنْ قالَها ثلاثَ مراتٍ إذا أصبحَ . . أمنَ مِنَ الحرَقِ والغرَقِ والسرَقِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ(٢)

❀ ❀ ❀

دعاءُ معروفٍ الكرخيِّ رحمهُ اللهُ :

قالَ محمدُ بنُ حسانَ : قالَ لي معروفٌ الكرخيُّ رحمهُ اللهُ : ألا أعلِّمُكَ عشرَ كلماتٍ ؛ خمسٌ للدنيا وخمسٌ للآخرةِ ، مَنْ دعا اللهَ عزَّ وجلَّ بهنَّ . . وجدَ اللهَ تعالىٰ عندَهُنَّ ؟ قلتُ : اكتُبْها لي ، قالَ : لا ، ولـٰكنْ أردِّدُها عليكَ كما ردَّدَها عليَّ بكرُ بنُ خُنَيسٍ رحمهُ اللهُ : حسبيَ اللهُ لديني ، حسبيَ اللهُ لدنيايَ ، حسبيَ اللهُ الكريمُ لما أهمَّنِي ، حسبيَ اللهُ الحليمُ القويُّ لمَنْ بغىٰ عليَّ ، حسبيَ اللهُ الشديدُ لمَنْ كادني بسوءٍ ، حسبيَ اللهُ الرحيمُ عندَ الموتِ ، حسبيَ اللهُ الرؤوفُ عندَ المساءَلَةِ في القبرِ ، حسبيَ اللهُ الكريمُ عندَ الحسابِ ، حسبيَ اللهُ اللطيفُ عندَ الميزانِ ، حسبيَ اللهُ القديرُ عندَ الصراطِ ، حسبيَ اللهُ لا إلـٰهَ إلا هوَ ، عليهِ توكَّلْتُ وهوَ ربُّ العرشِ العظيمِ)(٣)

وقدْ رُوِيَ عنْ أبي الدرداءِ أنَّهُ قالَ : (مَنْ قالَ في كلِّ يومٍ سبعَ مرَّاتٍ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . . كفاهُ الله عزَّ وجلَّ ما أهمَّهُ مِنْ أمرِ آخرتِهِ ، صادقاً كانَ بها أوْ كاذباً)(٤)

❀ ❀ ❀

دعاءُ عتبةَ الغلامِ رحمهُ اللهُ :

وقدْ رُئِيَ في المنامِ بعدَ موتِهِ ، فقالَ : دخلتُ الجنَّةَ بهـٰذهِ الكلماتِ : (اللهمَّ ، يا هاديَ المضلِّينَ ، وراحمَ المذنبينَ ، ومقيلَ عثراتِ العاثرينَ ؛ ارحمْ عبدَكَ ذا الخطرِ العظيمِ ، والمسلمينَ كلَّهُمْ أجمعينَ ، واجعلْنا معَ الأخيارِ المرزوقينَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ مِنَ النبيِّينَ والصدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، آمينَ يا ربَّ العالمينَ)(٥)

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٩٨٣٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٣٧) .

(٢) كذا في « القوت » (٩/١) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٣٢٨/٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٧/١٦) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٨٨٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (٦٩/٥) .

(٣) قوت القلوب (٩/١) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢١٧) عن بريدة رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٨١) .

(٥) قوت القلوب (١٠/١) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٨/٦) .

دعاءُ آدمَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ :

قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا : لمَّا أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يتوبَ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ . . طافَ سبعاً بالبيتِ وهوَ يومئذٍ ليسَ بمبنيٍّ بل ربوةٌ حمراءُ ، ثمَّ قامَ فصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ قالَ : (اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ سرِّي وعلانيتي فاقبلْ معذرتي ، وتعلمُ حاجتي فأعطني سؤلي ، وتعلمُ ما في نفسي فاغفرْ لي ذنوبي ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً يباشرُ قلبي ، ويقيناً صادقاً حتَّىٰ أعلمَ أنَّهُ لنْ يصيبَني إلا ما كتبتَهُ عليَّ فأرضني بما قسمتَهُ لي يا ذا الجلالِ والإكرامِ) ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ أنِّي قدْ غفرتُ لكَ ، ولنْ يأتيَني أحدٌ مِنْ ذريَّتِكَ فيدعوَني بمثلِ الذي دعوتني بهِ . . إلا غفرتُ لهُ ، وكشفتُ غمومَهُ وهمومَهُ ، ونزعتُ الفقرَ مِنْ بينِ عينيهِ ، واتجرتُ لهُ مِنْ وراءِ كلِّ تاجرٍ ، وجاءَتْهُ الدنيا وهيَ راغمةٌ وإنْ كانَ لا يريدُها[1]

❀ ❀ ❀

دعاءُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ :

رواهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يمجِّدُ نفسَهُ كلَّ يومٍ ويقولُ : إنِّي أنا اللهُ ربُّ العالمينَ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الحيُّ القيومُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العليُّ العظيمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا لمْ ألدْ ولمْ أولدْ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العفوُّ الغفورُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا مبدئُ كلِّ شيءٍ وإليَّ يعودُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العزيزُ الحكيمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الرحمـٰنُ الرحيمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا مالكُ يومِ الدينِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا خالقُ الخيرِ والشرِّ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا خالقُ الجنَّةِ والنارِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰه إلا أنا الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي لمْ يتخذْ صاحبةً ولا ولداً ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الفردُ الوترُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الملكُ القدوسُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا السلامُ المؤمنُ المهيمنُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العزيزُ الجبارُ المتكبِّرُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الخالقُ البارئُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الأحدُ المصوِّرُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الكبيرُ المتعالِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا المقتدرُ القهارُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الحليمُ الكريمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا أهلُ الثناءِ والمجدِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا أعلمُ السرَّ وأخفىٰ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا القادرُ الرزَّاقُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا فوقَ الخلقِ والخليقةِ » .

وذكرَ قبلَ كلِّ كلمةٍ : إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا ، كما أوردناهُ في الأوَّلِ[2] ، فمَنْ دعا بهـٰذهِ الأسماءِ . . فليقلْ : (إنَّكَ أنتَ اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنتَ كذا وكذا) ، فمَنْ دعا بهنَّ . . كُتبَ مِنَ الساجدينَ المخبتينَ الذينَ يجاورونَ محمداً وإبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ والنبيِّينَ صلواتُ اللهِ عليهِمْ في دارِ الجلالِ ، ولهُ ثوابُ العابدينَ في السماواتِ والأرضينَ[3]

وصلَّى اللهُ علىٰ سيدنا محمدٍ وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

❀ ❀ ❀

(١) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢٠/١) عن عبد الله بن أبي سليمان ، وهو من رواية السيدة عائشة مرفوعاً رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٧١) ، وهو في « القوت » (١٠/١) .

(٢) أي : كما تمَّ إثباته من النسخة (أ) ، وهو موافق للأصل المنقول عنه وهو « القوت » (١٣/١) بتقديم وتأخير للبعض يسير ، وموافق لنسخة الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٧١/٥) كذٰلك .

(٣) روىٰ هـٰذا الحديث عن علي رضي الله عنه مرفوعاً الديلميُّ كما في « مسند الفردوس » (٨١١٢) ، وهو في « القوت » (١٣/١) كذٰلك .

دعاءُ أبي المعتمرِ ـ وهوَ سليمانُ التيميُّ ـ وتسبيحاتُهُ رضيَ اللهُ عنهُ :

رُوِيَ أنَّ يونسَ بنَ عبيدٍ رحمهُ اللهُ رأىٰ رجلاً في المنامِ ممَّن قُتلَ شهيداً ببلادِ الرومِ ، فقالَ لهُ : ما أفضلُ ما رأيتَ ثَمَّ مِنَ الأعمالِ ؟ قالَ : رأيتُ تسبيحاتِ أبي المعتمرِ رحمهُ اللهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ بمكانٍ[1] .

وهيَ هٰذهِ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ عددَ ما خلقَ ، وعددَ ما هوَ خالقٌ ، وزنةَ ما خلقَ ، وزنةَ ما هو خالقٌ ، وملءَ ما خلقَ ، وملءَ ما هو خالقٌ ، وملءَ سماواتِهِ ، وملءَ أرضيهِ ، ومثلَ ذٰلكَ وأضعافَ ذٰلكَ ، وعددَ خلقِهِ ، وزنةَ عرشِهِ ، ومنتهىٰ رحمتِهِ ، ومدادَ كلماتِهِ ، ومبلغَ رضاهُ ، وحتَّىٰ يرضىٰ ، وإذا رضيَ ، وعددَ ما ذكرَهُ بهِ خلقُهُ في جميعِ ما مضىٰ ، وعددَ ما هم ذاكروهُ فيما بقيَ ، في كلِّ سنةٍ وشهرٍ وجمعةٍ ويومٍ وليلةٍ وساعةٍ مِنَ الساعاتِ ، ونسمةٍ ونفسٍ مِنَ الأنفاسِ ، وأبدٍ منَ الآبادِ منْ أبدٍ إلىٰ أبدٍ ، أبدَ الدنيا وأبدَ الآخرةِ ، وأكثرَ مِنْ ذٰلكَ ، لا ينقطعُ أولُهُ ، ولا ينفدُ آخرُهُ)[2] .

❁ ❁ ❁

دعاءُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمهُ اللهُ :

روىٰ إبراهيمُ بنُ بشارٍ خادمُهُ أنَّهُ كانَ يقولُ هٰذا الدعاءَ في يومِ الجمعةِ إذا أصبحَ وإذا أمسىٰ : (مرحباً بيومِ المزيدِ ، والصبحِ الجديدِ ، والكاتبِ والشهيدِ ، يومُنا هٰذا يومُ عيدٍ ، اكتبْ لنا ما نقولُ : باسمِ اللهِ الحميدِ المجيدِ ، الرفيعِ الودودِ ، الفعَّالِ في خلقهِ ما يريدُ ، أصبحتُ باللهِ مؤمناً ، وبلقائِهِ مصدِّقاً ، وبحجتِهِ معترفاً ، ومِنْ ذنبي مستغفراً ، ولربوبيَّةِ اللهِ خاضعاً ، ولسوى اللهِ في الإلٰهيةِ جاحداً ، وإلى اللهِ فقيراً ، وعلى اللهِ متوكِّلاً ، وإلى اللهِ منيباً ، أُشهِدُ اللهَ وأُشهِدُ ملائكتَهُ وأنبياءَهُ ورسلَهُ وحملةَ عرشِهِ ومَنْ خلقَهُ ومَنْ هوَ خالقُهُ . . بأنَّهُ هوَ اللهُ ، الذي لا إلٰهَ إلا هوَ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تسليماً ، وأنَّ الجنةَ حقٌّ ، وأنَّ النارَ حقٌّ ، والحوضَ حقٌّ والشفاعةَ حقٌّ ، ومنكراً ونكيراً حقٌّ ، ووعدَكَ حقٌّ ووعيدَكَ حقٌّ ولقاءَكَ حقٌّ ، والساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأنَّ اللهَ يبعثُ مَنْ في القبورِ ، علىٰ ذٰلكَ أحيا ، وعليهِ أموتُ ، وعليهِ أبعثُ إنْ شاءَ اللهُ .

اللهمَّ ؛ أنتَ ربِّي لا إلٰهَ إلا أنتَ ، خلقتني وأنا عبدُكَ ، وأنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ من شرِّ ما صنعتُ ، أعوذُ بكَ إلٰهي مِنْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ .

اللهمَّ ؛ إنِّي ظلمتُ نفسي ، فاغفرْ لي ذنوبي ، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ ، واهدني لأحسنِ الأخلاقِ فإنَّهُ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها فإنَّهُ لا يصرفُ سيِّئَها إلا أنتَ .

لبيكَ وسعديكَ ، والخيرُ كلُّهُ بيديكَ ، أنا لكَ وإليكَ ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ ، آمنتُ اللهمَّ بما أرسلتَ مِنْ رسولٍ ، وآمنتُ اللهمَّ بما أنزلتَ مِنْ كتابٍ ، وصلَّى اللهُ علىٰ محمَّدٍ النبيِّ الأميِّ وعلىٰ آلِهِ وسلَّم تسليماً كثيراً ، خاتمِ كلامي ومفتاحِهِ ، وعلىٰ أنبيائِهِ ورسلِهِ أجمعينَ ، آمينَ ربَّ العالمينَ .

اللهمَّ ؛ أوردْنا حوضَهُ ، واسقنا بكأسِهِ مشرباً رويّاً ، سائغاً هنيّاً ، لا نظمأُ بعدَهُ أبداً ، واحشرْنا في زمرتِهِ غيرَ خزايا ولا ناكثينَ للعهدِ ، ولا مرتابينَ ولا مفتونينَ ، ولا مغضوباً علينا ولا ضالِّينَ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٨٢) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٦٥٣/١) من طريقه .
(٢) كذا في « القوت » (١٠/١) ، وقد روىٰ صيغته عنه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٦٥٢/١) .

اللهمَّ ؛ اعصمْني مِنْ فتنِ الدنيا ، ووفقْني لما تحبُّ وترضىٰ ، وأصلحْ لي شأني كلَّهُ ، وثبتني بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ، ولا تضلَّني وإنْ كنتُ ظالماً .

سبحانَكَ سبحانَكَ يا عليُّ يا عظيمُ ، يا برُّ يا رحيمُ ، يا عزيزُ يا جبَّارُ ، سبحانَ مَنْ سبَّحتْ لهُ السماواتُ بأكنافِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ الجبالُ بأصدائِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ البحارُ بأمواجِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ الحيتانُ بلغاتِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ النجومُ في السماءِ بإبراقِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ الشجرُ بأصولِها ونضارتِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ ، ومَنْ فيهنَّ ومَنْ عليهنَّ ، سبحانَ منْ سبَّحَ لهُ كلُّ شيءٍ منْ مخلوقاتِهِ ، تباركتَ وتعاليتَ ، سبحانَكَ سبحانكَ يا حيُّ يا قيومُ يا عليمُ يا حليمُ ، سبحانَكَ لا إلـهَ إلا أنتَ وحدكَ لا شريكَ لكَ ، تحيي وتميتُ وأنتَ حيٌّ لا تموتُ ، بيدِكَ الخيرُ وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ)[1]

* * *

(١) كذا رواه أبو طالب في « القوت » (١/٧٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٨) ، وقد جاء بعضه مرفوعاً .

البَابُ الرَّابعُ

في أدعيةٍ مأثورةٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم محذوفةِ الأسانيد منتخبةٍ من جملة ما جمعه أبو طالب المكيّ وابن خزيمة وابن المنذر رحمهم الله[(١)]

يستحبُّ للمريدِ إذا أصبحَ أنْ يكونَ أحدَ أورادِهِ الدعاءُ كما سيأتي ذكرُهُ في كتابِ الأورادِ ، فإنْ كنتَ مِنَ المريدينَ لحرثِ الآخرةِ ، المقتدينَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما دعا بهِ . . **فقلْ في مفتتحِ دعواتِكَ أعقابَ صلواتِكَ** : سبحانَ ربِّي العليِّ الأعلى الوهابِ[(٢)] ، لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ[(٣)]

وقلْ : رضيتُ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيّاً ، ثلاثَ مرَّاتٍ[(٤)]

وقلِ : اللهمَّ ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ ، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ ؛ أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا أنتَ ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ نفسي ، وشرِّ الشيطانِ وشركِهِ[(٥)]

وقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ ، وأهلي ومالي ، اللهمَّ ؛ استرْ عوراتي ، وآمنْ روعاتي ، وأقلْ عثراتي ، واحفظني مِنْ بينِ يديَّ ومِنْ خلفي ، وعنْ يميني وعنْ شمالي ، ومِنْ فوقي ، وأعوذُ بكَ أنْ أُغتالَ مِنْ تحتي[(٦)]

اللهمَّ ؛ لا تؤمِنِّي مكرَكَ ، ولا تولِّني غيرَكَ ، ولا ترفعْ عنِّي سترَكَ ، ولا تُنسِني ذكرَكَ ، ولا تجعلْني مِنَ الغافلينَ[(٧)]

وقلِ : اللهمَّ ؛ أنتَ ربِّي لا إلـهَ إلا أنتَ ، خلقْتَني وأنا عبدُكَ ، وأنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعتُ ، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي ، فاغفرْ لي فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[(٨)] ثلاثَ مراتٍ .

وقلِ : اللهمَّ ، عافني في بدني ، وعافني في سمعي ، وعافني في بصري ، لا إلـهَ إلا أنتَ ، ثلاثَ مرَّاتٍ[(٩)]

---

(١) حيث قال أبو طالب رحمه الله تعالىٰ في « القوت » (١٤/١) : (وحذفنا ذكر فضائل ذلك وما جاء من الروايات إيجازاً) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٥٤/٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٩٨/١) .

(٣) رواه البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٥٩٣) .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٧٢) ، والترمذي (٣٣٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٧٠)

(٥) رواه أبو داوود (٥٠٦٧) ، والترمذي (٣٥٢٩) ، وهو من دعاء سيدنا أبي بكر المتقدم تعليقاً .

(٦) رواه أبو داوود (٥٠٧٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٣٢٥) ، وابن ماجه (٣٨٧١) ، وليس في الحديث : « أقل عثراتي » ، بل هو من سياق « القوت » (٨/١) .

(٧) رواه الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٢٠١٧) ، وابن النجار في « ذيله علىٰ تاريخ بغداد » (٢٢٨/١٦) ، وليس فيه : « ولا تولني غيرك » ، وهي في « القوت » (٣٢/١) .

(٨) رواه البخاري (٦٣٠٦) وهو حديث سيد الاستغفار .

(٩) رواه أبو داوود (٥٠٩٠) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٣٣٢) .

وقل : اللهمَّ ؛ إنّي أسألُكَ الرضا بعدَ القضاءِ ، وبردَ العيشِ بعد الموتِ ، ولذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِكَ الكريمِ وشوقاً إلىٰ لقائِكَ ، مِنْ غيرِ ضرَّاءَ مضرَّةٍ ، ولا فتنةٍ مضلَّةٍ ، وأعوذُ بكَ أنْ أَظلِمَ أوْ أُظلَمَ ، أوْ أعتديَ أوْ يُعتدَىٰ عليَّ ، أوْ أكسبَ خطيئةً أوْ ذنباً لا تغفرُهُ(١)

اللهمَّ ؛ إنّي أسألُكَ الثباتَ في الأمرِ ، والعزيمةَ على الرشدِ ، وأسألُكَ شكرَ نعمتِكَ ، وحسنَ عبادتِكَ ، وأسألُكَ قلباً خاشعاً سليماً ، وخُلقاً مستقيماً ، ولساناً صادقاً ، وعملاً متقبَّلاً ، وأسألُكَ مِنْ خيرِ ما تعلمُ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما تعلمُ ، وأستغفرُكَ لما تعلمُ ، فإنَّكَ تعلمُ ولا أعلمُ ، وأنتَ علَّامُ الغيوبِ(٢)

اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ما قدمْتُ وما أخرتُ ، وما أسررْتُ وما أعلنْتُ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منّي ، فإنَّكَ أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ ، وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وعلىٰ كلِّ غيبٍ شهيدٌ(٣)

اللهمَّ ؛ إنّي أسألُكَ إيماناً لا يرتدُّ ، ونعيماً لا ينفدُ ، وقرَّةَ عينِ الأبدِ(٤) ، ومرافقةَ نبيِّكَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أعلىٰ جنَّةِ الخلدِ(٥)

اللهمَّ ؛ إني أسألُكَ الطيباتِ ، وفعلَ الخيراتِ ، وتركَ المنكراتِ ، وحبَّ المساكينِ ، أسألُكَ حبَّكَ وحبَّ مَنْ أحبَّكَ ، وحبَّ كلِّ عملٍ يقرِّبُ إلىٰ حبِّكَ ، وأنْ تتوبَ عليَّ وتغفرَ لي وترحمَني ، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً . . فاقبضْني إليكَ غيرَ مفتونٍ(٦)

اللهمَّ ؛ بعلمِكَ الغيبَ ، وقدرتِكَ على الخلقِ ؛ أحيني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي ، وتوفَّني ما كانتِ الوفاةُ خيراً لي ، أسألُكَ خشيتَكَ في الغيبِ والشهادةِ ، وكلمةَ العدلِ في الرضا والغضبِ ، والقصدَ في الغنىٰ والفقرِ ، ولذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِكَ ، والشوقَ إلىٰ لقائِكَ ، وأعوذُ بكَ مِنْ ضرَّاءَ مضرَّةٍ وفتنةٍ مضلَّةٍ ، اللهمَّ ؛ زيِّنَّا بزينةِ الإيمانِ ، واجعلْنا هداةً مهتدينَ(٧)

اللهمَّ ؛ اقسمْ لنا مِنْ خشيتِكَ ما تحولُ بهِ بينَنا وبينَ معاصيكَ ، ومِنْ طاعتِكَ ما تبلِّغُنا بهِ جنَّتَكَ ، ومِنَ اليقينِ ما تهوِّنُ بهِ علينا مصائبَ الدنيا(٨)

اللهمَّ ؛ ألبسْ وجوهَنا منكَ حياءً ، وقلوبَنا بكَ فرحاً ، وأسكنْ في نفوسِنا مِنْ عظمتِكَ ، وذلِّلْ جوارحَنا لخدمتِكَ ، واجعلْكَ اللهمَّ أحبَّ إلينا ممَّا سواكَ ، واجعلْنا أخشىٰ لكَ ممَّا سواك(٩)

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٩١/٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٥١٦/١) .
(٢) رواه الترمذي (٣٤٠٧) ، والنسائي (٥٤/٣) .
(٣) رواه البخاري (١١٢٠) ، ومسلم (٢٧١٩) ، دون : « وعلىٰ كل غيب شهيد » ، وهي في سياق « القوت » (١١/١) .
(٤) بدوام ذكره وكمال محبته والأنس به ، قال بعضهم : من قرت عينه بالله تعالىٰ . . قرت به كل عين . « إتحاف » (٧٧/٥) .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (٤٤٥/١) ، والطبراني في « الكبير » (٦٨/٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٢٣/١) ، من دعاء سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه عندما قال له المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم : « سلْ تعطه » .
(٦) رواه الترمذي (٣٢٣٥) .
(٧) رواه النسائي (٥٤/٣) .
(٨) رواه الترمذي (٣٥٠٢) ، وتمامه : « ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا ، وانصرنا علىٰ من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » .
(٩) قوت القلوب (١١/١) .

اللهمَّ ؛ اجعلْ أوَّلَ يومِنا هـٰذا صلاحاً ، وأوسطَهُ فلاحاً ، وآخِرَهُ نجاحاً ، اللهمَّ ؛ اجعلْ أوَّلَهُ رحمةً ، وأوسطَهُ نعمةً ، وآخرَهُ تكرمةً ومغفرةً (١)

الحمدُ للهِ الذي تواضعَ كلُّ شيءٍ لعظمتِهِ ، وذلَّ كلُّ شيءٍ لعزَّتِهِ ، وخضعَ كلُّ شيءٍ لملكِهِ ، واستسلمَ كلُّ شيءٍ لقدرتِهِ ، والحمدُ للهِ الذي سكنَ كلُّ شيءٍ لهيبتِهِ ، وأظهرَ كلَّ شيءٍ بحكمتِهِ ، وتصاغرَ كلُّ شيءٍ لكبريائِهِ (٢)

اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ ، وباركْ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ ؛ كما باركتَ علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ آلِ إبراهيمَ في العالمينَ ، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ (٣)

اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ النبيِّ الأميِّ رسولِ الأمِّيِّينَ ، وأعطِهِ المقامَ المحمودَ الذي وعدتَهُ يومَ الدينِ (٤)

اللهمَّ ؛ اجعلْنا مِنْ أوليائِكَ المتقينَ ، وحزبِكَ المفلحينَ ، وعبادِكَ الصالحينَ ، واستعملْنا لمرضاتِكَ عنَّا ، ووفقْنا لمحابِّكَ منَّا ، وصرِّفْنا بحسنِ اختيارِكَ لنا ، نسألُكَ جوامعَ الخيرِ وفواتحَهُ وخواتمَهُ ، ونعوذُ بكَ مِنْ جوامعِ الشرِّ وفواتحِهُ وخواتِمِهُ (٥) .

اللهمَّ ؛ بقدرتِكَ عليَّ تبْ عليَّ ، إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ ، وبحلمِكَ عنِّي اعفُ عنِّي إنَّكَ أنتَ الغفَّارُ الحليمُ ، وبعلمِكَ بي ارفقْ بي ، إنَّكَ أنتَ أرحمُ الراحمينَ ، وبملكِكَ لي ملِّكْني نفسي ولا تسلطْها عليَّ ، إنَّكَ أنتَ الملكُ الجبَّارُ ، سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفرْ لي ذنبي ، إنَّكَ أنتَ ربِّي ، إنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ (٦)

اللهمَّ ؛ ألهمني رشدي ، وقني شرَّ نفسي (٧)

اللهمَّ ؛ ارزقني حلالاً لا تعاقبُني عليهِ ، وقنعني بما رزقتني ، واستعملني بهِ صالحاً تقبلُهُ منِّي (٨)

أسألُكَ العفوَ والعافيةَ وحسنَ اليقينِ ، والمعافاةَ في الدنيا والآخرةِ (٩)

يا مَنْ لا تضرُّهُ الذنوبُ ، ولا تنقصُهُ المغفرةُ ؛ هبْ لي ما لا يضرُّكَ ، وأعطني ما لا ينقصُكَ (١٠)

﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٨٥) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٨) إلىٰ قوله : « وآخره نجاحاً » ، وتمامه عند صاحب « القوت » (١١/١) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٤٢٤/١٢) إلىٰ قوله : « الحمد لله الذي سكن . . . » ، وهو بتمامه في « القوت » (١٢/١) .

(٣) رواه البخاري (٣٣٦٩) ، ومسلم (٤٠٧) بنحوه .

(٤) قوت القلوب (١٢/١) دون : (رسول الأميين) ، وسؤال المقام المحمود له صلى الله عليه وسلم في « البخاري » (٦١٤) .

(٥) قوت القلوب (١٢/١) ، وقوله : (نسألك جوامع الخير . . .) بنحوه عند الطبراني في « الكبير » (٣١٦/٢٣) .

(٦) قوت القلوب (١٢/١) ، وقوله : (سبحانك وبحمدك . . .) رواه مرفوعاً النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٤٣٠) .

(٧) رواه الترمذي (٣٤٨٣) .

(٨) قوت القلوب (١٢/١) ، وبنحوه عند الحاكم في « المستدرك » (٥١٠/١) .

(٩) قوت القلوب (١٢/١) ، وبنحوه عند أبي داوود (٥٠٧٤) .

(١٠) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤١٢) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (١٩١٣) عن سيدنا علي رضي الله عنه ، وهو في « القوت » (١٢/١) .

﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ .

﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴾

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ۞ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ .

ربِّ اغفرْ لي ولوالديَّ وارحمْهما كما ربياني صغيراً ، واغفرْ للمؤمنينَ والمؤمناتِ والمسلمينَ والمسلماتِ الأحياءِ منهُمْ والأمواتِ .

ربِّ اغفرْ وارحمْ ، وتجاوَزْ عمَّا تعلمُ وأنتَ الأعزُّ الأكرمُ ، وأنتَ خيرُ الراحمينَ ، وأنتَ خيرُ الغافرينَ [١]

وإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ

وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ خاتمِ النبيينَ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

❋ ❋ ❋

---

(١) روىٰ بعضه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٥٨٠٩) موقوفاً علىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه ، وهو قوله : (رب اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم) ، والسياق في « القوت » (١٣/١) ، ثم قال : (فهاذا جامع ما جاء من فضائل ما يقال من الدعاء عن المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وعن أئمة الهدىٰ) .

أنواع الاستعاذة المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنَ البخلِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الجبنِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ أنْ أردَّ إلىٰ أرذلِ العمرِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ فتنةِ الدنيا ، وأعوذُ بكَ مِنْ عذابِ القبرِ (١)

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ طمَعٍ يهدي إلىٰ طَبَعٍ ، ومِنْ طمعٍ في غيرِ مطمعٍ ، ومِنْ طمعٍ حيثُ لا مطمعَ (٢)

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ علمٍ لا ينفعُ ، وقلبٍ لا يخشعُ ، ودعاءٍ لا يُسْمَعُ ، ونفسٍ لا تشبعُ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الجوعِ ؛ فإنَّهُ بئسَ الضجيعُ ، ومِنَ الخيانةِ ؛ فإنَّها بئستِ البطانةُ ، ومِنَ الكسلِ والبخلِ والجبنِ ومنَ الهرمِ ، ومِنْ أنْ أردَّ إلىٰ أرذلِ العمرِ ، ومِنْ فتنةِ الدجالِ وعذابِ القبرِ ، ومِنْ فتنةِ المحيا والمماتِ .

اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ قلوباً أوَّاهةً مخبتةً منيبةً في سبيلِكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ عزائمَ مغفرتِكَ ، وموجباتِ رحمتِكَ ، والسلامةَ مِنْ كلِّ إثمٍ ، والغنيمةَ مِنْ كل برٍّ ، والفوزَ بالجنَّةِ والنجاةَ مِنَ النارِ (٣)

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنَ التردِّي ، وأعوذُ بكَ مِنَ الغمِّ والغَرَقِ والهَدْمِ ، وأعوذُ بِكَ مِنْ أنْ أموتَ في سبيلِكَ مدبراً ، وأعوذُ بِكَ مِنْ أنْ أموتَ في طلبِ دنيا (٤)

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما علمتُ ، ومِن شرِّ ما لَمْ أعلمْ (٥)

اللهمَّ ؛ جنبني منكراتِ الأخلاقِ والأعمالِ ، والأدواءِ والأهواءِ (٦)

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ جهدِ البلاءِ ، ودَرْكِ الشقاءِ ، وسوءِ القضاءِ ، وشماتةِ الأعداءِ (٧)

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنَ الكفرِ والدَّيْنِ والفقرِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ عذابِ جهنَّمَ ، وأعوذُ بكَ مِنْ فتنةِ الدجالِ (٨)

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ سمعي وبصري ، وشرِّ لساني وقلبي ، وشرِّ منِيّي (٩)

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٥) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٤٧) ، والطَّبَع : الدنس .

(٣) الدعاء إلىٰ هنا رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٥٣٣) ، والتعوذ من الأربع الأُول عند مسلم (٢٧٢٢) ، والاستعاذة من الكسل والجبن والبخل والهرم وفتنة المحيا والممات عند البخاري (٦٣٦٧) .

(٤) رواه أبو داوود (١٥٥٢) ، والنسائي (٨/٢٨٢) ، وفيهما : « وأعوذ بك أن أموت لديغاً » بدل « أن أموت في طلب دنيا » ، ولعله تصحيف من النساخ لاحتماله .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٨٤٦) ، ولفظه : « وأعوذ بك من الشر كله ، عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم » ، وهو عند مسلم (٢٧١٦) بلفظ : « من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل » .

(٦) رواه الترمذي (٣٥٩١) .

(٧) رواه البخاري (٦٣٤٧) ، و« مسلم » (٢٧٠٧) .

(٨) التعوذ من الكفر والدين عند النسائي (٨/٢٦٤) ، ومن الفقر مع الكفر عنده كذٰلك (٣/٧٣) ، والتعوذ من عذاب جهنم وفتنة الدجال في « البخاري » (١٣٧٧) ، و« مسلم » (٥٨٨) .

(٩) رواه أبو داوود (١٥٥١) ، والترمذي (٣٤٩٢) ، والنسائي (٨/٢٥٥) من دعاء علمه النبي صلى الله عليه وسلم شَكَل بن حميد رضي الله عنه ، وقوله : « من شر منيي » أي : من شر شدة الغلمة وسطوة الشهوة إلى الجماع الذي إذا أفرط . . ربما أوقع في الزنا أو مقدماته لا محالة ، فهو حقيق بالاستعاذة من شره . « إتحاف » (٥/٨٥) .

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ جارِ السوءِ في دارِ المُقامةِ ، فإنَّ جارَ البادِيةِ يتحوَّلُ [١]

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنَ القسوةِ والغفلةِ ، والعيلَةِ والذلَّةِ والمسكنةِ ، وأعوذُ بِكَ مِنَ الفقرِ والكفرِ ، والفسوقِ والشقاقِ والنفاقِ وسوءِ الأخلاقِ وضيقِ الأرزاقِ ، والسمعةِ والرياءِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الصممِ والبكمِ والعمىٰ والجنونِ والجذامِ والبرصِ وسيِّئِ الأسقامِ [٢]

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ زوالِ نعمتِكَ ، ومن تحوُّلِ عافيتِكَ ، ومن فجأةِ نقمتِكَ ، ومنْ جميعِ سخطِكَ [٣]

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ عذابِ النارِ وفتنةِ النارِ ، وعذابِ القبرِ وفتنةِ القبرِ ، وشرِّ فتنةِ الغنىٰ ، وشرِّ فتنةِ الفقرِ ، وشرِّ فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ المغرمِ والمأثمِ [٤]

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ نفسٍ لا تشبعُ ، وقلبٍ لا يخشعُ ، وصلاةٍ لا تنفعُ ، ودعوةٍ لا تستجابُ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ العمرِ وفتنةِ الصدرِ [٥]

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ غلبةِ الدَّينِ ، وغلبةِ العدوِّ ، وشماتةِ الأعداءِ [٦]

وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً مِنْ كلِّ العالمينَ ، آمينَ .

* * *

---

(١) رواه النسائي (٢٧٤/٨) ، وفي « السنن الكبرىٰ » (٧٨٨٦) .

(٢) رواه الطبراني في « الصغير » (١١٤/١) ، والاستعاذة من الأربع الأخيرة عند أبي داوود (١٥٥٤) .

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٩) .

(٤) رواه البخاري (٦٣٧٥) ، ومسلم (٢٧٣٩) بنحوه .

(٥) الثلاث الأول عند مسلم (٢٧٢٢) ، وما بعدها عند أبي داوود (١٥٢٩) ، والنسائي (٢٥٥/٨) ، **وفتنة الصدر** : عدم انفساحه لقبول الإيمان .

(٦) رواه النسائي (٢٦٥/٨) .

الباب الخامس
في الأدعية المأثورة عند كلّ حادثٍ من الحوادث

إذا أصبحتَ وسمعتَ الأذانَ . . فيستحبُّ لكَ جوابُ المؤذِّنِ ، وقدْ ذكرناهُ ، وذكرنا أدعيةَ دخولِ الخلاءِ والخروجِ منهُ ، وأدعيةَ الوضوءِ في كتابِ الطهارةِ .

❁ ❁ ❁

فإذا خرجتَ إلى المسجدِ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي لساني نوراً ، واجعلْ في سمعي نوراً ، واجعلْ في بصري نوراً ، واجعلْ خلفي نوراً ، وأمامي نوراً ، واجعلْ مِنْ فوقي نوراً ، اللهمَّ ؛ أعطني نوراً [(١)]

وقلْ أيضاً : اللهمَّ ؛ إنّي أسألُكَ بحقِّ السائلينَ عليكَ ، وبحقِّ ممشايَ هذا إليكَ ، فإنّي لمْ أخرجْ أشراً ولا بطراً ، ولا رياءً ولا سمعةً ، خرجتُ اتقاءَ سخطِكَ وابتغاءَ مرضاتِكَ ؛ فأسألُكَ أنْ تنقذَني مِنَ النارِ ، وأنْ تغفرَ لي ذنوبي ، إنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ [(٢)]

وإنْ خرجتَ مِنَ المنزلِ لحاجةٍ . . فقلْ : باسمِ اللهِ ، ربِّ أعوذُ بكَ أنْ أظلِمَ أوْ أُظلَمَ ، أوْ أجهلَ أوْ يُجهلَ عليَّ [(٣)] ، بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، باسمِ اللهِ ، التكلانُ على اللهِ [(٤)]

❁ ❁ ❁

فإذا انتهيتَ إلى المسجدِ تريدُ دخولَهُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ وسلِّمْ ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي جميعَ ذنوبي ، وافتحْ لي أبوابَ رحمتِكَ [(٥)] ، وقدِّمْ رجلَكَ اليمنى في الدخولِ .

❁ ❁ ❁

فإذا رأيتَ في المسجدِ مَنْ يبيعُ أوْ يبتاعُ . . فقلْ : لا أربحَ اللهُ تجارتَكَ [(٦)]

❁ ❁ ❁

وإذا رأيتَ مَنْ ينشدُ ضالةً في المسجدِ . . فقلْ : لا ردَّها اللهُ عليكَ [(٧)] ، أمرَ بذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فإذا صلَّيتَ ركعتي الصبحِ . . فقلْ : باسمِ اللهِ ، اللهمَّ ؛ إنّي أسألُكَ رحمةً مِنْ عندِكَ تهدي بها قلبي . . . الدعاءَ إلى آخرِهِ كما أوردناهُ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [(٨)]

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) .

(٢) رواه ابن ماجه (٧٧٨) .

(٣) رواه أبو داوود (٥٠٩٤) ، والترمذي (٣٤٢٧) ، والنسائي (٢٦٨/٨) ، وابن ماجه (٣٨٨٤) .

(٤) رواه ابن ماجه (٣٨٨٥) بنحوه .

(٥) رواه الترمذي (٣١٤) ، وابن ماجه (٧٧١) ، والجملة الأخيرة عند مسلم (٧١٣) .

(٦) رواه الترمذي (١٣٢١) .

(٧) رواه مسلم (٥٦٨) .

(٨) رواه الترمذي (٣٤١٩) ، والطبراني في « الكبير » (٢٨٣/١٠) .

فإذا ركعتَ . . فقلْ في ركوعِكَ : اللهمَّ ؛ لكَ ركعتُ ، ولكَ خشعتُ ، وبكَ آمنتُ ، ولكَ أسلمتُ ، وعليكَ توكلتُ ، أنتَ ربِّي ، خشعَ سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلَّتْ بهِ قدمي للهِ ربِّ العالمينَ[1]

وإن أحببتَ . . فقلْ : (سبحانَ ربيَ العظيمِ) ثلاثَ مرَّاتٍ[2] ، أوْ (سبُّوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكةِ والروحِ)[3]

❁ ❁ ❁

فإذا رفعتَ رأسَكَ مِنَ الركوعِ . . فقلْ : سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهُ ، ربَّنا لكَ الحمدُ ، ملءَ السماواتِ وملءَ الأرضِ ، وملءَ ما شئتَ مِنْ شيءٍ بعدُ ، أهلُ الثناءِ والمجدِ أحقُّ ما قالَ العبدُ ، وكلُّنا لكَ عبدٌ ، لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منكَ الجَدُّ[4]

❁ ❁ ❁

فإذا سجدتَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ لكَ سجدتُ ، وبكَ آمنتُ ، ولكَ أسلمتُ ، سجدَ وجهي للذي خلقَهُ وصوَّرَهُ ، وشقَّ سمعَهُ وبصرَهُ ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ[5] ، اللهمَّ ؛ سجدَ لكَ سوادي وخيالي ، وبكَ آمنَ فؤادي ، أبوءُ بنعمتِكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي وهـٰذا ما جنيتُ علىٰ نفسي ، فاغفرْ لي ؛ فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[6]

أوْ تقولُ : (سبحانَ ربيَ الأعلىٰ) ثلاثَ مرَّاتٍ[7]

❁ ❁ ❁

فإذا فرغتَ مِنَ الصلاةِ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ[8] ، وتدعو بسائرِ الأدعيةِ التي ذكرناها .

❁ ❁ ❁

فإذا قمتَ مِنَ المجلسِ وأردتَ دعاءً يكفِّرُ لغوَ المجلسِ . . فقلْ : سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي ، فاغفرْ لي ، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[9]

❁ ❁ ❁

فإذا دخلتَ السوقَ . . فقلْ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ[10] ، باسمِ اللهِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَ هـٰذه السوقِ وخيرَ ما فيها ،

---

(١) رواه مسلم (٧٧١) ، وأحمد في « المسند » (١/١١٩) .

(٢) رواه أبو داوود (٨٨٦) وبزيادة : (وبحمده) عنده (٨٦٩) ، والترمذي (٢٦١) ، وابن ماجه (٨٨٨) .

(٣) رواه مسلم (٤٨٧) .

(٤) رواه مسلم (٤٧١ ، ٤٧٧) ، دون : (سمع الله لمن حمده) ، وهي عند أبي داوود (٨٤٧) ، والنسائي (٢/١٩٨) .

(٥) إلىٰ هنا عند مسلم (٧٧١) .

(٦) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٥٣٣) ضمن دعاء قد تقدم .

(٧) رواه أبو داوود (٨٨٦) ، وبزيادة (وبحمده) عنده (٨٦٩) ، والترمذي (٢٦١) ، وابن ماجه (٨٨٨) .

(٨) رواه مسلم (٥٩١) ، وفيه الاستغفار ثلاثاً قبله ، و(٥٩٢) دون ذكر الاستغفار .

(٩) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠١٨٨) بتمامه .

(١٠) رواه الترمذي (٣٤٢٨) ، وابن ماجه (٢٢٣٥) .

اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّها وشرِّ ما فيها ، اللهمَّ ؛ إنّي أعوذُ بكَ أنْ أصيبَ فيها يميناً فاجرةً أوْ صفقةً خاسرةً[١]

❁ ❁ ❁

فإنْ كانَ عليكَ دينٌ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ اكفني بحلالِكَ عنْ حرامِكَ ، وأغنني بفضلِكَ عمَّنْ سواكَ[٢]

❁ ❁ ❁

فإذا لبستَ ثوباً جديداً . . فقلِ : اللهمَّ ؛ كسوتَني هـٰذا الثوبَ فلكَ الحمدُ ، أسألُكَ مِنْ خيرِهِ وخيرِ ما صُنِعَ لهُ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّهِ وشرِّ ما صُنِعَ لهُ[٣]

❁ ❁ ❁

وإذا رأيتَ شيئاً مِنَ الطيرةِ تكرهُهُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ لا يأتي بالحسناتِ إلا أنتَ ، ولا يذهبُ بالسيئاتِ إلا أنتَ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ[٤]

❁ ❁ ❁

وإذا رأيتَ الهلالَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ أهلَّهُ علينا بالأمنِ والإيمانِ ، والبرِّ والسلامةِ والإسلامِ ، والتوفيقِ لما تحبُّ وترضىٰ ، والحفظِ عمَّنْ تسخطُ ، ربّي وربُّكَ اللهُ[٥] ، وتقولُ : هلالُ رشدٍ وخيرٍ ، آمنتُ بخالقِكَ[٦] ، اللهمَّ ؛ إنّي أسألُكَ خيرَ هـٰذا الشهرِ وخيرَ القدَرِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ يومِ الحشرِ[٧] ، وتكبِّرُ قبلَهُ أولاً ثلاثاً[٨]

❁ ❁ ❁

وإذا هبَّتِ الريحُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ إنّي أسألُكَ خيرَ هـٰذهِ الريحِ وخيرَ ما فيها ، وخيرَ ما أُرسلتْ بهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّها وشرِّ ما فيها ، وشرِّ ما أُرسلتْ بهِ[٩]

❁ ❁ ❁

وإذا بلغَكَ وفاةُ أحدٍ . . فقلْ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ اكتبْهُ في المحسنينَ ، واجعلْ كتابَهُ في عليينَ ، واخلفْهُ علىٰ عقبِهِ في الغابرينَ ، اللهمَّ ؛ لا تحرمْنا أجرَهُ ، ولا تفتنَّا بعدَهُ ، واغفرْ لنا ولهُ[١٠] .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٥٣٩/١) .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٦٣) .

(٣) رواه أبو داوود (٤٠٢٠) ، والترمذي (١٧٦٧) .

(٤) رواه أبو داوود (٣٩١٩) عن عروة بن عامر ، وأما ما اشتهر على الألسنة عند نعيق الغراب : خير خير . . فلا أصل له في السنة . « إتحاف » (١٠١/٥) .

(٥) رواه الترمذي (٣٤٥١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٨٢٧) وفيه : (. . . والحفظ مما تسخط) .

(٦) رواه أبو داوود (٥٠٩٢) عن قتادة مرسلاً ، مكرّراً : (هلال خير ورشد) ثلاثاً .

(٧) رواه أحمد في « المسند » (٣٢٩/٥) .

(٨) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٧٣٥٣) عن قتادة مرسلاً .

(٩) رواه الترمذي (٢٢٥٢) .

(١٠) رواه الطبراني في « الكبير » (٥٩/١٢) .

وتقولُ عندَ التصدُّقِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

❀ ❀ ❀

وتقولُ عندَ الخسرانِ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ .

❀ ❀ ❀

وتقولُ عندَ ابتداءِ الأمورِ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۞ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾

❀ ❀ ❀

وتقولُ عندَ النظرِ إلى السماءِ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ .

❀ ❀ ❀

وإذا سمعتَ صوتَ الرعدِ . . فقلْ : سبحانَ مَنْ يسبِّحُ الرعدُ بحمدِهِ والملائكةُ مِنْ خيفتِهِ [1]

❀ ❀ ❀

وإذا رأيتَ الصواعقَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ لا تقتلْنا بغضبِكَ ، ولا تهلكْنا بعذابِكَ ، وعافنا قبلَ ذٰلكَ [2] .

❀ ❀ ❀

فإذا أمطرتِ السماءُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ سيباً هنيئاً ، وصيباً نافعاً [3] ، اللهمَّ ؛ اجعلْهُ سيبَ رحمةٍ ، ولا تجعلْهُ سيبَ عذابٍ [4]

❀ ❀ ❀

وإذا غضبتَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ذنبي ، وأذهبْ غيظَ قلبي ، وأجِرْني مِنَ الشيطانِ الرجيمِ [5]

❀ ❀ ❀

وإذا خفتَ قوماً . . فقلِ : اللهمَّ ؛ إنَّا نجعلُكَ في نحورِهِمْ ، ونعوذُ بكَ مِنْ شرورِهِمْ [6]

❀ ❀ ❀

وإذا غزوتَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ أنتَ عضدي ونصيري ، وبكَ أقاتلُ [7]

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/٩٩٢) عن عامر بن عبد الله بن الزبير ، وأوقفه ابن أبي شيبة على عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في « المصنف » (٢٩٨٢٤) ، ورفعه ابن جرير في « تفسيره » (١٥٩/١٣/٨) .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٥٠) .

(٣) رواه البخاري (١٠٣٢) ، وابن ماجه (٣٨٨٩) مجموعاً .

(٤) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٩٢٢) عن سعيد بن المسيب مرسلاً .

(٥) رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٢٢) من حديث علَّمه عائشة رضي الله عنها

(٦) رواه أبو داوود (١٥٣٧) .

(٧) رواه أبو داوود (٢٦٣٢) ، والترمذي (٣٥٨٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٨٥٧٦) .

وإذا طَنَّتْ أذنُكَ . . فصلِّ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقلْ : ذكَرَ اللهُ بخيرٍ مَنْ ذكرَني [1]

❀ ❀ ❀

فإذا رأيتَ استجابةَ دعائِكَ . . فقلِ : الحمدُ للهِ الذي بعزَّتِهِ وجلالِهِ تتمُّ الصالحاتُ ، **وإنْ أبطأَتْ** . . فقلِ : الحمدُ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ [2]

❀ ❀ ❀

وإذا سمعتَ أذانَ المغربِ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ هـٰذا استقبالُ ليلِكَ وإدبارُ نهارِكَ ، وأصواتُ دعاتِكَ وحضورُ صلواتِكَ ، أسألُكَ أنْ تغفرَ لي [3]

❀ ❀ ❀

وإذا أصابَكَ همٌّ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي عبدُكَ وابنُ عبدِكَ وابنُ أمتِكَ ، ناصيتي بيدِكَ ، ماضٍ فيَّ حكمُكَ ، عدلٌ فيَّ قضاؤُكَ ، أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ سمَّيْتَ بهِ نفسَكَ ، أوْ أنزلتَهُ في كتابِكَ ، أوْ علَّمتَهُ أحداً منْ خلقِكَ ، أوِ استأثرتَ بهِ في علمِ الغيبِ عندَكَ : أنْ تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي ، ونورَ صدري ، وجِلاءَ غمِّي ، وذهابَ حزني وهمِّي .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أصابَ أحداً حزنٌ فقالَ هـٰذا . . إلا أذهبَ اللهُ همَّهُ وأبدلَهُ مكانَهُ فرحاً » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أفلا نتعلَّمُها ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلىٰ ، ينبغي لمَنْ سمعَها أنْ يتعلَّمَها » [4]

❀ ❀ ❀

وإذا وجدتَ وجعاً في جسدِكَ أوْ جسدِ غيرِكَ . . فارقِهِ برقيةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ كانَ إذا اشتكى الإنسانُ قَرحةً أوْ جرْحاً . . وضعَ سبَّابتَهُ على الأرضِ ثمَّ رفعَها وقالَ : « باسمِ اللهِ ، تربةُ أرضِنا بريقةِ بعضِنا ، يُشفىٰ سقيمُنا بإذنِ ربِّنا » [5]

❀ ❀ ❀

وإذا وجدتَ وجعاً في جسدِكَ . . فضَعْ يدَكَ على الذي تألمَ مِنْ جسدِكَ وقلْ : (باسمِ اللهِ) ثلاثاً ، وقلْ سبعَ مرَّاتٍ : أعوذُ بعزَّةِ اللهِ وقدرتِهِ مِنْ شرِّ ما أجدُ وأُحاذرُ [6]

❀ ❀ ❀

وإذا أصابَكَ كربٌ . . فقلْ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ العليُّ الحليمُ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمِ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ [7]

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١/٣٢١) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٦٦) .

(٢) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ١٧١) .

(٣) رواه أبو داوود (٥٣٠) دون : (وحضور صلواتك) ، والترمذي (٣٥٨٩) بتمامه .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/٣٩١) .

(٥) رواه البخاري (٥٧٤٥) ، ومسلم (٢١٩٤) .

(٦) رواه مسلم (٢٢٠٢) .

(٧) رواه البخاري (٦٣٤٦) ، ومسلم (٢٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٣٥) وعنده لفظة : « العلي الحليم » ، وفي « الصحيحين » : « العظيم الحليم » .

وإذا أردتَ النومَ . . فتوضَّأ أوَّلاً ، ثمَّ توسَّدْ على يمينِكَ مستقبلَ القبلةِ ، ثمَّ كبِّرِ اللهَ تعالىٰ أربعاً وثلاثينَ ، وسبِّحْهُ ثلاثاً وثلاثينَ ، واحمدْهُ ثلاثاً وثلاثينَ [١] ، ثمَّ قلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وبمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ ، وأعوذُ بِكَ مِنْكَ ، اللهمَّ ؛ لا أستطيعُ أَنْ أبلغَ ثناءً عليكَ ولوْ حرصتُ ، ولـٰكنْ أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ [٢] ، اللهمَّ ؛ باسمِكَ أحيا وأموتُ [٣]

اللهمَّ ، ربَّ السماواتِ وربَّ الأرضِ وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ ، فالقَ الحبِّ والنوىٰ ، ومنزلَ التوراةِ والإنجيلِ والفرقانِ ؛ أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ ، ومِنْ شرِّ كلِّ دابَّةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِها ، أنتَ الأوَّلُ فليسَ قبلَكَ شيءٌ ، وأنتَ الآخرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ ، وأنتَ الباطنُ فليسَ دونَكَ شيءٌ ، اقضِ عنِّي الدَّيْنَ وأغنني مِنَ الفقرِ [٤]

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقْتَ نفسي وأنتَ تتوفَّاها ، لكَ مماتُها ومحياها ، اللهمَّ ؛ إنْ أمتَّها . . فاغفرْ لها ، وإنْ أحييتَها . . فاحفظْها ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ [٥]

باسمِكَ ربِّي وضعتُ جنبي ، فاغفرْ لي ذنبي [٦] ، اللهمَّ ؛ قني عذابَكَ يومَ تجمعُ عبادَكَ [٧]

اللهمَّ ؛ أسلمتُ نفسي إليكَ ، ووجَّهتُ وجهي إليكَ ، وفوضتُ أمري إليكَ ، وألجأتُ ظهري إليكَ ، رغبةً ورهبةً إليكَ ، لا ملجأَ ولا منجا منكَ إلا إليكَ ، آمنتُ بكتابِكَ الذي أنزلْتَ ، وبنبيِّكَ الذي أرسلتَ [٨] ، ويكونُ هـٰذا آخرَ دعائِكَ ، فقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذٰلكَ [٩]

وليقلْ قبلَ ذٰلكَ : اللهمَّ ؛ أيقظْني في أحبِّ الساعاتِ إليكَ ، واستعملْني بأحبِّ الأعمالِ إليكَ ، تقرِّبُني إليكَ زُلفىٰ ، وتبعدُني مِنْ سخطِكَ بُعداً ، أسألُكَ فتعطيني ، وأستغفرُكَ فتغفرُ لي ، وأدعوكَ فتستجيبُ لي [١٠]

❀ ❀ ❀

فإذا استيقظتَ مِنْ نومِكَ عندَ الصباحِ . . فقلِ : الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدَما أماتنا وإليهِ النشورُ [١١] ، أصبحْنا وأصبحَ الملكُ للهِ ، والعظمةُ والسلطانُ للهِ ، والعزَّةُ والقدرةُ للهِ [١٢] ، أصبحنا علىٰ فطرةِ الإسلامِ ،

---

(١) كما في « البخاري » (٣١١٣) ، ومسلم (٢٧٢٧) .

(٢) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٩٧) ، وأصل الدعاء في « الصحيح » وقد سبق .

(٣) رواه البخاري (٧٣٩٤) واللفظ له ، ومسلم (٢٧١١)

(٤) رواه مسلم (٢٧١٣) ، وأبو داوود (٥٠٥١) ، والترمذي (٣٤٨١) ، وقوله : (ومليكه) من دعاء سيدنا الصدِّيق المتقدم .

(٥) رواه مسلم (٢٧١٢) دون قوله : (في الدنيا والآخرة) .

(٦) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٧٧٥) ، وعند أبي داوود (٥٠٥٤) : « باسم الله وضعت جنبي ، اللهم اغفر لي ذنبي ، وأخسئ شيطاني ، وفك رهاني ، واجعلني في النديِّ الأعلىٰ » ، وأصل الحديث في « الصحيحين » .

(٧) رواه الترمذي (٣٣٩٨) .

(٨) رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) .

(٩) رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) .

(١٠) رواه الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٢٠١٧) ، وعند ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (٢٢٨/١٦) مرفوعاً بنحوه كذٰلك ، وانظر « الإتحاف » (١١٠/٥) .

(١١) رواه البخاري (٦٣١٢) ، ومسلم (٢٧١١) .

(١٢) رواه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٩٣٨) ، وقوله : (أصبحنا وأصبح الملك لله) عند مسلم (٢٧٢٣) .

وكلمةِ الإخلاصِ ، وعلىٰ دينِ نبيّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وملَّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنَ المشركينَ (١)

اللهمَّ ؛ بكَ أصبحْنا ، وبكَ أمسينا ، وبك نحيا ، وبكَ نموتُ ، وإليكَ المصيرُ (٢)

اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ أنْ تبعثَنا في هٰذا اليوم إلىٰ كلِّ خيرٍ ، ونعوذُ بكَ أنْ نجترحَ فيهِ سوءاً أوْ نجرَّهُ إلىٰ مسلمٍ ، فإنَّكَ قلتَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (٣)

اللهمَّ ، فالقَ الإصباحِ ، وجاعلَ الليلِ سكناً والشمسِ والقمرِ حسباناً ؛ أسألُكَ خيرَ هٰذا اليومِ وخيرَ ما فيهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّهِ وشرِّ ما فيهِ (٤)

باسمِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا قوَّةَ إلَّا باللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، كلُّ نعمةٍ مِنَ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، الخيرُ كلُّهُ بيدِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ (٥)

رضيتُ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيّاً (٦) ، ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ .

وإذا أمسيت . . قلتَ ذٰلك ، إلا أنَّكَ تقولُ : (أمسينا) ، وتقولُ معَ ذٰلكَ : أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ وأسمائِهِ كلِّها مِنْ شرِّ ما ذرأَ وبرأَ ، ومِنْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ ، ومِنْ شرِّ كلِّ دابَّةٍ ربِّي آخذٌ بناصيتِها ، إنَّ ربِّي علىٰ صراطٍ مستقيمٍ (٧)

وإذا نظرتَ في المرآةِ . . فقلِ : الحمدُ للهِ الذي سوَّىٰ خَلقي فعدَلَهُ ، وكرَّمَ صورةَ وجهي وحسَّنَها ، وجعلَني مِنَ المسلمينَ (٨)

❁ ❁ ❁

وإذا اشتريتَ خادماً أوْ غلاماً أوْ دابةً . . فخذْ بناصيتِهِ وقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَهُ وخيرَ ما جُبِلَ عليهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّهِ وشرِّ ما جُبِلَ عليهِ (٩)

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤٠٧/٣) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (١) .

(٢) رواه أبو داوود (٥٠٦٨) ، والترمذي (٣٣٩١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٥٢) ، وابن ماجه (٣٨٦٨) .

(٣) كذا في « القوت » (٣٢/١) ، وبنحوه عند أبي داوود (٥٠٨٣) ، والترمذي (٣٥٢٩) .

(٤) كذا في « القوت » (٣٢/١) ، وإلىٰ قوله : (والقمر حسباناً) عند مالك في « الموطأ » (٢١٢/١) بلاغاً مرسلاً ، وتمامه عند أبي داوود (٥٠٨٤) بلفظ : « إنِّي أسألك خير هٰذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه ، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده » ، وبنحوه عند الطبراني في « الدعاء » (٢٩٥) .

(٥) كذا في « القوت » (٩/١) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٣٢٨/٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٧/١٦) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٨٨٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (٦٩/٥) .

(٦) رواه أبو داوود (٥٠٧٢) ، والترمذي (٣٣٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٧٠) .

(٧) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في « الثواب » من حديث عبد الرحمٰن بن عوف : « من قال حين يصبح : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذرأ . . اعتصم من شر الثقلين » ، وفيه : « وإن قالهن حين يمسي . . كن له كذٰلك حتىٰ يصبح » . وعند مسلم (٢٧٠٩) مرفوعاً : « أما لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . . لم تضرك » ، قاله لأبي هريرة رضي الله عنه في عقرب لدغته ، وعند الطبراني في « الدعاء » (٣٤٣) : « اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر كل دابة . . . ») .

(٨) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٩١) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٦٥) .

(٩) رواه أبو داوود (٢١٦٠) ، وابن ماجه (١٩١٨) .

وإذا هنَّأْتَ **بالنكاحِ** . . فقلْ : باركَ اللهُ فيكَ ، وباركَ عليكَ ، وجمعَ بينَكُما في خيرٍ[(١)]

❀ ❀ ❀

وإذا **قضيتَ الدَّين** . . فقلْ للمقضيِّ لهُ : باركَ اللهُ لكَ في أهلِكَ ومالِكَ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما جزاءُ السلفِ الحمدُ والأداءُ »[(٢)] .

❀ ❀ ❀

فهٰذه أدعيةٌ لا يستغني المريدُ عنْ حفظِها ، وما سوىٰ ذٰلكَ منْ أدعيةِ السفرِ والصلاةِ والوضوءِ ذكرْناها في كتابِ الحجِّ والصلاةِ والطهارةِ .

فإنْ قلتَ : فما فائدةُ الدعاءِ والقضاءُ لا مردَّ لهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ مِنَ القضاءِ ردَّ البلاءِ بالدعاءِ[(٣)] ، فالدعاءُ سببٌ لردِّ البلاءِ ، واستجلابِ الرحمةِ ؛ كما أنَّ التُّرْسَ سببٌ لردِّ السهمِ ، والماءَ سببٌ لخروجِ النباتِ مِنَ الأرضِ .

فكما أنَّ التُّرْسَ يدفعُ السهمَ فيتدافعانِ . . فكذٰلكَ الدعاءُ والبلاءُ يتعالجانِ[(٤)]

وليسَ مِنْ شرطِ الاعترافِ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ألَّا يحملَ السلاحَ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ ، وألَّا يسقيَ الأرضَ بعدَ بثِّ البذرِ ، فيقالُ : إنْ سبقَ القضاءُ بالنباتِ . . نبتَ البذرُ ، وإنْ لمْ يسبقْ . . لم ينبتْ !!

بلْ ربطُ الأسبابِ بالمسبَّبَاتِ هوَ القضاءُ الأوَّلُ الذي هوَ كلمحِ البصرِ أوْ هوَ أقربُ .

وترتُّبُ تفصيلِ المسبَّباتِ علىٰ تفاصيلِ الأسبابِ على التدريجِ والتقديرِ هوَ القدرُ ، والذي قدَّرَ الخيرَ قدَّرَهُ بسببٍ ، والذي قدَّرَ الشرَّ قدَّرَ لدفعِهِ سبباً ، فلا تناقضَ بينَ هٰذهِ الأمورِ عندَ مَنِ انفتحتْ بصيرتُهُ .

ثمَّ في الدعاءِ مِنَ الفائدةِ ما ذكرناهُ في الذكرِ ؛ فإنَّهُ يستدعي حضورَ القلبِ معَ اللهِ ، وهوَ منتهى العباداتِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدعاءُ مُخُّ العبادةِ »[(٥)]

والغالبُ على الخلقِ أنَّهُ لا تنصرفُ قلوبُهُم إلىٰ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا عندَ إلمامِ حاجةٍ وإرهاقِ ملمَّةٍ ، فإنَّ الإنسانَ إذا مسَّهُ الشرُّ . . فذو دعاءٍ عريضٍ ، فالحاجةُ تحوجُ إلى الدعاءِ ، والدعاءُ يردُّ القلبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بالتضرُّعِ والاستكانةِ ، فيحصلُ بهِ الذكرُ الذي هوَ أشرفُ العباداتِ ، ولذٰلكَ صارَ البلاءُ موكلاً بالأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ

---

(١) رواه أبو داوود (٢١٣٠) ، والترمذي (١٠٩١) ، وابن ماجه (١٩٠٥) .

(٢) رواه النسائي (٣١٤/٧) .

(٣) بمعنىٰ : أن الله تعالىٰ قدَّر علىٰ من يوقع البلاء به عدمَ الدعاء ، وقدر علىٰ من لم يوقع عليه البلاء وجودَ الدعاء ، ويشهد لذٰلك ما أخرجه الترمذي (٢٠٦٥) : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أرأيت رُقىً نسترقيها ، ودواءً نتداوىٰ به ، وتقاةً نتقيها : هل تردُّ من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هي من قدر الله » . « إتحاف » (١١٥/٥) .

(٤) روى الطبراني في « الأوسط » (٢٥١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٩٢/١) مرفوعاً : « لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء ، يعتلجان إلىٰ يوم القيامة » .

(٥) رواه الترمذي (٣٣٧١) .

فالأمثلِ ؛ لأنَّهُ يردُّ القلبَ بالافتقارِ والتضرعِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويمنعُ مِنْ نسيانِهِ ، وأمَّا الغنىٰ . . فسببٌ للبطرِ في غالبِ الأمرِ ، فإنَّ الإنسانَ ليطغىٰ أنْ رآهُ استغنىٰ (١)

فهـٰذا ما أردْنا أنْ نوردَهُ مِنْ جملةِ الأذكارِ والدعواتِ واللهُ الموفِّقُ للخيرِ ، وأمَّا بقيةُ الدعواتِ في الأكلِ والسفرِ وعيادةِ المرضىٰ وغيرِها . . فستأتي في مواضعِها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وعلى اللهِ التكلانُ (٢)

❁ ❁ ❁

تم كتاب الأذكار والدّعوات

وهو الكتاب التاسع من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وحسن توفيقه ، والصّلاة على خير خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله وصحبه

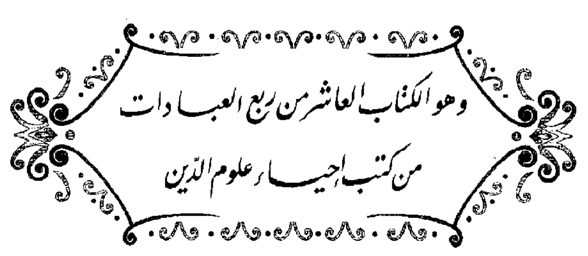
ويتلوه كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات ، وتفصيل إحياء الليل

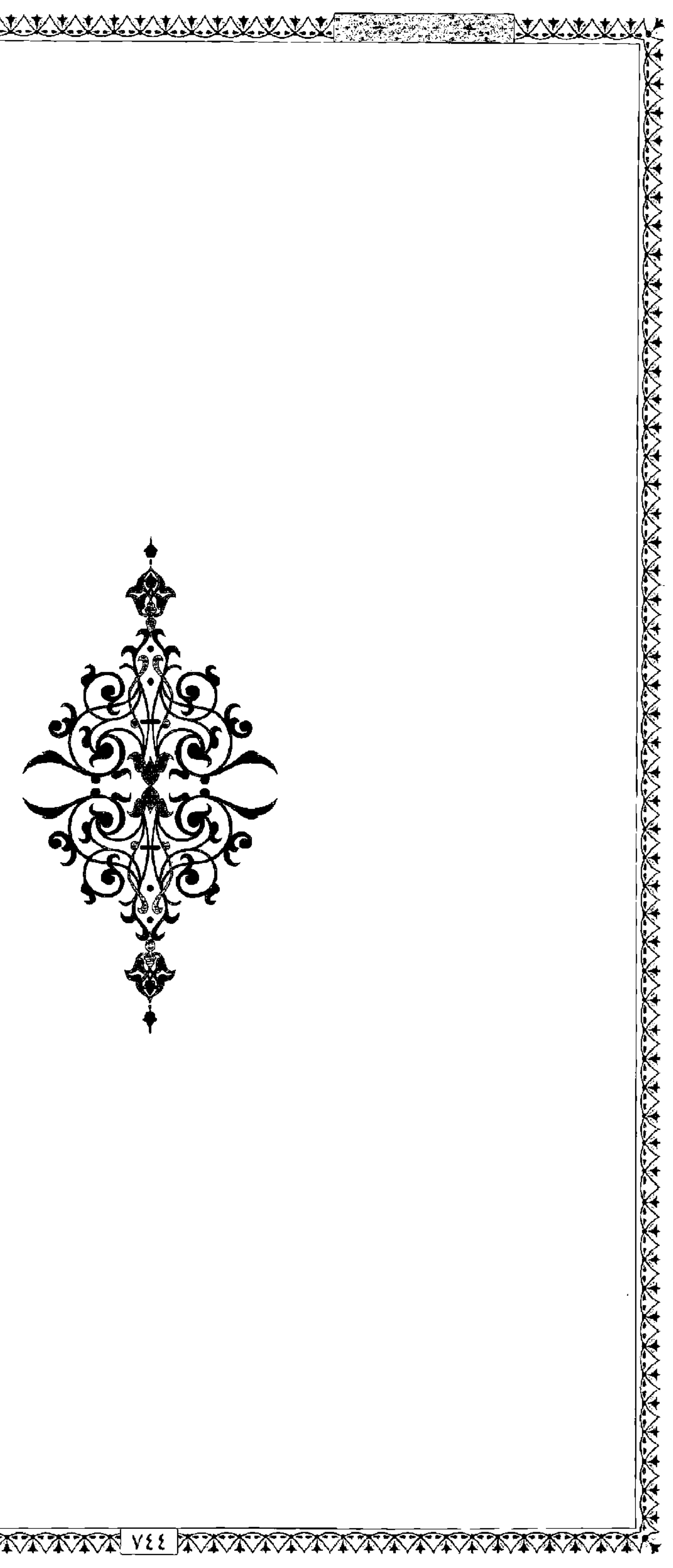
---

(١) ومن فوائد الدعاء : أنه اشتغال بذكر الحق ، وذٰلك يوجب مقام الهيبة في القلوب ، والإنابة في الطاعة ، والانقلاع عن المعاصي ، ولزوم الباب يستدعي الإذن في الدخول ، ولهـٰذا قيل : من أدمن قرع الباب ولجَّ . . وَلَجَ ، وكان يقال : الإذن في الدعاء خير من العطاء ، ومنها : أن ملازمة الدعاء دافعة للبلاء والشقاء ؛ كما قال تعالىٰ حاكياً عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ ، وعن زكريا عليه السلام : ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ . « إتحاف » (١١٧/٥) .

(٢) في هامش (د) : (قوبل بأصله وصحح) .

كتاب
ترتيب الأوراد في الأوقات
وتفصيل إحياء الليل





كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات وتفصيل إحياء الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدُ اللهَ على آلائِهِ حمداً كثيراً ، ونذكرُهُ ذكراً لا يغادرُ في القلبِ استكباراً ولا نفوراً[1] ، ونشكرُهُ إذْ جعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لمَنْ أرادَ أنْ يذكَّرَ أوْ أرادَ شُكوراً .

ونصلِّي على نبيِّهِ الذي بعثَهُ بالحقِّ بشيراً ونذيراً ، وعلى آلِهِ الطاهرينَ وصحبِهِ الأكرمينَ الذينَ اجتهدوا في عبادةِ اللهِ تعالى غدوةً وعشياً وأصيلاً وبكوراً ، حتَّى أصبحَ كلُّ واحدٍ منهُم نجماً في الدينِ هادياً وسراجاً منيراً .

أما بعد :

فإنَّ اللهَ تعالى جعلَ الأرضَ ذَلولاً لعبادِهِ لا ليستقرُّوا في مناكبِها ، بلْ ليتخذوها منزلاً فيتزودوا منها زاداً يحملهُمْ في سفرِهِمْ إلى أوطانِهِمْ ، ويكتنزونَ منها تحفاً لنفوسهِمْ عملاً وفضلاً ، محترزينَ مِنْ مصايدِها ومعاطبِها ، ويتحقَّقونَ أنَّ العمرَ يسيرُ بهِمْ سيرَ السفينةِ براكبِها .

فالناسُ في هٰذا العالمِ سَفْرٌ ، وأوَّلُ منازلِهِمُ المهدُ ، وآخرُها اللحدُ ، والوطنُ هوَ الجنَّةُ أوِ النارُ ، والعمرُ مسافةُ السفرِ ، فسِنوهُ مراحلُهُ ، وشهورُهُ فراسخُهُ ، وأيامُهُ أميالُهُ ، وأنفاسُهُ خطواتُهُ ، وطاعتُهُ بضاعتُهُ ، وأوقاتُهُ رؤوسُ أموالِهِ ، وشهواتُهُ وأغراضُهُ قطَّاعُ طريقِهِ ، وربحُهُ الفوزُ بلقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ في دارِ السلامِ معَ المُلْكِ الكبيرِ والنعيمِ المقيمِ ، وخسرانُهُ البعدُ مِنَ اللهِ تعالى معَ الأنكالِ والأغلالِ والعذابِ الأليمِ في دركاتِ الجحيمِ .

فالغافلُ عنْ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ حتَّى ينقضيَ في غيرِ طاعةٍ تقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالى زُلفى . . متعرضٌ في يومِ التغابنِ لغَبينَةٍ وحسرةٍ ما لها منتهىً[2] .

ولهٰذا الخطرِ العظيمِ والخطبِ الهائلِ شمَّرَ الموفَّقونَ عنْ ساقِ الجدِّ ، وودَّعوا بالكلِّيَّةِ ملاذَّ النفسِ ، واغتنموا بقايا العمرِ ، ورتَّبوا بحسبِ تكرُّرِ الأوقاتِ وظائفَ الأورادِ ؛ حرصاً على إحياءِ الليلِ والنهارِ ، في طلبِ القربِ مِنَ الملكِ الجبَّارِ ، والسعيِ إلى دارِ القرارِ .

فصارَ مِنْ مهمَّاتِ علمِ طريقِ الآخرةِ تفصيلُ القولِ في كيفيَّةِ قسمةِ الأورادِ وتوزيعِ العباداتِ التي سبقَ شرحُها على مقاديرِ الأوقاتِ ، ويتضحُ هٰذا المهمُّ بذكرِ بابينِ :

البابُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الأورادِ ، وترتيبِها في الليلِ والنهارِ .

البابُ الثاني : في كيفيةِ إحياءِ الليلِ ، وفضيلتِهِ وما يتعلَّقُ بهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) **لا يغادر** : لا يترك .

(٢) **الغبينة** : هي من الغبن كالشتيمة من الشتم ، وأهل الجنة يغبنون أهل النار فيرثون منازلهم في الجنة ، ويورِّثونهم منازلهم من النار . والمثلُ الذي ساقه المصنف بعد فصل الخطاب في تشبيه الإنسان والدنيا بالمسافر والسفر . . حكاه في كتابه « فضائح الباطنية » (ص ٢٢٥) ، وهو مقتبس من كلام لسيدنا علي رضي الله عنه كما في « الذريعة » (ص ٦٩) .

الباب الأول
في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد ، وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله عز وجل

اعلمْ : أنَّ الناظرينَ بنورِ البصيرةِ علموا أنَّهُ لا نجاةَ إلا في لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنَّهُ لا سبيلَ إلى اللقاءِ إلا بأنْ يموتَ العبدُ محباً للهِ تعالىٰ ، وعارفاً باللهِ سبحانَه ، وأنَّ المحبَّةَ والأُنسَ لا تحصلُ إلا مِنْ دوامِ ذكْرِ المحبوبِ والمواظبةِ عليهِ ، وأنَّ المعرفةَ لا تحصلُ إلا بدوامِ الفكْرِ فيهِ وفي صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وليسَ في الوجودِ سوى اللهِ تعالىٰ وأفعالِهِ ، ولنْ يتيسَّرَ دوامُ الذكْرِ والفكْرِ إلا بوداعِ الدنيا وشهواتِها ، والاجتزاءِ منها بقدْرِ البلغةِ والضرورةِ ، وكلُّ ذٰلكَ لا يتمُّ إلا باستغراقِ أوقاتِ الليلِ والنهارِ في وظائفِ الأذكارِ والإفكارِ .

والنفسُ لمَا جُبلتْ عليهِ مِنَ السآمةِ والمَلالِ لا تصبرُ علىٰ فنٍّ واحدٍ مِنَ الأسبابِ المعينةِ على الذكرِ والفكرِ ، بلْ إذا رُدَّتْ إلىٰ نمطٍ واحدٍ . . أظهرتِ المَلالَ والاستثقالَ ، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يملُّ حتَّىٰ تملُّوا ، فمِنْ ضرورةِ اللطفِ بها أنْ تروَّحَ بالتنقُّلِ مِنْ فنٍّ إلىٰ فنٍّ ، ومِنْ نوعٍ إلىٰ نوعٍ ، بحسَبِ كلِّ وقتٍ ؛ لتغزُرَ بالانتقالِ لذَّتُها ، وتعظمَ باللذَّةِ رغبتُها ، وتدومَ بدوامِ الرغبةِ مواظبتُها ؛ فلذٰلكَ تُقسَّمُ الأورادُ قسمةً مختلفةً .

والذكرُ والفكرُ ينبغي أنْ يستغرقا جميعَ الأوقاتِ أوْ أكثرَها ، فإنَّ النفسَ بطبعِها مائلةٌ إلىٰ ملاذِّ الدنيا ، فإنْ صرفَ العبدُ شطرَ أوقاتِهِ إلىٰ تدبيراتِ الدنيا وشهواتِها المباحةِ مثلاً ، والشطرَ الآخرَ إلى العباداتِ . . رجحَ جانبُ الميلِ إلى الدنيا ؛ لموافقتِها الطبعَ ، إذْ يكونُ الوقتُ متساوياً ، فأنَّىٰ يتقاومانِ والطبعُ لأحدِهِما مرجِّحٌ ؟! إذِ الظاهرُ والباطنُ يتساعدانِ علىٰ أمورِ الدنيا ، ويصفو في طلبِها القلبُ ويتجرَّدُ ، وأمَّا الردُّ إلى العباداتِ . . فمتكلَّفٌ ، ولا يسلمُ إخلاصُ القلبِ فيهِ وحضورُهُ إلا في بعضِ الأوقاتِ .

فمَنْ أرادَ أنْ يدخلَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ . . فليستغرقْ أوقاتَهُ في الطاعةِ ، ومَنْ أرادَ أنْ تترجَّحَ كفَّةُ حسناتِهِ وتثقُلَ موازينُ خيراتِهِ . . فليستوعبْ في الطاعةِ أكثرَ أوقاتِهِ ، فإنْ خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً . . فأمرُهُ مخطرٌ ، ولٰكنِ الرجاءُ غيرُ منقطعٍ ، والعفوُ مِنْ كرمِ اللهِ عزَّ وجلَّ منتظرٌ ، فعسى اللهُ أنْ يغفرَ لهُ بجودِهِ وكرمِهِ .

فهٰذا ما انكشفَ للناظرينَ بنورِ البصيرةِ ، فإنْ لمْ تكنْ مِنْ أهلِهِ . . فانظرْ إلىٰ خطابِ اللهِ عزَّ وجلَّ لرسولِهِ واقتبسْهُ بنورِ الإيمانِ ، فقدْ قالَ تعالىٰ لأقربِ عبادِهِ إليهِ وأرفعِهِمْ درجةً لديهِ : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ .

ثمَّ انظرْ كيفَ وصفَ الفائزينَ مِنْ عبادِهِ ، وبماذا وصفَهُمْ ؛ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ .

وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ أيْ : فسبّحوا اللهَ حينَ تمسونَ وحينَ تصبحون .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ .

فهٰذا كلُّهُ يبيِّنُ لكَ أنَّ الطريقَ إلى اللهِ تعالىٰ مراقبةُ الأوقاتِ ، وعمارتُها بالأورادِ علىٰ سبيلِ الدوامِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ الذينَ يراعونَ الشمسَ والقمرَ والأظلَّةَ لذكرِ اللهِ تعالىٰ »(١) ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ .

فلا تظنَّنَّ أنَّ المقصودَ مِنْ سيرِ الشمسِ والقمرِ بحسبانٍ منظومٍ مرتَّبٍ ، ومِنْ خلقِ الظلِّ والنورِ والنجومِ . . أنْ يستعانَ بها علىٰ أمورِ الدنيا ، بلْ لتعرفَ بها مقاديرَ الأوقاتِ ، فتشتغلَ فيها بالطاعاتِ والتجارةِ للدارِ الآخرةِ ، يدلُّكَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أيْ : يخلفُ أحدُهما الآخرَ ليتداركَ في أحدِهما ما فاتَ في الآخرِ ، وبيَّنَ أنَّ ذٰلكَ للذكرِ والشكرِ لا لغيرِهِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ ، وإنَّما الفضلُ المبتغىٰ هوَ الثوابُ والمغفرةُ ، ونسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لما يرضيهِ .

* * *

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٠٤) ، والطبراني في « الدعاء » (١٨٧٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٥١/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢٧/٧) .

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

اعلمْ : أنَّ أورادَ النهارِ سبعةٌ : فما بينَ طلوعِ الصبحِ إلىٰ طلوعِ قرْصِ الشمسِ وِردٌ ، وما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ وِردانِ ، وما بينَ الزوالِ إلىٰ وقتِ العصرِ وِردانِ ، وما بينَ العصرِ إلى المغربِ وِردانِ .

والليلُ يقسمُ بأورادٍ أربعةٍ : وردانِ مِنَ المغربِ إلىٰ وقتِ نومِ الناسِ ، ووردانِ مِنَ النصفِ الأخيرِ مِنَ الليلِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ ، ثمَّ وِردٌ خامسٌ وهو وِردُ النومِ ، مختصٌّ بالأذكارِ والأدعيةِ .



فلنذكرْ وظيفةَ كلِّ وِردٍ وفضيلتَهُ وما يتعلَّقُ بهِ :

[بيان أوراد النهار[1]]

فالوردُ الأوّلُ ما بينَ طلوعِ الصبحِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ :

وهوَ وقتٌ شريفٌ ، ويدلُّ علىٰ شرفِهِ وفضلِهِ إقسامُ اللهِ تعالىٰ بهِ ؛ إذْ قالَ : ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ، وتمدُّحُهُ بهِ ؛ إذْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ ، وإظهارُهُ القدرةَ بقبضِ الظلِّ فيهِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴾ ، وهوَ وقتُ قبضِ ظلِّ الليلِ ببسطِ نورِ الشمسِ ، وإرشادُهُ عزَّ وجلَّ الناسَ إلى التسبيحِ فيهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾[2]

❁ ❁ ❁

وأمَّا ترتيبُهُ : فليأخذْ مِنْ وقتِ انتباهِهِ مِنَ النومِ ، فإذا انتبَهَ . . فينبغي أنْ يبتدئَ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فيقولُ : (الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدَما أماتَنا وإليهِ النشورُ)[3] ، إلىٰ آخرِ الأدعيةِ والآياتِ التي ذكرناها في دعاءِ الاستيقاظِ مِنْ كتابِ الدعواتِ .

وليلبسْ ثوبَهُ وهوَ في الدعاءِ ، وينوي بهِ سترَ عورتِهِ امتثالاً لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ واستعانةً علىٰ عبادتِهِ ، مِنْ غيرِ قصدِ رياءٍ ولا رعونةٍ .

ثمَّ يتوجَّهُ إلىٰ بيتِ الماءِ إنْ كانَ بهِ حاجةٌ ، ويُدخِلُ أولاً رِجلَهُ اليسرىٰ ، ويدعو بالأدعيةِ التي ذكرناها في كتابِ الطهارةِ عندَ الدخولِ والخروجِ .

ثمَّ يستاكُ على السنةِ كما سبقَ ، ويتوضَّأُ مراعياً لجميعِ السننِ والأدعيةِ التي ذكرناها في الطهارةِ ، فإنَّا إنَّما قدمْنا آحادَ العباداتِ لكي نذكرَ في هٰذا الكتابِ وجهَ التركيبِ والترتيبِ فقطْ .

فإذا فرغَ مِنَ الوضوءِ . . صلَّىٰ ركعتي الصبحِ ؛ أعني : السنَّةَ في منزلِهِ ، كذٰلكَ كانَ يفعلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[4] ، ويقرأُ بعدَ الركعتينِ ـ سواءٌ أدَّاهُما في البيتِ أوْ في المسجدِ ـ الدعاءَ الذي رواهُ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ويقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ رحمةً مِنْ عندِكَ تهدي بها قلبي) إلىٰ آخرِ الدعاءِ[5] .

ثمَّ يخرجُ مِنَ البيتِ متوجِّهاً إلى المسجدِ ، ولا ينسىٰ دعاءَ الخروجِ إلى المسجدِ[6] ، ولا يسعىٰ إلى الصلاةِ ، بلْ

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (١٩٨٧٦) عن علقمة بن قيس قال : (بلغنا أن الأرض تعج إلى الله من نومة العالم بعد صلاة الصبح) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٤٤٠٥) عن السيدة فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها قالت : مرَّ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجعة متصبحة ، فحركني برجله ثم قال : « يا بنيَّة ؛ قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين ، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشمس » .

(٣) رواه البخاري (٦٣١٢) ، ومسلم (٢٧١١) .

(٤) رواه البخاري (١١٧٣) .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٩) ، والترمذي (٣٤١٩) .

(٦) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) .

يمشي وعليهِ السكينةُ والوقارُ كما وردَ بهِ الخبرُ[1] ، ولا يشبّكُ بينَ أصابعِهِ ويدخلُ المسجدَ ويقدّمُ رجلَهُ اليمنىٰ ويدعو بالدعاءِ المأثورِ لدخولِ المسجدِ[2] ، ثمَّ يطلبُ مِنَ المسجدِ الصفَّ الأوَّلَ إنْ وجدَ متَّسعاً ، ولا يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ ولا يزاحمُ ؛ كما سبقَ ذكرُهُ في كتابِ الجمعةِ .

ثمَّ يصلِّي ركعتيِ الفجرِ إنْ لمْ يكنْ صلَّاهما في المنزلِ ، ويشتغلُ بالدعاءِ المذكورِ بعدَهما ، وإنْ كانَ قدْ صلَّىٰ ركعتيِ الفجرِ . . صلَّىٰ ركعتيِ التحيَّةِ وجلسَ منتظراً للجماعةِ .

والأحبُّ التغليسُ بالجماعةِ ؛ فقدْ كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يغلِّسُ بالصبحِ[3] ، ولا ينبغي أنْ يدعَ الجماعةَ في الصلاةِ عامةً وفي الصبحِ والعشاءِ خاصةً ؛ فلهُما زيادةُ فضلٍ ، فقدْ روىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ في صلاةِ الصبحِ : « مَنْ توضَّأَ ثمَّ توجَّهَ إلىٰ مسجدٍ يصلِّي فيهِ الصلاةَ . . كانَ لهُ بكلِّ خطوةٍ حسنةٌ ، ومُحِيَ عنهُ سيئةٌ ، والحسنةُ بعشْرِ أمثالِها ، فإذا صلَّىٰ ثمَّ انصرفَ عندَ طلوعِ الشمسِ . . كُتِبَ لهُ بكلِّ شعرةٍ في جسدِهِ حسنةٌ ، وانقلبَ بحجَّةٍ مبرورةٍ ، فإنْ جلسَ حتَّىٰ يركعَ . . كُتِبَ لهُ بكلِّ ركعةٍ ألفا ألفِ حسنةٍ ، ومَنْ صلَّى العتمةَ . . فلهُ مثلُ ذٰلكَ ، وانقلبَ بعمرةٍ مبرورةٍ »[4]

وكانَ مِنْ عادةِ السلفِ دخولُ المسجدِ قبلَ طلوعِ الفجرِ ، قالَ رجلٌ مِنَ التابعينَ : دخلتُ المسجدَ قبلَ طلوعِ الفجرِ ، فلقيتُ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قدْ سبقَني ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ لأيِّ شيءٍ خرجتَ مِنْ منزلِكَ في هٰذهِ الساعةَ ؟ فقلتُ : لصلاةِ الغداةِ ، فقالَ : أبشرْ ؛ فإنَّا كنَّا نعدُّ خروجَنا وقعودَنا في المسجدِ في هٰذهِ الساعةِ بمنزلةِ غزوةٍ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، أوْ قالَ : معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[5]

وعنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ طرقَهُ وفاطمةَ رضيَ اللهُ عنهُما وهما نائمانِ ، فقالَ : « ألا تصلُّونَ ؟! قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّما أنفسُنا بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإذا شاءَ أنْ يبعثَنا . . بعثَنا ، فانصرفَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسمعتُهُ وهوَ مدبرٌ يضربُ فخِذَهُ ويقولُ : « ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ »[6]

ثمَّ ينبغي أنْ يشتغلَ بعدَ ركعتيِ الفجرِ ودعائِهِ بالاستغفارِ والتسبيحِ إلىٰ أنْ تقامَ الصلاةُ ، فيقولَ : (أستغفرُ اللهَ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيُّومَ وأتوبُ إليهِ) سبعينَ مرَّةً ، و(سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) مئةَ مرَّةٍ

ثمَّ يصلي الفريضةَ مراعياً جميعَ ما ذكرناهُ مِنَ الآدابِ الباطنةِ والظاهرةِ في الصلاةِ والقدوةِ ، فإذا فرغَ منها . . قعدَ في المسجدِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ مشتغلاً في ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ كما سنرتبُهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ أقعدَ في

---

(١) فيما رواه البخاري (٦٣٦) ، ومسلم (٦٠٢) مرفوعاً : « إذا ثوّب للصلاة . . فلا يسعَ إليها أحدكم ، ولكن ليمشِ وعليه السكينة والوقار ، صلِّ ما أدركت ، واقضِ ما سبقك » .

(٢) رواه الترمذي (٣١٤) ، وابن ماجه (٧٧١) .

(٣) كما في « البخاري » (٥٦٠) ، و« مسلم » (٦٤٦) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/٢١) بنحوه ، وانظر « قوت القلوب » (٢٧/١) .

(٥) قوت القلوب (٤٣/١) .

(٦) رواه البخاري (١١٢٧ ، ٧٣٤٧) ، ومسلم (٧٧٥) .

مجلسٍ أذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ فيهِ مِنْ صلاةِ الغداةِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعْتقَ أرْبعَ رقابٍ »[1]

ورُوِي أنَّهُ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا صلَّى الغداةَ . . قعدَ في مصلَّاهُ حتَّىٰ تطلعَ الشمسُ[2] ، وفي بعضِها : ويصلِّي ركعتينِ[3] ؛ أي : بعدَ الطلوعِ ، وقدْ وردَ في فضلِ ذٰلكَ ما لا يحصىٰ .

وروى الحسنُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ فيما يذكرُ مِنْ رحمةِ ربِّهِ يقولُ : « إنَّهُ تعالىٰ قالَ : يا بنَ آدمَ ؛ اذكرني بعدَ صلاةِ الفجرِ ساعةً وبعدَ صلاةِ العصرِ ساعةً . . أكفِكَ ما بينَهُما »[4]

وإذا ظهرَ فضْلُ ذٰلكَ . . فليقعدْ ولا يتكلَّمْ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ، بلْ ينبغي أنْ تكونَ وظيفتُهُ إلى الطلوعِ أربعةَ أنواعٍ : أدعيةٌ ، وأذكارٌ يكرِّرُها في سبْحَةٍ ، وقراءةُ قرآنٍ ، وتفكرٌ .

❀ ❀ ❀

أمَّا الأدعيةُ : فكما يفرغُ مِنْ صلاتِهِ فليبدأْ وليقلْ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، اللهمَّ ؛ أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، وإليكَ يعودُ السلامُ ، حيِّنا ربَّنا بالسلامِ ، وأدخلْنا دارَ السلامِ ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ .

ثمَّ يفتتحُ الدعاءَ بما كانَ يفتتحُ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ قولُهُ : سبحانَ ربِّيَ العليِّ الأعلى الوهَّابِ[5] ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ أهلُ النعمةِ والفضلِ ، والثناءِ الحسنِ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، ولا نعبدُ إلا إيَّاهُ ، مخلصينَ لهُ الدينَ ولوْ كرهَ الكافرونَ .

ثمَّ يبتدئُ بالأدعيةِ التي أوردْناها في البابِ الثالثِ والرابعِ مِنْ كتابِ الأدعيةِ ، فيدعو بجميعِها إنْ قدرَ عليهِ ، أوْ يحفظُ مِنْ جملتِها ما يراهُ أوفقَ لحالِهِ ، وأرقَّ لقلبِهِ ، وأخفَّ علىٰ لسانِهِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الأذكارُ المكررةُ : فهيَ كلماتٌ وردَ في تكرارِها فضائلُ لمْ نطولْ بإيرادِها ، وأقلُّ ما ينبغي أنْ يكرِّرَ كلَّ واحدٍ منها ثلاثاً أوْ سبعاً ، وأكثرُهُ مئةٌ أوْ سبعونَ ، وأوسطُهُ عشرٌ ، فليكررْ ذٰلكَ بقدْرِ فراغِهِ وسَعةِ وقتِهِ ، وفضلُ الأكثرِ أكثرُ ، والأوسطُ الأقصدُ أنْ يكرِّرَها عشرَ مراتٍ ، فهوَ أجدرُ بأنْ يدومَ عليهِ ، وخيرُ الأمورِ أدومُها وإنْ قلَّ ، وكلُّ وظيفةٍ لا يمكنُ المواظبةُ علىٰ كثيرِها فقليلُها معَ المداومةِ أفضلُ وأشدُّ تأثيراً في القلبِ مِنْ كثيرِها مِنْ غيرِ مداومةٍ .

ومثالُ القليلِ الدائمِ مثالُ قطراتِ ماءٍ تتقاطرُ على الأرضِ على التوالي ، فتحدثُ فيها حُفيرةً ولوْ وقعَتْ على الحجرِ ، ومثالُ الكثيرِ المتفرِّقِ مثالُ ما يصبُّ دفعةً أوْ دفعاتٍ متفرقةً متباعدةَ الأوقاتِ ، فلا يبينُ لها أثرٌ ظاهرٌ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٧) .

(٢) رواه مسلم (٦٧٠) .

(٣) روى الترمذي (٥٨٦) مرفوعاً : « من صلى الغداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتىٰ تطلع الشمس ، ثم صلىٰ ركعتين . . كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة » .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٢٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٣/٨) عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً ، وذكر الحافظ العراقي أن ابن المبارك رواه في « الزهد » عن الحسن مرسلاً انظر « الإتحاف » (١٢٨/٥) .

(٥) رواه أحمد في « مسنده » (٥٤/٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٩٨/١) .

وهـٰذهِ الكلماتُ عشرٌ :

الأولىٰ : قولُهُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ (١)

الثانيةُ : قولُهُ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ (٢) .

الثالثةُ : قولُهُ : سبُّوحٌ قدُّوسٌ ربُّ الملائكةِ والروحِ (٣)

الرابعةُ : قولُهُ : سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ (٤) .

الخامسةُ : قولُهُ : أستغفرُ اللهَ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيُّومَ وأسألُهُ التوبةَ (٥)

السادسةُ : قولُهُ : اللهمَّ ؛ لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجدُّ (٦)

السابعةُ : قولُهُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ الملكُ الحقُّ المبينُ (٧)

الثامنةُ : قولُهُ : باسمِ اللهِ الذي لا يضرُّ معَ اسمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ وهوَ السميعُ العليمُ (٨)

التاسعةُ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ النبيِّ الأميِّ وعلىٰ آلِ محمدٍ (٩)

العاشرةُ : قولُهُ : أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشياطينِ ، وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يَحْضُرونِ (١٠)

فهـٰذهِ العشرُ كلماتٍ إذا كرَّرَ كلَّ واحدةٍ عشرَ مرَّاتٍ . . حصلَ لهُ مئةُ مرَّةٍ ، فهوَ أفضلُ مِنْ أنْ يكرِّرَ ذكراً واحداً مئةَ مرَّةٍ ؛ لأنَّ لكلِّ واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الكلماتِ فضلاً علىٰ حيالِها ، وللقلبِ بكلِّ واحدةٍ نوعُ تنبيهٍ وتلذُّذٍ ، وللنفسِ في الانتقالِ مِنْ كلمةٍ إلىٰ كلمةٍ نوعُ استراحةٍ وأمنٍ مِنَ المَلالِ (١١)

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) ، والحديث عن فضل التكرار هنا وفيما سيأتي مطلق .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٧٥/٣) بمطلق الاستكثار ، ولفظة : (العلي العظيم) عند ابن عدي في « الكامل » (١٥/٥) .

(٣) رواه مسلم (٤٨٧) ، وورد تكرارها عند ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٣٩) ولفظه مرفوعاً : « أكثر من أن تقول : سبحان الملك القدوس ، ربِّ الملائكة والروح . . . » الحديث ، وهو في ذهاب الوحشة .

(٤) رواه البخاري (٦٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٩١) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه المستغفري في « الدعوات » من حديث معاذ ، أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات . كفرت ذنوبه وإن كانت أكثر من زبد البحر ، ولفظه : « وأتوب إليه ») ، ونحوه عند الترمذي (٣٣٩٧) كذلك .

(٦) رواها البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٤٧١ ، ٥٩٣) عقب الصلاة وبعد الركوع مطلقاً .

(٧) هو عند الدارقطني في « العلل » (١٠٦/٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٠/٨) ، والخطيب في « الرحلة في طلب الحديث » (ص ٢٠٤) .

(٨) رواه أبو داوود (٥٠٨٨) ، والترمذي (٣٣٨٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٥٩) ، وابن ماجه (٣٨٦٩) .

(٩) صيغة مركبة من حديثين ، ففي « البخاري » (٤٧٩٨) : « قولوا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد عبدك ورسولك . . . » الحديث ، وعند أبي داوود (٩٧٩) : « قولوا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد النبي الأمي وعلىٰ آل محمد » ، والإكثار من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم مستفيض في دواوين السنة .

(١٠) رواه الترمذي (٢٩٢٢) مرفوعاً : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آياتٍ من آخر سورة (الحشر) . . وكَّلَ اللهُ به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتىٰ يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم . . مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي . . كان بتلك المنزلة » .

(١١) قوت القلوب (٦/١) .

فأمَّا القراءةُ : فيستحبُّ لهُ قراءةُ جملةٍ مِنَ الآياتِ وردتِ الأخبارُ بفضلِها ، وهوَ أنْ يقرأَ : سورةَ (الحمد)[(١)] ، وآيةَ الكرسيِّ[(٢)] ، وخاتمةَ (البقرةِ)[(٣)] ؛ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ ، و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ ، و﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . . ﴾ الآيتينِ[(٤)] ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ إلىٰ آخرِها[(٥)] ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ . . . ﴾ إلىٰ آخرِها[(٦)] ، وقولَهُ سبحانَهُ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . . ﴾ الآيةَ[(٧)] ، وخمسَ آياتٍ مِنْ أوَّلِ (الحديدِ)[(٨)] ، وثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ سورةِ (الحشرِ)[(٩)] .

وإنْ قرأَ المسبَّعاتِ العشرَ التي أهداها الخضرُ عليهِ السلامُ إلىٰ إبراهيمَ التيميِّ رحمَهُ اللهُ ووصَّاهُ أنْ يقولَها غدوةً وعشيةً . . فقدِ استكملَ الفضلَ ، وجمعَ لهُ ذٰلكَ فضيلةَ جملةِ الأدعيةِ المذكورةِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ كرزِ بنِ وبرةَ وكانَ مِنَ الأبدالِ رحمهُ اللهُ قالَ : أتاني أخٌ لي مِن أهلِ الشامِ ، فأهدىٰ لي هديةً وقالَ : يا كرزُ ؛ اقبلْ منِّي هٰذهِ الهديةَ ؛ فإنَّها نعمتِ الهديةُ ، فقلتُ : يا أخي ؛ ومَنْ أهدىٰ لكَ هٰذهِ الهديةَ ؟ قالَ : أعطانيها إبراهيمُ التيميُّ ، قلتُ : أفلمْ تسألْ إبراهيمَ التيميَّ مَنْ أعطاهُ إيَّاها ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : كنتُ جالساً في فِناءِ الكعبةِ وأنا في التهليلِ والتسبيحِ والتحميدِ والتمجيدِ ، فجاءني رجلٌ ، فسلَّمَ عليَّ وجلسَ عنْ يميني ، فلمْ أرَ في زماني أحسنَ منهُ وجهاً ، ولا أحسنَ منهُ ثياباً ، ولا أشدَّ بياضاً ، ولا أطيبَ ريحاً منهُ ، فقلتُ : يا عبدَ اللهِ ؛ مَنْ أنتَ ، ومِنْ أينَ جئتَ ، فقالَ : أنا الخضرُ ، فقلتُ : في أيِّ شيءٍ جئتني ؟ فقالَ : جئتُكَ للسلامِ عليكَ وحبّاً لكَ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، وعندي هديةٌ أريدُ أنْ أهديَها إليكَ ، فقلتُ : ما هيَ ؟ قالَ : أنْ تقرأَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وانبساطِها على الأرضِ وقبلَ الغروبِ سورةَ (الحمدِ) ، و(قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ) و(قلْ أعوذُ بربِّ الفلقِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وآيةَ الكرسيِّ ، كلَّ واحدةٍ سبعَ مرَّاتٍ ، وتقولَ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) سبعاً ، وتصلِّيَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبعاً ، وتستغفرَ لنفسِكَ ولوالديكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ سبعاً ، وتقولَ : اللهمَّ ؛ افعلْ بي وبهِمْ عاجلاً وآجلاً في الدينِ

---

(١) فهي أعظم سورة في القرآن كما في « البخاري » (٤٤٧٤) .

(٢) وهي أعظم آية في القرآن كما في « مسلم » (٨١٠) .

(٣) أتىٰ فضلها في « البخاري » (٤٠٠٨) ، و« مسلم » (٨٠٧) .

(٤) روىٰ في فضلها ابن السني في « عمل اليوم والليلة » مرفوعاً : « إن (فاتحة الكتاب) ، وآية الكرسي ، والآيتين من (آل عمران) ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . . ﴾ ، و﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ ﴾ ، معلقات ما بينهن وبين الله عز وجل حجاب ، لما أراد الله أن ينزلهن . . تعلقن بالعرش ، قلن : ربنا تهبطنا إلىٰ أرضك وإلىٰ من يعصيك ؟ فقال الله عز وجل : بي حلفت ؛ لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه علىٰ ما كان منه ، وإلا أسكنته حظيرة القدس . . . » الحديث .

(٥) روى الطبراني حديثاً في فضل الآية الخاتمة منها في « الدعاء » (١٠٥٩) ، ونقل الحافظ عن أبي القاسم الغافقي في « فضائل القرآن » لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لزم قراءة : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ لم يمت هدماً ولا غرقاً ولا حرقاً ولا ضرباً بحديدة » . انظر « الإتحاف » (١٣٣/٥) .

(٦) روى البخاري (٤١٧٧) في فضل السورة عموماً قولَه صلى الله عليه وسلم : « لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ » ، وروى الثعلبي في « تفسيره » (٤٠/٩) عن يزيد بن هارون يقول : سمعت المسعودي يذكر قال : بلغني أن من قرأ في أول ليلة من رمضان ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ في التطوع . . حفظ ذلك العام .

(٧) روىٰ أحمد في « المسند » (٤٣٩/٣) مرفوعاً : « آية العز : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . . ﴾ » الآية كلَّها .

(٨) ذكر أبو القاسم الغافقي في « فضائل القرآن » من حديث علي رضي الله عنه : (إذا أردت أن تسأل الله حاجة . . فاقرأ خمس آيات من أول سورة « الحديد » إلىٰ قوله : ﴿ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ ، ومن آخر سورة « الحشر » من قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ . . . ﴾ إلىٰ آخر السورة ، ثم تقول : يا من هو كذا ؛ افعل بي كذا ، ثم تدعو بما تريد) . « إتحاف » (١٣٤/٥) ، وانظر « الدر المنثور » (١٢٢/٨) .

(٩) تقدم الحديث في ذكر فضلها تعليقاً ، وروى البيهقي في « الشعب » (٢٢٧١) مرفوعاً : « من قرأ خواتيم (الحشر) في ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته . . فقد أوجب الجنة » .

والدنيا والآخرةِ ما أنتَ لهُ أهلٌ ، ولا تفعلْ بنا يا مولانا ما نحنُ لهُ أهلٌ ، إنَّكَ غفورٌ حليمٌ[1] جوادٌ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ سبعَ مرَّاتٍ ، وانظرْ ألَّا تدعَ ذٰلكَ غدوةً وعشيةً .

فقلتُ : أحبُّ أنْ تخبرَني مَنْ أعطاكَ هٰذهِ العطيةَ العظيمةَ ؟ فقالَ : أعطانيها محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ : أخبرْني بثوابِ ذٰلكَ ، فقالَ : إذا لقيتَ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسَلْهُ عنْ ثوابِهِ ، فإنَّهُ يخبرُكَ بذٰلكَ .

فذكرَ إبراهيمُ التيميُّ أنَّهُ رأىٰ ذاتَ ليلةٍ في منامِهِ كأنَّ الملائكةَ جاءتْهُ فاحتملتْهُ حتَّىٰ أدخلوهُ الجنةَ ، فرأىٰ ما فيها ، ووصفَ أموراً عظيمةً ممَّا رآهُ في الجنةِ ، قالَ : فسألتُ الملائكةَ فقلتُ : لمَنْ هٰذا كلُّهُ ؟ فقالوا : للذي يعملُ مثلَ عملِكَ ، وذكرَ أنَّهُ أكلَ مِنْ ثمرِها وسقوهُ مِنْ شرابِها ، قالَ : فأتاني النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعهُ سبعونَ نبيّاً وسبعونَ صفّاً مِنَ الملائكةِ ، كلُّ صفٍّ مثلُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ ، فسلَّمَ عليَّ ، وأخذَ بيدي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الخضرَ أخبرَني أنَّهُ سمعَ منكَ هٰذا الحديثَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : صدقَ الخضرُ ، صدقَ الخضرُ ، وكلُّ ما يحكيهِ فهوَ حقٌّ ، وهوَ عالمُ أهلِ الأرضِ ، وهوَ رئيسُ الأبدالِ ، وهوَ مِنْ جنودِ اللهِ عزَّ وجلَّ في الأرضِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ فمَنْ فعلَ هٰذا أو عملَهُ ولمْ يرَ مثلَ الذي رأيتُ في منامي . . هلْ يُعطىٰ شيئاً ممَّا أُعطيتُهُ ؟ فقالَ : والذي بعثني بالحقِّ نبياً ؛ إنَّهُ ليعطى العاملُ بهٰذا وإنْ لمْ يرني ولمْ يرَ الجنَّةَ ، إنَّهُ ليغفرُ لهُ جميعُ الكبائرِ التي عملَها ويرفعُ اللهُ سبحانَهُ عنهُ غضبَهُ ومقتَهُ ، ويأمرُ صاحبَ الشمالِ ألا يكتبَ عليهِ خطيئةً مِنَ السيئاتِ إلىٰ سنةٍ ، والذي بعثني بالحقِّ نبياً ؛ ما يعملُ بهٰذا إلا مَنْ خلقَهُ اللهُ سعيداً ، ولا يتركُهُ إلا مَنْ خلقَهُ اللهُ شقيّاً[2]

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ يمكثُ أربعةَ أشهرٍ لمْ يطعمْ ولمْ يشربْ ، فلعلَّهُ كانَ بعدَ هٰذهِ الرؤيا[3]

فهٰذهِ وظيفةُ القراءةِ ، فإنْ أضافَ إليها شيئاً ممَّا انتهىٰ إليهِ وردُهُ مِنَ القرآنِ أوِ اقتصرَ عليهِ . . فهو حسنٌ ؛ فإنَّ القرآنَ جامعٌ لفضلِ الذكرِ والفكرِ والدعاءِ مهما كانَ بتدبُّرٍ كما ذكرنا فضلَهُ وآدابَهُ في كتابِ التلاوةِ .



(١) الذي في النسخ : (رحيم) بدل (حليم) ، والمثبت من « القوت » (٧/١) ، ونسخة الحافظ الزبيدي ، والله أعلم .

(٢) القصة رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٩/١٦) إلىٰ قوله : (وهو من جنود الله عز وجل في الأرض) ، وتمامها عند صاحب « القوت » (٧/١) ، قال الحافظ الزبيدي بعد أن حدَّث عن ضعف سندها : (ولٰكن مثل هٰذا يغتفر في فضائل الأعمال ، لا سيما وقد تلقته الأمة بالقبول ، والله أعلم) . وقد حكى الحافظ العراقي عبارة علمية دقيقة في شأن حياة الخضر عليه السلام واجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : (ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ، ولا حياته ولا موته) . « إتحاف » (١٣٥/٥) ، فنفى الحافظ الصحة عن الخبر ، وهٰذا لا يمنع ما دونه ، ثم سوَّىٰ في الأخبار الواردة فلا ترجيح ، فكما أنه لم يصح شيء في حياته فكذٰلك القول في موته ، وكما أنه لم يصح شيء في اجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم فكذٰلك لم يصح شيء في عدم اجتماعه به ، فعاد الأمر إلىٰ أذواق خاصة في الاستدلال . وممن قال بحياته عليه السلام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح في « فتاويه » (١٨٥/١) حيث قال : (وأما الخضر عليه السلام . . فهو من الأحياء عند جماهير الخاصة من العلماء والصالحين ، والعامة معهم في ذٰلك ، وإنما شذَّ بإنكار ذٰلك بعض أهل الحديث) ، وقال الإمام النووي في « المجموع » (٢٦٩/٥) وهو يحكي عن الخضر عليه السلام : (وإنما ذكره أصحابنا ، وفيه دليل منهم لاختيارهم ما هو المختار ، وترجيح ما هو الصواب ، وهو أن الخضر عليه السلام حي باق ، وهٰذا قول أكثر العلماء) ، وقد قال الإمام المفسر القرطبي في « تفسيره » (٤١/١١) وهو يحكي الخلاف : (والصحيح القول الثاني ، وهو أنه حي) . وهٰذا لا يمنع وجود أقوال معارضة لذٰلك ، ووجود من فوَّض الأمر فيه عليه السلام إلى الله تعالىٰ ؛ كما فعل ذٰلك الحافظ ابن حجر في ترجمته الطويلة في « الإصابة » (٤٢٨/١) وقد ذكره في القسم الأول وقال : (فهو داخل في تعريف الصحابي علىٰ أحد الأقوال ، ولم أر من ذكره فيهم من القدماء مع ذهاب الأكثر إلى الأخذ بما ورد من أخباره في تعميره وبقائه) ، ثم أفرده في كتاب « الزهر النضر في نبأ الخضر » .

(٣) قوت القلوب (٧/١) .

وأمَّا الإفكارُ : فليكنْ ذٰلكَ أحدَ وظائفِهِ ، وسيأتي تفصيلُ ما يتفكرُ فيهِ وكيفيتُهُ في كتابِ التفكُّرِ مِنْ ربعِ المنجياتِ إنْ شاءَ اللهُ ، ولـٰكنْ مجامعُهُ ترجعُ إلىٰ فنَّيْنِ :

أحدُهما : أنْ يتفكَّرَ فيما ينفعُهُ في المعاملةِ ؛ بأنْ يحاسبَ نفسَهُ فيما سبقَ مِنْ تقصيرِهِ [١] ، ويرتِّبَ وظائفَهُ في يومِهِ الذي بينَ يديهِ ، ويدبِّرَ في دفعِ الصوارفِ والعوائقِ الشاغلةِ لهُ عنِ الخيرِ ، ويتذكَّرَ تقصيرَهُ وما يتطرَّقُ إليهِ الخللُ مِنْ أعمالِهِ ليصلحَهُ ، ويحضرَ في قلبِهِ النيَّاتِ الصالحةَ في أعمالِهِ في نفسِهِ وفي معاملتِهِ للمسلمينَ [٢] .

الفنُّ الثاني : فيما ينفعُهُ في علمِ المكاشفةِ ، وذٰلكَ بأنْ يتفكَّرَ مرَّةً في نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتواترِ آلائِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، لتزيدَ معرفتُهُ بها ، ويكثرَ شكرُهُ عليها ، أوْ في عقوباتِهِ ونقماتِهِ ؛ لتزيدَ معرفتُهُ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ واستغنائِهِ ، ويزيدَ خوفُهُ منها ، ولكلِّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الأمورِ شعبٌ كثيرةٌ يتسعُ التفكُّرُ فيها علىٰ بعضِ الخلقِ دونَ البعضِ ، وإنَّما نستقصي ذٰلكَ في كتابِ التفكُّرِ .

❁ ❁ ❁

ومهما تيسَّرَ الفكرُ . . فهوَ أشرفُ العباداتِ ؛ إذْ فيهِ معنى الذكرِ للهِ سبحانَهُ وزيادةُ أمرينِ :

أحدُهما : زيادةُ المعرفةِ ؛ إذِ الفكرُ مفتاحُ المعرفةِ والكشفِ [٣] .

والثاني : زيادةُ المحبَّةِ ؛ إذْ لا يحبُّ القلبُ إلا مَنِ اعتقدَ تعظيمَهُ ، ولا تنكشفُ عظمةُ اللهِ سبحانَهُ وجلالُهُ إلا بمعرفةِ صفاتِهِ ، ومعرفةِ قدرتِهِ ، وعجائبِ أفعالِهِ ، فيحصلُ مِنَ الفكرِ المعرفةُ ، ومِنَ المعرفةِ التعظيمُ ، ومِنَ التعظيمِ المحبَّةُ .

والذكرُ أيضاً يورثُ الأنسَ ، وهوَ نوعٌ مِنَ المحبَّةِ ، ولـٰكنِ المحبَّةُ التي سببُها المعرفةُ أقوىٰ وأثبتُ وأعظمُ ، ونسبةُ محبةِ العارفِ إلىٰ أنسِ الذاكرِ مِنْ غيرِ تمامِ الاستبصارِ كنسبةِ عشقِ مَنْ شاهدَ جمالَ شخصٍ بالعينِ واطلعَ علىٰ حسنِ أخلاقِهِ وأفعالِهِ وفضائلِهِ وخصالِهِ الحميدةِ بالتجربةِ إلىٰ أنسِ مَنْ كُرِّرَ علىٰ سمعِهِ وصْفُ شخصٍ غائبٍ عنْ عينِهِ بالحسنِ في الخَلْقِ والخُلُقِ مطلقاً مِنْ غيرِ تفصيلِ وجوهِ الحسنِ فيهما ، فليسَ محبَّتُهُ لهُ كمحبةِ المشاهدِ ، وليسَ الخبرُ كالمعاينةِ .

والعبادُ المواظبونَ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ بالقلبِ واللسانِ ، الذينَ صدَّقوا بما جاءتْ بهِ الرسلُ بالإيمانِ التقليديِّ . . ليسَ معهُمْ مِنْ محاسنِ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ إلا أمورٌ جُمْليَّةٌ اعتقدوها بتصديقِ مَنْ وصفَها لهُمْ ، والعارفونَ هُمُ الذينَ شاهدوا ذٰلكَ الجلالَ والجمالَ بعينِ البصيرةِ الباطنةِ التي هيَ أقوىٰ مِنَ البصرِ الظاهرِ لا أنَّ أحداً أحاطَ بكنْهِ جلالِهِ وجمالِهِ ، فإنَّ ذٰلكَ غيرُ مقدورٍ لأحدٍ مِنَ الخلقِ [٤] ، ولـٰكنْ كلُّ واحدٍ شاهدَ بقدْرِ ما رفعَ لهُ مِنَ الحجابِ .

---

(١) عن الشكر في ظواهر النعم وبواطنها ، وعجزه عن القيام بما أمر به من حسن الطاعة ودوام الشكر على النعمة . « إتحاف » (١٣٥/٥) .

(٢) أي : يعقد طريقه علىٰ حسن المعاملة بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الخلق ، ويدخل في ذٰلك التفكر فيما عليه من الأوامر والنوادب ، وفي كثيف ستر الله تعالىٰ ولطيف صنعه به ، ويستغفر الله تعالىٰ ويجدد التوبة لما مضىٰ من عمره ، ولما يأتنف من مستقبله ، ويخلص الدعاء بتمسكن وتضرع ووجل وإخبات أن يعصمه من جميع النهي ، وأن يوفقه لصالح الأعمال ، ويتفضل عليه برغائب الإفضال ، وهو في ذٰلك فارغ القلب مجرَّد الهم ، موقن بالإجابة راضٍ بالقسم ، ويتكلم بمعروف وخير ، ويدعو به إلى الله عز وجل ، وينفع به أخاه المسلم ، ويعلم من دونه في العلم . « إتحاف » (١٣٦/٥) .

(٣) لأنه إدارة فكر وتصرف قلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب ، فالفكر يد النفس التي تنال بها المعلومات كما تنال بيد الجسم المحسوسات ، وبهـٰذا التصرف القلبي يتدرج إلىٰ فتوح باب المعرفة والكشف الإلـٰهي . « إتحاف » (١٣٦/٥) .

(٤) إذ نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه ، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالىٰ . . . ، وأما اتساع المعرفة إنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته . « إتحاف » (١٣٧/٥) .

ولا نهايةَ لجمالِ حضرةِ الربوبيةِ ولا لحُجُبِها ، وإنَّما عددُ حُجُبِها التي استحقتْ أنْ تسمَّىٰ نوراً ـ وكادَ أنْ يظنَّ الواصلُ إليها أنَّهُ قدْ تمَّ وصولُهُ إلى الأصلِ ـ سبعونَ حجاباً ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ ، لوْ كشفَها . . لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ كلَّ ما أدرَكَ بصرُهُ »[1]

وتلكَ الحجبُ أيضاً مترتبةٌ ، وتلكَ الأنوارُ متفاوتةٌ في الرتبِ تفاوتَ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ ، ويبدو في الأوَّلِ أصغرُها ، ثمَّ ما يليهِ ، وعلىٰ ذٰلكَ أوَّلَ بعضُ الصوفيةِ درجاتِ ما كانَ يظهرُ لإبراهيمَ الخليلِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ في ترقِّيهِ وقالَ : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ أيْ : أظلمَ عليهِ الأمرُ . . ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ أي : وصلَ إلىٰ حجابٍ مِنْ حُجُبِ النورِ ، فعبَّرَ عنهُ بالكوكبِ[2] ، وما أريدَ بِهِ هٰذهِ الأجسامُ المضيئةُ ؛ فإنَّ آحادَ العوامِّ لا يخفىٰ عليهِمْ أنَّ الربوبيَّةَ لا تليقُ بالأجسامِ ، بلْ يدركونَ ذٰلكَ بأوائلِ نظرِهِمْ ، فما لا يضلِّلُ العوامَّ لا يضلِّلُ الخليلَ عليهِ السلامُ .

والحُجُبُ المسمَّاةُ أنواراً ما أُريدَ بها الضوءُ المحسوسُ بالبصرِ ، بلْ أُريدَ بها ما أريدَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . . . ﴾ الآيةَ .

ولنتجاوزْ هٰذهِ المعانيَ ؛ فإنَّها خارجةٌ عَنْ علمِ المعاملةِ ، ولا يُوصلُ إلىٰ حقائقِها إلا بالكشْفِ التابعِ للفكرِ الصافي ، وقلَّ مَنْ يفتحُ لهُ بابُهُ ، والمتيسِّرُ علىٰ جماهيرِ الخلائقِ الفكرُ فيما يفيدُ في علومِ المعاملةِ ، وذٰلكَ أيضاً ممَّا تغزرُ فائدتُهُ ويعظُمُ نفعُهُ .

فهٰذهِ الوظائفُ الأربعةُ ـ أعني : الدعاءَ ، والذكرَ ، والقراءةَ ، والفكرَ ـ ينبغي أنْ تكونَ وظيفةَ المريدِ بعدَ صلاةِ الصبحِ ، بلْ في كلِّ وِردٍ بعدَ الفراغِ مِنْ وظيفةِ الصلاةِ ، فليسَ بعدَ الصلاةِ وظيفةٌ سوىٰ هٰذهِ الأربعِ .

ويَقْوَىٰ علىٰ ذٰلكَ بأنْ يأخذَ سلاحَهُ ومجنَّهُ ، والصومُ هوَ الجُنَّةُ التي تضيِّقُ مجاريَ الشيطانِ المعادي الصارفِ لهُ عنْ سبيلِ الرشادِ .

وليسَ بعدَ طلوعِ الصبحِ صلاةٌ سوىٰ ركعتي الفجرِ وفرضِ الصبحِ إلى الطلوعِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ رضيَ اللهُ عنهُم يشتغلونَ في هٰذا الوقتِ بالأذكارِ[3] ، وهوَ الأولىٰ ، إلا أنْ يغلبَهُ النومُ قبلَ الفرضِ ولمْ يندفعْ إلّا بالصلاةِ ، فلو صلَّىٰ لذٰلكَ . . فلا بأسَ بِهِ .

❁ ❁ ❁

الوردُ الثاني : ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلىٰ ضحوةِ النهارِ :

وأعني بالضحوةِ منتصفَ ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ ، وذٰلكَ بمضيِّ ثلاثِ ساعاتٍ مِنَ النهارِ إذا فرضَ النهارُ اثنتي عشرةَ ساعةً ، وهوَ الربعُ ، وفي هٰذا الربعِ مِنَ النهارِ وظيفتانِ زائدتانِ :

ـ إحداهُما : صلاةُ الضحىٰ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ الصلاةِ أنَّ الأولىٰ أنْ يصلِّيَ ركعتينِ عندَ الإشراقِ ، وذٰلكَ إذا

---

(١) رواه مسلم (١٧٩) بلفظ : « حجابه النور » ، ولفظ : « سبعين حجاباً » عند الطبراني في « الأوسط » (٦٤٠٣) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥٥/٥) مرفوعاً : « يا جبريل ؛ هل ترىٰ ربك ؟ قال : إن بيني وبينه لسبعين حجاباً من نار أو من نور ، لو دنوت من أدناها . . لاحترقت » . وانظر إلىٰ ما قاله المصنف رحمه الله تعالىٰ في « مشكاة الأنوار » (ص ٧٥) .

(٢) انظر إلىٰ ما قاله المصنف رحمه الله تعالىٰ في « مشكاة الأنوار » (ص ٥٥) .

(٣) روىٰ ذٰلك الخبر أبو داوود (٣٦٦٧) .

انبسطتِ الشمسُ وارتفعتْ قدرَ نصفِ رمحٍ ، ويصلِّيَ أربعاً أوْ ستاً أوْ ثمانياً إذا رَمِضَتِ الفصالُ[1] ، وضحيتِ الأقدامُ بحرِّ الشمسِ .

فوقتُ الركعتينِ هوَ الذي أرادَ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ ، فإنَّهُ وقتُ إشراقِ الشمسِ ، وهوَ ظهورُ تمامِ نورِها بارتفاعِها عنْ مُوازاةِ البخاراتِ والغباراتِ التي علىٰ وجهِ الأرضِ ، فإنَّها تمنعُ إشراقَها التامَّ .

ووقتُ الركعاتِ الأربعِ هوَ الضحى الأعلى الذي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ فقالَ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ، وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ أصحابِهِ وهمْ يصلُّونَ عندَ الإشراقِ ، فنادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : « ألا إنَّ صلاةَ الأوَّابينَ إذا رمضتِ الفصالُ »[2]

فلذٰلكَ نقولُ : إذا كانَ يقتصرُ علىٰ مرَّةٍ واحدةٍ في الصلاةِ . . فهٰذا الوقتُ أفضلُ لصلاةِ الضحىٰ ، وإنْ كانَ أصلُ الفضلِ يحصلُ بالصلاةِ بينَ طرفي وقتي الكراهةِ ، وهوَ ما بينَ ارتفاعِ الشمسِ بطلوعِ نصفِ رمحٍ بالتقريبِ إلىٰ ما قبلَ الزوالِ في ساعةِ الاستواءِ ، فاسمُ الضحىٰ ينطلقُ على الكلِّ ، وكأنَّ ركعتي الإشراقِ تقعُ في مبدأ وقتِ الإذنِ في الصلاةِ وانقضاءِ الكراهةِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشمسَ تطلعُ ومعَها قرنُ الشَّيطانِ ، فإذا ارتفعَتْ . . فارقَها »[3] ، فأقلُّ ارتفاعِها أنْ ترتفعَ عنْ بخاراتِ الأرضِ وغبارِها ، وهٰذا يراعىٰ بالتقريبِ .

ـ الوظيفةُ الثانيةُ في هٰذا الوقتِ : الخيراتُ المتعلِّقةُ بالناسِ التي جرتْ بها العاداتُ بكرةً ؛ مِنْ عيادةِ مريضٍ ، وتشييعِ جَنازةٍ ، ومعاونةٍ علىٰ برٍّ وتقوىٰ ، وحضورِ مجلسِ علمٍ ، وما يجري مجراهُ ؛ مِنْ قضاءِ حاجةٍ لمسلمٍ وغيرِها .

فإنْ لمْ يكنْ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ . . عادَ إلى الوظائفِ الأربعِ التي قدَّمْناها ؛ مِنَ الأدعيةِ ، والذكرِ ، والقراءةِ ، والفكرِ ، أوِ الصلواتِ المتطوَّعِ بها إنْ شاءَ ، فإنَّها مكروهةٌ بعدَ صلاةِ الصبحِ وليستْ مكروهةً الآنَ ، فتصيرُ الصلاةُ قسماً خامساً مِنْ جملةِ وظائفِ هٰذا الوقتِ لمَنْ أرادَهُ .

وأمَّا بعدَ فريضةِ الصبحِ . . فتكرَهُ كلُّ صلاةٍ لا سببَ لها ، وبعدَ الصبحِ الأحبُّ أن يقتصرَ علىٰ ركعتي الفجرِ وتحيَّةِ المسجدِ ، ولا يشتغلَ بالصلاةِ ، بلْ بالأذكارِ والقراءةِ والدعاءِ والفكرِ .



الوردُ الثالثُ : مِنْ ضحوةِ النهارِ إلى الزوالِ :

ونعني بالضحوةِ المنتصفَ وما قبلَهُ بقليلٍ وكأنَّ بعدَ كلِّ ثلاثِ ساعاتٍ أمرٌ بصلاةٍ ؛ فإذا انقضىٰ ثلاثُ ساعاتٍ بعدَ الطلوعِ . . فعندَها وقبيلَ مضيِّها صلاةُ الضحىٰ ، فإذا مضتْ ثلاثٌ أخرىٰ . . فالظهرُ ، فإذا مضتْ ثلاثٌ أخرىٰ . . فالعصرُ ، فإذا مضتْ ثلاثٌ أخرىٰ . . فالمغربُ[4]

ومنزلةُ الضحىٰ بينَ الزوالِ والطلوعِ كمنزلةِ العصرِ بينَ الزوالِ والغروبِ ، إلا أنَّ الضحىٰ لمْ تُفترضْ ؛ لأنَّهُ وقتُ إكبابِ الناسِ علىٰ أشغالِهِمْ ، فخُففَ عنهُمْ .

---

(١) **الفصال** : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة ؛ **والمعنىٰ** : أي نامت في ظل أمَّاتها عند حر الشمس ، أو بمعنى احتراق أخفافها من شدة حرِّ الرمل .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣٧٤/٤) ، وهو عند مسلم (٧٤٨) دون ذكر وقت الإشراق .

(٣) رواه النسائي (٢٧٥/١) ، وابن ماجه (١٢٥٣) .

(٤) حينئذٍ ، وبه كملت اثنتا عشرة ساعة من النهار العرفي . « إتحاف » (١٤٢/٥) .

والوظيفةُ في هٰذا الوقتِ الأقسامُ الأربعةُ ، ويزيدُ أمرانِ :

ـ **أحدُهما** : الاشتغالُ بالكسبِ ، وتدبيرِ المعاشِ ، وحضورِ السوقِ : فإنْ كانَ تاجراً . . فينبغي أنْ يتَّجرَ بصدْقٍ وأمانةٍ ، وإنْ كانَ صاحبَ صناعةٍ . . فبنصْحٍ وشفقةٍ ، ولا ينسىٰ ذكرَ اللهِ تعالىٰ في جميعِ أشغالِهِ ، ويقتصرُ مِنَ الكسبِ علىٰ قدْرِ حاجتِهِ ليومِهِ مهما قدرَ علىٰ أنْ يكتسبَ في كلِّ يومٍ لقوتِهِ[١]

فإذا حصلتْ كفايةُ يومِهِ . . فليرجعْ إلىٰ بيتِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ ، وليتزودْ لآخرتِهِ ؛ فإنَّ الحاجةَ إلىٰ زادِ الآخرةِ أشدُّ ، والتمتُّعَ بِهِ أدومُ ، فالاشتغالُ بكسبِهِ أهمُّ مِنْ طلبِ الزيادةِ علىٰ حاجةِ الوقتِ ؛ فقدْ قيلَ : (لا يوجدُ المؤمنُ إلا في ثلاثِ مواطنَ : مسجدٌ يعمُرُهُ ، أوْ بيتٌ يسترُهُ ، أوْ حاجةٌ لا بدَّ لهُ منها)[٢] ، وقلَّ مَنْ يعرفُ القدرَ فيما لا بدَّ منهُ ، بلْ أكثرُ الناسِ يقدِّرونَ فيما عنهُ بدٌّ أنَّهُ لا بدَّ لهُمْ منهُ ، وذٰلكَ لأنَّ الشيطانَ يعدُهُمُ الفقرَ ويأمُرُهُمْ بالفحشاءِ ، فيصغونَ إليهِ ، ويجمعونَ ما لا يأكلونَ ؛ خيفةَ الفقرِ ، واللهُ يعدُهُمْ مغفرةً منهُ وفضلاً ، فيعرضونَ عنهُ ، ولا يرغبونَ فيهِ .

ـ **الأمرُ الثاني** : القيلولةُ : وهيَ سنَّةٌ ليستعينَ بها علىٰ قيامِ الليلِ ، كما أنَّ التسحُّرَ سنَّةٌ ليستعينَ بهِ علىٰ صيامِ النهارِ[٣] ، فإنْ كانَ لا يقومُ بالليلِ ولٰكنْ لو لمْ ينمْ لمْ يشتغلْ بخيرٍ وربما خالطَ أهلَ الغفلةِ وتحدَّثَ معهُمْ . . فالنومُ أحبُّ لهُ إذا كانَ لا ينبعثُ نشاطُهُ للرجوعِ إلى الأذكارِ والوظائفِ المذكورةِ ؛ إذْ في النومِ الصمتُ والسلامةُ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (يأتي على الناسِ زمانٌ الصمتُ والنومُ فيهِ أفضلُ أعمالِهِمْ)[٤]

وكمْ مِنْ عابدٍ أحسنُ أحوالِهِ النومُ ، وذٰلكَ إذا كانَ يرائي بعبادتِهِ ولا يخلصُ فيها ، فكيفَ بالغافلِ الفاسقِ ؟!

قالَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ : (كانَ يعجبُهُمْ إذا تفرَّغوا أنْ يناموا طلباً للسلامةِ)[٥]

فإذاً ؛ نومُهُ علىٰ قصْدِ طلبِ السلامةِ ونيَّةِ قيامِ الليلِ قربةٌ ، ولٰكنْ ينبغي أنْ يتنبَّهَ قبلَ الزوالِ بقدْرِ الاستعدادِ للصلاةِ بالوضوءِ وحضورِ المسجدِ قبلَ دخولِ وقتِ الصلاةِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ فضائلِ الأعمالِ ، وإنْ لمْ ينمْ ولمْ يشتغلْ بالكسبِ واشتغلَ بالصلاةِ والذكرِ . . فهوَ أفضلُ أعمالِ النهارِ ؛ لأنَّهُ وقتُ غفلةِ الناسِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ واشتغالِهِمْ بهمومِ الدنيا ، فالقلبُ المتفرِّغُ لخدمةِ ربِّهِ عندَ إعراضِ العبيدِ عنْ بابِهِ جديرٌ بأنْ يزكِّيَهُ اللهُ تعالىٰ ويصطفيَهُ لقربِهِ ومعرفتِهِ .

وفضلُ ذٰلكَ كفضلِ إحياءِ الليلِ ، فإنَّ الليلَ وقتُ الغفلةِ بالنومِ ، وهٰذا وقتُ الغفلةِ باتباعِ الهوىٰ والاشتغالِ بهمومِ الدنيا ، وأحدُ معنيي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أيْ : يخلفُ أحدُهُما الآخرَ في الفضلِ ، والثاني : أنَّهُ يخلفُهُ فيتداركُ فيهِ ما فاتَ في أحدِهِما[٦]



(١) وقوت عياله ، وإن أمكن أن يكتسب قوت يومين أو ثلاثة أو أكثر ، فيجعل بقية أيامه للذكر والعبادة . . فلا بأس . « إتحاف » (١٤٢/٥) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٩٧٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤١/٢) عن قتادة ، وروى الترمذي (٢٣٤١) مرفوعاً : « ليس لابن آدم حق في سوىٰ هٰذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يواري عورته ، وجلف الخبز والماء » .

(٣) روى ابن ماجه (١٦٩٣) مرفوعاً : « استعينوا بطعام السحر علىٰ صيام النهار ، وبالقيلولة علىٰ قيام الليل » ، والقيلولة : النوم أو الاستراحة وقت الظهيرة .

(٤) قوت القلوب (٩٦/١) .

(٥) قوت القلوب (١٦/١) .

(٦) رواه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٣٩/١٩/١١) عن عمر وابن عباس والحسن رضي الله عنهم .

الوردُ الرابعُ : ما بينَ الزوالِ إلى الفراغِ مِنْ صلاةِ الظهرِ وراتبتِهِ :

وهوَ أقصرُ أورادِ النهارِ وأفضلُها ، فإذا كانَ قدْ توضَّأَ قبلَ الزوالِ ، وحضرَ المسجدَ فمهما زالتِ الشمسُ ، وابتدأَ المؤذِّنُ الأذانَ . . فليصبرْ إلى الفراغِ مِنْ جوابِ أذانِهِ ، ثمَّ ليقمْ إلىٰ إحياءِ ما بينَ الأذانِ والإقامةِ ، فهوَ وقتُ الإظهارِ الذي أرادَهُ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (١) ، وليصلِّ في هٰذا الوقتِ أربعَ ركعاتٍ لا يفصلُ بينهُنَّ بتسليمٍ ، وهٰذهِ الصلاةُ وحدَها مِنْ بينِ سائرِ صلواتِ النهارِ نُقِلَ أنَّهُ يصلِّيها بتسليمةٍ واحدةٍ (٢) ، ولٰكنْ طُعِنَ في تلكَ الروايةِ ، هٰكذا قالَهُ بعضُ العلماءِ (٣) ، ومذهبُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ يصلِّي مثنىٰ مثنىٰ كسائرِ النوافلِ ، ويفصلُ بتسليمةٍ ، وهوَ الذي صحَّتْ بهِ الأخبارُ (٤)

وليطوِّلْ هٰذهِ الركعاتِ ، إذْ فيها تفتحُ أبوابُ السماءِ كما أوردنا الخبرَ فيهِ في بابِ صلاةِ التطوعِ (٥) ، وليقرأْ فيها سورةَ (البقرةِ) أوْ سورتينِ مِنَ المئينَ ، أوْ أربعاً مِنَ المثاني (٦) ، فهٰذهِ ساعةٌ يُستجابُ فيها الدعاءُ ، وأحبَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يُرفعَ لهُ فيها عملٌ (٧)

ثمَّ يصلِّي الظهرَ بجماعةٍ بعدَ أربعِ ركعاتٍ طويلةٍ كما سبقَ أوْ قصيرةٍ ، ولا ينبغي أنْ يدعَها .

ثمَّ ليصلِّ بعدَ الظهرِ ركعتينِ ثمَّ أربعاً ، إذْ كرهَ ابنُ مسعودٍ أنْ تتبعَ الفريضةُ بمثلِها مِنْ غيرِ فاصلٍ (٨)

ويُستحبُّ أنْ يقرأَ في هٰذهِ النافلةِ آيةَ الكرسيِّ ، وآخرَ سورةِ (البقرةِ) ، والآياتِ التي أوردناها في الوردِ الأوَّلِ ؛ ليكونَ ذٰلكَ جامعاً لهُ بينَ الدعاءِ والذكرِ والقراءةِ والصلاةِ والتحميدِ والتسبيحِ معَ شرفِ الوقتِ .

❁ ❁ ❁

الوِردُ الخامسُ : ما بعدَ ذٰلكَ إلى العصرِ :

ويستحبُّ فيهِ العكوفُ في المسجدِ مشتغلاً بالذكرِ والصلاةِ وفنونِ الخيرِ ، ويكونُ في انتظارِ الصلاةِ معتكفاً ، فمِنْ فضائلِ الأعمالِ انتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ ، وكانَ ذٰلكَ سنَّةَ السلفِ ، كانَ الداخلُ يدخلُ المسجدَ بينَ الظهرِ والعصرِ ، فيسمعُ للمصلِّينَ دوياً كدويِّ النحلِ مِنَ التلاوةِ ، فإنْ كانَ بيتُهُ أسلمَ لدينِهِ وأجمعَ لهمِّهِ . . فالبيتُ أفضلُ في حقِّهِ .

وإحياءُ هٰذا الوِردِ ـ وهوَ أيضاً وقتُ غفلةِ الناسِ ـ كإحياءِ الوِردِ الثالثِ في الفضلِ ، وفي هٰذا الوقتِ يُكرهُ النومُ لمَنْ

(١) قوت القلوب (١/١٦ ، ١٧) .

(٢) روىٰ ذٰلك أبو داوود (١٢٧٠) ، والترمذي (٤٧٨) تعليقاً ، وابن ماجه (١١٥٧) .

(٣) الضمير في قوله : (قاله) عائد إلىٰ أنه يصليها متصلة بتسليمة واحدة ، « قوت القلوب » (١/١٦) .

(٤) إشارة إلىٰ حديث أبي داوود (١٢٩٥) ، والترمذي (٥٩٧) ، والنسائي (٣/٢٢٧) ، وابن ماجه (١٣٢٢) مرفوعاً : « صلاة الليل والنهار مثنىٰ مثنىٰ » ، أو مطلق الخبر الذي رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) مرفوعاً : « صلاة الليل مثنىٰ مثنىٰ » .

(٥) رواه الترمذي (٤٧٨) عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، وقال : (وفي الباب عن علي وأبي أيوب) ، وهو عن أبي أيوب عند أحمد في « مسنده » (٥/٤١٦) .

(٦) قوت القلوب (١/١٦) .

(٧) رواه الترمذي (٤٧٨) عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، وقال : (وفي الباب عن علي وأبي أيوب) ، وهو عن أبي أيوب عند أحمد في « مسنده » (٥/٤١٦) .

(٨) قوت القلوب (١/٣١) .

نامَ قبلَ الزوالِ ، إذْ يُكرهُ نومتانِ بالنهارِ ، قالَ بعضُ العلماءِ : (ثلاثٌ يمقتُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليها : الضحكُ بغيرِ عجبٍ ، والأكلُ مِنْ غيرِ جوعٍ ، ونومٌ بالنهارِ مِنْ غيرِ سهرٍ بالليلِ)[١]

والحدُّ في النومِ : أنَّ الليلَ والنهارَ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، فالاعتدالُ في نومِهِ ثماني ساعاتٍ في الليلِ والنهارِ جميعاً ، فإنْ نامَ هـٰذا القدْرَ بالليلِ . . فلا معنىٰ للنومِ بالنهارِ ، وإنْ نقصَ منهُ مقداراً . . استوفاهُ بالنهارِ ، فحسْبُ ابنِ آدمَ إنْ عاشَ ستينَ سنةً أنْ ينقصَ مِنْ عمرِهِ عشرونَ سنةً ، ومهما نامَ ثمانيَ ساعاتٍ وهوَ الثلثُ . . فقدْ نقصَ مِنْ عمرِهِ الثلثُ ، ولـٰكنْ لمَّا كانَ النومُ غذاءً للروحِ كما أنَّ الطعامَ غذاءٌ للبدنِ ، وكما أنَّ العلمَ والذكرَ غذاءٌ للقلبِ . . لمْ يمكنْ قطعُهُ عنهُ[٢] ، وقدرُ الاعتدالِ هـٰذا ، والنقصانُ منهُ ربَّما يفضي إلى اضطرابِ البدنِ ، إلَّا مَنْ يتعوَّدُ السهرَ تدريجاً ، فقدْ يمرِّنُ نفسَهُ عليهِ مِنْ غيرِ اضطرابٍ[٣]

وهـٰذا الوردُ هوَ مِنْ أطولِ الأورادِ ، وأمتعِها للعُبَّادِ ، وهوَ أحدُ الآصالِ التي ذكرَها اللهُ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ ، وإذا سجدَ للهِ عزَّ وجلَّ الجماداتُ . . فكيفَ يجوزُ أنْ يغفُلَ العبدُ العاقلُ عنْ أنواعِ العباداتِ ؟!

❀ ❀ ❀

الوردُ السادسُ : إذا دخلَ وقتُ العصرِ . . دخلَ وقتُ الوردِ السادسِ :

وهوَ الذي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ هـٰذا أحدُ معنيي الآيةِ ، وهوَ المرادُ بالآصالِ في أحدِ التفسيرينِ ، وهوَ العشيُّ المذكورُ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ ، وفي قولِهِ : ﴿ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ .

وليسَ في هـٰذا الوردِ صلاةٌ إلا أربعُ ركعاتٍ بينَ الأذانينِ[٤] كما سبقَ في الظهرِ ، ثمَّ يصلِّي الفرضَ ويشتغلُ بالأقسامِ الأربعةِ المذكورةِ في الوردِ الأوَّلِ إلىٰ أنْ ترتفعَ الشمسُ إلىٰ رؤوسِ الحيطانِ وتصفرَّ .

والأفضلُ فيهِ إذْ منعَ عنِ الصلاةِ تلاوةُ القرآنِ بتدبُّرٍ وتفهُّمٍ ؛ إذْ يجمعُ ذٰلكَ معنى الذكرِ والدعاءِ والفكرِ ، فيندرجُ في هـٰذا القسمِ أكثرُ مقاصدِ الأقسامِ الثلاثةِ .

❀ ❀ ❀

الوردُ السابعُ : إذا اصفرَّتِ الشمسُ

بأنْ تقربَ مِنَ الأرضِ بحيثُ يغطِّي نورَها الغباراتُ والبخاراتُ التي علىٰ وجهِ الأرضِ ، ويُرىٰ صفرةٌ في ضوئِها . . دخلَ هـٰذا الوردُ ، وهوَ مثلُ الوردِ الأوَّلِ مِنْ طلوعِ الفجرِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ؛ لأنَّهُ قبلَ الغروبِ ، كما أنَّ ذٰلكَ قبلَ الطلوعِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ، وهوَ الطرفُ الثاني المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ .

قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (كانوا أشدَّ تعظيماً للعشيِّ منهُمْ لأوَّلِ النهارِ)[٥]

---

(١) قوت القلوب (١/١٧) وبمعناه روى الطبراني في « الكبير » (١٠/٣١٨) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٠٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٣٧) من قول معاذ رضي الله عنه .
(٣) قوت القلوب (١/١٧) .
(٤) أي : بين الأذان والإقامة لصلاة العصر كما في نسخة الحافظ الزبيدي .
(٥) قوت القلوب (١/١٨) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (كانوا يجعلونَ أوَّلَ النهارِ للدنيا وآخرَهُ للآخرةِ)[1] .

فيُستحبُّ في هـٰذا الوقتِ التسبيحُ والاستغفارُ خاصَّةً وسائرُ ما ذكرناهُ في الوِردِ الأوَّلِ ، مثلَ أنْ يقولَ : (أستغفرُ اللهَ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيُّومَ وأسألُهُ التوبةَ ، وسبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ) مأخوذٌ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾ ، والاستغفارُ على الأسماءِ التي في القرآنِ أحبُّ ؛ كقولِهِ : أستغفرُ اللهَ إنَّهُ كانَ غفَّاراً ، أستغفرُ اللهَ إنَّهُ كانَ توَّاباً ، ربِّ اغفرْ وارحمْ وأنتَ خيرُ الراحمينَ ، فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنتَ خيرُ الراحمينَ ، فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنتَ خيرُ الغافرينَ[2] .

ويُستحبُّ أنْ يقرأَ قبلَ غروبِ الشمسِ (والشمسِ وضحاها) ، (والليلِ إذا يغشىٰ) ، و(المعوِّذتينِ) ، ولتغربِ الشمسُ عليهِ وهوَ في الاستغفارِ .

فإذا سمعَ الأذانَ . . قالَ : اللهمَّ ؛ هـٰذا إقبالُ ليلكَ ، وإدبارُ نهارِكَ ، وأصواتُ دعاتِكَ . . . الدعاءَ كما سبقَ ، ثمَّ يجيبُ المؤذِّنَ ، ويشتغلُ بصلاةِ المغربِ .

❁ ❁ ❁

وبالغروبِ قدِ انتهتْ أورادُ النهارِ ، فينبغي أنْ يلاحظَ العبدُ أحوالَهُ ويحاسبَ نفسَهُ ، فقدِ انقضىٰ مِنْ طريقِهِ مرحلةٌ ، فهلْ ساوىٰ يومُهُ أمسَهُ فيكونَ مغبوناً ، أوْ كانَ شرّاً منهُ فيكونَ ملعوناً ؟ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا بوركَ لي في يومٍ لا أزدادُ فيهِ خيراً »[3] .

فإنْ رأىٰ نفسَهُ متوفِّراً على الخيرِ جميعَ نهارِهِ ، مرفهاً عنِ التجشُّمِ . . كانتْ بشارةً ، فليشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ توفيقِهِ وتسديدِهِ إيَّاهُ لطريقِهِ ، وإنْ تكنِ الأخرىٰ . . فالليلُ خلفةٌ للنهارِ ، فليعزمْ علىٰ تلافي ما سبقَ مِنْ تفريطِهِ ؛ فإنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ ، فليشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ صحَّةِ جسمِهِ وبقاءِ بقيَّةِ عمرِهِ إلىٰ أوَّلِ ليلِهِ ليشتغلَ بتداركِ تقصيرِهِ .

وليحضرْ في قلبِهِ أنَّ نهارَ العمرِ لهُ آخرٌ تغربُ فيهِ شمسُ الحياةِ ، فلا يكونُ لها بعدَهُ طلوعٌ ، وعندَ ذٰلكَ يُغلقُ بابُ التداركِ والاعتذارِ ، فليسَ العمرُ إلا أياماً معدودةً تنقضي ـ لا محالةَ ـ جملتُها بانقضاءِ آحادِها .

❁ ❁ ❁

---

(١) قوت القلوب (١٨/١) .

(٢) قوت القلوب (١٨/١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٨٨/٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٠٨) واللفظ له ، ولفظه هناك : (علماً) بدل (خيراً) ، ولفظه هنا رواه الأزدي في « أوهام الحاكم » (ص ٥١) .

بيان أوراد الليل
وهي خمسة

الأوَّلُ : إذا غربتِ الشمسُ . . صلَّى المغربَ ، واشتغلَ بإحياءِ ما بينَ العشاءينِ :

فآخرُ هٰذا الوردِ عندَ غيبوبةِ الشفقِ ؛ أعني : الحمرةَ التي بغيبوبتِها يدخلُ وقتُ العشاءِ الآخرةِ ، وقدْ أقسمَ اللهُ تعالىٰ بِهِ فقالَ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ ، والصلاةُ فيهِ هيَ ناشئةُ الليلِ ، لأنَّهُ أوَّلُ نشوءِ ساعاتِهِ ، وهوَ إنْيٌ مِنَ الآناءِ المذكورةِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ ، وهيَ صلاةُ الأوَّابينَ ، وهيَ المرادُ بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ ، رُوِيَ ذٰلكَ عنِ الحسنِ رحمهُ اللهُ ، وأسندَهُ ابنُ أبي زيادٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ سئلَ عنْ هٰذهِ الآيةِ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلاةُ بينَ العشاءينِ » ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالصلاةِ بينَ العشاءَينِ ؛ فإنَّها تذهبُ بملاغاتِ النهارِ وتهذِّبُ آخرَهُ »[(١)] ، والملاغاتُ : جمعُ ملغاةٍ ، مِنَ اللغوِ .

وسئلَ أنسٌ رحمهُ اللهُ عمَّنْ ينامُ بينَ العشاءينِ فقالَ : لا تفعلْ ؛ فإنَّها الساعةُ المعنيَّةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[(٢)] .

وسيأتي فضْلُ إحياءِ ما بينَ العشاءينِ في البابِ الثاني .

وترتيبُ هٰذا الوِردِ :

أنْ يصلِّيَ بعدَ المغربِ ركعتينِ أوَّلاً ، يقرأُ فيهما : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، ويصلِّيهما عَقيبَ المغربِ ، مِنْ غيرِ تخلُّلِ كلامٍ ولا شغلٍ ، ثمَّ يصلِّي أربعاً يطيلُها ، ثمَّ يصلِّي إلىٰ غيبوبةِ الشفقِ ما تيسَّرَ لهُ .

وإنْ كانَ المسجدُ قريباً مِنَ المنزلِ . . فلا بأسَ أنْ يصلِّيَها في بيتِهِ إنْ لمْ يكنْ عزمُهُ العكوفَ في المسجدِ ، وإنْ عزمَ على العكوفِ في انتظارِ العتمةِ . . فهوَ الأفضلُ إذا كانَ آمناً مِنَ التصنُّعِ والرياءِ .

❁ ❁ ❁

الوِردُ الثاني : يدخلُ بدخولِ وقتِ العشاءِ الآخرةِ إلىٰ حدِّ نومةِ الناسِ :

وهوَ أوَّلُ استحكامِ الظلامِ ، وقدْ أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ إذْ قالَ : ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أيْ : وما جمعَ مِنْ ظلمتِهِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ ، فهناكَ يغسقُ الليلُ وتُستوسقُ ظلمتُهُ .

وترتيبُ هٰذا الوردِ بمراعاةِ ثلاثةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : أنْ يصلِّيَ سوىٰ فرضِ العشاءِ عشرَ ركعاتٍ : أربعاً قبلَ الفرضِ ؛ إحياءً لما بينَ الأذانينِ[(٣)] ، وستّاً بعْدَ

---

(١) رواية الحسن وابن أبي زياد نصَّ عليهما أبو طالب في « القوت » (١٩/١) ، والحديث رواه الديلمي كما في « الفردوس » (٤٠٢٩) ، وانظر « الإتحاف » (١٥١/٥) ، و« فيض القدير » (٣٤٤/٤) ، وروى الترمذي (٣١٩٦) : عن أنس رضي الله عنه قال : (نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة) .

(٢) قوت القلوب (١٩/١) بنحوه ، وقريب منه ما روي عنه في التعليق السابق .

(٣) أي : الأذان والإقامة لصلاة العشاء .

الفرضِ ؛ ركعتينِ ، ثمَّ أربعاً ، ويقرأُ فيها مِنَ القرآنِ الآياتِ المخصوصةَ ؛ كآخرِ (البقرةِ) وآيةِ الكرسيِّ وأوَّلِ (الحديدِ) وآخرِ (الحشرِ) وغيرِها .

والثاني : أنْ يصلّيَ ثلاثَ عشرةَ ركعةً آخرُهُنَّ الوترُ ، فإنَّهُ أكثرُ ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّىٰ بها منَ الليلِ (١)

والأكياسُ يأخذونَ أوقاتَهُمْ مِنْ أوَّلِ الليلِ ، والأقوياءُ مِنْ آخرِهِ ، والحزمُ التقديمُ ، فإنَّهُ ربما لا يستيقظُ أوْ يثقلُ عليهِ القيامُ ، إلا إذا صارَ ذٰلكَ عادةً لهُ ، فآخرُ الليلِ أفضلُ (٢)

ثمَّ ليقرأُ في هٰذهِ الصلاةِ قدْرَ ثلاثِ مئةِ آيةٍ مِنَ السورِ المخصوصةِ التي كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ قراءتَها ؛ مثلَ (يسٓ) ، و(سجدةِ لقمانَ) (٣) ، وسورةِ (الدخانِ) ، و(تَبَارَكَ الملكَ) ، و(الزمرِ) ، و(الواقعةِ) .

فإنْ لمْ يصلِّ . . فلا يدعْ قراءةَ هٰذهِ السورِ أوْ بعضِها قبلَ النومِ ، فقد رُوِي في ثلاثةِ أحاديثَ ما كانَ يقرؤُهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ ليلةٍ ، أشهرُها : (السجدةُ) ، و(تباركَ الملكَ) (٤) ، و(الزمرُ) و(الواقعةُ) ، وفي روايةٍ : (الزمرُ) و(بني إسرائيلَ) (٥) ، وفي أُخرىٰ : أنَّهُ كانَ يقرأُ المسبِّحاتِ (٦) في كلِّ ليلةٍ ويقولُ : « فيها آيةٌ أفضلُ مِنْ ألفِ آيةٍ » (٧) ، وكانَ العلماءُ يجعلونَها ستّاً فيزيدونَ (سبّحِ اسمَ ربّكَ الأعلىٰ) ؛ إذْ في الخبرِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يحبُّ (سبّحِ اسمَ ربّكَ الأعلىٰ) (٨) ، وكانَ يقرأُ في ثلاثِ ركعاتِ الوترِ ثلاثَ سورٍ : (سبّحِ اسمَ ربّكَ الأعلىٰ) و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) و(الإخلاصَ) ، فإذا فرغَ . . قالَ : « سبحانَ الملكِ القدوسِ » ثلاثَ مرَّاتٍ (٩)

الثالثُ : الوترُ ، وليوترْ قبلَ النومِ إنْ لمْ يكنْ عادتُهُ القيامَ ، قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (أوصاني خليلي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألَّا أنامَ إلا علىٰ وترٍ) (١٠)

وإنْ كانَ معتاداً صلاةَ الليلِ . . فالتأخيرُ أفضلُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةُ الليلِ مثنىٰ مثنىٰ ، فإذا خفتَ الصبحَ . . فأوترْ بركعةٍ » (١١)

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (أوترَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوَّلَ الليلِ وأوسطَهُ وآخرَهُ ، وانتهىٰ وترُهُ إلى السحرِ) (١٢)

---

(١) روىٰ أبو داوود (١٣٦٢) عن عائشة رضي الله عنها : (ولم يكن يوتر بأنقص من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة) .

(٢) روىٰ أبو داوود (١٤٣٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : « متىٰ توتر ؟ » قال : أوتر من أول الليل ، وقال لعمر : « متىٰ توتر ؟ » قال : آخر الليل ، فقال لأبي بكر : « أخذ هٰذا بالحزم » ، وقال لعمر : « أخذ هٰذا بالقوة » .

(٣) أي : سورة (السجدة) . انظر « بصائر ذوي التمييز » (١/٣٧٣) .

(٤) روى الترمذي (٣٤٠٤) عن جابر رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتىٰ يقرأ بـ« تنزيل السجدة » و« تبارك ») .

(٥) روى الترمذي (٣٤٠٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتىٰ يقرأ « الزمر » و« بني إسرائيل ») ، وسورة (بني إسرائيل) هي سورة (الإسراء) .

(٦) وهي خمس سور : (الحديد) ، و(الحشر) ، و(الصف) ، و(الجمعة) ، و(التغابن) .

(٧) رواه أبو داوود (٥٠٥٧) ، والترمذي (٢٩٢١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٩٧٢) .

(٨) رواه أحمد في « المسند » (١/٩٦) .

(٩) رواه أبو داوود (١٤٢٣) ، والنسائي (٣/٢٤٤) واللفظ هنا ، وابن ماجه (١١٧١) .

(١٠) رواه البخاري (١٩٨١) ، ومسلم (٧٢١) .

(١١) رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) .

(١٢) رواه البخاري (٩٩٦) ، ومسلم (٧٤٥) واللفظ له .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الوترُ على ثلاثةِ أنحاءٍ : إنْ شئتَ . . أوترتَ أوَّلَ الليلِ ثمَّ صلَّيتَ ركعتينِ ركعتينِ ـ يعني : أنَّهُ يصيرُ وتراً بما مضى ـ وإنْ شئتَ . . أوترتَ بركعةٍ ، فإذا استيقظتَ . . شفعتَ إليها أخرى ثمَّ أوترتَ مِنْ آخرِ الليلِ ، وإنْ شئتَ أخَّرتَ الوترَ ليكونَ آخرَ صلاتِكَ)[1] ، هـٰذا ما رُوي عنهُ ، والطريقُ الأوَّلُ والثالثُ لا بأسَ بهِ .

وأمَّا نقضُ الوترِ[2] . . فقدْ صحَّ فيهِ نهيٌ ، فلا ينبغي أنْ ينقضَ[3] ، ورُوِيَ مطلقاً أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لا وترانِ في ليلةٍ »[4]

ولِمَنْ يتردَّدُ في استيقاظِهِ تلطفٌ استحسنَهُ بعضُ العلماءِ ، وهوَ أنْ يصلِّيَ بعدَ الوترِ ركعتينِ جالساً على فراشِهِ عندَ النومِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزحفُ إلى فراشِهِ ويصلِّيهما ، ويقرأُ فيهما : (إذا زلزلت) ، و(ألهاكم) ؛ لما فيهما مِنَ التحذيرِ والوعيدِ ، وفي روايةٍ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ؛ لما فيها مِنَ التبرئةِ وإفرادِ العبادةِ للهِ عزَّ وجلَّ[5] ، فقيلَ : إنِ استيقظَ . . قامتا مقامَ ركعةٍ واحدةٍ ، وكانَ لهُ أنْ يوترَ بواحدةٍ في آخرِ صلاةِ الليلِ ، وكأنَّهُ صارَ ما مضى شفعاً بهما وحسنَ استئنافُ الوترِ ، واستحسنَ هـٰذا أبو طالبٍ المكيُّ رحمهُ اللهُ وقالَ : (فيهِ ثلاثةُ أعمالٍ : قصرُ الأملِ ، وتحصيلُ الوترِ ، والوترُ مِنْ آخرِ الليلِ)[6]

وهوَ كما ذكرَهُ ، لـٰكنْ ربما يخطرُ أنَّهما لوْ شفعَتا ما مضى . . لكانَ كذٰلكَ وإنْ لمْ يستيقظْ[7] ، ولبطلَ وترُهُ الأوَّلُ ، فكونُهُ مُشفعاً إنِ استيقظَ غيرَ مُشفعٍ إنْ نامَ . . فيهِ نظرٌ ، إلا أنْ يصحَّ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إيتارُهُ قبلَهُما وإعادتُهُ الوترَ ، فيفهمُ منهُ أنَّ الركعتينِ شفعٌ بصورتِهما وترٌ بمعناهُما ، فيحسَبُ وتراً إنِ استيقظَ وشفعاً إنْ لمْ يستيقظْ .

ثمَّ يُستحبُّ بعدَ التسليمِ مِنَ الوترِ أنْ يقولَ : (سبحانَ الملكِ القدوسِ ، ربِّ الملائكةِ والروحِ ، جلَّلتَ السماواتِ والأرضَ بالعظمةِ والجبروتِ ، وتعزَّزتَ بالقدرةِ ، وقهرتَ العبادَ بالموتِ)[8]

ورُوي أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما ماتَ حتَّى كانَ أكثرُ صلاتِهِ جالساً إلا المكتوبةَ[9] ، وقدْ قالَ : « للقاعدِ نصفُ أجرِ القائمِ ، وللنائمِ نصفُ أجرِ القاعدِ »[10] ، وذٰلك يدلُّ على صحةِ النافلةِ نائماً[11]

❀ ❀ ❀

---

(١) قوت القلوب (٣١/١) .

(٢) وهو الطريق الثاني ؛ كمن أوتر بأول الليل ، ثم شفع ، ثم أوتر من آخره .

(٣) والنهي رواه البخاري (٤١٧٦) عن عائذ بن عمرو رضي الله عنه وقد سئل عن نقض الوتر فقال : (إذا أوترت من أوله . . فلا توتر من آخره) .

(٤) رواه أبو داوود (١٤٣٩) ، والترمذي (٤٧٠) ، والنسائي (٢٢٩/٣) .

(٥) ورد قراءة السور الثلاث المذكورة معاً في الوتر عند أحمد في « المسند » (٨٩/١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٣٣/٣) ، ولم يذكرا الزحف إلى الفراش ، والسياق لصاحب « القوت » (٢٠/١) .

(٦) قوت القلوب (٢٠/١) .

(٧) أي : أنهما تشفعان صلاته الماضية استيقظ أم لم يستيقظ .

(٨) قوت القلوب (٢٠/١) ، والجملة الأولى منه رواها أبو داوود (١٤٣٠) ، والنسائي (٢٤٤/٣) .

(٩) رواه البخاري (٥٩٠) ، ومسلم (٧٣٢) ، ولفظه عن عائشة رضي الله عنها : (لمَّا بَدَّنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقل . . كان أكثر صلاته جالساً) ، وبَدَّن : أَسَنَّ .

(١٠) رواه البخاري (١١١٥) .

(١١) أي : مضطجعاً على الفراش كهيئة النائم . « إتحاف » (١٥٧/٥) .

الوردُ الثالثُ : النومُ :

ولا بأسَ أنْ يعدَّ ذٰلكَ في الأورادِ ؛ فإنَّهُ إذا روعيتْ آدابُهُ . . احتسبَ عبادةً ، فقدْ نُقِلَ أنَّهُ إذا نامَ العبدُ علىٰ طهارةٍ ذاكراً للهِ تعالىٰ . . يكتبُ مصلِّياً حتَّىٰ يستيقظَ ، ويدخُلُ في شعارِهِ ملكٌ[1] ، فإنْ تحرَّكَ في نومِهِ فذكرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . دعا لهُ الملكُ واستغفرَ لهُ اللهَ[2]

وفي الخبرِ أنَّهُ إذا نامَ العبدُ علىٰ طهارةٍ . . رُفِعَ روحُهُ إلى العرشِ[3]

هٰذا في العوامِّ ، فكيفَ بالخواصِّ والعلماءِ وأربابِ القلوبِ الصافيةِ ؟ فإنَّهُمْ يكاشَفونَ بالأسرارِ في النومِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نومُ العالمِ عبادةٌ ، ونفَسُهُ تسبيحٌ »[4]

وقالَ معاذٌ لأبي موسىٰ رضيَ اللهُ عنهُما : كيفَ تصنعُ في قيامِ الليلِ ؟ فقالَ : أقومُ الليلَ أجمعَ ، لا أنامُ منهُ شيئاً ، وأتفوَّقُ القرآنَ فيهِ تفوُّقاً[5] ، قالَ معاذٌ : لٰكنِّي أنامُ ثمَّ أقومُ ، وأحتسبُ في نومتي ما أحتسبُ في قومتي ، فذكرَا ذٰلكَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « معاذٌ أفقهُ منكَ »[6]

وآدابُ النومِ عشرةٌ :

الأوَّلُ : الطهارةُ والسواكُ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا نامَ العبدُ علىٰ طهارةٍ . . عُرِجَ بروحِهِ إلى العرشِ ، فكانتْ رؤياهُ صادقةً ، وإنْ لمْ ينمْ علىٰ طهارةٍ . . قصرتْ روحُهُ عنِ البلوغِ ، فتلكَ المناماتُ أضغاثُ أحلامٍ لا تصدقُ »[7] ، وهٰذا أُريدَ بهِ طهارةُ الظاهرِ والباطنِ جميعاً ، وطهارةُ الباطنِ هيَ المؤثِّرةُ في انكشافِ حُجُبِ الغيبِ .

❀ ❀ ❀

الثاني : أنْ يعدَّ عندَ رأسِهِ سواكهُ وطَهورَهُ ، وينويَ القيامَ للعبادةِ عندَ التيقُّظِ : وكلَّما انتبهَ . . استاكَ ، كذٰلكَ كانَ يفعلُ بعضُ السلفِ[8] ، ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يستاكُ في كلِّ ليلةٍ مراراً عندَ كلِّ نومةٍ ، وعندَ التنبُّهِ منها[9]

وإنْ لمْ تتيسَّرْ لهُ الطهارةُ . . يستحبُّ لهُ مسحُ الأعضاءِ بالماءِ[10] ، فإنْ لمْ يجدْ . . فليقعدْ ، وليستقبلِ

---

(١) شعاره : لباسه المتصل ببدنه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٠٥١) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٤٥) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ، ولفظه : (إذا نام الإنسان . . عرج بروحه حتىٰ يؤتىٰ بها إلى العرش ، فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود ، وإن كان جنباً . . لم يؤذن لها بالسجود) .

(٤) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٣١) ، ويشهد للجملة الأولىٰ منه ما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٥/٤) مرفوعاً : « نوم علىٰ علم خير من صلاة علىٰ جهل » .

(٥) أي : ألازم قراءته ليلاً ونهاراً شيئاً بعد شيءٍ ، وحيناً بعد حين . « فتح الباري » (٦٢/٨) .

(٦) رواه البخاري (٤٣٤٢) ، ومسلم (١٨٢٤) ، دون قوله : « معاذ أفقه منك » ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٥٩٥٩) : (فكأن معاذ بن جبل فضل عليه) ، وروىٰ أبو إسماعيل الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٤٣٤) : (فكان معاذ أفضل منه) .

(٧) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٢١٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٩٦/٤) بنحوه ، ولفظه عند صاحب « القوت » (٣٤/١) .

(٨) قوت القلوب (٣٣/١) .

(٩) رواه مسلم (٧٦٣) .

(١٠) أي : إن لم تتيسر له الطهارة بسبب الكسل والفتور . . فليمسح أعضاءه بالماء في تقلُّبه وانتباهاته ، ففي ذٰلك فضل كبير لمن ثقل نومه وقلَّ قيامه . « إتحاف » (١٥٨/٥) ، وسبقت الإشارة إلىٰ ذٰلك عند صاحب « القوت » (٣٣/١) .

القبلةَ ، وليشتغلْ بالذكرِ والدعاءِ والتفكُّرِ في آلاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ وقدرتِهِ ، فذٰلكَ يقومُ مقامَ قيامِ الليلِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أتىٰ فراشَهُ وهوَ ينوي أنْ يقومَ يصلِّي مِنَ الليلِ فغلبتْهُ عيناهُ حتَّىٰ يصبحَ . . كُتِبَ لهُ ما نوىٰ ، وكانَ نومُهُ صدقةً عليهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ »[1]

❁ ❁ ❁

الثالثُ : ألَّا يبيتَ مَنْ لهُ وصيةٌ إلا ووصيتُهُ مكتوبةٌ عندَ رأسِهِ : فإنَّهُ لا يأمنُ القبضَ في النومِ ، يُقالُ : إنَّ مَنْ ماتَ مِنْ غيرِ وصيةٍ . . لمْ يؤذنْ لهُ في الكلامِ بالبرزخِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، يتزاورُهُ الأمواتُ ويتحدَّثونَ وهوَ لا يتكلَّمُ ، فيقولُ بعضُهُمْ لبعضٍ : هٰذا المسكينُ ماتَ مِنْ غيرِ وصيةٍ[2]

وذٰلكَ مستحبٌّ خوفاً مِنْ موتِ الفجأةِ ، وموتُ الفجأةِ تخفيفٌ إلا لمَنْ ليسَ مستعدّاً للموتِ بكونِهِ مثقلَ الظهرِ بالمظالمِ[3]

❁ ❁ ❁

الرابعُ : أنْ ينامَ تائباً مِنْ كلِّ ذنبٍ ، سليمَ القلبِ لجميعِ المسلمينَ ، لا يحدِّثُ نفسَهُ بظلْمِ أحدٍ ، ولا يعزمُ علىٰ معصيةٍ إنِ استيقظَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أوىٰ إلىٰ فراشِهِ لا ينوي ظلْمَ أحدٍ ، ولا يحقدُ علىٰ أحدٍ . . غُفرَ لهُ ما اجترمَ »[4]

❁ ❁ ❁

الخامسُ : ألَّا يتنعَّمَ بتمهيدِ الفُرُشِ الناعمةِ : بلْ يتركُ ذٰلكَ أوْ يقتصدُ فيهِ ، كانَ بعضُ السلفِ يكرهُ التمهيدَ للنومِ ويرىٰ ذٰلكَ تكلُّفاً ، وكانَ أهلُ الصفَّةِ لا يجعلونَ بينَهُمْ وبينَ الترابِ حاجزاً ، ويقولونَ : (منها خُلقْنا وإليها نردُّ) ، وكانوا يرونَ ذٰلكَ أرقَّ لقلوبِهِمْ وأجدرَ بتواضعِ نفوسِهِمْ[5] ، فمَنْ لا تسمحُ بذٰلكَ نفسُهُ . . فليقتصدْ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : ألَّا ينامَ ما لمْ يغلبْهُ النومُ ، ولا يتكلَّفَ استجلابَهُ إلا إذا قصدَ بهِ الاستعانةَ على القيامِ في آخرِ الليلِ : فقدْ كانَ نومُهُمْ غلبةً ، وأكلُهُمْ فاقةً ، وكلامُهُمْ ضرورةً ، ولذٰلكَ وُصفوا بأنَّهُمْ كانوا قليلاً مِنَ الليلِ ما يهجعونَ .

وإنْ غلبَهُ النومُ عنِ الصلاةِ والذكرِ ، وصارَ لا يدري ما يقولُ . . فلينمْ حتَّىٰ يعقلَ ما يقولُ ، كانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يكرهُ النومَ قاعداً[6]

وفي الخبرِ : « لا تكابدوا الليلَ »[7]

---

(١) رواه النسائي (٢٥٨/٣) ، وابن ماجه (١٣٤٤) .

(٢) كذا في « القوت » (٣٣/١) ، وروى الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٥٩٤٥) مرفوعاً : « من لم يوصِ . . لم يؤذن له في الكلام مع الموتى » ، قيل : يا رسول الله ؛ ويتكلمون ؟ قال : « نعم ، ويتزاورون » . انظر « الإتحاف » (١٥٨/٥) .

(٣) قوت القلوب (٣٣/١) .

(٤) كذا لفظه في « القوت » (٣٣/١) ، وقد روى الشهاب في « مسنده » (٤٢٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩٤/٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٣/٥٣) مرفوعاً : « من أصبح لا يهم بظلم أحد . . غفر له ما اجترم » .

(٥) قوت القلوب (٣٣/١) .

(٦) قوت القلوب (٢١/١) .

(٧) رواه الخطيب في « موضح أوهام الجمع والتفريق » (٣٨٢/٢) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٧٤٦٠) مرفوعاً : « لا تكابدوا هٰذا

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلانةَ تصلِّي بالليلِ ، فإذا غلبَها النومُ . . تعلَّقَتْ بحبلٍ ، فنهىٰ عن ذٰلكَ وقالَ : « ليصلِّ أحدُكُمْ مِنَ الليلِ ما تيسَّرَ لهُ ، فإذا غلبَهُ النومُ . . فليرقُدْ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تكلَّفوا مِنَ العملِ ما تطيقونَ ، فإنَّ اللهَ لا يملُّ حتَّىٰ تملُّوا »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ هٰذا الدينِ أيسرُهُ »[3]

وقيلَ لهُ : إنَّ فلاناً يصلِّي فلا ينامُ ، ويصومُ فلا يفطرُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لٰكنِّي أصلِّي وأنامُ ، وأصومُ وأُفطرُ ، هٰذهِ سنَّتِي ، فمَنْ رغبَ عنها . . فليسَ منِّي »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تشادوا هٰذا الدينَ ، فإنَّهُ متينٌ ، فمَنْ يشادَّهُ . . يغلبْهُ ، فلا تبغِّضْ إلىٰ نفسِكَ عبادةَ اللهِ »[5]

❀ ❀ ❀

السابعُ : أنْ ينامَ مستقبلَ القبلةِ : والاستقبالُ علىٰ ضربين :

ـ **أحدُهما** : استقبالُ المحتضرِ ، وهوَ المستلقي علىٰ قفاهُ ، فاستقبالُهُ : أنْ يكونَ وجهُهُ وأخمصاهُ إلى القبلةِ .

ـ **والثاني** : استقبالُ اللحدِ ، وهوَ أنْ ينامَ علىٰ جنبٍ ، بأنْ يكونَ وجهُهُ إليها معَ قبالةِ بدنِهِ إذا نامَ على الشقِّ الأيمنِ .

❀ ❀ ❀

الثامنُ الدعاءُ عندَ النومِ : فيقولُ : (باسمِكَ اللهمَّ ربِّي وضعتُ جنبِي ، وباسمِكَ أرفعُهُ) إلىٰ آخرِ الدعواتِ المأثورةِ التي أوردناها في كتابِ الدعواتِ .

ويُستحبُّ أنْ يقرأَ الآياتِ المخصوصةَ ؛ مثلَ آيةِ الكرسيِّ ، وآخرِ (البقرةِ) ، وغيرِهما .

ويقرأُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، يقالُ : إنَّ مَنْ قرأَها عندَ المنامِ . . حفِظَ اللهُ عليهِ القرآنَ فلمْ ينسَهُ[6]

ويقرأُ مِنْ سورةِ (الأعرافِ) هٰذهِ الآيةَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ قَرِيبٌ

الليل ؛ فإنكم لا تطيقونه ، وإذا نعس أحدكم . . فلينم علىٰ فراشه فإنه أسلم له » ، وعند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٦/٩) موقوفاً على ابن مسعود : (لا تغالبوا هٰذا الليل . . .) الحديث .

(١) كذا في « القوت » (٢١/١) ، ورواه البخاري (١١٥٠) ، ومسلم (٧٨٤) ، وهي أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وفيهما : (فليقعد) بدل (فليرقد) أي : يتمُّها قاعداً ، وجاء لفظ : (فليرقد) عند البخاري (٢١٢) ، ومسلم (٧٨٦) مرفوعاً : « إذا نعس أحدكم وهو يصلي . . فليرقد حتىٰ يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلىٰ وهو ناعس لا يدري : لعله يستغفر فيسبُّ نفسه » .

(٢) رواه البخاري (٤٣ ، ٦٤٦٥) ، ومسلم (٧٨٢) بنحوه .

(٣) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٢٩٦) ، وأحمد في « مسنده » (٤٧٩/٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٤١) ولفظه : « خير دينكم أيسره » .

(٤) رواه النسائي (٢١٠/٤) دون ذكر الجملة الأخيرة منه ، وهو مجملاً في حكاية الرهط الثلاثة الذين سألوا عن عبادته صلى الله عليه وسلم وكأنهم تقالُّوها عند البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) ، ولفظ المصنف في « القوت » (٢١/١) .

(٥) هو عند البخاري (٣٩) بنحوه ، ولفظه : « إن الدين يسر ، ولن يشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه . . . » الحديث ، وروى ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٨) : « إن هٰذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، ولا تبغِّض إلىٰ نفسك عبادة الله تعالىٰ ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقىٰ » ، ولفظ المصنف في « القوت » (٢١/١) .

(٦) قوت القلوب (٣٢/١) .

مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وآخرَ (بني إسرائيلَ) : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ . . . ﴾ الآيتينِ ؛ فإنَّهُ يدخلُ في شعارِهِ ملكٌ يوكلُ بحفظِهِ فيستغفرُ لهُ[1]

ويقرأُ (المعوِّذتينِ) وينفثُ بهنَّ في يديهِ ويمسحُ بهما وجهَهُ وسائرَ جَسدِهِ ، كذٰلكَ رُوِيَ مِنْ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2]

وليقرأْ عشراً مِنْ أوَّلِ الكهفِ ، وعشراً مِنْ آخرِها ، وهٰذهِ الآيُ للاستيقاظِ لقيامِ الليلِ[3]

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (ما أرىٰ أنَّ رجلاً مستكمَلاً عقلُهُ ينامُ قبلَ أنْ يقرأَ الآيتينِ مِنْ آخرِ سورةِ « البقرةِ »)[4]

وليقلْ خمساً وعشرينَ مرَّةً : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) ليكونَ مجموعُ هٰذهِ الكلماتِ الأربعِ مئةَ مرَّةٍ .

❀ ❀ ❀

التاسعُ : أنْ يتذكَّرَ عندَ النومِ أنَّ النومَ نوعُ وفاةٍ ، والتيقُّظَ نوعُ بعثٍ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ فسمَّاه توفِّياً ، وكما أنَّ المستيقظَ تنكشفُ لهُ مشاهداتٌ لا تناسبُ أحوالَهُ في النومِ . . فكذٰلكَ المبعوثُ يرىٰ ما لمْ يخطرْ قطُّ ببالِهِ ولا شاهدَهُ حسُّهُ ، ومثلُ النومِ بينَ الحياةِ والموتِ مثلُ البرزخِ بينَ الدنيا والآخرةِ[5]

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنْ كنتَ تشكُّ في الموتِ . . فلا تنمْ ؛ فكما أنَّكَ تنامُ . . كذٰلكَ تموتُ ، وإنْ كنتَ تشكُّ في البعثِ . . فلا تنتبهْ ؛ فكما أنَّكَ تنتبهُ بعدَ نومِكَ . . فكذٰلكَ تبعثُ بعدَ موتِكَ)[6]

وقالَ كعبُ الأحبارِ رحمَهُ اللهُ : (إذا نمتَ . . فاضطجعْ علىٰ شقِّكَ الأيمنِ ، واستقبلِ القبلةَ بوجهِكَ ؛ فإنَّها وفاةٌ)[7] .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ آخرُ ما يقولُ حينَ ينامُ وهوَ واضعٌ خدَّهُ علىٰ يدِهِ اليمنىٰ وهوَ يرىٰ أنَّهُ ميتٌ في ليلتِهِ تلكَ : « اللهمَّ ، ربَّ السماواتِ السبعِ وربَّ العرشِ العظيمِ ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ . . . » الدعاءَ إلىٰ آخرِهِ كما ذكرناهُ في كتابِ الدعواتِ[8]

فحقٌّ على العبدِ أنْ يفتِّشَ عنْ قلبِهِ عندَ نومِهِ أنَّهُ علىٰ ماذا ينامُ ؟ وما الغالبُ عليهِ : حبُّ اللهِ تعالىٰ وحبُّ لقائِهِ أوْ حبُّ الدنيا ؟ وليتحقَّقْ أنَّهُ يُتوفَّىٰ علىٰ ما هوَ الغالبُ عليهِ ، ويحشرُ علىٰ ما يُتوفَّىٰ عليهِ ؛ فإنَّ المرءَ معَ مَنْ أحبَّ ، ومعَ ما أحبَّ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٠٥١) .

(٢) رواه البخاري (٥٠١٨) .

(٣) قوت القلوب (٣٢/١) .

(٤) قوت القلوب (٣٢/١) ، وقد سبق بيان فضلها وأخواتها مما ذكره المصنف هنا .

(٥) قوت القلوب (٣٤/١) .

(٦) قوت القلوب (٣٤/١) .

(٧) قوت القلوب (٣٤/١) .

(٨) الحديث رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٥٥٧) .

العاشرُ : الدعاءُ عندَ التنبُّهِ : فليقلْ في تيقظاتِهِ وتقلُّباتِهِ مهما تنبَّهَ ما كانَ يقولُهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا إلـهَ إلا اللهُ الواحدُ القهَّارُ ، ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهُما العزيزُ الغفَّارُ »[1]

❁ ❁ ❁

وليجتهدْ أنْ يكونَ آخرُ ما يجري علىٰ قلبِهِ عندَ النومِ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، وأوَّلُ ما يردُ علىٰ قلبِهِ عندَ التيقُّظِ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، فهوَ علامةُ الحبِّ ، ولا يلازمُ القلبَ في هاتينِ الحالتينِ إلا ما هوَ الغالبُ عليهِ ، فليجرِّبْ قلبَهُ بهِ ؛ فإنَّها علامةٌ تنكشفُ عنْ باطنِ القلبِ ، وإنما استُحبَّتْ هـٰذهِ الأذكارُ ليُستجرَّ القلبُ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ .

فإذا استيقظَ ليقومَ . . قالَ : (الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدَما أماتنا وإليهِ النشورُ) إلىٰ آخرِ ما أوردناهُ مِنْ أدعيةِ التيقُّظِ .

❁ ❁ ❁

الوِردُ الرابعُ : يدخلُ بمضيِّ النصفِ الأوَّلِ مِنَ الليلِ إلىٰ أنْ يبقىٰ منَ الليلِ سدسُهُ :

وعندَ ذٰلكَ يقومُ العبدُ للتهجُّدِ ، فاسمُ التهجُّدِ يختصُّ بما بعدَ الهجودِ والهجوعِ وهوَ النومُ .

وهـٰذا وسْطُ الليلِ ، ويشبهُ الوِردَ الذي بعدَ الزوالِ ، وهوَ وسْطُ النهارِ ، وبهِ أقسمَ اللهُ تعالىٰ فقالَ : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أي : إذا سكنَ[2] ، وسكونُهُ : هدوءُهُ في هـٰذا الوقتِ ، فلا تبقىٰ عينٌ إلَّا نائمةٌ سوى الحيِّ القيُّومِ الذي لا تأخذُهُ سنةٌ ولا نومٌ ، وقيلَ : ﴿ إِذَا سَجَىٰ ﴾ إذا امتدَّ وطالَ ، وقيلَ : إذا أظلمَ[3]

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الليلِ أسمعُ ؟ فقالَ : « جوفُ الليلِ »[4]

وقالَ داوودُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إلـهي ؛ إنِّي أحبُّ أنْ أتعبَّدَ لكَ ، فأيُّ وقتٍ أفضلُ ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ لا تقمْ أوَّلَ الليلِ ولا آخرَهُ ، فإنَّهُ منْ قامَ أوَّلَهُ . . نامَ آخرَهُ ، ومَنْ قامَ آخرَهُ . . لمْ يقمْ أوَّلَهُ ، ولـٰكنْ قمْ وسْطَ الليلِ حتَّىٰ تخلوَ بي وأخلوَ بكَ ، وارفعْ إليَّ حوائجَكَ[5]

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الليلِ أفضلُ ؟ فقالَ : « نصفُ الليلِ الغابرِ »[6] ؛ يعني : الباقيَ .

وفي آخرِ الليلِ وردتِ الأخبارُ باهتزازِ العرشِ[7] ، وانتشارِ الرياحِ مِنْ جنَّاتِ عدنٍ[8] ، ومِنْ نزولِ الجبارِ تعالىٰ إلىٰ سماءِ الدنيا[9] ، وغيرِ ذٰلكَ مِنَ الأخبارِ .

---

(١) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٦٣٤) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٧٥٧) .

(٢) روىٰ ذٰلك ابن جرير في « تفسيره » (١٥/٣٠/٢٨٩) عن قتادة والضحاك .

(٣) رواه ابن جرير في « تفسيره » (١٥/٣٠/٢٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والأقوال في « القوت » (٢١/١) .

(٤) رواه أبو داوود (١٢٧٧) ، والترمذي (٣٤٩٩) .

(٥) قوت القلوب (٢١/١) .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (١٧٩/٥) ولفظه : « جوف الليل الغابر » ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٥٦٤) ولفظه : « نصف الليل أو جوف الليل » دون لفظ : (الغابر) ، والغابر : ضدٌّ ، يطلق على الماضي والباقي .

(٧) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٣/٦) عن سعيد الجريري : أن داوود قال : يا جبرائيل ؛ أي الليل أفضل ؟ قال : ما أدري ، غير أني أعلم أن العرش يهتز من السحر .

(٨) قوت القلوب (٢١/١) ، والسياق عنده .

(٩) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

وترتيبُ هٰذا الوِردِ :

أنَّهُ بعدَ الفراغِ مِنَ الأدعيةِ التي للاستيقاظِ يتوضَّأُ وضوءاً كما سبقَ بسننِهِ وآدابِهِ وأدعيتِهِ ، ثمَّ يتوجَّهُ إلىٰ مصلَّاهُ ، ويقومُ مستقبلاً القبلةَ ، ويقولُ : (اللهُ أكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً) ، ثمَّ ليسبِّحْ عشراً ، وليحمدْ عشراً ، وليهللْ عشراً ، وليقلِ : (اللهُ أكبرُ ذو الملكوتِ والجبروتِ ، والكبرياءِ والعظمةِ ، والجلالِ والقدرةِ) [1]

وليقلْ هٰذهِ الكلماتِ ؛ فإنَّها مأثورةٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قيامِهِ للتهجُّدِ : اللهمَّ ؛ لكَ الحمدُ أنتَ نورُ السماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ بهاءُ السَّماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ ربُّ السماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ قيُّومُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ ، ومَنْ عليهنَّ ، أنتَ الحقُّ ، ومنكَ الحقُّ ، ولقاؤُكَ حقٌّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، والنشورُ حقٌّ ، والنبيُّونَ حقٌّ ، ومحمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حقٌّ .

اللهمَّ ؛ لكَ أسلمتُ ، وبكَ آمنتُ ، وعليكَ توكلْتُ ، وإليكَ أنبتُ ، وبكَ خاصمْتُ ، وإليكَ حاكمْتُ ، فاغفرْ لي ما قدمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ وما أسرفتُ ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ ، لا إلٰهَ إلا أنتَ [2]

اللهمَّ ؛ آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكَّاها ، أنتَ وليُّها ومولاها [3]

اللهمَّ ؛ اهدني لأحسنِ الأعمالِ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها لا يصْرِفُ عنِّي سيِّئَها إلا أنتَ [4]

أسألُكَ مسألةَ البائسِ المسكينِ ، وأدعوكَ دعاءَ المفتقرِ الذليلِ ، فلا تجعلني بدعائِكَ ربِّ شقيّاً ، وكنْ بي رؤوفاً رحيماً ، يا خيرَ المسؤولينَ ، وأكرمَ المعطينَ [5]

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قامَ مِنَ الليلِ . . افتتحَ صلاتَهُ قالَ : « اللهمَّ ، ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ ، أنتَ تحكُمُ بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيهِ يختلفونَ ؛ اهدني لما اختُلِفَ فيهِ مِنَ الحقِّ بإذنِكَ ، إنَّكَ تهدي مَنْ تشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ » [6]

ثمَّ يفتتحُ الصلاةَ ويصلِّي ركعتينِ خفيفتينِ ، ثمَّ يصلِّي مثنىٰ مثنىٰ ما تيسَّرَ لهُ ، ويختمُ بالوترِ إنْ لمْ يكنْ قدْ صلَّى الوترَ ، ويستحبُّ أنْ يفصلَ بينَ الصلاتينِ عندَ تسليمِهِ بمئةِ تسبيحةٍ ؛ ليستريحَ ويزيدَ نشاطُهُ للصلاةِ .

وقدْ صحَّ في صلاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالليلِ أنَّهُ صلَّىٰ أولاً ركعتينِ خفيفتينِ ، ثمَّ ركعتينِ طويلتينِ ،

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٤١٦) مصرحاً بصلاة الليل ، وأبو داوود (٨٧٤) ، والنسائي (٢/٢٣١) .

(٢) إلىٰ هنا رواه البخاري (١١٢٠) ، ومسلم (٧٦٩) بألفاظ متقاربة .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٦/٢٠٩) في قيام الليل ، وهو عند مسلم (٢٧٢٢) من دعائه صلى الله عليه وسلم

(٤) رواه النسائي (٢/١٢٩) بلفظ : (لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق) ، وهو عند مسلم (٧٧١) بلفظ : (الأخلاق) بدل (الأعمال) وفيه زيادة مَن أوله .

(٥) رواه الطبراني في « الصغير » (١/٢٤٧) .

(٦) رواه مسلم (٧٧٠) .

ثمَّ صلَّىٰ ركعتينِ دونَ اللتينِ قبلَهُما ، ثمَّ لمْ يزلْ يقصرُ بالتدريجِ إلىٰ ثلاثَ عشرةَ ركعةً [١]

وسئلتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أكانَ يجهرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قيامِ الليلِ أمْ يسرُّ ؟ فقالَت : (ربما جهرَ ، وربما أسرَّ) [٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةُ الليلِ مثنىٰ مثنىٰ ، فإذا خفتَ الصبحَ . . فأوترْ بركعةٍ » [٣]

وقالَ عليهِ السلامُ : « صلاةُ المغربِ أوترتْ صلاةَ النهارِ ، فأوترُوا صلاةَ الليلِ » [٤] .

وأكثرُ ما صحَّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قيامِ الليلِ ثلاثَ عشرةَ ركعةً [٥]

ويقرأُ في هٰذهِ الركعاتِ مِنْ وردِهِ مِنَ القرآنِ أوْ مِنَ السورِ المخصوصةِ ما خفَّ عليهِ ، وهوَ في حكْمِ هٰذا الوِردِ إلىٰ قريبٍ مِنَ السدسِ الأخيرِ مِنَ الليلِ .

❊ ❊ ❊

الوِردُ الخامسُ : السُّدُسُ الأخيرُ مِنَ الليلِ :

وهوَ وقتُ السحرِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قيلَ : يصلُّونَ ؛ لما فيها مِنَ الاستغفارِ [٦] ، وهوَ مقاربٌ للفجرِ الذي هوَ وقتُ انصرافِ ملائكةِ الليلِ وإقبالِ ملائكةِ النهارِ .

وقدْ أمرَ بهٰذا الوِردِ سلمانُ أخاه أبا الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُما ليلةَ زارَهُ في حديثٍ طويلٍ قالَ في آخرِهِ : فلمَّا كانَ الليلُ . . ذهبَ أبو الدرداءِ ليقومَ ، فقالَ لهُ سلمانُ : نمْ ، فنامَ ، ثمَّ ذهبَ ليقومَ ، فقالَ لهُ : نمْ ، فنامَ ، فلمَّا كانَ عندَ الصبحِ . . قالَ لهُ سلمانُ : قمِ الآنَ ، فقاما ، فصلَّيا ، فقالَ : إنَّ لنفسِكَ عليكَ حقّاً ، وإنَّ لضيفِكَ عليكَ حقّاً ، وإنَّ لأهلِكَ عليكَ حقّاً ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، وذٰلكَ أنَّ امرأةَ أبي الدرداءِ أخبرتْ سلمانَ أنَّهُ لا ينامُ الليلَ ، قالَ : فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذكرَ ذٰلكَ لهُ ، فقالَ : « صدقَ سلمانُ » [٧]

وهٰذا هوَ الوِردُ الخامسُ ، وفيهِ يستحبُّ السحورُ ، وذٰلكَ عندَ خوفِ طلوعِ الفجرِ [٨]

والوظيفةُ في هٰذينِ الوردينِ : الصلاةُ ، فإذا طلعَ الفجرُ . . انقضتْ أورادُ الليلِ ودخلتْ أورادُ النهارِ ، فيقومُ ويصلِّي ركعتي الفجرِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ ، ثمَّ يقرأُ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . . ﴾ إلىٰ آخرِها ، ثمَّ يقولُ : (وأنا أشهدُ بما شهدَ اللهُ بِهِ لنفسِهِ ، وشهدتْ بِهِ ملائكتُهُ وأولو العلمِ مِنْ خلقِهِ ، وأستودعُ اللهَ هٰذهِ الشهادةَ

---

(١) رواه مسلم (٧٦٥) .

(٢) رواه أبو داوود (٢٢٦) ، والترمذي (٤٤٩) ، والنسائي (٢٢٤/٣) ، وابن ماجه (١٣٥٤) .

(٣) رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) .

(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤٦٧٥) ، وأحمد في « المسند » (٣٠/٢) .

(٥) رواه مسلم (٧٦٥) ، والنسائي (٢٣٧/٣) .

(٦) روىٰ ذلك الطبري في « تفسيره » (٢٤٥/٢٦/١٣) عن ابن عمر والضحاك ومجاهد ، قال أبو طالب المكي في « القوت » (٢١/١) : (وكذٰلك قوله عز وجل : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ يعني به الصلاة ، فكنىٰ بذٰلك القرآن والاستغفار عن الصلاة ؛ لأنهما وصفان منها . . . ، وكذٰلك يقال للصلاة استغفار ؛ لأنه يطلب بها المغفرة) .

(٧) رواه البخاري (١٩٦٨) ، ولفظ المصنف في « القوت » (٢١/١) .

(٨) قوت القلوب (٢١/١) وقال : (فمن لم يتسحَّر في أوله . . بغته الفجر) .

وهيَ لي عند اللهِ تعالىٰ وديعةٌ ، وأسألُهُ حفظَها حتَّىٰ يتوفاني عليها ، اللهمَّ ؛ احططْ بها عنّي وزراً ، واجعلْ لي بها عندَكَ ذخراً ، واحفظْها عليَّ ، وتوفَّني عليها حتَّىٰ ألقاكَ بها غيرَ مبدِّلٍ تبديلاً)[٩]

❁ ❁ ❁

فهـٰذا ترتيبُ الأورادِ للعُبَّادِ ، وقدْ كانوا يستحبونَ أنْ يجمعوا معَ ذٰلكَ في كلِّ يومٍ بينَ أربعةِ أمورٍ : صومٍ ، وصدقةٍ وإنْ قلَّتْ ، وعيادةِ مريضٍ ، وشهودِ جنازةٍ ؛ ففي الخبرِ : « مَنْ جمعَ بينَ هـٰذهِ الأربعِ في يومٍ . . غُفِرَ لهُ » ، وفي روايةٍ : « دخلَ الجنَّةَ »[١٠] ، فإنِ اتفقَ بعضُها وعجزَ عنِ الآخرِ . . كانَ لهُ أجرُ الجميعِ بحسَبِ نيَّتِهِ .

وكانوا يكرهونَ أنْ ينقضيَ اليومُ ولمْ يتصدَّقوا فيهِ بصدقةٍ ولوْ بتمرةٍ أوْ بَصَلَةٍ أوْ كسرةِ خبزٍ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرجلُ في ظلِّ صدقتِهِ حتَّىٰ يُقضىٰ بينَ الناسِ »[١١] ، ولقولِهِ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ »[١٢]

ودفعتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها إلىٰ سائلٍ عنبةً واحدةً فأخذَها ، فنظرَ مَنْ كانَ عندَها بعضُ الحاضرينَ إلىٰ بعضٍ فقالتْ : (ما لكمْ !! إنَّ فيها لمثاقيلَ ذرٍّ كثيرٍ)[١٣]

وكانوا لا يستحبُّونَ ردَّ السائلِ ؛ إذْ كانَ منْ أخلاقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذٰلكَ ، ما سألَهُ أحدٌ شيئاً فقالَ : لا ، ولـٰكنَّهُ إنْ لمْ يقدرْ عليهِ . . سكتَ[١٤] ، وفي الخبرِ : « يصبحُ ابنُ آدمَ وعلىٰ كلِّ سُلامىٰ مِنْ جسدِهِ صدقةٌ ـ يعني : كلَّ مفصلٍ ، وفي جسدِهِ ثلاثُ مئةٍ وستونَ مفصلاً ـ فأمرُكَ بالمعروفِ صدقةٌ ، ونهيُكَ عَنِ المنكرِ صدقةٌ ، وحملُكَ عنِ الضعيفِ صدقةٌ ، وهدايتُكَ إلى الطريقِ صدقةٌ ، وإماطتُكَ الأذىٰ صدقةٌ » ، حتَّىٰ ذكرَ التسبيحَ والتهليلَ ثمَّ قالَ : « وركعتا الضحىٰ تأتي علىٰ ذٰلكَ كلِّهِ ، أوْ تجمعُ ذٰلكَ كلَّهُ »[١٥] .

❁ ❁ ❁

---

(٩) قوت القلوب (٢٢/١) ، والدعاء الأخير منه رواه الترمذي (٥٧٩) ، وابن ماجه (١٠٥٣) .

(١٠) رواه مسلم (١٠٢٨) ، ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال : « فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال : « فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة » . ورواية : « غفر له » أوردها صاحب « القوت » (٤٢/١) .

(١١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤١٦/١) .

(١٢) رواه البخاري (١٤١٣) ، ومسلم (١٠١٦) .

(١٣) قوت القلوب (٤٢/١) .

(١٤) رواه مسلم (٢٣١١) ، والبزار (٦٤٣٩) .

(١٥) رواه البخاري (٢٩٨٩) ، ومسلم (٧٢٠) واللفظ له .

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلمْ : أنَّ المريدَ لحرثِ الآخرةِ السالكَ لطريقِها لا يخلو عَنْ ستَّةِ أحوالٍ ؛ فإنَّهُ إما عابدٌ ، وإمَّا عالمٌ ، وإمَّا متعلِّمٌ ، وإمَّا والٍ ، وإمَّا محترفٌ ، وإمَّا موحِّدٌ مستغرقٌ بالواحدِ الصمدِ عَنْ غيرِهِ .

الأوَّلُ : العابدُ :

وهوَ المتجرّدُ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، الذي لا شغلَ لهُ غيرُها أصلاً ، ولوْ تركَ العبادةَ . . لجلسَ بطَّالاً ، **فترتيبُ أورادِهِ** ما ذكرناهُ .

نعمْ ؛ لا يبعدُ أنْ تختلفَ وظائفُهُ ؛ بأنْ يستغرقَ أكثرَ أوقاتِهِ إمَّا في الصلاةِ ، أوْ في القراءةِ ، أوْ في التسبيحاتِ ، فقدْ كانَ في الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مَنْ وِردُهُ في اليومِ اثنا عشرَ ألفَ تسبيحةٍ [١] ، وكانَ فيهِمْ مَنْ وِردُهُ ثلاثونَ ألفاً ، وكانَ فيهِمْ مَنْ وِردُهُ ثلاثُ مئةِ ركعةٍ إلىٰ ستِّ مئةٍ ، وإلىٰ ألفِ ركعةٍ ، وأقلُّ ما نُقِلَ في أورادِهِمْ مِنَ الصلاةِ مئةُ ركعةٍ في اليومِ والليلةِ [٢] .

وكانَ بعضُهُم أكثرُ وردِهِ القرآنُ ، فكانَ يختمُ الواحدُ منهُمْ فِي اليومِ مرَّةً ، ورُوِيَ : مرتينِ عَنْ بعضِهِمْ ، وكانَ بعضُهُمْ يقضي اليومَ أوِ الليلةَ في التفكُّرِ في آيةٍ واحدةٍ يردِدُها .

وكانَ كُرْزُ بنُ وبرةَ مقيماً بمكَّةَ ، فكانَ يطوفُ في كلِّ يومٍ سبعينَ أسبوعاً ، وفي كلِّ ليلةٍ سبعينَ أسبوعاً ، وكانَ معَ ذٰلكَ يختمُ القرآنَ في اليومِ والليلةِ مرَّتينِ ، فحُسِبَ ذٰلكَ فكانَ عشرةَ فراسخَ ، ويكونُ معَ كلِّ أسبوعٍ ركعتانِ ، فهوَ مئتانِ وثمانونَ ركعةً ، وختمتانِ ، وعشرةُ فراسخَ [٣]

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما الأولىٰ أنْ يصرفَ إليهِ أكثرَ الأوقاتِ مِنْ هٰذهِ الأورادِ ؟

فاعلمْ : أنَّ قراءةَ القرآنِ في الصلاةِ قائماً معَ التدبُّرِ يجمعُ الجميعَ ، ولٰكنْ ربما تعسرُ المواظبةُ عليهِ ، فالأفضلُ يختلفُ باختلافِ حالِ الشخصِ ، ومقصودُ الأورادِ تزكيةُ القلبِ وتطهيرُهُ ، وتحليتُهُ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإيناسُهُ بهِ ، فلينظرِ المريدُ إلىٰ قلبِهِ ، فما يراهُ أشدَّ تأثيراً فيهِ . . فليواظبْ عليهِ ، فإذا أحسَّ بملالةٍ منهُ . . فلينتقلْ إلىٰ غيرِهِ .

ولذٰلكَ نرى الأصوبَ لأكثرِ الخلقِ توزيعَ هٰذهِ الخيراتِ المختلفةِ على الأوقاتِ كما سبقَ ، والانتقالَ فيها مِنْ نوعٍ إلىٰ نوعٍ ؛ لأنَّ المَلالَ هوَ الغالبُ على الطبعِ ، وأحوالُ الشخصِ الواحدِ أيضاً في ذٰلكَ تختلفُ ، ولٰكنْ إذا فهمَ فقهَ

---

(١) كأبي هريرة رضي الله عنه ، روىٰ ذٰلك عنه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٢٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦٣/٦٧) .

(٢) قوت القلوب (٤٠/١ ـ ٤١) .

(٣) كذا في « القوت » (٤١/١) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٨١/٥) عن ابن شُبرمة يقول : لو شئتُ كنت ككرز في تعبُّدِهِ أو كابنِ طارق حول البيتِ في الحرمِ

قد حال دون لذيذِ العيشِ خوفهما ... وسارعا في طِلاب الفوز والكرم

وكان محمد بن طارق يطوف في كل يوم وليلة سبعين أسبوعاً ، وكان كرز يختم القرآن في كل يوم وليلة ثلاث ختمات .

الأورادِ وسرِّها . . فليتبعِ المعنىٰ ، فإنْ سمعَ تسبيحةً مثلاً وأحسَّ لها بوقعٍ في قلبِهِ . . فليواظبْ علىٰ تكرارِها ما دامَ يجدُ لها وقعاً .

وقد رُوي عنْ إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمهُ اللهُ عنْ بعضِ الأبدالِ : أَنَّهُ قامَ ذاتَ ليلةٍ يصلِّي علىٰ شاطئِ البحرِ ، فسمعَ صوتاً عالياً بالتسبيحِ ولمْ يرَ أحداً ، فقالَ : مَنْ أنتَ أسمعُ صوتَكَ ولا أرىٰ شخصَكَ ؟ فقالَ : أنا مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ موكَّلٌ بهٰذا البحرِ ، أسبِّحُ اللهَ تعالىٰ بهٰذا التسبيحِ منذُ خُلقتُ ، قلتُ : فما اسمُكَ ؟ قالَ : مهلهيائيل ، قلتُ : فما ثوابُ مَنْ قالَهُ ؟ قالَ : مَنْ قالَهُ مئةَ مرَّةٍ . . لمْ يمتْ حتَّىٰ يرىٰ مقعدَهُ مِنَ الجنَّةِ أوْ يُرىٰ لهُ[1]

والتسبيحُ : هوَ قولُهُ : (سبحانَ اللهِ العليِّ الديَّانِ ، سبحانَ اللهِ الشديدِ الأركانِ ، سبحانَ مَنْ يذهبُ بالليلِ ويأتي بالنهارِ ، سبحانَ مَنْ لا يشغلُهُ شانٌ عَنْ شانٍ ، سبحانَ اللهِ الحنَّانِ المنَّانِ ، سبحانَ اللهِ المسبَّحِ في كلِّ مكانٍ) .

فهٰذا وأمثالُهُ إذا سمعَهُ المريدُ ووجدَ لهُ في قلبِهِ وقْعاً . . فيلازمُهُ ، وأيّاً ما وجدَ القلبَ عندَهُ وفُتحَ لهُ فيهِ خيرٌ . . فليواظبْ عليهِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : العالمُ الذي ينفعُ الناسَ بعلمِهِ في فتوىٰ ، أوْ تدريسٍ ، أوْ تصنيفٍ :

فترتيبُهُ الأورادَ يخالفُ ترتيبَ العابدِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلى المطالعةِ للكتبِ ، وإلى التصنيفِ والإفادةِ ، ويحتاجُ إلىٰ مدَّةٍ لها لا محالةَ ، فإنْ أمكنَهُ استغراقُ الأوقاتِ فيهِ . . فهو أفضلُ ما يشتغلُ بهِ بعدَ المكتوباتِ ورواتبِها .

ويدلُّ علىٰ ذٰلكَ جميعُ ما ذكرناهُ في فضيلةِ التعليمِ والتعلُّمِ في كتابِ العلمِ ، وكيفَ لا يكونُ كذٰلكَ وفي العلمِ المواظبةُ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وتأمُّلِ ما قالَ اللهُ سبحانَهُ وقالَ رسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وفيهِ منفعةُ الخلقِ وهدايتُهُمْ إلىٰ طريقِ الآخرةِ ؟! وربَّ مسألةٍ واحدةٍ يتعلَّمُها المتعلِّمُ فيصلحُ بها عبادةَ عمرِهِ ، ولوْ لمْ يتعلَّمْها . . لكانَ سعيُهُ ضائعاً .

وإنَّما نعني بالعلمِ المقدَّمِ على العبادةِ : العلمَ الذي يرغِّبُ الناسَ في الآخرةِ ويزهِّدُهم في الدنيا ، أوِ العلمَ الذي يعينُهُمْ علىٰ سلوكِ طريقِ الآخرةِ إذا تعلَّمُوهُ علىٰ قصدِ الاستعانةِ بهِ على السلوكِ ، دونَ العلومِ التي تزيدُ بها الرغبةُ في المالِ والجاهِ وقبولِ الخلقِ .

والأولىٰ بالعالمِ أنْ يقسمَ أوقاتَهُ أيضاً ؛ فإنَّ استغراقَ الأوقاتِ في ترتيبِ العلمِ لا يحتملُهُ الطبعُ ، فينبغي أن يخصِّصَ ما بعدَ الصبحِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ بالأذكارِ والأورادِ ، كما ذكرناه في الوِردِ الأوَّلِ .

وبعدَ الطلوعِ إلىٰ ضحوةِ النهارِ في الإفادةِ والتعليمِ إنْ كانَ عندَهُ مَنْ يستفيدُ علماً لأجلِ الآخرةِ ، وإنْ لمْ يكنْ . . فيصرفُهُ إلى الفِكْرِ ، ويتفكَّرُ فيما يشكلُ عليهِ مِنْ علومِ الدينِ ، فإنَّ صفاءَ القلبِ بعدَ الفراغِ مِنَ الذكرِ وقبلَ الاشتغالِ بهمومِ الدنيا يعينُ على التفطُّنِ للمشكلاتِ .

ومِنْ ضحوةِ النهارِ إلى العصرِ للتصنيفِ والمطالعةِ ، لا يتركُهما إلا في وقتِ أكلٍ وطهارةٍ ومكتوبةٍ وقيلولةٍ خفيفةٍ إنْ طالَ النهارُ .

ومِنَ العصرِ إلى الاصفرارِ يشتغلُ بسماعِ ما يُقرأُ بينَ يديهِ ؛ مِنْ تفسيرٍ أوْ حديثٍ أوْ علمٍ نافعٍ .

---

(١) قوت القلوب (١/٤٠) .

ومِنَ الاصفرارِ إلى الغروبِ يشتغلُ بالذكرِ والاستغفارِ والتسبيحِ .

فيكونُ وِردُهُ الأوَّلُ قبلَ طلوعِ الشمسِ في عملِ اللسانِ ، ووِردُهُ الثاني في عملِ القلبِ بالفكرِ إلى الضحوةِ ، ووِردُهُ الثالثُ إلى العصرِ في عملِ العينِ واليدِ بالمطالعةِ والكتابةِ ، ووِردُهُ الرابعُ بعدَ العصرِ في عملِ السمعِ ؛ ليروّحَ فيهِ العينَ واليدَ ، فإنَّ المطالعةَ والكتابةَ بعدَ العصرِ ربما أضرَّا بالعينِ ، وعندَ الاصفرارِ يعودُ إلىٰ ذكرِ اللسانِ ، فلا يخلو جزءٌ مِنَ النهارِ عنْ عملٍ لهُ بالجوارحِ معَ حضورِ القلبِ في الجميعِ .

وأمَّا الليلُ . . فأحسنُ قسمةٍ فيهِ قسمةُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذْ كانَ يقسمُ الليلَ ثلاثةَ أجزاءٍ : ثلثٌ للمطالعةِ وترتيبِ العلمِ وهوَ الأوَّلُ ، وثلثٌ للصلاةِ وهوَ الوسطُ ، وثلثٌ للنومِ وهوَ الأخيرُ ، وهـٰذا يتيسَّرُ في ليالي الشتاءِ ، وأمَّا الصيفُ . . ربما لا يحتملُ ذٰلكَ إلا إذا كانَ أكثرَ النومَ بالنهارِ ، فهـٰذا ما نستحبُّهُ مِنْ ترتيبِ أورادِ العالمِ [١]



الثالثُ : المتعلِّمُ :

والاشتغالُ بالتعلُّمِ أفضلُ مِنَ الاشتغالِ بالأذكارِ والنوافلِ [٢] ، فحكمُهُ حكمُ العالمِ في ترتيبِ الأورادِ ، ولـٰكنْ يشتغلُ بالاستفادةِ حيثُ يشتغلُ العالمُ بالإفادةِ ، وبالتعليقِ والنسخِ حيثُ يشتغلُ العالمُ بالتصنيفِ .

ويرتِّبُ أوقاتَهُ كما ذكرناهُ .

وكلُّ ما ذكرناهُ في فضيلةِ التعلُّمِ والعلمِ مِنْ كتابِ العلمِ يدلُّ علىٰ أنَّ ذٰلكَ أفضلُ ، بلْ إنْ لمْ يكنْ متعلِّماً علىٰ معنىٰ أنَّهُ يعلِّقُ ويحصِّلُ ليصيرَ عالماً بلْ كانَ مِنَ العوامِّ . . فحضورُهُ مجالسَ الذكرِ والوعظِ والعلمِ أفضلُ مِنِ اشتغالِهِ بالأورادِ التي ذكرناها بعدَ الصبحِ وبعدَ الطلوعِ وفي سائرِ الأوقاتِ ، ففي حديثِ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ حضورَ مجلسِ ذكرٍ أفضلُ مِنْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ ، وشهودِ ألفِ جنازةٍ ، وعيادةِ ألفِ مريضٍ) [٣]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا رأيتُمْ رياضَ الجنَّةِ . . فارتعوا فيها » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما رياضُ الجنَّةِ ؟ قالَ : « حِلَقُ الذكْرِ » [٤]

وقالَ كعبُ الأحبارِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ أنَّ ثوابَ مجالسِ العلماءِ بدا للناسِ . . لاقتتلوا عليهِ حتَّىٰ يتركَ كلُّ ذي إمارةٍ إمارتَهُ ، وكلُّ ذي سوقٍ سوقَهُ) [٥]

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الرجلَ ليخرجُ مِنْ منزلِهِ وعليهِ مِنَ الذنوبِ مثلُ جبالِ تهامةَ ، فإذا سمعَ العالمَ . . خافَ واسترجعَ عنْ ذنوبِهِ ، وانصرفَ إلىٰ منزلِهِ وليسَ عليهِ ذنبٌ ، فلا تفارقوا مجالسَ العلماءِ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمْ يخلقْ علىٰ وجهِ الأرضِ تربةً أكرمَ مِنْ مجالسِ العلماءِ) .

---

(١) ومن اختار هـٰذا الترتيب في النهار والليل من العلماء . . بورك له في علمه وتصنيفه ، وذكر بعض العلماء في ترجمة المصنِّف قدّس سرُّه أنه صنَّف هـٰذا الكتاب في مئة يوم ، ومع ذٰلك كان يختم القرآن في اليوم والليلة مرة ، فهـٰذا وأمثاله مما وقع لغيره من المصنفين من بركة الوقت وحسن إخلاصهم رحمهم الله تعالىٰ ونفعنا بهم آمين . « إتحاف » (١٧٣/٥) .

(٢) بل الاشتغال بالعلم اشتغال بالذكر ؛ إذ العلم الذي يشتغل به يذكر فيه الله ورسوله ، فهو في ذكر . « إتحاف » (١٧٣/٥) .

(٣) قوت القلوب (٦٧/١) ، وانظر « الإتحاف » (٩٩/١) .

(٤) رواه الترمذي (٣٥١٠) .

(٥) نسبه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٧٤/٥) لأبي نعيم في « الحلية » .

وقالَ رجلٌ للحسنِ رحمهُ اللهُ : أشكو إليكَ قساوةَ قلبي ، فقالَ : أَدْنِهِ مِنْ مجالسِ الذكرِ[1]

ورأىٰ عمارٌ الراهبُ مسكينةَ الطفاويةَ في المنامِ وكانتْ مِنَ المواظباتِ علىٰ حِلَقِ الذكرِ ، فقالَ : مرحباً يا مسكينةُ ، فقالتْ : هيهاتَ هيهاتَ ، ذهبتِ المسكنةُ وجاءَ الغنىٰ ، فقالَ : هيهِ ، فقالتْ : ما تسألُ عمَّنْ أُبيحَ لها الجنةُ بحذافيرِها ، قالَ : وبِمَ ذٰلكَ ؟ قالتْ : بمجالسةِ أهلِ الذكرِ[2] .

وعلى الجملةِ : فما ينحلُّ عنِ القلبِ مِنْ عقدةٍ مِنْ عُقَدِ حبِّ الدنيا بقولِ واعظٍ حسنِ الكلامِ زكيِّ السيرةِ . . أشرفُ وأنفعُ مِنْ ركعاتٍ كثيرةٍ معَ اشتمالِ القلبِ علىٰ حبِّ الدنيا .

❀ ❀ ❀

الرابعُ : المحترفُ الذي يحتاجُ إلى الكسبِ لعيالِهِ :

فليسَ لهُ أنْ يضيعَ العيالَ ويستغرقَ الأوقاتَ في العباداتِ ، بلْ وِردُهُ في وقتِ الصناعةِ حضورُ السوقِ ، والاشتغالُ بالكسبِ ، ولٰكنْ ينبغي ألَّا ينسىٰ ذكرَ اللهِ تعالىٰ في صناعتِهِ ، بلْ يواظبُ على التسبيحاتِ والأذكارِ وقراءةِ القرآنِ ، فإنَّ ذٰلكَ يمكنُ أنْ يُجمَعَ إلى العملِ ، وإنَّما الذي لا يتيسَّرُ معَ العملِ الصلاةُ ، إلا أنْ يكونَ ناظوراً[3] ، فإنَّهُ لا يعجزُ عنْ إقامةِ أورادِ الصلاةِ معهُ .

ثـمَّ مهما فرغَ مِنْ كفايتِهِ . . ينبغي أنْ يعودَ إلىٰ ترتيبِ الأورادِ ، وإنْ داومَ على الكسبِ وتصدَّقَ بما فضلَ عنْ حاجتِهِ . . فهوَ أفضلُ مِنْ سائرِ الأورادِ التي ذكرناها ؛ لأنَّ العبادةَ المتعديةَ فائدتُها أنفعُ مِنَ اللازمةِ ، والصدقةُ والكسبُ علىٰ هٰذهِ النيَّةِ عبادةٌ لهُ في نفسِهِ تقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، ثـمَّ يحصلُ بهِ فائدةٌ للغيرِ ، وتنجذبُ إليهِ بركاتُ دعواتِ المسلمينَ ، فيتضاعفُ بهِ الأجرُ .

❀ ❀ ❀

الخامسُ : الوالي :

مثلُ الإمامِ والقاضي والمتولِّي لينظرَ في أمورِ المسلمينَ ، فقيامُهُ بحاجاتِ المسلمينَ وأغراضِهِمْ علىٰ وَفْقِ الشرعِ وقصْدِ الإخلاصِ أفضلُ مِنَ الأورادِ المذكورةِ ، **فحقُّهُ** أنْ يشتغلَ بحقوقِ الناسِ نهاراً ، ويقتصرَ على المكتوبةِ ، ويقيمَ الأورادَ المذكورةَ بالليلِ ؛ كما كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يفعلُهُ ؛ إذْ قالَ : (ما لي وللنومِ ، لوْ نمتُ بالنهارِ . . ضيَّعْتُ المسلمينَ ، ولوْ نمتُ بالليلِ . . ضيعتُ نفسي)[4]

وقدْ فهمتَ ممَّا ذكرناهُ أنَّهُ يقدَّمُ على العباداتِ البدنيةِ أمرانِ : **أحدُهما** : العلمُ ، **والآخرُ** : الرفقُ بالمسلمينَ ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ العلمِ وفعلِ المعروفِ عملٌ في نفسِهِ ، وعبادةٌ تفضلُ سائرَ العباداتِ بتعدي فائدتِهِ وانتشارِ جدواهُ ، فكانا مقدَّمينِ عليهِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٩١) بنحوه .

(٢) رواها ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٤٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٩٥) .

(٣) **الناظور** : هو الناطور ، حافظ البستان ونحوه .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٦٠٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٣/٤٤) ، وكان ذٰلك جواباً لعمرو بن العاص رضي الله عنهما حين كتب له فسأله : بلغني يا أمير المؤمنين أنك لا تنام بالليل ولا بالنهار إلا مغلباً .

السادسُ : الموحِّدُ المستغرقُ بالواحدِ الصمدِ :

الذي أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ[1] ، فلا يحبُّ إلا اللهَ عزَّ وجلَّ ، ولا يخافُ إلا منهُ ، ولا يتوقَّعُ الرزقَ منْ غيرِهِ ، ولا ينظرُ في شيءٍ إلا ويرى اللهَ عزَّ وجلَّ فيهِ .

فمَنِ ارتفعتْ رتبتُهُ إلىٰ هٰذهِ الدرجةِ . . لمْ يفتقرْ إلىٰ تنويعِ الأورادِ واختلافِها ، بلْ كانَ وردُهُ بعدَ المكتوباتِ ورداً واحداً ، وهوَ حضورُ القلبِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ حالٍ ، فلا يخطرُ بقلوبِهِمْ أمرٌ ، ولا يقرعُ سمعَهُمْ قارعٌ ، ولا يلوحُ لأبصارِهِمْ لائحٌ . . إلا كانَ لهُمْ فيهِ عِبرةٌ وفكرٌ ومزيدٌ ، فلا محرِّكَ لهُمْ ولا مسكِّنَ إلا اللهُ عزَّ وجلَّ .

❁ ❁ ❁

فهٰؤلاءِ جميعُ أحوالِهِمْ تصلحُ أنْ تكونَ سبباً لازديادِهِمْ ، فلا تتميَّزُ عندَهُمْ عبادةٌ عنْ عبادةٍ ، وهُمُ الذينَ فرُّوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وتحقَّقَ فيهِمْ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾[2] ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[3]

وهٰذهِ منتهىٰ درجاتِ الصدِّيقينَ ، ولا وصولَ إليها إلا بعدَ ترتيبِ الأورادِ والمواظبةِ عليها دهراً طويلاً ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ المريدُ بما يسمعُهُ مِنْ ذٰلكَ فيدعيَهُ لنفسِهِ ، ويفترَ عنْ وظائفِ عباداتِهِ ، فذٰلكَ علامتُهُ ألَّا يهجسَ في قلبِهِ وسواسٌ ، ولا يخطرَ في قلبِهِ معصيةٌ ، ولا تزعجَهُ هواجمُ الأهوالِ ، ولا تستفزَّهُ عظائمُ الأشغالِ ، وأنَّىٰ تُرزقُ هٰذهِ الرتبةُ لكلِّ أحدٍ ؟!

فيتعيَّنُ على الكافَّةِ ترتيبُ الأورادِ كما ذكرناهُ ، وجميعُ ما ذكرناهُ طرقٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ ، فكلُّهُمْ مهتدونَ وبعضُهُمْ أهدىٰ منْ بعضٍ .

وفي الخبرِ : « الإيمانُ ثلاثٌ وثلاثونَ وثلاثُ مئةِ طريقةٍ ، مَنْ لقيَ اللهَ تعالىٰ بالشَّهادةِ علىٰ طريقةٍ منها . . دخلَ الجنَّةَ »[4]

وقالَ بعضُ العلماءِ : الإيمانُ ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ خلقاً بعددِ الرسلِ ، كلُّ مؤمنٍ علىٰ خلقٍ منها ، فهوَ سالكٌ للطريقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإذاً الناسُ وإنِ اختلفتْ طرقُهُمْ في العبادةِ فكلُّهُمْ على الصوابِ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ، وإنَّما يتفاوتونَ في درجاتِ القربِ لا في أصلِهِ ، وأقربُهُمْ إلى اللهِ تعالىٰ أعرفُهُمْ بهِ ، وأعرفُهُمْ بهِ لا بدَّ وأنْ يكونَ أعبدَهُمْ لهُ ، فمَنْ عرفَهُ . . لمْ يعبدْ غيرَهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) روى الحاكم في « المستدرك » (٤٤٣/٢) مرفوعاً : « من جعل الهموم همّاً واحداً . . كفاه الله همَّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم . . لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك » ، وروى ابن المبارك في « الزهد » (٨٥٨) عن الحسن قال : قال عامر بن عبد قيس لقوم ذكروا الدنيا : وإنكم لتهتمون ؟! والله لئن استطعت . . لأجعلنهما همّاً واحداً ، قال الحسن : ففعل والله ذٰلك حتىٰ لحق بالله .

(٢) والإشارة في قوله : ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ، فهٰؤلاء نفوا عن قلوبهم عبادة غيره تعالىٰ ، فلم يحلَّ فيها خاطر للسوىٰ قط . « إتحاف » (١٧٦/٥) .

(٣) فالذهاب إلى الله هو [الفناء] في الله ، بحيث لا يبقىٰ له خبر عما سوى الله « إتحاف » (١٧٦/٥) .

(٤) كذا لفظه في « القوت » (٨٣/١) ، وقد رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٣٠٦) ، واللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٩٧٩/٥) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١٩٠٤/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٨١٩٠) بلفظ : « الإيمان ثلاث مئة وثلاث وثلاثون شريعة ، من وافى الله منها بشريعة . . دخل الجنة » .

والأصلُ في الأورادِ في حقِّ كلِّ صنفٍ مِنَ الناسِ المداومةُ : فإنَّ المرادَ منهُ تغييرُ صفاتِ الباطنِ ، وآحادُ الأعمالِ يقِلُّ آثارُها ، بلْ لا يُحَسُّ بآثارِها ، وإنَّما يترتَّبُ الأثرُ على المجموعِ ، فإذا لمْ يعقبِ العملُ الواحدُ أثراً محسوساً ، ولمْ يُردَفْ بثانٍ وثالثٍ على القربِ . . امَّحىٰ أثرُ الأوَّلِ ، وذٰلكَ كالفقيهِ الذي يريدُ أنْ يكونَ فقيهَ النفسِ ، فإنَّهُ لا يكونُ فقيهَ النفسِ إلا بتكرارٍ كثيرٍ ، فلوْ بالغَ ليلةً في التكرارِ وتركَ شهراً أوْ أسبوعاً ثمَّ عادَ وبالغَ ليلةً . . لمْ يؤثِّرْ هـٰذا فيهِ ، ولوْ وزَّعَ ذٰلكَ القدْرَ على الليالي المتواصلةِ . . لأثَّرَ فيهِ ، ولهـٰذا السرِّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالىٰ أدومُها وإنْ قلَّ »[1]

وسُئلتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها عَنْ عملِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالتْ : (كانَ عملُهُ ديمةً ، وكانَ إذا عملَ عملاً . . أثبتَهُ)[2]

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عوَّدَهُ اللهُ تعالىٰ عبادةً فتركَها مَلالةً . . مقتَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ »[3]

وهـٰذا هوَ السببُ في صلاتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ العصرِ تداركاً لما فاتَهُ مِنْ ركعتينِ شغلَهُ عنهُما الوفدُ ، ثمَّ لمْ يزلْ بعدَ ذٰلك يصلِّيهما بعدَ العصرِ ، ولـٰكنْ في منزلِهِ لا في المسجدِ ؛ كي لا يُقتدىٰ بهِ ، روتْ ذٰلكَ عائشةُ وأمُّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنهُما[4]

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : فهلْ لغيرِهِ أنْ يقتديَ بهِ في ذٰلكَ معَ أنَّ الوقتَ وقتُ كراهيةٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ المعانيَ الثلاثةَ التي ذكرناها في الكراهيةِ ؛ مِنَ الاحترازِ عنِ التشبُّهِ بعبدةِ الشمسِ ، أوِ السجودِ وقتَ ظهورِ قرْنِ الشيطانِ ، أوِ الاستراحةِ عنِ العبادةِ حذراً مِنَ الملالِ . . لا يتحقَّقُ في حقِّهِ ، فلا يقاسُ عليهِ عليهِ السلامُ في ذٰلكَ غيرُهُ ، ويشهدُ لذٰلكَ فعلُهُ في المنزلِ حتَّىٰ لا يُقتدىٰ بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٣) .

(٢) رواه البخاري (١٩٨٧) ، ومسلم (٧٤٦ ، ٧٨٣) .

(٣) قوت القلوب (١/٨٤) .

(٤) رواه البخاري (٥٩٠ ، ١٢٣٣) ، ومسلم (٨٣٤ ، ٨٣٥) ، وهاتان الركعتان كانتا بعد الظهر كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها ، وقد سبق الحديث عن ذٰلك .

الباب الثاني

في الأسباب الميسرة لقيام الليل، وفي الليالي التي يستحب إحياؤها وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين، وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رَوَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : « إنَّ أفضلَ الصلواتِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ صلاةُ المغربِ ، لمْ يحطَّها عنْ مسافرٍ ولا عنْ مقيمٍ ، فتحَ بها صلاةَ الليلِ ، وختمَ بها صلاةَ النهارِ ، فمَنْ صلَّى المغربَ وصلَّىٰ بعدَها ركعتينِ . . بنى اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ قصرينِ في الجنَّةِ ـ قالَ الراوي : لا أدري مِنْ ذهبٍ أوْ فضَّةٍ ـ ومَنْ صلَّىٰ بعدَها أربعَ ركعاتٍ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنبَ عشرينَ سنةً ، أوْ قالَ : أربعينَ سنةً »(١)

وروتْ أمُّ سلمةَ عنْ أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنهُمَا(٢) ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَن صلَّىٰ ستَّ ركعاتٍ بعدَ المغربِ . . عدلَتْ لهُ عبادةَ سنةٍ كاملةٍ ، أوْ كأنَّهُ صلَّىٰ ليلةَ القدرِ »(٣)

وعنْ سعيدِ بن جبيرٍ ، عنْ ثوبانَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عكفَ نفسَهُ ما بينَ المغربِ والعشاءِ في مسجدِ جماعةٍ لمْ يتكلَّمْ إلَّا بصلاةٍ أوْ قرآنٍ . . كانَ حقّاً على اللهِ تعالىٰ أنْ يبنيَ لهُ قصرينِ في الجنَّةِ ، مسيرةُ كلِّ قصرٍ منهما مئةُ عامٍ ، ويغرسَ لهُ بينَهُما غراساً لوْ طافَهُ أهلُ الدنيا . . لوسعَهُمْ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ركعَ عشرَ ركعاتٍ ما بينَ المغربِ والعشاءِ . . بنى اللهُ لهُ قصراً في الجنَّةِ » ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : إذاً تكثرَ قصورُنا يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « اللهُ أكثرُ وأفضلُ » أوْ قالَ : « أطيبُ »(٥)

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّى المغربَ في جماعةٍ ، ثمَّ صلَّىٰ بعدَها ركعتينِ لا يتكلَّمُ بشيءٍ فيما بينَ ذٰلكَ مِنْ أمرِ الدنيا ، ويقرأُ في الركعةِ الأولىٰ بـ (فاتحةِ الكتابِ) وعشرِ

---

(١) كذا الحديث في « القوت » (٢٩/١) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، وقد رواه مختصراً الطبراني في « الأوسط » (٦٤٤٥) ، ورواه ابن شاهين في « الترغيب » وقد ساق سنده الحافظ الزيلعي في « تخريج الأحاديث والآثار » (٣٦٠/٣) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو الوليد يونس بن عبد الله الصفار في « كتاب الصلاة ») . « إتحاف » (١٧٩/٥) .

(٢) الذي في « القوت » (٣٠/١) : (أبو سلمة عن أبي هريرة) وأبو سلمة : هو عبد الله بن رافع الحضرمي المصري التابعي ، وهو ما صوَّبه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٧٩/٥) .

(٣) رواه الترمذي (٤٣٥) ، وابن ماجه (١٣٧٤) بلفظ : « من صلىٰ بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن . . عدلن له عبادة ثنتي عشرة سنة » ، وزاد الحافظ العراقي : (وأما قوله : « كأنه صلىٰ ليلة القدر » . . فهو من قول كعب الأحبار ، رواه أبو الوليد الصفار والديلمي في « مسند الفردوس » من حديث ابن عباس : « من صلىٰ أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلِّم أحداً . . رفعت له في عليين ، وكان كمن أدرك ليلة القدر بالمسجد الأقصىٰ » وسنده ضعيف) . « إتحاف » (١٧٩/٥) .

(٤) كذا في « القوت » (٣٠/١) ، ورواه أبو الفضل الزهري في « جزء يضمُّ حديثه » (٥٠٢) ، وقال ابن الملقن في « البدر المنير » (٧٧٠/٥) : (رواه الحاكم أبو أحمد في « كناه ») ، وقال الحافظ الزبيدي : (وبخط الحافظ ابن حجر : أسنده الديلمي من حديث ثوبان) . « إتحاف » (١٧٩/٥) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٦٤) ، وهو في « القوت » (٣٠/١) .

آياتٍ مِنْ أوّلِ سورةِ (البقرةِ) وآيتينِ مِنْ وسطِها : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ إلى آخرِ الآيةِ ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسَ عشرةَ مرَّةً ، ثمَّ يركعُ ويسجدُ ، فإذا قامَ في الرَّكعةِ الثانيةِ . . قرأَ (فاتحةَ الكتابِ) وآيةَ الكرسيِّ وآيتينِ بعدَها إلى قولِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ، وثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ سورةِ (البقرةِ) ، من قولِهِ تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ إلى آخرِها ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسَ عشرةَ مرَّةً » ووصفَ مِنْ ثوابِهِ في الحديثِ ما يخرجُ عنِ الحصرِ (١)

وقالَ كُرْزُ بنُ وبرةَ وهوَ مِنَ الأبدالِ : قلتُ للخضرِ عليهِ السلامُ : علِّمني شيئاً أعملُهُ في كلِّ ليلةٍ ، فقالَ : إذا صليتَ المغربَ . . فقمْ إلى وقتِ صلاةِ العشاءِ مصلِّياً مِنْ غيرِ أنْ تكلِّمَ أحداً ، وأقْبِلْ على صلاتِكَ التي أنتَ فيها ، وسلِّم منْ كلِّ ركعتينِ ، واقرأْ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) مرَّةً و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ثلاثاً ، فإذا فرغتَ مِنْ صلاتِكَ . . انصرفْ إلى منزلِكَ ولا تكلِّمْ أحداً ، وصلِّ ركعتينِ ، واقرأْ (فاتحةَ الكتابِ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) سبعَ مرَّاتٍ في كلِّ ركعةٍ ، ثمَّ اسجدْ بعدَ تسليمِكَ واستغفرِ اللهَ تعالى سبعَ مرَّاتٍ ، وقلْ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ) سبعَ مرَّاتٍ ، ثمَّ ارفعْ رأسَكَ مِنَ السجودِ واستوِ جالساً ، وارفعْ يديكَ وقلْ : (يا حيُّ يا قيُّومُ ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ ، يا إلٰهَ الأوَّلينَ والآخرينَ ، يا رحمانَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما ، يا ربُّ يا ربُّ يا ربُّ ، يا اللهُ يا اللهُ يا اللهُ) ، ثمَّ قمْ وأنتَ رافعٌ يديكَ وادعُ بهٰذا الدعاءِ ، ثمَّ نمْ حيثُ شئتَ مستقبلَ القبلةِ على يمينِكَ ، وصلِّ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأدمِ الصلاةَ عليهِ حتَّى يذهبَ بكَ النومُ ، فقلتُ لهُ : أحبُّ أنْ تعلمَني ممَّنْ سمعتَ هٰذا ، فقالَ : إنِّي حضرتُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ عُلِّمَ هٰذا الدعاءَ وأُوحيَ إليهِ بهِ ، فكنتُ عندَهُ ، وكانَ ذٰلكَ بمحضرٍ منِّي ، فتعلَّمتُهُ ممَّنْ علَّمَهُ إيَّاهُ (٢)

ويُقالُ : إنَّ هٰذا الدعاءَ وهٰذهِ الصلاةَ مَنْ داومَ عليهما بحسْنِ يقينٍ وصدْقِ نيَّةٍ . . رأى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في منامِهِ قبلَ أنْ يخرجَ مِنَ الدنيا ، وقدْ فعلَ ذٰلكَ بعضُ الناسِ ، فرأى أنَّهُ أُدخلَ الجنَّةَ ، ورأى فيها الأنبياءَ ، ورأى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكلَّمَهُ وعلَّمَهُ (٣)

وعلى الجملةِ : ما وردَ في فضْلِ إحياءِ ما بينَ العشاءينِ كثيرٌ ، حتَّى قيلَ لعُبيدٍ مولى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : هلْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُ بصلاةٍ غيرِ المكتوبةِ ؟ قالَ : ما بينَ المغربِ والعشاءِ (٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّى ما بينَ المغربِ والعشاءِ . . فذٰلكَ صلاةُ الأوَّابينَ » (٥)

وقالَ الأسودُ : ما أتيتُ ابنَ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ في هٰذا الوقتِ إلا ورأيتُهُ يصلِّي ، فسألتُهُ ، فقالَ : نعمْ ، هيَ ساعةُ الغفلةِ (٦)

---

(١) كذا في « القوت » (٣٠/١) ، وسرد ما له من الجزاء طويلاً ، قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في « الثواب » من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير ، وهو ضعيف) . « إتحاف » (١٨٠/٥) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (١٢٣/٢) .

(٢) قوت القلوب (٣٠/١) .

(٣) قوت القلوب (٣١/١) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٤٣١/٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٤/٤) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٥٩) عن ابن المنكدر مرسلاً .

(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٦١) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٤٧٢٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٨٨/٩) ، والأسود هو ابن يزيد النخعي ، والد عبد الرحمٰن .

وكانَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ يواظبُ عليها ويقولُ : هيَ ناشئةُ الليلِ[1] ، ويقولُ : فيها نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[2]

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري : قلتُ لأبي سليمانَ الدارانيّ : أصومُ النهارَ وأتعشَّىٰ بينَ المغربِ والعشاءِ أحبُّ إليكَ أَوْ أفطرُ بالنهارِ وأحيي ما بينَهما ؟ فقالَ : اجمعْ بينَهُما ، فقلتُ : إنْ لمْ يتيسَّرْ ؟ قال : أفطرْ وصلِّ ما بينَهُما[3]

* * *

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٩٧٧) .

(٢) رواه أبو داوود (١٣٢١) ، والترمذي (٣١٩٦) .

(٣) قوت القلوب (٢٩/١) .

فضيلة قيام الليل

أمَّا مِنَ الآياتِ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ . . . ﴾ الآيةَ [1]

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ .

وقولُهُ سبحانَهُ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ، قيلَ : هيَ قيامُ الليلِ يستعانُ بالصبرِ عليهِ علىٰ مجاهدةِ النفسِ .

❀ ❀ ❀

ومِنَ الأخبارِ :

قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يعقدُ الشيطانُ علىٰ قافيةِ أحدِكُمْ إذا هوَ نامَ ثلاثَ عقدٍ ، يضربُ مكانَ كلِّ عقدةٍ : عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقُدْ ، فإنِ استيقظَ وذكرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . انحلَّتْ عقدةٌ ، فإنْ توضَّأَ . . انحلَّتْ عقدةٌ ، فإنْ صلَّىٰ . . انحلَّتْ عقدةٌ ، فأصبحَ نشيطاً طيِّبَ النَّفسِ ، وإلَّا أصبحَ خبيثَ النفسِ كسلانَ » [2]

وفي خبرٍ آخرَ : أنَّهُ ذُكِرَ عندَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ نامَ الليلَ كلَّهُ حتَّىٰ أصبحَ ، فقالَ : « ذاكَ رجلٌ بالَ الشيطانُ في أُذنِهِ » [3] .

وفي الخبرِ : « إنَّ للشيطانِ سَعُوطاً ولَعُوقاً وذَرُوراً ، فإذا أسعطَ العبدَ . . ساءَ خلقُهُ ، وإذا ألعقَهُ . . ذَرِبَ لسانُهُ بالشرِّ ، وإذا ذرَّهُ . . نامَ الليلَ كلَّهُ حتَّىٰ يصبحَ » [4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ركعتانِ يركعُهُما العبدُ في جوفِ الليلِ الآخرِ خيرٌ لهُ مِنَ الدنيا وما فيها ، ولولا أنْ أشقَّ علىٰ أمتي لفرضتُهما عليهِمْ » [5] .

وفي الصحيحِ عنْ جابرٍ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ مِنَ الليلِ ساعةً لا يوافقُها عبدٌ

---

(1) فقد قرن الله سبحانه وتعالىٰ قوّام الليل برسوله صلى الله عليه وسلم وجمعهم معه في شكر المعاملة وحسن الجزاء فقال : ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ . « إتحاف » (١٨٢/٥) .

(2) رواه البخاري (١١٤٢) ، ومسلم (٧٧٦) .

(3) رواه البخاري (١١٤٤) ، ومسلم (٧٧٤) .

(4) كذا في « القوت » (٤٠/١) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠٦/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣٧٤/٣) ، ولفظه : « إن للشيطان كحلاً ولعوقاً ، فإذا كحل الإنسان من كحله . . نامت عيناه عن الذكر ، وإذا لعّقه من لعوقه . . ذرب لسانه بالشرّ » ، ونحوه عند البيهقي في « الشعب » (٢٨٣٧) ، وانظر « الإتحاف » (١٨٥/٥) .

(5) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٩٤) عن حسان بن عطية مرسلاً ، ورفعه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٤٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

مسلمٌ يسألُ اللهَ تعالىٰ خيراً إلَّا أعطاهُ إيَّاهُ » ، وفي روايةٍ : « يسألُ اللهَ تعالىٰ خيراً مِنَ الدنيا والآخرةِ وذٰلكَ كلَّ ليلةٍ »[1]

وقالَ المغيرةُ بنُ شعبةَ : قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ تفطرَتْ قدماهُ ، فقيلَ لهُ : أما قدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ منْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟ فقالَ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً »[2] ، ويظهرُ مِنْ معناهُ : أنَّ ذٰلكَ كنايةٌ عنْ زيادةِ الرتبةِ ؛ فإنَّ الشكرَ سببُ المزيدِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ أتريدُ أنْ تكونَ رحمةُ اللهِ عليكَ حيّاً وميتاً ومقبوراً ومبعوثاً ؟ قمْ مِنَ الليلِ فصلِّ وأنتَ تريدُ رضا ربِّكَ ، يا أبا هريرةَ ؛ صلِّ في زوايا بيتِكَ . . يكنْ نورُ بيتِكَ في السماءِ كنورِ الكواكبِ والنجمِ عندَ أهلِ الدنيا »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بقيامِ الليلِ ؛ فإنَّهُ دأبُ الصالحينَ قبلَكُمْ ، وإنَّ قيامَ الليلِ قربةٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتكفيرٌ للذنوبِ ، ومطردةٌ للداءِ عنِ الجسدِ ، ومنهاةٌ عنِ الإثمِ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنِ امرئٍ تكونُ لهُ صلاةٌ بالليلِ فغلبَهُ عليها النومُ . . إلا كُتبَ لهُ أجرُ صلاتِهِ ، وكانَ نومُهُ صدقةً عليهِ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي ذرٍّ : « لوْ أردتَ سفراً . . أعددتَ لهُ عدَّةً ، فكيفَ سفرُ طريقِ القيامةِ ؟! ألا أنبئُكَ يا أبا ذرٍّ بما ينفعُكَ ذٰلكَ اليومَ ؟ » قالَ : بلىٰ بأبي أنتَ وأمِّي ، قالَ : « صمْ يوماً شديدَ الحرِّ ليومِ النشورِ ، وصلِّ ركعتينِ في ظلمةِ الليلِ لوحشةِ القبورِ ، وحجَّ حجَّةً لعظائمِ الأمورِ ، وتصدَّقْ بصدقةٍ علىٰ مسكينٍ ، أوْ كلمةَ حقٍّ تقولُها ، أوْ كلمةَ شرٍّ تسكتُ عنها »[6]

ورُوي أنَّهُ كانَ علىٰ عهدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ إذا أخذَ الناسُ مضاجعَهُمْ وهدأتِ العيونُ . . قامَ يصلِّي ويقرأُ القرآنَ ويقولُ : يا ربَّ النارِ ؛ أجرني منها ، فذُكِرَ ذٰلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « إذا كانَ ذٰلكَ . . فآذنوني » فأتاهُ ، فاستمعَ ، فلما أصبحَ . . قالَ : « يا فلانُ ؛ هلَّا سألتَ الجنَّةَ » ، قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي لستُ هناكَ ، ولا يبلغُ عملي ذٰلكَ ، فلمْ يلبَثْ إلا يسيراً حتَّىٰ نزلَ جبريلُ عليهِ السلامُ وقالَ : أخبرْ فلاناً أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدْ أجارَهُ مِنَ النارِ وأدخلَهُ الجنَّةَ[7]

ويُروىٰ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ قالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمَ الرجلُ ابنُ عمرَ لوْ كانَ يصلِّي مِنَ الليلِ » ، فأخبرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذٰلكَ ، فكانَ يداومُ بعدَهُ علىٰ قيامِ الليلِ[8] ، قالَ نافعٌ : كانَ يصلِّي بالليلِ ثمَّ يقولُ :

---

(١) رواه مسلم (٧٥٧) ، وأحمد في « المسند » (٣١٣/٣) ، وسقط الحديث من (أ) .

(٢) رواه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) .

(٣) هٰذا قطعة مما يسمىٰ بوصية أبي هريرة .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٤٩) .

(٥) رواه أبو داوود (١٣١٤) ، والنسائي (٢٥٧/٣) ، ونحوه ابن ماجه (١٣٤٤) .

(٦) رواه أحمد في « الزهد » (٨٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦٥/١) من طريقه موقوفاً علىٰ أبي ذر رضي الله عنه ، ورفعه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٠) .

(٧) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (١٨٧/٥) .

(٨) رواه البخاري (١١٢٢) ، ومسلم (٢٤٧٩) وليس فيه ذكر جبريل عليه السلام .

يا نافعُ ؛ أَسْحَرْنا ؟ فأقولُ : لا ، فيقومُ لصلاتِهِ ، ثمَّ يقولُ : يا نافعُ ؛ أسحرْنا ؟ فأقولُ : نعمْ ، فيقعدُ ، فيستغفرُ اللهَ تعالىٰ حتَّىٰ يطلعَ الفجرُ [١]

وقالَ عليُّ بنُ أبي الحرِّ : شبعَ يحيى بنُ زكريا عليهما السلامُ مِنْ خبزِ شعيرٍ ، فنامَ عنْ وِردِهِ حتَّىٰ أصبحَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا يحيىٰ ؛ أوجدتَ داراً خيراً لكَ مِنْ داري أمْ وجدتَ جواراً خيراً لكَ مِنْ جواري ؟! فوعزَّتي وجلالي يا يحيىٰ ؛ لوِ اطلعتَ إلى الفردوسِ اطلاعةً . . لذابَ جسمُكَ ، ولزهقتْ نفسُكَ اشتياقاً ، ولوِ اطلعتَ إلىٰ جهنَّمَ اطلاعةً . . لذابَ شحمُكَ ، ولبكيتَ الصديدَ بعدَ الدموعِ ، ولبستَ الحديدَ بعدَ المسوحِ [٢]

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلاناً يصلِّي بالليلِ ، فإذا أصبحَ . . سرقَ ، فقالَ : « سينهاهُ ما تقولُ » [٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : رحمَ اللهُ رجلاً قامَ مِنَ الليلِ فصلَّىٰ ، ثم أيقظ امرأتَهُ فصلَّتْ ، فإنْ أبتْ . . نضحَ في وجهِها الماءَ ، ورحمَ اللهُ امرأةً قامتْ مِنَ الليلِ فصلَّتْ ، ثمَّ أيقظتْ زوجَها فصلَّىٰ ، فإنْ أبىٰ . . نضحَتْ في وجهِهِ الماءَ » [٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استيقظَ مِنَ الليلِ وأيقظَ امرأتَهُ فصلَّيا ركعتينِ . . كُتِبا مِنَ الذاكرينَ اللهَ كثيراً والذاكراتِ » [٥]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصلاةِ بعدَ المكتوبةِ صلاةُ الليلِ » [٦]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ نامَ عنْ حزبِهِ أوْ عنْ شيءٍ منهُ بالليلِ فقرأَهُ بينَ صلاةِ الفجرِ والظهرِ . . كُتِبَ لهُ كأنَّما قرأَهُ مِنَ الليلِ » [٧]



الآثارُ :

يُروىٰ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يمرُّ بالآيةِ في وِردِهِ بالليلِ فيسقطُ ، حتَّىٰ يُعادُ منها أياماً كثيرةً كما يُعادُ المريضُ [٨]

وكانَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذا هدأتِ العيونُ . . قامَ ، فيُسمعُ لهُ دويٌّ كدويِّ النحلِ حتَّىٰ يصبحَ [٩]

ويقالُ : إنَّ سفيانَ الثوريَّ رحمَهُ اللهُ شبعَ ليلةً فقالَ : (إنَّ الحمارَ إذا زيدَ في علفِهِ . . زيدَ في عملِهِ) ، فقامَ تلكَ الليلةَ حتَّىٰ أصبحَ [١٠]

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٣/١) ، وأبو الحسين الطبوري في « الطيوريات » (٦٩٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٣٤/٨) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٤٧/٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٥٦٠) .
(٤) رواه أبو داوود (١٣٠٨) ، والنسائي (٢٠٥/٣) ، وابن ماجه (١٣٢٦) .
(٥) رواه أبو داوود (١٤٥١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٣١٢) ، وابن ماجه (١٣٣٥) .
(٦) رواه مسلم (١١٦٣) .
(٧) رواه مسلم (٧٤٧) .
(٨) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠٩/٤٤) .
(٩) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣١٥/٣) .
(١٠) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٦١) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٦٤) .

وكانَ طاووسٌ رحمهُ اللهُ إذا اضطجعَ علىٰ فراشِهِ . . يتقلَّىٰ عليهِ كما تتقلَّى الحبَّةُ في المقلاةِ ، ثمَّ يثبُ ويصلِّي إلى الصباحِ ، ثمَّ يقولُ : (طَيَّرَ ذكرُ جهنَّمَ نومَ العابدينَ)[١]

وقالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ : ما نعلمُ عملاً أشدَّ مِنْ مكابدةِ الليلِ ونفقةِ هـٰذا المالِ[٢] ، فقيلَ لهُ : ما بالُ المتهجِّدينَ مِنْ أحسنِ الناسِ وجوهاً ؟ فقالَ : إنَّهُمْ خلَوا بالرحمـٰنِ ، فألبسَهُمْ نوراً مِنْ نورِهِ[٣]

وقدِمَ بعضُ الصالحينَ مِنْ سفرٍ ، فمُهِّدَ لهُ فراشٌ ، فنامَ عليهِ حتَّىٰ فاتَهُ وِردُهُ ، فحلفَ أَلَّا ينامَ بَعدَها علىٰ فراشٍ أبداً[٤]

وكانَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ رحمَهُ اللهُ إذا جَنَّ الليلُ . . يأتي فراشَهُ ، فيمرُّ يدَهُ عليهِ ويقولُ : إنَّكَ للَيِّنٌ ، وواللهِ ؛ إنَّ فِي الجنَّةِ لألينَ منكَ ، ولا يزالُ يصلِّي الليلَ كلَّهُ[٥]

وقالَ الفضيلُ رحمَهُ اللهُ : (إنِّي لأستقبلُ الليلَ مِنْ أوَّلِهِ ، فيهوِّلني طولُهُ ، فأفتتحُ القرآنَ ، فأصبحُ وما قضيتُ نهمتي)[٦]

وقالَ الحسنُ : (إنَّ الرجلَ ليذنبُ الذنبَ فيحرمُ بِهِ قيامَ الليلِ)[٧]

وقالَ الفضيلُ : (إذا لَمْ تقدرْ علىٰ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ . . فاعلمْ أنَّكَ محرومٌ وقدْ كثرَتْ خطيئتُكَ)[٨]

وكانَ صلةُ بنُ أشيمَ رحمهُ اللهُ يصلِّي الليلَ كلَّهُ ، فإذا كانَ في السحرِ . . قالَ : (إلـٰهي ؛ ليسَ مثلي يطلبُ الجنَّةَ ، ولـٰكنْ أجرني برحمتِكَ مِنَ النارِ)[٩]

وقالَ رجلٌ لبعضِ الحكماءِ : إنِّي لأضعفُ عَنْ قيامِ الليلِ ، فقالَ لهُ : يا أخي ؛ لا تعصِ اللهَ تعالىٰ بالنهارِ ولا تقمْ بالليلِ[١٠]

وكانَ للحسنِ بنِ صالحٍ رحمهُ اللهُ جاريةٌ ، فباعَها مِنْ قومٍ ، فلمَّا كانَ في جوفِ الليلِ . . قامتِ الجاريةُ فقالَت : يا أهلَ الدارِ ؛ الصلاةَ الصلاةَ ، فقالوا : أصبحنا ، أطلع الفجرُ ؟! فقالتْ : وما تصلونَ إلا المكتوبةَ ؟! فقالوا : لا ، فرجعتْ إلى الحسنِ فقالَت : يا مولايَ ؛ بعتني مِنْ قومٍ لا يصلُّونَ بالليلِ ، ردَّني ، فردَّها[١١]

وقالَ الربيعُ : (بتُّ في منزلِ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ ليالِيَ كثيرةً ، فلمْ يكنْ ينامُ منَ الليلِ إلا أيسرَهُ)[١٢]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٧) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٨) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٣٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٧٩) .

(٥) وقد روى ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١١٨) صبره علىٰ قيام الليل .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٨٨) عن محمد بن المنكدر قاله لأمه .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٣٦٣) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٧٠) .

(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩٦/٨) .

(٩) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٠/٢) .

(١٠) أورد نحوه المروزي في « قيام الليل » (٦/١) .

(١١) أوردها العجلي في « الثقات » (٢٩٥/١) .

(١٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (١٥٧/٢) .

وقالَ أبو الجويريةِ : (لقدْ صحبتُ أبا حنيفةَ رحمَهُ اللهُ ستَّةَ أشهرٍ ، فما فيها ليلةٌ وضعَ جنبَهُ على الأرضِ)[1]

وكانَ أبو حنيفةَ يحيي نصفَ الليلِ ، فمرَّ بقومٍ ، فقالوا : إنَّ هـٰذا يحيي الليلَ كلَّهُ ، فقالَ : إنِّي أستحيي أنْ أُوصفَ بما لا أفعلُ ، فكانَ بعدَ ذٰلكَ يحيي الليلَ كلَّهُ[2] ، ويُروىٰ أنَّهُ ما كانَ لهُ فراشٌ بالليلِ[3]

ويقالُ : إنَّ مالكَ بنَ دينارٍ رضيَ اللهُ عنهُ قامَ يردِّدُ هـٰذهِ الآيةَ ليلتَهُ حتَّىٰ أصبحَ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ . . . ﴾ الآيةَ[4]

وقالَ المغيرةُ بنُ حبيبٍ : رمقتُ مالكَ بنَ دينارٍ ، فتوضَّأَ بعدَ العشاءِ ، ثمَّ قامَ إلىٰ مصلَّاهُ ، فقبضَ علىٰ لحيتِهِ ، فخنقتْهُ العبرةُ ، فجعلَ يقولُ : اللهمَّ ؛ حرِّمْ شيبةَ مالكٍ على النارِ ، إلـٰهي ؛ قدْ علمتَ ساكنَ الجنةِ مِنْ ساكنِ النارِ ، فأيُّ الرجلينِ مالكٌ ؟ وأيُّ الدارينِ دارُ مالكٍ ؟ فلمْ يزلْ ذٰلكَ قولَهُ حتَّىٰ طلعَ الفجرُ[5]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : سهوتُ ليلةً عنْ وِردي ونمتُ ، فإذا أنا في المنامِ بجاريةٍ كأحسنِ ما يكونُ ، وفي يدِها رقعةٌ ، فقالتْ لي : أتحسنُ أنْ تقرأَ ؟ فقلتُ : نعمْ ، فدفعتْ إليَّ الرقعةَ ، فإذا فيها[6] : [من الوافر]

أَأَلْـهَـتْـكَ الـلَّـذائِـذُ وَالأَمـانِـي ... عَـنِ الْـبِـيضِ الأَوانِـسِ فِـي الْـجِـنـانِ

تَـعِـيـشُ مُـخَـلَّـداً لا مَـوْتَ فِـيـهـا ... وَتَـلْـهُـو فِـي الْـجِـنَـانِ مَـعَ الْـحِـسانِ

تَـنَـبَّـهْ مِـنْ مَـنـامِـكَ إِنَّ خَـيْـراً ... مِـنَ الـنَّـوْمِ الـتَّـهَـجُّـدُ بِـالْـقُـرانِ

وقيلَ : حَجَّ مسروقٌ ، فما باتَ ليلةً إلا ساجداً[7]

ويُروىٰ عنْ أزهرَ بنِ مغيثٍ وكانَ مِنَ القوَّامينَ أنَّهُ قالَ : رأيتُ في المنامِ امرأةً لا تشبهُ نساءَ أهلِ الدنيا ، فقلْتُ لها : مَنْ أنتِ ؟ فقالتْ : حوراءُ ، فقلتُ : زوجيني نفسَكِ ، فقالتِ : اخطبْني إلىٰ سيِّدي وأمهرْني ، فقلتُ : وما مهرُكِ ؟ فقالتْ : طولُ التهجُّدِ[8]

وقالَ يوسفُ بنُ مهرانَ : بلغني أنَّ تحتَ العرشِ ملكاً في صورةِ ديكٍ ، براثنُهُ مِنْ لؤلؤٍ وصِئْصِئتُهُ مِنْ زبرجدٍ أخضرَ ، فإذا مضىٰ ثلثُ الليلِ الأوَّلُ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقمِ القائمونَ ، فإذا مضىٰ نصفُ الليلِ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقمِ المتهجِّدونَ ، فإذا مضىٰ ثلثا الليلِ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقم المصلُّونَ ، فإذا طلعَ الفجرُ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقمِ الغافلونَ وعليهِمْ أوزارُهُمْ[9]

---

(١) رواه أبو نعيم في « مسند أبي حنيفة » (ص ٢١) .
(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٥٣/١٣) .
(٣) أورده الذهبي في « مناقب أبي حنيفة وصاحبيه » (ص ٢١) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤) ، والطبراني في « الكبير » (٥٠/٢) عن تميم الداري رضي الله عنه .
(٥) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٦١/٢) بنحوه .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٥١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٤) عن بعض العابدين ، والخبر في « الحلية » (١٥/١٠) عن أبي سليمان الداراني ، وهي عند الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٩٩/٤) عن الحسن البصري .
(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧٥) ، وابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٥/٢) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٥٥) .
(٩) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠١٠/٣) ، وأورده صاحب « القوت » (٣٦/١) ، والصِّئصئة : أعلى القفا ، أو قرن يكون في رجله ، وقد روى الحافظ الزبيدي حديث الديك الذي تحت العرش مسلسلاً في « الإتحاف » (١٩١/٥) .

ويُقالُ : إنَّ وهبَ بنَ منبِّهٍ اليمانيَّ رحمهُ اللهُ ما وضعَ جنبَهُ إلى الأرضِ ثلاثينَ سنةً ، وكانَ يقولُ : لأنْ أرىٰ في بيتي شيطاناً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أرىٰ وسادةً ؛ لأنَّها تدعو إلى النومِ ، وكانتْ لهُ مسورةٌ مِنْ أدمٍ إذا غلبَهُ النومُ . . وضعَ صدرَهُ عليها وخفقَ خفقاتٍ ، ثمَّ يفزعُ إلى القيامِ (١)

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ ربَّ العزَّةِ جلَّ جلالُهُ في النومِ ، فسمعتُهُ يقولُ : وعزَّتي وجلالي ؛ لأكرمَنْ مثوىٰ سليمانَ التيميِّ ؛ فإنَّهُ صلَّىٰ لي الغداةَ بوضوءِ العشاءِ الآخرةِ أربعينَ سنةً (٢) ، ويُقالُ : كانَ مذهبُهُ أنَّ النومَ إذا خامرَ القلبَ . . بطلَ الوضوءُ .

ورُوي في بعضِ الكتبِ القديمةِ عنِ اللهِ تعالىٰ أنَّهُ قالَ : إنَّ عبدي الذي هوَ عبدي حقاً الذي لا ينتظرُ بقيامِهِ صياحَ الديكِ (٣)

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/٣٧) .

(٢) القائل هو رقبة بن مصقلة ، رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٥٢) .

(٣) قوت القلوب (١/٣٨) .

بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل

اعلمْ : أنَّ قيامَ الليلِ عسيرٌ على الخلقِ إلَّا علىٰ مَنْ وُفِّقَ للقيامِ بشروطِهِ الميسِّرةِ لهُ ظاهراً وباطناً .

فأمَّا الظاهرةُ . . فأربعةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : ألَّا يكثرَ الأكلَ ، فيكثرَ الشربَ ، فيغلبَهُ النومُ ويثقلَ عليهِ القيامُ .

كانَ بعضُ الشيوخِ يقفُ على المائدةِ كلَّ ليلةٍ ويقولُ : (معاشرَ المريدينَ ؛ لا تأكلوا كثيراً ، فتشربوا كثيراً ؛ فترقُدوا كثيراً ، فتتحسَّروا عندَ الموتِ كثيراً)[1] ، وهٰذا هوَ الأصلُ الكبيرُ ، وهوَ تخفيفُ المعدةِ عنْ ثقلِ الطعامِ[2] .

الثاني : ألَّا يتعبَ نفسَهُ بالنهارِ في الأعمالِ التي تعيا بها الجوارحُ ، وتضعفُ بها الأعصابُ ، فإنَّ ذٰلكَ أيضاً مجلبةٌ للنومِ .

الثالثُ : ألَّا يتركَ القيلولةَ بالنهارِ ؛ فإنَّها سنَّةٌ للاستعانةِ علىٰ قيامِ الليلِ .

الرابعُ : ألَّا يحتقبَ الأوزارَ بالنهارِ ، فإنَّ ذٰلكَ يقسِّي القلبَ ويحولُ بينَهُ وبينَ أسبابِ الرحمةِ .

قالَ رجلٌ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ إنِّي أبيتُ معافىً وأحبُّ قيامَ الليلِ ، وأعدُّ طهوري ، فما بالي لا أقومُ ؟ فقالَ : ذنوبُكَ قيَّدَتْكَ[3]

وكانَ الحسنُ رحمهُ اللهُ إذا دخلَ السوقَ فسمعَ لغطَهُمْ ولغوَهُمْ . . يقولُ : أظنُّ أنَّ ليلَ هٰؤلاءِ ليلُ سوءٍ ؛ فإنَّهُمْ لا يقيلونَ[4]

وقالَ الثوريُّ : حرمتُ قيامَ الليلِ خمسةَ أشهرٍ بذنبٍ أذنبتُهُ ، قيلَ : وما ذٰلكَ الذنبُ ؟ قالَ : رأيتُ رجلاً بكىٰ ، فقلتُ في نفسي : هٰذا مراءٍ[5]

وقالَ بعضُهُمْ : دخلتُ علىٰ كرزِ بنِ وبرةَ وهوَ يبكي ، فقلتُ : أتاكَ نعيُ بعضِ أهلِكَ ؟ فقالَ : أشدُّ ، فقلتُ : وجعٌ يؤلمُكَ ؟ قالَ : أشدُّ ، قلتُ : فما ذاكَ ؟ قالَ : بابي مغلقٌ ، وستري مسبلٌ ، ولمْ أقرأْ حِزبيَ البارحةَ ، وما ذاكَ إلَّا بذنبٍ أحدثتُهُ[6]

وهٰذا لأنَّ الخيرَ يدعو إلى الخيرِ ، والشرَّ يدعو إلى الشرِّ ، والقليلُ منْ كلِّ واحدٍ منهما يجرُّ إلى الكثيرِ ؛ ولذٰلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (لا تفوتُ أحداً صلاةُ جماعةٍ إلا بذنبٍ)[7]

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٥٢٨) في نفر من بني إسرائيل ، وهو في « القوت » (٩٨/١) ، وفيه : (فتخسروا) .

(٢) ويتبع هٰذا السبب الظاهر سبب آخر باطن ، وهو أن يتناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن ، فإنه يعين على قيام الليل ؛ لأن بالذكر يذهب داؤه ، فإن وجد للطعام ثقلاً في المعدة . . فينبغي أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر ، فلا ينام حتىٰ يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار . « إتحاف » (١٩٢/٥) .

(٣) قوت القلوب (٣٩/١) ، وسبق نحوه عنه قريباً .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (١٥٣٥) ، وهو في « القوت » (٣٩/١) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٧/٧) ، وهو في « القوت » (٣٩/١) بتمامه .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧٩/٥) ، وهو في « القوت » (٣٩/١) .

(٧) قوت القلوب (٤٠/١) .

وكانَ يقولُ : (الاحتلامُ بالليلِ عقوبةٌ ، والجنابةُ البعدُ)[١]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا صمتَ يا مسكينُ . . فانظرْ عندَ مَنْ تفطرُ ، وعلىٰ أيِّ شيءٍ تفطرُ ؛ فإنَّ العبدَ ليأكلُ الأكلةَ فينقلبُ قلبُهُ عمَّا كانَ عليهِ ، ولا يعودُ إلىٰ حالِهِ الأوَّلِ)[٢]

فالذنوبُ كلُّها تورثُ قساوةَ القلبِ ، وتمنعُ مِنْ قيامِ الليلِ ، وأخصُّها بالتأثيرِ تناولُ الحرامِ ، وتؤثِّرُ اللقمةُ الحلالُ في تصفيةِ القلبِ وتحريكِهِ إلى الخيرِ ما لا يؤثِّرُ غيرُها ، ويعرفُ ذٰلكَ أهلُ المراقبةِ للقلوبِ بالتجربةِ بعدَ شهادةِ الشرعِ لهُ ، ولذٰلكَ قالَ بعضُهُمْ : (كمْ مِنْ أكلةٍ منعَتْ قيامَ ليلةٍ ، وكمْ مِنْ نظرةٍ منعَتْ قراءةَ سورةٍ ، وإنَّ العبدَ ليأكُلُ أكلةً أوْ يفعلُ فعلةً . . فيحرمُ بها قيامَ سنةٍ)[٣]

وكما أنَّ الصلاةَ تنهىٰ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ . . فكذٰلكَ الفحشاءُ تنهىٰ عنِ الصلاةِ وسائرِ الخيراتِ .

وقالَ بعضُ السجَّانينَ بدِينَوَرَ : بقيتُ سجَّاناً نيفاً وثلاثينَ سنةً أسألُ عنْ كلِّ مأخوذٍ بالليلِ أنَّهُ هلْ صلَّى العشاءَ في جماعةٍ ؟ فكانوا يقولونَ : لا[٤]

وهٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ بركةَ الجماعةِ تنهىٰ عنْ تعاطي الفحشاءِ والمنكرِ[٥]

❀ ❀ ❀

وأمَّا الميسراتُ الباطنةُ . . فأربعةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : سلامةُ القلبِ عنِ الحقدِ علىٰ أحدٍ مِنَ المسلمينَ ، وعنِ البدعِ ، وعنْ فضولِ همومِ الدنيا ، فالمستغرقُ الهمِّ بتدبيرِ الدنيا لا يتيسَّرُ لهُ القيامُ ، وإنْ قامَ . . فلا يتفكَّرُ في صلاتِهِ إلا في مهمَّاتِهِ ، ولا يجولُ إلا في وساوسِهِ ، وفي مثلِ ذٰلكَ يُقالُ[٦] : [من الطويل]

يُخَبِّرُني البَوَّابُ أنَّكَ نائِمٌ ... وَأَنْتَ إذا اسْتَيْقَظْتَ أَيْضاً فَنائِمُ

الثاني : خوفٌ غالبٌ يلزمُ القلبَ معَ قصرِ الأملِ ؛ فإنَّهُ إذا تفكَّرَ في أهوالِ الآخرةِ ودركاتِ جهنَّمَ . . طارَ نومُهُ ، وعظمَ حذرُهُ ؛ كما قالَ طاووسٌ : (إنَّ ذكرَ جهنَّمَ طيَّرَ نومَ العابدينَ)[٧] ، وكما حُكِيَ أنَّ غلاماً بالبصرةِ اسمُهُ صهيبٌ ، كانَ يقومُ الليلَ كلَّهُ ، فقالتْ لهُ سيِّدتُهُ : إنَّ قيامَكَ بالليلِ يضرُّ بعملِكَ بالنهارِ ، فقالَ : إنَّ صهيباً إذا ذكرَ النارَ . . لا يأتيهِ النومُ .

وقيلَ لغلامٍ آخرَ وهوَ يقومُ كلَّ الليلِ مثلَ ذٰلكَ ، فقالَ : إذا ذكرتُ النارَ . . اشتدَّ خوفي ، وإذا ذكرتُ الجنَّةَ . . اشتدَّ شوقي ، فلا أقدرُ أنْ أنامَ[٨]

---

(١) قوت القلوب (٤٠/١) .

(٢) قوت القلوب (٤٠/١) .

(٣) قوت القلوب (٤٠/١) .

(٤) قوت القلوب (٤٠/١) .

(٥) وذكر الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٩٤/٥) زيادة مُيسِّرات ، تتلخص في الوضوء قبل المغرب واستقبال الليل على طهارة مستقبل القبلة وهو يذكر الله تعالىٰ ، وإحياء ما بين العشاءين ، وترك الحديث بعد العشاء ، وتجديد الوضوء والطهارة بعده كذٰلك ، وذكر الله تعالىٰ والصلاة إلىٰ أن ينام ، وتغيير العادة بهيئة النوم .

(٦) البيت لمحمد بن عمرو الحربي (ت ٢٤٠ هـ) . انظر « معجم الشعراء » للمرزباني (ص ٤٦٦) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) .

(٨) وهٰذا الغلام كان لرباح القيسي ، وقد أورد الخبر أبو حيان التوحيدي في « البصائر والذخائر » (٨٨/٨) .

ولذي النونِ المصريِّ رحمهُ اللهُ[1] : [من الكامل]

مَنَعَ الْقُرَانُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ... مُقَلَ الْعُيُونِ بِلَيْلِها أَنْ تَهْجَعا

فَهِمُوا عَنِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ كَلامَهُ ... فَرِقابُهُمْ ذَلَّتْ إِلَيْهِ تَخَضُّعا

وأنشدوا أيضاً : [من الخفيف]

يا طَويلَ الرُّقادِ وَالْغَفَلاتِ ... كَثْرَةُ النَّوْمِ تُورِثُ الْحَسَراتِ

إِنَّ فِي الْقَبْرِ إِنْ نَزَلْتَ إِلَيْهِ ... لَرُقاداً يَطُولُ بَعْدَ الْمَماتِ

وَمِهاداً مُمَهَّداً لَكَ فِيهِ ... بِذُنُوبٍ عَمِلْتَ أَوْ حَسَناتِ

أَأَمِنْتَ الْبَياتَ مِنْ مَلَكِ الْمَوْ ... تِ وكَمْ نالَ آمِناً بِبَياتِ

وقالَ ابنُ المباركِ رحمةُ اللهِ عليهِ[2] : [من الوافر]

إِذا ما اللَّيْلُ أَظْلَمَ كابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ

أَطارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيا هُجُوعُ

الثالثُ : أنْ يعرفَ فضلَ قيامِ الليلِ بسماعِ هٰذهِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ التي أوردناها ؛ حتَّىٰ يستحكمَ بذٰلكَ رجاؤُهُ وشوقُهُ إلىٰ ثوابِهِ ، فيهيِّجَهُ الشوقُ لطلبِ المزيدِ والرغبةِ في درجاتِ الجنانِ ؛ كما حُكِيَ أنَّ بعضَ الصالحينَ رجعَ مِنْ غزاةٍ غزاها ، فلمَّا كانَ الليلُ . . مهدَتِ امرأتُهُ فراشَها وجلستْ تنتظرُهُ ، فدخلَ المسجدَ ولمْ يزلْ يصلِّي حتَّىٰ أصبحَ ، فقالَتْ زوجتُهُ : كنَّا ننتظرُكَ مدَّةً ، فلمَّا قدمتَ . . صلَّيْتَ إلى الصبحِ !! قالَ : واللهِ ؛ إنِّي كنتُ أتفكَّرُ في حوراءَ مِنْ حورِ الجنَّةِ طولَ الليلِ ، فنسيتُ الزوجةَ والمنزلَ ، فقمتُ طولَ ليلتي شوقاً إليها .

الرابعُ : وهوَ أشرفُ البواعثِ ، الحبُّ للهِ تعالىٰ ، وقوَّةُ الإيمانِ بأنَّهُ في قيامِهِ لا يتكلَّمُ بحرفٍ إلا وهوَ مناجٍ بهِ ربَّهُ ، وهوَ مطَّلعٌ عليهِ معَ مشاهدةِ ما يخطرُ بقلبِهِ ، وأنَّ تلكَ الخطراتِ مِنَ اللهِ تعالىٰ خطابٌ معهُ ، فإذا أحبَّ اللهَ تعالىٰ . . أحبَّ ـ لا محالةَ ـ الخلوةَ بهِ ، وتلذَّذَ بالمناجاةِ ، فتحملُهُ لذَّةُ المناجاةِ بالحبيبِ علىٰ طولِ القيامِ .

❁ ❁ ❁

ولا ينبغي أنْ يستبعدَ هٰذهِ اللذَّةَ ؛ إذْ يشهدُ لها العقلُ والنقلُ :

فأمَّا العقلُ : فليعتبرْ حالَ المحبِّ لشخصٍ بسببِ جمالِهِ ، أوْ لمَلِكٍ بسببِ إنعامِهِ وأموالِهِ . . أنَّهُ كيفَ يتلذَّذُ بالخلوةِ بهِ ومناجاتِهِ حتَّىٰ لا يأتيهِ النومُ طولَ ليلِهِ ؟!

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : إنَّ الجميلَ يُتلذَّذُ بالنظرِ إليهِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُرىٰ ؟

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٣) .

(٢) ديوان عبد الله بن المبارك (ص ٥٤) .

فاعلمْ : أنَّهُ لو كانَ الجميلُ المحبوبُ وراءَ سترٍ ، أوْ كانَ في بيتٍ مظلمٍ . . لكانَ المحبُّ يتلذَّذُ بمجاورتِهِ المجرَّدَةِ دونَ النظرِ ودونَ الطمعِ في أمرٍ آخرَ سواهُ ، وكانَ يتنعَّمُ بإظهارِ حبِّهِ إليهِ وذكرِهِ بلسانِهِ بمسمعٍ منهُ ، وإنْ كانَ ذلكَ أيضاً معلوماً عندَهُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : إنَّهُ ينتظرُ جوابَهُ ، فيتلذَّذُ بسماعِ جوابِهِ ، وليسَ يسمعُ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ وإنْ كانَ يعلمُ أنَّهُ لا يجيبُهُ ويسكتُ عنهُ . . فقدْ بقيتْ لهُ أيضاً لذَّةٌ في عرْضِ أحوالِهِ عليهِ ، ورفعِ سريرتِهِ إليهِ ، كيفَ والموقنُ يسمعُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كلَّ ما يردُ على خاطرِهِ في أثناءِ مناجاتِهِ ، فيتلذَّذُ بهِ ، وكذا الذي يخلو بالمَلِكِ ويعرضُ عليهِ حاجاتِهِ في جنحِ الليلِ يتلذَّذُ بهِ في رجاءِ إنعامِهِ ، والرجاءُ في حقِّ اللهِ تعالى أصدقُ ، وما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقى وأنفعُ ممَّا عندَ غيرِهِ ، فكيفَ لا يُتلذَّذُ بعرْضِ الحاجاتِ عليهِ في الخلواتِ ؟!

❁ ❁ ❁

وأمَّا النقلُ : فيشهدُ لهُ أحوالُ قُوَّامِ الليلِ في تلذُّذِهِمْ بقيامِ الليلِ ، واستقصارِهِمْ لهُ كما يستقصِرُ المحبُّ ليلةَ وصالِ الحبيبِ ، حتَّى قيلَ لبعضِهِمْ : كيفَ أنتَ والليلُ ؟ قال : ما راعيتُهُ قطُّ ، يريني وجهَهُ ثمَّ ينصرفُ ، وما تأمَّلْتُهُ بعدُ (١)

وقالَ آخرُ : (أنا والليلُ فرسا رهانٍ ، مرَّةً يسبقني إلى الفجرِ ، ومرَّةً يقطعني عنِ الفكرِ) (٢)

وقيلَ لبعضِهِمْ : كيفَ الليلُ عليكَ ؟ فقالَ : ساعةٌ أنا فيها بينَ حالينِ : أفرحُ بظلمتِهِ إذا جاءَ ، وأغتمُّ بفجرِهِ إذا طلعَ ، ما تمَّ فرحي بهِ قطُّ (٣)

وقالَ عليُّ بنُ بكَّارٍ : (منذُ أربعينَ سنةً ما أحزنَني شيءٌ سوى طلوعِ الفجرِ) (٤)

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (إذا غربَتِ الشمسُ . . فرحتُ بالظلامِ لخلوتي بربِّي ، وإذا طلعَتْ . . حزنتُ لدخولِ الناسِ عليَّ) (٥)

وقالَ أبو سليمانَ : (أهلُ الليلِ في ليلِهِمْ ألذُّ مِنْ أهلِ اللهوِ في لهوِهِمْ ، ولولا الليلُ . . ما أحببتُ البقاءَ في الدنيا) (٦)

وقالَ أيضاً : (لوْ عوَّضَ اللهُ سبحانَهُ أهلَ الليلِ مِنْ ثوابِ أعمالِهِمْ ما يجدونَهُ مِنَ اللذَّةِ . . لكانَ ذلكَ أكثرَ مِنْ ثوابِ أعمالِهِمْ) (٧)

---

(١) قوت القلوب (١/٣٦) .
(٢) قوت القلوب (١/٣٦) .
(٣) قوت القلوب (١/٣٦)
(٤) قوت القلوب (١/٣٦) .
(٥) قوت القلوب (١/٣٦) .
(٦) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٧٥) .
(٧) قوت القلوب (١/٣٦)

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ليسَ في الدنيا وقتٌ يشبهُ نعيمَ أهلِ الجنَّةِ إلا ما يجدُهُ أهلُ التملُّقِ في قلوبِهِمْ بالليلِ مِنْ حلاوةِ المناجاةِ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (لذَّةُ المناجاةِ ليستْ منَ الدنيا ، إنَّما هيَ مِنَ الجنَّةِ أظهرَها اللهُ تعالىٰ لأوليائِهِ ، لا يجدُها سواهُمْ)[2]

وقالَ ابنُ المنكدرِ : (ما بقيَ مِنْ لذَّاتِ الدنيا إلا ثلاثٌ : قيامُ الليلِ ، ولقاءُ الإخوانِ ، والصلاةُ في الجماعةِ)[3]

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ينظرُ بالأسحارِ إلىٰ قلوبِ المتيقِّظينَ فيملؤُها أنواراً ، فتردُ الفوائدُ علىٰ قلوبِهِمْ فتستنيرُ ، ثمَّ تنتشرُ مِنْ قلوبِهِمْ العوافي إلىٰ قلوبِ الغافلينَ) .

وقالَ بعضُ العلماءِ مِنَ القدماءِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ الصديقينَ أنَّ لي عباداً مِنْ عبادي يحبونَني وأحبُّهُمْ ، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهم ، ويذكروني وأذكرُهُمْ ، وينظرونَ إليَّ وأنظرُ إليهِمْ ، فإنْ حذوتَ طريقَهُمْ . . أحببتُكَ ، وإنْ عدلْتَ عنهُمْ . . مقتُّكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما علامتُهُمْ ؟ قالَ : يراعونَ الظلالَ بالنهارِ كما يراعي الراعي غنمَهُ ، ويحنُّونَ إلىٰ غروبِ الشمسِ كما تحنُّ الطيرُ إلىٰ أوكارِها ، فإذا جنَّهُمُ الليلُ ، واختلطَ الظلامُ ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ . . نصبوا لي أقدامَهُمْ ، وافترشوا لي وجوهَهُمْ ، وناجَوْني بكلامي ، وتملَّقوا إليَّ بإنعامي ، فبينَ صارخٍ وباكٍ ، وبينَ متأوِّهٍ وشاكٍ ، بعيني ما يتحمَّلونَ مِنْ أجلي ، وبسمعي ما يشتكونَ مِنْ حبِّي ، أوَّلُ ما أعطيهِمْ أقذفُ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ ، فيخبرونَ عنِّي كما أخبرُ عنهُمْ ، والثانيةُ : لوْ كانتِ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ وما فيهما في موازينِهِمْ . . لاستقلَلْتُها لهُمْ ، والثالثةُ : أقبلُ بوجهي عليهِمْ ، فترىٰ مَنْ أقبلتُ بوجهي عليهِ أيعلمُ أحدٌ ما أريدُ أنْ أعطيَهُ ؟!)[4]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمَهُ اللهُ : (إذا قامَ العبدُ يتهجَّدُ مِنَ الليلِ . . قربَ منهُ الجبَّارُ عزَّ وجلَّ ، وكانوا يرونَ ما يجدونَ في قلوبِهِمْ مِنَ الرقَّةِ والحلاوةِ والأنوارِ مِنْ قربِ الربِّ عزَّ وجلَّ مِنَ القلبِ)[5]

وهـٰذا لهُ سرٌّ وتحقيقٌ ، وستأتي الإشارةُ إليهِ في كتابِ المحبَّةِ .

وفي الأخبارِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ : (أيْ عبدي ؛ أنا اللهُ الذي اقتربتُ لقلبِكَ ، وبالغيبِ رأيتَ نوري)[6]

وشكا بعضُ المريدينَ إلىٰ أستاذِهِ طولَ سهرِ الليلِ ، وطلبَ حيلةً يجتلبُ بها النومَ ، فقالَ أستاذُهُ : يا بنيَّ ؛ إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ نفحاتٍ في الليلِ والنهارِ تصيبُ القلوبَ المتيقِّظةَ ، وتخطئُ القلوبَ النائمةَ ، فتعرَّضْ لتلكَ النفحاتِ ، فقالَ : يا أستاذُ ؛ تركتني لا أنامُ بالليلِ ولا بالنهارِ[7]

---

(١) قوت القلوب (٣٦/١) .

(٢) قوت القلوب (٣٦/١) بنحوه .

(٣) قوت القلوب (٣٧/١) .

(٤) قوت القلوب (٣٧/١) ، ومعنى (**افترشوا وجوههم**) أي : بالسجود .

(٥) قوت القلوب (٣٧/١) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٩/٢) عن مالك بن دينار قال : قرأت في التوراة : ابنَ آدم ؛ لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكياً ؛ فإني أنا الله الذي اقتربت لقلبك ، وبالغيب رأيت نوري ، قال مالك : يعني : تلك الرقة وتلك الفتوح الذي يفتح الله لك منه .

(٧) قوت القلوب (٣٦/١) .

واعلمْ : أنَّ هـٰذهِ النفحاتِ بالليلِ أرجىٰ ؛ لما في قيامِ الليلِ مِنْ صفاءِ القلبِ واندفاعِ الشواغلِ ، وفي الخبرِ الصحيحِ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ مِنَ الليلِ ساعةً لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ خيراً إلا أعطاهُ إيَّاهُ » ، وفي روايةٍ أخرىٰ : « يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ خيراً مِنْ أمرِ الدنيا والآخرةِ إلا أعطاهُ إيَّاهُ ، وذٰلكَ كلَّ ليلةٍ »[1]

ومطلوبُ القائمينَ تلكَ الساعةُ ، وهيَ مبهمةٌ في جملةِ الليلِ ؛ كليلةِ القدْرِ في شهرِ رمضانَ ، وكساعةِ يومِ الجمعةِ ، وهيَ ساعةُ النفحاتِ المذكورةِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) رواه مسلم (٧٥٧) .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلمْ : أنَّ إحياءَ الليلِ مِنْ حيثُ المقدارُ لهُ سبعُ مراتبَ :

المرتبةُ الأولىٰ : إحياءُ كلِّ الليلِ : وهٰذا شأنُ الأقوياءِ الذين تجرَّدوا لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتلذَّذُوا بمناجاتِهِ ، وصارَ ذٰلكَ غذاءً لهمْ وحياةً لقلوبِهِمْ ، فلمْ يتعبوا بطولِ القيامِ ، وردُّوا المنامَ إلى النهارِ في وقتِ اشتغالِ الناسِ .

وقدْ كانَ ذٰلكَ طريقَ جماعةٍ مِنَ السلفِ ، كانوا يصلُّونَ الصبحَ بوضوءِ العشاءِ ، حكىٰ أبو طالبٍ المكيُّ أنَّ ذٰلكَ حُكِيَ علىٰ سبيلِ الاشتهارِ عنْ أربعينَ مِنَ التابعينَ ، وكانَ فيهِمْ مَنْ واظبَ عليهِ أربعينَ سنةً ، قالَ : (منهُمْ سعيدُ بنُ المسيَّبِ وصفوانُ بنُ سليمٍ المدنيانِ ، وفضيلُ بنُ عياضٍ ووهيبُ بنُ الوردِ المكِّيَّانِ ، وطاووسٌ ووهبُ بنُ منبِّهٍ اليمانيانِ ، والربيعُ بنُ خُثَيمٍ والحكمُ الكوفيانِ ، وأبو سليمانَ الدارانيُّ وعليُّ بنُ بكَّارٍ الشاميَّانِ ، وأبو عبدِ اللهِ الخوَّاصُ وأبو عاصمٍ العَبَّادِيَّانِ ، وحبيبٌ أبو محمدٍ وأبو جابرٍ السلمانيُّ الفارسيانِ ، ومالكُ بنُ دينارٍ وسليمانُ التيميُّ ويزيدُ الرَّقاشيُّ وحبيبُ بنُ أبي ثابتٍ ويحيى البكَّاءُ البصريونَ ، وكَهْمَسُ بنُ المِنْهالِ وكانَ يختمُ في الشهرِ تسعينَ ختمةً ، وما لمْ يفهمْهُ . . رجعَ وقرأَهُ مرَّةً أخرىٰ ، وأيضاً مِنْ أهلِ المدينةِ أبو حازمٍ ومحمدُ بنُ المنكدرِ في جماعةٍ يكثرُ عددُهُمْ)[1]

❁ ❁ ❁

المرتبةُ الثانيةُ : أنْ يقومَ نصفَ الليلِ : وهٰذا لا ينحصرُ عددُ المواظبينَ عليهِ مِنَ السلفِ ، وأحسنُ طريقٍ فيهِ : أنْ ينامَ الثلثَ الأوَّلَ مِنَ الليلِ والسدسَ الأخيرَ منهُ ؛ حتَّىٰ يقعَ قيامُهُ في جوفِ الليلِ ووسطِهِ ، فهوَ الأفضلُ .

❁ ❁ ❁

المرتبةُ الثالثةُ : أنْ يقومَ ثلثَ الليلِ : فينبغي أنْ ينامَ النصفَ الأوَّلَ والسدسَ الأخيرَ .

وبالجملةِ : نومُ آخرِ الليلِ محبوبٌ ؛ لأنَّهُ يذهبُ النعاسَ بالغداةِ ، وكانوا يكرهونَ ذٰلكَ[2] ، ويقلِّلُ صفرةَ الوجهِ والشهرةَ بِهِ ، فلوْ قامَ أكثرَ الليلِ ونام سَحراً . . قلَّتْ صفرةُ وجههِ وقلَّ نعاسُهُ .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أوترَ مِنْ آخرِ الليلِ ؛ فإنْ كانتْ لهُ حاجةٌ إلىٰ أهلِهِ . . دنا منهنَّ ، وإلَّا . . اضطجعَ في مصلَّاهُ حتَّىٰ يأتيَهُ بلالٌ فيؤذنَهُ للصلاةِ)[3]

وقالتْ أيضاً رضيَ اللهُ عنها : (ما ألفيتُهُ السحرَ الأعلىٰ إلا نائماً)[4] ، حتَّىٰ قالَ بعضُ السلفِ : هٰذهِ الضجعةُ قبلَ الصبحِ سنةٌ ، منهُم أبو هريرة رضيَ اللهُ عنهُ[5]

---

(١) قوت القلوب (١/٣٧ ـ ٣٨) ثم قال : (هٰؤلاء المشهورون منهم) ، وممن كان يحيي الليل كلّه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وقد تقدم ذلك للمصنف قريباً ، وكان ينبغي عداده في الكوفيين ، فهو أفضلهم وأورعهم . « إتحاف » (٥/٢٠٠)

(٢) أي : يكرهون النعاس بالغداة . « إتحاف » (٥/٢٠١) .

(٣) رواه البخاري (١١٤٦) ، ومسلم (٧٣٩) بنحوه .

(٤) رواه البخاري (١١٣٣) ، ومسلم (٧٤٢) .

(٥) هٰذه الضجعة تكون قبل سنة الصبح ، وهي مستحبة لمن يقوم الليل لما ورد ، واستحباب أبي هريرة في « القوت » (١/٣٨) .

وكانَ نومُ هٰذا الوقتِ سبباً للمكاشفةِ والمشاهدةِ مِنْ وراءِ حجبِ الغيبِ وذٰلكَ لأربابِ القلوبِ ، وفيهِ استراحةٌ تعينُ على الوردِ الأوَّلِ مِنْ أورادِ النهارِ .

وقيامُ ثلثِ الليلِ مِنَ النصفِ الأخيرِ ونومُ السدسِ الأخيرِ قيامُ داوودَ عليهِ السلامُ[1]

❀ ❀ ❀

المرتبةُ الرابعةُ : أنْ يقومَ سدسَ الليلِ أوْ خمسَهُ : وأفضلُهُ : أنْ يكونَ في النصفِ الأخيرِ وقبلَ السدسِ الأخيرِ منهُ .

❀ ❀ ❀

المرتبةُ الخامسةُ : ألّا يُراعيَ التقديرَ : فإنَّ ذٰلكَ إنَّما يتيسَّرُ لنبيٍّ يُوحىٰ إليهِ ، أوْ لمَنْ يعرفُ منازلَ القمرِ ويوكِّلُ بهِ مَنْ يراقبُهُ ويواظبُهُ ويوقظُهُ ، ثمَّ ربما يضطربُ في ليالي الغيمِ ، ولٰكنَّهُ يقومُ مِنْ أوَّلِ الليلِ إلىٰ أنْ يغلبَهُ النومُ ، فإذا انتبَهَ . . قامَ ، فإذا غلبَهُ النومُ . . عادَ إلى النومِ ، فيكونُ لهُ في الليلِ نومتانِ وقومتانِ ، وهوَ مِنْ مكابدةِ الليلِ ، وأشدِّ الأعمالِ وأفضلِها .

وقدْ كانَ هٰذا مِنْ أخلاقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] ، وهوَ طريقةُ ابنِ عمرَ ، وأولي العزمِ مِنَ الصحابةِ ، وجماعةٍ مِنَ التابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ[3]

وكانَ بعضُ السلفِ يقولُ : (هيَ أوَّلُ نومةٍ ، فإذا انتبهتُ ثمَّ عدتُ إلى النومِ . . فلا أنامَ اللهُ عيني)[4]

فأمَّا قيامُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ حيثُ المقدارُ . . فلمْ يكنْ علىٰ ترتيبٍ واحدٍ ، بلْ ربما كانَ عليهِ السلامُ يقومُ نصفَ الليلِ أوْ ثلثَهُ أوْ ثلثَيهِ أوْ سدسَهُ ، يختلفُ ذٰلكَ في الليالي ، ودلَّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ في الموضعينِ مِنْ سورةِ (المزمّلِ) : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ ، فأدنىٰ مِنْ ثلثي الليل كأنَّهُ نصفُهُ ، ونصفُ سدسِهِ ، فإنْ كُسِرَ قولُهُ : ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ . . كانَ نصفَ الثلثينِ وثلثَهُ ، فيقربُ مِنَ الثلثِ والربعِ ، وإنْ نُصِبَ . . كانَ نصفَ الليلِ وثلثَهُ[5]

وقدْ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقومُ إذا سمعَ الصارخَ) يعني : الديكَ[6] ، وهٰذا يكونُ السدسَ فما دونَهُ .

ورُوِيَ عنْ بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : راعيتُ صلاةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في السفرِ ليلاً ، فنامَ بعدَ العشاءِ

---

(١) كما في « البخاري » (١١٣١) ، ومسلم (١١٥٩) .

(٢) روىٰ أبو داوود (١٤٦٦) واللفظ له ، والترمذي (٢٩٢٣) ، والنسائي (٢١٤/٣) عن أم سلمة رضي الله عنها : (كان يصلي وينام قدر ما صلىٰ ، ثم يصلي قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلىٰ حتىٰ يصبح) .

(٣) قوت القلوب (٣٨/١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٠/٢) .

(٥) قال أبو علي الفارسي في « الحجة » (٣٣٦/٦) : (قرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر : ﴿ وَنِصْفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ ﴾ كسراً ، وقرأ الباقون : ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ نصباً ، من نصب فقال : ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ . . حمله علىٰ ﴿ أَدْنَىٰ ﴾ ، وأدنىٰ في موضع نصب ، قال أبو عبيدة : أدنىٰ : أقرب ، فكأنه قال : إن ربك يعلم أنك تقوم أدنىٰ من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه ، وأما من جرَّ فقال : ﴿ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ ﴾ . . فإنه يحمله على الحال) ، وانظر « القوت » (٣٩/١) .

(٦) رواه البخاري (١١٣٢) ، ومسلم (٧٤١) ، و(إذا) في الحديث لمجرد الظرفية ، لا للشرط .

زماناً ، ثمَّ استيقظ ، فنظرَ في الأفقِ فقالَ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ . . . ﴾ حتَّىٰ بلغَ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ ، ثمَّ استلَّ مِنْ فراشِهِ سواكاً فاستاكَ بهِ ، وتوضَّأ ، وصلَّىٰ حتَّىٰ قلتُ : قدْ صلَّىٰ مثلَ الذي نامَ ، ثمَّ اضطجعَ حتَّىٰ قلتُ : قدْ نامَ مثلَ ما صلَّىٰ ، ثمَّ استيقظَ ، فقالَ ما قالَ أوَّلَ مرَّةٍ ، وفعلَ ما فعلَ أوَّلَ مرَّةٍ[1]

المرتبةُ السادسةُ : **وهي الأقلُّ ، أنْ يقومَ مقدارَ أربعِ ركعاتٍ أوْ ركعتينِ ، أوْ تتعذَّرُ عليهِ الطهارةُ فيجلسُ مستقبلَ القبلةِ ساعةً مشتغلاً بالذكرِ والدعاءِ** : فيُكتبُ في جملةِ قوَّامِ الليلِ برحمةِ اللهِ وفضلِهِ .

وقدْ جاءَ في الأثرِ : « صلِّ مِنَ الليلِ ولو قدْرَ حلبِ شاةٍ »[2]

❀ ❀ ❀

فهٰذهِ طرقُ القسمةِ ، فليتخيَّرِ المريدُ لنفسِهِ ما يراهُ أيسرَ عليهِ .

وحيثُ يتعذَّرُ عليهِ القيامُ في وسَطِ الليلِ . . فلا ينبغي أنْ يهملَ إحياءَ ما بينَ العشاءينِ والوِردَ الذي بعدَ العشاءِ ، ثمَّ يقومُ قبلَ الصبحِ وقتَ السحرِ ، فلا يدركُهُ الصبحُ نائماً ، ويقومُ بطرفي الليلِ ، **وهٰذهِ هيَ الرتبةُ السابعةُ** .

❀ ❀ ❀

ومهما كانَ النظرُ إلى المقدارِ . . فترتيبُ هٰذهِ المراتبِ بحسَبِ طولِ الوقتِ وقصرِهِ[3] ، وأمَّا في الرتبةِ الخامسةِ والسابعةِ . . لمْ ينظرْ فيهما إلى المقدارِ ، فليسَ يجري أمرُهُما في التقدُّمِ والتأخُّرِ على الترتيبِ المذكورِ ؛ إذِ السابعةُ ليستْ دونَ ما ذكرناهُ في السادسةِ ، ولا الخامسةُ دونَ الرابعةِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه النسائي (٣/٢١٣) بنحوه .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٦٧٧) ، ولفظه عن ابن عباس رضي الله عنهما : فذكرت صلاة الليل ، فقال بعضهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نصفه ، ثلثه ، ربعه ، فُواقَ حلب ناقة ، فواق حلب شاةٍ » ، وأورده في « القوت » (١/٣٩) وقال : (فهٰذا قد يكون أربع ركعات ، وقد يكون ركعتين) ، وروى ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٨) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/٢٩١) مرسلاً : « لا بد من قيام الليل ولو حلب ناقة ، ولو حلب شاة ، وما كان بعد العشاء الآخرة فهو من الليل » .

(٣) في مراعاة النصف والثلث والسدس ونحو ذلك ، وهو مختلف بين الشتاء والصيف .

بيان الليالي والأيام الفاضلة

اعلمْ : أنَّ الليالِيَ المخصوصةَ بمزيدِ الفضلِ التي يتأكَّدُ فيها استحبابُ الإحياءِ في السنةِ **خمسَ عشرةَ ليلةً** .

لا ينبغي أنْ يغفُلَ المريدُ عنها ؛ فإنَّها مواسمُ الخيراتِ ، ومظانُّ التجاراتِ .

ومتىٰ غفَلَ التاجرُ عنِ المواسمِ . . لمْ يربحْ .

ومتىٰ غفَلَ المريدُ عنْ فضائلِ الأوقاتِ . . لمْ ينجحْ .

❀ ❀ ❀

فستٌّ مِنْ هٰذهِ الليالي في شهرِ رمضانَ :

خمسٌ في أوتارِ العشرِ الأخيرِ ، إذْ فيها تطلبُ ليلةُ القدْرِ .

وليلةُ سبعَ عشرةَ مِنْ رمضانَ ، فهيَ ليلةٌ صبيحتُها يومُ الفرقانِ يومَ التقى الجمعانِ ، فيهِ كانتْ وقعةُ بدرٍ .

وقالَ ابنُ الزبيرِ رحمهُ اللهُ : هيَ ليلةُ القدْرِ[1]

❀ ❀ ❀

وأمَّا التسعُ الأُخَرُ :

فأوَّلُ ليلةٍ مِنَ المحرَّمِ[2] ، وليلةُ عاشوراءَ[3] ، وأوَّلُ ليلةٍ مِنْ رجبٍ[4] ، وليلةُ النصفِ منهُ ، وليلةُ سبعٍ وعشرينَ منهُ وهيَ ليلةُ المعراجِ ، وفيها صلاةٌ مأثورةٌ .

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للعاملِ في هٰذهِ الليلةِ حسناتُ مئةِ سنةٍ ، فمَنْ صلَّىٰ فيها اثنتي عشرةَ ركعةً ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) وسورةً مِنَ القرآنِ ، يتشهَّدُ في كلِّ ركعتينِ ويسلِّمُ في آخرهنَّ ، ثمَّ يقولُ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ مئةَ مرَّةٍ ، ثمَّ يستغفرُ اللهَ مئةَ مرَّةٍ ،

---

(١) كذا في « القوت » (٦٢/١) ، وروىٰ أنها ليلة القدر كذٰلك الطبراني في « الكبير » (١٩٨/٥) عن زيد بن الأرقم رضي الله عنه ، (٢٢١/٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) ونقل الإمام القرطبي في « تفسيره » (٣٨/٢٠) عن ابن عباس وقتادة أن فجر هٰذه الليلة هو الذي أقسم الله تعالىٰ به مطلع سورة (الفجر) . قال : (هو فجر أول يوم من المحرم ، منه تنفجر السنة) ، وهو مطلع سنة جديدة . وفي الحديث الذي رواه الترمذي (٩٨١) : « ما من حافظين رفعا إلى الله ما حفظا من ليل أو نهار ، فيجد الله من أول الصحيفة وفي آخر الصحيفة خيراً . . إلا قال الله تعالىٰ : أشهدكم أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » .

(٣) وفضل هٰذا اليوم ورد في الصحيح ، ونقل الحافظ ابن رجب في « لطائف المعارف » (ص ١١٤) عن أبي موسى المديني مرفوعاً : « هٰذا يوم تاب الله فيه علىٰ قوم ، فاجعلوه صلاة وصوماً » يعني يوم عاشوراء .

(٤) روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٧٩٢٧) والبيهقي في « الشعب » (٣٤٤٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما : (خمس ليال لا يرد فيهن الدعاء : ليلة الجمعة ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلتي العيد) . ورواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣١٩/٣) عن الشافعي بلاغاً .

ويصلّي على النبيّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مئةَ مرَّةٍ ، ويدعو لنفسِهِ بما شاءَ مِنْ أمرِ دنياهُ وآخرتِهِ ، ويصبحُ صائماً . . فإنَّ اللهَ تعالىٰ يستجيبُ دعاءَهُ كلَّهُ إلا أنْ يدعوَ في معصيةٍ »[1]

وأمَّا ليلةُ النصفِ مِن شعبانَ : ففيها مئةُ ركعةٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بعدَ (الفاتحةِ) سورةَ (الإخلاصِ) عشرَ مرَّاتٍ ، كانوا لا يتركونَها كما أوردناهُ في صلاةِ التطوُّعِ .

وليلةُ عرفةَ ، وليلتا العيدينِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحيا ليلتي العيدِ . . لمْ يمتْ قلبُهُ يومَ تموتُ القلوبُ »[2]

❀ ❀ ❀

وأمَّا الأيامُ الفاضلةُ :

فهيَ تسعةَ عشرَ ، يُستحبُّ مواصلةُ الأورادِ فيها :

يومُ عرفةَ .

ويومُ عاشوراءَ .

ويومُ سبعةٍ وعشرينَ مِنْ رجبٍ ، لهُ شرفٌ عظيمٌ ، روىٰ أبو هريرةَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صامَ يومَ سبعةٍ وعشرينَ مِنْ رجبٍ . . كتبَ اللهُ لهُ صيامَ ستينَ شهراً ، وهوَ اليومُ الذي هبطَ فيهِ جبريلُ عليهِ السلامُ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالرسالةِ »[3]

ويومُ سبعةَ عشرَ مِنْ شهرِ رمضانَ ، وهوَ يومُ وقعةِ بدرٍ .

ويومُ النصفِ مِن شعبانَ ، ويومُ الجمعةِ ، ويوما العيدينِ .

والأيامُ المعلوماتُ ؛ وهي عشْرُ ذي الحجَّةِ .

والأيامُ المعدوداتُ ؛ وهيَ أيامُ التشريقِ .

وقدْ روىٰ أنسٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا سلمَ يومُ الجمعةِ . . سلمتِ الأيامُ ، وإذا سلمَ شهرُ رمضانَ . . سلمتِ السنةُ »[4]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مَنْ أخذَ مهناهُ في الأيامِ الخمسةِ في الدنيا . . لمْ ينلْ مهناهُ في الآخرةِ)[5]

وأرادَ بهِ : العيدينِ ، والجمعةَ ، وعرفةَ ، وعاشوراءَ .

❀ ❀ ❀

---

(١) قال الحافظ العراقي : (ذكر أبو موسى المديني في كتاب « فضائل الأيام والليالي » : أن أبا محمد الخبازي رواه من طريق الحاكم أبي عبد الله من رواية محمد بن الفضل ، عن أبان ، عن أنس ، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان) . « إتحاف » (٥/٢٠٥) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٧٨٢) بلفظ : « من قام ليلتي . . . » .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/٢٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/٢٣٤) .

(٤) كذا في « القوت » (١/٦٢) عن أنس ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/١٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٤٣٤) من حديث عائشة رضي الله عنها . ويشهد لمعناه حديث طرفي الصحيفة المتقدم قريباً ، وانظر « الإتحاف » (٥/٢٠٧) .

(٥) قوت القلوب (١/٦٢) .

ومِنْ فواضلِ الأيامِ في الأسبوعِ :

يومُ الخميسِ والاثنينِ ، ترفعُ فيهما الأعمالُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ ذكرنا فضائلَ الأشهرِ والأيامِ للصيامِ في كتابِ الصومِ ، فلا حاجةَ إلى الإعادةِ ، واللهُ أعلمُ .

وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً مِنْ كلِّ العالمينَ .

❀ ❀ ❀

تمَّ كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات ، وتفصيل إحياء الليل

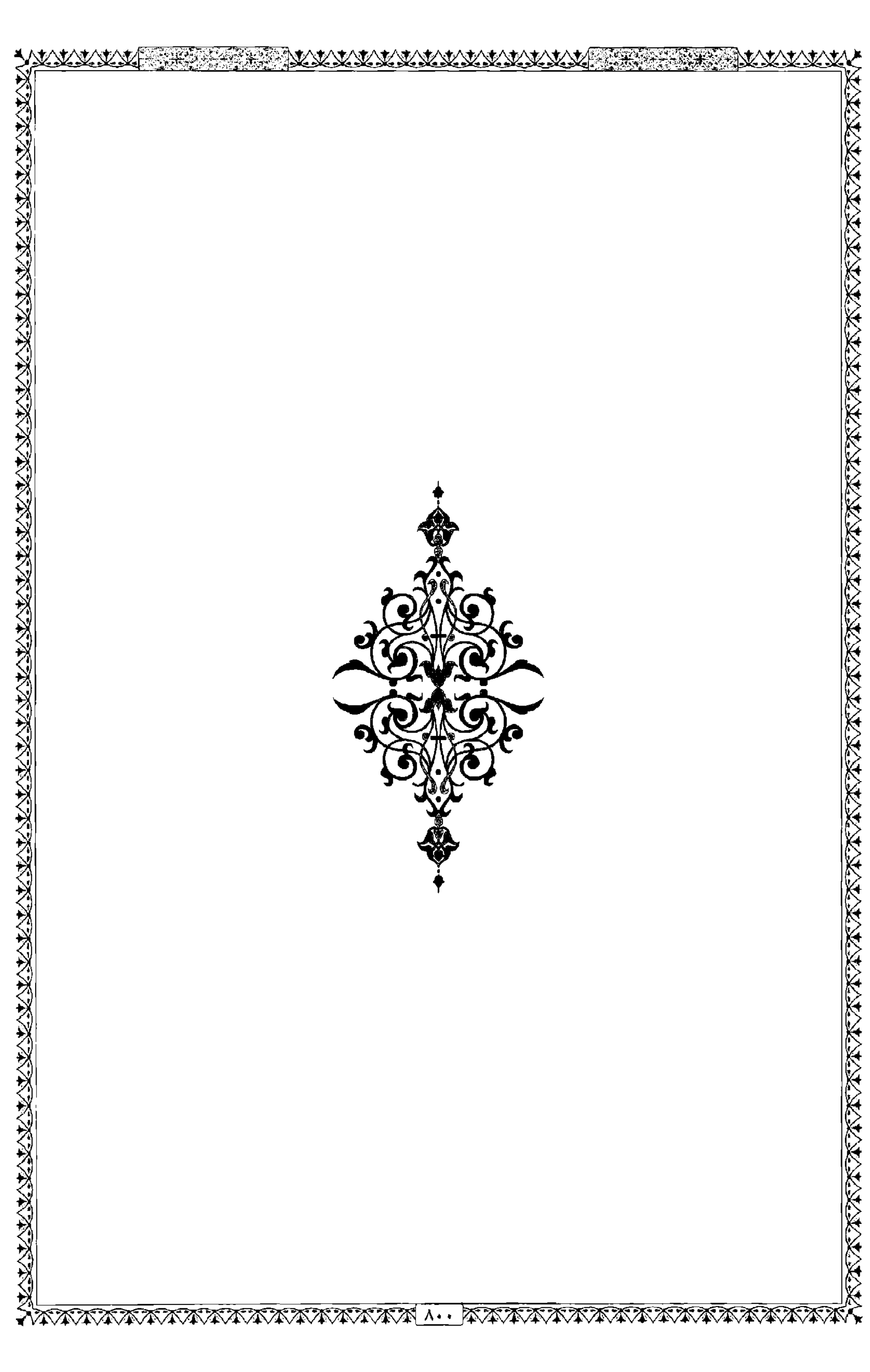
وهو آخر ربع العبادات من كتاب إحياء علوم الدِّين

بحمد الله وعونه وتأييده ونصره

وصلاته على خيرته من خلقه سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً

يتلوه ربع العادات

وهو الرُّبع الثاني من كتاب إحياء علوم الدِّين



محتوى الكتاب

ربع العبادات